مع القرآن

التقوى

وثمراتها العاجلة والآجلة

الشيخ
عبد العظيم بن بدوى الخلفى
دراسات عليا - أصول الدين
بالأزهر الشريف

قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ ﴾ [النساء / ١٣١]

فتقوى الله تعالى هى وصيّة الله للأوّلين والآخرين ، ولقد كان رسول الله ﷺ يوصى بها المسلمين عامّة فى المحافل العامّة والمجامع الكبيرة . وذات يوم وعظهم موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب ، فقالوا : يا رسول الله ، كأنها موعظة مُوَدِّع فأوصنا ، فقال ﷺ : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمّر عليكم عبد حبشىٌّ ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنّتى وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين ، عَضّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »(١) .

وكان ﷺ إذا أرسل جيشاً وأمّر عليهم أميراً وصّى الأمير فى خاصّة نفسه بتقوى الله ، ثم وصّاه بمن معه من المسلمين خيراً(٢) . وكذلك كان ﷺ يوصى بها من يطلب منه الوصية ، فوصّى بها معاذ بن جبل وأبا ذرّ ، الغفارى ، كما روى الترمذى(٣) عن أبى ذرّ جندب بن جنادة وأبى عبد الرحمن معاذ بن جبل رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ قال : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

ولقد عمل السلف الصالح رضوان الله عليهم

(١) صحيح . أبو داود (٤٥٨٣) والترمذى (٢٨١٦) وابن ماجه (٤٢) .

(٢) مسلم (١٧٣١) والترمذى (١٤٢٩) .

(٣) حسن . الترمذى (٢٠٥٣) وأحمد والبيهقى ، وله شاهد من حديث أنس ، وانظر الصحيحة (١٣٧٣) ، وصحيح الجامع (رقم ٩٧) .

بوصية الله ورسوله، وكانوا يتواصون بها فيما بينهم، يوصى الأخ أخاه، والوالدُ ولده، والجارُ جارَه.

ولقد علّق الله تعالى على التقوى خيراتٍ كثيرةً، عاجلةً وآجلةً:

فعلّق عليها حياة القلوب وتمييزها بين الحق والباطل، كما علّق عليها تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

[الأنفال / ٢٩]

وقال تعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

[الحديد / ٢٨]

وجعل الله تعالى التقوى مجلبةً للرزق ومطردةً للبلاء، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾.

[الطلاق / ٢ - ٣]

وبيّن سبحانه أن التقوى سبب لقضاء الحوائج وتيسير الأمور، فقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾.

[الطلاق / ٤]

كما أن التقوى سبب للتمكين فى الأرض، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾.

[يوسف / ٥٦ - ٥٧]

ولما آوى يوسف إليه أخاه، وجاءه إخوته يقولون: ﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ. قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ. قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

[يوسف / ٨٨ - ٩٠]

وتقوى الله هى سبب قبول الأعمال، قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾

[المائدة/ ٢٧]

وتقوى الله هى سبب دخول الجنة، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم / ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

[آل عمران / ١٣٣]

كما أن تقوى الله سبب للنجاة من المهالك فى الدنيا والآخرة، قال تعالى:

﴿ وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر / ٦١] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

[مريم / ٧١ - ٧٢]

والتقوى هى الدافع لكل خير ، والحامل على كل عمل صالح ، وهى المانع من كل شر ، والحائل بين الإنسان وبين معصية الله تعالى .

أما الدليل على أن التقوى تحمل صاحبها على طاعة الله وفعل كل ما يرضاه ، فقد جاء فى الحديث عن أبى عمرو جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : كنا فى صدر النهار عند رسول الله ﷺ فجاءه قوم عراة ، مجتابى النمار أو العباء ، متقلدى السيوف ، عامتهم بل كلهم من مضر ، فتمعّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذّن وأقام ، ثم صلّى ، ثم خطب فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ . **تصدق رجل من دينارە ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بُرّه ، من صاع تمره ، حتى قال : ولو بشق تمرة .**

فجاء رجل من الأنصار بصُرّة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس ، حتى رأيت كُومَيْن من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذهبة . فقال رسول الله ﷺ : **« من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ، ومن سنّ فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شىء[٤] ».**

وأما الدليل على أن التقوى تحول بين التقى وبين معصية الله فهو أن مريم عليها السلام لما تمثل لها جبريل بشراً سوياً ﴿ قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم / ١٨] . فقد علمت - عليها السلام - أن الرجل التقى إذا همّ بسوء ثم ذُكّر بالله رجع عما همّ به خوفاً من الله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ .

[الأعراف / ٢٠١]

وفى الحديث عن ابن

(٤) مسلم (١٠١٧) .

عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدّت عليهم الغار . فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم » . (فكان مما دعا به أحدهم) : « اللهم إنه كانت لى ابنة عمّ ، وكنت أحبّها كأشدّ ما يحب الرجال النساء ، فأردتها على نفسها فامتنعت منى ، حتى ألمت بها سَنَةٌ من السنين ، فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلّى بينى وبين نفسها . ففعلت ، فلما قعدت بين رجليها قالت : اتّق الله ولا تفضّ الخاتم إلا بحقّه ، فانصرفت عنها وهى أحبّ الناس إلىّ ، وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه » (فلما دعا الثلاثة) : انفرجت الصخرة فخرجوا يمشون »(٥) .

كما أن التقوى تمنع الإنسان أن يبخس الناس حقوقهم ، أو أن يكتمهم أماناتهم ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ﴾ ثم قال ربنا بعد ذلك : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ﴾ [البقرة/ ٢٨٢ - ٢٨٣]

وكذلك التقوى تحول بين الإنسان وبين سفك الدماء ، وإزهاق الأرواح البريئة بغير حق ، قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

[المائدة / ٢٧ - ٢٨]

وبعد هذا التفصيل نستطيع القول بأن الله خلق الخلق ليتقوه ، لأن الله يقول : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات / ٥٦] . ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة / ٢١]

فالغاية من خلق الخلق عبادة الله ، والغاية من العبادة التقوى ، فإذا جمعنا بين الغايتين استطعنا أن نقول : ما خلق الله الخلق إلا ليتقوه .

وصلّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(٥) البخارى (٣٤٦٥) ومسلم (٢٧٤٣) .

آيَةُ الكُرسِيّ

الشيخ / عبد العظيم بدوى

هذه هي آية الكرسي ، وهي آية ذات شأن عظيم ، فقد صحّ عن رسول الله ﷺ أنها أعظم آية في كتاب الله عز وجل : فعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أبا المنذر ! أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم ؟ » .

قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « يا أبا المنذر ! أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم ؟ » قال : قلت : الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم . قال : فضرب في صدري وقال : « والله ! ليهنك العلمُ أبا المنذر[1] .

وفيها اسم الله الأعظم كما في الحديث عن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب في ثلاث سور من القرآن : في (البقرة) و (آل عمران) و (طه)[2] .

أما البقرة فـ ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَا هُوَ الحَيُّ القَيُّوم ﴾ ، وأما آل عمران فـ ﴿ الم * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَا هُوَ الحَيُّ القَيُّوم ﴾ ، وأمّا طه ففي قوله تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّوم ﴾ . فاسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وأذا دُعي به أجاب هو : الحيّ القيوم ، ولذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر يقول : « يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث »[3] .

ولقد كان ﷺ يحث على قراءة هذه الآية دبر كل صلاة فيقول : « من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة

يحق لمن قرأ آية الكرسي متدبرًا .. متفهمًا أن يمتلئ قلبه من اليقين والعرفان والإيمان وأن يكون محفوظا بذلك من شرور الشيطان .

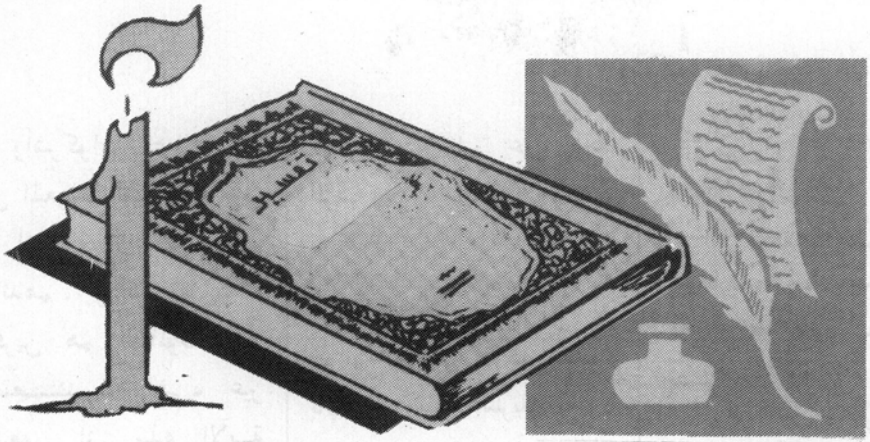

لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت »[٤] .

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ وكله بحفظ زكاة رمضان فأتاه آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذه أبو هريرة وقال : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، فشكا إليه فقراً وعيالاً فخلى سبيله . ففعل ذلك ثلاثا ، ثم قال له في الثالثة : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها . قال : ما هي ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي : ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَا هُوَ الحَيُّ القَيُّوم ﴾ حتى تختمها ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فأخبر أبو هريرة رسول الله ﷺ بما فعل أسيره ، فقال ﷺ صدقك وهو كذوب . أتعلم من تخاطب منذ ثلاث يا أبا هريرة ؟ قال : لا . قال : ذاك شيطان »[٥] .

آية الكرسي لها شأن عظيم لاشتمالها على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ، ولا مذكور أعظم من رب العزة ، فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار

قال الزمخشري : فإن قلت : لم فُضلت هذه الآية حتى ورد في فضلها ما ورد ؟ قلت : لما فُضلت له سورة الإخلاص من اشتمالها على توحيد الله تعالى وتعظيمه وتمجيده وصفاته العظمى ، ولا مذكور أعظم من رب العزة ، فما كان ذكراً له كان أفضل من سائر الأذكار[٦] .

وقال أبو حيان ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر أنه فضل بعض النبيين على بعض ، وكان تفضيل المتبوع يفهم منه تفضيل التابع ، وكانت اليهود والنصارى قد أحدثوا بعد نبيهم بدعاً في أديانهم وعقائدهم ، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يجوز عليه ، وكان رسول الله ﷺ بعث إلى الناس كافة ومنهم العرب ، وكانوا قد اتخذوا من دون الله

آلهة وأشركوا ، فصار جميع الناس المبعوث إليهم ﷺ على غير استقامة في شرائعهم وعقائدهم ، وذكر تعالى أن الكافرين هم الظالمون وهم الواضعون الشيء عير مواضعه ، أتى بهذه الآية العظيمة الدالة على إفراد الله تعالى بالوحدانية ، والمتضمنة صفاته العلا ، من الحياة والانفراد بالملك ، واستحالة كونه محلاً للحوادث ، وملكه لما في السموات والأرض وامتناع الشفاعة عنده إلا بإذنه ، وسعة علمه ، وعدم إحاطة أحد بشيء من علمه إلا بإرادته ، وباهر ما خلق من الكرسي العظيم الاتساع ، ووصفه بالمبالغة في العلو والعظمة ، إلى سائر ما تضمنته من أسمائه الحسنى وصفاته العلا فنبههم بها على العقيدة الصحيحة التي هي محض التوحيد وعلى طرح ما سواها[٧] وقد اشتملت هذه الآية على عشر جمل مستقلة ، كل جملة منها تحتاج إلى طول بيان ، ولولا مخافة السآمة لفعلنا ، ولكننا سنحاول أن نلمّ بها كلها جملة واحدة إن شاء الله تعالى ، فنقول وبالله التوفيق :

(الله) عَلَم على ذات الرب تبارك وتعالى ، ولم يسمّ به غيره .

وجملة (لا إله إلا هو) خبر عن تفرده سبحانه بالإلهية ، وأنه لا شريك له ولا ند له ، بل هو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لا إله إلا هو ، أي لا معبود بحق غيره . فهو الإله المستحق للعبادة دون ما سواه من الآلهة الباطلة .

وبهذه الكلمة أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، وخلق الجنة لأهلها ، والنار للمستكبرين عنها قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[٨] ، وقال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾[٩] .

وقال تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[١٠] .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « قال الله تعالى : يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة »[١١] .

وقوله : (الحيّ) يعني الذي له جميع معاني الحياة الكاملة من السمع والبصر والقدرة وغيرها من سائر الصفات الذاتية .

وحياة الله حياة أزلية أبدية ، لا تبدأ من مبدأ ولا تنتهي إلى نهاية ، فهو الحي الذي لا يموت ، وهو الذي يحيي ويميت ، ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾[١٢] . ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[١٣] .

(القيوم) أي : القائم بنفسه ، المستغنى عن عباده ، والقائم على كل نفس بما كسبت ، فهو سبحانه قائم

بتدبير هذا الكون وما فيه ، وهو قائم بمصالح عباده . يحفظهم ويكلؤهم ويرزقهم ، ويحصي عليهم ما يعملون من خير وشر . فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غني عنها ، ولا قوام لها بدون أمره كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾[١٤] .

(لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم) لكمال حياته وقيوميته ، لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه ، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت ، شهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه خافية ، وهذا توكيد لقيامه سبحانه على كل شيء ، وقيام كل شيء به .

والسِّنَة هي النعاس ، والنوم أقوى منها ، وهذا ترقٍّ في نفي النقص ، فمن لا تغلبه السِّنة قد يغلبه النوم ، فقال : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ .

(له ما في السموات وما في الأرض) فهم جميعاً ملكه وعبيده ، وهو المالك ذو الجلال والإكرام ، وصاحب التصرف والسلطان ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾[١٥] ، ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيْتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[١٦] . ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾[١٧] .

(من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) ؟ فالشفاعة ملكه : ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[١٨] .

ويوم القيامة يقوم الناس لرب العالمين لا يجرؤ أحد أن يسأله الشفاعة ، ولذا يقول كل نبيّ : « ربّي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، نفسي نفسي »[١٩] . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾[٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[٢١] . وقال تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾[٢٢] . وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾[٢٣] .

(يعلم ما بين أيديهم) من الأمور المستقبلية التي لا نهاية لها (وما خلفهم) من الأمور الماضية ، وهو تعبير عن العلم الشامل الكامل ، المستقصى لكل ما حولهم فهو يشمل حاضرهم الذي بين أيديهم ، ويشمل غيبهم الذي كان ومضى ، والذي سيكون وهو عنهم محجوب .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ

رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[٢٤] .

وقد أخبر الله تعالى عن إحاطة علمه بجميع الأشياء فقال :

﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَا ﴾[٢٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾[٢٦] . أما العباد فعلمهم محدود ، وهو مستمد من علم الله تعالى ، ولذا قال : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَا بِمَا شَاءَ ﴾ فكل ما إليه الإنسان من علم فهو بإذن الله ، والله هو الذي فتح له باب هذا العلم ، ولولا إذن الله له في هذا العلم لظل جاهلاً ، ومع ذلك فإن كثيرا من الناس حين يفتح لهم باب من العلم جديد ينسبونه إلى أنفسهم

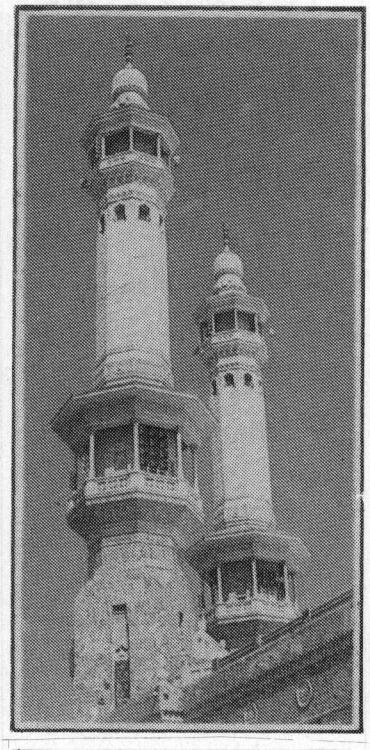

ويتكبرون على الخلق بسببه ، وينسون فضل الله وأنه الذي آتاهم هذا العلم وفتح لهم هذا الباب وينسون قول الله لهم : ﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُم صَادِقِينَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[٢٧] .

فالواجب على الناس إذا فتح لهم باب علم جديد ، أو أذن لهم في معرفة جديدة أن يذكروا فضل الله ، وأن يشكروه على ما علمهم ، وأن لا يكون هذا العلم سبيلاً إلى التكبر في الأرض بغير الحق ، فلولا الله ما أحاطوا بهذا الأمر الجديد علما ، وهم على كثرة ما وقفوا عليه من العلم لا يزال علمهم محدوداً قاصراً ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلَا ﴾[٢٨] .

(وسع كرسيه السماوات والأرض) : الكرسي موضع القدمين من العرش ، وهو بالنسبة للعرش كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهري فلاة من الأرض[٢٩] ، وهو مع هذا وسع السماوات والأرض ، فما بالنا بالعرش ؟ .

(ولا يؤوده حفظهما) أي لا يثقله ولا يكترثه حفظ السماوات والأرض ومن فيهما وما بينهما ، بل ذلك سهل عليه يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على جميع الأشياء ، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء والأشياء كلها حقيرة بين يديه ، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه ، محتاجة إليه فقيرة ، وهو الغني الحميد ، الفعال لما يريد ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو القاهرَ لكل

شيء ، الحسيب على كل شيء . (وهو العلي) بذاته على جميع مخلوقاته ، وهو العلي بعظمة صفاته ، وهو العلي الذي قهر جميع المخلوقات ، فله سبحانه العلو المطلق ، علو الذات ، وعلو القدرة وعلو القهر ، وهو : (العظيم) الجامع لصفات العظمة والكبرياء ، والمجد والبهاء ، الذي تمجده القلوب ، وتعظمه الأرواح ، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء وإن جلّت عن الصفة فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم .

وبعد :

فهذه معاني آية الكرسي ، وآية احتوت على هذه المعاني التي هي أجل المعاني ، يحق أن تكون أعظم آية ، ويحق لمن قرأها متدبراً متفهماً أن يمتلىء قلبه من اليقين والعرفان والإيمان ، وأن يكون محفوظاً بذلك من شرور الشيطان .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

---

(١) مسلم (٨١٠ / ٥٥٦ / ١) ، أبو داود (١٤٤٧ / ٣٣٤ / ٤) .

(٢) ابن ماجه (٣٨٥٦ / ١٢٦٧ / ٢) .

(٣) الترمذي (٣٥٩٣ / ٢٠١ / ٥) .

(٤) الطبري (٧٥٣٢ / ١٣٤ / ٨) .

(٥) البخاري تعليقاً (٢٣١١ / ٤٨٧ / ٤) .

(٦) الكشاف (١٥٤ / ١) .

(٧) البحر المحيط (٢٧٦ و ٢٧٧ / ٢) .

(٨) الأنبياء : ٢٥ . (٩) النحل : ٢ . (١٠) النساء : ١٧٢ . (١١) الترمذي : (٣٦٠٨ / ٢٠٨ / ٥) .

(١٢) الرحمن : ٢٦ و ٢٧ . (١٣) القصص : ٨٨ . (١٤) الروم : ٢٥ . (١٥) مريم : ٩٣ - ٩٥ .

(١٦) آل عمران : ٢٦ و ٢٧ . (١٧) الشورى : ٤٩ و ٥٠ . (١٨) الزمر : ٤٤ .

(١٩) البخاري (٤٧١٢ / ٣٩٥ / ٨) ، مسلم (١٩٤ / ١٨٤ - ١٨٦ / ١) ، الترمذي (٢٥٥١ / ٤٣ - ٤٥ / ٤) .

(٢٠) النبأ : ٣٨ . (٢١) هود : ١٠٥ . (٢٢) النجم : ٢٦ . (٢٣) الأنبياء : ٢٦ - ٢٨ . (٢٤) مريم : ٦٤ .

(٢٥) الطلاق : ١٢ . (٢٦) الأنعام : ٥٩ . (٢٧) البقرة : ٣١ و ٣٢ . (٢٨) الإسراء : ٨٥ .

(٢٩) انظر « شرح الصحاوية » (ص ٣١٢) .

جند الله يوم أحد

الشيخان : عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ يوم أُحد . ومعه رجلان يقاتلان عنه . عليهما ثياب بيض . كأشدّ القتال . ما رأيتهما قبل ولا بعد . أخرجه البخاري كتاب المغازي . وكونهما من الملائكة لقوله تعالى : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [سورة التحريم : ٤] .

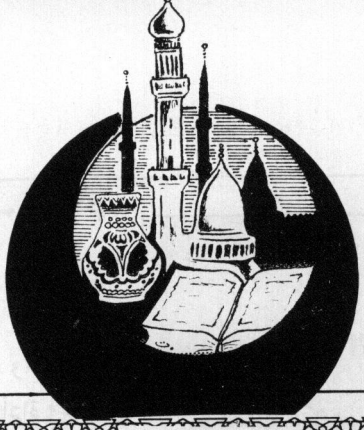

الإسلام ومستقبل الأجيال

باب التفسير الشيخ عبد العظيم بدوي

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِم ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِم فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾[1] .

شغل المستقبل بال كثير من الناس أفرادًا وجماعات ، فعقدوا الندوات والمؤتمرات لبحث سبل تأمين المستقبل ، واختلفت الآراء ، فرأى يرى ضرورة تحديد النسل واكتفاء الأسرة بولد أو ولدين ، ورأى يرى ضرورة محاربة الزواج المبكر ، ورأى يرى ضرورة التأمين على الحياة كرها ، ورأى يرى ضرورة رصد رصيد كبير في البنوك وآراء كثيرة متعددة وضعت لحل مشكلة الغد وتأمين مستقبل الأجيال ، وهذه الحلول كلها لا تسمن ولا تغنى من جوع .

فما هو الحل في الإسلام ؟

وكيف أمّن الإسلام مستقبل الأجيال ؟

إن الحل في الإسلام لهذه المشكلة قد نصّ عليه في آية واحدة ذات كلمات معدودة في سورة النساء ، وهي قوله تعالى :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِم ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِم فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾[1] .

قال ابن جرير الطبري – رحمه الله –: اختلف أهل التأويل في هذه الآية فقال بعضهم : معنى ذلك : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِن خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِم فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾ يكفيهم الله أمر ذريتهم بعدهم ، فعن الشيباني قال : كنا بالقسطنطينية أيام مسلمة بن عبد الملك وفينا ابن محيريز وابن الديلمي وهانيء بن كلثوم ، فجعلنا نتذاكر ما يكون في آخر الزمان . قال : فضقت ذرعًا بما سمعت .

قال فقلت لابن الديلمي : ياأبا بشر : بودّى أنه لا يولد لي ولد أبدًا . قال : فضرب بيده على منكبي وقال : ياابن أخي لا تفعل ، فإنه ليست من نسمة يكتب الله لها أن تخرج من صلب رجل إلا وهي خارجة إن شاء وإن أبى . قال : ألا أدلك على أمر إن أنت أدركته نجاك الله منه ، وإن تركت ولدك من بعدك حفظهم الله فيك ؟ قال : قلت : بلى . قال : فتلا عند ذلك هذه الآية : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِم ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِم فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴾[2] .

إذن هذه المشكلة مشكلة الخوف من المستقبل ليست بنت عصرنا إنما هي مشكلة قديمة . فقبل الإسلام كانت العرب تقتل الأولاد خشية الفقر . وهذا رجل مسلم يتمنى أن لا يولد له خوفًا من أن

- **مشكلة الخوف من المستقبل ليست بنت عصرها، إنما هي مشكلة قديمة.**
- **أمر الله بالتقوى لأنها سبب الفلاح والنجاح والفوز في الدنيا والآخرة.**
- **شغل المستقبل بال كثير من الناس أفراداً وجماعات فعقدوا الندوات والمؤتمرات لبحث سبل تأمين المستقبل.**

تدرك أولاده الفترة التي تكون في آخر الزمان، فينصحه ذلك الشيخ أن لا يفعل، فإنه ما من نسمة يكتب الله لها أن تخرج من صلب رجل إلا وهي خارجة إن شاء وإن أبى، وقد ورد هذا مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: إن لي جارية وهي خادمنا وسانيتنا في النخل، وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل. فقال ﷺ: «اعزل عنها إن شئت فإنه سيأتيها ما قدر لها». فلبث الرجل ما شاء الله ثم أتاه فقال: إن الجارية قد حبلت فقال: «قد أخبرتك أنه سيأتيها ماقدر لها»[٣].

إذن العزل ليس حلاً، والتنظيم ليس حلاً، والتحديد ليس حلاً، فما الحلّ؟ قال الشيخ للشيباني: ألا أدلك على أمر إن أنت أدركته نجاك الله منه، وإن تركت ولدك من بعدك حفظهم الله فيك؟ قال: بلى فتلا عليه هذه الآية:

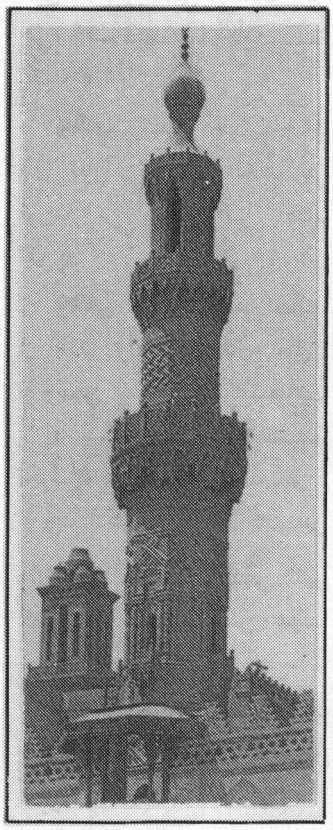

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِم .. ﴾.

فهذا هو الحل: التقوى، والقول السديد.

قال أبو حيان: انظر إلى حُسن ترتيب هذه الأوامر، حيث بدأ أولاً بالخشية التي محلها القلب، وهي الاحتراز من الشيء بمقتضى العلم، وهي الحاملة على التقوى ثم أمر بالتقوى ثانيًا، وهي متسببة عن الخشية، إذ هي جعل المرء نفسه في وقاية مما يخشاه، ثم أمر بالقول السديد وهو ما يظهر من الفعل الناشيء عن التقوى الناشئة عن الخشية، ولا يراد تخصيص القول السديد فقط بل المعنى على الفعل والقول السديدين، وإنما اقتصر على القول السديد لسهولة ذلك على الإنسان، كأنه قيل: أقلّ ما يسلك هو القول السديد[٤].

أما التقوى فهي وصية الله للأولين والآخرين. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ ﴾[٥]. والآيات في الأمر بالتقوى والحث عليها كثيرة.

وإنما أمر الله بالتقوى لأنها سبب الفلاح والنجاح والفوز

والسعادة في الدنيا والآخرة : قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ ﴾[٦] .

وهي سبب حياة القلوب وتمييزها بين الحق والباطل ، قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُم فُرْقَانًا ﴾[٧] والفرقان : هو العلم والهدى الذي فرّق به صاحبه بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والحلال والحرام .

وهي سبب الخيرات والبركات ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[٨] .

وهي مجلبة للرزق ومطردة للبلاء ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِب ﴾[٩] .

وهي سبب تيسير الأمور وقضاء الحوائج ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾[١٠] . وبها تكفر السيئات وترفع الدرجات ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِم لَهُ أَجْرًا ﴾[١١] .

وهي سبب التمكين في الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين * وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾[١٢] .

وهي سبب قبول الأعمال ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِين ﴾[١٣] .

وهي سبب رحمة الله ، قال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾[١٤] .

وهي سبب دخول الجنة ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾[١٥] .

وهي سبب النجاة من المهالك في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقُوا بِمَفَازَتِهِم لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[١٦] وقال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقُوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾[١٧] .

والتقوى هي التي تحث الإنسان على فعل الخير ، وتمنعه من فعل الشر .

أما الدليل على الأول فحديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا في صدر النهار عند النبي ﷺ فجاءه قوم عراة مجتابي النمار أو العباء متقلدي السيوف ، عامتهم بل كلّهم من مُضر ، فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذّن وأقام ، ثم صلى ، ثم خطب فقال : « ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُم رَقِيبًا ﴾[١٨] . ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَد ﴾[١٩] ، تصدّق رجل من دينار من درهمه من ثوبه من صاع بُرّه من صاع تمره حتى قال ولو بشق تمرة فجاء رجل من الأنصار بِصُرَّة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت . ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مُذْهَبة ، فقال رسول الله ﷺ : « من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليها وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »[٢٠] .

وأما الدليل على أن التقوى تمنع من فعل الشرّ فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُم طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم

مُبْصِرُون ﴾[١١] . وفي حديث الثلاثة الذين انسدّ عليهم الغار فدعا كلٌّ منهم بصالح عمله فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون ، قال أحدهم : « اللهم إنه كانت لي ابنة عمّ ، وكنت أحبها كأشدّ ما يحب الرجال النساء ، فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سَنَةٌ من السنين ، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلّي بيني وبين نفسها ففعلت ، فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفضَّ الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها وهي أحبُّ الناس إليَّ وتركت الذهب الذي أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه »[٢٢] .

كما أن التقوى تمنع الإنسان أن يبخس الناس أشياءهم أو يكتم أمانتهم ، قال تعالى : ﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَيَبْخَس مِنْهُ شَيْئًا ﴾[٢٣] . وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ ﴾[٢٤] . والتقوى تحول بين الإنسان وبين سفك الدماء ، قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[٢٥] .

هذه هي ثمرات التقوى العاجلة والآجلة ، فما هي التقوى ؟

أصل التقوى أن تجعل بينك وبين ما تخافه وتحذره شيئًا يقيك شرّه ، فالرجل منا يتّقي الحرّ والبرد بأجهزة التكييف المعروفة ، كما يتقى الجوع بالطعام والظمأ بالشراب ونحو ذلك ، فعلى المسلم أن يجعل بينه وبين ما يخافه ويحذره من غضب الله وعقابه شيئًا يقيه شرّ عذاب الله وهذا الذي يقى من عذاب الله هو تقوى الله ، والتقوى هي القيام بالواجبات وترك المحرمات ، فمن قام بما أوجب الله عليه وحَرَّم ما حرّم كان من المتقين .

أما القول السديد فهو القول الموافق للصواب أو المقارب له عند تعذر اليقين ، ويدخل فيه الذكر وقراءة القرآن ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتعلم العلم وتعليمه ، والحرص على إصابة الصواب في المسائل العلمية ، وسلوك كل طريق يوصل لذلك .

ومن القول السديد لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام ، والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصلح . ومنه قول الوصيّ لليتيم ما يقوله لولده من القول الجميل الهادي له إلى حسن الآداب ومحاسن الأفعال .

ومنه قول العائد للمريض ما يذكّره بالتوبة والنطق بالشهادة وحسن الظنّ بالله ، وما يصرفه عن الإسراف في الوصية وتضييع الورثة .

وقول الوارث لغيره عند القسمة ما يزيل وحشته ويزيد مسرته .

قال القاشاني : السداد في القول هو الصدق والصواب ، وهو مادة كل سعادة وأصل كل كمال ، لأنه من صفاء القلب ، وصفاؤه يستدعي جميع الكمالات وهو وإن كان داخلاً في التقوى لكنه أفرد بالذكر بفضيلته ، كأنه جنس برأسه .

والحمد لله أولاً وآخرًا .

---

(١) النساء : ٩ . (٢) جامع البيان (٢٧٢ / ٤) .
(٣) مسلم (١٤٣٩ / ١٠٦٤ / ٢) ، أبو داود (٢١٥٩ / ٢١٨ / ٦) .
(٤) البحر المحيط (٣/١٧٨) . (٥) النساء : ١٣١ . (٦) آل عمران : ٢٠٠ .
(٧) الأنفال : ٢٩ . (٨) الأعراف : ٩٦ . (٩) الطلاق : ٢ ، ٣ .
(١٠) الطلاق : ٤ . (١١) الطلاق : ٥ . (١٢) يوسف : ٥٦ ، ٥٧ .
(١٣) المائدة : ٢٧ . (١٤) الأعراف : ١٥٦ . (١٥) مريم : ٦٣ .
(١٦) الزمر : ٦١ . (١٧) مريم : ٧١ ، ٧٢ . (١٨) النساء : ١ .
(١٩) الحشر : ١٨ . (٢٠) مسلم (١٠١٧ / ٧٠٤ / ٢) . (٢١) الأعراف : ٢٠١ .
(٢٢) البخاري (٣٤٦٥ / ٥٠٥ / ٦) مسلم (٢٧٤٣ / ٢٠٩٩ / ٤) .
(٢٣)،(٢٤) البقرة : ٢٨٢ ، ٢٨٣ . (٢٥) المائدة : ٢٧ ، ٢٨

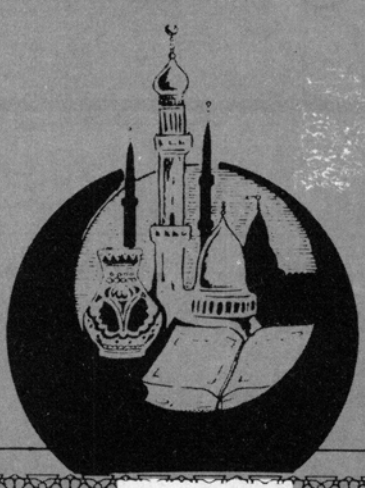

باب التفسير

وجوب الصبر والمصابرة..

بقلم

الشيخ عبد العظيم بدوي

﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ .

هذه آخر آية من سورة آل عمران ، وهي سورة تضمنت كثيرا من علوم الأصول والفروع : كالتوحيد والنبوة والمعاد ، والحج والجهاد ونحو ذلك ، ثم ختمت بهذه الآية المشتملة على جميع الآداب ، وذلك لأن أحوال الإنسان قسمان : منها ما يتعلق به وحده ومنها ما يكون مشتركا بينه وبين غيره .

أما القسم الأول فلابد فيه من الصبر ، وأما القسم الثاني فلابد فيه من المصابرة[١] . أما الصبر فخلق حميد ، وصفة من الصفات الجميلة التي يجب على كل مسلم أن يتحلى بها ، وهو من أعظم صفات الربّ عز جل ، ولولا صبر الله على عباده لعجّل لهم العذاب ، ولذا قال النبي ﷺ : « لا أحد أصبر على أذىً يسمعه من الله ، إنه يُشرك به ويُجعل له الولد ثم هو يعافيهم ويرزقهم »[٢] . والصبر من أهم صفات المرسلين ، فلقد كذبوا وأوذوا فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله . وكذلك صبر أتباعهم على دينهم ، حتى كان يؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدّه ذلك عن دينه[٣] .

ولقد ذكر الصبْر في القرآن الكريم في نحو تسعين موضعاً .

منها قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم ﴾[٤] ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾[٥] .

ولقد أمر الله المؤمنين بما أمر به نبيهم من الصبر ، ونهاهم عما نهاه عنه من الاستعجال قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٦] . وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٧] وهذا نهي عن الاستعجال لأن الوهن من عدم الصبر ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُم ﴾[٨] فإن إبطالها ترك الصبر على إتمامها .

ولقد بيّن الله تعالى أن الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة مرتبط بالصبر ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٦] . وبين أنه يضاعف للصابرين أجرهم أضعافاً كثيرة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٩] ، ولذا قال بعض السلف : ما من عمل صالح إلا وأجره معلوم إلا الصبر ، فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[٩] أي كالماء المنهمر لا ينقطع .

وبيّن سبحانه أن الصبر عُدّة يتقوى بها الإنسان على مواجهة الأعداء ، فقال تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾[١٠] . وبيّن أن الصبر جُنّة من كيد الأعداء ، فقال تعالى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَيَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾[١١] .

وبين أن الصبر سبب النصر فقال تعالى : ﴿ بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِم هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾[١٢] .

وقال النبي ﷺ : « واعلم أن النصر مع الصبر »[١٣] .

وقد جمع الله تعالى للصابرين من خصال الخير ما لم يجمعه لغيرهم ، فقال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[١٤] . وبين سبحانه أن التمكين في الأرض سببه الصبر ، فقال حكاية عن يوسف عليه السلام أنه قال لإخوته بعد أن كشف لهم عن هويته : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَيُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[١٥] .

كما بين سبحانه أن الإمامة في الدين إنما تنال بالصبر واليقين ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[١٦] . قال ابن عيينة : أخذوا برأس الأمر فجعلهم رؤساء[١٧] .

وبين سبحانه أن خصال الخير لا ينالها إلا الصابرون ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ

- اصبروا رحمكم الله على دينكم ، ولا تتركوه لسبب من الأسباب ، اصبروا على دينكم ولا تتركوه لسراء ولا لضراء ، ولا لشدة ولا لرخاء ، اصبروا على دينكم ولا تتركوه بسبب الفقر والجوع . واعلموا أن أجركم على قدر المشقة التي تصيبكم بسبب هذا الدين . وقد شبه النبي ﷺ المتمسك بدينه في آخر الزمان كالقابض على الجمر لما يجده المتمسك بدينه من المشقة والعنت والاستهزاء والسخرية .

الصَّابِرُونَ ﴾[١٨] . وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾[١٩] .

ولهذا قال النبي ﷺ : « وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر »[٢٠] . هذه هي منزلة الصبر في الدين ، وقد قال بعض السلف : إن الصبر من الدين كالرأس من الجسد ، فلا إيمان لمن لا صبر له[٢١] ، وإن كان فهو إيمان رقيق ضعيف يُخشى على صاحبه أن يفتن بأقل الفتن والعياذ بالله ، ولذا تصبّروا وسلوا الله دائماً أن يصبركم ، وادعوه كما علمكم على لسان سحرة فرعون وقد توعدهم بالعذاب على الإيمان ، فقالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾[٢٢] . واعلموا أن الصبر ثلاثة أنواع : صبر على الطاعة ، وصبر على المعصية ، وصبر على الأقدار المؤلمة[٢١] .

إن الجنة حفّت بالمكاره ، وحفّت النار بالشهوات ، والمكاره التي حفّت بها الجنة هي الطاعات ، سميت مكاره لأن النفس تكرهها لثقلها ومؤنتها . ما من طاعة إلا وهي ثقيلة على النفس ، ولن يستطيع المسلم طاعة ربه إلا إذا صبر عليها ، فإذا فقد صبره تركها ، ويظهر هذا جليّا في الصيام ، فإذا نفد صبر الصائم وغلبته شهوته ولم يصبر على الجوع والعطش ترك الصوم ، وأتى شهوته المحرمة عليه بسبب الصوم .

أما النار فقد حفت بالشهوات ، وهي المحارم التي حرّمها الله ، الزنا حرّمه الله ، ومع ذلك النفس تتمناه ، والخمر حرام والنفس تشتهي ، ولن يستطيع المسلم ترك الحرام والبعد عنه إلا بالصبر ، وقد أمر الله تعالى عباده أن يستعينوا بالصبر على كل حوائجهم دينية كانت أو دنيوية ، فقال تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾[٢٣] ، فعلى المسلم أن يوطن نفسه على الصبر على دين الله ، وعليه أن يعلم أن الطريق إلى الله شاق وحافل بالعقبات والأشواك ، ولن يقطع الطريق إلا من صبر على مشاقه وركب صعابه وهو يردد :

لأستسهلنّ الصعب أو أدرك المنى
فما انقادت الأيام إلا لصابر

ومن حدثته نفسه بالتخلي عن دينه وترك طاعة ربه فليقل لها : يا نفس اصبري فما هي إلا لحظات وتنتقلين إلى جوار ربك ، وعند الصباح يحمد القوم السرى .

أما الصبر على الأقدار المؤلمة فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾[٢٤] ، فهذه الدنيا دار الابتلاء ودار المحن والفتن ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾[٢٥] .

فعلى المسلم أن يوطن نفسه على الصبر على كل ما يأتيه من الله عز وجل ، وأن يعلم أن لله في ابتلائه حكمة ، فإن صبر كان خيرًا له ، وإن فزع وجزع فإن ذلك لا يرد من قضاء الله شيئا ، فليصبر وليحتسب وليردد : يارب

ما مسني قدرٌ بكرهٍ أو رضا
إلا اهتديت به إليك طريقا
أمض القضاء على الرضا مني به
إني علمتك في البلاء رفيقا

وعلى المسلمين أن يعلموا أن هذه الأيام هي أيام الصبر ، ما من أيام العبد فيها أحوج إلى الصبر منه في هذه الأيام ، فقد عادت للدين غربته ، كما أخبر النبي ﷺ : « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء »[٢٦] ، وقد تحقق ما أخبر به ﷺ من عودة الغربة ، فقد

غدا المعروف منكرا والمنكر معروفا ، والحق باطلا والباطل حقا ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، والحشمية رجعية والسفور تقدما ، وصُدّق الكذاب وكُذب الصادق ، وائتمن الخائن وخوّن الأمين ، ووسد الأمر إلى غير أهله ، وكثرت الفتن والمغريات ، وكثر دعاة الباطل ، وقوى داعي الهوى ، وكاد صاحب الحق يشك في نفسه : أهو وحده على الحق ؟! وكأني بالحق يناديه كما نادى رسوله من قبل : ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[٢٧] . ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٢٨] . ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[٢٩] . ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾[٣٠] .

فاصبروا - رحمكم الله - على دينكم ، ولا تتركوه لسبب من الأسباب ، اصبروا على دينكم ولا تتركوه لسراء ولا لضراء ، ولا لشدة ولا لرخاء ، اصبروا على دينكم ولا تتركوه ، بسبب الفقر والجوع ، واعلموا أن أجركم على قدر المشقة التي تصيبكم بسبب هذا الدين ، قال ﷺ : « إن من ورائكم أيام الصبر ، الصبر فيهنّ مثل القبض على الجمر ، للعامل فيهنّ مثل أجر خمسون منكم »[٣١] ، والمراد بالصبر فيهنّ الصبر على التمسك بالكتاب والسنة ، الصبر على التمسك بما كان عليه سلف الأمة ، وقد صرحت بذلك رواية أخرى ، قال ﷺ : « إن من ورائكم أيام الصبر ، للمتمسك فيهنّ يومئذٍ بما أنتم عليه أجر خمسين منكم »[٣٢] .

وهكذا شبه النبي ﷺ المتمسك بدينه في آخر الزمن بالقابض على الجمر لما يجده المتمسك بدينه في أيام الغربة من المشقة والعنت ، ولما يسمعه من الأذى والاستهزاء والسخرية .

نسأل الله أن يفرغ علينا صبرا وأن يتوفنا مسلمين .

أما المصابرة : فهي عبارة عن تحمل المكاره الواقعة بين الإنسان وغيره ويدخل فيها تحمل الأخلاق الرديئة من أهل البيت والجيران والأقارب ، ويدخل فيها ترك الانتقام ممن أساء إليك ، كما قال تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾[٣٣] . ويدخل فيها إيثار الغير ، كما قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[٣٤] .

ويدخل فيها العفو عمن ظلمك ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾[٣٥] . ويدخل فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن القائم بهما ربما لحقه ضرر بسبب أمره ونهيه .

ويدخل فيها المصابرة مع المبطلين وحلّ شكوكهم والجواب عن شبههم والاحتيال في إزالة تلك الأباطيل عن قلوبهم .

وهكذا تبين أن قوله تعالى : ﴿ اصبروا ﴾ تتناول كل ما يتعلق

• أما المصابرة فهي عبارة عن تحمل المكاره الواقعة بين الإنسان وغيره ، ويدخل فيها تحمل الأخلاق الرديئة من أهل البيت والجيران والأقارب ، ويدخل فيها ترك الانتقام ممن أساء إليك .

• قطع الشيطان على نفسه العهد ليأتين بني آدم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ليصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، وليصرفهم عن كل خير ، فوجب على كل مسلم أن يكون دائماً مستيقظاً ساهراً على حراسة قلبه .

بالإنسان وحده ، وقوله ﴿ وصابروا ﴾ تتناول كل ما كان مشتركًا بينه وبين غيره .

أما المرابطة : فهي مفاعلة من الربط وهو الشدّ ، وسمّى المرابط مرابطا لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع ، ثم قيل لكل منتظرٍ قد ربط نفسه بطاعة ينتظرها مرابط .

وعلى هذا فالذي يحرس ثغور المسلمين مرابط ، وقد ورد في فضل هذا الرباط أحاديث كثيرة منها : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله ، وأُجرى عليه رزقه ، وأمن الفتّان ﴾[٣٦] .

ومن الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة ، سواء انتظرها في المسجد أو خارجه ، فإذا صلى الصلاة وانصرف وهو عازم على إجابة المؤذن للصلاة الثانية فهو مرابط ، لأنه قد ربط نفسه للصلاة ينتظرها ، كلما نودي لها فزع إليها .

ولذا قال ﷺ : « ألا أدلكم على ما يمحوا الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطى إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط »[٣٧] .

وكما أن الرباط لزوم الثغر لئلا يهجم منه العدو فكذلك الرباط أيضاً لزوم ثغر القلب لئلا يهجم عليه العدو الألدّ وهو الشيطان فيملكه أو يفسده بالشبهات أو الشهوات .

فكل مسلم على ثغرة عظيمة وهي ثغرة القلب ، فوجب ألا يؤتى من قبلها ، ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[٣٨] .

﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾[٣٩] . ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾[٤٠] . ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾[٤١] .

ولقد قطع على نفسه العهد ليأتين بني آدم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ليصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة وليصرفهم عن كل خير ويحضهم على كل شر ، فوجب على كل مسلم أن يكون دائماً مستيقظًا ساهراً على حراسة قلبه من هذا العدو ، خشية أن يصيب منه غفلة فيملكه فلا يستطيع رده منه فيخسر خسرانا مبيناً ، قال الله تعالى في حق جماعة من بني آدم : ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[٤٢] .

---

(١) انظر « تفسير الرازي » (١٦٠ / ٩) . (٢) البخاري (٦٠٩٩ / ٥١١ / ١٠) مسلم (٢٨٠٤ / ٢١٦٠ / ٤) .
(٣) البخاري (٣٦١٢ / ٦١٨ / ٦) ، أبو داود (٢٦٣٢ / ٣٠٨ ، ٣٠٩ / ٧) .
(٤) الأحقاف : ٣٥ . (٥) القلم : ٤٨ . (٦) آل عمران : ٢٠٠ . (٧) آل عمران : ١٣٩ . (٨) محمد : ٣٣ .
(٩) الزمر : ١٠ . (١٠) البقرة : ٤٥ . (١١) آل عمران : ١٢٠ . (١٢) آل عمران : ١٢٥ .
(١٣) أحمد في « القدر » (١٢ / ١٢٦ / ١) .
(١٤) البقرة : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ . (١٥) يوسف : ٩٠ . (١٦) السجدة : ٢٤ . (١٧) تهذيب مدارج السالكين (ص ٣٥٦) .
(١٨) القصص : ٨٠ . (١٩) فصلت : ٣٤ ، ٣٥ .
(٢٠) البخاري (١٤٦٩/ ٣٣٥ / ٣) ، مسلم (١٠٥٣ / ٧٢٩ / ٢) ، أبو داود (١٦٢٨ / ٥٨ / ٥) ، الترمذي (٢٠١٣ / ٢٥٢ / ٣) .
(٢١) تهذيب مدارج السالكين (ص ٣٥٣) . (٢٢) الأعراف : ١٢٦ . (٢٣) البقرة : ٤٥ . (٢٤) البقرة : ١٥٥ .
(٢٥) العنكبوت : ٢ . (٢٦) مسلم (١٤٥ / ١٣٠ / ١) . (٢٧) الرعد : ١ . (٢٨) الزخرف : ٤٣ .
(٢٩) يوسف : ١٠٣ . (٣٠) الأنعام : ١١٦ .
(٣١) الترمذي (٥٠٥١ / ٣٢٣ / ٤) ، أبو داود (٤٣١٩ / ٤٩٣ - ٤٩٦ / ١١) ، ابن ماجه (٤٠١٤ / ١٣٣٠ / ٢) ، قال الأرناؤوط في التعليق عليه في « جامع الأصول » (٤ / ١٠) : وإسناده ضعيف ، ولكن له شواهد كفى بها . قلت : انظر « متعة الغرباء » لسلمان العودة ص ١٩٨-٢٠٢.
(٣٢) أخرجه الألباني في « الصحيحة » (٤٩٤) وقال : أخرجه ابن نصر في « السنة » ص ٩ . (٣٣) الأعراف : ١٩٩ .
(٣٤) الحشر : ٩ . (٣٥) البقرة : ٢٣٧ . (٣٦) مسلم (١٩١٣ / ١٥٢٠ / ٣) ، النسائي (٣٩ / ٦) .
(٣٧) مسلم (٢٥١ / ٢١٩ / ١) ، ت (٥١ / ٣٦ / ١) ، نس (٨٩ ، ٩٠ / ١) . (٣٨) فاطر : ٦ .
(٣٩) البقرة : ١٦٩ . (٤٠) البقرة : ٢٦٨ . (٤١) آل عمران : ١٧٥ . (٤٢) المجادلة : ١٩ .

حكمة الاستخلاف في الأرض والتفاوت في الدرجات

باب التفسير

الشيخ / عبد العظيم بدوى

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِيمَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [**الأنعام : ١٦٥**] .

هذه آخر آية من سورة الأنعام ، وقد تضمنت من الحكم والأسرار الشيء الكثير الموجب للوقوف عندها وتأملها .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [**الأنعام : ١٦٥**] الخطاب لهذه الأمة المحمدية ، أن الله تبارك وتعالى جعلهم خلفاء في الأرض بعد قرون هالكة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٣ ، ١٤] ، وكما قال النبي ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون »[1] .

والمعنى : إن ربكم الذي هو رب كل شيء ومليكه هو الذي جعلكم خلفاء في الأرض بعد قرون أهلكها بذنوبهم ، وجعل في سيرتها عبرة لغيرهم ، فلا تسلكوا سبيلهم ولا تقتفوا آثارهم ، ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء : ٣٦] ، فإنكم إن خالفتم هداه وأعرضتم عن طاعته ، وكفرتم كما كفروا ، وظلمتم كما ظلموا ، ذهب الله بكم ، وأتى بأقوام خير منكم . ولقد كثر في القرآن الكريم التهديد بالذهاب بهذه الأمة إن هي أعرضت عن هدى ربِّها وعصت رسله ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر : ١٥ - ١٧] .

وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [إبراهيم : ١٩ ، ٢٠] ، وقال عز وجل : ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٨] .

خلق الله الخلق وفاوت بينهم في القدرات والكفاءات ، فجعل القدرات مختلفة ، والكفاءات مختلفة ، والأرزاق مختلفة ، وعلى هذا الاختلاف كان السعي مختلفًا .

- **من الفقراء أهل البلاء من يظن أن هذا الفقر عنوان سخط الله - عز وجل - وأنه لو كانت له عند الله منزلة لعافاه ووسع عليه ، وقد كذبه الله في هذا الظن .**

- **على الفقير أن يصبر على قضاء الله ، وأن يحمد الله على ما آتاه ، وأن يفرح بما إليه هداه ، فإن الهدى إلى الإيمان والطاعة ، خير من الدنيا وما فيها .**

وقال عزَّ من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ مِن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [**المائدة : ٥٤**] .

فاتقوا الله عباد الله ، وأروا الله من أنفسكم خيرًا ، وأقيموا هذا الدين ولا تتفرقوا فيه ، ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْـًٔا ﴾ [**النساء : ٣٦**] ، ﴿ وَذَرُواْ ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ [**الأنعام : ١٢٠**] ، **فإن الله - تبارك وتعالى - استخلفكم في الأرض بعد قرون هالكة وجعل سيرتها لكم عبرة ، وبيَّنَ أن عذابه قريب ممن سلك مسلكهم ، ودخل مُدخلهم ، فقال سبحانه :** ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِي ٱلْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [**الفجر : ٦ - ١٤**] ، **لكل من غيَّر وبدل ،** ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ ، **لكل من أعرض عن الهدى بعد إذ جاءه ،** ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ ، **لمن خالف أمر ربه وعصى رسله .**

﴿ **وَرَفَعَ** بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ [**الزخرف : ٣٢**] ، **فمنكم الغني ومنكم الفقير ، ومنكم الصحيح ومنكم السقيم ، ومنكم المعافى ومنكم المبتلى ، ومنكم الرفيع ومنكم الوضيع ، ومنكم العالم ومنكم الجاهل ، إلى آخر هذا التفاوت الظاهر بين الناس في الأشكال والألوان ، والخلق والخُلق ، والمحاسن والمساوئ ، ولله عز وجل الحكمةُ البالغة في هذا التفاوت بين عباده . وقد أشار إلى طرف من هذه الحكمة في هذا الاختلاف والتفاوت والتباين بين خلقه ، فقال عز وجل :** ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ﴾ [**الأنعام : ١٦٥**] **أي : ليختبركم ويمتحنكم ، كما قال سبحانه :** ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [**الكهف : ٧**] .

وكما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [**هود : ٧**] ، **وقال سبحانه :** ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [**الملك : ٢**] . **وقال النبي ﷺ :** « **إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله**

مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون »[٢] .

فالناس جميعًا على تباين أقدارهم ، وتفاوت أرزاقهم ، كلهم مبتلًى فيما أوتي ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود : ٧] .

وطرف آخر من حكمة الابتلاء نصَّ عليه ربنا سبحانه في قوله : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف : ٣٢] ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾ لا لكمال في الموسع عليه ، ولا لنقص في المقتَّر عليه ، لا لكمال في الغني ، ولا لنقص في الفقير ، لا لكمال في المعافى ، ولا لنقص في المبتلى ، لا لكمال في الصحيح ، ولا لنقص في السقيم ، وإنما لحاجة التآلف والتعاون التي بها ينتظم شملهم ، وتستقيم حياتهم ، فالله سبحانه هو الذي خلق الخلق ، وجعلهم خلائف في الأرض ، وعلم سبحانه أن حياة الخلق والخلائف لا تستقيم ولا تنتظم إلا بالتفاوت بينهم في الأقدار ، والاختلاف بينهم في الأرزاق .

فلذلك خلق سبحانه الخلق وفاوت بينهم في القدرات والكفاءات ، فجعل القدرات مختلفة ، والكفاءات مختلفة ، كما أن الأرزاق مختلفة ، وعلى هذا الاختلاف كان السعي مختلفًا ، والله سبحانه وتعالى يهدي كلًا لما قدر له ، وييسره لما خلق له ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۞ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۞ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ١ - ٩] .

وتصوروا عباد الله ؟ كيف كانت تكون الحياة لو كان الناس جميعًا على درجة واحدة في الغنى والوظيفة ! ما كانت والله لتستقيم فإن الحياة لا تنتظم ولا تستقيم إلا بهذا التفاوت : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ ، فالكل محتاج إلى الكل ، والكل مسخَّر للكل ، فالغني محتاج للفقير ، والفقير محتاج للغني ، وذو الدرجة الرفيعة محتاج إلى من دونه ، ومن دونه محتاج إليه ، والطبيب مسخَّر للمريض ، والمريض مسخَّر للطبيب ، والعامل مسخَّر للمهندس ولصاحب العمل ، والمهندس مسخَّر للعامل ولصاحب العمل ، وصاحب العمل مسخَّر للمهندس والعامل على حدٍّ سواء ، فالكل محتاج للكل ، والكل مسخَّر للكل ، وليس لأحد على أحد فضل إلا بالتقوى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وبهذا التسخير تستقيم الحياة ، وينتظم الشمل ، ويقضي الناس حياتهم على ظهر هذه المعمورة على أحسن وجه ممكن ، كما أراد الله سبحانه وتعالى ، فسبحان من فاوت بين الناس في الأخلاق والأرزاق والدرجات : ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٢١] .

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى في التفاوت بين الناس واختلافهم في الأرزاق والأقدار ما نص عليه ربنا سبحانه في آية ثالثة ، في قوله عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ! أَتَصْبِرُونَ ؟ ﴾ [الفرقان : ٢٠] ، فالغني مبتلًى بالفقير ، عليه أن يواسيه ومن مال الله يؤتيه ، وعليه أن لا يسخر منه لفقره ، والفقير مبتلًى بالغني ، عليه أن لا يحسده ، وأن لا يأخذ من ماله إلا ما أعطاه ، والمعافى ممتحن بالمبتلى عليه أن يساعده ، وأن يجبه ويحترمه ولا يسخر منه ، وعلى المبتلى ألا يحسد المعافى ولا يبغضه ، فهذه حكمة الله سبحانه وتعالى في التفاوت بين الناس والاختلاف بينهم في الأقدار والأرزاق والدرجات

ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فمن الأغنياء من يعتقد أن الله سبحانه وتعالى إنما آتاه ووسع عليه لفضل له عنده ، وأن عطاءه في الدنيا دليل محبته ورضاه ، وأنه لا بد أن يؤتى في الآخرة خيرًا مما أوتي في الدنيا اقرءوا إن شئتم قول الله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف : ٣٥ ، ٣٦] ، وقد كذبه الله تبارك وتعالى في هذا الاعتقاد فقال عز وجل : ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم : ٧٨ : ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ؟ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٨] . وقال سبحانه : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم : ٤٤ ، ٤٥] . وقال النبي ﷺ : « إذا رأيت الله يعطي العبد في الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج »[٣] .

**ومن الفقراء .. أهل البلاء .. من يظن أن هذا الفقر عنوان سخط الله - عز وجل - وأنه لو كانت له عند الله منزلة لعافاه ووسع عليه ، وقد كذَّبه الله في هذا الظن ، فقال سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا ﴾ [الفجر : ١٥ - ١٧] ليس الأمر كما يظنون ، وإنما الكل مبتلًى كما شرحناه ، فعلى الغني أن يتقي الله في غناه ، وأن يشكر مولاه على ما آتاه ، وألا يفرح بزينة الحياة ، فإن الحياة الدنيا لا تستحق أن يفرح بها ، والفرح بها مذموم ، قال تعالى : ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ [الرعد : ٢٦] ، وعلى الفقير أن يصبر على قضاء الله ، وأن يحمد الله على ما آتاه وأن يفرح بما إليه هداه ، فإن الهدى إلى الإيمان والطاعة خير من الدنيا وما فيها ، ولذا قال تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ ، ثم قال سبحانه : ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] ، وقد أمر الله سبحانه بالفرح برحمته فقال : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٨] ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ لمن خالف أمره ، وعصى وسله ، ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يغفر الذنوب ، ويستر العيوب ، ويفيض من رحمته على من أناب إليه وتاب ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ [طه : ٨٢] .

وهكذا دعا الله تبارك وتعالى إليه عباده بالترهيب والترغيب ، بالترهيب مما عنده من ألوان العذاب وأشكال العقاب ، وبالترغيب فيما عنده من النعيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وكثيرًا ما يقرن الله تعالى في دعوة عبادته بين الترهيب مما عنده ، والترغيب فيما عنده ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩ ، ٥٠] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الرعد : ٦] ، وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت : ٤٣] .

وقوله سبحانه : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ [غافر : ٣] .

والحكمة في ذلك الاقتران أن يعبد الناسُ ربَّهم راجين خائفين ، راغبين راهبين ، فإن الله تعالى قد أثنى على الراغبين الراهبين ، فقال عن زكريا وآله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [**الأنبياء : ٩٠**] ، **وقال عن صالح عباده :** ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [**السجدة : ١٦**] .

وقال سبحانه : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [**الزمر : ٩**] .

وهكذا الرجاء والخوف جناحان يطير بهما المسافر إلى ربِّه ، فلا يجوز للسالك أن يأمن مكر الله ، ولا أن ييأس من روح الله فالأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام ، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة ، وقد ذمَّ اللَّهُ الأمنَ مِنْ مكره ، كما ذمَّ اليأس من رحمته ، قال سبحانه : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا القَوْمُ الخَاسِرُونَ ﴾ [**الأعراف : ٩٩**] . **وقال سبحانه :** ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا القَومُ الكَافِرُونَ ﴾ [**يوسف : ٨٧**] . **فلا يجوز لإنسان مهما اجتهد في الطاعة أن يأمن مكر الله ، ولا يجوز لمن أسرف على نفسه أن ييأس من روح الله ، بل على المسلم أن يعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، يرجو رحمة الله ، وأن يترك معصية الله ، على نور من الله ، يخشى عقاب الله .**

وهكذا تضمنت هذه الجملة الوجيزة من الآية هذا الترغيب والترهيب ، والإنذار والإعذار ، وبلغت في ذلك مبلغًا لا تمكن الزيادة عليه ، فسبحان من هذا كلامه ! و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [**الفرقان : ١**] .

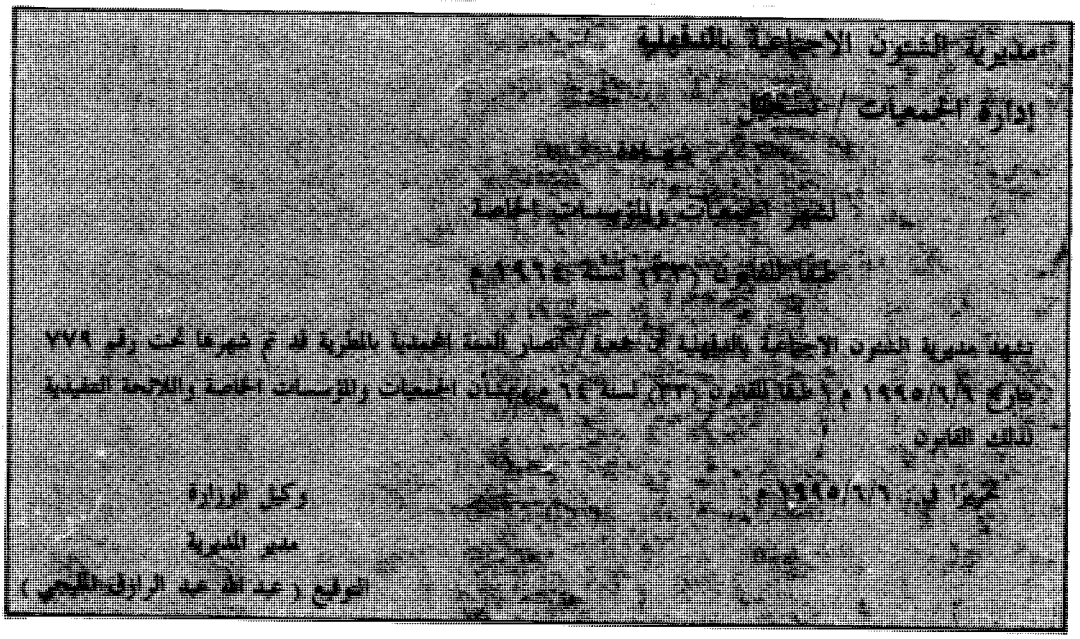

وجوب طاعة اللّه وطاعة رسوله وأولي الأمر

فضيلة الشيخ / عبد العظيم بدوي

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

[النساء : ٥٩] .

هذه آية شريفة من سورة النساء ، جمعت مفاتيح السعادة في الدنيا والآخرة ، فأمرت المسلمين بطاعة الله ورسوله ليصلح لهم دينهم الذي هو عصمة أمرهم ، ثم أمرتهم بطاعة أولي الأمر لتصلح لهم دنياهم التي فيها معاشهم ، ثم أرشدتهم إن تنازعوا في شيء فيما بينهم وبين أنفسهم ، أو تنازعوا في شيء مما بينهم وبين أولي الأمر منهم أن يردُّوا المتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة رسول الله ليقضوا على هذا التنازع الذي لو دام لأدى إلى فشلهم وذهاب دولتهم .

وهكذا جمعت هذه الآية على وجازتها وقلة ألفاظها مفاتيح السعادة في الدنيا والآخرة .

أما الأمر الأول : وهو طاعة الله ورسوله ، فقد كثر الأمر به في القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٣].

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٠].

وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [التغابن : ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [المائدة : ٩٢] .

ولقد بين الله تعالى في كتابه المبين ثمرات الطاعة له ولرسوله ؛ ليستثير الهمم لها ، ويزيد الحرص في قلوب المؤمنين عليها .

فأخبر سبحانه أن الطائعين له ولرسوله هم الفائزون ، فقال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور : ٥٢] .

والفوز هنا معناه : النجاة من النار ودخول الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

وقد صرح ربنا سبحانه بذلك فقال : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [النساء : ١٣] .

وبيَّن سبحانه أن الفائزين بالجنة من أهل طاعته يحشرون يوم القيامة مع أفضل خلقه ، فقال سبحانه : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

وبيَّن سبحانه أن أهل طاعته هم أهل رحمته ، فقال سبحانه : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢]، وقال تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة : ٧١] رحمةً تمتد ظلالها على جميع مجالات الحياة ؛ فتغمرها بالأمن والأمان ، والسِّلم والسلام ، وسعة الرزق ورغد العيش ، واستقرار البيوت وسلامة المجتمع ، رحمةً تجمعهم على قلب رجل واحد منهم ، فتنأى عنهم الخلافات والنزاعات ، رحمةً تجعلهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

وإذا كان الله تعالى أمر بطاعته وطاعة رسوله ، وبيَّن أن أهل طاعته هم الفائزون ، فإن الله تعالى قد حذَّر من معصيته ومعصية رسوله ، وبيَّن أن العصاة هم الخاسرون : ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر : ١٥] .

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الجن : ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [النساء : ١٤] .

وبيَّن سبحانه أن المعصية هي سبب هلاك السابقين ، وطردهم من

طاعة أولي الأمر ليست مطلقة ، وإنما هي مقيَّدة بطاعة الله ورسوله ﷺ ، وإذا أمروا بما هو معصية لله ورسوله ، فلا طاعة لهم ، ولعل هذا هو السِّر في عدم تكرار الأمر ، أطيعوا ، مع أولي الأمر ليكون طاعتهم في طاعة الله ورسوله فقط . فإذا كنا مأمورين بطاعة أولي الأمر من الأمراء والعلماء ، فيجب أن نعلم أن هذه الطاعة مقتصرة على المعروف ، فلا يجوز الغلو في الطاعة حتى نطيع في المعروف والمنكر ، ولا يجوز التفريط في الطاعة حتى لا نطيع في شيء ، فنحن أمة وسط في كل شيء .

رحمة الله ، فقال تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَاتُ بِٱلْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴾ [الحاقة : ٩ ، ١٠] ، والمراد من ذلك : تحذير المؤمنين أن يعصوا كما عصى من قبلهم ؛ فيأخذهم كما أخذهم ، ولذا قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَا أُوْلِي ٱلْأَلْبَابِ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾ [الطلاق :٨ - ١٠] .

وقد حذَّر الله من عصيان رسوله ، وبيَّن أن من عصاه سيندم يوم القيامة أشدَّ الندم ، ولات حين مناص ، قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٤١ ، ٤٢] .

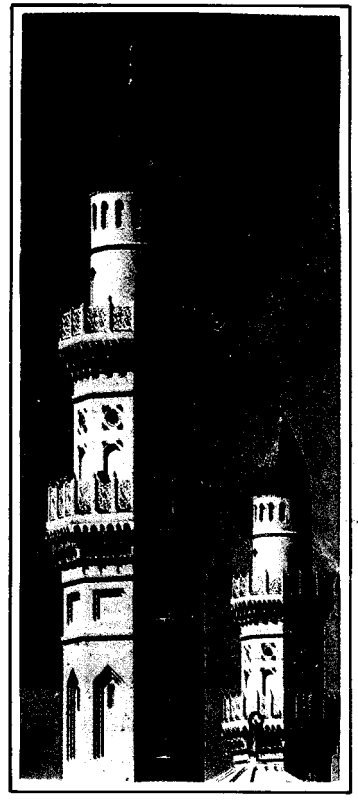

وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ ٱلشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان : ٢٧ - ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴾ [الأحزاب :٦٤ - ٦٦] .

فعليكم معشر المسلمين بطاعة الله ، وطاعة رسوله ، لا تحيدوا عنها قيد أنملة ، ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ [التحريم :٨].

أما الأمر الثاني مما أمرت به الآية الكريمة فهو طاعة أولي الأمر :

وقد اختلف أهل التأويل في أولي الأمر الذين أمر اللَّهُ عباده بطاعتهم في هذه الآية : فقال بعضهم : هم الأمراء ، واستدلوا على ذلك بأدلة : منها قولهم : إن الله تعالى أمر أوَّلًا الرعاة الولاة بأداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بالعدل ، ثم أمر الرعيَّة بطاعة أولي الأمر ، فدل السياق القرآني على أن المراد بأولي الأمر : الرعاة والولاة .

ويؤيد هذا ما جاء عن النبي ﷺ في الأمر بطاعة الولاة والأمراء ، من ذلك : قوله ﷺ : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشي ، كأن رأسه زبيبة »[1] . وقوله ﷺ : « عليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة

عليك »[٢] . وقوله ﷺ : « إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها » . قالوا : يا رسول الله ! كيف تأمر من أدرك منا ذلك ؟ قال : « تؤدون الحقَّ الذي عليكم ، وتسألون الله الذي لكم »[٣] . وقوله ﷺ : « من كره من أميره شيئًا فليصبر ، فإن من خرج من الطاعة شبرًا مات ميتة جاهلية »[٤] . وقوله ﷺ : « اتقوا الله وصلُّوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، وأطيعوا أمراءكم ، تدخلوا جنة ربكم »[٥] . وقوله ﷺ : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني »[٦] .

فهذا ما استدل به البعض على أن أولي الأمر المراد بهم : الرعاة والولاة .

وذهب بعضهم إلى أن أولي الأمر هم العلماء ، واستدلوا على ذلك بأن الله تعالى أمر بطاعة العلماء فقال : ﴿ فَسْئَلُواْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] ، وقال : ﴿ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّانِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ﴾ [المائدة : ٦٣] ، وقال : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] .

والحقيقة أن هذا القول الثاني لا يعدُّ قولًا ثانيًا في الآية ، بل هو مما يشمله لفظها . قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

(**وقد** أمر الله تعالى في كتابه بطاعته ، وطاعة رسوله ، وطاعة أولي الأمر من المؤمنين ، وأولو الأمر : أصحاب الأمر وذووه ، وهم الذين يأمرون الناس ، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل

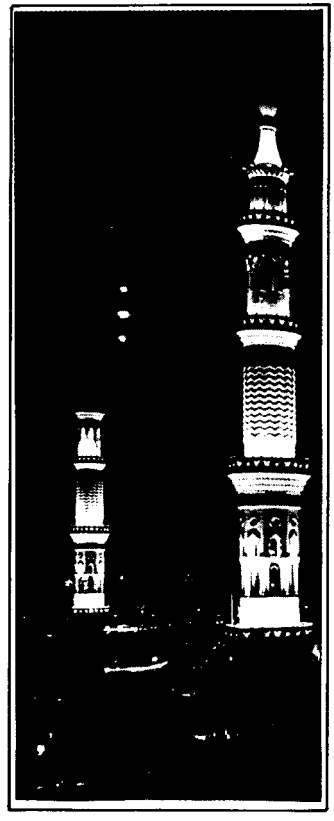

العلم ، فلهذا كان أولو الأمر قسمين : العلماء والأمراء ، فإذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس)[٧] .

إلا أن طاعة أولي الأمر ليست مطلقة ، وإنما هي مقيَّدة بطاعة الله ورسوله ، فإذا أمروا بما هو طاعة لله ورسوله أطاعوا ، وإذا أمروا بما هو معصية لله ولرسوله ، فلا طاعة لهم ، ولعل هذا هو السرُّ في عدم تكرار الفعل : « أطيعوا » مع أولي الأمر لتكون طاعتهم في طاعة الله ورسوله فقط ، وقد صرح بذلك النبي ﷺ في أحاديث ، منها : قوله ﷺ : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبَّ أو كره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[٨] .

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال : بعث النبي ﷺ سرية ، واستعمل عليهم رجلًا من الأنصار ، وأمرهم أن يطيعوه ، فغضب فقال : أليس أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى . قال : فاجمعوا حطبًا ، فجمعوا حطبًا ، قال : أوقدوا نارًا ، فأوقدوها . قال : فادخلوها . فهمُّوا ، وجعل بعضهم يمسك بعضًا ويقولون : فررنا إلى النبي ﷺ من النار ، فما زالوا حتى خمدت النار ، فسكن غضبه ، فبلغ النبي ﷺ

فقال : « لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة ، إنما الطاعة في المعروف »[٩] . وفي رواية : « لا طاعة في معصية الله ، إنما الطاعة في المعروف »[١٠] .

فإذا كنا مأمورين بطاعة أولي الأمر من الأمراء والعلماء ، فيجب أن نعلم أن هذه الطاعة مقتصرة على المعروف ، فلا يجوز الغلو في الطاعة حتى نطيع في المعروف والمنكر .

ولا يجوز التفريط في الطاعة حتى لا نطيع في شيء ، فنحن أمة وسط في كل شيء ، فسمع ونطيع لأمرائنا وعلمائنا إذا أمرونا بالمعروف ، ولا نطيع إذا أمرونا بمنكر .

إن رجالًا غالوا في علمائهم وشيوخهم حتى دانوا لهم بالسمع والطاعة في كل شيء ، حقًا كان أو باطلًا ، معروفًا كان أو منكرًا ، حلالًا كان أو حرامًا ، حتى صار شعارهم : كن بين يدي شيخك كالميِّت بين يدي المغسِّل . إذا قلت لشيخك لا ، لا تفلح أبدًا . لا تعترض فتنطرد . فسلكوا بذلك سبيل الضالين الذين قال الله فيهم : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١] .

المؤمن الحق لا يؤثر على كلمة الله شيئًا ، والمؤمن باليوم الآخر يهتم بجزاء الآخرة أشدَّ من اهتمامه بحظوظ الدنيا ، وإن كان له هوى في المسألة المتنازع عليها ، فإنه يتركه لحكم الله ابتغاء مرضات الله .

عن عَدي بن حاتم أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] ، فقال : إنهم لم يعبدوهم ، فقال : « بلى ! إنهم حرَّموا عليهم الحلال ، وأحلُّوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم »[١١] . نعوذ بالله من الخذلان ، ونسأله الهداية والتوفيق .

ولقد علم الله تعالى أنه لا بدَّ أن يكون تنازع بين المسلمين بعضهم البعض ، أو بينهم وبين أولي الأمر منهم ، فأرشدهم في الآية الكريمة إلى ضرورة المبادرة بحل الخلاف ، والقضاء على النزاع ، لأنه لو دام أدى إلى فشلهم وذهاب دولتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، وقد كان منهم مخالفة لهذا الأمر في (أحد) ، فكان فيها ما كان ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران :١٥٢] .

فواجب على المسلمين إذا تنازعوا في شيء أن يجدُّوا في القضاء عليه ، وذلك بردِّ المتنازع فيه إلى الله ورسوله أي : إلى كتاب الله ، وسنة رسوله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ١٠] ، فما حكم به الكتاب والسنة ، وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .

ولقد حضَّ الله على ذلك الردِّ فقال : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ

وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ [النساء : ٥٩].

فإن المؤمن الحق لا يُؤثر على كلمة الله شيئًا ، والمؤمن باليوم الآخر يهتم بجزاء الآخرة أشدَّ من اهتمامه بحظوظ الدنيا ، وإن كان له هوًى في المسألة المتنازع عليها ، فإنه يتركه لحكم الله ابتغاء مرضاة الله ، ومثوبته في اليوم الآخر ، وفي هذا الشرط تعريض أو دليل على أن من لا يؤثر اتباع الكتاب والسنة على أهوائه وحظوظ نفسه ، ولا سيما في مقابل المصالح العامة لا يكون مؤمنًا بالله واليوم الآخر إيمانًا يُعتدُّ به .

﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] ، هذا بيان لفائدة هذه الأحكام: أي : ذلك الذي شرعناه لكم في تأسيس حكومتكم ، وإصلاح أمركم ، أو ذلك الرد للشيء المتنازع فيه إلى الله ورسوله خير لكم في نفسه ، لأنه أقوى أساس لحكومتكم ، والله أعلم منكم بما هو خير لكم ، فلم يشرع لكم إلا ما هو خير لمصالحكم ومنافعكم ، وهو على كونه خيرًا في نفسه أحسن تأويلًا ، أي : أحسن عاقبة ، لأنه يقطع التنازع ، ويسدُّ ذرائع الفتن . ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب : ٤] .

وإلى اللقاء القادم بإذن الله ،

---

(١) البخاري (٧١٤٢/ ١٢١/ ١٣) .
(٢) مسلم (١٨٣٦/ ١٤٦٧/ ٣) ، والنسائي (١٤٠/ ٧) .
(٣) سبق قريبًا .
(٤) البخاري (٧٠٥٣/ ٥/ ١٣) ، ومسلم (١٨٤٩/ ١٤٧٨/ ٣) .
(٥) الترمذي (٦١١/ ٦٢/ ٢) .
(٦) سبق قريبًا .
(٧) في كتابه « الحسبة في الإسلام » ، كما نقله عنه القاسمي في تفسيره (٢٥٧/ ٥) .
(٨) البخاري (١٣/١٢١/٧١٤٤) ، ومسلم (٣/١٤٦٩/١٨٣٩) ، والترمذي (٣/١٢٥/١٧٥٩) ، وأبو داود (٧/٢٩٠/٢٦٠٩) ، وابن ماجه (٢/٩٥٦/٢٨٦٤) ، والنسائي (٧/١٦٠) .
(٩) البخاري (٨/٥٨/٤٣٤٠) ، ومسلم (٣/١٤٦٩/١٨٤٠) .
(١٠) البخاري (١٣/٢٣٣/٧٢٥٧) ، ومسلم (٣/١٤٦٩/١٨٤٠) ، وأبو داود (٧/٢٨٩/٢٦٠٨) ، والنسائي (١٥٩ و ٧/١٦٠) .
(١١) الترمذي (٥٠٩٣/ ٤/٣٤١) .

وعن علي رضي الله عنه قال كان رسول الله إذا قام إلى الصلاة يكبر ثم يقول بين التشهد والتسليم : « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت » رواه مسلم .

آيات الصيام

فضيلة الشيخ / عبد العظيم بدوي

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .... ﴾ [البقرة : ١٨٣] ، الآيات إلى ١٨٧ .

هذه هي آيات الصيام ، لم تُذكر في القرآن الكريم كله إلَّا في هذا الموضع . وقد استفتحت بالترغيب في هذه الفريضة قبل بيان أحكامها ، واستخدمت في الترغيب أكثر من أسلوب : من ذلك : البدء بهذا النداء الحبيب : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا۟ ﴾ [البقرة : ١٨٣] يا من صدقتم بالله ورسوله ، والكتاب الذي نُزِّل على رسوله ، يا من رضيتم بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد رسولًا ، ولا شك في أن هذا النداء الحبيب يفتح القلوب قبل الآذان ، ويحرك في النفس الرغبة والتشوف إلى معرفة ما بعد النداء ، فإنه كما قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ، فأرعه سمعك ، فإنه إما خير يأمر به ، أو شرٌّ ينهى عنه .

ومن ذلك : أن هذه الفريضة لم تفرض على المخاطبين وحدهم ، وإنما فرضت على من قبلهم ، مما يوجب التنافس والتسابق في أداء هذه الفريضة ، ليكون المخاطبون أكثر من سابقيهم حظًّا في الاستجابة والطاعة والامتثال ، فيكونوا أكثر أجرًا وأعظم ثوابًا ، قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَا ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

ومن ذلك : ذكر الحكمة العظمى من مشروعية هذه الفريضة ، وهي : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] ، وهم يعلمون أن التقوى هي سبب الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة ؛ لأنهم يقرءون : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] . ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٤] . ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق : ٥] . ويعلمون أن التقوى هي سبب النجاة من النار ، كما أنها سبب دخول الجنة ؛ لأنهم يقرءون : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟

وَنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٧١ ، ٧٢] ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم : ٦٣] ، فمن ثم تهون عليهم هذه الفريضة ، بل ويجدون فيها راحة نفوسهم ، ولذة قلوبهم .

ومن ذلك : أن هذه الفريضة : ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ [البقرة : ١٨٤] ، من : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِي أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، فلا تضر الصائم بكثرة الجوع والعطش ، ولا تحرمه ما أباح الله له من الطيبات ، وإنما هي : ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ [البقرة : ١٨٤] يتخلص فيها من ضرر فضول الطعام والشراب والوقاع ، فيصح جسمه ، ويعتدل مزاجه ، ويقهر نفسه ، ويملك زمامها . وبهذا يتضح أن الله تعالى لم يرد بهذه الفريضة أن يشق على عباده ولا أن يعذبهم ، وإنما : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

ودليل ذلك أنه سبحانه لم يجعل هذه الفريضة ضرورة حتمية من أول مرة ، وإنما بعد هذا الترغيب خيَّرهم في الصيام والفدية ، وأعلمهم أن الصيام خير من الفدية ، فقال سبحانه : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ

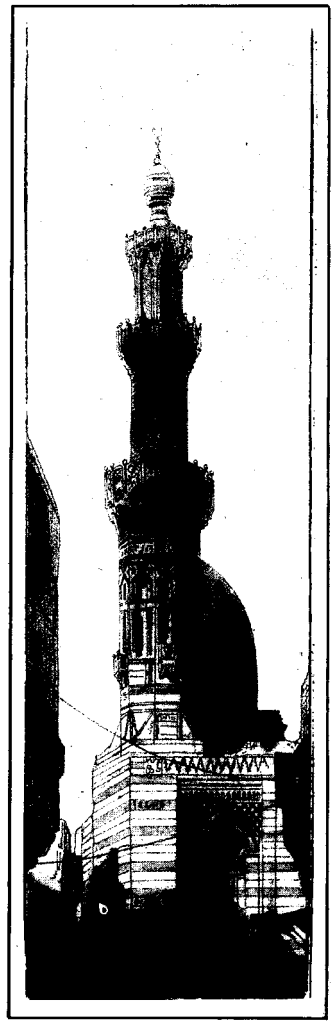

مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] ، فكان من شاء صام ، ومن شاء أفطر وأطعم . حتى إذا ألفته النفوس ، وتعودت عليه أوجب الله عليهم الصيام فقال : ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

واستثنى الله تعالى من هذا الإيجاب المسافر والمريض ومن في حكمه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة : ١٨٤] ، وهكذا أطلق ربنا سبحانه السفر كما أطلق المرض ، فالمريض أيًّا كان مرضه له حقُّ الترخص بالفطر ، والمسافر مهما كان سفره له حقُّ الترخص كذلك ، وأيهما أفضل : الفطر أم الصيام ؟ إن لم يجد المريض والمسافر مشقة بالصوم فالصوم أفضل ، وإن وجدا مشقة فالفطر أفضل :

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : كنا نغزو مع رسول الله ﷺ في رمضان ، فمنا الصائم ، ومنا المفطر ، فلا يجد الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم ، يرون أن من وجد قوة فصام ، فإن ذلك حسن ، ويرون أن من وجد ضعفًا فأفطر ، فإن ذلك حسن . رواه مسلم والترمذي .

أما الشيخ الكبير والعجوز ، والمريض مرضًا مزمنًا ، فإن لهم الفطر وعليهم الفدية : عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقرأ هذه الآية : ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾ [البقرة : ١٨٤] ، فقال ابن عباس : (ليست بمنسوخة ، هو الشيخ الكبير ،

والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فليطعما مكان كل يوم مسكينًا) . رواه البخاري .

وكذلك الحبلى والمرضع إذا لم تطيقا الصوم أو خافتا على أولادهما فلهما الفطر وعليهما الفدية ، ولا قضاء عليهما : عن ابن عباس قال : (إذا خافت الحامل على نفسها ، والمرضع على ولدها في رمضان يفطران ويطعمان مكان كل يوم مسكينًا ، ولا يقضيان صومًا) ، رواه الطبري بإسنادٍ صحيح على شرط مسلم . وعن نافع قال : (كانت بنت لابن عمر تحت رجل من قريش ، وكانت حاملًا ، فأصابها عطش في رمضان ، فأمرها ابن عمر أن تفطر وتطعم عن كل يوم مسكينًا) ، رواه الدارقطني بإسنادٍ صحيح .

وكانوا في أول الأمر إذا صلى أحدهم العشاء أو نام قبلها حرم عليهم ما يحرم على الصائم ، ولو استيقظ قبل الفجر ، فعلم الله منهم ضعفًا فخفف عنهم ، وجعل الصيام من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، فـ « إذا أقبل الليل من هٰهنا ، وأدبر النهار من هٰهنا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم » . متفق عليه . وأحل له ما كان حرم عليه حتى طلوع الفجر الثاني .

قال تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْآنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

فإذا دخل العشر الأخير من رمضان استحب الاعتكاف للمسلم ، للتفرغ للعبادة وطلبًا لليلة القدر ، التي هي خير من ألف شهر ، واقتداء برسول الله ﷺ وامتثالًا لأمره ، فعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : كان رسول الله ﷺ يجاور في العشر الأواخر من رمضان ، ويقول : « تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان » . رواه البخاري .

ولا يكون الاعتكاف إلَّا في مسجد ، ولا تصلح فيه معاشرة النساء ، ولذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

فإذا تمت عدة رمضان ، وفرح الناس بفطرهم ، وجب عليهم ذكر ربهم ، وشكره على هدايتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

عن الزهري : (أن رسول الله ﷺ كان يخرج يوم الفطر فيكبر حتى يأتي المصلى ، وحتى يقضي الصلاة ، فإذا قضى الصلاة قطع التكبير) ، رواه ابن أبي شيبة بإسنادٍ صحيح مرسلًا ، وقد روي من وجه آخر عن ابن عمر مرفوعًا ، أخرجه البيهقي .

ويستحب لمن أراد الخروج لصلاة العيد أن يفطر قبل الخروج ، فعن أنس قال : (كان رسول الله ﷺ لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات) ، رواه البخاري .

كما أن الأفضل إخراج صدقة الفطر عند الخروج إلى الصلاة – ولا تكون إلَّا طعامًا – لقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى : ١٤ ، ١٥] . فقد قيل : إنها نزلت في صدقة الفطر وصلاة العيد .

نسأل الله تعالى أن يتقبل صيامنا وقيامنا ، وأن يختم بالباقيات الصالحات أعمالنا .

والحمد لله رب العالمين .

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

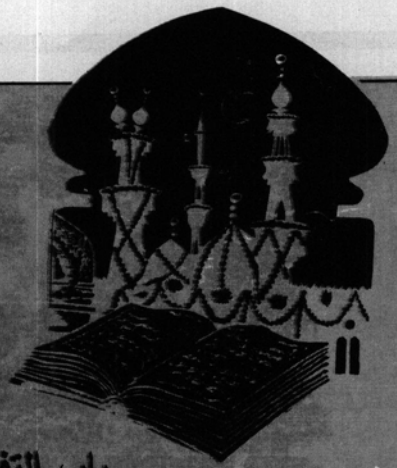

باب التفسير

الأمن والأمان

الشيخ عبد العظيم بدوى

﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء : ٣٦] .

إن الأمن والأمان من أجلّ نعم الله تبارك وتعالى ، امتن الله بها على قريش في أكثر من آية ، قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٦٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ٥٧] .

فالأمن والأمان من أجلّ نعم الله تعالى على العباد ، فيها يجد الإنسان نفسه ، ويؤدي وظيفته ، ويغدو ويروح سالمًا غانمًا ، آمنًا مطمئنًا ، ولذلك لما امتن الله تعالى على قريش بنعمة الأمن أمرهم أن يعبدوه شكرًا ، فقال سبحانه : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : ٣ ، ٤] . وفي هذا الأمر إشارة لطيفة إلى أنه في حال الأمن يتمكن الناس من عبادة الله تعالى ، وفي حال الخوف والقلق لا يتمكنون من عبادة الله ، وإن أدّوها لم يؤدوها على وجهها المشروع أصلًا ، وإنما يترخصون بما رخصه الله لهم في حال الخوف والقلق ، ولذا كانت صلاة الخوف تختلف في صفتها عن صفة الصلاة

في حال الأمن قال تعالى : ﴿ حَافِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ ۝ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨ ، ٢٣٩] .

فلما كذبت قريش رسولها ، وعصت أمر ربها ، ولم يشكروه على ما أنعم به عليهم من نعمة الأمن ، بدّل أمنهم خوفًا ، وأذاقهم لباس الجوع والخوف ، كما قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ۝ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٢ ، ١١٣] .

وبينما بدّل الله حال قريش من الأمن إلى الخوف بدّل حال الطائفة القليلة المؤمنة من الخوف إلى الأمن ، وحقق لهم وعده الذي وعدهموه في قوله سبحانه : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥] ، وامتنَّ الله على هذه العصبة المؤمنة بما حباها من نعمة الأمن ، فقال سبحانه : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَأَوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

هذه هي نعمة الأمن والأمان ، وهذه بعض آثارها ،

وإن القلب ليتقطع حسرات حين ينظر يمينًا وشمالًا في أحوال المجتمعات كلها فيجدها تتخبط في ظلمات القلق والفزع ، والخوف والفوضى والاضطراب ، ويسأل بإشفاق : ﴿ فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ ؟ [غافر : ١١] .

والجواب : نعم . إنه الإسلام ! والإسلام وحده ! الإسلام الذي سمَّاه الله سِلْمًا فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة : ٢٠٨] ، فالإسلام سِلْم وسلام ، وأمْن وأمان ، وطمأنينة ، وأُنْس وسعادة ، وإنما يتحقق الأمن والأمان بالتزام العباد ما شرع الله تعالى لهم من حقه عليهم ، وبما شرع لبعضهم على بعض من حقوق ، فإذا أدَّى العبادُ حقَّ الله ، ثم أدَّى كلٌّ منهم إلى أخيه حقه ، وغضَّ طرفه عن تقصير أخيه في حقه ، هنالك فقط يخرج العالم كلّه من هذه الفوضى ، وهذا الاضطراب ، وهذا الخوف وذلك القلق .

وهذه هي آية الحقوق ،

بدأها الله تعالى بأعظمها وهو حقه على العباد ، فقال عز وجل : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْئًا ﴾ [النساء : ٣٦] ، فحق الله على العباد أن يعبدوه لا يشركوا به شيئًا[1] ، وكثيرًا ما يأمر الله تعالى بتوحيده ، قارنًا هذا الأمر بالنهي عن الشرك به ، في مثل هذه الآية : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْئًا ﴾ [النساء : ٣٦] ، وفي مثل قوله تعالى : ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٢٢ ، ٢٣] فإذا حقق العباد حقَّ الله تعالى فوحدوه ، وأخلصوا الدين له حقق الله لهم الأمن والأمان ، والسلم والسلام ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] . لما نزلت هذه الآية شقَّت على أصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : أي رسول الله ! وأيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال ﷺ : « ليس ذاك ، أما قرأتم قول

العبد الصالح لقمان : ﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] » .

فالأمن كله في رحاب التوحيد ، والأمان كله في رحاب التوحيد ، والسلم كلُّه في رحاب التوحيد ، والسلامة كلها في رحاب التوحيد ، فوحِّدوا الله عباد الله ، وإياكم والشرك ، فإذا حققتم توحيد الله فعبدتموه وعده حقق الله وعده : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ شريطة : ﴿ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥] .

فالموحدون لهم الأمن في الدنيا ويوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۝ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١ - ١٠٣] .

﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء : ٣٦] : أعظم حق عليك - يا عبد الله بعد حق الله ورسوله حق الوالدين ، ولذلك كثيرًا ما يقرن الله تعالى الأمر بالإحسان إليهما بالأمر بتوحيده ، والنهي عن الشرك به : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء : ٣٦] . ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٢ ، ٢٣] . فأبويك أبويك !! إن كانا أحياء ففي عينيك فضعهما ، وعلى رأسك فاحملهما ، فإنك لن توفيهما ولا أحدهما حقهما أبدًا ، ولذا قال النبي ﷺ : « لا يجزي ولدٌ والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه »[٢] . ولقد جعل النبي ﷺ رضا الله في رضا الوالدين ، وسخطه في سخطهما[٣] ، ودعا ﷺ باللعنة ومعناها : الطرد من رحمة الله على من أسخط أبويه ، ففي الحديث أنه ﷺ رقى المنبر يومًا فقال : « آمين ، آمين ، آمين » ، فلما نزل قالوا : أي رسول الله ! لقد قلت شيئًا ما كنا نسمعه منك من قبل ؟ فقال ﷺ : « أتاني جبريل فقال : يا محمد من أدرك أبويه أحدهما أو كلاهما عند الكبر فلم يدخلاه الجنة ، أبعده الله ، قل : آمين ، فقلت آمين »[٤] .

فعليكم عباد الله ببر الآباء والأمهات ، ولا تقدّموا عليهم أحدًا في البرِّ كائنًا من كان .

(وبذي القربى) :

وصَّى الله تعالى بذي القربى ، وصَّى الله تعالى بصلة الرحم ، الرحم التي تقول : « أنا الرحم ! من وصلني وصله الله ، ومن قطعني قطعه الله »[٥] ، الرحم التي أخذ الله على نفسه لها العهد أن يصل من وصلها ، ويقطع من قطعها[٦] ، فصلوا أرحامكم ، وإياكم والقطيعة : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد ٢٣ ، ٢٤] ، صلوا أرحامكم ، وإياكم والقطيعة ، فإنه لا يدخل الجنة قاطع[٧] كما قال النبي ﷺ .

(واليتامى) : جمع

يتيم ، وهو من مات أبوه قبل أن يبلغ الحلم ، والإسلام يحث على رعاية اليتامى ، والإسلام يحث على كفالة اليتامى ، والإسلام يحث على برِّ اليتامى ، والإسلام يحث على الإحسان إلى اليتامى ، والإسلام يقول بلسان النبي ﷺ : « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين »[٨] .

ولقد جعل الله تعالى إهانة اليتيم ودفعه والغلظة عليه ، وعدم رحمته عنوان الكفر بالحساب والجزاء ، قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ

الذي يُكذِّبُ بالدِّينِ فذلك الذي يدُعُّ اليَتِيمَ ﴾ [الماعون : ١ ، ٢] .

(والمساكين) : جمع مسكين ، وهو من يجد ما لا يكفيه ، حث الإسلام على مساعدته ، وقضاء حاجته وإيتائه من المال ما يستغني به عن السؤال .

(والجار ذي القربي والجار الجنب) : الجار إما أن يكون قريبًا تربطك به صلة نسب وقرابة ، وإما أن يكون غريبًا لا تربطك به صلة نسب وقرابة ، وللجار حق سواء كان قريبًا أم أجنبيًا بعيدًا ، وما جاء جبريل إلى النبي ﷺ إلا وصّاه بالجار ، حتى قال ﷺ : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »[٩] .

(والصاحب بالجنب) : وهو الزوج ، الزوجة صاحب بالجنب لزوجها ، والزوج صاحب بالجنب لزوجته ، والإسلام قد فرض للأزواج حقوقًا ، أشار القرآن إليها في قوله الله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِينَ عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ، فمن منا يؤدي للمرأة حقها كاملًا ؟ ومَنْ من النساء تؤدي لزوجها حقه كاملًا ؟ نحن الرجال نحب من نسائنا أن يؤدين إلينا حقوقنا كاملة ، ولا نحب أن تقصر المرأة في شيء من حقنا أبدًا ، والنساء كذلك ، المرأة منهن تحب أن يؤدي زوجها لها حقها ، ولا تحاول أن تؤدي لزوجها حقه عليها . والواجب أن يجتهد كل من الزوجين في أداء ما عليه من حق ، وأن يغض طرْفه عن تقصير صاحبه في حقه ، فإن فعلا رفرفت أعلام الأمن والأمان ، والسلم والسلام ، والسعادة والطمأنينة على بيوتهما ، أما إذا أراد الرجل أن يأخذ حقه ، ويبخل بما عليه ، وأرادت المرأة أن تأخذ حقها ، وبخلت بما عليها ، فأنّى لأعلام الأمن والأمان أن ترفرف على هذه البيوت ؟ وأنّى لهذه البيوت أن تدفع إلى المجتمع بأفراد يسعون نحو توفير الأمن والأمان والسلامة والسلام ، وهم أنفسهم لم يتذوقوا حلاوة الأمن والأمان ، والسلامة والسلام ؟

لايجوز لنا أن نشغل أنفسنا بالدعاء على حكامنا ، وعلينا جميعاً أن لانتوهم أن الدولة المسلمة تقام بجرة قلم ولا بإصدار قرار من ملك أو رئيس

(وابن السبيل) : وهو المسافر يمر ببلدٍ ، وقد نفد ماله ، فعلى أهل البلد أن يكرموه ، وأن يحسنوا إليه ، وأن يعطوه من المال ما يبلغه بلده سالمًا غانمًا ، آمنًا مطمئنا ، لا يخاف إلا الله .

(وما ملكت أيمانكم) : من الإماء والعبيد ، من محاسن الإسلام أن شرع للذين يخدموننا حقوقًا علينا ، وأمرنا أن نطعمهم مما نطعم ، وأن نكسوهم مما نكس ، ولذلك كان أبو اليسر رضي الله عنه يسير يومًا ومعه غلامه ، على أبي اليسر ثوب ، وعلى غلامه مثله ، فقيل له : لو أخذت ثوب الغلام إلى ثوبك فصارت حُلّة ! فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أطعموهم مما تطعمون ، واكسوهم مما تكسون »[١٠] . فهل لدين من المحاسن مثل ما للإسلام من محاسن ؟!

ومن أعظم الحقوق التي لم تذكر في هذه الآية وذكرت في مواضع أخرى من القرآن الكريم حقّ الراعي والرعية ، حقّ الحاكم والمحكوم .

إن الإسلام قد جعل للشعب على الحاكم حقًّا ، كما جعل للحاكم على الشعب حقًّا ، فحق

الشعب على الحاكم أن يحكمهم بالعدل ، ولا عدل إلا في كتاب الله ، ولا عدل إلا في شرع الله عز وجل ، كما أن من حق الشعب على الحاكم أن يحمي له الضروريات الخمس : الدين ، الحياة ، العرض ، العقل ، المال ، فإذا أدى الحاكم للشعب حقه وجب على الشعب أن يؤدي للحاكم حقه ، فإن الله تعالى قد أمر الأمم بطاعة أولياء الأمور ، فقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقال النبي ﷺ : « من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني »[١١] .

ولما وعظ أصحابه يومًا موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، قالوا : يا رسول الله ! كأنها موعظة مودِّع فأوصنا ، فقال ﷺ : « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن تأمَّر عليكم عبد حبشي ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة »[١٢] .

إن الإسلام قد جعل للشعب على الحاكم حقا ، كما جعل للحاكم على الشعب حقاً ، فحق الشعب على الحاكم أن يحكمهم بالعدل ولا عدل إلا في كتاب الله

فإذا أدى الحاكم لشعبه حقه ، وأدى الشعب للحاكم حقه ، رفرفت أعلام الأمن والأمان ، والسلم والسلام ، فوق هذا الشعب ، وفوق هذه الأمة .

لكن ماذا تصنع الأمة لو قصَّر الحاكم في حقها ؟ ماذا تصنع الأمة لو لم يقم الحاكم بما أوجب الله عليه نحو شعبه وأمته ؟ وصَّانا الإسلام بالصبر ؛ عن النبي ﷺ أنه قال : « إنها ستكون أثرة وأمور تنكرونها » ، فقالوا : يا رسول الله ! فماذا تأمر من شهد منا ذلك ؟ قال : « تؤدون الذي عليكم ، وتسألون الله الذي لكم »[١٣] .

وقال ﷺ : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » ، قالوا يا رسول الله ! أفلا ننابذهم السيف ؟ قال : « لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة »[١٤] ، أي : ماداموا يأذنون لكم أن تقيموا الصلاة ، وتظهروا شعائر دينكم ، ولا يمنعونكم من الغدو إلى المساجد ، فلا تخرجوا عليهم ، ومن هنا قال الإمام الطحاوي رحمه الله في « العقيدة » التي كتبها بلسان أهل السنة والجماعة ، وعرفت بالانتساب إليه ، وسميت بـ « العقيدة الطحاوية » ، قال رحمه الله :

(**ولا نرى الخروج** على أئمتنا وولاة أمورنا ، وإن جاروا ، ولا ندعوا عليهم ، ولا ننزع يدًا من من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية)[١٥] .

فلا يجوز لنا أن نشغل أنفسنا بالدعاء على حكامنا ، فإنه قد جاء في بعض الكتب السابقة عن الله عز وجل أنه قال : « أنا الله ، مالك الملك ، قلوب الملوك بيدي ، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على ملوككم ، ولكن اعبدوني حقًا أعطفهم عليكم »[١٦] .

فعلينا جميعًا أن لا نتوهم أن

الدولة المسلمة تقام بجرَّة قلم ، ولا بإصدار قرار من ملك أو رئيس ، ولا من مجلس قيادة ، ولا من برلمان ، فهذا درب في الخيال ، ووهم بعيد ، وإنما الدولة المسلمة تقام بالصبر والتأني ، والتؤدة والطمأنينة ، وتهيئة الجو ، فكريًا واجتماعيًا ، وأخلاقيًا .

ويوم أن نكون نحن صالحين لأن يحكمنا حكام صالحون ، ويوم أن نكون نحن صالحين لإقامة الدولة المسلمة ، فَسيمنُّ الله علينا بإقامة الدولة المسلمة ، وتطبيق شرع الله ، ولكن مادمنا ظالمين ، غارقين في الشهوات ، غارقين في المعاصي ، بعيدين عن كتاب الله وسنة رسول الله ، فلنتذكر قول الله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٩] . ورحم الله من قال : (أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم ، تقم لكم على أرضكم) .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) صرَّح بذلك النبي ﷺ في حديث معاذ بن جبل ، رواه : البخاري (٦/٥٨/٢٨٥٦) ، مسلم (١/٥٨/٣٠) .
(٢) البخاري (١/٨٧/٣٢) ، مسلم (١/١١٤/١٢٤) ، الترمذي (٤/٢٢٧/٥٠٦٢) .
(٣) مسلم (٢/١١٤٨/١٥١٠) ، أبو داود (١٤/٤٦/٥١١٥) ، الترمذي (٣/٢١٠/١٩٧١) ، ابن ماجه (٢/١٢٠٧/٣٦٥٩) .
(٤) الترمذي (٣/٢٠٧/١٩٦٢) .
(٥) مسلم (٤/١٩٨١/٢٥٥٥) .
(٦) البخاري (١٠/٤١٧/٥٩٨٧) ، مسلم (٤/١٩٨٠/٢٥٥٤) .
(٧) البخاري (١٠/٤١٥/٥٩٨٤) ، مسلم (٤/١٩٨١/٢٥٥٦) ،أبو داود (٥/١١٤/١٦٨٠) ، الترمذي (٣/٢١١/١٩٧٤) .
(٨) البخاري (١٠/٤٣٦/٦٠٠٥) ، مسلم (٣/٢١٥/١٩٨٣) ، أبو داود (١٤/٦٠/٥١٢٨) .
(٩) البخاري (١٠/٤٤١/٦٠١٤) ، مسلم (٤/٢٠٢٥/٢٦٢٤) ، أبو داود (١٤/٦١/٥١٢٩) ، الترمذي (٣/٢٢٤/٢٠٠٨) ، ابن ماجه (٢/١٢١١/٣٦٧٣) .
(١٠) مسلم (٢٣٠١/٣٠٠٦ و ٤/٢٣٠٢) .
(١١) البخاري (١٣/١١١/٧١٣٧) ، مسلم (٣/١٤٦٦/١٨٣٥) ، ابن ماجه (٢/٩٥٤/٢٨٥٩) ، النسائي (٧/١٥٤) .
(١٢) أبو داود (١٢/٣٥٨/٤٥٨٣) ، الترمذي (٤/١٤٩/٢٨١٦) ، ابن ماجه (١/١٥/٤٢) .
(١٣) البخاري (١٣/٥/٧٠٥٢) ، مسلم (٣/١٤٧٢/١٨٤٣) ، الترمذي (٣/٣٢٧/٢٢٨٥) بنحوه .
(١٤) مسلم (٣/١٤٨١/١٨٥٥) .
(١٥) انظر « شرح الطحاوية » (ص ٤٢٨) .
(١٦) المصدر السابق (ص ٤٣٠) .

الحث على العمل

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

هذه آية جامعة من سورة التوبة ، جمعت بين الترغيب والترهيب ، كما جمعت مسائل أصولية كثيرة .

فالله تعالى يأمر نبيه ﷺ أن يقول للناس : ﴿ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ . والرؤية هنا بصرية لا علمية ، فإن الرؤية تطلق ويراد بها العلم ، وتطلق ويراد بها الإبصار . فمن الأول قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ [الفجر : ٦] . فالرؤية هنا علمية ، لأنه يستحيل كونها بصرية ، لأن النبي ﷺ وُلد بعد عاد بقرون ، ومن الثاني قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران : ٢٣] . أي : ألا تنظر وتعجب ، لأنهم حوله ، والنظر عليهم ممكن .

ويدل على أن الرؤية هنا بصرية قوله تعالى : ﴿ اعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت : ٤٠] .

فالله تعالى مطلع على كل شيء وناظر إليه ، قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٧ - ٢١٩] ، وقال تعالى : ﴿ وما تكُونُ في شأنٍ وما تتْلوا منْهُ من قُرءانٍ ولا تعْملُون منْ عملٍ إلّا كُنّا عليْكُمْ شُهُودا إذْ تُفيضُون فيه وما يعْزُبُ عن رَبّك من مّثْقال ذرّةٍ في الأرْض ولا في السّماء ولا أصْغر من ذلك ولا أكْبر إلّا في كتاب

مُبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١] ، فما يجب اعتقاده في حق الله عز وجل من الصفات : صفة البصر ، فإن الإله لا يكون إلا بصيرًا ، ولهذا أنكر الله تعالى على المشركين عبادتهم الأوثان والأصنام ، وكان من جملة ما أنكره عليهم قوله : ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ؟ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ؟ ﴾ [الأعراف : ١٩٥] ، كما أنكر الخليل إبراهيم عليه السلام على قومه عبادة الأوثان لنفس السبب ، فقال لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ؟ ﴾ [مريم : ٤٢] ، فمن أنكر صفة البصر ونفاها عن الله عزَّ وجلَّ فقد كفر ، ولذا قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت : ١٩ –

وقال بعض السلف : أوحى الله تعالى إلى نبيٍّ من الأنبياء : قل لقومك : ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي وتظهرونها لي ، إن كنتم ترون أني لا أراكم فأنتم مشركون بي ، وإن كنتم ترون أني أراكم فلم تجعلوني أهون الناظرين إليكم[1] .

والمقصود من ذلك أنه متى علم العبد أن الله يرى عمله وينظر إليه ويطلع عليه وجب عليه أن يراقبه في جميع أعماله ، فيخلص له النية ، ويقف عند حدوده الشرعية ، ولذا قال النبي ﷺ في تعريف الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[2] . فلو قُدِّر أن العبد قام إلى العبادة وهو يعاين ربه سبحانه وينظر إليه لم يترك شيئًا مما يقدر عليه من الخشوع والخضوع والسمت الحسن واجتماع ظاهره وباطنه إلا أتى به ، لأنه يرى الله وينظر إليه ، فأراد النبي ﷺ من المسلم أن يعبد الله في جميع أحوال عبادته في حال المعاينة ، فإن الله ناظر إليه وإن لم ينظر هو إلى الله ، والله مطلع عليه وإن لم يطلع هو على الله عز وجل .

ومما لا شك فيه أن رؤية الله تعالى لا تقتصر على رؤية ما ظهر دون ما بطن ، بل تمتد إلى باطن الإنسان ، فباطنه وظاهره بالنسبة

بقلم
فضيلة الشيخ
عبد العظيم بدوي

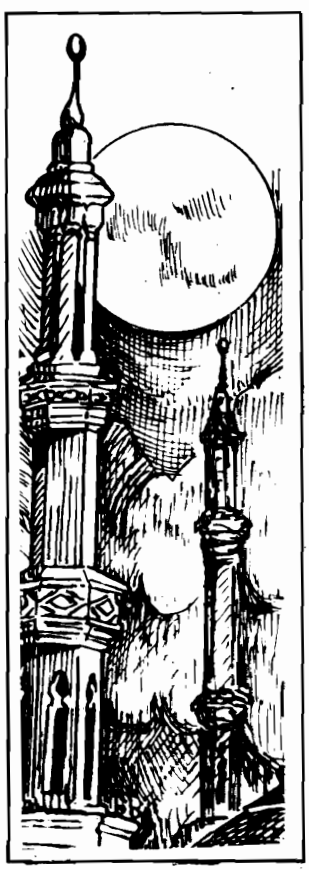

لرؤية الله سواء، قال تعالى: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ألا يعلم من خلق وهو ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٣ ، ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [هود : ٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق : ١٦] .

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] ؛ لأن المؤمنين شهداء الله في الأرض ويوم القيامة ، فمن شهدوا له بخير فله الجنة ، ومن شهدوا عليه بشرٍّ فله النار ، والرسول ﷺ يشهد على شهادتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : مُرَّ على النبي ﷺ بجنازة فأُثني عليها خيرًا ، فقال ﷺ : « وجبت ، وجبت ، وجبت » . ومُرّ بجنازة فأُثني عليها شرًا ، فقال ﷺ : « وجبت ، وجبت ، وجبت » . فقال عمر : فدى لك

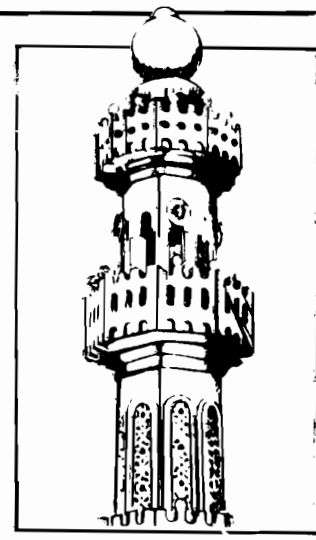

أبي وأمي ، ما وجبت ؟ فقال ﷺ : « من أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنة ، ومن أثنيتم عليه شرًا وجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض ، أنتم شهداء الله في الأرض »[٣] .

وهذه الآية تفسير لقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم : ٣٦ - ٤٠] أي : يراه الله ورسوله والمؤمنون .

فهنيئًا لمن رؤي عمله في صورة حسنة ، ويا لفضيحة من رؤي عمله في صورة سيئة ، فإن الأعمال تنقلب أجسامًا بعد الموت ، كما في حديث البراء بن عازب[٤] في وصف توفّي الملائكة المؤمنين والكافرين ، فإن فيه قول النبي ﷺ في حق المؤمن : « ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيّب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرّك ، أبشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح » .

وقال النبي ﷺ في حق الكافر : « ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : وأنت فبشّرك الله بالشرّ من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر ، فيقول : أنا عملك الخبيث » .

فيا لها من فضيحة ﴿ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق : ٩] ، ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ؟ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ [العاديات : ٩ - ١١] .

فهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] ، « وهو ترغيب عظيم للمطيعين ، وترهيب عظيم للمذنبين ، فكأنه تعالى يقول :

اجتهدوا في العمل ، فإن لعملكم في الدنيا حُكمًا وفي الآخرة حُكمًا ، أما حُكمه في الدنيا فهو أن يراه الله والرسول والمؤمنون ، فإن كان طاعة حصل منه الثناء العظيم والثواب الجزيل في الدنيا والآخرة ، وإن كان معصية حصل منه الذمّ العظيم في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة ، وهكذا ثبت أن هذه اللفظة الواحدة قد جمعت ما يحتاج إليه المرء في دينه ودنياه ، ومعاشه ومعاده »[٥].

قال الفخر الرازي : « فإن قيل : فما الفائدة من ذكر الرسول والمؤمنين بعد ذكر الله في أنهم يرون الأعمال ؟ فالجواب : أن أجدر ما يدعو المرء إلى العمل الصالح ما يحصل له من المدح والتعظيم والعزّ الذي يتحقق عند ذلك ، فإذا علم أنه إذا فعل ذلك الفعل عظّمه الرسول والمؤمنون ، عظم فرحُه بذلك وقويت رغبته فيه . ومما نبّه على هذه الدقيقة أنه إذا ذكر رؤية الله أولًا ، ثم ذكر عقبها رؤية الرسول والمؤمنين فكأنه قيل : إن كنت من المحقين المحققين في عبودية الحق فاعمل الأعمال الصالحة لله تعالى ، وإن كنت من الضعفاء المشغولين بثناء الخلق فاعمل الأعمال الصالحة لتفوز بثناء أشرف الخلق وأفضلهم وهو الرسول والمؤمنون »[٦].

وقوله تعالى : ﴿ وستُرَدُّون إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] قد تضمنت هذه الجملة ثلاثة أمور :

الاول : أنه لا بدَّ من ردّ العباد إلى الله .

الثاني : أن الله عالم الغيب والشهادة .

الثالث : إنباء الله العباد بما كانوا يعملون .

أما الأول وهو ضرورة ردّ العباد إلى الله فقد أكدّه الله تعالى في مواضع من كتابه : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الأنعام : ١٢] ، ﴿ ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [النساء : ٨٧] ، وقد أقسم الله على ذلك فقال : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَاطِينَ ﴾ [مريم : ٦٨] ، وأمر النبي ﷺ أن يقسم عليه فقال : ﴿ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ؟ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [يونس : ٥٣] ، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾

هنيئًا لمن رؤى عمله في صورة حسنة ، ويالفضيحة من رؤى عمله في صورة سيئة فإن الأعمال تنقلب أجسامًا بعد الموت .

[سبإ : ٣] ، ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن : ٧] .

وأنكر على الذين استبعدوا البعث وحكم عليهم بأقسى العقوبات ، فقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦] ، ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الرعد : ٥] .

أما الأمر الثاني وهو كونه سبحانه عالم الغيب والشهادة فقد تكرر وصفه سبحانه بذلك في مواضع من كتابه :

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الحشر : ٢٢] ، ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾ [الرعد : ٨ ، ٩] ،

وأما الأمر الثالث وهو إنباء العباد بما كانوا يعملون ، فقد تكرر أيضًا في مواضع : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة : ٧] ، ﴿ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان : ١٥] ، ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة : ٨] .

وقد بيَّن النبي ﷺ صفة الإنباء فقال : « إن الله يُدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أي ربِّ . حتى إذا قرَّره بذنوبه ورأى في نفسه أنه هلك قال : سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته »[٨]

وعن أنس رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال : « هل تدرون مم أضحك ؟ » ، قال : قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « من مخاطبة العبد ربَّه . يقول : يا رب ! ألم تُجرني من الظلم ؟ قال : يقول : بلى . قال : فيقول : فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني . قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا . وبالكرام الكاتبين شهودًا . قال : فيُختم على فيه . فيقال لأركانه انطقي . قال : فتنطق بأعماله . قال : ثم يخلَّى بينه وبين الكلام . قال : فيقول : بُعدًا لكنَّ وسُحقًا . فعنكن كنت أناضل »[٩] . نسأل الله السلامة والعافية

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص١٤٠) .

(٢) مسلم (١/٣٦/٨) ، الترمذي (٤/١١٩/٢٧٣٨) ، النسائي (٨/٩٧) ، أبو داود (١٢/٤٥٩/٢٦٧٠) ، ابن ماجه (١/٢٤/٦٣) .

(٣) مسلم (٢/٦٥٥/٩٤٩) واللفظ له ، البخاري (٣/٢٢٨/١٣٦٧) ، النسائي (٤٩ و ٤/٥٠) ، الترمذي (٢/٢٦١/١٠٦٤) ، ابن ماجه (١/٤٧٨/١٤٩١) .

(٤) أحمد (٧/٧٤/٥٣) .

(٥) « التفسير الكبير » (١٦/١٩٢) .

(٦) « التفسير الكبير » (١٩٣ و ١٦/١٩٤) .

(٧) البخاري (٥/٩٦/٢٤٤١) ، مسلم (٤/٢١٢٠/٢٧٦٨) .

(٨) مسلم (٤/٢٢٨٠/٢٩٦٩) .

بقلم فضيلة الشيخ
عبد العظيم بدوي

هم العدو

فاحذرهم

لم يخلق الله سبحانه وتعالى خلقاً أشد بغضاً وعداوة للمسلمين بل للناس أجمعين من اليهود ، إنهم أحرص الناس على إثارة الأحقاد وإيقاد نار الحروب بين الأمم والشعوب ، ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة : ٦٤) .

لذلك حذرنا الله منهم بقوله : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ (المائدة : ٨٢) .

وفي معاركنا المستمرة مع هؤلاء اليهود أشد الناس عداوة لنا لابدَّ أن نتعرف على طبيعتهم وأخلاقهم وسلوكهم حتى نواجههم بما يستحقون .

ومن أهم أسباب النصر على العدو أن نكون من أحواله على بينة ومن تصرفاته على حذر ونحن في سبيل ذلك لن نذهب بعيداً عن القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه تنزيل من حكيم حميد : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطر : ١٤) .

فماذا يقول عنهم القرآن الكريم وبماذا يصفهم ؟

إنه يصفهم بأقبح الصفات ويصورهم في أشنع الحالات حتى إنه ليجعلهم كالقردة والخنازير وهي أنجس المخلوقات يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ؟ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ (المائدة : ٦٠) .

وذلك بسبب عصيانهم لله وتعديهم لحدود الله قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ (البقرة: ٦٥).

ومن هذه الصفات التي وصفهم الله بها في القرآن الكريم :

١ ـ الغرور والتعالي على غيرهم فزعموا أنهم شعب الله المختار وأنهم أبناء الله وأحباؤه وأن الدار الآخرة لهم خالصة من دون الناس قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَقالتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُه قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾ الآية .. (المائدة : ١٨) ، وقال الله لهم : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : ٩٥) .

٢ ـ استباحة أموال غيرهم وإهدار دمائهم قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْه بِدِينَارٍ لاَيُؤَدِّه إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران : ٧٥) .. والأميون ماعداهم من جميع الناس .

٣ ـ نقضهم للعهود والمواثيق وخيانتهم وغدرهم إلى حد قتلهم لأنبياء الله وبذلك استحقوا لعنة الله وغضبه قال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَتَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ ﴾ (المائدة : ١٣) وقال تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾ (البقرة : ١٠٠) .

ولعدم احترامهم للعهود والمواثيق جعلهم الله شرًّا من الدواب فقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَيُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ ﴾ (الأنفال : ٥٥ ، ٥٦) .

٤ ـ حقدهم على غيرهم وحسدهم لهم إذا أتاهم الله شيئاً من فضله يقول الله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (البقرة : ١٠٩ ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً ﴾ (النساء : ٥٥) المراد بالناس هنا العرب حيث بعث النبي ﷺ منهم ولم يكن من اليهود فحسدوهم من أجل ذلك .

٥ ـ تشويههم للحقائق وإلباسهم الحق بالباطل حرصاً على المناصب وابتزازاً للأموال . قال الله تعالى : ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ۝ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران : ٧٠ ، ٧١ ، وقد قال الله لهم : (وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ ۝ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٤١ ، ٤٢) وقال تعالى للمؤمنين عنهم : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوه وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٧٥) وهذه الآيات تعني أول ما تعني اليهود .

٦ ـ شهادتهم الزور حتى فيما يتعلق بحقائق الإيمان ، فقد شهدوا للمشركين الوثنيين بأنهم أهدى سبيلاً من المسلمين الموحدين حين جاءوا يسألونهم عن رسول الله ﷺ ومن آمن به ، وسجل الله عليهم هذه الشهادة الآثمة في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾ (النساء : ٥١ ، ٥٢) ، وهذا يفسر لنا تعاونهم تارة مع الصليبيين - الذين كفروا برسولهم وهموا بقتله - وتارة مع الشيوعيين الملحدين ، ضد المسلمين للعداء القديم لهم والحقد الدفين عليهم .

٧ ـ تطاولهم على الله عز وجل ووصفهم إياه سبحانه - بما ليس من صفاته - فمرة يقولون : إنه فقير ، ومرة يقولون : إنه بخيل ، وأخرى يكذبون عليه فيقولون : إنه لا يعذبهم إلا أياماً معدودة وهكذا .

● ففي الوصف الأول يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذين قالُوا إنَّ اللهَ فَقِيْرٌ وَنحْنُ أَغْنِيَاءُ سنكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ونَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (آل عمران : ١٨١) .

● وعن الثاني يقول الله تعالى : ﴿ وقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يداهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (المائدة : ٦٤) .

● وعن كذبهم على الله يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ على اللَّهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ٨٠) .

٨ ـ لم تقتصر عداوتهم على أهل الأرض وإنما تعدتهم إلى أهل السماء ، فقد عادوا جبريل عليه السلام واتهموه بأنه لا يحب لهم الخير ، ولذلك فهم يكرهونه ، ولا يؤمنون بما يتنزل به على رسول الله ﷺ من قرآن ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهُ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة : ٩٧ ، ٩٨) .

٩ ـ قسوة قلوبهم وإعراضهم عن قبول الحق رغم ظهور الآيات لهم : قال الله تعالى : ﴿ ... وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلكُمْ تَعْقِلُونَ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكم مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ...) (البقرة : ٧٤) وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَانَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَيَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الحديد : ١٦) .

١٠ ـ جبنهم الشديد وخوفهم الأكيد من المؤمنين الذين صدقوا مع الله رغم كل ما تقدم لهم من صفات وما سبق من ادعاءات قال الله تعالى : ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَيَفْقَهُونَ ۝ لاَيُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَيَعْقِلُونَ ﴾ (الحشر : ١٣ ، ١٤) .

هذه أيها المسلمون : بعض طبائع اليهود الخبيثة وصفاتهم القبيحة كما جاءت في القرآن الكريم الذي لا ينطق إلا بالحق ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً ﴾ (النساء : ٨٧) . أردتُ أن أذكركم بها حكاماً وشعوباً ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات : ٥٥) ، حتى تنتبهوا لزيف القول ومعسول الكلام والدعايات المغرضة التي تُطلقها أبواق وسائل الإعلام المشبوهة ، ومن كان في شك من ذلك فهو في شك من كتاب الله فليجدد إيمانه بربه وتصديقه بكتابه ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك : ١٤) بلى إن الله كان عليماً خبيراً ﴿ وَاللهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيراً ﴾ (النساء : ٤٥) .

والله تعالى يقول وقوله الحق : ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ .. ﴾ (البقرة : ١٢٠) .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (المنافقون : ٤) .

فهل نحن أعلم أم الله ؟ وما يذكر إلا أولوا الألباب .

عبد اللطيف محمد بدر

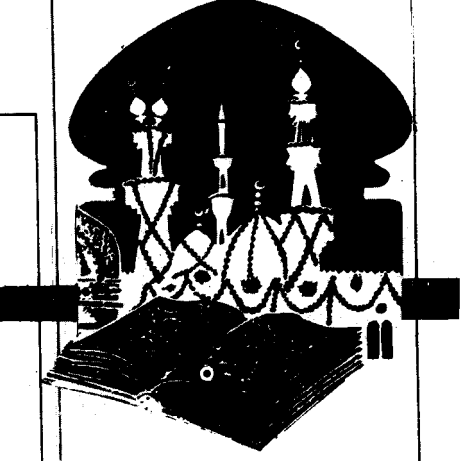

من أصول الدعوة إلى الله

بقلم
فضيلة الشيخ
عبد العظيم بدوي

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥].

هذه آية من كتاب الله عز وجل، من سورة الشورى، اشتملت على عشر كلمات مستقلات، كل منها منفصلة عن التي قبلها، حكمٌ برأسها، قالوا: ولا نظير لها في القرآن الكريم سوى آية الكرسيّ، فإنها أيضًا عشر فصول كهذه.

وهي متعلقة بما قبلها من الآيات، وهى قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ الآيات [الشورى:١٣] ثم قال: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ ﴾ فأخبر الله سبحانه أن الدين الذي شرعه واحد، وأن الناس اختلفوا فيه مع أنه يقتضي الاتفاق لا الاختلاف، فلذلك الدين الذي شرعه الله لك ولإخوانك من المرسلين، ابتداء بنوح، وانتهاء بك، ادع الناس، فإن الدعوة لا تكون إلا إلى الله، أو إلى سبيل الله، أو إلى دين الله.

ويحتمل أن يكون المعنى: فلأجل ما ذكر من الفرقة والشك المريب ادع الناس إلى إقامة الدين للقضاء على هذا الخلاف، وتلك الفرقة، فإن الدعوة إلى دين الله هي التي تزيل الخلاف والفرقة، وتجمع شمل الأمة، كما فعلت الدعوة بالأوس والخزرج، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ لا كما تهوى، استقامة موافقة لأمر الله، لا تفريط ولا إفراط، ولا غلو ولا تقصير، بل استقامة على صراط الله كما أراد الله، وهذا يشمل فعل الطاعات كلها الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك. وهكذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره

بالدعوة إلى ذلك. ومن المعلوم أن أمر النبي ﷺ أمر لأمته إذا لم يرد ما يخصصه بذلك الأمر.

ومعنى ذلك أنه يجب على العبد أن يعلم أن كمال نجاته متوقف على تكميل نفسه بالاستقامة، والسعي في تكميل غيره بالدعوة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾ فكملوا أنفسهم ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣] لتكميل غيرهم.

كما أن الأمر بالاستقامة عقب الأمر بالدعوة فيه إشارة إلى أنه لا يليق بالداعي أن يسعى في تكميل غيره وينسى نفسه، فإن هذا لا يليق به، لأن الله ذمّ عليه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]. وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه، فيدور حولها كما يدور الحمار في الرحى، فيأتيه الناس فيقولون: يا فلان ما لك؟! ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟! فيقول: كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»[1].

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهواء المنحرفين عن الدين من الكفرة والمنافقين إما باتباعهم على بعض ما هم عليه، أو بترك الدعوة إلى الله عز وجل، أو بترك الاستقامة فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم كنت من الظالمين.

فإن اتباع الهوى ظلم عظيم وضلال مبين، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ القصص: ٥٠].

ولقد كثر في القرآن الكريم النهي عن اتباع الهوى وأهله، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

قال الشعبي: إنما سُمي الهوى هوًى، لأنه يهوي بصاحبه في النار. وقال ابن عباس: ما ذكر الله الهوى في كتابه إلا ذمّه.

ولقد ضرب الله تعالى لأهل الهوى مثل السوء، فقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

فإياك يا عبد الله واتباع الهوى فإنه أعدى أعدائك، كما قال القائل:

إني ابتليت بأربع ما سلطوا
إلا لشدّة شقوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى
كيف الخلاص وكلهم أعدائي

واعلم أن فلاحك ونجاحك في مخالفة هواك، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن

كِتَابِ﴾ هذا من أدب المناظرة والمجادلة، أرشد الله إليه نبيه ﷺ إذا جادل أهل الكتاب أن يقول لهم: أنا مؤمن بالكتاب المنزل من عند الله الذي تؤمنون به، من التوراة والإنجيل، كما أنا مؤمن بالقرآن، لا أفرق بين القرآن والتوراة ولا بين القرآن والإنجيل، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وفي هذا تعريض بهم حيث إنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، وهذا هو محض الكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۞ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: لأسوّي بيني وبينكم في الدعوة، فلا آمركم بما لا آمر به نفسي، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، وإنما دعوة واحدة ألتزمها وأدعوكم إلى الالتزام بها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ويحتمل أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه إذا تخاصمتم إليّ، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم من العدل بينكم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فلستم بأحقّ به منا ولا أولى، بل نحن أحقّ به منكم وأولى، ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩] وأنتم مشركون.

ولذلك لما زعموا أنهم أحق بالله منا وأنهم أولياؤه وأحبابه أمر الله نبيّه أن يكذّبهم فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاؤُاْ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٨]

﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ لا ينفعكم خير ما عملنا، ولا يضرُّنا شرُّ ما عملتم لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ هذا إنهاء للمناظرة والمجادلة بعدما تبينت الحقائق، وظهر الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وظهر عناد الطرف الآخر، وهذا أيضًا من أدب المناظرة والمجادلة.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ في الدنيا ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ يوم القيامة، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۞ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُوْلَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤-١٦].

بقلم الشيخ : عبد العظيم بدوى

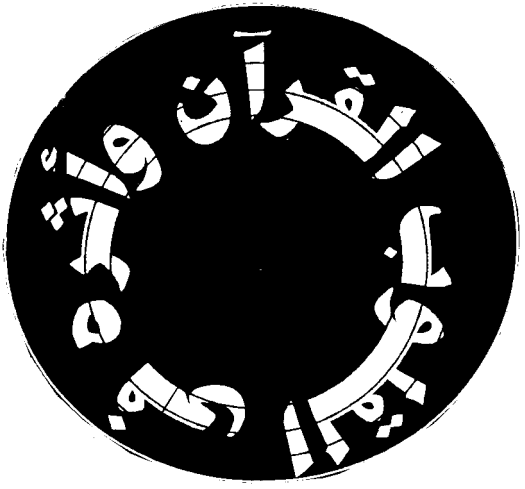

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

عن سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- قال: أنزل الله القرآن الكريم على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانًا فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ [يوسف: ٣]، فتلاها رسول الله ﷺ زمانًا، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ..﴾ الآية [الزمر: ٢٣].

الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم، الله لا إله إلا هو الملك القدوس السلام، الله لا إله هو له الأسماء الحسنى، نزّل أحسن الحديث، وهو القرآن، فليس لهذا القرآن منزل سوى الله، وليس له من جهة سوى جهة السماء: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين* نزل به الروح الأمين* على قلبك لتكون من المنذرين* بلسان عربيّ مبين﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]. ﴿وما تنزلت به الشياطين* وما ينبغي لهم وما يستطيعون* إنهم عن السمع لمعزولون﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]، وكيف تتنزل به الشياطين وما علموا به إلا بعد نزوله: ﴿قل أوحي إليّ أنه استمع نفرٌ من الجنّ فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا* يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا﴾ [الجن: ١، ٢]. ﴿وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجنّ يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قُضي ولوا إلى قومهم منذرين﴾ [الأحقاف: ٢٩]. فالقرآن: ﴿تنزيلٌ من الرحمن الرحيم* كتابٌ فُصلت آياته قُرءانًا عربيًّا لقومٍ يعلمون* بشيرًا ونذيرًا﴾ [فصلت: ٢-٤]. كما قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا. قيمًا لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا* ماكثين فيه أبدًا﴾ [الكهف: ١-٣].

وقال تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا كبيرًا* وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابًا أليمًا﴾ [الإسراء: ٩، ١٠]. ولذا كان من عقيدة أهل السنة: (أن القرآن كلام الله، منه بدأ بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحيًا، وصدّقه المؤمنون على ذلك حقًا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى

عقيدة أهل السنة: (أن القرآن كلام اللّه، منه بدأ بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحيًا، وصدّقه المؤمنون على ذلك حقًا، وأيقنوا أنه كلام اللّه تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه قول البشر فقد كفر، وقد ذمّه اللّه وعابه، وأوعده عذابه، حيث قال: ﴿سأصليه سقر* وما أدراك ما سقر* لا تبقي ولا تذر* لوّاحة للبشر* عليها تسعة عشر﴾ [المدثر: ٢٦- ٣٠].

فلما أوعد اللّه بسقر من قال: ﴿إن هذا إلا قول البشر﴾ [المدثر: ٢٥]، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر، ولا يشبه قول البشر)[٣].

وفي الابتداء باسم "اللّه" وإسناد الفعل "نزّل" لضميره تفخيم للمنزل ورفع لشأنه كما تقول: الملكُ أكرم فلانًا، فإنه أبلغ من قولك: أكرم الملكُ فلانًا. وحكمة ذلك البداءة بالأشراف لينال مَن بعده من شرفه، وهذا كثير في القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿اللّه يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ [الحج: ٧٥]. ﴿إن اللّه اصطفى آدم﴾ [آل عمران: ٣٣]، ونحو هذا.(كتابًا) بدل من "أحسن الحديث" أو حالٌ منه، والكتاب اسم من أسماء القرآن وهو مصدر كالقيام والصيام، وقد جاء لفظ الكتاب في القرآن على وجوه منها.

أولاً الفرض: كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص﴾ [البقرة: ١٧٨]. ﴿يا أيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام﴾ [البقرة: ١٨٣]، ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

ثانيًا: الحجة والبرهان، ومنه قوله تعالى: ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ [الصافات: ١٥٧].

ثالثًا: الأجل، ومنه قوله تعالى: ﴿وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم﴾ [الحجر: ٤].

رابعًا: مكاتبة السيد عبده، ومنه قوله تعالى: ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرًا﴾ [النور: ٣٣].

والكتاب في الأصل مشتق من كتبتُ الشيء إذا جمعته، ومنه سُميت الكتيبة لاجتماعها. فسمَّى اللّه الكتاب كتابًا، لأنه كالكتيبة على عساكر الشبهات، أو لأنه اجتمع فيه جميع المعلومات، أو لأن اللّه ألزم فيه التكاليف على الخلق.

(متشابها) أي: يشبه بعضه بعضًا في الحسن والجمال، واللفظ والمعنى، وصحة المعاني وقوة المباني، وبلوغه أعلى الدرجات في البلاغة. كما يشبه بعضه بعضًا في الائتلاف وعدم الاختلاف بوجه من الوجوه، مما يدل على أنه تنزيل العزيز العليم، كما قال سبحانه: ﴿ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، يدلك على هذا:أولاً: أن الكاتب البليغ إذا كتب كتابًا طويلاً فإنه يكون بعض كلماته فصيحًا والبعض الآخر غير فصيح، والقرآن بخلاف ذلك، فإنه كله فصيح في غاية الفصاحة لم يخل جزء من أجزائه من تلك الفصاحة.

ثانيًا: أن الفصيح إذا كتب كتابًا في واقعة بألفاظ فصيحة، ثم كتب كتابًا آخر في نفس تلك الواقعة فإن الغالب أن كلامه في الكتاب الثاني غير كلامه في الكتاب الأول.

واللّه تعالى قد حكى قصة موسى في مواضع كثيرة من القرآن وكلها متساوية متشابهة في الفصاحة.

ثالثًا: أن كل ما فيه من الآيات والبينات يقوّى بعضه بعضًا، ويؤكد بعضه بعضًا.

رابعًا: أن هذه الأنواع الكثيرة في العلوم التي تضمنها القرآن على اختلافها متشابهة في أن المقصود منها بأسرها الدعوة إلى الدين، وتقرير عظمة الجليل، ولذلك لا ترى قصة من القصص إلا ويكون محصلها المقصود هو ما ذكرناه.

فهذا هو المراد من كون الكتاب متشابها، وما أشبه هذا بقول العرب في الوجه الكامل حسنًا: وجه

متناصف، كأن بعضه أنصف بعضًا في القسط من الجمال[٤].

وهذا التشابه المذكور في هذه الآية غير التشابه المذكور في قوله تعالى: ﴿وهو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأُخر متشابهات﴾، فالآية التي معنا أفادت أن الكتاب كله متشابه، وهذه الآية أفادت أن من آيات الكتاب ما هو متشابه، فتشابه الكتاب كله غير تشابه بعضه، وتشابه الكتاب كله قد عرفناه، وأما تشابه بعض آياته فالمراد به ما يحتمل أكثر من معنى، ولا يُعرف المراد به ولا يتعين إلا بردّه إلى المحكم، فإذا رُدّ إلى المحكم تعين المراد منه وعرف على وجهه الصحيح، فصار بذلك الردّ المتشابهُ محكمًا، المتشابه محكم بالتبع والمحكمات محكمات بالأصالة، فيكون الكتاب كله محكمًا، كما قال تعالى: ﴿كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾. فالكتاب كله متشابه، والكتاب كله محكم.

والذين في قلوبهم مرض، أصحاب القلوب المريضة، والإرادات الفاسدة، والنيات السيئة، يريدون أن يستدلوا بهذا المتشابه على آرائهم الزائفة، وأقوالهم الباطلة، ليصدوا عن سبيل اللّه، وصدق اللّه العظيم إذ يقول في كتابه: ﴿يضل به كثيرًا ويهدي به كثيراً﴾. فهو كتاب واحد، يقرؤه إنسان فيهتدي، ويقرؤه آخر فيضل: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد اللّه من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر اللّه به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾.

أما أهل العلم المتحققون به فإنهم يؤمنون بالمحكم، وإذا عرض لهم شيء من المتشابه ردّوه إلى المحكم فعلموا من المحكم المعنى المراد من المتشابه، فوقفوا عليه وعملوا به وقالوا: ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾.

ولذلك كان ابن عباس رضي اللّه عنهما يقول: أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله.

وقوله تعالى: ﴿مثاني﴾ أي: يثنى ويكرر، الخبر الواحد يثنى ويكرر، القصة الواحدة تثنى وتكرر، وصف أهل الخير يثنى ويكرر، ووصف أهل الشرّ يثنى ويكرر، ووصف نعيم الجنة يثنى ويكرر، ووصف عذاب النار يثنى ويكرر، ومع ذلك له في كل مرة حلاوة، وعليه طلاوة، لا تمجّه الآذان، ولا تملّه القلوب، بخلاف كلام البشر، فإنه لو كرر خطيبٌ خطبة بعينها لمجتها الآذان، ومللتها القلوب، وانصرف عنه الناس، وقالوا: ما له يبدي ويعيد، ويكرر ويزيد.

وقوله تعالى: ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر اللّه﴾. قال قتادة: هذا نعت اللّه لأوليائه، نعتهم بأنهم تقشعر منه جلودهم، وتجل منه قلوبهم، وتبكي منه أعينهم، ثم تطمئن قلوبهم إلى ذكر اللّه.

فأهل الإيمان الصادق، وأهل العقيدة الثابتة الراسخة إذا تُليت عليهم آيات اللّه اقشعرت

جلودهم، وانقبضت قلوبهم، وارتعدت فرائصهم، فسكن الخوفُ والوجلُ قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آيات الرحمة وآيات المغفرة انبسطت جلودهم، وانشرحت صدورهم، واطمأنت قلوبهم.

والمراد أن أهل الإيمان الصادق إذا تُليت عليهم آيات الوعيد مثل: ﴿وَاسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ* مِّن وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِن مَّاء صَدِيدٍ* يَتَجَرَّعُهُ وَلاَ يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٥-١٧].

ومثل: ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يُخفَّف عنهم من عذابها. كذلك نجزي كل كفور* وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

ومثل: ﴿هذا خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم* يصهر به ما في بطونهم والجلود* ولهم مقامع من حديد* كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق﴾ [الحج: ١٩- ٢٢].

حين يسمع أولياء الله مثل هذه الآيات تقشعر جلودهم، وتنقبض قلوبهم، وترتعد فرائصهم.

فإذا سمعوا بعد ذلك قول الله تعالى: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورًا رحيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

ومن تاب وعمل صالحًا فإنه يتوب إلى الله متابًا، وقوله تعالى: ﴿ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا﴾. وقوله تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم﴾ [الزمر: ٥٣]. حين يسمعون مثل هذه الآيات آيات الرحمة والمغفرة تطمئن قلوبهم، وتنشرح صدورهم، وتنبسط جلودهم، رجاء ثواب الله تعالى.

(ذلك) المذكور من قشعريرة جلود أولياء الله، وخوف قلوبهم، ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء* ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ [الرعد: ٣٣]. ﴿فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين﴾ [الزمر ٢٢].

نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله الهداية والتوفيق.

---

(١) ابن حبان (٤٣٢/١٧٤٦)، والحاكم (٢/٣٤٥)، وابن جرير (١٢/١٥٠).

(٢)شرح الطحاوية (ص ١٧٩).

(٣) التفسير الكبير (٢٦/٢٧١).

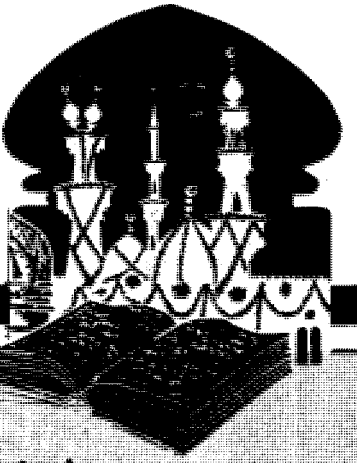

بقلم الشيخ : عبد العظيم بدوى

شروط الانتفاع بالقرآن

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، هذه آية من سورة ق، وهي سورة كريمة كان ﷺ يخطب بها كل جمعة، حتى قالت أم الحارث بنت هشام -رضي الله عنها- إنما أخذت: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا من لفظ رسول الله ﷺ يقرأ بها كل جمعة على المنبر[1]، (ولذلك لما تضمنه هذه السورة الكريمة من أصول الدين، فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد، والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة، والقسم الناس إلى هالك شقي، وفائز سعيد.

وذكرت الصفات الموجبة للهلاك، والصفات الموجبة للنجاة، كما تضمنت ذكر القيامتين الصغرى وهي الموت، والكبرى وهي الساعة، وذِكر العالمين: الأكبر وهو عالم الآخرة، والأصغر وهو الدنيا، وذِكر خلق الإنسان ووفاته وإعادته، وحاله عند وفاته ويوم معاده. كما تضمنت إثبات صفات الكمال لله -عز وجل- وتنزيهه عما لا يليق به من النقائص والعيوب. وأخبرت أن الله قد أحاط بالإنسان من كل جانب ووكّل به كرامًا كاتبين، يحصون عليه ألفاظه وأنفاسه، وأقواله وأفعاله، حسنها وقبيحها، صالحها وسيئها، وأخبرت بأن الإنسان يرد إلى ربه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه، وشاهد يشهد عليه؛ فإذا أحضره السائق قال: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣]، أي: هذا الذي أمرتني بإحضاره قد أحضرته، فيقال عند إحضاره: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]، كما يحضر ا

الجاني إلى حضرة السلطان فيقال: هذا فلان قد أحضرته، فيقول: (أذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه)[٢].

كما تضمنت السورة الكريمة دلائل التوحيد من خلق السماوات والأرض، وإحياء الأرض الميتة بماء السماء، ومع ظهور هذه الآيات ووضوحها فقد أنكر قومٌ قدرة اللّه تعالى عليهم وعلى أخذهم بذنوبهم، فاستكبروا في الأرض بغير الحق وكانوا قومًا مجرمين، فحقت عليهم كلمة العذاب، وأخذهم اللّه أخْذ عزيز مقتدر، ثم جعلهم عبرة، وموعظة، واسم الإشارة يصلح للعود على كل ما سبق في السورة، كما يصلح أن يعود إلى أقرب مذكور وهو إهلاك اللّه تعالى القرون الظالمة، فالاعتبار بوحدة مصير المكذبين الظالمين واجب، ولذا كثر في القرآن الكريم الإنكار على أهل الغفلة الذين لا يعتبرون ولا يتعظون بما أصاب غيرهم، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَفِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠]، ولما ذكّر كفار مكة بمصير الكافرين قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، خاطبهم بقوله منكرًا عليهم إقامتهم على الكفار، وانغماسهم في الشهوات والملذات، ناسين أو متناسين ما أصاب الأمم قبلهم فقال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي الزُّبُرِ* أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ* سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾

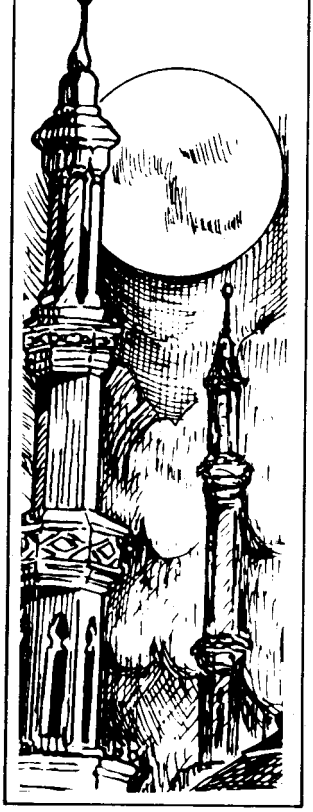

[القمر: ٤٣- ٤٥].

وإذا قلنا بعود اسم الإشارة (ذلك) إلى ما ذكر من أول السورة إلى آخرها فالمراد الاعتبار بآيات القرآن والانتفاع بها والاتعاظ، لأن تدبر القرآن واجب، والانتفاع به فرض، ولذا أنكر اللّه تعالى على الذين لا يتدبرون القرآن ولا ينتفعون به، فقال: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟!﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرًا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذًا أبدًا﴾ [الكهف: ٥]، وقال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون﴾ [السجدة: ٢٢].

ثم ذكرت الآية شروط الانتفاع بالقرآن والتأثر به، فقال تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾

والتنكير يدل على معنى في الكمال، والمراد لمن كان له قلبٌ عظيم حيّ، ذكيّ زكيّ، نقيّ تقيّ، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرءَانٌ مُّبِينٌ* لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]، وقال تعالى: ﴿فذكر إن نفعت الذكرى* سيّذكر

من يخشى﴾ [الأعلى: ٩، ١٠]، وقال: ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه﴾ [فاطر: ١٨].

أما أصحاب القلوب الميتة أو اللازكية، المتلطخة بدنس الذنوب والمعاصي، فهؤلاء إذا ذكروا لا يذكرون؛ لأن: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قال يحيى بن معاذ: القلب قلبان: قلب محتشٍ بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمرٌ من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع، وقلب قد احتشى بأحوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة[٣].

وقد فرّق الله بين الفريقين فقال: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير* ولا الظلمات ولا النور* ولا الظل ولا الحرور* وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور﴾ [فاطر: ١٩- ٢٢].

﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: وجّه سمعه، وأصغى حاسته إلى ما يتلى عليه من الوحي، ولقد أمر الله النبيين وأتباعهم المؤمنين بالاستماع للوحي عند تلاوته ونهاهم عن الانشغال عن الاستماع لما يوحى بأي شيء ولو بتلاوة الموحى نفسه، قال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى﴾ [طه: ١٣]، وكان النبي ﷺ إذا قرأ عليه جبريل القرآن تعجّل بالقراءة خلفه خشية النسيان، فقال الله: ﴿لا تحرّك به لسانك لتعجل به* إن علينا جمعه وقرآنه* فإذا قرأناه فاتبع قرآنه* ثم إن علينا بيانه﴾ [القيامة: ١٦- ١٩].

وقال للمؤمنين: ﴿وإذا قُرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ [الأعراف: ٢٠٤]؛ لأنه بالاستماع يحصل الفهم المؤدي للعمل.

ومن أدب الاستماع: سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، فذلك هو الاستماع الذي يحبه الله تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه ولا يشغلها فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحضر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما فهم[٤].

قال سفيان بن عيينة: أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر[٥]. فإذا استمع العبد إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ بنية صادقة كما يحب الله ألهمه الله كما يحب، وجعل له في قلبه نورًا، وكان من أهل البشارة التي أمر الله نبيه أن يبشر بها: ﴿الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب﴾ [الزمر: ١٨]، وهكذا شهد الله لمن يحسن الاستماع إلى كتابه بالهداية والعقل، وذم الذين يسيئون الاستماع إلى الوحي وحكم عليهم بالضلال وشبّههم بالأنعام، فقال: ﴿ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفًا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾ [محمد: ٥].

﴿وهو شهيد﴾ أي: قلبه حاضر، يفهم ما تسمعه الأذن، فإن السماع مع غفلة القلب سماعُ الذين ﴿طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم﴾.

وهكذا تضمنت هذه الآية شروط الانتفاع بالقرآن والتأثر به وإفادتها السامعين بأوجز لفظ وأبينه وأدلّه على المطلوب، فذكرت أنه لا بد من محل قابل للتأثر، وهو القلب الحي، وأنه لا بد من تحصيل شرط

وهو إصغاء السمع وحضور القلب، وأنه لا بد من انتفاء مانع يمنع من حصول الأثر وهو انشغال القلب وذهوله.

فإذا حصل المؤثر وهو القرآن، ووجد المحل القابل وهو القلب الحيّ، وتوفرت الشروط وهي إلقاء السمع وحضور القلب، وانتفت الموانع وهي انشغال القلب وذهوله، حصل الأثر وهو الانتفاع بالقرآن والعمل به.

ولكن مع وجود المؤثر وهو القرآن لا نرى أثرًا، فما السبب؟ المؤثر موجود، وتأثيره لا ينفك عنه أبدًا، فالقرآن الكريم لا يكون إلا مؤثرًا، قال تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية اللّه﴾ [الحشر: ٢١]، فالقرآن الكريم لا يكون إلا مؤثرًا، لا يعدم القرآن تأثيره أبدًا، فالقرآن كالتيار الكهربائي، مادام التيار الكهربائي موجودًا فأثره موجود، فإذا فقد الأثر فلا بد من موانع موجودة وشروط مفقودة، فإذا كانت الكهرباء موجودة في البلد ومقطوعة في بيتك، فلا بد أن يكون هناك خلل في السلوك أو قطع فيها، فإذا كانت السلوك سليمة فلا بد أن تكون اللمبة محروقة، فاللمبة هي المحل القابل، والسلوك هي الشروط التي لا بد من توفيرها لوصول الكهرباء أو حصول أثرها وهو النور والضياء، فإذا كانت الكهرباء موجودة، والسلوك سليمة، واللمبة سليمة، حصل أثر الكهرباء وهو النور والضياء.

والقرآن الكريم مؤثر بذاته، كما أن التيار الكهربائي مؤثر بذاته، فإذا وُجد القرآن الكريم وفقدت أنت أثره فارجع على نفسك باللوم والعتاب، فإما أن يكون المحل القابل غير سليم، قلبك فيه خلل، قلبك فيه عطل، هناك غيامة تعلو قلبك، وتحجزه عن الانتفاع بالقرآن وحصول أثر القرآن فيه، أو أنك لم تحسن الاستماع، أو أن قلبك مشغول بالمال والتفكير في طرق جمعه وزيادته.

فإذا أنت طهّرت قلبك من ذلك كله، وألقيت سمعك للقرآن، وقلبك حاضر غير غائب، وأحسنت الاستماع حصل أثر القرآن في قلبك، كما قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

فيا عباد اللّه! طهروا قلوبكم من دنس الذنوب والخطايا، طهروا قلوبكم من الغلّ والحقد والحسد والرياء والنفاق، فواللّه الذي لا يحلف إلا به، لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم، كما قال عثمان بن عفان- رضي اللّه عنه-: فطهروا قلوبكم واغسلوها من دنس الخطايا والذنوب والآثام: ﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون* واتبعوا أحسن ما أُنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون* أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب اللّه وإن كنت لمن الساخرين* أو تقول لو أن اللّه هداني لكنت من المتقين* أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين﴾، فيأتيه الجواب: ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾.

نعوذ باللّه من الخذلان، ونسأله الهداية والتوفيق. وإلى اللقاء في العدد القادم بإذن اللّه.

وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

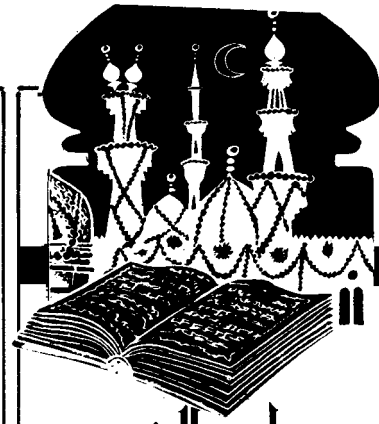

باب التفسير

بقلم فضيلة الشيخ

عبد العظيم بدوى

مَحْيا ومَمات

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] .

كثيرًا ما نسمع من يقول : نية المرء خير من عمله !! ربنا رب قلوب !! العملية ليست كثرة صلاة وصيام وحج !! كم من حاج تعد أصابعك إذا سلمت عليه !! نظافة القلب خير من هذا كله !! ولا أدري واللّه كيف ينظف القلب مع ترك هذا كله ؟!

وكثيرًا ما نرى حيارى لا يهتدون سبيلاً ولا يعرفون لماذا ؟ وكثيرًا ما نرى قلقًا واضطرابًا وأرقًا وفزعًا أصاب أناسًا جُمعت الدنيا كلها بين أيديهم .

وكثيرًا ما نرى الأمن والأمان والهدى والرضا والسعادة مجموعة بين يدي أناس صفر اليدين ، ولا ندري السبب ، وهذه الآية تجيب على كل هذه التساؤلات : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] . وهذا إنكار من اللّه تعالى على الذين اجترحوا السيئات أي : كسبوها أو عملوها ، فالاجتراح معناه : الكسب والعمل ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ﴾ [الأنعام : ٦٠] أي : ما عملتم وما كسبتم ، فهذا إنكار على الذين اجترحوا السيئات وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ، ويزعمون أن اللّه سيسويهم بالذين آمنوا وعملوا الصالحات ! عفوًا بل يزعمون أن اللّه قد يسوّي بهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فهم فيما يعتقدون أهدى سبيلاً ، وأكثر أموالاً وأولادًا ، وهذا حكم جائر ظالم وصفه اللّه تعالى بالسوء ، فقال : ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] ، وقد سألهم اللّه تعالى سؤال إنكار أيضًا عن مستندهم الذي استندوا إليه في هذا الحكم أو كتابهم الذي قرءوه فيه ، فقال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۞ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۞ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۞ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۞ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ

زَعِيمٌ ﴾ [القلم : ٣٥، ٤٠] .

وتكرر هذا الإنكار في مواضع ، منها : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] ، ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ [الرعد : ١٩] ، ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَلاَ الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [غافر : ٥٨] .

ولقد فرَّق اللّه تعالى بين الفريقين في المحيا والممات والبرزخ وفي المنازل بعد البعث ، أما محيا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقد وصفه اللّه بقوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] ، وقال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل : ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود : ٣] .

وهذه الحياة الطيبة التي وعد اللّه بها المؤمنين المتقين المحسنين تتحقق لأحدهم وإن افترش الثرى والتحف الثريّا ، فهذه الحياة الطيبة لا علاقة لها برغد العيش وسعة الرزق ، ولا علاقة لها بالقصور والأثاث والمراكب والفراش ، فهناك عوامل تطيب بها الحياة غير هذه العوامل المادية : هناك الصحة والهدوء ، والرضا والبركة ، وسكن البيوت ومودّة القلوب ، وهناك الفرح بالعمل الصالح ولذة الصلة باللّه عزَّ وجل التي دونها سائر اللذات ، ولذا كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : ((وجعلت قُرّة عيني في الصلاة)) [النسائي (٧/٦١)] .

وكان يواصل الأيام في الصيام لا يفطر ، فلما أراد بعض أصحابه أن يواصل قال له : ((وأيكم مثلي ؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني)) [البخاري (٤/٢٠٥/١٩٦٥) ، ومسلم (٢/٧٧٥،٧٧٤/١١٠٣)] .

وليس المراد حقيقة الإطعام والإسقاء وإلا لم يكن مواصلاً ، وإنما المراد أنه يبيت يناجي ربَّه ، ويناجيه ربُّه فيستغني بلذة الصلة عما يحتاجه من الطعام والشراب .

ولقد وجد بعض الصالحين من هذا النعيم شيئًا كثيرًا ، فكان يقول مع شدة فقره وبؤسه : (لو علم الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه

بالسيوف) ، وقال آخر : (إنه لتمر بالقلب أوقات أو قال فيها : إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب) ، وقال ثالث : (ما يفعل أعدائي بي ؟ أنا جنتي في صدري أينما رحت فهي معي ، أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، ونفيي سياحة) ، وقال رابع : (إن في الدنيا جنّة من لم يدخلها لم يدخل جنّة الآخرة ، وإلى هذا أشار قول اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣] في الدنيا : ﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ [يوسف : ٥٧] ، هذا هو محيا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

أما محيا الذين اجترحوا السيئات فقد قال فيه الربّ سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] أي : ضيقة في كل شيء ، معيشة كلها نكد وهمّ وغمّ ، وحزن واكتئاب ، معيشة كلها خوف وقلق ، وحيرة واضطراب ، مع سعة الرزق ورغد العيش ، وعلو المنصب وَعِظَم الجاه ، ونحن نرى بأعيننا نفرًا من هؤلاء ، أوتوا بسطة في الجسم ، وكثرة في المال والأولاد ، وسكنوا القصور ، وركبوا (الشبح والبودرة) ، وتزوجوا أجمل النساء ، وحسبوا أنفسهم أعلم أهل زمانهم ، وهم مع ذلك كثيروا الضجر ، شديدو الحيرة لا يكادون يشعرون براحة ، ولا يلتذون بلذة ، ولا بصفو عيش ، ولا بطيب حياة ، كأن لهم في اللذات ألما ، وفي الأفراح ترحًا ، يحسّون بكآبة رانت على صدورهم لا يعلمون لها سببًا ، ولا يعرفون لها موجبًا ، كآبة لا تزايلهم إلا بزوال عقولهم ، لذلك تراهم يفرّون من الجحيم - أي : واللّه من الجحيم الذي يحسبه الرائي نعيمًا - بشرب الخمر حتى تغيب عقولهم ، فلا بما هم فيه من الضيق والكآبة ، والخوف والقلق ، والحيرة والاضطراب ، ثم يفيقون والقلق جاثم على صدورهم ، والخوف ملء أعينهم ، فلا يشعر أحدهم إلاّ وهو يحتسي كأسًا من السمّ ليموت هربًا من جحيم الدنيا فلا يفيق إلا وهو في جحيم الآخرة .

فهل يستوي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين اجترحوا السيئات في المحيا ؟ لا واللّه لا يستوون ، أتدرون لماذا ؟

أولاً : (لأن المؤمن عرف أن رزقه إنما يحصل بتدبير اللّه ، وأن اللّه محسن كريم ، لا يقضي لعبده المؤمن قضاء إلا وهو خير له ، فرضى بقضاء اللّه ، وعلم أن مصلحته فيما

كان ، أما الكافر أو الجاهل فلا يعرف هذه الأصول ، فهو دائمًا في حزن وشقاء) .

ثانيًا : لأن المؤمن يستحضر في عقله أنواع المصائب والمحن ويقدّر وقوعها ، وإذا وقعت رضى بها ، والكافر أو الجاهل في غفلة عن هذا كله ، فإذا أصابته مصيبة أقام الدنيا و لم يقعدها ، وظنّ أنها قاصمة الظهر .

ثالثًا : لأن قلب المؤمن منشرح منوّر بمعرفة اللّه تعالى ، ممتلئ بها ، فلا تجد الأحزان على الدنيا مكانًا لها في قلبه ، أما قلب الجاهل فهو خالٍ من معرفة اللّه عز وجل ، فلا جرم أنه يمتلئ بالأحزان بسبب مصائب الدنيا .

رابعًا : (لأن قلب المؤمن عارف أن خيرات الدنيا الجسمانية خسيسة ، فلا يعظم فرحه بوجدانها وغمّه بفقدانها ، أما الجاهل فإنه يرى السعادة كلها في هذه الملذات ، وإذا فاتته فاتته السعادة كلها ، فلا جرم يعظم فرحه بوجدانها ، وغمّه بفقدانها) [((التفسير الكبير)) ٢٠/١١٥)] .

أما ممات الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقد قال اللّه تعالى فيه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ ﴾ [فصلت : ٣٠] يعني : عند الموت : ﴿ أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۞ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠، ٣١] .

وقال فيه النبي صلى اللّه عليه وسلم : ((إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ؛ كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحَنُوط من حَنُوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت - عليه السلام - حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة ! اخرجي إلى مغفرة من اللّه ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحَنُوط ، ثم يعرج بها إلى السماء فتفتح لها أبوابها)) . [أخرجه أحمد (٥٣/٧٤-٧/٨٧)] .

أما ممات الذين اجترحوا السيئات فقد ورد فيه قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلاَئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الأنعام ٩٣]

يعني : بضَرْبِهِمْ : ﴿ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الأنفال : ٥٠] .

وقال فيه النبي صلى اللّه عليه وسلم : ((إن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح ، فيجلسون منه مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من اللّه وغضب ، قال : فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول ، فتقطع معها العروق والعصب ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، ثم يصعدون بها إلى السماء فلا تفتح لها أبوابها)) . [أخرجه أحمد (٥٣/٧٤-٨٧/٧)] .

أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات في البرزخ فقد وصف النبي صلى اللّه عليه وسلم حالهم فقال : ((فينادي منادٍ من السماء - أي بعد سؤال المؤمن وجوابه -: أن صدق عبدي ، فافرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى الجنة ، فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدّ بصره ، ويأتيه رجلٌ ، حسن الوجه حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرّك ، أبشر برضوان من اللّه ، وجنات فيها نعيم مقيم ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير ! فيقول : أنا عملك الصالح ، ثم يُفْتَحُ له باب من الجنة ، وباب من النار ، فيقال : هذا منزلك لو عصيت اللّه ، أبدلك اللّه به هذا ، فإذا رأى ما في الجنة قال : ربّ عجّل قيام الساعة ، كيما أرجع إلى أهلي ومالي)). [أخرجه أحمد (٥٣/٧٤-٨٧/٧)] .

وأما الذين اجترحوا السيئات فقد وصف النبي صلى اللّه عليه وسلم حالهم في البرزخ فقال : ((فينادي منادٍ من السماء أن كذب عبدي ، فافرشوا له من النار ، وافتحوا له بابًا إلى النار ، فيأتيه من حرّها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجلٌ قبيح الوجه ، قبيح

الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يَسُوءُكَ ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر ! فيقول : أنا عملك الخبيث ، ثم يقيّض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة ! لو ضُرب بها جبل كان ترابًا ، فيضربه ضربة حتى يصير ترابًا ، ثم يعيده الله كما كان ، فيضربه ضربة أخرى فيصبح صيحة يسمعه كل شيء إلاّ الثقلين ، ثم يفتح له باب من النار ، ويمهّد من فرش النار ، فيقول : ربّ لا تقم الساعة)) . [أخرجه أحمد (٥٣/٧٤-٨٧/٧)] .

فهل يستوون ؟

ويوم القيامة ترى وجوه الذين آمنوا وعملوا الصالحات : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس : ٣٨، ٣٩] ، وترى وجوه الذين اجترحوا السيئات : ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس : ٤٠، ٤١] .

قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَىَ وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ ۞ وَالَّذِينَ كَسِبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس : ٢٦، ٢٧] ، فهل يستوون ؟! لا والله : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ ۞ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ وأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُواْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة : ١٨، ٢٠] .

فيا عباد الله ! ليس الإيمان بالتمني ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، وإن قومًا غرّتهم الأماني حتى قالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل ، فَأَحْسِنُوا العملَ يا عباد الله **فإنه** - والله - لا نجاة تامة ، ولا نجاة كاملة إلاّ بالإيمان ، والعمل الصالح ، اقرءوا إن شئتم قول الله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١، ٣] .

إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وصلّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

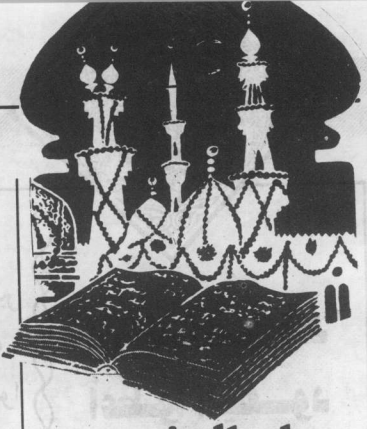

باب التفسير

بقلم فضيلة الشيخ

عبد العظيم بدوي

أتباع محمد ﷺ في التوراة والإنجيل

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

هذه الآية الكريمة هي خاتمة سورة الفتح ، وقد تضمنت أسرارًا وحكمًا وفوائد ومباحث كثيرة ، منها الشهادة لمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة ، وبيان الدين وقواعده ، والثناء على أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، والشهادة لهم بالإخلاص مع كثرة العبادة ، وبيان أن هذا الثناء مسجل لهم في الكتب السماوية السابقة قبل أن يوجدوا وينزل عليهم كتاب الله سبحانه سيغفر ذنوبهم ويعظم أجرهم .

استفتحت الآية الكريمة بقول الله عز وجل : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ ، فمحمد مبتدأ ، ورسول الله خبره ، وتكون هذه الجملة مثبتة لما قبلها ، حيث قال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۞ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ﴾ [الفتح : ٢٨، ٢٩] ، ويحتمل أن يكون محمد مبتدأ ، ورسول الله نعتٌ له أوْ بدل ، والذين معه معطوف على المبتدأ ، وجملة : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ خبر أول ، ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ خبر ثان ، ويكون المعنى المراد : وصف محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالشدة على الكفار ، والرحمة فيما بين بعضهم البعض .

وبهذا وصف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحاب في أكثر من موضع ، والمراد بالكفار الذين يشتد عليهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويقسون الكفار المحاربون الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [الصف : ٨] ، وبهذا صرح ربنا سبحانه في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التحريم : ٩] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة : ١٢٣] ، فظهر أن هذه الغلظة إنما هي في القتال بإثخان الكفار بكثرة القتل والجراح ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾ [محمد : ٤] ،

وقال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال : ١٢] ، والعلة في هذه الغلظة وتلك القسوة : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [الأنفال : ١٣] ، ولو أنهم كفوا أيديهم ولم يصدوا عن سبيل الله لكان لهم نصيب من الرحمة واللطف ، والرفق واللين ، ولو أقاموا على كفرهم ، كما قال تعالى : ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُواْ إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة : ٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : ١٥] .

وعن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - قالت : قدمت عليَّ أمّي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : إن أمّي قدمت وهي راغبة ، أفأصل أمّي ؟ قال : « نعم ، صلي أمّك » [أخرجه البخاري (٥/٢٣٣/٢٦٢٠) ، ومسلم (٢/٦٩٦/١٠٠٣) ، وأبو داود (٨٥/١٦٥٢ و٥/٨٦)] .

فالإسلام لا يأمر بالغلظة والقسوة والشدة على الكافر لمجرد كفره ، وإنما لصدّه عن سبل الله من أراد الإيمان بالله ، ومنعه الدعوة والدعاة ، فهو بذلك يحاول أن يمنع الرحمة عن غيره ، فاستحق أن يُقسى عليه ويغلظ له لتصل الرحمة إلى الناس جميعًا : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال : ٤٢] .

والمؤمنون حين يقسون على الكفار ولا تأخذهم فيهم رأفة ولا رحمة لا يفرقون في ذلك بين قريب وبعيد ، ولا والد ولا ولد ، كما قال تعالى : ﴿ لاَّ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُواْ آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وقد نزلت في الصحابة يوم بدر حين قتلوا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم ، ذلك أن من أصول الدين وقواعده الحبّ في الله ، والبغض في الله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أوثق عرى الإيمان الحبّ في الله ، والبغض في الله » [أخرجه الألباني في « الصحيحة » (١٧٢٨) ، وقال : أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » (١١٥٣٧) ، والحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحسن] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان » [أخرجه أبو داود (١٢/٦٣٨/٤٦٥٥)] .

ولذلك كان الصحابة : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ ، وفيهم الآباء والأبناء والإخوة والأعمام ، ﴿ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ على غير أنساب ولا قرابة ولا أخوة إلا أخوّة الدين .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في الرحمة ،

حتى أثنى عليه ربّه بقوله : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، وامتن عليه بهذه الرحمة فقال : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم دائمًا يحث على الرحمة ويرغب فيها ، فكان يقول : " الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من الأرض يرحكم من في السماء " . [أخرجه الترمذي (١٩٨٩/ ٣/٢١٧) ، وأبو داود (٤٩٢٠/ ١٣/٢٨٥)] .

"مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " . [أخرجه البخاري (١٠/٤٣٨/٦٠١١) ، ومسلم (٤/١٩٩٩/٢٥٨٦)] .

" المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا " . [أخرجه البخاري (٥/٩٧/٢٤٤٢) ، ومسلم (٤/١٩٩٦/٢٥٨٠) ، والترمذي (١٤٥١/ ٤٤٠/ ٢) ، وأبو داود (٤٨٧٢/ ١٣٦/ ١٣)] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قبّل النبي صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدًا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " من لا يَرْحم لا يُرْحم " [أخرجه البخاري (٥٩٩٧/ ١٠/٤٢٦) ، ومسلم (٤/١٨٠٨/٢٣١٨) ، والترمذي (٣/٢١٢/١٩٧٦) ، وأبو داود (٥١٩٦/ ١٤/١٢٩)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ فقال : "نعم" ، قالوا : ولكنا والله ما نقبّل ، فقال : "أوَ أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة " . [أخرجه البخاري (٥٩٩٨/ ١٠/٤٢٦) ، ومسلم (٤٠/١٨٠٨/٢٣١٧)] .

وعن أسامة بن زيد – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رُفع إليه ابن ابنته وهو في الموت ، ففاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له سعد : ما هذا يا رسول الله ؟ فقال : " هذه رحمة جعلها الله في قلوب من شاء من عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء " . [أخرجه البخاري (٣/١٥١/١٢٨٤) ، ومسلم (٢/٦٣٥/٩٢٣) ، والنسائي (٤/٢٢)] .

وعن أنس – رضي الله عنه –: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على ابنه إبراهيم وهو يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ فقال : " يا ابن عوف إنها رحمة " ، ثم أتبعها بأخرى فقال : " إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون " . [أخرجه البخاري ٣/١٧٢/١٣٠٣) ، ومسلم (٤/١٨٠٧/٢٣١٥) ، وأبو داود (٨/٣٩٦/٣١٠٩)] .

فأهل الرحمة والرفق هم أهل رحمة الله ، وأهل القسوة والغلظة هم أهل عذاب الله ، ولذا :

« دخلت امرأة النار في هرّة حبستها ، لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض » . [أخرجه البخاري (٦/٥١٥/٣٤٨٢) ، ومسلم (٤/١٧٦٠/٢٢٤٢)] .

و « بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثلُ الذي كان قد بلغ مني ، فنزل البئر فملأ خفّه ماءً ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى ، فسقى الكلب ، فشكر اللّه له فغفر له » . [أخرجه البخاري (٥/٤١،٤٠/٢٣٦٣) ، ومسلم (٤/١٧٦١/٢٢٤٤) ، وأبو داود (٧/٢٢٢/٢٥٣٣)] .

وأولى الناس برحمة المسلم أبواه ، ولذا قال اللّه تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء : ٥] ، ثم أبناؤه وأهله ، ثم الأقرب فالأقرب ، وتمتد دائرة الرحمة حتى تشمل المسلمين أجمعين والكافرين المسالمين .

ومن مظاهر الرحمة أمر الناس بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، ودعوتهم إلى الخير ، وتعليمهم ما ينفعهم .

ومن مظاهر الرحمة : عيادة المريض ، والبكاء على الميت من غير نياحة ولا رفع صوت ، والحنوّ على اليتيم ، والسعي على الأرملة والمسكين ، والتألم لألم المتألمين ، والسعي في إزالة الضرر عن المضرورين .

ومن مظاهر الرحمة : لين الجانب ، وخفض الجناح ، وبشاشة الوجه ، ومن مظاهر الرحمة : أن يحب المسلم لأخيه ما يحبه لنفسه ، ويكره له ما يكرهه لنفسه ، ومن مظاهر الرحمة بالحيوان : الإحسان إليه وقت الذبح ، كما قال صلى اللّه عليه وسلم : « إن اللّه كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدّ أحدكم شفرته ، ولْيُرح ذبيحته » . [أخرجه مسلم (٣/١٥٤٨/١٩٥٥) ، والترمذي (٢/٤٣١/١٤٣٠) ، وأبو داود (٨/١٠/٢٧٩٧) ، والنسائي (٧/٢٢٧) ، وابن ماجه (٢/١٠٥٨/٣١٧٠)] .

ثم وصف اللّه تعالى أصحاب محمد صلى اللّه عليه وسلم بكثرة العمل ، والتقرب إلى اللّه بما يحبه ، مع إخلاص النيّة له ، فقال سبحانه : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ ، وهذا التعبير يوحي بأن الركوع والسجود صفتهم الدائمة ، فلا تراهم إلاّ راكعين أو ساجدين ، وهذا كقوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ [المعارج : ٢] ، والسرّ في ذلك : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أي : يطمعون أن يدخلهم اللّه جنته ، ويحلّ عليهم رضوانه : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة : ٧٢] من نعيم الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ٧٢] .

وللعبادة الخالصة أثرها في الظاهر كما أن لها أثرها في الباطن ، ولذا قال : ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

وليست السمة هي هذه النكتة التي تكون في الوجه ، فربما كانت هذه النكتة بين عيني من هو أقسى قلبًا من فرعون ، كما قال مجاهد - رضي الله عنه -: (وإنما السيما التي هي أثر السجود هي السمت الحسن ، والخشوع ، والتواضع ، والنور ، والبهاء ، والجمال) ، كما قال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل حَسُن وجهه بالنهار ، وقال بعضهم : إن للحسنة نورًا في القلب ، وصفاءً في الوجه ، وسعةً في الرزق ، ومحبةً في قلوب الناس ، ويوم القيامة تكون هذه السيما نورًا يسعى بين أيديهم : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الحديد : ١٢] ، (ذلك) الوصف ﴿ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ ، ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ أي : أفراخه وسنبله ونباته ﴿ فَآزَره ﴾ أي : قواه ﴿ فاستغلظ ﴾ أي : قوي واشتد : ﴿ فاستوى على سوقه ﴾ أي : استقام ونهض ، فصار من حسنه وجماله واستقامته : ﴿ يُعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾ وهذا شيء معلوم أن الفلاح حين يشقي ويكدح ، فيبذر ، ويحرث ، ويسقي ، ويتعهد الزرع ، ثم يرى الله قد بارك جهده ، وأحسن عمله ، فاشتد زرعه على سوقه يُفرح بذلك ويُسر .

وهذا مثل ضربه الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الإنجيل ، أنهم يكونون أولاً قلة مستضعفة ، ثم يكثرون ويشتد عودهم ، ويرهبهم عدوهم ، ويغيظه اجتماعهم وكثرتهم .

وهكذا كان المسلمون أول العهد ، فلقد قام النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله وحده ، فما آمن معه إلا قليل ، حتى إذا هاجر آواه الله ونصره والمؤمنين وأيده بالأنصار ، فكثر عددهم ، وقويت شوكتهم ، وهابهم عدوهم ، ولا سيما بعد بدر يوم الفرقان ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٦] .

(﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾ هنا لطيفة : وهي أن الله تعالى قال في حق الراكعين الساجدين : ﴿ يبتغون فضلاً من الله ﴾ ، فلما وعدهم وعدهم : ﴿ مغفرة وأجرًا ﴾ ، ولم يقل : لهم ما يطلبونه من ذلك الفضل ، وذلك لأن المؤمن عند العمل لم يلتفت إلى عمله ولم يجعل له أجرًا يُعتد به ، فقال : لا أبتغي إلا فضلك ، فإن عملي نزر لا يكون له أجر ، والله تعالى آتاه ما آتاه من الفضل وسماه أجرًا إشارة إلى قبول عمله ، ووقوعه الموقع وعدم كونه عند نزرًا لا يستحق المؤمن عليه أجرًا) . [" التفسير الكبير " (٢٨/١٠٩)] .

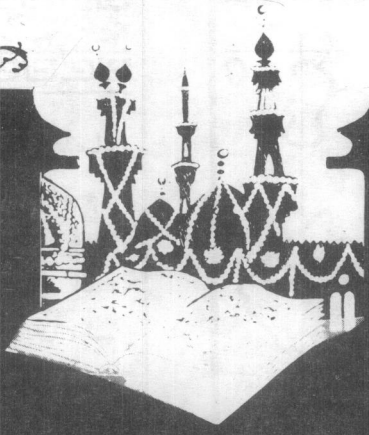

النهي عن الجري وراء الشائعات

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦] .

ينهى اللّه تعالى عباده المؤمنين عن الجري وراء الشائعات ، ويأمرهم بالتثبت من صحة الأخبار التي تُنقل إليهم ، فليس كل ما يُنقل صحيحًا ، وليس كل ما يُقال صدقًا ، وإن أعداءكم يتربصون بكم الدوائر ، فالواجب عليكم أن تكونوا يقظين أبدًا ، حتى تعلموا من يريد أن يثير فيكم القلاقل ويذيع فيكم الشائعات التي لا أساس لها من الصحة .

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ ، أي : فلا تقبلوا خبره حتى تتبينوا وتتثبتوا ، وتجدوا من الدلائل والبراهين ما يدل على صدق خبره .

فأعلم اللّه تعالى أن الأصل في الفاسق الكذب ، ولكنه قد يصدق ، ولذا لا يُقبل خبره ولا يرد إلاّ بعد التثبت من صحة قوله ، فإن تبين صدقه بدلائل وبراهين قُبل خبره وإلا رُدَّ عليه .

ثم علّل اللّه تعالى الأمر بالتثبت والنهي عن الجري وراء الشائعات ، فقال : ﴿ تُصِيبُواْ قَوْمَا بِجَهَالَةٍ ﴾ أي : ثم يتبين لكم خطؤكم وبراءتهم ﴿ فَتُصْبِحُواْ عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ ، ولا سيما إذا أوجعت السياط ظهوركم مثلاً إذا كان ما خضتم فيه موجبًا للحد كالقذف ونحوه .

وما أحوج المسلمين أجمعين إلى هذه الآية : يقرءونها ، ويتدبرونها ، ويتأدبون بأدبها ، فكم من فتنة حدثت بسبب خبر كاذب ، نقله فاسق فاجر ، وكم من دماء أُريقت ، وأرواح

أُزهقت ، وأموال سُلبت ، وأعراض انتهكت بسبب أخبار كاذبة لا أساس لها من الصحة ، اختلقها أعداء الإسلام ، وأعداء هذه الأمة ، ليقضوا بتلك الأخبار الكاذبة على وحدتها ، ويمزقوا شملها ، ويثيروا فيها العداوة والبغضاء ، كم فُرّق بين أخوين بأخبار كاذبة ؟ وكم فُرّق بين زوجين بأخبار كاذبة ؟ وكم تحاربت قبائل وأمم بأخبار كاذبة ؟ واللّه سبحانه - اللطيف الخبير - يضع لهذه الأمة القاعدة التشريعية لصيانة المجتمع من التمزق ، وصيانته من التفرق ، وصيانته من أن تشتعل فيه نار الفتنة فلا تخمد أبدًا .

إن مما يؤسف له أنه لم يخل مجتمع من مجتمعات المسلمين من المنافقين الحاقدين الحاسدين ، الذين لا يروق لهم أن يروا المجتمع المسلم مجتمعًا متآلفًا ، متآخيًا ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وإذا اشتكى أدناهم اشتكى أقصاهم ،

والواجب على المسلمين أن يأخذوا حذرهم ، وأن ينتبهوا لأعدائهم ، وأن يعلموا أن أعداءهم يسهرون في التخطيط والكيد لهم ، فعلى المسلمين أن يكونوا دائمًا على حذر ، حتى يعلموا من أين تأتيهم الشحناء ، وكيف تثار فيهم البغضاء !! إن وجود المنافقين في المجتمع المسلم يشكل خطرًا كبيرًا ، ولكن أخطر منه وجود أناس من المؤمنين الطيبين ، يجرون وراء هؤلاء المنافقين ، يتقبلون منهم كل ما يملونه عليهم ، ويفتحون آذانهم بكل ما يحدثونهم به ، ويجرون وراءهم في كل صغيرة وكبيرة ، يقلّدونهم في الأقوال والأفعال ، غير مبالين بما يجرّون لأمتهم بسبب جريهم وراء هؤلاء المنافقين .

ولقد سجل القرآن الكريم لنا شيئًا من الويلات التي أصابت المسلمين بسبب جري بعضهم وراء المنافقين الحاقدين الحاسدين ، حتى نستفيد من التجارب التي مرَّ بها من قبلنا .

اقرءوا إن شئتم سورة النور ، وتأملوا الآيات المباركات التي سجلها اللّه تعالى في براءة أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها مما اتهمها به

باب التفسير

بقلم فضيلة الشيخ :

عبد العظيم بدوي

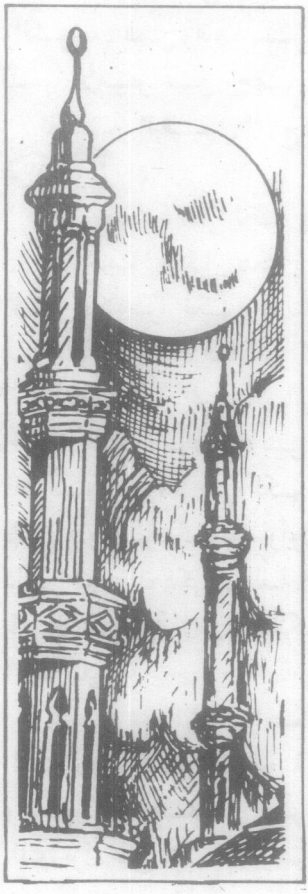

المنافقون ، وسار على دربهم هذا الاتهام تقليدًا من غير اتباع برهان ولا دليل نفر من المؤمنين الصادقين .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالإِفْكِ ﴾ [النور : ١١] أي : بالكذب ، وهو أسوأ الكذب ، سمي إفكًا لكونه مصروفًا عن الحق ، من قولهم : أفك الشيء إذا قلبه عن وجهه ، وذلك أن عائشة رضي الله عنها كانت تستحق الثناء لما كانت عليه من الحصانة والشرف ، فمن رماها بسوء قلب الأمر عن وجهه . [" تفسير البغوي " (ج٤ ص١٨١)] .

﴿ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ﴾ أي : لا تحسبوا ما قيل عنكم يا آل أبي بكر شرًّا لكم : ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ، فالأمور لا تقدَّر بظواهرها ، فربما يأتي الخير في صورة يُرى أنه شر ، فلا تحسبوا ما وقع شرًّا لكم : ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ، وأول ذلك الخير : أن ذكركم الله في الملأ الأعلى ، وأنزل في شأنكم آيات تتلى .

وبنزول هذه الآية انزاحت الغمة ، وانكشفت الظلمة ، وانزاح ذلك الجبل من الحزن الذي نزل على قلب أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، وزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبيها الصديق ، كما انزاح عن قلب المتهّم بها الصحابي الأمين صفوان بن المعطل ، ثم أخذت الآيات تعلّم المؤمنين كيف يواجهون الإشاعات ، وكيف يقفون في وجه الكذب والكذابين ، فقال تعالى : ﴿ لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَـذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور : ١١] .

فهذه أول خطوة يجب عليك أيها المسلم اتخاذها إذا بلغك عن أخيك خبرٌ يتهمه ، أن تظن بأخيك هذا ظنك بنفسك ، فإن كنت تحسن الظن بنفسك ، وتبرئ نفسك مما قيل في أخيك ، وجب عليك أن تحسن الظن بأخيك وتبرءه مما قيل فيه ، وتقول : ﴿ سُبْحَانَكَ هَـذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٦] ، ما كان لأخي أن يقول هذا ، أو يفعل ذاك ، وهذا هو ما فعله بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حين بلغهم ما بلغهم عن أم المؤمنين .

(عن أبي أيوب الأنصاري أنه قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ! أما تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب ، أكنتِ فاعلةَ ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ، ما كنت لأفعله ، قال : فعائشة والله خير منك) [" تفسير ابن كثير " (٢٧٣/٣)] .

ثم قال تعالى : ﴿ لَّوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النور : ١٢] .

هذه هي الخطوة الثانية التي يجب على كل مسلم اتخاذها إذا بلغه عن أخيه ما يتهمه ، الخطوة الأولى كانت طلب الدليل الباطني ، وهو حسن الظن بالمؤمن أخيه ، والخطوة الثانية هي طلب الدليل الحسّي والبرهان الواقعي : ﴿ لَّوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ [الحجرات : ٦] ، وفي قراءة : ﴿ فتثبتوا ﴾ أي : أطلبوا ممن جاءكم بهذا النبأ الدليل والبرهان على صحة ما جاء به ، فإن جاء به ، وإلا رُدَّ خبره في وجهه ، لأنه فاسق كاذب ، وأمسك الجميع عن نقل هذا الخبر الباطل ، الذي لا أساس له من الصحة ، وبهذا تموت الإشاعات ، وتدفن في صدور مروّجيها حين يفقدون من

يتلقاها عنهم ويقبلها منهم .

وهكذا يُربي القرآن أهله ، ولكن للأسف نرى كثيرًا من المسلمين لا يلتزمون بهذه التربية ، فما أن يذيع منافق حاسد حاقد خبرًا كذبًا ضد أحد من المسلمين حتى يشيع ذلك الخبر في المجتمع كله ، وتلوكه الألسنة من غير تثبت ولا تروٍّ ، وفي ذلك يقول ربنا سبحانه : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ [النور : ١٥] ، والأصل في الكلام أن يتلقى بالآذان لا بالألسنة ، ولكن الله يعبر عن سرعة نقل الحديث وانتشاره بين الناس ، وكأن الكلمة تخرج من لسان إلى لسان ، من غير أن تمرَّ بالأذان الموصلة إلى القلب الذي يفكر فيما يسمع ، ثم يفكر في جواز نقله وعدم جوازه .

﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ﴾ [النور : ١٥] ، ولا عندكم عليه دليل ، ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٥] .

وبعد أن أدب الله المؤمنين بهذه الآداب ، وعلّمهم كيف يواجهون الإشاعات ، ويحاولون القضاء عليها في مهدها ، حتى لا تشيع في المجتمع ، بعد ذلك يحذر الله المؤمنين من الخوض فيما ليس لهم به علم ، يحذرهم من الجري وراء الكاذبين المروجين للإشاعات ، فيقول : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ١٧] ، ثم يبين أن الجري وراء الكذابين المروجين للإشاعات إنما هو اتباع لخطوات الشيطان ، فيقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [النور : ٢١] .

ثم يبين سبحانه أن الألسنة ومعها سائر الجوارح ستشهد على العبد يوم القيامة فيقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور : ٢٣ - ٢٥] .

فيا مروِّجًا للإشاعات ! ويا مختلقًا للإفك ! يا من لا يروق له أن يرى متحابين حتى يفرق بينهما ! يا من لا يسره أمن المسلم وسلامته ! يا أيها الباغي للبراء العيب ! أمسك عليك لسانك ، فإنك مؤاخذ بكل كلمة تقولها : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] ، أمسك عليك لسانك ، واحذر الكذب ، واحذر التزويج للإشاعات ، واحذر اتهام مسلم بغير بينة ، واحذر إساءة الظن بالمسلمين ، فكأني بك يا مسكين يوم القيامة يوم الحسرة والندامة وقد تعلق بك خصومك ، فهذا يقول : ظلمتني ، وهذا يقول : شتمني ، وهذا يقول : استهزأت بي ، وهذا يقول : ذكرتني في الغيبة بما يسوءني ، وبينما أنت كذلك قد ضعفت عن مقاومتهم ، ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم إذ قرع سمعك نداء الجبار : ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ﴾ [غافر : ١٧] ، فأيقنت بالبوار ، وتذكرت قول العزيز الغفار : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

نعوذ بالله من الخذلان ، ونسأله الهداية والتوفيق ، والحمد لله رب العالمين .

باب التفسير

بقلم فضيلة الشيخ :

عبد العظيم بدوي

منهج التلقي بين السلف والخلف

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

من المُشاهد في هذه الأيام أن الخطب والمواعظ والدروس كثيرة جدًّا، أكثر مما كانت عليه في الزمن الأول، ومع ذلك فالعمل قليل، فكثيرًا ما نسمع ولا نرى طاعة، وكثيرًا ما نعلم ولا نرى عملاً.

وهذا هو الفارق بيننا وبين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، والتابعين أهل القرون الأولى المفضلة، فلقد كانت المواعظ فيهم والخطب والدروس قليلة، حتى قال قائلهم: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا)[1].

كان الكلام قليلاً، وكان العمل كثيرًا، فهم كانوا يعلمون أن كل ما يسمعونه من رسول الله صلى الله عليه وسلم واجب التنفيذ، كما يجب على الجنود في ميدان القتال تنفيذ الأوامر التي تصدر إليهم من القادة، وإلا كانت الهزيمة والخذلان، فكانوا يتلقون الوحي عن الله

بواسطة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالسمع والطاعة وسرعة التنفيذ، ولم يكونوا يتأخرون لحظة واحدة في تطبيق ما سمعوا من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والعمل بالعلم الذي تعلموه منه.

وهذا مثال لبيان كيف كان أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يتلقون الوحي عن اللّه.

ذكر المفسرون في سبب نزول آية الأحزاب هذه أسبابًا كثيرة، أرى أن أنسبها لما بعدها، هذا الذي أذكره:

روى المفسرون أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أراد أن يحطم الفوارق الطبقية بين الناس، ويزيل الحواجز بين الفقراء والأغنياء، وبين الأحرار بالأصالة، وبين الذين أنعم اللّه عليهم بالحرية بعدما كانوا عبيدًا.

أراد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يبين للناس أنهم جميعًا كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود، إلاّ بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم إن اللّه عليم خبير﴾ [الحجرات: ١٣].

أراد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يغرس في نفوس الناس هذا المبدأ، والكلام في هذه الحال ربما يكون أقلّ فائدة وأقلّ تأثيرًا، ذلك أن النفوس قد جُبلت على الرفعة وحب الظهور، فرأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يغرس هذا المبدأ في نفوس الناس بشيء من التطبيق العملي، يقع في محيط أسرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وذوى قرابته، إذ أن العمل دائمًا أكثر تأثيرًا في القلوب من القول المجرد، فقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى زينب بنت جحش ابنة عمته، جدّه وجدّها واحد، هو عبد المطلب سيد قريش، قام إليها يخطبها على مولاه زيد بن حارثة، الذي أنعم عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالحرية، فلما ذكره لها قالت: ما أنا بناكحته، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "بل تنكحينه"، قالت: لا واللّه لا أنكحه أبدًا.

فبينما هي تحاور رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وتجادله وتردّ عليه، إذا بالوحي ينزل بفصل القول: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللّه ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص اللّه ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فقرأها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على زينب، فقالت: يا رسول اللّه! أترضاه لي زوجًا، قال: "نعم"، قالت: إذن لا أعصي اللّه ورسوله، رضيت بما رضي به اللّه ورسوله، فتزوجته[٢].

وهكذا نزلت على أمر اللّه ورسوله، وإنما لم توافق أوّلاً

لأنَ الأمر لم يزد في البداية على كونه مجرَّد عرض ومشورة ، فلما نزل الوحي لم تعد القضية قضية نكاح وخطبة ، توافق أوْ لا توافق ، وإنما بعد تزول الوحي صارت القضية قضية طاعة للّه ورسوله أو معصية ، فلم يعد أمام زينب - رضي اللّه عنها - إلا السمع والطاعة للّه ورسوله ، وإلاَّ تكون قد عصت اللّه ورسوله ، واللّه يقول : ﴿ ومن يعص اللّه ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

هكذا كانوا يتلقون الوحي عن اللّه ، أما نحن فالأوامر والنواهي تقرع آذاننا صباحًا ومساءً ، وكأننا لم نسمع شيئًا ، واللّه - تبارك وتعالى - قد بين أن أشقى الناس هم الذين لا ينتفعون بالموعظة ، فقال تعالى : ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ۞ سيذكر من يخشى ۞ ويتجنبها الأشقى ۞ الذي يصلى النار الكبرى ۞ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ [الأعلى : ٩-١٣] .

وحكى سبحانه عن المنافقين أنهم كانوا يحضرون عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بقلوب غافلة : ﴿ كأنهم خشب مسندة ﴾ [المنافقون : ٤] ، ثم ينصرفون ولم يفقهوا شيئًا ، قال تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفًا أولئك الذين طبع اللّه على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ [محمد : ١٦] .

فاحذروا عباد اللّه أن تكونوا على مثل ما كان عليه هؤلاء ، واحرصوا على أن تكونوا على مثل ما كان عليه أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، واعلموا أن اللّه تعالى كما ذم المعرضين الغافلين فقد مدح الذين يستمعون القول فيفهمونه على النحو الذي أراد اللّه ، ثم يعملون به ، فقال تعالى : ﴿ فبشر عباد ۞ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم اللّه وأولئك هم أُولُوا الألباب ﴾ [الزمر : ١٧، ١٨] .

واعلم يا عبد اللّه المسلم أنه ليس لك الخيار فيما يأتيك من أمر اللّه ، ليس لك الخيار تفعل أو لا تفعل ، وليس لك الخيار فيما يأتيك من نهي اللّه ، تترك أو لا تترك ، فأنت وما ملكت يمينك ملك للّه ، أنت عبد اللّه ، واللّه سيدك ، وعلى العبد أن يوطن نفسه على السمع والطاعة لأوامر سيده مهما بدت ثقيلة على نفسه ، وإلاَّ استحق الطرد من رحمة مولاه ، ولقد نفى اللّه تعالى الإيمان عمن لا يرضون بحكمه ولا يخضعون لرسوله ، فقال سبحانه : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، وحكم بالضلال على من يعصي أمره وأمر رسوله ، فقال : ﴿ ومن يعص اللّه ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وبعد : فانتبه أيها القارئ الكريم معي إلى هذه المقابلة :

لقد قلنا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قام إلى زينب - رضي الله عنها - يخطبها على زيد رفضت أولاً ، لأن الأمر كان مجرد شفاعة ، فلما نزلت الآية انتقل الأمر من الشفاعة إلى فرض الطاعة ، فلم يَسَعْ زينب - رضي الله عنها - بعد نزول الآية إلاّ السمع والطاعة ، ولو ظل الأمر كما هو مجرد شفاعة لكان من حقها أن ترفض ، لأن من حق المرأة أن تختار الرجل كما يختارها ، وهذا هو ما حدث مع (بريرة) :

وكان من أمرها كما روى البخاري[٣] : أن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - اشترت أمة يقال لها : (بريرة) وأعتقتها ، وكان لها زوج يسمى مغيثا ، وكان عبدًا ، فلما أُعتقت (بريرة) صار من حقها أن تختار إما أن تبقى تحت زوجها الذي دونها في الحرية ، وإما أن تختار الفراق ، فخيَّرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاختارت الطلاق ، وكان زوجها مغيث يحبها حبًّا شديدًا ، حتى إنه لما اختارت فراقه كان يمشي وراءها في سكك المدينة يبكي ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمه العباس : « أما تعجب من حب مغيث بريرة ! وبغض بريرة مغيثا ؟! » ثم قال لها : « يا بريرة ! لو راجعته ! إنه زوجك وأبو أولادك ! » قالت : يا رسول الله ! أتأمر أم تشفع ؟

الله أكبر !! تأملوا معشر القراء هذا الاستفهام ؛ يا رسول الله أتأمر ؟ فلا يحق لي أن أخالف أمرك ؟ أم تشفع فأرى رأيي ؟ قال : « بل أشفع » ، قالت : لا حاجة لي فيه .

هنا نقول : زينب رفضت أوَّلاً أن تتزوج زيدًا ، لأن الأمر لم يزد على كونه شفاعة ، فلما نزل الوحي وصار الأمر أمر طاعة أو معصية قالت : يا رسول الله ! أترضاه لي ؟ قال : « نعم » ، قالت : إذن لا أعصي الله ورسوله .

بريرة لما عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تراجع زوجها ، أبا أولادها الذي لم يصبر على فراقها ، استفهمت : أتأمر ؟ فلا يسعني إلا السمع والطاعة ؟ أم تشفع ؟ فلما قال : « بل أشفع » ، قالت : لا حاجة لي فيه .

وهكذا تأدب المسلمون الأولون مع الله ورسوله ، ودانوا لله ورسوله بالسمع والطاعة ، فملكهم الله الدنيا ، ودخل الناس على أيديهم في دين الله أفواجًا ، ونحن لما لم نتأدب مع الله ورسوله ، وصارت لنا الخيرة من أمرنا : نفعل أو لا نفعل ، صار حالنا كما هو ظاهر للجميع ، فبالله عليكم أيها المسلمون : ﴿ أنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾ [الزمر : ٥٤] ، ﴿ وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ [النور : ٣١] .

---

(١) متفق عليه : البخاري (١/١٦٢/٦٨) ، ومسلم (٤/٢١٧٢/٢٨٢١) .

(٢) انظر « تفسير ابن كثير » (٣/٤٨٩) .

(٣) « فتح الباري » : (٩/٤٠٨/٥٢٨٣) .

منهج التلقي بين السلف والخلف [٢]

فضيلة الشيخ : عبد العظيم بدوي

*{ يأيها الذين آمنوا لا تقدّموا بين يدي اللّه ورسوله واتقوا اللّه إن اللّه سميعٌ عليمٌ * يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون } [الحجرات : ١، ٢] .*

قلنا : إن الفرق بين سلف الأمة وخلفها في تلقّي الوحي كبير ؛ لأن السلف كانوا يتلقون الوحي للعلم والعمل ، وأما الخلف فإنهم يتلقون للتسلية والثقافة ، وهذا مثال ثانٍ يوضح ذلك :

يقول اللّه تعالى : { يأيها الذين آمنوا } [الحجرات : ١] يا من آمنتم باللّه ورسوله ، والكتاب الذي نزل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل ، يا من رضيتم باللّه ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد صلى اللّه عليه وسلم نبيًّا ورسولاً ، { لا تقدّموا بين يَدي اللّه ورسوله } [الحجرات : ١] أي : لا تقترحوا على اللّه في خاصة أنفسكم ، ولا في أمر من أمور الحياة من حولكم ، ولا تقولوا في شيء حتى يقول اللّه ورسوله ، ولا تبدوا رأيًا في مسألة حتى ترجعوا إلى قول اللّه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم .

عن قتادة قال : ذُكر لنا أن رجالاً كانوا يقولون : لو أُنزل في كذا كذا وكذا ، ولو أُنزل في كذا كذا وكذا ، فنزلت الآية .

وعن ابن عباس ، رضي اللّه عنهما ، قال : { لا تقدموا بين يدي اللّه ورسوله } [الحجرات : ١] ، أي لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة . [ابن كثير : ٤/٢٠٥] .

فإن القول بخلاف الكتاب والسُّنة قول على اللّه بغير علم ، والقول على اللّه بغير علم من عمل الشيطان ، كما قال تعالى : { يأيها الناس

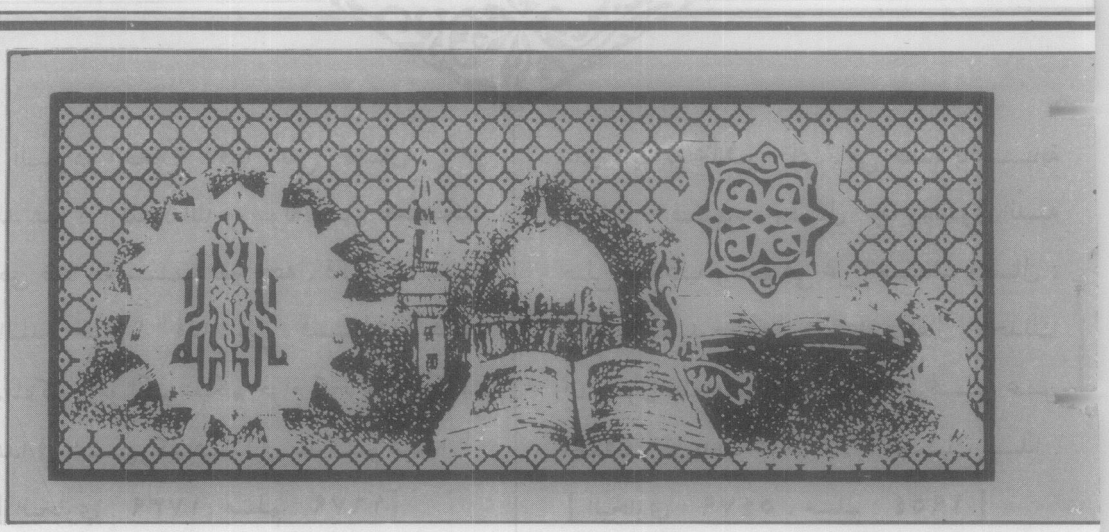

كلوا مما في الأرض حلالاً طيبًا ولا تتبعوا خُطُوات الشيطان إنه لكم عدوٌ مبين ۞ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون } [البقرة : ١٦٨،١٦٩] .

ولذا كان القول على الله بغير علم من أصول المحرمات ، كما قال تعالى : { قل إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون } [الأعراف : ٣٣] .

ولذلك خُتمت الآية بهذا التحذير : { واتقوا الله } [الحجرات : ١] أي خافوه واحذروا غضبه وعقابه إن خالفتم أمره ، أو ارتكبتم نهيه ، { إن الله سميع } يسمع كل ما تتكلمون به { عليم } يعلم ما تسرّون وما تعلنون ، وسيجزيكم به ، فاتقوا الله ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، وهكذا علّم الله تعالى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كيف يتأدبون مع الله ورسوله ، فكيف تلقى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآداب ؟ لقد تلقوها بالسمع والطاعة ، وتأدبوا بها كما أراد الله عز وجل ، فما عاد مقترح يقترح على الله ورسوله اقتراحًا ، وما عاد أحد يقول في مسألة قبل أن يقول فيها الله ورسوله ، وما عاد أحد يُفتي حتى يرجع إلى الله ورسوله ، حتى بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يُسئلون عما يعلمونه علم اليقين فيسكتون خشية أن يقدموا بين يدي الله ورسوله .

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : (خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر فقال : « أتدرون أي يوم هذا ؟ » ، قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه . قال : « أليس يوم النحر ؟ » قلنا : بلى . قال : « أي شهر هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه . فقال :

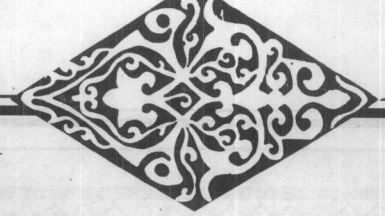

« أليس ذو الحجة ؟ » قلنا : بلى . قال : « أي بلد هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه ، قال : « أليست بالبلدة الحرام ؟ » قلنا : بلى ، قال : « فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » .

[البخاري : ١٧٣٩، مسلم : ١٦٧٩] .

فانظروا – رحمكم الله – كيف بلغ الأدب بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يُسئلون عن اليوم والشهر والبلد – مما لا يجهله عاقل – فيسكتون خشية أن يقدموا بين يدي الله ورسوله .

ولقد كانوا ، رضوان الله عليهم ، يشدّدون النكير على كل من يشعرون منه رفض السنة أو إيثار غيرها عليها ، حتى كانوا يهجرونه لذلك :

(عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها » ، فقال بلال بن عبد الله : والله لنمنعهن ، فأقبل عليه عبد الله فسبّه سبًّا سيئًا وقال : أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول : والله لنمنعهن) . [مسلم ٤٤٢] .

وعن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه : أنه رأى قريبًا له يخذف – أي يرمي حصاة بالسبابة والإبهام – فنهاه ، وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف وقال : « إنها لا تصيد صيدًا » ، ثم عاد ، فقال : أحدثك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الخذف ، ثم عدت تخذف ؛ لا أكلمك أبدًا .

[البخاري : ٥٤٧٩ ، مسلم : ١٩٥٤] .

وعن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : تمتع النبي صلى الله عليه وسلم – يعني بالعمرة إلى الحج – فقال عروة بن الزبير : نهى أبو بكر وعمر عن المتعة ، فقال ابن عباس : أراهم سيهلكون ، أقول قال النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون نهى أبو بكر وعمر . [« جامع بيان العلم وفضله » : ٢/١٩٦] .

وعن البخاري ، رحمه الله ، قال : سمعت الحميدي يقول : كنا عند الشافعي ، رحمه الله ، فأتاه رجل فسأله عن مسألة ، فقال : قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا ، فقال رجل للشافعي : ما تقول أنت ؟ فقال : سبحان الله ! تراني في كنيسة ! تراني في بيعة ! تراني على وسطي زنار ؟ أقول لك : قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تقول : ما تقول أنت ؟! [شرح الطحاوية : ص٣٩٩] .

ثم يأتي الأدب الثاني مستفتحًا بالنداء أيضًا

شحذًا للهمم واستثارة للنفوس نحو الاستجابة : { يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي } [الحجرات : ٢] في حياته في مجلسه ، فإذا كنتم عنده فغضوا من أصواتكم إذا تكلم واستمعوا له وأنصتوا ، وبعد مماته لا ترفعوا أصواتكم في مسجده ولا عند قبره ، ولا ترفعوا أصواتكم فوق سنته ، { ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض } [الحجرات : ٢] ، فهو ليس كواحد منكم ، بل هو رسول الله وخليله ، أرسله بالهدى ودين الحق لتعزّروه وتوقّروه ، ومن توقيره في حياته مخاطبته باللقب : يأيها النبي ، يأيها الرسول ، ثم تختم هذه الآية بالتحذير كسابقتها ، ولكن هذا التحذير أشد : { أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون } [الحجرات : ٢] .

فكيف تلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأدب ؟

عن ابن أبي مُليكة قال : (كاد الخَيِّران أن يهلكا ؛ أبو بكر وعمر ، رفعا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي ! قال : ما أردت خلافك ! فارتفعت أصواتهما في ذلك ، فأنزل الله : { يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم .. } الآية [الحجرات : ٢] ، قال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه ، ولم يذكر ذلك عنْ أبيه ، يعني أبا بكر) . [البخاري : ٤٨٤٥] .

وعن أبي هريرة (أنه لما نزلت الآية قال أبو بكر : يا رسول الله ! والله لا أكلمك إلا كأخي السرار) . [الحاكم (٢/٤٦٢)] . أي كالذي يحدث أخاه سرًّا ، فهو يغضض من صوته خشية أن يسمعه الآخرون .

هكذا تلقوا هذا الأدب عن الله وتأدبوا به ، وأبلغ من ذلك في الأدب وأعظم في الروعة ما فعله ثابت بن قيس ، رضي الله ، عنه ، وكان جهير الصوت ، إذا تحدث ارتفع صوته بغير تكلف ، فلما نزلت هذه الآية ظن أنها نزلت فيه ، فكيف كان استقباله لها ؟

عن أنس بن مالك : (أن النبي صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله ! أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده جالسًا في بيته ، منكسًا رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شرٌّ ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد حبط عمله ، وهو من أهل النار ، فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره أنه قال كذا وكذا ، فقال صلى الله عليه وسلم : " اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة ") . [البخاري : ٤٨٤٦] .

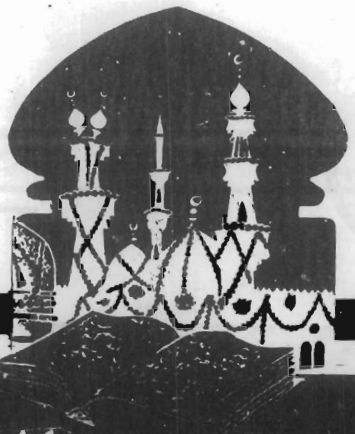

باب التفسير

منهج التلقي بين السلف والخلف

الحلقة الأخيرة

بقلم فضيلة الشيخ / عبد العظيم بدوي

قال الله تعالى: ﴿لن تنالوا البرَّ حتى تُنفِقُوا مما تحبون وما تُنفِقُوا من شيءٍ فإنَّ اللَّه به عليم﴾ [آل عمران: ٩٢].

البر في الآية هو الجنة، والجنة عند أولئك القوم أقصى أمانيهم، يدل على ذلك ما حكى الله من أعمالهم ودعائهم، قال تعالى: {أمَّن هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا} [الزمر: ٩]، لماذا؟ {يَحذَر الآخرةَ ويرجو رحمة ربه} [الزمر: ٩]، وهي الجنة. وقال تعالى: {والذين يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا} [الفرقان: ٦٤] لماذا؟ {والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غرامًا ۞ إنها ساءت مستقرًا ومقامًا} [الفرقان: ٥٦، ٦٦].

والله سبحانه، وهو اللطيف الخبير، يرشدهم في هذه الآية إلى ما يحقق لهم أمانيهم، فيقول: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ [آل عمران: ٩٢]، فالإنفاق في سبيل الله، ابتغاء مرضاة الله هو السبيل إلى رحمة الله، لأن من آتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين رجل رحيم، رحم ضعف هؤلاء وعجزهم، وتألم لفقدهم ما يحتاجون فرحمهم، و" الراحمون يرحمهم الرحمن "، فلما رحم الأرملة واليتيم، والفقير والمسكين، رحمه الله فأدخله في رحمته وهي الجنة، كما قال تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا ۞ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورًا ۞ إنا نخاف من ربنا يومًا عبوسًا قمطريرًا ۞ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورًا ۞ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا﴾ [الإنسان: ٨-١٢].

والإنفاق في سبيل الله إحسان إلى عباد الله ، والله يحب المحسنين ، كما قال تعالى : ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، فمن آتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين فقد أحسن إليهم ، و﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ [الرحمن : ٦٠] ؟ قال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ [يونس : ٢٦] ، وقد فسّر النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ الحسنى ﴾ : بالجنة ، والزيادة : بالنظر إلى وجه الله تعالى . وقد صرح القرآن الكريم بأن جزاء المحسنين الجنة ، قال تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ۞ آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ [الذاريات : ١٥،١٦] ، ثم فسر إحسانهم ، فقال : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ۞ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ [الذاريات : ١٧،١٨] ، وهذا إحسانهم فيما بينهم وبين الله ، ثم قال : ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ [الذاريات : ١٩] ، وهذا إحسانهم فيما بينهم وبين عباد الله .

والآيات والأحاديث في الحث على الإنفاق والتحذير من البخل كثيرة ، والذي يهمنا هنا كيف تلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ؟

لقد سجلت لنا السنة النبوية المطهرة مثالاً رائعًا في تلقي الصحابة هذه الآية بالسمع والطاعة وسرعة الاستجابة : روى الشيخان من حديث أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، قال : كان أبو طلحة ، رضي الله عنه ، أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بيرُحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال أنس : فلما نزلت هذه الآية : ﴿ لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، جاء أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله إن الله تعالى أنزل عليك : ﴿ لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، وإن أحب مالي إليّ بيرُحاء ، وإنها صدقة لله تعالى ، أرجو برّها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بخٍ ، ذلك مالٌ رابح ، ذلك مالٌ رابح ، وقد سمعتُ ما قلت ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين » . فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه .

فتأملوا – رحمكم الله – كيف استجاب أبو طلحة ، رضي الله عنه ، لإرشاد الله ، وبادر إلى الخروج من أحب أمواله إليه رجاء رحمة الله ، وكيف استجاب لإرشاد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أشار عليه أن يجعلها في أقاربه ، فقال : أفعل يا رسول الله ؟! فقسمها في أقاربه وبني عمه .

وهكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يُبادرون إلى تنفيذ كل ما يُتلى عليهم ، أمرًا كان أو نهيًا ، واجبًا كان المأمور به أو مندوبًا ، محرّمًا كان المنهي عنه أو مكروهًا :

فتشبّهوا إن لم تكونوا مثلهم
إن التشبه بالكرام فلاح

ولقد أمركم الله تعالى أن تكونوا معهم ، وأن تسلكوا سبيلهم ، فقال سبحانه : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [التوبة : ١١٩] ، وحذر سبحانه من مخالفة سبيلهم ، فقال : ﴿ ومن يشاقق الرسولَ من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] .

نعوذ بالله من الخذلان ، ونسأله الهداية والتوفيق ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ، ورضي عن أصحابه أجمعين .

بيعة النساء

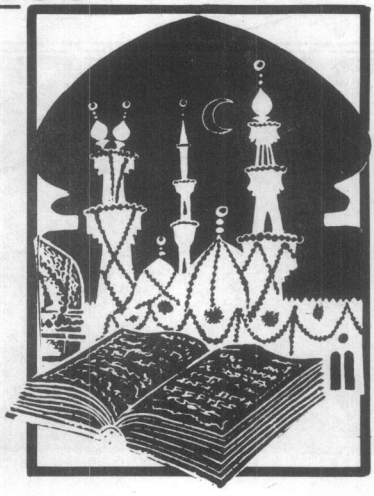

﴿ يأيها النبي إذا جاءك المؤمناتُ يُبايعنك على أن لا يُشركنَ باللّه شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ ولا يعصينك في معروفٍ فبايعهنّ واستغفر لهنّ اللّه إن اللّهَ غفورٌ رحيمٌ ﴾ [الممتحنة : ١٢] .

تُسمى هذه الآية آية البيعة ، بيعة النساء ، وقد نزلت بعد صلح الحديبية ، وكان من شروطه ؛ أن من جاء محمدًا من قريش ردّه على قريش ، ومن جاء قريشًا من محمد لم يردوه عليه ، فنزلت الآية تستثني النساء لضعفهن وعجزهن ، وعدم الأمن عليهن إذا هاجرن إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، ثم رَدّهن ، فكان صلى اللّه عليه وسلم يمتحن من هاجر إليه من النساء بهذه الآية ، ثم كان يذكرهن بها في الأعياد وغيرها : عن ابن عباس ، رضي اللّه عنهما ، قال : (شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، رضي اللّه عنهم ، فكلهم يصليها قبل الخطبة ، ثم يخطب بعدُ ، فنزل نبي اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فكأني أنظر إليه حين يُجلّس الرجال بيده ، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال ، فقال : ﴿ يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن باللّه شيئًا .. ﴾ حتى فرغ من الآية كلها) . [البخاري : ٤٨٩٥] .

كما كان صلى اللّه عليه وسلم يبايع الرجال أيضًا على هذه الآية :

عن عبادة بن الصامت ، رضي اللّه عنه ، قال : (كنا عند النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقال : " أتبايعوني على أن لا تشركوا باللّه شيئًا ولا تزنوا ولا تسرقوا ؟ " . وقرأ آية النساء - يعني : ﴿ إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾) . [البخاري : ٤٨٩٤] .

وأصل البيعة المعاقدة والمعاهدة على السمع والطاعة وعدم المعصية ، وهي لا تكون إلا من أهل الحل - والعقد وهم العلماء - لمن يرضونه إمامًا للمسلمين وأميرًا لهم ، ولا يجوز أن تتعدد هذه البيعة ، ولذلك قال صلى اللّه عليه وسلم : " إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما " . [مسلم : ١٨٥٣] .

ولا يجوز لأي شخص كان غير إمام المسلمين أن يأخذ من أتباعه بيعة ، ولا يعطي مريديه

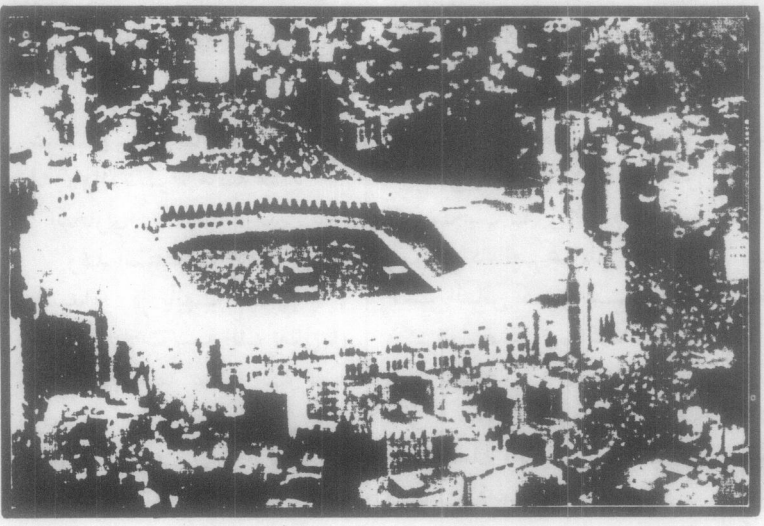

بقلم فضيلة الشيخ :

عبد العظيم بدوي

عهدًا يشترط عليهم به الطاعة مطلقًا ، ويحرم عليهم به معصيته مطلقًا ، أو يشترط عليهم الولاء لأتباعه ومريديه دون غيرهم من صالح المؤمنين . [" مجموع فتاوى ابن تيمية " (ج٢٨ ص١٥، ١٦)] .

فمن فعل ذلك فقد اتبع الهوى وخالف الهدى ، وشاقّ اللّه ورسوله ، وخالف جماعة المسلمين ، واتبع غير سبيل المؤمنين ؛ لأن هذه البيعات والعهود التي يعطيها مشايخ الطرق وأمراء الأحزاب والجماعات شقت عصا جماعة المسلمين ، وفرقت جمعهم ، ومزقت شملهم ، وجعلتهم شيعًا وأحزابًا : ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [المؤمنون : ٥٣] .

والأصل في المسلمين أنهم أمة واحدة ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، وأصل الولاء والبراء عندهم مبني على قاعدتين :

– الأولى : ﴿ إنما وليكم اللّه ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ۞ ومن يتولّ اللّه ورسوله والذين آمنوا فإن حزب اللّه هم الغالبون ﴾ [المائدة : ٥٥، ٥٦] .

– والثانية : ﴿ لا تجد قومًا يؤمنون باللّه واليوم الآخر يوادُّون من حادّ اللّه ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي اللّه عنهم ورضوا عنه أولئك حزب اللّه ألا إنّ حزب اللّه هم المفلحون ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

فالأصل في المؤمنين أنهم إخوة متحابون ، وكل مؤمن يدين للّه بحب الصالحين من المؤمنين في كل مكان ، من يعرف منهم ومن لا يعرف ، ويتبرأ المؤمن من أعداء اللّه في كل مكان ، من يعرف منهم ومن لا يعرف ، ولكن العهود والبيعات تجعل الولاء لكل من أخذ العهد من الشيخ أو الأمير أو أعطاه البيعة ، والبراء من كل من لم يأخذ عهدًا ولم يعط بيعة ، وقد يكون من حملة العهود الفسقة ، وممن لم يحملوها الصالحون ، ومع ذلك فالعهد والبيعة تلزم آخذها بولاء إخوانه فيها ، والبراء ممن لم يأخذوها ، فيقع المسلم في محظور شديد وهو محاربة أولياء اللّه وهو لا يدري .

فعلى شباب المسلمين أن ينتبهوا لخطورة هذه البيعات ، وأن يكونوا منها على حذر ، فإنه ليس في الإسلام إلا بيعة واحدة ، هي بيعة أهل الحل والعقد لمن يرتضونه إمام المسلمين ، فيبايعونه ، ثم يبايعه العامة ، وما بعد ذلك إلا التناصح والتشاور ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

وعلى كل من أعطى بيعة أو أخذ عهدًا أن يعلم أنها ليست ملزمة ، وأنه في حل منها دون مراجعة شيخه أو أميره ، لقول النبي صلى اللّه عليه وسلم : " ما بال أناس يشترطون شروطًا ليست في كتاب اللّه ؟ من اشترط

شرطًا ليس في كتاب الله فليس له ، وإن شرط مائة مرة » . [البخاري : ٢٥٦١] .

وقد استفتحت الآية بهذا النداء : ﴿ يأيها النبي ﴾ ، وهكذا جرت سنة الله تعالى في نداء خليله محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ يأيها النبي ﴾ ، ﴿ يأيها الرسول ﴾ ، تعليمًا للمؤمنين أنه يجب عليهم أن يعزروا النبي صلى الله عليه وسلم ويوقروه ، ويجلوه ويحترموه ، حتى في النداء والمخاطبة ، كما قال تعالى : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا ﴾ [النور : ٦٣] .

﴿ إذا جاءك المؤمنات ﴾ مهاجرات ﴿ يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئًا ﴾ ، فهذا هو مفتاح الدخول في الإسلام ، وهو أول واجب على المكلف ، أن يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، ومعنى لا إله إلاَّ الله ؛ أي لا معبود بحق إلا الله ؛ لأنه : ﴿ الذي خلق فسوى ۞ والذي قدر فهدى ۞ والذي أخرج المرعى ﴾ [الأعلى : ٢-٤] ، ﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ [الروم : ٤٠] ، ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ [النحل : ١٧] ، فالله تعالى هو الذي خلق وحده ، فوجب أن يُعبد وحده ، ومن علم أنه لا إله إلا الله ، فلا يجوز له أن يدعو مع الله إلهًا آخر ، فإنْ فعل فقد ضلَّ ضلالاً مبينًا ، وظلم نفسه ظلمًا عظيمًا ، قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ۞ وإذا حُشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ [الأحقاف : ٥،٦] ، وقال تعالى : ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذًا من الظالمين ﴾ [يونس : ١٠٦] ، وقال تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدًا ﴾ [النساء : ١١٦] ، وقال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : ١٣] .

ولقد جرت سنة الله تعالى بإرسال الرسل من الشرك محذرين ، وإلى التوحيد داعين ؛ قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [النحل : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ [النحل : ٢] .

فيا معشر المسلمين والمسلمات لا تشركوا بالله شيئًا ، ﴿ إنه من يُشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ [المائدة : ٧٢] ، واصبروا على التوحيد حتى تلقوا الله ، فإن الله تعالى قال في الحديث القدسي : « يابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة » . [ص ج : ٤٢١٤] .

﴿ ولا يسرقن ﴾ من أزواجهن ولا من غيرهم ، فإن السرقة حرام ، حرّمها الله ورسوله ، فهي حرام إلى يوم القيامة ، وهي كبيرة من الكبائر توجب قطع اليد في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم ﴾ [المائدة : ٣٨] ، ويلحق بالسرقة الغلول والخيانة والنهب والاختلاس من الأموال العامة ، قال تعالى : ﴿ وما كان لنبي أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ [آل عمران : ١٦١]، وقال صلى الله عليه وسلم : « من استعملناه على عمل فكتمنا مخيطًا فما فوقه كان غلولاً يأتي به يوم القيامة » . [البخاري : ٦٩٧٩] .

﴿ ولا يزنين ﴾ ؛ فإن الزنا حرام ، حرمه الله ورسوله ، فهو حرام إلى يوم القيامة ، ولقد شدد الله العقوبة فيه ، فجعلها في حق الأعزب مائة جلدة ونفي عام ، وجعلها في حق من أحصن من الرجال والنساء الرجم بالحجارة حتى الموت .

فيا معشر المسلمات احفظن فروجكن ، ولا توطئن فرشكن غير أزواجكن : ﴿ واتقينَ اللّه إنّ اللّه كان على كل شيء شهيدًا ﴾ [الأحزاب : ٥٥] .

ويا معشر المسلمين : « كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه ، وماله ، وعرضه » ، فعظموا حرمات المسلمين ، وصونوا أعراضهم ، وإذا هَمَّ أحدكم بانتهاك عرض مسلم فليسأل نفسه : أترضه لأمك ؟ أترضه لأختك ؟ أترضه لزوجتك ؟ أترضه لابنتك ؟ وليعلم أن الجزاء من جنس العمل ، وكما تدين تدان .

﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ خشية الفقر أو العار ، كما كانت عادة الجاهلية ، وقد حرمها الإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئًا كبيرًا ﴾ [الإسراء : ٣١] .

﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ ؛ أي لا تأتي بولد تلتقطه من الطريق ، وتقول لزوجها : هذا ولدي منك وتنسبه إليه ، فإن ذلك حرام .

﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ ؛ تعميم بعد تخصيص ، ويدخل فيه كل ما يأمر به النبي صلى اللّه عليه وسلم من الخير ، وكل ما ينهى عنه من الشر ، لكنه قد خصص ببعض الأفراد ، كالحجاب ، والحشمة ، والتبرج ، والسفور ، والرضا والصبر عند المصيبة ، ولطم الخدود ، وشق الجيوب .

ولكن تقييده سبحانه لطاعة نبيه بالمعروف - وهو لا يأمر إلا به - إنما هو تأكيد على عباده أن لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولو كان الآمر بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - وحاشاه -، فما دونه أولى .

فعلى شباب المسلمين أن يعوا هذه الحقيقة ؛ وأن يعلموا أنه ليس هناك أحد تجب طاعته مطلقًا سوى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وكل من عداه يأخذ منه ويرد عليه ، فعلينا أن نجلّ العلماء ونحترمهم ، وليس لنا أن نغلو فيهم حتى نعتقد إحاطتهم علمًا بكل شيء ، وعصمتهم من الزلل ، فما أمروا به ائتمرنا به مطلقًا ولو كان خطأ ، وما نهوا عنه انتهينا عنه مطلقًا ولو كان صوابًا ، بل يجب علينا أن نوطن أنفسنا على قبول الحق من أي أحد ، ورفض الباطل ولو كان من الشيخ أو الأمير .

﴿ فبايعهن واستغفر لهن اللّه إن اللّه غفور رحيم ﴾ ؛ قالت عائشة ، رضي اللّه عنها : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ، فمن أقرّ بهذا الشرط منهن قال لها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « قد بايعتك كلامًا » ، لا واللّه ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ، ما بايعهن إلا بقوله : « قد بايعتكن على ذلك ») . [البخاري : ٤٨٩١] .

أرادت عائشة ، رضي اللّه عنها ، بذلك نفي أن يفهم من العادة أنه عند البيعة يأخذ الرسول صلى اللّه عليه وسلم بيد من يبايعه ، أنه قد أخذ أيضًا بأيدي النساء ، فصرحت بالنفي ، ولم تكتف به حتى أكدته بالقسم : لا واللّه ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة .

فمس الرجل يد المرأة حرام ، حذر منه النبي صلى اللّه عليه وسلم بقوله : « لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له » . [صحيح : ٤٩٢١] .

فاتقوا اللّه معشر المسلمين ولا تصافحوا النساء ، فإن مصافحتهن حرام ، واتقين اللّه معشر المسلمات ، ولا تمددن أحدكن يدها إلى أجنبي ، فإن وضع يدك في يد رجل أجنبي يُعدُّ في نظر الإسلام زنًا ، كما قال صلى اللّه عليه وسلم : « كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنا ، مدرك ذلك لا محالة ؛ فالعينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرِّجل زناها الخطا ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج ويكذبه » . [مسلم : ٢٦٥٧] .

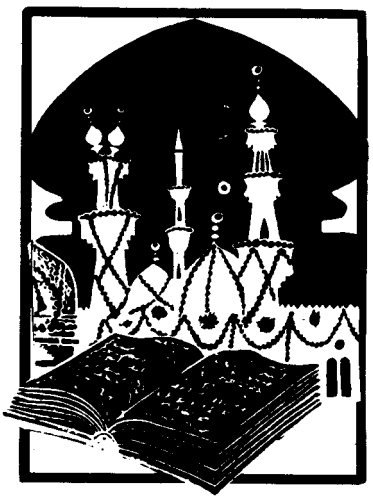

قانون الأخلاق

بقلم فضيلة الشيخ

عبد العظيم بدوي

﴿ خُذ العفوَ وأمُر بالعُرف وأعْرِض عن الجاهلين ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

عن عبد اللّه بن الزبير قال : ما أنزل اللّه هذه الآية إلا في أخلاق الناس . [البخاري : ٤٦٤٣] .

وقال جعفر الصادق : ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية . [القرطبي : ٣٤٥/٧] .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي : قال علماؤنا : هذه الآية من ثلاث كلمات ، قد تضمنت أصول الشريعة المأمورات والمنهيات ، حتى لم يبق فيها حسنة إلا أوضحتها ، ولا سيئة إلا شرحتها ، ولا أكرومة إلا افتتحتها . [" أحكام القرآن " : ٨٢٦/٢] .

وهذا يدل على منزلة الأخلاق في الدين ومكانتها الرفيعة فيه .

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

لذلك اهتم النبي صلى اللّه عليه وسلم بالأخلاق اهتمامًا ، وبالغ في توكيدها وبيان منزلتها ، فقال : " إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق " . [البخاري في " الأدب المفرد " (٢٧٣)] .

وكان يقول : " إن مِن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا " . [الترمذي : ٢٠٨٧] . " ما من شيء أثقل في ميزان العبد يوم القيامة من حسن الخلق " . [أبو داود : ٤٧٧٨] . " أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلقًا " . [الترمذي : ١١٧٢] . " إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم " [أبو داود : ٤٧٧٧] .

وهذه الآية جامعة لحُسن الخُلق مع الناس وما ينبغي في معاملتهم ، فهي تأمر النبي صلى اللّه عليه وسلم ومن آمن معه أن يأخذ من الناس العفو ، وهو ما سمحت به نفوسهم وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق ، فلا يكلفهم ما لا يملكون ، ولا يسألهم ما لا يجدون ، بل يقبل منهم القليل ويتجاوز عن الكثير ، وأن يعاملهم باللطف واللين ، والعطف على الكبير والصغير ، حتى تنشرح له

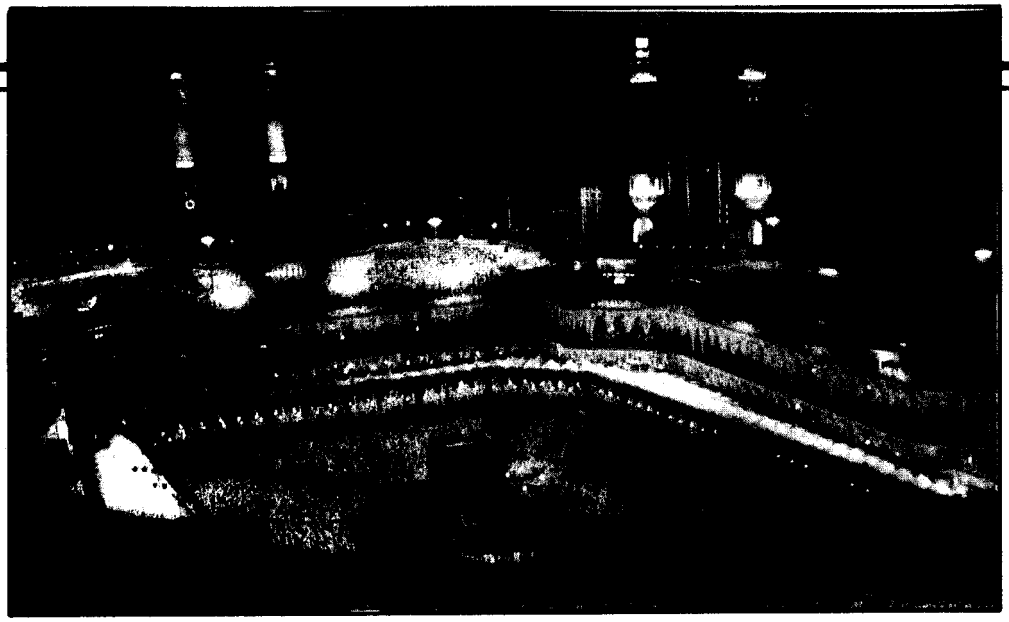

صدورهم ، وترتاح لـه نفوسهم ، وتمتلأ بحبه قلوبهم .

هكذا كان صلى الله عليه وسلم . فلقد كان يُنزل الناس منازلهم ، ويُقابل كل أحد بما يليق به ؛ فكان يرحم الصغير ويداعبه ، ويتواضع للكبير ويمازحه .

وعن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قبّل النبيُّ صلى الله عليه وسلم الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدا ، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : " من لا يرحم لا يُرحم " . متفق عليه

وعن أنس ، رضي الله عنه ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خُلقا ، وكان لي أخ يقال له : أبو عمير - وهو فطيم - فكان إذا جاء قال : " يا أبا عُمير ما فعل النُّغير " . تصغير النغر ، وهو طائر صغير كالعصفور ، كان الصبي يلعب به . أخرجه البخاري : ٦٢٠٣ .

وعن أنس قال : كانت الأَمة من إماء المدينة تأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت . [البخاري : ٦٠٧٢] .

وعنه : أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، احملني ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « **فإنّا حاملوك على ولد ناقة؟** » . قال : وما أصنع بولد الناقة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " وهل تلدُ الإبل إلا النوق ؟ " . [أبو داود : ٤٩٩٧ ، والترمذي : ١٩٩١] .

وكان صلى الله عليه وسلم يغض طرفه عن تقصيرهم وزلاتهم ، ويعفو عن سيئاتهم ؛ ولما أراد صلى الله عليه وسلم أن يفتح مكة سأل الله أن يعمي عنهم خبره ، حتى يدخلها فاتحا دون قتال ولا سفك دماء ، فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فسبق الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث من أحضر الكتاب ، ثم قال : ما هذا يا حاطب ؟ فاعتذر إليه حاطب ، فقبل عذره ، وقال لأصحابه : " إنه قد صدقكم " . فقال عمر : دعني أضرب عنقه ، فقال صلى الله عليه وسلم : " إنه قد شهد بدرا ، وما يُدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " . [البخاري : ٤٨٩٠] .

وعن ابن مسعود ، رضي اللّه عنه ، قال : لما كان يوم حنين آثر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ناسًا في القسمة ؛ فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عمران بن حصين مثل ذلك ، وأعطى ناسًا من أشراف العرب **وآثرهم في القسمة ، فقال رجل : واللّه إن** هذه قسمة ما عُدل فيها ، وما أريد بها وجه اللّه ، فقلت : واللّه لأخبرن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فأتيته فأخبرته بما قال : فتغير وجهه ، حتى كان كالصِّرف ، ثم قال : « فمن يعدل إذا لم يعدل اللّه ورسوله ؟! » . ثم قال : « يرحم اللّه موسى ، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر » . [البخاري : ٤٣٣٥] .

وبمثل هذه الأخلاق كسب النبي صلى اللّه عليه وسلم الناس واستمالهم إليه ، وحببهم فيه وفي دينه ، فآمنوا به وعزّروه ونصروه ، ولقد امتنّ اللّه عليه بذلك فقال : ﴿ فبما رحمة من اللّه لنت لهم ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وكان صلى اللّه عليه وسلم دائمًا يأمر أصحابه بمثل هذه الأخلاق ؛ فعن أبي هريرة ، رضي اللّه عنه ، قال : بال أعرابي في المسجد ، فقام الناس إليه ليقعوا فيه ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : « دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء ، أو ذنوبًا من ماء ، فإنما بُعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » . [البخاري : ٣٢٣] .

وعن أنس ، رضي اللّه عنه ، عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : « يسّروا ولا تعسّروا ، وبشّروا ولا تنفروا » . [البخاري : ١٦٣] .

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف ﴾ ؛ وهو كل قول حسن ، وفعل جميل ، وخلق كامل ، وهكذا كان النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فما كان يأمر إلا ببر الوالدين ، وصلة الرحم ، والإحسان للناس ، والإصلاح بينهم ، وما كان ينهى إلا عن كل قبيح من الأقوال والأفعال ، كان ينهى عن العقوق والقطيعة والإساءة إلى الناس ، وكان ينهى عن قول الزور ، والكذب ، والسبّ والشتم ، والغيبة ، والنميمة ، وكان يقول : « ليس المؤمن بطعان ولا لعان ، ولا فاحش ولا بذيء » . [الترمذي : ٢٠٤٢] ، وقد أجمل اللّه تعالى دعوة نبيه صلى اللّه عليه وسلم في قوله : ﴿ إن اللّه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ [النحل : ٩٠] .

ولما كان الآمر الناهي لا بد أن يجهل عليه جهلة الناس ويؤذيه سفهاؤهم قال تعالى : ﴿ **وأعرض عن** الجاهلين ﴾ ؛ فمن آذاك بقوله أو فعله فلا تؤذه ، ومن حرمك فلا تحرمه ، ومن قطعك فصله ، ومن ظلمك فاعدل معه . وهكذا كان صلى اللّه عليه وسلم .

عن عائشة ، رضي اللّه عنها ، قالت : قلت : يا رسول اللّه ، هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : « لقد لقيت من قومك وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، وإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل، عليه السلام ، فناداني فقال : إن اللّه تعالى قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك

الجبال فسلّم عليّ ، ثم قال : يا محمد إن اللّه قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال قد بعثني ربّك إليك لتأمرني بأمرك ، فما شئتَ ؟ إن شئتَ أطبقتُ عليهم الأخشبين ؟ " . فقال صلى اللّه عليه وسلم : " بل أرجو أن يُخرج اللّه من أصلابهم من يعبد اللّه وحده لا يشرك به شيئًا " . [متفق عليه] .

وعن أنس قال : كنت أمشي مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وعليه بُردٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة ، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى اللّه عليه وسلم وقد أثرت بها حاشية البُرد من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مُرْ لي من مال اللّه الذي عندك ، فالتفت إليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ثم ضحك ، ثم أمر له بعطاء . [البخاري : ٥٨٠٩] .

ومثل هذه الأخلاق كان صلى اللّه عليه وسلم يأمر أصحابه ؛ فعن عقبة بن عامر قال : لقيني رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فابتدأني فأخذ بيدي وقال : " يا عقبة ، صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك " . [أحمد : ٣٥/١٨٤/١٩ : الفتح الرباني] .

وعن أبي هريرة ، رضي اللّه عنه ؛ أن رجلاً قال : يا رسول اللّه ، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ ، وأحلم عليهم ويجهلون علي ، فقال : " لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل - هو : الرماد الحار - ولا يزال معك من اللّه ظهير عليهم ما دمتَ على ذلك " . [مسلم : ٢٥٥٨] .

وقد استجابوا ، رضي اللّه عنهم ، للّه ورسوله ، وتخلقوا بمكارم الأخلاق طاعة للّه ورسوله . فها هو أبو بكر ، رضي اللّه عنه ، لما نزلت براءة عائشة ، رضي اللّه عنها ، من فوق سبع سموات قال : واللّه لا أعود أنفق على مسطح - وكان قريبًا له ، وكان أبو بكر ينفق عليه لقرابته وفقره ، فوقع في حديث الإفك - فقال أبو بكر ما قال ؛ فأنزل اللّه تعالى : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل اللّه وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر اللّه لكم و اللّه غفور رحيم ﴾ [النور : ٢٢] ، فقال أبو بكر : بلى واللّه إني لأحب أن يغفر اللّه لي ، ثم ردّ على مسطح ما كان قطعه عنه . [البخاري : ٤٧٥٧] .

وعن ابن عباس ، رضي اللّه عنهما ، قال : قدم عُيينة بن حصن ، فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، رضي اللّه عنه ، وكان القرّاء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شُبانا ، فقال عيينة لابن أخيه : يابن أخي لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه ، فاستأذن له فأذن له عمر ، رضي اللّه عنه ، فلما دخل قال : هيْ يابن الخطاب ! فواللّه ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر ، رضي اللّه عنه ، حتى همّ أن يوقع به ، فقال له الحرّ : يا أمير المؤمنين قال اللّه تعالى لنبيه صلى اللّه عليه وسلم : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ، وإن هذا من الجاهلين ، واللّه ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقّافًا عند كتاب اللّه تعالى . [البخاري : ٤٦٤٢] .

هكذا يجب أن نكون ، يجب أن نكون وقافين عند كتاب اللّه ، إذا أمر قلنا : سمعنا وأطعنا ، وإذا نهى قلنا : سمعنا وأطعنا : ﴿ ومن يطع اللّه ورسوله ويخش اللّه ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ [النور : ٥٢] .

* * *

بقلم فضيلة الشيخ / عبد العظيم بدوي

قانون الأخلاق

يقول اللّه تعالى : ﴿ يأيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون اللّه لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ [الحج : ٧٣] .

لا بد للناس من إله يعبدونه ؛ يدعونه ويسألونه ، ويستعينون به ويلجئون إليه ويتوكلون عليه ، يتولونه ويتولاهم ، ويحفظهم ويرعاهم ، فيشعرون بالراحة في جواره ، والطمأنينة في ذكره ، والأمن والأمان في رحابه ، ولا بد لهذا الإله من أن يكون سميعًا بصيرًا ، عليمًا قديرًا ، غنيًّا حكيمًا ، لا يعجز عن شيء ، ولا يُعجزه شيء ، يجيب من دعاه ، ويُعطي من سأله ، ويعين من استعانه ، ويجير من استجاره ، ويعصم من توكل عليه ، وليس في الوجود من هو بهذه الصفات إلا اللّه ، سبحانه وتعالى ؛ ولذلك عبده أولو الأحلام والنهى وتولونه ، وانصرف الصم البكم الذين لا يعقلون عن عبادته إلى عبادة غيره .

وقد كثر في القرآن الكريم الإنكار عليهم ومجادلتهم بالحسنى لبيان بطلان استحقاق هذه الآلهة التي عبدوها من دون اللّه للعبادة .

تقرأ في القرآن الكريم قول اللّه تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد اللّه على حرفٍ فإن أصابه خيرٌ اطمأن به وإن أصابتهُ فتنةٌ انقلب على وجهه خَسِرَ الدُّنيا والآخرة ذلك هو الخُسْرانُ المبين ۞ يدعُو من دون اللّه ما لا يضُرُّهُ وما لا ينفعه ذلك هو الضلالُ البعيدُ ۞ يدعُو لمن ضرُّهُ أقربُ من نفعه لبئس المولى ولبئس العشيرُ ﴾ [الحج : ١١-١٣] .

وتقرأ : ﴿ ويعبدون من دون اللّه ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه قل أتنبئون اللّه بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يُشركون ﴾ [يونس : ١٨] .

وتقرأ : ﴿ ويعبدون من دُون اللّه ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربّه ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٥] .

وتقرأ : ﴿ إن الذين تدعون من دون اللّه عبادٌ أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ۞ أَلَهُمْ أرْجُلٌ يمشُونَ بها أم لهم أيدٍ يبطشُون بها أم لهم أعينٌ يُبصرون بها أم لهم آذانٌ يسمعون بها قل ادعوا شُركاءكم ثم كيدون فلا تُنظرون ﴾ [الأعراف : ١٩٤،١٩٥] .

وتقرأ : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون

❑ الذي نريد أن نحذر منه هو أنه سيكون في آخر الزمان من يقتل الرجل ثم يُعيده ، وهذه فتنة عظيمة يخشى على كثير من الناس أن تفتنهم ؛ إنها فتنة الدجال .

❑ إن مع الدجال إذا خرج ماء ونار ، فأما الذي يرى الناس أنها نار فماء بارد ، وأما الذي يرى الناس أنه ماء فهي نار تحرق ، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يرى أنها نار ، فإنه عذب بارد .

بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ [فاطر : ١٤] .

وتقرأ القرآن الكريم فترى إبراهيم الخليل يجادل قومه ليبين لهم بطلان ما هم عليه من التعبد لغير الله ، فيقول : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ۞ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ۞ قالوا نعبدُ أصنامًا فنظلُّ لها عاكفين ۞ قال هل يسمعونكم إذ تدعون ۞ أو ينفعونكم أو يضرون ۞ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ الآيات [الشعراء : ٦٩-٧٤] .

فبطل ما كانوا يعبدون ؛ لأن ما يعبدونهم لا يسمعون إذ يدعون ، ولا ينفعونهم ولا يضرون ، ولا يخلقون ولا يرزقون ، ولا يُحيون ولا يميتون ، وثبت أن الله تعالى هو الإله الحق ؛ لأنه : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ [الشعراء : ٧٨] .

فالخلق والإيجاد والإحياء والإماتة وإجابة الداعي وإعطاء السائل ؛ هذه مقتضيات الربوبية الحقة ، والألوهية الحقة ، فمن لم يكن كذلك لا يمكن أن يكون ربًا يُدعى ولا إلهًا يُعبد .

ولذلك كثر في القرآن الكريم أيضًا التنديد بعبادة ما لا يَخلق شيئًا وهم يُخلقون ، قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ [الأنعام : ١] أي ؛ أن الله خلق السموات والأرض وحده وجعل الظلمات والنور وحده ، ثم بعد ذلك اتخذ الكفار من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله ، فكيف يكون هذا ؟! ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكَّرُون ۞ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفورٌ رحيم ۞ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ۞ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم يُخلقون ۞ أموات غيرُ أحياء وما يشعرون أيَّان يُبعثون ﴾ [النحل : ١٧-٢١] ، وقال تعالى : ﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يُميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يُشركون ﴾ [الروم : ٤٠] .

وهذه الآية التي معنا بلغت في تعجيز وتحقير ما يعبدون من دون الله مبلغًا ، فالله تعالى ينادي على الناس جميعًا ويأمرهم أن يستمعوا وينصتوا ليتدبروا ويفهموا ما يُذكِّرهم به ، فيقول سبحانه : ﴿ يأيها الناس ضُرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له ﴾ . كل من تدعون من دون الله من آلهة مدعاة من أصنام وأوثان ومن أشخاص وقيم وأوضاع يستنصرون بها من دون الله ويستعينون بها ويطلبون منها النصر كلهم : ﴿ لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له ﴾ .

والذباب صغير حقير ، ومثله هؤلاء الذين يدعونهم آلهة لا يقدرون ، ولو اجتمعوا ما قدروا على خلق الذباب[1] لماذا ؟ في هذا الذباب سر الحياة ، فالروح غيب من عند الله لا يدركه سواه وسر من أسراره القدسية أودعه هذا

المخلوق الضعيف ، وهذه الروح لا يقدر أحد أن يهبها ولا يقدر أن يسلبها ؛ ولذلك عاب الله تعالى على المصوِّرين الذين يصنعون الصور والتماثيل يضاهئون بها خلق الله ، عاب عليهم هذا التصوير وأنكره ، وبين عجزهم من أن يهبوا هذه الصور سر الحياة ، وقال كما في « الصحيح » عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، أنه دخل دار مروان فرأى فيها تصاوير ، فقال أبو هريرة ، رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله ، عز وجل : ومن أظلم ممن ذهب يَخلق خلقاً كخلقي ، فليخلقوا ذرة أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة »[٢] . والمعنى : فليخلقوا مثقال ذرة أي نملة فيها روح تتصرف بنفسها كهذه الذرة التي خلق الله تعالى ، أو ليخلقوا حبة قمح أو شعير فيها طعم وتُوكل وتنبت ، ويوجد فيها ما يوجد في حبة الحنطة والشعير ونحوهما من الحب ، وأنى لهم ذلك .

فالحياة لا يهبها إلا الله ، ولا يسلبها إلا الله ، وكما يعجز الخلق أجمعين أن يهبوا الحياة لأحد ؛ كذلك يعجزون أجمعين أن يَمنعوا سلبها واستردادها من أحد .

قال تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ۞ وأنتم حينئذٍ تنظرون ۞ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ۞ فلولا إن كنتم غير مدينين ۞ ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ [الواقعة : ٨٣-٨٧] .

فتبين لنا من كل ذلك أن الله هو الذي يخلق ؛ والخلق معناه : الإيجاد على غير مثال سابق ، وأن الله هو الذي يحيي ويُميت ، فلا يَهب الحياة للذرة إلا هو ، ولا يهب العقل إلا هو ، وهو الذي إذا شاء سلب الحياة ممن شاء ، فلا يسلبها أحد ولا يردها ؛ ولذلك كان من مناظرة إبراهيم النمرود ما حكاه الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

وهكذا نرى إبراهيم ، عليه السلام ، يركز في التعريف بربه على الإحياء والإماتة ؛ لأنه عليه السلام وهو الذي آتاه الله رشده يعلم علم اليقين أن الإحياء والإماتة من خصائص الرب سبحانه لا يشاركه أحد فيها ، فهو حين يجادل قومه يقول : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ۞ والذي هو يطعمني ويسقين ۞ وإذا مرضت فهو يشفين ۞ والذي يميتني ثم يحيين ۞ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ [الشعراء : ٧٨-٨٢] .

وحين يجادل ملك قومه يقول : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ ، فتصور الملِكُ أن أمر الإحياء والإماتة مجرد التصرف في التحقق ، فيقول : ﴿ أنا أحيي وأميت ﴾ أتصرف في هؤلاء الناس وأدبر أمرهم ، وأقتل من أشاء ، وأعفو عمن أشاء ، فأنا أحيي وأميت ، ومعلوم لهذا الملك أن إبراهيم ، عليه السلام ، لما أراد بالإحياء من يهب الحياة ابتداءً وبالإماتة من سلب الحياة ، ولكنه لم يشأ أن يتمادى في المراء والجدال مع النمرود ، وأراد أن ينهي الجدال بسرعة مع إقامة الحجة ، فقال للذي زعم أنه يحيي ويميت : ﴿ إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [البقرة : ٢٥٨] . بعد هذا البيان تعلمون أن هذه الضجة التي أُثيرت حول ما يُسمى بالاستنساخ ؛ وهو إخراج جنين من الحيوان يحمل جميع الصفات الوراثية لأصله .

هذه الضجة لا قيمة لها ولا وزن ، وما هي إلا جزئية من العلم الذي علمه الله الإنسان ، وقد تعجبون حين تسمعون أن النبي صلى الله عليه وسلم أشار إلى شيء من هذا العلم قبل أربعة عشر قرناً ، كما في « صحيح البخاري » من حديث أنس ؛ أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، فأتاه يسأله عن أشياء ؛ فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه وينزع إلى أمه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أخبرني بهن جبريل آنفاً ؛ أما أول أشراط الساعة ؛ فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة ؛ فزيادة كبد الحوت ، وأما شبه الولد ؛ فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبق ماؤه ماءها أشبه أباه ، وإذا سبق ماؤها ماءه أشبه أمه » . قال : أشهد أنك رسول الله[٣] .

وعند مسلم من حديث عائشة ، رضي الله عنها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه الولد أعمامه ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أشبه الولد أخواله »[٤] .

وعنده أيضًا من حديث ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا علا منى الرجل منى المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا منى المرأة منى الرجل آنثا بإذن الله"[5].

فليس إذن يغرب أن يضع العلماء أسس ما يمكن معه معرفة نوعي الجنين، وليس في هذا من الإبداع والاختراع شيء.

لكن الذي نريد أن نحذر منه هو أنه سيكون في آخر الزمان من يقتل الرجل ثم يعيده، وهذه فتنة عظيمة يُخشى على كثير من الناس أن تفتنهم، إنها فتنة الدجال.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه كافر"، ثم تهجاها فقال: "ك ف ر يقرأها كل مسلم، ألا أحدثكم حديثًا عن الدجال ما حدث به نبي قومه، وأنه أعور، وأنه يجيء بمثل الجنة والنار، فالتي تقول إنها الجنة هي النار".

فالنبي أنذركم به كما أنذر به نوح قومه، إن مع الدجال، إذا خرج، ماء ونار، فأما الذي يرى الناس أنها نار فماء بارد، وأما الذي يرى الناس أنه ماء فهي نار تحرق، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يرى أنها نار، فإنه ماء عذب بارد.

وعن النواس بن سمعان قال: ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في حائض النخلة، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا، فقال: ((ما شأنكم؟)) قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في حائض النخلة، فقال صلى الله عليه وسلم: "غير الدجال أخوفني عليكم: إنه إن يخرج فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط عينه طافية، كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة "الكهف"، إنه خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينًا، وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا". قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: "أربعون يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم". قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: "لا، اقدروا له قدره". قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: "كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم، فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرًا، وأسبغه ضروعًا، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من الأموال، ويمر بالخربة، فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئا شبابًا، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين، رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل، ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم، عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد، فيقتله"[6].

وقال صلى الله عليه وسلم: "يأتي الدجال وهو محرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينتهي إلى بعض السباخ التي بالمدينة، فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس، فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا عنك رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا، ثم أحييته، هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله، ثم يحييه، فيقول حين يحييه: والله ما كنت قط أشد بصيرة مني اليوم، فيقول الدجال: اقتله، ولا يسلط عليه، فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاسًا، فلا يستطيع إليه سبيلا، قال: فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به، فيحسب الناس أنما قذفه إلى النار، وإنما ألقي في الجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين"[7].

---

(١) "الظلال": (٥/٢٠٢٨، ٢٠٢٩).
(٢) مسلم: (٣/٢١١١).
(٣) البخاري في "الفتح": (٣٩٣٨/٧/٢٧٢).
(٤) مسلم: (٣١٠).
(٥) النسائي: (١/١١٥، ١١٦).
(٦) مسلم: (٤/٢٢٥٠). أبو داود (٤٢٩٩/٤٤/٥، ١١)، الترمذي (٢٣٤١/٣/٣٤٦).
(٧) البخاري: (٨٩/١٣)، مسلم (٢٩٣٨).

استجيبوا لله وللرسول

فضيلة الشيخ / عبد العظيم بدوي

يقول الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لِمَا يُحْيِيكُمْ واعلموا أن اللهَ يحول بين المرء وقلبه وأنَّه إليه تُحشرون ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

أفادت هذه الآية ثلاثة أمور :

- **الأول** : الأمر بالاستجابة لله والرسول .
- **الثاني** : الإنسان لا يملك قلبه .
- **الثالث** : إلى الله مرجعكم جميعًا .

أما الأول : فإن الله يقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ يا من رضيتم بالله ربًا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولاً ، يا من صدقتم بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ، وكثيرًا ما ينادي الله تعالى على المؤمن ، ويستفتح النداء بلفظ الإيمان تذكيرًا للمؤمنين ، كأن الإيمان يقتضي الاستجابة والسمع والطاعة والامتثال والانقياد ، كما قال تعالى : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ [النور : ٥١] .

وقال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولهُ أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص اللهَ ورسولهُ فقد ضلَّ ضلالاً مُبينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

قال ابن مسعود ، رضي الله عنه : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ فارعه سمعك ، فإما خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه .

﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ : هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمَنُوا آمِنُوا باللهِ ورسولهِ والكتاب الذي نَزَّلَ على رسوله والكتاب الذي أَنزلَ مِن قبلُ ﴾ [النساء : ١٣٦] ، وفي هذه الآية يقول : ﴿ استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ ؛ فجعل الإيمان سبب الحياة ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ [الشورى : ٥٢] ؛ فالإيمان روح ونور ، والقرآن روح ونور ، فمن استجاب لله وللرسول أحيا الله قلبه وجعل له نورًا يمشي به في الناس ، ومن لم يستجب لله ولرسوله فقلبه ميت وهو يتخبط في الظلمات بعضها فوق بعض ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَ مَن كان مَيْتًا فأحييناهُ وجعلنا له نُورًا يَمْشِي به في النَّاسِ كَمَن مثله في الظُّلماتِ ليس بخارجٍ منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢] . فالله تعالى دعا جميع الناس إلى الإجابة فاستجاب الذين آمنوا ، وأبى الظالمون إلاَّ كفورًا ، والذين استجابوا هم الحية قلوبهم ، والذين لم يستجيبوا هم الميتة قلوبهم ؛ ولذلك قال تعالى : ﴿ إنما يستجيبُ الذين يسمعونَ والموتى يبعثُهُمُ اللَّهُ ثم إليه يُرجعونَ ﴾ [الأنعام : ٣٦] ، إنما يستجيب الذين يسمعون بقلوبهم الحية ؛ فالسماع هنا المراد به سماع القلوب ، وإلاَّ فالذين استجابوا والذين لم يستجيبوا قد اشتركوا في سماع الآذان ، فهم جميعًا في سماع الآذان سواء ، ولكن الحية قلوبهم سمعت آذانهم ووعيت قلوبهم ، وأما الميتة قلوبهم فقد سمعوا بآذانهم ولم تع قلوبهم ؛ لأنها ميتة ،

فسماهم موتى ، فقال : ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ﴾ ، والمراد بهم : موتى القلوب ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ ﴾ [ق : ٣٧] أي ؛ قلب حي : ﴿ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [ق : ٣٧] ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ إن هو إلاّ ذكرٌ وقُرآنٌ مُبينٌ * لينذر من كان حيًّا ويحقَّ القولُ على الكافرين ﴾ [يس : ٦٩ ، ٧٠] ، وهم الموتى ، ولذلك فقد سبق هذه الآية التي معنا قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا اللّهَ ورسوله ولا تولّوا عنه وأنتم تسمعون * ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون * إن شرَّ الدَّوابِّ عندَ اللّهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذين لا يعقلُونَ * ولو عَلِمَ اللّهُ فيهم خيرًا لأسْمَعَهُمْ ولو أسمعهُم لتولّوا وهم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٠-٢٣] ؛ فهم قالوا : سمعنا أي بآذانهم ، فقال الله : ﴿ وهم لا يسمعون ﴾ ؛ أي بقلوبهم ، فإذا لم تسمع قلوبهم فهم لا يسمعون ؛ لأنَّ المقصود الأعظم من سماع الآذان فَهْم القلوب وعقلها ، وقلوبهم لم تفهم ولم تعقل فهم لا يسمعون ، ولذلك قال تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفًا ﴾ [محمد : ١٦] ، منهم ممن قد سمعوا لكن لم يفهم ، وكأنهم لم يسمعوا ، وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ ؛ الحياة الطيبة الهنيئة السعيدة ، الحياة التي لا تؤثر فيها المادة بوجودها ولا بعدمها ، فوجودها وعدمها سواء ، الحياة التي تصحبها الطمأنينة ، ويسودها الهدوء ، وتملؤها الرحمة والبركة ، الحياة التي يصحبها الأنس بالله ، والركون إليه والرضا بقضائه . الحياة التي تجعل العبد يردد عند كل قضاء :

يا رب ما مسني قدر يكره أو رضى
إلا اهتديت به إليك طريقا
أمضي القضاء على الرضا مني به
إني علمتك في البلاء رفيقا

وهذه الحياة لا تعرف إلا بالمذاق ، فمن ذاق عرف ، يقول بعض الصالحين : إنه لتمر بالقلب أوقات أقول : إن كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه إنهم لفي نعيم .

ويقول الآخر : إنني في حال لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف .

ويقول ثالث : مساكين أهل الدنيا ! خرجوا منها ولم يذوقوا أحلى ما فيها ! قالوا : وما أحلى ما فيها ؟ قال : ذكر الله ، عز وجل .

تلك هي الحياة الطيبة التي وعد الله بها الذين استجابوا لله ، عز وجل ؛ حيث قال تعالى : ﴿ مَن عمل صالحًا من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينه حياةً طيبةً ﴾ [النحل : ٩٧] ، وحياتهم في الآخرة أرغد وأطيب وأكمل وأتم ، قال تعالى : ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾ أي ؛ الجنة : ﴿ والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعًا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ [الرعد : ١٨] ، فالذين استجابوا له يقول الله تعالى فيهم : ﴿ فما أُوتيتم من شيءٍ فمتاعُ الحياة الدنيا وما عند اللّهِ خيرٌ وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الإثمِ والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم يُنفقون ﴾ [الشورى : ٣٦-٣٨] .

فالذين استجابوا لربهم لهم في الدنيا أن يحييهم الله تعالى حياة طيبة ، ولهم في الآخرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والذين لم يستجيبوا لربهم لهم الشقاء والعذاب والهم في الحياة الدنيا : ﴿ ولعذاب الآخرة أشقُّ وما لهم من الله من واقٍ ﴾ [الرعد : ٣٤] ، فهم في الدنيا في نكد ونصب وهم وغم وخوف ، لا يهدأ لأحدهم بال ، ولا يقر له قرار ، لا يطمئن له قلب ، وهو بائس يائس تعيس ، مع أن الدنيا كلها بين يديه ، ولكن لا يستلذ بلذة ، ولا يتمتع بمتعة ، ولا يفرح بشهوة ؛ لأنَّ القلب

ميت ، وقد قيل : (ما لجرح بميت إيلام) ؛ ولذلك وصف الله حياة الذين لم يستجيبوا له بقوله : ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوًى لهم ﴾ [محمد : ١٢] ، فهي حياة بهيمية محضة ، مع أن حياة البهائم خير من حياتهم ، فالبهائم تأكل وتشرب وتموت ، ثم يئول أمرها إلى الفناء دون حساب ولا عذاب ، ولكن : ﴿ الذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوًى لهم ﴾ ؛ ولذلك سيتمنى الكافر يوم القيامة أن يكون مصيره مصير البهائم ، سيتمنى أن لو كان منها حتى يصير إلى ما صارت إليه ، قال تعالى : ﴿ إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا يوم ينظرُ المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابًا ﴾ [النبأ : ٤٠] .

عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : يحشر الخلائق كلهم يوم القيامة ؛ البهائم والدواب والطير وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول : كوني ترابًا . فذلك حين يقول الكافر : ﴿ يا ليتني كنت ترابًا ﴾[1] .

فيا عباد الله ، حياة اللهو واللعب ليست حياة ، حياة الرقص والطرب ليست حياة : ﴿ لهم عذابٌ في الحياةِ الدنيا ﴾ [الرعد : ٣٤] ، أتدرون بماذا ؟ بما يحرصون عليه من زينة الحياة الدنيا ، بأموالهم وأولادهم ، قال تعالى : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ [التوبة : ٥٥] ، فالذين لم يستجيبوا لربهم يُعَذبون بأموالهم وأولادهم ، الذين يظنون أنهم أساس النعيم والسعادة ، فإن الحرص عليهم يؤرقهم ويتلف أعصابهم ، وإذا القلق عليهم يحول حياتهم جحيمًا ، وإذا بأحدهم يشقى بماله إذا زاد ويشقى به إذا نقص ، ويشقى بأبنائه إذا مرضوا ، ويشقى بهم إذا صحوا ، وصدق الله العظيم : ﴿ ومَن أعرض عن ذكري فإنَّ له مَعِيشةً ضنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] .

---

(1) الدر المنثور » (٨/٤٠١) .

فيا عباد الله : ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجإ يومئذٍ وما لكم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى : ٤٧] ، استجيبوا لربكم وبادروا بالاستجابة واغتنموا الفرصة : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

فمن غرته الأماني ، وغره بالله المغرور فأجّل وسوّف فإنه لا يدري ربما لم يفكر مجرد تفكير في الاستجابة بعد ذلك ، وربما إذا فكر لا يصدقه الله عما فكر فيه ولا يعينه عليه ، فإن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، وقد أخبر الله تعالى أنه صرف قلوب قوم عن الإيمان عقوبة عن رفضهم أول مرة ، قال تعالى : ﴿ فلمَّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا ما أُنزلت سورةٌ نظر بعضهم إلى بعضٍ هل يراكم من أحدٍ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قومٌ لا يفقهون ﴾ [التوبة : ١٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرةٍ ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

وقال تعالى : ﴿ تلك القُرى نَقُصُّ عليك من أنبائِها ولقد جاءتهم رُسُلُهُم بالبيناتِ فما كانوا ليُؤمنوا بما كذَّبوا مِن قَبْلُ كذلك يَطْبَعُ اللهُ على قُلُوبِ الكافرينَ ﴾ [الأعراف : ١٠١] ، وقال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ [المنافقون : ٣] .

ولذلك حض الله تعالى على اغتنام الفرص ، والمبادرة بالإيمان ، فقال تعالى : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [الحديد : ٨] إن كنتم مؤمنين يومًا من الأيام ، فمن الآن فآمنوا فإنه لا تدري نفسٌ ماذا تكسب غدًا : ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ [الأنفال : ٢٤] .

فبادروا بالإيمان ، وبادروا بالأعمال الصالحة ، فإن الفرصة قد لا تتكرر ؛ ولذلك قال مالك بن كعب في

قصة تخلفه عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك : غزا النبي صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعر ، فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكي أتجهز معه فأرجع ولم أقض شيئًا ، وأقول – في نفسي –: أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديًا والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئًا ، ثم غدوت ، فرجعت ولم أقض شيئًا ، فلم يزل ذلك يتمادى بي ، حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، فيا ليتني فعلت ، ثم لم يقدر ذلك لي .

قال ابن القيم في ذكر فوائد هذه القصة :

ومنها أن الرجل إذا حضرت له فرصة القربة والطاعة ، فالحزم كل الحزم في انتهازها والمبادرة إليها ، والعجز في التأخير والتسويف بها ، ولا سيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها ، فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض فلما ثبتت ، والله سبحانه يعاقب من فتح له بابًا من الخير فلم ينتهزه ، بأن يحول بين قلبه وإرادته ، فلا يمكنه بعد من إرادته عقوبة له ، فمن لم يستجب لله ولرسوله إذا دعاه ، حال بينه وبين قلبه وإرادته ، فلا يمكنه الاستجابة بعد ذلك[2] .

فيا عباد الله بادروا بالاستجابة ، وهلموا إلى السمع والطاعة وتزود :

تزود من التقوى فإنك لا تدري
إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكًا
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم
وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من عروس زينوها لزوجها
وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

وكم من صحيح مات من غير علة
وكم من عليل عاش حينًا من الدهر

والثالثة : ﴿ إليه تحشرون ﴾ : يحشر الله الخلائق كلها كما قال تعالى : ﴿ وما من دابةٍ في الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلا أممٌ أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يُحشرون ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدًا ﴾ [الكهف : ٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴾ [المرسلات : ٣٨] ، والمراد من هذا الحشر : ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ * والذين سعَوْا في آياتنا مُعاجزين أولئك لهم عذابٌ مِّن رجزٍ أليمٌ ﴾ [سبأ : ٤،٥] ، ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عَمِلُوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ [النجم : ٣١] ، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرَّةٍ خيرًا يره * ومن يعمل مثقالَ ذرَّةٍ شرًّا يرهُ ﴾ [الزلزلة : ٧،٨] .

فكن على يقين من أنك إلى الله راجع ، وبين يدي الله موقوف ، وأمام الله مسئول ، فأعد للسؤال جوابًا ، قال تعالى : ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾ [الصافات : ٢٤] ، ﴿ فوربِّك لنسألنهم أجمعين * عمَّا كانوا يعملون ﴾ [الحجر : ٩٢،٩٣]

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما منكم إلا وسيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، فينظر بين يديه ، فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة »[3] .

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

* * *

[2] ((زاد المعاد)) (٣/٣٧٤)

[3] ((البخاري)) (١٣/٤٧٤/٧٥١٥) ، ومسلم (٢/٧٠٣/٦٧٠) ، والترمذي (٤/٣٥/٢٥٢٩) ، وابن ماجه (١/٦٦/١٨٥) .

بقلم فضيلة الشيخ / عبد العظيم بدوي

﴿ قل إن كنتم تُحبون اللَّه فاتبعوني يُحببكم اللَّه ويغفر لكم ذنوبكم واللَّه غفورٌ رحيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

اتباع الرسول الأمين هو عنوان محبة رب العالمين

فطر اللَّه النفوس على حب من أحسن إليها ؛ ولذلك قال : ﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنَّه وليٌّ حميمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] ، وإحسان اللَّه إلى العباد لا يدنو منه إحسان ، فهو : ﴿ اللَّه الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ۞ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ۞ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت اللَّه لا تحصوها ﴾ [إبراهيم : ٣٢-٣٤] .

لذلك كان حب اللَّه سبحانه فرض عين على كل إنسان ، ولا يؤمن عبد حتى يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ولقد عاب اللَّه سبحانه على الذين يحبون غيره مثل حبه ، فقال : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون اللَّه أندادًا يحبونهم كحب اللَّه والذين آمنوا أشد حبًّا للَّه ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، وعدَّ هذا الحب ظلمًا - أي : كفرًا وشركًا - فقال : ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة للَّه جميعًا وأنَّ اللَّه شديد العذاب ﴾ [البقرة : ١٦٥] ، وأخبر أن الذين أحبوهم من دونه سيتبرءون منهم أحوج ما يكونون إليه ، فقال : ﴿ إذْ تبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبَعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ۞ وقال الذين اتَّبَعُوا لو أنَّ لنا كرةً فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم اللَّه أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم

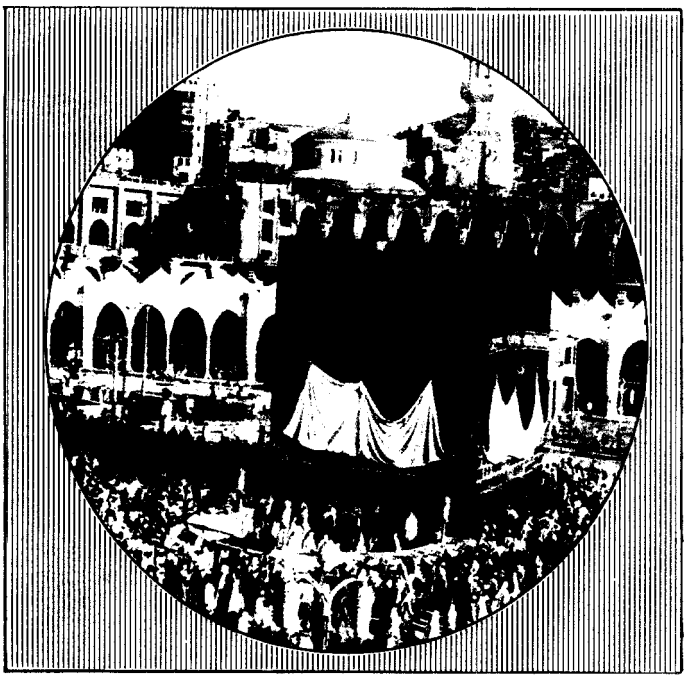

بخارجين من النار ﴾ [البقرة : ١٦٦، ١٦٧] .

كما توعد سبحانه من أحب غيره - مهما كان - أكثر من حبه ، وعدّ ذلك فسوقا - أي خروجا من الدين - فقال : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي اللّه بأمره واللّه لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : ٢٤] .

فوجب علينا أن نفرد اللّه سبحانه بالمحبة ؛ بأنه المستحق للحب لذاته ، وكل ما سواه فإنما يحب من أجله سبحانه . فإن من كمال الحب أن يحب المحب كل من يحبه المحبوب ، وأن يبغض كل ما يبغضه ؛ ولذلك قال صلى اللّه عليه وسلم : « أوثق عرى الإيمان الحب في اللّه والبغض في اللّه » . حسن . رواه الطبراني وغيره .

ولكن حب اللّه ليس مجرد كلمات تقال ، ولا شعارات ترفع ، وإنما الحب طاعة واتباع ، وخضوع وانقياد ، وامتثال واستسلام ، وعنوان ذلك كله اتباع النبي عليه الصلاة والسلام ، ونصرة شريعته ، والتمسك بسنته ؛ ولذلك قال الحسن : ادعى قوم محبة اللّه ، فابتلاهم اللّه بهذه الآية : ﴿ قل إن كنتم تحبون اللّه فاتبعوني ﴾ ؛ فاتباع النبي صلى اللّه عليه وسلم واقتفاء أثره والتمسك بسنته هو شاهد صدق العبد في محبته ، وكلما عظم الحب عظم الاتباع ، وكلما نقص الحب نقص الاتباع ، فعلى كل محب للّه سبحانه أن يحرص على اتباع نبيه صلى اللّه عليه وسلم ؛ فإنه لا سبيل للوصول من غير طريق الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، ولذلك قال الإمام الجنيد : الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتفى أثر النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فإن اللّه ، عز وجل ، قال لنبيه صلى اللّه عليه وسلم : « وعزتي وجلالي لو أتوني من كل طريق واستفتحوا من كل باب ما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك » . [طريق الهجرتين لابن القيم (ص٧)] .

ودليل صحة هذا القول قول ربنا سبحانه : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] ، وقول النبي صلى اللّه عليه وسلم : « كل أمتي يدخلون الجنة إلاّ من أبى » ، قيل : ومن يأبى يا رسول اللّه ؟ قال : « من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى » . [رواه البخاري] .

فاتباع النبي صلى اللّه عليه وسلم هو مفتاح كل خير ؛ هو سبب الهداية التي هي أعظم غاية ، قال تعالى : ﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ؛ لأنَّ اللّه شهد لنبيه صلى اللّه عليه وسلم بأنه يدعو الناس إلى صراط مستقيم ويهديهم إليه ، فقال : ﴿ وإنّك لتدعوهم إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾ [المؤمنون : ٧٣] ، وقال : ﴿ وإنّك لتهدي إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وقال : ﴿ قد جاءكم من اللّه نورٌ وكتابٌ مبينٌ ۞ يهدي به اللّه من اتبع رضوانه سُبُل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥ ، ١٦] ، فمن اتبع النبي صلى اللّه عليه وسلم فقد هُدي إلى صراط مستقيم ، ومن اتبع غيره فقد هُدي إلى سواء الجحيم ، قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يُجادل في اللّه بغير علمٍ ويتبع كل شيطانٍ مريدٍ ۞ كُتب عليه أنه من تولاه فأنه يُضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ [الحج : ٣، ٤] .

واتباع النبي صلى اللّه عليه وسلم هو سبب الرحمة والدخول فيها ، كما قال تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيءٍ فسأكتبها للذين يتقون ويُؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ۞ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ﴾ [الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧] ، كما أن اتباع النبي صلى اللّه عليه وسلم هو سبب الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

كما أن اتباع النبي صلى اللّه عليه وسلم من موجبات محبة اللّه للعبد ، كما قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون اللّه فاتبعوني يحببكم اللّه ﴾ ، وتلك هي الغاية التي شمر لها المشمرون ، وتنافس فيها المتنافسون ، فليس الشأن أن تحِب ، ولكن الشأن أن تحَب ، وإذا أحب اللّه عبدًا وفقه وهداه ، كما في الحديث القدسي : « ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يُبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » . [رواه البخاري] .

والمعنى أن اللّه إذا أحب عبدًا سخر جوارحه لطاعته ، فلا يسمع إلا الخير ، ولا يرى إلا المباح ، ولا تمتد يده إلا إلى

الخير ، ولا تسعى رجله إلا إلى الطاعة ، وإذا أحب اللّه عبدا حببه إلى عباده ، كما قال صلى اللّه عليه وسلم : « إذا أحب اللّه عبدا نادى جبريل : يا جبريل إني أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي جبريل في أهل السماء : إن اللّه يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض » [متفق عليه] .

وإذا أحب اللّه عبدا غفر ذنبه ، ووضع عنه وزره ، كما قال تعالى : ﴿ فاتبعوني يحببكم اللّه ويغفر لكم ذنوبكم واللّه غفور رحيم ﴾ ، وإذا غفر ذنبه فقد رحمه ، ومن رحمه لم يعذبه ، ولذا قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : « واللّه لا يلقي اللّه حبيبه في النار » [صحيح ، أخرجه أحمد والحاكم] .

فعلينا أن نحب اللّه من كل قلوبنا ، وأن نقيم الحجة على هذا الحب باتباع نبينا صلى اللّه عليه وسلم ؛ فإن اللّه تعالى أمر بطاعته واتباعه ، ونهى عن معصيته ومخالفة أمره ، قال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا اللّه إن اللّه شديد العقاب ﴾ [الحشر : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ [النور : ٦٣] ، وأخبر سبحانه أن الذين خالفوا أمر النبي صلى اللّه عليه وسلم واتبعوا غيره سيندمون يوم القيامة أشد الندم ، ولن ينفعهم ذلك ، قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ۞ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون اللّه حديثا ﴾ [النساء : ٤١ ، ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا اللّه وأطعنا الرسولا ﴾ [الأحزاب : ٦٦] .

فالواجب على كل مؤمن أن يجعل الرسول صلى اللّه عليه وسلم إمامه وأسوته وقدوته ، كما قال تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة لمن كان يرجو اللّه واليوم الآخر وذكر اللّه كثيرا ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، وأن يتبع الرسول صلى اللّه عليه وسلم في كل ما يبلغه عنه من طريق صحيح ثابت ، وأن يحذر كل الحذر من رد السنة لقول فلان ، أو لرأي فلان ، فإن السنة حاكمة على غيرها ، وليس غيرها حاكما عليها ، قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ [النساء : ٦٥] .

وما أحسن قول ابن مسعود ، رضي اللّه عنه : اتبعوا ولا تبتدعوا ، فقد كفيتم .

اللهم ارزقنا حبك ، وحب نبيك ، ووفقنا للتمسك بكتابك وسنة نبيك ؛ حتى لا نضل أبدا .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين .

التأسي بالرسول الأمين

باب التفسير

بقلم فضيلة الشيخ / عبد العظيم بدوي

يقول الله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

بعث الله تعالى رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، بعثه في الأميين على حين فترة من الرسل: ﴿يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ولقد علم الله سبحانه، وهو اللطيف الخبير، أن الرسول المبعوث من قبله لا بد أن يكون موصوفًا بصفات الكمال، منزهًا عن صفات النقص، مبرأً من كل عيب، معصومًا من كل ذنب، حتى يُقبل الناس عليه، ويتعلموا منه؛ لذلك وضع في شخص محمد صلى الله عليه وسلم الصورة الكاملة للشخصية المسلمة التي يريدها الله تعالى، لتظل دائمًا صورة حية خالدة مرئية لكل من أراد أن ينهج نهج الإسلام، ويتبع النبي عليه الصلاة والسلام، وجعله الله القدوة الطيبة، والأسوة الحسنة، والمثل الأعلى، والإمام الأعظم، فقال: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾.

وقد اشتملت هذه الآية على ثلاث مسائل هامة:

- **الأولى**: اختصاص رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقدوة وحده وقصرها عليه.
- **الثانية**: أن هذه القدوة للمؤمنين بالرسول وحدهم.
- **الثالثة**: تقييد الأسوة بوصف الحسنة[1].

وهذا القيد أفاد أن الأسوة نوعان:

هو عنوان الإيمان بيوم الدين

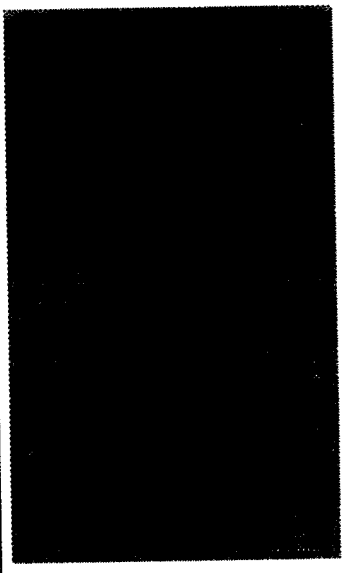

أسوة حسنة ، وأسوة سيئة ، فالأسوة الحسنة في الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، فإن المتأسّي به سالك الطريق الموصل إلى كرامة اللّه ، وهو الصراط المستقيم ، وأما الأسوة السيئة فهي الأسوة بغيره إذا خالفه ، كقول المشركين إذا دعوا للتأسي بالرسول : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ [الزخرف : ٢٢][٢] .

والتأسي بالرسول صلى اللّه عليه وسلم نعمة من اللّه ورحمة يختص بها من يشاء من عباده ؛ ولذلك قال : ﴿ لمن كان يرجو اللّه واليوم الآخر وذكر اللّه كثيرًا ﴾ ، والتأسي برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا يكون في جانب دون جانب ، ولا ناحية دون ناحية ، ولا يكون في الدين دون الدنيا ، بل التأسي به صلى اللّه عليه وسلم واجب في الدين والدنيا ، والعبادة والمعاملة ، والأخلاق والآداب ، والسلم والحرب ، والأمن والخوف .

فهو صلى اللّه عليه وسلم الأسوة الحسنة في عبادة اللّه ، عز وجل ، فلقد كان أعلم الناس باللّه ، واتقاهم له وأخشاهم ، ومع ذلك كان يصوم ويفطر ، ويقوم ويرقد ، ويأتي النساء ، ولم يؤثر ذلك في كونه أعبد الناس ؛ ولذلك لما جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم يسألون عن عبادته ، فلما أُخبروا بها كأنهم تقالُّوها - أي ؛ عدّوها قليلة - فقالوا : وأين نحن من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، قد غفر اللّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟! فقال أحدهم : أما أنا فأصوم الدهر لا أفطر ، وقال الثاني : وأنا أقوم الليل لا أرقد ، وقال الثالث : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا ، فبلغ ذلك النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فخرج إليهم فقال : « أنتم الذين قلتم

كذا وكذا ؟ والله إني لأتقاكم لله وأخشاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني))[٣] .

ولما بلغه أن عبد الله بن عمرو يصوم النهار ويقوم الليل قال له : ((ألم أُخبَر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟)) . قلت : بلى يا رسول الله ، قال : ((فلا تفعل ، صم وأفطر ، ونم وقم ، فإن لجسدك عليك حقًّا ، وإن لعينيك عليك حقًّا ، وإن لزوجك عليك حقًّا ، وإن لزورك عليك حقًّا ، وإن بحسبك أن تصوم في كل شهر ثلاثة أيام ، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فإن ذلك صيام الدهر))[٣] .

فهو صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة في معاملة الربّ سبحانه ، وهو صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة في معاملة الخلق ؛ هو الأسوة الحسنة في معاملة الأزواج .

فلقد كان حسن المعاشرة لأزواجه ، حسن الخُلق معهن ، وكان يأذن لبنات الأنصار في الدخول على عائشة للعب معها ، وكان إذا رغبت في شيء مباح وافقها عليه ، وكان إذا شربت من الإناء أخذه فوضع فمه في موضع فمها وشرب ، وكان من لطفه وحسن خلقه يريها الحبشة وهم يلعبون في مسجده وهي متكئة على منكبيه تنظر ، وسابقها في السفر على الأقدام مرتين[٤] .

ومع ذلك كان يصبر على ما يكون منهن مما لا تسلم منه الأزواج ، كما كان يصبر على ما يكون بينهن أنفسهن ويعالجه بحكمة ، وكان يقول لعائشة : ((إني لأعلم متى تكوني راضية ومتى تكوني غير راضية)) . فتقول : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ فيقول : ((إن كنت راضية قلت : لا ورب محمد ، وإن كنت غير راضية قلت : لا ورب إبراهيم)) ، قالت : إي والله يا رسول الله ، ولكن لا أهجر إلا اسمك[٣] .

وحدث أن امرأة عمر بن الخطاب راجعته في أمرٍ ما ، فأنكر عليها ذلك ، فقالت : عجبًا لك يابن الخطاب ! ما تريد أن تراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ، فقام فأخذ رداءه ، حتى دخل على حفصة ، فقال لها : يا بنية ، إنك لتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يظل يومه غضبان ؟! فقالت : والله إنا لنراجعه[٣] .

وعن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه ، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام ، فضربت التي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم ، فسقطت الصحفة فانفلقت ، فجمع صلى الله عليه وسلم فلق الصحفة ، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول : ((غارت أمكم)) ، ثم حبس الخادم ، حتى أُتي بصحفة من عند التي هو في بيتها فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كُسرت صحفتها ، وأمسك المكسورة في بيت التي كُسرت فيه[٥] .

وهو صلى اللّه عليه وسلم الأسوة الحسنة في معاملة الأطفال :

عن أبي هريرة ، رضي اللّه عنه ، قال : قبّل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس ، فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدًا ، فنظر إليه النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقال : ((من لا يَرحم لا يُرحم))[٣] .

وعن عائشة ، رضي اللّه عنها ، قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالوا : أتُقبّلون صبيانكم ؟ فقال : ((نعم)) ، قالوا : لكننا واللّه لا نقبل ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : ((أوَ أملك إن كان اللّه قد نزع من قلوبكم الرحمة))[٣] .

وعن أبي قتادة ؛ أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ولأبي العاص بن الربيع ، فإذا قام حملها ، وإذا سجد وضعها[٣] .

وعن بريدة قال : كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يخطب ، فأقبل الحسن والحسين ، رضي اللّه عنهما ، عليهما قميصان أحمران ، يمشيان ويعثران ، فنزل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من المنبر ، فحملهما واحدًا من ذا الشق ، وواحدًا من ذا الشق ، ثم صعد المنبر فقال : ((صدق اللّه)) ، قال : ((﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ [التغابن : ١٥] ، إني لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران لم أصبر أن قطعت كلامي ونزلت إليهما))[٦] .

وهو صلى اللّه عليه وسلم الأسوة الحسنة في الصبر على موت الأولاد ؛ فلقد رُزق سبعة من الولد ؛ ثلاثة ذكور ، وأربع إناث ، مات الصبيان الثلاثة صغارًا ، وماتت ثلاث بنات في حياته صلى اللّه عليه وسلم ، ولم تعمّر بعده إلا فاطمة ، رضي اللّه عنها ، فإنها عاشت بعده ستة أشهر ، فصبر على موت أولاده أجمعين ، واحتسبهم عند اللّه رب العالمين .

وذات يوم أرسلت إليه إحدى بناته تقول : إن ابني قد احتُضر فاشهدنا ، فأرسل إليها يقول : ((إن للّه ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمُرْها فلتصبر ولتحتسب)) ، فأرسلت تحلف عليه ليأتينها ، فقام ومعه نفر من أصحابه ، فرُفع إليه الصبي ونفسه تقعقع ، ففاضت عيناه ، فقال بعض أصحابه : ما هذا يا رسول اللّه ؟ قال : ((هذه رحمة جعلها اللّه في قلوب من شاء من عباده ، وإنما يرحم اللّه من عباده الرحماء))[٣] .

وهو صلى اللّه عليه وسلم الأسوة الحسنة في معاملة الجيران ، وكان يقول : ((مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه))[٣] .

ويقول : ((من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليحسن إلى جاره))[٧] ، وينهى عن أذى الجار ، فيقول : ((من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فلا يؤذي جاره))[٣] .

وهو صلى اللّه عليه وسلم الأسوة الحسنة في معاملة الناس ؛

فلقد باع واشترى ، وكان سمحًا إذا باع ، سمحًا إذا اشترى ، وكان إذا استسلف سلفًا وفّى خيرًا منه ، وكان إذا استسلف من رجل سلفًا قضاه إياه ودعا له ، فقال : ((بارك اللّه لك في أهلك ومالك ، إنما جزاء السلف الحمد والأداء))[٨] .

وهو صلى اللّه عليه وسلم الأسوة الحسنة في الجود والكرم ، فلقد كان أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان[٣] .

وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وما سُئل شيئًا إلا أعطاه[٧] .

وهو صلى اللّه عليه وسلم الأسوة الحسنة في الزهد في الدنيا والإعراض عنها ، وكان يقول : ((ما لي وللدنيا ، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب قال - أي ؛ نزل في وقت القيلولة - في ظل شجرة ، ثم راح وتركها))[٩] .

وكان يمر الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين وما يُوقد في بيت من بيوت النبي صلى اللّه عليه وسلم نار ، إنما هما الأسودان ؛ التمر ، والماء[٣] .

وهو صلى اللّه عليه وسلم الأسوة الحسنة في التواضع ؛ فلقد كانت الأَمة من إماء المدينة تأخذ بيده فتنطلق به حيث شاءت ، فما يتركها حتى يقضي لها حاجتها[١٠] .

وكان إذا دخل عليهم لا يقومون له لما يعلمون من كراهيته لذلك[١١] .

وهو صلى اللّه عليه وسلم الأسوة الحسنة في الشجاعة ؛ فلقد دوّى صوت في المدينة ذات ليلة ، فهرع الناس إليه ، فلقيهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو يقول : ((لن تُراعوا))[٣] .

ويوم حنين لما فاجأ المشركون المسلمين فتفرقوا ، وفرّوا هاربين ، ثبت صلى اللّه عليه وسلم على دابته ، وجعل يقول : ((أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب))[٣] .

وهو صلى اللّه عليه وسلم الأسوة الحسنة في السلم والحرب ، واحترام العهود ، والوفاء بها ؛ دخل صلى اللّه عليه وسلم المدينة رافعًا راية السلام ، دخل يقول : ((يأيها الناس ، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام))[١٢] .

وأخذ صلى اللّه عليه وسلم يرسي قواعد السلام ، فصالح من بالمدينة من طوائف اليهود وعاهدهم ، ثم وفّى لهم ، حتى كانوا هم الذين نقضوا وغدروا ، فسار إليهم ، فأجلى بعضهم وقتل بعضهم .

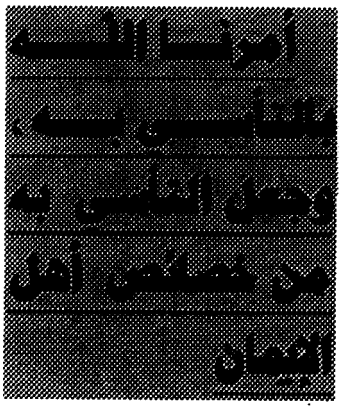

وبالجملة فهو صلى اللّه عليه وسلم الأسوة الحسنة في كل شيء ، والصورة الحية للشخصية المسلمة كما أرادها اللّه ، وحسبنا قول عائشة ،

رضي اللّه عنها . وقد سُئلت عن خلق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . فقالت للسائل : هل تقرأ القرآن ؟ قال نعم . قالت : كان خُلقه القرآن[٧] .

لا جرم أمرنا اللّه بالتأسي به . وجعل التأسي به من خصائص أهل الإيمان ، فقال : ﴿ لقد كان لكم في رسول اللّه أسوة حسنة لمن كان يرجو اللّه واليوم الآخر وذكر اللّه كثيرًا ﴾ .

فيأيها المؤمن الراجي عفو ربه ؛ إن النبي صلى اللّه عليه وسلم موصوف بصفات الكمال ، منزه على كل نقص ، مبرأ من كل عيب ، معصوم من كل ذنب ، وقد شهد له ربه بالعصمة من الزيغ والانحراف والغي والضلال ، قال سبحانه : ﴿ والنّجم إذا هوى ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ [النجم ، ١ ، ٢] ، والضلال نتيجة الجهل ، والغي نتيجة اتباع الهوى الذي يقتضي مخالفة العلم . واللّه سبحانه يبرئ نبيه صلى اللّه عليه وسلم من الضلال والغي ، فيشهد له بالعلم والعمل معًا ، مما يجعل المتأسي به دائمًا واثقًا مطمئنًا أنه لن يزل ولن يخزى .

وأما غير النبي صلى اللّه عليه وسلم فعلمه قليل ، وقد يكون عمله أقل ، وهو عرضة للخطأ والزلل ، وعرضة لغلبة الهوى . فمن تأسى به لم يكن واثقًا ولا مطمئنًا ؛ لأنه تأسى بغير المعصوم .

فهيا بنا جميعًا لنتأسى بالمعصوم ، فنكون على ثقة من أننا على صراط مستقيم ، كما قال تعالى : ﴿ قد جاءكم من اللّه نورٌ وكتاب مبينٌ ﴿ يهدي به اللّه من اتبع رضوانه سُبُل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم ﴾ [المائدة : ١٥ ، ١٦] .

---

(١) ((السيرة النبوية العطرة)) للوالد الشيخ محمد إبراهيم شقرة : (ص٢٧) .
(٢) ((تفسير السعدي)) : (جـ٦ ، ص٢٠٨ ، ٢٠٩)
(٣) متفق عليه .
(٤) ((زاد المعاد)) : (جـ١ ص١٥٢) .
(٥) البخاري : (٥٢٢٥) .
(٦) ((صحيح أبي داود)) : ٩٨١ مختصرًا .
(٧) مسلم .
(٨) ((زاد المعاد)) : (جـ١ ص١٦٥) .
(٩) صحيح ، رواه الترمذي : (٢٤٨٤) .
(١٠) البخاري : (٦٠٧٢) .
(١١) صحيح ، رواه الترمذي : (٢٩٠٢) .
(١٢) صحيح ، رواه الترمذي : (٢٦٠٣) .

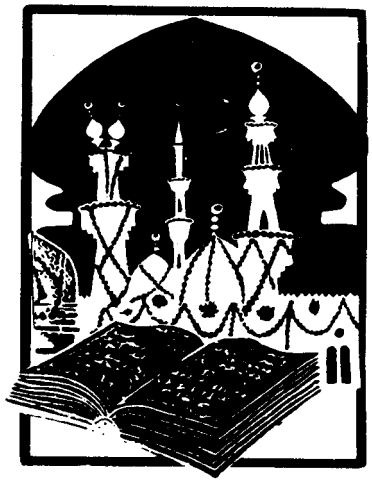

الوفـــــاء

بقلم

فضيلة الشيخ / عبد العظيم بدوي

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

عن أنس بن مالك ، رضي اللّه عنه ، قال : غاب عمّي أنس بن النضر عن قتال بدر ، فقال : يا رسول اللّه ! غبتُ عن أول قتال قاتلت فيه المشركين ، لئن أشهدني اللّهُ قتال المشركين ليرينّ اللّهُ ما أصنع ، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني ؛ أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني ؛ المشركين - ثم تقدّم فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ ! الجنة ، وربّ الكعبة ، إني أجد ريحها من دون أحد ، قال سعد : فما استطعت يا رسول اللّه ما صنع ، قال أنس : فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قُتل ومثّل به المشركون ، فما عرفه أحدٌ إلا أخته ببنانه ، قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه ﴾ [متفق عليه] .

إن الوفاء صفة من صفات اللّه ، عز وجل ، قال تعالى : ﴿ وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم ﴾ [هود : ١١١] ، وقال تعالى : ﴿ ومن أوفى بعهده من اللّه ﴾ [التوبة : ١١١] ، وقد اعترف أهل الجنة وأهل النار بوفاء اللّه لهم جميعًا ، قال تعالى : ﴿ ونادى أصحابُ الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا قالوا نعم ﴾ [الأعراف : ٤٤] ، ولقد أمر اللّه تعالى عباده بالوفاء ، ونهاهم عن الغدر ، فقال تعالى : ﴿ وبعهد اللّه أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴾ [الإسراء : ٣٤] ، وقال تعالى :

- يجب على كل مسلم أن يكون وفيًا لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم .
- الوفاء لله عز وجل يتحقق بإفراده بالعبادة ، بأن تعبده وحده ولا تشرك به شيئًا ، فقد أخذ الله عليك العهد والميثاق بذلك ، وأقررت له به .
- علينا أن نجل علماءنا ونحترمهم ونقدرهم ونكرمهم ، ومن أكرمنا الله بصحبته منهم فعلينا أن نحمله فوق رءوسنا ، وأن نخدمه بأنفسنا ، فقد فعل ذلك من هو خير منا .

﴿ وأوفوا بعهد اللّه إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم اللّه عليكم كفيلاً ﴾ [النحل : ٩١] ، وقال تعالى : ﴿ ولا تشتروا بعهد اللّه ثمنًا قليلاً إنما عند اللّه هو خير لكمْ إن كنتم تعلمون ﴾ [النحل : ٩٥] ، وقال تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد اللّه وأيمانهم ثمنًا قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم اللّه ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليمٌ ﴾ [آل عمران : ٧٧] .

وجعل سبحانه وتعالى الوفاء من دلائل الصدق والإيمان ، والغدر ونقض العهد من دلائل الكذب والنفاق ، فقال تعالى : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وقال تعالى في حقّ المنافقين : ﴿ ومنهم من عاهد اللّه لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكوننّ من الصالحين ۞ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ۞ فأعقبهم نفاقًا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا اللّهَ ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ [التوبة : ٧٥- ٧٧] .

ومدح اللّهُ تعالى الأوفياء فقال : ﴿ وإبراهيم الذي وفّى ﴾ [النجم : ٣٧] ، وقال عن الأبرار : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شرُّه مستطيرًا ﴾ [الإنسان : ٧] .

من هنا وجب على كل مسلم أن يكون وفيًا ؛ وفيًا للّه ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم .

أما الوفاء للّه ، عز وجل ، فيتحقق بإفراده بالعبادة ، بأن تعبده وحده لا تُشرك به شيئًا ، فقد أخذ اللّه عليك العهد والميثاق بذلك ، وأقررت له به ، قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾

[الأعراف : ١٧٢] .

ولما كان من طبيعة الإنسان النسيان ، فقد بعث الله رسله مبشرين ومنذرين ، وبهذا العهد مذكرين ، فمن أطاعهم فقد وفّى ، ومن عصاهم فقد نقض عَهْد الله من بعد ميثاقه ، والله تعالى يُنكر على من لا يجيب رسوله ولا يفي بعهده فيقول : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [الحديد : ٨] ، ويوم القيامة يوبّخ اللّهُ تعالى الذين نقضوا الميثاق ، يوبّخهم على رءوس الأشهاد فيقول : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ۞ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌّ مبينٌ ۞ وأن اعبدوني هذا صراطٌ مستقيمٌ ۞ ولقد أضلَّ منكم جبلاً كثيرًا أفلم تكونوا تعقلون ۞ هذه جهنم التي كنتم توعدون ۞ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ [يس : ٥٩ - ٦٤] .

وعن أنس ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابًا : لو كانت لك الدنيا كلها أكنت مفتديًا بها ؟ فيقول : نعم ، فيقول : قد أردت منك أيسر من هذا وأنت في صلب آدم ، أن لا تشرك بي شيئًا ولا أدخلك النار وأدخلك الجنة ، فأبيت إلا الشرك)) . [مسلم] .

فـ ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيره ﴾ [الأعراف : ٥٩] ، ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

أما الوفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيتحقق باتباعه والتمسك بسنته واقتفاء أثره ، والذب عن شريعته ، والدعوة إلى سنته ، فإن الله تعالى أخذ العهد والميثاق على جميع الأنبياء إذا بعث محمد صلى الله عليه وسلم وهم أحياء أن يتبعوه ، وأقرّوا بذلك ، فغيرهم من عامة الناس أولى ، قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ ثم جاءكم رسولٌ مصدِّقٌ لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ [آل عمران : ٨١] .

ولقد فرض الله طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ [النساء : ٥٩] ، وجعل طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة له ، فقال : ﴿ من يُطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ [النساء : ٨٠] ، وجعل طاعته من موجبات الهداية ، فقال : ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ [النور : ٥٤] ، وجعل اتباعه عنوان محبته ، فقال : ﴿ قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني ﴾ [آل عمران : ٣١] ، فمن أطاع رسول الله فيما جاء به من عند الله واتبعه عليه فقد وفّى لله ورسوله ، ومن عصى رسول الله صلى الله عليه وسلم واتبع غير سبيله فقد نقض عهده مع الله ورسوله ، والله تعالى قد حذّر من ذلك ، فقال : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنةٌ أو يصيبهم عذابٌ أليمٌ ﴾ [النور : ٦٣] ، وقال سبحانه : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى ونُصله جهنم وساءت

مصيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] ، ولذلك قال الجنيد – رحمه الله –: الطرق كلها مسدودة إلا طريق محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن الله قال له : ((وعزتي وجلالي لو أتوني من كل طريق ، واستفتحوا من كل باب ما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك)) . [((طريق الهجرتين)) لابن القيم : ص٧] .

أما الوفاء لكتاب الله فيتحقق بالاعتصام به كما أمر الله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، قال صلى الله عليه وسلم : ((كتاب الله هو حبل الله الممدود بين السماء والأرض)) . [صحيح . رواه الترمذي وغيره] .

فيجب أن نعتصم بالقرآن ، وأن نستمسك به ، كما قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ فاستمسك بالذي أُوحي إليك ﴾ [الزخرف : ٤٣] ، وينبغي أن نتلوه آناء الليل وأطراف النهار ، كما أمر الله تعالى : ﴿ اتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، وأن نهتم بتدبره أثناء قراءته ، كما قال تعالى : ﴿ كتابٌ أنزلناه إليك مباركٌ ليدبَّروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ [ص : ٢٩] ، وأن نحلّ حلاله ، ونحرّم حرامه ، ونقف عند حدوده ، ونجعله دستورنا الذي ينظم حياتنا ويحكم في جزئياتها وكلياتها .

ولما كان العلماء ورثة الأنبياء ، وهم الذين قاموا فينا مقام النبي صلى الله عليه وسلم وعلمونا الوفاء لله ولرسوله ولكتابه ، فيجب علينا أن نكون أوفياء لعلمائنا السابقين منهم واللاحقين ، من تعلّمنا من كتبهم ومن تعلمنا من أفواههم ، ومن الوفاء لهم أن لا نذكرهم إلا بالجميل ، وأن نترضّى عليهم ونترحم ، ولا نذكرهم بسوء ، ولا نتتبع زلاتهم ، وأن نعرف لهم فضلهم ، ونعترف بجميلهم ، وأن نعرف الناس بهم ، ونذكر لهم مآثرهم ومناقبهم حتى يجلّوهم ويحترموهم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : ((ليس منا من لم يُجلّ كبيرنا ، ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه)) . [صحيح . رواه أحمد وغيره] .

فعلينا أن نجلّ علماءنا ونحترمهم ونقدرهم ونكرمهم ، ومن أكرمنا الله بصحبته منهم ، فعلينا أن نحمله فوق رءوسنا ، وأن نخدمه بأنفسنا ، فقد فعل ذلك من هو خير منا ، كما قال ابن عبد البر – رحمه الله –: روينا من وجوه عن الشعبي قال : صلى زيد بن ثابت على جنازة ، ثم قُربت له بغلة ليركبها ، فجاء ابن عباس فأخذ بركابه ، فقال له زيد : خلّ عنه يابن عمّ رسول الله ، فقال ابن عباس : هكذا يفعل بالعلماء . [((جامع بيان العلم وفضله)) : ١/١٢٨] .

ولنكن أوفياء لآبائنا وأمهاتنا ، فقد قدّموا لنا الكثير والكثير ، والله تعالى يقول : ﴿ هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان ﴾ [الرحمن : ٦٠] ، فلنجتهد في برّهم وخدمتهم والإحسان إليهم ؛ حتى نحاول أن نكافئهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : ((من أتى إليكم معروفًا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه)) [صحيح . رواه أبو داود وغيره] .

ونحن مهما قدّمنا لآبائنا لن نكافئهم ، كما قال صلى اللّه عليه وسلم : ((لا يجزي ولدٌ والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه)) . [صحيح . رواه مسلم وغيره] .

فلنجتهد إذن في الدعاء لآبائنا في حياتهم وبعد مماتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وقل ربِّ ارحمهما كما ربياني صغيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٤] ، فإن هذا الدعاء ينفعهما ، كما قال صلى اللّه عليه وسلم : ((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له)) . [مسلم] .

ومن الوفاء لهما بعد موتهما ؛ أن تكرم من كان يصلهما ويودّهما ، فإن ذلك برّ لهما ، كما قال صلى اللّه عليه وسلم : ((إن أبرّ البرّ أن يصل الرجل أهل وُدّ أبيه)) . [صحيح] .

ومن الوفاءِ الوفاءُ للأزواج ؛ فليكن الزوج وفيًّا لزوجه ، يحسن صحبتها ، ويعرف لها حقها ، ويعاشرها بالمعروف ، كما أمر اللّه رسوله ، قال تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ [النساء : ١٩] ، وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : ((استوصوا بالنساء خيرًا)) . [متفق عليه] .

وعلى الرجل أن يغضّ طرفه عن زلّة امرأته ، وأن لا يتعجل بطلاقها وإن كرهها ، فإن اللّه تعالى قال : ﴿ فإن كرهتموهنَّ فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل اللّه فيه خيرًا كثيرًا ﴾ [النساء : ١٩] ، وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : ((لا يفرك مؤمنٌ مؤمنة ، إن كره منها خُلقًا رضي منها آخر)) . [صحيح] .

فكم خدمتك زوجتك ، وكم سهرت من أجلك ، وكم شقيت معك ، وكافحت لتبني حياتك ومستقبلك ، فاعرف لها فضلها ، واحفظ لها جميلها ، وكن وفيًّا لها ، لا تغدر بها ولا تخنها ، ولا تضيّعها ولا تفارقها ، واقتد بالنبي صلى اللّه عليه وسلم ، فلقد كان المثل الأعلى في الوفاء لأزواجه ، تزوج خديجة ، رضي اللّه عنها ، فأقام معها خمسًا وعشرين سنة ، لم يتزوج عليها حتى ماتت ، وكان بعد موتها يذكرها بالجميل ويثني عليها ويبرّ أهلها وخلائلها وفاءً لها ، حتى غارت عائشة ، رضي اللّه عنها ، منها ولم ترها - كما صحّ بذلك الحديث عنها - قالت : ما غِرت على أحد من نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم ما غرت على خديجة ، رضي اللّه عنها ، وما رأيتها قط ، ولكن كان يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ، ثم يقطعها أعضاءً ، ثم يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ، فيقول : إنها كانت وكانت ، وكان لي منها كذا وكذا ..

فليكن الرجل وفيًّا لزوجه ، ولتكن المرأة وفيّة لزوجها ، فإن فضله عليها عظيم ، وحقّه عليها كبير ، حتى قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : ((لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ، ولو

صلح أن يسجد بشر لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها ، والذي نفسي بيده لو أن من قدمه إلى مفرق رأسه قُرحة تنبجس بالقيح والصديد ، ثم أقبلت تلحسه ما أدت حقه)) . [صحيح . رواه أحمد وغيره] .

فحسب المرأة أن تحاول أن تقترب من الكمال وإن لم تبلغه ، حسبها أن تجتهد في الوفاء لزوجها وإن لم تف بحقه ، ولتحفظ المرأة زوجها في نفسها وماله ، ولتجتهد في تجميل صورتها وتحسين هيئتها بما أباح اللّه لها لتسرّ زوجها ، ولتبادر المرأة إلى طاعة زوجها كلما أمرها في أية ساعة من ليل أو نهار ، ولتحرص كل الحرص على ذلك ، فإن طاعتها لزوجها كطاعتها لربها ، ولذا قال صلى اللّه عليه وسلم : ((إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها : ادخلي الجنة من أي أبوابها شئت)) . [صحيح . رواه أحمد وغيره] .

ومن أروع أمثلة وفاء المرأة لزوجها ما حفظه التاريخ لفاطمة بنت عبد الملك بن مروان - رحمها اللّه - أن زوجها عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين رغبها في التبرع بحليّها ومجوهراتها لبيت مال المسلمين فتبرعت به ، ثم لم يلبث عمر أن مات ولم يترك لها ولا لأولادها شيئًا ، فجاء مسئول بيت المال ، فقال لها : إن حُليّك ومجوهراتك كلها موجودة ، احتفظت بها لك لمثل هذا اليوم ، ولم أودعها بيت المال ، وقد جئت أستأذنك لآتيك بها ، فقالت : لقد تبرعت بها لبيت المال طاعةً لأمير المؤمنين في حياته ، وما كنت لأطيعه حيًّا وأعصيه ميتًا . [((مقدمة آداب الزفاف)) للألباني] .

ومن الوفاء وفاء الصديق لصديقه في حياته وبعد مماته ، فلا يهجره لغنًى أصابه ، أو وظيفة عالية وصل إليها ، وإذا مات وصل أبناءه وبرّهم وقضى حوائجهم ومصالحهم ، وأنزلهم من نفسه منزلة أولاده ، ومن محاسن الإسلام أنه أمر أتباعه بالوفاء للكافرين إذا كان لهم عهد وميثاق ، حتى ولو بلغ المسلمين أن الكافرين عزموا على الخيانة ونقض العهد لا يجوز للمسلمين أن يسابقوهم إلى الخيانة ، بل يوجب عليهم الإسلام أن يعلموهم بنقض العهد وإنهاء الصلح ، قال تعالى : ﴿ وإمَّا تخافنَّ من قومٍ خيانةً فانبذ إليهم على سواءٍ إن اللّه لا يحب الخائنين ﴾ [الأنفال : ٥٨] ، وعن سُليم بن عامر قال : كان بين معاوية وبين الروم عهد ، وكان يسير نحو بلادهم ليقرب ، حتى إذا انقضى العهد غزاهم ، فجاء رجل على فرسٍ أو برذون وهو يقول : اللّه أكبر ، اللّه أكبر ، وفاء لا غدر ، فإذا هو عمر بن عبسة ، فأرسل إليه معاوية ، فسأله فقال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : ((من كان بينه وبين قوم عهد فلا يشدّ عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها أو ينبذ إليهم على سواء)) ، فرجع معاوية . [صحيح . رواه أبو داود وغيره] .

فما أحسن الإسلام !! وما أجمل الوفاء .

بعث الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، فقام يدعو إلى الله على بصيرة ، فما آمن معه من مكة إلا قليل ، كانوا مستضعفين في الأرض تسلط عليهم كفار قريش فساموهم سواء العذاب ، حتى مات منهم من مات تحت وطأة التعذيب ، وهمت طائفة منهم أن تقاوم ، ورأوا أن المقاتلة خير من القتل ، فلأن يقاتلوا المشركين فيقتلوا خير لهم من أن يقتلهم المشركون وهم مستسلمون ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك و﴿ قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ [النساء : ٧٧] ، فوقفوا عند كتاب الله ، واستمرت قريش في تعذيب المستضعفين ، فجاءوا يشكون إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

عن خباب بن الأرت ، رضي الله عنه ، قال : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه

فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه ، واللّه ليُتمنّ اللّه هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللّه والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون » . [البخاري] .

ثم أذن اللّه لنبيه صلى اللّه عليه وسلم في الهجرة إلى المدينة ، فطاردتهم قريش أيضا ، وأرسلت إلى عبد اللّه بن أُبي - وكان رئيس الخزرج - يقولون : إنكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم باللّه لتقاتلنّه أو لتخرجنّه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم ، ووافق ذلك هوى في نفس ابن أبي ، إذ كان قومه يعدّون له تاج الملك ليتوّجوه به . فلما جاءهم الرسول صلى اللّه عليه وسلم انصرفوا عنه ، فكان يعتقد أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سلبه الملك ، فأخذ يجمع الناس لقتال الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، فأتاهم النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم ؟! » فلما سمعوا ذلك من النبي صلى اللّه عليه وسلم تفرقوا . [أبو داود : (٣٠٠٤) ، باب في خبر بني النضير] .

ولكن قريشا لم تكفّ عن مناوشة المسلمين وإثارة الفزع والرعب في صفوفهم ، فأرسلت إليهم تقول : لا يغرّنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب ، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم . [« الرحيق المختوم » : (ص١٩٦)] .

ولقد تأكد الرسول صلى اللّه عليه وسلم أن هذا ليس مجرد تهديد ، وأن قريشا قد تهاجمهم بالفعل في أية ساعة من ليل أو نهار ، مما جعل الرسول صلى اللّه عليه وسلم يسهر بالليل ولا ينام ، ويطلب من يحرسه من أصحابه .

عن عائشة ، رضي اللّه عنها ، قالت : سهر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مقدمه المدينة ليلة ، فقال : « ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة » . قالت : فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح ، فقال : « من هذا ؟ » قال : سعد بن أبي وقاص . فقال له

هناك بلاد بشر صلى اللّه عليه وسلم بفتحها ولما تفتح بعد، وهي مفتوحة إن شاء اللّه، كما أخبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، من هذه البلاد «روما» عاصمة إيطاليا.

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « ما جاء بك ؟ » فقال : وقع في نفسي خوف على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فجئت أحرسه ، فدعا له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ثم نام . [متفق عليه] .

واستمر الحال على ذلك . ولم يكن هذا السهر خاصًا بالنبي صلى اللّه عليه وسلم ، بل كان المسلمون أجمعون لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصبحون إلا فيه ، حتى قال قائلهم : يا رسول اللّه ، أَبَدَ الدهر نحن خائفون هكذا ؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم : « لن تصبروا إلا يسيرًا ، حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبيًا ليست فيه حديدة » . وأنزل اللّه هذه الآية : ﴿ وعد اللّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا ﴾ . [« الدر المنثور » : (٦/٢١٥)] .

وأخذ صلى اللّه عليه وسلم يبشر المؤمنين بالنصر والتمكين وفتح بلاد المشركين ، وأكثر عليهم في ذلك تطمينا لقلوبهم ، ومن ذلك ؛ قوله صلى اللّه عليه وسلم : « بشّر هذه بالسناء والدين ، والرفعة والنصر والتمكين في الأرض » . [« صحيح الجامع » : (٢٨٢٢)] .

وقوله صلى اللّه عليه وسلم : « إن اللّه زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن مُلك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها » [مسلم : (٢٢/٥)].

وقوله صلى اللّه عليه وسلم : « إن اللّه استقبل بي الشام وولّى ظهري اليمن ، وقال لي : يا محمد ، إني جعلت لك ما تجاهك غنيمة ورزقًا ، وما خلف ظهرك مددًا ، ولا يزال الإسلام يزيد وينقص الشرك وأهله ، حتى تسير المرأتان لا تخشيان إلا جورًا ، والذي نفسي بيده لا تذهب الأيام والليالي حتى يبلغ هذا الدين مبلغ هذا النجم » . [الطبراني] .

وقوله صلى اللّه عليه وسلم : « ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك اللّه بيت مدر ولا وبر إلا أدخله اللّه هذا الدين ، بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزًا يعز اللّه به الإسلام ، وذلاً يذل اللّه به الكفر » . [ابن حبان وغيره] .

وهذه كلها بشارات عامة ، وقد بشّر صلى اللّه عليه وسلم بفتح بعض البلاد وسماها ، ففتحت كما بشر به ، من هذه البلاد مصرنا الحبيبة ، أرض الكنانة ، فقد قال صلى اللّه عليه وسلم : « إنكم ستفتحون مصر ، وهي أرض يسمى فيها القيراط ، فإذا فتحتموها فاستوصوا بأهلها خيرًا ، فإن لهم ذمة ورحمًا » . [مسلم] .

ومنها اليمن والشام والعراق ، كما قال صلى اللّه عليه وسلم : « تفتح اليمن فيأتي قوم يسوُّون ، فيحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، وتفتح الشام فيأتي قوم يبسون ، فيحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون ، وتفتح العراق فيأتي قوم يسوّن ، فيحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون » . [متفق عليه] .

وقد فتحت مصر واليمن والشام والعراق كما أخبر صلى اللّه عليه وسلم .

وهناك بلادٌ بشر صلى اللّه عليه وسلم بفتحها ولما تفتح بعد - وهي مفتوحة إن شاء اللّه ، كما أخبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - من هذه البلاد « روما » عاصمة إيطاليا ؛ عن عبد اللّه بن عمرو قال : بينما نحن حول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ونحن نكتب ، إذ سُئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أي المدينتين تفتح أولاً ؟ أقسطنطينية أو رومية ؟ فقال : « مدينة هرقل تفتح أولا » . [أحمد والدارمي] .

وقد فتحت قسطنطينية ، ونحن في انتظار فتح رومية . وقال صلى اللّه عليه وسلم : « عصبة من المسلمين يفتحون البيت الأبيض بيت كسرى » . [مسلم] .

وقد فتح بيت كسرى ، ونحن ننتظر فتح البيت الأبيض بواشنطن .

وهنا - قد - تثور الشكوك ، وتجوس الهواجس في النفوس ، فتح روما ؟! فتح البيت الأبيض ؟! أهذه أحلام اليقظة ؟! أو أماني الغرور ؟ ولا واللّه ، إنها وعود الذي لا ينطق عن الهوى ، وبشارات الذي يأتيه الخبر من السماء ، ولقد بشر بها أصحابه وهم في مكة مستضعفون في الأرض ، تسومهم قريش سوء العذاب ، ثم كان ما وعدهم به حقًّا ، وامتن اللّه عليهم بذلك فقال : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ [الأنفال : ٢٦] ، ولكن تحقق هذا الوعد الرباني ، وظهور هذه البشارات النبوية لا بد لها من أسباب ، ومن أسبابها الاتصاف بحال أهلها ، فإن اللّه وصف أهل هذا الوعد بقوله : ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ ، فإن نحن عبدنا اللّه حق عبادته ، ووحدناه حق توحيده ، فكان رجاؤنا فيه ، وخوفنا منه ، وتوكلنا عليه ، وإنابتنا إليه ، إن نحن أسلمنا وجوهنا له سبحانه ، وصار شعار كلٍّ منا : ﴿ إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للّه رب العالمين ۞ لا شريك له ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] .

فالوعد سيتحقق قريبا بإذن اللّه ، لكن منا من لا يعبد اللّه ، منا من لا يصلي ولا يصوم ، ولا يزكي ولا يحج ، ويزعم أنه مسلم ، ومنا من يدعو غير اللّه ، ويرجو غير اللّه ، ويخشى غير اللّه ، ويتوكل على غير اللّه ، ويزعم أنه مسلم ، ومنا من يذبح لغير اللّه ، وينذر لغير اللّه ، ويزعم أنه مسلم ، ومنا من يلجأ في الشدائد والأزمات إلى قبور الأموات ، يسألهم تفريج الكربات وقضاء الحاجات وفك الأزمات ، ويزعم أنه مسلم !!

فشرط التمكين في الأرض إذن غير متوفر فينا ، فلنعد النظر في عقيدتنا ، ولنعد النظر في عبادتنا ، ولنعد النظر في معاملتنا ، ويوم أن نتصف بهذا الوصف : ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ سيحقق اللّه لنا وعده ، وسينصر جنده ، ويهزم الأحزاب وحده ، فلنف للّه بعهدنا حتى يفي لنا ، كما قال : ﴿ وأوفوا بعهدي أُوفِ بعهدكم ﴾ [البقرة : ٤٠] ، ﴿ ومن أوفى بعهده من اللّه ﴾ [التوبة : ١١١] ، ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون ۞ بنصر اللّه ينصر من يشاء وهو العزيزُ الرحيمُ ۞ وعد اللّه لا يخلف اللّه وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [الروم : ٤ - ٦] .

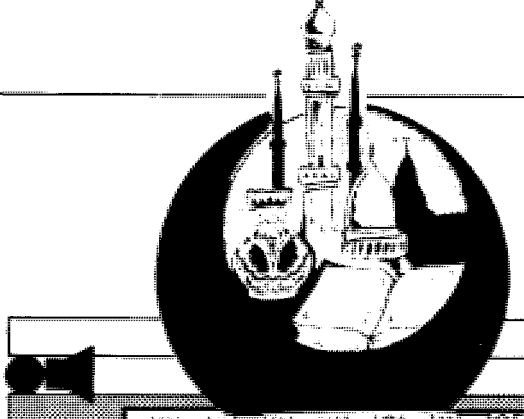

باب التيسير

يسر الإسلام

فضيلة الشيخ / عبد العظيم بدوي

قال تعالى: ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

هذه آية من آيات الصيام المذكورة في سورة ((البقرة)) ، ولا أريد أن أجري على المألوف من تحليل ألفاظها وتبيين أحكامها ، وإنما أريد أن أقف على حقيقة من حقائقها ؛ ألا وهي قوله تعالى فيها : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ، فهذا اللفظ على وجازته قد بين سماحة الإسلام ويسر الدين ، وأن هذا الدين يسر لا عسر فيه ولا تعقيد ، لا عسر في العقيدة ، ولا عسر في العبادة .

فالإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره ، وكلها عقائد سهلة وميسورة ، لا خفاء فيها ولا غموض ، ولا تعقيد ولا مشقة ، وكل إنسان يرى في نفسه القدرة على اعتقاد هذه العقائد ؛ لأنها عقائد سهلة يسيرة ، تقبلها العقول السليمة ، وتقرها الفطرة المستقيمة . والإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ، والصلوات خمس في اليوم والليلة ، لا تستغرق من الأربع والعشرين ساعة ساعة ، يشترط فيها الوضوء : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدٌ من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا ﴾ [النساء : ٤٣] .

ويشترط فيها استقبال القبلة ، فمن عجز عنه لمرض أو غيره : ﴿ فأينما تولوا فثمَ وجه الله ﴾ [البقرة : ١١٥] ، ويشترط فيها القيام : ((فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب)) . [البخاري : ١١١٧] .

وهكذا تظهر السماحة والتيسير في هذه العبادة التي هي عمود الدين ، وقد جاء التصريح بذلك من حين فرضت ، كما في الصحيح في حديث

المعراج وكيف فُرضت الصلاة أنها فُرضت أول ما فُرضت خمسين ، فمازال النبي صلى اللّه عليه وسلم يسأل ربه التخفيف حتى جعلها خمسًا ، فلما نزل : ((نودي : إني قد أمضيت فريضتي ، وخففت عن عبادي)) . [البخاري : ٣٢٠٧] .

والزكاة لا تجب إلا على من مَلَك النصاب وحال عليه الحول ، والقدر الواجب إخراجه شيء يسير جدًا بالنسبة إلى ما في يد المالك ، فهو ربع العشر ، وهذا ظاهر من آية الصدقة ، وهي قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، فـ ﴿ من ﴾ للتبعيض كما هو معروف ، ولذلك قال تعالى : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ [البقرة : ٢١٩] ، والعفو هو الزيادة الفاضلة عن الحاجة ، والصيام ﴿ أيامًا معدودات ﴾ هي : ﴿ شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن ﴾ ، ومع ذلك : ﴿ فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أُخر ﴾ ، ويأتي التأكيد على سماحة الإسلام ويسر الدين في آيات الصيام ، فيقول تعالى : ﴿ يُريد اللّه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ .

والحج لا يجب إلا مرة واحدة في العمر لا على كل مسلم وإنما على المستطيع ، كما قال تعالى : ﴿ وللّه على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

فهذا هو الدين ، هذا هو الإسلام ، سهل سمح جليّ واضح ، ولقد أحسن النبي صلى اللّه عليه وسلم عرض هذا الدين في هذه الصورة السمحة حتى دخل الناس في دين اللّه أفواجًا ، وإن كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليدع العمل وهو يحب أن يعمل به خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم . [متفق عليه] .

كما فعل في قيام رمضان ، صلّى في المسجد ، فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى من القابلة فكثر الناس ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة ، فلم يخرج إليهم ، فلما أصبح قال : ((قد رأيت الذي صنعتم ، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تُفرض عليكم)) . [متفق عليه] .

وأخّر العشاء ليلةً حتى نام من في المسجد ، ثم خرج فصلاها ، ثم قال : ((إنه لوقتها ، لولا أن أشق على أمتي)) . [مسلم : ٦٣٨- ١/٤٤٢/٢١٩]

وقال صلى اللّه عليه وسلم : ((لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة)) . [متفق عليه] .

وكان صلى اللّه عليه وسلم ينكر على كل من شدّد على نفسه ؛ عن أنس قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم يسألون عن عبادته ، فلما أُخبروا بها كأنهم تقالّوها - أي عدّوها قليلة - قالوا : فأين نحن من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبدًا ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أُفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدًا . فجاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إليهم فقال : ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما واللّه إني لأخشاكم للّه وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني)) . [متفق عليه] .

وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص قال : أُخبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أني أقول : واللّه لأصومنّ النهار ولأقومنّ الليل ما عشت ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ((أنت الذي تقول ذلك ؟)) فقلت له : قد قلته ، يأبي أنت وأمي يا رسول اللّه ، قال : ((فإنك لا تستطيع ذلك ، فصم وأفطر ، ونم وقم ، وصم من الشهر ثلاثة أيام ، فإن الحسنة بعشر أمثالها ، وذلك مثل صيام الدهر)) . [متفق عليه] .

وعن أنس ؛ أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أخذ يواصل الصوم ، وذاك في آخر الشهر ، فأخذ رجال من أصحابه يواصلون ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : ((ما بال رجال يواصلون ، إنكم لستم مثلي ، أما واللّه لو تمادّ لي الشهر لواصلت وصالاً يدع المتعمقون تعمقهم)) . [مسلم : ١١٠٤] .

فما أعظم الإسلام ، وما أعظم سماحته ، وما أجمل يسره وسهولته ، فعلينا أن نعي هذه الحقيقة من حقائق هذا الدين : ﴿ يريد اللّه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ .

ولنعش في نورها وعلى هديها ، ولنيسر على أنفسنا وعلى الناس ، ولنترك التشديد على أنفسنا وعلى الناس ، فقد كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يوصي بذلك فيقول : ((إن هذا الدّين متين ، فأوغلوا فيه برفق)) . [صحيح الجامع : ٢٢٤٢] .

((وإن هذا الدين يسر ، ولن يشادّ الدّين أحدٌ إلا غلبه ، فسدّدوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدّلجة)) . [البخاري : ٥٦٧٣] .

فالحمد للّه على نعمة الإسلام ، والحمد للّه الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه . وصلى اللّه وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

باب التفسير

صلاح الدنيا والآخرة

بقلم الشيخ / عبد العظيم بدوي

قال تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا أطيعوا اللَّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى اللَّه والرسول إن كنتم تؤمنون باللَّه واليوم الآخر ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾ [النساء: ٥٩].

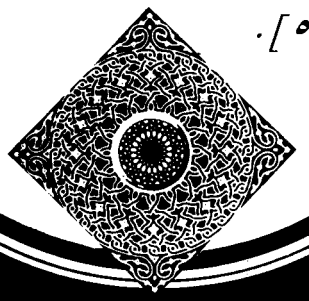

عن أبي هريرة قال: كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي»[1].

وهذه الآية الكريمة يرشدنا اللَّه تعالى فيها إلى وسائل تحقيق صلاح الدين والدنيا والآخرة، وما أحوجنا إليها في هذا الزمان الذي فيه: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ [الروم. ٤١]، وما أحوجنا إلى هذه الآية نتدبّرها ونفقهها ونعمل بها، عسى اللَّه أن يصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، ودنيانا التي فيها معاشنا، وآخرتنا التي إليها معادنا.

استفتحت الآية بالنداء على المؤمنين بلقب الإيمان: ﴿يأيها الذين آمنوا﴾ تذكيرًا لهم بما يقتضيه الإيمان من السمع والطاعة وفورية الاستجابة لما يأمر اللَّه به أو ينهى عنه، كما قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللَّه ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص اللَّه ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وبعد النداء يأتي الأمر: ﴿أطيعوا اللَّه وأطيعوا الرسول﴾، وقد تكرر هذا الأمر

في القرآن كثيرًا ، ومنه : ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ [النور : ٥٤] ، ﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾ [آل عمران : ٣٢] ، ونحو ذلك كثيرًا ، وطاعة الله ورسوله من موجبات الفلاح ، قال تعالى : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ [النور : ٥١] .

وطاعة الله ورسوله من موجبات الفوز ، قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ [النور : ٥٢] .

وطاعة الله ورسوله من موجبات الرحمة ، قال تعالى : ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم تُرحمون ﴾ [آل عمران : ١٣٢] ، وطاعة الله ورسوله من موجبات الدخول في الصالحين ، قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

وكما أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله فقد حذّر من معصيته ومعصية رسوله ، فقال تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعدَ حدوده يدخله نارًا خالدًا فيها وله عذاب مهين ﴾ [النساء : ١٤] .

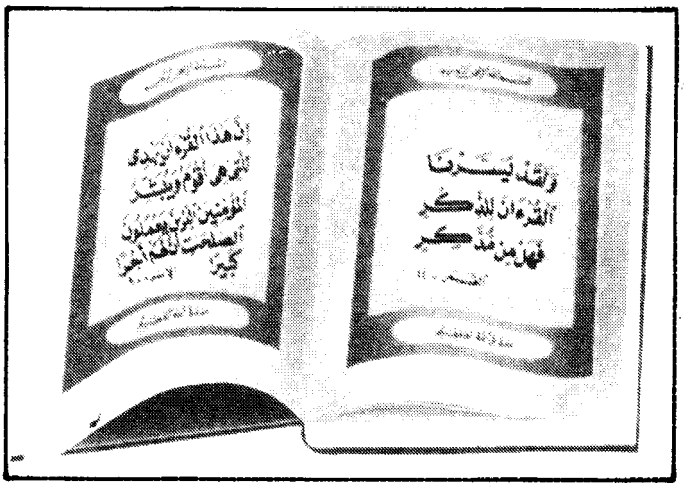

وأخبر سبحانه أن العصاة سيندمون أشدَ الندم في وقت لا ينفعهم فيه الندم ، فقال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا ۞ يومئذ يودّ الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثًا ﴾ [النساء : ٤١، ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ يوم تُقلّب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ [الأحزاب : ٦٦] .

فعلينا أن نطيع الله ورسوله ، فبهذه الطاعة يصلح الله لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا .

ثم قال تعالى : ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ ؛ أي وأطيعوا أولي الأمر منكم ، وإنما لم يكرر فعل : ﴿ أطيعوا ﴾ مع أولي الأمر ، وكرره مع الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الرسول يجب أن يطاع مطلقًا ؛ لأنه لا يأمر إلا بالخير ولا ينهى إلا عن الشر ، لا يأمر إلا بالمعروف ، ولا ينهى إلا عن المنكر ، وأما أولو الأمر فربما أمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف ، لذلك لم يكرر الفعل : ﴿ أطيعوا ﴾ مع أولي الأمر ليعلم المؤمنون أن طاعة أولي الأمر داخلة في طاعة الله ورسوله ، فإذا أمروا بغير ذلك فلا سمع لهم ولا طاعة .

وأولو الأمر هم الأمراء بلا خلاف ، وإنما الخلاف في العلماء هل يشملهم اللفظ أو لا ؟ والراجح أن لفظ : ﴿ أولي الأمر ﴾ يشمل الأمراء والعلماء معًا ؛ لأن الأمراء تولوا أمر الدنيا ، والعلماء تولوا أمر الدين ، وقد أمر الله تعالى بطاعة العلماء في قوله : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن

كنتم لا تعلمون ﴾ [النحل : ٤٣] ، فما أمر بسؤالهم إلا ليطاعوا في جوابهم ، وفي طاعة أولي الأمر صلاح الدنيا ، ومن هنا كثرت الأحاديث في الأمر بطاعتهم والنهي عن معصيتهم والخروج عليهم ، حتى يصلح اللّه لنا دنيانا التي فيها معاشنا .

عن أنس بن مالك : أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « اسمعوا وأطيعوا ، وإن استُعمل عليكم عبدٌ حبشي كأن رأسه زبيبة »[٢] .

والمعنى : اسمعوا وأطيعوا لمن ولي أمركم وإن لم يكن أهلاً للولاية ، فإن من شروط الإمامة أن يكون الإمام حرًا ؛ لأن العبد مملوك ، فلا يملك ، وأن يكون قرشيًا ؛ لقوله صلى اللّه عليه وسلم : « الأئمة من قريش »[٣] .

ومع ذلك ينصح النبي صلى اللّه عليه وسلم الأمة بالسمع والطاعة لمن غلبها على الإمامة وليس أهلاً لها ، حقنًا للدماء ، وصيانة للأعراض ، وحتى يستقر الأمر ويستتب الأمن .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « عليك بالسمع والطاعة في عُسرك ويُسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك »[٤] .

وعن عبد اللّه بن مسعود قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها » . قالوا : يا رسول اللّه ، كيف تأمر من أدرك ذلك منا ؟ قال : « تؤدُّون الحق الذي عليكم ، وتسألون اللّه الذي لكم »[٥] .

وعن عوف بن مالك قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلّون عليهم ويصلّون عليكم » . والمراد بالصلاة هنا معناها اللغوي وهو الدعاء ؛ أي تدعون لهم ويدعون لكم ، « وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم » . قال : قلنا : يا رسول اللّه ، أفلا ننابذهم - أي أفلا نخرج عليهم ونقوم بثورة ضدهم - قال : « لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة » ، أي ما داموا يبنون المساجد ويعمرونها ويسمحون لكم بإقامة دينكم وإظهار شعائركم فلا تخرجوا عليهم ، « إلا من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شيئًا من معصية اللّه فليكره ما يأتي من معصية اللّه ولا ينزعنّ يدًا من طاعة »[٦] .

اللّه أكبر ! تأمل يا أخي هذا الكلام الذي يشع منه النور والهدى والرشاد ! واعلم أن المشاكل لا تأتي إلا من الجهل بالقرآن والسنة ، ومخالفة علماء الأمة !

إذا فعل الحاكم المعصية فما واجبنا ؟ نكره ما يأتي من المعصية ، ولا ننزعن يدًا من طاعة ! فعصيانه أمر اللّه لا يبيح الخروج عليه ، بل ولا مجرد معصيته هو في الطاعة .

بل إن النبي صلى اللّه عليه وسلم يدعو المسلمين إلى إجلال السلطان وإكرامه ، ويعدّ ذلك إجلالاً للّه عز وجل ، فيقول صلى اللّه عليه وسلم : « إن من إجلال اللّه تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه ، وإكرام ذي السلطان المقسط »[٧] .

ويقول صلى اللّه عليه وسلم : « من أجلّ السلطان أجلّه اللّه يوم القيامة »[٨] .

يعني أن الذي يحترم السلطان ويقدّره ، ويكرمه ويعزره ، يكرمه اللّه على رءوس الأشهاد يوم القيامة ، وفي المقابل يقول صلى اللّه عليه وسلم : « من أهان السلطان أهانه اللّه »[٩] ؛ لأن في إهانة المسلمين سلطانهم فتح ثغرة للعدو يدخل عليهم منها ، ولا يزال ينفخ في الرماد حتى يؤجج نار الفتنة ، فتقوم الثورات التي تثير القلاقل والفوضى ، وتقضي على أمن وسلامة البلاد ، فتزهق الأرواح ، وتراق الدماء ، وتسلب الأموال ، وتنتهك الأعراض ، وتغتصب الأراضي ، وتضيع المقدسات ، وتكون فتنة يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي

كافرًا ، ويصبح كافرًا ويمسي مؤمنًا .

لذلك كان من عقيدة أهل السنة والجماعة ما قاله الإمام الطحاوي - رحمه اللَّه -: (ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا ، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدًا من طاعتهم ، ونرى طاعتهم من طاعة اللَّه عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية)[10] .

ومتى عرف المسلمون هذا وفقهوه أصلح اللَّه لهم دنياهم التي فيها معاشهم ، ولما كان الاختلاف لا بد أن يقع بين الرعية والراعي أو بين الرعية نفسها أرشد اللَّه تعالى إلى المبادرة بالقضاء على هذا الخلاف قبل أن يستفحل ، فقال تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى اللَّه والرسول ﴾ أي إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله حتى تعرفوا الحق فيما اختلفتم فيه فتذعنوا له وتسلموا تسليمًا ، حتى تظلوا أمة واحدة كما أراد اللَّه .

ولكن ها هنا أمر لا بد من التنبيه عليه وهو : لو أن رجلين اختلفا في أمر ما ، ثم ردّاه إلى الكتاب والسنة فقد لا يتفقان إذا فسّر كل منهما النص وفق فهمه هو ، ومثال على ذلك : لمس المرأة هل ينقض الوضوء أم لا ؟ فمن قال : ينقض ، استدل بظاهر الآية : ﴿ أو لامستم النساء ﴾ [النساء : ٤٣] ، ومن قال : لا ينقض ، قال : اللمس الجماع ، فإذا لم يكن ثم ضابط ثالث يحسم الأمر وإلا استمر الخلاف ، هذا الضابط هو فهم السلف الصالح ؛ لذلك لا بد أن نقول : إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ، وفي المثال المذكور رأينا النبي صلى اللَّه عليه وسلم كان يقبّل إحدى نسائه ولا يتوضأ[11] ، فعلمنا صحة قول من قال : إن لمس المرأة لا ينقض الوضوء .

هذا الردّ إلى كتاب اللَّه وسنة رسوله دليل الإيمان ، ولذلك قال : ﴿ إن كنتم تؤمنون باللَّه واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ ، ذلك الردّ إلى اللَّه ورسوله الذي يقضي على الخلاف والنزاع خير لكم من الاستمرار في الخلاف والنزاع الذي يوهن قوتكم ويفرّق جمعكم ، فيتسلط به عليكم عدوكم ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ وأطيعوا اللَّه ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

وهكذا جمعت هذه الآية الواحدة خيري الدنيا والآخرة ، فمن تحقق بها أصلح اللَّه له دينه الذي هو عصمة أمره ، ودنياه التي فيها معاشه ، وآخرته التي إليها معاده ، وصدق اللَّه العظيم إذ يقول : ﴿ ومن يعتصم باللَّه فقد هُدي إلى صراط مستقيم ﴾ [آل عمران : ١٠١] ، وصدق الرسول الكريم إذ يقول : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب اللَّه ، وسنتي ، ولن يتفرّقا حتى يردا عليَّ الحوض »[12] .

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين ، وصلى اللَّه وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

---

(١) مسلم : (٢٧٢٠) .
(٢) البخاري : (٧١٤٢) .
(٣) صحيح الجامع : (٢٧٥٤) .
(٤) مسلم : (١٨٣٦) .
(٥) متفق عليه : البخاري (٧٠٥٢) ، ومسلم (١٨٤٣) .
(٦) مسلم : (١٨٥٥) .
(٧) صحيح الجامع : (٢١٩٥) .
(٨) صحيح الجامع : (٥٨٢٧) .
(٩) صحيح الجامع : (٥٩٨٧) .
(١٠) العقيدة الطحاوية ، تعليق الألباني (ص ٤٧، ٤٨) .
(١١) صحيح أبي داود (١٦٤) .
(١٢) صحيح الجامع (٢٩٣٤) .

الأمر بأداء الأمانة

بقلم الشيخ :
عبد العظيم بدوي

قال تعالى : ﴿ إن اللّه يأمُرُكم أن تؤدُّوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن اللّه نعِمَّا يعظكم به إن اللّه كان سميعًا بصيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] .

لما وصف اللّه تعالى اليهود بكتمان الحق وخيانة الأمانة ، حيث قالوا للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ، أمر المؤمنين في هذه الآية بأداء الأمانات في جميع الأمور ، سواء كانت تلك الأمور من باب المذاهب والديانات ، أو من باب الدنيا والمعاملات .

قال الرازي : (واعلم أن معاملة الإنسان إما أن تكون مع ربّه ، أو مع نفسه ، أو مع سائر العباد ، ولا بد من رعاية الأمانة في جميع هذه الأقسام الثلاثة ، أما رعاية الأمانة مع الربّ فتكون بفعل المأمورات وترك المنهيات ، وهذا بحر لا ساحل له ، قال ابن مسعود : الأمانة في كل شيء لازمة . في الوضوء والغسل ، والصلاة والزكاة والصوم)[1] .

فالوضوء أمانة يُطلب منك أن تؤديها على أكمل الوجوه بإسباغ الوضوء والتزام ما صحّ عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في صفة وضوئه من غير زيادة ولا نقصان ، والغسل من الجنابة أمانة يجب عليك أن تحافظ عليها بالاغتسال كلما لزمك الاغتسال لسبب من الأسباب ، كما يجب عليك أن تفيض الماء على جميع جسمك لا تترك فيه قدر لمعة ، ويندب أن تغتسل كما كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يغتسل .

والصلاة أمانة مطلوب منك أن تحافظ عليها ، بإسباغ وضوئها ، والحرص على أول وقتها ، وشهود الجماعة فيها ، والخشوع والخضوع للّه رب العالمين ، وأن تحسن قراءتها ، وتطمئن في ركوعها وسجودها ، وأن تصلي كما كان النبي صلى اللّه عليه وسلم يصلي .

والزكاة أمانة يجب عليك أن تؤديها كلما وجبت عليك في نقد أو زرع أو ماشية ، وأن تؤديها عن طيب نفس كاملة غير منقوصة ، وأن تضعها في يد مستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهما من مصارفها التي بينها اللّه تعالى في قوله : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل اللّه وابن السبيل ﴾ [التوبة : ٦٠] .

والصيام أمانة ، يجب عليك أن تراقب اللّه فيها ، وأن تؤديها كما أمر ، من غير صخب ولا رفث ولا فسوق ، وإن امرؤ سبّك أو شاتمك فلتقل : إني صائم ، إني صائم . وليصم سمعك وبصرك وجوارحك ، وليكن عليك يوم صومك سكينة ووقار ، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء .

فكلما اجتهد الإنسان في أداء هذه العبادات على النحو الذي يرضي اللّه تعالى كان مؤديًا للأمانة ، وكلما انتقص منها كان خائنًا للأمانة بقدر ما انتقص منها .

وقال ابن عمر ، رضي اللّه عنهما : (إن اللّه تعالى خلق فرج الإنسان وقال : هذا أمانة خبأتها عندك فاحفظها إلا بحقها) .

فإن حفظ الإنسان فرجه عن نظر من لا يجوز له النظر إليه ، ومسّ من لا يجوز له مسّه ، واستمتاع من لا يجوز له الاستمتاع به ، فقد أدى الأمانة ، وكلما اقترف شيئًا مما حرّم اللّه عليه فقد خان الأمانة ، وكذلك يقال في سائر الأعضاء ، فالأذن أمانة ، يجب عليك أن تصونها عن سماع ما حرّم اللّه سماعه ، من المعازف والأغاني ، والخنا والفجور ، والكذب والغيبة ، والطعن في الدين ، وأن تستمع إلى ما أمرك اللّه به بالاستماع إليه من القرآن الكريم ، والقول الطيب ، والموعظة الحسنة ، والعين أمانة ، يجب أن تغضها عن النظر إلى ما حرّم اللّه النظر إليه من النساء وغيرهنّ من زينة الحياة الدنيا ، وأن تقلبّها في ملكوت السماوات والأرض ، ليزداد إيمانك ، ويقوى يقينك .

واللسان أمانة ، يجب عليك أن تمسكه عما حرم اللّه عليك الخوض فيه ، من الكذب والغيبة والنميمة ، وشهادة الزور ، والقول على اللّه بغير علم ، ونحو ذلك ، وأن تطلق لسانك في قراءة القرآن ، وذكر اللّه ، والاستغفار ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الخير ، ونحو ذلك من القول الطيب ، وقُل مثل ذلك في كل أعضاء البدن وحواسه .

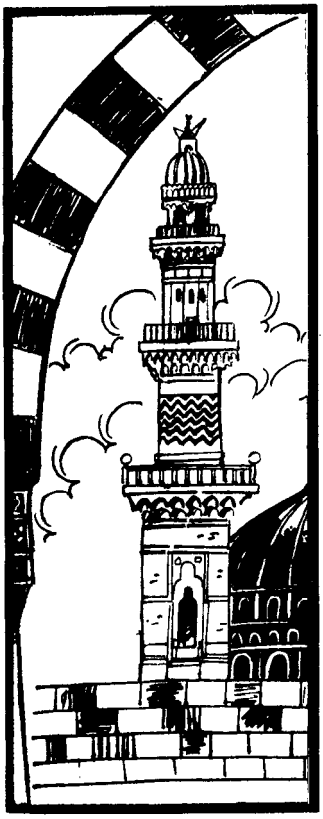

وأمّا أمانة الإنسان مع نفسه فمعناها : أن ينظر فيما ينفعها فيأتيه ، وفيما يضرّها فيتركه ، ولا ينفع النفس شيءٌ مثل الإيمان ، ولا يضرّها شيء مثل الكفر ، وأن يختار لها الطريق التي ينفعه المشي فيها ، وأن يبتعد بها عن الطريق التي يضرّها السير فيها ، ولا أنفع للنفس من صراط اللّه المستقيم ، المتمثل في عبادة اللّه على طريقة رسول اللّه ، ولا أضر عليها من سبل الشيطان ، المتمثلة في الشرك باللّه عز وجل وعبادته على طريقة أهل الأهواء والبدع .

فمن اختار لنفسه الأصلح في دينها ودنياها فقد أدّى الأمانة فيما بينه وبين نفسه ، ومن قهرته شهوته ، وغلبته نفسه الأمارة بالسوء ، فآثر الكفر على الإيمان ، أو المعصية على الطاعة ، أو البدعة على السنة ، لكسبٍ عاجل ، أو لذةٍ فانية ، فقد خان نفسه .

أما رعاية الأمانة مع سائر الخلق فيدخل فيها : أهل الإنسان من زوجة وولد ، فأهلك أمانة عندك ، يجب عليك أن تتقي اللّه في هذه الأمانة ، وأن ترعى مصالحها الدينية والدنيوية ، وأن تأمرهم بالمعروف ، وتنهاهم عن المنكر وترشدهم إلى الخير ، لتعمل بذلك على وقايتهم من النار كما أمرك اللّه تعالى ، حيث قال : ﴿ يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون اللّه ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ﴾ [التحريم : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ [طه : ١٣٢] ، وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر »[٢] .

ومما يجب على الآباء نحو الأبناء أن يؤدبوهم ويحسنوا

تربيتهم ، ويعرّفوهم ما يجب عليهم للّه ، وما يجب عليهم لرسول اللّه ، وما يجب عليهم نحو القرآن الكريم ، وما يجب عليهم للجيران ، وما يجب عليهم للمعلمين ، وما يجب عليهم للأصحاب ، وما يجب عليهم للشارع والطريق من اجتناب العبث وضرورة المحافظة على ممتلكات الآخرين ، وعلى العموم يجب على الآباء أن يعلموا الأبناء كيف يرعون حق اللّه عز وجل ، وحق أنفسهم ، وحق سائر العباد ، فإن قام الآباء بذلك الواجب فقد أدوا الأمانة ، وعلى قدر تقصيرهم في هذا الواجب تكون الخيانة .

ويدخل في رعاية الأمانة مع سائر الخلق تعليم العالِم الجاهل ، فالعلم عند أهله أمانة ، أخذ اللّه عليهم العهد والميثاق بأدائها إلى محتاجها ، قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ اللّه ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ [آل عمران : ١٨٧] ، وتوعّد من كتم العلم عن محتاجه وعيدًا شديدًا ، فقال تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم اللّه ويلعنهم اللاعنون ﴾ [البقرة : ١٥٩] ، وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : « من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار يوم القيامة »[٣] .

فيجب على العالِم أن يعلم أن غير العالم أمانة في عنقه ، فيجب عليه أن ينصح له ولا يغشه ، وأن يهديه سبيل الرشاد ، ويعلمه السنة ويحببه فيها ، ويعرفه البدعة ويكرّهه فيها ، ويعلمه العفو والتسامح ، ويجنبه العصبية والحمية الجاهلية ، ويدخل في رعاية الأمانة مع سائر الخلق رعاية الأساتذة والمعلمين للتلاميذ ، فالتلميذ أمانة في يد أستاذه ، يجب له عليه ما يجب لولده عليه من النصح والإرشاد والتعليم والتأديب ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وأن لا يدّخر عنه جهدًا ، ولا يكتم عنه علمًا ، فإن فعل فقد خانه .

والحصة المقررة للتلاميذ في المدرسة أمانة في رقبة المدرس ، يجب عليه أن يتقي اللّه في هذه الحصة ، وأن يؤديها بأمانة ، وأن يقوم بما يجب عليه بإخلاص من شرح الدرس ، وإزالة المشكلات ، وحلّ المعضلات ، وتفهيم من لا يفهم ، ولا يجوز له أن يقول ما عنده ويترك الطلاب فهموا أم لم يفهموا ، ولا يجوز له أن يقول ما عنده ، ثم يترك من لم يفهم بدون فهم ليلجئه إلى الدروس الخصوصية ، والمراقبة في الامتحان أمانة ، يجب على المراقب أن يضبط اللجنة ، وأن لا يسمح لأحد الطلاب بالغش ، فقد قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : « من غش فليس منا »[٤] .

والتصحيح في الامتحان في نهاية العام أمانة ، يجب على المصحح أن يتقي اللّه فيها ، وأن ينصف التلاميذ من نفسه ، وأن يحكم بينهم في الدرجات بالعدل ، وأن لا يحابي تلميذًا ؛ لأنه كان يأخذ عنده درسًا ، أو لأنه ابن زميله ، أو ابن صديقه ، أو قريبه ، ونحو ذلك ، فإن فعل فقد خان الأمانة .

ويدخل في رعاية الأمانة مع سائر الخلق مصالح العامة عند الموظفين في الدوائر الحكومية ، فمصالح الناس عند الموظفين أمانة ، وقد وضعت الحكومة كل موظف في مكانٍ ليقوم بقضاء حوائج الناس ومصالحهم وحل مشاكلهم ، فعلى كل موظف أن يتقي اللّه في هذه الأمانة ، وأن يعمل على قضاء حوائج الناس ومصالحهم بإخلاص ، ولا يجوز له الإهمال أو التقصير في ذلك ، ولا يجوز له تعطيل المصالح لإكراه الناس على دفع ضريبة ، أو إهداء هدية ، ولا يجوز له أن يعجل بقضاء حاجة فلان لأنه أهداه ، ويؤخر فلانًا لأنه لم يهده ، فإن فعل فقد خان الأمانة ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم : « هدايا العمال غلول »[٥] .

وعن أبي حُميد الساعدي ، رضي اللّه عنه ، قال : استعمل النبي صلى اللّه عليه وسلم رجلاً من الأزد يقال له : ابن اللُّتبية على

الصدقة ، فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أُهدي إليَّ ، فقام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم على المنبر ، فحمد اللَّه وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد ؛ فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاّني اللَّه ، فيأتي فيقول : هذا لكم وهذا هدية أُهديت إليَّ ، أفلا جلس في بيت أبيه أو أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقًا ؟! واللَّه لا يأخذ أحدٌ منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي اللَّه تعالى يحمله يوم القيامة ، فلا أعرفنّ أحدًا منكم لقي اللَّه يحمل بعيرًا له رُغاء ، أو بقرة لها خُوار ، أو شاة تيعر - ثم رفع يديه حتى رؤي بياض إبطيه فقال -: اللهم هل بلغت »[٦] .

ويدخل في رعاية الأمانة مع سائر الخلق الودائع والعارية والديون ، ونحو ذلك مما يأتمن الناس بعضهم بعضًا عليه ، فيجب على من أودع وديعة أو استعار عارية أن يحافظ عليها ، وأن يردها على صاحبها في الوقت المحدد لها ، كما قال تعالى : ﴿ فإن أمن بعضكم بعضًا فليؤد الذي اؤتمن أمانته وليتق اللَّه ربه ﴾ [البقرة : ٢٨٣] .

كما يدخل في رعاية الأمانة مع سائر الخلق الحكم بينهم بالعدل فيما هم فيه يختلفون ، لقوله تعالى : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ [النساء : ٥٨] ، فلا يجوز أن يميل القاضي مع أحد الخصمين لغناه وجاهه ، كما لا يجوز أن يميل على الشاتي لفقره وضعفه ، قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء للَّه ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًا أو فقيرًا فاللَّه أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن اللَّه كان بما تعملون خبيرًا ﴾ [النساء : ١٣٥] .

ولا يجوز أيضًا أن يحكم لأحدهما لمحبته ، ولا يحكم على الآخر لعداوته ، قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين للَّه شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا اللَّه إن اللَّه خبير بما تعملون ﴾ [المائدة : ٨] .

ولقد أمر اللَّه بالعدل في الحكم وأخبر أنه يحب من حكم فعدل ، ونهى عن الجور ، وأخبر أنه ضلال مبين وظلم عظيم ، وتوعّد الحاكم إذا جار بالعذاب الأليم ، فقال تعالى : ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن اللَّه يحب المقسطين ﴾ [المائدة : ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل اللَّه إن الذين يضلون عن سبيل اللَّه لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ [ص : ٢٦] .

وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ، رضي اللَّه عنهما ، قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « إن المقسطين عند اللَّه على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلوا »[٧] .

ثم ختمت الآية الكريمة ببيان أنها موعظة من رب العالمين لعباده المؤمنين ، وأنعم بها من موعظة ، فعلى المؤمنين أن ينتفعوا بها : ﴿ إن اللَّه نعمًا يعظكم به إن اللَّه كان سميعًا ﴾ لأقولكم ﴿ بصيرًا ﴾ بأعمالكم ، فلا يسمعن منكم إلا الطيب ، ولا يرين منكم إلا الجميل .

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين .

---

(١) التفسير الكبير : (١٠/١٤٣) .

(٢) حسن صحيح ؛ رواه أبو داود : (٢/١٦٢/٤٩١) .

(٣) حسن صحيح ؛ رواه أبو داود : (١٠/٩١/٣٦٤١) ، والترمذي (٤/١٣٨/٢٧٨٧) .

(٤) صحيح ؛ رواه مسلم : (١/١٩٩/١٠٢) ، والترمذي (٢/٣٨٩/١٣٢٩) .

(٥) صحيح ؛ أخرجه أحمد : (٤٢٥/٥) ، وغيره ، كما في ((الإرواء)) : (٢٦٢٢) .

(٦) متفق عليه ، رواه البخاري : (١٢/٣٤٨/٦٩٧٩) ، ومسلم (٣/١٤٦٣/١٨٣٢) ، وأبو داود (١٦٢/٢٩٣٠، ٨/١٦٣) .

باب التفسير

بقلم الشيخ / عبد العظيم بدوي

آداب الحج

قال تعالى : ﴿ الحج أشهرٌ معلوماتٌ فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خيرٍ يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب ﴾ [البقرة : ١٩٧] ، الحج فريضة من فرائض الدين ، وركن من أركان الإسلام ، وذلك معلوم من الدين بالضرورة ، لا يحتاج إلى استدلال .

والحج فضله عظيم ، يرجع منه الحاج مغفور الذنب ، مكفر الخطايا ، قد عفا الله له عما سلف ، وطويت صفحته الماضية كأنما وُلد من جديد ؛ لذلك يحرص المسلمون عليه ، وينفقون في سبيله المال والوقت والجهد ، ويتركون الأهل والولد والوطن ، حرصًا على هذا الفضل ، وطمعًا فيه ، ورحمة الله واسعة ، وفضله عظيم ، لكنه قد قيل :

ترجو النجاة ولم تسلك طريقتها
إن السفينة لا تجري على اليبس

فهذا الفضل العظيم خاصّ لا عام ، ومقيدٌ لا مطلق ، فهو يختص بمن التزم بهذا القيد ولا يعم غيرهم ، وسنعرف هذا القيد من خلال هذا المقال إن شاء الله .

﴿ الحج أشهر معلومات ﴾ :

لما ذكر الله تعالى الصيام وأحكامه نص على أيامه ؛ فقال : ﴿ شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وبين وقته فقال : ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

ولما ذكر الحج لم ينص على أيامه ، وإنما قال : ﴿ الحج أشهر معلومات ﴾ ، فهي مشهورة مستفيضة ، معلومة للناس في الجاهلية ، وقد أقرّها الإسلام ولم يغيرها ، وهي شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة : ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ ؛ أي فمن أحرم فيهن بالحج المفروض أو التطوع : ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾ .

إن الإحرام لا يكون إلا بالتجرد من زينة الحياة الدنيا كلها ، فيحرم المحرم في إزار ورداء فقط ، فأولى له أن يتخلى أيضًا عن كل ما حرم عليه لعارض الإحرام مما هو في أصله حلال ، ومما يحرم بالإحرام: لبس المخيط ، وتغطية رأس الرجل بعمامة ونحوها ؛ والطيب ، لحديث ابن عمر : أن رجلاً قال : يا رسول الله ، ما يلبس المحرم من الثياب ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا يلبس القمص ولا العمائم ولا السراويلات ولا البرانس ولا الخفاف ، إلا أحدٌ لا يجد نعلين فليلبس خفين وليقطعهما أسفل من الكعبين ، ولا تلبسوا من الثياب شيئًا مسه زعفران أو وَرْس)) . [متفق عليه] .

ومما يحرم بالإحرام : تقليم الأظفار ، وإزالة الشعر بالحلق أو

القص ، أو غير ذلك ، لقوله تعالى : ﴿ ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله ﴾ [البقرة : ١٩٦] ، وأجمع العلماء على حرمة قلم الظفر للمحرم : [الإجماع لابن المنذر : ٥٧].

ومما يحرم بالإحرام : الرفث ؛ وهو مقدمات الجماع ودواعيه ، وكل حاج يلتزم بذلك - بفضل الله - ويتركه لله ، ولكن مع الأسف قد يقع في المحرمات أصلاً وأبدًا في الحج وغيره ، كالغيبة والنميمة ، والهمز واللمز ، والسبّ والشتم ، والجدال والمراء ، بل قد يصل الأمر إلى الضرب ! فكيف يطمع من يقع في هذه المحرمات - وهو محرم - أن يرجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه ؟! ولذا أكد الله تعالى على التخلي عن هذه المحرمات ، فقال : ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ﴾ ، فجمع في النهي بين ما حُرم لعارض الإحرام ، وما هو محرم أصلاً وأبدًا تأكيدًا على أنه يتأكد حتمًا اجتناب هذه المحرمات في الحج ؛ لأن حرمتها فيه أشد من حرمتها في غيره ، والله تعالى قد قال في حق الحرم : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ [الحج : ٢٥] ، فكيف بمن فعل ؟!

ومن أسوأ الأفعال وقبيح الذنوب إشعال المحرم السيجارة وهو محرم ، فتراه يتلطخ بهذه القاذورات ، ويملأ فمه بنتنها ، ثم يصرح ملبيًا : لبيك اللهم لبيك ، أي : إجابة لك بعد إجابة ، ولزومًا للطاعة ، فأين هي الإجابة ؟ وأين هي الطاعة ؟!

ألا فليعلم كل حاج أن هدم الحج لما قبله مقيد بما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » . [متفق عليه] . فمن رفث وفسق فأنى له ذلك ؟!

ولما أمر الله تعالى بالتخلي عن الفسوق والعصيان أمر بالتحلي بالبر والطاعة فقال : ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ .

إن موسم الحج موسم النفحات والرحمات ، وفيه يضاعف ثواب الطاعات ، فهو يقع في خير الأيام وأفضلها ، يقع في أيام يحب الله تعالى فيها الطاعات ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه العشر » ؛ يعني عشر ذي الحجة . [البخاري : ٩٦٩] .

فالواجب على الحاج أن يحرص على كل خير وبر ، من صلاة وصدقة ونسك ، وأمر بمعروف بالمعروف ، ونهي عن منكر بالمعروف ، ودعوة إلى الخير ، وتعليم الناس ما يحتاجونه مما يعلمه ، وسعي في قضاء حوائجهم ، ونحو ذلك مما يحبه الله ويرضاه .

ولما كان السفر يحتاج إلى زاد ولا سيما إذا طال وطالت أيامه ، أمر الله المسافرين للحج بأخذ ما يكفيهم وزيادة ، وأعلمهم أن هذا لا ينافي التوكل ، فقال تعالى : ﴿ وتزودوا ﴾ .

عن عكرمة ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وتزودوا ﴾ . [البخاري : ٨١١] .

ثم أرشدهم إلى أن يتذكروا بأسفارهم هذه في الدنيا السفر الأكبر من الدنيا إلى الآخرة ، وأن هذا السفر الأكبر يحتاج أيضًا إلى زاد ، ولكن ليس من جنس زاد الدنيا ، فقال تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب ﴾ .

وفي هذا يقول القائل :

ولست أرى السعادة جمع مال
ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرًا
وعند الله للأتقى مزيد

قال تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ۞ هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ۞ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ۞ ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ۞ لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد ﴾ [ق : ٣١ - ٣٥] ، وأعلا هذا المزيد وأفضله النظر إلى وجه الله عز وجل ، فمن أراد ذلك المزيد فعليه أن يزداد من زاد التقوى ، وأولى الناس بذلك هؤلاء الذين جادوا بأموالهم وأوقاتهم وجهدهم ، وتركوا أوطانهم وأولادهم وأهليهم ، وهاجروا إلى الله يبتغون من فضل الله .

ألا فليحرص كل حاج على أن يتخلى عن كل ما نهى الله عنه ، ويتحلى بكل ما أمر الله به ، حتى يحقق قوله تعالى : ﴿ فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ ، فإن فعل فليبشر بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

نسأل الله تعالى أن يجعل موسم الحج هذا موسم خير ويمن وبركة ، وأمن وأمان وسلم وسلام ، وأن يرد جميع الحجيج سالمين غانمين ، وأن يجعل حجهم مبرورًا ، وسعيهم مشكورًا ، وذنبهم مغفورًا ، إنه ولي ذلك والقادر عليه . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

وحدة الجنس البشري

بقلم الشيخ / عبد العظيم بدوي

قال تعالى: ﴿يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساءً واتقوا اللّه الذي تساءلون به والأرحام إن اللّه كان عليكم رقيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يأيها الناس﴾ خطاب عام لجميع المكلفين دون تخصيص المؤمنين: ﴿اتقوا ربكم﴾؛ أي خافوه، واحذروا غضبه وعقابه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وقد بين سبحانه أن عبادته وحده لا شريك له هي التي تحقق في القلوب تقواها، فقال سبحانه: ﴿يأيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ [البقرة: ٢١]، فالتقوى ثمرة العبادة من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، ونحو ذلك، فمن لم يعبد اللّه لم يتقه، فاعبدوا اللّه ولا تشركوا به شيئًا، ثم بين علة التقوى؛ فقال: ﴿الذي خلقكم من نفس واحدة﴾، فكونه سبحانه خالقنا يقتضي أن نكون نحن عبيده، والعبودية توجب الخضوع والانقياد، والإسلام والاستسلام للرب الخالق، وكونه أوجدنا بعد عدم هذا غاية الإحسان منه إلينا، و﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ [الرحمن: ٦٠]؟ فتعين علينا أن ندين للّه خالقنا بالسمع والطاعة، شكرًا له على هذه النعمة العظيمة، فإن كفر النعم الظاهرة البينة قبيح، ولذا قال تعالى منكرًا على الكافرين كفرهم: ﴿كيف تكفرون باللّه وكنتم أمواتًا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجعون﴾ [البقرة: ٢٨].

وفي كونه سبحانه خلقنا من نفس واحدة دلالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ، حيث كان الأصل واحدًا والفروع مختلفة ، كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ﴾ [الروم : ٢٢] ، ومن كان كذلك وجب الانقياد لحكمه وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه .

والنفس الواحدة التي خلقنا اللَّه منها هي آدم ، عليه السلام ، وخلق آدم نفسه من تراب معلوم ، وقد نصّ عليه ربنا سبحانه في أكثر من آية ، منها الموجز ، ومنها المفصل ، ومن الموجز قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند اللَّه كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ [آل عمران : ٥٩] ، ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ المراد حواء ، خلقها اللَّه من ضلع من أضلاع آدم وهو نائم ، فلما استيقظ رأها فمال إليها وألفها ، ولذلك قال النبي صلى اللَّه عليه وسلم : « إن المرأة خُلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرًا »[1] .

﴿ وبثّ منهما رجالاً كثيرًا ونساءً ﴾ ؛ عن طريق التزاوج المعلوم ، وقد جمع اللَّه تعالى في البيان بين خلق الإنسان الأول ونسله ، فقال تعالى : ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ۞ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ۞ ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ [السجدة : ٧- ٩] ، وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ۞ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ۞ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر فتبارك اللَّه أحسن الخالقين ۞ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ۞ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ [المؤمنون : ١٢- ١٦] .

﴿ واتقوا اللَّه الذي تساءلون به ﴾ ؛ أي يسأل بعضكم بعضًا باللَّه أن يعطيه ، أو يقضي حاجته ، أو يفي بعهده ، ونحو ذلك ، كأن يقول : أسألك باللَّه كذا وكذا ، على سبيل الاستعطاف والتراحم ، لما يعلمونه في نفوسهم من تعظيم اللَّه الداعي إلى عدم ردّ من سألهم باللَّه ، فقال اللَّه لهم : ﴿ واتقوا اللَّه الذي تساءلون به ﴾ ؛ أي كما عظمتموه بذلك فعظموه بعبادته وتقواه .

وقد كرر الأمر بالتقوى تأكيدًا ، وخالف في الاسم في المرتين ، فقال في الأولى : ﴿ اتقوا ربكم ﴾ ، وقال في الثانية : ﴿ واتقوا اللَّه ﴾ ؛ والفرق أن « الرب » لفظ يدل على التربية والإحسان ، و« الإله » لفظ يدل على القهر والهيبة ، فأمرهم بالتقوى بناءً على الترغيب ، ثم أعاد الأمر بها بناءً على الترهيب ، ليجمعوا في عبادته بين الخوف والرجاء ، فيستحقوا المدح والثناء ، كما قال تعالى : ﴿ إنما يُؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدًا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ۞ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ومما رزقناهم ينفقون ۞ فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ [السجدة : ١٥- ١٧] ، وقال تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه

قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ [الزمر : ٩] ، فكأنه قال : اتق مخالفة الرب الذي رباك وأحسن إليك ؛ لأنه شديد العقاب ، عظيم السطوة .

﴿ والأرحام ﴾ بالنصب عطفًا على لفظ الجلالة ﴿ اللَّه ﴾ ، والمعنى : واتقوا اللَّه بالتزام طاعته ، واجتناب معصيته ، واتقوا الأرحام بوصلها وعدم قطعها ، فإن اللَّه اشتق اسمها من اسمه ، ووعدها أن يصل من وصلها ، ويقطع من قطعها ، كما في الحديث عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم : « قال اللَّه عز وجل : أنا الرحمن وهي الرحم ، شققت لها اسمًا من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته »[٢] .

وقال صلى اللَّه عليه وسلم : « إن اللَّه خلق الخلق ، حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن ، فقال : مه ؟ قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم . أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى . قال : فذلك لك »[٣] .

ثم قال صلى اللَّه عليه وسلم : « اقرءوا إن شئتم : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ۞ أولئك الذين لعنهم اللَّه فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ [محمد : ٢٢، ٢٣] » .

وصلة الرحم بركة في الرزق ، وطول في العمر ، كما قال النبي صلى اللَّه عليه وسلم : « من سره أن يُبسط له في رزقه ، وأن يُنْسَأ له في أثره فليصل رحمه »[٤] .

وفرقّ بين الصلة والمكافأة ، فالمكافأة أن تصل من وصلك ، وتبر من برك ، وتحسن إلى من أحسن إليك ، أما الصلة فهي أن تصل من قطعك ، وتبر من جفاك ، وتحسن إلى من أساء إليك ، ولذا قال صلى اللَّه عليه وسلم : « ليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل من إذا قطعت رحمه وصلها »[٥] .

وعن أبي هريرة ، رضي اللَّه عنه ، أن رجلاً قال : يا رسول اللَّه ، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ ، وأحلُم عليهم ويجهلون عليَّ ، فقال صلى اللَّه عليه وسلم : « لئن كنت كما قلت فكأنما تُسِفُّهُم المل ، ولا يزال معك من اللَّه ظهير عليهم مادمت على ذلك »[٦] .

وقد حذّر اللَّه ورسوله من القطيعة ، فقال اللَّه تعالى : ﴿ والذين ينقضون عهد اللَّه من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر اللَّه به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ [الرعد : ٢٥] . وقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم : « لا يدخل الجنة قاطع »[٧] . يعني قاطع رحم .

ثم ختم اللَّه الآية الكريمة بما يكون كالوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، فقال سبحانه : ﴿ إن اللَّه كان عليكم رقيبًا ﴾ ؛ أي حفيظًا يحفظ على العبد جميع أقواله وأفعاله ، كما في الحديث القدسي : « يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد اللَّه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[٨] .

وقال تعالى : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في

الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [يونس : ٦١] ، وقال تعالى : ﴿ ألم تر أن اللَّه يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم إينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن اللَّه بكل شيء عليم ﴾ [المجادلة : ٧] .

وهذا يقتضي أن يُخاف ويُرجى ، وأن يكون المرء دائمًا حذرًا خائفًا فيما يأتي ويدع من الأقوال والأعمال ، وأن يعمل بوصية رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « أن تعبد اللَّه كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[٩] .

وبعد : فهذه هي الآية الأولى من سورة « النساء » ، وقد كان النبي صلى اللَّه عليه وسلم يقرأها كل جمعة على المنبر ، بعد حمد اللَّه والثناء عليه ، ولما جاءه قوم عُراة مجتابى النمار أو العباء ، متقلدى السيوف ، عامتهم بل كلهم من مُضَر ، فتمعر وجه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذن وأقام ، ثم صلى ، ثم خطب ، فقال : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ إلى آخر الآية . والآية الأخرى التي في آخر « الحشر » : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا اللَّه ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ [الحشر : ١٨] ، ثم حث صلى اللَّه عليه وسلم على الصدقة[١٠] .

وإنما قرأ صلى اللَّه عليه وسلم هذه الآية بين يدي الحث على الصدقة تذكيرًا لهم بما بينهم وبين هؤلاء الفقراء من وحدة الأصل وأخوة النسب ، فكلهم من نفس واحدة ، فهم جميعًا إخوة ، ويجب على الأخ أن يعطف على أخيه ويحسن إليه ، ويقضي حاجته ، ويسد فاقته .

وسر استفتاح اللَّه تعالى السورة بهذه الآية أنه سبحانه قد ضمن السورة كثيرًا من التكاليف الشاقة على النفوس ، ولا يعين على حملها إلا التقوى والوعيد ، فقال : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم ﴾ ، وقد أجمل في هذه الآية بعض الأمور ، ثم أتى عليها بالتفصيل في السورة كلها . وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين .

* * *

(١) متفق عليه : البخاري (٦/٣٦٣/٣٣١) ، ومسلم (١٤٦٨- ٢/١٠٩١/٦٠) .
(٢) صحيح . رواه أبو داود (٥/١١٢/١٦٧٨) ، والترمذي (٣/٢١١/١٩٧٢) .
(٣) متفق عليه . البخاري (١٠/٤١٧/٥٩٨٧) ، والترمذي (٤/١٩٨٠/٢٥٥٤) .
(٤) صحيح . رواه البخاري (١٠/٤١٥/٥٩٨٥) .
(٥) صحيح . رواه البخاري (١٠/٤٢٣/٥٩٩١) ، وأبو داود (٥/١١٤/١٦٨١) ، والترمذي (٣/٢١١/١٩٧٣) .
(٦) صحيح . رواه مسلم (٤/١٩٨٢/٢٥٥٨) .
(٧) متفق عليه . رواه البخاري (١٠/٤١٥/٥٩٨٤) ، ومسلم (٤/١٩٨١/٢٥٥٦) ، وأبو داود (٥/١١٤/١٦٨٠) ، والترمذي (٣/٢١١/١٩٧٤) .
(٨) صحيح . رواه مسلم (٤/١٩٩٤/٢٥٧٧) .
(٩) صحيح . رواه مسلم (١/٣٦/٨) ، والترمذي (٤/١١٩/٢٧٣٨) ، وأبو داود (١٢/٤٥٩/٢٦٧٠) ، وابن ماجه (١/٢٤/٦٣) ، وأنس (٨/٩٧) .
(١٠) صحيح . رواه مسلم (٢/٧٠٤/١٠١٧) ، وأنس (٥/٧٥) .

باب التفسير

الحث على عدم المغالاة في المهور

بقلم الشيخ / عبد العظيم بدوي

قال تعالى: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلةً فإن طبن لكم عن شيءٍ منه نفسًا فكلوه هنيئًا مريئًا﴾ [النساء: ٤].

إن سورة ((النساء)) مليئة بالتشريعات الربانية التي شرعت لتخليص المجتمع المسلم من سمات الجاهلية، وهذه الآية واحدة من آيات تلك السورة الكريمة، شرعت للمرأة عند الزواج حقًا معلومًا في مال الزوج، وأوجبت عليه إذا أراد النكاح أن يعطي المرأة صداقها عن رضا نفس وطيب خاطر، كما يعطي من يحب من الناس هدية أو هبة.

وقد كانوا في الجاهلية يتزوج الرجل المرأة بغير مهر، يقول لها: أتزوجك على أن أرثك وترثيني، وكان ولي المرأة يقول لصاحبه: أزوجك ابنتي أو أختي على أن تزوجني ابنتك أو أختك، وكان ولي المرأة هو الذي يقبض صداقها، لا يحل لها منه شيء، فحرم الإسلام ذلك كلّه، وجعل الصداق واجبًا مفروضًا على الزوج، وحقًا خالصًا للمرأة، فإذا طابت نفس الزوجة بعد ذلك عن شيء من الصداق لزوجها فلا حرج ولا جناح على الزوج في قبول ما طابت امرأته به نفسًا من صداقها؛ لأن العلاقات الزوجية ينبغي أن تقوم على الرضا الكامل، والاختيار المطلق، والسماحة النابعة من القلب، والودّ الذي لا يبقى معه حرج هنا أو هناك.

وقد لاحظ بعض العلماء من هذه الآية ملاحظة لطيفة فقال: قوله تعالى: ﴿وآتوا النساء ...﴾* هذا خطاب للأزواج؛ لأنهم المخاطبون قبلُ في قوله تعالى: ﴿فانكحوا﴾، فأمرهم بالنكاح، ثم أمرهم بإيتاء النساء المنكوحات صدقاتهنّ، وسمى اللّه تعالى الصداق نحلة، أي: عطية أوْ هبة أوْ هدية، فتعين على كل من أراد الزواج أن يعطي امرأته عطية، وتعين على المرأة قبولها، وليس لها ولا لوليها رفض هذه العطية لقلتها، ولا تقديرها ابتداء،

فالزواج ليس بيعًا ولا شراء ، ولكنه رباط مقدس لاستمرار الحياة وتبادل المنافع ، وللتراحم والتآلف والحب ، والبيع والشراء مظنة المساومة والمشادّة والمناورة والغش والخديعة ، والحلف الكاذب ، ولا يجوز أن يكون عقد النكاح كذلك ، ولذلك سُمّي المهر نحلة ؛ أي عطية وهدية وهبة ؛ لأن الهدية والعطية تكون بين الأحباب ، وتكون عن طيب خاطر ، ورضا نفس ، بخلاف البيع والشراء ، وما دام المهر هدية أو عطية ، فإن الإسلام لم يحدد قيمة المهر قلةً أو كثرة ، وإنما ترك ذلك للأزواج ، يدفعون للنساء ما يقدرون عليه دون كلفة أو مشقة ، أو إرهاق أو استدانة ، ولكنه ندب إلى التيسير والتخفيف ، وكره المغالاة التي تكلف الرجل ما لا يملك .

عن عقبة بن عامر ، رضي اللّه عنه ، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : ((خير النكاح أيسره))[1] .

وعن عائشة ، رضي اللّه عنها ، أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : ((من يُمن المرأة تيسير خِطبتها ، وتيسير صداقها ، وتيسير رحمها))[2] .

وكان النبي صلى اللّه عليه وسلم ينكر على من غالى في المهر وكلف نفسه ما ليس عنده .

عن أبي هريرة ، رضي اللّه عنه ، قال : جاء رجل إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال : إني تزوجت امرأة من الأنصار ، فأعنِي على مهرها ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : ((على كم تزوجتها ؟)) فقال : على أربع أواقٍ - يعني ستين ومائة درهم - فقال صلى اللّه عليه وسلم : ((على أربع أواقٍ ؟ كأنكم تنحتون الفضة من عُرض هذا الجبل ، ما عندنا ما نعطيك ، ولكن عسى أن نبعثك في بعث تصيب منه ، فبعث بعثًا إلى بني عبس فبعثه معهم))[3] .

وكذلك كان عمر بن الخطاب ، رضي اللّه عنه ، ينهى الناس عن المغالاة في المهور ، عن أبي العجفاء السلمي قال : خطبنا عمر يومًا فقال : ألا لا تغالوا في صدقات النساء ، فإن ذلك لو كان مكرمة في الدنيا وتقوى عند اللّه كان أولاكم بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ما أصدق صلى اللّه عليه وسلم امرأة من نسائه ، ولا أُصدقت امرأة من بناته أكثر من ثنتي عشرة أوقية[4] .

ولقد زوج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رجالاً من أصحابه ليس عندهم شيء ، عن سهل بن سعد ، رضي اللّه عنه ، قال : جاءت امرأة إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالت : يا رسول اللّه ، جئت أهب نفسي لك ، فنظر إليها صلى اللّه عليه وسلم ، فصعّد النظر فيها وصوّبه ، ثم طأطأ رأسه ، فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئًا جلست ، فقام رجل من أصحابه فقال : يا رسول اللّه ، إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها ، فقال : ((هل عندك شيء ؟)) فقال : لا واللّه يا رسول اللّه ، فقال : ((اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئًا)) ، فذهب ثم رجع ، فقال : لا واللّه ما وجدت شيئًا ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : ((انظر ولو خاتمًا من حديد)) . فذهب ، ثم رجع فقال : لا واللّه يا رسول اللّه ، ولا خاتمًا من حديد ، ولكن هذا إزاري فلها نصفه ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : ((ما تصنع بإزارك ؟ إن لبستَه لم يكن عليها منه شيء ، وإن لبستْه لم يكن عليك منه شيء)) . فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام ، فرآه النبي صلى اللّه عليه وسلم موليًا ، فأمر به فدُعي ، فلما جاء قال : ((ماذا معك من القرآن ؟)) قال : معي سورة كذا وسورة كذا ، قال : ((تقرؤهن عن ظهر قلبك ؟)) قال : نعم ، قال : ((اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن))[5] .

وعن عقبة بن عامر ، رضي اللّه عنه ، أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لرجل : ((أترضى أن أزوجك من فلانة ؟)) قال : نعم ، وقال للمرأة : ((أترضين أن أزوجك فلانًا ؟)) قالت : نعم ، فزوج أحدهما صاحبه ، فدخل بها الرجل ولم

يفرض لها صداقًا ، ولم يعطها شيئًا ، وكان ممن شهد الحديبية ، وكان من شهد الحديبية له سهمٌ بخيبر ، فلما حضرته الوفاة قال : إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم زوجني فلانة ولم يفرض لها صداقًا ، ولم أعطها شيئًا ، وإني أشهدكم أني أعطيتها من صداقها سهمي بخيبر ، فأخذت سهمًا فباعته بمائة ألف[٦] .

ويؤخذ من هذا : جواز تزوج الفقير الذي ليس عنده شيء ، وأن الفقر لا يمنع الرجل من التقدم للزواج ، ولا يمنع ولي المرأة من تزويجه ؛ لأن اللّه تعالى قال : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم اللّه من فضله واللّه واسعٌ عليمٌ ﴾ [النور : ٣٢] .

وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : ((ثلاثة حقٌ على اللّه عونهم : المجاهد في سبيل اللّه ، والعبد المكاتب ، والناكح للعفاف))[٧] .

كما يؤخذ منه جواز الدخول بالمرأة دون تسمية مهر ، ولكنه يستقر لها في الذمة ، كما يؤخذ منه أن يتزوج الرجل بما تيسر ، حتى إذا بنى بيتًا وأسس أسرة فلا مانع من أن يعطي امرأته ما شاء ، ويشتري لها ما شاء ، أما أن يكلف عدم الدخول حتى يجهز كذا وكذا ، فإن هذا من أكبر أسباب انصراف الشباب عن الزواج وتأخيرهم له .

ولقد كان السلف الصالح رجالاً ونساء ييسرون أمر الزواج ، ولا ينظرون إلى المهر نظرة طمع ، وضربوا في ذلك أروع الأمثلة .

عن أنس بن مالك ، رضي اللّه عنه ، قال : خطب أبو طلحة أم سُلَيم ، فقالت : واللّه ما مثلك يا أبا طلحة يُرد ، ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة ، ولا يحل لي أن أتزوجك ، فإن تُسلم فذلك مهري ولا أسألك غيره ، فأسلم ، وكان ذلك مهرها .

قال الراوي عن أنس : فما سمعت بامرأة قط كانت أكرم مهرًا من أم سُليم ؛ الإسلام . فدخل بها فولدت له[٨] .

وعن أبي بكر بن أبي داود قال : كانت بنت سعيد بن المسيب قد خطبها أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لابنه الوليد بن عبد الملك ، فأبى عليه ، فلم يزل يحتال عليه حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد ، وصب عليه جرة ماء ، وألبسه جُبَة صوف ، وكان كثير بن المطلب بن أبي وداعة يجالس سعيد بن المسيب ، ففقده أيامًا ، فلما جاءه قال : أين كنت ؟ قال : تُوفيت أهلي فانشغلت بها ، فقال : ألا أخبرتنا فشهدناها ، ثم قال : هل استحدثت امرأة ؟ قال : يرحمك اللّه ! ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ قال : أنا . قال : وتفعل ؟ قال : نعم ، ثم تحمد وصلّى على النبي صلى اللّه عليه وسلم وزوّجه على درهمين أو ثلاثة . قال كثير : فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح ، فصرت إلى منزلي ، وجعلت أتفكر فيمن أستدين ؟ فصليت المغرب ورجعت إلى منزلي ، وكنت وحدي صائمًا ، فقدّمت عشاءً أفطر ، وكان خبزًا وزيتًا ، فإذا بابي يُقرع ، فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد ، فأفكرت في كل من اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب ، فإنه لم يُر أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد ، فخرجت ، فإذا سعيد ، فظننت أنه قد بدا له ؛ يعني أن يرجع ، فقلت : يا أبا محمد ، ألا أرسلت إليَّ فآتيك ؟ قال : لا ، أنت أحق أن تُؤتى ، إنك كنت رجلاً عزبًا فتزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك ، فإذا هي قائمة من خلفه في طوله ، ثم أخذ بيدها ، فدفعها وردّ الباب ، فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب ، ثم وضعت القصعة في ظل السراج لكي تراه ، ثم صعدت إلى السطح ، فرميت الجيران، فجاءوني فقالوا : ما شأنك ؟ فأخبرتهم ، ونزلوا إليها ، وبلغ أمي فجاءت وقالت : وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام ، فأقمت ثلاثًا ثم دخلت بها ، فإذا هي من أجمل الناس ، وأحفظ الناس لكتاب اللّه ، وأعلمهم بسنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ،

وأعرفهم بحق زوج ، فمكثت شهرًا لا آتي سعيد بن المسيب ، ثم أتيته وهو في حلقته فسلمت ، فردّ عليَّ السلام ، ولم يكلمني حتى تقوّض المجلس ، فلما بيق غيري ، قال : ما حال ذلك الإنسان ؟ قلت : خيرٌ يا أبا محمد ، على ما يحب الصديق ويكره العدو ، قال : إن رابك شيء فالعصا ، فانصرفت إلى منزلي ، فوجه إليَّ بعشرين ألف درهم[٩] .

الله أكبر !! ابن المسيب يرفض أن يزوج ابنته لولي العهد ابن أمير المؤمنين ، ويزوجها لرجل من فقراء المسلمين ، ولو زوجها لابن الخليفة لوزنها ذهبًا ، وأخدمها ، ووسع عليها توسعة الأمراء ، ولكن ما لابن المسيب والغنى ، وما له والترف ، وما له والقصور ، لقد خاف على ابنته من الترف أن يُفسدها ، ومن نعيم القصور أن ينسيها ظلمة القبور .

ثم ماذا ؟ إن رابك شيء فالعصا ، بخلاف ما عليه الآباء والأمهات اليوم من وصيتهم لبناتهم : إن رفع يده عليك اتركي له الدار وتعالي !!

ثم ماذا ؟ أبو الزوجة يرسل لزوج ابنته بعشرين ألف درهم !!

الله أكبر !! ما هذه الأخلاق ؟! وما هذه الآداب ؟ وما هذا الكرم ؟! ألا ما أحوج المسلمين إلى قراءة سيرة سلفهم ليقتدوا بهم في أخلاقهم وآدابهم .

فيا معشر المسلمين : إن الإسلام دين اليسر والسماحة والتخفيف ورفع الحرج ودفع المشقة ، فهل لنا أن نيسر لشبابنا أمر الزواج ، وأن نفتح لهم بابه ، ذلك الباب الذي لا يكاد أحد يفتحه إلا بكسر !!

إن المغالاة في المهور مشكلة من مشكلات العصر التي تواجه الشباب ، فالشاب يتخرج من الجامعة ابن اثنتين وعشرين أو ثلاث وعشرين سنة ، فلا يتزوج إلا بعد أن يقضي عشر سنين في السفر المتصل هنا وهناك طمعًا في توفير المبلغ المطلوب منه لدفعه مهرًا لفتاة أحلامه ، فلا يكاد الشاب أن يتزوج إلا وهو في سن الخامسة والثلاثين ، وربما بلغ الأربعين ، وهذا بدوره أودى إلى كثرة العوانس ، وفي هذا الأمر ما فيه من المخاطر والمفاسد ، فإن الغريزة الجنسية من أقوى الغرائز في الإنسان ، وهي في فترة الشباب في عنفوان قوتها ، فإذا نحن لم نفتح للشباب أبواب الزواج الشرعي الذي جعله الله طريقًا لقضاء الوطر وإكثار النسل لاستمرار الحياة ، فإنه قد تكثر الفواحش ، ويكثر الأبناء غير الشرعيين ، فاتقوا الله عباد الله في أبنائكم وبناتكم ، ويسروا لهم أمر الزواج ، واعلموا أن السعادة ليست في كثرة المهور وعظمة الجهاز ، وإنما السعادة تنشأ في قلب الزوجين المتآلفين المتحابين اللذين لم يجعلا المادة أساس حياتهما :

ولست أرى السعادة جمع مال
ولكن التقي هو السعيد
وإن أهنأ عيش هو العيش المعتدل في كل شيء ، وكل عيش مهما خشن أو نعم إذا اعتاده أهله ألفوه وارتاحوا إليه ، والسعادة هي الرضا ، والحر هو الذي يتحرر من كل ما يستطيع الاستغناء عنه ، وذلك هو الغنى بالمعنى الإسلامي والمعنى الإنساني .

* * *

• هذه الملاحظة تراعي التراحم والتآلف ، ولا ينفي ذلك أن الصداق حق، وأن مهر المثل أصل معمول به، ويرجع إليه عند التنازع.

(١) صحيح ، رواه أبو داود (٢١٠٣/ ١٥٠- ٦/١٥٢) .
(٢) حسن ، رواه أحمد (٦/٧٧ و٩١) ، وابن حبان (١٢٥٦) ، والبيهقي ، كما في ((الإرواء)) (٦/٣٥٠) .
(٣) صحيح ، رواه مسلم (١٤٢٤/١٠٤٠/٢) .
(٤) صحيح ، رواه أبو داود (٢٠٩٢/١٣٥/ ٦) ، والترمذي (١٢٢/٢٩١/٢) ، والنسائي (٦/١١٧) .
(٥) متفق عليه ، رواه البخاري (٢٦/٥/١٨١/٩) ، ومسلم (١٤٢٥/١٠٤٠/٢) ، وأبو داود (٢٠٩٧/١٤٣/٦) ، والنسائي (٦/١١٣) ، والترمذي (١٢٢١/٢٩٠/٢) .
(٦) صحيح ، رواه أبو داود (٢١٠٣/١٥٠/٦) .
(٧) حسن ، رواه الترمذي (١٧٠٦/١٠٣/٣) ، والنسائي (٦/٦١) ، وابن ماجه (٢٥٨١/٨٤١/٢) .
(٨) صحيح ، رواه النسائي (٦/١١٤) .
(٩) سير أعلام النبلاء (٢٣٣ و٤/٢٣٤) .

باب التفسير

استوصوا بالنساء خيرًا

بقلم الشيخ / عبد العظيم بدوي

قال تعالى : ﴿ يـٰأيها الذين آمنوا لا يحلُّ لكم أن ترثوا النساء كرهًا ولا تعضلوهنَّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنَّ إلاَّ أن يأتين بفـٰحشةٍ مبينةٍ وعاشروهنَّ بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل اللَّه فيه خيرًا كثيرًا ﴿١٩﴾ وإن أردتم استبدال زوجٍ مكان زوجٍ وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا أتأخذونه بهتـٰنًا وإثمًا مبينًا ﴿٢٠﴾ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعضٍ وأخذن منكم ميثـٰقًا غليظًا ﴾ [النساء : ١٩- ٢١] .

كان أهل الجاهلية ينظرون إلى المرأة نظرة ازدراء ومقت ، ويعاملونها أسوأ معاملة ، ويظلمونها بأنواع الظلم ، يأكلون مالها يتيمة ، ويحرمونها من الميراث كبيرة ، ويتزوجونها كرهًا من غير صداق ، وإذا مات زوجها كان أولياؤه أحق بها من أهلها ، يرثونها كما يرثون البهائم والمتروكات ، إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها وأخذوا مهرها ، وإن شاءوا منعوها من الزواج وأمسكوها حتى تموت أو تفتدي نفسها منهم .

فأنزل اللَّه هذه الآية نهيًا للمؤمنين عن عمل الجاهلين ، فقال تعالى : ﴿ يـٰأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا ﴾ ، يا من صدقتم باللَّه ورسوله ، والكتاب الذي نزل على رسوله ، لا يحل لكم أن تستمروا على سنة الجاهلين في ظلم المرأة وهضم حقها ، ووراثتها دون رغبتها حتى يتزوجها واحد منكم إن شئتم ، أو تحبسوها حتى تموت فترثوا مالها ، أو تتضرر وتتأذى من هذا التصرف ، فتفتدي نفسها ، فإن هذا حرام

حرّمه اللّه عليكم ، فلا تستحلوه ، فإن استحلاله ضلال مبين ، وظلم عظيم ، قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى اللّه ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعصِ اللّه ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وعليكم أن تمكنوا المرأة من نفسها بعد انقضاء عدّتها ، فتزوج بمحض إرادتها مَن شاءت من أهل زوجها ، أو من غيرهم ، فالمرأة في نظر الإسلام إنسان محترم ذو إرادة ، ولا يجوز إكراهها على الزواج للمرة الأولى وهي بكر ، أو بعد ذلك وهي ثيب .

عن ابن عباس ، رضي اللّه عنهما : (أن جاريةً بكرًا أتت النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فذكرت له أن أباها زوجها وهي كارهة ، فخيرها النبي صلى اللّه عليه وسلم)[١] .

وعن خنساء بنت خدام الأنصارية : (أن أباها زوّجها وهي ثيب ، فكرهت ذلك ، فأتت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فردّ نكاحها)[٢] .

ولذلك قال صلى اللّه عليه وسلم : « لا تُنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تُنكح البكر حتى تستأذن » ، قالوا : يا رسول اللّه ، وكيف إذنها ؟ قال : « أن تسكت »)[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ .

العضل معناه : التضييق والمنع والشدّة ، ومنه الداء العضال ؛ أي الشديد الذي لا منجاة منه .

ومعنى الآية : لا يحل لكم أن تحبسوا النساء وتضيقوا عليهن وتؤذونهن بالسبّ أو بالضرب وسوء العشرة ، حتى تضطر المرأة منهن إلى أن تشتري نفسها من زوجها لتتخلص من هذا العذاب التي هي فيه ، فتردّ عليه ما دفع لها ، أو تتنازل له عن مؤخر مهرها ونحو ذلك : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشةٍ مبينةٍ ﴾ ، كالنشوز وبذاءة اللسان والعصيان ، والتطاول عليه ، أو على أحد من أهله كأمه وأبيه وغيرهم من أهله ، أو تمكين أحد من فراشه ؛ فإنه يجوز للرجل في هذه الحالة أن يضارّ امرأته لتفتدي نفسها منه ، حتى لا يُجمع عليه بين فقد زوجته وفقد ماله .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ ولا يحلُّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنَّ شيئًا إلاّ أن يخافا ألا يُقيما حدود اللّه فإن خفتم ألا يُقيما حدود اللّه فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

وقد اختلف العلماء في المخاطب بقوله تعالى : ﴿ ولا تعضلوهنَّ ﴾ ، فقيل : هم الأولياء ؛ لأنهم المخاطبون بقوله تعالى : ﴿ لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا ﴾ ، فالخطاب كله في الآية موجّه للأولياء .

وقيل : النهي الأول للأولياء ، والثاني للأزواج ، وهو الأرجح ، كما قال ابن عباس ، رضي اللّه عنهما ، في الآية : هذا في الرجل تكون له المرأة ، وهو كاره لصحبتها ولها عليه مهر ، فيضارّها لتفتدي وترد إليه ما ساق إليها من المهر ، فنهى اللّه عن ذلك .

ومع ذلك فالأولياء منهيون عن العضل في آية أخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿ وإذا طلقتم

النساء فبلغن أجلهنَّ فلا تعضلوهنَّ أن ينكحن أزواجهنَّ إذا تراضوا بينهم بالمعروف ﴾ [البقرة : ٢٣٢] .

عن الحسن قال : حدثني معقل بن يسار أنها نزلت فيه ، قال : (زوّجت أختًا لي من رجل فطلّقها ، حتى إذا انقضت عدّتها جاء يخطبها ، فقلت له : زوّجتك وأفرشتك وأكرمتك فطلّقتها ، ثم جئت تخطبها ، لا واللّه لا تعود إليك أبدًا ، وكان رجلاً لا بأس به ، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه ، فأنزل اللّه هذه الآية : ﴿ فلا تعضلوهن ﴾ ، فقلت : الآن أفعل يا رسول اللّه ، فزوجها إياه)[٤] .

فإذا رغبت المرأة - بكرًا كانت أو ثيبًا - في رجل ، وكان لها كفؤًا لم يجز لوليها أن يمنعها من الزواج منه ، إيثارًا لمصلحته على مصلحتها ، فقد يكون لولي المرأة مصلحة في عدم زواجها ، كأن تكون امرأة تخدم أخاها ، وترعى بيته وأولاده ، فيخشى إن تزوجت أن تتعطل مصلحته ، فيمنعها من الزواج ، أو تكون قد ورثت من أبيها مالاً كثيرًا ، وهو حريص ألا ينتقل هذا المال من عنده إلى غيره ، فيمنعها من الزواج حتى تموت ويظل مال أبيها في بيته ، فنهوا عن ذلك .

﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ : هذه وصية جامعة من اللّه تعالى للأزواج بالنساء ، وقد وصّى بهنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أيضًا ، فقال : ((استوصوا بالنساء خيرًا))[٥] .

والنساء إذن وصية اللّه ورسوله ، فعلى الرجال أن يجتهدوا في العمل بهذه الوصية ، فإنها سر نجاح الحياة الزوجية ، وسبب دوام المودة والرحمة ، وعلى الرجل أن يكون في أهله هينًا لينًا ، رفيقًا لطيفًا ، يداعب ويلاعب ، ويسامر ويغازل ، ويصبر على أذى امرأته ، فقد قيل في حسن المعاشرة : اعلم أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كفّ الأذى عنها ، بل تحمل الأذى منها .

وانظر إلى جمال هذا الترغيب في إمساك المرأة بالمعروف مع كراهة النفس لها ونفور الطبع منها : ﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل اللّه فيه خيرًا كثيرًا ﴾ ، ولذا قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : ((لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خُلقًا رضي منها آخر))[٦] .

فالكمال صعب المنال ، وكفى بالمرء نُبلاً أن تُعد معايبه ، ومن غلب خيره شره فذلك المطلوب ، ومن غلبت حسناته سيئاته فذلك هو المنشود ، فإن كره الرجل من امرأته شيئًا في خَلقها أو خُلقها أو طبعها ، أو كره منها تقصيرًا في خدمته ونحو ذلك ، فلا يعجل بالطلاق حتى لا يندم ، وإن صبر عليها مع رغبته عنها ، فعسى اللّه أن يجعل في إمساكها خيرًا كثيرًا ، فكم من مكروه كان الخير فيه ، وكم من محبوب كان الشر فيه ، كما قال تعالى : ﴿ كُتب عليكم القتال وهو كرهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شرٌّ لكم واللّه يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، وقال القائل :

رُبَّ أمر تتقيه

جرّ أمرًا ترتضيه
خَفِي المحبوبُ منه
وبدا المكروه فيه

فإذا صبر الرجل على امرأته التي رغب عنها ونفر منها ، فلم يُجد الصبر شيئًا ، ورأى أنه لا بد من الفراق ، تعين عليه حينئذ أن يسرحها بمالها ، وإن كان لها مؤخر صداق سلمه لها ، لا يحل له من المهر شيء ، وإن كثر المهر ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا ﴾ ، ثم انظر إلى هذا الإنكار : ﴿ أتأخذونه بهتانًا وإثمًا مبينًا ﴿٢٠﴾ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا ﴾ ؟ إنكار بعد إنكار ؛ تنفيرًا من أخذ شيء من مهر المرأة إذا طلقها الرجل من غير ذنب منها ، ويفهم من هذه الآية والتي قبلها وهي : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ أنه إذا كان النشوز من جهة المرأة وطلبت هي الطلاق فلا حقّ لها ، وإن كان النشوز من جهة الزوج فلا حق لها في شيء من مهرها .

وهكذا كرم الإسلام المرأة ورفع من شأنها ، ورفع عنها ظلم الجاهلية ، وأعطاها ما لم تعطه المرأة في أي زمان ولا مكان ، فاعملن صالحًا معشر المسلمات شكرًا لله تعالى على ما أنعم عليكن ، وإياكن وكفر النعمة ، فإنه سبب دخول النساء النار ، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اطلعت على النار فرأيت أكثر أهلها النساء » . فقلن : ولم يا رسول الله ؟ قال : « تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، لو أحسنت إلى إحداهنّ الدهر ، ثم رأت منك شيئًا ، قالت : ما رأيت منك خيرًا قط »[٧] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) صحيح ، رواه أبو داود (٦/١٢٠/٢٠٨٢) ، وابن ماجه (١/٦٠٣/١٨٧٥) .

(٢) صحيح ، رواه البخاري (٩/١٩٤/٥١٣٨) ، وأبو داود (٦/١٢٧/٢٠٨٧) ، وابن ماجه (١/٦٠٢/١٨٧٣) ، والنسائي (٦/٨٦) .

(٣) متفق عليه ، رواه البخاري (٩/١٩١/٥١٣٦) ، ومسلم (٢/١٠٣٦/١٤١٩) ، وأبو داود (٦/١١٥/٢٠٧٨) ، والنسائي (٦/٨٥) ، والترمذي (٢/٢٨٦/١١١٣) ، وابن ماجه (١/٦٠١/١٨٧١) .

(٤) صحيح ، رواه البخاري (٩/١٨٣/٥١٣٠) ، وبنحوه رواه أبو داود (٦/١٠٩/٢٠٧٣) ، والترمذي (٤/٢٨٤/٤٠٦٥) .

(٥) متفق عليه ، رواه البخاري (٩/٢٥٣/٥١٨٦) ، ومسلم (١٤٦٨- ٢/١٠٩١/٦٠) .

(٦) صحيح ، رواه مسلم (٢/١٠٩١/١٤٦٩) .

(٧) متفق عليه ، رواه البخاري (٩/٢٨٩/٢١٩٧) ، والترمذي (٢/٦٢٦/٩٠٧) ، والنسائي (١٤٦- ٣/١٤٨) .

باب التفسير

الترغيب في التوبة والحث عليها

بقلم الشيخ / عبد العظيم بدوي

قال تعالى : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ﴿١٧﴾ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾

[النساء : ١٧، ١٨] .

يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون »[1] .

ومن الحكم الذائعة : ليس من العيب أن تخطئ ، ولكن من العيب أن تتمادى في الخطأ .

فعلى الإنسان إذا اجتالته الشياطين فترك الواجبات ، أو فعل المحرمات أن يبادر بالتوبة إلى الله تعالى والرجوع إليه ، وأن يغتنم فرصة إمهال الله له ، فإن الله من رحمته بعباده لا يعجل لهم العقوبة ، مع أنه القوي المتين ذو البطش الشديد ، وأمره بين الكاف والنون ، لكنه سبقت رحمته غضبه ، فلذلك يمهل العصاة ولا يعجل لهم العقوبة ، لعلهم يتوبون فيتوب عليهم ، ويستغفرون فيغفر لهم ، فمن أمهله الله فغرّه بالله الغرور وأصر على ذنبه ولم يتب منه ، أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، ولذا قال تعالى : ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ﴾ [الكهف : ٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى

أجل مسمًّى فإذا جاء أجلهم فإن اللّه كان بعباده بصيرًا ﴾ [فاطر : ٤٥] .

وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : ((إن اللّه ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته))[٢] ، ثم قرأ قول اللّه تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ [هود : ١٠٢] .

فعلى العصاة والمذنبين أن يعجلوا بالتوبة ، حتى يتوب اللّه عليهم ، فإن التوبة من الذنوب واجبة لأمر اللّه بها ، قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا توبوا إلى اللّه توبة نصوحًا ﴾ [التحريم : ٨] ، وقال تعالى : ﴿ وتوبوا إلى اللّه جميعًا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ [النور : ٣١] .

ولقد رغب اللّه سبحانه عباده في التوبة ، فقال : ﴿ إن اللّه يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

وقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : ((للّه أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح))[٣] .

والمتتبع لهذه السورة - سورة ((النساء)) - يجد أن اللّه تعالى عرض التوبة على جميع طوائف الناس ورغبهم فيها ؛ فعرضها في هذا الموضع على الزناة ، ثم عرضها على الذين يختانون أنفسهم ، فقال : ﴿ ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر اللّه يجد اللّه غفورًا رحيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] ، ثم عرضها على المنافقين فقال : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرًا ۝ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا باللّه وأخلصوا دينهم للّه فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت اللّه المؤمنين أجرًا عظيمًا ﴾ [النساء : ١٤٥، ١٤٦] .

ثم عرضها على الذين قالوا : إن اللّه ثالث ثلاثة ، فقال : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول اللّه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا باللّه ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرًا لكم ﴾ [النساء : ١٧١] ، وقال في سورة ((المائدة)) : ﴿ أفلا يتوبون إلى اللّه ويستغفرونه واللّه غفور رحيم ﴾ [المائدة : ٧٤] .

كما عرضها في موضع آخر على الذين قتلوا أولياءه ، فقال في سورة ((البروج)) : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ [البروج : ١٠] .

فعلق عذابهم على عدم التوبة ، ففُهم أنهم لو تابوا لم يعذبهم ، ولذلك قال الحسن : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة[٤] .

ومعنى هذا الترغيب النهي عن اليأس من رحمة اللّه مهما كان الذنب ، كما قال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه إن اللّه يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [الزمر : ٥٣] .

عن ابن عباس ، رضي اللّه عنهما ؛ أن ناسًا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا محمدًا صلى اللّه عليه وسلم فقالوا : إن الذي تقول وتدعو لحسن ، ولو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ، فنزل : ﴿ والذين لا يدعون مع اللّه إلهًا آخر ولا يقتلون

النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثامًا ﴾ [الفرقان : ٦٨] ، ونزل : ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ [الزمر : ٥٣][٥] .

إن الله عز وجل واسع المغفرة ، ورحمته وسعت كل شيء ، وعلاقته سبحانه بعباده علاقة تقوم على الرحمة : ((خلق الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا ، وأنزل جزءًا واحدًا إلى الأرض ، فبه يتراحم العباد حتى إن الدابة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه))[٦] .

قال تعالى : ﴿ قل لمن ما في السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ﴾ [الأنعام : ١٢] ، وقال تعالى : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ [الأنعام : ٥٤] .

فيا عباد الله ؛ أنيبوا إلى ربكم وأسلموا له واستغفروه ، ثم توبوا إليه ، فإن الاستغفار سببٌ للخيرات والبركات وتوسيع الأرزاق ، قال تعالى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمًّى ويؤت كل ذي فضلٍ فضله ﴾ [هود : ٣] .

وقال تعالى على لسان هود ، عليه السلام : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يُرسل السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوةً إلى قوتكم ﴾ [هود : ٥٢] ، وقال تعالى على لسان نوح ، عليه السلام : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا ﴿١٠﴾ يُرسل السماء عليكم مدرارًا ﴿١١﴾ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهارًا ﴾ [نوح : ١٠-١٢] .

واعلموا عباد الله أن التوبة من الذنوب واجبة على الفور ، ولا يجوز تأخيرها ، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : ﴿ ثم يتوبون من قريب ﴾ [النساء : ١٧] ، وقد مدح الله تعالى التائبين من قريب ووعدهم بالمغفرة ، فقال : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴿٣٥﴾ أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربهم وجناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ [آل عمران : ١٣٥، ١٣٦] .

فمن أصرّ على الذنب وأخّر التوبة فإنه يخشى عليه أن يسود قلبه بكثرة الذنوب ، ويغلف حتى يطبع عليه ويختم ، كما قال تعالى : ﴿ كلا بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ [المطففين : ١٤] ، وحينئذ تعزّ التوبة ، وتندر ، ويخشى على المسوّف سوء الخاتمة ، وقد قيل : إن أكثر صياح أهل النار : واحسرتاه من سوف !!

هذا ، وإن للتوبة النصوح شروطًا :

الأول : الإقلاع عن الذنب ، بأن يخلع نفسه من الذنب ، كما يخلع قميصه ، أما أن يظل متلبسًا بالذنب ويقول : اللهم اغفر لي ، فيقول الله له : تحوّل عن الذنب وأنا أغفر لك .

الثاني : الندم على ما فات ، والتأسف عليه ، والبكاء من خشية الله كلما ذكر ذنبه .

الثالث : العزم على أن لا يعود إلى هذا الذنب أبدًا .

الرابع : أن تقع التوبة حال الصحة والعافية قبل اليأس من الحياة ومعاينة ملائكة الموت ، لقوله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت

الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابًا أليمًا ﴾ [النساء : ١٨] .

ولذلك قال الله تعالى عن أقوام : ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿٨٣﴾ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴿٨٤﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سُنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ [غافر : ٨٣- ٨٥] .

وقال تعالى عن فرعون : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيًا وعدوًا حتى إذا أدركه الغرقُ قال آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴿٩٠﴾ الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴿٩١﴾ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ [يونس : ٩٠- ٩٢] .

الخامس : إذا كان الذنب متعلقًا بعباد الله فإن على التائب أن يرد على العباد حقوقهم إذا استطاع ، وأن يتحللهم إن أمكن ، فإن عجز عن ردّ الحقوق ، أو خاف من التحلل مفسدة ، فعليه بالإكثار من الدعاء لهم والاستغفار .

ولا بد للتائب حتى تصح توبته ويثبت عليها من تغيير الصحبة التي كان يصاحبها قبل التوبة ، وتغيير البيئة التي كان يعيش فيها ، وإلا فإنه إذا حافظ على صحبة الأشرار بعد التوبة ، فإنه تخشى عليه الانتكاسة والردة .

ولذلك صحّ في الحديث عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ؛ أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : ((كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُل على راهب ، فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله ، فكمّل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُل على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟! انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك ، فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرًا قط ، فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدمي فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة))[٧] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

---

(١) حسن ، رواه الترمذي (٤/٧٠/٢٦١٦) ، وابن ماجه (٢/١٤٢٠/٤٢٥١) .

(٢) متفق عليه ، رواه البخاري (٨/٣٥٤/٤٦٨٦) ، ومسلم (٤/١٩٩٧/٢٥٨٣) ، والترمذي (٤/٣٥١/٥١١٠) ، وابن ماجه (٢/١٣٣٢/٤٠١٨) .

(٣) صحيح ، رواه مسلم (٢/١٠٤/٢٧٤٧) .

(٤) ابن كثير : (٤/٤٩٦) .

(٥) متفق عليه ، رواه البخاري (٨/٥٤٩/٤٨١٠) ، ومسلم (١/١١٣/١٢٢) ، والنسائي (٧/٨٦) .

(٦) متفق عليه ، رواه البخاري (١٠/٤٣١/٦٠٠) ، ومسلم (٤/٢١٠٨/٢٧٥٢) ، والترمذي (٥/٢٠٩/٣٦١٠) مختصرًا ، وابن ماجه (٢/١٤٣٥/٤٢٩٣) .

(٧) صحيح ، رواه مسلم (٤/٢١١٨/٢٧٦٦) ، وهذا لفظه ، والبخاري مختصرًا (٦/٥١٢/٣٤٧٠) .

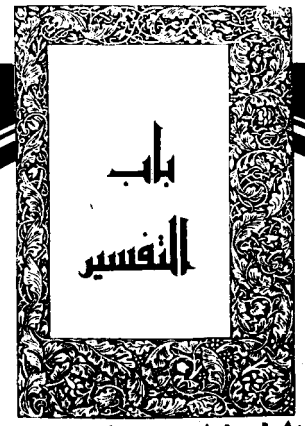

بقلم الشيخ / عبد العظيم بدوي

تعظيم حرمات المسلمين

قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارةً عن تراضٍ منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن اللَّه كان بكم رحيمًا * ومن يفعل ذلك عدوانًا وظُلمًا فسوف نُصليه نارًا وكان ذلك على اللَّه يسيرًا ﴾ [النساء : ٢٩، ٣٠] .

لما بين اللَّه تعالى ما يحل ويحرم من المناكح أتبعه بذكر ما يحل ويحرم من المكاسب ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه سبحانه لما بين ما يحل ويحرم من المناكح ، وأن الحلال منها يبتغى بالمال بيّن طرق كسب المال وما يحل منها وما يحرم ، فقال سبحانه : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ ؛ يا من صدقتم باللَّه ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله : ﴿ لا تأكلوا أموالكم ﴾ ؛ أي لا يأكل بعضكم أموال البعض الآخر ، وإنما أضافها إلى النفس لبيان تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها ، فمال كل فرد في الأمة مال الأمة كلها ، فيجب على كل فرد المحافظة على مال الآخر واجتناب أكله بالباطل ، والباطل هو كل ما لم يأذن به اللَّه : كالربا ، والرشوة ، والاختلاس ، والخيانة ، والسرقة ، والغصب ، وجَحد الدَّين ، وجَحد الأمانة ، وبيع ما لا يجوز بيعه : كالخمر ، والدخان ، والأصنام ، والصور ، والتماثيل ، والخنزير ، والكلب ، والقط ،

وعسب الفحل ، وحلوان الكاهن ، وسائر المعاملات المحرمة .

ويدخل في الباطل إنفاق العبد مال نفسه في المعاصي ، فكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل ، وهو من الكبائر ، يحرّم على الآكل الجنة ، ويوجب له النار ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك عدوانًا وظلمًا فسوف نصليه نارًا وكان ذلك على اللَّه يسيرًا ﴾ . وقال النبي ﷺ : « كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به »[1] .

وقد أشار اللَّه تعالى إلى أن أكل الطيبات يعين على عمل الصالحات ، فقال : ﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا ﴾ [المؤمنون : ٥١]، فجمع بين الأمر بالأكل من الطيبات ، وبين الأمر بالعمل الصالح ، وفُهم منه أن أكل الحرام يعين على فعل الحرام ، فمن أكل حلالاً وتغذى به أعين على فعل الخير ، ومن أكل حرامًا وغُذي به أُعين على فعل الشر ، ولا يزال الرجل يتغذى من الحرام حتى لا يقبل اللَّه منه قولاً ولا عملاً ؛ لأن اللَّه يقول : ﴿ إنما يتقبل اللَّه من المتقين ﴾ [المائدة : ٢٧] ، وقد سئل أحمد عن معنى المتقين ، فقال : يتقي الأشياء فلا يقع فيما لا يحل[2] .

وقال النبي ﷺ : « إن اللَّه تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وإن اللَّه تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : ﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا ﴾ ، وقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ [البقرة : ١٧٢] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب ، يا رب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذي بالحرام ، فأنى يُستجاب لذلك »[3] .

وقال وهب بن الورد : لو قمت مقام هذه السارية لم ينفعك شيء حتى تنظر ما يدخل بطنك حلال أو حرام[4] .

فاتقوا اللَّه عباد اللَّه : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقًا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ [البقرة : ١٨٨] ، لا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يلهكم التكاثر ، وتذكروا دائمًا قول اللَّه تعالى : ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا اللَّه يا أولي الألباب لعلكم تُفلحون ﴾ [المائدة : ١٠٠] ، واعلموا أن الخبيث في النار ، كما قال تعالى : ﴿ ليميز اللَّه الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ [الأنفال : ٣٧] .

فاتقوا اللَّه في أنفسكم وأولادكم ، واعلموا أن الصبر على الجوع أهون من الصبر على نار جهنم ، فلا تكسبوا من حرام ، ولا تدخلوا بيوتكم شيئًا من حرام ، ولا تطعموا أهليكم شيئًا من حرام ، فمن غُذي بالحرام فالنار أولى به ، وقد أمركم اللَّه تعالى بوقاية أنفسكم وأهليكم من النار ، فقال سبحانه : ﴿ يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لا يعصون اللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ﴾ [التحريم : ٦] .

وقوله تعالى : ﴿ إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ

منكم ﴾ معناه : لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وكلوا مما تكسبون من التجارة التي ترضونها وتطيب بها أنفسكم ، فليس عليكم جناح فيما كسبتم منها .

وإنما خصّ التجارة بالذكر ؛ لأن أكثر أسباب الرزق تتعلق بها ، فإذا برّ التاجر وصدق كان ربحه من أطيب الأموال ، ولكن الأسواق اليوم تفرض على الناس الكذب والغش والخديعة ، ولذلك كان التجار على خطر عظيم ، حذرهم منه النبي ﷺ ، فقال : « إن التجار هم الفجار » . قيل : يا رسول اللّه ، أو ليس قد أحل اللّه البيع ؟ قال : « بلى ، ولكنهم يحدثون فيكذبون ، ويحلفون فيأثمون »[٥] .

ولما كان أكل أموال الناس بالباطل يفضي إلى التشاجر والتقاتل أتبع اللّه النهي عن أكل الأموال بالباطل بالنهي عن قتل النفس ؛ إذ إن صاحب المال غالبًا ما يحاول الدفاع عن ماله ، وإن أدى ذلك إلى شهر السلاح ، فإذا شُهر السلاح أفضى غالبًا إلى القتل ، ولذلك نهى اللّه تعالى عن القتل عقب النهي عن أكل أموال الناس بالباطل ، وإنما قدّم النهي عن أكل الأموال بالباطل ؛ لأنه أكثر وقوعًا وأفشى في الناس من القتل .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا ﴾ ؛ أي لا يقتل بعضكم بعضًا ؛ لأن المسلم يجب أن ينزل أخاه المسلم منزلة نفسه ، فيحب له ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكرهه لنفسه ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ [الحجرات : ١١] ؛ أي لا يعب أحدكم أخاه فيعيبه ، فكأنه عاب نفسه ، ولا يقتل أحدكم أخاه فيُقتل ، فيكون كأنه قتل نفسه .

إن سفك الدماء البريئة بغير حق جريمة نكراء ، جريمة عظيمة عند اللّه سبحانه ، حتى جاء في الحديث : « لزوال الدنيا أهون على اللّه من قتل مؤمن بغير حق »[٦] .

وقال ﷺ : « لو أن أهل السماء والأرض اشتركوا في دم مؤمن لكبّهم اللّه عز وجل في النار »[٧] .

من أجل ذلك حرّم الإسلام قتل النفس ، وقرنه بالشرك ، فقال تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا ولا تقتلوا أولادكم من إملاقٍ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ [الأنعام : ١٥١] ، وقال تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع اللّه إلهًا آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم اللّه إلاّ بالحق ولا يزنون ﴾ [الفرقان : ٦٨] ، وقال النبي ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات » . قيل : وما هنّ يا رسول اللّه ؟ قال : « الشرك باللّه ، والسحر ، وقتل النفس التي حرّم اللّه إلا بالحق »[٨] .

وجعل اللّه تعالى قتل النفس البريئة بغير حق كقتل الناس جميعًا ، فقال تعالى : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] ، وتوعّد اللّه تعالى القاتل بأقسى أنواع العقوبة ، فقال سبحانه : ﴿ ومن يفعل ذلك عدوانًا وظلمًا فسوف نصليه نارًا وكان ذلك على اللّه يسيرًا ﴾ [النساء : ٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها

وغضب اللَّه عليه ولعنه وأعد له عذابًا عظيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] .

تلك هي عقوبة القاتل في الآخرة ، أما عقوبته في الدنيا فهي أن يُقتل كما قتل ، قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا كُتب عليكم القصاص في القتلى ﴾ [البقرة : ١٧٨] .

هذا جزاء من قتل غيره ، فما جزاء من قتل نفسه ؟ ما جزاء الانتحار ؟ ما جزاء الذي يتعجل الموت هربًا من مصيبة أو نكبة أو نازلة ؟ قال ﷺ : « من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردّى فيها خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن تحسى سمًّا فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا »[٩] .

وقال ﷺ : « كان فيمن كان قبلكم رجلٌ به جرح ، فجزع فأخذ سكينًا فحزّ بها يده ، فما رقأ الدم حتى مات ، قال اللَّه تعالى : بادرني عبدي بنفسه فحرمت عليه الجنة »[١٠] .

وعن جابر أن الطفيل بن عمرو الدوسي لما هاجر النبي ﷺ هاجر إليه ، وهاجر معه رجلٌ من قومه ، فمرض فجزع ، فأخذ مشاقص له ، فقطع بها براجمه ، فشخبت يداه حتى مات ، فرآه الطفيل بن عمرو في منامه وهيئته حسنة ، ورآه مغطيًا يديه ، فقال له : ما صنع بك ربك ؟ فقال : غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ ، فقال : ما لي أراك مغطيًا يديك ؟ قال : قيل لي : لن نصلح منك ما أفسدت ، فقصها الطفيل على رسول اللَّه ﷺ ، فقال ﷺ : « اللهم ولِيديه فاغفر »[١١] .

إذا كان اللَّه أمرنا باحترام أرواح الآخرين ، وأن نعدّها كأرواحنا ، فاحترامنا لأرواحنا يجب أن يكون أولى ، فلا يجوز لمسلم أن يتعدى على نفسه بالقتل هربًا من مصيبة أو نكبة أو نازلة ، فإن المؤمن لا ينقطع رجاؤه في اللَّه ، ولا ييأس من روح اللَّه ، فإن النصر مع الصبر ، وإن الفرج مع الكرب ، و﴿ سيجعل اللَّه بعد عُسْرٍ يسرًا ﴾ [الطلاق : ٧] .

---

(١) « صحيح الجامع » : (٤٣٩٥) .

(٢) « جامع العلوم والحكم » : (ص٨٧) .

(٣) صحيح ، رواه مسلم : (١٠١٥/٣/٧٠٣/٢) ، والترمذي (٤٠٧٤/٢٨٨/٤) .

(٤) « جامع العلوم والحكم » : (ص٨٧) .

(٥) صحيح ، رواه أحمد : (٤٢٨/٣) ، والطحاوي في « المشكل » (١٢/٣) ، والحاكم (٦/٢، ٧) ، كما في « الصحيحة » (٣٦٦) .

(٦) صحيح ، رواه ابن ماجه : (٢٦١٩/٨٧٤/٢) .

(٧) صحيح ، رواه الترمذي : (١٤١٩/٤٢٧/٤) .

(٨) متفق عليه ، رواه البخاري (٢٧٦٦/٣٩٣/٥) ، ومسلم (٨٩/٩٢/١) ، وأبو داود (٢٨٥٧/٧٧/٨) ، والنسائي (٢٥٧/٦) .

(٩) متفق عليه ، رواه البخاري : (٥٧٧٨/٢٤٧/١٠) ، ومسلم (١٠٩/١٠٣/١) ، والترمذي (٢١١٦/٢٦٠/٣) ، والنسائي (٦٧/٤) .

(١٠) متفق عليه ، رواه البخاري : (٣٤٦٣/٤٦٩/٦) ، ومسلم (١١٣/١٠٧/١) .

(١١) صحيح ، رواه مسلم (١١٦/١٠٨/١) .

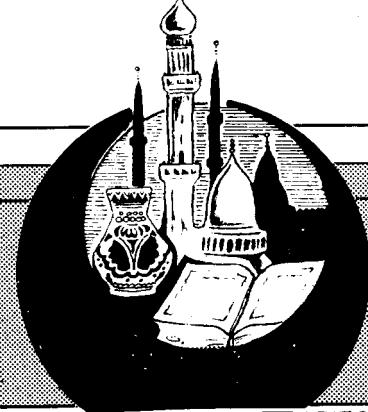

باب التفسير

النهي عن الحسد

بقلم الشيخ / عبد العظيم بدوي

قال تعالى : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن واسألوا الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليما ﴾ [النساء : ٣٢] .

لما نهى الله تعالى عن أكل الأموال بالباطل وعن قتل النفس أمرهم في هذه الآية بما يسهل عليهم ترك هذه المنهيات ، وهو أن يرضى كل أحد بما قسم الله له ، فإنه إذا لم يرض بذلك وقع في الحسد ، وإذا وقع في الحسد وقع لا محالة في أخذ الأموال بالباطل ، وفي قتل النفوس ؛ ولذا قال ﷺ : « سيصيب أمتي داء الأمم » . قالوا : يا نبي الله ، وما داء الأمم ؟ قال : « الأشر والبطر ، والتكاثر ، والتنافس في الدنيا ، والتباغض والتحاسد ، حتى يكون البغي ، ثم الهرج ، والهرج القتل »[1] .

فأما إذا رضي بما قدّره الله ؛ أمكنه الاحتراز عن الظلم في النفوس وفي الأموال ، ومعنى الآية : لا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض من الجاه والمال والجمال والنساء ، ونحو ذلك من زينة الحياة الدنيا ؛ لأن ذلك التفضيل قسمة من الله صادرة عن حكمة وتدبير ، وعلم بأحوال العباد وبما يُصلح المقسوم له من بسط في الرزق أو قبض : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ [العنكبوت : ٦٢] ، ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدرٍ ما يشاء إنه بعباده خبير بصيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] . فعلى كل أحد أن يرضى بما قسم الله له ، وأن يعلم أنه عين مصلحته ، وإن كان هو يراه غير ذلك ، فربما ظهر له بعد ذلك أنه عين المصلحة ، فإن رجالاً تمنوا ما عند الغير فلم ينالوه ، فلما ظهرت لهم الحكمة ، حمدوا الله على ما لم يؤتهم ، قال تعالى عن قارون : ﴿ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظٍّ عظيمٍ ﴾ [القصص : ٧٩] ، فلما خُسف به : ﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يُفلح الكافرون ﴾ [القصص : ٨٢] .

فلا تتمن ما عند غيرك من الخير ، فلكل نصيب مما كسبوا ، الرجال والنساء على حدّ سواء ، بعضهم من بعض ، ولكن اسأل اللّه من فضله كما أمرك ، فإن خزائنه ملأى لا تنفد مهما أعطاك وغيرك ، كما قال تعالى في الحديث القدسي : ((يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنّكم ، قاموا في صعيد واحد فسألوني ، فأعطيت كل واحد ما سأل ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر))[٢] ، وما أمرك اللّه بالسؤال إلا ليعطيك ، فاسأل اللّه من فضله ، ولا تحسد أحدًا على ما آتاه اللّه من فضله ، فإن الحسد من أمهات الكبائر ؛ لأنه يحمل على الكذب ، والمكر ، والحيلة ، والخديعة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وسفك الدماء البريئة ، أو ليس قد قتل قابيلُ هابيل حسدًا ، أو ليس قد قال إخوة يوسف : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قومًا صالحين ﴾ [يوسف : ٩] ، ألم يحتالوا على أبيهم حتى تمكنوا من أخذ يوسف أخيهم ؟ ألم يلقوه في الجبّ ويكذبوا على أبيهم : ﴿ وجاءوا أباهم عِشاءً يبكون ۞ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ﴾ [يوسف : ١٦، ١٧] .

فالحسد مرض من أخطر الأمراض ، والابتلاء به من أشدّ أنواع الابتلاء ، يُبعد صاحبه عن التقوى ، ويركبه الأهواء فيضل ويغوى ، يتقطع قلب الحاسد حسرات حين يرى نعمة اللّه على أخيه ، فقاتل اللّه الحسود ؛ لا يحب الخير ولا يأتيه ، غاية أمنيته زوال نعمة اللّه عن عباده ، فهو بهذا سالك مسلك الشياطين ، ومتّبع سبيل المجرمين ، من المغضوب عليهم والضالين ، فهل وقع إبليس في معصية اللّه إلا بالحسد ؟ وهل منع الكافرين من الإيمان إلا الحسد ؟

قال تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : ٣١] ، فأنكر اللّه عليهم هذا القول الدال على الحسد ، فقال : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ [الزخرف : ٣٢] ؟ وقال في آية أخرى : ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم اللّه من فضله ﴾ [النساء : ٥٤] .

وقال تعالى : ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

لذلك نهى اللّه تعالى عن الحسد ، فقال : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل اللّه به بعضكم على بعض ﴾ ، وقال النبي ﷺ : ((لا تحاسدوا))[٣] . ونهى عن كل ما يؤدي إلى الحسد ، فقال : ((لا يخطب أحدكم على خِطبة أخيه ، ولا يسوم على سوم أخيه ، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتقوم مقامها ، فإن اللّه هو رازقها))[٤] .

والحسد على مراتب :

الأولى : أن يتمنى زوال نعمة الغير ، وأن يعمل جاهدًا على إزالتها بكل الوسائل المحرمة ، وأن يسعى في إيذاء المحسود والإساءة إليه ، وتلك هي الغاية في الخسّة والنذالة والحقارة .

الثانية : أن يتمنى زوال نعمة الغير ، ولكنه لا يسعى في إزالتها ، ولا يعمل على إيذاء صاحبها .

الثالثة : أن يجد في نفسه حب زوال نعمة الغير عنه ، سواء انتقلت إليه أم إلى غيره ، ولكنه مع هذا يجاهد نفسه ، ويحاول أن يدفع هذا الحب عنها ، فهو بهذه المجاهدة يبرأ من الإثم ، ولكنه يجب عليه أن يعالج نفسه من هذه الخصلة حتى يقضي عليها ، ولا يجوز أن يهملها فترتقي إلى المرتبة الثانية أو الأولى .

الرابعة : أن يحب لنفسه ويتمنى لها مثل نعمة الغير من غير تمني زوالها ، وهذه فيها تفصيل ؛ فإن كانت النعمة دنيوية وليس فيها نية للاستعانة بها إلى الأمور الدينية ، فقد نهى عن ذلك جماعة من العلماء ، وأما إذا تمنى مثل ما عند غيره من نعمة اللّه ليصل بها إلى مرضاة اللّه ، فهذا جائز باتفاق ؛ لقوله ﷺ : ((لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه اللّه مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه اللّه حكمة ، فهو يقضي بها ويعلمها))[٥] .

وقال ﷺ : ((إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه اللّه مالاً وعلمًا ، فهو يتقي فيه ربّه ، ويصل به رحمه ، ويعلم للّه فيه حقًا ، فهذا

أفضل المنازل ، وعبد رزقه اللّه علمًا ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته ، فأجرهما سواء))[٦] .

ولقد دلّ القرآن الكريم وأحاديث النبي العظيم على أن لعين الحاسد أثرًا في المحسود ، بحيث تؤثر فيه ، وتلحق به الضرر ، وتتسبب له في الأذى ، قال تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ﴾ [القلم : ٥١] .

قال ابن كثير : قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما : ﴿ ليزلقونك ﴾ ؛ لينفذونك ، ﴿ بأبصارهم ﴾ أي : يعينونك بأبصارهم ، بمعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية اللّه لك ، وحمايته إياك منهم[٧] .

وفي هذه الآية دليل على أن إصابة العين وتأثيرها حق بأمر اللّه عز وجل ، كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة ، منها : قوله ﷺ : ((العين حق ، ولو كان شيء سابق القدر لسبقت العين))[٨] . وقوله ﷺ : ((العين تدخل الرجل القبر ، وتدخل الجمل القدر))[٩] . وقوله ﷺ : ((إن أكثر من يموت من أمتي بعد قضاء اللّه وقدره بالعين))[١٠] .

وعن أم سلمة أن رسول اللّه ﷺ قال لجارية في بيتها رأى في وجهها سفعة : ((بها نظرة ، استرقوا لها))[١١] .

وعن جابر قال : رخّص رسول اللّه ﷺ لآل حزم في رقية الحيّة ، وقال لأسماء بنت عُميس : ((ما لي أرى أجسام بني أخي ضارعة - نحيفة - تصيبهم الحاجة ؟)) قالت : لا ، ولكن العين تسرع إليهم ، فقال : ((ارقيهم))[١٢] .

ولقد كان من العرب من هو معروف بقوة تأثير عينه فيما ينظره ، حتى إن كانت البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمرّ بأحدهم فيعاينها ، ثم يقول : يا جارية ، خذي المكتل والدرهم فأتينا بلحم هذه الناقة ، فما تبرح حتى تقع للموت ، فتنحر[١٣] .

وعن أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف قال : مرّ عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل ، فقال : لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة ، فما لبث أن لُبط به - أي صُرع - وسقط إلى الأرض[١٤] .

وبعد ، فما هو العلاج ؟

لا بد قبل ذكر وسائل علاج المحسود من ذكر علاج الحاسد نفسه ، فإن الحاسد نفسه مريض ، فإذا برئ بإذن اللّه سهل علاج المحسود .

وعلاج الحاسد مركب من جرعتين : جرعة علم ، وجرعة عمل ، أما العلم فبأن تعلم أيها الحاسد أن الحسد يضرك أنت في دينك ودنياك ، ولا يضر المحسود في دينه ولا دنياه ، بل ينتفع بحسدك إياه في دينه ودنياه ، وبيان ذلك أن تعلم أنك بالحسد تعترض على قسمة اللّه فضله بين عباده ، وكأنك ترى أن وضع النعمة عند فلان ليس عدلاً ، وأي جُرم أعظم من هذا الجرم ؟ وأي ذنب أعظم من هذا الذنب ؟

أي ذنب أعظم من أن تعترض على اللّه في قضائه وقدره ؟

وعليك أن تعلم أن الحسد يضرك في دنياك ، فإن اللّه لا يخلي عباده من نعمة ينعم بها عليهم ، وبلية يدفعها عنهم ، وأنت تحزن على حصول النعم ، كما تحزن على دفع النقم ، فستظل هكذا مهمومًا مغمومًا أبدًا ، لا تطيب لك الحياة ، ولا يصفو لك العيش ، ولا تلتذ بطعام ولا شراب ، ولا تهنأ بنوم ، فهذا هو ضرر الحسد عليك أيها الحاسد في دينك ودنياك .

أما المحسود ؛ فإن حسدك لا يضره في دينه ولا في دنياه ؛ لأن رزق اللّه لا ترده كراهية كاره ، كما لا يسوقه حرص حريص ، فما بالعباد من نعمة فلن تزول بمجرد حسدك ، إلا أن يشاء اللّه ، فإنما لكل شيء قدره ، ولكل أجل كتاب .

بل إن المحسود ينتفع بحسدك إياه في دينه ودنياه ، وذلك أن الحسد إذا حملك على اغتيابه وإيذائه أو الإساءة إليه ، فإن ذلك في الحقيقة حسنات تهديها إليه ، تشقى بها ويأخذها وهو نائم .

أما انتفاعه بحسدك في الدنيا فأنت في الحقيقة إنما تنشر فضله وتذيع صيته ، فإن الناس سيقولون : لولا أن فلانًا على خير وفضل ما حسده فلان ، ولذلك قيل :

وإذا أراد اللّه نشر فضيلة طويت
أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يُعرف طيب عُرف العود

فمت غيظًا أيها الحسود ، فإن حسدك يضرك في دينك ودنياك ، وينفع المحسود في دينه ودنياه .

وأما الجرعة الثانية ؛ فهي جرعة العمل ، العمل بضدّ ما يمليه عليك الحسد ، فإذا كان الحسد يحملك على اغتيابه ، فجاهد نفسك على الثناء عليه ومدحه ، وإذا كان الحسد يحملك على قطع أسباب الخير عنه فجاهد نفسك على إيصال الخير إليه ، وبذلك يتخلى عنك شيطانك ، وترجع إلى فطرتك التي فطر اللّه المسلمين عليها ، من حب الخير ، وإيثار الغير .

أما علاج المحسود ؛ فإنه مركب من دواءين :

الأول : الرقية ، وتتمثل في هذه الأدعية والأذكار :

● قراءة الفاتحة[15] ، والإخلاص ، والمعوذتين[16] .

● ((اللهم رب الناس ، أذهب البأس ، اشف أنت الشافي ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاءً لا يغادر سقمًا))[17] .

● ((باسم اللّه أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، ومن شر كل نفس أو عين حاسدٍ اللّهُ يشفيك ، بسم اللّه أرقيك))[18] .

● ((أعيذك بكلمات اللّه التامة من كل شيطان وهامّة ، ومن كل عين لامّة))[19] .

● ((أسأل اللّه العظيم رب العرش العظيم ، أن يشفيك - سبعًا))[20] .

وها هنا أمر يجب التفطن له ، وهو أن الأذكار والأدعية هي في نفسها نافعة شافية ، ولكنها تستدعي قبول المحل ، وقوة همة الفاعل ، وتأثيره ، فمتى تخلف الشفاء كان لضعف نية الفاعل ، أو عدم قبول المنفعل ، أو لمانع قوي فيه يمنع أن ينجع فيه الدواء ، كما يكون ذلك في الأدوية الحسية .

الدواء الثاني : أن يغتسل الحاسد ، ويراق الماء على المحسود ، كما في حديث أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف قال : مرّ عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل ، فقال : لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة ، فما لبث أن لُبط به - أي صُرع - وسقط إلى الأرض ، فأُتي به رسول اللّه ﷺ ، فقيل له : أدرك سهلاً صريعًا ، قال : ((من تتهمون به ؟)) قالوا : عامر بن ربيعة ، قال : ((علام يقتل أحدكم أخاه ؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة)) . ثم دعا بماء ، فأمر عامرًا أن يتوضأ فيغسل وجهه ، ويديه إلى المرفقين ، وركبتيه ، وداخلة إزاره ، وأمر أن يصبّ عليه . قال سفيان : قال معمر عن الزهري : وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه[21] .

اللهم إنا نعوذ بك من شرّ النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد .

---

(١) حسن ، رواه الحاكم (٤/١٦٨) .
(٢) صحيح ، رواه مسلم (٤/١٩٩٤/٢٥٧٧) .
(٣) صحيح ، رواه مسلم (٤/١٩٨٥/٢٥٦٣) .
(٤) صحيح ، رواه مسلم (٨/١٤٠٨، ٣٨، ١٠٢٩/٣٩، ٢/١٠٣٠) .
(٥) متفق عليه ، رواه البخاري (١/١٦٥/٧٣) ، ومسلم (١/٥٥٩/٨١٦) ، وابن ماجه (٢/١٤٠٧/٤٢٠٨) .
(٦) صحيح ، رواه الترمذي (٣/٣٨٥/٢٤٢٧) ، وابن ماجه (٢/١٤١٣/٤٢٢٨) .
(٧) ابن كثير (٤/٤٠٩) .
(٨) صحيح ، رواه مسلم (٤/١٧١٩/٢١٨٨) ، والترمذي (٣/٢٦٨/٢١٤١) بدون الجملة الأولى .
(٩) حسن ، ((الصحيحة)) (١٢٤٩) ، ورواه أبو نعيم في ((الحلية)) (٧/٩٠) ، وأبو بكر الشيرازي في ((سبعة مجالس من الأمالي)) (٢/٨) ، والخطيب في ((تاريخه)) (٩/٢٤٤) .
(١٠) حسن ، ((الصحيحة)) (٧٤٧) ، وأخرجه الطيالسي في ((مسنده)) (١٧٦٠) ، وعنه الطحاوي في ((المشكل)) (٤/٧٧) .
(١١) متفق عليه ، رواه البخاري (١٠/١٩٩/٥٧٣٩) ، ومسلم (٤/١٧٢٥/٢١٩٧) .
(١٢) صحيح ، رواه مسلم (٤/١٧٢٦/٢١٩٨) .
(١٣) ((تفسير القرطبي)) (١٨/٢٥٤) .
(١٤) صحيح ، رواه ابن ماجه (٢/١١٠٦/٣٥٠٩) .
(١٥) متفق عليه ، رواه البخاري (١٠/١٩٨/٥٧٣٦) ، ومسلم (٤/١٧٢٧/٢٢٠١) ، وأبو داود (١٠/٣٩٣/٣٨٨٢) ، والترمذي (٣/٢٦٨/٢١٤٢، ٣/٢٦٩) .
(١٦) متفق عليه ، رواه البخاري (١٠/١٩٥/٥٧٣٥) ، ومسلم (٤/١٧٢٣/٢١٩٢) ، وأبو داود (١٠/٣٩٥/٣٨٨٤) .
(١٧) متفق عليه ، رواه البخاري (١٠/٢٠٦/٥٧٤٢) ، ومسلم (٤/١٧٢٢، ١٧٢١/٢١٩١) .
(١٨) صحيح ، رواه مسلم (٤/١٧١٩، ١٧١٨/٢١٨٦) ، والترمذي (٢/٢٢٣/٩٧٩).
(١٩) صحيح ، رواه البخاري (٦/٤٠٨/٣٣٧١) ، والترمذي (٣/٢٦٧/٢١٣٨) ، وأبو داود (١٣/٦٢/٤٧١١) .
(٢٠) صحيح ، رواه أبو داود (٨/٣٧١/٣٠٩٠) ، والترمذي (٣/٢٧٧/٢١٦٥) .
(٢١) صحيح ، رواه ابن ماجه (٢/١١٠٦/٣٥٠٩) .

مرحبًا بشهر القرآن

قال تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن هدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أُخر يريد اللَّه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا اللَّه على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

إن اللَّه تعالى خلق الخلق بقدرته ، وفضّل بعضهم على بعض بعلمه وحكمته : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ [الملك : ١٤] ، ومن ذلك تفضيله سبحانه بعض الملائكة على بعض ، وبعض النبيين على بعض ، وتفضيله سائر العباد بعضهم على بعض ، ومن ذلك تفضيله سبحانه بعض الجمادات على بعض ، وبعض الأمكنة على بعض ، وبعض الأزمنة على بعض ، ومن ذلك تفضيله سبحانه لشهر رمضان على غيره من شهور الزمان ، فاختاره لنزول القرآن ، فقال : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ ، وكان نزوله في خير ليالي الشهر وأعظمها بركة . كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ [الدخان : ٣] ، وهي ليلة القدر ، كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ [القدر : ١] ، وقد اختُلف في تعيينها بعدما صحّ أن رسول اللَّه ﷺ خرج يخبرهم بها ، فتلاحا اثنان فرفعت ، لكن قوله ﷺ : ((أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لستٍّ مضين من رمضان ، وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان ، وأنزل الزبور لثمان عشرة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان)) . [رواه أحمد وغيره ، وحسنه الألباني في ((الصحيحة)) : (١٥٧٥)] .

فلعل هذا الحديث مما يرجح أنها ليلة الخامس والعشرين من رمضان .

وهذه الليلة وحدها من أعظم فضائل شهر رمضان ، ومن فضائله ما جاء في هذه الأحاديث : ((إذا دخل رمضان فُتحت أبواب السماء ، وأغلقت أبواب جهنم ، وسلسلت الشياطين)) . [متفق عليه] .

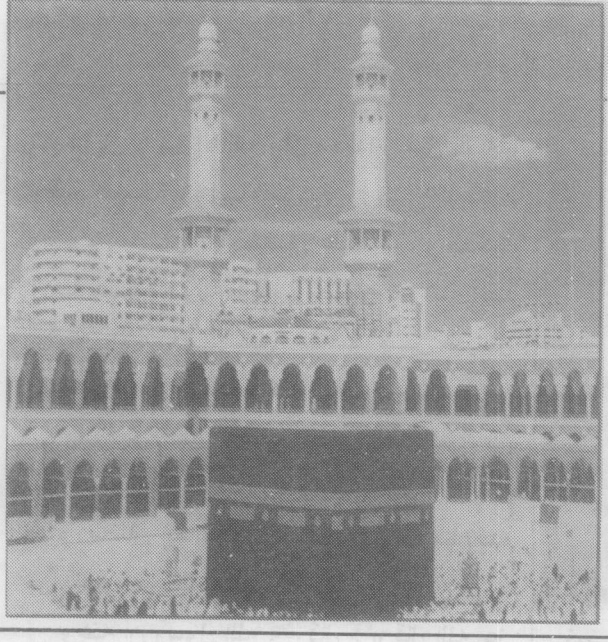

باب التفسير

بقلم الشيخ

عبد العظيم بدوي

((إذا كان أول ليلة من رمضان غُلقت أبواب النار ، فلم يفتح منها باب ، وفتحت أبواب الجنة ، لم يُغلق منها باب ، وينادي مناد : يا باغي الخير هلّم وأقبل ، ويا باغي الشر أقصر ، ولله فيه عتقاء من النار ، وذلك في كل ليلة ، حتى ينقضي رمضان)) . [صحيح ابن ماجه : (١٣٣١)] .

وقد كره قوم أن يُقال : رمضان بدون إضافة ، وهذه الأحاديث تنفي هذه الكراهة ، ولما مدح سبحانه زمان التنزيل مدح المنزَّل نفسه وهو القرآن ، فذكر أنه : ﴿ هدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ ، فهذا القرآن يهدي الناس جميعًا سبيل الرشاد ، ويفرّق لهم بين الحق والباطل ، والمراد بهذه الهداية هداية الإرشاد والدلالة ، كما في قول الله تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا ۞ إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا ﴾ [الإنسان : ٢، ٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ [البلد : ١٠] ، ولما كان المؤمنون المتقون هم الذين يهتدون بهدى القرآن ويستضيئون بنوره خصهم بهداية القرآن في آيات ، فقال تعالى : ﴿ ألم ۞ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتقين ﴾ [البقرة : ١، ٢] ، وقال تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ [فصلت : ٤٤] ، والمراد بهذه الهداية هداية التوفيق للطاعة ، كما قال تعالى : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ۞ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ [المائدة : ١٥، ١٦] .

ثم أوجب سبحانه صيام رمضان على من شهده ممن يجب عليه ولم يكن ثَمَّ مانع يمنعه منه ، فقال تعالى : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ ، وصيام رمضان واجب على كل مسلم ، بالغ ، عاقل ، صحيح ، مقيم ، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة وبإجماع الأمة ، قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ [البقرة : ١٨٣] ، وعدّه النبي ﷺ من أركان الإسلام ، فقال : ((بني الإسلام على خمس :

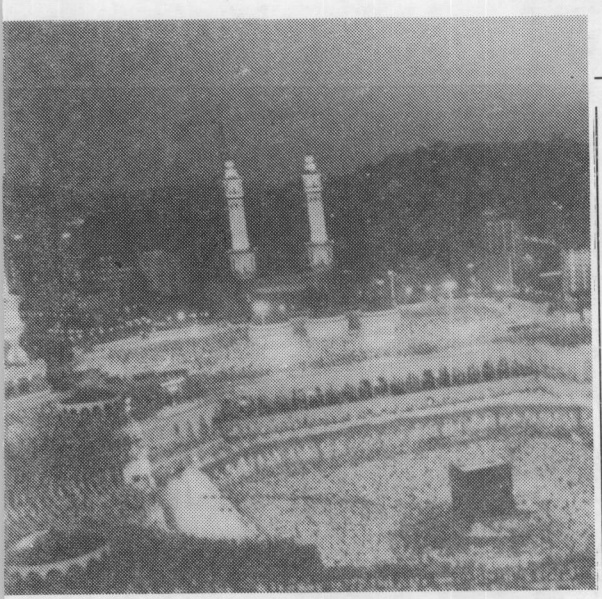

شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّـه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان)) [متفق عليه] ، وأجمعت الأمة على وجوب صيام رمضان ، وأنه أحد أركان الإسلام ، التي علمت من الدين بالضرورة ، وأن منكره كافر مرتدٌ عن الإسلام .

وللصوم فضله العظيم ، ففي الحديث : عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه ﷺ : ((من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه)) [متفق عليه] .

وعنه أن رسول اللّه ﷺ قال : ((قال اللّه عز وجل : كل عمل ابن آدم له ، إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ، والصيام جُنّة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم ، فلا يرفث ، ولا يصخب ، ولا يجهل ، فإن شاتمه أحدٌ أو قاتله فليقل : إني صائم ، مرتين ، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند اللّه يوم القيامة من ريح المسك ، وللصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقي ربه فرح بصومه)) . متفق عليه .

وعن سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال : ((إن في الجنة بابًا يُقال له : الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم ، يقال : أين الصائمون ؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم ، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحدٌ)) [متفق عليه] .

ثم رخص اللّه سبحانه للمرضى والمسافرين في الفطر ، فقال : ﴿ ومن كان مريضًا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ ، ورغب النبي ﷺ في قبول الرخصة ، فقال : ((إن اللّه يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته)) [رواه أحمد ، وصححه الألباني في ((الإرواء)) : (٥٦٤)] .

لكن الأفضل للمسافر - إن لم يجد مشقة - أن يصوم ، وإن وجد مشقة أن يفطر .

عن أبي سعيد الخدري ، رضي اللّه عنه ، قال : كنا نغزو مع رسول اللّه ﷺ في رمضان ، فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلا يجد الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم ، يرون أن من وجد قوةً فصام فإن ذلك حسن ، ويرون أن من وجد ضعفًا فأفطر فإن ذلك حسن . [مسلم] .

ومن عجز عن الصيام للكبر أو مرض مزمن أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينًا ؛ لقوله تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ [البقرة : ١٨٤] .

عن عطاء أنه سمع ابن عباس يقرأ هذه الآية ، فقال ابن عباس : ليست بمنسوخة ، هو الشيخ الكبير ، والمرأة الكبيرة ، لا يستطيعان أن يصوما فليطعما مكان كل يوم مسكينًا . [البخاري] .

والحبلى والمرضع إذا لم تطيقا الصوم أو خافتا على أولادهما فلهما الفطر وعليهما الفدية ولا قضاء عليهما ، فإن قضتا فلا فدية .

عن ابن عباس قال : ((إذا خافت الحامل على نفسها ، والمرضع على ولدها في رمضان ، قال : يفطران ويطعمان مكان كل يوم مسكينًا، ولا يقضيان صومًا)) [صحيح. ((الإرواء)): (٤/١٩)] .

عن نافع قال : ((كانت بنت لابن عمر تحت رجل من قريش ، وكانت حاملاً ، فأصابها عطش في رمضان فأمرها ابن عمر أن تفطر وتطعم عن كل يوم مسكينًا)) [صحيح ((الإرواء)) : (٤/٢٠)] .

والحيض والنفاس يمنعان من الصوم ، ولا يصح الصوم معهما ، وعلى الحائض والنفساء القضاء .

عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : ((كنا نحيض على عهد رسول الله ﷺ فنؤمر بقضاء الصوم ، ولا نؤمر بقضاء الصلاة)) . [مسلم] .

وهذا التخفيف في الصوم إنما هو قائم على أصل الدين العظيم وهو التيسير ورفع الحرج : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ، فيسروا ولا تعسروا ، ولا تشقوا على أنفسكم : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم ﴾ [المائدة : ٦] ، فأوغلوا في الدين برفق لتبلغوا ما كتب الله لكم : ﴿ ولتكملوا العدة ﴾ ثلاثين يومًا إن لم تروا الهلال ، أو تسعًا وعشرين إن رأيتموه : ﴿ ولتكبروا الله ﴾ بعد تمام العدة وانتهاء الشهر ﴿ على ما هداكم ﴾ له وأعانكم عليه من الصيام والقيام وصالح الأعمال في رمضان ، وتقولوا : ﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ [الأعراف : ٤٣] ، ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ الله على نعمه الدينية كما تشكرونه على نعمه الدنيوية ، فإن الأولى أعظم من الثانية ، وهي منها أولى وأحق بالشكر .

والتكبير يكون من حين يخرج إلى المصلى حتى يصلي .

عن الزهري ؛ أن رسول الله ﷺ كان يخرج يوم الفطر فيكبر حتى يأتي المصلى ، وحتى يقضي الصلاة ، فإذا قضى الصلاة قطع التكبير . [قال الألباني في ((الإرواء (٣/١٢٣) : وهذا سند صحيح مرسلاً ، وله شاهد من حديث ابن عمر مرفوعًا أخرجه البيهقي (٣/٢٧٩) ، فالحديث صحيح عندي موقوفًا ومرفوعًا ، والله أعلم))] .

وأما التكبير في الأضحى فيكون من صبح يوم عرفة إلى عصر آخر أيام التشريق - رابع أيام العيد . صحّ ذلك عن علي وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم ، كما في ((الإرواء)) (٣/١٢٥) .

وأما صيغة التكبير فالأمر فيها واسع ، وقد ثبت تشفيع التكبير عن ابن مسعود : الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر ، الله أكبر ولله الحمد .

وصحَّ عنه وعن ابن عباس بتثليث التكبير ، فبأي ذلك أتى المسلم فقد أصاب .

نسأل الله تعالى أن يعيننا على الصيام والقيام ، وأن يوفقنا لصالح الأعمال ، وأن يعتقنا من النار ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

بقلم الشيخ الدكتور / عبد العظيم بدوي

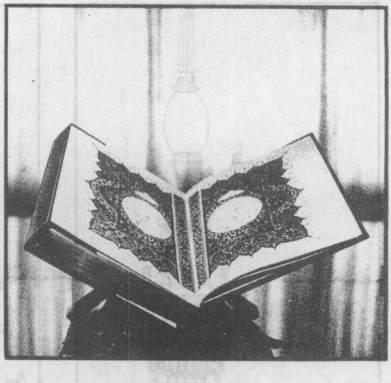

براهين

﴿ق والقرآن المجيد ۞ بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم فقال الكافرون هذا شيءٌ عجيبٌ ۞ أءذا متنا وكنا ترابًا ذلك رجع بعيد ۞ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتابٌ حفيظ ۞ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ۞ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ۞ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ۞ تبصرة وذكرى لكل عبدٍ منيب ۞ ونزلنا من السماء ماءً مباركًا فأنبتنا به جناتٍ وحب الحصيد ۞ والنخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيدٌ ۞ رزقًا للعباد وأحيينا به بلدةً ميتًا كذلك الخروج ۞ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ۞ وعادٌ وفرعون وإخوان لوط ۞ وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ۞ أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ [ق: ١-١٥]

هذه السورة المباركة كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في الخطبة كل جمعة ، حتى قالت أم هشام بنت حارثة بن النعمان : ما أخذت ((ق)) إلا من فيّ رسول الله ﷺ يخطب بها كل جمعة . [مسلم : (٨٧٣)] .

وذلك لما اشتملت عليه من المعاني الجامعة .

فقد اشتملت على ذكر المبدأ والمعاد ، وذكر العالَمين : الأصغر - وهو الدنيا - والأكبر - وهو الآخرة ، كما اشتملت على ذكر القيامتين : الصغرى - وهي الموت - والكبرى - وهي الساعة - وذكرت انقسام الناس يوم القيامة قسمين : ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ [الشورى : ٧] ، وذكرت صفات أهل النار وصفات أهل الجنة ، ثم قال تعالى : ﴿ إن في ذلك ﴾ - المذكور في هذه السورة - ﴿ لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ .

استفتحت السورة بهذا الحرف ((ق)) وسميت به ، وبمثل هذا الاستفتاح استفتحت بعض السور ، تقرأ في القرآن : ﴿ ق ۞ والقرآن المجيد ﴾ [ق : ١، ٢] ، ﴿ ن ۞ والقلم وما يسطرون ﴾ [القلم : ١، ٢] ، ﴿ ص والقرآن ذي الذكر ﴾ [ص : ١] ونحوه .

وقد اختلف العلماء في سر استفتاح هذه السور بهذه الحروف المقطعة ، وأرجح أقوالهم :

إمكان البعث

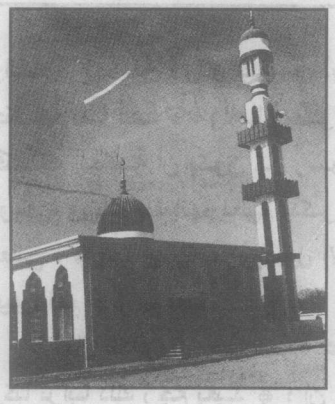

أن في هذا الاستفتاح إشارة إلى أن القرآن الكريم تنزيل رب العالمين ، وليس لمحمد ﷺ فيه أي دور سوى التبليغ .

والدليل على ذلك أن القرآن مؤلف من هذه الحروف العربية : « ق ، ن ، ص ، ح ، م .. إلخ » . وهذه لغتكم ، ومحمد ﷺ واحد منكم ، فلو كان من عنده فلن تعجزوا عن الإتيان بمثله ، فإذا عجزتم : ﴿ فاعلموا أنما أُنزل بعلم اللّه وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ [هود : ١٤] ، ﴿ وإن كنتم في ريبٍ مما نزّلنا على عبدِنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون اللّه إن كنتم صادقين ۞ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعِدَّتْ للكافرين ﴾ [البقرة : ٢٣، ٢٤] .

والدليل على رجحان هذا القول : أنك لا ترى سورة استفتحت بشيء من هذه الحروف المقطعة إلا رأيت اللّه ينتصر فيها لكتابه ويشيد به : ﴿ الم ۞ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ [البقرة : ١، ٢] ، ﴿ الم ۞ اللّه لا إله إلا هو الحي القيوم ۞ نزل عليك الكتاب بالحق ﴾ [آل عمران : ١- ٣] ، ﴿ الر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ [يونس : ١] ، ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ [هود : ١] ، إلى غير ذلك من الآيات . واللّه أعلم .

﴿ والقرآن المجيد ﴾ الواو للقسم ، والمقسِم هو اللّه سبحانه ، والمقسَم به القرآن المجيد ، والمقسَم عليه ما تضمنته هذه السورة ، والمعنى : والقرآن المجيد إن ما جاء في هذه السورة كله حق .

﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ ، ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم ﴾ [البقرة : ١١٨] ، ﴿ ولو شاء اللّه لأنزل ملائكة ﴾ [المؤمنون : ٢٤] ، شبهة عرضت للمشركين في كل أمة ، رأوا أن البشر أحط قدرًا ، وليسوا أهلاً ليصطفي اللّه منهم من يشاء لرسالته ، وليس في ذلك أي عجب ، كما قال تعالى : ﴿ أكان للناس عجبًا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ [يونس : ٢] ، فأي عجب في هذا ؟ ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم ملكًا رسولاً ﴾ [الإسراء : ٩٥] ، فالضرورة تقتضي أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم ، يعرفون أصله ، وحسبه ونسبه ، ويعرفون سيرته ، ويرونه ينفذ ويطبق ما يأمرهم به قبل أن يأمرهم ، ويترك ما ينهاهم عنه قبل أن ينهاهم ، فيكون لهم المثل الأعلى

والقدوة الحسنة ، ولو جاءهم نذير من غير جنسهم لما ألفوه ، ولما فهموا عنه ، ولذا اقتضت الحكمة أن يكون كل رسول من جنس قومه ، ويتكلم بلسانهم لعلهم يذكرون ، كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ [إبراهيم : ٤] .

﴿ فقال الكافرون هذا شيء عجيب أإذا متنا وكنا ترابًا ذلك رجع بعيد ﴾ ؛ إن الإيمان باليوم الآخر أهم أركان الإيمان بعد الإيمان باللَّه عز وجل ، ولذا جمع اللَّه بينهما في آيات كثيرة ، وما جادل المشركون في شيء جدالهم في الإيمان باللَّه وحده ، والإيمان باليوم الآخر ، لقد كان القوم ألفوا تعدد الآلهة ، فلما قالت لهم رسلهم : ﴿ اعبدوا اللَّه ما لكم من إله غيره ﴾ [الأعراف : ٥٩] ، ﴿ قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾ [إبراهيم : ١٠] ، ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ۞ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا اختلاق ﴾ [ص : ٦، ٧] ، ﴿ وقالوا لا تذرُنَّ آلهتكم ولا تذرُنَّ ودًّا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا ﴾ [نوح : ٢٣] .

كما كان القوم رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فلما قالت لهم رسلهم : ﴿ إليه مرجعكم جميعًا وعد اللَّه حقًّا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ [يونس : ٤] ، ﴿ قالوا أإذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أإنا لمبعوثون ﴾ [الصافات : ١٦] ، ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [المؤمنون : ٨٣] ، فهم كانوا مقرين بالموت ، مقرين بأنهم بعد الموت يصيرون ترابًا ، ولكنهم كانوا يستبعدون أن يعيدهم اللَّه مرة ثانية ، فكانوا يقولون : ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾ ، فرد اللَّه عليهم بقوله : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ ؛ إن اللَّه قد أحاط بكل شيء علمًا ، ومن ذلك أنه سبحانه يعلم أين تذهب ذرات الأجساد بعد فنائها ، وهو قادر على جمعها وإحيائها متى شاء ، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال : « قال رجل لم يعمل حسنة قط لأهله : إذا مات فحرّقوه ، ثم أذروا نصفه في البر ونصفه في البحر ، فواللَّه لئن قدر اللَّه عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين ، فلما مات الرجل فعلوا به ما أمرهم ، فأمر اللَّه البر فجمع ما فيه ، وأمر البحر فجمع ما فيه ، ثم قال : لِمَ فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك يا رب ، وأنت أعلم ، فغفر اللَّه له » . متفق عليه .

﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ ؛ أي نعلم أين تفرقت الأبدان وأين صارت : ﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ يحفظ كل شيء ، كما قال فرعون لموسى : ﴿ فما بال القرون الأولى ۞ قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ [طه : ٥١، ٥٢] .

﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ﴾ ؛ أي مختلط قد التبس عليهم الحق بالباطل : ﴿ فهم في ريبهم يترددون ﴾ [التوبة : ٤٥] ، وهذا خلاف ما عليه المسلم ، فالمسلم - بفضل اللَّه - لا يلتبس عليه الحق بالباطل ؛ لأنه يمشي في النور الذي وهبه اللَّه له بسبب إيمانه ، وهو راضٍ بهذه العقيدة ، ثابت عليها ، لا يستبدل بها غيرها ؛ لأنه لم يعتقدها إلا بعد نظر وتأمل ، أما الكافرون فقد كذبوا بالحق لما جاءهم ،

واتبعوا أهواءهم ، فهم في ريب ، لا يستقرون على عقيدة ، وينزعجون لأقل فتنة تعرض لهم ، ولذا لما قال الخليل إبراهيم ، عليه السلام ، لقومه : ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ۞ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ [الأنبياء : ٥٤، ٥٥] أجئتنا بالحق ، وأنت صادق فيما اتهمتنا به وآباءنا من الضلال ؟ أم أنت من اللاعبين ؟ الساخرين ؟ فأهل الباطل يعتقدون عقيدة ، ولكنهم ليسوا ثابتين عليها ، ليسوا متأكدين من صحتها ، فهم في شك منها ، أقل شبهة تزحزحهم عنها : ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ﴾ ، وهذا شأن كل من كذب بالحق ، هذا شأن كل من كان بعيدًا عن الصراط المستقيم ، هذا شأن كل من لم يكن على بصيرة من أمره ، لكن أصحاب العقيدة الصحيحة ، الذين اعتقدوها بعد نظر وتأمل ومقارنة بينها وبين العقائد الفاسدة ، هؤلاء ثابتون على عقيدتهم ثبوت الجبال الرواسي ، لا يتزحزحون عنها ، ولو اجتمع أهل السماوات وأهل الأرض ، إلا أن يشاء الله .

ثم لفت الله أنظار العباد إلى براهين إمكان البعث فقال : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ۞ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ﴾ .

هذه السماوات بارتفاعها ، من الذي رفعها بغير عمد ؟ ومن الذي يمسكها أن تقع على الأرض ؟ ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليمًا غفورًا ﴾ [فاطر : ٤١] .

﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوفٌ رحيمٌ ﴾ [الحج : ٦٥] .

هذه السماوات وما فيها من كواكب ونجوم : ﴿ كل في فلك يسبحون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ، ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ﴾ [يس : ٤٠] ، وهذه الأرض وما عليها من الجبال الرواسي ، كل ذلك آية من آيات الله ، التي تدل على إمكان البعث ، وذلك أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ، كما صرح بذلك ربنا سبحانه ، وإذا خلق الله ما هو أكبر وأعظم من الإنسان فلن يعجز أن يعيد الإنسان كما بدأه ، ولذا قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ [الأحقاف : ٣٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ۞ تبصرةً وذكرى لكل عبدٍ منيبٍ ۞ ونزلنا من السماء ماءً مباركًا فأنبتنا به جناتٍ وحب الحصيد ۞ والنخل باسقاتٍ لها طلعٌ نضيدٌ ۞ رزقًا للعباد وأحيينا به بلدةً ميتًا كذلك الخُروج ﴾.

هذا هو البرهان الثاني ، هذه الأرض قبل نزول الغيث تراها سوداء ، جرداء ، لا زرع فيها ولا ماء ، ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ۞ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ۞ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ [الحج : ٥- ٧] ، فإحياء الأرض بعد موتها دليل على إمكان إحياء الناس بعد موتهم ، ولذا قال تعالى هنا : ﴿ وأحيينا به بلدة ميتًا كذلك الخروج ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي

أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ [فصلت : ٣٩] .

البرهان الثالث : إن اللّه خلق الإنسان من عدم ، كلنا لنا تاريخ ميلاد ، أين كنا قبل هذا التاريخ ؟ كنا عدمًا ، كما قال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا ﴾ [الإنسان : ١] ، وهل هنا بمعنى قد ، قد أتى على الإنسان زمان لم يكن شيئًا مذكورًا ، بل كان عدمًا ، والذي أوجده هو اللّه : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا ﴾ [الإنسان : ٢] ، فاللّه الذي خلقك من عدم لن يعجز أن يعيدك مرة ثانية : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [الروم : ٢٧] ، أي الإعادة أهون من البدء ، وهذا مجرد مثل ، ضربه اللّه للناس لعلهم يعقلون : ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الروم : ٢٧] .

قال تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما مت لسوف أخرج حيًا ۞ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئًا ﴾ [مريم : ٦٦، ٦٧] ، وقال تعالى : ﴿ أوَ لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ۞ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهو رميم ۞ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ [يس : ٧٧- ٧٩] .

البرهان الرابع : نوم الإنسان ويقظته ، أنت تنام في اليوم والليلة مرة أو مرتين ، هذا النوم ما هو إلا موت ، فالنوم أخو الموت ، إذا نمت فقدت وعيك وإحساسك وشعورك وإدراكك ، فلا تشعر ولا تدري بأي شيء حولك ، وهذا هو الموت ، وبعد ساعات يبعثك اللّه فتستيقظ وهذا هو البعث ، فنومك مثل موتك ، ويقظتك بعد نومك مثل بعثك بعد موتك ، ولذلك ربنا سبحانه وتعالى سمى النوم وفاةً ، فقال تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ [الأنعام : ٦٠] ، فسمى اللّه النوم وفاة ، وسمى اليقظة بعده بعثًا .

وقال تعالى : ﴿ اللّه يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويُرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [الزمر : ٤٢] ، فأنت تنام فتموت ، وتستيقظ فتبعث ، ولذا كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه يقول : « باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » . فإذا استيقظ قال : « الحمد للّه الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » . « الحمد للّه الذي ردّ عليَّ روحي ، وعافاني في جسدي ، وأذن لي بذكره » .

هذه أربع براهين على إمكان البعث ، وأن اللّه يبعث من في القبور ، ثم إن البعث بعد الموت قد وقع في هذه الدنيا لبعض الأفراد حقيقة ، ألا تقرءون سورة « البقرة » ؟ ماذا يقول ربنا فيها ؟ يقول تعالى حكاية عن بني إسرائيل : ﴿ وإذ قتلتم نفسًا فادارأتم فيها واللّه مخرج ما كنتم تكتمون ۞ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي اللّه الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ [البقرة : ٧٢، ٧٣] ، والمعنى : أنه قتل قتيل ، فاختلفوا فيمن قتله ، فأمروا على لسان نبيهم أن يذبحوا بقرة ، ويضربوه

ببعضها ، فضربوه ، فقعد حيًا ، فقال : قتلني فلان ، ثم مات ، وقد ذكر اللّه تعالى في هذه السورة مما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم ﴾ [البقرة : ٥٦] .

وهذه القصة وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور ، فهذه أموات أحياها اللّه بعدما أماتها ، ليري العباد آيات قدرته على إحيائهم بعد مماتهم : ﴿ فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ [المائدة : ١٢] .

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ۞ وعاد وفرعون وإخوان لوط ۞ وأصحاب الأيكة وقوم تبع ۞ كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ الآيات إلى : ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ .

ينذر سبحانه كفار قريش عاقبة الكفر ، فلقد كفر هؤلاء المذكورون برسلهم ، وعصوا أمر ربهم : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبًا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ﴾ [العنكبوت : ٤٠] . ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ [الحشر : ٢] ، فلستم بخير من أولئكم ، وليس رسولكم دون إخوانه من رسلكم : ﴿ فآمنوا باللّه ورسوله والنور الذي أنزلنا ﴾ [التغابن : ٨] ، واعلموا أن اللّه إن أمهلكم فلن يهملكم ، كما قال ﷺ : « إن اللّه ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » . ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ [هود : ١٠٢] . متفق عليه .

وقوله تعالى : ﴿ كلٌ كذب الرسل ﴾ : أي كل قوم من هذه الأقوام كذبوا الرسل ، ومن المعلوم أن قوم نوح ما أتاهم من نذير غير نوح ، وكذلك ثمود وعاد وإخوان لوط ، ولكن اللّه نسب إلى كل قوم من هؤلاء تكذيب الرسل ، وذلك أنه لما كانت الرسالة واحدة ، والأمر الذي دعا إليه المرسلون واحدًا ، كان من كذب رسولاً فقد كذب الرسل ، ولذا كان الإيمان : أن تؤمن باللّه ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، لا تفرق بين أحد من رسله .

لقد سمى اللّه لنا في القرآن الكريم خمسة وعشرين رسولاً ، وسكت عن غيرهم من المرسلين ، فوجب الإيمان بكل من سمى اللّه منهم تفصيلاً ، والإيمان بمن لم يسم جملة ، ومن كفر بواحد من المذكورين فقد كفر بالجميع ، ولن ينفعه زعمه الإيمان بغير هذا الواحد ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون باللّه ورسله ويريدون أن يفرقوا بين اللّه ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ۞ أولئك هم الكافرون حقًا واعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا ﴾ [النساء : ١٥٠، ١٥١] .

قوله تعالى : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ۞ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ .

يقول تعالى : لِمَ ينكرون البعث ؟ أفعجزنا عن خلقهم أول مرة حتى نعجز عن الإعادة ؟ ﴿ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ ؛ فالإحياء والإماتة يتكرران أبدًا ، كل يوم ، بل كل ساعة ، يحيي اللّه من شاء ، ويميت من شاء ، وهذا أكبر برهان على أن اللّه يبعث من في القبور .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين .

باب التفسير

أهوال الموت

بقلم الشيخ الدكتور: عبد العظيم بدوي

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ۞ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ۞ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ق : ١٦-١٨] .

أيها العبد المسلم : إذا علمت أن أحدًا من الناس يراقبك ، فكم يكون حذرك ؟ وكم يكون خوفك ؟ وكم تكون دقيقًا في تصرفاتك وأفعالك وأقوالك ؟ لا تدخل مدخلاً حتى تفكر وتنظر وتتأمل ، ولا تخرج مخرجًا حتى تفكر وتنظر وتتأمل ؛ لأنك أيقنت أنك مراقب من غيرك ، فكيف إذا كان الله هو الرقيب عليك ؟!

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ [ق : ١٦] ، ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ [الملك : ١٣] ، فأنت بادٍ لربك ظاهر له ، لا يخفى عليه أمر من أمورك ، ولا شأن من شئونك ، الله مطلع عليك في كل دقيقة ، وناظر إليك في كل لحظة ، ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ [المجادلة : ٧] بعلمه وسمعه وبصره ، أما هو سبحانه ففوق عرشه ، كما أخبر عن نفسه : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [طه : ٥] ، ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [يونس : ٦١] ، ولقد كان من دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ [إبراهيم : ٣٨] .

فإذا علمت هذا يا عبد الله ، فكيف ترضى أن يراك الله حيث نهاك ، أو يفقدك حيث يجب أن يراك ؟ يا عبد الله ، لا تكن من الذين قال الله فيهم : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ﴾ [النساء : ١٠٨] ، هؤلاء المنافقون يا عبد الله ، الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، إذا لقوا الذين آمنوا لقوهم بثياب النساك العباد ، وإذا خلوا بارزوا الله بالمعاصي : ﴿ وكان الله بما يعملون محيطًا ﴾ [النساء : ١٠٨] .

ولذلك روي في بعض الكتب السابقة : ((أن الله أوحى إلى نبي من الأنبياء : أن قل لقومك : ما بالكم تسترون معاصيكم من الناس وتظهرونها لي ، إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم فقد كفرتم ، وإن كنتم تعتقدون أني أراكم ، فلِمَ جعلتموني أهون الناظرين إليكم)) . [((جامع العلوم والحكم)) : (١٤٠)] .

يا من يستر عيوبه عن الناس ويبديها لله ، لِمَ هذا ؟ إن كنت تعتقد أن الله لا يراك فهذا كفر ، وإن كنت تعتقد أن الله يراك ، فكيف تعصيه وهو يراك ؟ ((اتق الله حيثما كنت)) . [الترمذي : (١٩٨٨)] .

إذا ما خلوت الدهر يومًا
فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة

ولا أن ما تخفي عليه يغيب

فكن دائمًا مراقبًا لربك ، كن دائمًا واثقًا أن الله يراك ، وأن الله مطلع عليك ، وأن الله ناظر إليك ، وأن الله سميع لأقوالك ، فاستح أن تصدر منك كلمة لا يرضاها ، واستح أن يصدر منك فعل لا يحبه ، وزين نفسك دائمًا بلباس التقوى ، كما قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] .

ولم يكتف الله بمراقبته عباده : ﴿ وكفى بالله شهيدًا ﴾ [النساء : ٧٩] ، حتى وكل بك يا عبد الله ملائكة : ﴿ كرامًا كاتبين ۞ يعلمون ما تفعلون ﴾ [الانفطار : ١١، ١٢] ، ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، بعض العوام يظنون أن الملكين يقال لأحدهما : رقيب ، وللآخر : عتيد ، لا . ليس الأمر كذلك ، وإنما ﴿ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ معناه : ملَك يراقبك ، وقد أعد لهذه المراقبة وهيئ لها ، حتى يقوم بها على أكمل وجه ، فلا تفلت منه كلمة صدرت منك ، أما ملك اليمين فيكتب حسناتك ، وأما ملك الشمال فيكتب سيئاتك ، ولذا كان الحسن البصري ، رحمه الله ، يقول : (يا ابن آدم ، بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك ، وجعلت في عنقك معك في قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۞ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٣، ١٤] ، ثم يقول : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك) . [ابن كثير : (٢٨/٣)] .

وقد جعل الله لهؤلاء الكتبة من القدرة ما به يعلمون إرادة الإنسان قبل أن يفعل ، ولذا قال النبي ﷺ : ((قال الله عز وجل : إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة ، وإذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشرًا)) . [متفق عليه] .

وقال ﷺ : ((قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة ، وهو أبصر به ، قال : ارقبوه ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جرائي)) . [متفق عليه] .

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ ، ﴿ ما ﴾ في قوله : ﴿ ما كنت ﴾ إما أن تكون اسمًا موصولاً بمعنى الذي ، فيكون المعنى : جاء الموت الذي كنت منه تحيد ؛ أي تفر وتهرب وتظن أنه لن يدركك ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨] .

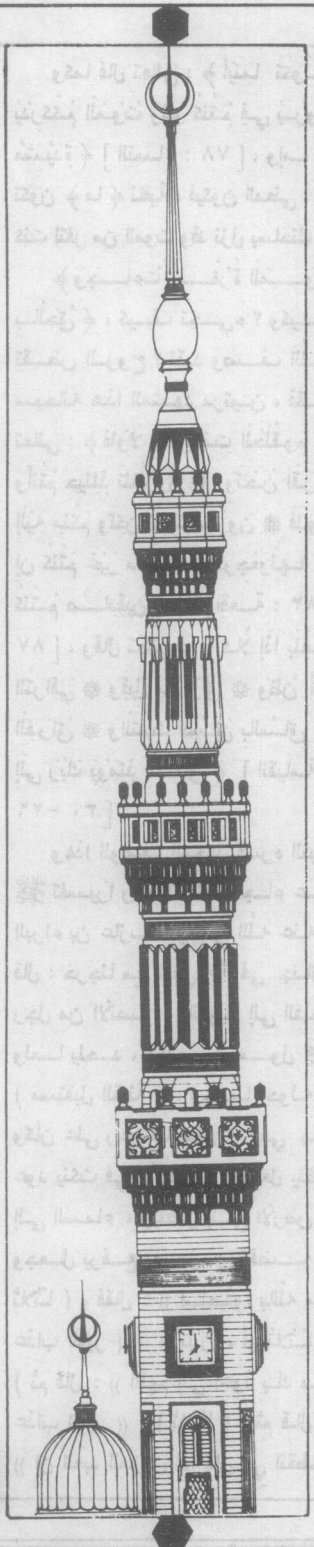

وكما قال تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء : ٧٨] ، وإما أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية ، فيكون المعنى : ما كنت لتفر من الموت وقد نزل بساحتك .

﴿ وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ ، كيف تجيء ؟ وكيف تقبض الروح ؟ لقد وصف اللَّه سبحانه هذا المشهد مرتين ، فقال تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ۞ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۞ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ۞ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۞ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الواقعة : ٨٣- ٨٧] ، وقال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ۞ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۞ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۞ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۞ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ [القيامة : ٢٦- ٣٠] .

وهذا الوصف المجملُ فسره النبي ﷺ تفسيرًا رائعًا ، كما جاء عن البراء بن عازب ، رضي اللَّه عنه ، قال : خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول ﷺ (مستقبل القبلة) ، وجلسنا حوله ، وكأن على رءوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت في الأرض ، (فجعل ينظر إلى السماء ، وينظر إلى الأرض ، وجعل يرفع بصره ويخفضه ، ثلاثًا) ، فقال : ((استعيذوا باللَّه من عذاب القبر)) . مرتين ، أو ثلاثًا ، (ثم قال : ((اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر))) (ثلاثًا) ، ثم قال : ((إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء ، بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط[1] من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة - وفي رواية : (المطمئنة) -: اخرجي إلى مغفرة من اللَّه ورضوان)) . قال : ((فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيّ السقاء ، فيأخذها - وفي رواية : حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك في السماء ، وفُتحت له أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون اللَّه أن يعرج بروحه من قبلهم - فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ، (فذلك قوله تعالى : ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام : ٦١]) ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض)) . قال : ((فيصعدون بها ، فلا يمرون - يعني - بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له ، فيفتح لهم ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها ، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة ، فيقول اللَّه عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين ، (﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ۞ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين : ١٩- ٢١] ، فيكتب كتابه في عليين) ، ثم يقال : ((أعيدوه إلى الأرض ، فإني وعدتهم (أني) منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى)) . قال : ((فـ (يُرد إلى الأرض و) تعاد روحه في جسده)) . (قال : ((فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه) (مدبرين) ، فيأتيه ملكان (شديدا الانتهار) ، فـ (ينتهرانه ، و) يجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي اللَّه ، فيقولان له : وما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول اللَّه ﷺ ، فيقولان له : وما عملك ؟ فيقول : قرأت كتاب اللَّه ، فآمنت به ، وصدقت ، (فينتهره فيقول : من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن ، فذلك حين يقول اللَّه عز وجل : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الذِينَ آمَنُوا بِالقَولِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا ﴾ [إبراهيم : ٢٧] ، فيقول : ربي اللَّه ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد ﷺ ، فينادي مناد في السماء : أن صدق عبدي ، فافرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا إلى

---

(١) بفتح المهملة ، ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة . « أحكام الجنائز » .

الجنة)) . قال : ((فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مد بصره)) . قال : ((ويأتيه - وفي رواية : يمثل له - رجل حسن الوجه ، حَسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، (أبشر برضوان من الله ، وجنات فيها نعيم مقيم) ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول له : (وأنت فبشرك الله بخير) من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير ، فيقول : أنا عملك الصالح ، (فوالله ما علمتك إلا كنت سريعًا في إطاعة الله ، بطيئًا في معصية الله ، فجزاك الله خيرًا) ، ثم يُفتح له باب من الجنة ، وباب من النار ، فيُقال : هذا منزلك لو عصيت الله ، أبدلك الله به هذا ، فإذا رأى ما في الجنة قال : رب عجل قيام الساعة ، كيما أرجع إلى أهلي ومالي ، (فيُقال له : اسكن)) .

قال : ((وإن العبد الكافر - وفي رواية : الفاجر - إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة (غلاظ شداد) ، سود الوجوه ، معهم المسوح[1] (من النار) ، فيجلسون منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت ، حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجي إلى سخط من الله وغضب)) . قال : ((فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود (الكثير الشعب) من الصوف المبلل ، (فتقطع معها العروق والعصب) ، (فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك في السماء ، وتغلق أبواب السماء ، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قبلهم) ، فيأخذها ، فإذا أخذها ، لم يدعوها في يده طرفة عين ، حتى يجعلوه في تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان ابن فلان ، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له ، فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف : ٤٠] ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين ، في الأرض السفلى ، (ثم يُقال : أعيدوا عبدي إلى الأرض ، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، فتطرح روحه (من السماء) طرحًا ، (حتى تقع في جسده) ، ثم قرأ : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] ، فتعاد روحه في جسده)) . (قال : ((فإنه ليسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه) ، ويأتيه ملكان (شديدا الانتهار ، فينتهرانه ، و) يجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه ، لا أدري) ، فيقولان : فما تقول في هذا الرجل الذي بُعث فيكم ؟ فلا يهتدي لاسمه ، فيقال : محمد ! فيقول : هاه هاه ، لا أدري ، (سمعت الناس يقولون ذاك ! قال : فيقال : لا دريت) ، (ولا تلوت) ، فينادي منادٍ من السماء أن كذب ، فافرشوا له من النار ، وافتحوا له بابًا إلى النار ، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره ، حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه - وفي رواية : ويمثل له - رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعد ، فيقول : (وأنت فبشرك الله بالشر) ، من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر ! فيقول : أنا عملك الخبيث ، (فوالله ما علمت إلا كنت بطيئًا عن طاعة الله ، سريعًا إلى معصية الله) ، (فجزاك الله شرًا) ، ثم يقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة ! لو ضرب بها جبل كان ترابًا ، فيضربه ضربة حتى يصير بها ترابًا ، ثم يعيده الله كما كان ، فيضربه ضربة أخرى ، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين ، ثم يفتح له باب من النار ، ويمهد من فرش النار) ، فيقول : رب لا تقم الساعة)) . [((أحكام الجنائز)) : (١٥٦)] .

والحمد لله رب العالمين .

---

(١) جمع المسح ، بكسر الميم ، وهو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفًا وقهرًا للبدن . ((أحكام الجنائز)) .

لماذا يُحج البيت؟!

بقلم الدكتور :
عبد العظيم بدوي

قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

هاتان آيتان من سورة « آل عمران » ، فرض اللَّه بنهايتهما حج البيت على من استطاع إليه سبيلاً ، وخصّ بدايتهما بذكر فضائل هذا البيت التي بها استحق أن يُقصد - دون غيره - للحج ، فلنبدأ بما بدأ اللَّه به ، فنقول : إن اللَّه تعالى فضّل بعض مخلوقاته على بعض ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ، وعمّ هذا التفضيلُ الإنسان والحيوان والجمادات ، ومن هذا تفضيله سبحانه وتعالى للبلد الحرام - مكة - على سائر البلاد ، وتفضيله للمسجد الحرام على سائر المساجد ، ومن فضائل البلد الحرام أن اللَّه تعالى أقسم به في موضعين من كتابه ، فقال سبحانه : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۞ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ [البلد : ١ ، ٢] ، وقال : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ [التين : ١ - ٣] ، وما أقسم به إلا لشرفه وفضله ، وكونه أحبّ البلاد إليه ، كما في الحديث عن عبد اللَّه بن عديّ بن الحمراء ، رضي اللَّه عنه ، قال : رأيت رسول اللَّه ﷺ وهو على ناقته واقفٌ بالحزورة - موضع بمكة - يقول : « واللَّه إنك لخيرُ أرض اللَّه ، وأحبُّ أرض اللَّه إلى اللَّه ، واللَّه لولا أني أُخرجت منك ما خرجت » . [« صحيح ابن ماجه » : (٢٥٢٣)] .

ومن فضائله ما رواه الشيخان عن ابن عباس ، رضي اللَّه عنهما ، أن رسول اللَّه ﷺ قال يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرّمه اللَّه يوم خلق السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمة اللَّه إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحلّ القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحلّ لي إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة اللَّه إلى يوم القيامة ، لا يُعضد شوكه ، ولا يُنفر صيده ، ولا يلتقط لقطته ، إلا من عرّفها ، ولا يُختلى خلاه » . فقال العباس : يا رسول اللَّه ، إلا الإذخر ، فإنه لقينهم وبيوتهم ، فقال : « إلا الإذخر » .

ومن فضائل المسجد الحرام ؛ كونه أول بيت وضع للناس لذكر اللَّه والصلاة والطواف والاعتكاف ، كما في الآية الكريمة ، وكما في « الصحيحين » عن أبي ذر ، رضي اللَّه عنه ، قال : سألت

رسول اللّه ﷺ عن أول مسجد وُضع في الأرض ؟ فقال : « المسجد الحرام » . قلت : ثم أيّ ؟ قال : « المسجد الأقصى » . قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون عامًا » . ومنها كونه مباركًا .

قال الفخر الرازي ، رحمه اللّه : البركة لها معنيان : أحدهما : النمو والتزايد ، والثاني : البقاء والدوام . يُقال : تبارك اللّه ؛ لثبوته لم يزل ، والبركة شبه الحوض لثبوت الماء فيها ، وبرك البعير : إذا وضع صدره على الأرض وثبت واستقر .

فإن فسّرنا البركة بالتزايد والنمو فهذا البيت مبارك من وجوه:

أحدها : أن الطاعات يزداد ثوابها فيه ، قال ﷺ : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد ، إلا المسجد الحرام » . [متفق عليه] .

وقال ﷺ : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه » . [متفق عليه] .

ومعلوم أنه لا أكثر من بركة ما يجلب المغفرة والرحمة .

وثانيها : قال القفال ، رحمه اللّه تعالى : ويجوز أن يكون بركته ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [القصص : ٥٧] ، فيكون كقوله : ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء : ١] .

وثالثها : أن العاقل يجب أن يستحضر في ذهنه أن الكعبة كالنقطة ، وليتصور أن صفوف المتوجهين إليها في الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز ، وليتأمل كم عدد الصفوف المحيطة بهذه الدائرة حال اشتغالهم بالصلاة ، ولا شك أنه يحصل فيما بين هؤلاء المصلين أشخاص أرواحهم علوية ، وقلوبهم قدسية ، وأسرارهم نورانية ، وضمائرهم ربانية ، ثم إن تلك الأرواح الصافية إذا توجهت إلى ربها وتوجهت أجسادهم إلى تلك الكعبة الحسية ، ازدادت في قلوبهم الأنوار الإلهية : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [النور : ٣٥] .

وأما إن فسّرنا البركة بالدوام فهو أيضًا كذلك ؛ لأنه لا تنفك الكعبة من الطائفين

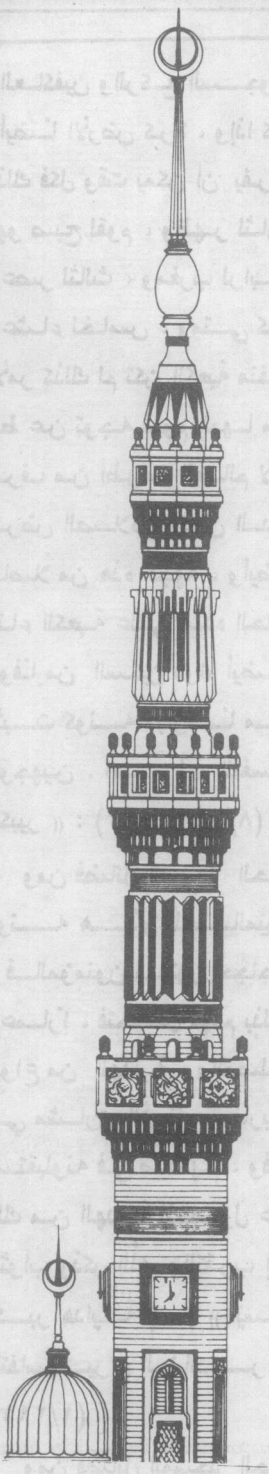

والعاكفين والركع السجود ، وأيضًا الأرض كرة ، وإذا كان كذلك فكل وقت يمكن أن يفرض فهو صبح لقوم ، وظهر لثان ، وعصر لثالث ، ومغرب لرابع ، وعشاء لخامس ، ومتى كان الأمر كذلك لم تكن الكعبة منفكة قط عن توجه قوم إليها من طرف من أطراف العالم لأداء فرض الصلاة ، فكان الدوام حاصلاً من هذه الجهة ، وأيضًا بقاء الكعبة على هذه الحالة ألوفًا من السنين دوام أيضًا ، فثبت كونه مباركًا من الوجهين . اهـ . [« التفسير الكبير » : (١٦٢، ٨/١٦٣)] .

ومن فضائل المسجد الحرام كونه هدًى للعالمين : (فالمؤمنون يأتون حجاجًا وعمارًا ، فتحصل لهم بذلك أنواع من الهداية ، والمصلون في مشارق الأرض ومغاربها يستقبلونه في صلاتهم ، وفي ذلك من الهداية للحصول على الثواب وذكر اللَّه والتقرب إليه أكبر هداية) . [« أيسر التفاسير » الجزائري : (١/٢٩١)] .

ومن فضائل المسجد الحرام أن : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ ﴾ تدل على قدرة اللَّه وعظمته وتوحيده ، منها : ﴿ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ، وهو الحجر الذي قام عليه وهو يبني الكعبة ، وهو حجر صلب ، ومع ذلك أثّر فيه قدما الخليل وغاصتا ، وما زال هذا الأثر إلى اليوم يُرى بالحجر ، ومن الآيات الحجر الأسود ، والحطيم ، وزمزم . [« معالم التنزيل » البغوي : (١/٥١١)] .

من فضائل المسجد الحرام كونه هدًى للعالمين ، فالمؤمنون يأتون حجاجًا وعمارًا ، فتحصل لهم بذلك أنواع من الهداية .

ومن فضائل المسجد الحرام أن : ﴿ .. مَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ ، فمن آذى آدميًا أو ظلمه ، ثم عاذ بالبيت أعاذه البيت ، فلا يؤخذ بجريرته حتى يخرج منه ، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية ، كما ذكر ابن كثير . [١/٣٨٤] .

فلما كان المسجد الحرام بهذه المكانة فرض اللَّه على الناس قصده للعبادة ، وجعل ذلك من آكد فروض الإسلام ، فقال : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ .

قال القاسمي ، رحمه اللَّه ، في فتح البيان : اللام في قوله : ﴿ للَّه ﴾ هي التي يقال لها : لام الإيجاب والإلزام ، ثم زاد هذا المعنى تأكيدًا حرف ﴿ على ﴾ فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب ، كما إذا قال القائل : لفلان عليَّ كذا . فذكره اللَّه سبحانه بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيدًا لحقه ، وتعظيمًا لحرمته . [« محاسن التأويل » : (١٦٠، ٤/١٦١)] .

وقد أجمع المسلمون على وجوبه لهذه الآية ، ولقول النبي ﷺ : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا اللَّه ، وأن محمدًا رسول اللَّه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصيام رمضان » . [مسلم : (١٢٤١)] .

وهو واجب مع العمرة على كل مسلم ، بالغ ، عاقل ، حر ، مستطيع ، والاستطاعة تتحقق بالصحة وملك ما يكفيه لذهابه وإيابه ، فاضلاً عن حاجته وحاجة من تلزمه نفقته ، ويشترط توفر أمن الطريق ، ويشترط في حق المرأة أن يصحبها زوج أو محرم ، فإن لم تجد زوجًا أو محرمًا فليست مستطيعة .

عن ابن عباس قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم » . فقال رجل : يا رسول اللَّه ، إن امرأتي خرجت حاجة ، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا ، فقال : « انطلق فحج مع امرأتك » . [متفق عليه] .

ويجب على من استطاع أن يبادر إلى الحج من عامه ؛ لقوله ﷺ : « من أراد الحج فليتعجل ، فإنه قد يمرض المريض ، وتضل الدابة ، وتعرض الحاجة » . [« صحيح ابن ماجه » : (٢٣٣١)] .

ولا يجب الحج على المستطيع إلا مرّة واحدة في العمر ، للحديث المشهور ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « يا أيها الناس ، إن اللَّه قد فرض عليكم الحج فحجوا » . فقال رجل : أكل عام يا رسول اللَّه ؟ فسكت ، حتى قالها ثلاثًا ، ثم قال ﷺ : « لو قلت : نعم لوجبت ، ولما استطعتم » . [مسلم : (١٣٣٧)] .

لكنه يستحب الإكثار من العمرة والحج ، لقول النبي ﷺ : « تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الذنوب والفقر كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة » . [« صحيح ابن ماجه » : (١٩٠١)] .

ويستحب أن لا يزيد غياب المسلم المستطيع عن الحج أكثر من خمس سنين .

عن أبي سعيد الخدري ، رضي اللَّه عنه ، عن النبي ﷺ قال : « إن اللَّه يقول : إن عبدًا أصححت له جسمه ، ووسّعت عليه في المعيشة ، تمضي عليه خمسةُ أعوام لا يفد إليَّ لمحروم » . [« السلسلة الصحيحة » : (١٦٦٢)] .

والإكثار من العمرة والحج أفضل من التصدق بقيمتهما ؛ لأنهما ينفيان الفقر ، فيزداد غنى ويكثر ماله ، فيعود خيره عليه وعلى الفقراء ، وبذلك أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه اللَّه ، ففي « مجموع الفتاوى » (٢٦/١٠) فتوى نصها :

وسُئل ، رحمه اللَّه :

ماذا يقول أهل العلم في رجل

آتاه ذو العرش مالاً حجّ واعتمر

فهزّه الشوق نحو المصطفى طربا

أترون الحج أفضل أم إيثاره الفقرا ؟

فأجاب ، رضي اللَّه عنه :

نقول فيه بأن الحج أفضل من فعل التصدق والإعطاء للفقرا . اهـ.

ولا يجوز ترك الحج مع القدرة عليه ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

نسأل اللَّه سبحانه أن يجعل موسم الحج موسم سلم وسلام وأمن وأمان ، وأن يرد الجميع إلى أوطانهم وأهليهم سالمين غانمين .

والحمد للَّه رب العالمين .

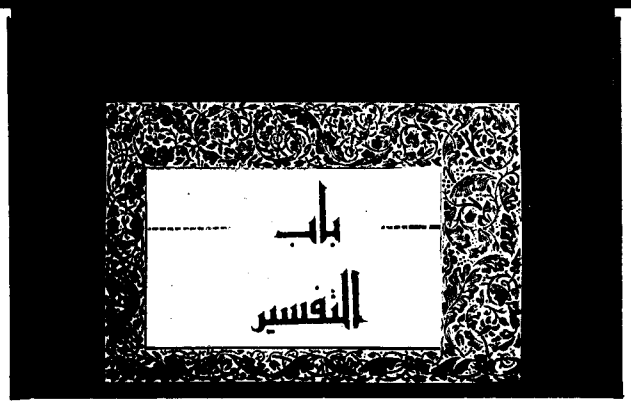

الهجرة باقية

بقلم الدكتور:
عبد العظيم بدوي

قال تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرًا ۞ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا ۞ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوًا غفورًا﴾

[النساء: ٩٧- ٩٩].

الهجرة لغة: الخروج من أرض إلى أرض.

وشرعًا: الخروج من أرض الكفر (وهي التي تكون السيادة والغلبة فيها لأحكام الكفر) إلى أرض الإسلام (وهي التي تكون السيادة والغلبة فيها لأحكام الإسلام).

ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأقام دولة الإسلام بها وصارت لهذه الدولة شوكة لم تكن ثمَّ أرض إسلام سواها، فكانت الهجرة إليها على كل من أسلم من غير أهلها واجبة، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشترط على من يبايعه على الإسلام أن يبايعه على الهجرة أيضًا.

عن أبي نُخَيلة البجلي قال: قال جرير: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يبايع، فقلت: يا رسول الله! ابسط يدك حتى أبايعك، واشترط عليَّ فأنت أعلم، فقال صلى الله عليه وسلم: «أبايعك على أن تعبد الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتناصح المسلمين، وتفارق المشركين».

[النسائي: ٧/١٤٨].

وكان صلى اللّه عليه وسلم يتبرأ ممن أسلم ولم يهاجر ، فكان يقول : « برئت الذمة ممن أقام مع المشركين في بلادهم » . [« السلسلة الصحيحة » : ٧٦٨] .

وكان يقول : « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله » . [أبو داود : ٢٧٧٠] .

وعن جرير بن عبد اللّه قال : بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سرية إلى خثعم ، فاعتصم ناس منهم بالسجود ، فأسرع فيهم القتل ، قال : فبلغ ذلك النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فأمر لهم بنصف العقل ، وقال : « أنا بريء من كل مسلم يُقيم بين أظهر المشركين » . قالوا : يا رسول اللّه ، لِمَ ؟ قال : « لا تراءى ناراهما » . [أبو داود : ٢٦٢٨] .

قال ابن القيم ، رحمه اللّه : قال بعض أهل العلم : إنما أمر لهم بنصف العقل بعد علمه بإسلامهم ؛ لأنهم قد أعانوا على أنفسهم بمقامهم بين ظهراني الكفار ، فكانوا كمن هلك بجناية نفسه وجناية غيره ، وهذا حسنٌ جدًا ، والذي يظهر من معنى الحديث ؛ أن النار هي شعار القوم عند النزول وعلامتهم ، وهي تدعو إليهم ، والطارق يأنس بها ، فإذا ألمّ بها جاور أهلها وسالمهم ، فنار المشركين تدعو إلى الشيطان وإلى نار الآخرة ، فإنها إنما توقد في معصية اللّه ، ونار المؤمنين تدعو إلى اللّه وإلى طاعته وإعزاز دينه ، فكيف تتفق النار ان ، وهذا شأنهما ؟ وهذا من أفصح الكلام وأجزله ، المشتمل على المعنى الكثير الجليل بأوجز عبارة . اهـ . [« معالم السنن وتهذيبها » : ٣/٤٣٧ ، ٤٣٦] .

وفي هذه الآيات وعيدٌ شديد للقاعدين عن الهجرة مع القدرة عليها ، حيث وصفهم اللّه تعالى بأنهم : ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾ ، وأن ملائكة الموت توبخهم على ظلمهم هذا لأنفسهم وتسألهم سؤال توبيخ وتأنيب ، فتقول لهم عند الوفاة : ﴿ فيم كنتم ﴾ ؟ فلم يجدوا إلا الكذب : ﴿ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ﴾ ، ولم يكونوا كذلك ؛ لأن اللّه توعدهم واستثنى المستضعفين حقًا ، فلو كانوا صادقين في كونهم مستضعفين لعفا عنهم ، ولكنه قال : ﴿ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرًا ﴾ ، وذلك بعد رد الملائكة عليهم بقولهم : ﴿ ألم تكن أرض اللّه واسعة فتهاجروا فيها ﴾ ؟ فلم رضيتم بالذل والهوان واستسلمتم لتسلّط المشركين عليكم ، وأنتم قادرون على الهجرة إلى أرض العزة والكرامة ، التي تطمئنون فيها على أنفسكم ، وتأمنون على دينكم ؟

ومن الجدير بالذكر أن هذا الوعيد للمسلمين القاعدين عن الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام مع القدرة عليها لا يستلزم كفرهم ولا خلودهم في النار خلود الكافرين الأصليين ، فإن القول في أهل الكبائر من المسلمين ما قال الإمام الطحاوي ، رحمه اللّه : وأهل الكبائر من أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم في النار لا يخلدون ، إذا ماتوا وهم موحدون ، وإن لم يكونوا تائبين ، بعد أن لقوا اللّه عارفين ، وهم في مشيئته وحكمه ، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر عز وجل

في كتابه : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : ١١٦] ، وإن شاء عذبهم في النار بعدله ، ثم يخرجهم منها برحمته ، شفاعة الشافعين من أهل طاعته ، ثم يبعثهم إلى جنته . [« شرح الطحاوية » : ٤١٦، ٤١٧] .

ثم استثنى اللّه تعالى المستضعفين حقًا فقال : ﴿ إلا المستضعفين من الرجال ﴾ بعمًى ، أو عرج ، أو مرض ، أو تسلّط الكافرين ، ﴿ والنساء ﴾ وهن ضعيفات بأصل خلقتهن ، ﴿ والولدان ﴾ ، وهم أضعف ﴿ لا يستطيعون حيلة ﴾ يتمكنون بها من الهجرة ﴿ ولا يهتدون سبيلاً ﴾ إليها ، ولا يعرفون طريقًا لها ، ﴿ فأولئك عسى اللّه أن يعفو عنهم وكان اللّه عفوًا غفورًا ﴾ ، وهذا ترجي للمستضعفين مصحوب بتخويف للقادرين ، حيث إنه سبحانه لم يصرح بالعفو عن المستضعفين ، وإن كانت ﴿ عسى ﴾ من اللّه موجبة ، كما قيل من قبل . قال : ﴿ عسى اللّه أن يعفو عنهم ﴾ ليقول القادرون الخالدون إلى الأرض ، القاعدون عن الهجرة مع القدرة عليها : إذا كان المستضعفون : ﴿ عسى اللّه أن يعفو عنهم ﴾ ، فكيف بالقادرين ، فيخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، فيبادرون بالهجرة إلى أرض الإسلام ، ذلك هو حكم الهجرة إلى المدينة المنورة حين كانت هي وحدها أرض الإسلام ، وهذا الحكم باقٍ ما بقيت في المعمورة أرض كفر ، فإن الهجرة منها واجبة إلى أرض الإسلام على من أسلم من أهلها ، لقوله صلى اللّه عليه وسلم : « لا تنقطع الهجرة ما قُوتل الكفار » . [النسائي : ٧/١٤٦] ، وقوله صلى اللّه عليه وسلم : « لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها » . [أبو داود : ٢٤٦٢] ، ولا تعارض بين هذا الحديث والحديث الآخر المشهور : « لا هجرة بعد الفتح » . [متفق عليه] .

(فقد أفصح ابن عمر بالمراد فيما أخرجه الإسماعيلي بلفظ : انقطعت الهجرة بعد

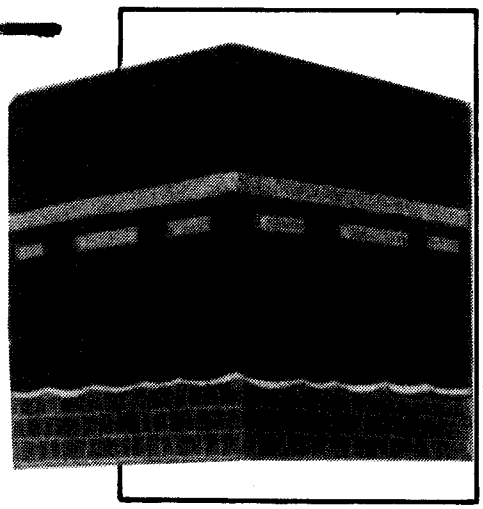

الفتح إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار ؛ أي مادام في الدنيا دار كفر ، فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشي أن يُفتن عن دينه ، ومفهومه أنه لو قدّر أن لا يبقى في الدنيا دار كفر أن الهجرة تنقطع لانقطاع موجبها . واللّه أعلم) . [« فتح الباري » : ٢٢٩، ٧/٢٣٠] .

وقال الإمام البغوي : قوله : « لا هجرة بعد الفتح » أراد به من مكة إلى المدينة ، وقوله : « لا تنقطع الهجرة » أراد بها هجرة من أسلم في دار الكفر ، عليه أن يُفارق تلك الدار ويخرج من بينهم إلى دار الإسلام ؛ لقول النبي صلى اللّه

عليه وسلم : « أنا بريء من كل مسلم مقيم بين أظهر المشركين لا تتراءى ناراهما » . اهـ . [« شرح السنة » : ١٠/٣٧٣] .

فإذا تبين ذلك فالعجب كل العجب من المسلم الذي يهاجر إلى دار الكفر لا ليدعوهم إلى الإسلام ، وإنما ليعمل عندهم ، ويأكل طعامهم ، ويشرب شرابهم ، وبالتالي يلبس لباسهم ، ويلتزم بأخلاقهم وآدابهم !! وتسرى عليه أحكامهم ، ويراهم على المعاصي مقيمين ، يتسافدون في الطريق كتسافد الحمير ، ولا ينطق ببنت شفة ، وأنى له ذلك ؟! فلا يزال يرى المنكر ولا يغيره حتى يألفه قلبه ويعرفه ، فلا يراه بعد ذلك منكرًا ، وتلك هي الطامة الكبرى ، وصدق اللّه العظيم إذ يقول : ﴿ وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات اللّه يُكفر بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره إنكم إذًا مثلهم ﴾ [النساء : ١٤٠] .

ولذلك رأى الإمام القرطبي الهجرة من أرض المعصية - لا من أرض الكفر - واجبة ، فقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾ : (وفي هذه الآية دليل على هجران الأرض التي يُعمل فيها بالمعاصي ، وقال سعيد بن جبير : إذا عُمل بالمعاصي في أرض فاخرج منها ، وتلا : ﴿ ألم تكن أرض اللّه واسعة فتهاجروا فيها ﴾ . اهـ . [« الجامع لأحكام القرآن » : ٣٤٦، ٥/٣٤٧]) .

فما أحوج هؤلاء المهاجرين إلى إعادة النظر في هجرتهم ومحاسبة أنفسهم ، فإن الموت يأتي بغتة : ﴿ وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غدًا وما تدري نفس بأي أرضٍ تموت إن اللّه عليمٌ خبيرٌ ﴾ [لقمان : ٣٤] ، وما أحوجهم إلى ترديد قول اللّه تعالى على أسماعهم : ﴿ تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند اللّه مغانم كثيرةٌ ﴾ [النساء : ٩٤] .

واللّه الموفق والهادي إلى الصواب ، لا ربّ غيره ، ولا إله سواه .

* * *

بناء المساجد والحث عليها

عن عبيد اللّه الخولاني ، أنه سمع عثمان بن عفان يقول ، عند قول الناس فيه ، حين بنى مسجد الرسول صلى اللّه عليه وسلم : إنكم أكثرتم ، وإني سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم يقول : « من بنى مسجدًا يبتغي به وجه اللّه بنى اللّه له مثله في الجنة » .

متفق عليه

أهوال يوم القيامة

بقلم الدكتور : عبد العظيم بدوي

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ [ق : ٢٠] .

جعل الله سبحانه وتعالى للساعة أمارات تدل على قربها ، فقال تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد : ١٨] ، ماذا ينتظر الناس ؟ ماذا ينتظر الكفرة الفجرة ؟ ماذا ينتظر العصاة الفسقة ؟ ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ ، أي فجأة ، ﴿ فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا ﴾ ؛ أي ظهرت علامات قربها ، فهلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ؟!

والناظر في النصوص التي تحدثت عن أشراط الساعة يجد أنه لم يبق منها إلا العلامات الكبرى ، التي هي كحبات الخرز ، إذا انفرطت واحدة منها انفرطت كلها ، حتى إذا كانت آخر علامة ، وهي أن يبعث الله ريحًا طيبة باردة تقبض روح كل عبد مؤمن ، حتى لو دخل أحدهم جحر ضب لتبعته هذه الريح حتى تقبضه ، ويبقى في الأرض شرار أهلها وعليهم تقوم الساعة ، كما قال النبي ﷺ : ((لا تقوم الساعة إلاَّ على شرار الناس)) . [أخرجه مسلم] .

يبقى شرار الخلق ، لا يعرفون معروفًا ، ولا ينكرون منكرًا ، فيمتثل لهم الشيطان فيقول : ألا تسمعون ؟ فيقولون : ما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الطواغيت والأصنام فيستجيبون له ، فبينا هم كذلك ، إذ أذن الله لإسرافيل بالنفخ في الصور ، وهو خلق عظيم ، مثل البوق ، وقد جاء ذكره في القرآن مرات ؛ منها هذه الآية : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ ، ومنها : ﴿ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ [الأنعام : ٧٣] ، ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] ، ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللّهُ ﴾ [النمل : ٨٧] ، ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] .

وقد بين النبي ﷺ أن إسرافيل قد استعد للنفخ ، فهو ينتظر الإذن . قال ﷺ : ((كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، واستمع الإذن ، متى يؤمر بالنفخ فينفخ)) ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال لهم : ((قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل)) .

□ الناظر في النصوص التي تحدثت عن أشراط الساعة يجد أنه لم يبق منها إلا العلامات الكبرى ، التي هي كحبات الخرز ، إذا انفرطت واحدة منها انفرطت كلها ، حتى إذا كانت آخر علامة ، وهي أن يبعث الله ريحًا طيبة باردة تقبض روح كل عبد مؤمن ، حتى لو دخل أحدهم جحر ضب لتبعته هذه الريح حتى تقبضه ، ويبقى في الأرض شرار أهلها وعليهم تقوم الساعة !!

ومعلوم عند الرياضيين وغيرهم أنه ليس بين الاستعداد وبين التنفيذ طويل وقت ، ما إن يقال : استعد ، حتى يصدر الأمر بالعمل ؛ أي أنه : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾ [النجم : ٥٧] ، و﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ [القمر : ١] ، و﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾ [النحل : ١] ، ولذلك قال ﷺ : ((كيف أنعم)) ؛ أي كيف يطيب لي عيش وقد اقتربت الساعة ! والنفخ مرتان : نفخة الإماتة ، ونفخة الإحياء . فأما النفخة الأولى فيحدث بها تغير عجيب في السماوات والأرض ، قال ﷺ : ((من سره أن يرى القيامة رأي العين ، فليقرأ : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ، و﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ ، و﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾)) . فإذا نفخ في الصور النفخة الأولى انفطرت السماء ، وتناثرت النجوم ، وسيرت الجبال ، ونزلت الوحوش من الغابات ، وظهرت الجن ، وماجوا جميعًا بعضهم في بعض ، فقالت الجن للإنس : نحن نأتيكم بالخبر ، فتفرقوا يمينًا وشمالاً ، فإذا الملائكة على أطراف السماء تدفعهم وتردهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۞ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۞ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۞ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ [الحاقة : ١٣- ١٧] ، يدفعون الشارد ويردون الهارب ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۞ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۞ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۞ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ [القيامة : ٧- ١٠] ، أين المفر والإله الطالب ؟ ﴿ كَلاَّ لاَ وَزَرَ ۞ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة : ١١، ١٢] ، ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ [المزمل : ١٧] ، من هوله ، من مخاوفه ، من الأهوال التي تصحبه ، يومئذ : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ﴾ [الحج : ٢] ، أليس من المعلوم أن الحامل إذا روعت وضعت ، فبالله عليكم ماذا تصنع هذه المسكينة حين ترى السماء انفطرت ، والكواكب انتثرت ، والبحار سجرت ؛ أي أوقدت نارًا تأجج ، هل يمسك رحمها حملاً مع هذه الأهوال ؟!

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ۞ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ [إبراهيم : ٤٢، ٤٣] ؛ أي رافعي رءوسهم ينظرون إلى الأعلى : ﴿ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ [إبراهيم : ٤٣] ، لا يغمض أحد عينًا ، يخاف إن أغمض عينه لحظة أن ينزل به العذاب : ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم : ٤٣] ، خلت محال القلوب منها ، فأين ذهبت قلوبهم ؟! ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ [غافر: ١٨] .

ينفخ إسرافيل هذه النفخة وقد بسط الرجلان الثوب بينهما يتبايعانه فلا يتبايعانه ، وقد رفع الرجل الكأس إلى فيه ليشرب فلا يبل الكأس فاه ، وتحدث هذه الأهوال التي أحدثت هذا الانقلاب في نظام الكون ، وتطول هذه النفخة

حتى يخر الناس جميعًا ميتين موتة رجل واحد : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦، ٢٧] ، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] ، ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الزمر : ٦٨] ، قال العلماء : هذا الاستثناء راجع إلى نفر من الملائكة ، منهم جبريل وميكائيل وإسرافيل ، وملك الموت الذي يسميه العوام عزرائيل ، وليس لهذه التسمية أي أثارة من علم ، لا يموت هؤلاء بالنفخة ، ولكنهم يموتون بعد ذلك : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ ، وينادي الرب سبحانه : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ ، وليس هناك أحد يجيب ، فيقول تعالى : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ، يقول النبي ﷺ : ((يطوي الله عز وجل السماوات بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يأخذ الأرض بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟)) . [رواه مسلم] .

ثم يمهل الله عباده أربعين ، لا ندري أربعين سنة ، أم شهرًا ، أم يومًا ، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال : ((ما بين النفختين أربعون)) . قالوا : يا أبا هريرة ، أربعون سنة ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون شهرًا ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون يومًا ؟ قال : أبيت ، ثم ينزل من السماء ماء ، فينبتون كما ينبت البقل ، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى ، إلا عظم واحد ، وهو عجب الذنب ، منه يركب الخلق ، يوم القيامة .[متفق عليه] .

إذا مات الإنسان تحلل جسده وصار ترابًا ، وتفرقت ذراته ، إلا الأنبياء ، كما قال ﷺ : ((إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء)) . [صحيح أبي داود : (٩٢٥)] .

ولا يبقى من الإنسان إلا عجب الذنب ، وهو عظم الصلب المستدير ، الذي يكون في أصل العجز ، وأصل الذنب ، منه خلقت يا ابن آدم ، ومنه يركب جسمك يوم القيامة ، فهو كالبذرة ، إذا نزل الماء من السماء ، أخذت هذه البذور في النمو ، كبذرة القمح والشعير ونحوهما ، فتكبر وتكبر حتى تكون أجسادًا كاملة تحت الأرض كساعة أن دفنت ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ [نوح : ١٧، ١٨] ، وسبق في مطلع السورة قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۞ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۞ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق : ٩- ١١] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الزخرف : ١١] .

فإذا تكاملت الأجساد تحت الأرض ، وأراد الله أن تخرج هذه الأجساد من الأرض ، أحيا إسرافيل ، وأمره أن ينفخ النفخة الثانية ، نفخة الإحياء ، فتطاير الأرواح ، فتدخل كل روح جسدها ، لا تخطئ روح جسدها ، فلا يروعهم إلا انشقاق الأرض عنهم ، فإذا هم على ظهرها بعدما كانوا في بطنها ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ۞ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ [الانشقاق : ٣- ٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۞ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة : ١، ٢] ، قال النبي ﷺ : ((أنا أول من تنشق عنه الأرض)) . [الترمذي] .

كيف يخرج الناس من قبورهم ؟ صور الله لنا هذا المشهد تصويرًا رائعًا فقال : ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۞ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۞ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج : ٤٢- ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۞ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۞ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۞ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق : ٤١- ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ ۞ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۞ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : ٦- ٨] ، فإذا خرج الناس من قبورهم تلقت الملائكة الصالحين ومعهم ركائب من الجنة ، فقدمتها لهم ليركبوها ، وهذا هو قول الله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ [مريم : ٨٥] ؛ أي ركبانًا ، كما تتلقاهم بالبشرى : ﴿ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا ﴾ - أي عن النار - ﴿ مُبْعَدُونَ ۞ لاَ

يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۞ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠١- ١٠٣] . هذا حال السعداء حين يخرجون من قبورهم ، نسأل الله أن يجعلنا منهم بفضله وكرمه ، أما الأشقياء فقد قال تعالى : ﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم : ٨٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء : ٩٧] . قيل : يا رسول الله ، كيف يحشرون على وجوههم ؟ فقال : ((أليس الذي أمشاهم على أرجلهم في الدنيا بقادر على أن يمشيهم على وجوههم في الآخرة)) . [متفق عليه] .

وهكذا يصلون جميعًا إلى أرض المحشر ، ويقفون في صعيد واحد ، حفاة ، عراة ، غرلاً ، قالت عائشة ، رضي الله عنها : يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى سوأة بعض ؟ فقال : ((يا عائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾)) . [متفق عليه ، دون الآية ، فهي زيادة للنسائي] .

أحيانًا ونحن في الدنيا يلقى الواحد منا أخاه في الطريق فيسلم عليه ، فلا يرد عليه السلام ، فإذا اجتمعا بعد ذلك وعاتبه ، اعتذر بأنه لم يره ، فيقول له : كان وجهي في وجهك ، وعيني في عينك ! فيقسم بالله أنه لم يره ، وهو صادق ؛ لأنه كان مشغول الفكر ، كان يمشي وهو يفكر في أمر ما ، فشغله التفكير فيه عن رؤية ما أمامه ، فإذا كان هذا يحدث في الدنيا ، وهمومها لا تساوي جناح بعوضة من هَم اليوم الآخر ، فلا بأس أن يكون الرجال والنساء في اليوم الآخر عراة ؛ لأنه لن يتمكن أحد أن ينظر ما أمامه ، بل لن يتمكن أن يشعر بمن في جواره ، لما نزل به من الهم الذي ملأ كيانه : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٧] .

تقفون يا عباد الله في صعيد واحد ، حفاة ، عراة ، غرلاً ، وتدنو الشمس من رءوسكم ، حتى لا يكون بينها وبينكم إلا ميل ، قال الراوي : لا أدري : ميل المسافة ، أم ميل المكحلة . [مسلم] .

ترى كم ستكون درجة الحرارة يومئذ ! وليس هذا فحسب ، بل : ((يؤتى يومئذ بجهنم ، لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)) . [مسلم] .

فالله المستعان على هذا اليوم ، وعلى أيامنا كلها ، زحام شديد ، حتى على القدم ألف قدم ، الشمس فوق الرءوس ، جهنم قريبة ، حتى يذهب العرق في الأرض سبعين ذراعًا ، حتى يتمنى بعض الناس الخروج من هذا الموقف ولو إلى النار ! يظنون أن النار لن تكون مثل ما هم فيه ، فاللهم سلم سلم .

يخرج الناس من قبورهم أشد ما يكونون جوعًا وظمأ ، فيغيث الله المؤمنين ، فيطعمهم ويسقيهم وهم في أرض الموقف ، أما الطعام فقد قال ﷺ : ((تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة ، يتكفؤها الجبار بيده ، كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر ، نزلاً لأهل الجنة)) . [متفق عليه] .

وأما الشراب فمن حوض النبي ﷺ ، وهو حوض أكرم الله به نبيه غياثًا لأمته ، قال ﷺ : ((حوضي مثل ما بين عدن إلى عمان البلقاء ، ماؤه أشد بياضًا من الثلج ، وأحلى من العسل ، وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا)) . [حسن : الترمذي] .

وقال ﷺ : ((أنا فرطكم على الحوض)) ، والفرط الذي يتقدم القوم ليصلح لهم الحوض . ((وليرفعن إليَّ رجال منكم ، حتى إذا أهويت إليهم لأناولهم اختلجوا دوني ، فأقول : أي رب أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)) . [متفق عليه] .

فيا عبد الله إذا أردت أن تشرب من هذا الحوض شربة هنيئة مريئة ، لا تظمأ بعدها أبدًا ، فلا تحدثن في دين الله شيئًا ، ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة)) . [صحيح أبي داود : (٣٨٥١)] .

وكيف يعرف رسول الله ﷺ أمته بين الأمم ، قال ﷺ : ((لكم سيما ليست لأحد غيركم ، تردون غرًا محجلين من آثار الوضوء)) . [مسلم] .

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى ، وصفاتك العلى ، أن نرد حوض نبينا ﷺ ، وأن نشرب منه شربة هنيئة مريئة لا نظمأ بعدها أبدًا .

باب التفسير

الحساب والجزاء

بقلم الدكتور / عبد العظيم بدوي

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۞ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۞ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ۞ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۞ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۞ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۞ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۞ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۞ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۞ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۞ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۞ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۞ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۞ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۞ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۞ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾

[ق : ١٩ - ٣٥] .

لنتخيل أنفسنا الآن في أرض الموقف ، وفي أرض المحشر ، وهي أرض الشام ، بيت المقدس وما حوله ، كما قال النبي ﷺ : ((الشام أرض المحشر والمنشر)) . [((صحيح الجامع)) : (٣٦٢٠)] .

لنتخيل أنفسنا الآن في هذه الساحة المنبسطة الواسعة : ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٧] ، ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] ، الشمس فوق الرءوس دانية ، وجهنم من الموقف قريبة ، وقد اشتد الزحام ، حتى علا القدم ألف قدم ، وقد أهمل الله الخلق في هذا الموقف حتى ماج بعضهم في بعض : ((ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم عند ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : ائتوا آدم ، فيأتون آدم ، فيقولون : يا آدم ، أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة .عصيته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحًا فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبدًا شكورًا ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة

دعوت بها على قومي ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ ، فيأتون إبراهيم ، فيقولون : أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى ﷺ فيقولون : يا موسى ، أنت رسول الله ، فضلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى ﷺ : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى عيسى ﷺ ، فيأتون عيسى ، فيقولون : يا عيسى ، أنت رسول الله ، وكلمت الناس في المهد ، وكلمة منه ألقاها إلى مريم وروح منه ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى ﷺ : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر له ذنبًا ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمد ﷺ)) . قال ﷺ : ((فيأتوني فيقولون : يا محمد ، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق فآتي تحت العرش ، فأقع ساجدًا لربي ، ثم يفتح الله عليّ ، ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحد قبلي ، ثم يقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : يا رب أمتي ، أمتي ، فيقال : يا محمد ، أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب)) . متفق عليه .

ثم يجيء الرب عز وجل لفصل القضاء ، كما قال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۞ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢١، ٢٢] ، ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۞ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر : ٦٨، ٦٩] ، حين جاء لفصل القضاء : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ كتاب الأعمال : ﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٦٩] ، وتقوم الملائكة بين يدي الرب عز وجل فينادي مناديهم : أين فلان ابن فلان ؟ ليقم للعرض على الملك الديان .

الإنسان - هنا - حين يدخل محاكم الدنيا ، عندما ينادي الحاجب عليه ، ترتعد فرائصه ويخاف ، حتى ولو كان مجرد شاهد في القضية ! الطلاب إذا قاموا ينتظرون دورهم في الامتحان الشفوي ، إذا نودي على الواحد منهم ترتعد فرائصه ويخاف ! فتخيل نفسك يا عبد الله وأنت في أرض الموقف تنتظر دورك في المحاكمة التي ليس فيها حكم إلا الخلود في الجنة أو في النار ، تخيل نفسك والناس قد تقدموك وأنت تنتظر ، وإذا بالمنادي ينادي : أين فلان ابن فلان ؟ فتقوم ترتعد فرائصك ، ويرجف فؤادك ، فيتلقاك ملكان : ﴿ سَائِقٌ ﴾ يسوقك ، ﴿ وشَهِيدٌ ﴾ على أعمالك ، وإذا بهما يقولان لك وأنت في طريقك إلى الملك الجبار : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ، حتى إذا دنوت من رب العزة تقدم أحدهما قائلاً : ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ ، هذا الذي وكلتني بحفظ أعماله ، قد أحضرته للحساب ، فهو جاهز ومستعد ، فأما المؤمن فإن النبي ﷺ يقول : ((يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل ، حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه ، فيقول : هل تعرف ؟ فيقول : أي رب أعرف ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وإني أغفرها لك اليوم ، فيعطى صحيفة حسناته)) . متفق عليه .

وأما الكافر ؛ فعن أنس قال : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : ((هل تدرون مما أضحك ؟)) قال : قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : ((من مخاطبة العبد ربه ، يقول : يا رب ، ألم تجرني من الظلم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهدًا مني ، قال : فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا ، وبالكرام الكاتبين شهودًا ، قال : فيختم على فيه ، فيقال لأركانه : انطقي . قال : فتنطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، قال : فيقول : بعدًا لكنّ وسحقًا ، فعنكن كنت أناضل)) . رواه مسلم .

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاء اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۞ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ

عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۞ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۞ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [فصلت : ١٩- ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس : ٦٥] .

ولم تذكر الآيات الكريمة هنا هذا التفصيل ، وإنما اختصر السياق هذا كله ، وأورد النطق بالحكم : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ ليعلم الناس أن الله سريع الحساب ، فما أن يقوم الكافر بين يدي الله حتى يقول تعالى لملائكته : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ .

قال العلماء : هذا بمثابة المحكوم عليه ، الهارب من الحكم ، فإذا جيء به قيل : ألقوه في السجن ، نفذوا فيه الحكم ، وهذه الآيات كقوله تعالى في سورة ((الحاقة)) : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة : ٣٠- ٣٢] ، وما أن يقول الجبار سبحانه : ﴿ خذوه ﴾ ، حتى يتبادر إليه سبعون ألف ملك ، كلهم يريد أن يفله ، نسأل الله السلامة والعافية .

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۞ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۞ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ . هذه صفات أهل النار :

١- كثرة الكفر : الكفر كفران : كفر الجحود ، وكفر النعمة ، والكافر بالله كافر بملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالقدر ، وكافر بنعم الله عليه التي لا تعد ولا تحصى .

٢- العناد : فكفر الكافر لم يكن لعدم دلائل الإيمان ، فدلائل الإيمان كثيرة ، كما قال القائل :

فواعجبًا كيف يُعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

ولكنه العناد والظلم ، والبغي ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] ، وكما قال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ [الإسراء : ١٠٢] ، وكما صرح آل فرعون لموسى : ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٣٢] ، فكان كفرهم عناد بعد إذ جاءهم الهدى .

٣- منع الخير : عن أنفسهم وعن غيرهم ، أي خير حصل من فاته الإيمان ؟! إن الإيمان أعظم خير يحصل للإنسان ، وأكبر نعمة تصيبه ، فمن رفض الإيمان فقد منع عن نفسه الخير كله ، ومن منع الخير عن نفسه فهل يصل منه خير إلى غيره ؟ كيف وفاقد الشيء لا يعطيه ؟

٤- الاعتداء على عباد الله : فلم يكفه أن منع الخير عنهم ، حتى وصل لهم الشر والأذى ، فحرمهم خيره ، ووصل إليهم شره ، فاعتدى عليهم في أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، فشتم هذا ، وقذف هذا ، وضرب هذا ، وسفك دم هذا ، وأكل مال هذا .

٥- الشك : فهو في شك مما جاءت به الرسل ، في شك من الإيمان ، في شك من الإسلام : ﴿ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة : ٤٥] .

٦- الشرك : ﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ﴾ ، ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۞ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٩١، ١٩٢] ، ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [النساء : ١٧١] خلق وحده ، ورزق وحده ، ويجلب النفع وحده ، ويكشف السوء وحده ، فوجب أن يُعبد وحده : ﴿ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] ، فاستحقوا العذاب بما كانوا يكفرون : ﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ . قال رسول الله ﷺ : ((يخرج عنق من النار يوم القيامة ، له عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق ، يقول : إني وكلت اليوم بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبمن جعل مع الله إلهًا آخر ، وبالمصورين)) . حسن ، رواه الترمذي .

ولما صدر الحكم من الله على من هذه صفته : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ إلخ ، ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ ما أطغيته ، ولا حملته على المعاصي ، ولكن كان هو في ضلال بعيد ، فلا تؤاخذني بجريرته : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم

بِالْوَعِيدِ ﴾ جاءتكم رسلي ، وأنزلت إليكم كتبي ، وأريتكم آياتي ، فلا حجة لكم ولا عذر ، فـ ﴿ لاَ تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۞ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ۞ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ ، لقد وعد الله النار أن يملأها من الجنة والناس أجمعين ، فكلما سيق وفد إلى النار قيل لها : ﴿ هَلِ امْتَلأْتِ ﴾ ؟ وتقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ .

عن أنس ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوي بعضها إلى بعض ، وتقول : قط قط وعزتك وكرمك)) . متفق عليه .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ؛ أي أدنيت وقربت منهم ، وهذا وعد : ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ تحقيقه : ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۞ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ .

هذه صفات أهل الجنة :

١- أواب : أي كثير الرجوع إلى الله ، كلما أحدث ذنبًا أحدث له توبة .

٢- حفيظ : صيغة مبالغة من الحفظ ، فهو حافظ لأوامر الله ، لا يترك منها أمرًا ، وحافظ لنواهيه ، لا يرتكب منها نهيًا ، وحافظ لحدوده ، فلا يتعداها أبدًا .

٣- من خشي الرحمن بالغيب : خشية الله بالسر ، حيث لا يراك أحد من العباد ، فتترك الحرام مع تمكنك منه لخوفك من الله ، من كان مع يوسف عليه السلام حين : ﴿ .. رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : ٢٣] ؟ ما الذي حمله على أن : ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : ٢٣] ؟ إنها خشية الله ، وهذه درجة الإحسان ، كما قال ﷺ فيها : ((أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) . أخرجه مسلم .

ولذا : كتب بعض الصالحين رسالة لأخ له ، قال فيها : زهدني الله وإياك في الحرام زهد من قدر عليه في الخلوة ، فعلم أن الله يراه ، فتركه من خشية الله[1] .

وهذه الخشية توجب لصاحبها أن يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، كما قال ﷺ : ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه)) . متفق عليه .

٤- وجاء بقلب منيب : سليم من الشرك ، من الكفر ، من الحقد ، من الحسد ، من البغضاء ، من الشحناء : ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ ، هذا ما يقال لمن هذه صفته يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣] .

عن أبي سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح ، فينادي منادٍ : يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، ثم ينادي : يا أهل النار ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رآه ، فيذبح ، ثم يقول : يا أهل الجنة ، خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت)) . ثم قرأ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : ٣٩] . وأشار بيده إلى الدنيا . متفق عليه .

﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ هكذا على وجه الإجمال ، فكل ما اشتهته أنفسهم فهو موجود ، وما هي إلا كلمة : ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ﴾ ، حتى يأتيهم ما يشاءون ، ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ ، وهو أن يكشف الحجاب ، فينظرون إلى الكريم سبحانه .

عن صهيب عن النبي ﷺ قال : ((إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئًا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)) ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ . رواه مسلم .

اللهم ارزقنا خشيتك في السر والعلانية ، ومتعنا اللهم بالنظر إلى وجهك الكريم . آمين .

---

(١) ((جامع العلوم والحكم)) (١٤٠) .

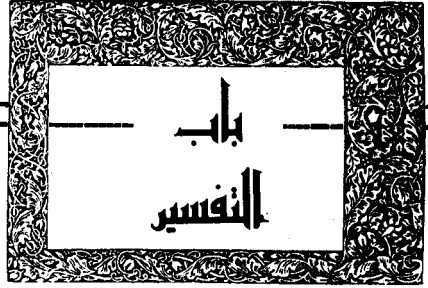

بقلم الدكتور / عبد العظيم بدوى

شروط الانتفاع بالقرآن

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ [ق : ٣٦ - ٤٠] .

يقول تعالى لمشركي العرب : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ ؛ أي كانوا أشد منكم قوة ، وأكثر أموالاً وأولادًا ، فلما كفروا لم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من شيء لما جاء أمر ربك ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ٦- ١٤] لكل ظالم وكل طاغية ، وإن أمهلهم فلن يهملهم : ((إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)) . متفق عليه .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] ، ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر : ٢] ، ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : ٤٣- ٤٦] .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ . قال العلماء : ذكر الله سبحانه في هذه الآية شروط الانتفاع بالقرآن والتأثر به . وقالوا : تمام التأثير متوقف على وجود : المؤثر ، والمحل القابل ، وشرط لحصول الأثر ، وانتفاء المانع .

فمثلاً : هذه الكهرباء السارية في هذه الأسلاك إذا أردنا الحصول على أثرها وهو الضوء . فلابد من توفر هذه الأمور الأربعة :

الأول : لا بد من وجود المؤثر ؛ وهو التيار الكهربائي ، فإذا كان التيار غير موجود لا يمكن أن يحصل الأثر .

الثاني : لا بد من وجود المحل القابل للأثر ؛ وهو المصباح السليم الصالح .

الثالث : لا بد من وجود شرط حصول

الأثر ؛ وهو أن تضغط على الزر المخصص لهذا الأمر .

الرابع : لا بد من انتفاء الموانع التي يمنع وجودها من الحصول على الأثر ؛ كوجود خلل في الأسلاك ونحو هذا .

فإذا وجد المؤثر وهو التيار ، والمحل القابل وهو المصباح الصالح ، ووجد الشرط وهو الضغط على الزر ، وانتفت الموانع من قطع الأسلاك وغيرها ، حصل الأثر المطلوب وهو الضوء .

كذلك القرآن الكريم يؤثر في القلوب ، ويزيدها إيمانًا ، ويذهب بقساوتها ، ويشفيها من أمراضها ، ولكن لابد لحصول هذا الأثر من توفر هذه الأمور الأربعة السابقة .

فإذا أردت الانتفاع بالقرآن فلا بد من تلاوته أو الاستماع إليه ، وهذا هو المؤثر .

وأما المحل القابل فهو القلب الحي السليم ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ۞ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس : ٧٠] ، فالقلب الميت المريض لا ينتفع بالقرآن .

وأما شرط الانتفاع فهو : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ ، فلا بد من الاستماع والإنصات ، ولا بد من تفرغ القلب عن الشواغل ، فالشواغل موانع تمنع من الانتفاع وإن حصل استماع ، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن ، والمحل القابل وهو القلب الحي ، ووجد الشرط وهو الإصغاء ، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر ، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكرة .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ ، خلق السماوات والأرض آية من آيات إمكان البعث - كما سبق - : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ تكذيب لليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة - حيث زعموا أن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ، ثم استراح في اليوم السابع ! ولذا اتخذوا يوم السبت عطلة ، لعنهم الله .

قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ ، واستعن على الصبر بذكر الله : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ ؛ والمراد صلاة الصبح وأذكار الصباح ، وصلاة العصر وأذكار المساء .

عن جرير بن عبد الله قال : كنا جلوسًا عند النبي ﷺ ، فنظر إلى القمر ليلة البدر ، فقال : ((أما إنكم ستعرضون على ربكم ، فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا)) . ثم قرأ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ . متفق عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ ؛ أي وسبح بحمد ربك أدبار السجود ؛ أي عقب الصلوات المفروضة ، ولقد استجاب ﷺ لأمر ربه ، وقام به خير قيام ، فكان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، وكان إذا انصرف من الصلاة : استغفر ثلاثًا ، وقال : ((اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام ، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ، رب قني عذابك يوم تبعث عبادك ، لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)) .

وقال ﷺ لمعاذ بن جبل ، رضي الله عنه : ((والله إني لأحبك ، فلا تدعن دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)) . وجاءه فقراء المهاجرين ، فقالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، فقال ﷺ : ((وما ذاك ؟)) قالوا : يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق ، فقال ﷺ : ((أفلا أعلمكم شيئًا إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين)) . فقالوا : يا رسول الله ، سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال ﷺ : ((ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)) . اللهم تفضل علينا في الدنيا بالهداية لطاعتك ، وفي الآخرة بالدخول في رحمتك يا أرحم الراحمين .

الحلقة الأولى
سورة

بقلم الدكتور / عبد العظيم بدوى

﴿ والذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۞ فَالْحَامِلاَتِ وِقْرًا ۞ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۞ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۞ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۞ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۞ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۞ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۞ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۞ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۞ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۞ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۞ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الذاريات : ١- ١٤] .

سورة « الذاريات » سورة مكية ، شأنها شأن السور المكية في بيان أصول الدين ، وترسيخ قواعد الإيمان ، بيَّن الله تعالى في هذه السورة الغاية من خَلْق الخلق ، فقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وذكر دلائل استحقاق العبادة دون غيره ، فقال : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٠، ٢١] ، ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۞ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ۞ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧- ٤٩] ، وذكر جزاء من قام بعبادته وجزاء من استنكف واستكبر عنها ، فقال عن الثاني : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۞ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الذاريات : ١٣، ١٤] ، وقال عن الأول : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ [الذاريات : ١٥، ١٦] ، وهذا وَعْدٌ وَعَدَهم الله إياه ، وأقسم على صدقه ووقوعه : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۞ فَالْحَامِلاَتِ وِقْرًا ۞ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۞ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۞ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۞ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ .

ولما كان الرزق من أكبر الشواغل عن العبادة عند الكثيرين ، قال تعالى عقب قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ قال : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦، ٥٧] ، ثم أقسم في أثناء السورة أن الرزق حقّ ، فقال : ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢، ٢٣] .

وتسلية للرسول ﷺ ، وإنذارًا لمن كفر به ، ذكر الله تعالى قصص بعض النبيين : إبراهيم ، وموسى ، وهود ، وصالح ، ونوح ، ليَصْبر النبي ﷺ كما صبر إخوانه ، وليذكر أولو الألباب من المشركين ، فيرجعوا عن تكذيب نبيهم ؛ خشية أن يصيبهم ما أصاب هؤلاء

الذاريات

الأقوام من قبلهم ، وإلا : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۞ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : ٥٩] .

تفسير الآيات :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۞ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۞ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۞ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ : الذاريات هي الرياح ، تذرو التراب والرمال وتثيرهما وتحركهما ، كما قال تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف : ٤٥] ، ﴿ والحاملات وقرًا ﴾ : السحب المثقلة بالماء ، ﴿ والجاريات ﴾ : جمع جارية ، وهي السفينة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة : ١١] ، والمراد سفينة نوح عليه السلام ، ﴿ فالجاريات يسرًا ﴾ : السفن تجري في البحار بيسر وسهولة ، بلطف الله ورحمته ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۞ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى : ٣٢، ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۞ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ۞ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۞ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يس : ٤١- ٤٤] .

﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ الملائكة تدبر الأمور وتقسمها بأمر الله ، لا من عند أنفسها ، فالله هو الذي يدبر الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ [يونس : ٣] ، وكما قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٢٦، ٢٧] ، ولما قال المشركون : اتخذ الله ولدًا ، يعنون الملائكة ، نزه الله نفسه عن اتخاذ الولد ، وبين حقيقة الملائكة ، فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ۞ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ

نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦- ٢٩] .

فالله سبحانه هو الذي يدبر الأمر ، وبيده ملكوت كل شيء ، ولكنه سبحانه قد وكل بالمخلوقات كلها ملائكة تدبر أمرها بإذن الله ، فوكل بالسحاب ملائكة ، ووكل بالمطر ملائكة ، ووكل بالجبال ملائكة ، ووكل بالأرحام ملائكة تتولى أمر النطفة من حين تستقر في الرحم ، حتى تخرج منه بشرًا سويًا .

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۞ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ : هذا هو المقسم عليه ، وخبر الله حق ، ووعده صدق ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ [النساء : ١٢٢] ، ولكن علم سبحانه أن من عباده عبادًا ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [البقرة : ١١] الشك والريب والتكذيب ، فأكد الخبر بهذه الأيمان التي لا تدع مجالاً للشك والتكذيب : ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ إنما توعدون من البعث بعد الموت ، ومن الحساب والجزاء ، والجنة والنار ، وغير ذلك مما وعدكم الله به ، فهو وعد صادق ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم : ٦] ، ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ : الدين الحساب والجزاء ، قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ١- ٣] ؛ أي مالك يوم الحساب والجزاء ، والمتصرف فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۞ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۞ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار : ١٧- ١٩] .

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ هذا قسم خامس من الرب سبحانه ، ومعناه : والسماء ذات

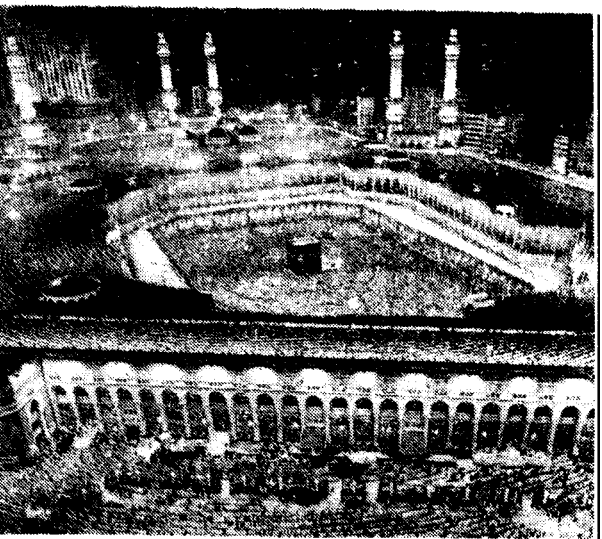

الحُسْن والبهاء والجمال ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾ [الحجر : ١٦] ، ويدخل في المعنى أيضًا : والسماء ذات البناء الدقيق المتين ،كما قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ٣، ٤] .

﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۞ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ هذا هو جواب القسم ، إنكم أيها الكافرون ﴿ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ بالنسبة لرسول الله ، والقرآن الذي أوحي إليه ، لم تتفقوا على قول واحد تقولوا فيه ، فتارة تقولون : ساحر ، وتارة تقولون : شاعر ، كاهن ، مجنون ، وهذا حال المضطرب الحيران ، وهكذا حال كل من كذب بالحق ، كما قال تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق : ٥] ، فمثلهم : ﴿ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي

الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ﴾ [الأنعام : ٧١] .

ولقد كانوا يريدون بقولهم هذا المختلف في رسول الله ﷺ وفي القرآن أن يصرفوا الناس عنه ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۞ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ أي يُصرفُ عن الإيمان بأقوالكم هذه الباطلة مَنْ سبقت له الشقاوة ، ولم يرد الله أن يشرحَ صدره للإسلام ، كما قال تعالى : ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ۞ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصافات : ١٦٢، ١٦٣] .

ثم دعا الله عليهم ، ودعاءُ الله حكم مبرم ، وقضاء نافذ ، فقال : ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴾ الكذّابون الأفاكون المتقولون ، ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ ؛ أي في غفلة كبيرة ، علتهم حتى غمرتهم ، فكانوا فيها كالمغمور بالماء ، فهم لا ينتبهون أبدًا من هذه الغفلة ، ومن غفلتهم : ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ، وهذا سؤال الغافل طويل الأمل ، وهو سؤال استنكار ، واستبعاد ليوم الدين ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۞ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ [القيامة : ٥، ٦] ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ يعذبون ويحرقون ، ويقال لهم تقريعًا وتأنيبًا وتوبيخًا : ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ، لقد بلغ بالمشركين التكذيب بالعذاب مبلغًا ، حتى إنهم من شدة تكذيبهم به استعجلوه : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [ص : ١٦] ، قال تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ۞ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٩، ٤٠] ؛ لو يعلمون هذا ما ﴿.. قَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ ، فإذا كان يوم القيامة تراهم ﴿ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور : ٣] ، وتقول لهم الملائكة : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ۞ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاء عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٣- ١٦] ، ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .

اللهم تفضل علينا في الدنيا بالهداية لطاعتك ، وفي الآخرة بالدخول في رحمتك يا أرحم الراحمين .

التوسط في القراءة في الصلاة الجهرية بين الجهر والإسرار إذا خاف من الجهر مفسدة

حديث ابن عباس ، رضي الله عنهما : ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ - قال : أنزلت ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة ، فكان إذا رفع صوته سمع المشركون ، فسبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ؛ فقال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا ﴾ - لا تجهر بصلاتك حتى يسمع المشركون ، ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم - ﴿ وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾ - أسمعهم ولا تجهر حتى يأخذوا عنك القرآن . متفق عليه

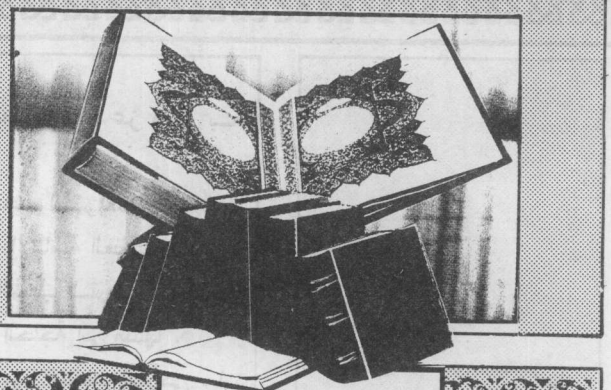

باب التفسير

سورة الذاريات

الحلقة الثانية

بقلم الدكتور:

عبد العظيم بدوي

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۞ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۞ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۞ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ۞ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۞ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : ١٥ - ٢٣] .

لما ذكر الله تعالى مآل المكذبين بيوم الدين ، ذكر مآل المؤمنين المتقين ، على طريقة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد ، وبيّن الترغيب والترهيب ، فقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ ؛ والمتقون هم كل من اتقى الشرك والكفر وجميع ما حرم الله ، وهؤلاء يوم القيامة : ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ من النعيم والسرور : ﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ [النبأ : ٣٦] ، بسبب : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ ﴾ في الدار الدنيا ﴿ مُحْسِنِينَ ﴾ ، و﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] ، ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس : ٢٦] .

ثم فسّر إحسانهم فقال : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ . قال الحسن البصري : كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله ، ونشطوا فمدّوا إلى السحر ، حتى كان الاستغفار بسحر . وقال رحمه الله : كان الأحنف بن قيس يقول : عَرَضْتُ عملي على عمل أهل الجنة ، فإذا قومٌ قد باينونا بونًا بعيدًا ، إذا قومٌ لا نبلغ أعمالهم ، ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ، وعَرَضْتُ عملي على عمل أهل النار ، فإذا قومٌ لا خير فيهم ، مكذّبون بكتاب الله وبرسل الله ، مكذّبون بالبعث بعد الموت ، فقد وجدت مِنْ خيرنا

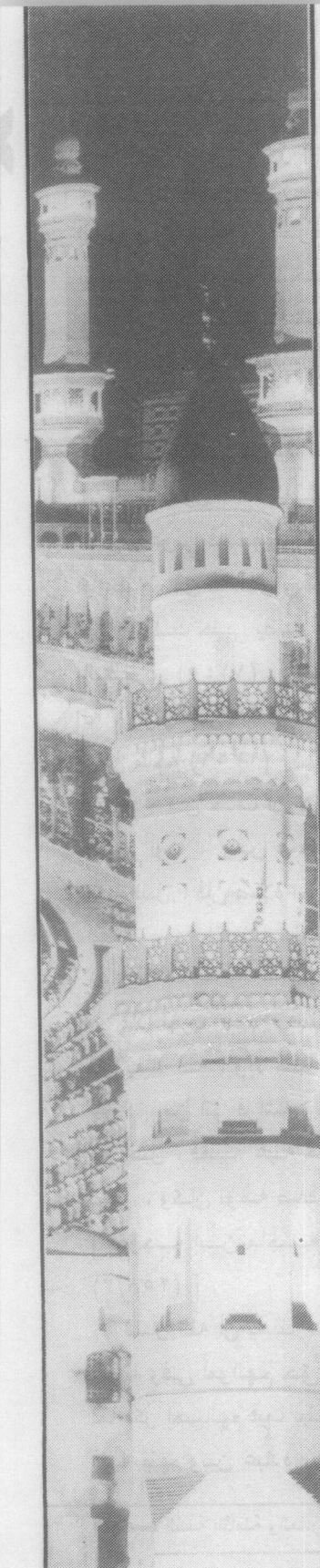

منزلةً قومًا خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا .

ولقد جعل اللَّه تعالى قيام الليل دليل الإيمان ، فقال : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٥، ١٦] ، ثم ذكر ما أعدّ لهم في جنات النعيم ، فقال : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧] .

وفرّق سبحانه بين من يقوم الليل وبين من لا يقومه ، فقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] .

ولقد كان رسول اللَّه ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه ، فقالت له عائشة ، رضي اللَّه عنها : لِمَ تفعلُ هذا وقد غفر اللَّه لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : ((أفلا أكون عبدًا شكورًا)) .

وكان ﷺ يحثّ أصحابه على قيام الليل ويرغبهم فيه ، وأثِرَ عنه في ذلك أحاديث كثيرة ، منها : قوله ﷺ : ((إنّ في الجنة غرفًا يُرى ظاهرها مِنْ باطنِها ، وباطنُها مِنْ ظاهرها ، أعدّها اللَّه تعالى لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام)) . [حديث حسن . أخرجه الترمذي (٣/٢٣٨/٢٠٥٠)] .

وقوله ﷺ : ((عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى اللَّه تعالى ، ومنهاة عن الإثم ، وتكفير للسيئات)) . [حديث صحيح . أخرجه الترمذي (٥/٢١٢/٣٦١٨)] .

وقوله ﷺ : ((أتاني جبريل ، فقال : يا محمد ، عش ما شئت فإنّك ميّت ، وأحبب مَنْ شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزيّ به ، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزّه استغناؤه عن الناس)) . [حديث حسن . أخرجه الحاكم (٤/٣٢٤)] .

وقوله ﷺ : ((رحم اللَّهُ رجلاً قام من الليل فصلّى وأيقظ امرأته فصلّت ، فإن أبت نضح في وجهها الماء ، رحم اللَّه امرأةً قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فصلّى ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء)) . [حديث حسن صحيح ، رواه أبو داود (٤/١٩٣/١٢٩٤) ، وابن ماجه (١/٤٢٤/١٣٣٦) ، والنسائي (٣/٢٠٥)] .

فاحرص يا عبد اللَّه على قيام الليل ، واعلم أنه من كل الليل أوتر رسول اللَّه ﷺ ؛ من أول الليل ، وأوسطه ، وآخره ، وانتهى وتره إلى السحر . [أخرجه البخاري (٩٩٥) ، ومسلم (٧٤٥) ، واللفظ له ، والنسائي (٣/٢٣٠)] .

فأفضل أوقات القيام السحر ؛ وذلك لأنه ساعة نزول الرب عز وجل ، كما قال ﷺ : « ينزل اللَّه إلى السماء الدنيا كل ليلة ، حين يمضي ثلث الليل الأول ، فيقول : أنا الملك ، أنا الملك ، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ، من ذا الذي يسألني فأعطيه ، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر » . [أخرجه البخاري (١١٤٥) ، ومسلم (٧٥٨) ، واللفظ له ، والترمذي (٣٥٦٥) ، وأبو داود (١٣٠١) ، وابن ماجه (١٣٦٦)] .

فـ « من خاف أن لا يقوم من آخر الليل فليوتر أوّله ، ومن طمع أن يقوم آخره فليوتر آخر الليل ، فإن صلاة آخر الليل مشهودة ، وذلك أفضل » . [أخرجه مسلم (٧٥٥) ، والترمذي (٤٥٥)] .

فإذا أخّرتَ الصلاة فلتنمْ عازمًا على القيام ، فإنْ بعثك اللَّه ، وإلا كتب لك أجر ما نويت . قال ﷺ : « مَنْ أتى فِراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل ، فغلبته عينه حتى يصبح ، كُتِبَ له ما نوى ، وكان نَوْمُه صدقةً عليه من ربه » . [أخرجه ابن ماجه (١٣٤٤) ، والنسائي (٣/٢٥٨)] .

نسأل اللَّه أن يعيننا على قيام الليل .

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ . لما ذكر إحسانهم فيما بينهم وبينه ، ذكر إحسانهم فيما بينهم وبين عباده ، فقال : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ ، والسائل هو الذي يسأل ويمد يده . والمحروم : هو المتعفف ، ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ، ولكنهم لا يَخْفَوْن على المتقين ، ولذا جعلوا لهم حقًّا وإن لم يسألوا ، وتأمل كلمة : ﴿ حَقٌّ ﴾ تعلم أن هؤلاء المحسنين للسائل والمحروم ، حين يبذلون وتمتد أيديهم بالعطاء ، لا يرون لأنفسهم فضلاً على الفقراء ، و﴿ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُواْ مَنًّا وَلاَ أَذًى ﴾ [البقرة : ٢٦٢] ؛ لأنهم يرون أنهم يدفعون حقًّا كان عندهم ، وإذا كان لرجلٍ عند آخر حقٌّ فسأله فأيّ فضل لمن عنده الحق على السائل ، الذي لم يسأل إلا حقّه !

فإذا أنفقت نفقة يا عبد اللَّه فـ ﴿ .. لاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : ٦] ، وتأمّل قول اللَّه تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦٣، ٢٦٤] .

ثم لفت اللَّهُ تعالى الأنظارَ إلى مظاهر قدرته ، ودلائل وحدانيته ، فقال : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ أعميان أنتم لا ترون ! لقد سألوا رسول اللَّه ﷺ أن يأتيهم بآية ؛ كناقة صالح ، وعصا موسى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ [الأنعام : ١٠٩] . قال تعالى :

﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦] ! ومع ذلك فالآيات كثيرة لو كانوا صادقين ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ ، جبال وبحار ، وأنهار وأشجار ، ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤] ، وفي أنفسكم آيات تدل على قدرة اللّه ووحدانيته ، ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق : ٥- ٧] ، ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۞ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۞ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۞ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۞ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ [عبس : ١٧- ٢٢] من شقّ لك سمعك وبصرك ؟ ومن أنعم عليك بهذه الأصابع وجعلها بهذه المفاصل حتى تستطيع أن تستعملها في الأعمال ، تحركها وتثنيها وتقبضها كيف تشاء ؟ ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : ٢٣] .

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ قال العلماء : المراد بالرزق المطر ؛ لأنه سببه ، وقد سمى اللّه المطر رزقًا في أكثر من آية ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۞ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية : ٣- ٥] ، فالرزق هو المطر ، ﴿ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ من خير أو شر ، ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ هذا هو القسم السادس في السورة الكريمة ؛ يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من الرزق والبعث والجزاء كائن لا محالة ، وهو حق لا مرية فيه ، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون .

فيا عبد اللّه ، رزقك هذا الذي يشغلك عن طاعة اللّه مكفول مضمون : ﴿ فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٧] ، قال رسول اللّه ﷺ : « إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله » . [« الجامع الصغير » : (١٩٩٨)] .

ولذا كان رسول اللّه ﷺ يقول : « قال اللّه تعالى : يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنًا وأسدّ فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسدّ فقرك » .

وليس معنى هذا أننا نترك العمل والسعي ، ونجلس في المساجد ليلاً ونهارًا ، ونقول : نتفرغ للعبادة ، لا ، ليس هذا هو المقصود ، وإنما : ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ [الملك : ١٥] ، ولكن لا تنشغل بذلك عن الواجبات ، ولا تقدّم أمر الدنيا على أمر اللّه ، فإذا سمعت - مثلاً -: حيّ على الصلاة ، حي على الفلاح ، فحيهلا ، لا تتأخر ، وهكذا .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين .

* * *

سورة الذاريات

الحلقة الثالثة

بقلم الدكتور / عبد العظيم بدوي

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۞ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۞ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۞ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۞ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۞ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۞ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۞ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۞ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۞ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۞ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۞ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۞ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۞ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ۞ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ۞ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۞ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ۞ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الذاريات : ٢٤ - ٤٦] .

هذه المجموعة من الآيات قد تضمنت الإشارة إلى قصص بعض النبيين ومصارع أممهم المكذبين ، أراد الله بها أن يُثَبِّت فؤاد نبيه ﷺ ، لِيصْبِرَ على تكذيب قومه ، كما قال له : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ۞ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۞ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج : ٤٢ - ٤٤] ، فلتصبر فإنّ الله ناصرك كما نصر إخوانك المرسلين ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ

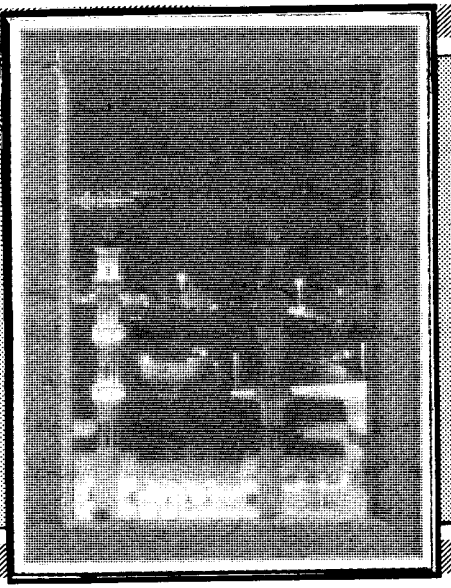

إذا مُنع المسلم الذرية فلا ييأس من روح الله ، فإن الذي وهب لإبراهيم على الكبر إسماعيل وإسحاق قادرٌ على أن يهبه متى شاء .

اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

هذه واحدة ، والثانية : لعل الذين كذَّبوا محمدًا ﷺ حين يرون مصارعَ المكذِّبين يخافون أن يحلّ بهم ما حلّ بهم : ﴿ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : ٥٤] .

وبدأت الآيات بإبراهيم عليه السلام ، وبدأت الحديث عنه بهذا السؤال : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ؟ حتى يهتمّ الرسول ﷺ بهذا الحديث ويقبل عليه ، وهو أسلوبٌ نستخدمه مع بعضنا البعض في الأخبار الهامة ، فإذا قابلت أخاك وأحببت أن تشوّقه إلى معرفة ما عندك ، طرحت عليه هذا السؤال : هل علمت بكذا ؟ فيقول : لا ، فتفيده بعدما ملكت مشاعره ، وجلبت انتباهه ، وهكذا استُفتحت الآياتُ الحديث عن إبراهيم عليه السلام بهذا السؤال الموجّه إلى النبي ﷺ : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ؟ فيقول ﷺ : ما أتاني ، فيُقال : فاستمع ، فيخبره .

وقد وصف اللَّه ضيف إبراهيم بأنهم مكرمين ؛ إما لكونهم : ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس : ١٦] ، كما حكى اللَّه عنهم في غير هذا الموضع ، وإما لأن الخليل عليه السلام قام على خدمتهم بنفسه ، ومن كان كذلك فهو حقًّا مكرم ، وهؤلاء الضيف هم الملائكة الذين أُرسلوا إلى قوم لوط ، لهلاكهم .

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ على إبراهيم ﴿ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ . قال أهل اللغة : الرفع أشرف وأفضل من النصب ، فكان ردّ الخليل أحسنَ مما حيّوه به ، وهذا الأدب أمرنا اللَّه تعالى به في قوله : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء : ٨٦] ، فلما حيّاهم بأحسن مما حيّوه به نظر في وجوههم فلم يعرف منهم أحدًا ، فقال في نفسه : ﴿ قَوْمٌ مُنكَرُونَ ﴾ لا أعرفهم ، ﴿ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ [يوسف : ٧٧] ؛ لأن التصريح بها خلافُ الأدب مع الضيف ، وإبراهيم عليه السلام أَولى الناس بمعرفة حق الضيف . فالواجب إذا جاءك ضيفٌ أن تدخله البيت أولاً وتكرمه ، ثم تتعرّف عليه ، وعلى ما جاء له ، كما فعل الخليل عليه السلام ، حيّوه فحيّاهم بأحسن منها ،

وأنكرهم في نفسه ، ولكن ما قصر في واجبهم : ﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ فراغ : أي ذهب في خفية ، تسلل دون أن يُشعِرَهم ، ﴿ فَجَاء بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ . قد ذكر الله في موضع آخر أنه شواه شويًا ، فقال : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩] ، ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ . قال العلماء : من أدب الضيافة أن يقدّم الطعام للضيف حيث يجلس ، ويُؤتى به إليه ، ولا يُدْعَى الضيف للانتقال إلى مكان الطعام ، فهذا فعل إبراهيم عليه السلام ، وقد أُمرنا بالاقتداء به ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل : ١٢٣] ، ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ ﴾ ؟! هكذا بكل لطف : ألا تكرمونا بأكل طعامنا ! ألا تتفضلون علينا بالأكل مما قدمناه ! ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ ؛ أي حين رآهم لا يأكلون ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود : ٧٠] ، فلما أدركوا ما وقع في قلبه من الخوف منهم كشفوا له عن هويتهم ، وأفصحوا عن حقيقتهم ، و ﴿ قَالُوا لاَ تَخَفْ ﴾ ، ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ [هود : ٨١] من الملائكة ، وإن جئنا في صورة البشر ، ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ ﴾ هو إسحاق عليه السلام ابن سارة ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧٠، ٧١] .

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ ﴾ ؛ أي أقبلت تصرخ وتصيح ، ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ إما لطمت كما تلطم النساء ، وإما ضربت بيدها على جبينها تعجبًا كما يفعل الناس عند التعجب مما يحدث ، أو تذكر ما نسي ، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ ما هذا الذي أسمعه من البشارة ، وأنا عجوز ، بلغت سنّ اليأس ، الذي لا تلد فيه الوالدات ، عقيم ، وأنا شابة في سن الولادة ، فأنّى يكون لي غلام والحال هذه ، ثم إن هناك علة أخرى وهي أن زوجي شيخ كبير ، لا يكون من مثله الولد ! كما قال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ . ﴿ قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ ، فهذا أمره وقضاؤه ، ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ [يس : ١٧] ، ﴿ إِنَّهُ ﴾ سبحانه ﴿ هُوَ الْحَكِيمُ ﴾ في تصرفاته وأفعاله ، ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بمصالح عباده ، يعطي من يشاء حين يكون العطاء خيرًا له ، ويمنع من يشاء حين يكون المنع خيرًا له ، كما قال تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : ٤٩، ٥٠] .

فعلى المسلم أن يوطّن نفسه على الرضا بقضاء الله ، وأن يعلم أن اختيار الله له خير من اختياره ، وتدبير الله له خيرٌ من تدبيره ، وإذا منِعَ المسلمُ الذرية فلا ييأس من روح الله ، فإن الذي وهب لإبراهيم - على الكبر - إسماعيلَ وإسحاق قادرٌ على أن يهبه متى شاء . فاللهم رضّنا بما قسمت لنا ، وهب لنا من الصالحين ، كما وهبت لخليلك إبراهيم . آمين .

ولما علم إبراهيم حقيقة ضيفه ، وأنهم رسل ربه ، ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ ؟ ما شأنكم ولماذا جئتم ؟ ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ

مُّجْرِمِينَ ﴾ هم قوم لوط ، كما صرّحوا بذلك في غير هذا الموضع : ﴿ قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ ، ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۞ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ ؛ أي معلّمة ، مكتوب على كل حجر اسم من يُهلك به ، وهنا خاف الخليل على ابن أخيه لوط ، الذي كان قد آمن به دون سائر قومه ، فـ ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ﴾ [العنكبوت : ٣٢] ؟! فكيف تهلكون القرية وهو فيها ؟ ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣٢] ، ولذا قال تعالى هنا : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وهم لوط وأهله إلاّ امرأته .

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ أي : لما جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، فهي خاوية على عروشها ، تركنا فيها عبرة وعظة ﴿ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ ، فهؤلاء الذي تنفعهم الآيات والمواعظ ، وأما الأشقياء فقد قال تعالى عنهم : ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٦٠] ، ﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي : بحجة بينة ، وبرهان ظاهر ، كما قال تعالى حكايةً عن فرعون أنه ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۞ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۞ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ ۞ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٠٦- ١٠٩] ، ﴿ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ ﴾ ؛ أي اغتر بقوته وجنده ﴿ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ . قال تعالى : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] ، ولذا قال موسى عليه السلام لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٢] .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾ أي : ألقيناهم وطرحناهم في اليم ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي : حالة كون فرعون ملامًا على كفره بالله ورسوله .

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ : وُصفت الريح التي أُهلكت بها عادٌ بأنها عقيم ؛ لأنها لم تتمخض عن خير ، بل كانت كما وصف الله ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف : ٢٤] ، ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ ، لا تترك شيئاً أتت عليه إلا جعلته كالشيء الهالك البالي ، كما قال تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٢٥] .

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴾ . قال العلماء : هذا الإذن لهم في التمتع بالطيبات إما أن يكون قيل لهم منذ أرسل إليهم صالح عليه السلام ، وإما أن يكون قيل لهم بعدما عقروا الناقة ، كما قال تعالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥] .

﴿ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ أي : جاءهم العذاب وهم جالسون ينظرونه ، ومع ذلك ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ ﴾ للهرب ، ﴿ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴾ .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾ أي : أهلكناهم من قبل هؤلاء ، ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٧] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قبض العلماء!

بقلم الدكتور:

عبد العظيم بن بدوي الخلفي

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالمًا اتخذ الناس رءوسًا جهالًا فسُئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلّوا ».

[متفق عليه].

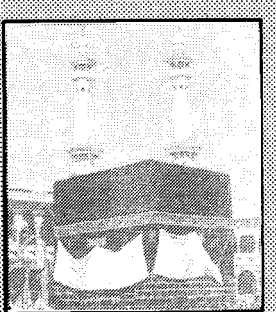

فهل هذا أوانه ؟

لقد أصيبت الأمة في مقتلها وابتليت في أفضلها، ورزئت في علمائها، ففقدت على التوالي كوكبة درية من علمائها، ففقدت: جاد الحق، والغزالي، والشعراوي، والدكتور سيد رزق الطويل، والدكتور عبد الفتاح سلامة، ثم فقدت من شهر الله المحرم إلى الآن: ابن غصون، ابن باز، الطنطاوي، الزرقا، القطان، عطية سالم، ويوم السبت ٢٢ جمادى الآخر لحق بهم في الرفيق الأعلى شيخنا وأستاذنا ناصر السنة وقامع البدعة، محدث الشام وعلامة الزمان، الشيخ أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني الشامي، فماذا نقول ؟

وهل لنا أن نقول غير ما يرضي ربنا: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنا في مصيبتنا، وأخلف لنا خيرًا منها، لكن العين تدمع، والقلب يحزن، وقد رُخص لنا في ذلك على العامة، فكيف بالخاصة ؟ وكيف بأهل السنة ؟!

ناصر السنة وناصر الدين !!

عن معتمر بن سليمان قال: دخلت على أبي وأنا منكسر، فقال لي: ما لك ؟ قلت: مات صديق لي، فقال: مات على السنة ؟ قلت: نعم، قال: تحزن عليه. [« تلبيس إبليس » (ص ١٠)].

فكيف بناصر السنة ؟ فكيف بناصر الدين ؟ هكذا سماه أبوه حين ولد، فأراد له ربه أن يحيى ويموت ناصرًا للدين، ونصرة الدين عند شيخنا محمد ناصر الدين الألباني كانت تتلخص في كلمتين: التصفية، التربية؛ تصفية العقيدة من شوائب الشرك، وتصفية العبادة من شوائب البدعة، ولا تكون التصفية إلا بالاعتماد على الوحيين؛ الكتاب العزيز، وصحيح السنة، ونبذ الضعيف منها، فضلاً عن الموضوع، وفضلاً عن آراء الرجال، وأقوال العلماء التي تخالف الكتاب وصحيح السنة، ثم تربية الأجيال على ذلك، والرجوع بهم إلى النبع الصافي الذي استقى منه خير القرون، فكانوا خير القرون.

كل الناس في الحديث بعد الألباني عيال عليه !!

وعاش رحمه الله يعمل على تصفية السنة، وآثاره

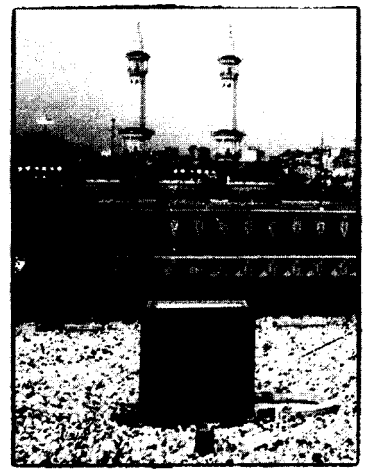

في ذلك طارت بها الركبان في كل مكان ، حتى لو قيل: كل الناس في الحديث بعد الألباني عيال عليه ، ما كان ذلك غلوًّا فيه ، وظل رحمه اللَّه يجاهد في تربية الأجيال على المنهج المصفى ، ويدعو إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومنَّ اللَّه عليَّ فجعل لي من ذلك نصيبًا ، وأشهد أن الشيخ - رحمه اللَّه - ما دعانا إلى حزب ولا إلى تنظيم ، ولا علمنا العنف ولا الشدة ، إنما كان دائمًا يدندن حول : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وأنه لا يجوز تغيير المنكر بالمنكر ، ويستدل على ذلك بحديث : ((لولا أن قومي حديث عهد بجاهلية ، لأمرت بالبيت فهدم ، فأدخلت فيه ما أخرج منه ، وألزقته بالأرض وجعلت له بابين : بابًا شرقيًّا ، وبابًا غربيًّا)) .

ولقد لخص لي - رحمه اللَّه - سر دعوته إلى التصفية والاستغناء بالصحيح عن الضعيف ، فقال في اتصال هاتفي جرى بيني وبينه ، قد سألته عن حديث الآذان في أذن المولود ؟ فقال : ضعيف ، فقلت : شيخنا ، ألا نعمل به من باب جواز العمل بالضعيف في فضائل الأعمال ؟ فقال : أأنت ما زلت هاهنا يا عبد العظيم ؟ فقلت : لا شيخنا ، ولكني أسأل ، فقال : أنا أعتقد أن أعبد أهل زمانه لا يستطيع العمل بكل الصحيح ، فما الحاجة إلى الضعيف ؟! فهل من مدكر ؟

من ذا الذي يحل محل أولئك الأعلام !!

وبعد فهل هذا أوانه ؟ هل هذا أوان رفع العلم وظهور الجهل ، واتخاذ رءوس جهال ، يُسألون فيفتون بغير علم فيَضِلون ويُضلون ، إن قلنا هذا أوانه فليس بغريب ، فمن ذا الذي يحل محل أولئك الأعلام ؟ ومن ذا الذي يقوم مقامهم ؟ وينصر الدين نصرهم ؟

لكن الأمل يحدونا ، فنرفض أن يكون هذا أوانه ، هكذا علمنا شيخنا ناصر الدين - رحمه اللَّه - لقد علمنا أن نتفاعل مهما كان الواقع ، علمنا أن نكون على يقين من أن المستقبل لهذا الدين ، ومن أراد معرفة ذلك فليراجع الأحاديث الستة الأولى في ((السلسلة الصحيحة)) ، وفي ذلك يقول الرسول : ((لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر اللَّه وهم كذلك)) . قال البخاري - رحمه اللَّه - (١٣/٢٩٣- فتح) : وهم أهل العلم .

وهذا هو حادي الأرواح الذي يحدوها ، وقد غلبها الحزن وأضناها البكاء على فقد ناصر السنة وقامع البدعة ، شيخنا أبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين الألباني .

رفع اللَّه درجته ، وأعلى منزلته ، وأسكنه الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . آمين يا رب العالمين .

عبد العظيم بن بدوي الخلفي

باب التفسير

سورة الذاريات

الحلقة الأخيرة

بقلم الدكتور :

عبد العظيم بدوي

﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون * ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون * ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين * كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتول عنهم فما أنت بملوم * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين * وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين * فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون * فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴾ [الذاريات : ٤٧ - ٦٠] .

تفسير الآيات :

﴿ والسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ أي : بقوة ، ﴿ وإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ أي : قد وسعنا أرجاءها ، ورفعناها بغير عمد ، حتى استقلت كما هي ، ﴿ والأَرْضَ فَرَشْنَاهَا ﴾ أي : جعلناها فراشا للجميع ، وهو فراش سهل ممهد ، ﴿ فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ .

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ من أنفسكم ، من النبات ، من الحيوان ، من جميع ما تعلمون وما لا تعلمون . كما قال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يس : ٣٦] ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أن الخالق إله واحد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، فإذا علمتم ذلك ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ؛ الفرار إلى الله يكون بالفرار من الكفر إلى الإيمان ، من الشرك إلى التوحيد ، من المعصية إلى الطاعة ، من الجهل إلى العلم ، من الغفلة إلى الذكر ، من البدعة إلى السنة .

قال العلماء : كل شيء تخاف منه تفر منه ، إلا الله ، فإنك إذا خفت منه فررت إليه ، ولذا كان ﷺ يقول في الثناء على الله : ((لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك)) . [مسلم (٢٧١٠) ، والترمذي (٣٤٥٤) ، وأبو داود (٥٠٢٥)] .

﴿ وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ فـ ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾ [المائدة : ٧٢] ، ﴿ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

ولقد قالوا عن رسول الله ﷺ : (ساحر مجنون) ، فقال الله له : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ ، كما قال له في موضع آخر : ﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ [فصلت : ٤٣] ، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ ؟! هل وصّى الأولون الآخرين بهذه الكلمة ، واتفقوا عليها ؟ لا ، ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللَّـهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة : ١١٨] ، فتشابهت ألسنتهم ، حتى كأنهم تواصوا به .

وإذا بلغ الأمرُ بهم إلى هذا الحدّ ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾ ، فقد بلّغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، فلن تلام إذا أعرضت عن أمثال هؤلاء ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ [النجم : ٢٩، ٣٠] ، ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ لا تترك التذكير ، ولا تترك الدعوة ، فلن تعدم قلوبًا تنتفع بذكراك ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ۞ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ۞ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ۞ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى ﴾ [الأعلى : ٩- ١٣] .

ثم ذكر اللّه تعالى الغاية من خلق الخلق ، فقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ .

ما خلق اللّه الخلق ليستكثر بهم من قلة ، ولا ليقوى بهم من ضعف ، ولا ليعزّ بهم من ذل ، ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [الإسراء : ١١١] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۞ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر : ١٥- ١٧] . وإنما خلقهم ليعبدوه ، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، يقول العلماء : الاستثناء بعد نُفي يفيد الحصر ، ﴿ وَمَا ﴾ نفي ، ﴿ إِلاَّ ﴾ استثناء ، أي : لم يُخلق الخلق لأي شيء سوى عبادة اللّه وحده . والعبادة أعم وأشمل من مفهوم كثير من الناس لها .

كثير من الناس يفهم أن العبادة هي الشعائر الظاهرة : من صلاة ، وصيام ، وزكاة ، وحج ، وإذا نظرنا إلى هذه الشعائر وجدناها لا تستغرق إلا النذر اليسير من حياتنا ، فالصلاة بفروضها الخمسة لا تستغرق أكثر من ساعة في اليوم ، والصيام لا يكون إلا شهرًا في العام ، والزكاة لا تجب إلا على الأغنياء من الناس ، والحج كذلك ، ولا يجب إلا مرة في العمر ، إذن هذه الشعائر وحدها دون مفهوم العبادة الأعم والأشمل ، فالعبادة التي خلق اللّه الخلق لها بمفهومها الأعم والأشمل أن تعلم أنك عبد لسيّد واحد وهو اللّه ، فأنت موجود في هذه الحياة لطاعة سيّدك في كل وقت ، فيجب أن تجعل شعارك قول اللّه سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢، ١٦٣] ، ومعنى هذا : أن يكون نومك ويقظتك ، قعودك وقيامك ، حركتك وسكونك ، ﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ ، وكيف يكون هذا ؟ إذا ابتغيت بهذه الأحوال كلها وجه اللّه كانت عبادة تُثاب عليها ، فالأعمال المباحة بالنيّات الصالحة تكون طاعةً يُثاب عليها المرء ، حتى شهوات النفس الحلال ، ولذا قال ﷺ : ((وفي بضع أحدكم صدقة)) . قالوا : يا رسول اللّه ، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له أجر ؟ قال : ((أرأيتم لو وضعها في الحرام ، أيكون عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)) . [مسلم (١٠٠٦)] .

وبهذا المفهوم الشامل فهم أصحاب رسول اللّه ﷺ العبادة ، حتى قال معاذ بن جبل ، رضي اللّه عنه : إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي . أي : كما أحتسب الأجر على ما أعمله بالنهار أحتسب الأجر إذا نمت ، وذلك أنه يعمل بالنهار للّه فيتعب ، فيريد النوم ليرتاح من عمل النهار ، ليقوى على مواصلة العمل ، فيكون نومه للّه ، فيحتسب الأجر عند اللّه .

ولما كان الإنسان لا يشغله عن العبادة شيء كالرزق ، جاءت الإشارة مرة ثانية إلى أن

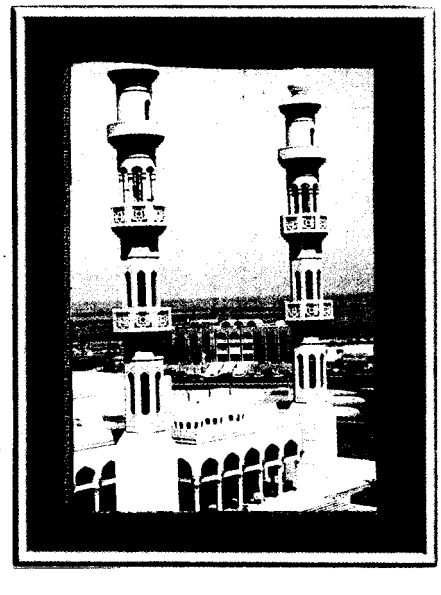

الرزق قد تكفل الله به ، حتى لا ينشغل الإنسان بطلبه عما خلق له من العبادة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ .

ولقد كان المشركون يستهزئون بما ينذرهم به النبي ﷺ من العذاب ، ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الملك : ٢٥] ، حتى بلغ من استهزائهم وتكذيبهم أن سألوا الله أن يعجل لهم من العذاب ما ينذرهم إياه رسولُ الله ﷺ : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [ص : ١٦] ، فقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا ﴾ أي : نصيبًا من العذاب ﴿ مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ الذين نبأهم من أخبارهم في السورة ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۞ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ .

كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧] . وقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۞ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ۞ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٣- ٥٥] . ولكنهم لا يعلمون هذا الذي ينتظرهم من العذاب ، ولذلك استعجلوه ، قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۞ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٨، ٣٩] أي : لو يعلمون ما قالوا : ﴿ مَتَى هَذَا ﴾ ؟

نسأل الله أن يجيرنا من النار وعذابها ، نحن وسائر المسلمين . آمين .

* * *

■ باب السنة ■

الصوم في غير رمضان

بقلم الرئيس العام :
محمد صفوت نور الدين

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخير خلق الله أجمعين سيدنا محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين ، وبعد :

ففي العدد الماضي كان الحديث عن الصوم وفضله ، ثم عن النفل والنذر والقضاء ، ومقدمة عن الكفارات التي جعلها الله تربية يسقط الله بها الإثم عن العبد ، وهذا بيان الكفارات بالصوم :

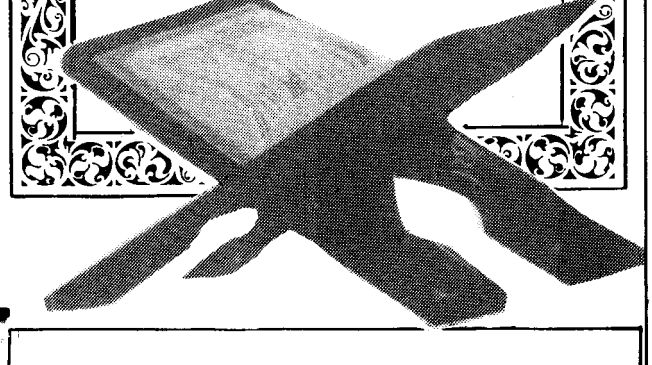

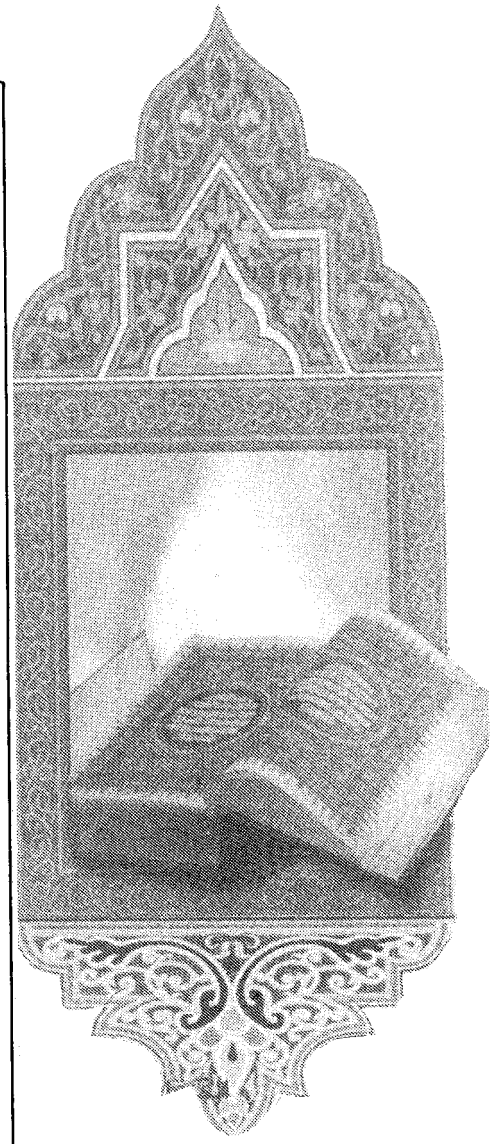

سورة الطور

بقلم د :
عبد العظيم بدوي

﴿ وَالطُّورِ ۞ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۞ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۞ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۞ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۞ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۞ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۞ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۞ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۞ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۞ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۞ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۞ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۞ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١- ١٦] .

سورة مكية ، شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة ، وبيان أصول الدين ، وقد ركزت بشكل خاص على ثلاثة أصول وهي : التوحيد ، والوحي ، والبعث . ونستطيع القول بأنها قد انقسمت قسمين :

● **الأول** : يتحدث عن اليوم الآخر وأحوال الناس فيه .

● **والثاني** : يتحدث عن التوحيد والوحي .

تفسير الآيات :

الطور : هو جبل يكون عليه شجر ، فإن لم يكن عليه شجر فليس طورًا ، وقد اختلف في الطور المقسم به : هل هو طور سيناء ، كما أقسم الله به في قوله : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ [التين : ٢] ، أم أن الطور المقسم به عام يشمل كل طور ؟ والراجح الثاني ، والأول داخل فيه .

والكتاب المسطور : القرآن الكريم ، وهو مسطور في رَقٍّ : وهو الجلد الرقيق الذي كان يكتب عليه أولاً . ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ : بيت في السماء السابعة حيال الكعبة ، لو خر لخر عليها[1] ، وهو لأهل السماء كالكعبة لأهل الأرض ، وقد رآه النبي ﷺ ليلة المعراج ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم لا يرجعون إليه آخر ما عليهم . [أخرجه مسلم] .

ولما كان الخليل إبراهيم عليه السلام هو الذي رفع القواعد من البيت الحرام ، رفعه الله إلى البيت المعمور في السماء ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ : ٢٦] ، فرآه النبي ﷺ وهو مسند ظهره إلى البيت المعمور . [أخرجه مسلم] .

﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ : هو السماء ، فهي سقف الأرض ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء : ٣٢] ، وقيل : المراد بالسقف المرفوع : العرش ؛ لأنه سقف جميع المخلوقات . ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ : يعني المملوء ، كما هو عليه الآن ، أو المسجور الذي اشتعل نارًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ [التكوير : ٦] ، أي : تأججت نارًا ، وذلك يوم القيامة ، ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۞ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۞ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ [القيامة : ٧- ٩] ،

(١) انظر « الصحيحة » (٤٧٧) .

فكورًا ، ثم ألقيا في النار .

فهذه خمسة أيمان على جواب واحد ، هو : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ ، يعني : بالكافرين المكذبين ، ﴿ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴾ عنهم إذا وقع بهم . كما قال تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۞ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾ [المعارج : ١، ٢] .

لقد كان الكافرون لشدة تكذيبهم يستعجلون ما أنذرهموه النبي ﷺ من العذاب ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الملك : ٢٥] ، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [ص : ١٦] ، ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] ، قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ﴾ [هود : ٨] ، ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه : ١٢٩] . فالذي يحبسه هو ما سبق في قضاء الله من تسمية الأجل ، وما علمه سبحانه من أن من هؤلاء من سيؤمن ، أو على الأقل سيخرج من صلبه من يومن ، فهو لذلك وغيره يؤخر عنهم العذاب ، وتأخير العذاب لا يقتضي عدم وقوعه البتة ، بل : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ أي : تتحرك بسرعة حركة دائرية ، ويا للهول !! حين يرى الإنسان ، هذا المخلوق الضعيف ، السماء العظيمة تدور فوق رأسه دورانًا سريعًا !! إننا لو شاهدنا طائرة من الطائرات تمور مورًا لزاغت الأبصار وزلزلت القلوب ، وتولينا جميعًا مدبرين ، من الخوف ، فكيف بنا لو شاهدنا السماء تمور مورًا ؟! ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۞ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ ﴾ [المزمل : ١٧، ١٨] ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ١، ٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل : ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ [النبأ : ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۞ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾ [الواقعة : ٥، ٦] ، ثم تنسف نسفًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۞ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۞ لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٥- ١٠٧] ، ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ . ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ [المطففين : ١١] ، أي : ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم . ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : ١٥] ، ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ ، ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ [الأعراف : ٥١] ، ﴿ وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] ، ويل لهم ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ أي : يدفعون إلى النار دفعًا ، تدفع الزبانية في ظهورهم حتى يلقونهم في النار ، فإذا ألقوا فيها قالوا لهم : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ ، وعلى أية حال : ﴿ اصْلَوْهَا ﴾ يعني : ادخلوها دخول من تغمره النار من جميع الجهات . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف : ٢٩] ، وقال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر : ١٦] ، وقال تعالى : ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف : ٤١] ، ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ الصبر وعدمه : ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وقد اعترفوا هم أنفسهم أن الصبر وعدمه سواء عليهم . قال تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم : ٢١] .

نسأل الله السلامة والعافية .

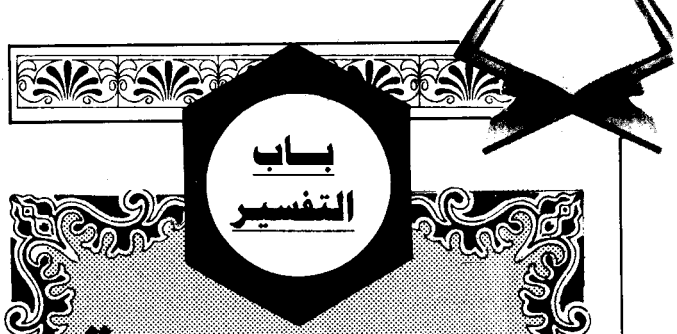

سورة الطور

الحلقة الثانية

بقلم الدكتور / عبد العظيم بدوي

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾

[الطور : ١٧ - ٢٨] .

لما ذكر اللَّه تعالى حال الأشقياء ، ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ ، أتبعه بذكر حال السعداء ، ﴿ الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ [المعارج : ٢٦] على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب ، والوعد والوعيد ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ ، والمتقون هم الذين جمعوا بين العقيدة الصحيحة السليمة من شوائب الشرك ، وبين العمل الصالح السليم من شوائب البدعة هم ﴿ .. الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ [الزمر : ١٧] ، هم ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ [النجم : ٣٢] ، أولئك في جنات فسيحات واسعات ، مترامية الأطراف ، أدناهم منزلة له في الجنة قدر الدنيا وعشرة أمثالها ، وهم في نعيم لم تَرَ مثلهُ عَيْنٌ ، ولم تسمع بمثله أُذنٌ ، ﴿ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أي : متلذذين بما آتاهم ربهم من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ، وأعلى من ذلك كله النساء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴾ [يس : ٥٥ - ٥٧] ، ﴿ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ وتلك النعمة مستقلة بذاتها ، ومع هذا النعيم ولذته تأتيهم التهنئة والتكريم : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإنسان : ٢٢] ، ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤] .

وقوله تعالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ ، بحيث يقابل بعضهم بعضًا ، كما قال تعالى : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۞ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الواقعة : ١٥، ١٦] ، وذلك لكمال المحبة والمودة ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : ٤٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ ، الحُور : المرأة شديدة بياض العينين ، والعين : المرأة الواسعة العينين :

فيا خاطب الحسناء إن كنت راغبًا
فهذا زمانُ المهر فهو المقدَّمُ
وصم يومك الأدنى لعلك في غدٍ
تفوز بعيد الفطر والناس صومُ
وأقدم ولا تقنع بعيش منغصٍ
فما فاز باللذات من ليس يقدمُ

ولما كان وجود الأبناء عند الآباء مما يثلج صدورهم ، ويطمئن قلوبهم ، ويصفي عيشهم ، جمع الله تعالى بفضله وكرمه شمل الآباء والأبناء ، وإن كان الأبناء لا يستحقون منزلة الآباء لنقص أعمالهم ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ يعني : من آمن وعمل صالحًا من الآباء فدخل الجنة برحمة الله ، وارتفعت درجته في الجنة ، ثم تبعه أبناؤه على الإيمان والعمل الصالح ، ولم يكونوا على مثل ما كان عليه من الاجتهاد في العمل الصالح ، فإن الله يرفع درجة الأبناء إلى درجة أبيهم فضلاً وكرمًا ، ولا ينقص الآباء من أعمالهم فينزلهم إلى الأبناء ، وهذا من بركة صلاح الآباء . صلاحَ الآباءِ ينفع الأبناءَ في الدنيا والآخرة ، أما في الآخرة فمنه ما ذكرناه ، وأما في الدنيا فاقرءوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الكهف : ٨٢] .

وكذلك صلاحُ الأبناء ينفع الآباءَ : عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : ((إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له)) . [صحيح . رواه مسلم (٣/١٢٥٥/١٦٣١) ، والترمذي (٢/٤١٨/١٣٩٠) ، وأبو داود (٨/٨٦/٢٨٦٣) ، والنسائي (٦/٢٥١)] .

وعنه أيضًا قال : قال رسول الله ﷺ : ((إن الرجل لترفع درجته في الجنة ، فيقول : أنى لي هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك)) . [حسن . أخرجه الألباني في ((الصحيحة)) (١٥٩٨) ، وقال : أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٠) ، وأحمد (٥٠٩/٢) ، وابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١/٤٤/١٢) ، والأصبهاني في ((الترغيب)) (٢/٨٥) ، والبغوي في ((شرح السنة)) (٢/٨٤/٢) ، والضياء في ((المنتقى من مسموعاته بمرو)) (١/٥٥)] .

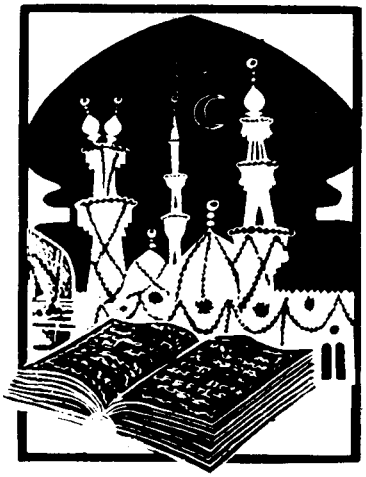

وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ فيه إبطال لما قد يتوهم البعضُ منه أنه إذا انتفعَ الأبناءُ بصلاح الآباء فربما تضرروا من فساد أحوالهم ، وأُخذوا بذنوبهم ، فالأول مقام الفضل ، وهذا مقام العدل : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ ، ﴿ وَلَا

تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [فاطر : ١٨] ، ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْمًا وَلاَ هَضْمًا ﴾ [طه : ١١٢] ، ومعنى قوله : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أي : مرتهن بعمله ، أي محبوس بما قدمت يداه عن دخول الجنة ، بينما انطلق الصالحون إلى منازلهم فيها ، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۞ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ۞ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءلُونَ ۞ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [المدثر : ٣٨- ٤١] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ أي : زودناهم بأنواع من الفاكهة واللحم ، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . وقوله : ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ﴾ يعني : يتعاطون في الجنة وهم على الأسرة كأس الخمر المطهرة من دنس خمر الدنيا ، فلا يتكلمون بكلام لاغ ، ولا يتكلمون بكلام باطل يأثمون به ، ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ وهؤلاء خدم أهل الجنة ، كأنهم في حسنهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم لؤلؤ مكنون ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ [الإنسان : ١٩] ، وإذا كان هذا جمال الخدم ، فما بالك بالسادة المخدومين ؟!

وبينما أهل الجنة ﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ . ﴿ ..أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ ﴾ عن سبب ما هم فيه من النعيم . ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۞ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۞ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ ، فذكروا سببين :

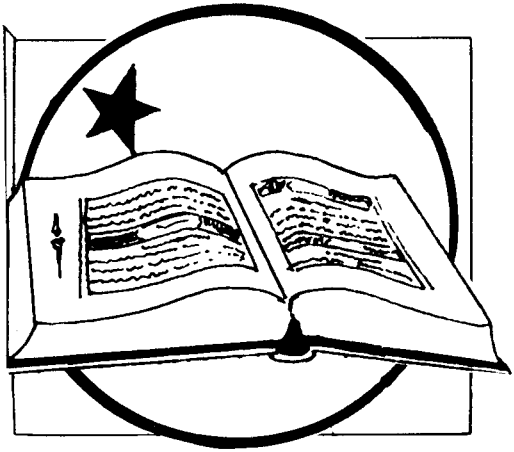

الأول : الخوف من الله . **والثاني** : الدعاء .

﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ ﴾ في الدنيا ﴿ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أي : خائفين من الوقوف بين يدي الله ، وخائفين من عذاب الله ، ﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ أي : فتصدق الله علينا وأجارنا مما كنا نخاف .

وقولهم : ﴿ فِي أَهْلِنَا ﴾ تضمن إشارات : منها : أن خوفهم من الله كان يصحبهم في كل مكان ، حتى في الأماكن التي يأمن الإنسان فيها عادة ويطمئن ويهدأ وهي البيوت ، وعند الأهل ، وذلك لأنهم يعلمون أن علم الله لا يخلو منه مكان ، وأنهم أينما كانوا فإن الله معهم بعلمه وسمعه وبصره ، وهذا بخلاف ما عليه الكافرون ، حيث إنهم لا يخشون الله ولا يخافونه ، ﴿ وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ [المطففين : ٣١] ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ ۞ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۞ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ [الإنشقاق : ١٠- ١٢] ، لِمَ ؟ ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ [الإنشقاق : ١٣] ، وسبب سروره في أهله : ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [الانشقاق : ١٤] أي : ظن

أن لن يرجع إلى اللّه ؛ فلذا قضى حياته في اللهو واللعب والانبساط ، من غير خوف من حساب ولا عقاب . ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۞ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ ؛ لأن اللّه لا يجمع على عبده بين أمنين ولا بين خوفين ، مَن أمِنَ في الدنيا خاف في الآخرة ، ومن خاف في الدنيا أمِنَ في الآخرة ، هذه حقيقة ﴿ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] ، والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد لهذا السياق نظائر كثيرة .

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۞ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۞ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٤- ٦٦] ، قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَمًا ۞ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٥، ٧٦] ، وقال تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۞ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلاَ شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ٧- ١٠] ، قال تعالى : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۞ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۞ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١١- ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۞ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ [المعارج : ٢٧، ٢٨] ، قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ [المعارج : ٣٥] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ تضمن السبب الثاني الذي ذكره أهل الجنة جوابًا على تساؤلهم عن أسباب ما هم فيه من النعيم ، يعني : أنهم كانوا يتضرّعون إلى اللّه ، ويسألونه أن يجيرهم من العذاب ، فمنَ اللّه عليهم ووقاهم عذاب السموم ، والدعاء سرّ عظيم من أسرار دفع البلاء في الدنيا والآخرة .

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد الكثير الكثير من دعاء المؤمنين وتضرعهم للّه أن يجيرهم من عذاب النار ؛ فمن ذلك قولهم : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٦] ، وقولهم : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۞ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۞ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ۞ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ١٩١- ١٩٤] . فاستجاب لهم ربهم ، وأعطاهم سؤلهم : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ .

وفي الحديث عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه ﷺ : ((من سأل اللّه الجنة ثلاث مرات ، قالت الجنة : اللهم أدخله الجنة ، ومن استجار من النار ثلاث مرات ، قالت النار : اللهم أجره من النار)) .

فاللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين .

سورة الطور

الحلقة الثالثة

بقلم د :

عبد العظيم بدوي

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ ۞ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ۞ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ۞ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۞ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ۞ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَ يُوقِنُونَ ۞ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ۞ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ۞ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۞ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۞ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ۞ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۞ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۞ يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ۞ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ۞ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾

[الطور : ٢٩- ٤٩] .

يأمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ بأن يستمر في التذكير ، ويمضي في الدعوة ، وأن لا ييأس ولا يقنط ، ولا يمنعه تكذيب قومه له من تذكيرهم ، فيقول : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ استمر في التذكير والتبليغ ، ﴿ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ ﴾ ، لقد اختلفوا في أمر النبي ﷺ ، ولم يتفقوا على كلمة واحدة يقولونها فيه ، فكان بعضهم يقول : ساحر ، وبعضهم يقول : شاعر ، وبعضهم يقول : كاهن ، وبعضهم يقول : مجنون ، ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ [الأحزاب : ٦٩] ، وقال : ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ ﴾ ، والكاهن : من له رئيٌّ من الجن يسترق السمع ويلقي إليه بالأخبار ، وقد سُئل عنهم النبي ﷺ ، فقال : « ليسوا بشيء » .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : سأل ناسٌ رسول اللَّه ﷺ عن الكهان ، فقال : « ليسوا بشيء » . فقالوا : يا رسول اللَّه ، إنهم يحدثوننا أحيانًا بشيء فيكون حقًا ؟! فقال رسول اللَّه ﷺ : « تلك الكلمة من الحقّ يخطفها الجنيّ فيقرّها في أُذُن وليه ، فيخلطون معها مائة كذبة » . [البخاري (٥٧٦٢) ، ومسلم (٢٢٢٨)] .

« وكانت الكهانة في الجاهلية فاشيةً ، خصوصًا في العرب لانقطاع النبوة فيهم . وهي على أصناف : منها ما يتلقونه من الجن ، فإن الجنّ كانوا يصعدون

إلى جهة السماء ، فيركب بعضهم بعضًا ، إلى أن يدنو الأعلى ، بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذي يليه ، إلى أن يتلقاه مَن يلقيه في أذن الكاهن فيزيد فيه ، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حُرِسَتِ السماء مِن الشياطين وأُرسِلتْ عليهم الشُّهُبُ ، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : ١٠] » . [وانظر « فتح الباري » (١٠/٢١٧)] .

وإتيان الكهنة حرام ، وتصديقهم كفر . عن النبي ﷺ قال : « من أتى عرّافًا فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاةٌ أربعين ليلة » . [صحيح ، رواه مسلم (٤/١٧٥١/٢٢٣٠)] .

وعنه ﷺ قال : « من أتى حائضًا ، أو امرأة في دبرها ، أو كاهنًا فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أُنزل على محمد » . [صحيح ، رواه ابن ماجه (١/٢٠٩/٦٣٩) ، وهذا لفظه ، وأبو داود (٣٩٨/٣٨٨٦، ١٠/٣٩٩)] .

فليحذر المسلمون من إتيان الكهنة أو تصديقهم ، وليعلموا أنهم مسئولون عما يعطونهم من حلوان ، فإن هذا الحلوان مالٌ أُنفِقَ في حرام ، وهذا الكاهنُ حين يأخذ الحلوانَ فقد أكلَ من حرام ، والعبدُ مسئول عن ماله : « من أين اكتسبه ، وفيم أنفقه » . كما أخبر النبي ﷺ . [صحيح . رواه الترمذي (٤/٣٦/٢٥٣٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴾ أي : حوادث الدهر ، يقولون : ما محمدًا إلا شاعر ، يأتيه الموت كما أتى سائر الشعراء غيره . قال تعالى : ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۞ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ [التوبة : ٥١، ٥٢] . أي : فانتظروا إنا معكم منتظرون . ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُم بِهَذَا ﴾ ؟ يعني : هذه الأقوال التي قالوها في رسول الله ﷺ ، أقالوها عن تفكير وتدبر وتروٍّ ؟ ﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ ، يعني : بل هم قوم طاغون ؛ لأن الأحلام لا تأمر بمثل ما قالوا ، وإنما هو الطغيان ومجاوزة الحد .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ [يونس : ٣٨] ، لا ، ﴿ بَل لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴾ [الانشقاق : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾ [البروج : ١٩] ،

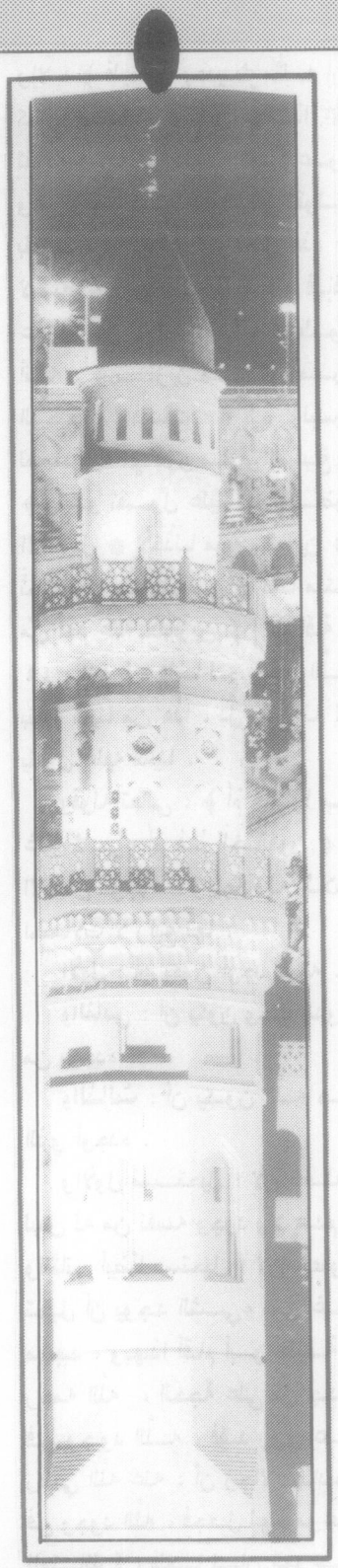

وإلاَّ : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ ، أنّ محمدًا ﷺ تقوّله ؛ لأنه لو تقوّله كما زعموا وهو واحد منهم ، والذي تقوله بلغتهم ، لو تقوّله - والحال هذه - لاستطاعوا أن يأتوا بمثله ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله فليعلموا أنه : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ [فصلت : ٢] ، وليس لمحمد فيه أي دور سوى التبليغ : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ۞ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ - ٤٧] . فلما لم يفعل الله بنبيه شيئًا من هذا ، دلّ على أنه لم يتقوّل عليه شيئًا .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ . الإنسان موجود ، وإيجاده له ثلاث احتمالات لا رابع لها :

الأول : أن يكون أوجد نفسه .

والثاني : أن يكون وُجد بدون من يوجده .

والثالث : أن يكون الله هو الذي أوجده .

والأول مستحيل ؛ لأن العدم ليس له من نفسه وجود ولا عدم . والثاني أيضًا مستحيل ؛ لأن العقول تحيل أن يوجد الشيء من غير موجد ، وبهذا أقام أبو حنيفة ، رحمه الله ، الحجة على من جادله في وجود الله ، فقد رُوي عنه رضي الله عنه : أن رجالاً جادلوه في وجود الله ، فجعل لهم موعدًا للمناظرة ، فلما كان الموعد المسمى تأخر أبو حنيفة عن قَصْدِ ثم جاءهم ، فسألوه عن سبب تأخيره ، فقال : رأيتُ في دِجْلَةَ عجبًا ، قالوا : وما رأيتَ ؟ قال : رأيتُ سفينةً تغدو وتروح ، تحمل وتفرّغ ، من غير قائد ولا عمال ! قالوا : لا يُعقل هذا يا أبا حنيفة ، قال : فكيف تعقلون أن تكون هذه السماوات وهذه الأرض ، والشمس والقمر ، من غير موجد ولا مدبر : ﴿ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

فتعين الاحتمال الثالث ؛ وهو أن اللّه هو الذي خَلَقَ الإنسانَ وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ لا ، بل كانوا يقولون : خَلَقَهُنَّ العزيزُ العليم ، ولكنهم ينكرون أن يكون الذي خلق وحده هو المعبود وحده : ﴿ بَل لاَ يُوقِنُونَ ﴾ ، وعدم إيقانهم هو الذي يحملهم على التكذيب ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴾ [ص : ٩] يعني : إن اللّه « هو المتصرف في ملكه ، الفعال لما يشاء ، الذي يعطي من يشاء ما يشاء ، ويعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء ، ويهدي من يشاء ، ويضلّ من يشاء ، ويُنَزِّلُ الروحَ من أمره على من يشاء من عباده ، ويختم على قلب من يشاء ، فلا يهديه أحدٌ من بعد اللّه ، وإنّ العبادَ لا يملكون شيئًا من الأمر ، وليس لهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة ، وما يملكون من قطمير » . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۞ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۞ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ٥٣ - ٥٥] . وقوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠] .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾ يعني : المحاسبون للخلائق ؟ لا ، ليس الأمر كذلك ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ يعني : هل لهم معراج يعرجون فيه إلى السماء ، فعرجوا واستمعوا إلى الملأ الأعلى ، فعلموا أنك لست مرسلاً من ربك : ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ ، وهيهات هيهات .

ثم أنكر اللّه تعالى عليهم جعلَهم له البنات سبحانه ولهم ما يشتهون من الذكران ، فقال : ﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴾ ، ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩١] ، ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ [الكهف : ٥] ، وقوله تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴾ ؟ يعني لماذا يُعْرِضُون

عنك ؟ هل تسألهم على الدعوة والتعليم أجرًا لا يطيقونه فهم عنك معرضون ؟ والجواب : أنك لم تسألهم أجرًا ، بل هم قوم عمون ، ﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ لا ؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله ، ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ بالرسول وأصحابه ، ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ ، ﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ يركنون إليه ، ويسألونه ، ويدعونه ويستجيرون به ؟ ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وأخيرًا يكشف الله لرسوله عن عناد القوم ، ويخبره أنهم ﴿ لاَ يُؤْمِنُونَ ۞ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾ [يونس : ٩٦، ٩٧] ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ يعني : أنهم لو عاينوا العذاب يأتيهم من السماء لقالوا : سحاب مركوم ، كما قالت عادٌ وقد رأت العذاب : ﴿ هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ [الأحقاف : ٢٤] ، فقيل لهم : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف : ٢٤] ، وإذ الأمر كذلك : ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ ، وذلك يوم القيامة : ﴿ يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [الشورى : ٨] .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ يعني دون عذاب الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة : ٢١] ، والمراد بالعذاب الأدنى البأساء والضراء ، ما يصيب الناس في أموالهم ، وما يصيبهم في أبدانهم ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ حكمة الابتلاء ، ولذا ﴿ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٦] ، فذرهم يا نبينا حتى يأتيهم وعد الله ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ، ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، ولن يخزيك أبدًا ، واستعن على الصبر بذكر الله كثيرًا ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ من مجلسك ومن نومك ، وحين تقوم في صلاتك .

ولقد استجاب ﷺ لأمر ربه ، فكان إذا قام من مجلسه قال : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » . [حسن صحيح ، رواه أبو داود (٤٨٣٨/٢٠٤، ١٣/٢٠٥)] .

وكان إذا قام في الصلاة يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك وتعالى جدك ، ولا إله غيرك » . [صحيح ، رواه الترمذي (٢٤٣/١٥٤/١) ، وأبو داود (٧٦١/٤٧٨/٢)] .

وكان إذا قام من الليل نظر إلى السماء وقرأ الآيات الخواتيم من « آل عمران » : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] إلخ . [صحيح ، رواه البخاري (٤٥٦٩/٢٣٥/٨)] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ ، كقوله تعالى :﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ [الإنسان : ٢٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ ، فالمراد الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ، فإنهما تكونان عند إدبار النجوم ؛ أي عند جنوحها للغيبوبة ، و« لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهدًا منه على ركعتي الفجر » . [متفق عليه ، رواه البخاري : (١١٦٩/٤٥/٣) ، ومسلم (٧٢٤-٩٤/٥٠١/١) ، وأبو داود (٢٤١/١٣٤/٤)] .

وكان يقول : « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » . [صحيح ، رواه مسلم (٧٢٥/٥٠١/١) ، والترمذي (٤/٢٦٠/١) ، والنسائي (٢٥٢/٣)] .

والله تعالى أعلم .

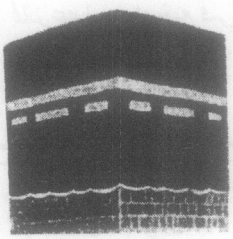

سورة النجم

الحلقة رقم [١]

بقلم الدكتور / عبد العظيم بدوي

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ۞ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۞ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ۞ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۞ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ۞ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ۞ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ۞ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۞ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ۞ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۞ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ۞ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ۞ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ [الطور : ١- ١٨] .

سورة مكية ، شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة ، وبيان أصول الدين وأركان الإيمان ، وأهمها : الوحي ، والوحدانية ، والبعث بعد الموت ، وقد استفتحت السورة بالقسم على براءة النبي ﷺ ونزاهته عن الضلال والغي ، وأشارت إلى المُعلِّم الذي علّم النبي ﷺ ، وأنه رآه مرتين على أصل خلقته ، ثم تحدثت السورة عن بطلان الآلهة المزعومة التي عُبدت من دون اللّه ، وخصّت بالذكر من هذه الآلهة : اللات والعزى ومناة ، ولقد كان العرب جعلوا لهذه الثلاثة تماثيل على هيئة إناث ، وزعموا أنها بنات اللّه ، تعالى اللّه عما قال الظالمون علوًّا كبيرًا ، فأبطل اللّه تعالى هذا الزعم ، وبيّن لهم أنها لو كانت هذه القِسمةُ بينهم وبين مخلوق آخر ، وهي جعلُهم لأنفسهم الذكور ، ولغيرهم الإناث ، لكانت قسمة جائرة ، غير منصفة ، فكيف ارتضوا للّه ما لا يرضونه لأنفسهم .

وكانوا يعتقدون أن هذه الآلهة شفعاؤهم عند اللّه ، فأبطل اللّه هذا الاعتقاد ، وبين لهم أن الملائكة المقربين الذين ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] ، ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] ، ﴿ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى ﴾ [النجم : ٢٦] ، فكيف يرجون شفاعة الأصنام التي ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [النجم : ٢٣] ؟!

ثم تحدثت السورة عن اليوم الآخر ، وأن اللّه يجزي كلّ نفس بما كسبت ، وأنه : ﴿ لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۞ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ [النجم : ٣٨، ٣٩] .

ثم ذكرت بعض آيات قدرة اللّه وعظمته ووحدانيته ، ثم خُتمت بالإنذار والوعيد : ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ۞ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ [النجم : ٥٧، ٥٨] ، وأنكرت على المشركين إعراضهم عن هذا الحديث : ﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۞ وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ ۞ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ۞ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ [النجم : ٥٩- ٦١] .

● تفسير الآيات :

اختلف العلماء في النجم ؛ فقال بعضهم : هو الثريا ، وقال بعضهم : هو الشعرى المذكور في آخر السورة في قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ [النجم : ٤٩] ، وهو نجم كانت العرب تعظمه وتعبده من دون اللّه ، فأخبرهم اللّه أنه سبحانه ربّ هذا الشعرى ، فهو أحقّ منه بالعبادة[1] .

وقال بعضهم : هذا القسم : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ ، أشبه ما يكون بالقسم المذكور في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة : ٧٥، ٧٦] ، فقالوا : المراد بمواقع النجوم القرآن في تنزيله منجمًا أي مفرقًا ، فاللّه سبحانه يقسم بكل نجم أي بكل جزء من القرآن وقت نزوله ، وكلٌّ من هذه الأقوال له وجة من الصحة .

فإذا قلنا : المراد بالنجم الثريّا أو الشعرى ، فيكون معنى القسم ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ ، أي : إذا سقط آخر الليل عند مجيء الفجر ، وإذا قلنا بالقول الثالث فقد ذكرنا معناه ، واللّه أعلم بمراده .

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ هذا هو المقسم عليه . والرجل الضالّ هو الجاهل الذي يسير على غير طريق ، ويعمل بغير علم . والرجل الغاوي هو العالِم الذي يخالف علمه عَمَلَه ، فهو يعلم الحقّ ثم يخالفه إلى الباطل ، ويعلم الخير ثم يخالفه إلى الشرّ ، ويعلم الهدى ثم يخالفه إلى الضلالة ، والحالُ الأول حال النصارى ، والثاني حال اليهود ، والإسلام وسطٌ بين الطرفين ؛ ولذا أرشد أتباعه إلى الجمع بين العلم والعمل ، فمن عَلِم وعَمل فذلك رباني ، ومن عَمِلَ بغير علم فذلك ضالّ ، ومن عَلِمَ ولم يَعْمَلْ فذلك غاوٍ ، وقد شهد اللّه لنبيه ﷺ بأنه بريءٌ من الضلالة والغي ، ومعناه : أنه عامل بعلم ، فهو إذن على الصراط المستقيم ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٥٣] ، وهو الصراط الذي أمرنا اللّه أن نسأله أن يهدينا إليه في قوله : ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ ﴾ [الفاتحة : ٦، ٧] بالعلم والعمل ، ﴿ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ ﴾ وهم اليهود ، علموا الحق فلم يعملوا به ، ﴿ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٧] ، وهم النصارى عملوا بغير علم ، كما قال تعالى عنهم : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد : ٢٧] .

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ ، وإنما أوحي إليه علمٌ ، فهو يعمل به ولا يخالفه ، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ

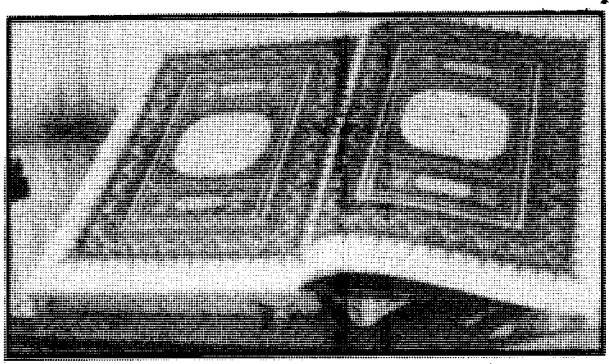

(١) كما أخبر عُباد الشمس والقمر أنه يجب أن يسجدوا للّه الذي خلقهن ، فقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات : ٣٧] .

الْهَوَى ﴾ ، لا يتكلم حسب هواه ، ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ ، فهو متبعٌ لا مبتدع ، ومُبَلِّغٌ لا منشئ ، ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۞ ذُو مِرَّةٍ ﴾ ، وهذا المُعلِّم المشارُ إلى وصفه هنا قد صُرِّحَ به في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٢- ١٩٥] ، كان جبريلُ عليه السلام ينزل على النبي ﷺ فيدنو منه ، ثم يقرأ عليه ما أمره الله بقراءته من القرآن الكريم ، وكان النبي ﷺ يخاف أن ينسى شيئًا مما يقرؤه جبريل ، فكان يستعجل بالقراءة خلف جبريل ليحفظ عنه ، فنهاه الله عن ذلك ، فقال : ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ، وتعهد له بجمع القرآن في صدره ، فلا يتفلت منه شيء ، فقال : ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة : ١٦- ١٨] ، فلما نهى الله نبيه عن القراءة خلف جبريل ، وأمره بالتأني تكفل له بجمع القرآن الذي يسمعه كله في صدره فلا يغيب منه شيء ، وبتعليمه قراءته كما قرأه جبريل ، فلا يتغير منه شيء ، وبتفهيمه معناه حتى يبينه للناس كما أراد الله .

ومعنى ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي : ذو منظر حسن ، وجَسَدٍ سليم قويّ ، ولذا قال ﷺ : « لا تحل الصدقة لغني ، ولا لذي مِرَّة سوي » . [صحيح ، رواه ابن ماجه (١٨٣٩/١/٥٨٩) ، والنسائي (٥/٩٩)] .

وقد وصف الله جبريل في سورة أخرى بصفات أخرى ، فقال : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۞ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۞ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۞ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ١٥- ٢١] ، فهو عليه السلام أمين على ما حُمل ، فلا يكون منه تغيير ولا تبديل .

﴿ فَاسْتَوَى ۞ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ۞ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ ، كان جبريلُ عليه السلام يأتي النبي ﷺ في هيئات وأشكال مختلفة ، لم يأته في صورته التي خلقه الله عليها ، إلا مرتين : الأولى في مكة عند البيت الحرام من جهة أجياد ، بينما النبي ﷺ عند البيت الحرام إذ رأى جبريل قد استوى في الأفق ، له ستمائة جناح ، قد سدّ بها الأفق ، ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ من رسول الله ﷺ ﴿ فَتَدَلَّى ﴾ ، ﴿ فَكَانَ ﴾ في اقترابه من رسول الله ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ ، والقوس معروف ، فكان جبريل من رسول الله ﷺ قاب قوسين ، لا يزيد بل ربما ينقص ، أو أدنى من القوسين ، ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ أي : فأوحى جبريل إلى محمد عبد الله ، أو : فأوحى الله إلى عبده محمدٍ عن طريق جبريل ما أوحى ، ولم يأت تفسير ما أوحي إليه هذه المرة ، فلنسكت عما سكت عنه القرآن .

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ، لقد رأى النبي ﷺ جبريل وله ستمائة جناح ، وصدَّق قلبُه وبصره ، فلم يشك في أن الذي رآه هو جبريل ، أحيانًا ترى سوادًا أمامك ، فتظن أنه فلان ، لا تستطيع الجزم بأنه هو ؛ لبعده أو لعدم وضوح الرؤية ، حتى إذا دنا منك وتأكدت منه صدَّق قلبك بصرك ، أو كذبه ، لكن النبي ﷺ حين رأى جبريل

قد استوى بالأفق الأعلى ، له ستمائة جناح ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ ، ولم يشك لحظة في أن هذا الذي يراه هو جبريل ، ﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴾ ؟ أفتجادلون محمدًا على ما يراه من جبريل ، وما يأتيه من الوحي ؟ فعلى أي شيء تستندون ؟ كما قال تعالى في سورة الطور : ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾ [الطور : ٣٨] أي : يصعدون فيه إلى السماء ، فيستمعون إلى الملأ الأعلى ، فلم يسمعوا تكليف الله لجبريل أن يأتيك ، فهم إذن يكذبوك ، ﴿ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ وهيهات .

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ ، هذه هي المرة الثانية التي رأى فيها النبي ﷺ جبريل عليه السلام على أصل خِلْقته ، وكانت ﴿ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ ليلة المعراج ، والسدرة شجرة النبق ، وقد قال النبي ﷺ عند هذه السدرة : « ورقها كآذان الفيلة ، ونبقها كقلال هَجَر » . [مسلم (١٦٢)] .

وسميت سدرة المنتهى ؛ لأنها ينتهي إليها ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وقد ورد أنها في السماء السادسة أو السابعة ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾ .

﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ قال ﷺ : « فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها » . [« صحيح مسلم »]

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ ، قال العلماء : في هذه الآيات إشارة إلى أدب النبي ﷺ ، حيث لم يتعد إلى ما لم يؤذن له فيه ، بل ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ ﴾ يمينًا ولا شمالاً ، ﴿ وما طغى ﴾ ، وما زاد على ما أذن له فيه ، ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ، وهذه الآية الكريمة فيها تحقيق ما ذُكر في قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ [الإسراء : ١] ، وإلى هنا ينتهي الكلام عن الوحي والرسالة ، وكيف كان جبريلُ يأتي النبي ﷺ ويُعلمه .

وللحديث بقية - إن شاء الله تعالى - حول الآيات (١٩- ٣٠) من سورة « النجم » .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

تنبيه

يسر جماعة أنصار السنة المحمدية أن تهنئ الدكتور / نجاح عثمان أبو العينين إسماعيل ، المدرس المساعد بكلية التربية بدمياط - جامعة المنصورة ، والداعية بفرع المنصورة ، لنيله درجة الدكتوراه في الفقه الإسلامي من كلية الشريعة والقانون بالقاهرة بتقدير : مرتبة الشرف الأولى ، والرسالة بعنوان : « أثر القواعد الفقهية المختلف فيها في اختلاف الفقهاء دراسة مقارنة في الفقه الإسلامي » .

وكانت لجنة الحكم والمناقشة مكونة من :

- أ . د / محمد أحمد الدغمي ، الأستاذ المتفرغ بالكلية ، وعضو مجمع البحوث الإسلامية رئيسًا ومناقشًا .
- أ . د / عبد العزيز محمد عزام ، الأستاذ المتفرغ بالكلية ، والعميد الأسبق لكلية الشريعة والقانون بدمنهور مشرفًا .
- أ . د / رمضان علي السيد الشرباصي ، أستاذ ورئيس قسم الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة الإسكندرية .

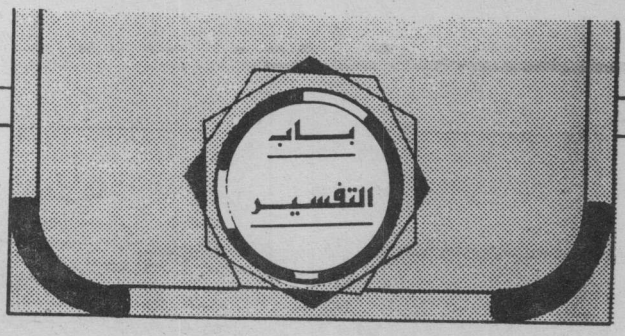

سورة النجم

الحلقة رقم [٢]

بقلم الدكتور : عبد العظيم بدوي

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ۞ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ۞ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ۞ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ۞ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ۞ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلآئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى ۞ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۞ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ [النجم : ١٩: ٣٠] .

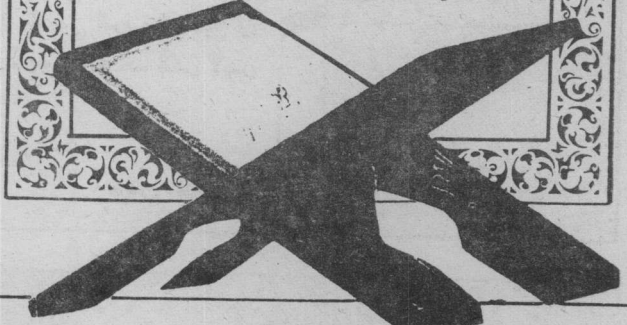

ثم تأخذ الآيات في بيان بطلان ألوهية كل ما سوى اللّه ، وإثبات أنه لا إله إلا اللّه ، أي : لا معبود بحق إلا اللّه ، فقال تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى ۞ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ .

وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة ، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة وحوله فناء ، مُعظم عند أهل الطائف ، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش ، وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم اللّه ، فقالوا : اللات ؛ يعنون مؤنثة منه ، تعالى اللّه عن قولهم علوًا كبيرًا . وكذا العُزّى من العزيز ، وكانت شجرة عليها بناءٌ وأستار بنخلة ، وهي بين مكة والطائف ، كانت قريش يعظمونها ، كما قال أبو سفيان يوم أحد : لنا العُزّى ولا عُزّى لكم . فقال رسول اللّه ﷺ : « قولوا : اللّه مولانا ولا مولى لكم » . [البخاري (٤٠٤٣)] .

وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر ، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة ، وإنما أفردت هذه بالذكر ؛ لأنها أشهر من غيرها .

وكانت العرب قد وقعوا فيما وقع فيه اليهودُ والنصارى من نسبة الولد للّه ، تعالى اللّه عن ذلك علوًا كبير ، ﴿ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ [النساء : ١٧١] . قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ

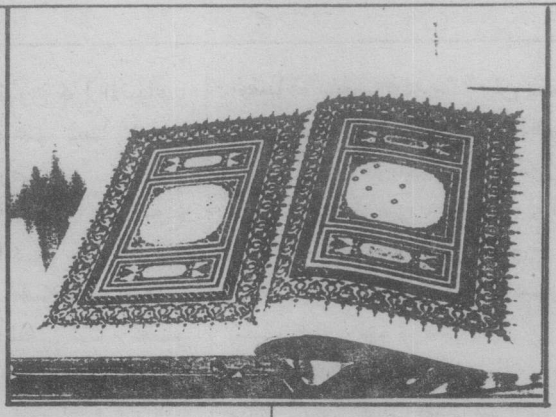

النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠] ، وأما مشركو العرب فقد نسبوا الولد للّه ، وجعلوا للّه ما يكرهون من جنس الولد ، وهو الأنثى ، فقالوا : الملائكة بنات اللّه ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل : ٥٧] كان العرب يحبون الذكور ويكرهون البنات ، وربما حمل بُغض البنت على وأدها ؛ أي دفنها حيّة ، خوفًا من العار ، أو خوفًا من الفقر ، ومع كراهيتهم للبنات نسبوهن إلى اللّه ، فقال تعالى مُنكرًا عليهم : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ۞ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٧: ٥٩] ، وقال تعالى هنا : ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ قسمة جائرة ظالمة ، غير عادلة ولا منصفة ، لو كانت بينكم وبين مثلكم من المخلوقين ما رضيها ، فكيف باللّه وهو الخالق الأحد الصمد ، الذي لم يَلد ولم يُولد ، ولم يكن له كفوًا أحد : ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٦] .

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ إن اللات والعزى ومناة إلا أسماء ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ التخمين ، ما عندهم ، ما معهم حجة ، ما معهم برهان ؛ لأنه ما من الأنبياء نبي إلا دعى إلى توحيد اللّه ، وتنزيهه عن الولد والشريك ، فعلام اعتمد المشركون في جعلهم الملائكة بنات اللّه ، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ ، ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت : ١٧] كما حكى ربنا عن ثمود .

ولقد كانوا يقولون عن أصنامهم : ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [يونس : ١٨] ، ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] ، وليس معهم على ذلك برهان ولا دليل ، وما هذا القول إلا أماني يمنيهموها الشيطان ، كما قال تعالى عنه — لعنه اللّه — : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] ، وليس كل ما يتمنى الإنسان يكون ؛ ولذا قال تعالى : ﴿ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ۞ لا . ليس للإنسان ما يتمنى ، وما نيل المطالب بالتمني . ﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ ، فهو سبحانه المتصرف في الآخرة كما أنه المتصرف في الدنيا ، فلا يجرؤ أحد في الآخرة على الكلام — مجرد الكلام — من غير إذن ، فضلاً عن الشفاعة ؛ ولذا قال تعالى عن اليوم الآخر : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [هود : ١٠٥] ، وقال : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨] ، فكيف يرجو المشركون شفاعة هذه الأصنام والحال ما ذكر .

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ ، كم هنا للتكثير ، ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ ﴾ من الملائكة الذين ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] ،

و﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] ، ومع ذلك ﴿ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ولذلك إذا كان يوم القيامة واشتد الهول وازداد الكرب ، استشفع الناس بالأنبياء فكلهم يقول : لست لها لستُ لها ، نفسي نفسي ، كما في الحديث الطويل عن أبي هريرة قال : أُتي رسول الله ﷺ بلحم يومًا ، فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة ، فقال : « أنا سيّدُ الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بم ذاك ؟ يجمع اللهُ يومَ القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس ، فيبلغ الناس من الغمّ والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعضُ الناس لبعض : ائتوا آدم ، فيأتون آدم فيقولون : يا آدم ، أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحًا ، فيقولون : يا نوح ، أنت أوّل الرسل إلى الأرض ، وسمّاك الله عبدًا شكورًا ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي ، نفسي نفسي اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ ، فيأتون إبراهيم فيقولون : أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى ﷺ ، فيقولون : يا موسى ، أنت رسول الله ، فضّلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى ﷺ : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضبْ قبله مثله ، ولن يغضبَ بعده مثله ، وإني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى عيسى ﷺ ، فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى ، أنت رسول الله ، وكلّمت الناس في المهد ، وكلمةٌ منه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى ﷺ : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر له ذنبًا ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمدٍ ﷺ ، فيأتوني فيقولون : يا محمد ، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي ، ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحدٍ قبلي ، ثم يُقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، اشفع تشفع . فأرفع رأسي فأقول : يا رب ، أمتي أمتي ، فيُقال : يا محمد ، أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى » .

فانظروا — رحمكم الله — لما قالوا : يا محمد ، اشفع لنا إلى ربك ، لم يملك النبي ﷺ إلا أن ينطلق فيخرّ تحت العرش ساجدًا ، فلا يرفع رأسه ، ولا يتكلم بشيء مما أراد ، حتى يأذن الله له ، فيقول : « يا محمد ، ارفع رأسك ، سل

و﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] ، ومع ذلك ﴿ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ولذلك إذا كان يوم القيامة واشتد الهول وازداد الكرب ، استشفع الناس بالأنبياء فكلهم يقول : لست لها لستُ لها ، نفسي نفسي ، كما في الحديث الطويل عن أبي هريرة قال : أُتي رسول الله ﷺ بلحم يومًا ، فرفع إليه الذراع ، وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة ، فقال : « أنا سيّدُ الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بم ذاك ؟ يجمع اللهُ يومَ القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، وتدنو الشمس ، فيبلغ الناس من الغمّ والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض : ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعضُ الناس لبعض : ائتوا آدم ، فيأتون آدم فيقولون : يا آدم ، أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحًا ، فيقولون : يا نوح ، أنت أول الرسل إلى الأرض ، وسمّاك الله عبدًا شكورًا ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي ، نفسي نفسي اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ ، فيأتون إبراهيم فيقولون : أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم إبراهيم : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وذكر كذباته ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى ﷺ ، فيقولون : يا موسى ، أنت رسول الله ، فضّلك الله برسالاته وبتكليمه على الناس ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم موسى ﷺ : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وإني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى عيسى ﷺ ، فيأتون عيسى فيقولون : يا عيسى ، أنت رسول الله ، وكلّمت الناس في المهد ، وكلمةٌ منه ألقاها إلى مريم وروحٌ منه ، فاشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم عيسى ﷺ : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر له ذنبًا ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى محمدٍ ﷺ ، فيأتوني فيقولون : يا محمد ، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي ، ثم يفتح الله عليَّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحدٍ قبلي ، ثم يُقال : يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، اشفع تشفع . فأرفع رأسي فأقول : يا رب ، أمتي أمتي ، فيُقال : يا محمد ، أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب . والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى » .

فانظروا — رحمكم الله — لما قالوا : يا محمد ، اشفع لنا إلى ربك ، لم يملك النبي ﷺ إلا أن ينطلق فيخرّ تحت العرش ساجدًا ، فلا يرفع رأسه ، ولا يتكلم بشيء مما أراد ، حتى يأذن الله له ، فيقول : « يا محمد ، ارفع رأسك ، سل

باب التفسير

سورة النجم

الحلقة الثالثة

بقلم الدكتور : عبد العظيم بدوي

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى ۞ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلآئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى ۞ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۞ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ۞ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۞ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ۞ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ۞ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى ۞ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ۞ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۞ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۞ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۞ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ۞ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۞ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى ﴾ [النجم : ٢٦- ٤١] .

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، وبعد : فقد وقفنا في العدد الماضي حول تفسير قوله تعالى : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى ﴾ ، وأوردنا حديث الشفاعة الطويل ، ونكمل حديثنا حول آيات سورة ((النجم)) ، فنقول وبالله تعالى التوفيق :

فانظروا — رحمكم الله — لما قالوا : يا محمد ، اشفع لنا إلى ربك ، لم يملك النبي ﷺ إلا أن ينطلق فيخرّ تحت العرش ساجدًا ، فلا يرفع رأسه ، ولا يتكلم بشيء مما أراد ، حتى يأذن الله له ، فيقول : ((يا محمد ، ارفع رأسك ، سل تعطه ، اشفع تشفع)) .

اعتذار

* وقع خطأ فني - غير مقصود - في العدد الماضي نعتذر عنه للقراء الأعزاء ولكاتب المقال ، حيث كررت الصفحة الأخيرة من المقال .

● من الخطأ أن تعتقد أن أحدًا يستطيع أن يشفع عند الله من غير أن يأذن الله.

● ومن الخطأ أن تقول : يا رسول الله . اشفع لي عند ربك ؛ لأنك بذلك تسأله ما لا يملك.

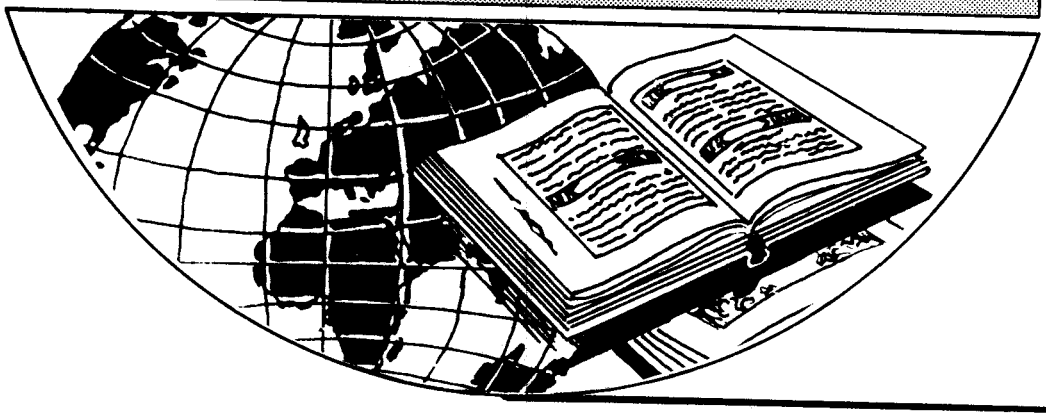

إذن من الخطأ أن تعتقد أن أحدًا يستطيع أن يشفع عند الله من غير أن يأذن الله ، سواء كان ملكًا مقربًا ، أو نبيًا ، مرسلاً ، أو وليًا صالحًا ، أو شهيدًا بذل روحه ومهجته في سبيل الله ، ومن الخطأ أن تقول : يا رسول الله ، اشفع لي عند ربك ؛ لأنك بذلك تسأله ما لا يملك ، هل الرسول ﷺ يملك الشفاعة ؟ لا ، كيف والله يقول : ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٤٤] ، فمادام الله وحده هو الذي يملك الشفاعة ، فلا تقل : يا رسول الله اشفع لي ، ولكن قل : اللهم شفّع فيّ نبيك ، فتسأل الله ؛ لأنه الذي يملك الشفاعة ، فإذا سألت الله أن يشفع فيك نبيه ، أذن الله لنبيه يوم القيامة أن يشفع فيك فيشفعه الله فيك .

ما هي الوسيلة إلى شفاعة صاحب الوسيلة ؟ كيف يتحصل المسلم على شفاعة رسول الله ﷺ ؟

أولاً : قال ﷺ : ((إذا سمعتم المؤذّن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلّوا عليّ ، فإنه من صلّى عليّ صلاةً صلى الله عليه بها عشرًا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة)) . [صحيح ، رواه مسلم (١/٢٨٨/٣٨٤) ، وأبو داود (٢٢٥/٥١٩) ، والترمذي (٥/٢٤٧/٣٦٩٤) ، والنسائي (٢/٢٥)] .

ثانيًا : قال ﷺ : ((من صلّى عليّ حين يصبح عشرًا ، وحين يمسي عشرًا ، أدركته شفاعتي يوم القيامة)) . نسأل الله العظيم ربّ العرش العظيم أن يشفّع فينا نبينا محمدًا ﷺ .

ومرةً ثانية يعيب الله على المشركين نسبتهم له البنات فيقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلآئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى ﴾ وعدم الإيمان بالآخرة هو سبب كل كفر ، وسبب كل ضلال ، وسبب كل معصية . إنسان لا يؤمن بيوم الدين ، لا يؤمن بأنه مجزي بعمله ، فما الذي يردعه عن الحرام ؟ ما الذي يردعه عن الظلم ؟ ما الذي يردعه عن الكفر ؟ ولذا قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ [الماعون : ١، ٢] ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۞ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۞ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۞ كَلاَّ بَلْ

تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ [الانفطار : ٦- ٩] .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى ۞ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ ، فهم حين جعلوا الملائكة بنات اللّه لم يستندوا في ذلك إلى حجة ، ولم يركنوا إلى برهان ، ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ﴾ ، والظن أكذب الحديث ، كما قال ﷺ ، ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ .

ثم أمر اللّه نبيه بالإعراض عنهم وعدم الالتفات إليهم ، فقال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ ، فالدنيا أكبر همهم ، وهم لا يعلمون إلا هذا القدر من علوم الدنيا ، والذي لا ينفعهم شيئًا ، كما قال تعالى : ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ۞ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم : ٦، ٧] ، فنفى عنهم علمًا وأثبت لهم آخر ، نفى علم الآخرة ، الذي هو علم الشريعة ، علم التوحيد ، علم الإسلام والإيمان والإحسان ، وأثبت لهم علم الحياة الدنيا ، وليس كله ، بل ظاهره فقط ، ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ ، ومع ذلك كانوا يزعمون أنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ، فقال اللّه لنبيه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ ، كما قال له : ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۞ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۞ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القلم : ٥- ٧] ، ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة : ٣] ، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧].

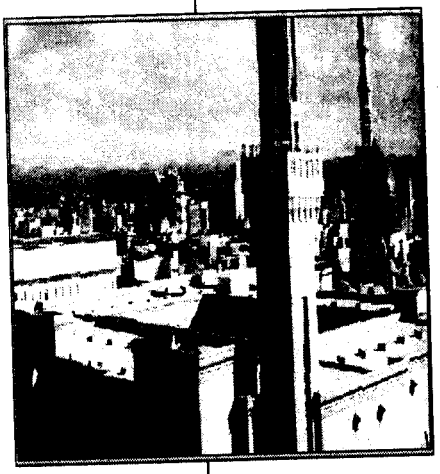

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ للّه سبحانه وتعالى هذا الملك كله ، علويه وسفليه ، السماوات السبع وما فيهن ، والأرضون السبع وما فيهن ، وما بين ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۞ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ [طه : ٥، ٦] ، فهذا الكون كله ملك للّه سبحانه وتعالى ، لا ينازعه في ملكيته أحد ، ويوم القيامة ((يطوي اللّه السماوات بيمينه ، ويأخذ الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ لمن الملك اليوم ؟ للّه الواحد القهار)) . ﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى ۞ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى ﴾ [النجم : ٢٤، ٢٥] ، ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۞ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾ [الليل : ١٢، ١٣] ، وهو سبحانه يتصرف في ملكه كيف يشاء ، فيجزي الظالمين بعدله ، ويعامل المحسنين بفضله ، ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ﴾ ، ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ : ٢٦] ، ﴿ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ [النساء : ٤٩] ، ﴿ وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ ، وهذه الآية فسرتها آيات ؛ منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِلْطَّاغِينَ مَآبًا ۞ لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۞ لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا ۞ إِلاَّ حَمِيمًا

وَغَسَّاقًا ۞ جَزَاءً وِفَاقًا ۞ إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا ۞ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ۞ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۞ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ۞ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۞ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۞ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۞ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۞ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا ۞ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا ﴾ [النبأ : ٢١- ٣٦] ، ليس ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ كما قال تعالى في حق أهل النار ، وإنما ﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا ﴾ ، فالله تبارك وتعالى يجزي الذين أساءوا بعدله ، ويجزي الذين أحسنوا بفضله وكرمه ، ولذا قال ﷺ : ((لن يُدْخِلَ أحدكم عملُه الجنةَ)) . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ((ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل)) . [متفق عليه] .

ثم وصف الله تعالى الذين أحسنوا بقوله : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ ، من المعلوم أن الذنوب قسمان : كبائر ، وصغائر ، وقد اختلف العلماء في تعريف الكبيرة ، وعدد الكبائر ، وأرجح أقوالهم في تعريف الكبيرة : أنها ما ترتب عليه عقوبة في الدنيا أو في الآخرة ، فعقوبة الدنيا الحدود ، وعقوبة الآخرة : غضب الله ، لعنة الله ، والعذاب الأليم ، فكل ذنب ترتب عليه حدّ في الدنيا ، أو توعد فاعله في الآخرة بالعذاب ، بغضب الله ، بلعنة الله ، فهو من الكبائر ، وما لم يترتب عليه حدّ في الدنيا ، ولا وعيد في الآخرة فهو من الصغائر ، وأما عدد الكبائر فقد قال بعض السلف : إنها السبع الموبقات المذكورة في قوله ﷺ : ((اجتنبوا السبع الموبقات)) . قالوا : وما هنّ يا رسول الله ؟ قال : ((الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والزنا ، وأكل الربا ، والسحر ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، والتولي يوم الزحف)) . [متفق عليه] .

لكن قال ابن عباس : إنها - أي الكبائر - إلى السبعين أقرب ، والمهم تعريف الكبيرة وليس عددها .

فالله سبحانه برحمته تفضل على الذين يجتنبون الكبائر بمغفرة الصغائر ، فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ ، وللعلماء في تفسير (اللَّمَمَ) قولان :

الأول : اللمم : الصغائر ، فاجتناب الكبائر من أسباب تكفير الصغائر ، وبذلك صرّح الرب سبحانه في قوله : ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ [النساء : ٣١] .

الثاني : اللمم : ما يلم به الإنسان من الكبائر ، ثم يتوب فيتوب الله عليه ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۞ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣- ١٣٦] .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ، إن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا ، ومن علمه أنه يعلم المصلح من المفسد ، ويعلم البَر من الفاجر ، وليس بحاجة إلى أن يعرّف الإنسان بنفسه ، أو يعرّفه بغيره ، فـ ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ

أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ، وما دام كذلك ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ ، ولم يمدح الإنسان نفسه ! لِمَ يزكيها ؟ لِمَ يشهد لها بالبر والتقوى ! ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ۞ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ٤٩، ٥٠] ، ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ التقوى أين محلها ؟ النبي ﷺ كان يشير إلى صدره ويقول : ((التقوى هاهنا ، التقوى هاهنا)) ، ويشير إلى صدره ﷺ ، وما في الصدور لا يعلمه إلا الله ، ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ ، ولذا كان النبي ﷺ يكره الأسماء التي فيها تزكية للنفس ، وكان يغيرها ، فزينب كان يقال لها : برّة ، فقال ﷺ : ((تزكي نفسها)) . فقالوا : ما نسميها يا رسول الله ؟ قال : ((سموها زينب)) . [متفق عليه] .

ونهانا ﷺ عن مدح الغير والثناء عليه من غير حاجة ، وعلمنا كيف يكون المدح عند الحاجة ، فعن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : أثنى رجلٌ على رجلٍ عند النبي ﷺ فقال : ويلك ، قطعت عنق صاحبك ، قطعت عنق صاحبك : (مرارًا) ، ثم قال : ((من كان منكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل : أحسب فلانًا ، والله حسيبه ، ولا أزكي على الله أحدًا ، أحسبه كذا وكذا ، إن كان يعلم ذلك منة)) . [متفق عليه] .

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى ﴾ عن طاعة الله ، وأعرض عن الهدى بعد إذ جاءه ، واستحب العمى على الهدى ، ﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى ۞ وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۞ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ [القيامة : ٣١- ٣٣] ، ﴿ وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى ﴾ ، قال ابن عباس : أطاع قليلاً ثم قطعه ، وقال عكرمة : كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئرًا فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل ، فيقولون : أكْدَيْنَا ، ويتركون العمل .

يقول تعالى : ﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ﴾ ؟ أي : أعند هذا الذي أمسك يده خشية الإنفاق وقطع معروفه ، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده حتى قد أمسك عن معروفه ، فهو يرى ذلك عيانًا ؟ أي : ليس الأمر كذلك ؛ لأنه لا يعلم الغيب إلا الله ، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بُخْلاً وشحًا وهلعًا .

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۞ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ ألم يقرأ هو بنفسه ، أو يخبره غيره عما في صحف إبراهيم وموسى ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ لا يؤخذ إنسانٌ بجريرة غيره ، وهذا من عدل الله تبارك وتعالى ، لا يُؤاخِذُ والدًا بذنب ولده ، ولا ولدًا بذنب والده ، ولا صديقًا بذنب صديقه ، لا تحمل نفسٌ وزر أخرى ، ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [فاطر : ١٨] ، ولو كان المدعو للحمل ذا قرابة قريبة .

وهنا إشكال : هنا يقول الله تعالى : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ ، ويقول في موضع آخر : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : ١٣] ، فكيف يزال هذا الإشكال ؟

الجواب : أنه ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ إلا إذا كانت تسببت في وزر الأخرى ، بأن دعتها إليه ، وزينته له ، أو عاونتها عليه ، فحينئذ تحمل وزرها ووزر غيرها من غير أن ينقص من وزر الأخرى شيء ، كما صرح بذلك ربنا سبحانه في قوله : ﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [النحل : ٢٥] ، فوز الغير من كسبهم ، فهم يحملونه فوق أوزارهم ، ولا ينقص من أوزار الذين يضلونهم

شيء ، كما قال النبي ﷺ : ((من سنّ في الإسلام سنة حسنة ، فلها أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)) . [صحيح . رواه مسلم (١٠/٧)] .

وقال ﷺ : ((ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها ؛ لأنه كان أول من سنّ القتل)) . [متفق عليه] .

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۞ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ فأدّى للّه كل ما أمره به ، واستقام على شرعه : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۞ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ كما لا تزر وازرة وزر أخرى ، لا ينفع نفسًا إيمان غيرها ، وإنما ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦] ، ﴿ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [يونس : ١٠٨] .

وقد استنبط الإمام الشافعي ، رضي اللّه عنه ، من قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ أن إهداء ثواب قراءة القرآن للأموات لا ينفعهم ؛ لأنه ليس من سعيهم ، وقال : إن باب القربات يقتصر فيه على ما أذن فيه الشارع ، ولا يستخدم فيه القياس ، فإذا قرأ رجل القرآن ثم قال : اللهم إني وهبت ثواب ما قرأت لفلان من الناس ، لم ينتفع فلان بشيء ؛ لأنه ليس من سعيه .

لكن هناك بشرى لا بد من تبشير المسلمين بها ؛ لأن جهلهم بها هو الذي أوقعهم في محدثة إهداء ثواب القرآن للأموات ، وهذه البشرى هي أنه ما من ولدٍ صالح يقرأ القرآن يتعبد بقراءته ، ويبتغي بذلك الأجر الذي وعد اللّه به قارئ القرآن على لسان رسول اللّه ﷺ حيث قال : ((من قرأ حرفًا من كتاب اللّه فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول آلم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف)) . فإذا قرأ الولد القرآن فأعطاه اللّه - مثلاً - ألف حسنة كتب اللّه لأبيه ألف حسنة ، ولأمه مثل ذلك ، من غير أن يهدي أو يهب ، وهذا عام في كل عمل صالح يعمله الولد ؛ لأنه من سعي أبيه ، واللّه يقول : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴾ يراه اللّه ورسوله والمؤمنون ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة : ١٠٥] ، قال العلماء : وفي هذه الآية بشارة للصالحين ، وإنذار لغيرهم ، يا أيها الصالح أبشر ، فإن اللّه سيرفع ذكرك ، وينشر محاسنك على رءوس الخلائق يوم القيامة ، ويا أيها الفاجر أقلع ، فإن عيوبك المستورة ستنشر يوم القيامة : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق : ٩] ، ويا لها من فضيحة ، نسأل اللّه أن يستر عيوبنا .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الأَوْفَى ﴾ أي : الأوفر ، ومن غير ظلم ولا عدوان . وللحديث بقية .

تهنئة بالدكتوراه

تتقدم جماعة أنصار السنة المحمدية بخالص التهنئة إلى الباحث : رفعت أحمد إبراهيم سليمان المدرس المساعد بهيئة المواد النووية بمناسبة حصوله على درجة الدكتوراه في فلسفة العلوم الجيوفيزيقية من كلية جامعة عين شمس ، وتتمنى له مزيدًا من التقدم خدمة الإسلام والمسلمين .

وأسرة تحرير المجلة تتقدم بخالص التهنئة للباحث ، وتتمنى له مزيدًا من التقدم .

جماعة أنصار السنة - فرع هرية

باب التفسير

سورة النجم

الحلقة الأخيرة

بقلم الشيخ :
عبد العظيم بدوي

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة النجم] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة : ١٢] ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴾ [القيامة : ٣٠] ، قد ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى : ٤٧] ، ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات : ٥٠، ٥١] ، لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إلى الله . ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ ، ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ ، والضحك والبكاء ظاهرتان في الإنسان ، وخالقهما هو الله ، وهما دلائل قدرة الله ، الإنسان هو الإنسان ، أحيانًا تراه ضاحكًا ، وأحيانًا تراه باكيًا ، وربما ضحك وبكى في ساعة واحدة ، وربما ضحك وبكى بسبب واحد ، يضحك اليوم من شيء ، ويبكي منه في الغد ، وربما يضحك إنسان من أمر يبكي منه آخر ، وهذا من قدرة الله سبحانه ، ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ [الملك : ٢] ، ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ من مصدر واحد ، من أصل واحد ، ﴿ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ ، نطفة الرجل تصب في رحم المرأة فيكون منها الذكر والأنثى ، فأي قدرة هذه التي تجعل من الشيء الواحد جنسين مختلفين ؟ ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۞ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ [الواقعة : ٥٨، ٥٩] ، ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۞ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة : ٣٦- ٤٠] ؟! سبحانك بلى .

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن

يَشَاءُ الذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : ٤٩، ٥٠] . وهذه الآية ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ۞ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ كقوله تعالى عن عالم النبات : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤] ، ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨] ، ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٠، ٢١] ، ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى ﴾ أي عليه أن يعيدكم بعد الموت ، كما قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] ، ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ [الروم : ٢٧] ، ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] . قال العلماء : وفي ذكر هذه الآية : ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَى ﴾ عقب قوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ۞ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾ إشارة إلى أن النشأة الأولى دليل على إمكان النشأة الثانية كما قال تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٧- ٧٩] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۞ أَوَ لاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم : ٦٦، ٦٧] .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ أغنى الناس فرزقهم من ماله ، وأقنى : أي جعل المال لهم قنية ، ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ﴾ نجم كان يُعبد ، فقال الله لعابديه : هذا الشِّعْرَى الذي تعبدونه خَلْقٌ من خلقي ، وأنا ربه ، فأنا المستحق للعبادة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] ، وهذه كلها بعض آيات الله ﴿ فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت : ٥٣] ، ثم ذكر ربنا بعض آياته في التاريخ وفي القرون والأجيال ، فقال : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى ۞ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى ﴾ . ﴿ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٨] ؟ ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى ۞ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى ﴾ قرى قوم لوط ﴿ أَهْوَى ﴾ رُفعت إلى أعلى ، ثم جُعل عاليها سافلها ﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾ من العذاب ، ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى ﴾ ، فبأي نعمة من نعم الله عليك تشك أيها الإنسان ، ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الأُولَى ﴾ . هذا محمد رسول الله ﷺ نذير من جملة النذر الأولى ، كما قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٩] ، أنا لست أول من يدعي النبوة والرسالة ، وإنما سبقني نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وغيرهم كثير ، فما أنا إلا واحد من جملة المرسلين ، أتيتكم بما أتى به كل رسول أمته ، ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح : ٣] ، فماذا تنكرون عليَّ ؟!

﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ [القمر : ١] ، وقوله : ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء : ١] ، ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴾ إذا وقعت فلن يردها أحد .

﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴾ أفمن هذا الحديث الذي هو أحسن الحديث ﴿ تَعْجَبُونَ ۞ وَتَضْحَكُونَ ﴾ استهزاءً وسخرية ، ﴿ وَلاَ تَبْكُونَ ﴾ كما يبكي المؤمنون إذا قرءوا القرآن أو استمعوا له ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ۞ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ۞ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦- ١٠٩] ، ﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴾ ، السمود : الغناء ، وكان المشركون إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم قالوا : يا جارية غني لنا ، وصفقوا وصفروا حتى لا يسمعوا القرآن .

والغناء - للأسف - من المصائب التي عمت ، وفتن بها كثير من المسلمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والغناء والقرآن ضدان ، لا يجتمعان في قلب إلا أخرج أحدهما الآخر ، وللغناء أسماء منها : اللهو ، واللغو ، والزور ، والباطل ، وصوت الشيطان ، ومزمار الشيطان ، ومنبت النفاق ، والسمود :

أسماؤه دلت على أوصاف
تبًا لذي الأسماء والأوصاف

فيا إخوة الإسلام ، إياكم والغناء ، فإنه ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل ، كما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ومحب الغناء لا يمكن أن يحب القرآن أبدًا ، بل لا يمكن أن يستمع إليه ، بل إنه كما قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان : ٦، ٧] .

نعوذ بالله من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

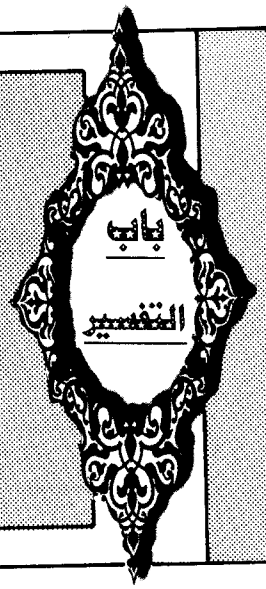

سورة القمر

بقلم الدكتور :
عبد العظيم بدوي

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۞ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۞ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۞ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۞ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۞ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ ۞ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۞ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : ١- ٨] .

مر الفضيل بن عياض رحمه الله برجل ، فقال له : يا هذا ، كم مضى من عمرك ؟ فقال الرجل : ستون عامًا . فقال الفضيل : فأنت منذ ستين عامًا تسير إلى ربك ، يوشك أن تبلغ ، فقال الرجل : إنا لله وإنا إليه راجعون . فقال الفضيل : أتعرف تفسيره ؟ من علم أنه لله عبد ، وأنه إلى الله راجع ، فليعلم أنه موقوف ، ومن علم أنه موقوف فليعلم أنه مسئول ، ومن علم أنه مسئول فليعد للسؤال جوابًا ، فقال الرجل : فما الحيلة ؟ قال : يسيرة ، قال : ما هي ؟ قال : تحسن فيما بقي ، يغفر لك ما قد مضى ، فإنك إن أسأت فيما بقي ، أخذت بما مضى وما بقي .

فهل أعددتم الجواب يا عباد الله؟ أم ماذا عساكم تنتظرون ؟ ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ هذا إخبار من ربكم ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ [النساء : ١٢٢] ؟! الله سبحانه وتعالى من رحمته بعباده ينذرهم ، أن أفيقوا عبادي من غفلتكم ، وانتبهوا من رقدتكم ، فقد ﴿ أَزِفَتِ الآزِفَةُ ﴾ [النجم : ٥٧] ، و﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ ، فماذا أعددتم لها ؟ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۞ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ٩- ١١] . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

اتَّقُوا اللَّه وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّه إِنَّ اللَّه خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّه فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۞ لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ١٨- ٢٠] .

حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، وتجهزوا للعرض الأكبر : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٨] . ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾ ، ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّه فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ [النحل : ١] ، ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۞ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ لاَهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنبياء : ١- ٣] ، فلا تكن من هؤلاء يا عبد اللَّه ، وأحدث توبة ، وأعدّ للسؤال جوابًا .

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ وانشقاق القمر كان آية من الآيات التي أظهرها اللَّه على يد نبيه ﷺ تأييدًا له ، وإظهارًا لصدقه ، فقد كان المشركون يعتذرون عن كفرهم بأنهم لم يأتهم محمدٌ بآية كما أرسل الأولون ، ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ [الأنعام : ١٠٩] ، ولو كانوا صادقين لكفاهم القرآن عن

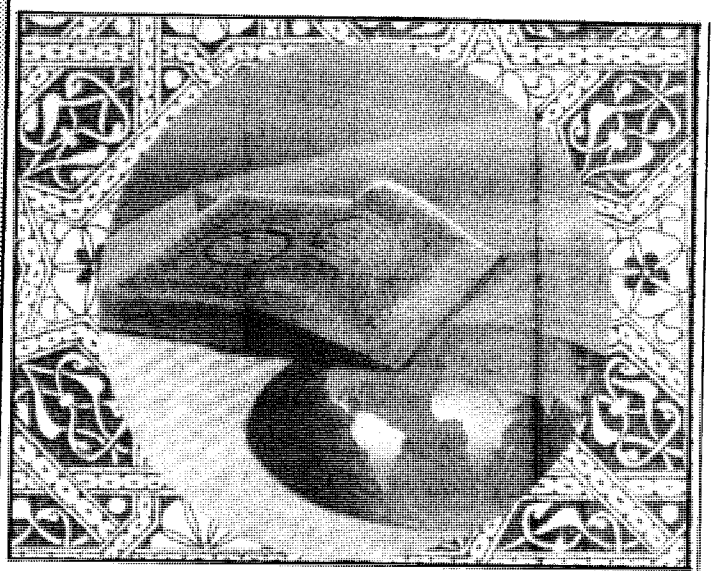

سواه من الآيات ، فالقرآن أعظمُ آية أيدَ اللَّه بها نبيه ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّه وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٥٠، ٥١] ! ولكنه العناد والاستكبار والاستعلاء عن اتباع محمد ﷺ الذي لم يكونوا يحسبونه من عظماتهم ، والدليل على هذا أنهم طلبوا الآيات ، ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

(عن أنس رضي اللَّه عنه قال : سأل أهلُ مكة أن يريهم آيةً ، فأراهم انشقاق القمر) [متفق عليه] .

وعن ابن مسعود قال : انشقّ القمر على عهد رسول اللَّه ﷺ فرقتين : فرقة فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « اشهدوا » [متفق عليه] .

وعنه رضي اللَّه عنه قال : انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين ، فقال كفارُ قريش أهل مكة : هذا سِحر سَحَركم به ابنُ أبي كبشة ، انظروا السُّفّار ، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق ، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سِحر سحركم به . قال : فسئل عن السُّفّار ، قال : وقدموا من كل جهة ، فقالوا : رأينا ، فأنزل اللَّه عز وجل : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۞ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾[1]، فهو

---

(١) قال السيوطي في « الدر » (٧/٣٧٠) : أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في « الدلائل» من طريق مسروق عن ابن مسعود .

العناد والاستكبار ، كما ذكر الله عنهم في أكثر من آية ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤، ١٥] ، ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام : ٧] .

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ هذا سحر لن يبقى طويلاً ، وسيذهب مع صاحبه ، ﴿ وكَذَّبُوا ﴾ بالحق لما جاءهم ، و﴿ اسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ ، ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ ، وهذه حقيقة كل من كفر برسول الله ، كلُّ من كذّب رسول الله فهو متبع لهواه ، كما قال تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٠] .

﴿ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ الخير والشر كلاهما مستقرٌّ بأصحابه ، والخير مستقر بأهله في الجنة ، والشرّ مستقر بأهله في النار .

﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۞ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] ، أولئك المشركون ليسوا طلاب حق ، وليسوا باحثين عن الحقيقة ، إنما هم مكابرون معاندون ، يطلبون الآيات إعجازًا لا استرشادًا ، ولذلك حين تأتيهم الآيات كما طلبوا ﴿ يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ ، والخصم حين يصل إلى درجة العناد والمكابرة فالواجب تركه والإعراض عنه ، وعدم تضييع الوقت معه ، ولذا أمر الله نبيه بهذا فقال له : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ كما قال له من قبل في سورة النجم : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۞ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ . ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ اتركهم ولا تهتم بهم ، ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يونس : ٦٥] ، فإن لهم يومًا شديدًا بأسه ، ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾ شيء غريب ، تنكره الأعين ، وتنكره القلوب ، والداعي هو المنادي المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۞ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ [ق : ٤١، ٤٢] .

قال كعب الأحبار : يأمر الله تعالى ملَكًا أن ينادي على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة : إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ، فتراهم ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾ خاشعين خاضعين ذليلين .

قال العلماء : وإنما نسب الله سبحانه الخشوع إلى الأبصار ؛ لأن العيْن موضعُ الذلّة والعزّة ، فذلة الإنسان تُرى في عينيه ، وعزّته ترى في عينيه ، ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ [القارعة : ٤] ، ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ﴾ أي : مسرعين إلى إجابة من دعاهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ [ق : ٤٤] أي : فيخرجون سراعًا ، وكما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۞ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [المعارج : ٤٣، ٤٤] ، ﴿ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۞ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۞ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر : ٨- ١٠] .

والحمد لله أن جعل اليوم الآخر ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ، فإنه يفهم من ذلك أنه على المؤمنين يسير .

نسأله سبحانه أن ييسّر هذا اليوم ويهوّنه علينا .

كأنها وَصيَّةُ مُوَدِّعٍ يا صفوت !!

بقلم د . عبد العظيم بدوي

عن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول اللّه ﷺ موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول اللّه ، كأن هذه موعظة مُوَدّع ، فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « أوصيكم بتقوى اللّه والسمع والطاعة ، وإن عبدًا حبشيًا ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » . [صحيح أبي داود : ٣٨٥١] .

إنما ظنّ ذلك الصحابيُّ أنّ هذه الموعظة موعظة مُوَدِّعٍ لما سمع من مبالغة رسول اللّه ﷺ فيها أكثر من غيرها ؛ لأن المودّع يحرص على الوصيّة والنصح ، ويُبالغ في ذلك أكثر من غيره .

وقد صدر العددُ الماضي من مجلة التوحيد المباركة التي كان يرأسها فضيلة الأخ الكريم : صفوت الشوادفي – رحمه اللّه – صدر ذلكم العدد متضمنًا وصايا بليغة ، ونصائح جامعة للدين كله ، على غير عادته – رحمه اللّه – في الكتابة ، فكانت وصيّة مُودّع .

استفتح – رحمه اللّه – تلك الوصايا البليغة بالنهي عن الشرك المستلزم للأمر بالتوحيد ، وكانت الوصيّة قبل الأخيرة الأمر بالتواضع المستلزم للنهي عن الكبر ، وهذه – واللّه – وصايا الأنبياء والحكماء .

عن عبد اللّه بن عمرو قال : قال رسول اللّه ﷺ : « إن نبيّ اللّه نوحًا ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه : إني قاصٌّ عليك الوصيّة ، آمرك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين : آمرك بلا إله إلا اللّه ، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ، ووضعت لا إله إلا اللّه في كفة ، لرجحت بهن ، ولو أن السماوات السبع ، والأرضين السبع كنّ حَلْقةً مبهمة لقصمتهن لا إله إلا اللّه ، وسبحان اللّه وبحمده ، فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق كل شيء ، وأنهاك عن الشرك والكبر » . [صحيح الأدب المفرد : ٤٢٦] .

وحكى اللّه تعالى عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه وهو يعظه : ﴿ يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّـهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، ﴿ يَـا بُنَـيَّ إِنَّهَـا إِن تَـكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِـي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّـهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَـا بُنَـيَّ أَقِـمِ الصَّـلاَةَ وَأْمُـرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُـلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٣- ١٩] .

وعلـى طريقـة الأنبيـاء والحكمـاء سـار فضيلة الشيخ الشوادفي - رحمه اللّه - حتى لقي اللّه ، فقد عاش يدعو إلى التوحيد ويـأمر به ، وينهى عن الشـرك ويحذّر منـه ، ورأس مجلـة التوحيـد فطوّرهـا تطويـرًا ، وحسّـنها تحسينًا ، وكان آخر ما كتب فيها تلك الوصايـا الجامعة ، والنصـائح الغاليـة ، التـي ختمهـا بقولـه : واعلـم أن المـوت آت ، وكل آت قريب .

ولم يخطر بباله هو كمـا لم يخطر ببال أحدٍ ممن قـرأ تلـك الوصايـا أن المـوت أقرب إليه هو من غيره من قرائـه وإخوانـه ، وأن هذه الوصايـا سـتكون آخر مـا يكتـب فـي المجلـة المباركـة التـي يرأسها : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّـاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمـان : ٣٤] .

ألم أقل : كأنها وصيّة مودع يا صفوت !!

وبعد : فـإن القلـب ليحـزن ، وإن العيـن لتدمع ، وإنا لفراقك يا أخانـا لمحزونـون ، ولا نقـول إلا مـا يرضـي ربنـا : إنـا للّـه وإنـا إليـه راجعون . اللهم أجرنا فـي مصيبتنـا ، واخلـف لنـا خيرًا منهـا ، فـاصبروا يـا أنصـار السـنة واحتسبوا ، فـإن اللّـه تعـالى قـال فـي الحديث القدسي : « ما لعبدي المؤمن عندي جـزاء إذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » . [البخاري : ٦٤٢٤] .

ولئن فقدتم أخاكم صفـوت الشـوادفي - رحمه اللّه - فقد أبقى اللّه لكم شيخكم صفوت نور الدين ، ونـور الديـن لـن يطفأ أبدًا بـإذن اللّـه ، فـالتفوا حـول شـيخكم : ﴿ وَاعْتَصِمُـواْ بِحَبْـلِ اللَّـهِ جَمِيعًـا وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ .

وآخـر دعوانـا أن الحمد للّه رب العالمين .

☆☆☆

سورة القمر

الحلقة الثانية

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة القمر] .

بقلم الدكتور :
عبد العظيم بدوي

ثم ذكر الله تعالى مصارع المكذبين من السابقين ليعتبر بهم هؤلاء المكذبين ، فقال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ ﴾ ؛ لأنه يقول : لا إله إلا الله ، والآلهة عندهم متعددة ، ﴿ وَازْدُجِرَ ﴾ ، أي : زجروه عن هذه الكلمة كلمة التوحيد ، وهددوه إن هو استمر عليها بالطرد من البلاد أو الرجم بالحجارة ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٦] ، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ لقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا ، فكان موقفهم منه بعد هذه السنين الطويلة أن ﴿ مَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۞ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح : ٢٢، ٢٣] ، ووجد

نوحٌ في نفسه من موقفهم هذا فأوحى اللَّه إليه : ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [هود : ٣٦] ، فسأل اللَّه أن يهلكهم ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦، ٢٧] ، ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [المؤمنون : ٢٧] ، فلما جاء الأجل المسمى ، ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاء مُّنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۞ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴾ ، وهي السفينة التي صنعها بأمر اللَّه ، ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ ، ﴿ حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَآ آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ۞ وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ۞ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ۞ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ [هود : ٤٠- ٤٤] . ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً ﴾ تركنا السفينة على الجودي زمنًا حتى شاهدتها أجيالٌ ، وتركنا جنسها إلى الآن ، والسفن تجري في البحر ، تذكر الناس بأول سفينة ، سفينة نوح عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۞ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ۞ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ ۞ إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ [يس : ٤١- ٤٤] .

﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ، فهل من معتبر ومتعظ ؟ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ؟ كان واللَّه عذابًا شديدًا ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ﴾ ، القرآن كلام اللَّه رب العالمين ، يسّر اللَّه قراءته ، ويسّر فهمه ، ويسر حفظه ، قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما : لولا أن اللَّه يسره ، ما

استطاع لسان أن ينطق بحرف منه . ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ، قال مطر الوراق : فهل من طالب علم فيعان عليه ؟! ﴿ كَذَّبَتْ عَادٍ ﴾ رسولها هودًا عليه السلام ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ؟ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ باردة جدًا ﴿ فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴾ استمر بهم نحسه حتى انتقلوا إلى عذاب القبر ، ثم إلى عذاب الآخرة : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ١٢٧] ، ﴿ تَنزِعُ النَّاسَ ﴾ من الأرض ، فترفعهم إلى أعلى ، ثم ترميهم إلى الأرض ، فتنفصل رءوسهم عن أجسادهم ، ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ ، ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٧] ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ، كان والله عذابًا شديدًا موجعًا ، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ، فهل من معتبر ومتعظ ، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ﴾ ، يعنون صالحًا عليه السلام ، أتتبع أمة بأسرها رجلاً واحدًا ؟ وهل يمكن أن يكون واحدٌ أفهم من أمة ؟ ﴿ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ لو تركنا ما يعبد آباؤنا من قبل ، واتبعنا هذا الرجل فيما يدعونا إليه من عبادة الله وحده ، ﴿ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ فرأوا - قبحهم الله - من الضلال أن يتبعوا رجلاً واحدًا ، ولم يروا من الضلال أن يعبدوا غير الله ، ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصلت : ١٧] ، ثم قالوا منكرين أن يكون الله اصطفى صالحًا عليه السلام من بينهم : ﴿ أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا ﴾ لا . لا ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] ، ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾ ذو أطماع وغايات يطمع في تحقيقها بادعائه أنه رسول الله ، وهكذا طارت هذه الكلمة في الآفاق ، وتلقتها قلوب أعداء الدعوة والدعاة في كل زمان ، فيلقون بها وسط العامة ليصدوهم عن اتباع الدعاة والمصلحين ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢] ، يقولون : فلان غير صادق ، فلان كذاب أشر ، متخذٌ الدعوة وسيلة ، متستر في الدعوة ، ومتستر في الدين ، له مصالح ، وله مآرب أخرى ، يريد أن يصل عن طريق الدعوة إلى منصب أو سيادة ، وهيهات هيهات !! ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] ؟ ﴿ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ

أَشِرٌ ﴾ ، قال تعالى : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ ، وهكذا نتصور الدنيا والآخرة يومين اثنين : اليوم ، وغدًا ؛ لئلا تطول الآمال فتقسو القلوب ، وتنسى الآخرة ، ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ ﴾ ، هم أم صالح ؟ كما قال تعالى لنبينا محمدٍ ﷺ ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۞ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۞ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القلم : ٥- ٧] .

﴿ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ ، وكانوا قد سألوا صالحًا عليه السلام أن يأتيهم بآية ، وهي أن تنشق هذه الصخرة عن ناقة عُشَراء ، فإن فعل آمنوا به ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ ﴾ كما طلبوا ، ﴿ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾ ، اختبارًا وامتحانًا ، ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ أي : انتظر ما يئول إليه أمرهم ، واصبر عليهم ، فإن العاقبة لك والنصر في الدنيا والآخرة ، ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ﴾ وبين الناقة ، يومٌ لهم ويومٌ لها ، كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الشعراء : ١٥٥] ، ﴿ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ ، إذا حضرت غابوا ، وإذا غابت

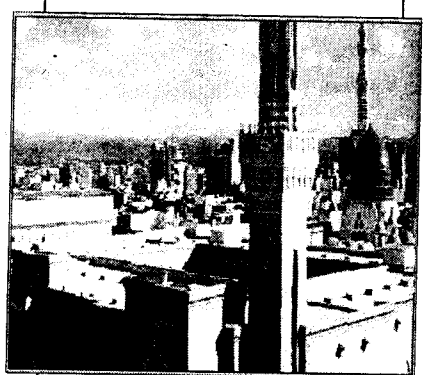

حضروا ، لا يزاحموها يومها ، ولا تزاحمهم يومهم ، وخرجت الناقة - كما طلبوا - فلم يفوا بما عاهدوا الله عليه من الإيمان ، ولم يحترموا الناقة كما أمرهم نبيهم صالح عليه السلام ، ﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾ ، ﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۞ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۞ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ [الشمس : ١٢- ١٤] ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ، ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ والمحتظر : هو المرعى بالصحراء حين ييبس ويحترق ، وتسفيه الرياح ، والمعنى : فبادوا عن آخرهم ، لم تبق منهم باقية ، وخمدوا وهمدوا كما يهمد أي ييبس الزرع والنبات . ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

وللحديث بقية - إن شاء الله تعالى - مع باقي آيات سورة « القمر » .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

سورة القمر

بقلم الدكتور : عبد العظيم بدوي

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۢ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴾ ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۞ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۞ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ۞ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ۞ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : ١٦١-١٦٩] . قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ﴾ ، وهي الحجارة المسوَّمة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۞ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ﴾ [هود : ٨٢، ٨٣] ، ﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ ، ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣٣] .

﴿ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴾ ، كما نجينا لوطًا وأهله ننجي كل من شكر ربه وعرف فضله ، فآمن به وأطاعه : ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا ﴾ ، أي : أنذرهم لوط عليه السلام وخوفهم ، ﴿ فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴾ : شكوا وارتابوا في صحة ما أنذرهموه . ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ ﴾ ، لما جاءت الملائكة لوطًا عليه السلام

لإهلاك القوم ، جاءوا في صورة بشر ، فذهبت العجوز الهالكة امرأة لوط ، فأخبرتهم بضيفانه ، فقالت : ما رأيت أجمل ولا أحسن من هؤلاء ، ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ ، يريدون أن يفعلوا بهؤلاء الضيوف ، فقام لوط في وجههم يسدّ الباب بذراعيه ، وهو خائف أن يغلبوه ، فنظر إلى ضيوفه - كأنه يعتذر إليهم - قائلاً لقومه : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [هود : ٨٠] ؛ لأنه كان غريبًا عن القوم ، لم يكن له فيهم أهل ولا عشيرة ، ولكن القوم أصرّوا على ما جاءوا له ، وهنالك كشف الضيوف للوط عليه السلام عن هويتهم : ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ [هود : ١٨٣] ، وخرج جبريل عليه السلام فمسح أعينهم ، فتركهم عميانًا لا يبصرون ، فخرجوا يتحسسون الطريق ولا يهتدون سبيلاً ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ ، وكان هذا في المساء ، وفي الصباح الباكر كان العذاب الذي أبادهم : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ ، فسّره ربنا بقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۞ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٢، ٨٣] ، ﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴾ ، جاءهم موسى وهارون عليهما السلام بآيات بينات ، فـ ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

ولما قصّ الله على نبيه قصص هؤلاء الأمم ، ولا شك أنه ﷺ تلاها على قريش ، وجّه الله سبحانه السؤال إلى مشركي قريش ، فقال : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ ﴾ ؟ يعني : أكفاركم يا معشر قريش خيرٌ عند الله وأفضلُ من قوم نوحٍ وعاد وثمود ، وقوم لوط وآل فرعون ، فلن يعذبكم الله وإن كفرتم لأنكم عنده : ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ ، أم أن الله قد كتب لكم براءة من العذاب في الزبر ؟!

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ ، فغرتهم كثرتهم وقوتهم : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ ، وهذه الآية من دلائل النبوة ؛ لأنها نزلت بمكة ، قبل الهجرة ، وقبل الإذن لأصحاب النبي ﷺ في القتال ، ولذا كان عمر رضي الله عنه يقول : كنت أقرأ هذه الآية ولا أعرف معناها ، وأقول : من هو هذا الجمع الذي سيهزم ويولي الدبر ، حتى إذا كان يوم بدر ، ودخل رسول الله ﷺ عريشه ، وأخذ يناشد ربه : « اللهم نصرك الذي وعدتني » ، وأبو بكر رضي الله عنه يقول : يا رسول الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله منجز لك ما وعدك . فأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة ، ثم أفاق فرحًا مسرورًا ، فخرج وهو يقول : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ ، قال عمر : فعرفت تفسيرها . وقد هزم الجمع يوم بدر ، وولوا الأدبار ، ﴿ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣] ، ولذا قال تعالى : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ ، والساعة أدهى من كل داهية ، وأمرّ من كل مرّ . ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ ، بتكذيبهم رسل ربهم . ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي

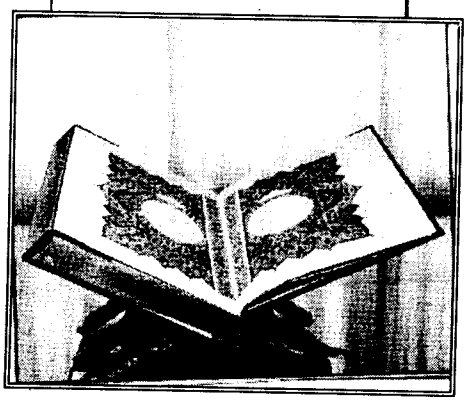

النار عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ ، ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ : ٢٦] ؛ لأنهم كانوا في الدنيا هائمين على وجوههم ، يتبعون كل ناعق من غير معرفة ولا برهان ، فيُسْحَبون على وجوههم في النار ، ويُقال لهم تقريعًا وتوبيخًا : ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ ، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۞ لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ ۞ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۞ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : ٢٧-٣٠] .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ هكذا ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من غير تخصيص ، خلقه الله بقدر ، ليس هناك عبث ، وليس هناك صدفة ، ولكن كل شيء بقدر ، والإيمان بذلك واجب ، بل ركن من أركان الإيمان ، كما هو مشهور من حديث جبريل حين أتى النبي ﷺ فسأله عن الإيمان ، فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر » . وقد نفى النبي ﷺ الإيمان عمن لم يؤمن بالقدر ، فقال : « لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع ، بالله وحده لا شريك له ، وأني رسول الله ، وبالبعث بعد الموت ، والقدر » . صحيح . رواه الترمذي ، وابن ماجه .

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ ، فأمر الله لا يحتاج أن يؤكد بثانية ، إنما هي كلمة واحدة ، فيكون ما أراد الله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

ثم قال تعالى لقريش : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ ﴾ ، يعني : أمثالكم من المكذبين بالرسل : ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ، أفلا تعتبرون وتتعظون فتخافون أن يحل بكم عذاب الله ، كما حل بمن قبلكم ؟ ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴾ مسجل ، وكذلك ما تفعلون : ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ ، ﴿ فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ﴾ [طه : ٥٢] ، وسينبئ الله عباده بما كانوا يعملون : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران : ٣٠] ، قال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

● **فيا أخا الإسلام** : لقد علمت أن الناس يضجون من الصغائر قبل الكبائر : ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ ، وذلك أن الكبائر معدودة ، فضلاً عن نفور المسلم بطبعه ، ولكن كثيرًا من الناس يستهينون بالصغائر ، ويمنون أنفسهم بمغفرة الله لهم ، فتراهم يسرفون في الصغائر طمعًا في مغفرتها ، فتجتمع عليهم الصغائر حتى تكون أمثال الجبال من حيث لا يشعرون ، فـ :

. لا تحقرن صغيرة
إن الجبال من الحصى .

ولذلك قال رسول الله ﷺ لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : « يا عائشة ، إياك ومحقرات الأعمال ، فإن لها من الله طالبًا » . صحيح . رواه ابن ماجه .

ثم تختم السورة بالإخبار عن النعيم الذي أعده الله للمتقين ، فيقول تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ ، ﴿ أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد : ١٥] ، وأين ؟ ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ ، وكفى بهذا شرفًا وفضلاً ، أن يكون المتقون في جوار مليكهم سبحانه وتعالى .

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجمعنا يوم القيامة : ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

من الدروس المستفادة

بقلم الدكتور : عبد العظيم بدوي

قال تعالى خاتمًا آيات الصيام : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

الحدود : جمع حد ، وهو الفصل بين الشيئين ؛ لئلا يختلط أحدهما بالآخر ، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر ، وحدُّ كل شيء منتهاه الذي ينتهي إليه . قال الأزهري : حدود الله عز وجلّ ضربان : ضرب منها حدود حدّها للناس في مطاعمهم ومشاربهم ومناكحهم وغيرها مما أحلّ وحرّم ، وأمر بالانتهاء عما نهى عنه منها ونهى عن تعديها ، والضرب الثاني عقوبات جُعلت لمن ركب ما نهى عنه كحدّ السارق والزاني والقاذف ، وسُميت حدودًا لأنها تُحِدُّ أي تمنع من إتيان ما جُعلت عقوبات فيها ، وسُميت الأولى حدودًا ؛ لأنها نهايات نهى الله عن تعديها . [« لسان العرب » (٣/١٤٠)] .

وقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أي : هذا الذي بيّناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه ، وما أثبتنا فيه وما حرّمنا ، وذكرنا غاياته ورُخصه وعزائمه حدود الله ، أي : شرعها الله وبينها بنفسه ، فلا تقربوها أي : لا تجاوزوها وتتعدّوها . [ابن كثير (١/٢٢٤)] .

فشبّه تلك الأحكام بالحدود الحاجزة بين الأشياء لكونها حاجزة بين الحق والباطل ، فإن مَن عمل بها كان في حيزّ الحق ، ومن خالفها وقع في الباطل ، ونهى عن قربها كيلا يداني الباطل فضلاً عن أن يتخطى إليه ، فالنهي عن مكان القرب من الحدود التي هي الأحكام كناية عن النهي عن قرب الباطل ، لكون الأول لازمًا للثاني . [القاسمي (٣/١٢٤)] .

وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾ أبلغ في التحذير من قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ﴾ ؛ لأنه يُرشد إلى الاحتياط ، فمن قرب من الحد أوشك أن يعتديه ، كالشابّ يداعب امرأته في نهار رمضان يوشك أن لا يملك إربه فيقع في المباشرة المحرمة ، أو يفسد صومه بالإنزال ، وكالمبالغة في المضمضة للصائم ، وتعدّيه يتحقق بالوقوع فيما بعده ، فالنهي عن الأول يفيد كراهته وشدّة تحريم ما بعده ، ولم ينهنا الله في كتابه عن قرب حدوده إلا في هذه الآية ، وفي مال اليتيم ، وفي الزنا . [« مختصر المنار » (١/١٤٣)] .

قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى ﴾ [الإسراء : ٣٢] ؛ لأن الزنا هو نهاية الحدّ ومنتهاه ، يسبقه الاقتراب من المرأة ، ومصافحتها ، والكلام معها ، ثم الخلوة بها التي تفضي إلى الزنا ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى ﴾ ، ولم يقل : لا تزنوا ، ويُفهم من هذا أن النهي عن القرب إنما هو لتكون هناك منطقة أمان ، فمن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، والإنسان لا يملك نفسه في كل وقت ، فأحرى به ألا يعرّض إرادته للامتحان بالقرب من المحظورات المشتهاة ، اعتمادًا على أنه يمنع نفسه حين يريد ، ولأن المجال مجال حدود الملاذ والشهوات كان الأمر ﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾ ، والمقصود هو المواقعة لا القرب ، ولكن هذا التحذير على هذا

من الصيام .. الورع

النحو له إيحاؤه في التحرّج والتقوى . [« في ظلال القرآن » (١/٢٥١)] .

لأن من اقترب وقع ، كما في الحديث عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحلال بيّن والحرام بيّن ، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعِرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملكٍ حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه » . [متفق عليه] .

والمراد بالمشتبهات ما يخفى على كثير من الناس حكمه ، فلا يعرفون الحلال منه والحرام ، لاختلاف الآراء فيه وتعددها ، والنبي ﷺ يرشد المسلم الذي يريد النجاة أن يتورّع عن هذا الذي اشتبه عليه ويتركه لله عز وجل ؛ لأنه لو كان حلالاً وتركه لله عوّضه الله خيرًا منه ، وبذلك يسلم له دينه وعرضه ، ولو كان حرامًا عرض نفسه للطعن في دينه وعرضه ، وحاسبه ربّه عليه ، وكانت عاقبته التجرؤ على الحرام البيّن ، فلا يمكن للعبد أن يترك الحرام إلا بالابتعاد عنه ، وعدم الاقتراب منه ، فيترك المكروه خشية الوقوع في الحرام ، ويترك المباح خشية الوقوع في المكروه ، وهذه هي حقيقة الورع ، وعلى ذلك ربى النبي ﷺ أصحابه ، فكان المثل الأعلى في الورع وترك الشبهات ، ودعاهم إلى ذلك فاستجابوا له .

عن أنس أن النبي ﷺ وجد تمرةً في الطريق فقال : « لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها » . [متفق عليه] .

وعن الحسن بن علي قال : حفظت من رسول الله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . [« صحيح الترمذي » (٢٥١٨)] . ومعناه : اترك ما تشك فيه وخذ ما لا تشك فيه .

ثم يختم الله تعالى الآية بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ، فتلتئم الخاتمة بالمقدمة ، والنهاية بالبداية ، فقد بدأت آيات الصيام بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

فالحكمة من الصيام هي التقوى ، والحكمة من اتقاء الشبهات والتورع عنها هي التقوى ، والتقوى هي فعل الواجبات وترك المحرمات ، وقد تقوى حتى يفعل التقيُّ المستحبات ويترك المشتبهات ، وأولئك هم المتقون حقًا .

فهل عرفت أيها الصائم ثمرة الصيام ؟ فاحرص - رحمك الله - على أن تجنيها من صيامك ، وبذلك تطمع في قبوله ، وترجو ثوابه الذي قال الله تعالى فيه ، كما في الحديث عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « كل عمل ابن آدم يضاعف : الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال الله عز وجل : إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به ؛ يدع شهوته وطعامه من أجلي » . [مسلم (١١٥١)] .

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يعيننا على صيام الشهر وقيامه ، وأن يجعلنا من عتقائه من النار ومن المقبولين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

باب التفسير

تفسير

سورة الرحمن

بقلم الدكتور:

عبد العظيم بدوي

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

سورة مكية ، شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بمعالجة أصول العقيدة وبيان أسس الإيمان ، واسم السورة « الرحمن » اسم من أسماء اللّه عز وجل الخاصة به ، كما أن « اللّه » عَلَم على ذات الرب عز وجل ، لا يطلق على غيره ، فكذلك « الرحمن » من الأسماء الخاصة باللّه عز وجل ، لا يجوز أن يطلق على غيره ؛ ولذا لما تجرأ مسيلمة الكذاب فسمى نفسه رحمن اليمامة ، وَسَمه اللّه بسمة الكذب ، فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب .

استفتحت السورة بهذا الاسم الذي سُميت به « الرحمن » ، ثم ذكر اللّه تعالى بعض نعمه على الثقلين « الإنس والجن » ، التي هي فيض من رحمته ، ثم لفت اللّه أنظار العباد إلى دلائل قدرته وعظمته في الآفاق وفي أنفسهم ، ثم أخبرهم بأن ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦، ٢٧] ، ثم أخذت الآيات تتحدث عن اليوم الآخر ، وبدأت بذكر هذا الوعيد : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾ [الرحمن : ٣١] ، وذكرت انقسام الناس إلى ﴿ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : ١٠٥- ١٠٨] .

تفسير الآيات :

﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ : اسم من أسماء اللَّه عز وجل الخاصة به ، ومعناه : كثير الرحمة بعباده ، ومن رحمته ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ، وذِكْرُه سبحانه لنعمة تعليم القرآن قبل نعمة خلق الإنسان يفيد أنه لا قيمة للإنسان بغير القرآن ، فقيمة الإنسان وشرفه ووزنه ، وسعادته في الدنيا والآخرة ، مرتبطة بهذا القرآن ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] ، يعني أن القرآن شرف لك ولقومك ، وبه تذكرون جميعًا ، وكلنا يعلم كيف كان العرب قبل أن يبعث فيهم رسولُ اللَّه ﷺ وقبل أن ينزل عليهم القرآن ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : ١٠] ، به تذكرون في الناس ، وبه تنالون الشرف والسؤدد والجاه ، فعلى المسلمين أن يستمسكوا بهذا الكتاب ، وأن يعضوا عليه بالنواجذ ، وعلى كل مسلم أن يبذل أقصى ما يستطيع في تعلم هذا القرآن وتعليمه ، ودراسته وتدريسه ، وحفظه وتحفيظه ، عملاً بقوله ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » . [صحيح . رواه البخاري ، والترمذي ، وأبو داود] .

وطمعًا في الأجر الذي وعدنا اللَّه به على لسان رسوله ، حيث قال ﷺ : « وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللَّه تعالى ، يتلون كتاب اللَّه ويتدارسونه فيما بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم اللَّه فيمن عنده » . [صحيح . رواه مسلم ، والترمذي ، وابن ماجه] .

وأما خلق الإنسان فهو أيضًا نعمة ، تفضل اللَّه بها على الإنسان ، فأخرجه من العدم إلى الوجود ، ووهبه الحياة بعد الموت ، كما قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۞ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان : ١ ، ٢] .

ومن نعم اللَّه على الإنسان أن ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ : المنطق ، الكلام ، الإعراب عما في نفسه ، وهي نعمة عظيمة ، يألفها الإنسان فيغفل عنها ، ولا يكاد يذكرها إلا حين يفقدها ، أو يرى من يفقدها ، فلربنا الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه على جميع نعمه .

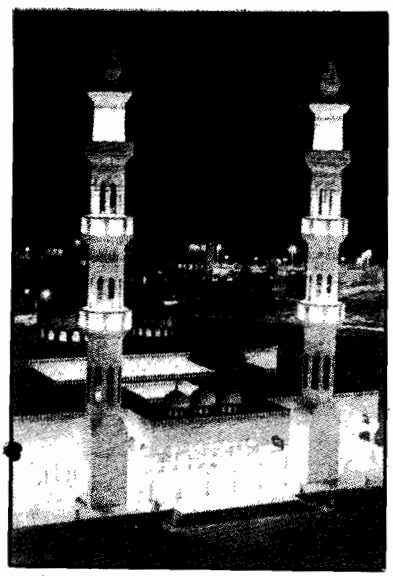

ثم لفت اللَّه أنظار العباد إلى مظاهر قدرته في الآفاق ، والتي هي من آثار نعمته وفيض رحمته ، فقال تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ تشرق الشمس وتغرب بحساب دقيق ، ويطلع القمر ويغيب بحساب دقيق ، ﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي

لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] ، كما قال تعالى : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : ٩٦] ، وهذه آية عظيمة تدل على عظمة الخالق ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ولذا قال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٧] .

﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ لله عز وجل في جملة من يسجد له سبحانه ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحج : ١٨] .

وإن كنا لا نعرف كيف تسجد هذه المذكورات إلا أن الإيمان بسجودها واجب ؛ لأن الله أخبرنا به ، كما أخبرنا عن تسبيحها بحمده ، فقال سبحانه : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] ، وهو تسبيح حقيقي بلسان المقال لا بلسان الحال ، يسمعه من أذن الله له ، كما روى البخاري - رحمه الله - في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل .

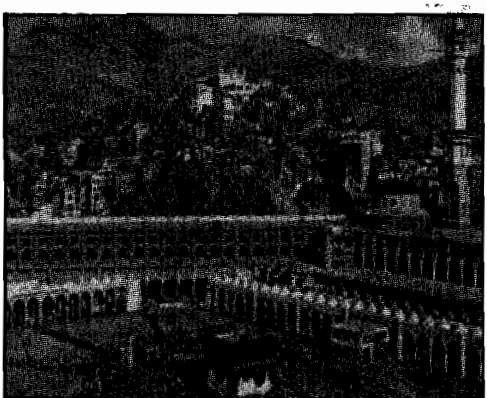

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد : ٢] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ [الغاشية : ١٧، ١٨] ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : ٤] ، ولكن أكثر الناس معرضون عنها ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٢] ، وقليل ما هم ، هؤلاء الذين : ﴿ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩١] ، وقوله تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ ، والمراد بالميزان : العدل ، فيجب على الناس أن يقيموا حياتهم كلها على العدل ، وأن يجتنبوا الظلم ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥] ، وقد نهى الله تعالى عباده عن الطغيان الذي هو ظلم ، وأمرهم بالعدل ، فقال : ﴿ أَلاَ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ ، كما قال شعيب عليه السلام لقومه : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ۞ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۞

وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨١، ١٨٢] ، ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ [الشعراء : ١٨٩، ١٩٠] ، ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر : ٢] ، ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ . ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ ، ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ ، ﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ ﴾ . ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٨] ، ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً ﴾ [الملك : ١٥] : سهلة منقادة ، لا تستعصي عليكم ، إن شئتم حرثتموها حُرثت ، وإن شئتم حفرتموها لإخراج الماء أو للبناء حُفرت . ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ ﴾ غير محصورة ، مما تعلمون ومما لا تعلمون : ﴿ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الأَكْمَامِ ۞ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ ، وهذه نعم الله ، ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، أتنكرون من هذه النعم شيئًا ؟! ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۞ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۞ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۞ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۞ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ۞ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ۞ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ۞ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ [عبس : ١٧- ٣٢] . ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ ، وقد سبق في أول السورة ذِكر خَلْق الإنسان ، وكان المراد هناك مجرد الإشارة إلى نعمة الخلق والوجود ، وأما هنا فالمراد ذكر مادة الخلق والإيجاد ، فقال تعالى : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ ، والمراد الإنسان الأول آدم عليه السلام ، وأما الإنسان بمعنى جنس بني آدم ، فقد خُلِقَ مما عُلِمَ ، قال تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۞ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق : ٥- ٧] ، ولقد جمع الله بين أصل الإنسان الأول ، والإنسان الذي كان منه في أكثر من آية ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٢- ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۞ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : ٧- ٩] .

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ [الحجر : ٢٦، ٢٧] ، قال ﷺ : « خُلِقَتِ الملائكة من نور ، وخُلِقَ الجانُّ من مارج من نار ، وخُلِقَ آدم مما وُصف لكم » . [مسلم (٢٩٩٦)] .

﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

باب التفسير

الحلقة الثانية

تفسير سورة الرحمن

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

تفسير الآيات :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : ٩] ، وقال : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ [المعارج : ٤٠] ، وهكذا أفرد المشرق والمغرب ، وثنيا وجمعا ، والمراد بالمفرد منهما : جهة المشرق والمغرب ، والمراد بالمثنى : مشرق الصيف والشتاء ، ومغرب

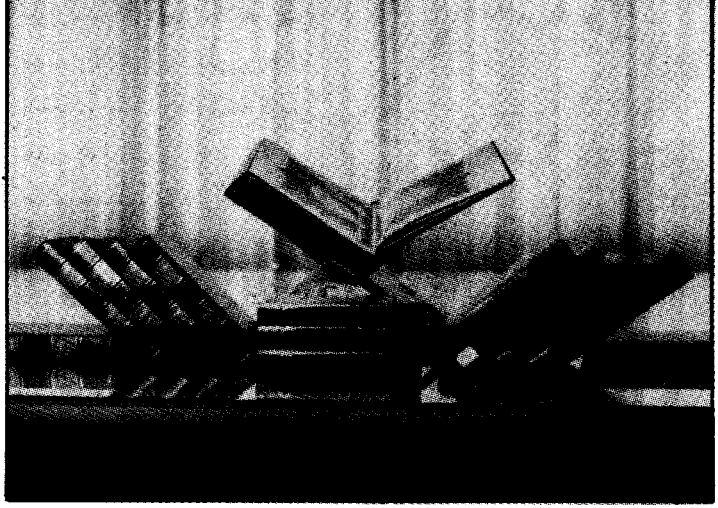

بقلم الدكتور
عبد العظيم بدوي

الصيف والشتاء ، والذي يتأمل الشمس ويراقبها يجد أن مشرقها في الصيف غيرُ مشرقها في الشتاء ، ومغربها في الصيف غير مغربها في الشتاء ، وأما المشارق والمغارب فالمراد بها منازل الشمس اليومية ، فللشمس كل يوم مشرق ومغرب ، على عدد أيام السنة . ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۞ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴾ ، والمراد بالبحرين : النهر الحلو ، والبحر المالح ، يلتقي النهر بالبحر في مصب واحد ، فلا تبغي حلاوة النهر على ملوحة البحر ، ولا تبغي ملوحة البحر على حلاوة النهر ، وفي مصر يصب نهرُ النيل في البحر المتوسط ، وهناك تغترف من هذا ماءً حلوًا ، ومن الآخر مِلْحًا أُجاجًا ، قد جعل اللّه بينهما سدًّا منيعًا ، لا سدًّا عاليًا ، وإنما جعل بينهما سدًّا بكلمة : لا يبغي أحدُكما على الآخر ، فسمعا وأطاعا . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٥٣] ، ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۞ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ ﴾ ، وله سبحانه الجوار : جمع جارية ، وهي السفينة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة : ١١] ، أي : في السفينة ، سفينة نوح عليه السلام ، ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ ﴾ كالجبال الرواسي الشامخات ، ومن يرَ السفينة يرَ مدينة كاملة ، تحمل آلاف الأطنان ، تسير في البحر ، وتنتقل من قطر إلى قطر ، فمن الذي سخرها ؟ إنه اللّه سبحانه ، فهي آية من آيات عظمته وقدرته ووحدانيته ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ ۞ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى : ٣٢، ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۞ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ۞

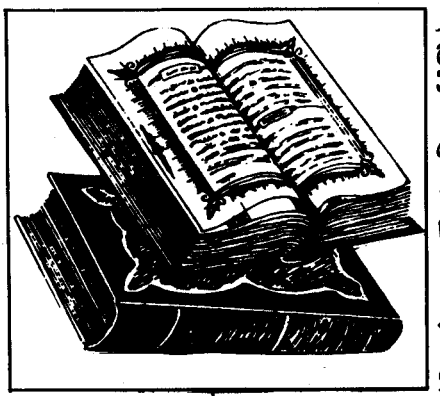

وَإِن نُّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ * إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ [يس : ٤١- ٤٤] . ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ﴾ ، هذه إشارة إلى فناء العالم كله ، وانطواء صفحة الوجود ، وذلك بعد النفخة الأولى في الصور ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾ [الزمر : ٦٨] ، إلا من شاء الله ألاّ يموتوا بالنفخة ، ولكن يموتون بعدها ، وينفرد الربّ عز وجل بملكه ، وينادي : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ ؟ فلا يجيبه أحد ، فيجيب نفسه بنفسه : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ، ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ بلسان المقال وبلسان الحال ، فهو سبحانه الغني ، والناس كلهم فقراء إليه ، الغنى وصفُ ذاتٍ ثابتٌ له سبحانه ، والفقر وصفُ ذات ثابتٌ لكل ما سواه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] ، ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ يحيي ويميت ، يعطي ويمنع ، يعزّ ويذلّ ، ينصر ويخذل ، وغير ذلك من شئونه سبحانه وتدبيره ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ [يونس : ٣] ، و﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ في تدبير غير التدبير ، وهكذا ، ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

ثم تأخذ الآيات في الحديث عن اليوم الآخر ، مبدوءة بهذا الوعيد ، ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ ﴾ ، يا معشر الجن والإنس سنفرغ لكم ، والله لا يشغله شيءٌ عن الكفرة الفجرة ، فلو شاء أن يعجل العقوبة عجلها ، ولكنه التهديد والوعيد والزجر ، كما تقول لخصمك : غدًا أتفرغ لك ، تريد أن تقول له : سأترك أشغالي وأعمالي ، فلا يكون لي من شغل غيرك ، تريد بذلك تهديده ، ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾ [النحل : ٦٠] ، الله لا يشغله شيء عن شيء ، ولكنه - كما ذكرت - التهديد والوعيد والزجر ، حتى يبادروا بالتوبة قبل أن يفرغ لهم ، ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ . يا معشر الجن والإنس ، إنكم لن تُعجزوا الله في الأرض ، ولن تُعجزوه هربًا ، فإن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض هربًا من قضاء الله فيكم فانفذوا ، وهيهات هيهات ، أين المفرّ والإله الطالب ، ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلاَّ لاَ وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة : ٧- ١٢] .

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات : ٥٠، ٥١] ، و﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ [الشورى : ٤٧] ، وإذا حاولتم الهرب : ﴿ يُرْسَلُ

عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ ۞ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ ، وذلك من هول يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۞ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ [المزمل : ١٧، ١٨] ، ﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاء ﴾ يوم القيامة ، ﴿ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ أي : أصابها من الألوان المختلفة كألوان الدّهان من شدة الهول ، ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ ، فنفى اللّه هاهنا السؤال ، وأثبته في مواضع أخر ، كقوله تعالى : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات : ٢٤] ، وقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : ٩٢، ٩٣] ، فكيف الجمع بين هذه الآيات ؟

قال العلماء : إن يوم القيامة يومٌ طويل ، مقداره خمسون ألف سنة ، فالناس فيه لا يكونون على حالة واحدة ، بل كما قال تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق : ١٩] ، أي : تنتقلون من مرحلة إلى مرحلة ، ومن طَوْر إلى طَوْر ، فهم يُسألون في موضع ، ولا يُسألون في موضع ، كما أنهم يعتذرون في موضع ، ﴿ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٦] في موضع أخر ، ويتكلمون في موضع ، ولا يتكلمون في موضع أخر ، وهكذا . ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ ﴾ ، و﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم ﴾ [الفتح : ٢٩] ، ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۞ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۞ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۞ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ [عبس : ٣٨- ٤٢] ، فما أن يأمر اللّهُ زبانيةَ جهنم بسوق أهلها إليها حتى تمتد أيديهم إليهم ، ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ ﴾ تُضمّ الأيدي إلى الأعناق ، والأرجلَ إلى القفا ، ﴿ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ [الحاقة : ٣٢] ، ثم يُطرحون في جهنم ، وتقول لهم الملائكة : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۞ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ ۞ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٣- ١٦] .

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۞ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ يعني : تارة يعذبون في الجحيم ، وتارة يسقون من ﴿ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ يعني : حارّ مغلي ، قد اشتدت درجة غليانه ، ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۞ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص : ٥٧، ٥٨] ، ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف : ٢٩] ، ﴿ وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ ﴾ [محمد : ١٥] . ونكمل بقية تفسير سورة « الرحمن » في العدد القادم إن شاء اللّه تعالى .

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين .

لا أحد أصبر على أذى من اللّه عز وجل !!

حديث أبي موسى رضي اللّه عنه ، عن النبي ﷺ قال : « ليس أحدٌ أَوْ لَيْسَ شيءٌ أَصْبَرَ ، على أذًى سَمِعَهُ ، من اللّه ، إنهم لَيَدْعُونَ له ولدًا ، وإنه لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ » . [متفق عليه] .

تفسير سورة الرحمن

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

الجمع بين الترهيب والترغيب !!

وعلى طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ، لما ذكر ربنا سبحانه ما للمجرمين من عذاب ، ذكر ما للمتقين من نعيم ، فقال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ۞ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى ۞ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ۞ فَأَمَّا مَن طَغَى ۞ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۞ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [النازعات : ٣٤- ٤١] ، ومن خاف مقام ربه ، هو الرجلُ تحدثه نفسه بترك واجب ، فيقول لها : يا نفس ، ماذا أقول لله إذا قال لي : لماذا تركته ؟ وتحدثه بفعل محرّم فيقول لها : يا نفس ، ما إذا أقول لله إذا قال لي : لِمَ فعلته ؟ وهذا هو الإحسان ، كما فسّره النبي ﷺ بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . فعلى المسلم أن يراقب الله دائمًا ، وأن يتمثل

على المسلم أن يُراقب اللّه دائمًا ، حتى يكون ممن يظلهم الله في ظلّه

بقلم الدكتور : عبد العظيم بدوي

بهذين البيتين :

إذا ما خلوت الدهر يومًا
فلا تقلْ خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن اللّه يغفل ساعة
ولا أنَّ ما تخفي عليه يغيب

وقد كتب بعض الصالحين لأخ له رسالة ، فقال له فيها : زهّدني اللّه وإياك في الحرام ، زهد من قدر عليه في الخلوة ، فعلم أن اللّه يراه ، فتركه من خشية اللّه .

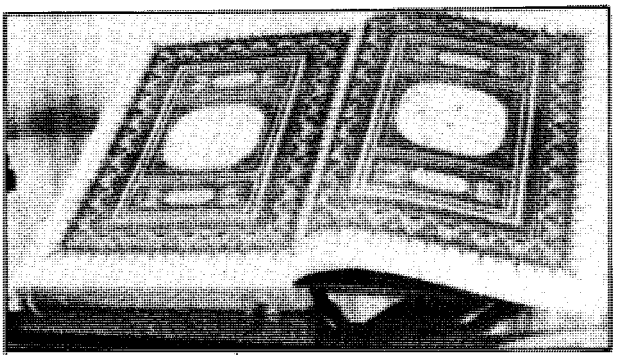

حال من يُظلهم اللّه !!

فمن بلغ هذه الحال فهو من الذين يظلّهم اللّه في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه ، كما قال ﷺ : « سبعة يظلهم اللّه في ظله ، يوم لا ظل إلا ظلّه ... ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف اللّه ، ورجل ذكر اللّه خاليًا ففاضت عيناه » من خشية اللّه . وهذا جزاؤه المعجل في أرض الموقف ، فإذا أُذن لأهل الجنة لدخولها فله فيها : « جنتان من ذهب ، آنيتهما وما فيهما » . [متفق عليه] .

﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ الأفنان : هي الأغصان الحسنة النضرة الجميلة ، ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴾ تسرحان لسقي الأشجار ذات الأغصان الحسنة الجميلة . ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ من كل فاكهة ، مما نعلم ، ومما لا نعلم ، وكل ما في الدنيا من الفواكه ففي الجنة نظيره ، وليس بين فاكهة الجنة وفاكهة الدنيا تشابه إلا في الأسماء فقط : رمان ، تفاح ، عنب ، موز ، وشتان بين طعم فاكهة الجنة وفاكهة الدنيا ، ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ ، قال العلماء : هذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، إذا كانت البطانة – الحشو الداخلي – من إستبرق ، فكيف بالظاهر المكشوف ، فلا بد أنه أفضل من الإستبرق . ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ ، أي : قريب منهم وهم متكئون ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ ۞ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۞ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٩- ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۞ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۞ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾ [الإنسان : ١٢- ١٤] .

مؤمني الجن يدخلون الجنة !!

ولما كانت الفرش لا تطيب ولا تحلو إلا بالنساء ، قال تعالى ﴿ فِيهِنَّ ﴾ أي في هذه الفرش

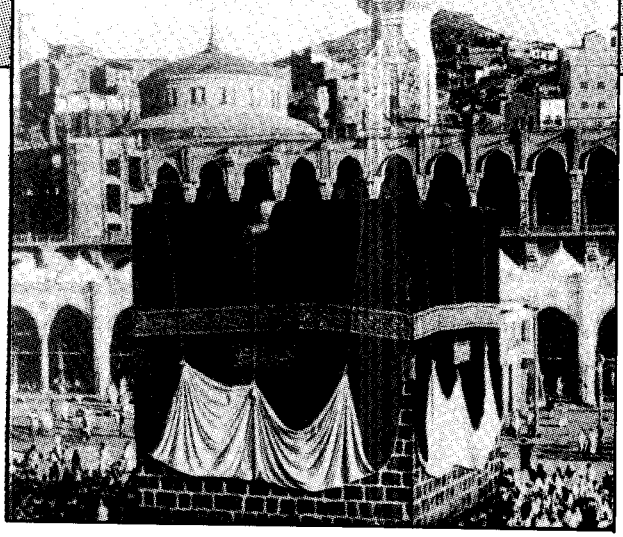

﴿ قَـاصِرَاتُ الطَّـرْفِ ﴾ نسـاء ، قـد رضيت كل واحدة منهن بزوجهـا ، ورأتـه ذا جمـال وبهـاء ، فلـم تنظـر لغـيره ، بـل قصـرت نظرهـا عليـه لإعجابها بجمالـه ، وهـؤلاء النسـاء ﴿ لَـمْ يَطْمِثْهُـنَّ إِنـسٌ قَبْلَهُـمْ وَلاَ جَانٌّ ﴾ ، بل هنّ أبكـار ، لـم يطأهنّ أحد من قبل . قال العلماء : في هذه الآيـة إشـارة إلـى أن مؤمنـي الجـنّ يدخلون الجنة ، ويكون لهم فيها من النعيم ما يكون لمؤمني الإنس ؛ لأن اللّه تعـالى لما ذكر نعيـم الجنـة خـاطب الجـنّ والإنـس بقولـه : ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، ولمـا ذكـر نسـاء الجنة قال : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ ۞ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

وصف نساء أهل الجنة !!

ثم وصف اللّه نساءَ الجنـة فقـال : ﴿ كَـأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ ، وقد قـال فـي موضـع ثـان : ﴿ كَـأَنَّهُنَّ بَيْـضٌ مَّكْنُـونٌ ﴾ [الصافـات : ٤٩] ، والمراد بهؤلاء النساء الحور العين ، كما قال تعالى في موضع ثالث : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۞ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة : ٢٢، ٢٣] .

وقد جاء في الأحاديث أن الواحدة منهنّ عليها سبعون حُلّة ، الحلّة الواحدة تساوي الدنيـا ومـا عليها ، وأنها لـو اطّلعت من بـاب خَيْمتها لأضاء نور وجهها ما بين السماء والأرض ، ولملأ عبيرها ما بين السماء والأرض .

ولو تَفَلَت في البحر والبحر مالحٌ
لأصبح ماءُ البحر من ريقهـا عذبًا
فيا بائعًا هذا ببخـس معجـلٍ
كأنـك لا تـدري بلى سـوف تعلمُ
فإن كنت لا تدري فتلك مصيبـة
وإن كنـت تدري فالمصيبـة أعظم

فهل من خاطبٍ لهؤلاء الحسان ؟ لا شك أن كل إنسان خاطب ، ولكن أين المهـر ؟ « مـن خـاف أدلـج ، ومـن أدلـج بلـغ المـنزل ، ألا إن سلعة اللّـه غالية ، ألا إن سعة اللّه الجنة » .

الجزاء من جنس العمل !!

﴿ هَلْ جَزَاء الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ ، من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فقد أحسن فيما بينه وبين اللّه ، ولما كان الجزاء من جنس العمل ، أحسن اللّه إليه ، فأسكنه الجنة ، كمـا قـال تعـالى : ﴿ لِلَّذِيـنَ أَحْسَـنُواْ ﴾ ، فيمـا بينهـم وبيـن اللّـه : ﴿ الْحُسْنَى ﴾ ، وهي الجنة ، ﴿ وَزِيَـادَةٌ ﴾ ، وهـي النظر إلـى وجـه الكريـم سـبحانه . نسـأل اللّـه أن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم .

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ ، ومـن دون الجنتين الموصوفتين جنتان ، أقـل فـي المرتبـة والفضيلـة ، فأمـا الجنتـان السـابقتان فللسـابقين ، وأمـا الجنتـان اللاحقتان فلأصحاب اليمين ، وأهل الجنة قسمان : سـابقون ، ومقتصـدون ، فـ ﴿ السَّـابِقُونَ السَّابِقُونَ ۞ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۞ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [الواقعـة : ١٠- ١٢] ، ﴿ وَأَصْحَـابُ الْيَمِيـنِ مَـا

أَصْحَابُ الْيَمِينِ ۞ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ [الواقعة : ٢٧، ٢٨] ، وقد قال ﷺ : « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما » . فالأوليان للسابقين ، والأخريان للمقتصدين أصحاب اليمين ، والفرق بينهما واضح ، وسأذكره إن شاء الله .

﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ فيهما الأشجار الخضرة ، التي مالت إلى السواد من شدة خضرتها ، ﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ ، أي : يفيض منهما الماء كالنافورة . ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ ، وخصّ النخل والرّمان بالذكر من باب الخاصّ بعد العام ، لمزيد فضل النخل والرمان على سائر الفواكه ، ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ ، فسّرهن ربنا سبحانه بقوله : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ ، قال ﷺ : « إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهل يطوف عليهم ، لا يرى بعضهم بعضًا » . [متفق عليه] .

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ والرفرف : الوسائد ، والعبقري : الزرابيّ الحسان ، المختلفة الألوان : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ، فهو سبحانه ذو العظمة والكبرياء ، وهو أهل أن يُجلّ فلا يعصى ، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى . « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » .

وأخيرًا : تعالوا بنا نعمل مقارنة بين الجنتين الأوليين والأخريين ، لينظر كلّ أيتهما يرجو :

الأوليان	الأخريان
ذواتا أفنان .	مدهامتان
فيهما عينان تجريان	فيهما عينان نضاختان
فيهما من كل فاكهة زوجان .	فيهما فاكهة ونخل ورمان .
متكئين على فرش بطائنها من إستبرق .	متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان .
فيهن قاصرات الطرف .	حور مقصورات . [والتفضيل من باب تفضيل الفاعل على المفعول]
كأنهن الياقوت والمرجان .	فيهن خيرات حسان .
جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما .	جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما .
يُحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤ ، ولباسهم فيها حرير .	عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحُلّوا أساور من فضة .

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] . اللهم إنا نسألك الفردوس الأعلى ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

نزول الفتن !!

● حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ستكون فتنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم ، والقائم فيها خيرٌ من الماشي ، والماشي فيها خيرٌ من الساعي ، ومن يُشرف لها تستشرفه ، ومن وجد ملجأً أو معاذًا فليعذ به » . [متفق عليه] .

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦ ﴾ .

سورة مكية ، اسمها يدل على موضوعها ، فهي سورة الواقعة ، وموضوعها الذي تبحثه هو يوم الواقعة وما يكون فيه من أهوال ، والواقعة اسم من أسماء اليوم الآخر ، وقد سمّى اللّه تعالى اليوم الآخر بأسماء ، كلّ اسم منها يدل على بعض الأهوال التي تكون في ذلك اليوم ، من هذه الأسماء : الحاقة ، القارعة ، الصاخة ، الطامة الكبرى ، الواقعة .

تفسير سورة الواقعة

بقلم الدكتور :

والسورة تكاد أن تكون مقسومة قسمين : القسم الأول : تضمن الحديث عن الأهوال التي تكون إذا وقعت الواقعة ، وعن انقسام الناس يومئذ ثلاثة أقسام ، اثنين في الجنة ، وواحد في النار ، ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۞ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۞ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ [الواقعة : ٨- ١٠] ، وذكرت الآيات بشيء من التفصيل ما لكل قسم من هذه الأقسام من النعيم أو العذاب .

أما القسم الثاني : فقد تضمن ذكر البراهين على إمكان البعث وأن اللّه يحيي الموتى ، ثم ذكرت الآيات مشهد الاحتضار ، وأشارت إلى أن الميت واحد من الأصناف الثلاثة المذكورة في أول السورة ، وختمت بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۞ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ .

تفسير الآيات

من أهم أركان الإيمان : الإيمان بالغيب ، فاللّه والملائكة ، واليوم الآخر ، غيبٌ ، لم يطّلع أحدٌ على شيء من ذلك ، فشرح اللّه صدور قوم للإسلام ، وحبّب إليهم الإيمان ، فنظروا في ملكوت السماوات والأرض فرأوا الكثير الكثير من الآيات الدالّة على أن لهذا الكون إلهًا هو اللّه ، فآمنوا به ، واتبعوا رسله ، ثم آمنوا بكل ما أمرهم اللّه

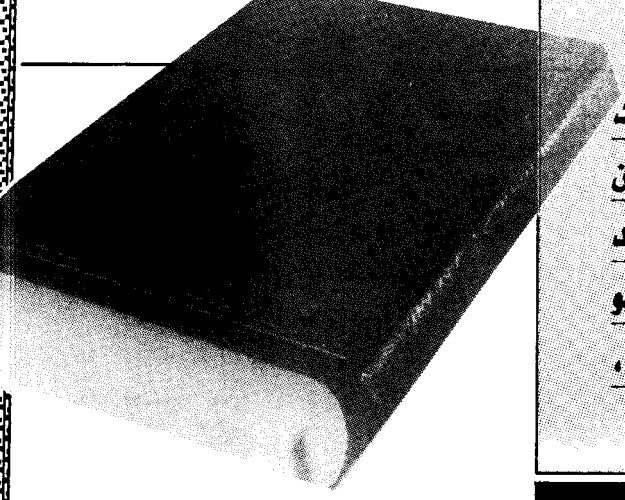

يا عبد ، شمّر عن ساعدك واجتهد في طاعة ربك رجاء أن تكون من السابقين ، وإياك والزهد فيما عند الله ، وإياك والرضا بالدون ، فلو رأيت ما للسابقين ، لأسهرت ليلك ، وأظمأت نهارك !!

عبد العظيم بدوي

بالإيمان به على ألسنة رسله ، من الملائكة ، واليوم الآخر ، وغيرهما ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴾ [النساء : ١٣٦] ، وفريق من الناس : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة : ٧] ، فلم يروا آيات الله ، فكفروا بالله وبكل ما لم يروه بنظرهم القاصر ، الضعيف العاجز ، وقالوا : ما رأينا أحدًا مات ثم بُعث ، فأخبرنا عما رأى ، فكيف تقولون بسؤال القبر ، ونعيمه وعذابه ، والجنة والنار ، وأنتم لم تروا من هذا شيئًا .

فهؤلاء ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ ، ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ [يس : ٥١] ، ورأوا عين اليقين ما كانوا به يُكذبون ، فساعتئذ يؤمنون بما كذبوا به من قبل ، ولن ينفعهم إيمانهم : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۞ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ ، ليس هناك من يكذّب بها إذا وقعت ، ممن كان يكذب بها قبل وقوعها .

● ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ تخفض أقوامًا كانوا في الدنيا سادةً أعزة ، أصحاب جاهٍ ورفعة ، وترفع أقوامًا كانوا أذلة ؛ لأن القيم والموازين التي عند الله ، غيرُ القيم والموازين التي عند الناس ، الناسُ يرفعون أقوامًا لجاههم ، لحسبهم ، لنسبهم ، لمالهم ، لوظائفهم ، ويخفضون أقوامًا لفقرهم وعدم جاههم ، ولذلك : كان النبي ﷺ جالسًا يومًا وعنده رجل ، فمر عليهما رجل ، فقال النبي ﷺ لجليسه : « ما تقول في هذا ؟ » قال : هذا رجلٌ من أشراف الناس ، هذا والله حري إن خطب أن يُنكح ، وإن شفع أن يُشفع ، فسكت رسول الله ﷺ ، حتى مر رجل آخر ، فقال لجليسه : « ما تقول في هذا ؟ » قال : يا رسول الله ، هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا والله حري إن خطب أن لا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله ، فقال ﷺ : « هذا خير من ملئ الأرض مثل هذا » .

ولذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، ولهذا كانت الواقعة ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ .

● ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا ۞ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۞ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾ ، ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [الزلزلة : ١] ، وهو زلزال عظيم لم يُر مثله قط ، تنشق به الأرض ، وتدك به الجبال

الرواسي ، حتى تكون : ﴿ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴾ ، ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة : ٥] ، ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۞ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۞ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ [الحاقة : ١٣- ١٥] ، ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً ﴾ أي : أصنافًا ثلاثة ، ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ أي : ما هم ؟ وما أدراك ما لهم ؟ ﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ أي : ما أدراك ما هم ؟ وما لهم ؟ ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ فاثنان من هؤلاء الثلاثة في الجنة ، وهم أصحاب الميمنة والسابقون ، وصنف في النار وهم أصحاب المشأمة .

ثم أخذت الآيات تتحدث عما لكل صنف من هؤلاء في الآخرة ، وبدأت بالسابقين لشرفهم وعلو منزلتهم ، فقال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ أي : هُمْ هُمْ ، وهُمُ الذين تسابقوا في الخيرات فسبقوا إليها ، فلم يتركوا أمرًا يحبه اللَّه إلا وفعلوه ما استطاعوا ، فـ ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۞ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ ، قال العلماء : ذكر اللَّه ما لهم من النعيم المعنوي قبل النعيم الحسي ، فقال : ﴿ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي : من ربهم عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۞ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٤، ٥٥] ، وكفاهم شرفًا أن يكونوا في جوار ربهم سبحانه وتعالى ، فلهذا الجوار نعيمٌ في قلوبهم أعظمُ من نعيم الجنة .

● ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ۞ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ اختلف العلماء في المراد بالأولين والآخرين ، فقال بعضهم : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴾ أي : من الأمم السابقة على أمة محمد ﷺ ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ من أمة محمد ﷺ ، وقال بعضهم : بل الجميع من هذه الأمة ، والمراد بقوله تعالى : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴾ من سلف هذه الأمة ، من القرون المفضلة ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ منها ، ممن بعد القرون الأولى إلى آخر هذه الأمة . وهذا القول الثاني هو الراجح ، وقد دل عليه الكتاب العزيز ، فقد قال تعالى عن بني إسرائيل : ﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٦٦] . وقال تعالى : ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : ٢٧] ، فأخبر سبحانه أن مؤمني بني إسرائيل مقتصدون ، ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ كافرون : ﴿ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ ، فجعلهم فريقين اثنين : مقتصدين ، وفاسقين ، بينما جعل هذه الأمة ثلاثة أقسام ، فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، ثم أخبر أنهم جميعًا في الجنة ، فقال : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [فاطر : ٣٣] ، فعُلِمَ من هذا كله أن السابقين من هذه الأمة ، وأن الأمم التي كانت قبلنا ليس منهم سابقون . وأحسن تفسير لهذه الأقسام : أن الظالم لنفسه مَن قال اللَّه فيهم : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٢] . والمقتصد : من قام بالواجبات وترك المحرمات ، ولم يزد على ذلك شيئًا من القربات . والسابق : من قام بالواجبات وفعل معها المندوبات ، وترك المحرمات ومعها المكروهات .

والمراد من هذا كله بيان أن قوله تعالى عن السابقين : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ۞ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ ، أن الجميع من هذه الأمة المحمدية ، جعلنا اللَّه منهم . ومعنى هذا أن من آخر هذه الأمة من يكون يوم القيامة من السابقين المقربين في جنات النعيم ، وقد صرح بذلك رسول اللَّه ﷺ حيث قال : « في كل قرن من أمتي سابقون » . [أخرجه أبو نعيم في « الحلية » ، وعند الديلمي (٣٣٣/٢) معلقًا ، وإسناده جيد . انظر « الصحيحة » (٢٠٠١)] .

فهيا يا عبد اللَّه ، شمّر عن ساعدك واجتهد في طاعة ربك ؛ رجاء أن تكون من السابقين ، فبابُ المسابقة ما زال مفتوحًا ، والفرصةُ مازالت متاحة ، وإياك والزهدَ فيما عند اللَّه ، وإياك

والرضا بالدون ، فلو رأيت ما للسابقين ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ لأسهرت ليلك ، وأظمأت نهارك .

● ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾ أي : منسوجة بالذهب واللؤلؤ وغيرهما من الحلي ، ﴿ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا ﴾ على هذه الأسرة ، والاتكاء : جلسة الانسجام والاستراحة ، ولذلك إذا زار رجلٌ رجلاً قدّم له الوسائد قائلاً : اتكئ ، خذ راحتك . فالاتكاء عنوان الراحة والاستمتاع وخلو البال ، وأهل الجنة ليس عندهم ما يشغل بالهم أو يكدّر صفوهم ، وقد قالوا حين دخلوها : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۞ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر : ٣٤، ٣٥] ، فلذلك اتكئوا على الأسرة حالة كونهم ﴿ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ غير متدابرين ؛ لأن الله قبل أن يُدخلهم الجنة قد طهرهم من الغلّ والحقد والعداوة والبغضاء ، فأقبل بعضهم على بعض ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : ٤٧] ، ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ ﴾ صبيان صغار ، ﴿ مُّخَلَّدُونَ ﴾ لا يشيبون ولا يهرمون ، ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ [الإنسان : ١٩] ، هؤلاء الخدم ، ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ وهم يروحون ويجيئون بين الأسرّة : ﴿ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ ، فكيف بالسادة المخدومين ؟ يطوفون عليهم : ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ ، والمعين : هو الماء الجاري الساتح على وجه الأرض ، والمراد هنا : الخمر ، لأن الله قال : ﴿ لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ لا يصيبهم منها صداع ، ولا هلوسة ، ولا أذى ، مما يصاب به من شرب الخمر في الدنيا ، فخمر الدنيا رجْسٌ من عمل الشيطان ، تصيبُ الإنسان بفقدِ العقل والصداع والقيء ، والبول ، وغير ذلك مما هو معروف ، أما خمر الجنة فمنزهة عن هذا كله : ﴿ لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنزِفُونَ ﴾ ، ﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۞ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ ، والطعام والشراب يحركان نفس الإنسان نحو النساء ، ولذة الجماع فوق لذة الطعام والشراب ، ولذلك أتبع الله ما لهم من الطعام والشراب بما لهم من النساء ، فقال سبحانه : ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۞ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ ، وقد سبق في سورة « الرحمن » وصفهن بـ ﴿ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن : ٥٨] ، وفي سورة الصافات قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات : ٤٩] . وهنّ نساء أبكار عُربٌ أتراب ، أنشأهن الله إنشاءً ، بكلمة كُن ، ووَعَدَ بهنّ المؤمنين ، وجعلهن في خيام الجنة ، ينتظرن أزواجهن من أهلها ، وقد أوتين من الجمال والبهاء والحسن ما إن أطلت واحدة منهن من باب خيمتها أضاء وجهها ما بين السماء والأرض ، وملأ عبيرها ما بين السماء والأرض .

ولو تفلتْ في البحر والبحرُ مالحٌ
لأصبح ماءُ البحر من ريقها عذبًا

فعلى الراغب أن يتقدمَ بدفع الثمن ، فهذا أوان المهر ، ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] ، وإنما كان هذا النعيم كله للسابقين : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإنسان : ٢٢] ، وكما قال تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] ، فلما أحسنوا فيما بينهم وبين الله ، فتنافسوا في الطاعات ، وتسابقوا إلى الخيرات ، كافأهم الله بما ذكر : ﴿ لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا ﴾ لا يسمعون في الجنة كلامًا لاغيًا ، خاليًا من المعنى ، ولا كلامًا قبيحًا يوجب الإثم ، وإنما لا يسمعون فيها : ﴿ إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا ﴾ ، ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ ﴾[يونس : ١٠] ، و﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ ﴾ [الأحزاب : ٤٤] ، ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨] ، ﴿ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٣، ٢٤] . وللحديث بقية إن شاء الله تعالى .

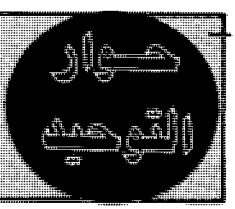

مع الدكتور: عبد العظيم بدوي

□ على الخطيب التثبت فيما ينقله عن النبي ﷺ. □ خطبة الجمعة وجبة غذاء متكاملة. □ على الداعية أن يلتزم مسجده في الصلوات الخمس. □ الغلو في الدين أمرٌ منهي عنه. □ هذه هي علاقتي بالشيخ الألباني رحمه الله. □ من ابتلاءات هذا العصر تطاول الطلاب على العلماء.

إمام وخطيب مفوه، لا تأخذه في الحق لومة لائم، يلتزم مسجده في أكثر الأوقات مصليًا ومعلمًا ومربيًا ومتابعًا لشئون المسجد، له تلاميذه الذين حفظوا القرآن الكريم على يديه، ينهج منهج أهل السنة والجماعة، ينصح بكل محبة وشفقة، يتعامل مع مفردات العصر بروح الأمة الإسلامية الواحدة، كانت له علاقة وثيقة للغاية مع العالِم المحدث الشيخ ناصر الدين الألباني، رحمه اللَّه، ويحزن كثيرًا من التشاحن والتصارع بين المسلمين، ويحذر من مغبة تطاول الطلاب على مشايخهم وعلمائهم، وهو صاحب المؤلفات العديدة، إنه فضيلة الشيخ: عبد العظيم بدوي، ولا نزكي على اللَّه أحدًا.

وكان لمجلة «التوحيد» معه هذا الحوار:

أجرى الحوار: جمال سعد حاتم
إبراهيم رفعت

□ التوحيد : تعتبر الخطابة فنًا ورسالة ولها ما لها من الأهمية في الإسلام ، فما هو المطلوب في الخطيب لكي يكون خطيبًا ذا تأثير على الناس ؟

■ الحقيقة عندما نتكلم عن الخطيب نعني به خطيب الجمعة ، وخطبة الجمعة هذه مكانتها عظيمة جدًا في الإسلام ، وهي الذكر المقصود في قوله في سورة « الجمعة » : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة : ٩] .

وتفسيرنا للخطبة بأنها ذكر ، أو تفسيرنا للذكر بأنه الخطبة مأخوذ من قول النبي ﷺ : « إن الله تعالى يبعث الملائكة يوم الجمعة فيقومون على أبواب المساجد يكتبون الداخل الأول فالأول ، حتى إذا خرج الإمام طوت الملائكة صحفها وجلسوا يستمعون الذكر » يعني الخطبة .

وأمر الله تعالى بالسعي إلى الخطبة ، فيجب على الخطيب أن يهتم بإعداد الخطبة ، ويهتم بتحديد عناصرها وإبراز أهدافها ، وذلك من الجمعة للجمعة التي تليها ، بمعنى أن الخطيب يجب أن يقدر هذه الخطبة حق قدرها ، وأن يعلم بأنه قائم على المنبر مقام النبي ﷺ ، ثم يعلم أن الله سبحانه وتعالى يسمعه من فوق سبع سماوات .

ثم إن الملائكة يكتبون ما يقول ، قال تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] ، فإن استحضر الخطيب هذه المعاني كلها رأى نفسه مضطرًا إلى أن يبذل كل ما يستطيع في إعداد الخطبة ، وعليه أن يعلم أيضًا أن الله سائله عن كل كلمة في هذه الخطبة ، وأنه سائله عن قصده ونيته فيخلص لله في دعوته . فالخطيب مسئوليته كبيرة جدًا ، فليهتم بتحضير الخطبة من الجمعة إلى الجمعة التي تليها ، فلا يتكلم إلا وهو يعلم شدة حاجة الناس لكلامه هذا ، وأن يستخير ربه سبحانه وتعالى : رب إن كنت تعلم أن في كلامي .. في كذا خيرًا لي وللمسلمين فوفقني ... إلخ . كما هو معروف في الاستخارة ، ولنا في ذلك سلف صالح ، وهو الإمام البخاري رحمه الله ، حيث روي عنه أنه كان إذا أراد أن يكتب حديثًا في « صحيح البخاري » توضأ وصلى ركعتين للاستخارة ، ثم يكتب الحديث أو لا يكتبه ، فنحن كخطباء إذا وقع في قلب أحدنا موضوع للخطبة قبل أن يركن إليه ، عليه أن يستخير ربه ، فإذا استخار الله وشرح صدره ، بعد ذلك يأتي بمظان هذا الموضوع ؛ بمعنى أن يبحث الخطيب في

□ بعض الطلاب نصبوا أنفسهم حكامًا على العلماء الكبار.

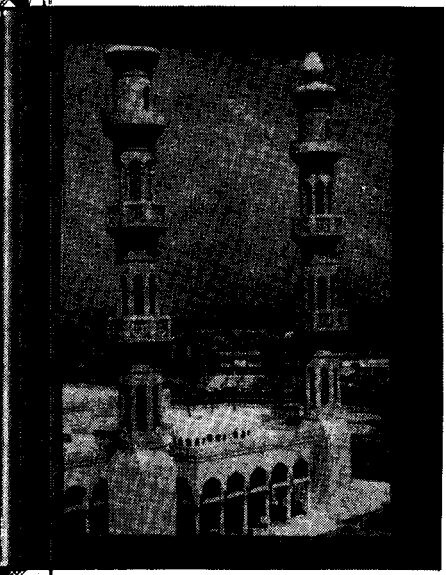

□ أجمع الغرائب والفوائد في الوحدة الموضوعية المشتركة !!

المراجع والكتب التي تتحدث عن هذا الموضوع ، ويجمع بين العناصر المشتركة ، ويهتم بوحدة الموضوع ويستوعبه جيدًا ويقرأه عدة مرات بعد تدوينه ، وليعلم أن القول في الحديث له خطره ؛ لأن الرسول ﷺ قال : « إن كذبًا عليَّ ليس ككذب على أحد ، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » . فواجب على الخطيب أن يتثبت فيما ينقله عن الرسول ﷺ ، حتى لا يقع تحت طائلة : « من كذب عليَّ ... » . فإذا بذل الخطيب جهده في تحري الصحيح والضعيف فَمَهْمَا أخطأ رفع عنه الإثم ، أما أن يتناول الخطيب من الكتب كل ما يرد فيها دون تثبت فهذا منهج سقيم ، فنحن ليس عندنا ما نلقي بالقبول إلا البخاري ومسلم - بعد كتاب الله عز وجل - وما سوى البخاري ومسلم ففيه الصحيح والضعيف ، فلا بد من التحري إذن ، ومما يساعد الخطيب بغير كلفة ولا مئونة كتاب « صحيح الجامع وضعيف الجامع » لشيخنا الألباني رحمه الله ، حيث فيه حوالي ١٦,٠٠٠ حديث ، الصحيح فيه حوالي ثمانية آلاف ، والضعيف حوالي ثمانية آلاف ، فهذه الأحاديث غالبًا ما تجمع ما ندور في فلكه نحن كخطباء ، فإذا أنا راجعت هذا الكتاب غالبًا ما أجد ما أبحث عنه أين شئت ، وكان عندي من الكتب الحديثة ما أرجع إليه فذلك من فضل الله ، لكن أنا بذلك أبرئ ذمتي من الوقوع في خطأ الكذب على النبي ﷺ ، وهذا أمر يجب على الخطيب أن يهتم به ، وأن يقدر الخطبة حق قدرها ، وأن يحترم الناس ، فالناس جاءوه وفرغوا من أشغالهم واستعدوا لسماع خطبته ، فلا بد للخطيب أن يقدر الناس حق قدرهم ، فيحاول أن يعطيهم ما ينفعهم ؛ لأن خطبة الجمعة هي الوجبة الغذائية العلمية المفروضة على المسلمين كل أسبوع ، فالمسلمون الآن انصرفوا عن حضور مجالس العلم أثناء الأسبوع ، فلا يوجد أحد حريص على مجالس العلم إلا من رحم ربي .

على الداعية أن يلتزم مسجده!!

❑ **التوحيد** : هناك سؤال يدور حول هذا الموضوع ، وهو كيف يطور الداعية علمه في المسجد حتى يصبح داعية مؤثرًا في الناس ؟

■ الداعية عليه أن يلزم مسجده ، فوجود الداعية بين الناس في الصلوات الخمس ، شيء نافع جدًا - بإذن الله عز وجل - لأن الناس تألف وجود داعيتهم أمامهم في كل صلاة وبينهم في المسجد متى يحتاجونه يجدونه يقتدون به في وضوئه وفي صلاته وفي أقواله وأفعاله ، ثم عليه أن يتخولهم بالموعظة أثناء الأسبوع ، فالجمعة فرض عين عليه وعلى الناس ، ويجب عليه أن يتخولهم بموعظة خلال الأسبوع في درسين أو ثلاثة ، ينوع دروسه في التفسير ، وفي الفقه ، وفي الحديث ، حسبما يوفقه الله سبحانه وتعالى ، فوجوده بين الناس وعطاؤه المستمر لهم هذا من أسباب النجاح في الدعوة وإيتائها ثمراتها .

العلاقة بين الحاكم والرعية !!

❑ **التوحيد** : ما هي الضوابط الشرعية للعلاقة بين الحاكم والمحكوم لدى أهل السنة والجماعة ؟

■ العلاقة بين المحكومين وحكامهم هي علاقة تقوم على السمع والطاعة منهم له فيما هو طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ ، وبذلك أمر الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

فالمحكومون مأمورون بالسمع والطاعة لحكامهم ، كما أمرهم الله عز وجل ورسوله ﷺ ، وأحاديث الرسول ﷺ في الأمر بالسمع والطاعة للأمراء كثيرة في « الصحيحين » وغيرهما ، حتى إنه ﷺ في حجة الوداع في خطبته حثهم على السمع والطاعة لأمرائهم ، فقال ﷺ : « اتقوا الله وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، وأطيعوا ذا أمركم ، تدخلوا جنة ربكم » .

هكذا قال ﷺ في خطبة حجة الوداع ، وحديث العرباض بن سارية المشهور : وعظنا الرسول ﷺ عظة بليغة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله ، كأنها موعظة مودع - مما يدل على أنها كانت في آخر حياته ﷺ - فأوصنا .. قال : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وإن تأمّر عليكم عبد حبشي » . الحديث .

فعلاقة المحكوم بالحاكم هي علاقة السمع والطاعة فيما هو طاعة لله عز وجل ، ومعروف أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . ثم في حق الحاكم على المحكومين النصيحة ، فقد قال ﷺ : « الدين

النصيحة » . قلنا : لمن يا رسول الله ، قال : « لله ، ولرسوله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » . وفي نصيحة المحكومين للحاكم دعوة للناس إلى الالتفاف حولهم والاجتماع حولهم وطاعتهم في المعروف وعدم الخروج عليهم ، ونهي الناس عن بغضهم ، وعن الخروج عليهم ، هذا في نصيحة المحكومين للحكام ، أما النصيحة والتي فيها الأمر والنهي ، فهذه لا تكون للعامة ، وإنما لخاصة العلماء الذين يستطيعون الوصول إلى الحكام ، وأوتوا من الحكمة والموعظة الحسنة ما إن ينصحوا به الحكام يجدوا منهم أذنًا صاغية وقلبًا يعي ما يقولون .

التشدد والغلو في الدين

❐ **التوحيد** : من الملاحظ اليوم بروز ظاهرة الغلو في الدين واتجاه بعض العامة للتجاوب مع هذه الظاهرة ، ما السبيل لعلاج ذلك ؟

■ إذا كان الغلو في الدين تعني به التشدد والتجمد وما إلى ذلك ؛ نعم التشدد والتجمد وتكليف النفس ما لا تطيقه ، هذا أمر منهي عنه ، والله سبحانه وتعالى قال : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] ، وقال النبي ﷺ : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » . وكان النبي ﷺ دائمًا يقول : « إن هذا الدين يسر ، ولن يشاد هذا الدين أحدٌ إلا غلبه » . وكان عليه الصلاة والسلام يقول : « إن الدين متين ، فأوغل فيه برفق » . وإنكاره ﷺ على المتشددين على أنفسهم الملزمينها بما لا تطيق مما لم يكلفهم الله به إنكاره ﷺ عليهم مشهور ، وقصته مع عبد الله بن عمرو بن العاص مشهورة ، حيث كان عبد الله بن عمرو يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويختم القرآن كل يوم ، فنهاه النبي ﷺ عن ذلك ، ولما جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا بها ، كأنهم تقالوها - أي : عدوها قليلة - فقالوا : أين نحن من الرسول ﷺ ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقال أحدهم : أما أنا فأصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الثاني : وأنا أقوم الليل ولا أرقد ، وقال الثالث : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فخرج إليهم ، فقال لهم : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » . فلذلك ننصح الجميع بأن يرفق بنفسه في الأمور كلها ، فما كان الرفق في شيء إلا زانه ، وما نزع الرفق من شيء إلا شانه ، وإذا أخذ الإنسان نفسه بالرفق وصل - بإذن الله عز وجل - إلى ما يريد ، ولذلك فإن عبد الله بن عمرو بن العاص لما شدد على نفسه وكبر سنه وضعف جسمه ، ندم على تشديده ، وقال : يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ .

حياة الشيخ الألباني . رحمه الله

❐ **التوحيد** : معروف أن فضيلتكم صاحب تجربة مع الشيخ ناصر الدين الألباني ، رحمه الله ، هل لكم أن تحدثونا عن الشيخ ، عن حياته في الفترة التي رافقتموه خلالها ؟

■ من فضل الله عز وجل أن الشيخ ، عليه رحمة الله ، بدأ الإقامة في عمّان بالأردن في سنة ألف وتسعمائة وثمانين ميلادية ، وهي نفس السنة التي قدر الله لي فيها الدخول إلى الأردن ، وقد تشرفت بزيارة الشيخ في بيته ، وصارت بعد ذلك لنا مودات وزيارات ولقاءات مع الشيخ في بيته وخارج بيته أحيانًا ندعوه إلينا ، وأحيانًا نأخذ معه زيارات ، وكان الشيخ ربما صلى عندي الجمعة في المسجد الذي كنت أخطب فيه في عمّان ، وكنا دائمي الصلة بالشيخ ، عليه رحمة الله ، وكان للشيخ الفضل - بعد الله عز وجل - علينا في العلم والفقه ، وخاصة في الرفق الذي كنا نتكلم عنه آنفًا ، وفي الصبر والنهي عن الاستعجال والتأني ، وعدم استعجال الشيء قبل أوانه ، وكان دائمًا يدعو إلى الحلم والرحمة ، وينهى عن الشدة والغلظة والقسوة . تعلمنا من الشيخ في الحقيقة كثيرًا من الأخلاق ، فضلاً عن العلم الذي تعلمناه منه مما آتاه الله ، ووضع الله له القبول في الأرض ، وتعلم على يديه الكثيرون ممن لم يلقوه ، رحمه الله ، والحقيقة في أسباب بقائي في البلد - كما ذكرت لك - أنني نزلت إجازة عام ١٩٩١م ، وقبل أن أنزل زرت الشيخ في صحبة أخ من عمان ، وأخبرت الشيخ بأنني على وجه سفر ، فقال : إن شاء الله هل هنالك نية للبقاء أم للعودة ؟ فقلت له : إنني أنوي الرجوع مرة ثانية ؛ لأن رفيقي لا يرضى إلا ببقائي بمصر ، فكان رد الشيخ رحمه الله : إننا لو تركنا أنفسنا للعواطف سنقول لك بأننا نريدك هنا معنا ، ولكن لا بد من تحكيم العقل ، وننظر في المصلحة إذا كان بقاؤك هناك خيرًا ، فذلك أفضل ، وإن كان بقاؤك هنا خيرًا ، فهذا أفضل ، فكان لهذه الكلمة أثرها ، فعندما جئت ورأيت حالة البلد استخرت ربي عز وجل في البقاء ، وتذكرت كلمة الشيخ ، فبقيت ، فهذا بإيجاز عن علاقتنا بالشيخ ، عليه رحمة الله .

التثبت لدى الشيخ الألباني !!

❐ **التوحيد** : ما هي أهم المواقف التي حدثت خلال تلك الفترة التي رافقت فيها الشيخ ؟

■ الموقف الغريب الذي أحب أن أنقله من باب الفائدة لأحض الطلاب على فهم ما يسمعون والدقة فيما ينقلون ،

بينما أنا في زيارتي للشيخ ذات يوم ؛ إذ سألني : ما تقول في كذا - في مسألة فقهية - فقلت : نقول ما تعلمنا منكم ، فهو كذا وكذا . فقال : ذاك الظن بك يا عبد العظيم ، فقلت : خيرًا يا شيخنا . ما الأمر ؟ فقال : أحد الشباب أخبرنا بأن الأستاذ عبد العظيم يقول كذا وكذا ، فقلنا : ما يقول عبد العظيم هذا ، فقلت : يا شيخنا ، لا أدري كيف يسمع الشباب وينقل ، فأنا أحكي الموقف ؛ لأنني كدت أن يسقط في يدي عندما سألني الشيخ ، وخشيت أن أكون قد زللْ لساني وأخطأت ، فقال الشيخ : أردت أن أتثبت منك ما سمعته عنك ، فانظر إلى أدب الشيخ ، رحمه اللّه - على علمه الجم - يتثبت ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ... ﴾ الآية [الحجرات : ٦] ، فالطلاب سمعوا مني ، ونقلوا كلامًا معكوسًا ، وجاء المعنى مقلوبًا تمامًا ، فلذلك أنصح الشباب بقول الرسول ﷺ : « نضر اللّه امرأ سمع منا حديثًا فحفظه حتى يبلغه كما سمعه ، فرب مبلغ أوعى من سامع » . فأنصح الشباب أن يحفظوا ما يسمعون ، وأن يعوه ، ثم ينقلوه بدقة وأمانة ، ولا يتقولون ، ولا يتكلمون فيما لا يعلمون .

ما آفة الأخبار إلا رواتها !!

❐ **التوحيد** : في ظل ما تتحدثون عنه ، لا بد من التثبت قبل النقل ، ما هي نصيحتكم لطلبة العلم الذين يكثرون النقل عن العلماء بدون تثبت ويتتبعون زلاتهم ؟

■ قديمًا قالوا : وما آفة الأخبار إلا رواتها ، حقيقة الآن الرُّواة ليس عندهم تثبت ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم ، ترى طالب العلم يقول : الشيخ فلان يقول كذا ، فإذا تثبتَّ وتحريت عن الشيخ تجد أنه لم يقل ذلك ، فأنصح الشباب بالتأدب بأدب العلم وأدب طالب العلم ، فإن الأدب قبل العلم ، أما تتبع الطلاب لهفوات العلماء وزلاتهم وما يقعون فيه من أخطاء ، فإنه ليس هناك أحد معصوم بعد النبي ﷺ ، وكما قال الإمام مالك رحمه اللّه : (ما منا إلا يؤخذ منه ويرد عليه ..) ، وليس معنى هذا أن نشهر به ونجرِّحه . هذا لا يجوز أبدًا ، فزلات العلماء مغفورة - بإذن اللّه - فإذا اجتهد العالم فأصاب فله أجران ، وإذا أخطأ فله أجر ، فالعلماء مأجورون في حالتَي الإصابة والخطأ ، وحق على طلبة العلم الستر والنصح ؛ لا أن نشهر بهم ونجرحهم ، ومما ابتلينا به في هذا العصر هو هذه المسألة ، مسألة تطاول الطلاب على العلماء ، بل على كبار العلماء ، وتنصيب الطلاب من أنفسهم حكامًا على العلماء والفقهاء ، هذا كذا ، وهذا كذا ، فمن بقي إذن ؟ تطاولت الألسن ، حتى وصلت إلى الرءوس ، وإلى الكبار ، فمن بقي إذن بعد رءوسنا وكبارنا ، حفظهم اللّه ، ورحم من مات منهم .

فنقول للشباب : اتقوا اللّه في أنفسكم ، واتقوا اللّه في علمائكم ، وقدِّروهم حق قدرهم ، قال ﷺ : « ليس منا من لم يبجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه » . وقال ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء ... » . فالعلماء بهم قام الدين ، فإذا طعنَّا في علمائنا ، فإننا نطعن في ديننا ، فلنتق اللّه في أنفسنا ، ولنتق اللّه في علمائنا ، ولنعرف أن بقاءهم بقاء لنا ، وهلاكهم هلاك لنا ، فلندع اللّه لهم بالثبات وطول العمر ، وأن يحفظهم اللّه لنا حتى يحفظ لنا ديننا بسببهم ، إن شاء اللّه تعالى .

تجربة تحفيظ القرآن الكريم !!

❐ **التوحيد** : أنتم صاحب تجربة فريدة في مسألة تحفيظ القرآن الكريم ، وتخرِّجون أفواجًا كبيرة كل عام من حفظة كتاب اللّه في مسجد النور ، هل لكم أن تحدثونا عن هذه التجربة ، حتى يستفيد منها كثير ممن يريد أن يقوم بنفس هذا المشروع ؟

■ الحقيقة إنه من فضل اللّه علينا وعلى الناس من حولنا أن اللّه سبحانه وتعالى قذف في قلوبنا الاهتمام بالقرآن الكريم ، تعلمًا وتعليمًا ، وهذا من فضل اللّه عز وجل ، ذلك أنه سبق وذكرنا قول الإمام ابن القيم : (العلم قال اللّه قال رسوله قال الصحابة) ، عندما تنظر في هذه العبارة تجد أن أصل العلم هو قال اللّه ، لماذا ؟ لأن قال رسول اللّه ، وقال أصحابه تبيان لما قال اللّه ، كما قال عز وجل : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] ، فإذن القرآن هو العلم ، والسنة وأقوال الصحابة تفسيرٌ لهذا العلم ، وأصل العلم هو القرآن الكريم ، وفي منهج سلفنا الصالح رضي اللّه عنهم - كما نقل البغدادي ، رحمه اللّه ، والإمام النووي ، رحمه اللّه - أن السلف الصالح كان إذا أتاهم طالب العلم يتعلم يسألونه : هل حفظت القرآن ؟ فإن قال : لا ، يقولون له : اذهب احفظ القرآن وعد . وإن قال : حفظت سألوه في أصعب الآيات ، فلذلك نصيحتي لمن انشغل بالدعوة وانشغل بتعليم الناس ؛ أن يهتم بحفظ القرآن الكريم ، وأن يولي القرآن الكريم عناية ورعاية ؛ تحفيظًا وتعليمًا وتدريسًا ، فإن القرآن الكريم هو حبل اللّه المتين ، وهو النور المبين ، والصراط المستقيم ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، به صلح حال السابقين ، وبه يصلح - إن شاء اللّه - حال اللاحقين ، ولا سعادة لنا ولا فلاح إلا في العودة لكتاب ربنا سبحانه وتعالى . قال عز وجل : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء :

[الإسراء : ٨٢] ، ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ [فصلت : ٤٤] .

❑ **التوحيد** : ما الواجب على المسلم تجاه الجماعات الموجودة على الساحة الآن ؟

■ هذه الجماعات يجب عليها وعلى جميع المسلمين أن يتعاونوا على البر والتقوى وعلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وندعو هؤلاء إلى الحرص على التمسك بالكتاب والسنة وبفهم سلف الأمة على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، فقد أخبر ﷺ عن افتراق الأمة كما افترق من قبلها اليهود والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة . قالوا : ما هي يا رسول الله ؟ قال : « الجماعة » . وفي رواية : « ما أنا عليه اليوم وأصحابي » . فالواجب على هذه الجماعات أن تتعاون مع بعضها البعض على البر والتقوى ، وأن يتجردوا من الحمية والعصبية ، وأن يبتعدوا عن التحزب والفرقة ؛ لأن الولاء للمسلمين عمومًا والبراء من غير المسلمين : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [المائدة : ٥٥] ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٦] ، ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] ، فولاء المؤمنين للمؤمنين ، وبراء المؤمنين من الكافرين . يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٩٢] ، ويقول : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] ، ثم يقول : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

وعلى الجميع أن يسعوا إلى نبذ الخلاف والفرقة ، وهجر التنابز بالألقاب ، وألا يبغي بعضهم على بعض ، وألا يظلم بعضهم بعضًا ، بل يتواضع الجميع لبعضهم البعض ، إيمانًا واحتسابًا لوجه الله عز وجل .

هذه هي مؤلفاتي !!

❑ **التوحيد** : ما هي مؤلفاتكم ، وما أبرزها ؟ وما هي الكتب التي ستصدر قريبًا إن شاء الله ؟

■ من فضل الله سبحانه وتعالى عليّ أنني صدرت لي القيامة ، فقد صدر لي كتاب « أكمل البيان في معنى الإسلام والإيمان والإحسان » ، وهذا أول ما طبع لي ، وصدر لي « رحلة في رحاب اليوم الآخر » عن أشراط الساعة وعلاماتها وأهوال يوم القيامة ، حتى يستقر أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، وصدر لي كذلك : « صفات المتقين في الكتاب المبين » ، وصدر لي « برنامج عمل اليوم والليلة » ، كذلك رسالة كانت عبارة عن محاضرة بعنوان : « القول الفصل المبين فيمن لم يحكم بما أنزل الله رب العالمين » ، هذه رسائل وكتب ليست كبيرة الحجم ، ومن الكتب الكبيرة والمتميزة كتاب « الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز » ، وهذه من الكتب التي أحمد الله سبحانه وتعالى على ما وضع لها من القبول وعمّ بها النفع بفضل الله عز وجل ، كذلك « التعليق السني على صحيح مسلم بشرح النووي » ، كذلك كتيب صدر في شرح الأربعين حديثًا ، فصدر أول جزء بعنوان « الأربعون المنبرية » شرح أربعين حديثًا ، وصدر الجزء الثاني بعنوان : « الوصايا المنبرية » ، أما الجزء الثالث فسيصدر قريبًا إن شاء الله ، وكتبت كتابًا في سيرة الرسول ﷺ سميته « إتحاف النبلاء بصحيح سيرة سيد الأنبياء » ، كذلك من فضل الله عز وجل طبعت « تفسير سورة الفاتحة » ، وكذلك من فضل الله طبع كتاب : « أختاه أين تذهبين » ، و« هذا هو الطريق » ، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن ييسر طبع « تفسير القرآن الكريم » ، فأنا بفضل الله عز وجل خلال تدريسي ومنذ أن أقمت في قريتي عام ١٩٩١ إلى قبل شهر تقريبًا أتممت تفسير القرآن الكريم كله في المحاضرات ، فأسأل الله سبحانه أن ييسر طباعته ، إن شاء الله تعالى .

قصة تأليف « مختصر فتح الباري » !!

❑ **التوحيد** : ما هي قصة تأليف كتاب « مختصر فتح الباري ؟ » ؟

■ مختصر فتح الباري - كما أشرنا - رأينا فقهه بعيدًا عن متناول يد العامة ، فضلاً عن الطلاب المبتدئين ، فرأينا أن نختصره في حجم قريب ليسهل الانتفاع به بإذن الله عز وجل ، وهو تحت الطبع الآن ، ونسأل الله أن ييسر خروجه إلى النور بإذن الله عز وجل .

وفي نهاية الحوار ، ندعو الله عز وجل أن يبارك في علماء المسلمين ، وأن يرزقنا العلم النافع ، والعمل الصالح . والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الواقعة

الحلقة رقم (٢)

بقلم د. عبد العظيم بدوى

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

ولما ذكر ربنا سبحانه ما أعدّ من النعيم للسابقين المقربين ، أتبع ذلك بذكر ما أعدّ لأصحاب اليمين ، فقال تعالى : ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ ، ما أدراك ما هم وما لهم عند الله ، ﴿ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ والسدر : شجرُ النبق ، وهو معروف ، ومنه سدرة المنتهى ، والمخضود الذي لا شوك فيه . ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ وهو الموز ، منضود : أي متراكم الثمر . ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ قال ﷺ : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » . [متفق عليه] .

● ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ : مصبوب يجري دائمًا في غير أخدود . ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۞ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ لا تُقطع في زمن ، ولا تُمنع لغلو ثمن ، فبعض الناس يمرّ في الأسواق فيرى الفاكهة مصفوفة ، وليس معه ثمنها ، فيقول لها : موعدنا الجنة إن شاء الله ، وأحيانًا يشتهي الرجل الفاكهة ، ويملك ثمنها ، ولا يجدها ؛ لأنها مقطوعة ، ليس هذا الوقت وقتها ، فهذا حال الناس مع الفاكهة في الدنيا ، أمّا فاكهة الجنة فـ ﴿ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ . ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ على الأسِرّة ، كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ [الغاشية : ١٣] ، قد فُرشت بالحرير والسندس والإستبرق . ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴾ قال العلماء : لم يسبق ذكر للنساء حتى يعود الضمير في ﴿ أَنشَأْنَٰهُنَّ ﴾ عليه ، فكيف أتى بالضمير ؟ قالوا : لما كان من المعلوم أن الفُرُش لا تطيب إلا بمن عليها ، اكتفى بذلك عن ذكرهن ، وأعاد الضمير عليهن ، قالوا : والضمير يصلح للعود على الحور العين ، فيكون المعنى : إنا أنشأناهن إنشاءً من غير أب ولا أم ، وإنما بالكلمة ، كلمة كنْ ، ويصلح الضمير للعود على نساء الدنيا ، فيكون المعنى : إنا أنشأناهن بعد البعث إنشاءً جديدًا ، وخلقًا آخر ، غير الذي كنّ

عليه ، ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ كلما فُضت عادت بكرًا ، ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ والعُرُبُ : هي المتحببة إلى زوجها ، لا تدعُ شيئًا يحببها إليه إلا فعلته . وكلهن أتراب ، أي : في سنّ واحدٍ ، شابات أبكار ، لا يدركهن الشيب ولا الهرم ، بل يزددن كلّ يوم حسنًا وجمالاً ، وفتوة وشبابًا . وهذا كله ﴿ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ . وهم أكثر عددًا من السابقين ، فهم ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ۞ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ ﴾ .

وعلى طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ، عطف ربُّنا سبحانه على ذكر أصحاب اليمين ، ذكرَ أصحاب الشمال ، فقال سبحانه : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ ما هم وما أدراكَ ما لهم ؟ ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴾ والسموم : هو الهواء الحارّ الساخن ، الذي يتخلل مسام الأبدان . والحميم : الماء الحارّ المغلي ، الذي اشتدت درجة غليانه ، ﴿ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴾ [الحج : ٢٠] ، ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۞ لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ ، واليحموم : هو الدخان الأسود ، ليس طيّب الهبوب ، ولا كريم المنظر ، كما قال تعالى : ﴿ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ ۞ لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴾ [المرسلات : ٣٠، ٣١] ، وإنما استحقوا ذلك بـ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴾ كانوا معتقدين أنها حياة واحدة إذا انتهت فلا حياة بعدها ، فأعطوا أنفسهم حظها مما يشتهون[1] ، ﴿ وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴾ [البقرة : ٢٠٠] ، ﴿ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر : ١٥] ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

● ﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ أي : الذنب الكبير ، وهو الشرك . ﴿ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ﴾ ؟ ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة : ١١٠] ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ﴾ ، ﴿ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴾ [الشعراء : ٧٦] ، ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ۞ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ۞ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الصافات : ١٥- ١٩] . وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۞ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ [التغابن : ٧- ٩] .

● ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴾ بيوم الدين ﴿ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ ، وهي ﴿ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ [الصافات : ٦٤] ، تغلي في بطونهم ، ﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ ، ومع هذا كله ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ [الصافات : ٦٧] ، ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ ، وهي الإبل العطاش ، والمعنى : أنهم يشربون من الحميم كثيرًا . و﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ والنزل : أحسن ما يعدّ للضيف ، وهؤلاء الضالون المكذبون ليس لهم نزل يكرمون به إلا ما ذُكر من الزقوم والحميم ، ﴿ فَلَكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء : ٩٨] .

أجارنا الله وإخواننا المسلمين من هذا النزل ، وجعل لنا جنات الفردوس نزلاً .

---

(١) ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٦] .

سورة الواقعة

الحلقة الأخيرة

﴿ أفرأيتم ما تمنون (٥٨) أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون (٥٩) نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين (٦٠) على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون (٦١) ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون (٦٢) أفرأيتم ما تحرثون (٦٣) أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (٦٤) لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون (٦٥) إنا لمغرمون (٦٦) بل نحن محرومون (٦٧) أفرأيتم الماء الذي تشربون (٦٨) أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون (٦٩) لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون (٧٠) أفرأيتم النار التي تورون (٧١) أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون (٧٢) نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين (٧٣) فسبح باسم ربك العظيم (٧٤) فلا أقسم بمواقع النجوم (٧٥) وإنه لقسم لو تعلمون عظيم (٧٦) إنه لقرآن كريم (٧٧) في كتاب مكنون (٧٨) لا يمسه إلا المطهرون (٧٩) تنزيل من رب العالمين (٨٠) أفبهذا الحديث أنتم مدهنون (٨١) وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون (٨٢) فلولا إذا بلغت الحلقوم (٨٣) وأنتم حينئذ تنظرون (٨٤) ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون (٨٥) فلولا إن كنتم غير مدينين (٨٦) ترجعونها إن كنتم صادقين (٨٧) فأما إن كان من المقربين (٨٨) فروح وريحان وجنة نعيم (٨٩) وأما إن كان من أصحاب اليمين (٩٠) فسلام لك من أصحاب اليمين (٩١) وأما إن كان من المكذبين الضالين (٩٢) فنزل من حميم (٩٣) وتصلية جحيم (٩٤) إن هذا لهو حق اليقين (٩٥) فسبح باسم ربك العظيم (٩٦) ﴾

تفسير الآيات :

لما ذكر الله تعالى إنكار المشركين للبعث ، وأمر نبيه ﷺ أن يقول لهم : ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ . أتبع ذلك بذكر الأدلة والبراهين على إمكان هذا الجمع ، فقال تعالى : ﴿ نحن خلقناكم ﴾ يعني : أول مرة ، ﴿ فلولا تصدقون ﴾ . أنا قادرون أن نعيدكم خلقا آخر ، فأول دليل على أن الله يحيي الموتى ، ويبعث من في القبور : أن الله خلق الخلق أول مرة ، فلن يعجز أن يعيدهم بعد الموت مرة ثانية . كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ولله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ [الروم : ٢٧] . وقد تكرر في القرآن الكريم الاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الثانية . قال تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أإذا ما متُّ لسوف أخرج حيا أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا فوربك لنحشرنهم ﴾ [مريم : ٦٦، ٦٧] . وقال تعالى : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ [يس : ٧٧- ٧٩] . وقال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق

خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر ﴾ [الطارق : ٥- ٨]. وقال تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾ [عبس : ١٧- ٢٢].

﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ : هل رأيتم هذا الماء المهين يراق في الأرحام فيكون منه الإنسان ؟! ﴿ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ وهو سؤال تقريري لا يحتاج إلى جواب . فقد كانوا مقرين أن الله هو الذي خلقهم . فالله الذي خلقكم مما تمنون . قادر أن يعيدكم بعدما تموتون. كما قال تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾ [القيامة : ٣٦- ٤٠].

﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ : فلن ينجو من الموت أحد . كما قال تعالى : ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : ٢٦، ٢٧]. وقال تعالى: ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أي : وما نحن بعاجزين : ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ يعني : ان أهلكناكم . كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ [فاطر : ١٥- ١٧]. وقال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ [محمد: ٣٨]. وقوله تعالى : ﴿ وننشئكم في ما لا تعلمون ﴾ من الصفات والأحوال ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ . فتعلمون أن الذي أنشأكم أول مرة قادر أن يعيدكم مرة ثانية . كما قال تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ﴾ [الأنبياء : ١٠٤]. هذا أول دليل على إمكان البعث.

والدليل الثاني : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ ترى الأرض سوداء جرداء . لا زرع فيها . قد بذر الفلاحون البذور وانتظروا رحمة الله تعالى . فإذا أغاث الله العباد اهتزت الأرض وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . وهذا دليل من الأدلة الدالة على أن الله يبعث من في القبور . ولذلك قال تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ [الحج : ٦،٧]. وقال تعالى : ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير) [الروم : ٤٨- ٥٠]. وقال تعالى : (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ [فصلت : ٣٩].

﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لعباده، وقد أقروا أنه سبحانه الزارع لا هم، إن كفروا نعمة الله بأن يصيبهم في الزرع بهلاكه قبل حصاده، ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ تتعجبون مما نزل بكم في زرعكم، فتارة تقولون: ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾، وتارة تقولون: ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾.

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾، ثم هددهم بإفساد هذا الماء عليهم بجعله ملحًا أجاجًا، لا يصلح لزرع ولا لشرب، فقال: ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾، فلولا تشكرون الله على نعمه كلها، ومنها نعمة الماء، فبالشكر تدوم النعم وتزيد، وبالكفر تقل النعم حتى تذهب، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾، ولذا قال القائل:

وإذا كنت في نعمة فارعها

فإن المعاصي تزيل النعم

وحافظ عليها بشكر الإله

فإن الإله سريع النقم

وقد كان ﷺ يقول: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها».

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾: كان للعرب شجرتان: يؤخذ غصن من هذه، وغصن من هذه، ثم يحك هذا بذاك فتخرج منهما النار، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠]، وهذه آية من آيات قدرة الله تعالى ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾، أي: جعلنا نار الدنيا التي توقدون تذكرة لكم بنار الآخرة، حتى تخافوها، فتعملوا على وقاية أنفسكم منها، وأين نار الدنيا من نار الآخرة؟ قال ﷺ: «إن ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم». قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية، قال: «فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءًا».

فإذا رأيت النار يا عبد الله فتذكر نار الآخرة، وقل: ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا. إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾، وقل: يا نفس، هذه نار الدنيا، فهل تصبرين عليها ساعة واحدة؟! فكيف بك بنار الآخرة: ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ [الهمزة: ٥- ٩]، فاعملي يا نفس صالحًا، عسى أن ينجيك الله من النار.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ أي: للمسافرين، يقال: أقوت الدار، إذا رحل أهلها، والمراد بالمسافرين جميع الناس، لا المسافرين عُرْفًا، فمن المعلوم أن انتفاع المقيم بالنار أكثر من انتفاع المسافر، فاستخدام المسافر للنار قليل، وأما المقيم فما أكثر إيقاده النار.

قال العلماء: أراد الله أن يقول للناس: يا أيها الناس، إنكم مسافرون من الدنيا إلى الآخرة: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣]. فالمسافر لا يتعلق بشيء مما يمرّ به في سفره، ولا يؤثر الإقامة في بلد الغربة على وطنه، وأنتم في الدنيا غرباء، فعيشوا عيشة الغرباء، ولا تستكثروا من حطامها، وتطلعوا دائمًا إلى وطنكم الذي أنتم مسافرون إليه، وهو الآخرة، وليس فيه سوى منزلين: الجنة، أو النار، فتزودوا من سفركم ما تبلغون به جنة ربكم.

ولما أرى الله الإنسان مظاهر قدرته قال: ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ

العظيم ﴾ . قال النبي ﷺ : « من قال : سبحان الله وبحمده ، غرست له نخلة في الجنة » . وقال ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » .

﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ ، والنجوم هي هذه النجوم التي جعلها الله زينة للسماء الدنيا ، ومواقعها منازلها ، ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ . وجوابه : ﴿ إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ﴾ : مصون ومحفوظ ، ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة ﴾ . ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ [الزمر : ١] ، ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ [غافر : ٢] ، ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ [فصلت : ٢] ، ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ [الشعراء : ١٩٢-١٩٥] .

﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ أي : مكذبون ، ﴿ وتجعلون رزقكم ﴾ أي : شكركم نعمة الله ، ﴿ أنكم تكذبون ﴾ بما أنزل الله . ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ أي : بلغت الروح الحلقوم عند الاحتضار ، ﴿ وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ إلى المحتضر ولا تملكون له نفعا ، كما قال تعالى : ﴿ كلا إذا بلغت التراقي (وقيل من راق ﴾ [القيامة : ٢٦ ، ٢٧] . هل من أحد يرقي هذا الإنسان ، وذلك بعدما رأوا الدواء لم يغير شيئا ، ﴿ وظن ﴾ أي : اعتقد المحتضر أنه لا فائدة من الدواء ، ولا فائدة من الرقى ، و﴿ أنه الفراق ﴾ قد آن أوانه : ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ المراد ملائكة الموت ، حين جلسوا تحت رجله مد بصره ، وجلس ملك الموت عند رأسه ، ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ ، ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ أي : غير مجزيين ولا محاسبين : ﴿ ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ وهيهات هيهات .

وقد سبق في سورة « ق » ذكر حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ في وصف حالة الاحتضار وكيفية قبض الروح .

وقوله تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم ﴾ . فهذه أحوال الناس عند الاحتضار ، فإما أن يكون الإنسان من السابقين فيكون من المقربين : ﴿ في جنات النعيم ﴾ له فيها روح وريحان ، رحمة وراحة واستراحة ورزق . ﴿ وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ أي : أن الملائكة تبشره بذلك عند الاحتضار ، فتقول له : لا بأس عليك فأنت من أصحاب اليمين ، وأهل اليمين قد بعثوا لك السلام ، ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم ﴾ ، وقد سبق تفسيره في قوله تعالى : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ إلى قوله : ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ .

ثم ختمت السورة بقوله تعالى : ﴿ إن هذا ﴾ الذي أخبرناكم به في هذه السورة ﴿ لهو حق اليقين ﴾ ، فلا ترتابوا فيه ، ولا تشكوا في وقوعه ، ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ . سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .

باب التفسير

(١)

سورة الحديد

بقلم الدكتور: عبد العظيم بدوي

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ. يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

سورة مدنية، شأنها شأن السور المدنية في الاهتمام بالتشريع والقواعد التربوية والأخلاقية، وسميت بهذا الاسم؛ لذكر إنزال الله عز وجل الحديد فيها، وهكذا تسمى السور غالبًا بأشهر شيء فيها، كسورة البقرة، والأنعام، والأنبياء، والنمل، والفيل. إلخ.

استفتحت السورة ببيان أن كل ما في الكون يسبح بحمد الله، وأن الله (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، ثم ذكرت شيئًا من أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، ثم حثت المؤمنين على الإيمان بالله ورسوله، والإنفاق في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، ثم ذكرت أحوال المؤمنين والمنافقين يوم القيامة، وكشفت الستار عن حقيقة الدنيا، حتى لا يغتر بها أحد، ولا يركن إليها، ولا يطمئن لها. ثم ذكرت الغاية التي من أجلها أرسل الله الرسل وأنزل الكتب، وختمت بأمر المؤمنين بتقوى الله عز وجل، والإيمان به وبرسوله، عسى الله أن يؤتيهم كفلين من رحمته، ويجعل لهم نورًا يمشون به ويغفر لهم، والله غفور رحيم.

تفسير الآيات:

(سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) التسبيح لله معناه: تنزيه الله تعالى وتقديسه، وتعظيمه عن النقائص والعيوب، وقد سبح لله كل ما في السماوات والأرض، كما قال تعالى: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) (الإسراء: ٤٤)، فهو تسبيح حقيقي بلسان المقال لا بلسان الحال، (وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)، ومن شاء الله له أن يسمع تسبيح الأشياء سمعه، كما جاء في الصحيح عن

ابن مسعود رضي الله عنه قال: ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل.

وكل شيء له لغته التي تخصه، ويسمعها ويفهمها من شاء الله له، قال النبي ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن». (مسلم: ٢٢٧٧).

وقال تعالى: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ) (النمل: ١٦)، فلما أتى عليه السلام على واد النمل: (قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (النمل: ١٨)، فسمعها سليمان وفهم قولها: (فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا) (النمل: ١٩)، فإذا علم هذا علم أن تسبيح كلّ شيء، تسبيحٌ حقيقي بلسان المقال: (وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ).

(وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) العزيز: الغالب، الذي لا غالب لأمره، ولا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) (الأنعام: ١٨)، الحكيم: في تصرفاته وأفعاله، تعالى ربنا عن العبث علوًا كبيرًا.

(لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) كما قال تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) (الملك: ١)، وقال تعالى: (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (يس: ٨٣)، وقال تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى) (طه: ٥، ٦)، وهو سبحانه يتصرف في ملكه كيف يشاء: (يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، كما قال تعالى: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي

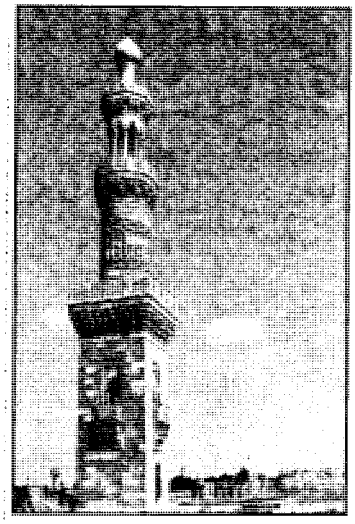

اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (آل عمران: ٢٦، ٢٧)، وكما قال تعالى: (لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ. أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) (الشورى: ٤٩، ٥٠)، (وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) مما تعلقت به إرادته (قدير)، فإذا أراد شيئًا فما هي إلا كلمة (كن) فيكون، كما قال تعالى: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ) (يس: ٨٢)، لا يعجز سبحانه عن شيء، ولا يُعجزه شيء، كما قال تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا) (فاطر: ٤٤).

(هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)، فسّر النبي ﷺ هذه الأسماء بما كان يقوله في جملة أدعية النوم: «اللهم ربّ السماوات وربّ الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقْضِ عنا الدين، وأغننا من الفقر».

(وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) كما قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) (الطلاق: ١٢)، (إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) (آل عمران: ٥)، (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) (يونس: ٦١)، (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (المجادلة: ٧).

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ)، وفسر ربنا سبحانه هذا الإجمال في سورة أخرى فقال: (قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) (فصلت: ٩- ١٢)، ولحكمة ما خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام،

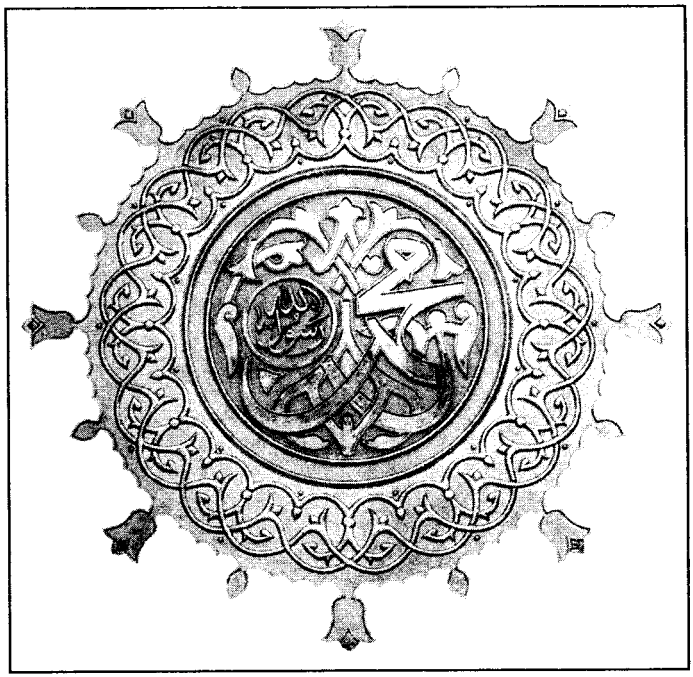

وهو القادر على أن تكون السماء والأرض بكلمة (كن)؛ ولذا قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ) (ق: ٣٨)، تكذيبًا لليهود- عليهم لعائن الله المتتابعة- في قولهم: خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت؛ ولذلك اتخذوا السبت عيدًا، (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا) (الكهف: ٥).

وقوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) هذا هو الموضع السابع الذي أخبر الله تعالى فيه عباده باستوائه على العرش، والمواضع الست الأخرى هي:

- قوله تعالى في سورة الأعراف: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) (٥٤).

- وقوله تعالى في سورة يونس: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ) (٣).

- وقوله تعالى في سورة الرعد: (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) (٢).

- وقوله تعالى في سورة طه: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (٥).

- وقوله تعالى في سورة الفرقان: (الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) (٥٩).

- وقوله في سورة السجدة: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) (٤).

فوجب علينا الإيمان بما أخبرنا به ربنا من استوائه على عرشه، فالله تعالى قد خاطبنا بلغتنا التي نفهمها، وقد قال تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (يوسف: ٢). وقال تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الزخرف: ٣)، والاستواء في اللغة معناه العلو والارتفاع، كما قال تعالى: (وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ. لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ) (الزخرف: ١٢- ١٤)، فاستواء ربنا على العرش معناه العلو والارتفاع عليه، ولكن استواء ربنا ليس كاستوائنا؛ لأن الله تعالى أخبر أنه: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (الشورى: ١١)، (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (الإخلاص: ٤)، فلا نقول: استواء ربنا كاستوائنا، ولا نقول: استواء ربنا على العرش: استيلاؤه عليه، ولا نخوض في كيفية استوائه سبحانه، وإنما نقول كما قالت أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها ومن بعدها من التابعين وتابعيهم: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ) من الحبِّ والقطر وغير ذلك: (وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا) من النبات والمعادن والكنوز وغير ذلك، (وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ) من وحي وغيث وملائكة ونحو ذلك، (وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا) من ملائكة وأعمال وأرواح المؤمنين وغير ذلك، وهذه الآية كقوله تعالى: (وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) (الأنعام: ٥٩).

وقوله تعالى: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) بعلمه وسمعه وبصره، لا كما يقول البعض: الله في كل مكان، يعنون بذاته، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

إن الله أخبرنا في صدر الآية بأنه استوى على العرش، ثم قال: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ)، ولا يمكن أن يكون قد استوى على العرش، ثم يكون في كل مكان، فالحق أنه (اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) بذاته، (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ) بصفاته، بعلمه وسمعه وبصره. وعقيدة: الله في كل مكان باطلة؛ لأن معنى ذلك لا يخلو منه مكان، طاهرًا هذا المكان أو غير طاهر، شريفًا أو غير شريف، وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وهذا القول معناه أن الله قد حلّ في كل شيء، وهذا كفر أعظم من كفر النصارى، فإنهم زعموا أن الله حلّ في عيسى وحده، وهذا القول يقتضي حلول الله في كل شيء، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، فطهرْ قلبك يا عبد الله من هذه العقيدة الفاسدة، واعلم أن الله في السماء، على العرش استوى، استواءً يليق بجلاله، كما سبق بيانه، فهذه عقيدة أهل الإيمان، كما شهد بذلك رسول الله ﷺ، كما جاء في صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي أنه قال: كانت لي جارية ترعى غنمًا لي قبل أُحُد والجوانيّة، فاطلعت ذات يوم، فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليّ، قلت: يا رسول الله، أفلا أعتقها؟ قال: «ائتني بها». فأتيته بها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «أعتقها فإنها مؤمنة». وبهذا الجواب نطق كتاب ربنا، قال تعالى: (أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ) (الملك: ١٦، ١٧)، وقوله تعالى: (وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

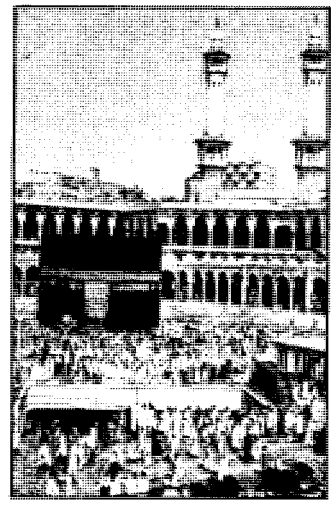

بَصِيرٌ) أي مطلع على أعمالكم كلها دقها وجلها، وسيجزيكم بها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وإذا اعتقد الإنسان أن الله مطلع عليه، يرى أعماله، ويسمع كلامه، فيجب عليه أن يستحيي من الله، فلا يفعل القبيح، ولا يقول السوء، وأن يفكر قبل أن يقول أو يعمل، وأن يتمثل بهذين البيتين:

إذا مـا خلوت الدهر يومًـا

فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة

ولا أن مـا تخفي عليه يغيب

ومرة ثانية يؤكد ربنا سبحانه ملكه للأشياء كلها فيقول: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)، كما قال تعالى: (أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) (الشورى: ٥٣)، (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى) (النجم: ٤٢)، (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى) (العلق: ٨)، (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) (يونس: ٤).

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ)، كما قال تعالى: (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) (الزمر: ٥)، وتلك آية من آيات عظمة الله ووحدانيته وكمال قدرته، كما قال تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) (الفرقان: ٦١، ٦٢)، وقال تعالى: (وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس: ٣٧- ٣٩).

(وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) لما ذكر أنه قد أحاط بكل شيء علمًا، خصّ الصدور بالذكر حتى لا يظنّ ظانّ أنه سبحانه أحاط بكل شيء علمًا مما ظهر، لا مما خفي واستقر في الصدور واستتر، كما قال تعالى: (أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) (هود: ٥)، وكما قال تعالى: (سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) (الرعد: ١٠)، وقال تعالى: (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ. أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (الملك: ١٣، ١٤)، وقال تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ) (البقرة: ٢٣٥)، فاحذر يا عبد الله أن يطلع الله في صدرك على رياء أو نفاق، واحذر أن يطلع في صدرك على حقد لمسلم أو عداوة له، أو غير ذلك مما لا يرضاه.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

باب التفسير

سورة الحديد

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ. وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ. وَمَا لَكُمْ أَلاَ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد: ٧- ١٠).

بقلم الدكتور
عبد العظيم بدوي

تفسير الآيات

﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يا معشر مَن لم يُؤمن بعدُ، واثبتوا على الإيمان يا مؤمنون، واطلبوا المزيد، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِيَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ (النساء: ١٣٦)، قال بعض العلماء: أَمْرُ المؤمنين بالإيمان معناه الأمرُ بالثبات عليه. وقال البعض: الأَمْرُ بالإيمان للمؤمنين معناه الأَمْرُ بتحصيل الزيادة منه، فالإيمانُ مراتب، والإيمان يزيد وينقص، ويقوى

ويضعف، والإيمان يتفاوت من قلب إلى آخر، بل إن الإيمان يتفاوت في القلب الواحد من حين لآخر، وهذا شيء محسوس، يجده كل مؤمن في قلبه، أحيانًا تشعر أن إيمانك في القمة، وأنه في قلبك كالجبال، وأحيانًا تشعر أنك في الحضيض، فقوله تعالى: ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي: استزيدوا من الإيمان، ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾، هذا المال يا عبد الله الذي في يدك أنت خَلَفْتَ فيه غيرك، فقد كان في يد آبائك فورثته عنهم وخلفتهم فيه، وغدًا تموت ويخلفك فيه غيرك، فوجود المال في يدك فرصة فاغتنمها، ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾، ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المنافقون: ١٠، ١١).

واعلم يا عبد الله أن ما تنفقه ذاهبٌ إلا نفقة أنفقتها في سبيل الله فهي لك عند الله باقية، قال ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت».

فـ ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ. وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾، فماذا تنتظرون؟ هل تنتظرون داعيةً يدعوكم إلى الإيمان غير محمد ﷺ؟ ومَنْ خيرٌ مِن محمد ﷺ؟ خير الدعاة وأفضلهم، وأكرمهم على الله، وسيدهم جميعًا، فإن كنتم مؤمنين بأحد يدعوكم إلى الإيمان فآمنوا بهذا الداعية محمد ﷺ، وقد جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه: «أي المؤمنين أعجب إليكم إيمانًا؟» قالوا: الملائكة. قال: «وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟» قالوا: فالأنبياء. قال: «وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم». قالوا: فنحن. قال: «وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم، ولكن أعجب المؤمنين إيمانًا قوم يجيئون بعدكم، يجدون صحفًا يؤمنون بما فيها». (المشكاة: ٦٢٧٩)، وإسناده ضعيف.

اعلم يا عبد الله أن ما تنفقه ذاهب إلا نفقة أنفقتها في سبيل الله فهي لك عند الله باقية!!

وقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ ﴾ يعني: وقد أخذ الرسول ميثاقكم لتؤمنن به ولتنصرنه، وقد يكون المعنى: وقد أخذ ربكم ميثاقكم أن تؤمنوا به وبرسله، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، فـ ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، فمن الآن فبادروا بالدخول في الإيمان، واستجيبوا لرسول الرحمن، فـ ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ محمد ﷺ ﴿ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم: ١) ليخرجكم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، ومن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الضلالة إلى نور الهداية، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، وقوله تعالى: ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ ﴾ الناس: عام مخصوص، كما في قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي

الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا. رَّسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (الطلاق: ١٠، ١١)، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ومن رأفته ورحمته أرسل إليكم أشرف الرسل محمدًا ﷺ، وأنزل عليه أشرف الكتب: القرآن المجيد.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فالمال مال الله، خوّلكم فيه، وجعله لكم قيامًا، وستموتون وتتركون هذه الأموال، وتلقون ربكم فرادى ليس معكم شيء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ (الأنعام: ٩٤)، فإذا علمت يا عبد الله أنك ميت، وأن الله يرث الأرض ومن عليها، فلِمَ البخل؟ ولِمَ لا تجود بمالك في سبيل الله؟ لِمَ لا تنفق ذات اليمين وذات الشمال ابتغاءَ مرضات الله؟

أما علمت أن اللَّه قال: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ (سبأ: ٣٩)، وأن النبي ﷺ قال: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا». فأنفق يا عبد الله، وإياك والبخل، فإن الله تعالى قال: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٨٠)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَـذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٣٤، ٣٥).

الإيمان يزيد وينقص، ويقوى ويضعف، ويتفاوت من قلب إلى آخر، بل إن الإيمان يتفاوت في القلب الواحد من حين لآخر!!

ثم فرّق الله سبحانه بين النفقة في وقت الشدة والحاجة، والنفقة في وقت الرخاء والسَّعة، فقال تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾، مع من أنفق بعد ذلك وقاتل، ﴿أُوْلَئِكَ﴾ الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾، فقبل الفتح كان المسلمون قلة، وكانت بهم حاجة، وبعد الفتح دخل الناس في دين الله أفواجًا، فكثر العدد، ووسّع الله على المسلمين، فكثر المال، وقلت الحاجة، ولقد كان رسول الله ﷺ يقول: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه». وليس تفضيل فريق على فريق انتقاصًا للمفضول، ولذا قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾، كلاً من الفريق: مَنْ أنفق مِن قبل الفتح ومَن أنفق بعده، وعد الله الفريقين الحسنى، وهي الجنة، وهذا كقول النبي ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف». وليس في ذلك انتقاص للضعيف، ولذا قال النبي ﷺ: «وفي كل خير». وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي سيجزيكم بأعمالكم، كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٤).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

○○○

سورة الحديد

﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ. يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ. يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ. فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ. أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ. اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ. اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ. سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ١١- ٢١].

الحلقة الثالثة

بقلم الدكتور
عبد العظيم بدوي

تفسير الآيات

قوله تعالى:﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، هذا حثٌّ من الله لعباده على الصدقة، على الإنفاق في سبيله، على إطعام الجائع، وكسوة العاري، وسدّ حاجة المحتاج، ووعد منه سبحانه أن تكون هذه الصدقة قرضًا، فهي إذنْ مال مستردّ، مع الأجر المضاعف، وذلك فضله سبحانه وتعالى؛ ولذا كان الصدّيق أبو بكر رضي اللَّه عنه يقول: سبحان الله، أَنفسٌ هو خالقها، وأموالٌ هو رازقها، ثم يشتريها منا بالجنة. قال العلماء: إن الغنيّ إذا استقْرضَ الناس أقرضوه، ولا سيما إذا كان معروفًا بالصدق والأمانة، فهم يُقرضونه عن ثقة وطمأنينة، فكيف إذا استقرضهم الله الغني الحميد الشكور!! والتضعيف هنا مجمل، فسّره قوله تعالى:﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ

لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدّق بعِدْل تمرة من كسب طيب- ولا يقبل الله إلا الطيب- فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فَلُوَّه، حتى تكون مثل الجبل». [متفق عليه].

وإنما يوفّى المتصدّق أجره الذي وعده الله:﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾، كما قال تعالى:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ويومئذ:﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ صحائف أعمالهم، وتتلقاهم الملائكة،﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾،﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ. يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ. فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

المنافقون هم الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، هم الذين﴿إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. فلما قالوا آمنا عصموا بذلك دماءهم وأموالهم؛ لأن الله أمرنا أن نقبل ظاهر الناس، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى، ولما كان العبديُبْعَثُ على ما مات عليه، كما قال ﷺ، فإن هؤلاء المنافقين يُبْعثون على نفاقهم، فإذا امتازت الأمم، واتبعت كلّ أمة ما كانت تعبدمن دون الله، وبقيت هذه الأمة المحمدية، قام المنافقون مع المؤمنين الصادقين، ظانّين أن ذلك نافعهم اليوم، كما نفعهم في الدنيا، فيأتيهم الرب عز وجل فيقول: ماذا تنتظرون؟ لتتبع كلّ أمّة ما كانت تعبد، فيقولون: يا ربنا، فارقْنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم، ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، لا نشرك بالله شيئًا- مرتين أو ثلاثًا- حتى إن بعضهم ليكاد ينقلب، فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان سجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى من كان سجد لله اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه. [متفق عليه].

وهذا هو تفسير قوله تعالى:﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣]. روى البخاري في «صحيحه» في تفسير هذه الآية عن النبي ﷺ أنه قال: «يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقًا واحدًا».

وسَاقُ ربنا صفةٌ من صفاته كاليد، والقدم، والعين، وغير ذلك من الصفات التي يجب الإيمان بها من غير تمثيل ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تحريف، وهذا ما عليه أهل السنّة والجماعة، يقولون: نُثبت لله تعالى ما أثبت الله لنفسه في محكم كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ، من غير تمثيل ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تحريف، فلا نقول: ساق الله كساق العبد، ولا يد الله كيد العبد، ولا ننفي هذه الصفات عن الله فنعطلها، ولا نخوض في كيفيتها، فنقول: يكشف عن ساق: يعني عن شدة، وإنما نُمِرّ هذه النصوص كما جاءت، معتقدين ثبوت معناها الظاهر لله عز وجل، على ما يليق بجلاله، معتقدين قول ربنا:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فإذا امتاز المنافقون عن المؤمنين بعد الكشف عن الساق، أُعطي كل إنسانٍ منهم- منافقٌ

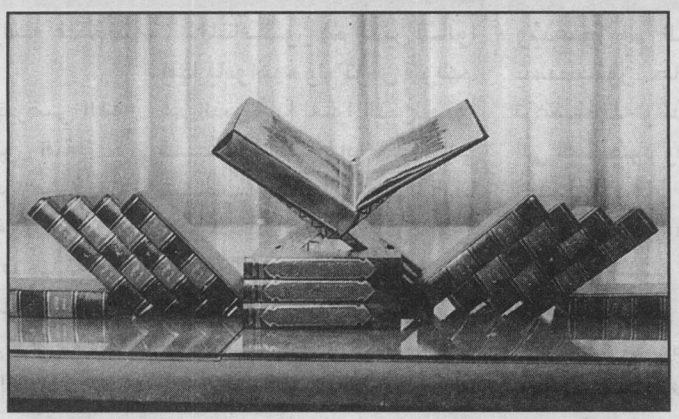

أو مؤمنٌ نورًا، فمنهم مَن نوره مثل الجبل، ومنهم مَنْ نوره مثل النخلة، ومنهم مَنْ نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نورًا من نوره في إبهامه، يَتَّقِد مرة ويطفأ مرة، ثم يؤمرون بجواز الصراط، وما أدراك ما الصراط، دَحْضٌ مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب، فيمر المؤمنون﴿ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ كطرف العين، وكالبرق، والريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل والركاب، ويدنو المنافقون من الصراط ليجوزوا، فتطفأ أنوارهم، فإذا رآهم المؤمنون خافوا أن يصيبهم ما أصابهم، فتوجهوا إلى الله بالدعاء قائلين:﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨]، فيقوم المنافقون حيارى يتخبطون في الظلمات، فينادون المؤمنين:﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾، حيث أعطيت الأنوار﴿ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾، ولن يجدوا ما التمسوا، وإنما هو نوع من أنواع التهكم والسخرية والاستهزاء، كما كانوا يستهزئون بالمؤمنين ويسخرون منهم في الدنيا:﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ. عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ. هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٤-٣٦]،﴿ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾، فرجعوا﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾،﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، فقاموا ينادون المؤمنين:﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾؟ نصلي معكم الجماعات، ونشهد معكم الجُمُعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات؟ فأجابهم المؤمنون:﴿ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالنفاق، وارتكاب المعاصي والشهوات،﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين،﴿ وَارْتَبْتُمْ﴾ فيما أخبركم به رسول الله ﷺ،﴿ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ﴾، فكنتم تعتقدون أنكم خيرٌ منا،﴿ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموت، يعني ما زلتم في شك مما جاءكم به الرسول حتى جاءكم الموت﴿ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾، وهو الشيطان، ومن كانت هذه حاله﴿ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]،﴿ فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، كما قال تعالى:﴿ وَاتَّقُواْ يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]،﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٩]،﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦، ٣٧]،﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ. وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ. وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ. كَلاَّ﴾ [المعارج: ١٢- ١٥].

نعوذ به سبحانه من النار، ومن كل عمل يقربنا إلى النار، ونسأله تعالى التثبيت في الدنيا والآخرة. وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

باب التفسير

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ. اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

[الحديد: ١٦، ١٧].

الحلقة الرابعة

بقلم الدكتور: عبد العظيم بدوي

عتاب الله للمؤمنين

يعاتب الله المؤمنين فيقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾، والخشوع: هيئة في النفس يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع. قال قتادة: الخشوع في القلب، وهو الخوف وغضّ البصر في الصلاة. وقال سهل بن عبد الله: لا يكون خاشعًا حتى تخشع كل شعرة على جسده؛ لأن الله يقول: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهذا هو الخشوع المحمود، لأن الخوف إذا سكن القلب أوجب خشوع الظاهر، فلا يملك صاحبُه دفعه، فتراه مطرقًا متأدبًا متذللاً، وقد مدح الله ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تخفّ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وتكون راحةً له، وقرةَ عين، كما كان النبي ﷺ يقول: «أرحنا بالصلاة يا بلال». [صحيح، رواه أبو داود (٤٩٦٤/١٣/٣٣٠)].

وكان يقول: «حبّب إليَّ الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة». [صحيح، رواه النسائي (٧/٦١)].

وقد وعد الله الخاشعين من المؤمنين مغفرةً وأجرًا عظيمًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وإذا علمنا هذا؛ فمعنى الآية: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له، وتسمع له وتطيعه، أما آن للمؤمنين أن يذروا الربا وقد سمعوا الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم

مُّؤْمِنِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

أما آن للمؤمنين أن يجتنبوا الخمر والميسر وقد سمعوا اللّه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

أما آن للمؤمنين أن يتركوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن وقد سمعوا اللّه يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

أما آن للمؤمنين أن يتركوا الزنا وقد سمعوا اللّه يقول: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢].

أما آن للمؤمنين أن يأمروا نساءهم بالحجاب وقد سمعوا اللّه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاء الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

أما آن للمؤمنات أن يتركن التبرج والسفور وقد سمعن اللّه يقول: ﴿وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

أما آن للمؤمنات أن يتركن التبرج والسفور وقد سمعن الرسول ﷺ يقول: «صنفان من أهل النار لم أرهما بعد: رجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ، مميلاتٌ مائلاتٌ، رءوسهنّ كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا». [صحيح. رواه مسلم].

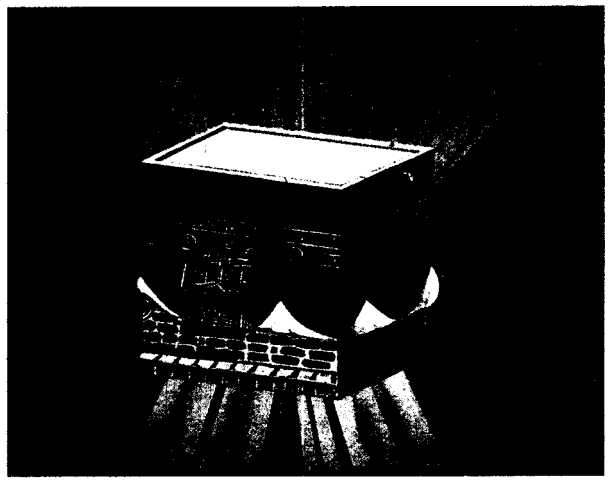

أما آن للمؤمنين أن يتركوا الدخول على النساء وقد سمعوا اللّه يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءَ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وقد سمعوا الرسول ﷺ يقول: «إياكم والدخول على النساء». فقال رجل: أفرأيت الحمو؟ فقال ﷺ: «الحمو الموت». [متفق عليه].

أما آن للمؤمنين أن يغاروا على نسائهم وقد سمعوا الرسول ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة ديوث».

أما آن للمؤمنين أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وقد سمعوا اللّه يقول: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

أما آن للمؤمنين أن يتحاكموا إلى شرع اللّه وقد سمعوا اللّه يقول: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. وقد سمعوا الرسول يقول: «وما لم تحكم أئمتهم بكتاب اللّه، ويتخيروا مما أنزل اللّه، إلا جعل اللّه بأسهم بينهم». [حسن، رواه ابن ماجه].

أما آن للمؤمنين أن يقيموا الدين وقد سمعوا اللّه يقول: ﴿شَرَعَ

لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

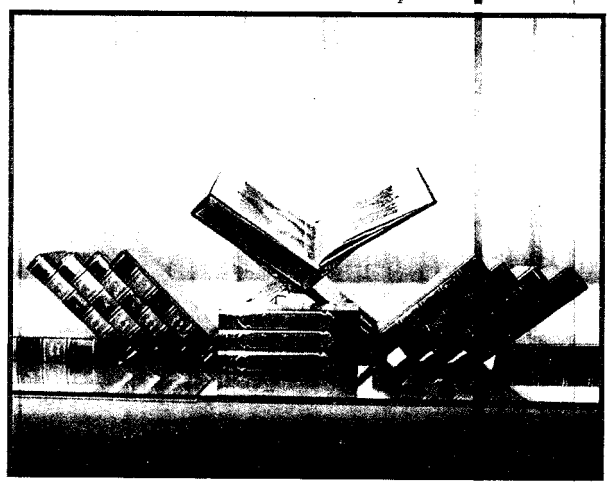

فأفيقوا- رحمكم الله- من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم، فقد ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١]، أفيقوا من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم، فقد ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧]، أفيقوا من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم، فقد ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، أفيقوا من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم، فقد ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ. وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤، ٥٥].

ثم نهى الله تعالى المؤمنين عن التشبه بالكافرين، فقال: ﴿وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. والمعنى: ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله، وهو القرآن الموجب للخشوع، والذي قال الله فيه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وألم يأن للذين آمنوا أن لا يكونوا كاليهود والنصارى الذين أوتوا الكتاب الموجب للخشوع، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ [آل عمران: ١٨٧]، ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، فلم تعد تقبل موعظة، ولا تلين بوعد ولا وعيد، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، وقسوة القلب عقوبة من أقسى العقوبات التي يُعاقَبُ بها العبد، وقد توعّد الله القاسية قلوبهم، وحكم عليهم بالضلال، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، والقلب القاسي هو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه ولا يعبده، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي- إذا فاز بشهوته وحظّه- رَضِيَ ربه أم سخط، بل هواه آثر عنده وأحبّ إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه، لا يستجيب لناصح، ويتبع كل شيطان مريد، فمثله ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ﴿أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

ولقسوة القلب أسباب: منها طول الأمل، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وطولُ الأمل داءٌ عضال، ومرضٌ مُزْمِنٌ، متى تمكّن من القلب فسد مزاجُه، واشتدّ علاجُه، ولم يفارقه داء، ولم ينجع فيه دواء، بل أعيا الأطباءَ، ويئس من برئه الحكماءُ والعلماء.

وحقيقة الأمل: الحرصُ على الدنيا، والانكبابُ عليها وحبها، والإعراضُ عن الآخرة،

وهو يغفل عن العمل، ويورث التراخي والتواني، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض، ويميل إلى الهوى، كما أنّ قصر الأمل يبعث على العمل، ويحيل إلى المبادرة، ويحث على المسابقة، وقد توعد اللّه أهل الأمل فقال: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

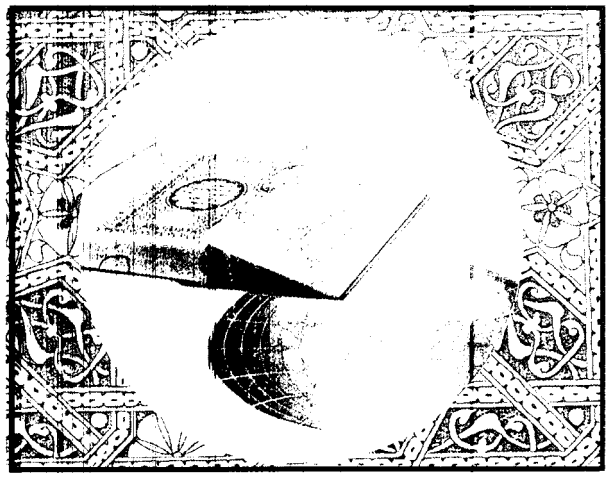

فيا أخا الإسلام: إياك وطول الأمل، فإنه يُقعد عن خير العمل، «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح». [رواه البخاري].

تزوّد من التقوى فإنك لا تدري
إذا جنّ ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتًى أمسى وأصبح ضاحكًا
وقد نُسِجَتْ أكفانُه وهو لا يدري
وكم من صغارٍ يُرتجى طولُ عمرهم
وقد أُدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من عروسٍ زينوها لزوجها
وقد قُبضت أرواحُهم ليلةَ القدر
وكم من صحيح مات من غير علةٍ
وكم من عليلٍ عاش حينًا من الدهر

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

ومن أسباب قسوة القلب نقض الميثاق، كما قال تعالى عن بني إسرائيل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٢]، يعني: فبسبب نقضهم الميثاق الذي أُخذ عليهم لعنّاهم أي أبعدناهم عن الحق وطردناهم عن الهدى، ﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ أي: فلا يتعظون بموعظة لغلظ قلوبهم وقسوتها، والميثاق الذي نقضوه قد بيّنه ربّ العزة، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ...﴾ الآية [المائدة: ١٢].

والمتأمل في حال المسلمين اليوم يجد أنهم قد نقضوا الميثاق كما نقضه بنو إسرائيل، فقد ترك أكثرهم الصلاة، ومنعوا الزكاة، فقست قلوبهم، ولا حول ولا قوة إلا باللّه.

فيا معشر المسلمين، أوفوا بعهد اللّه ولا تنقضوا الميثاق، و﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، وكذلك يُليّن القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلالتها، ويفرّج الكروب بعد شدتها؛ لأنه على كل شيء قدير، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]، فلا تقنطوا من رحمة اللّه، ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

سورة الحديد

الحلقة الخامسة

بقلم الدكتور
عبد العظيم بدوي

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ. وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ. اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ. سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ١٨- ٢١].

تفسير الآيات

يحث ربنا سبحانه عباده على الصدقة، فيقول: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، ويخص بالذكر المؤمنات المصدقات من باب إظهار العناية بالنساء، والإسلام هو الذي كرم المرأة وأعطاها حقوقها، بعد ما كانت مُهانة لا حقوق لها، ومع ذلك- للأسف- خُدعت المرأة المسلمة بالكافرات حين طالبن بحقوقهن المفقودة، فظنت المسلمة- عن جهالة- أن لها حقوقًا مفقودة كالكافرة، فجرت وراء كل ناعق ينعق بما يسميه حقوق المرأة، فأين هي حقوق المرأة المفقودة في الإسلام؟ إن الإسلام قد ردّ للمرأة اعتبارها، وأعطاها حقوقها، وحثّ على احترامها وصيانتها، وكانت توأد فنهى الإسلام عن وادها، أو تُجبر على الزواج ممن لا ترضاه، وكانت لا ترث، فأمر بتوريثها، وكانت إذا مات زوجها تورث كما يورث المتاع، وتمنع من الزواج حتى تموت أو تجبر على الزواج، فنهى الإسلام عن ذلك، إلى غير ذلك من الأمور التي لتفصيلها محل آخر، والغرض أن قوله تعالى: ﴿وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ جاء لإظهار شرف النساء، حيث خصهن بالذكر، مع أنهن داخلاتٌ في المصدقين، كما جاء عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: قلتُ للنبي ﷺ: ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال؟ قالت: فلم يرُعْني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر، قالت: وأنا أسرح شعري، فلففت شعري، ثم خرجتُ إلى حجرتي، حجرة بيتي، فجعلتُ سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول عند المنبر: «يا أيها الناس، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾» إلى آخر الآية.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ هنا وقف تام،

﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، فذكر الله في هذه الآية ثلاث طوائف من الناس: الصِّدِّيقون، وهم الذين آمنوا بالله ورسله، وليس الإيمانُ مجرد كلماتٍ تُنطق، ولا حُروفٍ يُترجُمها اللسان، وإنما الإيمان قولٌ وعملٌ، قولٌ باللسان، وتصديقٌ بالجنان، وعملٌ بالأركان، والعملُ يشملُ القيام بالواجبات والمندوبات، وترك المحرمات والمكروهات، فمن فعل ذلك فأولئك هم الصدِّيقون، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، والصِّدِّيقيَّةُ درجةٌ دون النُّبوة وفوق الشهادة؛ ولذا قدَّم اللهُ ذكرَ الصِّدِّيقين هنا على ذكر الشهداء، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. وقد بيّن النبي ﷺ أن الصِّدِّيقية تُنالُ بتحري الصِّدق، فقال ﷺ: «عليكم بالصِّدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدُقُ ويتحرى الصدق حتى يُكتبَ عند الله صدِّيقًا». [متفق عليه].

وإنما قيل لأبي بكر رضي الله عنه الصِّدِّيق؛ لشدة صدقه وتصديقه للنبي ﷺ.

﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ وكفاهم شرفًا أن يكونوا عند ربهم، لهم أجرٌ جزيل، ونورٌ عظيم يسعى بين أيديهم، وقد جاء في أجر الشهداء وفضلهم أحاديث، منها حديث مسروق، قال: سألنا عبدالله بن مسعود عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، فقال: أما إنّا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديلُ معلقة بالعرش تسرحُ من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربهم اطلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أيّ شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنّة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا ربِّ، نريد أن تردّ علينا أرواحنا في أجسادنا حتى نُقْتل في سبيلك مرةً أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركُوا». [صحيح. رواه مسلم (٣/١٥٠٢/١٨٨٧)، الترمذي (٤/٢٩٨/٤٠٩/١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما أحدٌ يدخلُ الجنّة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنّى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة». [متفق عليه].

وعن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن للشهيد عند الله سبع خصال: يُغفر له في أوّل دفعةٍ من دمه، ويُرَى مقعده من الجنة، ويُحلّى حلّة الإيمان، ويُزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويجارُ من عذاب القبر، ويامن من الفزع الأكبر، ويوضعُ على رأسه تاجُ الوقار، الياقوتة منه خيرٌ من الدنيا ما فيها، ويشفّع في سبعين إنسانًا من أهل بيته». [صحيح. رواه الترمذي (٣/١٠٦/١٧١٢)، وابن ماجه (٢/٩٣٥/٢٧٩٩)].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، هؤلاء هم الطائفة الثالثة المذكورة في الآية، نسأل الله أن يجعلنا مع الصديقين والشهداء والصالحين، ونعوذ بالله أن نكون من أصحاب الجحيم.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾، فهذه حقيقة الدنيا عند أهلها، وهذه غاياتهم ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ في المآكل والمشارب، والملابس والمراكب، ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ كلٌ يريد أن يكون هو الأحسن والأجمل والأقوى، ﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ كل يريد أن يكون أكثر من غيره مالاً وولداً، كما قال صاحب الجنتين ﴿لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[الكهف: ٣٤]، والعاقل من علم أن الله تعالى هكذا أراد أن يرفع الناس بعضهم فوق بعض درجات، فهو لا ينظر إلى مَنْ فوقه، حتى لا يزدري نعمة الله، وإنما ينظر إلى مَنْ دونه فيرى نعمة الله عليه فيشكرها، فهو دائمًا راض مطمئن، لا ينافسُ أهل الدنيا، وإنما ينافسُ الصالحين في فعل الخيرات، فإذا فرح أهل الدنيا بدنياهم، فرح هو بما وُفق إليه من الصالحات، لما يعلمه من نفاد الأموال والأولاد، وبقاء الصالحات، فإنما الدنيا ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾، والكفار هم الزرّاع، وسمّوا كذلك لأن الكفر معناه التغطية والستر، وهم يغطّون البذور ويسترونها بالتراب، فإذا أنزل الله المطر ربَت هذه البذور وازّينت واهتزّت، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾ بعدما كان خضيرًا نضيرًا، ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾، ثم يبيس ويتحطم، وهكذا الحياة الدنيا؛ تفنى وتزول، ولا تدوم، فإنما هي ممرّ إلى الآخرة، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾، فليس في الآخرة الآتية إلا ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للكافرين، الذين رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، واتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى، ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ أي: هي متاعٌ فانٍ غارّ لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه، حتى يعتقد أن لا دار سواها، ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، و﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، والمراد: حثّ العباد على المبادرة إلى الخيرات، والتنافس في الطاعات، وترك المحرمات، فإذا علموا أن الحياة الدنيا فانية، والآخرة باقية، وليس في الآخرة من دار إلا الجنة أو النار، فليجتهدوا فيما يبلغهم الجنة وينجيهم من النار، وليس إلا فعل الواجبات وترك المحرمات، والتوفيق لهذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سورة الحديد

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢- ٢٤].

بقلم الدكتور عبد العظيم بدوي

يقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ﴾ من جَدْب وقحط ونحوهما، ﴿وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ من الأسقام والأوجاع ونحوهما، ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ عند الله عز وجل ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾، اختلف العلماء في هذا الضمير وما يعود عليه، هل يعود على المصائب أم على الأنفس؟ وهو صالح للعود عليهما معًا، والمعنى ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ أي: من قبل خَلْق الأنفس والمصائب، فالله سبحانه وتعالى كتب كل ما سيكون قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، كما صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه الآية دليل من الأدلة التي يستدل بها أهل السنة والجماعة على إبطال مذهب القدرية، الذين يقولون: لا قدر، والأمر أنف. يريدون: أن الله لا يعلم الأشياء قبل وجودها، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا، ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، والإيمان بالقدر- ومعناه الإيمان بسبق علم الله بالأشياء قبل خلقها- ركن من أركان الإيمان، كما جاء في حديث جبريل حين سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، فقال صلى الله عليه وسلم: ((أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)). وقال صلى الله عليه وسلم: ((لا يؤمنُ عبدٌ حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)). [الترمذي (٢٢٣١)].

وقد كثر في القرآن الكريم ذكر القدر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى. الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى. وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ١- ٣]، والإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بأربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بأن الله عز وجل قد أحاط بكل شيء علمًا، وأنه سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ

خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

الأمر الثاني: الإيمان بأن الله تعالى كتب كل ما يكون في كتاب عنده محفوظ، كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. وقال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]. وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله تعالى قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة)). وقال صلى الله عليه وسلم: ((أول ما خَلَقَ اللَّهُ القلمَ، فقال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما يكون إلى يوم القيامة)). [صحيح، رواه أبو داود].

وقال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما: ((واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف)). [صحيح، رواه الترمذي (٢٦٣٥/٧٦/٤)].

الأمر الثالث: الإيمان بأن الله تعالى ربّ كل شيءٍ ومليكه، وأنه سبحانه هو مالك الملك، وهو مدبر أمر هذا الكون كله، فما شاء كان وإن لم يشأ العباد، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء العباد، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

الأمر الرابع: الإيمان بأن اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شيءٍ، وليس هناك خالق غيره، ومن جملة خلق الله عمل الإنسان، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ - الصافات: ٩٦].

هذه الأمور الأربعة هي التي يجب الإيمان بها حتى يكون العبدُ مؤمنًا بالقدر، ويجب الإمساك عن الخوض في القدر، يقول بعض السلف: رأيتُ أعلمَ الناس بالقدر أمسكهم عن الخوض فيه، ورأيت أجهل الناس بالقدر أكثرهم خوضًا فيه.

لكن هناك شبهة عرضت للمشركين قديمًا وحديثًا، وربما عرضت لبعض المؤمنين، وهي إذا كان الله خالقنا وأعمالنا، فلماذا يعذّب من عصاه؟ قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ. قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩]. وليس للعباد حجةٌ على الله، نعم أعمالنا مِنْ خلق الله، ولكن الله تعالى يحبّ منا الطاعة، ويُبْغِضُ المعصية، فَأَمَرَنَا بطاعته، ونهانا عن معصيته، فالأمرُ عنوان المحبة، والنهي عنوان البغض، وليست الإرادة وحدها عنوان المحبة، فالإرادةُ نوعان: إرادةٌ كونيةٌ خَلْقِيةٌ قَدَرِيةٌ، وإرادةٌ شرعية دينية، فالشرعية الدينية هي المتعلقة بالأمر والنهي، وأما الكونية القدرية الخلقية فهي المتعلقة بأفعال العباد وجودًا، وقد توجد الطاعة، وقد توجد المعصية، فإذا وُجدت المعصية فليس وجودها عنوان محبة الله؛ لأن الله قد نهى عنها، والنهي عنوان البغض لا عنوان المحبة، فما نهى الله عنه فهو مبغوض، وإن وُجد قدرًا، وما أمر الله به فهو محبوب، وإن لم يوجد قدرًا، ونحن مكلفون بفعل ما يحبّه الله، وترك ما يبغضه، وقد أرسل الله رسله، وأنزل كتبه؛ ليبيّن للناس ما يجب عليهم فعله، وما يجب عليهم تركه، وبهذا أقيمت الحجة لله على

عباده، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. فما دام الله قد هدانا النجدين، وأرسل إلينا الرسل يأمروننا بسلوك الصراط المستقيم صراط الله، وينهوننا عن سلوك الطرق الأخرى المعوجة، فقد قامت حجة الله على العباد، فمن أطاع فله الجنة، ومن عصى فله النار: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

شبهة ثانية: كثيرًا ما نسمع بعض الناس إذا وُعظ أو ذُكر يقول: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. وهذه كلمة حق أُريد بها باطل، فليس معنى ﴿اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أن يستمر الضالّ على ضلاله حتى يسوق الله الهداية إليه، إن الله لم يشأ أن يُكْرِه الناس على الهداية إكراهًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]. لم يشأ الله أن يجعل الناس كالملائكة ﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ولكن الله ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤]، وهداه النجدين، ثم تركه لمشيئته ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وإنما الآية هذه نزلت تعزيةً للنبي صلى الله عليه وسلم، وتسليةً له، على موت عمه أبي طالب كافرًا، فمواقف أبي طالب التي وقفها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهورة، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصًا على إسلام عمه، فلما حضره الموت دخل عليه فقال: ((يا عمّ، قل: لا إله إلا الله، أشفع لك بها عند الله)). وهمّ أن يقولها، ولكنّ رفاق السوء أبا جهل وإخوانه، قالوا له: أترغب عن ملة عبدالمطلب. فقال: لا، بل على ملة عبدالمطلب، ثم مات كافرًا، فحزن عليه رسول صلى الله عليه وسلم، وقال: ((يا عم، والله لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك)). فأنزل الله عليه قوله: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]. إذن ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ تُقالُ لعالمٍ حريص على هداية الناس، والناسُ عنه منصرفون، لا يستجيبون، فيُقالُ له تعزيةً: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، كما تُقال لأبٍ حريصٍ على هداية ابنه العاصي، والابن مصر على المعصية، فيقال لمثل هذا الأب: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، أمّا أن يتخذها أهل الضلال حجةً، ويقولون: لو شاء الله لهدانا. فهذا من العجب العجاب إنّ الإنسان إذا مرض بادرَ إلى الأطباء طلبًا للشفاء، وهو بالليل والنهار يسعى لكسب رزقه، وأما الهداية التي هي أغلى ما يملكه الإنسان، فهو لا يسعى في طلبها، وإنما يجلس ينتظر أن تأتيه من غير سعي ولا كسب، فلو كنت صادقًا أيها الإنسان في طلب الهداية، وراغبًا فيها، فهلا سعيت في تحصيلها؟ هلا قمت في الساعة الأخيرة من الليل فقلت: ((اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى)). [صحيح. رواه مسلم (٢٧٢١/٤)، (٢٨٧/٤)، والترمذي (٣٥٥٥/٥)، (١٨٤/٥)].

هلا قلت: ((اللهم اهدني فيمن هديت)). [صحيح. رواه أبو داود (١٤١٢)، والترمذي، والنسائي (٢٤٨/٣)].

أما علمت أن الله تعالى قال في الحديث القدسي: ((يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم)). [صحيح. رواه مسلم (٧٧٠/١)، (٥٣٤/١)].

فهلا استهديت ربك، هلا قمت بين يديه في الليل قائلاً: ((اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب

والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)). [صحيح. رواه مسلم].

نسأل الله أن يهدينا الصراط المستقيم.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ هذا بيان للحكمة من كتابة مقادير الخلائق قبل خلقهم، ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾، فإذا كنت حريصًا على شيء، تسعى بجدٍّ لتحصيله ففاتك، فلا تقعد محسورًا على فواته، ((واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك)). وأن فواته خيرٌ لك من تحصيله، فارْضَ بما قسم الله، واعلم أنه ((لا يقضي الله لعبده المؤمن قضاءً إلا وهو خيرٌ له))، وإذا حصَّلْتَ شيئًا فلا تفرح به، فـ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، والمراد بهذا: أن لا يحزن العبدُ على ما فاته حزنًا يصحبه الفزع والجزع، والاعتراض، ولا يفرح بما أتاه فرحًا ينسى به فضل الله فلا يشكره، كما فعل قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ. وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧]، فما كان جوابه إلا أن قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]. فأي فَضل لله عليّ، هذه خبرتي ومهارتي وحسن تصرفي، وليس لله عليّ فضل ولا منة، ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، فهذا هو الفرح الذي نُهينا عنه، وإلا فما منّا أحدٌ إلا يحزن على ما فات، ويفرح بما أتى. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾، وهو الذي يتكبر على الناس، ويفتخر عليهم بما ليس من كسبه، وبما لم تعمل يداه، كصاحب الجنتين إذ ﴿قَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، و﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾، يبخلون بما آتاهم الله من فضله، ولا ينفقونه في سبيل الله، ولا يكتفون ببخلهم، بل ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن الله، ويُعْرِض عن رسله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ. وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧، ٨]. وقال تعالى: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

إشهار

مديرية الشئون الاجتماعية
إدارة الجمعيات
تشهد مديرية الشئون الاجتماعية بالدقهلية أن جمعية / أنصار السنة بالدقانوه الجديدة.
تم قيدها تحت رقم ٩٣٢ بتاريخ٢٠٠١/٨/٢٩م طبقًا للقانون ٣٢ لسنة ٦٤م بشأن الجمعيات والمؤسسات الأهلية واللائحة التنفيذية لذلك القانون. كما تشهد مديرية الشئون الاجتماعية بطنطا ، أن جمعية منشاة جنزور مركز طنطا قد تم شهرها تحت رقم ٧٣٩ بتاريخ ٢٠٠١/١٠/١٠م وذلك وفقًا لأحكام القانون ٣٢ لسنة ١٩٦٤م ولائحته التنفيذية بشأن الجمعيات والمؤسسات الخاصة.

الحلقة الأخيرة

سورة الحديد

بقلم الدكتور عبد العظيم بدوي

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ. ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٥- ٢٩].

تفسير الآيات

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالحجج الساطعات، والبراهين الواضحات، الدالات على صدقهم فيما ادّعوه من النبوة والرسالة، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي: ليقيموا العدل، ويجتنبوا الظلم، وأعدل العدل على الإطلاق التوحيد، وأظلم الظلم الشرك، ولكنّ كثيرًا من الناس لا يستجيبون للأنبياء، ولا يتبعونهم على ما أنزل اللّه عليهم من الكتاب والميزان، فهم بحاجة إلى جهاد، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، فالذي لا يتبع بالكتاب يتبع بالسيف، ولذلك مكث رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلى ما أنزل الله عليه من الكتاب، فما آمن معه إلا قليل، فلما أذن الله له بالهجرة، وأسس قواعد الدولة الإسلامية في المدينة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، فجاهد رسولُ الله ﷺ والمؤمنون معه في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، فدخل الناس في

دين الله أفواجًا، وصدق الله العظيم: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾، وذلك باستخدامه في الأسلحة، ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، ومنافع الحديد أشهر من أن تذكر، ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾، أي: ينصر دينه ورسله فيما جاءت به، وليس الله بحاجة إلى من ينصره، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، وهو الذي ينصر الناس، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ولكن أراد الله أن يمتحن عباده، مَنْ منهم يقوم لنصرة دينه فينصره الله، ويمكّن له في الأرض.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم﴾ أي: من ذريتهما ﴿مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، وهذه حكمة الله وإرادته، أن يكون المؤمنون قلّة، والكافرون كثرة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا﴾ ومنهم من سمّى الله لنا، ومنهم من لم يسمّ، ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾، فقد جعل الله في قلوب أتباع عيسى رأفة ورحمة، وأما هذه الرهبانية فبدعة ابتدعوها، ما كتبها الله عليهم، وإنما هم أحدثوها ﴿ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، فذمهم الله تعالى على الابتداع، وعدم التزام ما ألزموا أنفسهم به، قال تعالى: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

وإذا علمنا أن الله تعالى ذمّ النصارى على ما ابتدعوه، فمن الواجب أن نعرّف البدعة، ونحذّر المؤمنين منها، حتى لا ينالهم ما نال من قبلهم من الذم، فنقول:

البدعة لغة: كل ما أحدث من غير مثال سابق، قال تعالى عن نفسه: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧] أي: هو الذي خلقها لأول مرة من غير مثال يحتذي به.

وشرعًا: إحداث طريقة في الدين تضاهي الطريقة الشرعية، ويرادُ بها التقربَ إلى الله تعالى، ولقد كان رسول الله ﷺ يحثّ على التمسك بالسنة، ويحذّر من البدعة، فعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بليغةً، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظةُ مودّع فأوصنا، فقال ﷺ: «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد حبشي، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة». [صحيح. رواه أحمد وأبو داود وغيرهما].

وكان ﷺ يفتتح خطبه ودروسه ومواعظه بخطبة الحاجة، وكان يقول فيها: «أما بعد: فإن خير الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها». [صحيح. رواه مسلم (٤٦٧\٥٩٢\١)].

فعليكم بالسنة، وإياكم والبدعة، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «اتبعوا ولا

تبتدعوا فقد كفيتم». الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة؛ لأن عمل المبتدع مردود عليه؛ لقوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». [متفق عليه]. و«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». [رواه مسلم]. والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ. وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧]. قال العلماء: لا يكون العمل مقبولاً حتى يتوفر فيه شرطان: الأول: الإخلاص لله. والثاني: الموافقة لهدي رسول الله ﷺ.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢]، ولم يقل: أيكم أكثر عملاً؛ لأن العبرة ليست بكثرة العمل، وإنما العبرة بإخلاصه لله، وموافقته لهدي رسول الله ﷺ.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: لا يكون العمل مقبولاً حتى يكون خالصًا وصوابًا، فإذا كان خالصًا وليس بصواب، لم يُقبل حتى يكون خالصًا وصوابًا، قالوا: يا أبا علي، فما الخالص وما الصواب؟ قال: الخالص ما ابْتُغِيَ به وجه الله، والصوابُ ما وافق هدي رسول الله ﷺ. وقد نطق بهذين الشرطين كتابُ ربنا وسنة نبيّنا ﷺ، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، فالعمل الصالح هو الموافق للسنة، ﴿وَلاَ يُشْرِكْ...﴾ هذا هو الإخلاص، وقال النبي ﷺ في الشرط الأول: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى». [متفق عليه]. وقال في الشرط الثاني: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». [رواه مسلم]. فالبدعة تبطل العمل، والبدعة تحجب التوبة عن المبتدع، كما قال ﷺ: «إن الله حجب التوبة عن كل مبتدع حتى يدع بدعته». [أخرجه الألباني في «الصحيحة» (١٦٢٠) وصححه].

والبدعة تحول بين صاحبها وبين ورود حوض النبي ﷺ، كما قال ﷺ: «ترد عليّ أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه، كما يذود الرجلُ إبل الرجل عن إبله». قالوا: يا نبي الله، تعرفنا؟ قال: «نعم، لكم سيما ليست لأحد غيركم، تردون غرًا محجلين من آثار الوضوء، وليُصدن عني طائفة منكم فلا يصلون، فأقول: يا رب، هؤلاء من أصحابي، فيجيبني مَلك، فيقول: وهل تدري ما أحدثوا بعدك؟». لهذا كله كانت البدعةُ أحبّ إلى الشيطان من المعصية؛ لأن البدعة لا يُتاب منها، والمعصية يُتاب منها. والبدعةُ أحبُّ إلى الشيطان من الربا والزنا وشرب الخمر، ونحو ذلك؛ لأن المسلم حين يعصي يعلم أنه يفعل حرامًا، فهو معترف بخطئه، وإن لم يتب، وربما تاب، وهذا معروف، أما المبتدع فهو لا يرى نفسه على ضلالة، بل يعتقد أنه على هدى، ولذا لا يحدّث نفسه بالتوبة أبدًا، والذي لا يعتقد أنه مذنب، كيف يتوب!

فيا إخوة الإسلام: إياكم ومحدثات الأمور، فإن كلَّ

محدثة بدعة، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلُّ ضلالةٍ في النار، وأوصيكم أن تقرءوا وتتعلموا، وأن تخلّصوا عقائدكم من شوائب الشرك، وأن تخلّصوا عبادتكم من شوائب البدعة، فالأعمال لا تقبل إلا من صاحب عقيدة سليمة، ولا تقبل من صاحب العقيدة السليمة حتى تكون موافقة لهدي رسول الله ﷺ، ولهذا قال الإمام الجنيد رحمه الله: «إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: وعزتي وجلالي، لو أتوني من كل طريق، واستفتحوني من كل باب، ما فتحتُ لهم حتى يدخلوا خلفك». [«طريق الهجرتين» لابن القيم (ص٧)].

فاقرءوا إخوة الإسلام وتعلّموا، اقرءوا هذه الكتب: «الاعتصام» للإمام الشاطبي، «تلبيس إبليس» لابن الجوزي، «الإبداع في مضار الابتداع» للشيخ علي محفوظ، «السنن والمبتدعات» للشيخ محمد عبدالسلام، فلا بد للإنسان أن يقرأ، وأن يتعرف على ما وقع فيه من البدع ليتخلص منها، حتى يرد حوض النبي ﷺ، فيشرب منه شربةً هنيئةً مريئةً لا يظما بعدها أبدًا.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يتقوه ويؤمنوا برسوله حتى يؤتيهم أجرهم مرتين، ويجعل لهم نورًا يمشون به في الناس؛ يميزون به الحق من الباطل، ويغفر لهم ذنوبهم، ففضّل الله مؤمني هذه الأمة على مؤمني أهل الكتاب، فإن الله قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ. وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ. أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥١- ٥٤] ففضّل الله مؤمني هذه الأمة فآتاهم كفلين من رحمته، وزادهم: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]، فنور الله سببه تقوى القلوب، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، ولهذا قال: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ﴾ أي: ليعلم ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، ولهذا قال النبي ﷺ: «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمّالاً، فقال: مَن يعمل لي مِنْ صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعملت اليهود، ثم قال: مَنْ يعمل لي مِنْ صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعملت النصارى، ثم قال: مَنْ يعمل لي مِن صلاة العصر إلى غروب الشمس على قراطيْن قراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم، فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً، قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء». [البخاري (٥٧٧) (٢٢٦٩)].

وإلى اللقاء في العدد القادم إن شاء الله تعالى حول تفسير سورة «المجادلة». والله الموفق.

○○○

الحلقة الأولى

سورة المجادلة

بقلم الدكتور عبد العظيم بدوي

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ. الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ. وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ. يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ١- ٦].

بين يدي السورة

سورة مدنية، شأنها شأن السور المدنية في الاهتمام بجانب التشريع وبيان الأحكام، وقد استفتحت بالحديث عن مجادلة خَوْلَةَ بنتِ ثعلبةَ رسولَ اللَّه ﷺ في زوجها أوس بن الصامت، الذي كان قد جعلها عليه كظهر أمه، فنزل الوحي بالإنكار على الذين يظاهرون من نسائهم، وبحكم الظهار إذا صدر من رجل، فحلّ بذلك مشكلة خَوْلَة، ومشكلة غيرها من النساء اللاتي يظاهرُ منهنّ أزواجُهنّ، وذكرت السورةُ انقسام الناس قسمين: قِسْمٌ مؤمنٌ باللَّه واليوم الآخر، لا يوادّون من حادّ اللَّه ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم. وقِسْمٌ لا يؤمن باللَّه ولا باليوم الآخر، يوادّون من حادّ اللَّه ورسوله، وذكرت السورة عاقبة كلٍّ من القِسْمين، فقالت عن الأول: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وقالت عن الثاني: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

ومع هذا فقد تضمنت السورة بعض التوجيهات والتعليمات للمؤمنين تأتي في موضعها إن شاء اللَّه.

تفسير الآيات

هذه المجادَلة التي سُميت بها السورة وقعت بين رسول الله ﷺ وبين خَوْلَة بنت ثَعْلَبَة، في زوجها أَوْسِ بن الصامت،

وكان شيخًا كبيرًا به لمم، فكان سريع الغضب، دخل يومًا على خَوْلَةَ فأمرها بشيء، فكانها تأخّرت عليه، فقال لها: أنت عليَّ كظهر أمي. ثم تركها وخرج، فجلس في نادي قومه ساعةً، فنسي ما كان منه، فرجع إلى أهله فراودها عن نفسها، فقالت: لا واللّه، لا أمكّنك من نفسي وقد قلتَ ما قلتَ. قالت: فوثب عليّ، فغلبتُه بما تغلب المرأةُ الشيخ الكبير، ثم خرجت إلى جارتي فاستعرت جلبابًا، ثم أتيتُ رسول الله ﷺ وهو في بيت عائشة، فقلتُ: يا رسولَ اللّه، إنَّ أَوْسًا تزوّجني وأنا شابةٌ مرغوبٌ فيّ، حتى إذا أفنى شبابي، ونَثَرت له بطني، جعلني عليه كظهر أمّه. فقال لها رسول الله ﷺ: «ما أراك إلا قد حرُمْتِ عليه». قالت: يا رسول الله، إنّ لي منه أولادًا، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتُهم إليّ جاعوا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أراكِ إلا قد حرُمْتِ عليه». قالت: إذنْ أشتكي إلى اللّه. فبينما هي تجادل رسول اللّه ﷺ ويجادلها، إذ تغشّى رسول الله ﷺ ما كان يتغشّاه عند نزول الوحي، فعرفت ذلك عائشة رضي اللّه عنها، فأمرت المرأة أن تتنحى عن رسول الله ﷺ، فلما كُشِفَ عن رسول الله ﷺ قال: «أين المرأة؟» قالت: ها أنا يا رسولَ الله. فتلى عليها صدرَ هذه السورة الكريمة، ثم قال: «مُريه فليعتق رقبة». قالت: واللّه ما يملكُ إلا رقبته. قال: «مُريه فليصمْ شهرين متتابعين». قالت: واللّه ما به من قدرة على الصيام. قال: «فمُريه أن يُطعم ستين مسكينًا». قالت: واللّه ما عنده ما يُطعمُه، فقال رسول الله ﷺ: «فأنا أعينه بشيءٍ من التمر». قالت: وأنا أعينه بشيءٍ من عندي. فقال ﷺ: «أحسنت، واستوصي بزوجك خيرًا».

فهذا هو سبب نزول صدر السورة، وقد تضمّن أحكامًا، نبيّنها فيما يلي:

الظهار: هو أن يقول الرجل لزوجته: أنتِ عليَّ كظهر أمي، فسُمّي الظهار ظهارًا اشتقاقًا من الظهر.

وكان الظهار في الجاهلية يحرم المرأة على زوجها، ويذرها كالمعلّقة، لا هي مطلّقة، ولا ذات زوج، فخفّف الله عن المسلمين، وجعل الظهار يمينًا لها كفارة، فقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾، و«قد» في اللغة: لفظٌ يفيد التحقيق، ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ أمْرها لمّا لم تجدْ عندك حلاً لمشكلتها، ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾: لا يخفى عليه صوت، وإن تكاثرت الأصوات مع كثرة اللغات واللهجات، ﴿بَصِيرٌ﴾: لا يخفى عليه دبيب النملة الصماء، في الليلة السوداء.

لما نزلت هذه الآيات قالت أم المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها: تبارك اللّهُ الذي وَسِعَ سمعُه الأصوات كلها، لقد جاءت المجادلةُ تجادلُ رسولَ اللّه في زوجها وتشتكي إلى اللّه، وأنا في الحجرة، أسمعُ بعض كلامها، ويخفى عليّ بعضُه، ولكنّ اللّه سمع كلامها من فوق سبع سماوات.

ثم عاب اللّه تعالى على الذين يظاهرون من نسائهم، وأنكر عليهم هذا القول، وبيّن أن الزوجة لا يمكن أن تكون أمًا له بمجرّد اللفظ، ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾، فليحذر المؤمنون من قول الرجل لامرأته: أنتِ عليَّ كظهر أمي. فإنه حين يقول هذا القول، فقد قال منكرًا من القول وزورًا، فـ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءكُمْ أَبْنَاءكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

ثم بعد هذا الإنكار الشديد فتح اللّه سبحانه بابَ التوبة والمغفرة أمام العصاة والمذنبين، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ يعفو عمن ظلم، ويعفو عمن أساء، ويعفو عمن كسب إثمًا، ويغفر له، إذا تاب وأناب، فإذا كان الظهار منكرًا من القول وزورًا، إلا أنّ من تاب إلى اللّه تاب عليه، ومن استغفر اللّه غفر له.

ومِنْ توبة المظاهر أن يكفّر

عن خطيئته بخصلةٍ من الخصال المذكورة في الآية، حسب استطاعته، ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ والعودُ هو العزْمُ على جماعها بعد ظهاره منها، فمَن عاد فلا يحلّ له مسّها ولا غيرُه من سائر أنواع الاستمتاع حتى يعتق رقبةً، مؤمنة أو غير مؤمنة، على الأرجح من أقوال العلماء، ولا يجوزُ حمل المطلق هنا على المقيّد في كفارة قتل الخطأ، لأنه لا يُحملُ المطلقُ على المقيّد إلا إذا اتحدت الواقعتان في الحكم والسبب، فإذا اختلفتا فيهما أو في أحدهما عُمِلَ بالمطلق في موضعه، وبالمقيّد في موضعه. فإذا أعتق رقبةً حلّ له من امرأته ما حرُمَ عليه بالظهار.

﴿ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾ ذلكم الحكم الذي حكم اللّه به عليكم إذا ظاهرتم، ﴿تُوعَظُونَ بِهِ﴾ أي: تزجرون به عن الظهار: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، والخبير من أسماء اللّه عز وجل، بمعنى العالم بما كان وبما يكون، ومن مقتضى علمه بأعمالكم أن يجزيكم بها، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبةً يُعتقُها لفقدها أو فقد ثمنها، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾، والتتابع شرط، فإذا انقطع التتابع لغير عذر بطل الصيام ولزمه الاستئناف، ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾، ولا أحد يملكُ الحكمَ على الإنسان بالاستطاعة أو بعدمها، ولكن كما قال تعالى: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، فليتقِّ اللّه في نفسه، وليفعلْ من الكفارة ما أمره اللّه به حسب الترتيب المذكور فيها، فإن كفّر بخصلة متأخرةٍ وهو قادرٌ على التي قبلها لم يجزئه.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾. وانتبهوا إخوة الإسلام: كل إطعام ذُكِرَ في القرآن فلا بد أن يكون إطعامًا، ولا تجزئ قيمتُه؛ لأن اللّه ذكر الإطعام ولم يذكر غيره، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، ولا يجوز تغيير النصوص، ولا تحريف الكلم عن مواضعه، كما أنه لا بد من إطعام ستين مسكينًا، ولا يجزئ إطعام مسكين ستين مرة.

﴿ذَلِكَ﴾ الحكم الذي شرعناه كفارة للظهار، إنما شرعناه ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، فلا تعتدوها، ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والظهار يكون مطلقًا ومقيدًا، فالمطلق أن يقول: أنتِ عليّ كظهر أمي. وهذا الذي سبق بيانه.

والمقيد: أن يقول: أنتِ عليّ كظهر أمي شهرًا أو شهرين أو نحو ذلك. فمن قال ذلك فقد قال منكرًا من القول وزورًا، وعليه التوبة والاستغفار، فإنْ عاد لما قال قبل انقضاءِ المدّة التي سمّاها، فعليه الكفارة المذكورة، وإن اعتزلها حتى انقضت المدّة ثم عاد فلا كفارة عليه.

عن سلمة بن صخر البياضي قال: كنت رجلاً قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضانُ فظاهرتُ من امرأتي حتى ينسلخ رمضانُ، فرُقّا مِنْ أن أُصيبَ في ليلتي شيئًا فأتتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار، وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني من الليل إذ تكشّف لي منها شيءٌ، فوثبتُ عليها، فلما أصبحتُ غدوتُ على قومي فأخبرتُهم خبري، وقلتُ: انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأُخْبِرُه بأمري. فقالوا: لا واللّه لا نفعل، نتخوّف أن ينزل فينا، أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالةً يبقى علينا عارُها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك. قال: فخرجتُ حتى أتيتُ النبي ﷺ فأخبرتُه خبري، فقال لي: «أنتَ بذاك؟» فقلت: أنا بذاك. فقال: «أنتَ بذاك؟» فقلت: أنا بذاك. قال: «أنت بذاك؟» قلت: نعم، ها أنا ذا، فأمض فيّ حكمَ اللّه عزّ وجلّ فإني صابر له. قال: «أعتق رقبة». قال: فضربتُ صفحةَ رقبتي بيدي وقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أصبحتُ أملك غيرها. قال: «فصم شهرين متتابعيْن». قلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما أصابني إلا

في الصيام؟ قال: «فتصدّق». فقلت: والذي بعثك بالحق لقد بتْنا ليلتنا هذه وَحْشَى ما لنا عَشاء. قال: «اذهب إلى صاحب صدقة بني زُرَيق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك منها وسْقًا من تمر ستين مسكينًا، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك». قال: فرجعتُ إلى قومي، فقلت: وجدتُ عندكم الضيق وسوءَ الرأي، ووجدتُ عند رسول الله ﷺ السعة والبركة، قد أمَرَ لي بصدقتكم فادفعوها إليّ، فدفعوها إليّ. [صحيح رواه الترمذي (٣٣٥٣/٧٨، و٧٩/٥)، وأبو داود (٢١٩٨/٢٩٨-٣٠١/٦)، وابن ماجه (٢٠٦٢/١٦٦٥/١)].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ المحادة مأخوذة من الحدّ، وهو الحاجز والفاصل بين الشيئين، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ معناه: يجعلون بينهم وبين الله ورسوله حاجزًا وفاصلاً يفصلهم عن الله ورسوله، فليسوا من الله ورسوله، والله ورسوله منهم براء، أولئك ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: أُذِلّوا وقُهِروا وخُذِلوا، كما أُذلّ وقُهِرَ وخُذِلَ الذين من قبلهم، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٦٢]، فالذين يحادّون الله ورسوله دائمًا في ذِلّة وصَغارٍ وهَوانٍ، وهذا قضاءٌ مُبْرَمٌ، لا دافعَ له ولا ناقض، خلافًا للذين يتولّون الله ورسوله فهم دائمًا سادةٌ أعزة، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ وبراهين واضحاتِ الدلالةِ على صِدْق نبينا، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ الذين عَمُوا عن هذه الآيات فكفروا بالله ورسوله ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ متى؟ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ فلا يغادر منهم أحدًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]. وقال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أي: سجّله وكتبه وحفظه، ونَسُوه هم، وهم الذين عملوه، ولذا قال فِرْعونُ لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ [طه: ٥١]؟ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

فيا إخوتاه: لا تنسوا ذنوبكم، عدّوها لتستغفروا منها، فإنّ مَن نَسِيَ ذَنبه نَسِيَ الاستغفار منه، فعدّوا ذنوبكم، ولا تَخشوا ضياع حسناتكم، فإني ضامنٌ ألا يضيعَ منها شيءٌ، كما جاء عن ابن مسعود رضي اللَّه عنه أنه بلغه أن قومًا يجلسون في المسجد حلَقًا ينتظرون الصلاة، في كل حَلقةٍ رجلٌ، وفي أيديهم حصًا، فيقول: كبروا مائة. فيكبرون مائة. فيقول: هللوا مائة. فيهللون مائة، ويقول: سبحوا مائة، فيسبحون مائة. فأتاهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الرحمن، حصًا نعدّ به التكبير والتهليل والتسبيح، قال: فعدّوا سيئاتكم، فأنا ضَامِنٌ أن لا يضيعَ من حسناتكم شيء. وَيحكم يا أمة محمد، ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيتُه لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى مِلّة أهدى من مِلة محمد، أو مفتتحوا باب ضلالة. قالوا: واللَّه يا أبا عبد الرحمن ما أردْنا إلا الخير. قال: وكم من مريدٍ للخير لَنْ يُصيبه. [رواه الدارمي في المقدمة من السنن، وهو صحيح].

﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيء، ولا ينسى شيئًا.

هذا، ونكمل حديثنا- إن شاء اللَّه تعالى- في العدد القادم مع آيات سورة المجادلة. واللَّه المستعان.

الحلقة الثانية

سورة المجادلة

بقلم الدكتور عبد العظيم بدوي

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ٧- ١٠].

تفسير الآيات

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، فـ ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: ٥]، ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ النجوى: هي التحدث سرًا، فما يتناجى ثلاثة إلا كان الله رابعهم، ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ أي: معهم بعلمه وسمعه وبصره، قد أحاط بهم علمًا، وهو سبحانه محيطٌ بكل شيء وفوقه، وليست المعيةُ هنا معية ذات، فالله على العرش استوى، كما أخبر عن نفسه سبحانه، ولا يخلو مكان من علمه، ولا يجوز اعتقاد أن الله بذاته في كل مكان؛ لأن الله يتعالى عن الحلول في كل مكان، ولئن كنا نحكم على النصارى بالكفر ؛ لقولهم أن الله سبحانه حلّ في عبده عيسى، فكيف بمن يقول: إن الله حلّ في كل مكان؟!

ومعنى كونه سبحانه معهم

أينما كانوا: أنه مطلع عليهم، يعلم سرّهم ونجواهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨]، ومع علمه سبحانه بعباده فقد وكّلَ بهم ملائكةً تسجّل كلّ ما يكون من نجواهم، تسجّل كل ما يكون في هذه الاجتماعات السرية المغلقة، التي لا يحضرها إلا المقربون، كما قال تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ. أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٧٩، ٨٠].

ولو لم يكن بعد الموت حساب وجزاء لكان اعتقادُ المسلم أنّ اللّه مطلعٌ عليه وناظرٌ إليه، يعلم سرّه ونجواه، زاجرًا له عن فعل ما يكرهه الله، فكيف إذا كان اللّه مطلعًا على أعماله، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

عن صفوان بن محرز قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي اللّه عنهما آخذٌ بيده ؛ إذ عَرَضَ رجلٌ، فقال: كيف سمعت رسول الله ﷺ في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن اللّه يدني المؤمن فيضع عليه كَنَفَه ويستره، فيقول: أتعرفُ ذنب كذا، أتعرفُ ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. فيُعطى كتاب حسناته. وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة اللّه على الظالمين». [متفق عليه. رواه البخاري (٥/٩٦/٢٤٤١)، ومسلم (٤/٢١٢٠/٢٧٦٨)].

فتخيّل نفسك يا عبد الله وقد مثلت أمام ربك، أمام الملك الكبير المتعال، أمام العزيز الجبار القهار، فيقول لك: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فما أشدّ حياءك! وما أشدّ خجلك! وما أكثر عرقك! حين يقررك ربك بذنوبك، وأنت لا تستطيع إنكارًا. فاللهم استر بسترك يوم تُبلى السرائر، وأدخلنا الجنة بغير حساب.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذا ختام الآية، وقد افتتحت بـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، فناسب البدءُ الختام. ونحن نُشْهِدُ اللّه أننا نؤمن بأن اللّه على كل شيء قدير، وأن اللّه قد أحاط بكل شيء علمًا. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وهم اليهود، كان الرسول ﷺ قد جعل بينه وبينهم موادعة، فكانوا إذا مرّ بهم رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ أقبل بعضهم على بعض يتناجَوْن، حتى يظنّ المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره، فإذا رأى المؤمن ذلك خَشِيهم فترك طريقه عليهم، فنهاهم النبي ﷺ فلم ينتهوا، وعادوا إلى النجوى. ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾، والمراد بالإثم ما يقعون فيه مما حرّم اللّه عليهم، فيكسبون إثمًا، وذلك فيما يختص بهم، والعدوان هو ما يتعلق بغيرهم، ومنه معصية الرسول ﷺ ومخالفته، فكانوا في نجواهم يتواصون ألا يؤمنوا لمحمد، وأن ينكروا ما يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل عن محمد، حتى لا يؤمن أحدٌ به.

﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾. عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال: مرّ يهودي برسول الله ﷺ، فقال: السّام عليك. فقال رسول الله ﷺ: «وعليك». ثم قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ماذا قال هذا؟ قال: السّام عليك». قالوا: يا رسول الله، ألا نقتله؟ قال: «لا، إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم». [صحيح. رواه البخاري (١٢/٢٨٠/٦٩٢٦)].

وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: دخل رهطٌ من اليهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السّام عليك. قالت عائشة: فَفَهِمْتُها، فقلتُ: عليكم السّام واللعنة. قالت: فقال رسولُ الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، إنّ اللّهَ يحبّ الرفق في الأمر كلّه». فقلت: يا رسول الله، ألم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: «قد قلت وعليكم».

[متفق عليه. رواه البخاري (٦٣٥٦/٤١/١١)، ومسلم (٢١٦٥/١٧٠٦/٤)، والترمذي (٢٨٤٤/١٦٢/٤)].

والسّام: الموت. فكانوا- لعنهم الله- يَلْوُون ألسنتهم، ويحرفون الكلام، فيقولون: السّام، بدلاً من: السلام، ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ يعنون: لو كان محمد رسول الله حقًا لعذبهم الله بما قالوا، ولم يعذبهم، فليس برسول الله، وفي حكاية الله تعالى ما كانوا يقولونه في أنفسهم إشارةٌ إلى ما سبق من أن الله قد أحاط بكل شيء علمًا، وأنه عليم بذات الصدور، كما قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، فهتك الله أستارهم، وفضح أسرارهم، وأخبر نبيّه بحقيقة ما يحيّونه به، وما يقولونه في أنفسهم، ثم توعّدهم بقوله: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢]، ومعنى ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: أي يدخلونها فتغمرهم وتحيط بهم من كل جانب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

ولما ذكر الله تعالى يهود وما يتناجون به، نهى عباده المؤمنين عن التناجي بما يتناجى به يهود، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ إن كان لا بد من التناجي فـ ﴿تَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾، والبر اسم جامع لكل طاعة، والتقوى اسم جامع للقيام بالواجبات وترك المحرمات، فأنتم يا معشر المؤمنين، إذا تناجيتم فتواصوا بالبرّ والتقوى، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، و﴿لاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾، فإنّ هذا ينافي الإيمان الذي هداكم الله له، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، فينبئكم بما كنتم تعملون، فاحذروا أن تتركوا فعل ما أمركم بفعله، أو تفعلوا ما نهاكم عن فعله.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: إنما النجوى التي يتناجاها يهود من الشيطان، وهو الذي حرّضهم عليها، وزينها لهم، ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لخوفهم أن يكونوا يتناجون بقتلهم أو بما يضرّهم، ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، كما قال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك». [متفق عليه]. قال تعالى: ﴿فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. كتب بعض الصالحين إلى أخ له رسالة يقول فيها: «إذا كان الله معك فمن تخاف؟ وإذا كان عليك فمن ترجو؟». فـ ﴿عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦]، ولما كان التناجي يؤذي المؤمنين، فقد نهى النبي ﷺ عنه إذا آذى مؤمنًا، فقال ﷺ: «إذا كنتم ثلاثةً فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما، فإن ذلك يحزنه». [متفق عليه].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

سورة المجادلة

الحلقة الرابعة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

بقلم د. عبد العظيم بدوي

تفسير الآيات

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾، هذا أدبٌ من آداب المجالس يؤدب الله به عباده المؤمنين، وكانوا إذا دنوا من رسول الله ﷺ ضنّوا بمجالسهم، ولم يحبّوا أن يزاحمهم فيها أحد، فأمرهم الله تعالى أن يتفسّحوا في المجالس إذا طُلِبَ منهم أن يتفسّحوا، ووعدهم أن يفسح لهم، فالضيق من الأمكنة يتسع إذا اتسعت قلوب الجالسين بعضهم لبعض، وقد نهى النبي ﷺ أن يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه فيجلس فيه، فقال ﷺ: «لا يقيمُ الرجلُ الرجلَ من مجلس فيجلس فيه، ولكن تفسّحوا وتوسّعوا». [متفق عليه].

وكان النبي ﷺ يحبّ أن يدنو منه أهلُ الحلم والعلم ليأخذوا عنه، كما كان يقول إذا صلّى: «ليليني منكم أولو الأحلام والنهى». [صحيح رواه مسلم (١/٣٢٣/٤٣٢)].

فربما كان يكون جالسًا وحوله نفرٌ من أصحابه فياتي من هو أعلمُ وأفقهُ من الجالسين، فيقولُ النبي ﷺ لمن حوله: «قم يا فلان، وأنت يا فلان». فربما وجدوا في أنفسهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾، فكانوا بعد ذلك يقومون سراعًا، يفسحون لإخوانهم وهم مسرورون.

وقد ذكر العلماء هاهنا حكمًا من الأحكام التي تعم بها البلوى، وهو حكم القيام للداخل.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما كان أحدٌ أحبّ إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا دخل عليهم لا يقومون له، لما يعلمونه من كراهيته لذلك. [رواه الترمذي (٤/١٨٣/٢٩٠٢)]

وكان ﷺ يجلس حيث انتهى به المجلس.

فالسنة للداخل أن يُفْشي السلام، ثم يجلس حيث انتهى به المجلس، ولا يقومُ له أحد، ويحرمُ عليه أن يحب قيامهم له؛ لقول النبي ﷺ: «من أحب أن يتمثل الناسُ له قيامًا فليتبوأ مقعده من النار». [صحيح. رواه الترمذي (٤/١٨٤/٢٩٠٣)، وأبو داود (١٤/١٤٢/٥٢٠٧)].

وعلى الجالسين أن لا يقوموا، خشية أنْ يعتادَ الداخلُ القيام له فيحبه، فيشمله هذا الوعيدُ المذكور، والله يقول: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: لا تعتقدوا أنه إذا أفسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل، أو إذا أمر بالخروج فخرج، أن يكون ذلك نقصًا في حقه، بل هو رفعةٌ ورتبةٌ عند الله، والله لا يضيّع ذلك له، بل يجزيه به في الدنيا والآخرة، فإنّ مَنْ تواضع لأمر الله رفع اللهُ قدره ونشرَ ذِكْرَه، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: خبير بمن يستحق ذلك ومن لا يستحقه، وفي هذه الآية مدحٌ للعلماء، وإشارة إلى أن الله يرفع درجاتهم في الدنيا والآخرة، وقد مدح الله العلم وأهله في آيات كثيرة غير هذه الآية؛ منها قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]، فرفع اللهُ إبراهيمَ درجاتٍ بسبب ما آتاه من الحجة. وقوله تعالى في حق يوسف عليه السلام: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وإنما عرفت الملائكةُ فضل آدم عليه السلام لما ظهر لهم علمه، ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]. قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. وقال العلماء: في هذه الآية مدحٌ للعلماء من وجوه: منها: استشهادُهم دون غيرهم. واقترانُ شهادتهم بشهادة الله عز وجل وبشهادة الملائكة. وقد فرّق الله تعالى بين العلماء وغيرهم، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]؟ لا يستوون. وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: ١٩]، فليس ثمّ إلا عالمٌ بالحق متبعٌ له، وأعمى عن الحق كافرٌ به. وقد امتنّ الله تعالى على نبيه ﷺ بنعم كثيرة، وجعل أعظمها العلم، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، كما ﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقد سلّى الله نبيه بإيمان العلماء عن كفر غيرهم، فقال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً. قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا. وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً. وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٦- ١٠٩]. وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وبيّن سبحانه أن العلماء هم الذين يستشهد بهم على بطلان كل قولٍ باطل، فقال تعالى حكايةً عن قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠]، فالجهلة هم الذين غرتهم زينة قارون ودنياه، وأما أهلُ العلم فقد علموا أن ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦]. وبيّن سبحانه أنّ من أوتي العلم فقد أوتي خيرًا كثيرًا، فقال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. وأرشد الله عباده المؤمنين أن يفرحوا بما أوتوا من العلم إذا فرح الجهلة بحظوظهم من الدنيا، فقال تعالى عن الجهلة: ﴿وَفَرِحُواْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]. وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ. قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ

مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨]. وفضل الله هو الإيمان، ورحمته هي القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ. فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧، ٨]. وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فمن أوتي الإيمان والقرآن فماذا فاته، ومن فاته الإيمانُ والقرآنُ فايّ شيءٍ حصّله؟! وبيّن سبحانه أن العلماء هم أهل خشيته، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وعلى ذلك فـ ﴿هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ. جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٧، ٨]. وحسبنا بعد هذا كله أن الله لم يأمر نبيه أن يسأله الزيادة من أي شيء إلا من العلم، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. فهذه بعض آيات الكتاب العزيز في فضل العلم.

أما الأحاديث فكثيرة جدًا؛ منها: قوله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين». [متفق عليه]، وقوله ﷺ: «من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا، سهّل الله له طريقًا إلى الجنة». [صحيح. رواه الترمذي]، وقوله ﷺ: «من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا، سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له مَنْ في السماوات والأرض حتى الحيتانُ في الماء، وفضلُ العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إنّ العلماء ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يورّثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورّثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر». وقوله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير».

هذا، وقد أفرد العلماءُ الكلام في فضل العلم بمصنفات، ومنْ أعظم ذلك كتاب «جامع بيان العلم وفضله» للإمام ابن عبد البر رحمه الله، وهو مما ينبغي لكل مسلم أن يقرأه، فإنه يشحذ الهمم، ويقوّي العزائم، ويجدّد الرغبة في طلب العلم، ومما جاء في هذا الكتاب من آثار عن الصحابة في فضل العلم قول أبي الدرداء رضي الله عنه: من رأى الغُدُو والرُّواحَ في طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص عقله.

فطلبُ العلم جهادٌ، وهو شاقٌ على النفس، ولذا قال بعض السلف، رافقتُ العلم ثلاثين سنةً، فما رأيتُ شيئًا أشقّ على النفس منه. وقد دلّ على ما قاله أبو الدرداء رضي الله عنه القرآنُ الكريم، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. فسمّى الله تعالى الخروج لطلب العلم نفيرًا كالنفير للجهاد.

حكم طلب العلم

قال ﷺ: «طلبُ العلم فريضةٌ على كل مسلم». قال العلماء: العلم قسمان: فرضُ عينٍ، وفرضُ كفايةٍ، فـفرضُ العينِ: ما يلزم كلَّ مسلمٍ العلمُ به ولا يُعْذرُ مسلم بجهله، كالعلم بأركان الإسلام، وأركان الإيمان، وما يتعيّن على كل مسلم من العبادات، وأصول المحرمات. وفرضُ الكفاية ما زاد على ذلك، وإذا قام به البعض سقط الحرج عن الباقين، ويدخل في فرض الكفاية علمُ الطب والحساب، والصناعة والزراعة، ونحو ذلك مما يحتاجه الناس. والله أعلم.

إشهار

تشهد مديرية الشئون الاجتماعية بالشرقية بانه قد تم إشهار الفروع الآتية:

١- فرع أنصار السنة المحمدية بناحية المهدية- مركز ههيا- شرقية.

٢- فرع أنصار السنة المحمدية بناحية الإبراهيمية- مركز الإبراهيمية- شرقية.

وقد تم شهر الجمعيات المذكورة طبقًا لأحكام القانون رقم ٣٢ لسنة ٦٤.

الحلقة الأخيرة

سورة المجادلة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ. لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ. اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ. كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ. لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ١٢- ٢٢].

بقلم الدكتور عبد العظيم بدوي

تفسير الآيات

كان رسولُ الله ﷺ أحبَّ إلى أصحابه من كلّ شيء، وكانوا لحبّهم إياه يحبّون الجلوسَ معه، بل والخلوة به، وربما طلب منه أحدُهم الخلوة ليناجيه في أمرٍ ليس بذاك، وكان ﷺ أشدّ الناس تواضعًا، وأكثرهم حياءً، فكان لا يردّ سائلاً، وكان ذلك يشقّ عليه، فأراد الله أنْ يخفّفَ عنه فأمرَ عباده المؤمنين إذا أرادَ أحدُهم أن يناجي رسول الله ﷺ أن يقدّم بين يدي ذلك صدقة تطهّره وتزكيه، وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾، فلما حصل المقصود من التخفيف عن النبي ﷺ، وعلموا أن رسول الله ﷺ وقتُه ليس كوقت غيره، فتأدبوا معه، وخفّفوا مما يشقّ عليه من النجوى، خفّف الله عنهم فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فكان الأمرُ بالصدقة بين يدي مناجاة الرسول ﷺ للقادر عليها، ثم قال تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ أي: أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم؟ ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا

الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. وقد قيل إنه لم يعملْ بهذه الآية قبل نسخها سوى عليّ بن أبي طالب. عن مجاهد قال: نُهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتى يتصدّقوا، فلم يناجه إلاّ عليّ ابن أبي طالب، قدّم دينارًا صدقةً تصدّق به ثم ناجى النبي ﷺ فساله عن عَشْر خصال، ثم أُنزلت الرخصة، ثم فضح اللّهُ المنافقين، وهتك أستارهم، وكشف أسرارهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فالذين غَضِبَ اللّهُ عليهم هم اليهود، والذين تولّوهم هم المنافقون، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ [الحشر: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨] إلى أن قال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤]. وهؤلاء المنافقون ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَـؤُلاء وَلاَ إِلَى هَـؤُلاء﴾ [النساء: ١٤٣]، ﴿مَا هُم مِّنكُمْ﴾ معشر المؤمنين، ﴿وَلاَ مِنْهُمْ﴾ أي من اليهود الذين تولّوهم، فاليهود قد أعلنوا الكفر، والمؤمنون آمنوا ظاهرًا وباطنًا، وهؤلاء المنافقون أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، فليسوا من هؤلاء، ولا من هؤلاء، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. أي: يحلفون بالله لرسول الله والمؤمنين أنهم مؤمنون، وهم في أنفسهم يعلمون أنهم كاذبون، وهذه هي اليمين الغموس، التي يغمس صاحبها في نار جهنم، لأنها تدلّ على استهانته بالله عز وجل، حيث حَلَفَ به كاذبًا وهو يعلم، ولذا قال تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وأيّ عمل أسوأ من النفاق، ولذا كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار؛ لأنّ النفاق أسوأ من الكفر الصريح، ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي اتّقوا بأيمانهم الكاذبة، فظنّ كثيرٌ ممن لا يعرفُ حقيقتهم صِدْقهم فاغتر بهم، فصدّوه عن سبيل الله، ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لا ينجيهم منه مالٌ ولا ولد، ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، ثم قال تعالى مبينًا ما يبعثون عليه من النفاق، فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء، لقد رأوا أن النفاق والأيمانَ الكاذبة نَفَعتهم في الدنيا، فعصمتْ أموالهم ودماءَهم، فظنّوا أنها أيضًا نافعتهم في الآخرة، فحلفوا لِلّه كما كانوا يحلفون للمؤمنين، واللّهُ قد أحاط بكل شيء علمًا، ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فما خفي من أمر المنافقين على المؤمنين في الدنيا لم يكن خافيًا على الله، ولن يخفى عليه في الآخرة يوم يبعثهم، ولذا قال منكرًا عليهم حُسبانهم: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾، فالغفلة عن ذكر الله من استحواذ الشيطان، فعلى المسلم أن يُكْثر من ذكر الله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]. قال ﷺ: «ما من ثلاثة في قرية أو بادية لا تقام فيهم الصلاة إلا استحوذ عليهم الشيطان» [حسن، رواه أبو داود (٢/٥٤٣، ٢٥٠/٢)، والنسائي (٢/١٠٦)].

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾، والذين يحادّون الله ورسوله

هم الذين يجانبون الحق ويبتعدون عنه، فهم في وادٍ والشرع في وادٍ، هم في ناحية والهدى في ناحية، أولئك ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، فقد قضى اللهُ وكتب في كتابه الأول أن النصرَ والعزة والغلبة لله ولرسوله وللمؤمنين، ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ. وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١- ١٧٣].

ولما ذكر الله أن المنافقين يتولون الذين غضب الله عليهم برّأ عباده المؤمنين من موالاة الكافرين ومودتهم ولو كانوا أقربَ الناس إليهم، فقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ لأن مودّة هؤلاء تنافي الإيمان، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١]، وقد نهوا عن موالاة أعداء الله وأعدائهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]. فلا يجوز لمؤمن أن يوالي كافرًا مهما كان، ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾، فإن والاهم فقد آثرهم على الله ورسوله، والله يقول: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]. ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا ولو كانوا غير أولي قربى، ويتبرأ من الذين يحادون الله ورسوله ولو كانوا أولي قربى، فـ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وهكذا جعل الله تعالى العالَمَ كله حزبين اثنين: حزب الشيطان، وحزب الله، وليس هناك إلا رايتان: راية الحق، وراية الباطل، فلينظر امرؤ مع أيّ حزبٍ وتحت أيّ راية يقف، فمن لم يقف تحت راية الحق ويستظل بظلها مع حزب الله، وقفَ تحت راية الباطل واستظل بظلّها مع حزب الشيطان، ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وقد اجتهد الشيطانُ وحزبه على حزب الله ففرّقوهم، وجعلوا الحزب الواحدَ أحزابًا، ومزّقوا الراية الواحدة فجعلوا منها رايات، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

فمتى يعلم المسلمون أنهم جميعًا يجب أن يكونوا حزبًا واحدًا لا أحزابًا، وجماعةً واحدةً لا جماعاتٍ متعددةً، فإنّ التفرّق ضعفٌ، والاتحاد قوةٌ، ويوم تنصهر الأحزابُ كلها في حزبٍ واحد، وتذوبُ الجماعاتُ كلها في جماعةٍ واحدةٍ يتحقق وعد الله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٤- ٦]، ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحلقة الأولى

سورة الحشر

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ . وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ . وَمَا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاء وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاء مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر:١- ٧].

بقلم الدكتور عبد العظيم بدوي

بين يدي السورة

سمّاها ابن عباس رضي الله عنهما سورة بني النضير؛ لأنها تحدثت عن جلاء بني النضير من مدينة الرسول ﷺ إلى أذرعات بالشام وغيرها.

وقد كان الكفار بعد هجرة الرسول ﷺ ثلاثة أقسام: محاربون - كقريش- وأهل ذمة- كيهود المدينة- وقسم ثالث لم يحارب ولم يعط عهدًا، وإنما وقفوا ينظرون ماذا سيكون من رسول الله ﷺ، وإلى ماذا ينتهي أَمْرُه، وكان هذا القسم فريقين: فريقٌ ظاهرُه على رسول الله ﷺ، وفريقٌ باطنُه مع رسول الله ﷺ.

فوفَّى رسولُ اللَّه ﷺ لأهل الذمّة حتى بدت العداوةُ من أفواههم فنبذ إليهم عهدهم، فأجلى بعضهم، وقتل بعضهم، أجلى بني قينُقاع وبني النضير، وقتل بني قريظة. وهذه السورةُ سورةُ الحشر تحكي قصة جلاء بني النضير، ولذا سمّاها ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما سورة بني النضير.

حقد اليهود على النبي ﷺ

وكان من شأنهم أنه لما انتصر رسولُ اللَّه ﷺ في بدر قالت اليهود: هذا هو النبيّ الذي نجدُ نعتَه في التوراة،

هذا هو النبي الذي لا تنكّس له راية، فلما كان يومُ أُحُدٍ نُكِسُوا على رءوسهم فقالوا: ليس هو. وخرج منهم كعبُ بنُ الأشرف في أربعين راكبًا من اليهود حتى أتوا مكة، فحالفوا المشركين، وحرضُوهم على قتال رسول الله ﷺ، فسألتهم قريش: أنحنُ خيرٌ أم محمدٌ؟ نحنُ نطعمُ الطعام، ونسقي الحجيجَ، ونخدمُ بيتَ اللَّه؟ فقالوا: أنتم أهدى سبيلاً، وفي ذلك أنزل الله تعالى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢]. ثم رجعوا إلى المدينة، فأخذ كعبُ بنُ الأشرف يشبِّبُ بنساءِ المسلمين.

قصة قتل زعيمهم كعب بن الاشرف

فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «مَن لي بكعبِ بن الأشرف، فقد آذى اللَّهَ ورسولَه؟» فقال محمدُ بنُ مَسْلَمةَ رضي اللَّه عنه: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتلُه، فقال ﷺ: «فافعلْ إن شئتَ». فذهبَ محمدُ بنُ مسلمة وغاب عن رسول الله ﷺ ثلاثًا، لم يأكل ولم يشرب إلا القوت، فذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ، فدعاه وسأله: «لِمَ تركتَ الطعامَ والشراب؟» قال: يا رسولَ اللَّه، أعطيتُك عهدًا ولا أدري هل أفي به أم لا. فقال ﷺ: «إنما عليك الجهد، فإن نصر اللَّهُ فذلك ما ترجو، وإن عَجزْتَ فلا حرج عليك». فكلّم محمدُ بنُ مسلمة نفرًا من أصحابه فخرجوا معه، منهم أبو نائلة أخُ لكعب بن الأشرف من الرّضاعة. فأتوا رسولَ الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، إنه لا بدّ لنا أن نقولَ شيئًا، أي لا بدّ أن نخدع الرجلَ بأن ننال منك ونقول فيك. فقال ﷺ: «قولوا ما أردتم فأنتم في حل»، ثم خرج معهم الرسول ﷺ إلى البقيع، ثم قال: «سيروا باسم الله، اللهم أعنهم». ورجع رسول الله ﷺ، وانطلقوا حتى أتوا حِصْنَ كعب بن الأشرف، فناداه أبو نائلة فقال: يا كعبَ بنَ الأشرف، فأذن له فدخل عليه، فتناشدا شعرًا، وكان أبو نائلة يقول الشعر، ثم قال أبو نائلة لكعب: إني أُريدُ أنْ أتكلم معك في شيءٍ وأُحبّ أنْ تكتم عنيّ، قال: أفعل. فقال أبو نائلة: لقد كان قدومُ هذا الرجل- يعني النبي ﷺ- بلاءً من البلاء، أصابتنا به المصائبُ، ضاع العيالُ وزهقت الأنفسُ، وقلّ الخيرُ بسبب قدوم هذا الرجل علينا. فانشرح صدرُ عدوِّ اللَّه كعبٍ وقال: أنا ابنُ الأشرف، ألم أقل لك يا أبا نائلة إنكم ستصيرون إلى ما صِرْتُم إليه، فقال: يا ابن الأشرف، إني أريدُ أن تبيعنا طعامًا ونرهنُك ونوثق لك. فقال: أترهنوني نساءكم؟ قال: معاذ الله، أنرهنك نساءنا وأنت أجملُ رجال العرب لا تمتنع عنك النساء لجمالك! قال: أترهنوني أولادكم؟ قال: معاذ اللَّه، أنرهنك أولادنا، حتى إذا كَبِرُوا عُيِّرُوا بآبائهم وفقرهم! قال: فماذا ترهنوني؟ قال: نعطيك سلاحنا، وأراد أبو نائلة أن لا ينكر السلاح إذا رآه، قال: نعم، إنّ في السلاح لكفاية، قال له أبو نائلة: إنّ لي أصحابًا على مثل ما أنا عليه، فأنا آتي بهم إليك، قال: نعم، فعاد أبو نائلة إلى أصحابه فأخبرهم بما كان، وقال: هاتوا أسلحتكم، ثم رجع أبو نائلة مع أصحابه إلى كعبٍ في الليل، فنادى: يا كعبَ بنَ الأشرف، وكان حديثَ عهدٍ بعُرْسٍ، فوثب في ملحفته فأخذت زوجتُه بطرفها وقالت: إنّك امرؤٌ مُحَارَب، ومثلُك لا يخرج في مثل هذه الساعة، فقال: إنه أبو نائلة أخي، لو رآني نائمًا أيقظني، ثم قال: لو يُدعى الفتى لطعنةٍ لأجاب. قالت: إني أشمّ في صوته رائحةَ الدم، فلا تخرج، فلم يردّ عليها، فخرج، فكلّمه أبو نائلة، ثم قال: هل لك يا ابنَ الأشرف أن تأتي شِعْبَ العجوز (وهو شِعبٌ بالمدينة) نقضي فيه بقية ليلتنا؟ قال: لا بأس، فساروا جميعًا، فبينما

أبو نائلة يكلّم كعبًا إذ أدخلَ يده في رأسه وقال: ما شاء اللّه، ما شممتُ قبلَ الليلة عِطْرًا أطيبَ من هذا العطر قطّ، ثم مشى، ثم عاد فأدخل يده في رأسه وشمّها، ثم قال: ما شممتُ عطرًا أطيبَ من هذا العطر قبل الليلة قط، فسرَّ بذلك كعبٌ، وبعد ساعة أدخل أبو نائلة يده في رأسه وأمسك به، ثم قال: اضربوا عدوّ اللّه، اقتلوا عدوّ اللّه، فاجتمع عليه أصحابُ رسول الله ﷺ يضربونه، فاختلفت عليه سيوفُهم، فلم تعمل فيه شيئًا. قال أبو نائلة: فتذكّرتُ مِعْوَلاً (سكينًا) في طرف سيفي، فأخذتها فوضعتها في ثُنّته حتى انتهت إلى عانته، وكان عدوّ اللّه قد صاح صيحةً لم يبق بيتٌ من بيوت اليهود إلا وأُوقدت فيه نارًا (يعني استيقظوا كلهم) قال: فتركناه، وأسرعنا الرجوع، وكان أحدهم أصابته سيوف أصحابه خطأ فتأخرّ عنهم، فانتظروه في شعب حتى أدركهم، فحملوه حتى أتَوْا به رسول الله ﷺ وهو قائم يصلّي، فبشروه بقتل عدو اللّه، فبصق رسولُ اللّه ﷺ على الجرح، فما اشتكى منه بعد، فأصبح يهودُ يخافون المسلمين.

وكان ذهابُ كعب بن الأشرف إلى مكة وتحريضه أهلها على قتال النبي ﷺ أوّل خيانةٍ بدأت منهم.

قصة بئر معونة

ثم حدث بعد ذلك أنّ أبا البراء- رجل من العرب- جاء إلى رسول الله ﷺ فعرض رسولُ اللّه ﷺ عليه الإسلام، فلم يُسْلِمْ ولم يَبْعُدْ، وقال: يا محمد، لو بعثت معي نفرًا من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك، فقال ﷺ: «إني أخاف عليهم العرب». فقال أبو البراء: ابْعثهم في جواري، فاختار رسول الله ﷺ سبعين رجلاً من خيرة أصحابه، كانوا يسمون القرّاء، كانوا يحتطبون بالنهار، ويقرءون القرآن في صلاة الليل، فأرسلهم مع أبي البراء، وأمّرَ عليهم المنذر بن عمرو، حتى إذا أتوا بئرًا يقال لها بئر معونة نزلوا عندها، ثم أرسلوا أحدهم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدوّ اللّه عامر بن الطفيل فلم يقبل كتابَ رسول الله وعدا على حامل الكتاب فقتله، ثم استصرخ بني عامر على هؤلاء النفر، فقالوا: لا والله لا نخفر أبا البراء في ذمته، فاستصرخ عليهم جماعة من بني سليم: عصية ورعل وذكْوان فأجابوه، فأتوا القرّاء فأحاطوا بهم، فلمّا رأوهم أخذوا سيوفهم وقاتلوهم حتى قُتلوا أجمعون إلا رجلاً واحدًا حُمل من بين الجرحى وفيه حياة، فبارك الله في عمره وعاش حتى استُشْهِدَ في غزوة الخندق، ونزل في هؤلاء الشهداء قرآن ثم رفع: «بلّغوا عنّا قومَنا، أنّا لقينا ربنا، فرَضِيَ عنّا وأرضانا». وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري ورجلٌ من الأنصار، فلم يرعْهُما إلاّ الطيرُ تحومُ حولَ هذا الوادي، فأتياه فوجدا القومَ قتلى، فقال الأنصاري لعمرو: ما رأيُك؟ فقال عمرو: أرى أن نرجعَ إلى رسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال الأنصاري: لكني والله ما كنت لأترك مكانًا قُتِلَ فيه المنذر بن عمرو، وما كنتُ ليخبرني عنه الرجال، ثم أخذ سيفَه، وتقدّم نحو المشركين فقاتلهم حتى قتلوه، وأسَرُوا عمرو بن أمية، فلما أسروه سأله عدو اللّه عامرٌ: ممن أنت؟ قال: من بني فلان، فجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمّه، فانطلق عمرو راجعًا إلى المدينة، فنزل تحت شجرة، فنزل عنده رجلان، فسألهما: من أين أنتما؟ قالا: من بني عامر، فتركهما حتى ناما ثم قتلهما، وهو يظنّ أنه ثأر لأصحابه، وكان هذان العامريان قد أخذا عهدًا من رسول الله ﷺ، فلما أتى عمرو رسول الله ﷺ أخبره خبره، فقال ﷺ: «لقد قتلتَ رجلين لأدينهما».

محاولة فاشلة لاغتيال النبي

ثم خرج رسولُ اللّه ﷺ إلى بني النضير يستعينهم على دية هذين العامريين

وكان بين بني النضير وبني عامر حلفٌ وعَهْدٌ. فقالوا: نعم يا أبا القاسم، ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ [طه: ٦٢]، قالوا: من يصعد إلى السطح فيلقي هذه الرَّحَى على الرجل فنخلص منه؟ فانبعث لذلك أشقاهم، فكان الوحيُ أسرع إلى رسول الله ﷺ وكأنما نهض لحاجة، ثم عاد إلى المدينة، فلما تأخّر خرج مَنْ كان معه مِنْ أصحابه في طلبه وقد خافوا عليه، فقابلوا رجلاً فسألوه: هل رأيت رسولَ اللَّه ﷺ؟ قال: إني رأيتُه داخلاً المدينة، فتبعوه حتى أدركوه، فقالوا: لِمَ قُمتَ يا رسولَ الله؟ قال: لقد غَدَرَ القوم، وأخبرهم بما عَزَمتْ عليه يهود، ثم أرسل إليهم رسولُ اللَّه ﷺ محمدَ بن مسلمة: أن لا تساكنوني في بلدي، وقد فعلتم ما فعلتم، وإني ممهلكم عشرًا، فمن رأيتُه بعد ذلك ضربتُ عنقه، فتحصنوا بحصونهم وعَزَمُوا على عدم الخروج، فحاصرهم الرسولُ ﷺ ستَّ ليالٍ حتى همّوا بالنزول، فأرسل إليهم عدوُّ اللَّهِ ابنُ أُبيّ أن اثبتُوا ولا تخرجُوا من دياركم، فنحن معكم إن قُوتلْتم قاتلنا، وإن أُخرِجْتم لنخرجنّ معكم، فثبت أعداءُ اللَّه في حصونهم، وظنّوا أنها مانعتهم، وأن إخوانهم المنافقين ناصروهم، فألقى اللَّه في قلوبهم الرعب، فطلبوا مِنْ رسولِ اللَّه ﷺ الصلح.

عاقبة مكر اليهود

فصالحهم على أن يخرجوا من المدينة ولا يأخذوا من أموالهم شيئًا إلا ما حملت الإبل غير السلاح، فنزلوا وحملوا ما استطاعوا، فكان الرجلُ منهم يهدم بيتَه عن إيجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به... فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت له خاصة، يضعها حيث يشاء، وهكذا تمّ جلاءَ بني النضير عن المدينة وأخرجوا منها إلى الشام، فكان إخراجهم إليها أوّل الحشر، والحشر الثاني يومَ القيامة، يُحْشَر الناسُ جميعًا إلى الشام، كما كان ابنُ عباس رضي اللَّه عنهما يقول: من لم يصدّق أن أرضَ الشام هي أرضُ المحشر فليقرأ قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢].

وصدق ابن عباس رضي اللَّه عنه، فلقد شهد لصحة فهمه الرسولُ ﷺ فقال: «أرض الشام هي أرض المحشر».

تفسير الآيات

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ تسبيحًا حقيقيًا بلسان المقال وليس بلسان الحال، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُقهر ولا يُغلب، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وأفعاله، وأوامره ونواهيه وقضائه.

﴿هُوَ﴾ وحده لا أنتم ﴿الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم يهود بني النضير، ﴿مِّن دِيَارِهِمْ﴾ إلى الشام ﴿لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾، والحشر الثاني يوم القيامة، ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن يَخْرُجُوا﴾ وقد رأيتموهم تحصّنوا بحصونهم، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾، فلن يصيبهم بأسٌ، ولن يمكّن اللَّهُ المؤمنين من اقتحام هذه الحصون، ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، وهو أوّل عوامل الهزيمة، فطلبوا الصلح ونزلوا، فما أغنت عنهم حصونهم من اللَّه شيئًا، فجعلوا ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾، فكان الرجلُ منهم يهدمُ بيتَه عن إيجافِ بابهِ فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، فهذا تخريبهم بيوتهم بأيديهم، وقال مقاتل: كان رسولُ اللَّه ﷺ يقاتلهم، فإذا ظهر على دَرْبٍ أَوْدَارٍ هدم

حيطانها ليتسع المكان، فهذا تخريب بيوتهم بأيدي المؤمنين، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ من يهود بني قريظة ومن المشركين واحذروا أن يحلّ بكم مثلُ ما حلّ ببني النضير.

﴿ وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: لولا أنّ الله قدّر عليهم الجلاء لعذّبهم بالقتل والسّبي، ولكنّ الله دفع هذا العذاب عنهم بالجلاء، وأما عذاب الآخرة فـ ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور :٨] ، ولذا قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾، فـ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّواْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، أي: خالفوا اللّهَ ورسولَه، وكذّبوا بما أنزل اللّهُ على رسوله، ﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وكان الرسولُ ﷺ حين حاصر يهودَ أمر أصحابَه أن يقطعوا النخلَ ويحرقوه تخويفًا لليهود، واستنزالاً لهم، فلما رأوهم يفعلون هذا قالوا: يا محمد، قد كنتَ تنهى عن الفساد في الأرض، فما بالُ قطع النخيل وتحريقه؟! فخاف أصحابُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ﴾ [الطور: ٢٥]، قالوا: لِمَ لَمْ نقطعه كلّه أو نتركه كلّه، فنزلت الآية: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فلا جناح عليكم فيما قطعتم ولا فيما تركتم، وإنما أذنَ اللّهُ لكم فيما قطعتموه، ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾.

ولقد آثر رسولُ الله ﷺ المهاجرين بما أخذه من أموال بني النضير، ولم يعطِ الأنصارَ منه شيئًا، إلا رجلين أو ثلاثة، شكوا فقرًا فأعطاهم رسولُ الله ﷺ، فنزلت الآية: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فالأموال التي تؤخذ من الكفار نوعان: فَيْءٌ وغنيمةٌ، فالغنيمةُ هي ما يُؤْخذ من الكفّار من أموال بعد قتال، وقد بيّن الله حكمها في سورة الأنفال، فقال: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ...﴾ الآية [الأنفال: ٤١]. والفَيءُ هو ما يؤخذ من أموال الكفار من غير قتال، وقد بيّن اللّه حكمه فقال: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وذلك لـ﴿كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾، أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقى مأكلةً يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منها شيئًا إلى الفقراء، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ﴾ من المال، ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾. قال العلماء: هذه الآية نزلت في الفيء، ولكنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فيكون المعنى: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه يأمر بخير وإنما ينهى عن شر، ولذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لعن اللّهُ الواشماتِ والمستوشماتِ، والمتنمصّات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل، فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد في البيت يقال لها أم يعقوب، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألْعَنُ مَنْ لعنَ رسولُ الله ﷺ وفي كتاب الله تعالى، فقالت: إني لأقرأ ما بين لَوْحَيْه فما وجدتُه. قال: إن كنتِ قَرَأتيه فقد وجدتيه، أما قرأت: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾. قالت بلى: قال: فإن رسولَ الله ﷺ نهى عنه. قالت: إني لأظنّ أهلك يفعلونه. قال :اذهبي فانظري. فذهبت فلم تر من حاجتها شيئًا. فجاءت فقالت: ما رأيتُ شيئًا، قال: لو كان كذا لم تجامعنا. (أي لم تسكن معنا). متفق عليه.

﴿ وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: اتقوه في امتثال أوامره، وترك زواجره، فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

سورة الحشر (٢)

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ. وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ. أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ. لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ. لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ. كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ. لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٨- ١٤].

تفسير الآيات

يبيّن سبحانه حال المستحقين لمال الفيء فيقول: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ بغير حق إلا أنْ يقولوا ربنا الله، فخرجوا ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهم في أحرج الساعات وأصعب الأوقات ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أولئك الذين صدّقوا أقوالهم بأفعالهم، فالأقوال لا تؤخذ بعين الاعتبار إلا إذا صدّقتها الأعمال، فالأعمال شاهدةٌ بصدقِ الأقوال، فهؤلاء المهاجرون قالوا آمنا ثم صدّقوا هذا القول بخروجهم في سبيل الله ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ولذا لما ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ثم ذكر حقيقة الإيمان، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] أي: الصادقون مع الله ومع رسوله ﷺ ومع الحق، أولئك الذين صدقوا مع الله عز وجل في الإيمان به، وصدقوا مع رسول الله ﷺ في متابعته، وصدقوا مع الحق في كونهم صورةً حيةً له في واقع الحياة.

ولما وصف الله الفقراءَ المهاجرين المستحقين لمال الفيء وأثْنَى عليهم ومدحهم بالصدق، أتبع ذلك بالثناء على الأنصار فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ وهي يثرب قبل الهجرة، والمدينة بعد الهجرة، ﴿وَالإِيمَانَ﴾ معطوف على الدار، والمعنى: أنهم تبوءوا الدار بأجسادهم، وتبوّءوا الإيمان بقلوبهم، فالإيمان محلٌ لقلوبهم، كما أنّ الدارَ محلٌ لأجسادهم، وهذا تصوير عجيب جدًا لتمكن الإيمان من قلوب الأنصار رضي الله عنهم، ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبل المهاجرين الذين تبوءوا المدينة بعد الهجرة ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، والقارئُ

بقلم د. عبد العظيم بدوي

للسيرة يجد أنّ استقبالَ الأنصار لإخوانهم المهاجرين كان استقبالاً تاريخيًا لم يشهد التاريخُ مِثْلَه، فقد فتح الأنصارُ قلوبهم وصدورهم لإخوانهم قبل أن يفتحوا لهم أيديهم وبيوتهم، فلما فتحوا أيديهم وبسطوها بالعطاء، وفتحوا بيوتهم للإيواء، فتحوها عن رضًا وطواعية، حتى كان ما يأخذُه المهاجريُّ أحبّ إلى أخيه مما يتركه، كان الأنصاريّ يقول لأخيه: هذا ما لي بيني وبينك، وعندي زوجتان، انظر أيتهما أحبّ إليك فأنزل عنها لك فتتزوجها. وهذه صورة من الإيثار لو لم تقع لعدّت ضربًا من الخيال، ومع كل هذا البذل والإيثار والتضحية لما أفاء اللهُ على رسوله ﷺ من أهل القرى، وخصّ المهاجرين دون الأنصار ما كانوا ﴿يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾، بل عصمهم الله من وساوس الشيطان، فلم يجدوا في صدورهم حقدًا ولا حسدًا لإخوانهم على ما خُصوا به من العطاء، وسلامةُ الصدر من الأحقاد مرتبةٌ عالية، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. قال ابن كثير رحمه الله: هذه الدرجةُ أعلى من المرتبة المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان: ٨]، فهؤلاء يُطعمون ما يحبّون وقد لا تكون بهم حاجةٌ إليه، أما أولئك فيطعمون ما يحتاجون إليه، فيؤثرون غيرهم على أنفسهم، كما جاء في الصحيح عن أبي هريرة قال: أتى رجلٌ رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أصابني الجهدُ، فأرسل الرسولُ ﷺ إلى نسائه فلم يجدْ عندهنّ شيئًا، فقال ﷺ: «ألا رجلٌ يضيّفُ هذا الليلة رحمه الله؟» فقام رجلٌ من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله فقال لامرأته: هذا ضيفُ رسول الله ﷺ،

لا تدّخريه شيئًا، فقالت: واللّه ما عندي إلا قوتُ الصبية. قال: فإذا أراد الصِبْيةُ العَشاءَ فنوميهم وتعالي فأطفيء السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجلُ على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عَجِبَ اللّهُ - عزّ وجل- أو ضحك من فلان وفلانة». وأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. وما قصةُ عكرمة وأصحابه يوم اليرموك منكم ببعيدة، حيث عُرِضَ الماءُ على كلِّ واحدٍ منهم، فكان كلٌّ منهم يأمر بدفع الماء إلى صاحبه، وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء، فجعل الماء يدور عليهم وكلٌّ منهم يدفعه إلى صاحبه، حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشرب أحدٌ منهم، رضي اللّه عنهم وأرضاهم.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أيْ مَن سَلِمَ مِنَ الشحّ فقد أفلح وأنجح، والشحّ أكبر معوّق يعقوق الإنسان عن الخير، ولذا كان النبي ﷺ يحذر منه فيقول: «اتقوا الظلمَ فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتّقوا الشحّ فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلّوا محارمهم». وكان ﷺ يقول: «لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبدٍ مؤمنٍ أبدًا، ولا يجتمع الشح والإيمانُ في قلبِ واحدٍ أبدًا».

وهكذا وصف الله المهاجرين بالصدق، ووصف الأنصار بالإيثار، ثم وصف التابعين بحبّ من سبقوهم من المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وهكذا يربط الإيمان بين أهله سَلَفِهم وخَلَفِهم، هكذا يربط الإيمانُ بين المهاجرين والأنصار الذين جاءوا مِنْ بعدهم برباطِ الأخوّة في الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فيذكرُ المؤمنُ مَنْ سَلَفَ مِنْ إخوانه ويستغفر لهم، كما يذكر الحاضرين عنده ويستغفر لهم.

وهذه الآيات الثلاث التي تحدّثت عن هذه الطوائف الثلاث: المهاجرين، والأنصار، والتابعين، قد جمعتها آيةٌ واحدةٌ في سورة التوبة، وهي قولُه تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

ثم ذكرت الآيات موقفَ المنافقين بين إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب وهم بنو النضير، حين حاصرهم النبيُّ ﷺ، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لا تنزلوا مِنْ حصونكم فنحن معكم، ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾، فكذبهم اللّه فقال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾، ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ٣]. قال العلماء: شهادة اللّه بكذبهم إمّا لعلمه سبحانه أنهم قالوا ما قالوا بالسنتهم ولم تعزم قلوبهم على الوفاء، وإما لعلمه سبحانه أنهم عاجزون عن الوفاء، ولهذا قال تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾، وقد كان ما أخبر اللّهُ به، فلقد قعد بنو النضير ينتظرون وفاءَ المنافقين فما وجدوا منهم وفاء، ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، فاضطروا للصلح، ثم وصف الله اليهود بالجبن والخوف من المؤمنين، فقال تعالى: ﴿لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ يخشونكم ويخافونكم أكثر من خشيتهم للّهِ وخوفهم منه، فإنما هي خشية واحدة وخوف واحد، فإما أن يكون الخوفُ من الله، وإما أن يكون من غيره، فمن خاف مِن الله لم يخف مِن أحد سواه؛ لأنه يعلم أن اللّه معه، ويعلم أنه ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]، ولذا لما

كانت غزوة أُحد ورجع الرسول ﷺ والمؤمنون إلى المدينة، وعاد المشركون إلى مكة لقي أبو سفيان ركبًا من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: ولِمَ؟ قالوا: نريد الميرة. قال: فهل أنتم مبلّغون عني محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل لكم هذه غدًا زبيبًا بعكاظ إذا وافيتمونا؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنه قد أجمعنا المسير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمرّ الركبُ برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه، فقالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، فنزلت: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ. فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤]، فمن خاف من الله لم يخف من سواه، ومن لم يخف من الله خاف من كلّ ما سواه، ولذلك لما كان اليهود لا يخافون الله خافوا مما سواه، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ﴾، ومما يجب أن يُعْلَمَ أن خوفَ اليهود منّا نحن المؤمنين إنما هو بسبب خوف المؤمنين من الله، وإقامتهم لدينه، فمتى تركوا الدين انتقل الخوف إليهم، فصاروا يخافون أعداءهم، ولا يخافهم أعداؤهم ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاء جُدُرٍ﴾ وذلك لجبنهم وهلعهم، لا يقدرون على مواجهتكم ومبارزتكم، وسبحان الله، كأن هذه الآية نزلت اليوم أو الأمس، والمسلمون يرونها حقيقةً واقعةً أمامهم، يرون اليهود كيف يبنون الحصون والقلاع والبروج المشيدة، ويتحصنّون بها، ويحاربون من ورائها: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ أي: تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين وهم مختلفون غاية الاختلاف، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾.

ثم ضرب الله مثلاً لبني النضير، بما أحلّ بإخوانهم من بني قينقاع، فقال: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ أي: مَثَلُ بني النضير في نقضهم العهدَ وإجلاء الرسولِ لهم كَمَثَلِ بني قينقاع، وكان الواجبُ على بني النضير أن يعتبروا بما أصاب بني قينقاع، حيث ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الآخرة، ومثل المنافقين مع بني النضير حيث واعدوهم أن ينصروهم ثم لم يفوا، ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، وقد ذكر المفسرون ههنا قصةً هي كالمثال لهذا المثل، ونحن لا نجزم بصحتها، لكن من باب النصيحة والعبرة. قال ابن جرير رحمه الله: حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي، قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قال: كان راهب من بني إسرائيل يعبد اللَّهَ فيُحْسِنُ عبادته، وكان يُؤْتَى من كل أرضٍ فيُسئل عن الفقه، وكان عالمًا، وإنَّ ثلاثة إخوة كانت لهم أختٌ حسنةٌ من أحسن الناس، وإنهم أرادوا أن يسافروا، فكبر عليهم أن يخلفوها ضائعة، فجعلوا يأتمرون ما يفعلون بها، فقال أحدهم: أدلكم على من تتركونها عنده؟ قالوا: مَن هو؟ قال: راهب بني إسرائيل، إن ماتت قام عليها، وإن عاشت حفظها حتى ترجعوا إليه، فعمدوا إليه فقالوا: إنا نريد السفر، ولا نجد أحدًا أوثقَ في أنفسنا، ولا أحفظ لما وُلِّي منك لما جعل عندك، فإن رأيت أن نجعل أختنا عندك فإنها ضائعة شديدة الوجع، فإن ماتت فقم عليها، وإن عاشت فاحفظها حتى نرجع، فقال: أكفيكم إن شاء الله، فانطلقوا، فقام عليها فداواها حتى برأت وعاد إليها حسنُها، فاطّلع إليها فوجدها متصنّعة، فلم يزل به الشيطان يزيّن له أن يقع عليها حتى وقع عليها، فحملت، ثم ندّمه الشيطان فزين له قتلها، قال: إن لم تقتلها افتُضحت وعُرِفَ شَبَهك في الولد، فلم يكن لك معذرة، فلم يزل به حتى قتلها، فلما قدم أخوتها سألوه: ما فعلت؟ قال: ماتت فَدَفَنْتُها. قالوا: أحسنت. ثم جعلوا يروْن في المنام، ويُخْبَرون أن الراهب هو الذي قتلها، وأنها

تحت شجرة كذا وكذا، فعمدوا إلى الشجرة فوجدوها تحتها قد قُتِلَت. فعمدوا إليه فأخذوه، فقال له الشيطان: أنا زَيَّنْتُ لك الزنى وقتلها بعد الزنى، فهل لك أن أُنْجيك؟ قال: نعم. قال: أفتطيعني؟ قال: نعم. قال: فاسجدْ لي سجدةً واحدة، فسجد له ثم قُتل. فذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ الآية.

وبهذه المناسبة نذكّر المسلمين بقول النبي ﷺ: «ما خلا رجلٌ بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما». ولذا أمر الله المؤمنين إذا كانت لهم حاجةٌ عند المؤمنات، أن يسألوهن من وراء حجاب، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقال النبي ﷺ: «إيّاكم والدخولَ على النساء». فقيل: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ فقال: «الحمو الموت». والحمو هو قريبُ الزوج، كأخيه وابن أخيه، وعمه وابن عمه، ونحوهم. وأراد رسول الله ﷺ بقوله: «الحمو الموت». أن الفتنة من جهته أشدّ وأكبر، وهو إليها أقرب من الأجنبي، حيث إنه إذا دخل لا يُنكرُ عليه أحدٌ، بينما الأجنبيّ الغريب إذا دخل تطلّعت إليه الأنظار، ولاكته الألسنة، فكانت الفتنةُ إلى الحمو أقرب منها من الغريب، فالواجب على المسلمين أن يغاروا على عرضهم وشرفهم، وأن يمنعوا الرجال من الدخول على النساء.

ثم أمر اللّهُ تعالى المؤمنين بالتقوى، وحثّهم على محاسبة أنفسهم قبل يوم الحساب، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. والغدّ هو اليوم الذي يلي يومك، فما هما إلا يومان يا عبد الله: الدنيا يوم، والآخرة يوم، وغدًا ترجع إلى اللّه فتوقف بين يديه ويقررك بذنوبك، فماذا أنت قائل لربك؟

فيا إخوة الإسلام: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن تُوزن عليكم، وتجهزوا للعرض الأكبر، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨] . من علم أنه للّهِ عبدٌ، وأنه إلى الله راجعٌ، فليعلم أنه موقوفٌ (يعني بين يدي الله)، ومَنْ علم أنه موقوفٌ فليعلم أنه مسئول، ومَنْ علم أنه مسئولٌ فليعدّ للسؤال جوابًا، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣] . فهلاّ أعددت الجواب يا عبد اللّه؟ هلا أيقنت أنك قد تنام هذه الليلة فلا تبعث بعدها؟

يا عبد الله:

كم من صحيح مات من غير علّة

وكم من عليل عاش حينًا من الدهر

فإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، إذا أصبحت فقل يا نفسُ اجتهدي في طاعة الله، وإياك والمعصية، فعسى أن يكونَ اليومُ آخر أيامك، وإذا أمسيت فقل يا نفسُ: اجتهدي في طاعة الله، وإياك والمعصية، فلعلها أن تكون آخر ليلة لك، وهكذا دائمًا: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات». [صحيح. رواه الترمذي (٢٤٠٩/٣٧٨، ٣/٣٧٩)، وابن ماجه (٤٢٥٨/١٤٢٢/٢)، والنسائي (٤/٤٠)] . ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أن يعملوا لها عملاً صالحًا ينجيها من عذاب الله، ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة اللّه، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] . واعلم يا عبد الله أنه ليس في الآخرة من دار إلا الجنة أو النار، و﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ

الجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي: فإذا كان الجبل في غِلْظَتِه وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدّع من خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدّع من خشية الله وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فـ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وأخيرًا تختم السورة بذكر بعض أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، فيقول تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. فأخبر سبحانه أنه اللَّه المالوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكل إله غيره فإنه باطل، لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأنه فقيرٌ عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا. ثم وصف سبحانه نفسه بعموم العلم الشامل لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه وبعموم رحمته التي وسعت كل شيءٍ، ووصلت إلى كُل حي، ثم كرّر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك الجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجمع مماليك لله، فقراء مدبَّرون.

﴿الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ أي: المقدّس السالم من كل عيب ونقص، المعظَّم الممجد. ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ أي: المصدِّق لرسله وأنبيائه بما جاءوا به، بالآيات البينات والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كلّ شيء، وخضع له كل شيء. ﴿الْجَبَّارُ﴾ الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير. ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور. ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده. ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾ لجميع المخلوقات، ﴿الْبَارِئُ﴾ للمبروءات، ﴿الْمُصَوِّرُ﴾ للمصورات، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كلّه قد انفرد اللَّهُ به، لم يشاركه فيه مشارك. ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة جدًا، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا هو، ومع ذلك فكلها حسنى، أي صفات كمال، بل تدلّ على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها، بوجه من الوجوه، ومن حسنها أن اللَّه يحبها، ويحبّ من يحبّها، ويحبّ مِنْ عباده أن يدعوه ويسألوه بها. ومن كماله أن له الأسماء الحسنى والصفات العليا، أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يريد شيئًا إلا ويكون، ولا يكون شيئًا إلا لحكمة ومصلحة. اهـ بلفظه من «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر، رحمه الله.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الممتحنة

بقلم: د. عبدالعظيم بدوي

الطائفة الأولى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ. إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ. لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ١- ٣].

بين يدي السورة

سورة مدنية تدور حول قضية الحبّ في الله والبغض في الله، حول قضية الولاء والبراء، وهما أصلان من أصول الإسلام، ومظهران من مظاهر إخلاص المحبّة لله، ثم لأنبيائه وللمؤمنين. والبراءُ مظهر من مظاهر كراهية الباطل وأهله، وهو أصل من أصول الإيمان. استفتحت السورة الكريمة بنهي المؤمنين عن موالاة عدوّ الله وعدوهم وذكّرتْهُم ببعض مواقف هذا العدوّ منهم، ليكون ذلك عونًا لهم على ترك موالاته. ثم ذكّرتهم بأبيهم إبراهيم والذين آمنوا معه إذ تبرّأوا من قومهم لما كفروا، وللمؤمنين الأسوة الحسنة بإبراهيم والذين معه. ولما كان البراء من الكافرين ذوي القربى فيه ما فيه من المشقة على النفس فتح الله باب الأمل والرجاء أمام المؤمنين فأعلمهم أنه سبحانه قادرٌ على أن يشرح صدور هؤلاء الكفّار للإسلام وبذلك تنتهي عداوتهم ويصيرون من أهل الولاء لا من أهل البراء. وحتي يكون ذلك فلا مانع من المعاشرة بالمعروف، والصلة والبرّ، لمن ﴿لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم﴾ وأما ﴿الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم﴾ فلا يجوز لكم ﴿أن تولوهم، ومن يتولهم

فأولئك هم الظالمون﴾.

ولقد كان من شروط صلح الحديبية أن مَنْ جاء مسلمًا من الكفّار إلى المسلمين فعلى المسلمين ردّه، فاستثنى الله من هذا الشرط المؤمنات لضعفهنّ وخوف الفتنة عليهنّ بردّهن إلى الكفّار، وأمر المؤمنين أن يمتحنوهنّ ﴿فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهنّ إلي الكفار﴾ ثم أرشد الله نبيّه ﷺ إلى صفة بَيْعَةِ النساء، وأمَرَهُ إذا بايعهنّ أن يستغفرَ لهنّ اللهَ. ثم خُتمت السورة بما بُدئت به من النهى عن اتخاذ الكفار أولياء.

سبب نزول السورة

اتفق المفسرون على أن سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصةُ حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن حاطبًا هذا كان رجلا من المهاجرين، وكان من أهل بدر، وكان له بمكة أولادٌ ومالٌ، ولم يكن من قريش أنفسِهم، بل كان حليفًا لعثمان، فلما عزم رسولُ الله ﷺ على فتح مكة لما نَقَضَ أهلُها العهدَ، أمر المسلمين بالتجهيز لغزوهم، وقال: «اللهم عمّ عليهم خَبَرَنا». فَعَمِدَ حاطبٌ هذا فكتب كتابًا وبعثه مع امرأةٍ من قريش إلى أهلِ مكة، يُعْلِمهُم بما عزم عليه رسولُ الله ﷺ من غزوهم، ليتّخِذَ بذلك عندهم يدًا، فاطلع الله تعالى على ذلك رسولَه ﷺ استجابةً لدعائه؛ فبعث في إثر المرأةِ فأخذَ الكتابَ منها، وهذا هو معنى الحديث المتفق عليه عن الحسن بن محمد أنه سمع عُبَيْدَ الله بنَ أبي رافعٍ يقول: سمعت عليًا رضي الله عنه يقول: بعثني رسولُ الله ﷺ أنا والزبيرَ والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضَةَ خاخ، فإن بها ظعينةً معها كتابٌ فخذوه منها. قال: فانطلقْنا تعادي بنا خيلُنا حتى أتيْنا الروضةَ، فإذا نحن بالظعينة. فقلنا لها: أَخْرِجي الكتابَ: قالت: ما معي كتابٌ. فقلنا: لتخرجنّ الكتابَ أو لنلقينّ الثيابَ. قال: فاخرجتْه من عقاصها، فأتيْنَا به رسولَ الله ﷺ فإذا فيه: مِنْ حاطب بن أبي بلتعة إلى ناسٍ بمكة من المشركين، يخبرهم ببعض أمرِ رسول الله ﷺ. فقال رسولُ الله ﷺ: يا حاطبُ ما هذا؟ قال: يا رسول الله، لا تعجل عليّ، إنّي كنتُ امرءًا مُلصَقًا في قريش - يقول: كنت حليفًا - ولم أكن من أنفسِها، وكان مَنْ معك مِنَ المهاجرين مَنْ لهم بها قرابات يحمون أهلهم وأموالهم، فأحببتُ إذْ فاتني ذلك من النَّسَبِ فيهم أنْ أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعلْه ارتدادا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم». فقال عمر: يا رسولَ الله، دَعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: «إنه قد شهد بدرًا، وما يُدْريكَ لعلّ اللهَ اطلع على مَنْ شهد بدرًا فقال: «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». فأنزل الله السورة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوكم أولياء. تُلقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحق.. إلى قوله.. فقد ضلّ سواء السبيل﴾.

نداءٌ محبب إلى قلوب المؤمنين

وهكذا استفتح الله السورةَ بهذا النداء الحبيب ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ وهو نداء يثير المشاعر، ويحرّك العواطف، ويدعو إلى

الاستجابة لما بعده. ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ يا من رضيتم بالله ربًا، وبمحمدٍ رسولا، وبالإسلام دينًا، ﴿لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء﴾ وفي النهي بهذا الأسلوب إثارةٌ لمشاعر المؤمنين، أنّ العدو الذي ينهاكم الله عَن موالاتِه هو عدوُّ الله وعدوكم، فأنتم أولياءُ الله، واللهُ وليكم، وعدوكم عدوٌّ لله، وعدوُّ الله يجبُ أن تتخذوه عدوًا لكم: وإذا علمتم هذا فكيف ﴿تُلقون إليهم بالمودّة وقد كفروا بما جاءكم من الحق﴾ وكفرهم بما جاءكم به الرسولُ ﷺ من الحق من عند الله كافٍ لاتخاذهم عدوًا، فكيف وهم ﴿يُخْرجون الرسولَ وإياكم﴾ من دياركم وأموالكم بغير ذنبٍ إلا ﴿أن تؤمنوا بالله ربّكم﴾ فـ ﴿إن كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاءَ مرضاتي﴾ فلا تتخذوهم أولياء.

وكيف ﴿تُسرُّون إليهم بالمودّة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم﴾ فمهما أسْرَرْتُم يَعْلَمْه الله، ومهما كتمتمْ يُظْهِرْه الله، لأنه ﴿يعلم السرّ وأخفى﴾ [طه:٧]. ﴿ويعلم ما تسرون وما تعلنون. والله عليم بذات الصدور﴾ [التغابن:٤]. ﴿ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواءَ السبيل﴾. وهكذا يتوسّط هذا التهديدُ وذلك التحذيرُ يتوسّطُ تبصيرَ المؤمنين بحقيقة أعدائهم وما يُضْمِرُون لهم من الشرّ والكيد، ثم تجيء البقية:

﴿إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسطوا إليكم أيديَهم وألسنَتهم بالسوء وودُّوا لو تكفرون﴾ أي: إن يتمكنوا منكم ويقدروا عليكم تظهر عداواتُهم التي أخفوها، ويبسُطوا إليكم أيديَهم بالضربِ والقتل، وألسنتَهم بالسبِّ والشتمِ والطعن في دينكم، والأدْهى من هذا كلِّه والأشدُّ والأنكى أنهم يتمنّون أن ترجعوا بعد إيمانكم كفّارا ﴿وودّوا لو تكفرون﴾. وهذه عند المؤمن أشدّ مِنْ كلّ أذًى ومِنْ كلِّ سوءٍ يصيبُه باليد أو اللسان، فالذي يودّ له لو يخسر هذا الكنز العزيز - كنز الإيمان - ويرتدّ إلى الكفر، هو أعدى من كلّ عدوّ يؤذيه باليد واللسان! والذي يذوق حلاوة الإيمان بعد الكفر، ويهتدي بنوره بعد الضلال، ويعيش عيشةً المؤمن بتصوراته ومداركه ومشاعره، واستقامة طريقه، وطمأنينةَ قلبه، يكره العودةَ إلى الكفر، كما يكره أن يُلقى في النار أو أشدّ، فعدوّ الله هو الذي يودّ أن يرجعَه إلى جحيم الكفر وقد خرج منه إلي جنة الإيمان، وإلى فراغ الكفر الخاوي بعد عالم الإيمان المعمور، لهذا يتدرج القرآنُ في تهييج قلوب المؤمنين ضدّ أعدائه وأعدائهم حتى يصلَ إلى قمّتِه بقوله لهم ﴿وودّوا لو تكفرون﴾.

المال والبنون فتنة

قوله تعالى: ﴿لن تنفعكم أرحامُكم ولا أولادكم، يومَ القيامة يفصلُ بينكم والله بما تعملون بصير﴾ معناه: يا حاطبُ، إنّ هؤلاء الأولادَ والأقاربَ الذين خلّفتَهم بمكة، وأردتَ بكتابك الذي كتبتَه أن تَتَّخِذَ عندهم يدًا يحمى اللهُ بها أهلك وولدك، إنّ هؤلاء الأهلَ والأولادَ لنْ ينفُعوك يومَ القيامة، وأنت رجلٌ مؤمنٌ حريصٌ على ما ينفعك في الآخرة، فإذا علمتَ أنّ الأرحام والأولادَ لن يُغنُوا عنك من الله شيئًا فلا تَعُدْ لمثل ما كان منك. ﴿لن

تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم. يوم القيامة يفصل بينكم﴾. ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ [سبأ:٣٧]. ﴿وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾ [الليل:٨ - ١١]. ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ [المؤمنون:١٠١].

﴿فإذا جاءت الصاخّة. يوم يفرّ المرء من أخيه. وأمّه وأبيه. وصاحبته وبنيه. لكلّ امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ [عبس:٣٣ - ٣٧].

فلن ينفع الوالدَ الكافرَ إيمانُ ولده، ولن ينفَع الولدَ الكافر إيمانُ والده، ولن ينفعَ الزوجَ الكافرَ إيمانُ زوجته، ولن ينفَع الزوجةَ الكافرة إيمانُ زوجها، ﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى. وإبراهيم الذي وفّى. ألا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى. وأن سعيه سوف يُرى. ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ [النجم:٣٦ - ٤١]. لقد كان نوحٌ عليه السلام أولَ رسولٍ بعثه اللهُ إلى أهل الأرض. ومع ذلك لما كفر ابنُه لم يغنِ عَنْهُ من الله شيئًا، ﴿ونادى نوحٌ ابنَه وكان في معزلٍ يا بنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ [هود:٤٢:٤٣]. وكذلك لم يغنِ نوحٌ ولوطٌ عليهما السلام عن زوجتيهما من الله شيئًا لما كانتا من الكافرين. ولم ينفعْ فرعونَ إيمانُ زوجته لما كان هو من الكافرين. قال تعالى ﴿ضربَ الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأةَ لوطٍ كانتا تحت عَبْدَيْن من عبادنا صالحيْن فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا وقيل ادخلا النار مع الداخلين وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأةَ فرعونَ إذ قالتْ ربّ ابن لي عندك بيتًا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ [التحريم:١٠،١١]. حتى نبيّنا محمدٌ ﷺ سيدُ الأولين والآخرين، وخليل رب العالمين لم يُغْنِ عن أبَويه من الله شيئًا، ولذا جاءه رجلٌ فقال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «في النار». فكأن الرجل وجد في نفسه شيئًا، فلما ولّى ناداه رسول الله ﷺ فقال: «إن أبي وأباك في النار». وذات يوم كان مع أصحابه في سفر فمال عن الطريق، ثم رجع إليهم يبكي، فقالوا: ما يبكيك يا رسول الله فقال ﷺ: «استأذنتُ ربّي أن أزور قبر أمّي فأذن لي، واستأذنته أن أستغفر لها فلم يأذن لي». ولما نزل عليه ﷺ قولُ ربّه ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء:٢١٤]. قال ﷺ: «لا أغني عنك من الله شيئا. يا صفية عمة النبي لا أغني عنك من الله شيئًا، يا فاطمة بنت النبي سليني ما شِئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئًا».

﴿لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم، يومَ القيامة يفصلُ بينكم، والله بما تعملون بصير﴾ أي وسيجزيكم على أعمالكم إن خيرا فخير، وإن شرًا فشر.

وللحديث بقية إن شاء الله

القصاص في الجاهليّة والإسلام

بقلم: د. عبدالعظيم بدوي

قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء:٣٣].

إن من محاسن الإسلام أن شرع للناس ما تستقيم به حياتهم، وتتحقق به مصالحهم، يجلب النفع لهم ويدفع الضرر عنهم. وبالتأمّل والنظر يتبيّن لنا أن مصالح الناس تتكوّن من ثلاثة أمور: ضروريّة، وحاجيّة، وتحسينيّة. فأما الأمور الضرورية فهي ما تقوم عليه حياة الناس، ولابُدّ منه لاستقامة مصالحهم، وإذا فُقد اختلّ نظام حياتهم، ولم تستقم مصالحهم، وعمت فيهم الفوضى والمفاسد. وأما الأمور الحاجيّة فهي ما يحتاج إليه الناس من اليُسر والسعة، واحتمال مشاق التكليف وأعباء الحياة، وإذا فُقد لا يختل نظام حياتهم ولا تعمّهم الفوضى كما إذا فُقد الأمر الضروري، ولكن ينالهم الحرج والضيق. وأما الأمور التحسينيّة فهي ما يسمّى اليوم بالكماليّات، التي إن وُجدت كانت الحياة أزكى وأسعد وأرغد، وإن فُقدت لم تؤثر على سير الحياة واستقامتها.

ولقد شرع الإسلام لتحقيق هذه الأمور كلها أحكامًا في جميع المجالات المختلفة، وما ترك أمرًا ضروريًا ولا حاجيًا ولا تحسينيًا إلا وقد شرع له من الأحكام ما يكفل إيجادَه وتكوينَه، وما يكفل حِفظه ورواقه. وقد وُجد بالاستقراء أن الأمور الضرورية ترجع إلى خمسة أشياء، هي: الدّين، والنفس، والعقل، والعِرض، والمال. فحفظ هذه الضروريات الخمس لا بُدّ منه لاستقامة حياة الناس وتحقيق مصالحهم، حتى لا تعمّهم الفوضى، ولا ينتشر الفساد في الأرض.

فأما النفس: فقد شرع الإسلام لإيجادها الزواج للتوالد والتناسل، وبقاء النوع الإنساني على أكمل وجوه البقاء.

كما شرع لحفظها وكفالة حياتها إيجاب تناول ما يُقيمها من ضروريّ الطعام والشراب واللباس والسكن، وإيجاب القصاص والدّية والكفارة على من يعتدي عليها، وتحريم الإلقاء بها إلى التهلكة، وإيجاب دفع الضرر عنها. (انظر: أصول الفقه. لخلاف:١٩٧-٢٠٤).

من عظم حرمات الله وصان دماء عباده كان خيراً

توعد الله قاتل المؤمن بأقسى أنواع

ما ترك الإسلام أمراً ضرورياً ولا حاجياً ولا تحسينياً

ولقد شرع الإسلام لتحقيق هذه الأمور كلها أحكامًا في جميع المجالات المختلفة، وما ترك أمرًا ضروريًا ولا حاجيًا ولا تحسينيًا إلا وقد شرع له من الأحكام ما يكفل إيجادَه وتكوينَه، وما يكفل حِفظه ورواقه. وقد وُجد بالاستقراء أن الأمور الضرورية ترجع إلى خمسة أشياء، هي: الدّين، والنفس، والعقل، والعِرض، والمال. فحفظ هذه الضروريات الخمس لا بُدّ منه لاستقامة حياة الناس وتحقيق مصالحهم، حتى لا تعمّهم الفوضى، ولا ينتشر الفساد في الأرض.

فأما النفس: فقد شرع الإسلام لإيجادها الزواج للتوالد والتناسل، وبقاء النوع الإنساني على أكمل وجوه البقاء.

كما شرع لحفظها وكفالة حياتها إيجاب تناول ما يُقيمها من ضروريّ الطعام والشراب واللباس والسكن، وإيجاب القصاص والدّية والكفارة على من يعتدي عليها، وتحريم الإلقاء بها إلى التهلكة، وإيجاب دفع الضرر عنها. (انظر: أصول الفقه. لخلاف:١٩٧-٢٠٤).

وفي آية الإسراء هذه ينهي الله تعالى عن القتل فيقول: ﴿ولا تقتلوا النّفس التي حرّم الله إلا بالحق﴾ فالنفس البشريّة لها حرمتها وإن كانت كافرة، فلا تُزْهق إلا بحق: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل مُعاهَدًا لم يَرِحْ رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا (رواه البخاري:٣١٦٦) والمراد بالمعاهد الكافر الذّميّ، الذي له ذِمّة الله ورسوله، وعاهده المسلمون على الأمن والسلام. وإذا كانت هذه حُرمة المعاهَد فالمؤمن أشدّ حُرمة: عن نافع قال: نظر ابن عمر يومًا إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حُرمتك، والمؤمن أعظم حُرمةً عند الله منك» (ص. ت:٢٠٣٢) فالواجب تعظيم هذه الحرمات، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [الحج:٣٠]، والواجب صيانة النفس البشرية وحفظها من الهلاك، فإن القتل بغير حقٍّ من أصول المحرمات كما قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١].

وعظم سبحانه وتعالى شان القتل فقال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢].

وتوعّد قاتل المؤمن باقسى أنواع العقوبات وأشدّ ألوان العذاب، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

فمن عظم حرمات الله وصان دماء عباده كان خيرًا له، ومن تجرأ فقتل متعمّدا بلا حقٍّ فهو ظالم، والمقتول مظلوم، والله تعالى يقول: ﴿ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليّه سلطانا﴾ أي حجّة وبرهانًا في تسلّطه على القاتل ومطالبته بحقه، إمّا بالقتل، وإما بالعفو على الدّية، وإما بالعفو مجّانا: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٨]، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من قُتل له قتيل فهو بخير النظريْن: إما أن يُودى وإما أن يُقاد» (متفق عليه) والعفو مجانا أفضل، لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا

لـه، ومن تجـرأ فقتل متعمـداً بلا حـق فهو ظالم

العقوبـات وأشـد ألـوان الـعذاب !!

إلا وشـرع لـه ما يكـفل حفظـه !!

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة:٢٣٧]، ولقول النبي ﷺ: «وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا» (ص.ج:٢/٣٥)، وهذه الخيارات كلها لوليّ المقتول يطالب الحاكم بما شاء منها، وعلى الحاكم أن يمكّنه من أيّها شاء، ولا يجوز لوليّ المقتول أن يقتصّ بنفسه ويثأر لمقتوله دون الرجوع للحاكم، قال القرطبيّ - رحمه الله -: «لا خلاف أن القصاص في القتل لا يقيمه إلا أولوا الأمر، فرضٌ عليهم النهوض بالقصاص وإقامة الحدود، وغير ذلك، لأن الله سبحانه طالب جميع المؤمنين بالقصاص، ثم لا يتهيأ للمؤمنين جميعا أن يجتمعوا على القصاص، فاقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامة القصاص وغيره من الحدود» (الجامع لأحكام القرآن:٢٤٥ و٢٤٦ /٢) فإن لجأ وليّ المقتول إلى السلطان وطالب بالقصاص فقام السلطان بنصره وتمكينه من استيفاء حقه حُقنت الدماء، وحُفظت الأرواح، وتحقق الأمن، واستقرّت الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة:١٧٩] «حياة بكفّ يد الذين يهمّون بالاعتداء على الأنفس والقصاص ينتظرهم، فيردعهم قبل الإقدام على الفعلة النكراء. وحياة بكف يد أصحاب الدم أن تثور نفوسهم فيثأروا ولا يقفوا عند القاتل، بل يمضوا في الثأر، ويتبادلوا القتل فلا يقف هذا الفريق وذاك حتى تسيل دماء ودماء. وحياة يأمن كل فرد على نفسه ويطمئن إلى عدالة القصاص، فينطلق آمنا يعمل ويُنتج فإذا الأمة كلها في حياة».

وإن لم يلجأ وليّ المقتول إلى السلطان، أو لجأ إليه فلم ينصره كما أمر الله، كان الإسراف في القتل الذي نهى الله عنه بقوله ﴿فلا يُسرف في القتل إنه كان منصورا﴾ والإسراف في القتل له صور كثيرة:

منها: أن يقول أولياء المقتول: الصغيرُ منّا بالكبير منهم.

ومنها: أن يقولوا: الواحدُ منا بعشرة منهم.

ومنها: أن يتركوا القاتل ويقتلوا من أمكنهم قتله.

ومنها: أن يقتلوا القاتل ويمثّلوا به. كذلك كانت العرب تفعل في الجاهلية، فجاء الإسلام فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة:١٧٨].

«فحيث ثبت أن القتل عمدٌ وعدوانٌ، وجب على الحاكم الشرعي أن يمكّن وليّ المقتول من القاتل، فيفعل فيه الحاكم ما يختاره الوليّ من: القتل، أو العفو، أو الدّية، ولا يجوز للوليّ التسلط علي القاتل من غير إذن الحاكم، لأن فيه فسادًا وتخريبًا» (فقه السنة: ٢/٤٥٣) وإذا تقرّر القصاص فهدأت سورة الغضب في نفس وليّ المقتول فبدا له أن يعفو على الدّية فعفا وتصالحوا على ذلك فعليه أن يطالب القاتل بالدّية بالمعروف، وعلى القاتل أن يؤدّيها بإحسان، كما قال تعالى: ﴿فمن عُفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداءٌ إليه بإحسان﴾ ثم الوفاء حتمٌ لازم، وفرضٌ واجب ﴿فمن اعتدى بعد ذلك﴾ الصلح ﴿فله عذاب أليم﴾ «في الآخرة، ويتعيّن قتله، ولا تقبل منه الدّية، لأن الاعتداء بعد التراضي والقبول نكثٌ للعهد، وإهدارٌ للتراضي، وإثارة للشحناء بعد صفاء القلوب. ومتى قبلَ وليُّ الدم الدّية فلا يجوز له أن يعود فينتقم ويعتدي» ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [المائدة:٩٥].

نسأل اللهَ العظيم ربّ العرش العظيم أن يؤلف بين قلوبنا ويصلح ذات بيننا، ويهدينا سبل السلام

سورة الممتحنة

الحلقة الثانية

بقلم: د. عبدالعظيم بدوي

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ. عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ. لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الممتحنة ٤-١٠).

تفسير الآيات

بعد أن انتهينا في عدد سابق من تفسير الآيات الثلاث من أول السورة، نقول: إن الله تعالى أمر المؤمنين بالتأسي بأبيهم إبراهيم وإخوانهم المؤمنين معه، في تبرئهم من الكفار فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ أي قالوا لهم: كفرنا بدينكم وطريقكم، وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم فنحن أبدًا نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ وتتركوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد.

ولما أمر الله المؤمنين بالتأسي بإبراهيم والذين معه استثنى من ذلك استغفار إبراهيم لأبيه، فقال: ﴿إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وإنما نهاهم عن التأسي به في ذلك لأنه ﴿مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾

لتوبة:١١٣،١١٤]. فلا يستغفرنّ مسلمٌ لمشرك
حتجًا باستغفار إبراهيم لأبيه، ولذا قال
الى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ
سْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ
دِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ. وَمَا
انَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ
عَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ
إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٣،١١٤]. ثم
خبر تعالى عن إبراهيم والذين معه أنهم لما
رءوا من قومهم توجّهوا إلى الله بالدعاء
الوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ
صِيرُ﴾ يقولون: ربّنا عليك توكلنا في جميع
والنا، وأسْلَمْنا إليك
ورنا، وفوّضْناها إليك،
ليك أنَبْنا أيْ رجعنا، وإليك
صير، وإليك المنتهى.
بَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ
فَرُوا﴾ أي لا تمكنهم منّا
فتنونا عن ديننا، ويردّونا
ى أعقابنا، ولا تَنْصُرْهُم
ينا فَيُفْتَنُون هم، حيث
ولون: لو كانوا على الحقّ
ا نَصَرنا اللهُ عليهم.
اغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ ما بَيْنَنا وبَيْنَك ﴿وَلَا تُخْزِنَا
الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٩٤]. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ
زِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أنت العزيز القاهر فوق
اده، ﴿الحكيم﴾ في تصرفاته وأفعاله،
رعه وقدره.

ومرة ثانية تقرر الآيات الأسوة في إبراهيم
ين معه، فيقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ
وَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ كما
ال تعالى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ
نَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ. وَقَالَ
سَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا

فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٧،٨].

ولما كان من الصعب على النفس هجرُ الأهل والإخوان فتح الله باب الأمل أمام المؤمنين الذين أمرهم بعداوة الكافرين فقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً﴾ وذلك بدخولهم في الإسلام، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠]. ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربّهم. وأسلموا له، وهو سبحانه رحيم بكل من تاب إليه من أيّ ذنب كان. ونحن نُشْهد الله أنّا تُبْنا إليه، ونرجوه سبحانه أن يَغْفِرَ لنا ويرحمنا، إنه هو الغفور الرحيم.

نهى الله تعالى عن موالاة الكفار ولو كانوا أولي قربى لكنه لم ينه عن البر والقسط في معاملتهم

لما نهى الله تعالى المؤمنين عن موالاة الكافرين، تحرَّجوا من هذا النهى، وظنّوا أنه يدخل فيه النهى عن البِرّ والصلة وحسن المعاشرة، حتى أن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنها جاءتْها أمُّها فرفَضَتْ أن تدخلها بيتها حتى جاءتْ رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسولَ الله، إنّ أمّي قَدِمتْ وهي راغبةٌ، أفأصِلُها؟ قال: «نعم صِلي أمّك». ولو كانت كافرةً، ولو كانت مشركةً وفي ذلك يقولُ ربّنا سبحانه: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

فجعل الله سبحانه الكفار قسمين: مسالمين ومحاربين، فالمسالمون الذين ﴿لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ قد أحسنوا بهذا، وتكون معاملتهم بالرِّفْق واللِّين، رجاءَ إسلامهم، أوْ على الأقل رجاءَ أن يكفُّوا أيديَهم ويستمروا على عدم إيذاء المؤمنين. فالإسلام لا يعادي الناس، إنما يريدُ أن يُفْسحَ المجال ويفتح الطريق أمام من يريدُ الدخول فيه، وما دام الكفّار لا يقفون في وجه الإسلام. ويفسحون له الطريق ليصل إلى الناس، فلا مانع من برّهم والإحسان إليهم. شريطة أن لا يفقدَ المسلمُ غَيْرَتَه على دينه، فيجد في قلبه مودةً لهؤلاء الكفار، فالمودةُ شيءٌ، وحُسْنُ المعاملة شيءٌ آخر، فالله الذي أذن لنا في برّ مسالمي الكفار؛ هو الذي نهانا عن موالاة الجميع في مطلع السورة حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وأما حسن المعاملة، وأما البِرّ والصلة فـ ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ --ولهذا قال النبي ﷺ لأسماء: «صِلي أمّك». وأمر الله الولدَ المسلمَ بمصاحبة الوالدين المشركيْن بالمعروف، ولو كانا حريصيْن على شِرْكه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥]. ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ﴾ برّ ﴿الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ﴾ كما ينهاكم ﴿أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ والظلم ظلمان: ظلم هو كفر وشرك، كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]. وقال تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وظلم هو معصية لا يخرج من الملة، كما قال: الأبوان لما أكلا من الشجرة التي نهاهما عنها ربّهما ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]، فعلى حسب الولاية يكون الظلم، فقد يكون كفرًا، وقد يكون معصية.

الإسلام لا يعادي الناس، إنما يريد أن يفسح الطريق أمام من يري الدخول فيه !!

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ هذا استثناءٌ من الله تعالى مما كان أعطاه الرسول ﷺ المشركين في صلح الحديبية، وهو أنّ مَنْ جاء منهم إلى النبيّ ﷺ ردّه عليهم، فاستثنى اللهُ مِنْ هذا الشرط النساءَ لضعفهنّ، ولما يُخْشَى عليهنّ من الفتنة بردّهن، فكانت أمُّ كلثوم بنتُ عقبةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ ممن خرجَ إلى رسول الله ﷺ يومئذٍ لما نزل فيهنّ ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان النبي ﷺ يَسْتَحْلِفُ المهاجرة: باللهِ ما خَرجت كراهية في زوجك؟ باللهِ ما خرجت رغبة في رجلٍ من المسلمين؟ باللهِ ما خرجتِ كراهيةً من أرض وحبًا في أرض؟ باللهِ ما خرجتِ إلا حُبًا لله ورسوله؟ فإذا حلفت قُبِلَتْ وقُبِلَ إيمانها. قال العلماء: وإنما أمرنا الله بامتحان النساء دون

الرجال لأنّ الإسلام يكلّفُ الرجال بالجهاد والتضحية، فمن هاجر وهو عالم بما سيتحمله من المشاقّ بسبب إسلامه، فذاك أكبرُ دليل على صدقه، أما المرأةُ فلا تكلّفُ ما يتكلّفه الرجال، فربّما هاجرت كراهيةً لزوج وطمعًا في آخر، ولذلك روى أنه كانت المرأةُ إذا أغْضَبَها زوجُها تهدّده بالهجرة فتقول واللّهِ لأهاجرنّ إلى محمد فلذا أمر اللهُ تعالى المؤمنين بامتحان من جاءهم من النساء، فقال: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ وقد سبق ذِكْرَ ابنِ عبّاس لصفة الامتحان، ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ والإيمان محلّه القلوب، ولا يطلع على القلوب إلا علامُ الغيوب، ففي هذه الآية إرشادٌ إلى قبول الظاهر بعد بذل الجهد في الوصول إلى صدق الظاهر، حتي يكون موافقًا للباطن، ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ حسب ظنّكم، وإلا فانتم لا تستطيعون العلمَ الحقيقي، ولذا قدّم تعالى ذكر علمه على ذِكْرِ علم المؤمنين، فقال تعالى ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فإذا أسلمت المرأةُ حُرِّمَت على المشرك، فلا يجوزُ لمشركٍ أن ينكح مسلمةً، لأن الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه، وإذا تزوّج المشركُ مسلمةً فقد علاها بسلطانه وهيمنته، وهذا لا يجوز ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء:١٤١].

إذا أسلمت المرأة حرمت على المشرك لأنه يعلوها بسلطانه وهيمنته، والإسلام يعلو ولا يُعلى عليه!!

﴿وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ وهذا من سماحة الإسلام وعَدْله وإنصافه لغير أهله، فإذا أسلمتِ المشركةُ ذاتُ الزوج وهاجرتْ إلى المسلمين، فقد أضرّتْ بزوجها، من جهة أنّ الفراق كان بسببها، فعلى المسلمين تعويضُ هذا الزوج عمّا لحقه من ضرر الفراق، وذلك بردِّ ما أمهرها عليه، ومَن رغب في نكاح المهاجرة من المسلمين فـ ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ بشرط ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ والمراد الصداق، مع مراعاة بقيّة شروط النكاح. ولما حرّم الله المسلماتِ على المشركين، حرّم المشركاتِ على المؤمنين فقال: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ والكوافر منهن الكتابيات وغير الكتابيات لكن الله أحلّ الكتابيات في قوله: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ [المائدة:٥]. فبان أن المراد بالكوافر هنا المشركات من غير أهل الكتاب، وقد صرّح ربّنا بذلك في قوله ﴿وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة:٢٢١]. ﴿واسألوا﴾ المشركين ﴿ما انفقتم﴾ على زوجاتكم المشركات إذا فارقتموهنّ لإصرارهنّ على الشرك، ﴿وليسألوا﴾ كم ﴿ما انفقوا﴾ على زوجاتهم المؤمنات المهاجرات. ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أي في الصلح واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كلّه هو

سورة الممتحنة

الحلقة الأخيرة

بقلم
د. عبد العظيم بدوي

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة].

انتهينا في العدد الماضي - عدد شعبان - من الحديث عن حكم الله تعالى الذي ينهى فيه المسلمين عن الزواج بزوجة كافرة والإمساك بها، وأن الله تعالى هو العليم بما يصلح عباده، حكيم في ذلك، واليوم نكلم إن شاء الله.

تفسير الآيات

قال تعالى: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾.

عن الزهري قال: أقرّ المؤمنون بحكم الله فأدّوا ما أُمِرُوا به من نفقات المشركين التي أنفقوها على نسائهم، وأبَى المشركون أنْ يُقِرّوا بحكم الله فيما فَرَض عليهم من أداء نفقات المسلمين فقال الله تعالى للمؤمنين به ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ.. --. الآية، فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأةٌ من أزواج المؤمنين إلى المشركين ردّ المؤمنون إلى زوجها النفقةَ التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم، الذي أمروا أن يردّوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمنّ وهاجرن، ثم ردّوا إلى المشركين فضلا إن كان بقي لهم، والعقب: ما كان بأيدي المؤمنين من صداق نساء الكفار حين آمنّ وهاجرن. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه فسّر العقب بالغنيمة (فعاقبتم) أي غنمتم وعلي القولين يكون المعنى: أن يعطي المؤمنون مَنْ فرّت زوجتُه من المؤمنين إلى أهل الكفر ما أنفق عليها، إذا كانت لهم على أهل الكفر عُقْبَى، إما بغنيمة يُصيبُونها منهم، أو بلحاق نساء بعضهم بالمؤمنين.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أي خافوا الله الذي صدّقتم به، فاتقوه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه.

وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقد كان رسول الله ﷺ يتعاهد النساء بهذه البيعة يومَ العيد، كما في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: شهدتُ الصلاةَ يومَ الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمرَ وعثمانَ رضي الله عنهم، فكلهم يُصلّيها قبلَ الخطبة ثم يخطب بعدُ، فنزل نبيّ الله ﷺ، فكأني أنظر إليه حين يُجَلّس

الرجالَ بيده، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساءَ مع بلال، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا...﴾ حتى فرغ من الآية كلها، ثم قال حين فرغ: أنْتُنَّ على ذلك؟ قالت امرأةٌ واحدةٌ لم يُجِبْه غيرُها: نعم يا رسول الله». وإنما خُصَّتِ البيعةُ بهذه الأمور لأنها أعظم الموبقات، فمن اجتنبها فقد فاز ونجا، ومن اقترف منها شيئًا فقد خاب وخسر، إلا أن يتوب فيتوب الله عليه.

وأوّل هذه الأمور: الشرك بالله، فإنه من محبطات الأعمال، كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥]. وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم:١٨]. فاللهَ اللهَ عبادَ الله، إياكم والشرك فـ ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]. وعليكم بالتوحيد فإنه «من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة» (مسلم:٩٢). عاجلا أو آجلا، فإنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان». . . ويقول في الحديث القدسي: «يا ابن آدم لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقُرابها مغفرة» (الترمذي:٣٦٠٨).

والأمر الثاني: السرقة، وهي من كبائر الذنوب، قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨]. وهي أكلُ لأموال الناس بالباطل، والله عز وجل يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا. وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:٢٩،٣٠].

ولا يجوز لامرأة أن تأخذ من مال زوجها شيئًا إلا بإذنه، إلا أن يكون ضنينا بما لها عليه من النفقة الواجبة، فإنه يجوز لها أن تأخذ من ماله ما يكفيها بالمعروف، غير مسرفة ولا مفسدة، كما في الحديث عن هند بنت عتبة أنها قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيانَ رجلٌ شحيح، لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيّ، فهل عليّ جناح إنْ أخذتُ من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خُذِي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك».

الأمر الثالث: الزنا، وهو حرام، حرّمه الله ورسولُه، فهو حرام إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٣٢]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا. يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا. إِلاَّ مَنْ تَابَ...﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠]. وفي حديث الرؤيا الطويل قال ﷺ: «فانطلقنا فأتينا على مثل التنور» قال الراوي: وأحسب أنه كان يقول: «فإذا فيه لَغَطٌ وأصوات. قال: فاطّلعنا فيه فإذا فيه رجالٌ ونساءٌ عراةٌ، وإذا هم يأتيهم لهبٌ من أسْفَلَ منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهبُ ضَوضوا. قال: قلتُ لهما ما هؤلاء؟ قال :قالا لي: انطلق، انطلق». ثم فسّرا له ما رأى فقالا: «وأما الرجالُ والنساءُ العراةُ الذين في مثل بناء التنّور فهم الزناة والزواني» فعلى المسلمين والمسلمات أن يحفظوا فروجهم، فإن الله تعالى قال: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

وقال ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها ادخلي الجنة من أي أبوابها شئت». وقال ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه ورجليه أضمن له الجنة».

الأمر الرابع: قتل الأولاد، وهو يشمل قتلهم بعد وجودهم، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويشمل قتل الأجنة في البطون، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء من غير عذر، بل لغرض فاسد، كأن تطلق وهي حامل فتريد أن تتخلّص من هذا الحمل الذي قد يَرْبُطها بمطلّقها بشيء من العلاقة، أو أن تكون تتعاطى مانعًا من موانع الحمل فتحمل وهي تتعاطاه رغم أنفها، فيزعجها ذلك، فتبادر إلى طرحِه، فهذا كله من قتل الأولاد الذي نهى الله عنه.

الأمر الخامس: أن لا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهن وأرجلهنّ، وفسّره العلماء بولد الزنا، أي: تزني ذاتُ الزوج فتحمل، فينسب الولد إلى زوجها وليس منه، أو تَلْتَقِطُ المرأةُ لقيطًا وتقول لزوجها هذا ولدي منك.

الأمر السادس: أن لا يعصين رسولَ الله ﷺ في معروف، بل يُطِعْنَه في كل ما أمر به ونهى عنه، وهو ﷺ لا يأمر إلا بالمعروف، ولكن أراد الله أن يعلم عباده أنه لا طاعة لأحدٍ في معصية الله مهما كان.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يبايع النساء، عن عائشة رضي الله عنها: أن رسولَ الله ﷺ كان يمتحن مَن هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ: «قد بايعتك» كلامًا، ولا والله ما مست يدُه يد امرأة في المبايعة قط، ما يبايعهن إلا بقوله: «قد بايعتُك على ذلك». وعن أميمة بنتِ رقيقة قالت: أتيتُ رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن أن لا نشرك بالله شيئًا الآية. وقال: «فيما استطعتن وأطقتن». قلنا: الله ورسوله أرحمُ بنا من أنفسنا، قلنا يا رسول الله ألا تصافحنا؟ قال: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لامرأةٍ واحدةٍ قولي لمائة امرأة». فصحّ عنه صلى الله عليه وسلم قولا وفعلا أنه لا يصافح النساء، ولنا فيه الأسوةُ الحسنة، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١]. ثم إنه ﷺ بيّن عقوبة المصافحة فقال: «لأن يُطْعَنَ في رأس الرّجل بمخيطٍ من حديد خيرٌ له من أن يمسّ امرأةً لا تحلّ له». بل هناك ما هو أشدّ من ذلك، وهو أن المصافحة من زنا اليديْن، كما قال ﷺ: «كُتِبَ على ابن آدم نصيبُه من الزنا مدركٌ ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجل زناها الخُطَى، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدّق ذلك الفرج ويكذّبه».

فإياك يا مسلم ومصافحة النساء، احذر أن تصافح امرأةً أجنبية، فقد عرفتَ ما فيه من الوعيد، واعلم أن المراد بالأجنبية كل امرأة لا تحرم عليك أبدا، فبنات عمّك وبنات عماتك، وبنات خالك وبنات خالاتك، وزوجة أخيك وأخت زوجتك، ونحو هؤلاء من النساء، لا تجوز مصافحتهنّ، لأنهنّ حلال لك.

ثم ختم الله السورة بما بدأها به من النهي عن موالاة الكافرين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ من اليهود والنصارى، وسائر الكفار، وإن كان الغضب أخصّ باليهود، إلا أن كلّ كافر ملعون مطرودٌ من رحمة الله، وقوله تعالى: ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾. فيه قولان: أحدهما: كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك، لأنهم لا يعتقدون بعثًا ولا نشورًا، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه. والقول الثاني: معناه: كما يئس الكفار الذين هم في القبور من كلّ خير.

والله تعالى أعلم بمراده.

●● باب التفسير ●●

سورة الصف

الحلقة الأولى

بقلم: د. عبد العظيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلاَمِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ١- ٧].

بين يدي السورة

سورة مدنية، شأنها شأن السور المدنية في الاهتمام بجانب التشريع والأحكام، وقد تحدثت هذه السورةُ الكريمةُ عن القتال في سبيل الله، وبيّنتْ أنه أحبّ الأعمال إلى الله، وأنكرتْ على الذين يقولون ما لا يفعلون، وذكرت موقفَ بني إسرائيل من أنبيائهم، وخصّتْ بالذكر موسى وعيسى ابن مريم عليهم السلام، كما ضربت المثلَ لأعداء الله في محاولتهم القضاءَ على دين الله، بالذي يريدُ أن يُطْفئَ نورَ الشمس بفيه، وما هو بمطفئه، وكذلك أعداء الله ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، ثم أرشد الله سبحانه عباده المؤمنين إلى نوعٍ من التجارة خاص، ربْحُهُ النجاة من النار، وبضاعتُه ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾. وختمت السورة بأمر المؤمنين أن يـ ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

تفسير الآيات

قد سبق الكلام على تسبيح ما في السماوات والأرض بحمد الله، كما سبق بيان معنى كونه سبحانه العزيز

الحكيم، أما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾، فقد جاء في سبب نزولها عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفرٌ من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرْنا فقلنا: لو نعلم أيّ الأعمال أحبّ إلى الله تعالى لعملناها، فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ حتى ختمها، فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها. [صحيح. رواه الترمذي (٥/٨٥/٣٣٦٣)].

لقد كان المؤمنون في مكّة قلّةً مستضعفةً، وكان المشركون لا يألون جهدًا في إيذائهم، وكانت هذه القلة المستضعفةُ تريد القتال للدفاع عن نفسها، إلا أنه لم يُؤْذَنْ لها، لأنها ما زالت ضعيفةً غيرَ قادرةٍ على مواجهة العدوّ، وتحمّل أعباء القتال، وأُمرتْ هذه القلةُ بإعداد أنفسها الإعدادَ الإيمانيّ بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولكنها كَفّتْ عن القتال على مضض، وظلّت تتطلع إلى القتال، حتى بعد الهجرة سألوا: أيّ الأعمال أحبّ إلى الله، فأخبرهم الله أن القتال في سبيله أحبّ الأعمال إليه، ثم قال لهم بعد ذلك: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾، فثقل عليهم الأمر، ونكل عنه بعضهم، فعاتبهم الله تعالى في موضعين، هنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾، وفي سورة النساء قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧]. ولكن إذا كانت الآياتُ الأولى من السورة نزلت عتابًا للمؤمنين على قولهم ما لا يفعلون في أمرٍ ما، إلا أنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي إذن عتابٌ ولومٌ لكلّ من خالف قولُه فِعْلَه، فالواجب على المؤمن أن يوافق ظاهرُه باطنَه، وسرُّه علانيته، وأن توافق أقوالُه أفعالَه، أما أن يقول ولا يفعل، فذلك أمر ممقوت ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾، وقد أنكر الله على هؤلاء في موضع آخر فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «يُؤْتَى بالرجل يومَ القيامة فيُلْقَى في النّار فتندلقُ أقتابُ بطنِه فيدورُ حولَها كما يدور الحمارُ في الرحى، فيأتيه الناسُ فيقولون: يا فلان، ما لك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه». [متفق عليه].

ويدخل في هذا الوعيد الرجل الذي ينقض عهده، ولا يفي بوعده، قال ﷺ: «أربعٌ من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». [متفق عليه].

وعن عبد الله بن عامر قال: أتانا رسولُ الله ﷺ وأنا صبيّ، فذهَبتُ لأخرجَ لألْعَبَ، فقالت أُمي: يا عبد الله تعالَ أُعْطِكَ، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «وما أردتِ أن تعطيه؟» قالت: أردتُ أنْ أُعطيَه تمرًا. فقال: «أما إنّك لو لم تفعلي كُتِبَتْ عليك كذبة». [حسن. رواه أبو داود (١٣/٣٣٥/٤٩٧٠)].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ اختلف أهل التأويل في المراد من قوله تعالى: ﴿صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ هل المراد أن يقوم المقاتلون صفًا واحدًا متمكاسًا تماسك اللبنات في البنيان؟ أم ذلك كنايةٌ عن اجتماعهم وتآلفهم؟ فقالوا: إن صور القتال تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، فإذا كان القيام صفًا واحدًا صالحًا للقتال فهو المطلوب، وهذا هو الذي فعله النبي ﷺ يوم بدر، صفّهم صفًا واحدًا، وسوّاهم

كما كان يسوّيهم للصلاة، وأما إذا دعت طبيعةُ القتال إلى التفرق وانقسام المقاتلين إلى مجموعات فهذا أَوْلَى، ويكون المراد أنّهم في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كالبنيان المرصوص، وإن انقسموا مجموعات.

ثم ذكر الله تعالى موقف بني إسرائيل من أنبيائهم، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ تقدير الكلام: واذكرْ يا نبينا إذ قال موسى لقومه، لتعلم أنه ﴿قَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤]، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ [يس: ١٩]، ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦]، وهل هناك إحسانٌ بعد إحسان الله أفضلُ وأعظمُ من إحسان الأنبياء لأممهم؟ إنّ الأنبياءَ بهم أخرج اللهُ الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الغيّ إلى الرشاد، فالواجب ألا يكذبوا وألا يُؤْذَوا، بل يقابَلُوا بالتصديق والاتباع والإحسان والشكر والعرفان، ولكنّ بني إسرائيل لم يقدّروا أنبياءهم حق قدرهم، فكذبوا فريقًا، وفريقًا قتلوا. وممن كذّبوا وآذوا موسى عليه السلام، وإيذاءُ بني إسرائيل لموسى إيذاءٌ متطاول متعدّد الألوان، وقد ذكر القرآن الكريم في قصص بني إسرائيل صورًا شتى من ذلك الإيذاء، ومن ذلك الإيذاء ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ موسى كان رجلاً حييًا ستّيرًا، لا يُرى من جلده شيءٌ استحياءً منه، فآذاه مَنْ آذاه مِن بني إسرائيل، فقالوا: ما يستترُ هذا التسترُّ إلا من عَيْب بجلده: إمّا برصٌ، وإما أدرة، وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا، فخلا يومًا وحده، فوضع ثيابه على الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها، وإنّ الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه عريانًا أحسن ما خَلَق اللهُ وأبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربًا بعصاه، فوالله إنّ بالحجر لَنُدَبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا».

ولقد استفاد النبي ﷺ من ذكر الله له نبأ موسى وإيذاءَ بني إسرائيل، فكان ﷺ إذا أوذي يقول: «يرحم الله موسى، قد أُوذي بأكثر من هذا فصبر». [متفق عليه].

ولقد نهى الله تعالى المؤمنين أن يؤذوا رسول الله ﷺ كما آذت بنو إسرائيل موسى، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

ولقد بذل موسى عليه السلام جهدًا كبيرًا في هداية بني إسرائيل وتقويم اعوجاجهم، وكانت النهاية أنهم زاغوا بعدما بُذلت لهم كلّ أسباب الاستقامة، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وإنما عاقبهم الله على زيغهم فأزاغ قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، والمقصود أن الهداية أنواع، وأهمها هداية البيان والإرشاد، وهداية التوفيق، فأما الأولى فهي إلى الأنبياء وأتباعهم من المصلحين، وأما الثانية فهي إلى الله وحده، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فهذه هداية البيان والإرشاد، وهي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ

يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، وهذه هداية التوفيق إلى صراط الله المستقيم، وهذه الهداية الثانية مترتبة على قبول الهداية الأولى، فمن أجاب المرسلين واتبع سبيلهم هداه الله إلى صراط مستقيم: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى عن قوم موسى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ أي عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ فصرح هنا أنه رسول الله، كما صرح عند ولادته أنه عبد الله، ولم يقل قط: إنه الله، ولا إنه ابن الله، ولا إنه أقنوم من أقانيم الله، وقوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ التي جاء بها موسى، ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، وأحمد كمحمد من أسماء النبي ﷺ، قال ﷺ: «إن لي خمسة أسماءً: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». [متفق عليه].

وليس عيسى وحده هو الذي بشّر بمحمدٍ ﷺ، وإنما الأنبياء جميعًا قد بشّروا به ﷺ، وأخذ الله عليهم العهد إذا بُعث وهم أحياء أن يؤمنوا به ويتّبعوه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، وقد أخبرنا الله سبحانه أن أهل الكتاب يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم، وذلك من كثرة نعوته ﷺ في الكتب التي بأيديهم، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧]، بل إن أمة محمد معروفة أيضًا عند أهل الكتاب لما نعتها اللهُ به في التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

ولهذا كله هاجر نفرٌ من علماء بني إسرائيل إلى يثرب قبل بعثة النبي ﷺ، انتظارًا لبعثته، وكانوا إذا حدث بينهم وبين الأوس والخزرج شيءٌ يستفتحون عليهم برسول الله ﷺ يقولون: إنه سيُبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩] لأنهم كانوا يرجون أن يكون من بني إسرائيل، فلما كان من بني إسماعيل كفروا به ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ٩٠]، و﴿بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٩٠]، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي: أحمد المبشّر به ﴿بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٧]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلاَمِ﴾ أي: لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله، ويجعل له أندادًا وشركاء، وهو يُدْعى إلى التوحيد والإخلاص، ومثل هذا لا يهديه الله أبدًا ؛ لأن ﴿اللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

●● باب التفسير ●●

سورة الصف

الحلقة الأخيرة

بقلم: د. عبد العظيم بدوي

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾[الصف: ٨- ١٤].

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني: الذين قالوا لمحمد ﷺ لما جاءهم بالبينات هذا سحرٌ مبين، ومَثَلُهم في ذلك كَمثل الطفل حين ينفخ في هذا المصباح الكهربائي ليطفئه، وكما أن هذا مستحيل، كذلك الذي يريدونه مستحيل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. قال ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإن أُمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها».[صحيح، رواه مسلم (٢٨٨٩/٤/٢٢١٥)].

وقال ﷺ: «ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليلُ والنهارُ، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزّ عزيز، أو بذل ذليل، عزًا يعزّ الله به الإسلامَ، وذلاً يذلّ به الكفر».[أخرجه أحمد (٤/١٠٣)، والطبراني (١/١٢٦/١)، والحاكم (١/١٦٦)، وانظر «تحذير الساجد» للألباني (١٧٣)].

وإنا لموقنون بوعد الله ورسوله، وعسى أن يكون قريبًا، ﴿يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٤- ٦].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهكذا يبدأ النداء بهذا الاسم، اسم الإيمان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يليه الاستفهام المشوّق: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ومن ذا الذي لا يشتاق لأن يدلّه الله على هذه التجارة؟ وهل يسعى المسلم ويكدح إلا لينجو من العذاب الأليم؟ وهل هناك غايةً يسعى إليها المسلم إلا النجاة من العذاب الأليم؟ إن هذه هي التي يدندن الجميع حولها، وبعد السؤال يأتي الجواب: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهم مؤمنون، وكأني بهم قد أشرقت قلوبهم وهم يسمعون هذا الشرط ويعلمون أنه متحقق فيهم، فهم يلقون السمع لما بعده فيقول لهم ربّهم: ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾، فليس المراد مطلق الجهاد، ولكن المراد الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، لا حميةً ولا عصبيةً، ولا رياءً ولا سمعةً، ولا لأي هدف، بل لتكون كلمةُ الله هي العليا، كما قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».[متفق عليه]. والجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الإسلام، كما قال ﷺ: «رأسُ الأمر الإسلام، وعمودُه الصلاة، وذروةُ سنامه الجهاد».[صحيح. رواه الترمذي (٤/١٢٤/٢٧٤٩)، وابن ماجه (٢/١٣٣٤/٣٩٧٣)].

والجهاد إخوة الإسلام لا يقتصر على جهاد السيف وحده، ولكن الجهاد ثلاث عشرة مرتبة، منها جهاد السيف، فالأعداء الذين يجب جهادهم أربعة: النفس، والشيطان، والكفار والمنافقون، وأرباب الظلم والبدع والمنكرات.

وجهاد النفس أربع مراتب:

الأولى: أن تجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا سعادة لها ولا فلاح ولا نجاح في الدنيا والآخرة إلا به.

الثانية: أن تجاهدها على العمل بالعلم، وإلا فإنّ مجرد العلم من غير عمل إن لم يضرّها لم ينفعها.

الثالثة: أن تجاهدَها على تعليم ما تعلّمت، فمن تعلّم وعَمِلَ وعَلّم فقد يُدْعَى في ملكوت السماوات عظيمًا.

الرابعة: أن تجاهدها على الصبر على مشاقّ الطلب، ومشاقّ التعليم.

وجهاد الشيطان مرتبتان:

الأولى: أن تجاهده على رفع ما يُلقي إليك من الشهوات المحرمة التي تُفْسِد عليك عملك.

الثانية: أن تجاهده على رفع ما يُلْقِي إليك من الشبهات التي تُفْسِدَ عليك دينك.

وبالمرتبة الأولى يحصّل الإنسان الصبر، وبالثانية يحصّل اليقين، وبالصبر واليقين تُنال الإمامةُ في الدين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة: ٢٤].

وجهاد الكفار والمنافقين أربعُ مراتب: بالنفس، والمال، واللسان، واليد، وجهاد الكفار أخصّ باليد، وجهاد المنافقين أخصّ باللسان. أما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب: باليد، واللسان، والقلب، كما قال ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».[«زاد المعاد» لابن القيم (٩، ١١/٣)].

فهذه ثلاث عشرة مرتبة من مراتب الجهاد، و«من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق».

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: هذه التجارة خير لكم من تجارة الدنيا والكدّ فيها، والتصدّي لها وحدها، فإنّ ربح تجارة الدنيا عَرَضٌ زائل، وأما ربح التجارة التي دلّ الله عليها عباده فهو: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وهذه وحدها تكفي، فمن ذا الذي يضمن أن يُغفرَ له ذنبه ثم يتطلع إلى شيء آخر؟ ولكن فضل الله ليس له حدود: ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾، وإنها لأربح تجارة أن يجاهد المؤمن في حياته القصيرة حتى لو فَقَدَ هذه الحياة كلّها، ثم يعوّض عنها تلك الجنات، وهذه المساكن في نعيم مقيم، وحقًا: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وكأنما ينتهي هنا حساب التجارة الرابحة، وإنه لربح ضخم هائل، أن يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة، فالذي يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق، فكيف بمن يتجّر في أيام قليلة معدودة في هذه الأرض، ومتاع محدودٍ في هذه الحياة الدنيا، فيكسب خلودًا لا يعلم له نهاية إلا ما شاء الله، ومتاعًا غير مقطوع ولا ممنوع؟

ولكنّ فضل الله عظيم، وهو يعلم من تلك النفوس أنّها تتعلّق بشيءٍ قريب في هذه الأرض، يناسب تركيبها البشري المحدود، وهو يستجيب لها، فيبشّرها بما قدّره في علمه المكنون من إظهار هذا الدين في الأرض، وتحقيق منهجه وهيمنته على الحياة: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهنا تبلغ الصفقةُ ذروة الربح الذي لا يعلمه إلا الله، الله الذي لا تنفد خزائنه، والذي لا ممسك لرحمته، فهي المغفرةُ والجنات والمساكن الطيبة، والنعيمُ المقيم في الآخرة، وفوقها... فوق البيعة الرابحة والصفقة الكاسبة النصر والفتح القريب، فمن ذا الذي يدلّه الله على هذه التجارة ثم يتقاعس عنها أو يحيد؟

ولكنّ اللهَ سبحانه يعلم أنّ النفس تضعف، وأن الاندفاع يهبط، وأنّ الجهد يكلّ، وأنّ حبّ السلامة قد يهبط بتلك المشاعر كلّها ويقودها إلى الرضا بالواقع الهابط، فيعالج ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: يقولُ تعالى آمرًا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصارًا لله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم، وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريّون لعيسى حين قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أيْ مَنْ معيني في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباعُ عيسى عليه السلام: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به، وموازروك على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ أي: لما بلّغ عيسى عليه السلام رسالة ربّه إلى قومه، ووازره من وازره من الحواريين اهتدت طائفةٌ من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلّت طائفة فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته، ورَمَوه وأمّه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وغلَتْ فيه طائفةٌ ممن اتبعه، حتى رفعوه فوقَ ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فرقًا وشيعًا، فمن قائل منهم إنه ابن الله، وقائل: إنه ثالث ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس، ومِنْ قائل: إنه الله، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي: نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى: ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي عليهم ببعثة محمد ﷺ، فأمّة محمدٍ ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحقّ حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجالَ مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، كما وردت بذلك الأحاديث. والله أعلم. اهـ.

وإلى اللقاء في العدد القادم- إن شاء الله- حول تفسير سورة الجمعة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الدعوة وأخلاق الدعاة

بقلم/ د. عبد العظيم بدوي

هبط آدم عليه السلام إلى الأرض حنيفًا مسلمًا، وكان نبيًا مكلمًا، وخلق الله منه ذريّة طيبة مباركة، تلقّت عنه الإسلام والتوحيد، فأسلمت لله ربّ العالمين وأفردته بالعبادة، وإبليس لعنه الله ينظر إلى هذه الذريّة ويعمل جاهدًا على تصديق ظنّه فيهم: (لأغوينّهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) حتى إذا طال العهد، وكثرت الأجيال؛ استطاع بمكره وكيده أن يخرج أكثر الناس عن دين آبائهم الأولين، وتوحيد الله ربّ العالمين، ويدخلهم في الشرك وعبادة الأصنام والأوثان، فاستحقوا بذلك عذاب الرحمن، (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)، يدعون من تمسّك بالتوحيد إلى الثبات عليه، ويبشرونه بالجنّة، ويدعون من خرج عن التوحيد إلى العودة إليه، ويُنذرونه النار، وهذه الدعوة تكليفٌ ثقيل، وعملٌ شاق، لذلك زوّد الله أولئك الدعاة من الرسل بزاد عظيم من الأخلاق الحميدة: كالصبر، والحلم، والعفو، والصفح، والرحمة، والإحسان، والاستغفار للمسيىء، ونحو ذلك من مكارم الأخلاق التي تمكّن الدّاعية من نشر دعوته، وتبليغ رسالة ربّه.

وقد تجلّت هذه الأخلاق الحميدة في موقف الأنبياء مع أقوامهم، حيث صبروا على أذاهم، وعفوا عنهم، وقابلوا السّوأى منهم بالحسنى، اقرءوا إن شئتم:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨)﴾ [الأعراف].

ثم اقرءوا: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ (٦٣)﴾ [هود].

ثم اقرءوا: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨)﴾ [هود] أرأيتم كيف قابل أولئك الدعاة قذف أقوامهم وسبّهم وشتمهم بالصبر والحلم، والعفو والإحسان، والإصرار على دعوتهم لانقاذهم من النار!! حتى إذا هلكت تلك الأمم وجاء فرعون فطغى وبغى، وتجرّأ على ما لم يجرؤ عليه أحد: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤] أراد الله تعالى أن يُقيم عليه الحجة قبل أن يهلكه فاصطفى موسى عليه السلام لدعوته: ﴿فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى﴾ وقال له: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ وهنالك أدرك موسى عليه السلام ثقل التكليف دمشقّة الأمر، فسأل الله أن يؤهله بما يُعينه على ذلك من مكارم الأخلاق: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه:٢٥].

«أي: وسّعه وأفسحه، لأتحمّل الأذى القولي والفعلي، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم» [تفسير السعدي:٥/١٥٣]. حتى إذا دمّر الله تعالى ما كان يصنع فرعون وقومه،

وأورث بني إسرائيل ديارهم فلم يحسنوا القيام بما استحفظوا من كتاب الله، اصطفى الله تعالى محمدًا ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأعلمه حين اصطفاه بثقل ما كُلف به: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل:٥] لذلك أمره بالصبر، وقصَّ عليه من أنباء الرسل ليهتدي بهديهم ويتخلق بأخلاقهم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]، فصبر ﷺ وصابر، وكان نصيبه من تلك الأخلاق النصيب الأوفر حتى امتن الله عليه بها ومدحه عليها، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] وقد تجلّت هذه الأخلاق الكريمة منه ﷺ في مواقف كثيرة:

عن ابن مسعود قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» [متفق عليه] وعنه قال: لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناسًا في القسمة: فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عُيينة بن حصن مثل ذلك، وأعطى ناسًا من أشراف العرب وآثرهم يومئذ في القسمة. فقال رجل: والله إن هذه قسمة ما عُدل فيها وما أُريد بها وجه الله، فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ، فأتيته فأخبرته بما قال: فتغيّر وجهه حتى كان كالصَّرف، ثم قال: فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ ثم قال: يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر» [متفق عليه].

تلك هي أخلاق الدعاة من الرسل، ولقد منّ الله على كثير من أتباعهم وورثتهم بكثير منها، فاستطاعوا بما آتاهم الله من العلم النافع والأخلاق الحميدة أن ينشروا دعوة الله، وأن يبلّغوا رسالته، وأن يصلوا الخلف بالسلف، وكان من آخر من فقدنا منهم أخونا الحبيب الكريم، واسع الصدر، كثير الصبر، بعيد النظر، ذو الرأي السديد، فضيلة الشيخ أبي عبد الرحمن محمد صفوت نور الدين، الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية، بجمهورية مصر العربية، ذلك الدّاعية الجوّال، الذي جاب البلاد، وخرج بدعوته إلى جميع البلاد، الشيخ الذي لم يكل ولم يملّ، ولم يخلد إلى الأرض، ولم يؤثر الراحة، بل أتعب نفسه وأجهدها لله، وفي سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، مركِّزًا في دعوته على التوحيد الذي ركّزت عليه رسلُ الله، متخلقًا بما استطاع من أخلاقهم، ومتأدبًا بما استطاع من أدبهم، فإذا رأيته رأيت الرجل الوقور، الصبور، الحليم، الذي حمل همّ الدعوة وهمّ الفقراء والمساكين، يعامل الجميع بأدبٍ جمّ، وتواضع عظيم، ويخاطب الجميع بالرِّفق واللين، ويدعو الدّعاة من إخوانه إلى ذلك، وإلى نبذ الهُجر والسبِّ والقدح في الآخرين، اقرءوا إن شئتم ما كتبه في افتتاحية العدد قبل الأخير (جمادي الآخرة): «هذا، وينبغي لطالب الحق عندما يشرع في طلب العلم ألا ينسى أن الكون يحكمه ربّ العالمين، وأنه يرزق جميع المخلوقين، وقد وسع هؤلاء الشريرين في ملكه، وأطعمهم من رزقه، ليس غفلة ولا نسيانا فحاشاه سبحانه، إنما الدنيا دار اختبار وفي الآخرة الجزاء، فكلٌّ ينتظره جزاءه عند ربّ حكم عدل، لا يغفل ولا ينسى ولا ينام، لذا كان المنهج الذي نرتضيه خاليًا من الردود والهجوم، ويقف عند بيان الحق بوسائله كما كان شأن النبي ﷺ فالمؤمن ليس بطعّان ولا لعّان، ولا فاحش ولا بذئ، والمؤمن يقدّم النصيحة كما كان النبي ﷺ يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا»، ولا يعيّن أسماءهم وأشخاصهم». ثم قدّم - رحمه الله - النصيحة للمتحمّسين من الدعاة الذين يبلغ بهم الحماس إلى درجة السبّ والشتم والتجريح للمعينين، والمجلة بين أيديكم فاقرءوها، لتروا توفيق الله للشيخ - رحمه الله - وهو يصرّح بأن منهجه في الدعوة هو منهج رسول الله ﷺ، وكأنها إعلان عن ثباته على المنهج حتى يلقي الله.

ولقد شكرتُه وأثنيت عليه ومدحته على هذه الافتتاحية الجميلة الطيبة يوم الثلاثاء ٢١ جمادي الآخرة ببيته المبارك ببلبيس، وما خطر بالبال أبدا أن أنقل من هذه الافتتاحية في نعيه، وأنا أكتب عن خلقه اليوم السبت ١٤ رجب أي بعد ثلاثة أسابيع فقط، ولكن من يعلم الغيب إلا الله؟!

وعزاؤنا فيه - رحمه الله - ما ظهر عليه من علامات حسن الخاتمة حيث تُوفي بعد صلاة الجمعة، بالحرم المكي، و«من مات يوم الجمعة أو ليلتها وقاه الله فتنة القبر» [حسن:ص.ت:١٠٧٤] اللهم اغفر لأبي عبد الرحمن، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في أهله في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين.

اللهم واحفظ جماعة أنصار السنة المحمدية.

الحلقة الأولى

سورة الجمعة

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤) مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

بين يدي السورة

سورة مدنية ، شأنها شأن السور المدنية في الاهتمام بجانب التشريع ، واسم السورة يدل على موضوعها ، وهو أن العرب ، بفضل الله عليهم، إذ بعث فيهم رسولاً منهم ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعلّمهم ما لم يكونوا يعلمون، ثم تحدثت مع اليهود - شعب الله المختار في زعمهم - وأبطلت هذا الزعم بتحديهم أن يطلبوا الموت الذي يردّهم إلى الله الذي اختارهم كما زعموا ، وأخبرت أنهم ﴿ لاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وما هم بفارين منه، بل هو مدركهم : ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ . وأخيرًا تحدثت عن أحكام الجمعة، ودعت المؤمنين إلى السعي إلى ذكر الله، إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ، وحذرتهم من الانشغال عن الجمعة ببيع أو لهو أو غير ذلك .

تفسير الآيات

قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ سبق الكلام عنه ، والمراد بالقدّوس المنزّه عن المعايب والنقائص ، والمطهّر من كلّ عيب ونقص.

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ المرادُ العربُ ، كقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران : ٢٠] ، فالذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى ، والأميون: العربُ ، وسموا أميين لبقائهم على الحال التي خرجوا بها من بُطون أمهاتهم، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨] ، فمن لم يتعلّم فهو أمي ، نسبةً إلى ما ذكرنا ، ولقد كان في العرب أفرادٌ يقرءون ويكتبون، ولكن أكثرهم لا يقرءون ولا يكتبون ، فسمّوا كلّهم أميين تغليبًا، ولذا قال ﷺ: «نحن أمةٌ أميةٌ لا نكتبُ ولا نحسبُ ، الشهرُ هكذا وهكذا، وأشار بأصابعه ،

يعني أن الشهر يكون ثلاثين، ويكون تسعًا وعشرين».

وقوله تعالى: ﴿ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾ أي: أمّي مثلهم، لتكون المعجزة أظهر، حيث يجيء رجلٌ أمي بكتاب تعجز العربُ كلّها عن الإتيان بشيءٍ من مثله، ولذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، فلما كان أميًا وعجز أهل الفصاحة والبلاغة متفرقين ومجتمعين عن الإتيان بشيءٍ من مثل ما جاء به عُلِمَ عِلْمَ اليقين أن الذي جاء به وَحْيٌ يُوحى إليه، وليس له منه شيء.

وقوله تعالى: ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ أي التي نزّلها عليه، ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي: يطهّرهم من رجس الشرك، ودنس المعاصي، ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهو القرآن، ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ وهي السنة، وكل ما ذكر في القرآن من الحكمة مقرونة بالكتاب فالمراد بها السنة، كقوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [النساء: ١١٣]، وقوله لأزواج النبيّ ﷺ: ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ ﴾ أي: ضلال بيّن واضح، ظاهر، فقد كانوا عبدة وثن، شرّابين للخمر، زناة، قطاع طرق، وكانوا على شفا حفرةٍ من النار فأنقذهم الله منها، فكانوا بعد ذلك كله هداةً مهتدين، وحملوا الخير للدنيا كلها، وفي هذا التحول العجيب تعليمٌ للدعاة والمصلحين أن لا ييأسوا من استجابة الناس لهم، وأن لا يقنطوا من هداية أحدٍ، فقلوب العباد بين أُصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فقد يكون أعدى أعداء الدعوة اليوم هو حامل رايتها والذابّ عنها غدًا، متى أسلم أبو سفيان ومعاوية رضي الله عنهما؟ ومتى أسلم عمرو بن العاص وابنه عبد الله؟ ومتى أسلم عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق؟ بل ومتى أسلم سيفُ الله المسلولُ خالد، رضي الله عنهم أجمعين. فالواجب على الدعاة أن يبذلوا جهودهم في الدعوة، وأن يتركوا هداية الناس لربّ الناس، يهدي من يشاء متى شاء: ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

قال العلماء: كانت بعثةُ النبي ﷺ في الأميين استجابةً لدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧- ١٢٩]. وفي هذا دليل على تحقيق إجابة الله لمن دعاه، ولكن الإجابة قد تتأخر، حتى يحين الوقتُ المناسبُ لها، ولذا على من دعا الله أن يدعوه وهو موقن بالإجابة، وعليه أن لا يستعجل فيقول: دعوتَ الله فلم يستجب لي، فإنه إذا استعجل مُنع الإجابة، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال يُستجابُ للعبد ما لم يدعُ بإثمٍ أو قطيعةِ رحم، ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يقول: دعوتُ وقد دعوتُ فلم أرَ يستجيبُ لي، فيستحسر عند ذلك، ويَدَعُ الدعاء».

وقوله تعالى: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ قد اختلف العلماء في المراد بالآخرين، فقيل: هم الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنّا جلوسًا عند النبي ﷺ فأُنزل عليه سورة الجمعة: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قالوا: مَنْ هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سُئِل ثلاثًا، وفينا سلمانُ الفارسيّ، فوضع رسولُ الله ﷺ يدَه على سلمانَ الفارسيّ ثم قال: لو كان الإيمانُ عند الثريّا لناله رجالٌ أو رجلٌ من هؤلاء.

وفي هذا الحديث دليلٌ على أن هذه السورة مدنية وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس، لأنه فسّر قوله تعالى: ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ بفارس، ولهذا كَتَبَ كُتُبَه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله عز وجل، وإلى اتباع ما جاء به. اهـ من ابن كثير.

وأدلةُ عموم بعثته ﷺ كثيرة؛ منها قولُه تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]. وقولُ النبي ﷺ: «أُعطيتُ خمسًا لم يعطهنَّ نبيٌّ قبلي..» ومنها: «وكان كلُّ نبيٍّ يُبعثُ إلى قومه خاصة، وبُعثتُ إلى الناس عامّة».

وإنما كان ﷺ من الأمّيين تشريفًا لهم وتكريمًا، لعِلْم الله سبحانه أنّ بني إسرائيل لم يعودوا صالحين لحمل الرسالة وقيادة البشرية، ولذا قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾. ثم ذم الله اليهود الذين أعطوا التوراة للعمل بها فلم يعملوا بها، فقال: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾، فضرب لهم مَثَلَ السَّوْءِ، مَثَلَ الحمار يحمل أسفارًا: جمع سِفْر، وهو الكتاب العظيم، فَمَثَلُ اليهود الذين حُمِّلُوا التوراة وفيها تفصيل كلِّ شيءٍ يحتاجون إليه في أمور دينهم ودنياهم، ومنها نعوت هذا النبيّ الأمي، فلم ينتفعوا بما حُمِّلُوا من التوراة، كمثل الحمار يحمل كُتُب العلم، وليس له منها إلا ما يجده من مشقة الحمل، وهو لا يدري ما على ظهره من الخير المكنون في بطون هذه الكتب: ﴿ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾، والمكذّب بآيات الله ظالم، كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ [يونس: ١٧]، ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾.

قال العلماء: هذا المَثَلُ وإنْ كان لليهود، إلا أنّه يشمل كلّ من تشبّه بهم، فكلّ من حَمل علْمًا فلم يعمل به فله من هذا المثَل نصيب.

ومع هذا الانحراف والفساد الذي وقع فيه اليهود، فقد كانوا وما يزالون يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأنهم أولياءُ الله وأبناؤُه وأحبّاؤه وأنهم أحقّ بالجنّة من غيرهم، فأبطل الله هذه الدعاوى، وردّ هذا الزعم فقال لنبيّه ﷺ: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، وهذه الآية تسمّى آية المباهلة، والمباهلة معناها الدعاءُ على الظالم من الفريقين، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يَدْعُوَ إليها كُلاً من اليهود والنصارى والمشركين، فأما دعوة اليهود ففي هذه الآية، وكذلك آية البقرة: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾. ولما كشف اللهُ حقيقة عيسى ابن مريم وأنه عَبْدُ الله لا ابنه، قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١]. وأما دعوة المشركين ففي قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ [مريم: ٧٥]. ولم يستجب أحدٌ من هذه الفرق الثلاث للمباهلة، ولم يجرؤ عليها، لعلمهم علْمَ اليقين أنهم إذا دَعَوْا على الظالم فستصيبُهم الدعوةُ لأنهم هم الظالمون، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾، ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾.

وجاء في الصحيح أنّ أبا جهلٍ لعنه الله قال: لئن رأيتُ محمدًا يسجد عند الكعبة بعد اليوم لآتينه ولأطأنّ عنقه. فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لتخطفتْه الملائكةُ عيانًا، ولو تمنّى اليهودُ الموت لماتُوا أجمعون، ولو خرج الذين يباهِلُونَ رسولَ الله لرجعوا فلم يجدوا رجالاً ولا نساء».

قال القاسميُّ رحمه الله في تفسيره المسمّى «محاسن التأويل» عند تفسير قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا... ﴾ قال القاسمي بعد تفسيره للآية: تنبيهات، فذكر ثلاثةً، ثم قال:

الرابع: اسْتُنْبِطَ من الآية جوازُ المحاجّة في أمر الدّين، وأنّ من جادل وأنكر شيئًا من الشريعة جازتْ مباهلتُه اقتداءً بما أُمِرَ به النبي ﷺ.

والمباهلةُ الملاعنة. قال الكازروني في تفسيره: وقع البحثُ عند شيخنا العلاّمة الدواني - قدّس الله سرّه - في جواز المباهلة

بعد النبي ﷺ ، فكتب رسالةً في شروطها المستَنْبطة من الكتاب والسنة والآثار ، وكلام الأئمة ، وحاصل كلامِه فيها أنها لا تجوزُ إلا في أمرٍ مهمٍّ شرعًا ، وقع فيه اشتباهٌ وعنادٌ لا يتيسر دفعُه إلا بالمباهلة ، فيشترط كونُها بعد إقامة الحجة ، والسعْي في إزالة الشبهة ، وتقديم النصح والإنذار ، وعدم نفع ذلك ، ومساس الضرورة إليها .

قال الإمام صدّيق خان في تفسيره : وقد دعا الحافظُ ابنُ القيم رحمه الله مَنْ خالفه في مسألة صفاتِ الربّ تعالى شأنه وإجرائها على ظواهرها مِن غير تأولٍ ولا تحريفٍ ولا تعطيل ، إلى المباهلةِ بين الرّكْنِ والمقام ، فلم يُجبْه إلى ذلك وخاف سوءَ العاقبة ، وتمامُ هذه القصة مذكور في أوّل كتابه المعروف بـ «النونية». انتهى .

وقد ذكر في «زاد المعاد» في فصل فقه قصة وفْدِ نجران ما نصّه : ومنها أن السنّة في مجادلة أهلِ الباطل إذا قامتْ عليهم حجةُ الله ولم يرجعوا بل أصرّوا على العناد أن يَدْعُوهم إلى المباهلة ، وقد أمر اللهُ سبحانه بذلك رسولَه ، ولم يقل إن ذلك ليس لأمّتك من بعدك ، ودعا إليه ابنُ عمّه عبدُ الله بن عباس لمن أنكر عليه بعضَ مسائل الفروع ، ولم يُنكر عليه الصحابة ، ودعا إليه الأوزاعيُّ سفيان الثوريَّ في مسألة رفع اليدين ، ولم ينكر عليه ذلك ، وهذا من تمام الحجة . انتهى.

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ كقوله تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء : ٧٨] ، فعلى العبد أن يكثر من ذكر الموت ، وأن يستعدّ له قبل أن ينزل بساحته، ولذا كان ﷺ يقول : «أكثروا من ذكر هادم اللذات : الموت».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان جالسًا عند النبي ﷺ فقال له رجل : يا رسول الله ، مَنْ أفضلُ المؤمنين؟ قال: «أحسنُهم خُلُقًا». قال : فمن أكْيَسُهُمْ ؟ قال: «أكثرهم للموت ذكرًا، لما بعد الموت استعدادًا، أولئك الأكياس».

قال العلماء : من فوائد ذكر الموت : تعجيلُ التوبة ، والنشاطُ في العبادة ، والقناعةُ ، ومن مضارّ نسيان الموت : تسويفُ التوبة ، والكسلُ عن العبادة ، والطمع ، ولذا كان السلفُ الصالح رضوانُ الله عليهم يُكثرونَ من ذكر الموت، فكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه : ويحك يا يزيد، من ذا الذي يصلّي عنك بعد الموت ، من ذا الذي يصومُ عنك بعد الموت ، من ذا الذي يُرْضِي عنك ربّك بعد الموت . ثم يقول : أيها الناس ، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم ، من الموتُ طالبه ، والقبرُ بيتُه ، والترابُ فراشُه، والدودُ أنيسه ، وهو مع ذلك ينتظر الفزع الأكبر، كيف يكون حاله ؟!

وقال بعض السلف : قطع عني لذة النوم اثنتان: ذكرُ الموت ، وذكرُ الوقوف بين يدي الله.

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يجمع العلماء كلّ ليلة فيتذكرون الموت والآخرة حتى يبكوا بكاءً شديدًا ، كان بين أيديهم جنازة.

قال العلماء : يُستعان على ذكر الموت بأمور: منها حضور مجالس العلم ، والنظر إلى المحتضر ، وزيارة القبور ، قال ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها فإنها تذكركم الآخرة».

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة : ١٣] ، وقوله : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران : ٣٠] ، وقوله : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف : ٤٩] .

فيا عبد الله :

ولو أنا إذا متنا تُركنا
لكان الموت راحة كل حيّ
ولكنا إذا متنا بُعثنا
ونُسأل بعده عن كل شيء

فأعدّ للسؤال جوابًا .

اللهم أحينا مسلمين ، وأمتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين . ونكمل الحديث إن شاء الله تعالى حول تفسير آيات سورة الجمعة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

سورة الجمعة

الحلقة الثانية

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [الجمعة: ٩- ١١].

إعداد
د / عبد العظيم بدوي

تفسير الآيات

اتفق العلماء على أن يوم الجمعة كان يسمّى في الجاهلية يوم العَروبة، ومعناه اليمين المعظّم، واختلفوا في سبب تسميته بالجمعة، والظاهر أنه سُمي ذلك لاجتماع الناس للصلاة فيه.

ولهذا اليوم خصائص ومزايا وفضائل

الخاصة الأولى: فهو سيدَ الأيام وأفضلها، وهو الشاهد المذكور في قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣]، وهو يوم العيد الأسبوعيّ للمسلمين، قال النبي ﷺ: «إن من أفضل أيامكم يومَ الجمعة، فيه خُلق آدم، وفيه قُبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضةٌ عليّ». فقالوا: يا رسول الله، وكيف تُعرض صلاتُنا عليك وقد أرمت- يعني بليت- قال: «إنّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء».

وقال ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه أُخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة».

وقال ﷺ: «إن يوم الجمعة سيدُ الأيام وأعظمها عند الله، وهو أعظمُ عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر، فيه خمس خلال: خَلَقَ اللَّهُ فيه آدم، وأَهْبَطَ اللَّهُ فيه آدم إلى الأرض، وفيه توفّى اللَّهُ آدمَ، وفيه ساعةٌ لا يسأل العبد فيها شيئًا إلا أعطاه، ما لم يسأل حرامًا، وفيه تقوم الساعة، ما من مَلَكٍ مقرّب، ولا سماءٍ ولا أرض، ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهو مشفقٌ من يوم الجمعة».

وقال ﷺ: «اليوم الموعود يوم القيامة، واليوم المشهود يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة».

وقال ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو

ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان عنده يهوديّ، فقرأ ابنُ عباس قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. فقال اليهوديّ: لو علينا معشر يهود أُنزلت لاتخذنا يومها عيدًا. فقال ابنُ عباس: لقد نزلت في يومي عيد: نزلت بعرفات يوم الجمعة.

ولقد أمر اللَّه مَن قبلنا بهذا اليوم فضلّوا عنه، أمر به اليهودَ فضلّوا عنه، واختاروا السبت الذي لم يَخلق اللّهُ فيه شيئًا، وأمَر به النصارى فضلّوا عنه، واختاروا الأحد الذي ابتدا اللّهُ فيه الخَلْقَ، وجاء اللّه بنا فهدانا لهذا اليوم، يوم الجمعة، فهم لنا تبع. قال النبي ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يومَ القيامة بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب مِنْ قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، ثم هذا يومهم الذي فُرض عليهم- يعني الجمعة، فاختلفوا فيه، فهدانا اللّه له، والناس لنا فيه تبع، اليهود غدًا، والنصارى بعد غد».

وقال ﷺ: «أضلّ اللّهُ عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يومُ السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء اللّه بنا فهدانا اللّه ليوم الجمعة، فجعل الجمعةَ والسبتَ والأحدَ، وكذلك هم تبعٌ لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضى لهم قبل الخلائق».

وصلاةُ الجمعة فريضة معلومةٌ من الدين بالضرورة، وفرضيتُها ثابتةٌ بالكتاب والسنة وإجماع الأمة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. وقال النبي ﷺ: «رواح الجمعة واجبٌ على كل محتلم».

وأجمعت الأمة على أن صلاة الجمعة فرضُ عَيْنٍ على من توفّرت فيه شروط الوجوب، وهي: الإسلام، والبلوغ، والعقل، والذكورة، والحرية، والصحة، فلا تجب على من فقد واحدًا من هذه الشروط. قال النبي ﷺ: «الجمعة واجبةٌ على كل مسلم في جماعة إلا أربعة: عبد مملوك، أو صبيّ، أو امرأة، أو مريض».

وقال ﷺ: «ليس على مسافر جمعة». وكان ﷺ يسافر، ولم ينقل عنه أنه صلّى الجمعة في سفرة من أسفاره، ولكن من شهد الجمعة ممن لا تجب عليه أجزأته، ولا يعيد الظهر.

وكان النبي ﷺ يحثّ على شهود الجمعة ويرّغب فيه، فيقول: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر». وكان يقول: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت، غُفِرَ له ما بينه وبين الجمعة وزيادةُ ثلاثة أيام، ومن مسّ الحصى فقد لغا». كما كان النبي ﷺ يحذّر من التخلف عن الجمعة فيقول: «لينتهينّ أقوام عن وَدْعِهِمُ الجمعات أو ليختمنّ الله على قلوبهم، ثم ليكونُنّ من الغافلين». ويقول ﷺ: «من ترك ثلاث جمع تهاونًا بها طبع اللّه على قلبه». ويقول ﷺ: «لقدْ هممتُ أن آمر بالصلاة فتُقام، ثم آمرَ رجلاً فيؤمّ الناس، ثم أنطلق إلى أقوامٍ لا يشهدون الجمعة فأحرّق عليهم بيوتهم».

«فعلى كل مسلم أن يحرص أشدّ الحرص على الحضور لصلاة الجمعة، ولا يعتذر بالأعذار الواهية، فإنها لا تنجيه عند من لا تخفى عليه خافية، وقد حدث في هذا الأوان أنّ كثيرًا ممن ينتسبون إلى الإسلام يتعمدون الخروج في يوم الجمعة إلى النزهة برًا أو بحرًا، وبدلاً من أن يتعبّدوا الله بما ورد عنه وعن رسوله في هذا اليوم، ويحيونه بالصلاة والصدقة والذكر ونحو ذلك، يرتكبون المنكرات في هذا اليوم الشريف، مِنْ أغانٍ وطربٍ وخمرٍ، وما إلى ذلك من الموبقات التي يخجل الإنسان من ذكرها، فضلاً عن ارتكابها، فإلى أولئك المتهاونين، وإلى أولئك الذين فتنتهم الدنيا بزينتها ورَوْنقها، ورزقوا حظًا من المال أو الجاه، نهدي هذه النصيحةَ الثمينة، ونذكرهم بقول رسول الله ﷺ: «من ترك ثلاث جمع طبع الله على قلبه». ولا تغتروا بما آتاكم الله من صحةٍ وشباب وقوةٍ ومالٍ فاعرفوا قدرَ نعم الله عليكم، واشكروه حقّ الشكر، وأدّوا فرائض الله ولا تتهاونوا في أداء الصلوات، وحافظوا على الجمع والجماعات، فإن الحساب عسير: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾». اهـ من كتاب «الجمعة ومكانتها في الدين» للشيخ أحمد آل بوطامي.

«وكان من هديه ﷺ تعظيمُ هذا اليوم وتشريفُه، وتخصيصه بعباداتٍ يختصّ بها عن غيره، وكان ﷺ يقرأ في فجره بسورتي «الم تنزيل» و«هل أتى على الإنسان»، ويظنّ كثيرٌ ممن لا علم عنده أنّ المراد تخصيصُ هذه الصلاة بسجدةٍ زائدةٍ، ويسمونها سجدة الجمعة، وإذا لم يقرأ

أحدُهم هذه السورة استحبّ قراءةَ سورة أخرى فيها سجدة، ولهذا كَرِهَ مَن كَرِهَ من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة في فجر الجمعة، دفعًا لتوهم الجاهلين، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إنما كان النبي ﷺ يقرأ هاتين السورتين في فجر الجمعة؛ لأنهما تضمنتا ما كان ويكون في يومها، فإنهما اشتملتا على خَلْق آدم، وعلى ذكر المعاد، وحشر العباد، وذلك يكون يوم الجمعة، وكأن في قراءتهما في هذا اليوم تذكيرًا للأمة بما كان فيه ويكون، والسجدة جاءت تبعًا ليست مقصودة، حتى يقصد المصلي قراءتها حيث اتفقت، فهذه خاصةٌ من خواصّ يوم الجمعة .

الخاصة الثانية: استحبابُ كثرة الصلاة على النبي ﷺ فيه وفي ليلته ؛ لقوله ﷺ: «أكثروا من الصلاة عليّ يوم الجمعة وليلة الجمعة».

الخاصة الثالثة: صلاة الجمعة التي هي من آكد فورض الإسلام، ومن أعظم مجامع المسلمين، وهي أعظم من كلّ مجمع يجتمعون فيه وأفرضه سوى مجمع عرفة، ومَنْ تركها تهاونًا بها، طبع اللهُ على قلبه، وقُربَ أهل الجنة يوم القيامة، وسَبْقُهم إلى الزيارة يوم المزيد بحسب قُرْبهم من الإمام يوم الجمعة وتبكيرهم.

الخاصة الرابعة: الأمرُ بالاغتسال في يومها، وهو أمر مؤكدٌ جدًا.

الخاصة الخامسة: التطيبُ فيه، وهو أفضل من التطيب في غيره من أيام الأسبوع.

الخاصة السادسة: السواك فيه، وله مزية على السواك في غيره.

الخاصة السابعة: التبكير للصلاة.

الخاصة الثامنة: أن يشتغل بالصلاة والذكر والقراءة حتى يخرج الإمام.

الخاصة التاسعة: الإنصات للخطبة إذا سمعها وجوبًا في أصح القولين.

الخاصة العاشرة: قراءة سورة الكهف في يومها، فقد روي عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة سَطَعَ له نورٌ من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء به يوم القيامة، وغُفِرَ له ما بين الجمعتين».

الخاصة الحادية عشرة: أنه لا يكره فعلُ الصلاة فيه وقت الزوال ؛ لقوله ﷺ: «لا يغتسل رجلٌ يوم الجمعة ويتطهّر ما استطاع من طهر، ويدّهن من دهنه أو يمسّ من طيب بيته، ثم يخرج فلا يفرّق بين اثنين، ثم يصلّي ما كُتب له، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غُفِرَ له ما بينه وبين الجمعة الأخرى». فَنَدَبَهُ .

وفيه أيضًا: أنه ﷺ كان يقرأ فيها بـ «الجمعة» و«هل أتاك حديث الغاشية». ولا يستحب أن يقرأ من كل سورةٍ بعضها، أو يقرأ من كل سورة بعضها، أو يقرأ إحداهما في الركعتين، فإنه خلاف السنة.

الثانية عشرة: أنه يستحب أن يلبس فيه أحسن الثياب التي يقدر عليها، فقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أبي أيوب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغتسل يوم الجمعة ومسّ من طيب إن كان له، ولبس من أحسن ثوب، ثم خرج وعليه السكينةُ حتى يأتي المسجد، ثم يركع إن بدا له، ولم يؤذِ أحدًا، ثم أنصت إذا خرج إمامُه حتى يصلّي، كانت كفارة لما بينهما».

الثالثة عشرة: أنّ للماشي إلى الجمعة بكل خطوة أجر سنةٍ صيامها وقيامها. عن أوس بن أوس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من غسّل واغتسل يوم الجمعة، وبكّر وابتكر، ودنا من الإمام فأنصت، كان له بكل خطوة يخطوها صيام سنةٍ وقيامُها، وذلك على الله يسير».

الرابعة عشرة: أن فيه ساعة الإجابة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إنّ في الجمعة لساعةً لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ وهو قائمٌ يصلّي يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه، وقال: بيده يقللها». اهـ من «زاد المعاد» باختصار.

فعلى المسلم أن يأخذ نفسه بما في هذه الخواص من الآداب، كالغسل، والدهن، والطيب، والسّواك، ولُبس أحسن الثياب، ثم التبكير، فقد كان النبي ﷺ يحثّ على التبكير فيقول: «من اغتسل يوم الجمعة غُسل الجنابة ثم راح فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قَرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشًا أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر».

وكان ﷺ يقول: «إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول، ومثلُ المهجّر كمثل الذي يُهدي بدنة، ثم كالذي يُهدي بقرة، ثم كبشًا، ثم دجاجة، ثم بيضة، فإذا خرج الإمام طَوَوْا صحفهم ويستمعون الذكر».

فإذا جاء المسلمُ المسجدَ قدّم رجله اليمنى

وقال: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم، بسم الله، اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك». ثم يتقدّم إلى الصفوف فيتم ما بها من نقص، فقد خرج النبي ﷺ على أصحابه يومًا فرآهم حلقًا، فقال: «ما لي أراكم عزين» أي: متفرقين، ثم خرج عليهم بعد ذلك فقال: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟» قالوا: وكيف تصفّ الملائكة عند ربها يا رسول الله؟ قال: «يتمون الصفّ الأول فالأول ويتراصون في الصف».

فإذا أخذ موضعه من الصفّ صلّى ركعتين؛ لقوله ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلّي ركعتين». وهاتان الركعتان مشروعتان، ولو كان الخطيب على المنبر، عن جابر بن عبد الله قال: جاء سليكٌ الغَطفاني يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب، فجلس، فقال له: «يا سُليك، قم فاركع ركعتين وتجوّز فيهما». ثم قال: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما».

ومن الخطأ ما يفعله بعض الناس من الجلوس عند الدخول والإمام يخطب، فإذا جلس الإمام بين الخطبتين قام فصلّى.

فإذا صلى تحية المسجد فهو بالخيار، إن شاء صلّى ما كُتِبَ له، وإن شاء جلس يذكر الله بقراءة أو تسبيح أو صلاة على النبي ﷺ ونحو ذلك، حتى يخرج الإمام، فإذا خرج الإمام استقبله الناسُ بوجوههم، واستمعوا له، وكان النبي ﷺ يُمهل يوم الجمعة حتى يجتمع الناس، فإذا اجتمعوا خرج إليهم وحده، فإذا دخل المسجد سلّم عليهم، فإذا صعد المنبر استقبل الناس بوجهه وسلم عليهم، ثم يجلس، ويأخذ بلالٌ في الأذان، فإذا فرغ منه قام النبي ﷺ فخطب، من غير فصلٍ بين الأذان والخطبة، لا..... خبرٍ ولا غيره، ولم يقم أحد يركع ركعتين البتة، ولم يكن الأذان إلا واحدًا، وهذا يدل على أن الجمعة كالعيد، لا سنة لها قبلها، وهذا أصحّ قولي العلماء، وعليه تدل السنة، فإن النبي ﷺ كان يخرج من بيته، فإذا رقي المنبر أخذ بلالٌ في أذان الجمعة، فإذا أكمله أخذ النبي ﷺ في الخطبة من غير فصل، وهذا كان رأي عين، فمتى كانوا يصلون السنة؟

وكان ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه، وعلا صوتُه، واشتدّ غضبه، حتى كأنه منذ جَيْش، يقول: صبحكم ومسّاكم، ويقول: إنّ الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)) (((آل عمران: ١٠٢)))، ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)) (((النساء: ١)))، ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)) (((الأحزاب: ٧٠، ٧١))).

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتابُ الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعةٌ، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ومن تأملّ خُطَبَ النبي ﷺ وخُطَبَ أصحابه، وجدها كفيلةً ببيان الهدى والتوحيد، وذكر صفاتِ الربّ جلّ جلاله، وأصول الإيمان الكليّة، والدعوة إلى الله، وذكر آلائه تعالى التي تحبّبه إلى خلقه وأيامه التي تخوّفهم من..... والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه، فيذكرون من عظمة الله وصفاته واسمائه، ما يحببه إلى خلقه، ويأمرون من طاعته وشكره، وذكره ما يحببهم إليه، فينصرف السامعون وقد أحبّوه وأحبّهم، ثم طال العهد، وخفي نورُ النبوة، وصارت الشرائع والأوامر رسومًا تُقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها، فأعْطَوْها صُوَرَها، وزينوها بما زينوها به، فجعلوا الرسومَ والأوضاع سُنًّا لا ينبغي الإخلال بها، وأخلّوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلالُ بها، فرصّعوا الخطب بالتسجيع والفِقر، وعلم البديع، فنقص بل عُدِمَ حظُّ القلوب منها، وفات المقصودُ بها.

وكان ﷺ يقصّر الخطبة، ويطيل الصلاة، ويكثر الذكر، ويقصد الكلمات الجوامع، وكان يقول: «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مَئِنَّةٌ من فقهه». اهـ من زاد المعاد باختصار وزيادة.

وكان ﷺ يحث على الإنصات للخطبة، وينهى عن التشاغل عنها بأي شيء

الحلقة الأخيرة

سورة الجمعة

إعداد
د / عبد العظيم بدوي

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

[الجمعة: ٩- ١١].

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد :

فقد تحدثنا في الحلقة الماضية عن هدي رسولنا الأمين ﷺ في صلاة الجمعة، واليوم بحول الله وقوته نستكمل معكم في الحلقة الأخيرة من تفسير سورة الجمعة هذا الموضوع مستعينين بالله فنقول:

الإنصات أثناء الخطبة

كان ﷺ يقول: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة والإمام يخطب أنصت فقد لغوت». وكان يقول: «ومن مسّ الحصى فقد لغى».

فالواجب على من شهد الجمعة أن يُحسن الاستماع وأن يُنصتَ إلى إمامه إذا خطب، فقد قيل إن الذكر المذكور في قوله تعالى: ﴿فاسعوا إلى ذكر الله﴾ هو الخطبة. وقد مدح الله تعالى

حُسْنَ الاستماع وأمر نبيّه ﷺ أن يبشر أهله فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٧، ١٨]، وذمّ الذين لا يحسنون الاستماع فقال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:٤٧]. وقد بين السلف الصالح كيفية حسن الاستماع الذي أُمروا به، فقال وهب بن منبّه: من أدب الاستماع سكون الجوارح، وغضّ البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه، ولا يشغلها فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرْفه، فلا يلهو قلبه بما يرى، ويُحضر عقله، فلا يحدّث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم. وقال سفيان بن عُيينة: أول العلم الاستماع ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر» [تفسير القرطبي ١٧٦/١١].

ثم عليه بعد الصلاة أن يسأل نفسه عما فهم من هذه الخطبة وعمّا سمع فيها من أوامر وزواجر، وليعلم أن كل ما استمع إليه من آيات فيها أوامر سَيُسْأَلُ عنها يوم القيامة: هل ائتمرت؟ وعن الزواجر: هل ازدجرت؟ فليجتهد في العمل بما استمع إليه في تلك الخطبة، فإن عمله به دليل انتفاعه، وانتفاعه دليل إيمانه بالله وخشيته له، فإن الله تعالى قال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى:٩، ١٠]، وقد أمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يبشر المؤمنين الذين يخشون ربهم، فقال تعالى ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس:١١].

وهذا الأجر الكريم هو الجنة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة:٧، ٨].

فإذا أحسن من حضر الجمعة الاستماع للخطبة حتى يفرغ منها، ثم صلّى مع إمامه، فيستحب له أن يأتي بالأذكار المشروعة عقب الصلاة، وهي بإيجاز:

أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ربّ قني عذابك يومَ تبعث عبادك. لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبدُ إلا إيّاه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون. لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجد.

ثم يقرأ آية الكرسي، والإخلاص والمعوذتين، ثم

يقول: سبحان الله، ثلاثا وثلاثين، والحمد لله، ثلاثا وثلاثين، والله أكبر، مثل ذلك، ثم يقول تمام المائة: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، ثم يقوم فيصلي سنة الجمعة، لقوله ﷺ: «إذا صلّى أحدكم الجمعة فليصلّ بعدها أربعا». وإن صلاها في البيت كان أفضل، لقوله ﷺ: «أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة».

(فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) فإذا أراد الخروج من المسجد قدّم رجْله اليسرى وقال: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك». وكان عراك بن مالك رضي الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: اللهم إني أجبت دعوتك، وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين.

عدم العمل يوم الجمعة لم يكن من هدي السلف

وفي الآية إشارة إلى أن العطلة يوم الجمعة وعدم العمل لم يكن من هدي السلف وليس في النصوص ما يشير إليه، بل الآية تشير إلى أن الصحابة الذين خوطبوا بها كانوا يكونون في أسواقهم قبل الصلاة، ولذلك كان الأمر: ﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع﴾ ثم الإذن لهم فيه بعد الصلاة ﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾ ولما كانت الأسواق شرّ البقاع لغفلة أهلها عن ذكر الله أمر الله المؤمنين بذكر الله ﴿واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون﴾ «أي اذكروا الله حالَ بيعكم وشرائكم وأخذِكم وإعطائكم، اذكروا الله ذكرًا كثيرا، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة، ولهذا جاء في الحديث: «من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة، وبنى له بيتًا في الجنة». قال العلماء: لا يكون العبد من الذاكرين كثيرا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا وعلى جنب، وذلك إنما يكون بالمحافظة على الأذكار المطلقة والمقيدة، كالمحافظة على أذكار الصباح والمساء، وأذكار النوم واليقظة، والذكر عند الطعام والشراب، والدخول والخروج، ونحو ذلك، وقوله تعالى: ﴿وإذا رأوا تجارةً أو لهوًا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة، والله خير الرازقين﴾ هذا عتاب من الله لأصحاب رسوله على ما كان منهم من الانصراف عن رسول الله ﷺ إلى العير التي كانت قدمت المدينة، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بينا النبي ﷺ قائم يوم الجمعة، إذ قدمت عيرٌ إلى المدينة فابتدرها أصحابُ رسول الله ﷺ حتى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلا، فيهم أبو بكر وعمر. قال: ونزلت هذه الآية: ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا﴾ إليها، وفي قوله تعالى ﴿وتركوك قائما﴾ دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائما، كما كان هدي النبي ﷺ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

سورة المنافقون

الحلقة الأولى

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) ﴾.

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين... وبعد :

سورة المنافقون سورة مدنية، واسمها يدل على موضعها، فهي تتحدّث عن النّفاق والمنافقين، لتهتك أستارهم، وتكشف أسرارهم، حتى يعرفهم المؤمنون فيحذروهم، إذ أن المنافقين أشدُّ خطرًا وأعظم ضررًا من الكافرين الذين صرحوا بكفرهم وعداوتهم للإسلام وأهله.

ثم خُتمت السورةُ بتحذير المؤمنين من فتنة المال والولد، وأمْرهم بالإنفاق مما رزقهم الله في سبيل الله، قبل أن يفوت الأوان بانتهاء الأجل، فيتحسر الإنسان ويندم على تقصيره ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص:٣].

النِّفاق: هو أن يظهر الرجل خلاف ما يبطن. وهو قسمان: اعتقادي وعملي.

فالنفاق الاعتقادي: هوأن يظهر الرجل الإسلام ويبطن الكفر.

والنفاق العملي: هو أن يعمل المؤمن عملا من أعمال المنافقين، فيكون فيه خصلة من النفاق، كما قال ﷺ: «أربعٌ مَنْ كنّ فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلةٌ منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

والنفاق الاعتقادي أعظمُ من الكفر الصريح، ولذا يجمع اللهُ الكافرين والمنافقين في جهنم جميعا، ثم يجعلُ المنافقين في الدرك الأسفل منها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]، ثم

قال: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء:١٤٥].

أما النفاق العملي فلا يُخرجُ المؤمن من دائرة الإيمان، وإن كانت فيه خصلة من النفاق، لكن يجب على المؤمن أن ينأى بنفسه عن شيم المنافقين.

ولا يجوز اتهام مؤمن بالنفاق وإن كانت فيه خصلةٌ منه، فلا يجوز أن يُقال عن فلان أنه منافق، لكن يجوز أن يُقال: فيه خصلة من النفاق، لأن النفاق محله القلب، ولا يطّلع على القلوب إلا علامُ الغيوب.

والسورة تتحدث عن نفاق الاعتقاد وأهله، وتبدأ بالإخبار عنهم. أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم: ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾، فكذبهم الله في هذه الشهادة، وشهد على كذبهم فقال: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ لأنهم لا يعتقدون بما شهدوا به، وإنما هي كلمة يقولونها بالسنتهم، وحتى لا يتوهّم متوهّم أن الله كذّبهم في دعوى رسالته ﷺ جيء بهذه الجملة المعترضة ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾، فأثبت سبحانه الرسالة لرسوله ﷺ، وكذّبهم في دعواهم أنهم يشهدون له بها.

﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً ﴾ أي وقاية، يتّقون الناسَ بالأيمان الكاذبة، فإذا ما قالوا قولا، أو فعلوا فعلا يُؤْخَذُ عليهم تنصّلوا منه، وتبرّءوا، بالأيمان الكاذبة، والله ما قلنا، والله ما فعلنا. وربما يعملون العمل السيء ويحلفون أنهم مسلمون، فيغترّ بهم من لا يعرفهم، فيصدّقهم وربما اقتدى بهم، وفي ذلك من الضرر ما فيه، ولذا قال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ صدّوا أنفسهم، وصدّوا غيرهم، ﴿ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وهل هناك أسوأ من الصدّ عن سبيل الله؟ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ﴾؟ [الصف:٧]، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ أي ذلك الحلف الكاذب والصدّ عن سبيل الله، بسبب أنهم آمنوا بالسنتهم ثم كفروا بقلوبهم ﴿ فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ والطَّبْعُ هو الختم، وهو أشبه ما يكون بالشمع الأحمر إذا ضُرب على محلٍّ ما، فلا يخرج منه شيء، ولا يدخله شيء، وكذلك الطبع على القلوب ـ والعياذ بالله ـ إذا طُبع على قلب لا يخرج منه منكر، ولا يدخله معروف، ﴿ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ فلا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرا.

قال العلماء: لما تحدّث الله تعالى عن المنافقين في سورة البقرة ضرب لهم مثليْن: ناريًا، ومائيًا، فالناري هو: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٧، ١٨].

والمائي: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة:١٩، ٢٠].

فالنّاري مثل الذين آمنوا ثم كفروا، والمائي للذين هم في ريبهم يترددون ويميلون إلى الإسلام تارة، ويميلون عنه تارة، فهم كالذي يمشي في الظلمات يستضيء بنور البرق ﴿ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾، فأما الذين آمنوا ثم كفروا فـ ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾، وذلك من الله عقوبة لهم على تركهم الإيمان بعد أن ذاقوا حلاوته، ورأوا نوره، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف:٥].

ثم وصف الله المنافقين بجمال الصورة، وحلاوة اللسان، فقال: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ فهذا حال ما ظهر منهم ﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ [إبراهيم:٤٣]، يعني لا حياة فيها ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ ﴾ أي يشبهون الخشب المسنّدة إلى الحائط، في كونهم صورًا خالية عن العلم والنظر، فهم أشباحٌ بلا أرواحٍ، وأجسامٌ بلا أحلامٍ، فلا يعجبك جمالُ صورتهم، ولا عذوبةُ منطقهم.

ثم وصفهم الله بالضعف والخور، والجبن والهلع، فقال: ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ وهذا حال كل من يخالف فعلُه قولَه، خائفون دائمًا، قلقون أبدا، يحذرون أن يُفضحوا، وتكشف أسرارهم، كما قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:٦٤]، وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد:٢٩، ٣٠]، ثم حذّر اللهُ نبيه منهم فقال: ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ هم العدوّ الكامل العداوة، فاحذرهم ولا تأمنْهم وإن قالوا نشهدُ إنّك لرسول الله، وإنما حذر الله تعالى منهم لأن الخطر كامنٌ فيهم، وقد أظهروا الإسلام، وهذا يجعل المسلمين قد يأتمنونهم، فحذّر الله منهم، وبيّن أنهم هم العدو، وإن قالوا نحن مسلمون.

ثم دعا عليهم، ودعاءُ الله قضاءٌ مبرم، وحكمٌ نافذ، ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي أخزاهم ولعنهم وأبعدهم عن رحمته. ﴿ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ كيف يُصرفون عن الهدى إلى الضلال؟ وكيف تضل عقولهم مع وضوح الدلائل والبراهين؟

والحمد لله رب العالمين

سورة المنافقون

•• الحلقة الأخيرة ••

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) ﴾

[المنافقون : ٥ ـ ١١]

إعداد
د / عبد العظيم بدوي

الحمد لله رب العالمين، والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد :

نواصل في هذه الحلقة تفسير سورة المنافقون، ونقول وبالله التوفيق :

قال القاسمي ـ رحمه الله ـ: «قال ابن جرير: عَنَى بهذه الآيات كلّها ـ فيما ذكر ـ عبد الله ابن أُبَيٍّ بن سلول؛ وذلك أنه قال لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا. وقال: لئن رجعْنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذل. فسمع بذلك زيدُ بن أرقم، فأخبر به رسول الله ﷺ، فدعاه رسولُ الله ﷺ، فساله عما أُخبر به عنه، فحلف أنه ما قال. وقيل له: لو أتيتَ رسولَ الله ﷺ فسالته أنْ يستغفرَ لك، فجعل يَلْوي رأسَه ويحركُه استهزاءً، ويعني بذلك أنه غيرُ فاعلٍ ما أشاروا به عليه، فأنزل الله عز وجل فيه هذه السورة من أولها إلى آخرها.

ثم أورد ابنْ جرير الروايات في ذلك. وتقدّم الإمامُ البخاري فأسندها من طرق، ويجمعها كلها ما رواه ابن إسحاق في غزوة بني المصطلق: أنّ النبيَّ ﷺ لقيهم على ماءٍ لهم يقال له المريسيع وأظفره الله بهم. قال: فَبَيْنا الناسُ على ذلك الماء، وردتْ واردةُ الناس، ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بني غفار، يقال له (جهجاه) يقودُ فرسه، فازدحم جهجاهُ وسِنانٌ الجهنّي حليف بني عوفِ بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهنيّ: يا معشرَ الأنصار! وصرخ جهجاه: يا معشرَ المهاجرين! فغضب عبدُ الله بن أُبَيٍّ بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم زيدُ بن أرقم، غلامٌ حدثٌ، فقال: أوَ قَدْ فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا

أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. فسمع ذلك زيدُ بنُ أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوّه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُرْ به عبّادَ بن بِشْرٍ فليقتله. فقال رسولُ الله ﷺ: «فكيفَ يا عُمر إذا تحدّثَ الناسُ أنّ محمدًا يقتل أصحابه؟! لا، ولكن أذّن بالرحيل»، في ساعةٍ لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها. فارتحل الناس. وقد مشى عبدُ الله بنُ أبي ابن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أنّ زيدَ بن أرقم قد بلّغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلتُ ولا تكلمت به وكان في قومه شريفًا عظيمًا. فقال مَنْ حَضَرَ رسول الله ﷺ: مِنَ الأنصار؛ مِنْ أصحابه: يا رسول الله، عسى أنْ يكونَ الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل. حَدَبًا على ابن سلول ودفعًا عنه.

قال ابن إسحاق: فلما استقلّ رسولُ الله ﷺ لقيه أُسَيْدُ بنُ حُضَير، فحيّاه بتحية النُّبوّة وسلّم عليه ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رُحْتَ في ساعةٍ مُنكَرَةٍ، ما كنتَ تروحُ في مثلها. فقال رسول الله ﷺ: «أوَما بلغك ما قال صاحبُكم؟» قال: وأيُّ صاحبٍ يا رسول الله؟ قال: «عبدُ الله بن أُبَي». قال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرجَ الأعزُّ منها الأذلّ». قال: فأنتَ يا رسول الله ـ والله ـ تخرجه منها إن شئت. هو ـ والله ـ الذليل، وأنت العزيز. ثم قال: يا رسول الله، ارفقْ به؛ فوالله لقد جاءنا اللهُ بك وإنّ قومه لينْظُمون له الخرزَ ليتوّجُوه، فإنّه ليرى أنك قد استلبته مُلْكًا، ثم مشى رسولُ الله ﷺ يومَهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدرَ يومهم ذلك حتى آذتْهم الشمسُ ثم نزلَ بالناس، فلم يلبثُوا أنْ وجَدُوا مسَّ الأرض، فوقعوا نياما، وإنما فعل ذلك رسولُ الله ﷺ ليشْغَلَ الناسَ عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي، ثم راح رسولُ الله ﷺ بالناس، وقدم المدينة، ونزلتِ السورةُ التي ذكر الله فيها المنافقين؛ في ابن أُبيّ ومَن كان على مثل أمره، فلما نزلت أخذ رسولُ الله ﷺ بأُذُنِ زيدٍ بن أرقم، ثم قال: «هذا الذي أوْفَى لله بأذنه».

اهـ [من محاسن التأويل للقاسمي]

وقول ابن أُبي ـ لعنه الله ـ لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُوا. هذا ما يعرف بلغة اليوم بسياسة التجويع، أو الحصار الاقتصادي وهو سلاح استخدمته من قبلُ قريش مع رسول الله ﷺ والمؤمنين معه في مكة، فحاصروهم في الشِعْب، وأمروا بعدم بيعهم والشراء منهم ليموتوا جوعًا أو يرجعوا عن دينهم.

ومساكينُ هؤلاء الذين يحاولون أن يقطعوا رزق الناس، أَهُمْ يملكون رزق أنفسهم فضلا عن غيرهم، حتى يقطعوه؟!

إن من رحمة الله بعباده أن جعل أهم الضروريات بيده؛ وهو الرزق والأجل، فلا أحد يستطيعُ أن يقطع رزق أحد، ولا أحد يستطيع أن يقدم أجل أحد، ولو كان الرزق والأجل بيد غير الله لمات الناس جوعا قبل أن يستوفوا أرزاقهم وآجالهم، ولذا قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء:٥٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء:١٠٠]، فلله الحمد أن كان ﴿لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فهو الذي يرزق الجميع، وهو الذي يستطيع أن يقطع رزق من شاء ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك:٢١]، ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فظنّوا أنهم يستطيعون أن يقطعوا الرزق عمن شاءوا، وغفلوا عن قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود:٦].

ولما قال عدوّ الله ابن أُبي: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذلّ، أذلّه الله على يد أقرب الناس إليه؛ ولده عبد الله، فقام في وجهه عند دخوله المدينة وقال: والله لا تدخُلها حتى يأذن لك رسول الله، فهو ـ والله ـ العزيز، وأنت الذليل. قال

ابن كثير - رحمه الله - : قال محمد بن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أُبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه، أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّه بلغني أنّك تريدُ قتل عبد الله بن أُبيّ فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسَه، فوالله لقد علمتِ الخزرجُ ما كان لها من رجلٍ أبرَّ بوالده منّي، إنّي أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظرُ إلى قاتل عبد الله بن أُبي يمشي في الناس، فأقتل مؤمنًا بكافر فأدخل النار. فقال رسول الله ﷺ: «بل نترفق به ونُحسن صحبته ما بقي معنا».

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة، وقف عبدُ الله بنُ عبد الله هذا على باب المدينة، واستلّ سيفه، فجعل الناس يمرّون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أُبيٍّ قال له ابنُه: وراءك. فقال: مالك ويلك؟! فقال: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنّه العزيزُ وأنت الذليل، فلما جاء رسولُ الله ﷺ، وكان إنما يسير ساقةً، فشكا إليه عبد الله بنُ أُبيٍّ ابنَه، فقال ابنُه عبدُ الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له رسول الله ﷺ فقال: أمّا إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجُزْ الآن. اهـ.

وهكذا يفعل الإيمانُ بأهله: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢]، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة:٥٥]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤].

ومما يجب أن يُعْلَم أن العزة للمؤمنين طالما كانوا مؤمنين قائمين بمقتضى الإيمان، مِنْ صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وحجٍ وجهادٍ وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر، ونحو ذلك، فإن هم لم يقوموا بذلك، وتركوه كلّه أو بعضه، ضُرِبت عليهم الذلّة، كما قال النبي ﷺ: «إذا تبايعتم بالعِينة، واتبعتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذُلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم».

ولذا قيل لأحد العلماء: أليس الله يقول: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فأين عزةُ المؤمنين؟ فقال العالم: لا تقل أين العزة؟ ولكن قل أين المؤمنون؟!!

ثم تختم السورة بأمر المؤمنين بذكر الله، ونهيهم عن التشاغل بالأموال والأولاد عن ذكر الله، فيقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين، ثم حثهم على الإنفاق في سبيله فقال: ﴿وَأَنْفِقُوا مِن مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فالرزق رزق الله، والمال ماله، وهو يأمركم بإنفاق بعض ما آتاكم، ولا يأمركم أن تنفقوا كل ما آتاكم؛ فلا تبخلوا، ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [محمد:٣٨] وسيندم عند الاحتضار، ويتمنّى أن يردّ إلى الدنيا لينفق مما آتاه اللهُ، ولن يُجَابَ إلى ما تمنّى، ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

فاتقوا الله عباد الله، ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ١٨ - ٢٠].

جعلنا الله وسائر إخواننا المسلمين من الفائزين. آمين.

سورة التغابن

●● الحلقة الأولى ●●

إعداد

د / عبد العظيم بدوي

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن:١-٦].

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد فإن سورة التغابن سورة مدنية أشبه ما تكون بالسور المكية لاهتمامها بالعقيدة وأصول الدين، حتى قال بعض العلماء إنها مكية.

استفتحت السورة ببيان تسبيح من في السموات والأرض بحمد الله لأنه الخالق المالك للسموات والأرض وما فيهما. ثم حذّرت الكافرين من عاقبة الكفر الوخيمة، ولفتتْ أنظارَهم إلى مصارع الكافرين من قبلهم ليعتبروا بهم. ثم تحدثت عن البعث بعد الموت وردّت على منكريه، وبيّنت جزاء كلٍّ من المؤمنين والكافرين.

كما بينت أن كل شيء بقضاء، وأن من يؤمن بقضاء الله يهد الله قلبه. وحذرت المؤمنين من الانشغال بأموالهم وأولادهم عن ذكر الله.

ثم ختمت بأمرهم بتقوى الله، والسمع والطاعة، والإنفاق في سبيل الله مما رزقهم الله، ووعدتْهم إن أنفقوا أن يضاعف الله لهم الأجر يوم القيامة: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ﴾ [الشعراء:٨٨].

هذه السورة هي آخر المسبّحات، وقد مضى الكلام عن تسبيح الكائنات لبارئها ومالكها.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أى هو وحده، لا غيره، وهذه حقيقة، كان المشركون قديمًا مقرين بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧]، حتى نشأت ناشئةٌ من الملحدين الذين أنكروا وجود الله بالكليّة، وردوا نشأتهم إلى الطبيعة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠) إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٠ - ٧٢].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾

أى هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك، فلا بدّ من وجود مؤمن وكافر، والمقصود بهذه الإرادة؛ الإرادةُ الكونية القدرية، لا الإرادة الشرعية الدينية، والإرادة الكونية تتعلّق بالخلق والإيجاد، وأما الشرعية فإنها تتعلق بالأمر والنهي، وهذه التي تدل على الحب والكره، دون الأولى؛ فكل ما أمر الله به فهو يحبه، وإن لم تتعلق به الإرادة الكونية، وكلّ ما نهى عنه فهو يكرهه وإن تعلقت به الإرادة الكونية، فإنها - أي الشرعية - لا تتعلق إلا بما يحب، فإيمان المؤمن تعلقت به الإرادتان الشرعية والقدرية، وكفر الكافر تعلقت به الإرادة القدرية دون الشرعية، لأن الله لم يأمر بالكفر بل نهى عنه وتوعد عليه، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٨، ٢٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠].

وقدم تعالى ذكر الكافرين لكثرتهم وقلّة المؤمنين، ولذا قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ٥].

ولذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أن الله يقول لآدم يوم القيامة: «ابعث بعث النار من ذريّتك. فيقول يا ربّ كم؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين» [متفق عليه، رواه البخاري (٤٧٤١/٤٤١/٨)، ومسلم (٢٢٢/٢٠١/١)]

فلا تغتر يا عبد الله بكثرة السالكين طريق الباطل، ولا تستوحش من طريق الحق وإن قل سالكوه.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: وهو سبحانه بصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، وهو شهيد على أعمال عباده، وسيجزيهم بها أتم الجزاء.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالعدل والحكمة، ولم يخلقهما عبثا، كما قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وكما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

وفي الحديث أن النبي ﷺ رأى رجلا يجر ثوبه فتبعه فقال: «ارفع إزارك» فكشف الرجل عن ركبتيه فقال: يا رسول الله إني أحنف وتصطك ركبتاي، فقال رسول الله ﷺ: «كل خلق الله عز وجل حسن».

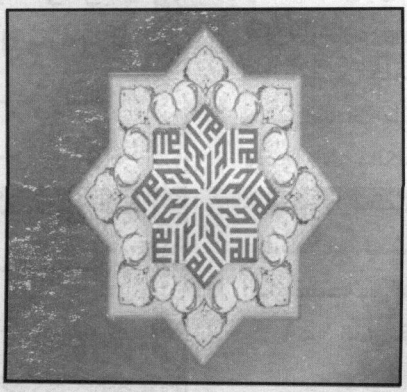

فالحمد لله الذي حسن خلقنا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع والمآب،

للحساب والجزاء، ﴿ يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة: ١٣]. ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ثم أخبر تعالى عن علمه الذي قد أحاط بكل شيء فقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧].

وكما قال تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [التغابن:٤].

كقوله تعالى: ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الملك: ١٣].

وقوله: ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [هود: ٥].

ثم لفت الله أنظار الكفار إلى مصارع الكافرين من قبلهم.

ليعتبروا بهم، فيرجعوا عمّا هم عليه من الكفر، فقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ٦ -١٤]. ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ [العنكبوت: ٤٠]. ﴿ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾ أي وخيم تكذيبهم، ورديء أفعالهم، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي في الآخرة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ كل ظالم، وكل طاغية ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [الحشر:٢].

وجملة ما أصابهم: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الواضحات والبراهين الثابتات، على أنهم رسل الله ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ ﴿ لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [فصلت: ١٤]، ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾. كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧، ٨].

وفي الحديث القدسي: قال الله تعالى: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرّي فتضرّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي؛ لو أنّ أوّلكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا» [مسلم (٢٦٧٧)].

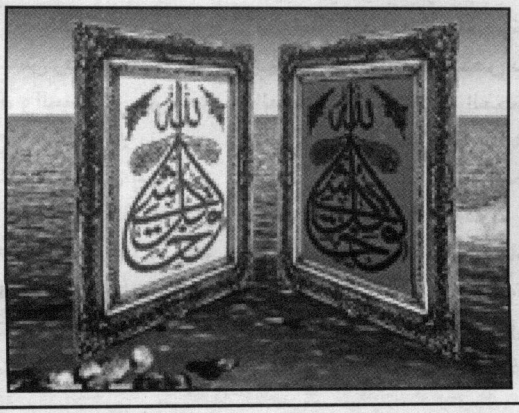

سورة التغابن

الحلقة الثانية

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ٧- ١٢]

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

تفسير الآيات

يقول تعالى مخبرًا عن الكفار والمشركين والملحدين: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ فكذَّبهم فيما أخبر عنهم به بنفس صيغة الخبر، فإن الزعم مطيةُ الكذب- كما يقولون-.

ثم أمر اللهُ نبيه أن يقسم بربّه على أنّ البعث حق، لا كما زعموا، فقال تعالى: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾، وهذه ثالثةُ ثلاثِ آياتٍ أمر الله فيها نبيه أن يقسم بربه على أن البعث حق، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، وقد أقسم الرب سبحانه بنفسه على أن البعث حقّ، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٦- ٦٨]، فأقسم الربُّ سبحانه بذاته على بعث عباده، وأمر نبيّه ﷺ أن يقسم أيضًا بربّه على ذلك، فمن كذّب بعد ذلك فالنار أولى به، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١١- ١٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾. كقوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وكقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]؟

عن صفوان بن محرز قال: كنت آخذًا بيد ابن

عمر إذ عرض له رجلٌ فقال: كيف سمعت رسول اللَّه ﷺ يقولُ في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «إنّ اللهُ يدني المؤمن فيضعُ عليه كنَفَه ويسترُه من الناس، ويقرّره بذنوبه، ويقول له: أتعرفُ ذنب كذا؟ أتعرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرفُ ذنب كذا؟ حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنْ قد هلك، قال: فإنّي قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يُعْطَى كتابَ حسناتِه. وأما الكفارُ والمنافقون فيقولُ الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربّهم، ألا لعنة الله على الظالمين». [متفق عليه].

وقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: بعثكم ومجازاتكم، كما قال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ولما أخبرهم سبحانه أنهم مبعوثون، وبأعمالهم مجزّيون، أرشدهم إلى طريق النجاة، فقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ يعني القرآن.

وقد سمّى الله كتابه نورًا في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، فبالقرآن يستضيء الحيارى في ظلمات الكفر والجهل والضلالة، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا تخفى عليه من أعمالكم خافية، فراقبوه، واستحيُوا أن يراكم حيث نهاكم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ وهو يوم القيامة؛ سمّي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]. اهـ من ابن كثير.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ والتغابن في الأصل: من الغبن وهو الخداع في البيع والشراء، فمن باع سلعةً بأقلّ مما تستحق، أو اشتراها بأكثرَ مما تستحق، فهو مغبون، فأراد الله أن يُعْلِمَ عباده أن الغبْن الحقيقي هو ما يكون في الآخرة، حين يَغْبِنُ أهلُ الجنة أهلَ النار، وذلك حين يأخذ المؤمن منزل الكافر في الجنة، ويعطيه منزله في النار، وتوضيح ذلك أن الله خلق لكلِّ عبد منزلين، منزلاً في الجنة، ومنزلاً في النار، فمن آمن فقد فاز بالجنة، ونجا من النار، ومن كفر فقد فاتته الجنة وفاز بالنار، فإذا كان يوم القيامة أعطى المؤمنُ الكافرَ منزلَه في النار، وأخذ منزلَه في الجنة، وذلك هو التغابن الكبير.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فيه أن النجاة إنما تكون بالإيمان والعمل الصالح، والإيمان معروف، أما العمل الصالح فلا بد أن يكون خالصًا لله، وموافقًا هدي

رسول الله ﷺ، حتى يكون مقبولاً، فمن آمن وعمل صالحًا فإنّ الله يكفّر عنه سيئاته، فلا يُجْزَى بها، بل يُجْزَى بحسناته، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ واضح المعنى.

ولما كانت الدنيا دار البلاء والمحن والشدائد والمصائب، أرشد اللهُ عباده إلى ما يستعينون به على هذه المصائب وهو الإيمان بأنها بقضاء الله، فقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كما قال تعالى في سورة الحديد: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، فكلُّ شيءٍ بقضاء الله، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ فيعلم أن ما أصابه فبقضاء الله، فيصبر ويحتسب ويستسلم لقضاء الله، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، ويعلم أن الأمّة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعوا على أن يضرّوه بشيءٍ لم يضروه إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليه، من يؤمن بهذا ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ اللهُ تعالى، ويرزقْه السكينة والطمأنينة، فلا يجد حرَّ المصيبة، بل تكون على قلبه بردًا وسلامًا، فيكون أمره كله له خيرًا، كما قال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كلَّه له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابتْه سرّاءُ شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاءُ صبر فكان خيرًا له». فوطِّن نفسك يا عبد الله على الرضا بقضاء الله، وإذا أصابتك مصيبة فقل: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، اللهم أجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرًا منها. ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، فإنّ الرسول ﷺ قال: «ومن يتصبّر يصبرّه الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر».

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ من الفوائد غير ما ذكرنا أن الإيمان من أسباب زيادة الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧] بينما أهل الزيغ والضلال يُزيغ اللهُ قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

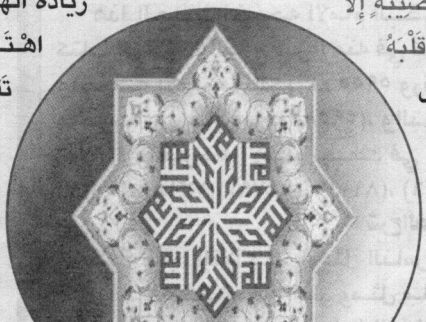

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: أي: لا تخفى عليه خافيةٌ، وأنه سبحانه قد أحاطَ بكل شيء علمًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، والآيات في ذلك كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، فإن الفوز والنجاة في طاعة الله ورسوله، ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ يعني: وقد أداه، فليس عليه من أوزاركم شيء.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

سورة التغابن

الحلقة الأخيرة

﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [التغابن: ١٣- ١٨].

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ خبرٌ متضمن الأمر بالتوحيد، ومعنى ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا الله، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وعن النبي ﷺ أنه قال: «من قال- يعني إذا خرج من بيته-: بسم الله، توكلتُ على الله، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله، يقال له: هُديت وكُفيت ووُقيت، وتنحّى عنه الشيطان، فيقول شيطان آخر: كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي»: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٤] آمين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلاَدِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾، فليس كل الأولاد والأزواج أعداء، ولكن منهم أعداء، فخذوا حذركم، لا يشغلوكم عن ذكر الله، ولا يحضوكم على معصيته، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]. ولما أمر الله بالحذر من الأزواج والأولاد أرشد إلى العفو والصفح لما يكون

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

منهم من زلات، فقال: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً سأله عن هذه الآية، فقال: هؤلاء رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعوهُم، فلما أتَوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم كرر الله تعالى التحذير فقال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار من الله تعالى وابتلاء لخلقه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ وليعلم من يطيعه ومن يعصيه.

عن عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي بريدة يقول: كان رسول الله ﷺ يخطب فجاء الحسنُ والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمرانِ يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: «صدق الله

ورسوله، إنما أموالكم وأولادكم فتنة، نظرتُ إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبرْ حتى قطعتُ حديثي ورفعتُهما».

وختام الآية: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يُشعر بأن ما عند الله من الأجر والثواب خيرٌ من الأموال والأولاد، كما قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٦]. وكما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: جهدكم وطاقتكم، كما قال ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه». وقد قال بعض المفسرين: إن هذه الآية ناسخةٌ للتي في «آل عمران»، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، والراجح أنها ليست ناسخةً، ولكنها مفسرة، فمن اتقى الله قدر جُهده وطاقته فقد اتقى الله حق تقاته، وهكذا تختلف التقوى من واحدٍ لآخر، حسب جهدِ كلٍّ وطاقته. وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه في حقّ التقوى: أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وقوله تعالى: ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ أي: كونوا منقادين لما يأمركم به الله ورسوله، اسمعوا وعوا واعملوا، وكونوا كما وصف الله عباده المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، كونوا من ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، إن الخطب كثيرة، والمواعظ كثيرة، والدروس كثيرة، ولكن العمل قليل، والسببُ أن كثيرًا من الناس يسمعون للثقافة، يسمعون للتسلية، وليست عندهم نية العمل، والواجب على من يسمع أن يعمل، وإلا كان ما يسمعه من العلم حجةً عليه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: وابذلوا مما رزقكم الله على الفقراء والمساكين، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم، ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً﴾ إن أنتم أنفقتم، فـ﴿أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. إن الشح داءٌ خطير، وشرٌّ مستطير، لا يجتمع والإيمان في قلب عبد أبدًا، كما قال النبي ﷺ: «لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنم في جوف عبد أبدًا، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدًا». ولقد كان ﷺ يحذر أمته من الشح فيقول: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».

لهذا كله قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ولذا كان السلف حريصين على السلامة من الشح، حتى قال أبو الهياج الأسدي: كنت أطوف بالبيت، فرأيت رجلاً يقول: اللهم قني شحّ نفسي، لا يزيد على ذلك، فقلتُ له، فقال: إني إذا وُقِيتُ شح نفسي لم أسرق ولم أزْنِ ولم أفعل. وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف. نسأل الله أن يقينا شح أنفسنا.

ثم تعود الآيات فتحثّ على الإنفاق في سبيل الله بطريقة أخرى، فتسمي الإنفاق قرضًا، وتعد بتضعيفه، فتقول: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ أضعافًا كثيرة، بينتها آية البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾، ففي تسمية الله الإنفاق قرضًا حث للعباد على الإنفاق، وترغيب لهم فيه، فإن هذا المال الذي ينفقونه قرضٌ مردود بخلاف الصدقة، والذي يعد بالوفاء الله سبحانه، ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾؟! لا أحد، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل الله في السماء الدنيا لشطر الليل، أو لثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فاستجيب له، أو يسألني فأعطيه، ثم يقول: من يُقْرِض غير عديم أو ظلوم». ومع الوعد بالتضعيف وعد آخر، وهو ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم، ويكفر عنكم سيئاتكم، ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾، يجزي على القليل بالكثير، وهو سبحانه «حليم» يعفو ويغفر، ويتجاوز ويستر، ويمهل ولا يعجل، كما قال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾.

والحمد لله رب العالمين.

ترغيب الرحمن في صيام رمضان

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[البقرة: ١٨٣- ١٨٥]

إعداد

د. عبد العظيم بدوي

تفسير الآيات

هذه هي آياتُ الصيام في القرآن الكريم ولم تتكرر في غير هذا الموضع، ولقد لبث النبي ﷺ في مكة عشر سنين يدعو إلى التوحيد الذي هو أصل الدين وركنه المتين، ثم عُرج به إلى السماوات العُلا حيث فرض الله عليه وعلى من آمن معه خمس صلوات في اليوم والليلة، ثم هاجر إلى المدينة وليس معه من أركان الإسلام إلا الشهادتان وإقام الصلاة. لمَّا قدم المدينة وجدهم يصومون يومًا- يعني عاشوراء- فقالوا: هذا يوم عظيم وهو يوم نجى الله فيه موسى وأغرق آل فرعون فصام موسى شكرًا لله، فقال: «أنا أولى بموسى منهم»، فصامه وأمر بصيامه.

[متفق عليه]

ولما نزلت هذه الآيات بفرض الصيام، فنسخت وجوب صيام عاشوراء وبقي استحبابه.

فصيام رمضان فريضةٌ كما نطق به كتاب ربنا، وهو رُكن من أركان الإسلام كما صرح بذلك نبينا ﷺ. فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والحج وصوم رمضان». [متفق عليه].

وقد أجمعت الأمةُ على وجوب صوم رمضان، فمن أنكره وجحد فرضيته فهو كافر، ومن تهاون بصيامه وأفطر من غير عُذر فهو عند العلماء شر من الزاني ومُدمن الخمر، بل يشكون في إسلامه ويظنون به الزندقة والانحلال.

ولما كان الصوم هو حبس النفس عن شهواتها وهو مما يشقُّ عليها فقد رغب الله تعالى عباده في الالتزام بهذه الفريضة والمحافظة عليها بأكثر من أسلوب.

فاستفتح الله تعالى آيات الصيام بنداء عباده بهذا اللقب المحبب إلى نفوسهم لقب الإيمان تذكيرًا لهم بما يقتضيه الإيمان من

السمع والطاعة وفورية الاستجابة، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ثم أخبر سبحانه عباده المؤمنين أنهم لم يُختصوا بهذه الفريضة وإنما كانت مفروضة على الأمم السابقة، وفي هذا الإخبار «تنشيط لهم، بأنه ينبغي لهم أن ينافسوا غيرهم في الأعمال، والمسارعة إلى صالح الخصال».

[تفسير السعدي ٢٢٠/١]

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

ثم رفع لهم الغاية من هذه الفريضة حتى تكون نُصب أعينهم، فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وهم يعلمون مقام التقوى عند الله ووزنها في ميزانه، فهي غايةٌ تتطلع إليها أرواحهم، وهذا الصوم أداةٌ من أدواتها، وطريقٌ موصل إليها، ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفًا وضيئًا يتجهون إليه عن طريق الصيام.

فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

ومما اشتمل عليه الصيام من التقوى:

إن الصائم يترك ما حرَّم الله عليه من الأكل والشرب والجماع متقرِّبًا بذلك إلى الله، راجيًا بتركها ثوابه، فهذا من التقوى.

ومنها: أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه.

ومنها: الصيام يضيِّق مجاري الشيطان فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فالصيام يضعف نفوذه، وتقل المعاصي.

ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعاته، والطاعات من خصال التقوى.

ومنها أن الغنيَّ إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى.

ومن أساليب الترغيب: قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ فليس فريضة العمر وتكليف الدهر، ومع هذا فقد أُعفي من أدائه المرضى حتى يصحوا، والمسافرون حتى يقيموا تخفيفًا وتيسيرًا.

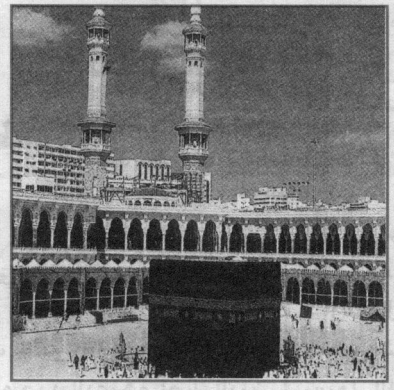

ومن أساليب الترغيب: التخيير بين الصوم والفدية وبيان أن الصوم خيرٌ من الفدية، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فلما رأى الله تعالى منهم إقبالاً على هذه الطاعة، وحرصًا على هذه الفريضة، ورغبة في الخير المترتب عليها، أمرهم بها أمر إلزام، فقال: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، فنسخ بذلك التخيير، وأبقى الفدية للشيخ الكبير والمرأة العجوز، كما أبقى الرخصة للمريض حتى يصحّ وللمسافر حتى يقيم، إلا أن يشاءا الصوم ما لم يضرَّهما.

عن معاذ بن جبل قال: أحيل الصيام ثلاثة أحوال: قدم رسول الله ﷺ المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، وقال يزيد: فصام سبعة عشر شهرًا من ربيع الأول إلى

رمضان من كل شهر ثلاثة أيام وصام يوم عاشوراء، ثم إن الله عز وجل فرض عليه الصيام، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ إلى هذه الآية: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ قال: فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكينًا، فأجزأ ذلك عنه، قال: ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، قال: فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام، فهذان حولان، قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا فإذا ناموا امتنعوا، قال: ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له صِرْمةُ ظل يعمل صائمًا حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائمًا. قال: فرآه رسول الله ﷺ وقد جهد جهدًا شديدًا، قال: ما لي أراك قد جهدت جهدًا شديدًا؟ قال: يا رسول الله، إني عملت أمس فجئت حين جئت فألقيت نفسي فنمت واصبحت حين أصبحت صائمًا، قال: وكان عمر قد أصاب من النساء من جارية أو من حرة بعدما نام وأتى النبي ﷺ فذكر ذلك، فأنزل الله عز وجل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾، وقال يزيد: فصام تسعة عشر شهرًا من ربيع الأول إلى رمضان.

وكما رغب الله تعالى عباده في الصوم، رغب فيه النبي ﷺ وحثهم عليه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه».

وعن سهل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة بابًا يقال له: الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحدٌ غيرهم يقال: أين الصائمون فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغلق فلم يدخل منه أحد».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «قال الله: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربه فرح بصومه».

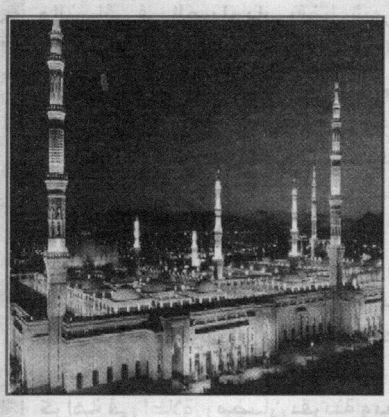

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه، قال: فيشفعان».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقًا على الله أن يدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها».

نسأل الله عز وجل أن يتقبل منا صالح الأعمال. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحمد لله على الإكمال

قال تعالى: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

لمَّا ذكر الله تعالى أحكام الصيام وفِقْهَه، وعزائمه ورخصه، أمر عباده إذا أكملوا عدة الشهر وأتموا صيامه أن يكبروه شكرًا على ما هداهم إليه من الصيام وغيره من الطاعات، وكذلك أمرهم إذا قضوا مناسكهم فقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [الحج: ١٩٨- ٢٠٠]، وهكذا أمر الله تعالى مَنْ هدى مِن عباده أن يشكروه على ما هداهم، لأنه أعطاهم ما لم يُعْط غيرهم، وفضلهم واختصهم، كما قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]، والمراد بهذه الهداية التي أمر الله المهتدين بشكرها هداية التوفيق التي معناها خَلْقُ قدرة الطاعة، لأن الهداية أنواع:

هداية عامة: وهي هدايةُ المخلوقات كلها لما هي ميسرة له كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

وهدايةُ البيان والدلالة والإرشاد.

والمراد بها دلالةُ الإنسان على طريق الخير والشر، وتعريفه الحق والباطل، والهدى والضلال، والغيَّ والرّشاد كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، ولهذه الهداية بعث الله الرسل وأنزل الكتب فقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال في حق الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال في حق القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال في حق التوراة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: ٥٣، ٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

والنوع الثالث هداية التوفيق:

وهو خَلْق قُدرة الطاعة والإعانةُ على الاستجابة، وهذه هداية خاصة ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ

مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦]، وهذه الهداية لا يملكها إلا الله وحده، ولذلك كانت من دلائل الألوهية كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقال الخليل إبراهيم: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وأمر خليله محمدًا ﷺ أن يُقيم الحجة على المشركين بقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٤، ٣٥]، فالتوفيق للطاعة والإعانةُ عليها لا يملكه إلا الله، ولذلك قال الله تعالى لنبيه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، مع أن الله تعالى قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فَعُلم أن الهداية الثانية المثبتة غيرُ الهداية المنفيَّة عنه، فالمثبتةُ هي هدايةُ البيان والدلالة والإرشاد التي تتمُّ عن طريق الدعوة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣]، أما التوفيق لقبول الدعوة والانتفاع بهدايتها فذلك لله وحده دون غيره، ولذلك أمرهم أن يستهدوه فقال في الحديث القدسي: «يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم».

والإنسان محتاجٌ إلى الهداية أشدُّ من حاجته إلى الطعام والشراب؛ لأنه لو فقد الطعام والشراب فمات وكان من المهتدين دخل جنَّات النعيم: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥]، أما إذا فقد الهداية فقد شقي في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٣، ٣٤].

ومعنى ذلك أن الهداية إلى الحقِّ والرشاد خيرٌ من الدنيا وما فيها، فمن هُدي إلى صراط الله المستقيم فقد أوتي خيرًا كثيرًا ووجب عليه أن يفرح بما أوتي كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، «وقد تنوعت عبارات السلف في تفسير الفضل والرحمة والصحيحُ أنها الهدى والنعمة، فَضلُه هداه ورحمتُه نعمته». [الفوائد لابن القيم ١٣٣]. ووجب على هدى إلى صراط مستقيم أن يشكر الهادي كما أمر سبحانه، فإنَّ الشكر من موجبات الزيادة كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقد اختلفت عباراتُ العلماء في معنى الشكر، وخلاصة القول: أن الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، فأما الشكر بالقلب فهو الاعتقاد والاعتراف والمحبة والانقياد والخضوع، بمعنى أن يكون القلب معتقدًا معترفًا بأنَّ ما بالعبد من نعمة فمن الله وحده لا شريك له، لذلك يحب المنعم محبة تستلزم الخضوع والانقياد والتسليم لأمره.

وأما شكر اللسان فيكون بالاعتراف بالنعم والتحدّث بها والثناء على الله من أجلها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وقال ﷺ: «التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر»، وأن يكثر العبد من قول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وأما الشكر بالجوارح فهو: أن يُسخرها في

طاعة الله وينهاها عن معصيته، فيكون نظرُه في آيات الله المنظورة والمقروءة، وسمعه لآيات الله المسطورة والمكتوبة، ويده في الخير ممدودة، وعن الشر مقصورة، ورجله إلى الخير تسعى وهكذا، وعلى العبد أن يستعين بالله على شكره، كما أثنى الله تعالى بذلك على سليمان فقال: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وقال عن الإنسان: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك»، فقال: أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

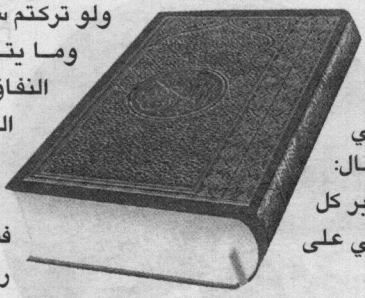

وقد جرت سنةُ الله تعالى بجعل قبول هداية الأنبياء سببًا لهداية التوفيق، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]، فلما سمعوا دعوة الرسول إلى الإيمان فآمنوا هداهم الله ووفقهم وشرح صدورهم للإسلام وحبَّب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين، ولذلك قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

وأما الذين سمعوا الهدى وصَمُّوا أذانهم وعاندوا واستكبروا فإنَّ الله يعاقبهم بالحرمان من الانتفاع بما سمعوا من الهدى، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

عن عبد الله قال: من سره أن يلقى الله عز وجل غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات الخمس حيث يُنادى بهن فإنهن من سنن الهدى، وإن الله شرع لنبيكم ﷺ سنن الهدى، ولعمري لو أن كلكم صلى في بيته لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد رأيت الرجل يهادى بين الرجلين حتى يدخل في الصف وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور فيعمد إلى المسجد فيصلي فيه فما يخطو خطوة إلا رفع الله له بها درجة وحط عنه بها خطيئة.

فيا أيها الراغب في الهداية الحريص عليها، احرص على السنة واستمسك بها، فكلما فعلت سنة ازددت هدى، وكلما ازددت اتباعًا ازددت هدًى، وعلى قدر ما تترك من السنة تنقص هدايتك، فأهدى الناس سبيلاً هم أتباع النبي ﷺ المستمسكون بسنته، وأضل الناس سبيلاً هم أهل الأهواء والبدع، قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠] ،

فمن قامت عليه الحجة بهداية البيان والدلالة والإرشاد فآمن زاده الله هدى، ومن بلغته الدعوة فعاند أضله الله وختم على قلبه، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي

آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٣- ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]، ولذلك قال مؤمنوا الجن بعد أن هداهم الله: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

فمن أجاب محمدًا ﷺ فقد اهتدى، ومن أعرض عنه فقد ضلّ وغوى، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣١، ٣٢].

كما جرت سنته تعالى بجعل أعمال البرّ سببًا للهداية وجعل أعمال الفجور سببًا للضلالة، قال تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١- ٥]، وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

فيا أيها الراغب في النجاة الحريص على الهداية، جاهد نفسك على فعل الخير وأعمال البر التي جعلها الله سببًا للهداية، فإن الله تعالى، قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، واعلم أن الله غني عن العالمين، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٥، ٦].

وفرّ إلى الله تعالى بالدعاء وألحّ عليه في السؤال: «اللهم اهدني فيمن هديت»، «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»، فإنه من استهدى الله هداه، واعلم أن حاجتك إلى الهداية شديدة وما لم يحصل لك منها أضعاف أضعاف ما حصلت فأنت بحاجة دائمًا إلى سؤال الله الهداية، ولذلك فرض الله على من هداهم للصلاة أن يسألوه في كل ركعة الهدى وعلّمهم أن يقرءوا في الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وليس المراد ثبتنا ولكنه اهدنا لما لم نهتد إليه بعد، فإنّ درجات الهداية متباينة، وكلما انتهى الإنسان إلى درجة كانت فوقها درجات.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الطلاق

•• الحلقة الأولى ••

إعداد

د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [الطلاق: ١، ٢].

بين يدي السورة

إنّ الحياة الزوجية لا تقومُ إلا على أساس من المودة والرحمة، وقيام كلّ من الزوجين بما عليه لصاحبه من الحقوق، وقد يقصّر كلٌّ منهما أو أحدُهما في القيام بواجبه فيكرهه صاحبه، والله سبحانه يرشد الرجالَ إلى الصبر على ما يكرهون من أزواجهم، فيقول تعالى: ﴿ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١]، ويقولُ النبيّ ﷺ: «لا يفرك مؤمنٌ مؤمنةً، إن كره منها خُلُقًا، فقد رضي منها آخر».

[صحيح. رواه مسلم (٤٦٩/١٠٩١/٢)]

ولكن رُبما يتفاقمُ الأمرُ، ولا يستطيعُ الرجلُ الصبرَ، فيرشدُه اللهُ تعالى إلى طرق العلاج التي يُقوِّمُ بها ما يجده من المرأة من تقصير ونشوز، فيقول تعالى: ﴿ وَاللاَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٤]، وربما كان النشوز من الرجل نفسه، فيرشد الربُّ سبحانه المرأةُ إلى طرق علاج نشوز الرجل فيقول: ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٨].

فإذا اشتدّ الخلاف، وازداد الشقاق بينهما، ولم يمكنهما القضاءُ عليه وجب تدخلُ الأهل بينهما للنظر في الأمور، وفعل الأصلح، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء:٣٥]، فإن وُفِّقا فبها ونعمت، ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا

يُغْنِ اللَّهُ كُلاً مِنْ سَعَتِهِ﴾، وهذا التفرّق هو الطلاق الذي تتحدث السورة الكريمة عن أحكامه وما يترتب عليه من سكنى ونفقة وعدّةٍ وغير ذلك.

وقد تضمنت السورةُ حشدًا هائلاً من الترغيب والترهيب لبيان خطورة الأمر، والإشعار بأنّ هذه الأحكام المذكورة في هذه السورة يجب الالتزام بها، والوقوفُ عند حدودها، فإنّ من يخالفها يحاسبه الله حسابًا شديدًا ويعذّبه عذابًا نكرًا، وتكون عاقبةُ أمره خسرا.

تفسير الآيات

الطلاق في اللغة: مأخوذٌ من الإطلاق، وهو الإرسالُ والترك، تقول: أطلقتُ الأسير، إذا حللتَ قَيْدَه وأرسلْتَه.

وهو في الشرع: حلُّ رابطةِ الزواج، وإنهاءُ العلاقةِ الزوجية.

وقد كان الرجلُ في الجاهلية وصدر الإسلام يطلّق امرأتَه ما شاء، وهي امرأتُه إذا راجعها في العدّة، وإنْ طلّقها مائة مرةٍ أو أكثر، حتى قال رجلٌ لامرأته: والله لا أطلّقك فتبيني مني، ولا آويك أبدًا. قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلّقك، فكلما همّتْ عدّتك أن تنقضي راجعتُك. فأنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾. قال العلماء: الطلاق نوعان: سُنيّ وبدعيّ. فطلاق السنة هو الواقع على الوجه الذي ندب إليه الشرع، وهو أن يطلّق الزوجُ المدخولَ بها طلقةً واحدةً، في طهرٍ لم يمسسها فيه؛ لقول الله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أي أنّ الطلاق المشروعَ يكون مرةً يعقبها رجعة، ثم مرةً ثانيةً يعقبها رجعةٌ كذلك، ثم إنّ المطلّق بعد ذلك له الخيار، بيْنَ أن يمسكها بمعروف أو يفارقها بإحسان.

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: إذا أردتم تطليق النساء فطلقوهنّ مستقبلاتِ العدة، وإنما تستقبلُ المطلّقةُ العدّة إذا طلّقها بعد أن تطهر من حيض أو نفاس، وقبل أن يمسّها، وحكمةُ ذلك: أن المرأةَ إذا طُلّقتْ وهي حائضٌ لم تكن في هذا الوقت مستقبلةً العدّة، فتطول عليها العدّة؛ لأن بقية الحيض لا يحسب منها، وفيه إضرارٌ بها، وإن طُلّقتْ في طهرٍ مسّها فيه، فإنها لا تعرف هل حملت أو لم تحمل، فلا تدري بم تعتد، أتعتدّ بالأقراء أم بوضع الحمل؟

عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: أنه طلّق امرأته وهي حائض على عهدِ رسولِ الله ﷺ، فسأل عمرُ بنُ الخطاب رسولَ الله ﷺ عن ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «مُرْه فليراجعها، ثم ليمسكْها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إنْ شاء أمسك بعد ذلك، وإن شاء طلّق قبل أن يمسّ، فتلك العدّة التي أمر الله سبحانه أن تطلّق لها النساء». [متفق عليه]

أما الطلاق البدعيّ: فهو الطلاق المخالفُ للمشروع، كأن يطلّقها ثلاثًا بكلمةٍ واحدةٍ، أو يطلّقها ثلاثًا متفرقاتٍ في مجلسٍ واحدٍ، كأن يقولَ: أنتِ طالقٌ، أنتِ طالقٌ، أنتِ طالقٌ. أو يطلّقها في حيضٍ أو نفاس، أو في طهر جامعها فيه.

وأجمع العلماء على أنّ الطلاق البدعيّ حرام، وأنّ فاعله آثم.

وذهب جمهورُ العلماء إلى أنه يقع، واستدلّوا بالأدلّة التالية:

١- أنّ الطلاق البدعيّ مندرج تحت الآيات العامة.

٢- تصريحُ ابن عمر رضي الله عنه لما طلّق امرأته وهي حائض، وأمرهُ الرسول ﷺ بمراجعتها، بأنها حُسِبَت تلك الطلقة. انتهى من «فقه السنة».

فعُلم من هذا أن هناك وقتًا معينًا لإيقاع الطلاق، وأنه ليس للزوج أن يطلّق حينما شاء، إلا أن تكون امرأتُه في حالة طهرٍ من حيض، ولم يقعْ بينهما في هذا الطهر وطء. وتفيدُ آثار أخرى أنّ هناك حالةً ثانيةً يجوزُ فيها الطلاق، وهي أن تكون الزوجةُ حاملاً بيّنة الحمل. والحكمةُ في ذلك التوقيت هي أولاً إرجاء إيقاع الطلاقِ فترةً بعد اللحظة التي تتجه فيها النفسُ للطلاق، وقد تسكن الفورةُ إن كانت طارئةً وتعود النفسُ إلى الوئام، كما أنّ فيه تأكدًا من الحمل أو عدمه قبل الطلاق، فقد يمسك عن الطلاق لو علم أن زوجه حاملٌ، فإذا مضى فيه وقد تبيّن حملُها دلّ على أنه مريدٌ له ولو كانت حاملاً. فاشتراط الطهر بلا وطء هو للتحقق من عدم الحمل، واشتراط تبين الحمل هو ليكون على بصيرةٍ من الأمر.

وهذه أوّل محاولة لرأب الصدع في بناء الأسرة، ومحاولةِ دفع المعْول عن ذلك البناء».

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ أي: احفظوها، واعرفوا ابتداءَها وانتهاءها، لئلا تطولَ العدّة على المرأة فتمتنع من الأزواج.

والعدّة: اسم للمدة التي تنتظر فيها المرأة،

وتمتنع عن التزويج بعد وفاة زوجها أو فراقه لها.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾. يعدّ أول تنبيه وأول تحذير من الله، بعد الأمر بأن تطلّق النساء لعدّتهن، وأن تُحصى العدة، وقبل النهي عن إخراج المعتدة من بيت زوجها الذي سمّاه الله بيتها. وذلك لأن التقوى هي خير معين على امتثال ما أمر الله به، وترك ما نهي عنه.

ثم قال تعالى: ﴿لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾، وهذا أدبٌ قد غفل عنه جلُّ الناس إلا من رحم الله، فما أن يطلّق الرجلُ المرأة حتى تخرجَ إلى بيت أهلها، وإنْ بقيتْ أخرجها هو، والله يقول: ﴿لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ فالمطلقة طلاقًا رجعيًا لها حقّ السكنى والنفقة، فليس للرجل أن يُخرجَها من بيتها ما دامت في عدّتها منه، ولا يجوز لها أيضًا الخروجُ لأنها معتقلة لحقّ الزوج، فإن أتت بفاحشةٍ كالزنى او أذيةٍ وإساءة له أو لأهله أخرجها حينئذ. وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾، وهذا هو التحذير الثاني، فالحارس لهذا الحكم هو الله، فهل يتعرض مؤمن لحدّ يحرسه الله؟ إنه الهلاك والبوار. ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ظَلَمَ نفسه بتعريضها هكذا لبأس الله، القائم على حدوده يحرسها ويرعاها، وظَلَمَ نفسه بظلم زوجه.

قوله تعالى: ﴿لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ فيه إشارة إلى حكمه بقاء المعتدّة في منزل الزوج، وهي الأمل في الرجعة، فالقلوب بيد الله، يقلّبها كيف يشاء، وقد تتغير الأحوال وتتبدل إلى هناءة ورضًى، ومن يدري: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾.

«من ههنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم كالإمام أحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة أي المقطوعة، وكذا المتوفّى عنها زوجها، واعتمدوا أيضًا على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية حين طلّقها زوجُها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاثِ تطليقات، وكان غائبًا عنها باليمن، فأرسل إليها وكيلُه بشعير، يعني نفقة، فتسخّطته، فقال: والله ليس لك علينا نفقة. فأتت رسول الله ﷺ فقال: «ليس لك عليه نفقة». ولمسلم: «ولا سكنى». وأمرها أن تعتدّ في بيت أمّ شُريك، ثم قال: «تلك امرأةٌ يغشاها أصحابي، اعتدّي عند ابن أم مكتوم، فإنه رجلٌ أعمى تضعين ثيابك» الحديث. وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر فقال: حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا مجالد حدثنا عامر قال: قدمتُ المدينة فأتيتُ فاطمة بنت قيس، فحدثني أنّ زوجَها طلّقها على عهد النبي ﷺ، فبعثه رسولُ الله ﷺ في سرية، قالت: فقال لي أخوه: اخرجي من الدار. فقلت: إنّ لي نفقةً وسكنى حتى يحلّ الأجل. قال: لا. قالت: فأتيتُ رسول الله ﷺ، فقلتُ: إنّ فلانًا طلقني، وإنّ أخاه أخرجني ومنعني السكنى والنفقة. فقال له: «ما لك ولابنة آل قيس؟» قال: يا رسول الله، إنّ أخي طلّقها ثلاثًا جميعًا. قالت: فقام رسول الله ﷺ: «انظري يا بنت آل قيس، إنما النفقة والسكنى للمرأةِ على زوجها ما كانتْ له عليه رجعةٌ، فإذا لم يكن له عليه رجعةٌ فلا نفقةَ ولا سكنى». وذكر تمام الحديث. اهـ من ابن كثير.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: فإذا بلغت المعتداتُ أجلهن، أي شارفن على انقضاءِ العدة، وقاربن ذلك، ولكنْ لم تفرغ العدة الكلية، فحينئذٍ إما أنْ يعزمَ الزوج على إمساكها، وهو رجعتُها إلى عصمة نكاحه، والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده «بِمَعْرُوفٍ» أي: محسنًا إليها في صحبتها، وإمّا أن يعزم على مفارقتها «بِمَعْرُوفٍ» أي: من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف، بل يطلّقها على وجه جميل حسن». انتهى من ابن كثير.

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ ففي حالتي الفراق أو الرجعة تطلب الشهادةُ على هذه وتلك. شهادةُ اثنين من العدول، قطعًا للريبة، فقد يعلم الناسُ بالطلاق ولا يعلمون بالرجعة، فتثور شكوك، وتُقال أقاويل. والإسلامُ يريد النصاعة والطهارة في هذه العلاقات وفي ضمائر الناس وألسنتهم على السواء.

وعقب بيان الحكم تجيء التوجيهاتُ تَتْرَى.

﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ فالقضيةُ قضيةُ الله، والشهادةُ فيها لله، هو يأمر بها، وهو يراقب استقامتها، وهو يجزي عليها، والتعامل فيها معه لا مع الزوج ولا الزوجة ولا الناس.

﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ والمخاطبون بهذه الأحكام المؤمنون المعتقدون باليوم الآخر، فهو يقول لهم: إنه يعظم من شأنهم، فإذا صدقوا الإيمان به وباليوم الآخر فهم إذن سيتعظون ويعتبرون، وهذا هو محك إيمانهم، وهذا هو مقاييس دعواهم في الإيمان.

والله أعلم.

سورة الطلاق

•• الحلقة الثانية ••

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(١٢)﴾ [الطلاق: ٢ - ١٢].

تفسير الآيات

إن تقوى الله هي التي تعين على الائتمار بما أمر الله، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، ولذلك يأمر الله عز وجل بها كثيرًا، قبل الأمر والنهي أو عقبها، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ولما ذكر الله تعالى في أول السورة الكريمة حدود الطلاق، ووصف متعدّيها بالظلم، رغب بعد ذلك في التقوى التي تعين على احترام تلك الحدود والوقوف عندها، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢)

إعداد

د. عبد العظيم بدوي

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، قال الزمخشري: «يجوز أن يكون جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق من إجراء أمر الطلاق على السنة، وطريقه الأحسن، والأبعد من الندم، ويكون المعنى: ومن يتق الله فيطلق للسنة، ولم يضارّ المعتدة، ولم يخرجها من مسكنها، واحتاط فأشهد، يجعل له مخرجًا مما في شأن الأزواج من الغموم، والوقوع في الضيق، ويفرج عنه وينفس، ويعطه

الخلاص، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله ولا يحتسبه، إن أوفى المهر، وأدى الحقوق والنفقات وقلّ ماله. ويجوز أن يجاء بها على سبيل الاستطراد عند ذكر قوله: ﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ﴾ يعني: ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ومخلصًا من غموم الدنيا والآخرة». [الكشاف: ٤/١٠٩].

وقال ابن القيم: «اعلم أن من اتقى الله في طلاق، فطلّق كما أمره الله ورسوله، وشرعه له، أغناه الله تعالى عن حيل أهل الحيل، فإن الله تعالى قال بعد أن ذكر حكم الطلاق المشروع: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾، فلو اتقى الله عامّة المطلقين لاستغنوا بتقواه عن الآصار والأغلال، والمكر والاحتيال، فإن الطلاق الذي شرعه الله سبحانه: أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، ويطلقها واحدة، ثم يدعها حتى ينقضي عدتها، فإن بدا له أن يمسكها في العدة أمسكها، وإن لم يراجعها حتى انقضت عدتها أمكنه أن يستقبل العقد عليها من غير زوج آخر، وإن لم يكن له فيها غرض لم يضره أن تتزوج بزوج غيره، فمن فعل هذا لم يندم، ولم يحتج إلى حيلة ولا تحليل». [إغاثة اللهفان: ١/٢٨٣].

فاتقوا الله في طلاقكم، وتوكلوا على الله ربكم، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في جلب المصالح ودفع المضار، ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي كافيه ما توكل عليه فيه، ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ «أي يبلغ ما أراد من أمره، وإن تأخر، ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي حدًا وتقديرًا، حسبما تقتضيه الحكمة». [محاسن التأويل: ١٦/١٩٩].

فاللائي يحضن عدّتهنّ ثلاثة قروء، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، والراجح أن القرء هو الحيضة.

واللائي يَئِسْنَ من المحيض؛ الكبيرات السن فعدتهن ثلاثةُ أشهر، وكذلك اللائي لم يحضن لصغر أو غيره، هذا حكم غير الحامل.

﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وقد قضى بذلك رسول الله ﷺ، فعن الزبير بن العوّام: أنه كانت عنده أم كلثوم بنت عقبة، فقالت له وهي حامل: طيّب نفسي بتطليقة، فطلّقها تطليقة، ثم خرج إلى الصلاة فرجع وقد وضَعَتْ، فقال: ما لها؟ خَدَعَتْني خدعها الله، ثم أتى النبيَّ ﷺ، فقال: «سبق الكتابُ أجلَه، اخْطُبها إلى نفسها».

ولا فرق في ذلك بيْن المطلّقة والمتوفّى عنها زوجُها، فهما في هذا الحكم سواء، لما رواه مسلم من حديث سبيعة بنت الحارث الأسلمية: أنها كانت تحت سعد بن خولة، فتُوفي عنها في حجة الوداع وهي حامل، فلم تنشب أن وضعتْ حملها بعد وفاته، فلما تعلّت من نفاسها تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها: ما لي أراكِ متجملة؟ لعلّك ترجين النكاح. إنك والله ما أنتِ بناكح حتى تمرّ عليك أربعةُ أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك، جمعتُ عليّ ثيابي حين أمسيتُ، فأتيتُ رسول الله ﷺ فسألتُه عن ذلك؟ فأفتاني بأني قد حللتُ حين وضعتُ حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي، قال ابن شهاب (أحد رواة الحديث): فلا أرى بأسًا أن تتزوّج حين وضعت، وإن كانت في دمها غير أن لا يقربها زوجُها حتى تطهر.

ولما كان الطلاق لا يقع إلا عند نزاع وشقاق، ويفضي- غالبًا- إلى العداوة والبغضاء، حثّ الله تعالى على التقوى ورغّب فيها، وكرّر ذلك، فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ «أي فلم يخالف إذنه في طلاق امرأته ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ وهو تسهيل الرجعة ما دامت في عدتها، والقدرة على خطبتها إن انقضت ودعته نفسه إليها، بسبب التقوى». [محاسن التأويل: ١٦/٢٠٠].

ثم يؤكد الله تعالى على ضرورة التزام ما شرع في الطلاق فيقول: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ فائتمروا به والتزموه ولا تخالفوه، ومرة ثالثة يرغبهم في الالتزام فيقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

ثم بيّن سبحانه حكم المطلقة في السكنى والنفقة فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

يقول تعالى آمرًا عباده إذا طلق أحدُهم المرأة أن يُسْكِنَها في منزلٍ حتى تنقضي عدّتُها، فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ أي عندكم ﴿مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرُ واحدٍ يعني سعتكم. وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾، قال مقاتل بن حيان: يعني يضاجرُها لتفتدي منه بما لها أو تخرج من مسكنه. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ قال كثيرٌ من العلماء: هذه في البائن إن كانت حاملاً أنفقَ عليها حتى تضع حملها، قالوا: بدليل أن الرجعية تجبُ نفقتها، سواء كانت حاملاً أو حائلاً، وقال آخرون: بل السياق كلّه في الرجعيات، وإنما نصّ على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية؛ لأن الحمل تطول مدّته غالبًا، فاحتاج إلى النصّ على وجوب الإنفاق حتى الوضع؛ لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار العدة. اهـ. من ابن كثير.

قلت: والآية عامة، فهي تشمل الرجعية باتفاق، والبائنَ على الراجح، لما رواه أحمد عن عبيد الله بن عبد الله أن أبا عمرو بن حفص بن المغيرة خرج مع علي بن أبي طالبٍ إلى اليمن فأرسل إلى فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت من طلاقها، وأمر لها الحارث بن هشام وعياشُ بنُ أبي ربيعةَ بنفقة، فقال لها: والله ما لك من نفقةٍ إلا أن تكوني حاملاً، فأتت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: «لا إلا أن تكوني حاملاً» وذكر تمام الحديث.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي إذا وضعن حملهنّ وهُنّ طوالق فَقَد بِنَّ بانقضاء عدتهن ولها حينئذ أن تُرضع الولدَ ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ، وهو باكورة اللبن الذي لا قوامَ للمولودِ غالبًا إلا به، فإن أرضعتْ استحقتْ أجر مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ولتكن أمورُكم فيما بينكم بالمعروف من غير إضرار ولا مضارّة، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ أي: إن اختلف الرجلُ والمرأةُ فطلبتِ المرأةُ في أجرةِ الرضاع كثيرًا ولم يجبها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجلُ قليلاً ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها، فلو رضيت الأمّ بما استؤجرت به الأجنبية فهي أحقّ بولدها. انتهى من ابن كثير.

ثم يفصل الأمر في قدر النفقة، فهو اليسر والتعاون والعدل، لا يجور هو، ولا تتعنّت هي، فمن وسّع الله عليه رزقه فلينفق عن سعةٍ سواء في السكنِ أو في نفقة المعيشة أو في أجر الرضاعة. ومن ضُيّق عليه في الرزق، فليس عليه من حرج، فالله لا يطالبُ أحدًا أن ينفق إلا في حدود ما آتاه، فهو المعطي، ولا يملك أحدٌ أن يحصل على غير ما أعطاه الله، فليس هناك مصدرٌ آخرُ للعطاء غيرُ هذا المصدر، وليست هناك خزانة غير هذه الخزانة: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾.

وإفساحُ الرجاء، للاثنين على السواء: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ فالأمر منوطٌ بالله في الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر، فأَوْلَى لهما إذن أن يعقدا به الأمر كله، وأن يتجها إليه بالأمر كله، وأن يراقباه ويتقياه، وهو المانح المانع، القابض الباسط، وبيده الضيق والفرج، والعسر واليسر، والشدّة والرخاء.

وإلى هنا يكون قد تناول سائر أحكام الطلاق ومتخلفاته، وتتبع كل أثرٍ من آثاره حتى انتهى إلى حلٍّ واضح، ولم يدع من البيت المتهدّم أنقاضًا ولا غبارًا يملأ النفوس ويغشي القلوب، ولم يترك بعده قلاقل تثير الاضطراب وإن الزوجين ليفترقان- في ظلّ تلك الأحكام والتوجيهات- وفي قلوبهما بذور للودّ لم تمت، ونداوة قد تُحيي هذه البذور فتنبت، ذلك هو الأدب الجميل الرفيع الذي يريد الإسلام أن يُصْبَغَ به حياةَ الجماعة المسلمة، ويشيع فيها المودة والتراحم.

فإذا انتهى السياق من هذا كلّه ساق العبرة الأخيرة في مصير الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله، فلم يسمعوا ولم يستجيبوا وعلق هذه العبرة على الرؤوس، تذكرهم بالمصير البائس الذي ينتظر من لا يتقي ولا يطيع، كما تذكرهم بنعمة الله على المؤمنين المخاطبين بالسورة والتشريع.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي

الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾.

وهو إنذارٌ طويل، وتحذير مفصّل المشاهد، كما أنه تذكيرٌ عميقٌ بنعمة الله بالإيمان والنور، ووعده بالأجر في الآخرة، وهو أحسن الرزق وأكرمه.

فأَخْذُ الله لمن يعتو عن أمره ولا يسلّم لرسله هو سنة متكررة: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ وتفصيل أخذها وذكر الحساب العسير، والعذاب النكير، ثم تصوير العاقبة وسوء المصير، ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾، ثم تأخير صورة هذه العاقبة الخاسرة في الآية التالية: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ من كلّ هذا المشهد وتفصيل خطواته ومراحله، وهي طريقةٌ من طرق الأسلوب القرآني في تعميق الأثر في الحسّ وإطالة مكثه في الأعصاب، ومواجهة هذا الإنذار ومشاهده الطويلة، كل ذلك يهتف بأولي الألباب الذين آمنوا، الذين هدتهم ألبابهم إلى الإيمان، يهتف بهم ليتقوا الله الذي أنزل لهم الذكر: «قد أنزل الله لكم ذكرًا» يعني: القرآن، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾، قال بعضهم: رسولاً منصوب على أنه بدل اشتمال وملابسة؛ لأن الرسول هو الذي بلّغ الذكر، وقال ابن جرير: الصواب أن الرسول ترجمةٌ عن الذكر، يعني تفسيرٌ له، ولهذا قال تعالى: «رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات» أي في حال كونها بينة واضحة جلية، ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وقد سمّى الله تعالى الوحي الذي أنزله نورًا لما يحصل به من الهدى، كما سمّاه روحًا لما يحصل به من حياة القلوب، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وفوق نعمة الذكر والنور والهداية والإصلاح وعدٌ بنعيم الجنات خالدين فيها أبدًا: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، وتذكير بأن هذا الرزق هو أحسن الرزق، فلا يقاس إليه رزق الأرض: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾، وهو الرزق الذي في الدنيا والآخرة، ولكنّ رزقًا خيرٌ من رزق، واختياره للأحسن هو الاختيار الحق الكريم.

وهكذا يشير إلى الرزق مرةً أخرى، ويهوّن بهذه الإشارة من رزق الأرض، إلى جانب رزق الجنة، بعدما وعد في المقاطع الأولى بسعة رزق الأرض أيضًا.

وفي الختام يجيء ذلك النظم الهائل، فيربط موضوع السورة وتشريعاتها وتوجياتها بقدر الله، وقدرة الله، وعلم الله، في المجال الكوني العريض.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن قدرته التامة، وسلطانه العظيم، ليكون ذلك باعثًا على تعظيم ما شرع من الدين القويم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾، وكقوله تعالى إخبارًا عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: سبعًا أيضًا، كما ثبت في الصحيحين: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوق من سبع أرضين».

وبين هذه السماوات السبع والأرضين السبع ينزل أمر الله لينشيء في قلب المؤمن عقيدة أن الله على كل شيء قدير، فلا يعجزه شيء مما يريد، وأنه قد أحاط بكل شيء علمًا، فلا يعزب عن علمه شيء مما يكون في ملكه الواسع العريض، ولا مما يسرونه في حنايا القلوب.

وهكذا تختم السورة بهذا النسق الذي يهوي ويروع بقدر ما يحرك القلوب لتجيب وتطيع، فسبحان خالق القلوب، العليم بما فيها من المخبآت والغيوب.

سورة التحريم

●● الحلقة الأولى ●●

إعداد

د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم: ١ - ٥]

سورة مدنية، تعالج واقعةً من الوقائع التي وقعت في بيوت النبي ﷺ، وهي تظاهرُ امرأتين من نسائه عليه حتى جعلتاه يحرّم على نفسه بعض ما أحلّ الله له، فنزلت السورة بعتاب النبي ﷺ على ما حرّم على نفسه، وعتاب المرأتين على تظاهرهما عليه، وتهديد سائرهنّ بالطلاق، وإبدال الله نبيه خيرًا منهن مسلمات مؤمناتٍ تائبات عابدات سائحات ثياب وأبكارًا.

وبمناسبة الحديث عن بيوت النبي ﷺ تأمر السورةُ الرجال القائمين بأمر بيوتهم أن يعملوا على وقاية أنفسهم وأهليهم من النار، وتأمرهم بالتوبة رجاءَ أن يكفّر الله عنهم سيئاتهم ويدخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار.

ثم تختم السورة بضرب الأمثلة للنساء، ولا سيما أزواج النبي ﷺ اللائي تظاهرْن عليه، لتعلم النساء أنّ الأزواج الصالحين لن يغنوا عن نسائهم شيئًا، وأنّ النساء الصالحات لا يحملن من أوزار أزواجهن شيئًا، وأنّ غير ذات الزوج من النساء لن يضرّها عدمُ زواجها، وإنما ينفعها إيمانُها والعملُ الصالح.

تفسير الآيات

اختُلف في سبب نزول صدر هذه السورة، فقيل: نزل بسبب تحريم النبي ﷺ العسلَ، كما روى البخاري عند هذه الآية عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يشربُ عسلاً عند زينب ابنة جحش ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصة عن أيتنا دخل عليها فلتقل له أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير، قال: لا، ولكني كنت أشربُ عسلاً

عند زينب ابنة جحش فلن أعود له، وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحدًا».

وقيل: نزلت في شأن مارية، كما روى النسائي عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمةٌ يطؤها، فلم تزل به عائشةُ وحفصة حتى حرّمها، فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿ ... ؟ إلى آخر الآية.

قال الشوكاني رحمه الله في تفسيره: فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمعُ ممكنٌ بوقوع القصّتين: قصةِ العسل، وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعًا، وفي كل واحدة منهما أنه أسرّ إلى بعض أزواجه. اهـ.

وقد استفتحت السورةُ بالنداء على النبي ﷺ بـ ﴿يا أيها النبي﴾، ولم ينادَ النبي ﷺ في القرآن باسمه المجرد أبدًا، وإنما يُنادى دائمًا بلقب النّبوة: ﴿يا أيها النبي﴾، أو لقب الرسالة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾، وفي هذا تعليمٌ للأمة وإرشادٌ لها إلى أنها أَوْلَى بذلك في نداء نبيها، وقد جاء النهيُ صراحةً عن ندائه ﷺ بـ «يا محمد، أو يا أحمد»، قال تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾، وبعد هذا اللطف، وبعد هذا الودّ يأتي العتاب: ﴿لم تحرّمُ ما أحلّ الله لك﴾ من الطعام أو النساء، على حسب ما سبق في سبب النزول: ﴿تبتغي مرضاة أزواجك﴾ أي: تطلبُ رضا أزواجك بتحريم ما أحلّ الله لك؟ ومهما يكن، فـ ﴿والله غفور رحيم﴾.

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ أي: قد شرع الله لكم ما تتحللون به من أيمانكم وذلك بالكفارة، ولذلك كان ابن عباس رضي الله عنه يقول: في الحرام يمينٌ تكفرها، ثم يقرأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يعني أنّ رسول الله ﷺ حرّم جاريته أو العسل فقال الله تعالى:

فإذا حرّم الرجلُ على نفسه طعامًا أو شرابًا أو لباسًا، أو حرّم على نفسه دخول دار، أو ركوبَ دابة، فعليه كفارةُ يمين وإذا حرّم على نفسه وطءَ امرأته فعليه كفّارةُ يمين.

والكفّارة هي المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾، ومما يجدرُ التنبيه عليه أن الصيام لا يجزئ مع القدرة على خصلةٍ من الخصال الثلاث السابقة، فلابدّ من التكفير بواحدة منها مع القدرة عليها، ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ﴾.

﴿والله مولاكم﴾ يتولاكم بلطفه ورعايته، وفضله وإحسانه، كما يتولاكم بتشريع ما يعود عليكم بالمصلحة والنفع والخير في الدنيا والآخرة، ﴿وهو العليم﴾ بما فيه مصالحكم، ﴿الحكيم﴾ في شرعه وقدره وجميع أمره.

﴿وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه ... ﴾ وهو أنّ العسل عليه حرام، أو مارية، فلم تحفظ سره، ونبأت به صاحبتها، ﴿فلما ... والله عليه عرف بعضه ... عرض عن بعض فلما نبأها به قالت من ... هذا قال نبأني العليم الخبير﴾، وإفشاءُ السر خيانةٌ للأمانة، ونقضٌ للعهد؛ لأنّ الذي يسرّ إلى صاحبه سرًا يحب أن يُصان هذا السر، ويكره أن يُذاع، فإذا صان الصاحبُ سرّ صاحبه

ذاعت الطمأنينةُ والثقةُ في الناس بعضهم ببعض، وإذا أذاع الصاحبُ سرّ صاحبه فُقِدتِ الثقةُ من الناس بعضهم ببعض، ولذلك كان العتابُ شديدًا للزوجتين اللتين تظاهرتا على النبي وأذاعتا سرّه:

أي: قد مالت قلوبكما عن الحق والهدى وما يجب عليكما من الإخلاص لرسول الله، فهلا تتوبان إلى الله وتستغفرانه إن استغفرتما.

، ثم

يشتد الوعيدُ فيصل إلى درجة التهديد بالطلاق:

،

والإسلام في الظاهر انقيادُ الجوارح وخضوعها واستسلامُها لله وأوامره، والإيمانُ في القلب، وهو أعلى درجة من الإسلام، والقنوتُ هنا دوام الطاعة لله ربّ العالمين، والسياحة المراد بها الصيام، ولما كان من أزواج النبي الثيبات والأبكار، وصف الزوجات اللاتي وعده أن يبدله بهنّ بأنهنّ ثيبات وأبكار. ولما نزلت الآيات وجد النبي على نسائه فحلف أن لا يدخل عليهن شهرًا، واعتزلهنّ في مشربة له، ينزل للصلاة فقط ولا يدخل عليهن، حتى قال الناس: طلّق النبي نساءه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم أزلْ حريصًا على أن أسأل عمرَ بن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي اللتين قال الله تعالى:

إلى الله [illegible]

حتى حجّ وحججتُ معه، وعَدلَ وعَدلْتَ معه بإداوةٍ، فتبرز ثم جاء، فسكبت على يديه منها فتوضأ، فقلت له: يا أمير المؤمنين، من المرأتان مِن أزواج النبي اللّتان قال الله تعالى:

؟

قال: واعجبًا لك يا ابن عباس، هما عائشةُ وحفصةُ. ثم استقبل عمرُ الحديثَ يسوقه قال: كنتُ أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أميّة بن زيد وهم من عوا لي المدينَة، وكنّا نتناوب النزول على النبي ، فينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلتُ جيئتُه بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحي أو غيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك، وكنا معشر قريش نغلبُ النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا قومٌ تغلبهم نساؤُهم، فطفق نساؤُنا يأخذن مِن أدب نساء الأنصار، فصخبتُ على امرأتي فراجعتني، فأنكرتُ أن تراجعني، قالت: ولم تُنْكِرُ أن أراجعَك؟ فوالله إنّ أزواجَ النبي ليراجعنه، وإنّ إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فأفزعني ذلك، فقلت لها: قد خاب من فعل ذلك منهنّ، ثم جمعتُ عليّ ثيابي، فنزلتُ فدخلتُ على حفصة فقلتُ لها: أيْ حفصة، أَتُغَاضِبُ إحداكنّ النبي اليومَ حتى الليل؟ قالت: نعم. فقلتُ: قد خِبْتِ وخَسِرْتِ، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسول الله فتهلكي؟ لا تستكثري النبي ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه، وسليني ما بدا لك ولا يغرنّك أن كانت جارتك أَوْضَأَ منك وأحب إلى النبي - يريد عائشة- قال عمر: وكنّا قد تحدّثنا أن غسّان تُنْعِلُ الخيلَ لتغزونا، فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته، فرجع إلينا عشاءً، فضرب بابي ضربًا شديدًا، وقال: أثم هو؟ ففزعتُ فخرجتُ إليه، فقال: قد حدث اليوم أمرٌ عظيم، قلتُ: ما هو؟ أجاء غسّان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأهول، طلّق النبي نساءه، فقلتُ: خابتْ حفصةُ

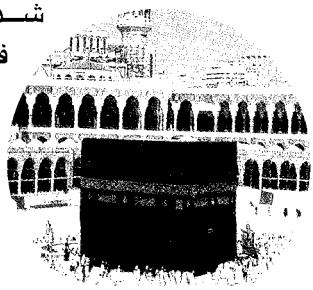

وخسرت، وقد كنتُ أظن هذا يوشك أن يكون، فجمعتُ عليّ ثيابي، فصليتُ صلاة الفجر مع النبي فدخل النبي مَشْرُبةً له فاعتزل فيها، ودخلتُ على حفصة فإذا هي تبكي، فقلتُ: ما يبكيكِ؟ ألم أكنْ حذرتك هذا؟ أطلقكنّ النبي ؟ قالت: لا أدري، ها هو ذا معتزلٌ في المشربة، فخرجت فجئت إلى المنبر، فإذا حوله رهطٌ يبكي بعضُهم، فجلستُ معهم قليلاً، ثم غلبني ما أجد، فجئت المشربة التي فيها النبي ، فقلت لغلام له أسود: استأذن لعمر، فدخل الغلام فكلم النَّبي ثم رجع فقال: كلمتُ النبي وذكرتُك له فصمت، فانصرفتُ حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت فقلتُ للغلام: اسْتَأْذِنْ لعمر، فدخل ثم رجع فقال: قد ذكرتُك له فصمت، فرجعتُ فجلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت الغلام، فقلت: اسْتَأْذِنْ لعمر، فدخل ثم رجع فقال: ذكرتُك له، فصمت، فلما وَلّيتَ منصرفًا إذا الغلام يدعوني فقال: قد أَذِنَ لك النبي ، فدخلتُ على رسول اللّه فإذا هو مضطجعٌ على رمالِ حصيرٍ ليس بينه وبينه فراشٌ قد أثّر الرمال بجنبه، متكئًا على وسادةٍ من أدم حشوها ليف، فسلّمتُ عليه، ثم قلتُ وأنا قائم: يا رسول الله، أطلقت نساءك؟ فرفع إليّ بصره، فقال: لا، فقلتُ: الله أكبر، ثم قلت وأنا قائم: أَسْتَأنِسُ يا رسول الله؟ لو رأيتني وكنّا معشر قريش نغلبُ النساء، فلما قدمنا المدينة إذا قومٌ تغلبُهم نساؤهم، فتبسم النبي ، ثم قلتُ: يا رسول الله، لو رأيتني ودخلتُ على حفصة فقلتُ لها: لا يغرنّك أن كانت جارتُك أَوْضَأَ منك وأحب إلى النبي ، يريد عائشة، فتبسم النبي تبسمة أخرى، فجلست حين رأيته تبسّم، فرفعتُ بصري في بيته، فوالله ما رأيتُ في بيته شيئًا يرد البصر، غير أَهَبَةٍ ثلاثة، فقلت: يا رسول الله، ادْعُ الله فليوسّعْ على أمّتك، فإنّ فارس والروم قد وُسّع عليهم وأُعْطُوا الدنيا، وهم لا يعبدون الله، فجلس النبي وكان متكئًا فقال: أَوَ في هذا أنت يا ابن الخطاب ؟ إن أولئك قومٌ قد عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا، فقلت: يا رسول الله، استغفر لي، فاعتزل النبي نساءه من أجل ذلك الحديث حين أَفْشَته حفصةُ إلى عائشة تسعًا وعشرين ليلة، وكان قال: ما أنا بداخل عليهن شهرًا من شدّة موجدته عليهنّ حين عاتبه اللهُ عز وجل، فلما مضت تسعٌ وعشرون ليلة دخل على عائشة فبدأ بها، فقالت له عائشةُ: يا رسول الله، إنّك كنت قد أقسمت أن لا تدخل علينا شهرًا، وإنما أصبحت من تسع وعشرين ليلة، أُعدّها عدًا! فقال: الشهرُ تسعٌ وعشرون ليلةً، فكان ذلك الشهرُ تسعًا وعشرين ليلةً، قالت عائشةُ: ثم أنزل الله تعالى آية التخيير فبدأ بي أوّل امرأة من نسائه فاخترته، ثم خيّر نساءه كلهن فقلن مِثْلَ ما قالت عائشة.

وحَلِفُه هذا يسمّى الإيلاء: وهو أَنْ يَحْلِفَ الرجلُ أن لا يدخل على امرأته، أَوْ أن لا يطلقها، فإن قيّد اليمين بمدةٍ ثم برّ بمينه فلا شيءَ عليه، كما كان من النبي ، وإن حنث فعليه كفارةُ اليمين، أما إن أطلق اليمين ولم يقيّدها بمدةٍ فإنه يُمْهَلُ أربعة أشهرٍ، ثم يُؤْمَرُ بالفيءِ أي العودة إلى المعاشرة بالمعروف، وإلا طَلَق، فإن أبى طلق عليه الحاكم. قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

سورة التحريم

الحلقة الثانية

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ٦- ١٢].

تفسير الآيات

إنّ واجب المؤمن في بيته كبير، وإنّ مسئوليته عظيمة، «كلكم راعٍ وكلكم مسئولٌ عن رعيته، فالرجل في بيته راعٍ وهو مسئول عن رعيته». ومن واجبه ومسئوليته العملُ على نجاة نفسه وأهله من النار: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، ووقايةُ النفس تحصل بالقيام بالواجبات وترك المحرمات، ووقايةُ الأهل تحصلُ بأمرهم بذلك، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]، فأمرهُ أن يقيم الصلاة ويصطبر عليها، وأن يأمرَ أهله بها، وقال النبيّ ﷺ: «مُرُوا أولادكم بالصلاة وهم أبناءُ سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناءُ عشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع».

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩]. فأمر اللهُ نبيه أن يأمر نساء المؤمنين أن يدنين عليهنّ من جلابيبهن، ولكن بعد أمرِ أزواجه وبناته.

بقلم
د. عبد العظيم بدوي

وقوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ مبهم، فسّره قولُه تعالى للكافرين: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. فعُلِمَ أن المرادَ بالناس الكافرون، وأنّ المرادَ بالحجارةِ الأصنامُ والأوثان التي عبدها الكافرون من دون الله.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ المراد زبانيةُ جهنمَ، وهم القائمون على أمرها من الملائكة، وقد وصفهم الله بأنهم «غلاظ» أي:

طباعُهم غليظة، قد نُزِعَتْ من قلوبهم الرحمةُ بالكافرين بالله، «شداد» أي تركيبُهم في غاية الشدّة والكثافة والمنظر المزعج. ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي مهما أمرهم به تعالى يبادرون إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله، ليس لهم عَجْزٌ عنه. وهذا كلّه تعظيمٌ للنّار وتفخيمٌ لشأنها، حتى ينفر المؤمنون عن كل ما يقرّب منها، ويستجيبوا لربّهم حيث أمرهم أن يقوا أنفسهم وأهليهم إيّاها. وقد كثر في القرآن الكريم تعظيمُ النّار وتفخيم شأنها، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ٨- ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ١- ٩]. وقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَ صُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

كما عظم النبي ﷺ شأن النار تخويفًا للناس منها، فقال النبي ﷺ: «يُؤتى يومئذ بجهنم، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها». وقال ﷺ: «إنّ ناركم هذه التي تُوقِدُون جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم». قالوا: والله إنْ كانت لكافية يا رسولَ الله. قال: «فإنها فُضّلت عليها بتسعةٍ وستين جزءًا، كلّها مثل حرّها».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنّا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبةً، فقال: أتدرون ما هذا؟ قلنا: اللهُ ورسوله أعلم. قال: هذا حجرٌ رُمي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار الآن حيث انتهى إلى قعرها.

فعلى العاقل أن يُعظم ما عظّم الله ورسولُه، وألا يألوا جهدًا في العمل على وقاية نفسه وأهله من هذه النار التي قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وعليه أنْ يكون مع أهله كالحارس الأمين، لا يغفل ولا ينام، يأمرهم وينهاهم، إنْ رأى منهم خيرًا شكَرَه لهم وأثابهم، وإنْ رأى غير ذلك عاقبهم. لا يسمح لولدٍ بالسهر بعد العشاء خارج البيت، ولا يسمحُ لبنت بالتبرّج والسفور، إن غاب عنهم وصّاهم بتقوى الله، وإن عاد إليهم سألهم عن الصلاة. فمن فعل ذلك فـ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [غافر: ٥٢]. وقول النبي ﷺ: «أعذَر اللهُ إلى امرئ أخّر أجلَه حتى بلغ ستين سنة». ولذا إذا دخل أهلُ النّار النارَ، وذاقوا مَسَّ سقر، سألوا العودةَ إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من العمل الصالح، فقيل لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

وهذا النداء للكافرين قد جاء بين نداءين للمؤمنين: الأول: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة﴾، والثاني: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾، وكأن الله يقول للمؤمنين: بادروا إلى العمل على وقاية أنفسكم وأهليكم من النار، وخلّصوا أنفسكم من الأوزار من قبل أن يأتي يومٌ لا تُقْبل فيه الأعذار. فكأنّهم قالوا: وما السبيل إلى ذلك؟ فقيل لهم: ﴿توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾ فإن التوبة تجبّ ما قبلها. وللتوبة النصوح شروط:

الأول: الإقلاعُ عن الذنب، فتخلع نفسَك من الذنب كما تخلع الثوب عن بدنك. فلا يصلح أن تقول تُبْتُ إلى الله وأنت متلبس بالذنب. لا يصلح- مثلاً- أن تقول تبتُ إلى الله من الربا، وأموالُك كلّها في البنك. يجبُ أن تأخذ رأسَ مالك وتترك الربا، وتسدد حساباتك ثم تقول تبتُ إلى الله.

الثاني: الندمُ على ما فات بأن تتحسّر على ما فرّطت في جنب الله.

الثالث: العزمُ على ألا تعود إلى هذا الذنب أبدًا.

فإذا كان الذنبُ متعلقًا بحقوق الآدميين، فإن كان حقًا ماليًا رددته، وإن كان غير ذلك استسمحتهم، إذا لم يترتب على ذلك مفسدة، فإن خشيت المفسدة فأكثر لهم من الدعاء والاستغفار، وأكثر من الأعمال الصالحة، حتى إذا استُوفيت الحقوقُ من حسناتك بقي لك منها ما يُدْخِلُك الجنة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن كانت عنده مظلمةٌ لأخيه مِنْ عرض أو شيء، فليتحلله منه اليوم، مِن قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهمٌ، إن كان له عملٌ صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسناتٌ أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه».

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلسُ فينا من لا درهمَ له ولا متاع، قال: «إنّ المفلس مَن يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال

هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرِحَت عليه، ثم يُطْرَحُ في النار».

وقوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾: أي توبوا إلى الله توبة نصوحًا، عسى ربكم أن يكفّر عنكم من سيئاتكم... إلخ، وعسى من الله موجبةٌ، فهو وَعدٌ من الله للتائبين أن يغفر لهم ما مضى من ذنوبهم، وأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي: لا يعذّبهم في النار؛ لأن من عذّبه فقد أخزاه، ولذا كان من دعاء أولي الألباب: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩١، ١٩٢]. وقوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ يعني على قدر أعمالهم، يسعى نورهم بين أيديهم وهم يمرون على الصراط، منهم مَن نُورُه مثل الجبل، ومنهم مَن نوره مثل النخلة، ومنهم مَن نوره مثل الرَّجُل القائم، وأدناهم نورًا مَن نُورُه في إبهامه، يتقد مرةً، ويُطْفَأ مرة. وقد سبق في سورة الحديد أنّ كل واحدٍ من هذه الأمة يُعطى نورًا يوم القيامة، ثم يمرون على الصراط، فبينما المؤمنون الصادقون متقدّمون يسعى نورهم بين أيديهم، والمنافقون وراءهم، يسعى نورهم أيضًا، فبينما كذلك، إذْ أُطْفِئَ نورُ المنافقين، فخاف المؤمنون على أنفسهم فتوجّهوا إلى الله بالدعاء: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾: يأمر تعالى نبيّه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، وجهادُ الكفار أخصّ باليد، وجهادُ المنافقين أخصّ باللسان. ويأمرهم أن يغلظ عليهم في الدنيا ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جميعًا ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾، والمنافقون أشدّ عذابًا من الكافرين، ولذا كانوا تحتهم في النار، والنّار كلما نزلت دركاتُها اشتد عذابها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾، ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ النار.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ هذا مثلٌ ضربه اللهُ لنساءِ النبي ﷺ وغيرهنّ ممن يخالطن الأنبياء والصالحين ليعلموا جميعًا أن القُرب من الأنبياء والصالحين، بل القرابةُ لا تنفعُ شيئًا إذا لم يكن ثمّ إيمانٌ وعملٌ صالح، فها هي امرأةُ نوح وامرأةُ لوط لما خانتاهما لم يغنيا عنهما من الله شيئًا، وقيل ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾. والمراد نجيانتهما أنهما لم يوافقاهما على الإيمان، ولم يصدّقاهما في الرسالة ويخطئ من يظن أن خيانتهما كانت في الفاحشة، مستدلاً على ظنّه بقول الله تعالى لنوح عليه السلام وقد قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦]، وهذا استدلالٌ باطل؛ لأنّ الله لم يقل: إنه ليس ولدك، أوْ ليس من أولادك، وإنما قال: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي الذين وعدتُك بنجاتهم معك، وأهلُه عليه السلام هم مَنْ آمن معه، وابنُ نوح هذا لم يؤمن، فلم يكن من أهله الذين نجّاهم الله معه. ولذا قال ابنُ عباس رضي الله عنهما في هذه الآية ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال: مازنتا، أما خيانةُ امرأةِ نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدلّ قومَها على أضيافه، وقال أيضًا: ما بغت امرأة نبيٍّ قط، وإنما كانت خيانتُهما في الدين، وما كان الله ليقرّ في بيت نبيٍّ بغيًا، ولو كان شيء من ذلك لأطلع اللهُ نبيه عليه، ولا سيما والوحي ينزل عليه صباحًا ومساء.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. هذا مثلٌ ضربه اللهُ تعالى للمؤمنين أنّهم لا تضرّهم مخالطةُ الكافرين.

قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم، فوالله ما ضرّ امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربّها، ليعلموا أنّ الله تعالى حَكَمٌ عَدل، لا يؤاخذُ أحدًا إلا بذنبه، فكما أنّ الزوجاتِ الكافراتِ لم ينفعهن إيمانُ أزواجهنّ، كذلك الزوجاتُ المؤمناتُ لا يضرهنّ كفر أزواجهن. وأما من لا زوج لها فلا ينقص ذلك من أجرها، ولا يحطّ من قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي: حفظته وصانته ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ بواسطة جبريل عليه السلام، وقد تمثّل لها بشرًا سويًا: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ

أَلَّا بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ١٨- ٢١]، ﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ أي بقدره وشرعه ﴿وكانت من القانتين﴾.

وقد ثبت في الصحيحين في فضل آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران قولُ النبي ﷺ: «كَمُلَ من الرجال كثيرٌ، ولم يكملْ من النساء إلا آسية امرأةُ فرعون، مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد».

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه القيم «أعلام الموقعين» (١/١٨٨): فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال: مثل للكافرين، ومثلين للمؤمنين، فتضمّن مثل الكفّار: أنّ الكافرَ يعاقب على كفره وعدواته لله ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين لحمه نسب، أو وَصلةِ صهر أو سبب من أسباب الاتصال، فإن الأسباب كلها تنقطعُ يوم القيامة إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعتْ وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعتْ الوصلةُ التي كانت بين لوط ونوح وامرأتيهما، فلمّا لم يغنيا عنهما من الله شيئًا ﴿قِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾، فقطعت الآية حينئذ طَمَعَ مَن ركب معصية الله وخالفَ أمره، ورجا أن ينفعه صلاحُ غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشدُّ الاتصال، فلا اتصال فوق اتصال النبوة والأبوة والزوجية، ولم يغنِ نوحٌ عن ابنه، ولا إبراهيمُ عن أبيه، ولا نوحٌ ولا لوطٌ عن امرأتيْهما من الله شيئًا، قال الله تعالى: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]. وقال: ﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣]. وهذا كلّه تكذيبٌ لأطماع المشركين الباطلة أنّ مَنْ تعلّقوا به من دون الله من قرابةٍ أو صهر أو نكاح أو صحبةٍ ينفعهم يوم القيامة، أو يجيرُهم من عذاب الله، أو هو يشفعُ لهم عند الله، وهذا أصلُ ضلال بني آدم وشركهم، وهو الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الذي بعث اللهُ جميع رسله وأنزل جميع كتبه بإبطاله، ومحاربة أهلِه ومعاداتهم. وأما المثلان اللذان للمؤمنين: فأحدُهما: امرأةُ فرعون، ووجهُ المثل أنّ اتصالَ المؤمن بالكافر لا يضرّه شيئًا إذا فارقه في كفره وعمله، فمعصيتُهُ الغير لا تضر المؤمن المطيعَ شيئًا في الآخرة، وإن تضرّ ربها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحلّ بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله، فتأتي عامة. فلم يضرّ امرأة فرعون اتصالُها به وهو من أكفر الكافرين ولم ينفع امرأة نوح ولوطٍ اتصالُهما بهما وهما رسولا ربّ العالمين.

المثل الثاني للمؤمنين: مريم التي لا زوج لها، لا مؤمن ولا كافر.

فذكر ثلاثة أنصافٍ من النساء: المرأة الكافرةُ التي لها وصلةٌ بالرجلِ الصالح، والمرأةُ الصالحةُ التي لها وصلةٌ بالرجلِ الكافرِ، والمرأةُ الغَرب التي لا وصلةَ لها بينها وبين أحدٍ. فالأولى: لا تنفعُها وصلتُها وسببُها. والثانيةُ: لا تضرُّها وصلتُها وسببُها. والثالثةُ: لا يضرّها عدمُ الوصلةِ شيئًا.

ثم في هذه الأمثالِ من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة، فإنّها سيقيت في ذِكْرِ أزواج النبي ﷺ، والتحذير من تظاهرهنّ عليه، وأنهنّ إن لم يطعن الله ورسوله ويردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ، كما لم ينفع امرأةَ نوحٍ ولوطٍ اتصالُهما بهما، ولهذا إنما ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة. قال يحيى بن سلّام: ضرب اللهُ المثل الأوّل يحذّر عائشةَ وحفصة، ثم ضرب لها المثل الثاني يحرّضها على التمسك بالطاعة.

وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضًا اعتبارٌ آخر، وهو أنها لم يضرّها عند الله شيئًا قذفُ أعداءِ الله اليهود لها، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برّأهما الله عنه، مع كونها الصديقة الكبرى، المصطفاة على نساء العالمين، فلا يضرّ الرجلَ الصالحَ قذفُ الفجار والفسّاق فيه. وفي هذا تسليةٌ لعائشة أم المؤمنين إن كانت السورة نزلت بعد قصّة الإفك، وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها. كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما اعتمدناه في حقّ النبي ﷺ، فتضمنت هذه الأمثالُ التحذير لهن والتخويفَ، والتحريض لهن على الطاعة، والتوحيد، والتسلية، وتوطين النفس لمن أوذي منهن وكذب عليه، وأسرار التنزيل فوق هذا وأجلّ منه، ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون. اهـ.

والحمد لله رب العالمين

سورة الملك

الحلقة الأولى

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ * الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ * ﴾ الملك:١-٤

بقلم
د. عبد العظيم بدوي

بين يدي السورة

سورة مكية، شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة، وبيان أصول الدين، وبخاصة: التوحيد، والرسالة، والبعث.

ولقد كان رسول الله ﷺ يقرؤها كل ليلة، وحث على قراءتها، فقال: إن سورة من القرآن ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غُفِرَ له، وهي: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ [الملك:١].

وقد قررّت الآيةُ الأولى منها حقيقتين: الأولى: أن الملك بيد الله وحده، والثانية: أن الله على كل شيء قدير، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ثم جاءت الآيات التسعُ والعشرون تؤكّد هاتين الحقيقتين وتقررهما بأساليب مختلفة، وهذا ما يمكن قوله في هذه المقدمة.

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. هكذا مجّد اللَّهُ نفسه: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ تنزّه وتعالى عن النقائص، وكَبُرتْ بركاته وعمّ خيره، ﴿ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ فهو المالك له، المهيمنُ عليه، القابضُ على ناصيته، المتصرّف فيه، وهذه هي الحقيقة الأولى، التي تقررّها الآية كما ذكرتُ. وهي حقيقةٌ طالما ذكرها القرآن وكررها: قال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى:٤٩، ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨٣].

وهي حقيقة، حين تستقر في القلب تحدّد له الوجهة والمصير، وتخلّيه من التوجّه أو الاعتماد أو الطلب من غير المالك المهيمن المتصرف في هذا الملك بلا شريك،

كما تخلّيه من العبودية والعبادة لغير الملك الواحد.

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾. هذه هي الحقيقة الثابتة: أن اللّه الذي له ملك السموات والأرض لا يَعْجَزُ عن شيء، ولا يُعجزه شيء، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٤]، وكما قال تعالى حكاية عن الجن: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ [الجن:١٢]، وهو سبحانه: ﴿ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ ﴾ [البروج:١٦] لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢]، وهي حقيقةٌ حين تستقر في القلب يُطلق تصوره لمشيئة اللّه وفعله مِن كل قيد يرد عليه من مألوف الحسّ أو مألوف العقل أو مألوف الخيال، فقدرة اللّه وراء كل ما يخطر للبشر على أي حال. والقيود التي ترد على تصور البشر بحكم تكوينهم المحدود تجعلُهم أسرى لما يألفون في تقدير ما يتوقعون من تغيير وتبديل فيما وراء اللحظة الحاضرة والواقع المحدود. فهذه الحقيقة تُطْلِقُ حسّهم من هذا الإسار، فيتوقّعون مِن قدرة اللّه كل شيء بلا حدود، ويكلون لقدرة اللّه كل شيء بلا قيود، وينطلقون من أسر اللحظة الحاضرة والواقع المحدود.

وهاتان الحقيقتان تجعلان المسلم دائمًا لا يلتفتُ إلى غير اللّه، ولا يتعلق قلبُه بغير اللّه رجاءً ولا خوفًا، فإذا سأل سأل اللّه، وإذا استعان استعان بالله، ليقينه أن اللّه وحده هو المالك وما سواه مملوك، وأن اللّه وحده هو القادر وما سواه أعجز عن أن يحقق لنفسه نفعًا أو يدفع عنها ضرًا، فضلاً عن أن يكون أقدر على ذلك لغيره، وهذا ما وصى به النبي ﷺ ابن عباس حين قال له: «يا غلام، إني أعلمك كلمات، احفظ اللّه يحفظك، احفظ اللّه تجده تُجاهك، إذا سألت فاسأل اللّه، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللّه لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللّه عليك، رُفِعت الأقلام وجفّت الصحف». [حسن صحيح، رواه الترمذي (٤/٧٦/٢٣٦٥)].

قوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾، هذا أوّلُ أثرٍ من آثار انفراده سبحانه بالملك وتصريفه له، وأولُ أثرٍ من آثار قدرته على كل شيء وطلاقة إرادته، فهو سبحانه وتعالى يحيي ويميت، وقد خلق الموت والحياة لغاية عظيمة، وإنما قدّم ذكر الموت لأنّ الموت سابق الحياة، والعدم سابق الوجود، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ [الإنسان:١]، كما قال تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨]، وحكى اللّه تعالى عن أهل النار، أنهم إذا دخلوها وذاقوا أليم عذابها، ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [غافر:١١]، والمراد بالموتة الأولى العدمُ الذي سبق الحياة والوجود، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ [الإنسان:١]، والمراد بالحياة الأولى هذه التي يحياها كلٌّ منا الآن، ثم يموت كلٌّ إذا استوفى أجله، فهذه الموتة الثانية، ثم يبعث اللّه

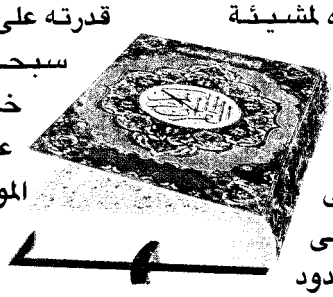

الموتى، وهذه هي الحياة الثانية. كما أن من أسباب تقديم الموت على الحياة أن يكون الإنسان أكثر ذكرًا للموت، فلا يغفل عما بعده، كما قال ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللذات: الموت».

[حسن صحيح، رواه الترمذي (٢٤٠٩/٣٧٨ و٣/٣٧٩)، وابن ماجه (٤٢٥٨/١٤٢٢/٢)، والنسائي (٤/٤)].

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ بيانٌ لحكمة خَلْق الخلق، وخلق الموت والحياة، وقد تكرّر ذكر هذه الغاية في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، هذا واحدٌ منها، والثاني في سورة الكهف، في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧]، والثالث في قوله تعالى في سورة هود: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود:٧]، ولم يقل سبحانه ليبلوكم أيكم أكثر عملاً، وإنما قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ حتى يهتم المسلم بتحسين عمله لا بكثرته، فركعتان يُسْبِغُ وضوءَهما، ويُحْسِنُ قراءتهما، ويطمئن في ركوعهما وسجودهما، خيرٌ من ألف ركعة بخلاف ذلك. قال الفضيل بن عياض رحمه اللَّهُ في تفسير هذه الآية: لا يكون العمل مقبولاً حتى يكون خالصًا وصوابًا، فإن كان خالصًا وليس صوابًا، أو صوابًا وليس بخالص، لم يُقْبَل حتى يكون خالصًا وصوابًا، قالوا: يا أبا علي، فما الخالص وما الصواب؟ قال: الخالص ما ابتغي به وجه اللَّه، والصواب ما وافق هدي رسول اللَّه ﷺ. فهما شرطان أساسيان في قبول العمل الصالح من المؤمن، الأول: الإخلاص لله، والثاني: المتابعة لرسول اللَّه ﷺ، فلا بد من توحيد اللَّه في العبادة، وتوحيد الرسول ﷺ في المتابعة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥، ٦٦]، وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجلٌ استشهد، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يُقال جريء. فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمتَ العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع اللَّه عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال :كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار».

فالإخلاصَ الإخلاصَ عبادَ اللَّه، وإياكم والرياء، وعليكم بالسنة وإياكم ومحدثات الأمور، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران:٣١]، وقال: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، قال النبي ﷺ: «مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

قال العلماء: ينبغي لكل من همّ بعمل أن

يسأل نفسه سؤالين: لم؟ وكيف؟ فإن كان الجوابُ: لله، وعلى طريقة رسول الله، فليتوكل على الله، وإنْ كان الجوابُ: لغير الله، وعلى غير طريقة رسول الله، فليُرح نفسه من عناء عمل لا يُسمنُ ولا يغني من جوع، وكذا لو كان أحد الجوابين مخالفًا والآخر موافقًا، لأنه لا بدّ من تحقق الجوابين الصحيحين: لله، وعلى طريقة رسول الله ﷺ.

«وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ أي هو العزيز العظيم، المنيع الجناب، وهو مع ذلك غفورٌ لمن تاب إليه وأناب بعدما عصاه وخالف أمره، وإن كان تعالى عزيزًا فهو مع ذلك يغفر ويرحم، ويصفح ويتجاوز» [تفسير ابن كثير ٣٩٦/٤]، لأنه سبحانه رحيم بعباده، لا يعنّتهم، ولا يحب أن يعذبهم، إنما يريدُ لهم أن يتيقظوا لغاية وجودهم وأن يرتفعوا إلى مستوى حقيقتهم، وأن يحققوا تكريم الله لهم، فإذا تم لهم هذا فهناك الرحمة السابغة، والعون الكبير، والسماحة الواسعة، والعفو عن كثير.

وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء:١٤٧].

قوله تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾، هذه أيضًا بعض آثار قدرته وتصرّفه في ملكه: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾، كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق:١٢]، ومعنى كونهن طباقًا: أي سبع طوابق، بعضها فوق بعض، والراجح أنّ هناك مسافة بين كل سماءٍ والتي فوقها، والدليلُ على ذلك حديثُ المعراج، وفيه أن جبريل كان يستفتح كل سماء، فإذا فُتِحَ له، عَرجَ بالنبي ﷺ إلى التي فوقها، وهكذا. وفي حديث البراء بن عازب الطويل في وصف قبض الملائكة للأرواح، وأنها تعرج بروح العبد المؤمن، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى التي تليها. الحديث.

﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ فليس فيه خلل ولا نقص ولا اضطراب، ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ ﴾ مرةً بعد مرةٍ ﴿ هَلْ تَرَى ﴾ في خلق الرحمن ﴿ مِنْ فُطُورٍ ﴾ أي شقوق وخلل، ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ فربما فاتك شيء في النظرة السابقة لم تتبينه، فأعد النظر ثم أعده، فالنتيجة واحدةٌ، وهي ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أي كليل متعب، وقد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر ولا يرى نقصًا، لأن السماء ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل:٨٨]، وخلقُ ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة:٧].

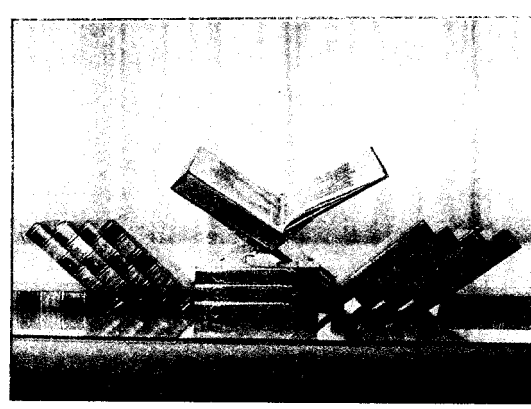

وللحديث بقية بإذن الله تعالى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة الملك

الحلقة الثانية

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥) وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١) إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١٢) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ٥- ١٥].

بقلم
د. عبد العظيم بدوي

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ وهي الكواكب والنجوم، جعلها الله زينة للسماء الدنيا القريبة منا والتي نراها، فهي كالعُقد في رقبة المرأة، يزيدُها حسنًا وبهاءً وجمالاً.

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ هذه وظيفة ثانية للنجوم، فهي زينة للسماء، ورجوم للشياطين، وثمت وظيفة ثالثة وهي الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، كما قال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، والوظيفتان الأولى والثالثة واضحتان، وأما الثانية وهي كونها رجومًا للشياطين فقد فسرتها آيات الصافات، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٥) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، كانت الشياطين يسترقون السمع قبل أن يبعث النبي ﷺ، يركب بعضهم بعضا إلى عنان السماء، فيسمع أعلاهم الكلمة يتكلم بها الملائكة فيما بينهم مما أخبرهم الله أنه سيكون في الأرض، فيلقيها إلى الذي يليه، وهكذا حتى تصل أدناهم، فيقرها في أذن وليه من الكهنة والعرافين، فيخبر الناس بها، فيترقبها الناس، فتكون كما أخبر، فتكون فتنة للظالمين، ويأخذها ذلك الدجال ذريعة فيكذب معها مائة كذبة، فلما بعث النبي ﷺ حرست السماء، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، فكانوا إذا استرق أحدهم السمع قذف بشهاب ثاقب، ولذا قال الله تعالى حكاية عنهم في السورة التي سماها

سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٨، ٩]، فعلى المسلمين أن يحذروا الكهنة والعرافين، وأن يعلموا أنهم ليسوا بشيء، كما قال ﷺ. ولقد بالغ ﷺ في التحذير من إتيانهم، فقال: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة». رواه مسلم. وقال ﷺ: «من أتى حائضًا، أو امرأةً في دبرها، أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد». أبو داود (٣٩٠٤)، وصححه الألباني.

وقد يقول قائل: فما تقول في الكاهن الذي يبادر الداخل عليه بذكر اسمه واسم أبيه وأمه، ويقصّ عليه ما كان من أمره قبل أن يأتيه، علمًا بأن هذا الكاهن لا يعرفُ هذا الإنسان ولم يجتمع به قبل هذه المرة؟ والجواب: أن مما أخبر به النبي ﷺ أن كلا منا معه قرين من الملائكة وقرين من الجن، فإذا تحرك أحد الناس إلى هذا الكاهن سبقه قرينه من الجن فأخبر قرين هذا الكاهن بقصته، فإذا أتاه هذا الرجل بادره بسرد قصته عليه، فيقف المسكين حيران، لا يسعه إلا التصديق بكرامات هذا الولي (الكاهن)، وما هي إلا خدمة قدمها الجني لوليه هذا من الإنس، مقابل خدمات قدمها له هذا الإنسي، معاصي كانت أو كفرًا، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي في الآخرة، فكان الرجم خزيًا لهم في الدنيا، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾.

ولما كان كُفر مَن كفر من الإنس استجابة لدعوة أوليائهم من الجن، جمع بينهم في العذاب المهين، فقال عن شياطين الجن: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾، ثم قال عن أوليائهم من الإنس: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي: وأعتدنا للذين كفروا بربهم عذاب جهنم، وبئس المصير، أي بئس المآل والمنقلب، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

ثم يرسم مشهد جهنم هذه وهي تستقبل الذين كفروا في غيظ وحنق شديد فيقول سبحانه: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ هكذا يُلْقَون، كما يلقى الشيء الحقير الذي قد استُغني عنه، ويُطرحُ فلا يُهتم به بعد ذلك لهوانه على نفس من ألقاه، وهكذا يُلقى أهل النار لهوانهم على الله، فإذا ألقوا فيها ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي تغلي بهم كما يغلي الحَبّ القليل في الماء الكثير، ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي تكاد تتقطع من حِنْقِها بهم وغيظها عليهم، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي جماعة ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ والمراد زبانية جهنم، سألوهم سؤال توبيخ وتقريع وتأنيب: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ لأن الله لا يعذب أحدًا من خلقه إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، فما بالكم؟ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؟ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾، فأجابوا بذلة وانكسار، واعتراف بالحق والغفلة بعد التبجح والإنكار، واتهام الرسل بالضلال: ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾، فلم يكفهم- لعنهم الله- أنهم كذبوا الرسل حتى اتهموهم بالضلال الكبير، وهكذا

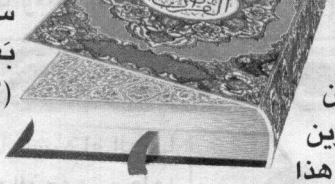

يفعل الران بالقلب، فيجعله يرى الحق باطلاً والباطل حقًا، والهداية ضلالاً، والضلال هداية! قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٣) كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا إن هذا القرآن أساطير الأولين، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا.

ثم عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: لو كانت لنا عقول ننتفع بها، أو نسمع ما أنزل الله من الحق، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم.

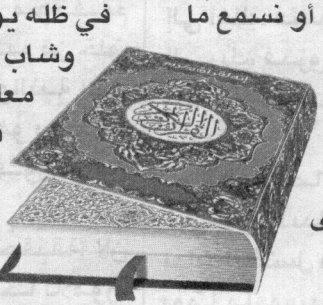

يوم لا ينفع الندم

قال الله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ حيث لا ينفع الاعتراف، وندموا حيث لا ينفع الندم، ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾، ﴿فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: بعدًا وهلاكًا لهم، (وهو دعاء عليهم من الله بعد اعترافهم بذنبهم في الموقف الذي لم يؤمنوا به ولم يصدّقوا بوقوعه، والدعاء من الله قضاء، فهم مبعدون من رحمته، لا رجاء لهم في مغفرة، ولا إقالة لهم من عذاب، وهم أصحاب السعير الملازمون له، ويا لها من صحبة، ويا لها من مصير.

مصير السعداء عند الله تعالى

لما ذكر الله تعالى مصير الأشقياء أتبعه بذكر مصير السعداء، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ولفظ الغيب يشمل: خشية الله من غير أن يروه، كما يشمل خشية الله في السر حين يغيبون عن أعين الناس، يحملهم على ذلك اعتقادهم أن الله لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وأنه يراهم أينما كانوا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فإذا همَّ أحدهم بسيئة تذكّر أن الله يراه، فخاف مقامه بين يديه، فرجع عما همّ به، فيدخل بذلك في الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، كما قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة أخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه».

المراقبة لله والخشية

ولقد كان السلف رضوان الله عليهم يتواصون بمراقبة الله وخشيته، فقد كتب بعضهم إلى أخ له رسالة يقول فيها: زهدني الله وإياك في الحرام زهد من قدر عليه في الخلوة فعلم بأن الله يراه فتركه من مخافة الله.

وهذا هو مقام الإحسان، الذي فسره النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». والله تعالى يقول: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾، ثم فسره بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾، والحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم.

نسأل الله أن يمنّ علينا بالحسنى وزيادة آمين.

ثم ذكر الله تعالى عباده بما يحثّهم على مراقبته وخشيته، فقال: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فالسر والجهر سواء عنده سبحانه، لأنه عليم بما في الصدور، كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لأنه الذي خلق الصدور وما فيها: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾؟

إن البشر وهم يحاولون التخفي من الله بحركة أو سر أو نية، يدعو موقفهم للسخرية، فالذي يُخفون فيه نيتهم من خلق الله وهو يعلم دروبه وخفاياه، والنية التي يخفونها هي كذلك من خلقه، وهو يعلمها، ويعلم أين تكون، فماذا يخفون؟ وأين يستخفون؟

والقرآن يعني بتقرير هذه الحقيقة؛ لأن استقرارها ينشئ إدراكًا صحيحًا للأمور، فوق ما يودعه هناك من يقظة وحساسية وتقوى، تناط بها الأمانة التي يحملها المؤمن في الأرض، أمانة العقيدة وأمانة العدالة، وأمانة التجرد لله في العمل والنية، وهو لا يتحقق إلا حين يستيقن القلب أنه هو وما يكمن فيه من سر ونية من خلق الله الذي يعلمه الله، وهو اللطيف الخبير، عندئذٍ يتقي المؤمن النية المكنونة والهاجس الدفين، كما يتقي الحركة المنظورة، والصوت الجهير، وهو يتعامل مع الله الذي يعلم السر والجهر. الله الذي خلق الصدور فهو يعلم ما في الصدور.

نعم الله على العباد

بعد ذلك يُذكر الله عباده بنعمة من نعمه عليهم، وهي نعمةُ تسخير الأرض، فيقول: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، أي: سهلة منقادة تحفرونها للبناء، وتشقونها للغرس والزرع، وتستخرجون منها كنوزها، وهي ذلولٌ لا تستعصي عليكم، ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أي: سافروا من قُطر إلى قطر، ومن مصرٍ إلى مصر، ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾، فالرزقُ رزقه، وهو الذي يرزقكم، وسعيكم في البلاد لا يجدي شيئًا إلا بأن ييسره الله لكم. وفي هذا إشارة إلى أن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ سيروا في الأرض، واطلبوا رزق الله، وأنتم متوكلون على الله، واثقون بما عند الله، وأن ما قدّر الله يكون، ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أي المرجع يوم القيامة، فإذا انقلبتم إلى أهليكم، وعدتم من أسفاركم فتذكروا العودة إلى الله، وأنكم إليه راجعون، فكما ترجعُ من سفرك إلى أهلك، فسترجع من هذا السفر الطويل إلى ربك، فتزود من سفرك زادًا يُرضي عنك ربك إذا رجعت إليه، واعلم أن خير الزاد التقوى.

قال العلماء: ينبغي للعاقل أن يربط كل شيء في الدنيا بنظيره في الآخرة، فإذا نزع ثيابه ليغتسل فليتذكر أنه ستنزعُ عنه ثيابه يومًا ما، وسيغسله رجالٌ لم يروا جسده أبدًا، وعندما يلبس ملابس الإحرام فليتذكر الكفن، وحينما يسمع النداء للصلاة يتذكر ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾، فإذا خرج من بيته إلى المسجد فليتذكر خروجه من قبره إلى أرض المحشر، ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾، فإذا جلس في المسجد ينتظر الإقامة فليتذكر قيامه في أرض الموقف ينتظر نداء المنادي: أين فلان ابن فلان؟ ليقم للعرض على الملك الديان، فإذا أقيمت الصلاة وقام في الصفوف فليتذكر قيامه وحده أمام الله سبحانه للحساب، وقول الله له: «أتذكر ذنب كذا؟

باب التفسير

سورة الملك

الحلقة الأخيرة

بقلم
د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمْ مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمْ مَنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠) ﴾ [الملك: ١٦- ٣٠].

قال تعالى: ﴿ أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) ﴾.

إنها جملةٌ من التهديدات التي تهزّ الغافلين هزًا ، ليفيقوا من غفلتهم ، وينتبهوا من رقدتهم ، قبل أن يأخذهم الله كما أخذ الذين من قبلهم : ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] ، وهذه التهديدات قد تكررّت في القرآن الكريم ، في قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [سبأ: ٩] . وهذا الإنذار من لطفه تعالى ورحمته بخلقه ، فهو قادرٌ على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم وعبادتهم معه غيره ، وهو مع هذا يحلم ويصفح ، ويؤجّل ولا يعجل، ويرسل رسله لينذروا عباده قبل أن يأخذهم بذنوبهم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [نوح: ١] ، ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ ، وإن تولوا : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ ، ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ قومُ نوح وعادٍ وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم وأخذي لهم ؟ كان والله عظيمًا شديدًا أليمًا ، ذكره الله في قوله : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ

الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ﴾ ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر:١٦] . قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ . هذا مظهرٌ من مظاهر قدرة الله تعالى ، وأثرٌ من آثار تدبيره أمر كل شيء ، يلفت أنظارهم إليه ، ليريهم آياته : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ﴾ أجنحتهن تارةً ﴿ وَيَقْبِضْنَ ﴾ تارةً ، ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ في السماء أن يقعن على الأرض ﴿ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ أي بصير بما يُصلح كلّ شيءٍ من مخلوقاته ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل:٧٩].

والله الذي يمسك الطير في السماء هو الذي يمسك الطائرات ، وهو الذي يمسك السفن في البحار أن تغرق فيها ، قال تعالى : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾ [يس: ٤١- ٤٤] ، كما أن الله هو الذي يمسك السماء وما فيها أن تقع على الأرض ، ويمسك السموات والأرض أن تزولا ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحج: ٦٥] ، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١] .

قوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ ﴾ ، هذا تهديد آخر ، وقد سبق أن هدّدهم بأن يخسف بهم الأرض ، أو يرسل عليهم حاصبًا ، وهو في هذه الآية يسألهم : من هذا الذي ينصرهم ويحميهم من الله ، غير الله ؟ أمن هذا الذي ينصرهم على أعدائهم ، غير الله ؟ لقد كانوا : ﴿ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ ، فأخبرهم الله أن آلهتهم أعجز ما تكون عن نصر أنفسها ، فضلاً عن نصرها لهم ، فقال تعالى: ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴾ ، وقال هنا : ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ ﴾ حين يعتقدون أن غير الله قادر على أن يدفع عنهم بأس الله ، أو ينصرهم على أعدائهم ، والله يقول : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ [المعارج: ١- ٣] ، ويقول: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقوله تعالى : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ ؟ وهم يعلمون أنه لا رازق لهم إلا الله ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١]، ومع هذا يعبدون غيره ، ولذا قال تعالى : ﴿ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ ، أي : استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ، وكان الواجب وقد اعترفوا أن الله هو الذي يرزقهم أن يعبدوه وحده ، لا يشركوا به شيئًا، ولذا لما اعترفوا بذلك أمر الله نبيه أن يقول لهم : ﴿ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣] ، وقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنبكوت : ١٦، ١٧].

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ، هذا مثلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي منكبًا على وجهه ، أي يمشي منحنيًا على وجهه لا مستويًا، أي لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب ؟ بل تائه حائرٌ ضالّ، أهذا أهدى ؟ ﴿ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا ﴾ أي : منتصب القامة ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ، أي على طريقٍ واضح بيّن ، وهو في نفسه مستقيم ، هذا مثلهم في الدنيا ، وكذلك يكونون في الآخرة ، فالمؤمن يُحشر ماشيًا سويًا على صراط مستقيم مفضٍ به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يُحشر ماشيًا على وجهه إلى نار جهنم. [ابن كثير ٣٩٩/٤].

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ

يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَ صُمًّا ﴾ [الإسراء : ٩٧] . عن أنس بن مالك قال : قيل : يا رسول الله ، كيف يُحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : «أليس الذي أمشاهم على أرجلهم بقادرٍ على أن يمشيهم على وجوههم».

وعلى ذكر الهدى والضلال ، يذكّرهم بما وهبهم الله من وسائل الهدى ، وأدوات الإدراك ، ثم لم ينتفعوا بها ، ولم يكونوا من الشاكرين . ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ الله الذي خلق الموت والحياة ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ من العدم ، ووهبكم الحياة ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ﴾ وهي وسائل المعرفة والبحث عن الحقيقة ، وهي وسائل الإدراك والهداية ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ، ومع ذلك ﴿ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ أي : قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره .

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ أي : بثكم في الأرض ، وفرّقكم في أقطارها ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي تجمعون بعد هذا التفرّق، كما قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٦٠]، ولكن الكافرين ينكرون قدرة الله على جمعهم : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهو سؤال الشاك المستريب ، حملهم عليه جهلهم بما أعدّ الله من العذاب لمن كذب بالساعة ، قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٨- ٤٠] ، فلا أحد يعلم متى تأتيهم ؟ ومتى يكون هذا الوعد ، ولذا قال لنبيه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ، وقد أنذرتكم . «وبينما هم يسألون في شك ويُجابون في جزم ، يوضح السياق القرآني كأن هذا اليوم الذي يسألون عنه قد جاء ، والموعد الذي يشكون فيه قد حان، وكأنما هم مواجهوه الآن : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ فقد رأوه قريبًا مواجهًا لهم حاضرًا أمامهم ، دون توقع ودون تمهيد ، فسيئت وجوههم ، وبدا فيها الاستياء ، ووُجه إليهم التأنيب : ﴿ وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ﴾ ، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ ، ولقد كان المشركون يقولون عن النبي ﷺ شاعر نتربص به ريب المنون، وكانوا يتواصون بينهم بالصبر عليه حتى يموت كما مات من قبله من الشعراء ، فأمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ؟ فماذا ينفعكم إن أهلكني الله ومن معي ؟ وإن رحمنا فذلك فضله ، ولن تعمّكم رحمته ، ﴿ فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ، وهكذا يلتفتُ من الخطاب إلى الغيبة، فهو لا يقول لهم : فمن يجيركم ؟ ولكن : فمن يجير الكافرين ؟ وهو أسلوب رائع من أساليب الدعوة، التي يجب على الدعاة أن يأخذوا أنفسهم به ، وقد تكرر في القرآن الكريم مرات ، كما قال موسى وهارون لفرعون : ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي : فاحذر أن تكذب وتتولى فتعذب ، وهذا الأسلوب من فوائده أن يجعل المخاطب يفكر في الهداية واتباع الرسل ، أما المجابهة والمواجهة والصراحة فإنها تنفر المدعو ، وتحمله على العناد والإصرار، والله تعالى يقول : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

ثم أمر الله نبيه أن يعلن إيمانه هو والذين آمنوا معه ، فقال : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

إنهم آمنوا بربهم ، وتوكلوا عليه ، والله لا يعذب المؤمنين المتوكلين عليه ، وإنما يعذب الكافرين به المعرضين عنه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ نحن أم أنتم ؟ كما ستعلمون أيُّنا تكون له عاقبة الدار .

وأخيرًا يلمح لهم بعذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة ، وذلك بحرمانهم من سبب الحياة الأول وهو الماء. ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: ذاهبًا في الأرض إلى أسفل ، ﴿ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ أي نابع سائح ، جارٍ على وجه الأرض ، أي لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل ، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه ، وأجراها في سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلّة والكثرة . فلله الحمد والمنة .

سورة القلم

الحلقة الأولى

﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

سورةٌ مكيّة، شأنُها شأنُ السّور المكيّة، في الاهتمام ببيان أصول الدين وأركان الإيمان، التي أهمّها التوحيد والرسالة والبعث. لكنّ محورَ السورة وموضوعَها الرئيسيَّ هو الرسالةُ والرسول وموقف المشركين منهما.

استفتحت السورة بالقسَم من الربّ عزّ وجل على براءة نبيّه ﷺ مما اتّهمه المشركون بقولهم شاعرٌ مجنون. ثم أثنى اللهُ على نبيّه لأخلاقه الحميدة وشهد له أنه بلغ أعلى درجات الأخلاق. ثم نهاه عن الاستجابة للمشركين فيما يدعونه إليه من أنصاف الحلول: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾.

ولقد كانت بعثةُ النبي ﷺ نعمةً على قومه فكفروا بها، فضرب الله لهم مثلا بأصحاب الجنّة، وخوّفهم عاقبةَ الكفر والطغيان. ثم نفى التسويةَ بين المؤمنين والكافرين، وذكر شيئًا من أهوال اليوم الآخر، التي يظهر فيها الفرقُ بين المؤمنين والكافرين جليًا.

وخُتمت السورة بأمرِ النبيّ ﷺ بالصبر، وحذّرته من أن ينفد صبره فيكون ﴿ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾.

(ن) هذا حرف من الحروف الأبجدية المعروفة، وقد اختلف المفسرون في سرّ استفتاح الله تعالى بعض سور القرآن الكريم بمثل هذا الحرف، والراجح - والله أعلم بأسرار كلامه - أن الله عز وجل أراد أن يبطل زعمهم أن القرآن كلام محمد ﷺ افتراه من عند نفسه، فقال لهم: إن القرآن مؤلف من هذه الحروف (ن)، (ق)، (ص)، (حم)، (طس) ونحوها وهي نفسها التي يتألف

منها كلامكم، ومحمد واحد منكم، ولغته لغتكم، فإن كان افتراه ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:٣٤]، فإن عجزوا فمحمد أعجز منهم، فليعلموا أنه كلام الله رب العالمين نزل به الروح الأمين، على قلب محمد ليكون من المنذرين.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

قوله تعالى: ﴿وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾. هذا قَسَمٌ من الله تعالى بالقلم وبالكتابة. والله سبحانه يُقْسِمُ ببعض مخلوقاته إشارةً إلى عظمتها ومكانتها، فهذا القَسَمُ فيه إشارةٌ إلى الاهتمام بالكتابة التي هي أساسُ التعليم، لأنَّ هذا الدينَ - الإسلام - يقومُ على أساسٍ من العلم، ولذا كانت أول آياتِ القرآن نزولا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

وقد كثرت الآياتُ والأحاديث في الحث على طلب العلم، وبيان فضلِه وشرفِه، وشرفِ حملته. وسبق في سورة المجادلة طرفٌ من ذلك.

وجواب القسم ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ والمراد بالنعمة النبوّة، وهي فضلُ الله يؤتيه من يشاء، و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وما كان الله يبعث في الناس مجنونًا. والعجيبَ أنّ القومَ حين قالوا ما قالوا كانوا يعلمون كَذِبَ أنفسهم، إذ كيف يكونُ مجنونًا من كانوا يحكّمونه بينهم؟! وكيف يكون مجنونًا من لقبّوه دون عظمائهم بالصادق الأمين؟! ولكنّه البغي، والحسد، ولذا قال تعالى لنبيّه: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣] وفي قولهم هذا، وشهادة اللهِ لرسولِه ﷺ بالبراءة منه، عزاءٌ لكلّ مَنْ يُقالُ فيه من الدعاة ما ليس فيه، فليوطّنْ الدّعاةُ أنفسُهم على الصبر، وأن يحتسبوا الأجرَ عند الله على أيِّ أذًى يلحقهم بسبب الدعوة، فإنها سُنّةٌ مطّردةٌ في الدعاة، ولذا قال لقمانُ لابنِه وهو يعظُه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:١٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي إنّ لك أجرًا دائمًا مستمرا لا ينقطع، على صبرك عليهم، وتبليغك رسالة ربك إليهم، مع تكذيبهم لك، وإعراضهم عنك. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وإنها لشهادةٌ عظيمةٌ من العليّ العظيم، لنبيّه العظيم، بعظمةِ أخلاقه، فلئن جاز لحملةِ الشهادات أن يعلّقوها على الجدران، فإن هذه الشهادة تستحقّ أن تكتب بسبائك الذهب وتعلق على جدران الفضة، لأنها من الله ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:١٦٦]. عن سعيدِ بن هشام قال: سألت عائشة فقلت: أخبريني يا أمّ المؤمنين عن خُلُقِ رسولِ الله ﷺ. فقالت: أتقرأ القرآنَ؟ فقلت: نعم. فقالت: كان خُلُقُه القرآن.

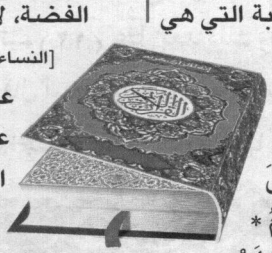

[صحيح، رواه: م (٧٤٦/٥١٢ - ١/٥١٤)، د(١٣٣٨/٢١٩ - ٤/٢٢٢)، نس(١٩٩ - ٣/٢٠١)]

ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثالُ القرآن أمرًا ونهيا سجيةً له، وخُلُقًا تطبّعه وترك طَبْعَه الجبلّي، فمهما أمره القرآنُ فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جَبَله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكلِّ خُلُقٍ جميل، كما ثبت عن أنس قال خدمت رسولَ الله ﷺ عَشْرَ سنين، فما قال لي أُفٍّ قط، ولا قال لشيءٍ فعلتُه: لم فعلته، ولا لشيءٍ لم أفعلْه ألا فعلتَه؟ وكان ﷺ أحسنَ الناس خُلُقًا، ولا مسستُ خزا ولا حريرًا ولا شيئًا كان ألينَ مِنْ كفّ رسولِ الله ﷺ، ولا شممتُ مِسْكًا ولا عِطْرًا كان أطيبَ مِنْ عَرَقِ رسولِ الله ﷺ.

[حسن صحيح، رواه: ت(٢٠٨٤/٣/٢٤٨)]

والأحاديث في هذا كثيرة. ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب الشمائل.

ولقد كان ﷺ يحثُّ على مكارم الأخلاق ويرغب فيها، فكان يقول: «أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم. [حسن صحيح رواه: ت(١١٧٢/٣١٥/٢)، د(٤٦٥٧/٤٣٩/١٢) دون الجملة الثانية]

وكان يقول: «إن المؤمن ليدركُ بحسن خُلُقِه درجة الصائم القائم». [صحيح، رواه: د(٤٧٧٧/١٥٤/١٣)]

وكان ﷺ يقول: «ما مِنْ شيءٍ أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حُسْنِ الخُلُق، وإن الله يُبغض الفاحش البذيء»

[صحيح، رواه: ت(٢٠٧٠/٢٤٤/٣)، د(٤٧٧٨/١٥٥/١٣) دون الجملة الثانية]

وهو الذي يتكلم بالفحش ورديء الأخلاق. فعليك يا عبد الله بحسن الخلق، وإياك وسوء الخلق، واعلم أنه لا يهدي لأحسن الأخلاق إلا الله، ولا يصرف شيئًا إلا هو، ففر إلى الله بالدعاء الدائم وقُلْ: اللّهمّ كما حسّنتَ خَلْقي حسّن خُلُقي.

وبعد هذا الثناء الكريم على عبده يطمئنُه إلى غده مع المشركين الذين رموه بذلك البهتُ اللئيم، ويهدّدهم بافتضاح أمرهم وانكشافِ بطلانهم وضلالهم المبين، فيقول: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ أي: فستعلم يا نبينا ويعلم مخالفوك ومكذّبوك مَنِ الضّالُّ أنت أم هم؟ لقد قال قومُ ثمود من قبل لنبيهم صالح: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر:٢٥]، فقال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ [القمر:٢٦] هم أم صالح؟. وها هم المشركون يقولون للنبي ﷺ شاعرٌ مجنون؟ ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات:٥٣]، والله تعالى يتوعدهم بالفضيحة على رءوس الأشهاد يوم القيامة، فيقول لنبيّه ﷺ: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ «وهذا الوعد من الله يشير إلى أن الغد سيكشفُ عن حقيقة النبي وحقيقة مكذبيه، ويثبت أيّهم الممتحن بما هو فيه، أو أيّهم الضال فيما يدعيه. ويطمئنه إلى أن ربه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وربه هو الذي أوحى إليه، فهو يعلم أنه المهتدي ومن معه، وفي هذا ما يطمئنه وما يقلق أعداءه، وما يبعث في قلوبهم التوجّس والقلق لما سيجئ».

ولقد كان المشركون حريصين على صرف النبي ﷺ عن دعوته، واستخدموا لذلك كلّ الأساليب، استخدموا الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والمدح والذم. وأيدوا استعدادهم للتنازل عن كثير مما هم عليه، في مقابل أن يتنازل هو عن بعض ما يدعوهم إليه، وبذلك ينتهي الخلاف، وتنتهي المشاكل وتفضُّ الخصوماتُ بينه وبينهم. ولكن الله عصم نبيّه ﷺ عن الاستجابة لهم، ونهاه عن ذلك، فقال: ﴿فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ ودّوا لو تميلُ إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق، فيدهنون هم، ويتركون كثيرا مما كانوا عليه مقابل أن تميل أنت شيئًا قليلا إلى آلهتهم. ولقد ربط الله على قلب نبيّه وثبّته على دينه، وامتنّ عليه بذلك، فقال له: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً * إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥].

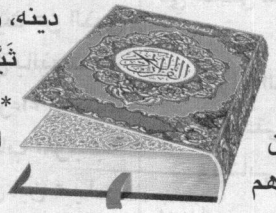

ولقد نهى الله نبيه في هذه السورة عن طاعتهم، وأمره في سورة أخرى بإعلان البراءة منهم فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦].

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ﴾ وكثرةُ الحلف عنوانُ الكذب، فلا يلجأ إلى كثرة الحلف إلا الكذّاب، أما الصادق فلا يلجأ إلى الحلق أبدا، ولاسيما إذا رُفع ذكرُه، وعُرفَ بين الناس بصدقه. والكذّاب يكذّب نفسه قبل أن يكذّبه غيرُه، فيلجأ إلى الأيمان الكاذبة ليصدّقه الناس، وهو يعلم أنّه كاذب. وقد وصف الله كل حلاف بأنه مهين، أي حقير ذليل، قال الحسن: كلّ حلاف مكابر مهين ضعيف. «والمهانة صفةٌ نفسية لا تفارق النفس الكريمة ولو تجردت من كل أعراض الحياة الدنيا». وقوله تعالى: ﴿هَمَّازٍ﴾ أي يهمز الناس ويعيبهم، وقد توعده الله سبحانه

بالحُطمة، فقال: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة:١-٩].

والهمز واللمز خُلُقٌ ذميم، نهى الله تعالى عنه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

وأما قوله تعالى: ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ فهو الذي يمشي بين الناس، ويحرّش بينهم وينقل كلام الناس ليوقع بينهم، وهذا من شر الناس عند الله يوم القيامة، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بشراركم؟ المشّاعون بالنميمة، المفرقون بين الأحبّة، الباغون للبرءاء العنت». وأخبر ﷺ أن النميمةَ من الأسباب الموجبة لعذاب القبر، ففي الصحيحين عن ابن عباس قال: مرّ رسول الله ﷺ بقبرين فقال: «إنّهما يعذبان، وما يعذّبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة».

[متفق عليه، رواه: (١/٣١٧/٢١٦)، م(١/٢٤٠/٢٩٢)، ت(١/٤٧/٧٠)، د(١/٤٠/٢٠)، نس(١/٢٨)، جه(٣٤٧)]

كما أخبر ﷺ أن الذي يمشي بالنميمة لا يدخل الجنة، فقال: «لا يدخل الجنة قتّات».

[متفق عليه، رواه: خ (١٠/٤٧٢/٦٠٥٦)، م(١/١٠١/١٠٥)، د(١٣/٢١٩/٤٨٥٠)، ت(٣/٢٥٣/٢٠٩٥)]

وقوله تعالى: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ أي يمنع الخير عن نفسه وعن غيره، لقد منع عن نفسه الإيمان وهو جماع الخير، كما منعه عن غيره، بالصدّ عنه والنهي عنه. والمنّاع للخير من أهل جهنم، كما يقول الله تعالى لملائكته يوم القيامة: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق:٢٤-٢٦]. وهو مع منعه الخير عن الناس ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ فلم يسلم الناس من شرّه وأذاه، حين منعهم خيره، بل جمع بين الشرين: فمنع عنهم الخير وأوصل إليهم الضرر والأذى. وقوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ﴾ وهو الفظّ الغليظ، الصحيح، الجموع، المنوع، وهذه صفة أهل النار والعياذ بالله، كما قال ﷺ: «ألا أنبّئكم بأهل الجنة: كلُّ ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره. ألا أنبئكم بأهل النار: كل عُتُلٍّ جوّاظٍ مستكبر».

[متفق عليه، رواه: خ(٨/٦٦٢/٤٩٨)، م(٤/٢١٩٠/٢٨٥٣)، ت(٤/١١٦/٢٧٣٢)]

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي بعد هذه الصفات الذميمة فهو زنيم، وقد ذكر المفسرون في معنى هذه الصفة أقوالا كثيرة أرجحها قولان:

الأول: الزنيم هو الرجل المعروف بلُؤْمِه وخُبْثِه، حتى كأنّ به علامةً يعرف بها.

والثاني: أن الزنيم هو الدعيُّ الذي لا يُعْرَفُ نسبُه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾؟! معناه هل هذا جزاء إنعامي عليه بالمال والبنين؟ و﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾؟ فبدلا من أن يبادر إلى شكري بالإيمان لي وتصديق رسولي، جعل شكره التكذيب بآياتي، وقال أساطير الأولين! ومِنْ ثَمّ يجيء التهديد: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ على الأنف والعرب تعبّر عن العزّة والذلّة بوصف الأنف، فتقول: أَنْفٌ أَشَمّ. للعزيز. وأَنْفٌ في الرّغام. للذليل. ومنه قولهم: رَغِمَ أَنْفُ فُلانٍ، أي: ذُل، لأنّ أكرمَ ما في الإنسان وَجْهُه، وأَعْلَى ما في الوجه الأَنْفُ، فإذا رَغِمَ الأنفُ أي لَصِقَ بالتراب فذلك عُنوان الذّلة. أعاذنا الله وسائر المسلمين من ذلّ الدنيا وعذاب الآخرة.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى

سورة القلم

الحلقة الثانية

قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) ﴾ [القلم: ١٧- ٣٣].

تفسير الآيات

هذا مثلٌ ضربه الله سبحانه لكفّار قريش؛ إذْ بعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فكذبوه وكفروا بما جاءهم به، وهو أعظم نعمة لله عليهم، فضرب الله مثلاً أصحاب الجنة، ليروا كيف تكونُ عاقبة كفر النعمة في الدنيا، ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ﴾ أي: اختبرناهم وامتحناهم ببعثة محمد ﷺ ﴿ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ أي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه وكانوا ورثوه من أبيهم، وكان أبوهم صالحًا، فكان إذا أخذ ثمار

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

هذا البستان ردّ فيه ما يحتاج إليه، وادخر لهم قوت سنتهم، وتصدق بالفاضل، فلما مات قالوا: لقد كان أبونا أحمق، إذ كان يصرف من هذه الثمار للفقراء من غير عمل عملوه، ولو أنّا منعناهم لتوفّر ذلك علينا، فاتفقوا على ذلك وأقسموا عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ أي: حلفوا ليجذُنها في الصباح الباكر قبل انتشار الفقراء، ﴿ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ في يمينهم، ولذا حنثهم الله فيها، ﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أي أصابتها آفة سماوية، ﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾

أرض جرداء سوداء لا زرع فيها ولا ماء. وهكذا يؤاخذ الله بالعزم دون الهمّ، والفرق بينهما: أن الهمّ: ما حدّث الإنسانُ نفسه به من غير أن يعقد قلبه عليه. والعزم ما حدَّث به نفسه وعقد قلبه عليه، فهذا الثاني يؤاخذ الله به وإن لم يفعله الإنسان، يدل عليه قول النبي ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه». [متفق عليه].

وأما الأول فقد صحت الأحاديثُ بأنّ من همّ بسيئةٍ فلم يعملها كتبت له حسنة، وقوله تعالى: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ﴾ أي: نادى بعضهم بعضًا في الصباح الباكر: إنْ كنتم جادين فيما عزمتم عليه من حرمان الفقراء فهذا وقت غدوكم، قبل أن يستيقظ الفقراء، ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ أي: يُخفون حديثهم خشية أن يسمعهم أحد. ولكن الله الذي يعلم السر وأخفى قد سمع سرهم ونجواهم فأخبرنا به، وهو قولهم: ﴿أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ﴾ يحذر بعضهم بعضًا، لا تمكنوا المساكين من الدخول عليكم. ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ أي: غدوا إلى الجنة وهم - في ظنهم - قادرون على حرمان المساكين، وما أن وصلوا حتى كانت المفاجأة، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ وهي ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ كما وصف الله سبحانه، وقفوا حيارى، فـ ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي قد تهنا عن جنتنا، لكن هذه معالمها، أليست هذه أرض فلان، وهذه أرض فلان ؟ فهذه أرضنا، فما تهنا إذن ! ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ قد حُرمنا خير جنتنا وثمارها بسبب ما عزمنا عليه من حرمان المساكين، ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي أعدلهم وأقربهم إلى الله، ويبدوا أنه كان قد خالفهم الرأي، ونهاهم عما أرادوا، فلم يطيعوه، فلما أصابهم ما أصابهم ذكرهم بما قال لهم كالموبخ لهم على مخالفته، كما يقول الوالد لولده إذا رسب في الامتحان: ألم أقل لك ادْرس. وكما يقول الله تعالى للمجرمين يوم القيامة: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١]، ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: لولا تستثنون، لولا تقولون إن شاء الله، والآن فقط يستجيبون له فيسبحون بعد فوات الأوان. ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ أي يلوم بعضهم بعضًا على ما كانوا عزموا عليه من حرمان المساكين، شأنهم في ذلك شأن رفاق السوء، الذين يتعاونون على الإثم والعدوان، فإذا أصابتهم مصيبة تنصل كلٌّ من أصحابه، وألقى بالتبعة عليهم: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ لولا أنتم، ولولا أنتم فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب، فـ «قالوا» جميعًا: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أي: ظالمين ظلمًا شديدًا بما عزمنا عليه، ثم أعلنوا التوبة والرغبة في رحمة الله، فقالوا: ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾. قال تعالى مذكرًا قريشًا وغيرهم من الذين بدّلوا نعمة الله كفرًا، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أي هكذا عذاب من خالف أمر الله، وبخل بما آتاه، ومنع الفقراء والمساكين، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

فالواجب على أهل الزرع أن يؤتوا حقه يوم حصاده، ولا يبخلوا، فإن البخل شؤم، ومن شؤمه أنه يُذهب النعمة، كما جرى لأصحاب الجنة، بينما الصدقة خيرٌ وزكاةٌ وبركة، ولعل ما يبين بركة الصدقة هذا الحديث الذي كاد أن يحكي حال والد أصحاب الجنة قبل موته: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: بينا رجلٌ بفلاةٍ من الأرض، فسمع صوتًا في سحابةٍ: اسْقِ حديقة فلان. فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فإذا سرجةٌ من تلك السِّراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجلٌ قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاته. فقال له: يا عبد الله، ما اسمك ؟ قال: فلان. للاسم الذي سمع في السحابة. فقال له: يا عبد الله، لم تسألني عن اسمي ؟ فقال: إني سمعتُ صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسْقِ حديقة فلان، لاسمك. فما تصنعُ فيها ؟ قال: أما إذا قلت هذا، فإني أنظرُ إلى ما يخرج منها، فاتصدّق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثًا، وأردُّ فيها ثلثه. [صحيح رواه ابن ماجه ٢٩٨٤/٢٢٨٨/٤]. وإذا كان هذا من

بركة الصدقة، فإن من شؤم البخل منع القطر من السماء، كما قال النبي ﷺ: «يا معشر المهاجرين، خمسٌ إذا ابتليتم بهنّ، وأعوذُ بالله أن تدركوهنّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاعُ التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينتقصوا المكيال والميزان، إلا أخُذوا بالسنين وشدّة المئونة وجور السلطان عليهم. ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمْطَروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم». [السلسلة الصحيحة].

لما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله عز وجل وخالفوا أمره أتبعه بذكر جنة الآخرة التي لا تَفنى ولا تبيد، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، ولقد كان المشركون حين يسمعون النبي ﷺ يذكر الجنة والنار يقولون: نحن أولى بالجنة من محمد وأصحابه، وعلى أسوأ تقديراته إن دخلوا الجنة فهم شركاؤنا فيها، فقال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ أي: أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء؟ كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، وكما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ ماذا بكم؟ وعلام تبنون أحكامكم؟ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، هل عندكم كتاب من الله، فأنتم تدرسون فيه، أن لكم لما تخيرون من نعيم الجنة؟ أي: أمعكم عهودٌ ومواثيقٌ من الله أن يكون لكم في الآخرة ما تشتهون؟ فأنتم واثقون أن الله لا ينقض عهدًا ولا يخلف وعدًا؟ ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾! وليس عندهم من هذا كلّه شيءٌ، فليس عندهم كتاب، ولا معهم عهد، وإنما هي الأماني الكاذبة التي يمنيهموها الشيطان، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾، وقد فسر النبيّ ﷺ هذه الآيات تفسيرًا رائعًا: فأخرج البخاري (٧٤٣٩) في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحوًا؟ قلنا: لا، قال: فإنكم لا تضارون في رؤية ربكم يومئذ، إلا كما تضارون في رؤيتهما. ثم قال: يُنادِي منادٍ ليذهب كلُّ قومٍ إلى ما كانوا يعبدون، فيذهبُ أصحاب الصليبِ مع صليبهم، وأصحابُ الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهةٍ مع آلهتهم، حتى يبقى مَن كان يعبدُ الله مِن برٍّ أو فاجر، وغُبَرات من أهل الكتاب، ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: نعبد عزيرًا ابن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبةٌ ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم. ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون، حتى يبقى من كان يعبدُ الله مِن برّ أو فاجر، فيقال لهم: ما يحبسكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: فارقناهم ونحن أحوج منا إليه اليوم، وإنا سمعنا مناديًا ينادي: ليلحق كلّ قوم بما كانوا يعبدون، وإنما ننتظر ربنا. قال: فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء. فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه؟ فيقولون: الساق. فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياءً وسمعةً فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقًا واحدًا. ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، ذلك أنهم ﴿كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ فلا يسجدون إلا رياءً وسمعة.

والحمد لله رب العالمين

سورة القلم

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ

[القلم: ٣٤- ٥٢]

تفسير الآيات

﴿فذرني ومن يكذب بهذا الحديث﴾ أي خلِّ بيني وبينهم، فإنهم أعدائي كما أنهم أعداؤك، فاتركهم لي، ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾، ومن الاستدراج أن يوسّع الله عليهم في الدنيا، ويبسط لهم في الرزق، يكثّر أموالهم وأولادهم، فيغترون بذلك فيقولون: لولا أنّ الله عنّا راضٍ ما أعطانا، فيقيمون على كفرهم، ويفرحون بما أوتوا، ولا يزالون كذلك حتى يأخذهم الله، ولذا قال تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، ولهذا قال ههنا: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: وأؤخرهم وأنظرهم وأمدّهم، وذلك من كيدي ومكري بهم، وكيدي متين، أي عظيم لمن خالف أمري، وكذّب رسلي، واجترأ على معصيتي. قال النبي ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [المدثر: ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ بمعنى ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩]، هل سألتهم أجرًا على تعليمهم وهدايتهم، فثقل عليهم لفقرهم؟ كلا، فالنبي ﷺ لم يسألهم أجرًا، وكذلك الأنبياء كلهم قال: ﴿يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [هود: ٥١]، وهل يعقل أن يكون للأنبياء أي مطمع فيما في أيد الناس من حطام الدنيا الزائل، إنّ الدنيا كلّها لو أعطيها الأنبياء أجرًا لهم على دعوتهم لكان أجرًا قليلاً، ولذلك لم يسأل

الأنبياء أقوامهم أجرًا على دعوتهم بل صرّح كلٌّ منهم بالأجر الذي ينشده ويرجوه بقوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾، فلماذا إذن لا يقبلون الهداية؟ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾؟ كلا، ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، فلم يبق إلا التكذيب والعناد، وإذ الأمر كذلك: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ اصبر على تكذيبهم واصبر على إعراضهم، واصبر على أذاهم، فإن الصبر زادُ الداعية، وكلما كثر زادُه كلما كثر أجره أولاً، ثم يكثر أتباعه ثانيًا، وكلّما قل زاده قل أجره، لأنه ربما ترك الدعوة إذا نفد صبره، فالواجب على الداعية أن يصبر ويحتسب، وألا يتعجل النتائج، فإنّ وعد الله حقّ، ولكن ليس بلازم، أن يرى الداعية نفسه نتائج دعوته، وليس بلازم أن يقطف الداعية نفسه ثمرة دعوته، فكم زَرَعَ أناسٌ وحصد غيرهم، وكم غرس أناس وأكل غيرهم، ولذا كثر في القرآن الكريم أمر النبي ﷺ بالصبر، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]، كما نُهي ﷺ عن الاستعجال، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وحُذر هنا أن يكون كصاحب الحوت، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وهذه الآيات يفسّرها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [الصافات: ١٣٩- ١٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، فهذه تجربة مرّ بها داعية من الدعاة، ونبي من الأنبياء، وهو يونس عليه السلام، «يذكر الله بها محمدًا ﷺ لتكون له زادًا، يعينه على عبئه الثقيل الكبير، عبءِ هداية البشرية جميعها، ملخص تلك التجربة أن يونس ابن متى- سلام الله عليه- أرسله الله إلى أهل قرية- قيل اسمها نينوى بالموصل- فاستبطأ إيمانهم وشقّ عليه تلكؤُهم، فتركهم مغاضبًا قائلاً في نفسه إن الله لن يضيّق عليّ بالبقاء بين هؤلاء المتعنتين المعاندين، وهو قادر على أن يرسلني إلى قوم آخرين، وقد قاده الغضب والضيق إلى شاطئ البحر، حيث ركب سفينة، فلما كانوا في وسط اللج ثقلت السفينة وتعرّضت للغرق، فأقرعوا بين الركاب للتخفيف من واحدٍ منهم لتخف السفينة، فكانت القرعة على يونس، فألقوه في اليم، فابتلعه الحوت، عندئذ نادى يونس- وهو كظيم- في هذا الكرب الشديد في الظلمات في بطن الحوت، وفي وسط اللجة، نادى ربه: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فتداركته نعمة من ربه، فنبذه الحوت على الشاطئ لحمًا بلا جلد ذاب جلده في بطن الحوت، وحفظ الله حياته بقدرته التي لا يقيدها قيدٌ من مألوفِ البشر المحدود.

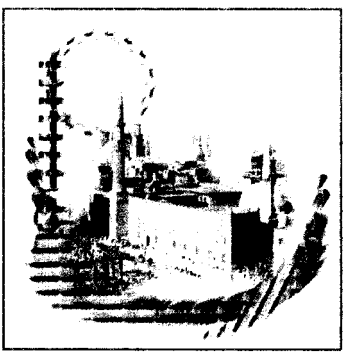

وهنا يقول: إنه لولا هذه النعمة لنبذه الحوت وهو مذموم، أي: مذموم من ربه، على فعلته، وقلة صبره، وتصرفه في شأن نفسه قبل أن يأذن الله له، ولكن أنعم الله عليه، وقبل الله تسبيحه واعترافه وندمه، وعلم منه ما يستحقّ عليه النعمة

والاجتنباء، ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

هذه هي التجربة التي مرّ بها صاحبُ الحوت، يذكّر الله بها رسوله محمدًا ﷺ في موقف العنت والتكذيب.

وفي الختام يوضح موقف الكافرين وهم يتلقون الدعوة من الرسول الكريم، في غيظ عنيف، وحسد عميق ينسكب في نظرات مسمومة قاتلة يوجهونها إليه، ويصفها القرآن بما لا مزيد عليه.

﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾. ولقد كان في العرب مَنْ هو معروفٌ بقوة الأثر في الشيء الذي ينظر إليه نظرة حسدٍ، حتى إن كانت البقرة السمينة أو الناقة السمينة لتمر بأحدهم فيعاينها، ثم يقول: يا جارية، خذي المكتل والدرهم فائتينا بلحم هذه الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت فتنحر، فسأل الكفار أحد هؤلاء أن يصيب لهم النبي ﷺ بالعين فأجابهم: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال: ٤٣]، فحفظ نبيه، وردّ كيد الخاسرين في نحره.

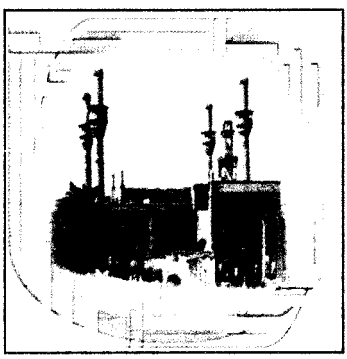

وفي هذه الآية دليلٌ على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل، ووردت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ، منها قولُه ﷺ: «إن العين حق». [مسلم: ٢١٨٧]. وعن أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول اللّه ﷺ قال لجارية في بيتها رأى في وجهها سفعةً- يعني صُفْرةً- فقال: «بها نظرة، استرقوا لها». [البخاري: ٥٧٣٩، ومسلم: ٢١٩٧]، ومعنى «بها نظرة» أي: محسودة، أصابتها العين.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: رخص النبي ﷺ لآل حزم في رُقْيةِ الحيّة، وقال لأسماء بنت عُميس: «ما لي أرى أجسام بني أخي ضارعةً؟ تصيبهم الحاجة؟ قالت: لا، ولكن العين تُسرعُ إليهم. قال: «ارقيهم». قالت: فعرضت عليه، فقال: «ارقيهم» [مسلم٢١٩٨].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول اللّه ﷺ: «العين حق، ولو كان شيءٌ سابق القدرِ سَبَقته العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا».

[مسلم: ٢١٨٨]

علاج العين

ومعنى: «وإذا استغسلتم فاغسلوا»: كان من عادتهم أن الإنسان إذا أصابته العين من أحدٍ جاء إلى العائن، فجُرد من ثيابه وغسل جسده ومعاطفه ووجهه وأطرافه، وأخذ المعينُ ذلك الماء فصبه عليه، فيبرأ بإذن الله، فأمرهم النبي ﷺ إذا استغسلوا أن يغسلوا. يُوضحه حديث محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبي سهل بن حنيف بالخرّار، فنزع جُبّةً كانت عليه، وعامرُ بنُ ربيعة ينظر إليه، وكان سهل شديد البياض، حَسَنَ الجلد، فقال عامر: ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأةٍ عذراء، فوعك سهل مكانه، واشتد وعكه، فأُخبر رسول اللّه ﷺ بوعكه، فقيل له: ما يرفع رأسه، وكان قد اكتتب في جيش، فقالوا له: هو غير رائح معك يا رسول الله، والله ما يرفع رأسه. فقال: هل تتهمون له أحدًا؟ قالوا: عامر بن ربيعة، فدعاه رسول اللّه ﷺ، فتغيظ عليه، وقال: علام يقتل أحدكم أخاه؟ ألا بركت؟ اغتسل له، فغسل عامر وجهه ويديه، ومرفقيه وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره، في قدح، ثم صُبّ عليه من ورائه، فبرأ سهلٌ من ساعته. [رواه ابن ماجه: ٣٥٠٩/٢/١١٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ أي يزدرونه بأعينهم، ويؤذونه بألسنتهم، ويقولون: إنه لمجنون، أي لمجيئه بالقرآن، ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾، فقال: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ والذكر لا يقوله مجنون، ولا يحمله مجنون، وصدق الله، وكذب المفترون.

والحمد لله رب العالمين.

الجراد آية من آيات الله

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) ﴾ [الأعراف:١٣١-١٣٧].

ظهرت في سماء البلاد في هذه الأيام مجموعات من الجراد صارت حديث الناس، ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [الصافات:٢٧] من المسئول؟ ومن المعاتب؟ ومن الملوم؟ (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ) كان الواجبُ أن يفعل فلانٌ كذا، وأن يفعل فلانٌ كذا، هكذا صار حديث الناس عن الجراد، فهل للقرآن وأهله حديثٌ في هذا الموضوع؟ نعم، إن أهل القرآن يختلفون عن غيرهم في الكلام عن الحوادث والمصائب التي تحل بهم، فغير أهل القرآن يسمونها ظواهر طبيعية، أو كوارث طبيعية، تصيبهم حينًا كما أصابت غيرهم، ويعفون منها أحيانًا، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف:٩٤-٩٥].

أما أهل القرآن فإنهم يردون ما يصيبهم من السراء إلى فضل الله، وما يصيبهم من الضراء إلى ذنوبهم، فإن تمسسهم حسنة يحمدون الله تعالى ويقولون: هذا من فضل الله علينا ليبلونا أنشكر أم نكفر، وإن تصبهم سيئة يستغفروا الله تعالى ويقولوا: هذا بشؤم ذنوبنا ومعاصينا، ثم يجأرون إلى الله تعالى بالدعاء والتضرع: ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان:١٢]، وهذه هي حكمة الابتلاء كما صرح بها القرآن في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [الأنعام:٤٢]، وقال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٨]، وقال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١].

فالجراد جند من جنود الله تعالى يسلطه على من يشاء من عباده

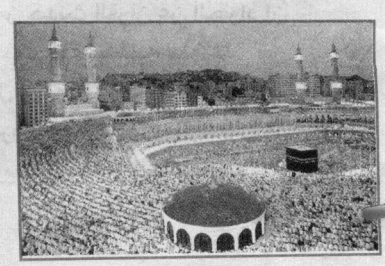

لعلهم إليه يرجعون بالتوبة والندم والاستغفار وصالح الأعمال، وقد سلطه على فرعون وملائه حين استكبروا في الأرض وعتوا عتوًا كبيرًا.

وكان من شأنهم أنهم لمَّا أراهم موسى الآية الكبرى وهي العصا واليد كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف:١٠٧-١٠٨] فكان السحرة أول المؤمنين، وأبى فرعون والملأ من قومه إلا الإقامة على الكفر، ولمَّا كان الله تعالى يحب العذر فقد تابع عليهم الآيات آية بعد آية لعلهم يؤمنون فأخذهم بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يتذكرون، ومعنى الآية أنَّه أخذهم بالجدب وضيق المعيشة لعلهم يتذكرون ضعفهم أمام قوة الله، وعجز ملكهم الجبار المتغطرس، وعجز آلهتهم، ولعلهم إذا تذكروا اعتبروا واتعظوا فرجعوا عن ظلمهم لبني إسرائيل وأجابوا دعوة موسى عليه السلام، فإنَّ الشدائد من شأنها أن ترقق القلوب وتهذب الطباع وتوجه الأنفس إلى مرضاة رب العالمين والتضرع له دون غيره، ولكن القوم لم يتذكروا ولم يتعظوا، ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ..﴾ دون غيرنا، ونحن المستحقون لها بفضلنا وكرامتنا ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ ويقولون ما أصابنا الذي أصابنا إلا بشؤمهم، قال تعالى ردًا عليهم: ﴿أَلاَ إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: فليعلموا أن الشؤم الذي نسبوه إلى موسى هو من عند الله تعالى لا من عند موسى ومن معه، فالله تعالى قد جعل لكل شيء قدرًا من الحسنات والسيئات، بمعنى أنَّه وضع لنظام الكون سننًا تكون فيها المسببات على قدر الأسباب، ولكل منها حكم، بمقتضى هذه السنن والأقدار ينزل البلاء عليهم، وهو امتحان واختبار لهم بما يسؤوهم ليتوبوا ويرجعوا عن ظلمهم وبغيهم، ولكن أكثرهم لا يعلمون حِكَم التصرف الرباني في الخلق ولا أسباب الخير والشر الصورية والمعنوية، وكونَ كل شيء في هذا الكون بمشيئته تعالى. ثم تبجح القوم وقالوا لموسى عليه السلام: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فدعا موسى عليهم فقال: يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وطغى وعتا وإنَّ قومه قد نقضوا عهدك، رب فخذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمة، ولقومي عظة، ولمن بعدهم آية وعبرة، فبعث الله عليهم الطوفان وهو الماء، فامتلأت بيوت آل فرعون حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ومن جلس منهم غرق، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل قطرة من الماء، وركد الماء على أرضهم لا يقدرون أن يحرثوا ولا يعملوا شيئًا، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل، فدعا ربه فرفع عنهم الطوفان، فأنبت الله لهم في تلك السنة شيئًا لم ينبته لهم قبل ذلك من الكلأ والزرع والثمر، وأخصبت بلادهم فقالوا: ما كان هذا الماء إلاَّ نعمة علينا وخصبًا فلم يؤمنوا، فبعث الله عليهم الجراد فأكل عامة زروعهم وثمارهم وأوراق الشجر، حتى كانت تأكل الأبواب والسقوف والخشب والثياب والأمتعة حتى وقعت البيوت، ولم يصب بني إسرائيل من ذلك شيء فعجوا وضجوا وقالوا يا موسى: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وأعطوه عهد الله وميثاقه، فدعا موسى عليه السلام فكشف الله عنهم الجراد وكانت بقيت من زروعهم بقية فقالوا: هذه كافيتنا وما نحن بتاركي ديننا، فبعث الله عليهم القمل فأكل طعامهم وأخذ أشعارهم وأبشارهم ولزم جلودهم ومنعهم النوم والقرار، فصرخوا وصاحوا إلى موسى: إنا نتوب، فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء، فدعا موسى ربه فرفع عنهم القمل، فنكثوا عهدهم وعادوا إلى أخبث أعمالهم، فأرسل الله عليهم الضفادع فامتلأت بها بيوتهم وأطعمتهم وآنيتهم، فلا يكشف أحد إناءً ولا طعامًا إلا وجد فيه الضفادع، وتسلطت عليهم حتى آذتهم إيذاءًا شديدًا، فلما رأوا ذلك بكوا وشكوا إلى موسى عليه السلام، وأعطوه عهودهم ومواثيقهم فكشف عنهم فلم يتوبوا، فلما أعذروا من أنفسهم وقامت عليهم الحجة وحقت عليهم كلمة العذاب انتقم الله منهم بأن أغرقهم أجمعين.

وهكذا تبين لنا من حديث القرآن عن الجراد أنَّ الجراد جند من جنود الله يسلطه الله على من يشاء من عباده فيأكل زرعهم ويهلك حرثهم ويخرب بيوتهم لعلهم يذكرون فيتعظون ويقلعون عن الذنوب والمعاصي ويقبلون على الأعمال الصالحة

التي ترضي عنهم ربهم فيرفع عنهم العذاب ويعمهم بالخير والبركات. وحين ننظر في واقعنا نرى أنَّ فينا ذنوبًا كثيرة تفشت فينا حتى عمت الصغير والكبير، ونحن بحاجة إلى التوبة من هذه الذنوب قبل أن يستفحل الأمر فيعم العقاب والعياذ بالله.

ففينا: تهاون بالصلاة، وهي عمود الدين، وهي العهد الذي بيننا وبينهم، وهي أول ما فرض من العبادات وأول ما يحاسب عليه العبد من عمله، ومع ذلك فهي مضيّعة، ولينظر كل منا في عدد أفراد أسرته، كم المصلون منهم، ولينظر في أحوال المصلين كيف هم والصلاة على وقتها، وكيف هم وصلاة الجماعة، سيرى تهاونًا كثيرًا بالصلاة.

وفينا: بخل بالزكاة، وهي قرينة الصلاة، اقترنت بها في القرآن الكريم في اثنتين وثمانين آية، ومع ذلك يبخل بها الكثيرون، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [محمد:٣٨]، ويقول تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران:١٨٠].

وفينا تفريط في الحج، فكم من مستطيع لم يحج، والأعذار واهية، وطول الأمل أغلب، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان:٣٤]، والنبي ﷺ يقول: «مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ فَإِنَّهُ قَدْ يَمْرَضُ الْمَرِيضُ وَتَضِلُّ الضَّالَّةُ وَتَعْرِضُ الْحَاجَةُ»، وهكذا تركت أعظم الواجبات، كما انتهكت أعظم المحرمات.

فأكل الربا، وهو من الموبقات كما عدّه النبي ﷺ، والله تعالى قد نهى عنه وعلق الانتهاء على الإيمان فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨]، ثم توعد فقال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة:٢٧٩]، وهي حرب على الأبدان والقلوب، وحرب على البركة والرخاء، وحرب على السعادة والطمأنينة، حرب يسلط الله فيها بعض العصاة لنظامه ومنهجه على بعض، حرب المطاردة والمشاكسة حرب الغبن والظلم، حرب القلق والخوف، وأخيرًا حرب السلام بين الأمم والشعوب، وكما أكل الربا أخذت الرشوة، وصارت شبه متعارف عليها، فلا تقضي مصلحة إلا بها.

وظهر الزنا، والنبي ﷺ يقول: «إذا ظهر الزنا والربا في قوم فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله» وشربت الخمور واتخذت القينات والمعازف، وكلها منذرة بعذاب الله، نسأل الله العافية.

إن الأمة بحاجة إلى توبة، توبة عامة جماعية، تعم العصاة والمذنبين، من المسلمين والمؤمنين، لأنَّ الله تعالى أمر المؤمنين جميعًا بالتوبة فقال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]، فالأمة التي تعود إلى طريق الرشاد، وتصدق في التوبة والإنابة إلى رب العباد يفتح الله لها ويرفع من شأنها، ويعيدها إلى عزتها ومجدها، وينقذها من وهدتها التي انحدرت إليها، وينجيها من الخطوب التي تحيط بها نتيجة الذنوب التي ارتكبتها والمنكرات التي أشاعتها، ويمتعها متاعًا حسنًا ويجعل الصولة والدولة لها، ويرزقها الأمن والأمان والاستخلاف في الأرض والتمكين فيها كما وعدها حيث قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٥٥]، فما أحوج الأمة اليوم إلى أن تعج بالتوبة إلى الله ليرضى عنها ويرفع عنها ما أصابها من بلاء وذل ومهانة.

إن من المؤسف المخزي أنْ ينام إخواننا المستضعفون في فلسطين والعراق على أصوات المدافع والرشاشات وننام نحن على أصوات المغنين والمغنيات، فإلى متى - يا أمتي - الغفلة؟ وإلى متى السكر والجنون؟ والله يرينا من آياته كل يوم آية بعد آية، فإما أن نفيق ونعتبر ونبادر بالتوبة وإلا فإنَّ سنة الله لا تحابي ولا تجامل: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:١٦-١٧].

والحمد لله رب العالمين.

سورة الحاقة

يقول تعالى: ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١-١٢].

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

سورة مكية شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة وتثبيت الإيمان، ولكنها تركز على المكذبين بيوم الدين، فتذكر مصارعهم في الدنيا، وجزاءهم في الآخرة، كما تتحدث عن أهوال يوم القيامة وحال السعداء فيه والأشقياء، وتختم بالحديث عن القرآن والنبي الذي نزل عليه، وأنه ليس له فيه إلا التبليغ، ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾، وحاشاه ﷺ أن يتقول على ربه، وهو الأمين.

تفسير الآيات

«الحاقة»: من أسماء يوم القيامة، سُمي به لأن فيه يتحقق الوعد والوعيد، يتحقق وعد الله لأوليائه بالجنة، ووعيده لأعدائه بالنار، «ما الحاقة» سؤال للتفخيم والتعظيم، كما يُقالُ عن الرجل إذا أُريد تعظيم حاله من علم أو نحوه: فلانٌ، ما فلان؟ ﴿مَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ ما أعلمك بها وبأهوالها وأنت لم ترها؟ ولا يأتي جوابٌ لهذين السؤالين، وإنما يتركان هكذا بدون جواب ليذهب العقلُ في الجواب كل مذهب.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ والقارعة من أسماء يوم القيامة، سمي به لأن هَوْلَه يقرع الآذان، ويزعج الإنسان وثمود هم قوم صالح، وكانوا يسكنون الحجر، بين بلاد الشام وبلاد الحجاز، وأما عاد فهم قوم هود، وكانوا يسكنون حضرموت باليمن فهم إذن معروفون لأهل مكة الذين يخاطبهم القرآن، والذين كذبوا بالقارعة، التي كذبت بها ثمود وعاد، قليتأملوا في مصيرهم، وليرجعوا عن تكذيبهم خشية أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم عاد

وثمود، ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾، وهي الصيحة التي طغت على كل الصيحات، فتركت القوم ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]، ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ باردة «عاتية» أي شديدة الهبوب، عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: سلطها الله عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: متتابعة، ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾، فكانت الريح تحملُ الرجل إلى السماء ثم ترمي به إلى الأرض على أمّ رأسه، فينفصل رأسه عن جسده، فيبقى الجسدُ من غير رأس، حتى تحسبه جذع نخلة لا رأس لها، كما قال تعالى في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٨- ٢٠].

ولقد أرسلت هذه الريح أولاً على أهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم فجعلتهم بين السماء والأرض، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة فأهلكتهم أجمعين، ﴿فَأَصْبَحُوا لاَ يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ولذا قال تعالى هنا: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ﴾ وهو معروف، ﴿وَمَن قَبْلَهُ﴾ من الأمم المكذّبة، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ وهي قرى قوم لوط، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤]، وهي الذنب العظيم، الذي هو تكذيب رسلهم، كما فسّره سبحانه بقوله: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ ومعلوم أن رسول فرعون غير رسول من قبله وغير رسول المؤتفكات، ولكن لما كانت الرسالة واحدة فحملتها- وإن كثروا- رسول واحد، فمن كذّب واحدًا منهم فقد كذّب جميعهم، ولذا قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلخ، ومعلوم أنّ كلّ أمةٍ من هذه الأمم كذبت رسولاً واحدًا وهو الذي بُعث إليها، ولكن كان تكذيبهم له تكذيبًا للمرسلين لما ذكرناه، ولهذا كان «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله». [أخرجه مسلم]. ﴿لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فمن فرق بين الرسل فزعم الإيمان بالبعض وكفر بالبعض الآخر فهو كافر بهم جميعًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾. [النساء:١٥٠-١٥١].

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي زائدة قوية شديدة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ أي زاد على الحدّ، وهو ماء الطوفان الذي قال الله عنه: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢]، فلما طغا الماء وعم الوجود ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ وإنما خاطبهم ولم يكونوا موجودين يوم الطوفان، لأنهم كما قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣]، وإذ هم كذلك فإن في إنجاء آبائهم إنجاءً لهم، والإحسان إلى الآباء إحسان إلى الأبناء، فخاطبهم تذكيرًا لهم بهذه النعمة ليشكروه عليها، و﴿الْجَارِيَةِ﴾ هي السفينة، وجمعها جواري، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ﴾ [الشورى: ٣٢]، وكانت هذه السفينة أول سفينة يعرفها الناس، صنعها نوح عليه السلام بأمر ربه، ولذا قال تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي لنجعل جنس السفن تذكرة لكم بالسفينة الأولى التي أنجى الله فيها نوحًا ومن آمن معه، كما قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]، وقوله تعالى: ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ أي: وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذنٌ تعي ما تسمع وتنتفع به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

سورة الحاقة

الحلقة الثانية

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

يقول تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾ [الحاقة: ١٣- ٣٣].

يقول تعالى مخبرًا عن أهوال يوم القيامة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، الصور خَلْقٌ عظيمٌ مثلُ البوق، وقد ذُكِرَ في القرآن الكريم، وثبت في السنة أن الله قد وكل به ملكًا من الملائكة المقربين وهو إسرافيل عليه السلام، وأخبر النبي ﷺ أنه قد أخذ أهبة الاستعداد للنفخ، فقال ﷺ: «كيف أنعم وقد التقم صاحبُ القرْن القرنَ، وحنا جبهته، وأصغى سمعه، ينتظر أن يُؤمَرَ فينفخ؟» فكأنّ ذلك ثَقُلَ على أصحابه، فقالوا: فكيف نفعلُ يا رسول الله أو نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا».

[صحيح. رواه الترمذي: ٤/٤٢/٢٥٤٨]

والنفخ مرتان: نفخة الإماتة، ونفخة الإحياء، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر]، وبين النفختين أربعون، كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون» قيل أربعون يومًا؟ قال أبو هريرة: أبَيْت. قالوا: أربعون شهرًا؟ قال: «أبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال: أبيت». [متفق عليه]

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ وهي نفخة الفزع والإماتة حصل بها تغير عظيمٌ في الكون كله، ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة، والواقعة ثالث اسم من الأسماء التي أطلقت على يوم القيامة في هذه السورة، فقد سبقَ تسميته بالحاقة والقارعة، ثم أطلق عليه هنا الواقعة لتحقّق كونه ووجوده، ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ بسبب النفخ ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ أي ضعيفة بعد شدّتها، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ [المزمل: ١٧، ١٨]، فإذا السماء انفطرت

وانشقت، بسبب هذه النفخة، فكيف بكم أنتم معشر الناس؟!

وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ يعني: إذا انشقت السماء قامت الملائكة على حافاتها، يردّون الشارد، ويدفعون الهارب، ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ من الملائكة، وقد حدّث النبي ﷺ عن عظمة خلقهم فقال: «أُذِن لي أن أحدّث عن ملك من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام». [صحيح. رواه أبو داود: ٤٧٠١، ١٣/٣٦]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ أي: تعرضون على الملك الكبير المتعال، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]، ﴿لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾، فالكل مكشوفٌ، مكشوفُ الجسد، وتسقط جميع الأستار التي كانت تحجبُ الأسرار، وتتعرّى النفوس وتُعَرّى الأجساد، وتبرز الغيوب بروز الشهود، ويتجرد الإنسان من حَيْطته ومن مكره ومن تدبيره ومن شعوره، ويفتضح منه ما كان حريصًا أن يستره حتى عن نفسه، وما أقسى الفضيحة على الملأ وما أخزاها على عيون الجموع! أما عين الله فكلّ خافية مكشوفةٌ لها في كلّ آن، ولكن لعل الإنسان لا يشعر بهذا حقّ الشعور، وهو مخدوع بستور الأرض، فها هو ذا يشعر به كاملاً وهو مجرد في يوم القيامة، وكل شيء بارز في الكون كله، الأرض مدكوكةٌ مسوّاة لا تحجب شيئًا وراء نتوءٍ ولا بروز، والسماء متشققة واهية لا تحجب وراءها شيئًا، والأجسام معرّاة لا يسترها شيء، والنفوس كذلك مكشوفة ليس من دونها ستر، وليس فيها سر.

فاللهم استرنا بسترك ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، فإذا عُرِض العبادُ على الله سبحانه كانوا فريقين: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاق�ٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾، والمراد بالكتاب كتاب الأعمال، ولكلّ عبدٍ كتاب، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾، ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، فلكلّ عبدٍ كتاب، فإذا حُشر العبادُ تطايرت هذه الكتب حتى يقع كلّ كتابٍ في يد صاحبه، فمنهم الآخذ بيمينه، وذلك الناجي، ومنهم من تُطْوَى شماله وراءَ ظهره فيأخذ بها، وذلك الشقي الهالك، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ﴾ لكلّ مَنْ لقيه: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾، وذلك لاعتقاده أنه ليس فيه ما يسوؤه، ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي كنتُ على يقين أنني محاسبٌ بعملي ومَجزيٌّ به، فاتقيت المحارم، واجتهدت في طاعة الله، فالظنّ هنا بمعنى اليقين، لأن الظنّ الذي هو بمعنى الشك ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾، قال تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي مرضية ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي رفيعةٌ قصورُها، حسانٌ صورها، نعيمةٌ دورُها، دائمٌ حبورُها، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤]، ومع هذا النعيم الحسّي فالملائكة يدخلون عليهم من كل باب يقولون لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ بمعنى ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]، والمراد بالأيام الخالية يعني الماضية، وهي أيام الدنيا، وهكذا يحدّثنا الله عن الدنيا ونحن مازلنا فيها، يحدثنا عنها بلفظ الماضي لأن زوالها قريب، وهو متحقق، فهو يحدثنا عنها وكأنها قد زالت فعلاً، وكأن أهل الجنة قد تبوأوا منازلهم فيها، وكأن أهل النار قد تبوأوا منازلهم فيها، حتى لا يطول بالإنسان أملٌ، فيقعده عن خير العمل. وقد أخرج البيهقي عن نافع قال: خرج ابنُ عمر في بعض نواحي المدينة ومعه أصحابٌ له، ووضعوا سُفرةً لهم، فمرّ بهم راعي غنم، فسلم فقال ابن عمر: هلم يا راعي، هلم فأصِبْ من هذه السُفرة، فقال له: إني صائم، فقال ابن عمر: أتصومُ في مثل هذا اليوم الحارّ الشديد سَمُومه، وأنت في هذه الجبال ترعى هذه الغنم؟ فقال له: إنّي والله أبادرُ أيامي الخالية. فقال له ابن عمر- وهو يريدُ أن يختبر ورعه-: فهل لك أن تبيعنا شاةً من غنمك هذه فنعطيك ثمنها ونعطيك من لحمها فتفطر عليها؟ فقال: إنها ليست لي بغنم، إنها غنم سيدي. فقال له

ابن عمر: فما عسى سيّدك فاعلاً إذا فقدها فقلت أكلها الذئب؟ فولّى الراعي عنه، وهو رافعٌ إصبعه إلى السماء، وهو يقول: فأين الله؟ قال: فجعل ابن عمر يردد قول الراعي، وهو يقول: قال الراعي: فأين الله؟ فلما قدم المدينة بعث إلى مولاه فاشترى منه الغنم والراعي، فأعتق الراعي ووهب منه الغنم.

فيا عباد الله، حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أخفّ عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾.

عن صفوان بن محرز قال: كنتُ آخذًا بيد ابن عمرَ إذ عرض له رجلٌ فقال: كيف سمعت رسول اللّه ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة؟ قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «إن الله يُدْني المؤمنَ فيضعُ عليه كنفَه ويسترُه من الناس ويقرِّره بذنوبه، ويقول له: أتعرفَ ذنب كذا؟ أتعرفُ ذنب كذا؟ أتعرفُ ذنب كذا؟ حتى إذا قرّره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يُعطى كتاب حسناته، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين».

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾، فما كان يظن يومًا أنه محاسب بأعماله، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته، فلما رأى ما لم يحسب حسابه لم يجد إلا أن يتمنى الموت بعد أن كان الموت أكره إليه من كل شيء، فقال: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ التي تنهي وجوده أصلاً فلا يعود بعدها شيئًا، ثم تحسّر على عدم انتفاعه بماله ولا جاهه، فقال: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾، وهذه حقيقة طالما ذكّر بها القرآن الأثرياء والوجهاء، ولكنهم نسوها أو تناسوها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١٨- ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

ومِن دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧- ٨٩]

وأما قوله: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ فقد يُراد بالسلطان الجاه، فيكون تحسُّرًا على عدم انتفاعه بجاهه في هذا اليوم العصيب، وهذه أيضًا حقيقة طالما نبه عليها رسول اللّه ﷺ، فلقد كان يهلل بعد الصلاة بهذه الكلمات: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

[متفق عليه]

والجدّ هو الحظّ والغنى والعظمة والسلطان، أي: لا ينفع ذا الحظّ في الدنيا بالمال والولد والعظمة والسلطان منك حظّه، أي: لا ينجيه حظّه منك، وإنما ينفعه وينجيه العمل الصالح.

وقد يرادُ بالسلطان الحجةُ والبرهان فيكون المعنى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ أي: بطلت حجتي، وضاع برهاني، وثبت خطئي، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، وبينما تنطلق منه هذه الحسرات في أسى وحزن إذ قرع سمعَه صوتُ الجبار سبحانه وهو يقول لملائكته: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾، وما إن يقول الجبّار خذوه حتى يبتدره سبعون ألف ملك، الملك منهم يقول هكذا فيلقى سبعين ألفًا في النار، فيجعلون الأغلال في عنقه، ثم يسلكونه في سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا- وكان ذراعُ واحدٌ يكفيه- فتسلك في دبره حتى تخرج من منخريه، حتى لا يقوم على رجليه، أجارنا الله وإخواننا المسلمين.

وللحديث بقية بإذن الله.

سورة الحاقة

الحلقة الأخيرة

إعداد

د. عبد العظيم بدوي

الموقع على الانترنت

WWW.ibnbadawy.com

إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ العَظِيمِ ۝ وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ ۝ فَلَيْسَ لَهُ اليَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخَاطِئُونَ ۝ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ۝ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ ۝ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ۝ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۝ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكَافِرِينَ ۝ وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليَقِينِ ۝ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ ۝.

[الحاقة:٣٤-٥٢]

يقول الله تعالى عمن أوتي كتابه بشماله: ۝ إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ العَظِيمِ (٣٣) وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ ۝، فلم يحسن فيما بينه وبين الله، ولم يحسن فيما بينه وبين عباد الله، وشرط النجاة إحسان العبد فيما بينه وبين الله تعالى بالإيمان به وطاعته، وإحسانه فيما بينه وبين الناس ببرهم وكف الأذى عنهم، قال تعالى: ۝ إِنَّ المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۝، ثم فسرَ إحسانهم، فقال: ۝ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ [الذاريات: ١٥- ١٩]، وهذا إحسانُهم فيما بينهم وبين الله، ثم قال تعالى: ۝ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝، وهذا إحسانهم فيما بينهم وبين عباد الله، ولذا وصّى النبي ﷺ بعموم هذا الإحسان فقال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن».

فهذا الخاسر- صاحب الشمال ۝ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ العَظِيمِ (٣٣) وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ ۝، فأساء فيما بينه وبين الله، كما أساء فيما بينه وبين الناس، ۝ فَلَيْسَ لَهُ اليَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝ أي: قريب أو صديق ينفعه أو يشفع له، كما قال تعالى: ۝ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ۝ [غافر: ١٨]، ۝ وَلاَ طَعَامٌ ۝ أي: ليس له اليوم هاهنا طعام ۝ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ۝ وهو ما يسيل من جراحات أهل النار، من الدم والقيح والصديد، وهو طعام ۝ لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الخَاطِئُونَ ۝ أي: المذنبون المتصفون بالخطيئة.

وبعد، فذلك هو الذي يجعله الله مستحقًا للأخذ والغلّ والتصلية وأن يُسلك في السلسلة التي ذرعها سبعون ذراعًا في الجحيم، وهو أشد دركات جهنم عذابًا، فكيف بمن يمنع طعام المسكين؟ ومن يُجيعُ الأطفال والنساء والشيوخ، ومَنْ يبطش بطشة الجبارين بمن يمدّ إليهم يده باللقمة والكساء في برد الشتاء؟ أين ترى يذهب هؤلاء؟

وهم يوجدون في الأرض بين الحين والحين، وما الذي أعدّه الله لهم وقد أعد لمن لا يحضّ على طعام المسكين ذلك العذاب في الجحيم.

يقول تعالى: ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾: إن القرآن الكريم كلامُ الله رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فعلّمه سيد المرسلين محمداً ﷺ، وهذه حقيقة طالما كررّها القرآن، ردًا على الذين ﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الفرقان: ٥]، وهو هنا يؤكد هذه الحقيقة بالقسم: ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٦]، ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾، وهو أكثر وأعظم مما تبصرون، ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ يعني النبي ﷺ إضافة إليه على معنى التبليغ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل، ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ العَالَمِينَ ﴾، وقد كان المشركون كما وصفهم الله مختلفين في أمر النبي ﷺ، غير متفقين على كلمة يقولونها فيه، فتارةً يقولون شاعر، وتارة يقولون ساحر، وتارة يقولون كاهن، وتارة يقولون مجنون، قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ [الذاريات: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق: ٥]، فبرّأ الله نبيه مما قالوا، فقال هنا: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾، وقال في سورة الطور: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ ﴾ [الطور: ٢٩]، ولقد كانت هذه الآيات من جملة الأسباب التي جعلها الله تعالى مؤثرةً في هداية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد رُوي عنه أنه قال: خرجتُ أتعرّض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقمتُ خَلْفَه فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، قال: فقلت: هذا والله شاعرٌ كما قالت قريش، فقرأ: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾، قال: فقلت: كاهن، فقرأ: ﴿ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ إلى آخر السورة، قال: فوقع الإسلام في قلبي كل موقع.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴾ يعني: لو زاد محمد على ما أوحيناه إليه شيئًا أو نقص: ﴿ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوَتِينَ ﴾ فمات، لأن الوتين عِرْقٌ في القلب إذا انقطع مات صاحبُه، ولو فعل الله ذلك بنبيه ما منعه أحد، ولذا قال تعالى: ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾، وهذا التهديد قد تضمن شهادة الله لنبيه بالأمانة على ما أوحى إليه، وأنه لم يزد فيه ولم ينقص، وتوضيح ذلك أنه لما لم يفعل به ما ذكره في هذا الوعيد، دلّ على أنه لم يتقوّل.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني القرآن، وأما الذين لا يتقون فقلوبهم مطموسة غافلة، لا تتفتح ولا تتذكر، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴾ أي: مع هذا البيان ووضوح الآيات، وظهور البراهين على أن القرآن كلام الله رب العالمين، إلا أنّا نعلم أن منكم مكذبين بالقرآن، ﴿ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ فإنه إذا كان يوم القيامة، ورأوا ما وعدهم به، تحسّروا إذ لم يهتدوا به، ولم ينقادوا له، كما قال تعالى: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ اليَقِينِ ﴾ يعني وإن كذّب به المكذبون، فهو حق اليقين، وليس مجرّد اليقين، ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ العَظِيمِ ﴾، ﴿ وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ ﴾ [آل عمران: ١٧٦]، ولقد سبّح النبي ﷺ باسم ربّه، وحثّ أمّته على التسبيح، وكان يقول: «كلمتان خفيفتان على اللّسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن؛ سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

نسأل المولى سبحانه وتعالى أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وإلى اللقاء في الحلقة القادمة- إن شاء الله- حول تفسير سورة «المعارج».

سورة المعارج

الحلقة الأولى

إعداد

د. عبد العظيم بدوي

الموقع على الانترنت

WWW.ibnbadawy.com

يقول تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ (٣) تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (٤) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (٧) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (١٥) نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى (١٦) تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج: ١- ١٨].

بين يدي السورة

سورةٌ مكية تتحدث أيضًا عن اليوم الآخر وما فيه من عذاب للكافرين الذين كانوا يستعجلونه لشدّة تكذيبهم به، ولئن كانت سورة الحاقة تحدثت عن أهل اليوم الآخر وما يُحدثه من تغيّرات كونيّة، فإن هذه السورة تتحدث عن نفس الأهوال وما تحدثه من جزع وفزع في النفوس البشرية.

كما تتحدث السورة أيضًا عن النفس البشرية وكيف تكون في الضرّاء والسرّاء، ثم ختمت السورة بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن المكذبين، وإمهالهم ﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾.

تفسير الآيات

كان المشركون لشدّة تكذيبهم بيوم الدين، وما لهم فيه من العذاب المهين، يستعجلون هذا العذاب، ويسألون الله أن يعجله لهم في الدنيا قبل الآخرة، وقد ذكر الله سبحانه استعجالهم هذا في أكثر من آية، وأخبرهم أنه واقعٌ بهم لا محالة، وأنه لا يمنعه عنهم إلا كلمةٌ سبقت من الله وأجلٌ مسمى، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ

بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٣- ٥٥]، وبيّن سبحانه أنّ استعجالهم هذا راجعٌ إلى جهلهم بحقيقة عذاب الله، ولو علموها ما استعجلوه، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٨- ٤٠].

فقوله تعالى هنا: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فسألوا استعجالَ العذاب، والعذابُ لا محالة بهم واقع، ﴿لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ أي لا دافع له، ولا رادّ له، إذا أراد الله وقوعه ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أي ذي الدرجات، كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، ﴿تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ والروح قد يكون المرادُ به جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]، يعني جبريل، وعروجُ جبريلَ والملائكة واضحٌ، وهو أنهم ينزلون بالأمر من الله، ثم يعرجون إليه، كما يتنزلون في ليلة القدر حتى مطلع الفجر ثم يعرجون، وقد يكون المرادُ بالروح روح الميّت حين تقبضُها الملائكة فإنهم يعرجُون بها إلى السماء فيستفتحون فيُفتح للمؤمن ولا يُفتح للكافر، كما سبق بيانه في حديث البراء بن عازب الطويل في صفة قبض الأرواح.

وأما اليومُ المذكور في الآية فهو يوم القيامة، فقد وردت الأحاديث عن النبي ﷺ أنّ يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة، كما جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَا مِن صاحب ذهبٍ ولا فضّة لا يؤدّي منها حقّها إلا إذا كان يوم القيامة صُفّحتْ له صفائح من نار، فأُحمي عليها في نار جهنم، فيُكوى بها جنبه وجبينه وظهرُه، كلما بردت أُعيدت له، في يوم كان مقدارُه خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيلُه، إمّا إلى الجنّة، وإمّا إلى النار».

﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلا﴾ فاصبر يا نبينا على تكذيب قومك لك واستعجالهم العذاب استبعادًا لوقوعه، «فاصبر صبرًا جميلاً، وهو الصبر الذي لا يصحبه سَخَطٌ ولا قَلَقٌ، ولا شكّ، وإنما صبرٌ يصحبه الرضا والطمأنينة والثقة والرضى، وقد كثر في القرآن أمر الله لنبيه بالصبر، وذلك أن الصبر زاد الداعية، فإذا نَفَذ قعد عن الدعوة وهجر قومه، فعلى الدعاة أن يتحلّوا بالصبر، وأن يتخلوا عن الاستعجال، وأن يعلموا أن الدعوة دعوة الله، ونتائجها بيده، وليس بلازمٍ أن يرى الداعية نتيجة جهوده، ولان أنْ يجني ثمرة سعيه، فهو مكلّف بالدعوة والتبليغ، فعليه أن يؤدّي ما كُلف به، وأن يذر الأمور بعد ذلك، يدبّرها كيف شاء ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ أي أن الكفرة يرون العذاب بعيد الوقوع بمعنى المستحيل، والله عز وجل الذي سيعذّبهم يراه قريبًا، وهو سبحانه أعلم.

ثم ذكر سبحانه أهوال يوم القيامة، الذي يقعُ فيه العذاب بالكافرين فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ أي: كالزيت إذا أُغلي، وذلك لبلوغ الهول منها كل مبلغ، ﴿وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أي كالصوف المنفوش، كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ١]، ﴿وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ يومئذ، لا يسألُ قريبٌ قريبه عن حاله، ولا يسألُ صديقٌ صديقًا، وحتى لا يُظَنَّ أن عدمَ السؤال لعدم الرؤية، قال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾، ولكن ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]، فالكل قد أتاه ما يُشغله، والكلّ يقول نفسي نفسي، ولذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣- ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: ١٨]، وقال هنا: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾، فلم يقتصر الأمرُ على فرار الأقارب بعضهم من بعض، ولم يقتصر الأمرُ على انشغال الوالد بنفسه عن ولده، والمولود عن والده، بل بلغ الأمر حدا لا يتصور، حيث ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ الذين كان في الدنيا يفتدي ظُفْرَ أحدِهم بروحه، صارَ اليومَ يودّ لو يفتدي نفسه من عذاب الله بهم جميعًا، بل وبمن في الأرض جميعًا، ولكن هيهات هيهات، فهذا يومٌ لا يُقْبَلُ فيه الفداء، كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ٦]، وقال هنا بعد ذكر تمنيِّ المجرم الفداء: «كلا» أي: لا يقبلُ منه فداءٌ ولو جاء بأهل الأرض، وبأعزّ ما يجده من المال، ولو بملءِ الأرض ذهبًا، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده.

ثم قال تعالى واصفًا النار التي تنتظر الكافرين: ﴿إِنَّهَا لَظَى﴾ سُميت بذلك لأنها تلظى، أي تتوقّد وتتوهّج، كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤]، ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى﴾ أي تنزع الجلود عن الوجوه والرءوس نزعًا، ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (١٧) وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ أي تُنادي النّارُ على كلّ من أدبر عن الهدى، وتولّى عن داعي الخير، تناديه النار يومَ القيامة فيُقبل عليها ويجيبُها، ولا يستطيع أن يُدْبر ولا أن يتولى، ولقد كان جَمَع المال فاوعاه، ولم يؤدّ حق الله، واليومَ لا يغني عنه ماله من الله شيئًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى

هذا بيان للناس

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

إن الأمن والأمان من أجلّ نعم الله تبارك وتعالى، امتنَّ الله بها على قريش في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت:٦٧].وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القصص:٥٧].

فالأمن والأمان من أجلّ نعم الله تبارك وتعالى على العباد، فيها يجد الإنسان نفسه، ويؤدي وظيفته، ويغدو ويروح آمنا مطمئنا، ومن هنا لما امتنّ الله على قريش بنعمة الأمن أمرهم أن يعبدوه شكرا عليها، فقال تعالى: ﴿لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ (١) إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:١-٤].

وفي هذه الآيات إشارة لطيفة إلى أنه في حال الأمن يتمكن الناس من عبادة الله تعالى، ولكن في حال الخوف والقلق لا يتمكنون من عبادة الله تعالى، وإذا أدّوها لم يؤدوها على وجهها المشروع أصلا، وإنما يستخدمون الرخص التي رخص الله لهم فيها في حال الخوف والقلق، ومن هنا كانت صلاة الخوف تختلف في حقيقتها عن الصلاة في حال الأمن، يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

فلما كذبت قريش رسولها، وعصت أمر ربها، ولم يشكروه على ما أنعم به عليهم من نعمة الأمن بدّل الله أمنهم خوفا، وشبعهم جوعا، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل:١١٢-١١٣].

ولما بدّل الله حال قريش من الأمن إلى الخوف، بدّل حال الفئة المؤمنة من الخوف إلى الأمن، وحقّق لهم وعده الذي وعدهموه في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥].

وامتنّ الله على هذه الفئة المؤمنة بما حباها من نعمة الأمن، فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال:٢٦].

ومن أجل المحافظة على هذه النعمة أمر الله ورسوله بالصبر على ولاة الأمر

وعدم الخروج عليهم، لما يترتب على الخروج عليهم من إزالة الأمن والأمان، وحلول الفوضى والقلق والاضطراب، الذي تسلب فيه الأموال، وتنتهك فيه الأعراض، وتزهق فيه الأرواح.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها. قالوا: يا رسول الله، كيف تأمر من أدرك ذلك منا؟ قال: تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم» [متفق عليه]. وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من كره من أميره شيئا فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية» [متفق عليه].

وأسعد الناس بهذه النصوص أهل السنة والجماعة، الذين يدينون لله تعالى بالسمع والطاعة للأمراء، والدعاء لهم، وعدم الخروج عليهم، كما قال الإمام الطحاوي - رحمه الله -: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يدا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة».

ويدخل في طاعة الأمراء احترام أهل الذمة، المواطنين أو الوافدين، لأن لهم عهد أمان من الأمراء، بصيانة دمائهم وأموالهم، فلا يجوز سلب أموالهم، فضلا عن إزهاق أرواحهم، فقد جاءت الأحاديث تتوعد من فعل ذلك.

عن صفوان بن سليم رحمه الله عن عِدّة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة». [صحيح أبي داود:٢٦٢٦]

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قتل معاهدا لم يَرُحْ رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا». [رواه البخاري]

فتبين من ذلك أن هذه الحوادث الأخيرة التي وقعت في البلاد، واستهدف منفذوها قتل السيّاح الأجانب، تبين من ذلك أن هذه الأعمال مخالفة للشريعة، ولا يقرّها الإسلام والمسلمون أبدا.

كيف وآثارها تتعدى إلى المسلمين الأبرياء، والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

وثالثا: هذا الذي يفجّر هذه التفجيرات فيقتل نفسه أولا قبل غيره، وقتل النفس حرام، والنبي ﷺ يقول: «من تردى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلّدًا فيها أبدا، ومن تحسّى سما فقتل نفسه، فسمّه في يده يتحسّاه في نار جهنم، خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده، يتوجّأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدا فيها أبدا». [متفق عليه]

لكل هذا، تستنكر أنصار السنة المحمدية هذه الحوادث، وتدعو الشباب إلى الإقبال على طلب العلم، الذي ينوّر لهم الطريق، وأن يحرصوا على مجالس العلماء الربانيين الذي يفقهونهم في الدّين، ويعلمونهم الحلال والحرام، ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر.

وأخيرا: نهمس في أذن كل شاب: إياك والحماسة، وإياك والاندفاع، كيف تقتل نفسك ترجو بذلك الجنة، والجنة حرام علي من قتل نفسه، أو قتل نفسًا بغير حق.

هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحلقة الثانية

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥) فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ (٣٦) عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ (٣٧) أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ (٣٩) فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ١٩- ٤٤].

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

يقول تعالى مخبرًا عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، ثم فسّر الهلع بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ ومعناه أنه إذا مسّ هذا الإنسان شيءٌ من الشر عَظُمَ في نفسه، وكأنه مصيبة المصائب، فضاقت به الدنيا، وانقطع رجاؤه، وظنّ أن ما نزل به ليس له دافع، فقعد محسورًا، وإذا مسّ الإنسان شيءٌ من الخير أوعاه وأحْصاه، فلم ينفق منه شيئًا مخافة نفاده، وهاتان الصفتان شرٌّ ما في الرجل، كما قال النبي ﷺ: «شرّ ما في الرجل شُحّ هالع وجُبْنٌ خالع». [صحيح الجامع: ٣٧٠٩]. والشح الهالع أي الجازع الذي يحمل على الحرص على المال والجزع على ذهابه والجبن الخالع أي الشديد كأنه يخلع فؤاده من شدة خوفه.

وأخبر ﷺ أن هذه الصفات لا تجتمع هي والإيمان في قلب واحد، فقال ﷺ: «لا يجتمع غبارٌ في سبيل الله ودُخانُ جهنم في جوف عبدٍ أبدًا، ولا يجتمع الشُّحُّ والإيمانُ في قلب عبدٍ أبدًا». [صحيح الجامع: ٧٦١٦]

ولهذا استثنى الله عز وجل فقال: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ وليسوا كلّ المصلين بل بعضهم، وهم ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، «قيل معناه يحافظون على أوقاتها وواجباتها، وقيل المراد السكونُ والخشوع، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١- ٢]، وهذا يدلّ على وجوب الطمأنينة في الصلاة، فإن الذي لا يطمئن في ركوعه وسجوده ليس بدائم على صلاته، لأنه لم يسكن فيها ولم يدم، بل ينقرُها نَقْرَ الغراب، وقيل المرادُ بذلك الذين إذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه، كما جاء في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل» قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً داوم عليه. اهـ من ابن كثير.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، فهؤلاء قد علموا أن المال مالُ الله، وهم أُمَناءُ عليه، فأدّوا حقّ الفقراء فيه، سألوا أمْ لم يسألوا، والسائل هو الذي يتعرّض للناس يسألهم من فضل الله، والمحرومُ هو الذي يتعفّف عن السؤال، وهؤلاء الذين برأهم الله من الهلع يسألون عمن لا يسألهم، ويتحرونهم، ويوصلون إليهم حقّهم، بخلاف ما نسمعه هذه الأيام من كثير من الناس حين تلزمه كفارةٌ إطعام عشرة مساكين، يقولون:

منْ أين نأتي بعشرة مساكين، فهم لا يعرفونهم لأنهم لا يفقدونهم، ولو سألوا عنهم لعرفوهم، ولوجدوا عشرات بل مئات المساكين.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي يوقنون بالحساب والجزاء، فهم من ذلك اليوم على حذر، ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون وجلون ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ لمن يفعل الزنى، واللواط، والسحاق، ونظر من لا يجوز له النظر إليها، ومسّ من لا يجوز له مسّها، ﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ فيما استمتعوا به منهنّ، سواء بالجماع أو ما دونه، كما قال ﷺ: «احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك». [حسن، رواه د (٣٩٩٨/٥٦، ٥٧)، ت(٢٩٤٦/١٩٧/٤)، جه (١٩٢٠/٦١٨/١)]

﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾، فمن قضى من امرأة وطرًا وهي ليست زوجة ولا أمة فهو باغ عادٍ ملوم، وفي هذه الآية تصريحٌ بحرمة الاستمناء باليد، وهو ما يُعرفُ عند الشباب بـ «العادة السرية»؛ لأنها داخلة في قوله: ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾، ثم إن النبي ﷺ أرشدَ الشّباب إلى طرق علاج الشهوة والقضاء عليها ومقاومتها فقال: «يا معشر الشّباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنّه أغضُّ للبصر وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّه له وجاء». [متفق عليه]

فأرشد النبي ﷺ العاجز عن مؤنة النكاح إلى الصوم لا غير، ولو كان هذا الأمر- أي الاستمناء- جائزًا لأرشدهم إليه، لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ أي يؤدون الأمانات ولا ينقضون العهود، وهكذا أهل الإيمان دائمًا، وأما المنافقون فهم بخلاف ذلك، كما قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث، إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

[صحيح الجامع ١٦]

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي قائمون بها لله، كما أمرهم في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ ولا يكتمونها، ولا يزيدون عليها، ولا ينقصون منها، (ولو) كانت الشهادة ﴿عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

ثم ختم سبحانه الصفات بما بدأها بها، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وذلك اهتمامًا بالصلاة، ومزيد عناية بها، كما ذكر ذلك في صدر سورة المؤمنون فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وقال هنا: ﴿أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ جعلنا الله وسائر إخواننا المؤمنين منهم.

ثم يقول تعالى منكرًا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له ولما أرسله الله به من الهدى، وما أيّده اللهُ به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذا كلّه فارون منه متفرقون عنه، شاردون يمينًا وشمالاً، فرقًا فرقًا، وشيعًا شيعًا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾، وهذه مثلها، فإنه قال: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ أي فمال هؤلاء الكفار الذين عندك يا نبينا مهطعين، أي مسرعين نافرين منك. [ابن كثير ٤/٤٢٢]. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي متفرقين، فما لهم؟ ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾؟ (كلا) بل مأواهم جهنّم، التي وُصفت من قبل بـ﴿إِنَّهَا لَظَى﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي من الماء الدافق كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الانبياء:١٠٤]، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ تقرير للبعث بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الانبياء: ١٠٤]، ولذا قال في سورة الطارق بعد الآيات السابقة: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾.

ثم أقسم سبحانه بربوبيته على قدرته على الذهاب بهم، والإتيان بخلق جديد خير منهم، فقال تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ أي مشارق الشمس ومغاربها، فإنّ لها كلّ يوم مشرقًا ومغربًا: ﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي وما نحن بعاجزين، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]

وختامًا يوجه اللهُ الخطاب إلى نبيه ﷺ فيقول: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم: ﴿حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ والذي قال الله عنه في مطلع السورة: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾، ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ أي القبور ﴿سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦- ٨].

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ قد تحقق ورأوه رأي العين، وعلموا علْمَ اليقين أنه وَعْدٌ صدق، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥١، ٥٢]. والله من وراء القصد

سورة «نوح»

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ (٣) يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١- ١٢].

إن أحسن كلمةٍ تُقالُ هي كلمةُ الدعوة إلى الله، وأحسن عمل يؤديه الإنسان هو الدعوةُ إلى الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، أي: لا أحَد أحسنُ منه قولاً، والدعوةُ إلى الله وظيفةُ المصطفَيْنَ الأخيارِ وأتباعِهم، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

والدعوةُ إلى الله لها قواعدُ وأصولٌ يجبُ على من أرادَ القيام بالدعوة أن يتعلّمها أولاً قبل أن يخوض غمار الدعوة، كما أنّ عليه أن يستفيد من تجارب الدعاة قبله.

وسورةُ نوح من السور التي تضمنت شيئًا من قواعد الدّعوة وأصولها، وشيئًا من تجربة الداعية الأول نوح عليه السلام، أوحى الله بها إلى نبيه ﷺ ليستفيد منها هو والدعاةُ بعده.

استُفْتِحت السورةُ ببيان مصدر الإرسال، ومصدر التكليف بالدعوة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ فالمرسل والمكلف هو الله سبحانه، وليس هناك مرسل غيره، ولا يصدر التكليفُ بالدعوة من غير الله سبحانه، وتتلخص رسالةُ نوح في قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والإنذار هو الإعلام المتضمن التخويف، وهو المناسب لقوم نوح، إذ كانوا على شفا حفرةٍ من النار، لما وقعوا فيه من الشرك وعبادة الأصنام، ولما كان الله لا يعذب حتى يبعث رسولاً، فإن الله تعالى بعث نوحًا إلى قومه، يدعوهم إلى التوحيد، وينذرهم عذاب الله إن

الموقع على الانترنت
WWW.ibnbadawy.com

استمروا على الشرك، فـ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، أي: بيّن النذارة، ظاهر الأمر واضحه، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، وهكذا يجب أن تكون الدعوة؛ إلى الله، إلى عبادته وتقواه، وإلى طاعة رسوله واتباعه، لا يجوزُ أن تكون الدعوة إلى مذهب، ولا إلى رأي، ولا إلى حزب، ولا إلى شيخ، يجب أن تكون الدعوة إلى عبادة الله وحده، وطاعة رسوله.

والذي يقرأ القرآن يجد أنّ الأنبياء جميعًا وهم حملةُ راية الدعوة إلى الله، قد اتفقوا في الدعوة على كلمة واحدة، يقولها كل نبي لقومه، وهي: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف، وهود]، ولم يكن هذا الاتفاق من المرسلين أنفسهم، لأنهم لم يجتمعوا يومًا ما، ولكن لما كان المرسلُ واحدًا، والمكلِّفُ واحدًا وهو الله وحده، فقد كلّف اللهُ رسله أجمعين بالدعوة إلى شيءٍ واحد، وهو عبادة الله وحده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وحده «واتقوه» بفعل ما أمره، واجتناب ما نهى عنه وزجر، «وأطيعون» في كل ما آمركم وأنهاكم، فإني لا آمركم ولا أنهاكم إلا بإذن الله، فطاعةُ رسول الله طاعةٌ لله، كما قال تعالى: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ثم رغبهم في الاستجابة، فبين لهم ما لهم إذا استجابوا، فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إن استجبتم لي، وقبلتم هذه الدعوة، فعبدتم الله وحده، واتقيتم سخطه وعذابه بترك الشرك، فإن الله ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يمدّ في أعماركم، ويدرأ عنكم العذاب الذي استوجبتموه بكفركم، ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وهذا ترغيبٌ ثانٍ في الاستجابة، ومعناه بادروا بالطاعة قبل حلُول النقمة، فإنه إذا أمر تعالى بعذابكم فـ ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور:٨]، لأن الله إذا قضى شيئًا فلا رادّ لقضائه ولا معقِّب لحكمه، ولا غالب لأمره، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا(٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾، وهكذا يجبُ على الداعة أن يحمل همّ الدعوة ليلاً ونهارًا، وأن لا يفتر عن الدعوة ولا يقعد عنها أبدًا، وأن لا ييأس من الناس وإن صرّحوا له بعدم اتباعه.

ولِمَ هذا الإصرارُ من نوح على الدعوة؟ وأيّ مصلحةٍ يرجوها؟ وأي مكسبٍ يحقّقه؟ وأيّ غايةٍ يطمعُ فيها؟! إنه- والله- لم يكن يطمعُ في شيءٍ سوى أن يقومَ بما كلّفه الله به، وأن يُشْهِدَ ربّه أنّه ما قصّر، وأنه بلّغ، وهذا هو الذي يملكه، ولا يملكُ قلوب الناس، ومع أنهم كانوا يفرّون منه، إلا أنه كان دائمًا يتحيّن الفرص، فيغشاهم في مجالسهم، فإذا فاجأهم: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾، والأُذنُ لا تتحمّل أصبعًا واحدًا، ولكنّ القوم من شدّة حرصهم على عدم السماع، وخوفهم أن يتسرّب إلى آذانهم شيءٌ من كلام نوح عليه السلام، ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ لئلا يسمعوا ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ عن الإيمان ﴿اسْتِكْبَارًا﴾.

ومع هذا الإصرار لم يترك نوح دعوتهم، بل استمر فيها، كما قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

وهكذا يُعلِّم نوحٌ عليه السلام الدعاةَ الإصرار على الدعوة، وإنْ أصرّ المدْعُوون على رفضها، لا لشيء إلا طمعًا في الأجر الذي وصفه النبي ﷺ بقوله لعليّ: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعم» [متفق عليه: رواه البخاري: ٣٧٠١/٧/٧٠)، ومسلم (٢٤٠٦/١٨٧٢/٤)]. وإلاَّ حرصًا على نجاة المدعوين- الذين يرفضون الدعوة من النار، لأنهم يعلمون علم اليقين أنّ من رفض دعوةَ الرسل فقد وجبتْ له النار، كما قال النبي ﷺ: «مثلي ومثلكم كمثلَ رجلٍ أَوْقَدَ نارًا، فجعل الجنادبُ والفراشُ يَقَعْنَ فيها، وهو يذبهن عنها، وأنا آخذُ بِحُجَزِكم عن النّار، وأنتم تُفلِتُون من يدي» [صحيح، رواه مسلم (٢٢٨٥/١٧٩٠/٤)].

لذلك كان نوحٌ مصرًا على الاستمرار في الدعوة مع إصرار قومه على عدم قبولها، وبهذا أمر الله نبينا محمدًا ﷺ، إذ قال له قومه كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي

آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] أي: فاعمل أنت على طريقتك، ونحن على طريقتنا، فلن نتبعك أبدًا، ولن نؤمن لك أبدًا، هكذا قالوا، ومع ذلك يأمر الله نبيه أن يدعوهم إلى التوحيد والاستقامة، فيقول له عقب قولهم هذا: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦].

وفي هذا تعليمٌ للدعاة أن لا يتركوا الدعوة لمجردِ قولِ المدعوين أو بعضهم: لن نؤمن لكم. فإنّ الأمرَ ليس إليهم، وقلوبهم ليست بأيديهم، وإنما كما جاء في الحديث: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء».

وكم من كافرٍ حاربَ رسول الله ﷺ وحاربَ الدعوة، وقتل المسلمين، ثم شرح اللهُ صدرَه للإسلام. متى أسلم الفاروق عمر؟ ومتى أسلم سيفُ الله المسلولُ خالدٌ؟ ومتى أسلم أبو سفيان وابنهُ معاوية؟ وغيرُهم من أمثالهم كثير.

فعلى الداعية أن لا ييأس من الناس أبدًا، وعليه أن لا يهتم بكثرة الأتباع، فإن نوحًا عليه السلام لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا فما آمن معه إلا قليل، وقد يستعظمُ بعضُ الناس هذا الجهدَ المتواصلَ الذي بذله نوحٌ عليه السلام، ويتقالُّ هذه النتيجة. جهدُ ألفِ سنةٍ، ومحصلتُه، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]؟! ولكنا نقول: إن إيمان واحدٍ فقط أعظمُ من جُهد ألف سنة.

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾.

هذه الآيات تعلّمُ الدعاةَ أساليب الدعوة، وأنّ على الداعية أنْ يستخدم في الدعوة الأسلوبَ المناسب، فيستخدم الترغيب تارة، والترهيب تارة أخرى، ثم يرشدهم إلى آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق.

فقولُ نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ أي كثير المغفرة لمن استغفره، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وفي الحديث عن النبي ﷺ عن ربّه أنه قال: «يا ابن آدم إنّك ما دعوتني ورجوْتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغتْ ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك، يا ابن آدم لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة». [الترمذي: ٣٦٠٨]. هذا أجلُ ثواب الاستغفار، وأما عاجلُه فـ: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ أي متواصلة الأمطار، فالأمطارُ تحبسها الذنوب، وترسلها التوبة، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ أي: «إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أي أعطاكم الأموالَ والأولاد، وجعل لكم جناتٍ فيها أنواعُ الثمار، وخلّلها بالأنهار الجارية بينها». اهـ من ابن كثير.

والربط بين الإيمان بالله وتقواه ومنة الاستغفار وبين سعة الرزق قد ذُكر في القرآن الكريم في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥، ٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ولذا كان الأنبياء يأمرون أقوامهم بالاستغفار، كما أمر به نوحٌ قومه، قال تعالى عن هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، وقال عن نبينا محمد ﷺ: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾. هذا أسلوب الترغيب. وأما أسلوب الترهيب فيأتي في العدد القادم إن شاء الله تعالى.

سورة «نوح»

قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾ [نوح ١٣-٢٨].

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الثانية

تفسير الآيات

انتقل نوح عليه السلام إلى أسلوب الترهيب، فقال: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، قال ابن عباس: لا تعظمون الله حق عظمته، أي لا تخافون من بأسه ونقمته، ثم انتقل بعد ذلك إلى تنبيههم إلى آيات قدرة الله وعظمته في أنفسهم فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، هذه الأطوار قد فُسرت في سورة الحج والمؤمنون، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ «الحج: ٥»، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ «المؤمنون: ١٢-١٦»، ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ «الطارق: ٥»، ﴿وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ «الذاريات: ٢٠، ٢١».

ولما لفت أنظارهم إلى آيات الله في

الموقع على الانترنت
WWW.ibnbadawy.com

أنفسهم لفتها بعد ذلك إلى ما في الكون من آيات، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ «الملك: ٣- ٥»، ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ «يس: ٣٧- ٤٠»، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ «الفرقان: ٦١، ٦٢».

ثم يلفت أنظارهم إلى النشأة الأولى التي يُستدل بها على النشأة الآخرة فيقول: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾، وفي حديث البراء بن عازب الطويل في وصف قبض روح العبد المؤمن والعبد الكافر، قال ﷺ في حقّ العبد المؤمن: «فيشيّعه من كل سماءٍ مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقولُ الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أُخرجهم تارةً أخرى».

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾ يعني: أن الله هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً، وممهدة لتستقروا عليها، وتسلكوا فيها أنّى شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها، ومرادُ نوح عليه السلام مِن ذلك كله أن يجعلهم يُقرون بتوحيد الإلهية كما كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، لقد كانوا مقرين بأن الله هو الذي خلق سبع سماوات طباقًا، وأنه هو الذي جعل الأرض بساطًا، وأنه الذي خلقهم ورزقهم، ثم كانوا يعبدون مع الله الأصنام والأوثان، فكان مرادُ نوح عليه السلام من لفت أنظارهم إلى دلائل عظمة الله أن يتحصّل منهم على الإقرار بأنّ الله يجب أن يُعبد وحده كما خَلَق وحده.

ومع طول المدّة، وتنوّع الأساليب، كانت النتيجة العصيان والتمرد، والتواصي بالكفر، ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا﴾، اتبعوا سادتهم وكبراءهم الذين يدعونهم إلى النار، وعَصَوْني وأنا أدعوهم إلى العزيز الغفار: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾، مكرًا متناهيًا في الكبر، مكروا لإبطال الدعوة وإغلاق الطريق في وجهها إلى قلوب الناس، ومكروا لتزيين الكفر والضلال والجاهلية التي تخبط فيها القوم، وكان من مكرهم تحريضُ الناس على الاستمساك بالأصنام التي يسمّونها آلهة: ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ بهذه الإضافة: «آلهتكم» لإثارة النخوة الكاذبة والحميّة الآثمة في قلوبهم، وخصّصوا من هذه الأصنام أكبرها شأنًا، فخصّوها بالذكر ليهيّج ذكرُها في قلوب العامة المضلّلين الحمية والاعتزاز: ﴿وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، وهي أكبر آلهتهم التي ظلّت تُعْبَدُ في الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية.

روى البخاري (٤٩٢٠)- رحمه الله- في الصحيح بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما وَدّ فكانت لكلب بِدَوْمَةِ الجَنْدَل، وأما سُواعٌ فكانت لهُذَيْل، وأما يغوثُ فكانت لمراد، ثم لبني غُطيف بالجرفِ عند سبأ، وأما يعوقُ فكانت لهَمْدان، وأما نَسْرٌ فكانت لحمير، لآل ذي الكلاع، أسماءُ رجال صالحين مِن قوم نوح، فلما هلكوا أَوْحَى الشيطان إلى قومهم أن انصِبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعْبَدْ، حتى إذا هلك أولئك وتنسّخ العلمُ عُبدتْ».

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها أضلّوا بها خلقًا كثيرًا، فإنّه استمرت عبادتُها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه: ﴿وَاجْنُبْنِي

وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾». اهـ. من ابن كثير.

ولقد كان في تصريحهم بهذه الوصية ﴿لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ إشارةٌ لنوح عليه السلام أنّ القوم لا خير فيهم، بل إنّ الله أَوْحَى إليه بما تشير إليه هذه الوصية، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ «هود: ٣٦».

وهنا وجد نوحٌ عليه السلام هذا الدعاء ينبعثُ من قلبه: ﴿وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلالاً﴾، وقبل أن يتم الدعاء يَذْكُر الربُّ سبحانه ما أحاط بالقوم من العذاب فقال: ﴿مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾، وقد ذكر سبحانه في سور أخرى كيف أُغرقوا فقال: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ «القمر: ١١- ١٤».

وفي قوله تعالى: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾، إشارة إلى عذاب القبر، الذي يُؤْمِنُ به أهلُ السنة والجماعة، لمن كان له أهلاً، كما يؤمنون بنعيم القبر لمن كان له أهلاً، نسأل الله أن يجيرنا من عذاب القبر وعذاب النار، وأن يجعل قبورنا روضةً من رياض الجنة، ووجهُ الاستدلال على عذاب القبر من هذه الآية: أنّ الله رتّب دخولهم النّارَ بعد غرقهم بالفاء التي تفيد الترتيب مع التعقيب، ومعلوم أنّ نار الآخرة لم يدخلوها بعد، فدلّ ذلك على أنّ النار التي دخلوها بعدما أغرقوا هي نار القبر، أعاذنا الله وإخواننا المسلمين منها، ومما يدل على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ «الأنعام: ٩٣».

وبعد هذا العرض لعذاب القوم الذي أصابهم في الدنيا وبعد الموت، تأتي بقية دعاء نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحدًا، ثم يعلّل دعوته بقوله: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، وهذا منه عليه السلام بناءً على ما أَوْحَى اللهُ إليه ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾ «هود: ٣٦».

وفي نهاية المطاف، وبعد هذا الجهد الذي بذله نوحٌ عليه السلام في دعوة قومه، يتوجّه عليه السلام إلى ربّه يطلب منه أن يغفر له، فعسى أن يكون قد وقعَ منه خطأٌ أو تقصير: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ فأنا بحاجةٍ إلى مغفرتك، ولا غنًى بي عن رحمتك. وهكذا نرى نوحًا عليه السلام وهو رسول الله يستغفر الله، بينما قومه الكفرة الفجرة يرفضون أن يستغفروا الله، وفي استغفاره عليه السلام تعليمٌ للدعاة أن ينيبوا إلى ربهم دائمًا بالاستغفار، فإنهم مهما قدّموا من تضحيات فإنهم مقصرون، ولم ينسَ نوح عليه السلام أن يستغفر لوالديه وللمؤمنين والمؤمنات، فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾.

ويظهر من استغفاره عليه السلام لوالديه أنهما كانا مؤمنين، وإلا لروجع فيهما كما روجع في ولده حين قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ «هود: ٤٥، ٤٦».

وفي استغفاره عليه السلام للمؤمنين عامة ولمن دخل بيته مؤمنًا خاصة إرشادٌ وتعليمٌ للمؤمنين ولا سيما الدعاة منهم أن يستغفروا لإخوانهم المؤمنين إذا استغفروا لأنفسهم، وقد قال النبي ﷺ: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة». «حسن. أخرجه السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه للطبراني، وحسنه الألباني، رقم ٥٩٠٢».

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ «إبراهيم: ٤١».

والحمد لله رب العالمين.

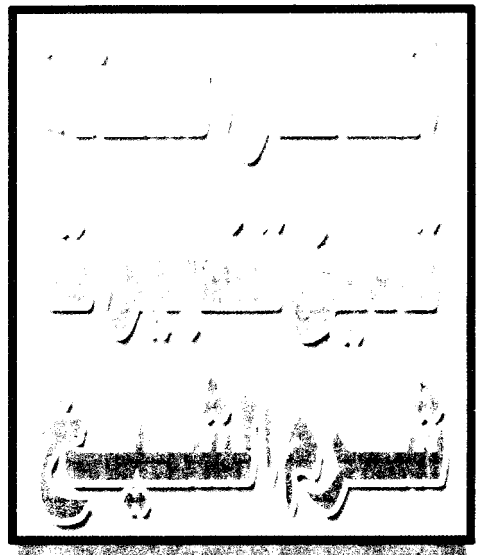

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

لقد باتت مصر آمنة مطمئنة سنين عددًا، بعد حادث قتل السياح في مدينة الأقصر، وظُنَّ أَنَّ الإرهاب قد اختفى بوجهه القبيح من أرض الكنانة، ثم فوجئت مصر وشعبها بحوادث الإرهاب تتابع وتتلاحق، ففي خلال تسعة أشهر كانت حادثة طابا، ثم الأزهر، ثم شرم الشيخ، فما حكم الإسلام في هذه التفجيرات، وماذا فرض الإسلام على المسلمين حكومة وشعبًا ضد هؤلاء الخارجين على الإسلام والنظام والقانون والأخلاق؟

لقد أمر الله تعالى المؤمنين بالحفاظ على الأمن والأمان بالوقوف في وجه كل من أراد أَنْ يزعزع أمنهم، أو يحدث في صفهم الفوضى ويثير فيهم القلق والاضطراب، كفارًا كانوا أو مسلمين، أفرادًا كانوا أو جماعات، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ «المائدة: ٣٣»، وتسمى هذه الآيةُ آيةَ المحاربة أو الحرابة «والمحاربة مفاعلة من الحرب، وهي ضد السلم، وهو السلامة من الأذى والضرر والآفات، والأمن على النفس والمال».

وقد عرَّف الفقهاء الحرابة بأَنَّها : خروج طائفة مسلحة في دار الإسلام، لإحداث الفوضى وسفك الدماء، وسلب الأموال، وهتك الأعراض، وإهلاك الحرث والنسل، متحديةً بذلك الدِّين والأخلاق والنظام والقانون. ولا فرق بين أَنْ تكون هذه الطائفة من المسلمين، أو الذميين، أو المعاهدين أو الحربيين، ما دام ذلك في دار الإسلام، وما دام عدوانها على كل محقون الدم. وكما تتحقق الحرابة بخروج جماعة من الجماعات، فإنَّها تتحقق كذلك بخروج فرد من الأفراد، فلو كان لفرد من الأفراد فضل جبروت وبطش، ومزيد قوة وقدرة يغلب بها الجماعة على النفس والمال والعرض، فهو محارب.

ويدخل في مفهوم الحرابة العصابات المختلفة، كعصابة القتل، وعصابة خطف الأطفال، وعصابة اللصوص للسطو على البيوت والبنوك، وعصابة خطف البنات والعذارى للفجور بهنَّ، وعصابة اغتيال الحكام ابتغاء الفتنة، واضطراب الأمن، وعصابة إتلاف الزروع وقتل المواشي والدواب، فخروج هذه الجماعة على هذا النحو يعتبر محاربة، لأَنَّ هذه الطائفة الخارجة على النظام تعتبر محاربة للجماعة من جانب، ومحاربة للتعاليم الإسلامية التي جاءت لتحقق أمن الجماعة وسلامتها بالحفاظ على حقوقها من جانب آخر.

وكما يسمى هذا الخروج على الجماعة وعلى

دينها حرابة، فإنَّه يسمى أيضًا قطع طريق، لأنَّ الناس ينقطعون بخروج هذه الجماعة عن الطريق، فلا يمرُّون فيه، خشية أنْ تسفك دماؤهم، أو تسلب أموالهم، أو تهتك أعراضهم، أو يتعرضون لما لا قدرة لهم على مواجهته.

وقد تبرأ رسول الله ﷺ ممن حمل السلاح وقطع الطريق، وأخاف الآمنين، فقال ﷺ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا». فإذا لم يكن له شرف الانتساب إلى الإسلام والمسلمين وهو حي، فليس له هذا الشرف بعد الموت أيضًا، لأنَّه يبعث كل عبد على ما مات عليه، والنبي ﷺ يقول: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ ثُمَّ مَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».

وقد سمَّى الله الخارجين على الجماعة محاربين لله ورسوله، وأمر بالوقوف في وجههم بقوة للقضاء على فتنتهم، وقضى عليهم بأقسى أنواع العقوبة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ «المائدة: ٣٣»، وقد اختلف المفسرون في سبب نزول هذه الآية، وأكثرهم على أنَّه نزلت في العُرنيِّين، لما رواه الشيخان وغيرهما:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « أَنَّ نَاسًا مِنْ عُرَيْنَةَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاجْتَوَوُا الْمَدِينَةَ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَلْحَقُوا بِرَاعِيهِ، يَعْنِي الإِبِلَ فَيَشْرَبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا فَلَحِقُوا بِرَاعِيهِ، فَشَرِبُوا مِنْ أَلْبَانِهَا وَأَبْوَالِهَا حَتَّى صَلَحَتْ أَبْدَانُهُمْ، فَقَتَلُوا الرَّاعِيَ وَسَاقُوا الإِبِلَ فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ فِي طَلَبِهِمْ، فَجِيءَ بِهِمْ فَقَطَعَ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ وَسَمَرَ أَعْيُنَهُمْ وَأُلْقُوا فِي الْحَرَّةِ حَتَّى مَاتُوا ». وفي رواية لأبي داود: قَالَ: « فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي طَلَبِهِمْ قَافَةً فَأُتِيَ بِهِمْ، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي ذَلِكَ ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا ﴾ الآيَةَ.

قال الشوكاني: « ولا اعتبار بخصوص السبب، بل الاعتبار بعموم اللفظ، وقد قيل: المراد بمحاربة الله المذكورة في الآية هي محاربة رسول الله ومحاربة المسلمين في عصره ومن بعد عصره، بطريق العبارة دون الدلالة ودون القياس، لأنَّ ورود النص ليس بطريق خطاب المشافهة حتى يختص حكمه بالمكلفين عند النزول فيحتاج في تعميم الخطاب لغيرهم إلى دليل آخر. وقيل: إنَّها جعلت محاربة المسلمين محاربة لله ورسوله إكبارًا لحربهم وتعظيمًا لأذيتهم، لأنَّ الله سبحانه لا يحارب ولا يغالب.

والأوْلى أنْ تفسر محاربة الله سبحانه بمعاصيه ومخالفة شرائعه، ومحاربة الرسول تحمل على معناها الحقيقي، وحكم أمته حكمه وهم أسوته، والسعي في الأرض فسادًا يطلق على كل ما يصدق عليه أنَّه فساد في الأرض، فالشرك فساد في الأرض، وقطع الطريق فساد في الأرض، وسفك الدماء وهتك الحرمات ونهب الأموال فساد في الأرض، والبغي على عباد الله بغير حق فساد في الأرض وهدم البنيان وقطع الأشجار وتغوير الأنهار فساد في الأرض.

وإذا تقرر هذا علم أنَّ المحاربة تطلق على كل من وقع منه ذلك، سواء أكان مسلمًا أم كافرًا، في مصر وغير مصر، في كل قليل وكثير، وجليل وحقير، وأنَّ حكم الله في ذلك هو ما ورد في هذه الآية من القتل أو الصلب، أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف، أو النفي من الأرض».

وقد اختلف المفسرون في هذه العقوبة: أعلى الترتيب هي أم على التخيير؟

ففي رواية عن ابن عباس قال: من شهر السلاح في فئة الإسلام، وأخاف السبيل ثُمَّ ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار إنْ شاء قتله، وإنْ شاء صلبه، وإنْ شاء قطع يده ورجله، وبهذا القول قال جماعة من السلف. وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال: عن ابن عباس قال: في قطاع الطريق: إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض».

وهكذا اشتملت هذه العقوبات على كل ما فيه ذل وهوان للذين يحاربون الله ورسوله، قطاع الطرق، ولذلك قال تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أي ذلك الجزاء من القطع والقتل والصلب والنفي ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ والخزي هنا الهوان والذل والافتضاح ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وظاهره أنَّ معصية الحرابة مخالفة للمعاصي غيرها، إذ جمع فيها بين العقاب في الدنيا والعقاب في الآخرة، تغليظًا لذنب الحرابة، وهو مخالف لظاهر قوله ﷺ في حديث عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «أَتُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَقَرَأَ آيَةَ النِّسَاءِ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ به في الدنيا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ». ويحتمل أنْ يكون ذلك على حسب التوزيع، فيكون الخزي في الدنيا لمن عوقب، والعقاب في الآخرة إنْ سلم في الدنيا من العقاب، فتجري معصية الحرابة مجرى سائر المعاصي، وهذا الوعيد كغيره مقيد بالمشيئة وله تعالى أنْ يغفر هذا الذنب، ولكن في الوعيد خوف على المتوعد عليه من نفاذ الوعيد.

وعلى الرغم من شناعة هذه الجريمة-جريمة الحرابة أو قطع الطريق- فإنَّ الله تعالى يفتح للمحاربين باب التوبة، ويامر المؤمنين أنْ يقبلوا منهم توبتهم، وأنْ لا يؤاخذوهم بسالف جرائمهم إذا جاؤوا مستسلمين، يقول الله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ «المائدة: ٣٤» «وإنَّمَا كان ذلك كذلك لأنَّ التوبة قبل القدرة عليهم والتمكن منهم دليل على يقظة القلب، والعزم على استئناف حياة نظيفة بعيدة عن الإفساد والمحاربة لله ورسوله، ولهذا شملهم عفو الله، وأسقط عنهم كل حق من حقوقه إنْ كانوا قد ارتكبوا ما يستوجب العقوبة، أمَّا حقوق العباد فإنَّها لا تسقط عنهم، وتكون العقوبة حينئذٍ ليست من قبيل الحرابة، وإنَّمَا يكون من باب القصاص، والأمر في ذلك يرجع إلى المجني عليهم لا إلى الحاكم، فإن كانوا قد قتلوا سقط عنهم تحتم القتل، ولولي الدم العفو أو القصاص، وإنْ كانوا قد قتلوا وأخذوا المال سقط الصلب وتحتم القتل وبقي القصاص وضمان المال، وإنْ كانوا قد أخذوا المال سقط القطع وأخذت الأموال منهم إنْ كانت بأيديهم، وضمنوا قيمة ما استهلكوا، لأنَّ ذلك غصب فلا يجوز ملكه لهم، ويصرف إلى أربابه، أو يجعله الحاكم عنده حتى يعلم صاحبه، لأنَّ توبتهم لا تصح إلاَّ إذا أعادوا الأموال المسلوبة إلى أربابها. فإذا رأى أولوا الأمر إسقاط حق مالي عن المفسدين من أجل المصلحة العامة وحب أنْ يضمنوه من بيت المال».

واختار الطبري أنَّ التوبة تسقط عنهم حقوق الله وحقوق الآدميين إلاَّ ما كان قائمًا بأيديهم بعينه فيرده على أهله، وروي عن الصحابة ما يؤيد مذهبه، فقال: عن الشعبي أنَّ حارثة بن زيد حارب في عهد علي بن أبي طالب، فأتى الحسن بن علي فطلب إليه أنْ يستامن له فأبي، ثُمَّ أتى ابن جعفر فأبى عليه، فأتى سعيد بن قيس الهمداني فأمنه، وضمه إليه، وقال له: استامن لي أمير المؤمنين، فَلَمَّا صلى عليٌّ الغداة أتاه سعيد بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين! ما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله؟ قال: «أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ» قال: ثُمَّ قال: «إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» قال سعيد: وإنْ كان حارثة ابن زيد؟ قال: وإنْ كان حارثة بن زيد، قال: فهذا حارثة بن زيد قد جاء تائبًا فهو أمين، قال نعم. فجاءه فبايعه، وقبل ذلك منه وكتب له أمانًا.

فهذه دعوة لكل الخوارج المحاربين لله ولرسوله، المروعين للآمنين، المزهقين للأرواح البريئة بغير حق، هذه دعوة عامة لهم كفارًا كانوا أو مسلمين-فإنا لا ندري من وراء هذه الأحداث- هذه دعوة عامة لهم بوضع السلاح والتوبة من قبل أنْ يقدر عليهم فتنفذ فيهم العقوبة المذكورة، أو يأتيهم الموت بغتة، ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ «الرعد: ٣٤».

وهذه نصيحة لشباب المسلمين: إنَّ هذه التفجيرات لا يقرها شرع ولا دين ولا أخلاق، فهي

تقتل الأبرياء من المسلمين والكفار المسالمين، وتودي بحياة المنتحرين القائمين بعملية التفجير، فهؤلاء ثلاثة من القتلى تذهب التفجيرات بأرواحهم وكل قتيل من الثلاثة، قتلُه يوجب النار، أمَّا قتل المسلم، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ «النساء: ٩٣»، وأمَّا قتل الكافر المسالم، فقد قال ﷺ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»، وأمَّا قتل المنفِّذ للعملية نفسه، فهو أيضًا يوجب النار، لقوله ﷺ: « مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسُمٍّ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا».

فهل بعد هذه النصوص الصريحة يعتقد الجناة إنْ كانوا مسلمين أنَّهم مجاهدون في سبيل الله وأنَّ لهم الجنة؟ وهل ذلك إلاَّ الأماني والغرور التي قال الله فيها عن الشيطان الرجيم: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾ «النساء: ١٢٠».

يا أيها الشاب المغرَّر به، إنْ استهنت بارواح الناس فكيف هانت عليك نفسك، تبذلها رخيصة في سراب تظنه ماء، لقد خدعوك حين سموك مجاهدًا، وخدعوك حين وعدوك بالجنة، وكأنِّي بهؤلاء الجناة وقد لقوا الله: ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ «الزمر: ٤٧- ٤٨».

يا معشر الشباب: لابد من مجالسة العلماء، ولابد من مخالطة العلماء، ولابد من الاستماع للعلماء، ولابد من قبول نصائح العلماء وتوجيهاتهم وإرشاداتهم، فلولا العلماء لصار الناس كالبهائم، ولولا العلماء لضل الناس الطريق، وإياكم ثم إياكم من الدخول في عموم هذه الآية: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ «الكهف: ١٠٤».

إنَّ من سماحة الإسلام وعظمته في وقت اشتعال نار الحرب أنَّه قصر الحرب على المحاربين، ونهى عن نقل الحرب عن ميدانها إلى الآمنين المطمئنين في معابدهم أو في بيوتهم أو في مصانعهم ومتاجرهم، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهما قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِامْرَأَةٍ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ مَقْتُولَةٍ فَقَالَ: مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتِلُ، ثُمَّ نَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ»، والعلة كونهم لا يقاتلون كما صرح بذلك النَّبِيُّ ﷺ في حديث رَبَاحِ بْنِ الرَّبِيعِ أَخِي حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا، وَعَلَى مُقَدِّمَتِهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَمَرَّ رَبَاحٌ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ مِمَّا أَصَابَتِ الْمُقَدِّمَةُ، فَوَقَفُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ خَلْقِهَا حَتَّى لَحِقَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَانْفَرَجُوا عَنْهَا فَوَقَفَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ، فَقَالَ لأَحَدِهِمُ: الْحَقْ خَالِدًا فَقُلْ لَهُ لاَ تقتلون ذُرِّيَّةً وَلاَ عَسِيفًا».

وبناء على هذه العلة فإنَّه يلحق بالنساء والصبيان الرهبان والنساك والشيوخ والمرضى وغيرهم من الذين اعتزلوا الحرب والقتال ممن يسمون بالمدنيين، فيجب احترامهم وصيانة أموالهم، ومعنى هذا أننا لا ننكر التفجيرات في مصرنا الحبيبة وحدها، بل ننكرها كذلك في لندن وفي غيرها من بقاع المعمورة، لأنَّها تستهدف المدنيين الآمنين، والإسلام نهى عن قتل المدنيين في حالة الحرب فكيف بحالة السلم.

ومن سماحة الإسلام وعظمته أنْ عمل على توفير الأمْن والأمان للسفراء والرسل الذين يسعون بين الطرفين لنقل وجهات النظر وتبادل الآراء لإيقاف الحرب.

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُعَيْمِ بْنِ مَسْعُودٍ الأَشْجَعِيِّ عَنْ أَبِيهِ نُعَيْمٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَهُمَا حِينَ قَرَأَ كِتَابَ مُسَيْلِمَةَ: « مَا تَقُولاَنِ أَنْتُمَا»؟ قَالاَ: نَقُولُ كَمَا قَالَ قَالَ: « أَمَا وَاللَّهِ لَوْلاَ أَنَّ الرُّسُلَ لاَ تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا».

فهل علم الشباب هذه الآداب فخالفوها؟ أو جهلوها فعصوا أمر ربهم؟

نسأل الله للجميع الهداية والتوفيق.

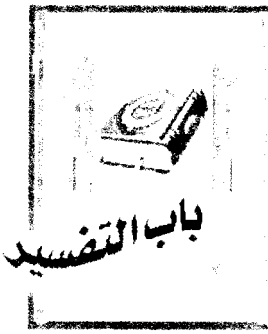

سورة الجن

الحلقة الأولى

إعداد

د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فسورةُ الجن مكية، شأنها شأن السور المكيّة في الاهتمام بترسيخ العقيدة وبيان أصول الدين وأركان الإيمان، ولا سيما هذه الأركان: التوحيد، والرسالة، والبعث. ومحورُ السورة يدور حولَ هذا العالم من عوالم الغيب، وهو عالم الجنّ، هذا العالَم الذي ضلّ بسببه أكثرُ الناس: «فلقد كان العرب المخاطبون بهذا القرآن أوّل مرةٍ يعتقدون أن للجنّ سلطانًا في الأرض، فكان الواحدُ منهم إذا أمسى بوادٍ أو قفرٍ لجأ إلى الاستعاذة بعظيم الجنّ الحاكم لما نزل فيه من الأرض، فقال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، ثم بات آمنًا.

كذلك كانوا يعتقدون أن الجنّ تعلمُ الغيب، وتخبرُ به الكهّان فيتنبأون بما يتنبأون، وفيهم من عَبَدَ الجنّ، وجعل بينهم وبين الله نسبًا، وزعم له سبحانه وتعالى زوجةً منهم تلد له الملائكة.

والاعتقادُ في الجنّ على هذا النحو أو شبِيهه كان فاشيًا في كل جاهلية، ولا تزالُ الأوهامُ والأساطيرُ من هذا النوع تسود بيئاتٍ كثيرةً إلى يومنا هذا، وقد تكفّلتْ هذه السورة بتصحيح ما كان مشركو العرب وغيرُهم يظنّونه عن قدرة الجنّ ودورهم في هذا الكون، كما تكفّلت بوضع حقيقة هذا الخلق المغيب في موضعها بلا غُلو ولا اعتساف.

وأنا الآن أقدم لك بين يدي تفسير السورة مقدمةً عن هذا العالم، مأخوذةً مما ذكر عنه في غير هذه السورة، وفي سنة النبي ، فمن هم الجنّ؟ ومتى خُلِقُوا؟ ومِمَ خُلِقُوا؟ وأين يسكنون؟ وهل يأكلون ويشربون؟ وهل يتناكحون ويتناسلون؟ وما هي حقيقة الحرب المشتعلة بين الجنّ والإنس؟ ومتى بدأت؟ وما هي قدراتُ الجنّ؟ وهل يقدرون على إيذاء الإنس؟ ولماذا يؤذونهم؟ وكيف يصون الإنسان نفسه عن أذاهم؟

أقول وبالله التوفيق:

الجنّ عالمٌ غيرُ عالم الإنس والملائكة، وبينهم وبين الإنس قدر مشتركٌ في العقل والإدراك، والقدرة على سلوك طريق الخير والشر وسُمِّي بهذا الاسم- عالم الجنّ- لاجتنانهم، أي استتارهم عن أعين الإنس، قال الله تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، فهو إذن من عوالم الغيب، وإنما قلنا بوجوده لإخبار الله عنه، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ

حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، فالإيمان بعالم الجن واجب كالإيمان بغيره من الغيبيات، التي أخبرنا الله بها.

وقد كان خلق الجن قبل خلق الإنس، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦، ٢٧].

فهذه الآية تبين متى خُلق الجانّ، كما تُبين مم خُلِق، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥] أي من ألسنة اللهب التي تخرجُ من النار عند اشتعالها، وقد بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أصلَ خَلْقِ كلّ عالمٍ من هذه العوالم الثلاث: الملائكة، والجن، والإنس، فقال: «خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجانُّ من مارجٍ من نار، وخُلِقَ آدمُ مما وُصِفَ لكم». [مسلم: ٢٩٩٦].

وهم ثلاثةُ أصناف: صِنْفٌ لهم أجنحةٌ يطيرون في الهواء، وصنفٌ حيّاتٌ وكلاب، وصنف يحلّون ويظعنون، وهؤلاء يسكنون الأماكن الخربة والفلوات، كما يسكنون في الحشوش وهي أماكن الخلاء، ولذا قال النبي ﷺ: «إنّ هذه الحشوش محتَضَرَةٌ فإذا أتى أحدُكم الخلاءَ فليقل: اللهم إني أعوذُ بك من الخُبُث والخبائث».

[أبو داود:٦، وابن ماجه: ٢٩٦]

وقد يسكنون بيوتَ الإنسِ حين يَنْسَوْن ذِكْرَ الله، ولذا قال النبي ﷺ: «إذا دخلَ الرجلُ بيته فذكر الله تعالى عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان لأصحابه: لا مبيت لكم ولا عشاءَ، وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله قال الشيطانُ أدركتمُ المبيت، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء». [مسلم: ٢٠١٨، وأبو داود: ٣٧٤٧، وابن ماجه: ٣٨٨٧]. وقال ﷺ: «أغلقوا الأبوابَ واذكروا اسم الله، فإن الشيطان لا يفتح بابًا مغلقًا». [البخاري: ٣٣٠٤]

والجنّ يأكلون ويشربون.

ولذا نهانا النبي ﷺ عن الاستنجاء بالعظم والرّوث، وقال: «إنها طعام إخوانكم من الجن». [مسلم: ٤٥٠]

وقد يشاركون الإنسانَ طعامَه وشرابَه، وذلك إذا لم يذكر اسم الله عليهما، كما سبق في الحديث، وقد رأى النبي ﷺ رجلاً يشرب قائمًا، فأمره أن يستقيء، فقال: لم يا رسول الله؟ قال: أيسرك أن يشرب معك الهرّ؟ قال: لا، قال: قد شرب معك من هو شرّ منه، الشيطان. [السلسلة الصحيحة: ١٧٥]. وأمر النبي ﷺ فقال: «إذا سقطت لقمةُ أحدكم فليمط عنها الأذى وليأكلها، ولا يَدَعْها للشيطان».

[صحيح: رواه مسلم: ٢٠٣٤]

الجن يتناكحون ويتناسلون

والجنّ يتناكحون ويتناسلون، قال تعالى عن نساء الجنة- الحور العين-: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، فدل على أن الجانّ يطمث، أي يجامع النساء، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف: ٥٠]، فدلّ هذا على أن الجنّ يتناسلون، وقد اختلف العلماء في أصل الجنّ هل هو إبليس أم لا؟ والراجح أن إبليس أصل الجنّ وهم ذريته، كما تدل عليه الآية.

قدرات الجن

وللجن قُدُرات، منها أنهم يقدرون على التشكل بأشكال مختلفة، وقد تشكلّ إبليس يوم بدر بصورة سراقة بن مالك، وخرج مع المشركين يحثّهم على الثبات ويعدُهم النصر، فلما التقى الجمعان ونزلت الملائكة فرّ عدو الله، وفي ذلك يقول ربنا سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ العِقَابِ﴾

[الأنفال: ٤٥- ٤٨].

كما جاء أن الشيطان تمثّل في صورة رجل وسرق من مال الصدقة، فعل ذلك ثلاث مرات، في

كل مرة يمسكه أبو هريرة، وكان الموكل بحفظ الصدقة، فيشتكي له فقرًا وحاجة، فيتركه أبو هريرة، وهو يظنه واحدًا من أهل المدينة، حتى أخبره النبي ﷺ أنه الشيطان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وكلّني رسول اللّه ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتى آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذْتُه وقلت: لأرفعنك إلى رسول اللّه ﷺ، قال: إني محتاج، وعليّ عيال، وبي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرُك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، شكا حاجةً وعيالاً، فرحمتُه فخلّيت سبيله، قال: أما إنّه قد كذَبك وسيعود، فعرفتُ أنه سيعود، لقول رسول اللّه ﷺ، فرصَدتُه، فجاء يحثو من الطعام، فأخذتُه، فقلت: لأرفعنك إلى رسول اللّه ﷺ، قال: دعني فإني محتاج، وعليّ عيال، لا أعود، فرحمته فخليت سبيله، فأصبحتُ، فقال رسول اللّه ﷺ: يا أبا هرّ، ما فعلَ أسيرُك؟ قلت: يا رسول الله، شكا حاجةً شديدةً وعيالاً، فرحمتُه فخليتُ سبيله، قال: أما إنه قد كذبك وسيعود، فرصدتُه الثالثة، فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخرُ ثلاثِ مرات، إنّك تزعم لا تعود، ثم تعود، قال: دعني أُعلمك كلماتٍ ينفعُك الله بها. قلتُ: ما هنّ؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية، فإنّك لا يزال عليك من الله حافظٌ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحتُ، فقال لي رسول اللّه ﷺ: «ما فعلَ أسيرُك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلّمني كلماتٍ ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: ما هي؟ قلت: قال لي: إذا أويت إلى فِراشك فاقرأ آية الكرسيّ مِن أولها حتى تختم الآية: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربُك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرصَ شيءٍ على الخير، فقال النبي ﷺ: أما إنه قد صَدَقَك وهو كذوبٌ، تَعْلَمُ من تخاطبُ مذ ثلاثِ ليالٍ يا أبا هريرة؟ قال: لا. قال: «ذاك شيطان».

[البخاري تعليقًا ٢٣١١]

وقال الحافظ في الفتح (٤/٤٨٧، ٤٨٨): «هكذا أورد البخاري هذا الحديث هنا ولم يصرح فيه بالتحديث، وقد وصله النسائي والإسماعيلي وأبو نُعيم من طرق إلى عثمان المذكور، وذكرته في تغليق التعليق من طريق عبد العزيز بن منيب وعبد العزيز بن سلام وإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني وهلال بن بشر الصواف ومحمد بن غالب الذي يقال له تمتام، وأقربهم لأن يكون البخاري أخذه عنه- إن كان ما سمعه من ابن الهيثم- هلال بن بشر، فإنه من شيوخه، أخرج عنه في جزء «القراءة خلف الإمام»، وله طريق أخرى عند النسائي أخرجها من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي هريرة، ووقع مثل ذلك لمعاذ بن جبل، أخرجه الطبراني وأبو بكر الروياني. اهـ.

صورة أخرى للبخل

وقد يتشكل بشكل الحيّة، فعن أبي سعيد الخدري قال: كان فتى منا حديث عهدٍ بعُرس، فخرجنا مع رسول اللّه ﷺ إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذنُ رسول اللّه ﷺ بانصافِ النهار، فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يومًا، فقال له رسول اللّه ﷺ: «خُذْ عليك سلاحَك، فإني أخشى عليك قريظة». فأخذ الرجل سلاحه، ثم رجع، فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوى إليها بالرمح ليطعنها به، وأصابته غَيْرةٌ، فقالت له: اكْفُف عليك رُمْحَك، وادخُل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني؟ فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج فركزه في الدار، فاضطربت عليه، فما يُدْرَى أيهما كان أسرع موتًا: الحيّة أم الفتى؟ قال: فجئنا إلى رسول اللّه ﷺ فذكرنا ذلك له، وقلنا: ادعُ الله يحييه لنا، فقال: «استغفروا لصاحبكم». ثم قال: «إنّ بالمدينة جنًّا قد أسلموا، فإذا رأيتم منهم شيئًا فآذنوه ثلاثة أيام، فإنْ بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه، فإنما هو شيطان».

[مسلم: ٢٢٣٦، وأبو داود: ٥٢٣٥].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة الجن

الحلقة الثانية

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

نواصل إن شاء الله تعالى في هذا العدد استكمال ما بدأناه من الحديث عن عالم الجن قبل تفسير سورة الجن.

وقد وقفنا على شيء من قدرات الجن مما ورد في الكتاب والسنة وذكرنا أن الله أقدرهم على التشكل والتمثل في صور مختلفة، كذلك:

ومن قدرات الجنّ سرعة الحركة، وسرعة الانتقال من قُطرٍ إلى قطر، ولذا لما قال سليمانُ عليه السلام: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ يعني بلقيس ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل:٣٨، ٣٩].

ومنها: القدرة على الوصول إلى الفضاء، واستراق السمع، كما سياتي بيانه في تفسير السورة إن شاء الله.

ومنها: القدرة على الغوص في البحار واستخراج كنوزها، كما قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء:٨٢].

ومنها: القدرة على البناء والعمران، قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ [سبا:١٢، ١٣].

وكل هذه القدرات مرتبطة بمشيئة الله، وإلا فإنهم أعجز ما يكون، وقد أخبر تعالى عن عَجْزهم وضَعْفِهم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦]، وأخبر سبحانه أنّهم أعجزُ من أن ياتوا بمثل ما أتى به الأنبياءُ من المعجزات، ولا سيّما القرآن، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]. ولما زعمت العربُ أن النبي ﷺ يتلقى القرآن عن الجن قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ...﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء:١٩٢-٢١٢].

وإذا كانت لهم القدرةُ على التمثل بأشكال مختلفة، فإنهم عاجزون عن أن يتمثلوا برسول الله ﷺ، ولذا قال ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني، فإنّ الشيطان لا يتمثّل بي».

[صحيح رواه البخاري (٦٩٩٤/٣٨٣/١٢)]

هذه لمحات عن حقيقة هذا العالم الغيبي عالم الجن.

أما العداوةُ بيْنَ الجنّ والإنس فهي عداوة شديدة جدًا، وقديمة جدًا، كانت بدايتُها عندما صوّر اللهُ آدمَ من طين، وقبْلَ أن ينفخ فيه الروح.

وفتح آدمُ عليه السلام عينيْه على الحياة فرأى الملائكةَ له ساجدين، إلا إبليسَ لعنه الله. ومن هذه اللحظة بدأتِ الحربُ بيْن آدمَ عليه السلام وإبليسَ لعنه الله، وأقسم إبليسُ بعزّة الله ليقعدنّ لبنيْ آدم الصراط المستقيم، وليغوينّهم أجمعين. ولكنّ عدو الله علم أنه لا قِبَلَ له بعباد الله المخلصين، فكان كلما أقسم ليغوينّ بني آدم أجمعين، كان يستثنى فيقول: ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:٤٠] فإبليس - لعنه الله - هو قائد هذه المعركة الدائرة بين (الإنس والجن) وهو الذي يديرها، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: إن إبليس يضع عَرْشَهُ على الماء، ثم يبعثُ سراياه، فأدناهم منه منزلةً أعظمهم فتنةً، يجيئُ أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول ما صنعت شيئًا. قال: ثم يجيئُ أحدُهم فيقول: ما تركته حتى فرّقت بينَه وبيْن امرأته. قال: فيدنيه منه ويقول: نِعْمَ أنت». [صحيح رواه مسلم: (٤/٢١٦٧/٢٨١٣)]

ولإبليسَ - لعنه الله - غايةٌ يسعى إليها من وراء هذه الحرب، قد بيّنها الله تعالى لعباده رحمة منه بهم، أن ينال عدوهم منهم ما يتمنى، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٥، ٦]. وهو - لعنه الله - يستخدم لهذه الغاية كلّ ما يقدر عليه من الوسائل، وأعظمها الأمرُ بالكفر والشرك، قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر:١٦، ١٧]. فإن لم يظفر من الإنسان بالكفر أمره بما دونه من المعاصي، قال تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة:٢٦٨]. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٨، ١٦٩]. فإنْ لم يظفر منه بشيء من ذلك أقعده عن الطاعة، كما قال النبي ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطْرُقِه، فقعدَ له بطريق الإسلام فقال: تُسْلِمُ وتذرُ دينَك ودينَ آبائك وآباءِ أبيك؟ فعصاه فأسلم. ثم قعدَ له بطريق الهجرة فقال: تهاجرُ وتدعُ أرضَك وسماءَك، وإنّما مثَلُ المهاجرِ كمثَل الفرسِ في الطول؟ فعصاه فهاجر. ثم قعدَ له بطريق الجهاد فقال: تجاهدُ، فهو جهدُ النّفس والمال، فتقاتِلُ فَتُقْتَل، فتُنكح المرأةُ، ويُقسّم المال؟ فعصاه فجاهد. فقال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ فعلَ ذلك كان حقًا على الله عزّ وجل أن يُدخله الجنة، ومن قُتل كان حقًا على الله عز وجل أن يُدخله الجنة، وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، أوْ وَقصتْهُ دابّتُه كان حقًا على الله عز وجل أن يدخله الجنة». [صحيح رواه أنس (٢١ و٦/٢٢)]. فالشيطان - لعنه الله - يحاول أولا أن يُقعد الإنسانَ عن الطاعة، فإن لم ينجح في ذلك حاول أن يفسدها عليه، ولذا قال النبي ﷺ: «إذا نودي للصلاة أدبر الشيطانُ وله ضُراطٌ حتى لا يسمع التأذين، فإذا قُضيَ النداءُ أقبل، حتى إذا ثُوّب بالصلاة أدبر، حتى إذا قُضي التثويبُ أقبل حتى يخطر بيْن المرءِ ونفسه، يقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لما لم يكن يذكر، حتى يظلّ الرجلُ لا يدري كم صلّى». [متفق عليه رواه البخاري (٣/١٠٣/١٢٣١)، ومسلم (١/٢٩١/٣٨٩)]

ومن حرب الشيطان لابن آدم محاولتُه أن يؤذيَه في بدنه ونفسه، ومن ذلك ما فعله - لعنه الله - مع النبي ﷺ، فعن أبي الدرداء قال: قام رسولُ الله ﷺ، فسمعناه يقول: «أعوذ بالله منك». ثم قال: «ألعنك بلعنة الله» ثلاثًا، وبسط يده كأنه يتناولُ شيئًا. فلما فرغَ من الصلاة قُلْنَا: يا رسولَ الله! قد سمعْنَاكَ تقولُ في الصلاة شيئًا لم نسمعْك تقولُه قبلَ ذلك. ورأيْناكَ بسطتَ يدك. قال: «إنّ عدوّ الله إبليسَ جاء بشهابٍ من نارٍ ليجعلَه في وجهي، فقلت: أعوذُ بالله منك، ثلاثَ مرات. ثم قلتُ: ألْعنُك بلعنةِ الله التامّة. فلم يستأخر. ثلاث مرات. ثم أردتُ أخْذَه. والله، لولا دعوةُ أخينا سليمانَ لأصبح موثقًا يلعب به وِلْدانُ أهلِ المدينة».

[صحيح رواه مسلم (١/٣٨٥/٥٤٢)، وأنس (٣/١٣)]

ومن ذلك ما يفعله بالمولود ساعةَ ولادته: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مولودٍ يُولدُ إلا نَخَسه الشيطانُ، فيستهلّ صارخًا مِنْ نخسةِ الشيطان، إلا ابن مريم وأمّه». ثم قال أبو هريرة: اقرؤا إن شئتم: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:٣٦].

[صحيح رواه البخاري (٨/٢١٢/٤٥٤٨)]

ومن ذلك ما يصيب النساءَ من الدم غير المعتاد

فعن حِمْنَةَ بنتِ جحشٍ قالت: كنتُ أستحاضُ حيضةً كثيرةً شديدةً، فأتيتُ النبيَّ ﷺ أستفتيه وأخبره، فقال: «إنّما هي ركضةٌ من الشيطان». الحديث.

[حسن رواه أبو داود (٢٨٤/٤٧٥-١/٤٧٩)، ت (١٢٨/٨٣، ١/٨٤)]

وأما الإيذاء النفسي، فإن الشيطان يحاول أن يؤذيَ الإنسان في منامه، فيريه من الأحلام ما يزعجه ويقلقه، وقد أرشدنا النبي ﷺ إلى ما يردّ كيد الشيطان في نحره، فقال: «الرؤيا من الله، والحُلْم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم الحُلْم يكرهه: فليبصُقْ عن يساره، وليستعذْ بالله منه، فلن يضرُّه». [متفق عليه رواه البخاري (٥٧٤٧/٢٠٨/١٠)، مسلم (٤/١٧٧٢/٢٢٦٢)، ت (٣/٣٦٥/٢٣٧٩)]

ومن ذلك: ما يزيّنه الشيطانُ لأوليائه من الإنس من النجوى بحضرة المؤمن أو عند مروره، فيظن أنّهم يكيدون له، فيحزنه ذلك. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة:١٠].

وأعظم أنواع الأذى البدنيِّ الصَّرَعُ، وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إليه فقال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥] فهو إذا حقيقة، ولا وجه لإنكاره.

طرق الوقاية والعلاج

ليس هناك أعظمُ من ذكر الله، فذِكْرُ الله هو الحصْن الحصين، ولذا قال النبي ﷺ: «إنّ الله أمرَ يحيى بن زكريا بخمس كلماتٍ أن يعملَ بهنّ وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن.. فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشُّرفات، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلماتٍ أن أعملَ بهنّ وآمركم أن تعملوا بهنّ.. إلى أن قال: وآمركم بذكرِ اللهِ كثيرا، ومثَلُ ذلك كمثَلِ رَجُلٍ طلبه العدوّ سراعًا في أثره فأتى حصنًا حصينًا فأحرز نفسَه فيه، وإنّ العبدَ أحصنُ ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله تعالى».

[صحيح رواه الترمذي (٣٠٢٣/٢٢٥/٤)]

ومن ذلك: أن يقول العبدُ إذا خرج من بيته: بسم الله، توكلتُ على الله، ولا حولَ ولا قوّة إلا بالله. فقد قال ﷺ: «من قال - يعني إذا خرج من بيته -: بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. يُقال له: هُديت وكُفيت ووُقيت، وتنحّى عنه الشيطان». وفي رواية: فيقول - يعني الشيطان - لشيطان آخر: كيف لك برجلٍ قد هُدي وكُفي ووُقي؟».

[صحيح رواه الترمذي (٣٤٨٦/١٥٤/٥)]

ومن ذلك: أن يقول كلّ يومٍ مائة مرة: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. فقد قال ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يومٍ مائةَ مرةٍ، كانت له عدل عَشْرِ رقاب، وكُتِبَتْ له مائةُ حسنة، ومُحِيتْ عنه مائةُ سيّئة، وكانت له حرزًا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاء به، إلا رجلٌ عمل أكثر منه». [متفق عليه: رواه البخاري (١١/٢٠١/٦٤٠٣)]

ومن ذلك: قراءةُ سورةِ البقرة، فقد قال ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إنّ الشيطان ينفر من البيت الذي تُقْرأ فيه سورةُ البقرة».

[صحيح رواه مسلم (١/٥٣٩/٧٨٠)، ت (٤/٢٣٢/٣٠٣٧)]

وعمومًا: على الإنسان أن يحافظ على أذكارِ الصباح والمساء، وأذكارِ ما بعد الصلاة، والأذكارِ المطلقةِ والمقيّدةِ، حتى يكون من الذاكرين الله كثيرا.

ومن أعظم طرق الوقاية من الشيطان: أن يخالفَ المسلمُ الشيطانَ في كل شيء، وأن لا يتشبّه به في شيء أبدًا، وقد أخبرنا النبي ﷺ أن الشيطان يأكل بشماله، ويشربُ بشماله، فقال ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شَرب فليشرَب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بشماله». [صحيح مسلم (٣/١٥٩٨/٢٠٢٠)، د (١٠/٢٥٠/٣٧٥/١)، ت (٣/١٦٦/١٨٦٠)]

فعلى المسلم أنْ يخالف الشيطان، فليأكل بيمينه، ويشرب بيمينه، ويعطي بيمينه، ويأخذ بيمينه. كما أنّ على المسلم أن يخالفَ الشيطان في كل ما يأمره به من السوء والفحشاء، وأن يخالفَه في كل ما يأمره بتركه من الخير الذي يأمره به الله تعالى.

كما أن على المسلم أن يطهّر بيته من آلات اللهو والطرب والمعازف، لأنها مزمار الشيطان، والغناء صوته، فإذا امتلأت البيوت بها سكنها الشيطان، وفرّت منها الملائكة، وبذلك يعين الناسُ الشيطانَ عليهم من حيث لا يشعرون.

وبعد: فلقد كانت تلك مقدمة عن هذا العالم - عالم الجن، كان لابد من ذكرها قبل تفسير السورة التي سميت باسم هذا العالم: سورة الجن. والآن ناخذ في تفسيرها. فإلى اللقاء إن شاء الله تعالى.

سورة الجن

الحلقة الثالثة

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

يقول تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ [الجن: ١- ٧].

تفسير الآيات

كانت الجنُّ قبل بعثة النبي ﷺ يسترقون السمع، يركبُ بعضهم بعضًا حتى يبلُغوا عنان السماء، فيسمعون الملائكة وهم يتحدثون بالأمر مما قضى الله أن يكون في الأرض، فيُلقيها الأعلى إلى مَن هو دونه، وهكذا حتى تصل إلى أدناهم من الأرض، فيقرّها في أذن وليه من الكهنة والعرّافين، فيخبر الناس بها، فإذا كانت صدّقوه، فكذب عليهم مائة كذبة، مقابل كلمة الحق هذه التي أقرّها الشيطان في أذنه، وكانت الشهب يُرمى بها من يسترق السمع، ولكن كان ذلك يسيرًا. وكانت العربُ قديمًا إذا رأوا شهابًا سقط يقولون: وُلِدَ عظيمٌ، أو مات عظيم، فلما بُعث النبي ﷺ زيد في حراسة السماء، فكان كلُّ من استرق السمع أتبعه شهابٌ ثاقب، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، فقالوا: ما هذا إلا لأمرٍ حدث، فأمرهم كبيرهم إبليس أن يتفرقوا يمينًا وشمالاً فينظروا ما حدث، فاتت طائفةٌ منهم إلى النبي ﷺ وهو قائم يصلّي باصحابه صلاةَ الفجر بنخلة جهة تهامة فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فلما قُضي قالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، وتأملوا القرآن وتدبروه فعلموا أنه ليس من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ وليس شعرًا ولا كهانةً، فآمنوا به، ثم رجعوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإسلام والإيمان، ولم يشعر بهم النبي ﷺ حتى نزل عليه قولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ الآيات. [متفق عليه].

وهذه الآيات كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ

فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩- ٣٢].

وفي هذه الآيات إشارةٌ إلى عموم بعثته ﷺ إلى الجنّ والإنس، وأنّ الغاية من خلق الجن هي الغاية من خلق الإنس، كما صرّح بذلك القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ ولم أدْرِ بهم حتى أُوحي إليّ، فقالوا وقد رجعوا إلى قومهم منذرين: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ عجبًا في تاليفه، وعجبًا في تركيبه، وعجبًا في فصاحته، وعجبًا في بلاغته، وعجبًا في تأثيره في القلوب، ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ أي يهدي إلى السداد والنجاح ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ وهذه هي النتيجةُ الحتميةُ لكلّ من استمع للقرآن بقلبٍ سليم، كلّ من استمع للقرآن بقلبٍ سليم لا يملك بعد ذلك إلا الإيمان بأن هذا القرآن كلامُ اللّه رب العالمين، وهذا الإيمانُ بالقرآن يُسلم إلى الإيمان بالرسول الذي بلّغه، وهو محمد عليه الصلاة والسلام. ولقد استمعتُ إلى مسلمٍ يحاضر ذات ليلةٍ في مسجد من مساجد القاهرة، وكان قسيسًا فأسلم، فكان يذكر سببَ إسلامه، فقال: كان أستاذًا في كلية اللاهوت، وكان يقرأ القرآن كثيرًا ليعرف كيف يطعنُ فيه. وذات ليلةٍ كان يقرأُ القرآنَ فأتى على سورة الجنّ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ قال: فأخذتُ أردّدها: ﴿قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ حتى أصبحت قد شرح اللّه صدري للإسلام وعلمتُ أنه الحق.

إنه القرآن، أليس قد شهد له الأعداء، والفضلُ ما شهدت به الأعداء، ألم يقلْ فيه الوليدُ بن المغيرة: واللّه ما منكم رجلٌ أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ، واللّه ما يشبه الذي يقولُ شيئًا من هذا، واللّه إنّ لقوله الذي يقوله لحلاوة، وإنّه ليحطّم ما تحته، وإنه ليعلو وما يُعْلَى. وصدق اللّه العظيم حيث قال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ولكنّ القلوب إذا قستْ كانت أشدّ من الحجارة في صلابتها، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ أي إيمانًا صادقًا سليمًا من الشرك. ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾؛ لأن الإيمان الذي يخالطه الشرك يفتر ولا ينفع، فشَرطُ النجاة بالإيمان أن يكون سليمًا من الشرك. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

عن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال: لما نزلت هذه الآية شقّ ذلك على المسلمين، وقالوا: أيّنا لا يظلم نفسه؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «ليس ذلك، إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾». [متفق عليه].

ولكنّ كثيرًا من الناس آمنوا باللّه ثم أشركوا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، ترى مؤمنًا باللّه يذبحُ لغير اللّه! وترى مؤمنًا باللّه ينذرُ لغير اللّه! وترى مؤمنًا باللّه يستغيثُ بغير اللّه! وترى مؤمنًا باللّه يدعو غير اللّه! فأيُّ إيمانٍ هذا؟! لقد كانت الجنُّ أعلم بحقيقة الإيمان من هؤلاء، حين قالت: ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، لقد علمت الجنّ أن الإيمانَ المطلوبَ للسلامة والنجاة هو الإيمانُ السليمُ الخالي من ملابساتِ الشرك، فلما أعلنوا الإيمانَ بيّنوا أنه الإيمانُ الصحيح الذي يسلم من الشركيات، فقالوا: ﴿فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾.

فعليك يا عبد اللّه وقد هداك ربّك للإيمان أن تحرصَ على سلامةِ إيمانك من دَرَنِ الشرك، وأن تكره الوقوع فيه كما تكرهُ أن تقع في النار.

ثم نزّه الجن ربهم عن الصاحبة (الزوجة) والولد، فقالوا: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا﴾ يعني: تعالتْ عظمةُ ربّنا عن اتخاذ الصاحبةُ والولد، لا يليق بعظمة اللّه وجلاله وكبريائه أن يكون له زوجةٌ أو ولدٌ، تعالى اللّه عن ذلك علوًا كبيرًا، ولقد كانوا وقعوا في هذا الاعتقاد الباطل- أن للّه صاحبة وولدًا- تقليدًا لبعض كفرة الإنس والجنّ الذين قالوا: للّه ولد، فالآن حصحص الحق، وعلموا أن اللّه لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، فآمنوا بذلك، ونزّهوه سبحانه عما قال الظالمون،

وقالوا معتذرين عما وقعوا فيه من الباطل، ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أي: قولاً عظيمًا في الافتراء، والمراد بقولهم: ﴿سَفِيهُنَا﴾ الذين قالوا اتخذ اللَّه ولدًا، فالآن وقد ظهر الحق، وعرفوا أن اللَّه لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا نسبوا قائل هذا القول إلى السفاهة، فهم سفهاء حمقى جهلة حين ادعوا للَّه ولدًا، ثم ذكروا ما حملهم على تصديقهم، فقالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، لقد كنا نعتقد أنه لا يجرؤ أحدٌ أن يفتري الكذب على اللَّه، فلما قالوا للَّه ولد، صدّقناهم، وقلنا لابدّ أن عندهم علمًا بذلك، ولم نظنّ أنْ يكْذِبُوا على اللَّه، والآن قد تبين الحقّ، وظهر كذبُهم، فرجعنا عن هذا الباطل، ونزّهنا اللَّه عما يقول الظالمون.

وهكذا كان الجنّ مغرورين بسفائهم، مخدوعين بهم، حتى تبيّن لهم الحق، وكم من رجالٍ مخدوعين مفتونين برجالٍ ظنّوهم من الصالحين، وهم إخوانُ الشياطين! حتى إذا أراد اللَّه بهم الخير أظهر لهم الحقّ على يد أوليائه فعلموا أنهم كانوا في ضلال مبين.

فاحذر- أخا الإسلام- أن تكون من المغرورين المخدوعين، ولا تقبل من أحد شيئًا من الدين إلا إذا كان معه دليل من كتاب اللَّه أو سنّة رسول اللَّه ﷺ، فديننا يقوم على دعامتين: الكتاب والسنة، ولا مجال في ديننا لأقوال الرجال ولا آرائهم، وليس هناك من يجب اتّباعُه إلا النبي ﷺ، لأنه ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣، ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قال عكرمة: كان الجنّ يَفْرَقُون من الإنسان كما يَفْرَقُ الإنس منهم أو أشدّ، فكان الإنسُ إذا نزلوا واديًا هربَ الجنّ، فيقولُ سيّد القوم: نعوذُ بسيّد أهلِ هذا الوادي. فقال الجنّ: نراهم يَفْرَقُون منّا كما نَفْرَقُ منهم. فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون.

وعلامَ يخافُ الإنس من الجن؟ إنّ الجن أضعفُ من الإنس، فهم يخافونهم كما ذكر عكرمة، وكما قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه: «والذي نفسي بيده، ما لقيك الشيطانُ قطّ سالكًا فجًا إلا سلك فجًا غير فجك». [متفق عليه].

وهكذا كل من كان قويًا في دينه.

فالجنّ ضعيفٌ جدًا، فكيف يخافه الإنسان؟! إنّ المؤمن المعتصم باللَّه، المتوكل عليه، ما جعل اللَّه للشيطان سبيلاً عليه، كما قال تعالى للشيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]، والشيطان نفسه استثنى عبادَ اللَّه الصالحين، قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

ولقد أرشد النبيّ ﷺ أمته إلى الاستعاذة باللَّه من شرّ ما خلق، إذا نزل أحدُهم منزلاً، فقال ﷺ: «من نزل منزلاً، ثم قال: أعوذ بكلمات اللَّه التامّات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك». [مسلم: ٢٧٠٨، والترمذي: ٣٤٩٩]. كما أرشد إلى هذه الاستعاذة كل ليلة عند المساء ليسلم كل شَرّ: فعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول اللَّه، ما لقيتُ من عقربٍ لدغتني البارحة. قال: «أما لو قلتَ حين أمسيت: أعوذ بكلمات اللَّه التامّات من شر ما خلق، لم تضرك». [مسلم: ٢٧٠٩، وأبو داود: ٣٨٨٠، وابن ماجه: ٣٥١٨، ورواه الترمذي: ٣٦٧٥ بلفظ: «من قال حين يمسي ثلاث مرات... لم تضرّه حُمَةٌ تلك الليلة»].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾، هذا خطابٌ من الجنّ الذين آمنوا لغيرهم من الجن، يقولون: إنّ الإنس كانوا يظنون ﴿كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾، وهذا البعثُ الذي ظنوا جميعًا أن لن يكون يحتمل أن يُراد به أن لن يبعث اللَّه بشرًا رسولاً، ويحتمل أن يُراد به: أن لن يبعث اللَّه أحدًا بعد موته، وكلا المعنيين باطل، فقد بعث اللَّه بعد عيسى محمدًا ﷺ، وكانوا يظنون أن لن يبعث اللَّه من بعده رسولاً، وأما البعثُ بعد الموت فهو واقعٌ ولابدّ، لأن اللَّه أقسم عليه، وأمر نبيّه أن يقسم عليه، فقال: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

سورة الجن

الحلقة الرابعة

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (٩) وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْسًا وَلاَ رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلاَّ بَلاَغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٨- ٢٨].

تفسير الآيات

هذا إخبار من الجنّ عما كانوا يقومون به من استراق السمع قبل بعثة النبي ﷺ، وأنه بعد بعثته ﷺ مُلئت السماء حرسًا شديدًا، وحُفظت من سائر أرجائها، وحيل بين الجن وبين ما كانوا يخطفون من خبر السماء، فيلقونه على ألسنة الكهنة، كما سبق بيانه، فالآن لا يقدرون على ذلك، ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا × وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ يعني قبل ذلك، ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابًا مرصدًا له، لا يتخطاه ولا يتعداه، بل يمحقه ويهلكه.

ثم نفوا عن أنفسهم علم الغيب فقالوا: ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، أي: ما ندري هذا الأمر الذي حدث في السماء أهو شرّ أريد بمن في الأرض، أم أراد بهم ربهم رشدا؟ لا ندري لأنه من علم الغيب ونحن لا نعلم الغيب، وفي قولهم: هذا تأدب مع الله تعالى، حيث لم يسندوا الشر إليه،

وأسندوا إليه الرشد، وهذا من أدب الأنبياء والصالحين، فقد قال الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ × وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ × وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٠]، فأسند المرض إلى نفسه، ولم يُسنده إلى الله تعالى.

وكان الخليل محمد ﷺ يقول: «والشر ليس إليك».

))وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾ هذا إخبارٌ من الجن بأنّهم مثلنا تمامًا، فِرَقٌ، وطَرَقٌ، وأحزابٌ، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾، قالوا: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴾، ثم أخبروا عن ضعفهم وعجزهم، وقدرة الله عليهم، فقالوا: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّا ﴾ والظنّ هنا بمعنى الاعتقاد الجازم ﴿ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾، فانظر كيف أخبروا أنهم خلق من خلق الله، نواصيهم بيده، إذا شاء أن يأخذهم أخذهم، ولن يعجزوه، ولن يستطيعوا- إذا حاولوا- أن يهربوا من قدره، ولهذا قال تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ﴾ [الرحمن: ٣٣]، قال العلماء في تفسيرها: إن استطعتم أن تخرجوا من أقطار السماوات والأرض هربًا من قضائي فاخرجوا، ثم أخبر عن عجزهم، فقال: ﴿ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن: ٣٣] أي بقوة أقوى من قوة الله وأنى لهم ذلك؟!

وقولهم: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ ﴾ يفتخرون بذلك، وحُقّ لهم، ولقد سمعوا القرآن فسمّوه هدى؛ لأن الهدى حقيقته، والهدى طبيعتُه، والهدى كامنٌ فيه، من ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤]، وفي قولهم هذا تعريض بالمشركين الذين أعرضوا عن القرآن، وقالوا: ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]، ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥]، وكأن الجنّ المؤمنين يقولون لهؤلاء: ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ [فصلت: ٥]؟ ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ ﴾ لأول مرة، فما بالكم لا تؤمنون والقرآنُ يُتلى عليكم صباحَ مساءَ.

وقولهم: ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾ أي لا يخاف أن يُبخس حقًا، ولا يُحمّل وزر غيره، كما قال تعالى: ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١١، ١١٢].

وقولهم: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ﴾ أي الجائرون الظالمون، القاسط هو الجائر الظالم، أما المقسط فهو العادل، قال تعالى: ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾، وقال هنا: ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾.

وقولهم: ﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ أي: اختاروا لأنفسهم النجاة بقبولهم الإسلام الذي هو دين الحق بعد التحرّي ودقة النظر والتأمل فيه، حتى تبين لهم أنه الحق، ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ كما قال تعالى للمشركين: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، يعني حطب جهنم، ولذا قال تعالى للمؤمنين: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦]، فالناس هم القاسطون، والحجارة هي الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾: المراد بالطريقة: الطريقة المحمدية النبوية.

فعليك يا عبد الله بطريقة رسول الله ﷺ، ودع سائر الطرق، فإنها طرق ضلالة، إنّ طريقة رسول الله ﷺ هي صراطُ الله، الذي أمرت بالسير عليه، واجتناب ما سواه، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

إن طريقة محمد ﷺ غنىً عن جميع الطرق، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]، أي: إن في هذا القرآن لكفاية لقوم

عبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، ومن لم يكفه القرآن فلا كفاه الله، ومن لم يستغن بالقرآن فلا أغناه، وقوله تعالى: ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ أي: ماء هنيئًا مريئًا متتابعًا، لا ينقطع عنهم، كما قال تعالى: ﴿لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١٠، ١١]، ولقد ربط الله تعالى سعة الرزق ورغد العيش بالاستقامة في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

وقوله تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي: نوسع عليهم في الرزق: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ١٠]. ولنعلم من يشكر منهم ومن يكفر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي: يدخله في نوع من العذاب خاص، وهو الصعود، فيكلف وهو في أسفل وادٍ في جهنم أن يصعد في جبل منها، وفي ذلك من العناء والإرهاق والمشقة ما لا يخفى، كما قال تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾، عافانا الله وسائر المسلمين، وهذا الصعود نوع من أنواع عقوبة الإعراض عن ذكر الله، وثمّ أنواع أخرى:

منها: تسلّط الشيطان على الإنسان فيصدّه عن الهدى والحق، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦، ٣٧].(((

ومنها: الطبعُ على القلب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ المُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

ومنها: المعيشة الضنك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

ومنها: الإنذار بصاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

ومنها: كونُ المعرض كالحمار، قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ [المدثر: ٤٨- ٥١].

يقول تعالى آمرًا عباده أن يوحّدوه في محالّ عبادته: ﴿وَأَنَّ المَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، لأن دعاء غير الله ينافي توحيد الله، ﴿فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٦-١٠٧].

وإذ الأمر كذلك ﴿فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، لأن «الدعاء هو العبادة»، كما قال النبي ﷺ، وإذا كان أحدٌ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فضلاً عن أن يملكه لغيره، فكيف تدعونه من دون الله؟! ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلاَ يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥- ٦].

إنّ من العجيب أن ترى أناسًا من أهل التوحيد يأتون الأضرحة والمقامات يتضرعون إليها، ويستغيثون بها، وإن تسمع لقولهم تسمع الكفر البواح: فهذه امرأة لا تلد! تسأل سيدها صاحب المقام أن تحمل! وهذه أولادُها يموتون! تسأل سيدها صاحب المقام أن يعيشوا! وهذا رجلٌ موظفٌ في مكان بعيد! يسأل سيده صاحب المقام أن ينقله إلى بلده! يا هؤلاء أفيقوا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤]، ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، وإذا سألتم فاسألوا الله، وإذا استعنتم فاستعينوا

بالله، واعلموا أن الأمر كله لله، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ المراد بعبد الله رسول الله ﷺ، وإنما وصفه ربه بالعبودية لأنها أشرف ما يوصف بها إنسان، ولذا وصف الله تعالى بها نبيه ﷺ في أشرف المقامات، فقال في مقام التنزيل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، وقال في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ الآية، وقال في مقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] الآية، وقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١].

ومعنى الآية: أنه لما قام رسول الله ﷺ بالدعوة إلى الله اجتمعت الإنس والجن على إطفاء نور هذا الدين، فأبى الله إلا أن يظهره على الدين كله، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي﴾ أي أعبده ﴿وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥].

ثم أمر الله نبيه أن يعين لهم أنه ليس له من الأمر، وإنما هو نذير مبين، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا﴾ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، كما أمر الله نبيه أن يبين لهم إذا كان لا يملك لهم ضرًا ولا رشدًا، فإنه كذلك لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، وأنه إن عصى الله فلن يجد من يدفع عنه عذابه، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي لا أحد ينقذني من عذاب الله إن عصيته: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾، أي لا أجد نصيرًا ولا ملجأ ألجأ إليه، وأستجير به من عذاب الله، وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ بَلاَغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالاتِهِ﴾ معناه: أنه لا سبيل لنجاتي من عذاب الله إلا أن أبلغكم ما أرسلت به إليكم، فهذا هو السبيل الأوحد لنجاتي، فهذه وظيفتي، البلاغ، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ [هود: ٥٧]، ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾، وهذا وعدٌ حق، ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ أهم؟ أم المؤمنون الموحدون؟ وهم- بلا شك- أضعف ناصرًا وأقل عددًا.

وكما أمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا﴾ أمره أن يبين لهم أنه لا يعلم الغيب، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ يعني لا أعلمُ متى يحل بكم عذاب الله، ولا أعلم متى تكون الساعة؛ لأن ذلك من علم الغيب، وهو من خصائص الرب سبحانه، فهو سبحانه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾، فلا يعلمُ الغيب ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا ولي صالح من الجن والإنس، وقد سبق قول الله تعالى حكاية عن الجن: ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، ولقد سئل ﷺ: «متى الساعة؟» فلم يجب، وإنما قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل». وكان السائل جبريل عليه السلام.

ولذا قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ من الملائكة أو من ينزلون عليهم بالوحي من البشر يعني فإن الله يُطلعه على بعض الغيبيات، وهذه كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾، أي يخصّه بمزيد حفظه من الملائكة، ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ﴾ أي ليعلم الله أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم، من غير زيادة ولا نقص، وهو سبحانه يعلم ذلك سلفًا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾، وإنما هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، ونحوها، والله تعالى أعلم.

سورة المزمل

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (٩) وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً (١٦) فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً (١٨) إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً (١٩) إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المزمل].

سورة مكية، من أول ما نزل على النبي ﷺ، ذَكَرَ اللهُ تعالى فيها لنبيه ﷺ وللدعاةِ بعده وسائل الإعداد الجسدي والروحي للدعاة إلى الله، فالدعوةُ إلى الله صعبةٌ وشاقة، ولابد لكل من أراد القيام بها أن يهييء نفسه لها، جسديًا وروحيًا قبل أن يخوض غمارها.

والوسائل التي ذكرتها السورة الكريمة هي:

١- قيام الليل.

٢- ترتيل القرآن.

٣- الذكر الخاشع المتبتل.

٤- الاتكال على الله وحده.

٥- الصبر على الأذى والتكذيب.

استفتح الله سبحانه السورة بهذا النداء اللطيف الذي يفيض محبة ومودة من الله لرسوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾، يا أيها الملفوفُ بثيابه، المتغطي بها «قم» فليس الوقت وقت نوم، وليس الوقت وقت راحة، وليس الوقت وقت كسلٍ وخلودٍ إلى الفراش، «قم» فإن أمامك طريقًا شاقًا ستركبه ابتغاء وجه الله، فقم وهيء نفسك له بما نأمرك به: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾، وهكذا يأمر الله

نبيه بقيام الليل، ويحدد له الوقت، ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ كله «إلا قليلا» فإن لم تفعل فـ «نصفه» أو «انقص منه» أي من النصف «قليلا» فيكون المراد الثلث، «أو زد عليه» على النصف قليلا، فيكون المراد الثلثين، فلا حرج عليك بأن تنقص من النصف قليلا، أو تزيد عليه قليلا، ولقد استجاب ﷺ لأمر ربه، فقام الليل كما أمره، وحافظ عليه حتى بعد نسخ هذا الأمر، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غُفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا». [رواه البخاري]

فعلى الدعاة أن يحافظوا على قيام الليل فإنه عُنوانُ التقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥- ١٩]، وهو عُنوان الإيمان بآيات الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (١٦) فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٥- ١٧]، وقد فرق الله سبحانه بين من يقوم الليل ومن لا يقومه، ونفى التسوية بينهما، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

وكان النبي ﷺ يرغب في قيام الليل ويحث عليه، فكان يقول: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وهو قُربة لكم إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم». [رواه الترمذي]

وقال ﷺ: «أتاني جبريل فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقُه، واعمل ما شئتَ فإنك مجزيٌّ به، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزّه استغناؤه عن الناس».

[رواه الطبراني في الأوسط وحسنه الألباني في الصحيحة]

وقال عن عبد الله بن عمر بن الخطاب: «نِعْمَ الرجل عبد الله، لو كان يقوم من الليل». [متفق عليه].

وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص: «يا عبد الله، لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل».

[متفق عليه]

وقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ أي اقرأه على تمهّل، فإنه يكون عونًا على فهم القرآن وتدبره، وهكذا كان يقرأ ﷺ، حتى إنه كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها، كما قالت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها. [رواه مسلم]

وعن أنس أنه سُئل عن قراءة رسول الله ﷺ فقال: كانت مدًا، ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم» يمدّ بسم اللهُ، ويمد الرحمن، ويمد الرحيم.

[رواه البخاري]

وقال ﷺ: «يُقال لصاحب القرآن: اقرأْ وارْقَ ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها». [رواه الترمذي وأبو داود]

فعلى الدعاة أن يحرصوا على تلاوة القرآن وترتيله، في القيام وغيره، فإنّ قراءة القرآن قربة من أعظم القرب، وعبادةٌ من أجل العبادات، يُعْطِي الله عليها ما لا يعطي على غيرها، من الأجر والثواب، وقد بيّن النبي ﷺ عظم هذا الأجر بقوله: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف، ولكن ألفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرف». [رواه الترمذي]

والداعية الأحفظ للقرآن، والأحسن ترتيلاً له، هو الأملك لقلوبِ السامعين، والأكثر تأثيرًا فيهم، فعلى الدعاة أن يكون القرآن في صدر أحدهم كالمصحف في يديه، فإنّ القرآن هو سلاح الداعية، وزاده الذي لا ينفد.

ثم كشف الله تعالى لنبيه ﷺ عما بعد هذا الجهاد من الحكمة فقال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً

ثَقِيلاً﴾ يحتاج إلى استعداد طويل، وهو هذا القرآن: إنه ثقيلٌ في تكاليفه، ثقيل في أوامره، ثقيل في نواهيه، وكان ثقيلاً عليه ﷺ ساعة نزوله، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصمُ عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا». [متفق عليه]

وقال زيد بن ثابت:: «أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن تَرَضَّ فخذي». [البخاري]

فإن قيل: فهلا اكتفى في استعداده لهذا الأمر بالصلاة وقراءة القرآن في النهار بدلاً من الليل؟ فالجواب: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾، فرق كبيرٌ جدًا بين العبادة في الليل والعبادة في النهار، فالعبادة في الليل أقرب ما تكونُ إلى الخشوع، حيث يقوم لها الإنسان بعد نوم، فيكون قد استراح من تعب النهار وكدحه فيه، وأيضًا سكون الليل يُعين على الخشوع، فيستطيع أن يجمع قلبه، ويقبل بكليته على الله تعالى، وهذا شيءٌ ملموسٌ ومحسوسٌ، لا يحتاج إلى برهان، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً﴾ أي: ترددًا في حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال قلبك، وعدم تفرغه التفرغ التام، فلينقض النهار في هذا السبح والنشاط، ولتنصب لعبادة ربك في الليل، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ أي أكثر من ذكره، وانقطع إليه، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك وما تحتاج إليه من أمور دنياك، وذِكْرُ اسم الله، ليس هو مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان، على عدة المسبحة المئوية أو الألفية، إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر، أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها، والتبتل هو الانقطاع الكليّ عما عدا الله والاتجاه الكلي إليه بالعبادة والذكر، والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر، والحضور مع الله بكل الحس والمشاعر.

فعلى الداعية أن يذكر الله ذكرًا كثيرًا، وأن لا يغفل عن ذكر الله أبدًا، وعليه أن يكون لسانه رطبًا من ذكر الله، عليه أن يذكر الله في سره، وأن يذكره في علانيته، عليه أن يذكر الله في خلوته وفي اختلاطه، فإن القلوب إنما تطمئن بذكر الله، كما قال تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

وعلى الداعية أن يتبتل إلى الله، وأن ينقطع إليه عما سواه، فإنه سبحانه رب المشرق والمغرب، لا إله إلا هو، وما دام كذلك ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ أي كما عبدته وحده، فتوكل عليه وحده، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وكما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، والداعية هو أحوج الناس إلى التوكل على الله، والاعتماد عليه دون سواه، فمن هنا يستمد القوة والزاد للعبء الثقيل في الطريق الطويل، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر الجميل على أذى قومه، وتكذيبهم له، وصدهم الناس عنه، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾، فلابد للداعية من الصبر: الصبر على الأذى، والصبر على التكذيب، والصبر على صد الناس الناس عنه، والصبر على طول الطريق، والصبر على ثقل العبء، والصبر على تأخر النتائج، ولذا كثر الأمر للنبي ﷺ بالصبر، كما سبق مرارًا، ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ وهو الهجر الذي لا عتاب معه، ولا غضب، ولا مشادة، وكان ذلك في مكة قبل الهجرة، وقبل أن يأذن الله لرسوله في قتال المشركين.

ثم قال تعالى مهددًا للكافرين ومتوعدًا لهم، وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ أي خل بيني وبينهم، واتركهم لي، فأنا القادر على الانتقام منهم، ولقد كانوا أولى الناس بالإسلام، واتباع النبي عليه الصلاة والسلام، شكرًا لله على ما حباهم من نعمة، ولكن القوم ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨]، ولذا قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾، ولو مهلهم الحياة الدنيا

كلها ما كانت إلا قليلاً، فما الدنيا في حساب الله إلا يومٌ أو بعض يوم، وما هي في حسابهم هم أنفسهم حين تُطوى إلا كذلك، كما قال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٤]، ثم ذكر ما لهم عنده من العذاب، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا﴾ أي قيودًا، «وجحيمًا»، ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤]، ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ (ينشب في الحلق في الحلق فلا يدخل ولا يخرج، ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ يتحقق لهم ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾، أي تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء، ثم إنها تُنسف نسفًا فلا يبقى منها شيء إلا ذهب، حتى تصير الأرض قاعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، ثم وجه الله الخطاب إلى الذين كذبوا نبيه محمدًا ﷺ ، فذكرهم بمن كذب رسله من قبلهم، وكيف كان أخذه لهم، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ فاحذروا معشر الناس أن تعصوا رسولكم كما عصى فرعون الرسول، فيأخذكم الله كما أخذ فرعون، ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]، ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾، وإنه ليوم عظيم هوله، حيث تشيب من هوله الولدان، وتنفطر السماء، وتنشق الارض، وتسير الجبال سَيرا، ومعناه أنكم إن كفرتم فلن يحصل لكم أمانٌ من هول هذا اليوم العظيم، وهو كائن لا محالة، لأنه وعد الله، والله لا يخلف الميعاد.

ثم يلمس قلوبهم لتتذكر وتختار طريق السلامة، طريق الله، فيقول: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ أي هذه السورة وما جاء فيها تذكرة ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي طريقًا ومسلكًا، فإنه لا نجاة من هذه الأهوال التي ذكرتها السورة عن اليوم الآخر إلا بسلوك سبيل الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾، هذه هي آية التخفيف، فلقد أمر النبي ﷺ أن يقوم الليل، فقام هو والذين آمنوا معه سنةً كاملةً حتى تفطرت أقدامهم، ثم خفف الله عنهم بهذه الآية، فجعل القيام مندوبًا بعد ما كان واجبًا، وأمرهم أن يقرءُوا ما تيسر من القرآن من غير تحديد، وعبر عن الصلاة بالقراءة لأنها الركن الأعظم فيها.

ثم ذكر سبحانه أسباب التخفيف، فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فـ ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾، فمنكم من يكون مريضًا لا يستطيع القيام، ومنكم من يكونُ مسافرًا في طلب رزق الله، ومنكم من يكون مشغولاً بقتال أعداء الله، فلذلك خفف عنكم، وفي هذه الآية أكبر دليل على نبوة محمد ﷺ ، حيث لم يكن القتال شُرع بعد، وأخبرهم بأن سيكون منهم من يقاتلون في سبيل الله، وهذا إخبارٌ بالغيب، لا يمكن أن يكون إلا من عند علام الغيب سبحانه.

ومرةً ثانيةً يكرر عليهم التخفيف: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ بلا عسر ولا مشقة ولا إجهاد، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي الواجبة، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة، ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعني من الصدقات، واعلموا أنه ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، واعلموا دائمًا أنكم دائمًا مقصرون في حق الله، مهما تحريتم الصواب والاجتهاد، فلا تمنوا بما تقدمون من خير ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وهكذا يجب على الداعية دائمًا أن لا يرى عمله، وأن لا يعجب بجهده، وأن يتهم نفسه دائمًا بالتقصير، وليكثرن من الاستغفار رجاء أن يعفو الله عن تقصيره، وليحذر دائمًا من العُجب بنفسه، وليحذر الاغترار بجهده أو بكثرة أتباعه، وليعلم أن ما به من نعمةٍ فمن الله، فليجتهد في عبادة الله شكرًا لله.

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

سورة المدثر

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١- ١٠].

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، وهي من أول ما نزل من القرآن، بل هي ثاني سورة بعد العلق، فعن جابر بن عبد الله أنّه سمع رسول الله ﷺ يحدّثُ عن فترةِ الوحْي: «فبينا أنا أمشي إذْ سمعتُ صوتًا من السماء، فرفعتُ بصري قبل السماء فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعدٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، فجئت منه حتى هويتُ إلى الأرض، فجئت أهلي فقلتُ: زَملوني زملوني، فزملوني، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾. [البخاري: ٤٩٢٥، ومسلم: ١٦١].

وقد استفتحت بأمر النبيّ بترك النوم والفراش، وأن يُنذر قومه من قبل أن يأتيهم عذاب أليم، بما وقعوا فيه من الشرك، ثم وجهته ﷺ إلى بعض الأمور التي يستعين بها على ما كُلف به. وذكرت بعض أهوالِ يوم القيامة، وما يلقاه الكافرون عمومًا، والوليد بن المغيرة خصوصًا، من العذاب الأليم في سقر، التي جعل الله ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ من الملائكة لحكمةٍ بينتها الآيات.

ثم ذكرتِ السورة ما يكون من أهل الجنة من سؤالِ أهلِ النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾، وجواب أهل النار على هذا السؤال.

وخُتمت بالإنكار على المشركين إعراضهم عن التذكرة، لا لشيءٍ، إلا أنهم ﴿يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾، وليس للإنسان ما تمنى، فـ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقد أنزل الذكر على محمد ﷺ: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ

المَغْفِرَةِ﴾.

تفسير الآيات

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي المتغطّي بثيابه «قم» فقد جاء وقت الجهد والمشقة، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ قومك، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فقد صاروا على شفا حفرة من النار، بما هم مقيمون عليه من الشرك، واستعن على هذه المهمة الثقيلة الشاقة بهذه الأمور:

الأمر الأول: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، فإن الله هو العلي الكبير، وكل شيءٍ سواه حقير، وهذه حقيقة من أعظم الحقائق التي يجب أن يستشعرها الداعية، يجبُ على كلّ داعية أن يستشعر دائمًا جلال الله، وعظمته، وكبرياءَه، حتى يشعر بحقارة كل شيء دونه، فلا يهتمّ به، ولا يكترثُ له، ولا يخشاه، إنما يخشى الله وحده، ومتى استشعر الداعيةُ هذه الحقيقة مضى في طريقه يبلغ دعوة ربه، لا يخافُ لومة لائم، لأنه يعلم أنّ ربه وحده هو الكبير الذي يستحق أن يكبّره ويعظمه ويمجّده، وأنّ ما سوى الله فشيءٌ صغيرٌ صغيرٌ صغيرٌ، لا يملكُ لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وهكذا كان الأنبياء عليهم السلام، فهذا نوحٌ عليه السلام يقولُ لقومه: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١].

وهذا هودٌ عليه السلام لما قال له قومه: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٣-٥٦] ونبينا محمدٌ ﷺ لما خرج مهاجرًا مع صاحبه أبي بكر دخلا الغار، وجاء القوم في طلبهما حتى انتهوا إلى الغار، حتى قال أبو بكر: يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا، فما كان منه ﷺ إلا أن قال لأبي بكرٍ مُطمئنًا: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما، يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا».

ولما قيل له ﷺ وللمؤمنين معه يوم حمراء الأسد: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ لم يزدْهم ذلك القولُ إلا إيمانًا، كما قال تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

الأمر الثاني: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، قال المفسرون: العرب تريد بطهارة الثوب النزاهة والعفة، فتقول: فلان ذيله طاهرٌ، يعنون أنه رجلٌ عفيف وفلان ذَيله نجسٌ، يعني أنه ملطّخٌ بالقاذورات والفواحش. وعلى هذا فالطهارةُ هنا معنوية، والمقصود: طهّر قلبك، وطهّر نيتك، وطهّر صدرك، وطهر أعمالك، ولا يمنع مِن أن يكونَ المراد بالآية الطهارةَ الحسّيّة، فيكون المراد طهارة الثياب حتى تصحّ الصلاة فيها. والله أعلم.

الثالث: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ المراد بالرجز الأصنام والأوثان، كما قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]، والمعنى: اهجر الأصنام ولا تقع في عبادتها كما وقع فيها قومُك، وهو ﷺ كان هاجرًا للأصنام من صغره، ولم يكره شيئًا في حياته كراهيته إياها. فالأمرُ بهجرها أمرٌ باستمرار هجرها، ولا يلزم من أمره بهجرها أن يكون غير هاجرها، وإنما هذه الآيةُ كقوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، مع أنّه ﷺ كان أتقى الناس لله وأخشاهم له، وكقول المؤمنين في صلاتهم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، مع أنهم مهتدون.

الرابع: ﴿وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ لا تعط العطاءَ تستكثره، سواء ما تعطيه لله أو ما تعطيه لعباد الله، لا تستكثر جهدًا تقدّمه من أجل الله في الدّعوة إليه، ولا تستكثر تضحية تضحّي بها لمصلحة الدعوة، فكلّ ما تقدّمه صغيرٌ وصغيرٌ وصغيرٌ، فعليك وعلى الدعاةِ مِن بعدِك أن تعلموا أنّ كلّ جُهْدٍ تقدّمونه، وكل تضحية تبذلونها، فبتوفيق الله، ولولا اللّهُ ما قدّمتم شيئًا، فلا تمنوا بما تقدمون، بل اشكروا الله أن هداكم لما تقدّمون، فهو الذي وفقكم، وهو الذي أعانكم، وهو الذي اجتباكم واصطفاكم لهذه الوظيفة، فاشكروا الله سبحانه وغُضوا أبصاركم عما تقدّمون، فإنّ الإنسان إذا نظر إلى ما يقدّم استكثره، وإذا استكثره ترك العطاء وبخل به، والدعوة بحاجة إلى عطاء مستمر، وإذا أعطيت أحدًا شيئًا من مالك، أو شيئًا من عملك، أو شيئًا من وقتك، فلا تستكثره، ولا تمنّ به عليه، ولا تعطِ رجاءَ أن تأخذَ أكثر مما أعطيت، وليكنْ عطاؤك للّه، لا لشيء سواه.

الأمر الخامس: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ اصبر على مشاقّ الدعوة، فإنها ثقيلةٌ وشاقةٌ جدًا، واصبر على ما يعترضك من عقبات وصعابٍ، واصبر على أذى المدعوين وتكذيبهم لك، وليكنْ صبرُك لله، لا لشيءٍ آخر، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ١].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فالنّاقور هو الصور، والنقرُ هو النفخُ، إلاّ أنّ هذه الألفاظ في هذه الآية تعطي دلالةً لا تعطيها ألفاظُ الآية الثانية، فالنَّقْرُ صوتٌ شديدٌ يَدوِّي، فكأنه ينقرُ الآذان نقرًا، ومِنْ ثَمَّ وُصِفَ يومُ النَّقرِ بالعُسْرِ، فقال تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ لا يُسْرَ فيه، إلا أنّ عُسرهَ مقيد بالكافرين كما قال تعالى: ﴿عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ فَفُهِمَ مِن ذلك أنّه يكون يسيرًا على المؤمنين إن شاء الله، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٦- ٨]. وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

الحلقة الثانية

سورة المدثر

قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلاَ يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾

[المدثر: ١١- ٣٠]

جاء في سبب نزول هذه الآيات: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ النبي ﷺ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عمّ، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لِمَ ؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا لتعرض لما قِبَلَه. قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغُ قومك أنك منكرٌ له، أو أنك كارهٌ له. قال: وماذا أقول، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزٍ ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبهُ الذي يقول شيئًا من هذا، والله إن لقوله الذي يقولُ حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مُغْدِقٌ أسفله، وإنه ليعلو وما يُعلى، وإنه يحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فَدَعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا سحرٌ يؤثر، يأثرُه عن غيره، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾.

[صحيح: رواه الحاكم ٥٠٧/٢، والبيهقي ٥٥٦/١]

أي: خلّ بيني يا محمد وبين هذا المخلوق الضعيف، الذي أخرجته من بطن أمه وحيدًا، ليس معه شيءٌ مما يعتز به الآن، ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا﴾ أي: واسعًا كثيرًا، ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ قال المفسرون: أعطاه عشرة من الذكور، ولم يكن بحاجة إلى عملهم لكثرة ماله، فاقعدهم عنده يستأنس بهم، وضارب العمال بماله، فكان العمال يعملون له، ويأتون بكسبه،

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

وأولاده عند رأسه لا يفارقونه، وهذه نعمٌ عظيمة، إلا أنه كفرها.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ أي يسرت له الحياة، ومكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك، ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ وهو لَمْ يعمل بموجب الزيادة، إن الله تعالى أنعم على عباده نعمًا لا تعدّ ولا تُحصى، وأرشدهم إلى سبيل الزيادة من هذه النعم، فقال سبحانه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

وهذا الملعون كفر بانعم الله، ثم يطمع أن يزيده الله، قال تعالى: «كلاّ» وهي كلمةُ زجرٍ وردعٍ، «كلاّ» لن أزيده، وكيف أزيده مع ﴿ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾، فقد كفر بآيات الله بعد إذ جاءته، وكذب بما علم أنه الحق فعاند دلائل الحقّ وموجبات الإيمان، ووقف في وجه الدعوة وحارب رسولها، وصدّ عنها نفسه وغيره، وأطلق حواليها الأضاليل.

وهكذا الكفار دائمًا، لا يحملهم على الكفر إلا البغي والحسد والعناد، كما قال تعالى عن فرعون وملئه ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

ولذا قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء:١٠٢].

وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وبعد هذا الردع يأتي الوعيد الشديد، الذي يبدل اليسر عسرًا، والتمهيد مشقة: ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ أي ساتعبه بما أكلفه به من صعود جبل في جهنم، والصعود في طرقات الدنيا شاقّ، فكيف بصعود جبلٍ في جهنم، لا خبرة للإنسان في صعوده، وإنما يُدفع إليه دفعًا؟

ولم هذا الوعيد ؟ ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي: إنما أرهقناه صعودًا لأنه حين طُلب منه أن يقول في القرآن «فكّر» ماذا يقول، «وقدّر» أي تروى في التفكير، ومِن ثمّ دعا اللهُ عليه بالهلاك، ودعاءُ الله قضاءٌ محكمٌ: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي أعاد النظرة والتروي، ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ أي قبض بين عينيه وقطب جبينه كالمفكر في أمر يهمه، ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي صُرِفَ عن الحق، ورجع القهقري مستكبرًا عن الانقياد للقرآن، «فقال» بعد هذا التفكير الطويل: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: إن هذا إلا سحرٌ ينقله محمدٌ عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ وما هو من عند الله، قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي ساغمره فيها من جميع جهاته، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الزمر: ١٦]. ○

وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف:٢٩]، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾؟ هذا سؤالٌ لتهويل أمرها وتفخيم شانها: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي لا تُبقي ممن يدخلها لحمًا ولا عظمًا، ولا تذر منهم شيئًا أبدًا، إنما تنسفهم نسفا، وتبلعهم بلعًا، ثم يعيدهم الله كما كانوا، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي تلفح وجوههم لفحًا فتتركها أسود من الليل البهيم، كما قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٤]، ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي من الزبانية الموصوفين في آية أخرى بأنهم ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

قال ابن القيم رحمه الله في «إغاثة اللهفان» (١/١٤): «أخبر الله سبحانه عن الحكمة التي جعل لأجلها عدّة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، فذكر سبحانه خمس حكم: فتنة الكافرين، فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم، وقوة يقين أهل الكتاب، فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلقّ من رسول الله ﷺ عنهم، فتقوم الحجة على معاندهم، وينقادُ للإيمان من يرد الله أن يهديه، وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به، وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به».

فهذه أربع حكم: فتنةُ الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادةُ إيمان المؤمنين، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب.

والخامسة: حيرةُ الكافرين ومَنْ في قلبه مرضٌ، وعمى قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾.

وهذا حالُ القلوب عند ورود الحق المنزّل عليها: قلبٌ يفتتن به كفرًا وجحودًا، وقلبٌ يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلبٌ يتيقنه، فتقوم عليه به الحجة، وقلبٌ يوجب له حيرةً وعمًى، فلا يدري ما يراد به. اهـ.

والمراد بمرض القلب هنا مرض الشبهات التي تجعل القلب مرتابًا شاكًا حائرًا، كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

وهناك نوعُ ثانٍ من أمراض القلوب وهو مرض الشهوات التي تجعل القلب يعشق الحرام ويرغب فيه ويحرص عليه ويبحث عن أسبابه، وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الاحزاب: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي: كما أضلّ الله من أنكر عدد الخزنة، وهدى من صدّق ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ يعني النار تذكرةٌ وعظةٌ للبشر.

قُلْ مُوتُوا

سمع العالم كله بالإساءة لرسول الله ﷺ، والتي تولى كبرها الرسام الدنماركي، وهذا أمر ليس بغريب، فكم أسيء إلى النبي ﷺ في حياته وكم أوذي!

وليس ببدع من الرسل في ذلك، فقد كذبت الرسل وأوذيت، واستهزئ بهم وسُخِر منهم، وهم أعلى الخلق قدرًا، وارفعهم منزلة، فصبروا على ما كُذِّبُوا وأوذوا، ثم كانت العاقبة لهم بان نصرهم الله وأهلك أعداءهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟ كان والله عقابًا شديدًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

وقد بيّن ربنا سبحانه كيف أخذهم فقال: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾، فلئن أوذيت يا رسول الله في الله، وكذبك قومك، وسخروا منك، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾، فهذه سنة الله في الأولين والآخرين، وسياتيك النصر المبين كما أتى إخوانك المرسلين، ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾، وقد يكون النصر في الدنيا بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم، كما فعل بقتلة يحيى وزكريا عليهما السلام، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم، وقد ذكر أن النمرود أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود، فقد سلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم عليه السلام إمامًا عادلاً، وحكمًا مقسطًا، فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويضع الجزية، فلا يقبل إلا الإسلام، وهذه نصرة عظيمة، وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه، أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقرّ أعينهم ممن آذاهم، ولهذا أهلك الله عز وجل قوم نوح وعادًا وثمود وأصحابَ الرس وقومَ لوط وأهلَ مدين وأشباههم وأضرابهم ممن كذّب الرسلَ وخالف الحق.

وهكذا نصر الله نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه على من خالفه وكذّبه وعاداه، فجعل كلمته هي العليا، ودينه هو الظاهر على سائر الأديان، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية، وجعل له فيها أنصارًا وأعوانًا، ومنحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم وأسر سراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد، ثم منّ عليهم بأخذه الفداء منهم، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرّت عينه ببلده، وهو البلد المحرم الحرام، المشرف المعظم، فانقذه الله تعالى مما كان فيه من الكفر والشرك، وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكاملها، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة، فاقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده، فبلّغوا عنه دين الله عز وجل، ودعَوْا عبادَ الله تعالى إلى الله جل وعلا، وفتحوا البلاد والاقاليم والمدائن والقرى والقلوب، حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا ظاهرًا إلى قيام الساعة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لاَ يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

ومعنى ذلك أنهم سيعتذرون - رغم أنوفهم - يوم القيامة، بعد أن رفضوا الاعتذار في الدنيا، ولن تنفعهم معذرتهم، ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾، وهي الطرد من رحمة الله، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، ﴿جَهَنَّمَ

إعداد

بغيظكم

د. عبد العظيم بدوي

يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

وهكذا نصر اللهُ رسولَه في حياته، وهو ناصره بعد مماته، ومنتقم من الذين أساءوا إليه، ولو بعد حين، فإن الله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

وكيف لا ؟ وهو سبحانه القائل في الحديث القدسي: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب». أي أعلمته بالحرب مني عليه، والوليّ هو كل مؤمن تقي، فإذا آذن الله بالحرب من آذى وليّه، فكيف بمن آذى رسوله ﷺ ؟!

ولقد علم الله تعالى أن من الناس من يغيظهم نصر الله لرسوله، فقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾، «والمعنى: أنه تعالى ناصر رسولَه في الدنيا والآخرة لا محالة من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه، فمن كان يغيظه ذلك من أعاديه وحُسّاده، ويظن أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور ومباشرة ما يرده من المكايد، فليبالغ في استفراغ المجهود وليجاوز في الجد كل حدّ معهود، فقصارى أمره، وعاقبة مكره، أن يختنق خنقًا مما يرى من ضلال مساعيه، وعدم إنتاج مقدّماته ومباديه، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي: فليمدد حبلاً إلى سقف بيته (ثم ليقطع) أي ليختنق، ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ أي: فليصوّر في نفسه النظر هل يذهبن كيدُه ذلك الذي هو أقصى ما انتهى إليه قدرته في باب المضادّة والمضارّة ما بيته من النصر ؟ كلا».

[تفسير ابي السعود ٤/٣٧٣]

فموتوا بغيظكم فإن الله ناصر رسوله، وقال السعدي: «معنى الآية: يا أيها المعادي للرسول محمد ﷺ، الساعي في إطفاء دينه، الذي يظن بجهله أن سعيه سيفيده شيئًا. اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد الرسول، فإن ذلك لا يذهب غيظك، ولا يشفي كمدك، فليس لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأي تتمكن به من شفاء غيظك، ومن قطع النصر عن الرسول، إن كان ممكنًا، ائت الأمر من بابه، وارتق إليه باسبابه، اعمد إلى حبل من ليف أو غيره، ثم علّقه في السماء، ثم اصعد به، حتى تصل إلى الأبواب التي ينزل منها النصر فسدّها، وأغلقها، واقطعها، فبهذه الحال تشفي غيظك، فهذا هو الرأي والمكيدة، وما سوى هذه الحال، فلا يخطر ببالك أنك تشفي بها غيظك، ولو ساعدك من ساعدك من الخلق». [تيسير الكريم الرحمن ٥/٢٨٢]

فموتوا بغيظكم، فإن الله ناصر رسوله ﷺ

وبعد: فإن مما يثلج الصدور، ويقرّ العيون، هذه الغضبة الشديدة التي غضبتها الجماهير المسلمة في العالم الإسلامي كله بسبب هذه الرسوم التي اساءت للنبي ﷺ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن محبة الرسول ﷺ مستقرة في نفوس المسلمين، وأنهم على استعداد تام لفداء الرسول الكريم بالنفس والمال والولد، ولكننا نريد أن نغتنم الفرصة ونقول لهذه الجماهير: هذا الحبيب الذي غضبتم له، كم من سنته تركتم، وكم في دينه أحدثتم ؟ وهذا ينافي المحبة التي ظهرت منكم لحبيبكم، فهلا تركتم ما أحدثتم ؟ وأحييتم من السنن ما تركتم، فتلك هي حقيقة المحبة، فليست المحبة مجرد كلمات تُقال، ولا شعارات تُرفع، وإنما المحبة طاعة واتباع، كما قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

فهيّا بنا نتعلم سنة نبينا ونعمل بها ونطبقها، حتى نتوضأ كما كان ﷺ يتوضأ، ونصلي كما كان يصلي، وناكل كما كان ياكل، ونشرب كما كان يشرب، ونعامل ربنا سبحانه وتعالى كما كان يعامله نبينا ﷺ، ويعامل بعضنا بعضًا كما علمنا نبينا، والأمر سهل ويسير على من يسّره الله عليه، فها هو ذاك الكتاب القيم: «زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن القيم رحمه الله، فلنقبل على دراسته بنية التاسي بنبينا كما امرنا ربنا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

وفّق الله المسلمين لما يحبه ويرضاه. آمين.

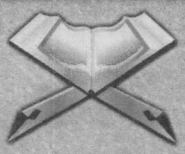

الحلقة الأخيرة

سورة المدثر

يقول الله تعالى: ﴿كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥) نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ (٥٣) كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٣٢-٥٦].

تفسير الآيات

يقسم الربّ سبحانه على أنّ النار من الأمور العظام التي لا يجوز أن يُستهان بها، فيقول سبحانه: ﴿كَلاَّ وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي ولى، ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ أي أشرف ﴿إِنَّهَا لإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي النارَ إحدى الأمور العظام، ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ نحو طاعة غير اللّه هربًا من هذه النار، ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عن الطاعة إلى المعصية، فتخطفه كلاليب جهنم.

ويخبر اللّه تعالى أن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي محبوسة مقيدة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، ثم استثنى فقال: ﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾، فإنهم أحرار طلقاء، لم يكتسبوا ما يحبسهم، فتغمدهم اللّه برحمته، وأذِنَ لهم في دخول الجنة، ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات:٥٠]، ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؟ ما هي أسباب دخولكم النار؟ ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ أي: أجاب المجرمون من أهل النار مبينين أسباب دخولهم النار بقولهم: لم نك من المصلين، أي لم نتبع هذا الدين ولم نُصَلِّ كما يصلي المسلمون، وفي هذا بيان لأهمية الصلاة كركن أعظم في هذا الدين.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾ أي: ما عبدنا ربنا، ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا، وقد تقدّم أن الإحسان هو سبب دخول الجنة، وهؤلاء لم يحسنوا فيما بينهم وبين اللّه، ولم يحسنُوا فيما بينهم وبين عباد اللّه، فذاقوا مسّ سقر، ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ في أيّ أمرٍ، وفي أيّ مسألةٍ، لا نبالي بالحرام، ولا نتقي الكفر، بل كلّما غَوَى غاوٍ غوينا، ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾، ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧، ٤٨]، فما زلنا على هذه الحال ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ يعني الموت، الذي يقطع كل شيء، ويُنهي كل زينة، وقد أمر اللّه تعالى نبيه

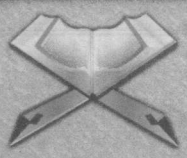

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

أن يعبده حتى يأتيه الموت، فقال: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، ولما دخل رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون رضي الله عنه وقد مات فقال ﷺ: «أما هو فقد جاءه والله اليقين».

وقد ضلّ قوم جعلوا اليقين درجةً من درجات الدين، بل أعلى درجات الدين، وزعموا أن من وصلها سقط عنه التكليف، فليفعل ما يشاء، واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، قالوا: فمن بلغ اليقين ترك العبادة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]، ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، لقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾، ورأيناه ﷺ ظلّ يعبد ربه حتى مات، فهل مات ﷺ قبل أن يبلغ اليقين الذي يبلغه القوم ؟! الجواب - منهم -: نعم؛ لأن الوليّ عندهم أفضل من النبي، حتى قال قائلهم: لقد خُضْنا بحرًا وقف الأنبياء بساحله ! وقال الآخر:

مقام النبوة في برزخ
فويق الرسول ودون الولي!

أما نحن فنقول: نبيّ واحدٌ أفضلُ من جميع الأولياء، وأنّ القوم ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ [محمد:٢٥]، حتى قالوا ما قالوا، ولو كانوا يتدبرون القرآن لرجعوا عن قولهم بل عَنْ كفرهم، وإلا فليجعلوا أنفسهم مع أهل سقر الذين قالوا: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ﴾، قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾؛ لأن الشفاعة لأهل الكبائر من أهل لا إله إلا الله، وأما من مات على غير لا إله إلا الله ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾.

ثم أنكر تعالى على المكذبين بيوم الدين إعراضهم عن التذكرة والهدى، فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ﴾ في إعراضهم عن الحق ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾، شبه الله تعالى الكفار في فرارهم من الرسول وإعراضهم عن القرآن واستماع ما فيه من المواعظ بحمر وحشية جرت في نفارها ممن طاردها من أسدٍ أو روعها من قانص أو أفزعها من صائد، وفي تشبيههم هذا بالحمر مذمة ظاهرة، وتسفيه، وشهادة عليهم بخفة العقل والبله.

ثم كشف اللّهُ عما في صدور القوم مما يمنعهم من الإيمان فقال: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَى صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾، فهو الحسد الذي أكلَ قلوب القوم ! لِمَ يختصُّ محمدٌ بالوحي دونهم ! ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]، أو يُؤتَى كلُّ واحد منهم كتابًا كما أُوتي محمدٌ ! كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام:١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ إلى أن قالوا: ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء:٩٠-٩٣]. فهذا بعض ما في نفوسهم، وآخرُ يذكره اللهُ تعالى في قوله: ﴿كَلاَّ بَل لاَّ يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾، فهم ينفرون من الدعوة، وينأون عن التذكرة لأنهم لا يخافون عذاب الآخرة، لأنهم به مكذبون، ولو استشعرتْ قلوبهم حقيقة الآخرة لكان لهم شأنٌ غير هذا الشأن المريب، ثم يقول تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ أي حقًا إن القرآن تذكرة أي موعظة، ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي اتّعظ به، ولكنّ مشيئته مرتبطة بمشيئة الله، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، والعبد لا يعرف ماذا يشاء اللَّهُ به، فهذا من الغيب المحجوب عنه، ولكنّه يعرفُ ماذا يريدُ الله منه، فهذا مما بينه له، فإذا صدقت نيته في النهوض بما كلّف أعانه الله ووفقه إلى ما يرضي الله عنه، فالعبد لا يتحرك ولا يسكن إلا بمشيئة الله تعالى وحسب مراده.

والله سبحانه ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ أي هو أهلٌ أن يُخشى، لأنّه العزيزُ الجبار المتكبر، وهو سبحانه ﴿أَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ لمن يخشاه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، اللهم ارزقنا خشيتك في السر والعلانية، واغفر لنا ذنوبنا كلها، دِقّها وجلّها، وأوّلها وآخرها.

والحمد لله رب العالمين.

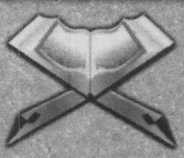

الحلقة الأولى

سورة القيامة

يقول الله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ (١) وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ (٧) وَخَسَفَ القَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ (١٠) كَلاَّ لاَ وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١- ١٥].

بين يدي السورة

سورة مكية تعالج موضوع البعث والجزاء، وتركّز بوجهٍ خاص على القيامة وأهوالها والساعة وشدائدها، وحالة الإنسان عند الاحتضار، وما يلقاه الكافرُ في الآخرةِ من المصاعب والمشاق.

ونستطيعُ القول بأنّ السورة قد انقسمت ثلاثة أقسام:

الأول: القسم على أن البعث حقّ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وذكر بعض أهوالها.

الثاني: ذِكر القيامتين الصغرى والكبرى وحال الإنسان فيهما.

الثالث: ذِكْرُ الأدلة على إمكان البعث.

وقد تضمنت السورة في ثناياها إشارةً خفيفةً إلى كيفية تلقي النبي ﷺ للوحي عن جبريل عليه السلام.

تفسير الآيات

استفتحت السورة بالقسم من الله عز وجل بيوم القيامة، وبالنفسّ اللّوامة، على أنّ البعث حق، والجزاء حق، ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ (١) وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾، ويومُ القيامة معروفٌ، وسيأتي ذكره والحديث عنه في أثناء السورة، أما النّفْسُ اللوامة فقد قال الحسن البصري: هي نفسُ المؤمن، إن المؤمن والله ما نراه إلا يلومُ نفسه: ما أردتُ بكلمتي، ما أردتُ بأكلتي، ما أردتُ بحديث نفسي؟ وإنّ الفاجر يمضي قُدُمًا ما يعاتبُ نفسه، وعنه أيضًا أنه قال: ليس أحدٌ من أهل السماوات والأرضين إلا يلومُ نفسه يوم القيامة، يعني أن المحسن يلومُ نفسه على تقصيرها، والمسئ يلوم نفسه على إساءتها، وكل من القولين وجه.

﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ يعني هل يظنّ الإنسانُ أنّا لا نقدرُ على إعادة عظامه

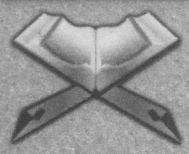

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

وجمعها من أماكنها المتفرقة، ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾، فهي القدرة لا على مجرد جمع العظام أيًا كان، بل ﴿عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾، والبنان أطرافُ الأصابع، وفيها البصمات التي تخصّ كل إنسان، بحيث إن كل بصمة لا تشبه الأخرى، فهو إذن الجمعُ الدقيق، وإعادةُ التكوين الإنساني بأدق ما فيه.

ثم يكشف ربنا سبحانه عن العلّة التي تحملُ الإنسان على استبعاد البعث فيقول: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ إنه يريدُ أن يركب طريق الفجور، إنّه يريد أن يركب طريق الفسوق والعصيان، إنّه يريد أن يحقّق لنفسه كل ما تشتهيه من الحلال والحرام على حدّ سواء، فهو لذلك لا يريد أن يصدق بالبعث، لأن التصديق بالبعث معناه الإيمان بالحساب والجزاء، والثواب والعقاب، وهذا الإيمان يصدّ عن طريق الفجور، ويصدّ عن الفسوق والعصيان، وهو يريدُ أن يُعْطي نفسه حظها من الشهوات والملذات وإن كانت محرمة، فلذلك هو يحاول أن يُبْعدَ عن نفسه شبح الآخرة، ويحاولُ أن يمنّي نفسه لتفعل ما تشاء، فلا حساب ولا جزاء، هذه هي علة ظنّه: ﴿أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾، ولذلك فهو يسأل سؤال المنكر أو المستبعد: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ﴾ ؟ ﴿مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥]، ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، فالكافر يسأل هذا السؤال للإنكار، وعُصاة المسلمين يسألونه للاستبعاد، ليفتحوا أمام أنفسهم الأمل، ويعدوها بالتوبة بعد حين، فالعُمر باقٍ، وبابُ التوبة مفتوحٌ، فليأخذوا حظّهم من الشهوات المحرمة، فالموت منهم بعيد ! والقيامة أبعد!!

﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩].

فيا غافلاً انتبه، ويا طويل الأمل أقصر، فالموت يأتي بغتةً:

وكم من صحيح مات من غير علّةٍ
وكم من عليل عاش حينًا من الدهر

كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فقل: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور». الحمدُ لله الذي ردّ عليّ روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره». يا نفس اجتهدي في طاعة اللّه، فلعلّ هذا اليوم آخرُ أيامك، وإذا أمسيت فقل: يا نفسُ، اجتهدي في طاعة اللّه، فلعلّ هذه الليلة آخر لياليكِ، فإذا أويت إلى فراشك فقل: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفُعه، إن أمسكت نفسي فارْحَمْها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظُ به عبادك الصالحين».

ثم ذكر تعالى بعض أهوال يوم القيامة، الذي ينكره المنكرون، ويستبعدُه المستبعدون، بينما هو قريب جدًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (٦) وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧]، قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ﴾ أي تقلّب بسرعة، والتفت يمينًا وشمالاً، لا يستطيعُ أن يثبت من شدّة الأهوال، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧]،

وقوله تعالى: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ أي: ذهبَ نوره، ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ ؟ فيجاب: ﴿كَلاَّ لاَ وَزَرَ﴾ لا ملجأ ولا مفرّ، ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ أي المرجع والمصير، ولقد أخبر الله عباده أن لا ملجأ ولا منجى لهم من الله إلا إلى الله، فقال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلاَ تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠، ٥١].

وقوله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بما قدّم بين يديه في حياته قبل مماته، وبما أخر بعد مماته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، فالمراد بآثارهم هنا: (ما أخّر) في سورة القيامة، والمراد أنّ الإنسان يتركُ أثرًا في الناس، خيرًا كان أو شرًا، فإذا مات أتاه ما يستحق على آثاره من ثواب وعقاب، كما قال ﷺ: «مَنْ سنّ في الإسلام سنّةً حسنةً فله أجرُها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيءٌ، ومن سنّ في الإسلام سنّةً سيئةً كان عليه وزرها ووزرُ مَنْ عمل بها مِنْ بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». ومعنى هذا أنه لا يضيع من عمل العامل شيء، بل كل عمل عمله فهو مُحصَّ له، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، وكما قال تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومَنْ وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه».

وقوله تعالى: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ يعني أنه شاهدٌ على نفسه، عالمٌ بما فَعَلَه، ولو اعتذر وأنكر، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ضَحِكَ رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم أو تبسم، فقال ﷺ: «ألا تسألوني عن أيٍّ شيء ضحكتُ ؟». قالوا: يا رسول الله، مِنْ أيِّ شيءٍ ضحكت ؟ قال ﷺ: «عجبتُ من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: أي ربِّ، أليس وعَدْتَني أن لا تَظْلِمَني ؟ قال: بلى. فيقول: فإني لا أقبلُ عليّ شاهدًا إلا مِنْ نفسي، فيقولُ الله تبارك وتعالى: أوَلَيْسَ كفى بي شهيدًا وبالملائكة الكرام الكاتبين ؟ قال: ويردد هذا الكلام مرارًا، قال: فيختم على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل. فيقول: بعدًا لكنّ وسُحقًا، عنكنّ كنتُ أجادل».

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ١٠- ٢٣].

وحينئذٍ ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء:٤٢]، والشاهد أنه كان يجادل عن نفسه ويناضل عنها وهو يعلمُ حقيقة أمرها، حتى إذا شهدت عليه جوارحه أقرّ واعترف، وصدق الله: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾.

وللحديث بقية بإذن الله تعالى.

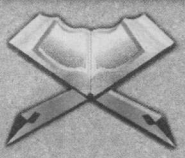

سورة القيامة

يقول تعالى: ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ (٣٠) فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى (٣١) وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٥) أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى ﴾ «القيامة».

تفسير الآيات

هذا تعليمٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ في كيفية تلقّي الوحي، وكان ﷺ إذا جاءه جبريلُ يخافُ أن ينسى شيئًا مما قرأه عليه، فكان يحرك شفتيه بالقراءة قبل أن يَفْرُغَ جبريل عليه السلام، فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ [طه: ١١٤]، ثم وعده الله تعالى ثلاثة وعود فقال: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ ﴾ أي في صدرك، فلا تنسى منه شيئًا، ﴿ وَقُرْآنَهُ ﴾ أي: وعلينا أن نجعلك تقرؤه كما سمعته من جبريل من غير تحريف ولا تبديل، وذلك ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ أي: ما دمنا قد وعدْناك بحفظه وتلاوته كما سمعته فإذا قرأ عليك جبريلُ فلا تعجل به، بل استمع إليه حتى يفرغ، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ أي بعد حفظه وتلاوته فإن وعدًا لك علينا أن نبينه لك ونوضحه، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا، حتى تبينه للناس.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل عليه بالوحي، وكان يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه، وكان يعرف منه، فأنزل الله الآية التي في ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ القِيَامَةِ ﴾: ﴿ لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ قال: علينا أن نجمعه في صدرك وقرآنه: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ فإذا أنزلناه فاستمع، ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ علينا أن نبينه بلسانك، قال: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله. [متفق عليه]

وقوله تعالى: ﴿ كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ العَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ ﴾ كقوله في أول السورة: ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ القِيَامَةِ ﴾، تعليلٌ لتكذيبهم بيوم القيامة، وبيان أن العلة هي حبهم الدنيا العاجلة، وإيثارها على الآخرة الباقية، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، فيا عبد الله، لا تجعل الدنيا أكبر همك، واجعل الهموم همًا واحدًا همّ الآخرة، فـ ﴿ إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ

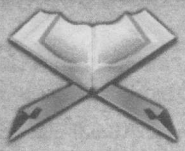

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٩، ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي حسنة بهية، ﴿مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، ونَضرةُ الوجه من نعيم القلب وسروره، فالوجه مرآة القلب، فإذا رأيت وجه صاحبك ضاحكًا، قلت له: أراك اليوم مسرورًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي تنظر إليه، وتراه، والإيمانُ بالرؤية من عقيدة أهل السنة، فمن أنكرها فهو حريٌ أن يحرمها، «فإنّ إضافة النظر إلى الوجه، الذي هو محله، في هذه الآية، وتعديته بأداة (إلى) الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدلّ على خلافه، حقيقة موضوعةٌ صريحةٌ في أنّ اللّه أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى الربّ جل جلاله». [شرح الطحاوي: ابن أبي العز ص٢٠٥]. والأحاديثُ في الرؤية متواترةٌ، رواها أصحابُ الصحاح والمسانيد والسنن.

منها: حديث جرير بن عبد اللّه رضي الله عنهما قال: كنّا عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: «إنكم سترون ربكم عيانًا، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإذا استطعتم أن لا تُغْلَبُوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الغُرُوبِ﴾.

ومنها: حديث صُهيبٍ الروميّ رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾». [رواه البخاري].

ومنها حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، أنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، أنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن». [رواه مسلم]

اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تمتعني بالنظر إلى وجهك الكريم. آمين.

وقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي كالحة سوداء، ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٠- ٤٢] يظنون ظن اليقين أن تنزل بهم داهيةٌ عظيمةٌ فتهلكهم.

وهذه الآيات لها نظائر في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ (٦) لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ (٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٢- ٩]، ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦- ٢٧].

يقول تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ (٣٠) فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى (٣١) وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى (٣٣) أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾: هذه الآيات تصف حالة الاحتضار، وما يكون عندها من أهوال، نسأل اللّه أن يعافينا منها، وأن يثبتنا هنالك بالقول الثابت، وقد وصف اللّه

تعالى هذه الحالة في موضع آخر، فقال سبحانه: ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٣- ٨٧].

وهذا الوصفُ المجملُ قد فسرّه النبي ﷺ تفسيرًا رائعًا، في حديث طويل رواه البراء بن عازب، وقد سبق بطوله في تفسير سورة (ق) عند قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالحَقِّ ﴾.

وقوله تعالى هنا: ﴿ كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾ أي إذا بلغت الروح التراقي وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق، ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ من كلام أهل الميت، لما أيسوا من الطبيب والدواء، سألوا عمن يرقي لهم، لعل الرقية تفعل ما لا يفعله الطبّ، والمعنى: هل من راق فيرقيه ؟ ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ ﴾ أي اعتقد المحتضر أنه قد حان فراقُه للأهل والأحبّة، وذلك حين عاين الملائكة، فأهلُه يسألون ﴿ مَنْ رَاقٍ ﴾ وهو حين عاين ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ ﴾ ولا فائدة من الرقية، كما عُدِمَتْ فائدة الدواء، ونزلت الملائكة ﴿ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ فقبضت، ﴿ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴾ أي اجتمعت عليه شدة الموت وشدة الآخرة، أو التفت ساقاه في الكفن، ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المَسَاقُ ﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ أَلاَ لَهُ الحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢]. ويا خَيْبَة الكافر ﴿ فَلاَ صَدَّقَ ﴾ بالحق إذ جاءه ﴿ وَلاَ صَلَّى ﴾ كما أمره الله، فاتقى عذابه، ﴿ وَلَكِن كَذَّبَ ﴾ بالحق إذ جاءه ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ عن الهدى ﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ أي جذلانًا أشِرًا بَطِرًا كسلانًا لا همة له ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين: ٣١]، ولكن الله يهددهم بما يكدر صفوهم وينغّص عيشهم، فيقول: ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤) ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾، وكلمة ﴿ أَوْلَى لَكَ ﴾ كلمةٌ موضوعةٌ للتهديد والوعيد، وقد كُررت هاهنا لتأكيد الوعيد.

يقول تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أي يُهْمل في الدنيا فلا يُؤمر ولا يُنهى، أو يُهمل بعد الموت فلا يُبعث، كلا، بل لا بد أن يُؤمر ويُنهى، ولا بدّ أن يبعث بعد الموت ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ [إبراهيم: ٥١]، ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، وإن ارتاب الإنسان في البعث فلينظر ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى ﴾ ؟ سبحانك بلى، فالنشأة الأولى دليل النشأة الثانية، والآيات في ذلك كثيرة.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧].

وقال تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧- ٧٩]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي المَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي القُبُورِ ﴾ [الحج: ٥- ٧].

﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ المَوْتَى ﴾؟ سبحانك بلى.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الإنسان

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاَسِلاَ وَأَغْلاَلاً وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً (١٤)﴾

[الإنسان: ١- ١٤]

بين يدي السورة :-

سورة مكية، تعرف الإنسان بنفسه: مَن هو؟ ومِن أين جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين ينتهي؟ وماذا بعد النهاية؟ هذه الأسئلة التي حارت فيها أفهام، وضلّ بسببها أقوامٌ، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقد أَوْجَزَتِ السورةُ في ذكر عذاب الكفار، وأطالتْ في ذكر نعيم الأبرار، ثم خُتمتْ بالحديث عن القرآن، وأمر النبي ﷺ بالصبر على ما يلقاه من المكذبين من الأذى، فإنّ اللّه قادرٌ على أن يبدل خيرًا منهم: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾

[إبراهيم: ٢٠]

فلو أنّ إنسانًا حائرًا، شاكًا مترددًا قرأ هذه السورة أو استمع إليها، وهو منزه قلبه عن الهوى والعصبية والحمية الجاهلية، ما تردّد بعدها لحظةً، ولا شكّ بعدها بُرهةً، فإنها كلامُ اللّه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٢] ؟ ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾

[الإنسان: ١- ٣]

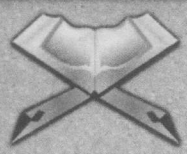

الحلقة الأولى

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

تفسير الآيات :

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾، هذا سؤال للتقرير، ومعناه: قد أتى على الإنسان زمانٌ لم يكن شيئًا مذكورًا، كما تقولُ لمن أكرمتَه: هل أكرمتُك؟ ولمن أحسنتَ إليه: أأحسنتُ إليك؟ كلّ مولود له تاريخُ ميلاد، فأين كان قبل ذلك التاريخ؟ ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ كان عدمًا، إذن: مِنْ أين جاء الإنسانُ؟ مِنَ العدم. ومَنِ الذي جاء به؟ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ فالذي جاء بالإنسان مِنَ العدمِ إلى الوجودِ هو اللَّه: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾؟

مستحيل، ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] أنفسهم؟ أيضًا مستحيل، هل ادّعى أحدٌ أنه خلق نفسه أو غيره؟ لا، بل الكل متفق على أن الخالق هو اللَّه، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، والله تعالى خَلَقَ الإنسان الأول آدم من طين، أما الإنسان المذكور هنا فالمراد به بنو آدم، والله يقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي من نطفة مختلطة، والمراد بها نطفةُ الرجلِ ونطفةُ المرأة، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥- ٧]، والمراد بالصلب صُلْب الرجل، والمراد بالترائب ترائب المرأة، قال اللَّه تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]

ولماذا خَلَقَ اللهُ الإنسانَ؟ قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ أي لنختبره ونمتحنه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [هود: ٧]، إذن لم يخلق اللَّهُ الخلق عبثًا، وما كان ليتركهم سُدًى، بل خلق الخلق ليختبرهم ويمتحنهم بالأمر والنهي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي لآمرهم بعبادتي، فمن أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني دخل النار.

وحتى يتمكن الإنسان من معرفة ما خُلق له والقيام به أعطاهُ اللَّه وسائل المعرفة والعلم والإدراك وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ فبالسمع يستمع إلى آيات اللَّه المقروءة، وبالبصر يتأمل آيات اللَّه المنظورة، فيؤمن به ويعبده، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ومع هذه الوسائل أعطاه اللهُ القدرة على سلوك أي السبل شاء، سبيل اللَّه، أو سبيل الشيطان.

ثم بعد ذلك كله أرسل إليه الرسل ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾

المراد بالهداية هنا هداية البيان والإرشاد، فالله تعالى قد هدى الإنسان أي بيّن له طريق الخير والشر، وأرشده إلى طريق الخير، وحذره من طريق الشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أي الطريقين، طريق الخير وطريق الشر.

وهذه الهداية يقوم بها الأنبياء وأتباعهم، فمن قَبِلَها منهم واتَّبَعَهُمْ مَنَّ اللهُ عليه بالهداية الثانية وهي هدايةُ التوفيق، وهو خَلْقُ قُدرةِ الطاعة، ومَنْ رفض هداية الأنبياء وكذب وتولى حقت عليه كلمة العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، والهداية هنا هي هداية البيان والإرشاد التي هداهم إليها أخوهم صالحُ عليه السلام، ولكنهم آثروا الباطل على الحق، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ أي أن الإنسان بعد بيان الأنبياء له، وهدايتهم إياه، إمَّا أن يتبعهم على ما جاءوا به من الهدى ودين الحق فيكون شاكرًا، وأمَّا أن يتولى عنهم ويرفض الذي جاءوا به فيكون كفورًا، ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

فإن قيل: لِمَ جمع الله تعالى بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في المبالغة ؟ فالجواب: أنه سبحانه إنما جمع بين الشاكر والكفور نفيًا للمبالغة في الشكر، وإثباتًا لها في الكفر، لأن شكر الله تعالى لا يؤدى كاملاً، فانتفت عنه المبالغة، ولم تنتف عن الكفر لأنه كثير، فقلّ شكرُه لكثرة النعم عليه، وكُفْرُه وإن قل فكثير لكثرة الإحسان إليه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا....﴾. هذه الآيات تخبر عمّا للناس عند الله بعد رجوعهم إليه، ولما كان ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، بيّن سبحانه جزاء كلٍّ فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيرًا﴾، والسلاسلُ قيودُ الأرجل، والأغلالُ قيودٌ تُوضع في الأيدي وتضمها إلى الأعناق، كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢]، وقد أخبر سبحانه عن طول السلسلة الواحدةِ فقال: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢]. وأما السعير فهو اللهب والحريق في نار جهنم، وحسبهم ما ذُكِرَ، أما الأبرار فيفصّل ربنا سبحانه ما أعد لهم من النعيم فيقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾، الأبرار: جمع بارّ من البر، وهو اسمٌ جامعٌ للخير كله، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

أولئك يشربون في الجنة ﴿مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ والكافورُ أطيبُ من الطيب. قال العلماء: كان النّاس إذا شربوا الخمر وضعوا عليها شيئًا من الكافور لتطيب رائحتها، فذكر الله تعالى أنّ الأبرار يشربُون في الجنة من الخمر التي ﴿لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، وهي مع ذلك قد مُزجت بالكافور زيادةً في طيبها، بينما المقرّبون يشربون من الكافور الخالص غير الممزوج، كما قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾، والأبرار هم المقتصدون، بينما المقربون هم السابقون في الخيرات، الذين اجتهدوا في الطاعات فَرْضِها ونفلها، وتركوا المحرمات وغيرها من المكروهات، ومِنْ أعمال الأبرار التي نالوا بها ما نالوه أنهم ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فإذا ألزمُوا أنفسهم شيئًا من الطاعات غير اللازمة أوْفوا بما التزموا به،

وإذا أدّوا ما ألْزَموا به أنفسهم من الطاعات فلا بد أنهم أكثرُ أداءً وأكثرُ وفاءً لما ألْزَمهم به اللَّه سبحانه، ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ أي منتشرًا عامًا في كل الناس، إلا من رحم اللَّه، قال قتادة: استطار - والله - شرّ ذلك اليوم حتى ملأ السماوات والأرض، ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾، وهذا مما يُنال به البّر، كما قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وإذا كان إطعام الطعام على حبّه محمودًا فإن الإيثار أعظمُ منه حمدًا، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، فالذي يطعم الطعام على حبه قد لا يكون محتاجًا إليه، أمّا الذي يؤثر على نفسه فهو محتاج إلى ما يُؤثرُ به غيره، وهذا أمرٌ لا تطيقه كلّ النفوس.

وإطعامُ الطعامُ عملٌ من أعمال البر، ولكنّ أعمال البر لا تنفع إلا إذا أُريد بها وجه اللَّه، ولذا قال الأبرار: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾، فقد يُطعِمُ الرجلُ طمعًا في أن يُطعم، وقد يُعطي طمعًا في أن يأخذ، وقد يُطْعِمُ طمعًا في المدح والثناء، ولكنّ الأبرار يُطْعِمُونَ الطعام على حبه يرجون رحمة اللَّه، كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لاَ يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل:١٤- ٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير: أما والله ما قالوه بألسنتهم، ولكن علم اللهُ به من قلوبهم فأثنى عليهم به، ﴿أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ العَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ يبين علة إطعام الطعام لوجه اللَّه، فهم يخافون يومًا ضيقًا شديدًا، كان شرّه مستطيرًا، فهم ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ عسى اللَّه أن يقيهم شرّ ذلك اليوم، وقد وقاهم، قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ اليَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾، لقد كانوا يخافون شرّ ذلك اليوم ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ اليَوْمِ﴾، وهذه وحدها كافية، ولكنّ اللَّه زادهم مِنْ فضله، ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً﴾ في وجوههم، ﴿وَسُرُورًا﴾ في قلوبهم، والقلبُ إذا سُرّ استنار الوجه، ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ على طاعته، وعن معصيته، وعلى قَدَره، ﴿جَنَّةً﴾ ﴿عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾، ﴿وَحَرِيرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣]، ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ﴾ والاتكاءَ جلسة الاستراحة، وعُنْوانُ خُلُوّ البال، وطمأنينة الفؤاد، وكلّ ما حولهم يعين على ذلك، ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ يزعجهم حرّها، ﴿وَلاَ زَمْهَرِيرًا﴾ يؤذيهم بردُه، ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا﴾ أي قريبةً إليهم أغصانُها، ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ بحيث إنه إنْ قام ارتفعت معه، وإن قعد تذللت له، وإن اضطجع تذللت له، قاله مجاهد رحمه اللَّه.

فإلى عشّاق النزهة والفسحة، وإلى طُلاب ظلّ الأشجار وضفاف الأنهار، أما ترغبون في مثل هذه الأشجار ! أما ترغبون في مثل هذه الأنهار! أما ترغبون في ﴿جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٢، ٢٣]، اسمعوا وعوا: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الجَنَّةِ اليَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٥- ٥٨] فمن رغب فليعمل، فإنّ اللَّه يقول: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

سورة الإنسان

قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: ١٥- ٣١].

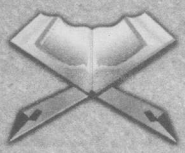

الحلقة الثانية

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

تفسير الآيات

بينما الأبرار متكئون على الأرائك بَيْنَ الظلال الوارفة، والقطوف الدانية، ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أي: يطوفُ عليهم الخدمُ بآنية الطعام، وأكواب الشراب، وأكوابُ الشراب قوارير، والقوارير لا تكون إلا من زجاج، فهذه الأكوابُ من فضّة في شفافية الزجاج، يُرى ما في باطنها مِنْ ظاهرها، وهذا مما لا نظير له في الدنيا، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الجنة شيء إلا قد أعطيتم مثله في الدنيا، إلا قوارير من فضة.

ومعنى قوله: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ أي أنّ هذه الأكواب جاءتْ على قَدْرِ الحاجة بحيثُ لا تبقى باقيةٌ، ولا يطلبون زيادة.

﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴾، وقد سبق قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ فتارةً يخرج لهم الشراب بالكافور، وتارة يمزج بالزنجبيل، بينما المقربون يشربون من كلٍّ منهما صِرْفًا، ولذا قال تعالى هنا: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴾، وقد سبق قوله سبحانه: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾، ومعنى قوله: ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً ﴾ أي الزنجبيل عينٌ في الجنة تسمّى سلسبيلاً لسلاسة سيلها، وحدّة جريها.

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ أي الذين يطوفون على الأبرار ﴿ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴾ غلمانٌ، ليس لهم آباء ولا أمهات، إنما كانوا بكلمة كنْ، خلقهم الله لخدمة أهل الجنة كما خَلَقَ الحور العين، لا يشيبون ولا يهرمون، ولا يموتون، بل ﴿ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ ﴾ وهم يطوفون على الأبرار ﴿ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ وذلك لصباحة وجوههم، وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن، فإذا كان هؤلاء الخدم، فما بالك بالسادة المخدومين ؟! قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾، وذلك أن أدنى مُلك فيها عشرة أمثال الدنيا، كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولاً، رجلٌ يخرجُ من النار حبوًا، فيقولُ اللّه: اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيُخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيُخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فإنّ لك الدنيا وعشرة أمثالها، فيقول: تَسْخَرُ منّي، أو تَضْحَكُ مني، وأنت الملك»، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضَحِكَ حتى بَدتْ نواجذه، وكان يُقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلةً».

وقوله تعالى: ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ

وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ هذه من أنواع الحرير الذي يلبسونه، والسندسُ هو رفيعُ الحرير، كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم، والإستبرقُ منه ما فيه بريقٌ ولمعانٌ، وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهودُ في اللباس، ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ يعني الأبرار، أمّا المقربون فـ ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾، وقد قال ﷺ: «جنتان مِنْ فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياءِ على وجهه في جنة عدن».

فالجنتان من فضة للأبرار، والجنتان من ذهب للمقربين.

«ولما ذكر سبحانه زينة الظاهر بالحرير والحليّ قال بعده: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي طهّر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة». [ابن كثير ٤/٤٥٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ كقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الخَالِيَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وهذا النداءُ يزيدهم نعيمًا فوق النعيم الذي هم فيه، حيث يحمدون عاقبة سعيهم، حين يرون جزاءه ويسمعون هذا القول: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾ لقد أنكر المشركون ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: ٥]، ولذلك كثُر في القرآن ذكر مصدره الوحيد الذي نزل منه، كقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]، ﴿تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]، ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾، وإذا عُلم أن الله هو الذي نزّل عليك الكتاب بالحق ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي كما أكرمك بما أنزل عليك فاصبر على قضائه وقدره، واعلم أنه سيدبر أمرك بحسن تدبيره: إن الأمور مرهونة بقدر الله، وهو يُمهل الباطل، ويطيلُ أمد المحنة على المؤمنين والابتلاء والتمحيص وهذا يستدعي الصبر، كل أولئك لحكمةٍ يعلمها، يجري بها قدرُه، وينفذُ بها حكمه، فأمر الله تعالى بالصبر حتى يجيء موعدُه المرسوم. الصبرْ على الأذى والفتنة، والصبر على الباطل يغلبُ، ثم أمره: اصبر أكثر على ما أوتيته من الحق الذي نزل به القرآن عليك، اصبرْ ولا تستمع لما يعرضونه من المصالحة والمداهنة على حساب العقيدة: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، فهم لا يَدْعُونَك إلى طاعة، ولا إلى برّ، ولا إلى خير، بل هم آثمون كفّار، يَدْعُونَك إلى شيء من الإثم والكفر، إذَنْ حين يدعونك إلى المصالحة والمداهنة، وحين يعرضون عليك ما يظنونه يُرضيك ويُغريك... ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ فإنّه لا لَقاء بينك وبينهم، ولا يمكنُ أن يكون لقاء بينك وبينهم لأن هناك أمورًا تفصل منهجك من منهجهم، وحقّك عن باطلهم، وإيمانَك عن كفرهم، ونورَك عن ظلماتهم، ومعرفتك بالحق عن جهلهم به.

والصبر - كما يقولون - مرّ، وقد يصبرُ الإنسانُ سنةً أو سنتين، ثم إذا طالت المدةُ ربما نفد صبره، ولذلك أرشد اللهُ تعالى نبيه ﷺ إلى ما يستعينُ به على الصبر فقال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٢٥) وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾، فالمادّةُ التي تغذّي الصبر وتزيده هي ذكر الله. فعلى الدعاة أن يصبروا على الأذى، والتكذيب، وطول المدة، وتأخير النتائج، وعليهم أن لا يستعجلوا، فمن استعجل الشيء قبل أوانه عُوقب بحرمانه، وعليهم أن يعلموا أنه لا يلزم أن يجنوا ثمرة دعوتهم، بل قد يجنيها غيرهم، كما أنه كثيرًا ما يزرعُ الرجلُ ويأكل غيره، فليدعوا إلى الله، وليتركوا الأمور لله يدبرها بحسن تدبيره، وعليهم أن يستعينوا على الصبر بذكر الله بكرةً وأصيلاً، يعني أوّل النهار وآخره، وبالتسبيح بحمد الله بالليل والناسُ نيامٌ. وهذه الآيات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٣٨- ٤٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩]، وكقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ [المزمل: ١ - ٤]. وهكذا يقضي الداعيةُ نهاره في الدعوة فتواجهه عقباتٌ، وتواجهه مشاكلُ، فإذا جنّه الليل وأوى الناسُ إلى فرشهم، أوى هُو إلى ربه، فقام بين يديه، يشكو بثه وحزنه إليه، ويستمد العون منه، فهو الذي يعين الدعاة ويلهمهم الصبر؛ لأن الدعوة دعوته، وهو الذي كلف بها، فلابد أن يُعين الدعاة وينصرهم، ثم قال تعالى منكرًا على الكافرين حبّهم الدنيا ونسيانهم الآخرة: ﴿إِنَّ هَؤُلاَءِ﴾ الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا، والذين ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، هؤلاء الذين نهاك ربك عن طاعتهم، ﴿إِنَّ هَؤُلاَءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي الدنيا ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾، ﴿يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾، ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾، وهم في قبضة الله وأسره، قضاؤه نازلٌ بهم، ومشيئته نافذةٌ فيهم، ولو شاء لذهب بهم، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً﴾، ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

وأخيرًا يجيء الختام مذكرًا بالفرصة المتاحة للعباد: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ﴾ إن هذه السورة تذكرةٌ ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ أي فمن شاء سلك سبيل الرحمة، ومن شاء سلك سبيل الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ولكنّ مشيئة الخلق ليست مطلقة، وإنما هي مقيدةٌ بمشيئة الله تعالى، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ «عليمًا» بمن يقبلُ الهداية ويَصْلُح لها، فيؤهّله لها، ويأخذ بيده إليها، «حكيمًا» فلا يضعُ الهداية في محلٍّ لا يقبلها، وبعلمه سبحانه وحكمته: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. اللهم أدخلنا في رحمتك، ولا تجعلنا مع القوم الظالين.

والحمد لله رب العالمين

باب التفسير

الطريق إلى النصر

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٢].

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

■■ فقد اشتعلت حربُ لبنانَ حتى تجاوزت الشهر ولمَّا تضع أوزارها، وتعالتْ أصوات، وانطلقتْ حناجر، تلقي باللوم على فلان، وبالعتاب على فلان، وتصف الحكام بالتخاذل، والعلماء بالتقاعس إلى آخر ذلك مما سمعه الجميع، وقلت الأصوات التي تشخص الداء، وتصف الدواء، قلت أصوات الَّذين يعللون الحرب والهزيمة، ويرشدون إلى أسباب النَّصر وقوة العزيمة، ومع قلتها قلَّ من يسمع لها.

ونحن في هذا المقال نريد أنَّ نعلل أسباب تسلط الكافرين على المؤمنين، وأسباب نصر المؤمنين، فللهزيمة أسبابها، وللنصر أسبابه، وقد جعل اللهُ لكلِّ شيء سببًا، فنقول وبالله التَّوفيق: ■■

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

من المسلّمات البديهية أنّ النصر من عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [آل عمران والانفال]، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ولقد عاب الله على أقوام استنصروا بغيره، فقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ ءَالِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ(٧٤) لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الأَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(٢٧)فَلَوْلاَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الاحقاف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلاَ نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

فالمنصور من نصره الله ولو اجتمع عليه من بأقطار الأرض، والمخذول من خذله الله ولو اجتمع معه من بأقطار الأرض،، وهذه حقيقة يعتقدها الكافر-وإن خالفها في الظاهر- كما قال حييُ بن اخطب النَّضري وهو يقدم ليضرب عنقه بعد غزوة بني قريظة فلمّا نظر إلى رسول الله ﷺ قال: والله ما لمتُ نفسي في عداوتك، ولكن من يخذل اللهُ يُخذل.

وإنّما ينصر الله من يشاء ممن أطاعه وإنْ قلوا، كما قال تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وإنّما يخذل الله من عصاه وإنْ كثروا، كما قال تعالى في حنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

فإذا كان الله هو الناصر، فكيف نستنصره؟ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وكيف ينصر المؤمنون الله، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت؟.

إنّ لله في نفوسهم أنْ تتجرد له، وألاّ تشرك به شيئًا، شركًا ظاهرًا او خفيًا، وأنْ يكون الله أحب إليها من ذاتها ومن كلّ ما تحب وتهوى، وأنْ تحكمَهُ في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها، وسرها وعلانيتها، فهذا نصر الله في ذوات النفوس.

وإنّ لله شريعةً ومنهاجًا للحياة، تقوم على قواعد وموازين وقيم تستقيم عليها حياة الناس، ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها في شئون الحياة كلها بلا استثناء، فهذا نصر الله في واقع الحياة.

ونقف لحظة أمام قوله تعالى: ﴿والَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [محمد: ٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ﴾ ففي كلتا الجالتيْن، حالة القتل، وحالة النصرة، يشترط أنْ يكون هذا لله وفي سبيل الله. وهي لغة بديهية، ولكن كثيرًا من الدَّخَل يغطي عليها عندما ينحرف الناس في العقيدة فيصرفون شيئا من العبادة لغير الله، وعندما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص، وتنحرف عن معناها والقويم. إنّه لا جهاد ولا شهادة ولا جنة، إلاّ حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده، والموت في سبيله وحده، والنصرة لله وحده، وعلى منهج الله وحده.

لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلاّ حين يكون الهدف أنْ تكون كلمة الله هي العليا، وأنْ تهيمن شريعته ومنهاجه على حياة الناس وأخلاقهم وسلوكهم، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء.

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وليس هناك من راية أخرى، أو هدف آخر، يجاهد في سبيله من يجاهد، ويستشهد دونه من يستشهد، فيحق له وعد الله بالجنة إلاّ تلك الراية وإلاّ هذا الهدف. ويحسن أنْ يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفتة البديهية، وأنْ يخلصوها في نفوسهم من الشوائب التي تعلق بها في جوانب الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، فإن هذا هو منهج الأنبياء عليهم السلام.

لا جهادَ إلاّ لتكون كلمة الله هي العليا. العليا في العقيدة والعبادة، والعليا في الخلق والسلوك، والعليا في السياسة والاقتصاد، والعليا في العلاقات والارتباطات بين الناس وبين الله، وبين الناس بعضهم ببعض. وما عدا هذا فليس لله. ولكن للشيطان، وليست هناك شهادة ولا استشهاد، وليس هناك جنة ولا نصر من عند الله ولا تثبيت للأقدام، وإنّما هو الدخل وسوء المعتقد والانحراف في منهج الحياة.

هذا هو شرط الله على الّذين آمنوا، فأمّا شرطه لهم فهو النصر وتثبيت الأقدام.

وقد يقال: لِمَ قدم النصر على تثبيت الأقدام مع أنّ تثبيت الأقدام يسبق النصر، ويكون سببًا فيه؟

والجواب: إنّ تأخير تثبيت الأقدام يوحي بأنّ المقصود به معنى آخر من معاني التثبيت، وهو معنى التثبيت على النصر وتكاليفه. فالنصر ليس نهاية المعركة بين أهل الكفر وأهل الإيمان، وبين الحق والضلال، للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر، وفي عدم التراخي بعده والتهاون، وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء، ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء، وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر، وهذا ما تشير إليه العبارة، والله أعلم بمراده.

ولنا بعد ذلك البيان أنْ نتساءل: هل نصرنا الله؟ هل نصرنا دينه؟ هل نصرنا شريعته؟ هل نصرنا منهاجه؟

إنّ الواقع مرير، ولكن لابدّ من المصارحة: إنّ في المسلمين من فسدت عقائدهم فطافوا بالقبور، وتمسحوا بالأضرحة، وقدموا لها القرابين، وذبحوا لها الذبائح. وفي المسلمين من لا يصلي، وفيهم من لا يصوم ولا يزكي، وفيهم من لا يحج، فماذا بقي من الإسلام غير اسمه؟! وفي المسلمين من يأكل الربا ويشرب الخمر ويلعب الميسر، وفي نسائهم من التبرج والسفور الّذي أدى إلى الفاحشة ما لا يخفى. فهل لنا أنْ نتساءل كيف يتحقق شرط الله لنا بالنصر، ونحن لم نحقق لله شرطه بنصر دينه؟ إنّه لا بدّ من التوبة، ولا بدّ من تصحيح العقيدة وإصلاح العبادة، فإذا صلحت العقيدة وصلحت العبادة أتانا نصر الله، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٥٥)وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(٥٦)لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧]

ولمّا وعد الله المؤمنين بالنصر وتثبيت الأقدام توعد الكافرين بالزلل والعثار، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ﴾ «والتعس: الشقاء، ويطلق على عدة معان: الهلاك، والخيبة، والانحطاط، والسقوط، وهي معان تحوم حول الشقاء». وكلها معان مقصودة. قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ﴾ زيادة في تقوية قلوب المؤمنين، لأنّه تعالى لمّا قال: ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ جاز أنْ يتوهم أنّ الكافر أيضًا يصبر ويثبت للقتال فيدوم القتال والحراب والطغيان والضراب، وفيه المشقة العظيمة، فقال تعالى: لكم الثبات ولهم الزوال والتعثر والهلاك فلا يكون الثبات». كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ «أي أبطل أعمالهم التي يكيدون بها الحق، فرجع كيدهم في نحورهم». فمهما كادوا للإسلام والمسلمين، فكيدهم راجع إليهم، ومهما مكروا بالإسلام والمسلمين فمكرهم

عائد عليهم، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٢]، ثم بين الله تعالى السبب في إضلال أعمالهم فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ «أي ما ذكر من التعس والإضلال بسبب ﴿أَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ من القرآن لما فيه من التوحيد وسائر الأحكام المخالفة لما ألفوه واشتهته أنفسهم الأمارة بالسوء ﴿فَأَحْبَطَ﴾ لأجل ذلك ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾».

ثم يلوي الله أعناق الكافرين إلى مصارع الغابرين قبلهم بتدميرهم وعنف، فيقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ وهي لفتة عنيفة مروعة، فيها إنذار شديد، وفيها بيان ما حدث للذين من قبلهم يدمر عليهم كل ما حولهم، وكل ما لهم، فإذا هي أنقاض متراكمة، وإذا هم تحت هذه الأنقاض المتراكمة، ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ أي أمثال تلك العقوبة والعاقبة ولذلك لما دمر الله قرى قوم لوط، وجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، قال: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي تلك الحجارة ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

ومن الثابت المعلوم أنّ إنجاء الرسل والمؤمنين كان قرين إهلاك المكذبين، كما صرح بذلك ربنا في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(٦٦) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٦٧) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ(٩٤)كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤]. وإلى ذلك أشار ربنا سبحانه في قوله هنا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي ذلك الذي فعلنا من إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين إنّما تمّ بسبب أن ﴿اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي ناصرهم ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي لا ناصر لهم.

ولمّا ذكر الله تعالى أنّه ولي المؤمنين، ذكر ما يفعل بهم في الآخرة، من دخول الجنات، التي تجري من تحتها الأنهار، التي تسقي تلك البساتين الزاهرة والأشجار الناضرة المثمرة، لكل زوج بهيج، وكل فاكهة كثيرة. ولمّا ذكر أنّ الكافرين لا مولى لهم، ذكر أنّهم وكلوا إلى أنفسهم فلم يتصفوا بصفات المروءة ولا صفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات وصاروا كالأنعام، التي لا عقل لها ولا فضل، بل جل همهم ومقصدهم التمتع بلذات الدنيا وشهواتها، فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة دائرة حولها، غير متعدية لها إلى ما فيه الخير والسعادة، ولهذا كانت النار مثوى لهم، أي منزلاً معدًا لهم لا يخرجون منها، ولا يُفتَّرُ عنهم من عذابها.

وقد فرق الله تعالى بين حال الفريقين في أكثر من موضع، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاء غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاء حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ(١٨)أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]، وأمثال ذلك في القرآن كثير. ونسأل الله تعالى أنْ يجيرنا من النار، وأنْ يدخلنا الجنة مع الأبرار.

فإنْ قال قائل: وهل نظل ساكتين على ما يجري في لبنان والعراق وفلسطين؟ والجواب: لا، لا نسكت، وإنّما يجب علينا أنْ ننصر إخواننا بأنفسنا وأموالنا، فإنْ عجزنا عن نصرتهم بأنفسنا، فلننصرهم بأموالنا، من الزكاة الواجبة وغيرها من الصدقات، وعلينا أنْ ننصرهم بالسنتنا بالدعاء فإنّ الدعاء من أقوى أسلحة النصر، وصى به النبي ﷺ فقال: «إنّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ فَعَلَيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِالدُّعَاء».

اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزم أعداءنا وانصرنا عليهم.

سورة النبأ

يقول تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١-١٢].

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

بين يدي السورة

سورة مكية، أفردت للحديث عن اليوم الآخر وأهواله، وقد استفتحت بالإنكار على الذين ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢]. وهددتهم: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾.

ثم ذكرت الأدلة والبراهين على إمكان البعث، وأن الله تعالى يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وذكرت أنه ما يحبسه إلا ما سمّاه الله له من الأجل ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩].

ثم ذكرت بعض أهواله، وجزاء المكذبين والمؤمنين، ثم خُتمت بالإنذار بقربه، وإن كان المنكرون له يرونه بعيدًا: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾.

تفسير الآيات

يقول تعالى منكرًا على المشركين تساؤلهم عن يوم الدين استبعادًا لوقوعه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ عن أي شيء يتساءلون؟ أيتساءلون ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ الظاهرة براهينه، الواضحة دلائله وآياته: وهو البعث بعد الموت، ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ فمنهم مؤمن به وكافر، ثم قال: «كلا»، وهي كلمة زجر ووعيد: «كلا سيعلمون» عاقبة التكذيب، «ثم كلا سيعلمون»، ولم يذكر المعلوم، حتى تذهب العقول فيه كل مذهب، فيكون ذلك أشد تاثيرًا في النفس مما لو ذُكر المعلوم، فلو ذكر المعلوم لهان عليهم، فحذفه حتى يكون وقع التهديد أشد على أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ أيْ ممهدةً سهلةً ذلولاً: ﴿ وَالجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ للأرض كأوتاد الخيمة، التي تُثبَّت بها، حتى لا تقلعها الرياح، فثبت الله تعالى الأرض بالجبال لتسكن وتستقرّ حتى تصلح للعيش عليها، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾، ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أي: ذكرًا أو أنثى، يتمتع كلّ منهما بالآخر، ويحصل التناسل، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ [القيامة: ٣٦- ٤٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ أي قطعًا للحركة، لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعايش، والنوم راحةٌ والنوم نعمةٌ، يكدح الإنسان ويشقى في النهار، حتى إذا جن عليه الليل أوى إلى فراشه، وتغمده الله برحمته، فنام وما هي إلا ساعات حتى يُبعث من نومه نشيطًا كأن لم يشق بالأمس.

فهذه نعمةٌ عظيمة، لا يعرفها إلا من فقدها، لا يعرفها إلا من ابتلي بالأرق.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ يغطّي الكون بظلامه حتى تستريحوا فيه.

﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ أي مُشْرِقًا نيرًا، لتغدوا وتروحوا في طلب المعاش وكسب التجارة وغير ذلك من مصالحكم، ولقد امتن الله تعالى على عباده بأن جعل لهم الليل والنهار، فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ يعني السموات السبع، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ [الملك: ٣]، وقال: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧].

وهذه الآيات قد تضمنت الأدلة والبراهين التي يستدل بها على أن الله يحيي الموتى، ويبعث من في القبور، وهي أربعة أنواع:

الأول: أن الله خلق من الخلق ما هو أكبر من خلق الناس، وإذ كان الأمر كذلك فلن يعجز عن إعادة الناس بعد موتهم وهم من هم في الضعف، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾، وقال: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾، والمراد بالسبع الشداد السموات السبع، والمراد بالسراج الشمس، كما قال الله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ [الفرقان]، فالأرض وما عليها من جبال، والسماء وما فيها من نجوم وكواكب، كلُّ هذه المخلوقات أكبر من خلق الناس، كما قال الله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ . فإذا كانت كذلك والله خلقها فكيف يعجز عن إعادة الناس مرة ثانية؟! ولذا قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى

الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٩٩].

الثاني: أن الله تعالى خَلَقَ الخلق أول مرة، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾، والذي خلق أول مرة لا يعجز أن يُعيد الخلق مرة ثانية، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سبا]. وقد كَثُر في القرآن الكريم تنبيه الإنسان على إمكان الإعادة بالخلق أول مرة، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧] .

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧- ٧٩]، والآيات في هذا كثيرة .

الثالث: أن الإنسان يموتُ ويحيى في اليوم والليلة مرةً أو مرتين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾، والنوم أخو الموت، ينام الإنسان فيموت، ثم يستيقظ فيبعث، وقد سمى الله تعالى النوم وفاة، واليقظة بعثًا، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، ولذا كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه يقول: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين». فإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور». «الحمد لله الذي ردّ عليّ روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره».

فالذي يميتُك بالنوم ثم يبعثك بعده قادرٌ على أن يبعثك بعد الموت ليوم لا ريب فيه.

الرابع: أنّ الأرض قبل نزول المطر تكون ميتة، جرداءَ لا زرعَ فيها ولا ماء، فإذا نزل المطر أحياها الله تعالى فـ ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾. وهذا دليل على أن الله يحيي الموتى .

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾.

إلى قوله: ﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ [ق: ٩- ١١] يعني خروجُ الناس من قبورهم يوم القيامة، وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الزخرف: ١١].

وهكذا انتظمت هذه الآ
الآيات أحسن انتظام، فمز
به .

وللحديث بقية بإذن الله

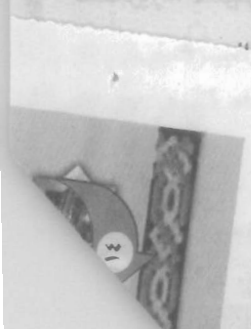

سورة النبأ الحلقة الثانية

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

يقول تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (٣٥) جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨) ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا (٣٩) إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴾ [النبأ: ١٣- ٤٠].

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ يعني الشمس، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾، وهي السحب، ﴿ مَاءً ثَجَّاجًا ﴾ أي كثيرًا متتابعًا، ينصب بكثرة، ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾ أي مجتمعة، كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

إخبار الله تعالى عن يوم القيامة

يخبر الله تعالى عن يوم القيامة أنه مؤقتٌ بأجل معلوم، لا يُزاد عليه ولا يُنقص منه، فيقول تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ كقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ

وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ يعني أنّ جهنم مآبُ الظالمين المكذبين بيوم الدين، أي هي مرجعهم ونزلهم الذي ينزلون فيه بعد رجوعهم من الحساب، ﴿لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ لا تنتهي، كلما مضى حُقبٌ تبعه آخر، وهكذا، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾، ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ يُخفَّفُ عنهم حرّها، ﴿وَلاَ شَرَابًا﴾ يُذهبُ عنهم ظمأهم، ﴿إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، قال ابو العالية: استثنى من البرد الحميم، ومن الشراب الغساق، والحميمُ هو الماء الحار الذي انتهى حره وحموه، والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يواجه من تنفسه. اهـ. من ابن كثير.

تكذيبهم لحجج الله ودلائله التي أنزلها على الله

وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ أي موافقًا لأعمالهم، ولم يظلمهم اللهُ شيئًا، وسببه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ أي: وكانوا يكذّبون بحجج الله ودلائله التي أنزلها على رسله، وقد سَجّلت عليهم الحفظة كل شيء، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣]، وسيجزي الله كل عامل بعمله، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٤٩]، بل كلُّ امرئ حسيبُ نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

إخبار الله سبحانه عن السعداء وما أعدّ لهم

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾، يعني يُقال لأهل النار وهم ﴿لاَ يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلاَ شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، يُقال لهم وهم كذلك ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يقال لهم: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾، وهذا القولُ أشدّ على أنفسهم من العذاب فإنّ الرجل إذا عوقب بالحبس مع الأعمال الشاقة، يُخفف عنه العذاب تحديد المدة، فهو يعدُّ ويعدُّ، ومهما كانت طويلةً فإن تحديدها يهونها عليه، ولكنّ أهل النار: ﴿لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾، ثم يقال لهم: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا﴾، فيقطع هذا القول عليهم كلّ أمل، ويُغلق عليهم كل باب رجاء.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ يُخبر تعالى عن السعداء وما أعدّ لهم من النعيم: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾، ثم فسّره فقال: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ والكواعب هنّ الشابات النواهد، اللاتي لم يتدل ثديهن، لأنهن أبكار، عُربٌ أتراب، أي ذوات سنٍّ واحدة، كلهن شبابٌ وفتوة، وحيوية وقوة، وقوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي مملوءة متتابعة، ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ كِذَّابًا﴾، كقوله تعالى: ﴿لاَ تَسْمَعُ

فِيهَا لاَغِيَةً﴾، وقوله تعالى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: ٢٥] أي ليس في الجنة كلام لاغٍ عارٍ عن الفائدة، وليس فيها كلام كذب يوجب الإثم، لأنهم في دار السلام، التي سلمت من كل نقص، وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ أي هذا الذي أعده الله للمتقين كان فضلاً من ربك عليهم، وعطاءً حسابًا أي كافيًا وافيًا، وفيه إشارة إلى أن السعداء إنما دخلوا الجنة برحمة ربهم وفضله وإحسانه كما صرح بذلك النبي ﷺ بقوله: «لن يُدخل أحدكم عملُه الجنة». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

ذلك اليوم الحق الذي يكذب به المجرمون

وقوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ﴾ يعني أنه سبحانه ربّ العالمين، رب السموات والأرض وما فيها وما بينهما، وأنه سبحانه الرحمن الذي شملت رحمته كل شيء، وقوله تعالى: ﴿لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي لا يقدر أحدٌ على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾، وقال تعالى هنا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾، والمراد بالروح جبريل عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]، فجبريل الأمين عليه السلام يوم القيامة يقوم مع الملائكة، ولا يملك الكلام إلا أن يأذن له الرحمن ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي حقًا.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ الذي يكذّب به المجرمون، وهو كائنٌ لا محالة، ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ وتلك بعضُ أهواله، وهذه مساكن الناس فيه ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾، وليس هناك سبيل يوصل إلى الله إلا سبيل محمد ﷺ، كما قال ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى». قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «مَن أطاعني دخل الجنة، ومَن عصاني فقد أبى».

قد أعذر من أنذر

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: وقد أعذر من أنذر، كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقوله تعالى: ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ وصفه بالقرب؛ لأنه آتٍ لا ريب فيه، وكل ما هو آت قريبٌ. ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: يُعرضُ عليه جميعُ أعماله خيرها وشرها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾، وكما قال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾، وقال: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾، يعني حين يرى مصيره إلى النار، ومصير البهائم إلى التراب، يتمنى أنْ لو كان من البهائم حتى يصير إلى ما صارت إليه، وذلك أنّ الله تعالى يحشر البهائم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيقضي الله بينها، ويقتص من الظالم للمظلوم، كما قال النبي ﷺ: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء». [أخرجه مسلم] ثم يقول الله لها: كوني ترابًا، فإذا عاين الكافر مصيره ومصيرها قال: يا ليتني كنت ترابًا.

والله تعالى أعلم.

سورة المرسلات

يقول تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (٧) فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥) أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٩) أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (٢١) إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٢٤) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦) وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا (٢٧) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١-٢٨]

بين يدي السورة

سورة مكية اهتمت بالحديث عن يوم الفصل، وأنه حقّ لا ريب فيه، فاستفتحت بالقسم من الله تعالى على وقوع ما وعد به من البعث والحساب والجزاء، ثم ذكرت بعض الأحوال التي تكون يوم الفصل وأثبتت ذلك بالحديث عن بعض مظاهر القدرة الدالة على إمكان البعث، كما تحدثت عن جزاء المكذبين بيوم الفصل، ثم عن جزاء المتقين الذين يصدقون بيوم الدين، ثم خُتمت السورةُ بهذا السؤال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني: فبأي حديثٍ يؤمن الكفار إذا لم يؤمنوا بالقرآن الذي هو أحسن الحديث.

تفسير الآيات

يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وإنما يتحقق هذا الجزاء يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، فهم لا يؤمنون، ولذا أقسم ربنا سبحانه على صدق خبره، ووقوع وعده، فمن كفر بعد ذلك فالنار موعده.

قال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

﴿لَوَاقِعٌ﴾. اختلف العلماء في المقسم به هنا ما هو؟ ولعلّ أرجح الأقوال: أن المراد بالمرسلات والعاصفاتِ والناشرات الرياح، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ [فاطر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ [الروم: ٤٦]، فهي مرسلةٌ، ومعنى قوله: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾ أي الرياح حين تُرْسَلُ متتابعةً شيئًا فشيئًا، ثم تزدادُ حتى تكون عاصفة، فتنشر السحاب في السماء كما يشاء اللّه عز وجل، وأمّا الفارقاتُ الملقياتُ فهذه الملائكة، تنزلُ بالوحي فتلقيه إلى الأنبياء، فتفرّق به بين الحق والباطل، ومعنى قوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أنّ هذا الذكر (الوحي) الذي تُلْقيه الملائكة إلى من شاء اللّه من أنبيائه يكون عُذرًا للناس لئلا تكون لهم حجةٌ بعده، ونُذرًا لهم إن خالفوا أمره، قال العلماء: وفي القَسَم بهذه الخمس تفخيمٌ لشأن المقسم به وتعظيم لأمر المقسم عليه وهو ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ إنما توعدون من البعث، والحساب، والجزاء، والجنة، والنار، كله لابد واقع أي كائن لا محالة، كما قال تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ١-٦]. ويوم يقعُ ما يُوعدون تكونُ الأهوال التي تغير معالم الكون: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي ذهب ضوؤها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار]، ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾، كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وذلك من هول يوم الفصل، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولا﴾ [المزمل: ١٧، ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي أُجّلت، ﴿لأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾؟ ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ بينهم وبين أممهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ يعني الأمم، ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]؟ وكما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]، ﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٧، ٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾؟ سؤالٌ لتفخيم أمره، وتعظيم شأنه، ثم قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بيوم الفصل، بوعد اللّه، ويلٌ لهم مِنْ عذاب اللّه ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤]، ويلٌ لهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]، ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

الطور: ١٣- ١٦]، وقد تكرر هذا الوعيد في هذه السورة عشر مرات، ثم لفت الله سبحانه أنظار المكذبين إلى مصارع الغابرين، لعلهم يحذرون، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ﴾ يعني من المكذبين، ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ﴾ ممن أشبههم ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ دائمًا، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ(١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦- ١٤].

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ كقوله تعالى هنا: ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾، فالله سبحانه قادرٌ على إهلاك المكذبين من هذه الأمة كما أهلك الأولين، ولكنه سبحانه هو الحليم، يصبر على أذى عباده، ويمهلهم، فإن تابوا وإلا أهلكهم، كما قال النبي ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». [أخرجه مسلم] ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [القلم: ٣٣]، وحتى إذا لم يعذبهم في الدنيا فلن ينجوا من عذاب الآخرة: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، ولهذا لما ذكر الله تعالى في سورة القمر إهلاكه للمكذبين من الأولين التفت إلى الآخرين فقال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٣-٤٦]، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين:١١]، وما لهم يكذبون! ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ أي: ضعيف حقير، ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ وهو الرحم، الذي يظل مفتوحًا، فإذا استقر فيه الماء أُغلق، ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، فمن النساء من تضع لستةٍ أشهر، ومنهن من تضع لتسعة، ومنهنّ من يسقط ما في بطنها ناقصًا، ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨]، ولذا قال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾، ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٤٠]، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: ١٧- ٢٢]، كما خلقه أول مرة، فليس أول الخلق بأهون عليه من إعادته، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢١٠]، فهذه آيةٌ لهم على إمكان البعث، وآيةٌ أخرى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا﴾ تحملكم فوق ظهرها ﴿أَحْيَاءً﴾، وفي بطنها ﴿أَمْوَاتًا﴾ فهي لكم كالأم، تحمل في بطنها وعلى ظهرها، وكلا الحالين نعمة، فاستقرار الأرض وسقي الناس منها نعمة ودفنهم فيها بعد موتهم نعمةٌ، كما قال تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ إلى قوله: ﴿أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾، ولم يجعله عرضة للسباع والبهائم كسائر الأموات.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ عذبًا سلسبيلاً، و﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ﴾، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعد أن أريناهم هذه الآيات الدالة على قدرة الله وعظمته.

وللحديث بقية.

سورة المرسلات

الحلقة الثانية

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

يقول الله تعالى لأهل النار: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (٣٠) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (٣١) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ (٣٣) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٤) هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩- ٥٠].

تفسير الآيات

يخاطب الله تعالى المكذبين بيوم الدين وكأنهم فيه، وكأنه جاءهم ما يوعدون، فيقول تعالى لهم: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، لقد حُبسُوا للسؤال، كما قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٤]، فلما سُئلوا قيل لهم: ﴿انْطَلِقُوا﴾، ولكن، إلى أين؟ ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، فلو ظلوا في الحبس أبدًا لكان خيرًا لهم، ثم يوضح حقيقة ما ينطلقون إليه فيقول: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ يعني لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب: ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ فتسميته ظلاً إنما هي للتهكم والاستهزاء، وهذه الآيات كقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١- ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا﴾ أي النار، ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ أي أن الشرارة الواحدة في حجم البيت من الحجر، فإذا تتابع الشرر بدا و﴿كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ﴾ أي كالإبل ترتع هنا وهناك، وإذا كان هذا الشرر، فكيف بالنار التي ينطلق منها.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ﴾، أي لا يتكلمون كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٢٨]، وكما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٣-١٠٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ لأنه قد قامت عليهم الحجة، ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥]، وقد جاء في آية أخرى أنهم يُؤذن لهم فيعتذرون، ولكن لا ينفعهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ

مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [غافر]، فكيف الجمعُ بين الآيتين؟ قال العلماء: إنّ هذا اليوم يومٌ طويل، مقداره خمسون ألف سنة، وهم في هذا اليوم يمرون بمواقف ومشاهد كثيرة، كما قال تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق]، فهم في بعض المواقف يعتذرون ولا ينفعهم، وفي بعضها: ﴿لاَ يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾، كما أنّهم في بعض المواقف يُسألون عن ذنوبهم، وفي بعضها لا يُسألون، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر]، وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ﴾، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بين العباد فيما اختلفوا فيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، ولذلك جمعهم، كما قال: ﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾، فهذه الآية قد وعدتهم بالجمع، والآية التي معنا خطاب لهم بتحقيق الجمع، ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ﴾، ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾، أي إن قدرتم أن تتخلصوا من قبضتي، وتنجوا من حكمي فافعلوا، وهيهات هيهات، وذلك كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ثم ذكر تعالى جزاء المصدقين بيوم الدين فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٥- ٥٧]، وكما قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٧- ٣٠]، قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها». فهذه هي الظلال، أما العيون فقد سبق في سورة الإنسان الإشارة إلى بعضها: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان]، ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً (١٧) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً﴾ [الإنسان]، وقوله تعالى: ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾، ثم يُقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

وقد فسر إحسانهم في غير هذا الموضع، قال تعالى: ﴿الم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ١- ٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾، ولو تمتعوا الدهر كلّه لكان قليلاً، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ثم ذكر تعالى استكبار المكذبين عن عبادته فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ﴾ أي إذا أُمروا أن يركعوا مع الراكعين استكبروا، ولهذا توعدهم فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ ؟ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي كلام يؤمنون ؟ ومعناه: أنهم لا يؤمنون وقد كفروا بهذا القرآن، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ ؟ آمنا بالله رب العالمين، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

سورة النازعات

الحلقة الأولى

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

يقول تعالى: ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) ﴾

[النازعات: ١-١٤]

بين يدي السورة

اسمها «النازعات»، وتسمى أيضًا الساهرة، والطامّة، وهي أسماء مأخوذة من بعض ألفاظ الآيات، وسيأتي شرحها، وهي سورة مكية، شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة، وبيان أصول الدين وأركان الإيمان، لكنّ محورها الذي تدور حوله هو الإيمان بالبعث بعد الموت.

استُفتحت السورة الكريمة بالقسم على جواب محذوف تضمنته السورةُ، وسيأتي بيانُ تقديره، ثم تحدثت عن حال المكذبين بالبعث يومَ البعث.

وذكرت طرفًا من قصة موسى عليه السلام مع فرعون، تثبيتًا لقلب النبي ﷺ وحثًا على الصبر على أذى المكذبين، فإنّ الله جاعلٌ العاقبة له، كما جعلها لموسى عليه السلام، ثم ذكرت السورة دليلاً من الأدلة التي يُستدل بها على إمكان البعث، وهو أنّ الذي خلق السماوات والأرض، وهما أشد خلقًا من خلقهم، لن يعجز أن يعيدهم.

ثم بينت أنّ الناس يوم القيامة فريقان: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾، وختمت السورة ببيان أنّه لا يعلم متى الساعة إلا الله، وأنهم يوم يرونها يظنون أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا عشية أو ضحاها.

تفسير الآيات

اختلف العلماءُ في المراد بهذه الخمس التي أقسم الله بها، والمختار أن المراد بها الملائكة، وعلى هذا يكون المراد: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ ملائكة الموت حين تنزع أرواح الكافرين بشدة وعُنْفٍ كما قال النبي ﷺ: «وإن العبد الكافر - وفي رواية الفاجر - إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، تنزلت عليه من السماء ملائكةٌ سودُ الوجوه، معهم المسوحُ، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينزعها كما يُنزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول، فتقطع معها العروقُ والعصب».

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ ملائكة الموت تقبض روحَ العبد المؤمن برفق ولين، فتخرج من جسده كأنما نشطت من عقال، كما قال النبي ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأنّ وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام

حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفسُ الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: وتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء».

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ الملائكة تسبح بين السماوات نزولاً بما حملت من أمر الله، وعروجًا إلى السماء، مرةً ثانية، وقوله تعالى: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ الملائكة تُسابق إلى تنفيذ أمر ربها، فهم عند ربهم صافون، كما قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾، فإذا أمرهم الله تعالى بأمر تسابقوا إلى تنفيذ أمره، وقوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة تدبر أمر المخلوقات بإذن ربها، لا من عند نفسها ابتداءً، فالملائكة لا تدبر أمر نفسها، فضلاً عن أن تدبر أمر غيرها، لكنّ الله هو الذي يدبر الأمر، والملائكة تنفذ أمر الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾. ولقد كان المشركون مقرين بذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

فاللهُ سبحانه هو الذي يدبر الأمر، ولكنّ الله وكل بالمخلوقات ملائكة ينفذون أمره، فوكل بالوحي ملائكة، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالمطر ملائكة، ووكل بالنفخ في الصور ملائكة، ووكل بالأرحام ملائكة تتولى أمر النطفة من حين استقرارها في الرحم إلى حين تخرج منه بشرًا سويًا، وقوله تعالى: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]، المراد الملائكة تقسم الأمور وتدبرها بإذن الله، فأمّا من غير إذنه فلا، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

فهذه خمسةُ أيمان، أقسمها الله تعالى، وجواب القسم محذوف، تقديره: إنّ البعثَ حقّ، وإنكم مجزيون بأعمالكم، وقد صرّح ربنا سبحانه بجواب القسم في موضع آخر، حيث قال سبحانه: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلاَتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾، متى يقع ؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ والراجفة: النفخة الأولى، نفخة الفناء، التي تنفطر منها السماء، وتنشق الأرض، وتسير الجبال سيرًا، والرادفة: النفخة الثانية، نفخة الإحياء، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾.

ثم ذكر تعالى حال بعض الناس ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾، فقال: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ أي خائفة ﴿تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ ولذلك ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ ذليلةٌ منكسرةٌ، كما قال تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، ﴿أَوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾، أما المؤمنون، فهم آمنون مطمئنون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِيمَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ يعني: يقول الكافرون: أئنا لمردودون في الحافرة: أي راجعون إلى الحياة مرة ثانية بعد الموت، فالمراد بالحافرة الحياة، والعربُ تقول: رُدّ فلانٌ إلى الحافرة، أي رجع إلى سيرته الأولى، وقولهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ استبعاد للبعث والرجوع إلى الحياة بعدما صاروا ترابًا، وهذا كقول أحدهم للرسول ﷺ وقد جاءه بعظم قد رم، ففتته ثم زراه في الهواء، وقال: يا محمد أتزعم أن ربك يُحيي هذا العظم بعد ما رم، فقال ﷺ: «نعم، ويبعثك ويدخلك جهنم». ونزلت الآيات: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ الآيات، وقولهم: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ يعنون أنه لو كان كما يقوله ﷺ من البعث والرجوع إلى الله حقًا، لكانوا هم الأخسرين في هذه الرجعة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾، والمراد أنه أمرٌ واحدٌ من الله لا يتكرر، فإذا الناس جميعًا قيام ينظرون، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وذلك أنّ الله يحيي إسرافيل ويأمره أن ينفخ النفخة الثانية، ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾، وقال هنا: ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ أي الأرض المبدلة، بيضاء نقية، ووصفت بالساهرة لأنه لا نوم عليها، فمتى بعث الناس فلا نوم ولا موت، وإنما هو السهر الدائم في الجنة أو في النار، والعرب تصف الأرض التي ينزل بها ولا تنام فيها بالساهرة.

وللحديث بقية بإذن الله.

سورة النازعات

الحلقة الثانية

يقول تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: ١٥-٢٦]

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

تفسير الآيات

المقصود من ذكر هذا الطرف من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون حثُّ النبي ﷺ على الصبر على ما يلقاه من الأذى والتكذيب؛ لأنَّ الله تعالى سيجعل العاقبة له كما جعلها مِنْ قبلُ لموسى - عليه السلام - وسيهلك من كذبه كما أهلك فرعون لما كذب موسى، وقد استفتحت الآيات بهذا السؤال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ أي: هل أتاك يا نبينا حديث أخيك موسى الكليم؟ وهو سؤالٌ للتشويق، يستخدمه الناسُ في أحاديثهم، ليملك المتكلم مشاعر السامع وأحاسيسه، ويأخذ بسمعه وقلبه ! ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وطوى اسمٌ للوادي المبارك المطهر، الذي بأسفل جبل الطور، الذي كلّم اللّهُ عليه موسى، وناداه: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾، وهذا النداءُ المختصر هنا قد فُصِّل في سورة طه، قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٩- ٢٤]، والطغيان معناه مجاوزة الحد، والإسراف في الكفر والمعصية والظلم، ولكن انظر إلى الأسلوب الذي يأمر الله موسى - عليه السلام - أن يخاطب به هذا الطاغية: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ

﴿تَزَكَّى﴾ هكذا ؛ بأسلوب العرض اللطيف الطيب، كما تقول أنت لأخيك: هل لك أن تزورنا؟ هكذا مجرد عرض لطيف، من غير إلحاح ولا إزعاج، ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ أي: تتطهر من دنس الكفر بالإيمان، ومن دنس الشرك بالتوحيد، ومن دنس المعصية بالطاعة، ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ فأنت عبدٌ لا ربٌّ، فهل أهديك إلى ربك فتخشاه، وتتقيه، فإنه سبحانه: ﴿أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]، وهكذا يجب أن يكون أسلوب الدعاة، يجبُ على الدعاة أن يكونوا هينين لينين، فإنّ القول اللين أدعى للقبول، ولذا قال تعالى لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:٤٤]،وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولقد كان النبي ﷺ يحثّ على الرفق واللين فيقول :«إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه».

[صحيح: رواه مسلم وأبو داود]

ويقول ﷺ: «إنّ اللّه رفيق يحبّ الرفق، ويُعطي على الرفق ما لا يُعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه». [رواه مسلم وأبو داود واللفظ لمسلم]

فلابد للدعاة من الأخلاق الحسنة، ولابدّ من الأسلوب الطيب، والكلمات الطيبة، والعبارات الحسنة، ولو مع أظلم الخلق وأفجرهم، فمهما كان ظلمُ الظالم، وفجور الفاجر، فلن يكون أظلم من فرعون، ولا أفجر منه، ومع ذلك فالله تعالى يقول لموسى - عليه السلام - : ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ وفي السياق اختصار ظاهر، اقتضته الفصاحة والبلاغة؛ إذ ليس من البلاغة التفصيل في موضع الإجمال، ولا العكس، والمعنى: أنّ موسى عليه السلام لما جاء فرعون ودعاه إلى الإيمان أراه الآية الكبرى على صدقه، وهي العصا؛ ألقاها فإذا هي ثعبان مبين، ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى﴾، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤-٤٨].

أمّا فرعون فقد انطلق يهدد ويتوعد، ويقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾، ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩]، ولكن الله ما كان ليذره يفسد في الأرض بعد ما أنذره، ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أي: انتقم الله منه انتقامًا جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين، فأما أخذه في الدنيا فكما قال تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾[الإسراء:١٠٣]، أما في الآخرة فإنه ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨]، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾، فأهل الخشية هم الذين ينتفعون بآيات الله، وينتفعون بالمواعظ، وتنفعهم الذكرى، أما الجبابرة الطغاة الذين قست قلوبهم فإنهم ﴿إِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ(١٤)﴾ [الصافات: ١٣، ١٤]، ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢].

نسأل المولى سبحانه وتعالى العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة النازعات

الحلقة الأخيرة

يقول الله تعالى: ﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات].

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

تفسير الآيات

هذا برهانٌ من البراهين التي يستدلّ بها على إمكان البعث، وعلى أن الله يحيي الموتى، والمعنى: أن الله خَلَقَ من الخَلْق ما هو أشد وأعظم منْ خلق الإنسان، ومَنْ قدر على خَلْق هذا فلن يعجز عن إعادة الإنسان بعد مماته.

﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾؟ ومَنْ هم بجانب السماء؟ السماء أشدّ خلقًا، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، فالسماء أشد خلقًا، والله «بناها» فكيف يَعْجَزُ أن يعيدكم تارةً أخرى؟ ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١]، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾ وما بعده تفسيرٌ لقوله: ﴿ بَنَاهَا ﴾، والمراد: أنه جعلها عالية البناء، مستوية الأرجاء، ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٣، ٤].

خلق الله الأرض والسموات

وقوله تعالى: ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ﴾ أي جعله مظلمًا مُعتمًا، ﴿ وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴾، وجعل ضحاها منيرًا مشرقًا، ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ أي سوّاها لعباده، وجعلها لهم مَهْدًا، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ [الزخرف: ١٠]، وكما قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧، ٤٨]، قال العلماء: كان خَلْقُ الأرض قَبْلَ خَلْق السماء، وكانت تسويتها بعد خَلْق السماء، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩- ١٢].

فهذه الآيات بمجموعها تفيد أنّ الله تعالى خَلَقَ الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سَبْعَ سموات في يومين، ثم دحا الأرض في يومين، فهذه ستة أيام، كما

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

وقال بعض العلماء: قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ يفسره ما بعده: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أي ثبتَّها في أماكنها فثبتت بها الأرض، ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ أي: دحا الأرض، فأنبع عيونها، وأظهر مكنونها، وأجرى أنهارها، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ويقر قرارُها، كل ذلك متاعًا لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم إليها في الدار إلى أن ينتهي الأمدُ، وينقضي الأجل. ﴿فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠].

الطامة الكبرى

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ أي الداهية العظيمة، وهي يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تطمّ كل داهية، وتعلو عليها، فكلّ ما رأيته يا عبد الله في الدنيا من شدائد، فشدة الآخرة أعظم منها، وما من داهية دهتك إلا والآخرة أدهى منها، قال تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]، يوم تجيء الطامة الكبرى يفيق الإنسان من غفلته، وينتبه من رقدته، ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، ولذا قال تعالى هنا: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾، كما قال تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣].

فيا عباد الله: أفيقوا من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم، قبل أن يقال فلانٌ عليل، أو مُدنفٌ ثقيل، فهل إلى الدواء من سبيل ؟ وهيهات هيهات، قد انتهى الأجل، وحان وقت الفراق، ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١]. ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٣- ٥٨].

الخوف من القيام بين يدي الله

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾، أي أُظْهِرَتْ للناظرين فرآها الناسُ عيانًا، وصدق اللَّهُ وعده حيث قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

فإيّاك - يا عبد الله - والاغترار بالدنيا ؛ «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» [البخاري: ٦٤١٦]. ولا تجعل الدنيا أكبر همك، ولا تُؤثر ما يفنى على ما يبقى، واعلم أن الآخرة خيرٌ من الأولى، فاعمل لها عملاً صالحًا لتفوز بخيري الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي خاف من القيام بين يدي الله للسؤال، ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ خوفًا من هذا المقام، ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾، واتباع الهوى أعظمُ مصيبةٍ يُبتلى بها عبدٌ، ولذا قال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦]، قال العلماء: المعاصي كلها سببها أمران: الجهلُ والهوى، فالجهل أمره هين، لأن الجاهل يتعلّم، وأما الهوى فمعصيةٌ عظيمة، لأنه يكون مع العلم، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

سؤال المشركين عن الساعة

ولقد كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن الساعة استعجالاً لها، لشدة تكذيبهم بها، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾؟ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾؟ من أين لك العلم بها؟ وهي من علوم الغيب، التي لا يعلمها إلا الله، ولذا قال تعالى: ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]. (البخاري رقم (٥٠) من حديث أبي هريرة)، ولذا لما سأل جبريل النبي ﷺ عن وقت الساعة، قال: «ما المسئول عنها بأعلمَ من السائل». وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس:١١]، فالواجب الخوف من الساعة، والاستعداد لها، لا السؤال عنها، ولذا قال رجل للنبي ﷺ : متى الساعة ؟ قال له النبي ﷺ : «ما أعددت لها؟». ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٧، ١٨]، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ يعني أنهم يستقصرون مدة الحياة الدنيا، إذا قاموا من قبورهم، وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا ﴿إِلاَّ عَشِيَّةً﴾، وهي ما بين الظهر إلى غروب الشمس، ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار، والله أعلم.

سورة عبس

الحلقة الأولى

يقول الله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١- ١٦].

إعداد

د: عبدالعظيم بدوي

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، تعالج في بدايتها حادثًا معينًا من حوادث السيرة: كان النبي ﷺ مشغولاً بأمر جماعةٍ من كُبَراء قريش يدعوهم إلى الإسلام، حينما جاءه ابنُ أم مكتوم، الرجلُ الأعمى الفقير، وهو لا يعلم أنه مشغولٌ بأمر القوم، يطلبُ منه أن يعلِّمَه مما علمه الله، فكَرِه رسول الله ﷺ هذا، وعبس وجهه وأعرض عنه، فنزل القرآنُ بصدر هذه السورة يعاتب الرسول ﷺ.

ثم تعالج جحود الإنسان وكفره الفاحش لربه، وهو يذكره بمصدر وجوده، وأصل نشأته، وتيسير حياته، وتولي ربه له في موته ونشره، ثم تقصيره بعد ذلك في أمره، كذلك تعالج توجيه القلب البشريّ إلى أمسّ الأشياء به وهو طعامه وطعام حيوانه، وما وراء ذلك الطعام من تدبير الله وتقديره له، كتدبيره وتقديره في نشأته.

فأما في نهايتها فتتولى عرض «الصاخة» يوم تجيء بهولها، الذي يتجلّى في لفظها، كما تتجلى آثارها في القلب البشري الذي يذهل عمّا عداها، وفي الوجوه التي تتحدث عما دهاها.

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى (١) أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ قال العلماء: في ذكر الكلام بأسلوب الغيبة دون الخطاب ملاطفةٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ، إذ لو خاطبه لكان الخطابُ شديدًا على نفسه ﷺ، فعدل الله تعالى عن الخطاب إلى الغيبة رفقًا بنبيه ﷺ في العتاب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ أي: ما يُدريك لعلّ هذا الأعمى الذي جاءك يسعى، لعله يتزكّى بما جاء يطلبُه من علم الله الذي عندك، أو ينتفع بما تذكره به من الهدى ودين الحق الذي أرسلك الله به.

ثم تشتد لهجة العتاب، وينتقلُ إلى التعجيب من ذلك الفعل محل العتاب: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ عن ربه بماله، واستغنى عنك وعما بعثك الله به من الهدى ودين الحق، ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ تتعرض له، وتجتهد على هدايته، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ أي: ليس عليك من حسابه شيءٌ إنه كذّب وتولى، فَلِمَ هذا الحرصُ على هدايته وقد استغنى؟! ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ يلتمس ما عندك من العلم ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ اللهَ ويخافُه، ويحذرُ عقابَه، ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ بمن عندك من المشركين، وتُعْرِضُ عنه فلا تُقْبِل عليه، «كلاّ» هذا لا يجوز، ولا ينبغي أن يكون، ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، فلا تَعُدْ لمثلها أبدًا، ولا تُعْرِضْ عمن أقبل عليك، ولا تتصدّى لمن تولى عنك، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٣٩]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي: فمن شاء ذكر الله في جميع أموره، أو ذكر هذا الوحي فاتبعه، وقوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ يعني أنّ هذه التذكرة أو هذا التنزيل محفوظٌ ﴿في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ أي: معظمة موقرة، ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ أي: عالية القدر، ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ من الدنس والزيادة والنقص، ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ يعني: ملائكة الوحي، الذين هم سفرةٌ بين الله ورسله، وأخصهم جبريلُ عليه السلام، وكلهم ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ أي: خَلْقُهم كريم، حَسَنٌ شريفٌ، وأخلاقهم وأفعالُهم بارةٌ طاهرة، وهذه الآيات كقوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥- ٨٠].

قال العلماء: في مجيء الأعمى إلى النبي ﷺ إشارةٌ إلى حقيقةٍ أنّ العَمَى عمى القلب، الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فهذا الأعمى لم يمنعه عمى عَيْنَيْهِ من السعي إلى رسول الله ﷺ طمعًا في تعلّم الهدى ودين الحق الذي بعثه الله به، بينما قعد كثيرٌ من ذوي الأبصار، الذين عَمِيت بصائرُهم عن الحق، وصُمّت آذانُهم عن آياته.

قالوا: وفي عتاب الله لنبيه على ما كان منه من إعراضٍ عن الأعمى تعليمٌ للدعاة أنه لا يجوزُ لهم أن يهتموا ببعض الناس دون بعض، لغنى، أو جاهٍ، أو رياسةٍ، أو سلطان، بل يجبُ عليهم أن يسوّوا بين جميع الناس، وأن يُقبلوا على من أقبل عليهم، ويُعرضوا عمن أعرض عنهم، فإن أكرم الناس عند الله أتقاهم، وكم من فقيرٍ خيرٌ من ملء الأرض من الأغنياء الذين كذّبوا بالكتاب، وبما أرسل الله به رسله.

وقال العلماء في وصفِ الله السفرة - حملةَ الوحي - بأنهم ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ إشارةٌ إلى أنه ينبغي لحامل القرآن من الناس أن يكونَ بارًا كريمًا، وأن يسلُكَ سبيلَ الرشاد، ويجتنب سبيل الغيّ والضلال، وأن يتخلّق بالأخلاق الحسنة، ويجتنب الأخلاق السيئة. وقال ابن مسعود- رضي الله عنه-: ينبغي لحامل القرآن أن يُعْرَفَ بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مُفطرون، وبحُزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون.

فاللهم اجعلنا من الحاملين لكتابك، العاملين به، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

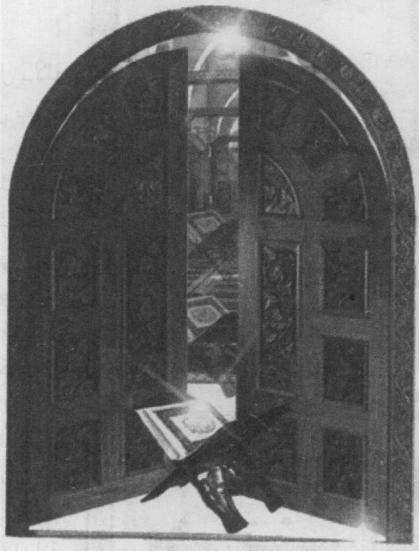

إعداد
د/ عبد العظيم بدوي

سورة عبس

الحلقة الثانية

يقول الله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ١٧- ٤٢].

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ المرادُ بالإنسان هنا الكافر، بدليل تعجب الله سبحانه من كفر هذا الإنسان: ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ أي: ما أعظم كفره! أو ما أكثر كفره! في حين أنّ دلائل الإيمان ماثلةٌ أمام عينيه، لا تخفى على مَن كان له أدنى نصيب من نور البصيرة، وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ﴾ دعاءٌ عليه بالموتِ والهلاك، ودعاءُ الله قضاء محكم، وأمر مُبرم.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ تنبيهٌ للإنسان الكافرِ على أصل نشأته، الذي هو دليلٌ واضحٌ على وجود خالقه، واستحقاقه للعبادة، ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾، وهذه الآياتُ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥- ٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤]، أفلا يدلّ ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟! ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ اختلف العلماء في المراد بالسبيل، فقال بعضهم: السبيل هنا هو طريقُ خُروجه من بطنِ أُمّه إلى هذه الدنيا، فتأمّل كيف يكونُ الجنين في بطن أمه قاعدًا رأسُه إلى أعلى، فإذا جاء وقت خروجه انقلب على رأسه فكان إلى أسفل، حتى يخرج به، وتأمل كيف يتسع هذا المكان الضيق حتى يسمح بخروج

مثل هذا الرأس منه، ولولا أنّ الله يسّره ما تيسّر.

وقال بعضُ العلماء: المراد بالسّبيل هنا طريق الخير وطريق الشّر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣]، وكما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي بينا له الطريقين: طريق الخير وطريق الشر.

وكلا القولين مقبول، وكلاهما مراد، لأنّ الله تعالى عمّ ولم يخصّص.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقد أكرم اللهُ الإنسان «فأقبره» بعد موته، وجعل دفْنَه فَرْضًا على الأحياء، ولم يشأ الله سبحانه أن يجعل الإنسان بعد موته كسائر الميتات تُلْقَى على القمائم ونحوها فتأكلها السباع، وهذا مِنْ إكرام الله تعالى للإنسان، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ أي: بعثه بعد موته، والبعث والنشور واحد، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ فيه للعلماء قولان: الأوّل: أنّ الإنسان لم يقم بما أمره الله به حقّ القيام، بل هو مقصر أبدًا، وتقصير العاصي ظاهر، أما المطيعُ فإنّه مهما اجتهد في الطاعة فهو مقصرٌ، لأن حقّ الله عظيم، وقد أعلم اللهُ عباده بذلك فقال في آخر سورة المزمل: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾، ثم قال سبحانه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ [المزمل: ٢٠]، فإنكم مقصرون وإنْ أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، وأقرضتم الله قرضًا حسنًا، وقرأتم القرآن، فإنكم مقصرون، فاستغفروا الله.

بل أصرحُ من ذلك أنّ الله تعالى جمع بين الأمر بالاستقامة والأمر بالاستغفار، فقال: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

والقول الثاني: أن قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ متعلّق بما قبله، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ والمعنى: أنه لم يتمّ بعدُ ما سبق به قضاءُ الله مما أمر أن يكون، فلذلك لا ينشر الناس ولا يبعثهم ولم يقض ما أمره، بل يؤخّر بعثهم حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، ويومها يتحقق وَعْدُ الله بالبعث والنشور.

قال العلماء: في هذه الآيات إشارةٌ إلى الاستدلال بالنشأة الأولى على إمكان الثانية، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]، وقد سبق بيان ذلك قريبًا، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ أي ليتأمل فيه كلما قُدم له، ولينظر في الخطوات التي قطعها خطوةً خطوةً حتى وصل إليه في هذه الحال التي هو عليها بين يديه، ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أي: أنزلناه من السماء على الأرض، ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾، فشقّ الماءُ الأرض وتخلّل تربتها، فنبت الحبُّ المودعُ فيها وارتفع حتى شقّ الأرض وظهر عليها، ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ والحبّ والعنبُ معروفان، أما القضبُ فهو النباتُ الذي يؤكلُ رطبًا غضًا، ويُقْطعُ مرةً بعد أخرى، وجذوره في الأرض، كلما قُطعَ عاد، وهكذا، وقوله تعالى: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أي: كثيرةَ الأشجار، قد التفّ شجرها بعضُه على بعض، ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ والأبُّ: هو ما يخصّ البهائم مما ينبت في الأرض، ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾: الصاخة هي صيحة يوم القيامة، هي النفخة التي ينفخها إسرافيل عليه السلام، سُميت كذلك لأنها تَصُخُّ الآذان من شدّتها، وتَحدُثُ بسببها أهوالٌ عظام تجعلُ الإنسانَ ينشغل بنفسه عن أقرب الناس منه، وأحبّهم إليه، ولذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ قال العلماء: بدأ الله سبحانه بذكر الحبيب ثم الأحبّ، فالأخ حبيب، لكنّ الأبوين أحبّ، والزوجة أحبّ منهما، وأحبّ منها البنون، فإذا فرّ الإنسان من بنيه وهم أحبّ شيء إلى نفسه فلن يسأل عن غيرهم، لأنه قد أتاه ما يَشْغَلُه بنفسه عن كل شيء، ولذا قال تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ حتى إنّ الإنسان لينشغل بنفسه عن رؤية من حوله، ولذا لما قال النبي ﷺ: «يُحْشَرُ الناس يومَ القيامة حفاةً عراةً غرلاً». قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، النساء والرجال جميعًا، ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ: «يا عائشة، الأمرُ أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض». ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

الله أكبر ! ما أشدّ هول هذا اليوم ! أيّ هول هذا الذي يعمي الإنسان حتى لا يرى مَنْ حوله ولا يعرفهم! نسأل الله السلامة والعافية.

وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ أي أنّ الناس في هذا الموقف يكونون قسمين: وجوهٌ مسفرةٌ أي: مستنيرة، ضاحكة مستبشرة أي مسرورة فرحة، ووجوهٌ مسودة عليها غبرة ترهقُها قترة، عياذًا بالله.

وهذه الآيات كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢- ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٢-١٠].

نسأل الله أن يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويجعلنا من ورثة جنة النعيم.

باب التفسير

إعداد /
د. عبد العظيم بدوي

سورة التكوير

يقول الله تعالى: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (٦) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (٧ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (٩) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (١٠) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (١٤) فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ «التكوير: ١-٢٩».

بين يدي السورة

سورةٌ مكيةٌ، وهي إحدى سور ثلاثٍ قال عنها النبي ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنّه رأيُ عَيْنٍ فليقرأْ: إذا الشمس كورّت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت». «صحيح، رواه: ت(٣٣٨٩/١٠٤/٥)».

والسورة قد انقسمت قسمين: الأول: يتحدث عن أهوال يوم القيامة. والثاني: يتحدّث عن الوحي وَأَمِينَيْه: جبريلَ ومحمد، عليهما السلام.

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ التكوير هو لفّ الشيء بعضه على بعض، كتكوير العمامة، ويومَ القيامة يجمعُ الشمس والقمر، ثم يكوّران ويُرْمَى بهما في البحار فإذا هي نارٌ موقدة. ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أي سقطت من مواقعها، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ «الانفطار: ٢»، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ من أماكنها، فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ «الواقعة: ٦»، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ «الكهف: ٤٧»، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ «النبأ: ٢٠»، ثم تذهب بالكلية فلا يبقى لها عينٌ ولا أثر، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا﴾ «طه: ١٠٥ - ١٠٧»، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي: أهملَها أهْلُها وتركوها فلم يسألوا عنها، وكانت أحبّ

شيءٍ إليهم، والمراد بالعِشَار الحواملُ من الإبل، وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جُمِعَتْ وأُحْضِرت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ «الأنعام: ١٣٨».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: أُوقدت فاشتعلت نارًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ «الانفطار: ٣»، فانفصلتْ ذرّاتُ الأيدروجين عن ذرّات الأكسوجين، فوقع انفجارٌ عظيم، لا يتصوّره أحد، والناس قد جرّبوا أهوالَ تفجير القنابل الذّرية والأيدروجينية، وما عرفوه من ذلك لا يُعَدُّ شيئًا بالنسبة لتفجير البحار يومَ القيامة، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ كقوله تعالى: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ «الصافات: ٢٢»، والمراد جَمْعُ كل نظير إلى نظيره، وجمعُ أصحابِ العمل الواحد بعضِهم مع بعض، فيكون الرجلُ الصالحُ مع الرجلِ الصالح، والرجلُ السّوءُ مع الرجلِ

يوم القيامة تجمع الشمس والقمر ثم يُكوَّران كتكوير العمامة، ويُرمى بهما في البحار فإذا هي نار موقدة، وتسقط النجوم من مواقعها، وتسيَّر الجبال ثم تنسف بالكلية فلا يبقى لها عين ولا أثر!

السّوء، وهكذا. كما قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاَثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ «الواقعة: ٧-١٠».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (٨) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ كان العربُ يكرهون البنات، وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ «النحل: ٥٨، ٥٩»، فكان الرجلُ إذا وُلِدَتْ له بنتٌ إمّا أن يعجّل بوأدها، وإمّا أن يتركَها حتى إذا كَبِرَتْ سنُّها، وبدا جمالُها، قال لأمها: زينيها، فإني أُريد أن أزورَ بها أعمامَها، فتزينها أمها، فيذهب بها إلى الصحراء، فيأتي بها بئرًا، فيقول لها: انظري، فإذا نظرتْ دفعها، ثم ردم البئر، وكان الذي يحملهم على هذا خوف الفقر أو خوف العار، فنهاهم الله عنه، وأخبر أنّ هذه الموءودة ستُسأل: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾، وفي هذا تهديدٌ شديدٌ لهم، فإنه إذا سُئِل المظلومُ، فما بالك بالظالم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ أي: أعطى كلّ إنسان صحيفة عمله بيمينه أو بشماله، وما منّا إلا له حافظان، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ «ق: ١٧، ١٨»، فإذا مات العبدُ طُوِيت صحيفتُه، وجُعِلَتْ في عُنُقِه، حتى إذا بُعث نُشِرَتْ له، وهذا هو قول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ «الإسراء: ١٣، ١٤»، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ «الكهف: ٤٩».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أي: أُزيلت، فالكَشْطُ الإزالة، تَكْتُبُ كلمةَ لا تُعْجِبُك فتكشطها أي تزيلها، ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي: أُحْمِيتْ، ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي: أُدْنِيتْ من المتقين، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ «الشعراء: ٩٠، ٩١»،

وجوابُ الشرط قولُه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ أي: إذا وقعتْ هذه الأمورُ كلها حينئذٍ تعلم كلُّ نفسٍ ما عملتْ من خيرٍ وما عملتْ من سوء.

قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ كان المشركون يزعمون أن القرآنَ كلام محمدٍ وليس كلام الله: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ «الفرقان: ٥»، فاقسم اللهُ أنه كلامُه، نزلَ به أمينُ السماء جبريلُ عليه السلام، على أمين الأرض محمدٍ ﷺ، فلم يحدث فيه تغيير ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان.

قوله تعالى:﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ أي: النجوم التي تَخْنُسُ بالنهار، أي: تغيب وتختفي. ﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾: النجوم تجري في منازلها بالليل ثم تكنسُ آخرَه، أي: تختفي عن الأنظار عند مغيبها قبل طلوع الفجر، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ لفظ عَسْعَسَ يصحّ استعمالُه في الإقبالِ والإدْبار، واستعمالُه في الإقبالِ هنا أرجح، ليناسبَ ما بعده،﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فيكون الربّ سبحانه قد أقسمَ بإقبالِ الليلِ وبإقبالِ النهار، كما قال تعالى:﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ «الليل: ١، ٢».

وجواب القسم:﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: جبريل عليه السلام، قال العلماء: جرتْ عادةُ الملوك والأمراء أن يختاروا لتبليغ الأمورِ المهمة أشرفَ الرسل، وأقربهم منهم، وأعلاهم منزلة لديهم، ولذلك اختار اللهُ تعالى جبريلَ عليه السلام لتبليغ وَحْيه إلى مَن اصطفى مِنْ رسله، ووَصفَه بأشرفِ الصفات وأفضلها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ أي: إنّ هذا القرآنَ لتبليغُ رسولٍ كريم، أي مَلَك شريف، حَسَن الخَلْق، بهيّ المنظر، ذِي قُوَّةٍ﴾ كما قال تعالى:﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ «النجم: ١- ٦»، ومن قوّة جبريل عليه السلام أنه رفع قرى قومِ لوطٍ إلى السماء ثم قَلَبها، فجعل عاليها سافلَها، ومن قوّته عليه السلام أنه صاح بقوم ثمود ﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ «القمر: ٣١».

وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ يعني: أنّ له مكانةً خاصةً عند الله تعالى، ومنزلةً عالية، وهو عليه السلام لذلك﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: مُطاعٍ هناك في الملأ الأعلى من الملائكة، وهو عليه السلام «أَمِينٌ» على ما حُمّل من الوحْي، وهذه تزكيةٌ من الله لرسوله المَلَكيّ، أتْبَعها بتزكيةِ رسوله البشريّ محمدٍ ﷺ، فقال:﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ فهو صاحبُكم، وأنتم أعلمُ الناسِ به، فقد نشأ بَيْنَكم، وتربى في أكنافكم، وأنتم الذين لقبتموه بالصّادق الأمين، وأنتم الذين شهدتم برجحان عقله حين حكّمتموه بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، فكيف جعلتموه الآن مجنونًا:﴿ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ «يس: ١٩»، ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.

كان أهل الجاهلية يقتلون بناتهم خوف الفقر أو العار وهذه هي الموءودة، التي قتلت بلا ذنب، فإذا كانت سيسألها الله وهي مظلومة، فكيف يكون وقعُ السؤال على ظالمها يا ويله، تبًا له.

يُقسم الله تعالى بالنجوم الخنّس في النهار وكذا بالليل، وبالصبح، على أن القرآن من عنده نزل به جبريل على قلب رسولنا ﷺ، فلم يحدث فيه تبديل ولا زيادة ولا نقص لأنه سبحانه تكفل بحفظه عن التغيير والتبديل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ أي: رأى محمدٌ ﷺ مُعَلِّمَهُ الأمينَ جبريلَ وهو بالأفق البيّن الواضح، لا يحولُ بينَ رُؤْيته شيءٌ، رآه على صورته الملائكية، له ستمائة جناح قد سدّ بها الأفقَ، وذلك في المرّة الأولى بأجياد، في مكة، عند البيت العتيق، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ «النجم: ١٣، ١٤»، وذلك ليلةَ المعراج.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾: قُرِئَ لفظُ ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضاد، وقُرِئَ بالظاء، فعلى القراءة الأولى يكون المعنى، وما هو على الغيب وهو الوحي الذي أوحاه الله إليه ببخيل، بل هو يبذله لكل أحد، ومِنْ غَيْرِ طلب، فقد علّمكم ما علّمه الله، وبلّغكم ما أمره الله أن يبلّغكموه، ولم يكتم شيئًا، ولا بخل بشيء.

وعلى قراءة الظاء ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾ يكون المعنى: وما هو بمتهم فيما بلّغكموه، فقد بلغكم بأمانة، من غير تبديلٍ ولا تغيير، ولا زيادة ولا نقص.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ أي: ليس القرآنُ مِنْ قول الشيطان، ولا يقدر الشيطانُ عليه ولا يريده؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ «الشعراء: ٢١٠، ٢١٢»، ولقد أخبر الجنُّ أنفسهم أنهم ما علموا بالقرآن حتى استمعوه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلقَ رسول الله ﷺ في طائفةٍ من أصحابه عامدين إلى سوقِ عُكَاظٍ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرْسِلَتْ عليهم الشُّهب، فرجعتِ الشياطين، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرْسِلَتْ علينا الشهب. قال: ما حالَ بينكم وبين خبرِ السماءِ إلا ما حدث، فاضْرِبُوا مشارقَ الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمرُ الذي حدث؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها، ينظرون ما هذا الأمر الذي حال بينهم وبين خبر السماء؟ قال: فانطلق الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ بنخلة وهو عامد إلى سوق عكاظ، وهو يصلّي بأصحابه صلاةَ الفجر، فلما سمعوا القرآنَ تسمّعوا له. فقال: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك رجعوا إلى قومهم فقالوا: (يا قومنا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا، يهدي إلى الرشد فآمنا به، ولن نشرك بربنا أحدًا)، وأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾؟ هو كقولك للرجل يضلّ عن الطريق: أين أنت ذاهب؟ ليس هذا طريقك. الطريق هو هذا. فالله يقول للقوم الضالين، ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه، وبيان كونه من عند الله حقًا؟

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: هذا القرآن ذكرٌ لجميع الناس، ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾، ومشيئةُ العبد مرتبطةٌ بمشيئةِ الله، «وكل شيء يجري بتقدير الله تعالى ومشيئته، ومشيئتُه تنفذ، لا مشيئةَ للعباد إلى ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يكن يشأ لم يكن، يهدي من يشاءُ ويَعْصِم ويُعافي فضلاً، ويُضلّ من يشاء ويخذلُ ويبتلي عَدْلاً، وكلّهم يتقلّبون في مشيئته بين فضله وعدله». [العقيدة الطحاوية]، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

والحمد لله رب العالمين.

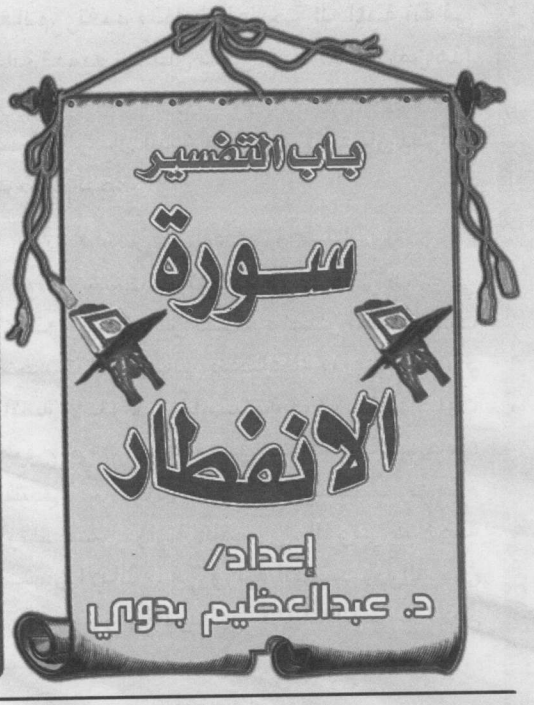

يقول الله تعالى:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾

(الانفطار: ١- ١٩).

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، وهي إحدى السور الثلاثِ التي قال عنها النبي ﷺ: «مَن سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنَّه رأيُ عَيْن فليقرأ: إذا الشمس كورت، وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت». (عزاه الألباني إلى أبي يعلى وصححه في صحيح الجامع).

استُفتحت السورةُ بالحديث عن بعض التغيرات الكونيّة التي تكون إذا نفخ في الصور، ثم وجهت طرفًا من العتاب المشوب بالوعيد للإنسان الذي يجحد فضل ربه ويكفره، وبينت أن التكذيب بيوم الدين هو سببُ هذا الجحود، ثم تحدثت عن يوم الدين وانقسام الناس فيه إلى قسمين: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (الشورى: ٧).

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ أي: تصدّعت وانشقّت من هولِ يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ (المزمل: ١٧، ١٨)، ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ أي: تساقطت من منازلها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ (التكوير: ٢)، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾، فجر الله بعضها في بعض، فاختلط عذبُها بملحها، أو حصل فيها انفجار ذري هائل، كما سبق بيانه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ أي: تحركت فألقت ما فيها، كما قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ (العاديات: ٩)، أي: أُخرج من فيها من الأموات، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (الانشقاق: ٣- ٥).

وقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ هو جواب الشرط لما سبق، وتقدير الكلام: إذا حصل هذا كلّه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلاَّ لاَ وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (القيامة: ٧- ١٣) يعني: بما قدّم من أعمال في حياته، وما أخّر من أعمال بعد مماته، وذلك أنّ الإنسان لابد أن يترك وراءه أثرًا في الناس، فإنْ كان خيرًا أتاه من ثوابه إلى يوم القيامة، وإنْ كان شرًا أتاه من آثامه إلى يوم القيامة، ولذا قال النبي ﷺ: «من سنّ في الإسلام سنةً حسنةً فعُمل بها بعده، كُتب له مثلُ أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في

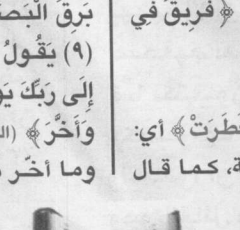

من علم الحفظة علمهم بإرادة العبد وما يهم به وإن لم يعمله، لذا قال الله عز وجل: «إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها سيئة، وإذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرا».

الإسلام سنةً سيئةً فعُمل بها بعده، كُتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزراهم شيء».

(رواه مسلم).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾، يا أيها الإنسان الذي تكرّم عليك ربك، راعيك ومربيك، بإنسانيتك الكريمة الواعية الرفيعة، يا أيها الإنسان، ما الذي غرّك بربّك، فجعلك تقصّر في حقه، وتتهاون في أمره، ويسوءُ أدبك في جانبه ؟ وهو ربك الكريم، الذي أَغْدق عليك من كرمه وفضله، ثم يفصّل شيئًا من هذا الكرم الإلهي، الذي أجمل في النداء الموحي العميق الدلالة فيقول سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ فأخرجك من العدم إلى الوجود، ووهبك نعمة الوجود، ومعنى قوله: ﴿فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ أي سوى خلقك، فما جعل يدًا أطولَ من يد، ولا قدمًا أقصر من قدم، وما جعل عينًا أوسع من عَين، ولا أُذنًا أسمع من أُذُن، وإنما ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ أي: جعلك سويًا مستقيمًا معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤).

وقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ في صورة آبائك أو في صورة أعمامك، أو في أي صورة شاءها، ولذلك لما جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ يقول: يا رسول الله، وُلد لي غلامٌ أسود، كأنّه يعرض بنفي أن يكون منه، لاختلافِ صورته، فقال له النبي ﷺ: «لك من إبل ؟» قال: نعم. قال: «ما ألوانها ؟» قال: حُمر. قال: هل فيها من أورق ؟- وهو الذي فيه سوادٌ ليس بحالك، بل يميل إلى الغبرة - قال: نعم. قال: «فأنى ذلك؟» قال: لعله نزعه عِرْقٌ، قال: «فلعلّ ابنك هذا نَزَعَه عِرْقٌ». (متفق عليه).

والمراد بقوله: نَزَعه عِرْقٌ: يعني: لعلّ في أُصولِه - آبائه - من هو بهذا اللون، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ١٤)، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (آل عمران: ٦) هو، لا كيف تشاءون أنتم، فما غرّك بربّك أيها الإنسان، وهذه أفضاله، وما غرّك به وهذه نعمه، وما غرّك به وهذا هو إحسانه إليك، ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ (الرحمن: ٦٠) ؟ قال ابن عمر رضي الله عنهما: غرّه والله جهله. وقال الله تعالى حكايةً عن أهل الإيمان أنّهم قالوا للمنافقين: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (الحديد: ١٤)، أي الشيطان، الذي حذّر الله منه العباد، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (فاطر: ٥).

وقوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ معناه: أن الذي حملكم على التجرؤ على الله، وإنكار نعمه، وجحود فضله، هو أنكم تكذّبون بالدين، وهو جزاء الأعمال، وتظنّون أنكم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم، ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لاَ رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ (الجاثية: ٣٢).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ يعني: يحفظون أعمالكم كلّها، دقّها وجلّها، ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ لا يغيب عنهم من أعمالكم شيء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

(ق: ١٦-١٨).

وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ (القمر: ٥٢-٥٣)، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩).

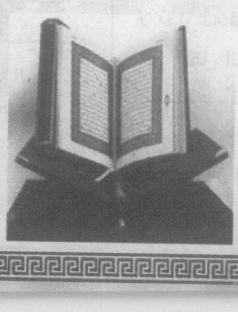

ومِنْ عِلْمِ الحفظةِ عِلْمهم بإرادة العبد وما يهم به وإن لم يعمله، ولذا قال رسول

البؤس والشقاء واليأس والتعاسة، والقلق والاضطراب، من جحيم الدنيا، وأما جحيم الآخرة فإن الفجار «يصلونها يوم الدين»، نعوذ بالله من ذلك.

الله ﷺ: «قال الله عز وجل: إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإنْ عملها فاكتبوها سيئة، وإذا همّ عبدي بحسنةٍ فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فإن عملها فاكتبوها عشرًا».

وأصرح من ذلك قوله ﷺ: «قالت الملائكةُ: ربّ، ذاكَ عبدُك يريد أن يعمل سيئة (وهو أبصر به)، فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنةً، وإنما تركها من جرّايَ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾: الأبرار جمع بارّ، وهو كلّ من جمع بين العقيدة الصحيحة والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧)، هؤلاء الأبرار في نعيم، في نعيم في الدنيا قبل نعيم الآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: ٩٧) فطيب الحياة هو نعيم الدنيا، وهو شيءٌ لا يُعْرف إلا بالمذاق، ولقد بلغ الحالُ ببعض الصالحين أنه كان يقول: إنّه لتمرّ بالقلب أحوالٌ، أقولُ: إن كان أهلُ الجنة في مثل ما أنا فيه إنّهم لفي نعيم، وكان بعضهم يقول: إننا لفي حال، لو اطلع عليها الملوكُ وأبناؤهم لجالدونا عليها. فهذا هو نعيم الدنيا، وهذه هي الحياة الطيبة، أمْنٌ، ورخاء، سعادةٌ، واستقرار، أمانٌ وطمأنينة، يجدها الأبرار، وإن ربطوا على البطون من الجوع الأحجار، أما الفجارُ فالله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ في جحيم في الدنيا قبل جحيم الآخرة تسمعُ بعض الناس يقول: الحياةُ صارت جحيمًا، لماذا ؟ لأنّ في الناس فجورًا، وفيهم فسوقًا، وفيهم عصيانًا، فلذلك صارت الحياةُ جحيمًا، ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٦)، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ (طه: ١٢٤)، وإنْ لَبِسُوا أَحْسَنَ الثياب، وركبوا أفخمَ المراكب، وإن سكنوا القصور وتزوجوا أجمل النساء، وإلاّ فلماذا يفرون إلى الانتحار ؟! لأنّ أفئدتهم هواء، وأوراحهم خواء، وشهوات الدنيا كلها لا توفر للروح الطمأنينة، ولا توفر للقلب الراحة، ما لم يكن القلبُ عامرًا بذكر الله، فإنه ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

فالبؤسُ، والشقاءُ، واليأسُ والتعاسةُ، والقلقُ، والاضطرابُ، هذا كله من جحيم الدنيا، وأمّا جحيم الآخرة فإنّ الفجار ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي: يصيرون إليها فتغمرُهم يومَ الحساب والجزاء، ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أي: لا يغيبون عن هذا العذاب ساعةً واحدة، ولا يخفّف عنهم العذاب ساعة واحدة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ سؤالٌ لتعظيم شان ذلك اليوم، وكُرِّر تأكيدًا لعظيم شأنه، ثم فسّره بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾، ولو كانت ذا قربى، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ (لقمان: ٣٣)، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: ٢٤-٢٧). ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ (فاطر: ١٨)، ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾، كقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر: ١٦)، وكقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ (الفرقان: ٢٦)، وقوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ (الأنعام: ٧٣)، ولله الأمرُ اليوم ويومَ الدين، ولكنّه يومئذٍ لا ينازعُه فيه أحد، ولذا قال النبي ﷺ: «يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهنّ بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سورة المطففين

إعداد/
د. عبدالعظيم بدوي

يقول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٣) كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧) كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، تتألّف من أربعة أقسام: يبدأ الأول بإعلان الحرب على المطففين، ثم يتلوه القسم الثاني فيذكر مآلَ الفجار، ويليه القسم الثالثُ يتحدث عن مآلِ الأبرار، وأما القسم الرابعُ والأخيرُ فإنّه يذكر ما كان عليه الفجار من استهزاءٍ بالأبرار، وكيف أن الأبرار في الآخرة يسخرون من الفجار كما كانوا منهم يسخرون: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾: هكذا تبدأ السورة بإعلان الحرب من الله العزيز القهار على المطففين: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ أي: ويلٌ لهم من عذابِ الله غدًا، ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ هذا تفسيرٌ للتطفيف الذي توعد الله عليه المطففين بالويل، والمعنى: أن المطففين إذا أخذوا وقوا

الكيل والميزان، وإذا أعْطَوا بَخَسُوا الناسَ حقَّهم في الكيل والميزان، وربما كان عندهم كيْلان وميزانان، يأخذُون بواحدٍ ويُعطون بالآخر، وهذه جريمةٌ أهلك اللَّهُ بها أمة شعيب: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٧]، ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ولذا كَثُر في القرآن الكريم الأمرُ بالوفاء والنهي عن التطفيف، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]،

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧- ٩]، وقد حذّر النبي ﷺ أُمته من هذه الجريمة، وبيّن أنها سببُ القحط والبلاء، فقال ﷺ: «يا معشر المهاجرين، خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يُعلِنُوا بها، إلا فشا فيهم الطاعونُ والأوجاعُ التي لم تكن مضتْ في أسلافهم الذين مضوا، ولم يَنْقصوا المكيالَ والميزانَ إلا أُخِذُوا بالسنين وشدة المئونة وجور السلطان عليهم، ولم يَمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعُوا القطرَ من السماء، ولولا البهائم لم يُمْطَروا، ولم يَنقضُوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدوًا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم». [ابن ماجه ٤٠١٩].

ثم قال تعالى متوعدًا: ﴿أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ﴾ المطففون: ﴿أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ كان مقداره خمسين ألف سنة، ألا يخافون هذا اليوم، ومن القيام بين يدي رب العالمين سبحانه الذي يعلم سرّهم ونجواهم؟ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: حفاةً عراةً غرلاً، في موقفٍ ضيق حرج، قال النبي ﷺ: «يقومُ الناسُ لربِّ العالمين، حتى يغيب أحدهم في رَشْحه إلى أنصافِ أذنيه».

[متفق عليه].

وذلك أنه يجتمع الأولون والآخرون في صعيد واحد، ليس لأحدهم سوى موضع قدميه، وهذا الزحام وحده كافٍ لإيجاد حرّ شديد، فكيف ومع هذا الزحام قد دَنَتْ الشمسُ من الرءوس، ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]، لذلك كله يأخذُ العرقُ الناس: «فمنهم من يأخذه إلى عقبه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حَقْويه، ومنهم من يُلْجمه إلجامًا». [صحيح رواه مسلم (٤/٢١٩٦/٢٨٦٤)، والترمذي (٤/٣٧/٢٤٢).]. ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: ٩].

فهلا اتقاه المطففون بترك التطفيف، نسال الله السلامة.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ وهم المتجاوزون للحدّ في المعصية والإثم- ومنهم المطففون حقًا- ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ من السّجن، وهو المكان الضيق جدًا، وقد قال النبي ﷺ في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الحديث الطويل في صفة قبض ملائكة الموت للأرواح، قال ﷺ في حقّ الكافر الفاجر: «يقول الله تعالى: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى». قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾؟ سؤالٌ لتفخيم الشأن، أي أنه أمرٌ عظيمٌ، وسجينٌ مقيم، وعذابٌ أليم، وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ ليس جوابًا للسؤال الذي قبله، وإنما هو متعلق بما قبل السؤال، متعلق بقوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ والمعنى: إن كتاب الفجار كتابٌ مرقوم، أي مكتوبٌ، مفروغٌ منه، فلا يُزاد فيه ولا يُنقص منه، وهذا الكتابُ في سجين، وقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: ويلٌ لهم إذا صاروا إلى ما أوعدهم الله به من السجن، ويلٌ لهم حين يُقال لهم: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٩) انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ (٣٠) لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٢٩-٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ يعني: أنه لا يكذب بيوم الدين إلا كلّ معتدٍ في أفعاله، أثيمٍ في أقواله، فهذا الذي يكذّب بيوم الدين، لأنه يعلم ما له يوم الدين من العذاب الأليم، ولذلك فهو يكذب به ليبعد عنه شبح هذا العذاب الذي ينتظره، حتى يظلّ متماديًا في عُدوانه وطُغيانه، كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾، ولذلك:

﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: ٥، ٦]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي: أن هذا المعتدي الأثيم، إذا سمع آياتِ الله تُتلى عليه اتخذها هُزُوًا ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: ٥]، ولم يكتفوا بهذا، بل تجرأوا فـ ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الفرقان: ٥]، قال تعالى: ﴿كلاَّ﴾ ليس الأمرُ كما يقولون، بل القرآن ﴿تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، وليس الأمر أيضًا كما قالوا ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾، بل ﴿لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم يكشف ربّ العزّة سبحانه عن العلّة الحقيقية التي جعلتهم يكذبون بيوم الدين، ويكذّبون بكلام ربّ العالمين، فيقول: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني أنّهم أَسْرَفُوا على أنفسهم حتى أحاطت بهم خطيئتُهم، وغطّت قلوبهم، فأصبحوا لا يَفْقَهون حديثًا، ولا يُنكرون منكرًا، ولا يَعْرِفُون معروفًا، وهذه النتيجةُ الحتميةُ للذنوب، إذا لم يُقلع الإنسانُ عنها. وتسبق هذه النتيجة مقدّمات تدلّ عليها، إنْ لم يتدارك الإنسانُ نفسَه بتوبةٍ نصوح.

ومن هذه المقدمات: حرمان العلم، ولذا لما جلس الإمام الشافعي أمام أستاذه الإمام مالكٍ رضي الله عنهما: قال له مالكٌ: إني أرى اللهَ قذفَ في قلبك نورًا، فلا تُطْفِئْه بظلمةِ المعاصي. وقال الشافعيّ رضي الله عنه:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوء حفظي
فأرشدني إلى تركِ المعاصي
وأخبرني بأنّ العلمَ نورٌ
ونورُ الله لا يُهْدَى لعاصي

ومنها: حرمان الرزق، اقرءوا إن شئتم: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلاَ يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧- ٣٣].

ومنها: حرمان الطّاعة، ولو لم يكنْ للذنب من مضرّة غير أنّه ضيّع وقتًا كان يُمكنُ أن يستغلّ في الطاعة، لكان ذلك كافيًا في الزجر عن المعاصي.

ومنها: أنّ الذنوب يجرّ بعضُها بعضًا، فهي كالعِقْدِ المنظوم، إذا انقطعَ سِلْكُه انفرط كلّه، ولذلك قيل: مِنْ عُقوبةِ السّيئةِ السيئةُ بعدَها، ومن ثوابِ الحسنةِ الحسنةُ بعدها.

ومنها: تعسير الأمور، فلا يسلك العاصي طريقًا إلا عُسِّر عليه، ولا يأتي بابًا إلا أُغلق دونه، وذلك كما أنّ الطاعة تُيسّر الأمور، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، فمن لم يتق الله جعل له من أمره عُسْرًا.

ومنها: وحشةٌ يجدها العاصي في قلبه من الله، ومِن الناس، ومِن الأهلِ والأقاربِ، بل يجدها مِنْ نفسِه، فلا يجدُ أُنسًا أبدًا.

فهذه المضارّ كلها مقدّماتٌ لهذا الخطر العظيم الران، فإن تدارك اللهُ العبدَ برحمته تاب عليه، وإلا ﴿رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ قال النبي ﷺ: «إن العبدَ إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكره الله في كتابه: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. (حسن: رواه الترمذي (٥/١٠٥/٣٣٣٤)، وابن ماجه (٢/١٤١٨/٤٢٤٤)). قال العلماء: هذه النكتةُ السوداء حقيقةٌ لا مجاز، واستدلّوا على ذلك بقول النبي ﷺ: «نزل الحجرُ الأسودُ من الجنّة، وكان أشدّ بياضًا من اللبن، فسوّدته خطايا بني آدم».

[صحيح: رواه الترمذي (٢/١٨٢/٨٧٨)].

والسّواد الذي أصابَ الحجر سوادٌ حقيقيٌّ محسوسٌ، فإذا كان هذا أثر الذنوب في حجرٍ، فكيف بهذه المضغة القلب؟! نسأل الله تعالى أن يبيضّ قلوبنا ووجوهنا.

هذا، وقد أفاض الإمام ابنُ القيم في ذكر آثار الذنوب ومضارّها، في كتابه القيم «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»، فمن شاء زيادةً فليراجعه.

وقوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ يعني: أنهم لما حَجَبَتِ المعاصي قلوبَهم عن رُؤْيةِ آياتِ الله في الدنيا، عُوقبُوا، فحُجِبُوا عن رُؤْيته سبحانه في الآخرة: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقد استدل الإمامان مالكٌ والشافعيُّ رحمهما الله على رؤية المؤمنين ربّهم في الآخرة، بِحَجْبِ

الكافرين عن رؤيته، فقالا: لما حَجَبَ عن رؤيته أعداءَه، كان لابدّ أن يُكْرِمَ برؤيته أولياءه، حتى قال الشافعي رحمه الله: لو لم يعتقدْ محمدُ بنُ إدريس أنه يرى ربّه في الآخرة ما عبده.

والإيمانُ بالرؤية مِنْ عقيدة أهل السنة، ولذا قال الإمامُ الطحاويّ رحمه الله في ذكر بيان عقيدة أهل السنة والجماعة، قال: «والرؤيةُ حقٌّ لأهلِ الجنة بغير إحاطةٍ ولا كيفيةٍ، كما نطق به كتابُ ربنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]،

وتفسيرُه على ما أراده الله وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ، فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخلُ في ذلك متأوّلين بآرائنا، ولا متوهّمين بأهوائنا، فإنّه ما سلم في دينه إلا من سلّم لله عز وجل ولرسوله ﷺ، وردّ عِلْمَ ما اشتبه عليه إلى عالمه».

قال الشارح: المخالفُ في الرؤية الجهمية والمعتزلةُ، ومَنْ تَبِعَهم من الخوارج والإمامية، وقولُهُم باطلٌ مردود بالكتاب والسنة، وقد قال بثبوتِ الرؤية الصحابةُ والتابعون، وأئمةُ الإسلام المعروفون بالإمامة في الدّين، وأهلُ الحديث، وسائرُ طوائف أهلِ الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة.

وقد ذكر الشيخ رحمه الله من الأدلة قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وهي مِنْ أظهر الأدلة، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. فالحسنى: الجنة، والزيادةُ: النظر إلى وجهه الكريم. فسرّها بذلك رسولُ الله ﷺ والصحابةُ من بعده. كما روى مسلمٌ في صحيحه عن صهيبٍ قال: قرأ رسولُ الله ﷺ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، وأهلُ النارِ النارَ، نادى منادٍ: يا أهلَ الجنّة، إنّ لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهَنا، ويدخلْنا الجنّة، ويجرنا من النار؟ فيُكشفُ الحجابُ، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحبّ إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة».

[مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٦٧٦).].

قال: وأما الأحاديثُ عن النبيّ ﷺ وأصحابه الدالّةِ على الرؤية فمتواترةٌ، رواها أصحابُ الصحاح والمسانيد والسّنن.

فمنها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا يومَ القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هَلْ تُضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟. قالوا: لا. قال: فإنكم ترونه كذلك». [الحديث أخرجاه في الصحيحين بطوله].

وحديث جرير بن عبد الله البجليّ رضي الله عنه قال: «كنّا جلوسًا مع النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلةَ أربعَ عَشْرَة، فقال: إنكم سترونَ ربكم عيانًا، كما ترون هذا، لا تُضامون في رؤيته». الحديث أخرجاه في الصحيحين.

وحديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «جنتان من فضةٍ، آنيتُهما وما فيهما، وجنّتان من ذهبٍ، آنيتُهما وما فيهما، وما بَيْنَ القومِ وبين أن يَرَوْا ربّهم تبارك وتعالى إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنّة عدن».

قال: وقد روى أحاديثَ الرؤية نحو ثلاثين صحابيًا، ومَنْ أحاط بها معرفةً يقطعُ بأنّ الرسولَ ﷺ قالها، ولولا أني التزمتُ الاختصارَ لسقتُ ما في الباب من الأحاديث. اهـ. [من شرح الطحاوية].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾ يعني: ثم هم مع الحرمان مِنْ رؤيةِ الرحمنِ من أهل النار، ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣- ١٦].

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾: حقًا إنّ كتاب الأبرار - جمع بارّ، وهو من جمع بين العقيدة الصحيحة والعمل الصالح، كما سبق بيانُه في سورة الانفطار - لفي عليين، أي مصيرُهم إلى علّيين، بخلافِ الفجار، فمصيرُهم إلى سجين، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾؟ سؤالٌ لتفخيم شأنِه وتعظيم أمره. والقولُ في قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ هو ما تقدّم.

وقوله تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني: يشهده المقربون من ملائكة كلّ سماءٍ، وذلك من باب إظهار الشرف والفضيلة والكرامة، كما أنهم إذا أخذ أحدهم كتابه بيمينه قال: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ لنفس

الغرض. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ سبق القول في تفسيره في سورة الانفطار، وقوله تعالى: ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ إلى سعة ما هم فيه وينظرون إلى الرب عز وجل، وقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي: إذا نظرت في وجوههم عرفتَ من جمالها وبهائها ما هم فيه من النعيم العظيم، من الترف والدّعة والسرور والرياسة. وقوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾، الرحيق من أسماء خمر الجنة وهو مختوم بالمسك. قال العلماء: إما أن يكون المراد بقوله: «ختامه مسك»: يعني أن القارورة قد خُتمت في أعلاها بخاتم المسك، دليلاً على أنها لم تُفْتَحْ من قبل، ولم تمسّها أيدٍ، فإذا كان هذا الختام مِسْكًا، فكيف بالمشروب الداخليّ!

وإما أنْ يُراد بقوله تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ ختامُ الشراب، وهو الفضْلةُ التي يتركها الشاربُ في قعرِ الكأس، فإذا كانت هذه الفضلةُ مسكًا، فكيف بأعلاها!!

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ اسم الإشارة عائد على النعيم المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾، وما بعده مما هو كالتفسير له، فذلك الذي ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون، لا حُطَامُ الدنيا الزائل، كما يفعل جهّالُ الناس، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ أي: أنّ الرحيق الموصوفَ ممزوج من شرابٍ يُقالُ له تسنيم، وهو أشْرفُ شرابِ أهلِ الجنة، وقوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾، أن الأبرار يُمزجُ لهم الرحيق بالتسنيم، أما المقربون فيشربون التسنيم وحده غير ممزوج ولا مخلوط.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾: لما ذكر تعالى عذابَ الفجار ونعيم الأبرار، أتْبعَه بذكرِ حالِ الفجّار في الدنيا وموقفهم من الأبرار، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ أي: يستهزئون بهم ويحتقرونهم، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ أي: إذا مرّ أحدُ المؤمنين بالمجرمين غمز بعضُهم بعضًا استهزاءً وسخرية، ولا يجدون في صدورهم حرجًا مما يفعلون، ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ مسرورين بما فعلوا من السخرية والاستهزاء، ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ وذلك من أثر الران، الذي قال الله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، فلم يعودوا يعرفون معروفًا، ولا يُنكرون منكرًا، بل صاروا يرون المعروفَ منكرًا، والمنكر معروفًا، والهدى ضلالةً، والضلالة هدىً، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، قال تعالى: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ يعني: ما كلّفناهم بمراقبتهم وحفْظِ أعمالهم، فلِمَ شغلوا أنفسهم بهم، ثم قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾، ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، قال العلماء: بيْنَ أهل الجنةَ وأهلِ النار طاقات، متى شاءوا أن يفتحوها فتحوها، فيسخرون منهم كما كانوا منهم يسخرون، كما قال تعالى في سورة الصافات وقد وصف نعيم أهل الجنة فقال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصافات: ٥٠-٦٠].

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾. قد سبق القولُ فيه، وقوله: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يعني: هل جُوزي الكفّار على ما كانوا به يستهزئون؟ نَعَمْ. قد جُوزوا أوْفَر الجزاء وأتمّه، وهذه الآيات كقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦- ١١١].

جعلنا الله وسائر إخواننا المسلمين من الفائزين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أحكام يحتاج إليها الصائم

إعداد / د. عبدالعظيم بدوي

أيها القارئ الكريم- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته- ومرحبا بك مع مجلتك المباركة مجلة التوحيد، في هذا الشهر المبارك شهر الصيام، الذي فيه يكثر السؤال عن أحكام الصيام: ما يحرم على الصائم وما يباح. وما يفسد الصوم وما لا يفسده. الخ ذلك من الأسئلة التي تكثر من الصائمين.

لذلك رأت المجلة أن تقدم لقرائها الأعزاء بعض الأحكام في هيئة سؤال وجواب، تعجيلاً للفائدة في أول الشهر الكريم، سائلين الله عز وجل أن يتقبل منا ومنكم الصيام والقيام وصالح الأعمال، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

س: ماذا يجب على من نوى الصيام؟

ج: يجب عليه الإمساك عن المفطرات، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

س: وما هي المفطرات؟

ج: الذي يفطر به الصائم: ستة أشياء:

١و٢- الأكل والشرب عمدًا، فإنْ أكل أو شرب ناسيا فلا قضاء عليه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ، فَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللهُ وَسَقَاهُ».[مسلم١١٥٥].

٣- القيء عمدًا، فإن غلبه القيء فلا قضاء عليه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ ذَرَعَهُ الْقَيْءُ فَلَيْسَ عَلَيْهِ قَضَاءٌ وَمَنِ اسْتَقَاءَ عَمْدًا فَلْيَقْضِ» [ص.ت:٧٢٠].

٤و٥- الحيض والنفاس، ولو في اللحظة الأخيرة من النهار، لإجماع العلماء على ذلك.

٦- الجماع، فمن باشر امرأته في نهار رمضان فقد فسد صومه وعليه القضاء والكفارة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلَكْتُ. قَالَ: مَا لَكَ؟ قَالَ: وَقَعْتُ عَلَى امْرَأَتِي وَأَنَا صَائِمٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: هَلْ تَجِدُ رَقَبَةً تُعْتِقُهَا؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ؟ قَالَ: لاَ. فَقَالَ: فَهَلْ تَجِدُ إِطْعَامَ سِتِّينَ مِسْكِينًا؟ قَالَ: لاَ. قَالَ: فَمَكَثَ النَّبِيُّ ﷺ فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِعَرَقٍ فِيهَا تَمْرٌ-وَالْعَرَقُ الْمِكْتَلُ- قَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ؟ فَقَالَ: أَنَا. قَالَ: خُذْهَا فَتَصَدَّقْ بِهِ. فَقَالَ الرَّجُلُ: أَعَلَى أَفْقَرَ مِنِّي يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَوَاللهِ مَا بَيْنَ لاَبَتَيْهَا-يُرِيدُ الْحَرَّتَيْنِ- أَهْلُ بَيْتٍ أَفْقَرُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ أَنْيَابُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَطْعِمْهُ أَهْلَكَ»[متفق عليه].

فهذه هي المفطرات التي يفسد بها الصوم، ولا تجب الكفارة في شيء منها سوى الجماع.

س: ما حكم من جامع امرأته بالليل ولم يغتسل إلا بالنهار؟

ج: من جامع ليلا ولم يغتسل إلا بعد طلوع الفجر فلا شيء عليه، وصيامه صحيح.

عَنْ عَائِشَةَ وَأُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُدْرِكُهُ الْفَجْرُ فِي رَمَضَانَ وَهُوَ جُنُبٌ مِنْ غَيْرِ حُلُمٍ فَيَغْتَسِلُ وَيَصُومُ» [متفق عليه].

س: ما حكم صيام الحائض والنفساء؟

ج: أجمع العلماء على أنه يشترط لصحة صيام المرأة الطهارة من الحيض والنفاس، فإن صامت لم يجزئها، وهي آثمة لمخالفتها الشرع، وعليها القضاء.

س: ما حكم الحائض إذا طهرت قبل الفجر ولم تغتسل إلا بعده؟

ج: هي في ذلك كالجنب يجنب بالليل، ويغتسل بعد طلوع الفجر، وصيامها صحيح.

س: ما حكم الحائض إذا رأت الطهر بعد طلوع الفجر؟

ج: ما دام قد طلع الفجر وهي حائض فلا يجزئها صيام ذلك اليوم ولو طهرت بعد الفجر بساعة.

س: ما حكم من احتلم في نهار رمضان؟

ج: لا شيء عليه وصيامه صحيح.

س: ما حكم من استمنى في نهار رمضان؟

ج: الاستمناء حرام، لأن الله تعالى قال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(٥)إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(٦)فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(٧) ﴾ [المؤمنون]، فمن ابتغى سببا لقضاء وطره وإشباع غريزته غير الزوجة والأمة فهو باغ، ملوم، عاد، والاستمناء في نهار رمضان أشد حرمة لأنه يفسد الصوم عند جمهور العلماء، وعلى من فعل ذلك التوبة والاستغفار وقضاء ذلك اليوم.

س: ما حكم القبلة والمباشرة؟

ج: القبلة جائزة، ومباشرة جسد الرجل جسد امرأته بغير حائل جائزة لمن قدر على ضبط نفسه:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُقَبِّلُ وَهُوَ صَائِمٌ وَيُبَاشِرُ وَهُوَ صَائِمٌ وَلَكِنَّهُ أَمْلَكُكُمْ لِإِرْبِهِ» [متفق عليه].

س: ما حكم اغتسال الصائم بغرض أن يبرّد جسمه؟

ج: هذا الاغتسال جائز. عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِالْعَرْجِ يَصُبُّ عَلَى رَأْسِهِ الْمَاءَ وَهُوَ صَائِمٌ مِنَ الْعَطَشِ أَوْ مِنَ الْحَرِّ» [ص.د:٢٠٧٢].

س: ما حكم المضمضة والاستنشاق في الوضوء أو من غير وضوء؟

ج: المضمضة والاستنشاق جائزان للصائم من غير مبالغة، وهما من واجبات الوضوء فلا يجوز تركهما، ولكن لا يبالغ فيهما.

عَنْ لَقِيطِ بْنِ صَبْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَالِغْ فِي الاسْتِنْشَاقِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ صَائِمًا» [ص.د:١٢٩].

س: ما حكم صيام الحامل والمرضع؟

ج: يجب عليهما الصيام ما دامتا تطيقانه، فإذا لم تطيقا الصوم أو خافتا على أولادهما فلهما الفطر، فإن قضتا فهو خير، وإن دفعتا الفدية فلا قضاء عليهما.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «رخص للشيخ الكبير، والعجوز الكبيرة في ذلك وهما يطيقان الصوم أن يفطرا إن شاءا، ويطعما كل يوم مسكينا، ولا قضاء عليهما، ثم نسخ ذلك في هذه الآية: ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وثبت للشيخ الكبير، والعجوز الكبيرة، إذا كانا لا يطيقان الصوم، والحبلى والمرضع إذا خافتا أفطرتا، وأطعمتا كل يوم مسكينا» [هق:٤/٢٣٠].

س: ما حكم صيام المسافر والمريض؟

ج: رخص الله لهما الفطر وعليهما القضاء، فقال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة].

س: وأيهما أفضل لهما؟ الصيام أم الفطر؟

ج: إن لم يجدا مشقة فالصوم أفضل، وإن وجدا مشقة فالفطر أفضل.

س: ما حكم كل من: السواك، الطيب، الكحل، القطرة في العين، الحقنة؟

ج: الأصل في هذه الأشياء الحل، عملا بالبراءة الأصلية، ولو كانت مما يحرم على الصائم لبيّنه الله ورسوله، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [مريم: ٦٤].

س: ما حكم من رأى هلال رمضان أو هلال شوال وحده، ولم يأخذ الحاكم برؤيته؟

ج: من رأى الهلال وحده فلا يصوم حتى يصوم الناس، ولا يفطر حتى يفطروا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الصَّوْمُ يَوْمَ تَصُومُونَ، وَالْفِطْرُ يَوْمَ تُفْطِرُونَ، وَالأَضْحَى يَوْمَ تُضَحُّونَ» [ص.ت:٦٩٧]. وَفَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ هَذَا الْحَدِيثَ فَقَالَ إِنَّمَا مَعْنَى هَذَا أَنَّ الصَّوْمَ وَالْفِطْرَ مَعَ الْجَمَاعَةِ وَعُظْمِ النَّاسِ اهـ.ومعناه أَنَّ من الخطأ أن تكون في مصر وتفطر مع دولة أخرى وتصوم معها، فيد الله مع الجماعة.

هذا، ونرجو أن نكون وقفنا في الإتيان على ما يحتاجه الصائم من أحكام.

والله ولي التوفيق.

ولتكملوا العدة ولتكبروا الله

قال تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

لمَّا ذكر اللهُ تعالى أحكامَ الصيام وفِقْهَه، وعَزائِمَه ورُخَصَه، أمر عبادَه إذا أكملوا عِدَّةَ الشَّهرِ وأتمُّوا صيامَه أن يكبِّروه شُكراً على ما هداهم إليه من الصيام وغيره من الطاعات، وكذلك أمرهم إذا قَضَوا مَناسِكَهم فقال تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ١٩٨-٢٠٠].

وقال في الهدي: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٦-٣٧]، وهكذا أمر اللهُ تعالى مَنْ هَدى مِنْ عِباده أن يشكروه على ما هداهم، لأنَّه أعطاهم ما لم يُعْطِ غيرَهم، وفَضَّلهم واختصهم، كما قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]. والمراد بهذه الهداية التي أمر اللهُ المهتدين بشكرها هدايةُ التَّوفيق التي معناها خَلْقُ قُدْرةِ الطاعة، لأنَّ الهداية أنواع:

هدايةٌ عامة: وهي هدايةُ المخلوقات كُلِّها لما هي ميسَّرةٌ له كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣].

وهداية البيان والدلالة والإرشاد

والمراد بها دلالةُ الإنسان على طريق الخير والشر، وتعريفُه الحقَّ والباطل، والهُدى والضَّلال، والغيَّ والرَّشاد كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، ولهذه الهداية بعث اللهُ الرُّسلَ وأنزل الكُتُبَ فقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال في حَقِّ الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]،

إعداد / د. عبدالعظيم بدوي

وقال في حقّ القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال في حقّ التوراة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [غافر: ٥٣- ٥٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال في حقّ الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَءَاتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

والنوع الثالث هداية التوفيق

وهو خَلْقُ قُدرَةِ الطّاعةِ والإعانةُ على الاستجابة وهذه هداية خاصة

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦] وهذه الهداية لا يملكها إلاّ اللهُ وحده ولذلك كانت من دلائل الألوهية كما قال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقال الخليل إبراهيم: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وأمر خليله محمداً ﷺ أن يُقيم الحُجّة على المشركين بقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس: ٣٥]

فالتّوفيقُ للطّاعة والإعانةُ عليها لا يملكه إلاّ اللهُ ولذلك قال الله تعالى لنبيّه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، مع أنّ الله تعالى قال له: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]،

فَعُلِمَ أنّ الهدايةَ الثانيةَ المثبتةَ غيرُ الهدايةِ المنفيّةِ عنه، فالمثبتةُ هي هدايةُ البيان والدلالة والإرشاد التي تَتِمُّ عن طريق الدّعوة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣]، أما التوفيق لقبول الدعوة والانتفاع بهدايتها فذلك لله وحده دون غيره، ولذلك أمرهم أن يستهدوه فقال في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ (١).

والإنسانُ محتاجٌ إلى الهداية أشدّ من حاجته إلى الطعام والشراب، لأنّه لو فقد الطعام والشراب فمات وكان من المهتدين دخل جنّاتِ النعيم ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥]، أمّا إذا فقد الهداية فقد شَقِيَ في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

ومعنى ذلك أنّ الهداية إلى الحقّ والرّشاد خيرٌ من الدنيا وما فيها، فمن هُدي إلى صراط الله المستقيم فقد أُوتي خيراً كثيراً ووجب عليه أن يفرح بما أُوتي كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨].

وقد تنوّعت عباراتُ السّلف في تفسير الفضل والرحمة والصحيحُ أنّهما الهُدى والنعمة، فَضْلُه هداه ورحمتُه نعمتُه (٢) ووجب على من هُدي إلى صراط مستقيم أن يشكر الهادي كما أمر سبحانه، فإنّ الشكر من موجبات الزيادة كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقد اختلفت عباراتُ العلماء في معنى الشُكر، وخُلاصة القول:

أنّ الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، فأمّا الشُكرُ بالقلب فهو الاعتقادُ والاعتراف، والمحبّة والانقياد والخضوع، بمعنى أن يكون القلبُ معتقداً ومعترفاً بأنّ ما بالعبد من نعمة فمن الله وحده لا شريك له، لذلك يُحبُّ المُنْعِمَ مَحَبّةً تستلزم الخضوع والانقيادَ والتسليمَ لأمره.

وأمّا شكر اللسان فيكون بالاعتراف بالنعم والتّحدُّثِ بها والثناءِ على الله من أجلها، كما قال

تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وقال ﷺ: «التحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر»(٢)، وأن يكثر العبد من قول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الاعراف: ٤٣]، وأمَّا الشكر بالجوارح فهو: أن يُسَخِّرَها في طاعة الله وينهاها عن معصيته فيكون نظرُه في آيات الله المنظورة والمقروءة، وسَمْعُهُ لآيات الله المسطورة والمكتوبة، ويدُه في الخير ممدودةً وعن الشرِّ مقصورة، ورِجْلُه إلى الخير تسعى وهكذا، وعلى العبد أن يستعين بالله على شكره، كما أثنى الله تعالى بذلك على سليمان فقال: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وقال عن الإنسان: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الاحقاف: ١٥].

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ: «يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ فَقَالَ: أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(٣).

وقد جرتْ سُنَّةُ اللهِ تعالى بجعل قَبُول هداية الأنبياء سبباً لهداية التوفيق فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩].

فلمَّا سمعوا دعوةَ الرسول إلى الإيمان فآمنوا هداهم اللهُ ووفَّقهم وشرح صدورَهم للإسلام وحبَّب إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم وكرَّه إليهم الكُفْرَ والفُسوقَ والعِصيان وجعلهم من الراشدين، ولذلك قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

وأمَّا الذين سمعوا الهدى وصَمُّوا آذانهم وعاندوا واستكبروا فإنَّ الله يُعاقبُهم بالحرمان من الانتفاع بما سَمِعُوا من الهدى قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاَءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى وَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَلَعَمْرِي لَوْ أَنَّ كُلَّكُمْ صَلَّى فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ، مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الرَّجُلَ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يَدْخُلَ فِي الصَّفِّ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ فَيَعْمِدُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيُصَلِّي فِيهِ فَمَا يَخْطُو خَطْوَةً إِلاَّ رَفَعَ اللَّهُ لَهُ بِهَا دَرَجَةً وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةً»(٤).

فيا أيها الرَّاغبُ في الهداية الحريصُ عليها احرص على السُّنَّة واستمسك بها، فكلما فعلت سُنَّةً ازددت هدى، وكلما ازددتَ اتِّباعاً ازددت هدى، وعلى قدر ما تتركُ من السُّنَّة تنقص هدايتك، فأهْدَى الناس سبيلاً هم أتباعُ النبي ﷺ المستمسكون بسُنَّته، وأضلُّ الناس سبيلاً هم أهلُ الأهواء والبدع قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

فمن قامت عليه الحُجَّةُ بهداية البيان والدلالة والإرشاد فآمن زاده اللهُ هدى، ومن بلغته الدعوةُ فعاند أضلَّه الله وختم على قلبه كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الاحقاف: ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ

هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦)وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٣-١٢٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، و قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]،

ولذلك قال مؤمنو الجن بعد أن هداهم الله: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

فمن أجاب محمداً ﷺ فقد اهتدى، ومن أعرض عنه فقد ضلّ وغوى، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣١، ٣٢].

كما جرت سُنَّته تعالى بجعل أعمال البرّ سبباً للهداية وجَعْلِ أعمال الفُجور سبباً للضلالة قال تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢)الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، وقال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

فيا أيها الرّاغبُ في النّجاة الحريصُ على الهداية جاهد نفسك على فعل الخير وأعمال البرّ التي جعلها اللهُ سبباً للهداية فإنّ الله تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، واعلم أنّ الله غنيٌّ عن العالمين ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥)ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٥، ٦].

وَفِرَّ إلى الله تعالى بالدُّعاء وألِحَّ عليه في السؤال: «اللهم اهدني فيمن هديت»(٥)، «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى»(٢)، فإنّه من استهدى اللهَ هداه، واعلم أنّ حاجتك إلى الهداية شديدةٌ وما لم يحصل لك منها أضعافُ أضعافِ ما حَصَّلتَ فأنت بحاجة دائماً إلى سؤال الله الهداية، ولذلك فرض اللهُ على من هداهم للصلاة أن يسألوه في كل ركعة الهدى وعلّمهم أن يقرءوا في الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، و ليس المرادُ ثَبِّتْنا ولكنه اهدنا لما لم نهتد إليه بعد، فإنّ درجات الهداية متباينة، وكلما انتهى الإنسانُ إلى درجةٍ كانت فوقها درجات.

والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

١- م(٢٥٧٧/٤/١٩٩٤).

١- الفوائد لابن القيم (١٣٣).

٢- حسن :[ص.ج:٣٠١١] .

١- صحيح: [ص.ج:٧٨٤٦]، حم(٧٧٤/٥٤/٤)، د(١٥٠٨/٣٨٤/٤)، ن(٥٣/٣).

١- م(٦٥٤-٢٥٧-١/٤٥٣)، د(٥٤٦/٢٥٤/٢)، جه(٧٧٧/٢٥٥/١)، ن(١٠٨/٢).

١- صحيح: [ص.د:١٢٦٣]، د(١٤١٢/٣٠٠/٤)،ت(٤٦٣/٢٨٩/١)،ن(٢٤٨/٣)، جه(١١٧٨/٣٧٢/١).

٣- م(٢٧٢١/٢٠٨٧/٤)، ت(٣٥٥٥/١٨٤/٥).

سورة الانشقاق

يقول الله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (١٤) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥) فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ١- ٢٥].

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، وهي ثالثةُ الثلاثِ التي قال فيها النبي ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى يومِ القيامة كأنه رأي عينٍ فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾».

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ يعني: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣- ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: سَمِعت وأطاعت، ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وحُقّ لها أن تسمعَ وتُطيع، لأنها من خلق الله، ولا يحق لمخلوق أن يَعْصِيَ الله سبحانه، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: سُوِّيتْ فلم يبق فيها عوجٌ ولا أمْتٌ، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: ألقتْ ما في بطنها من الأموات وتخلّت عنهم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١، ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أي: سمعت وأطاعت لأمر ربها، وحُق لها أن تسمع وتطيع.

وجوابُ الشرط في هذه الآيات محذوفٌ، تقديره: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ كما في سورة التكوير، أو

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ كما في الانفطار.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ الإنسان هنا عموم الإنسان، المؤمن والكافر، فالمؤمن يكدحُ، والكافر يكدحُ، والكدحُ هو الجهدُ والمشقة في العمل، وكلّ إنسان كادحٌ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] أي: في تعب ومشقة، والعاقل من جعل تعبه وكدحه في سبيل الله حتى إذا مات استراح، واليائس من كان تعبد لغير الله، فإذا مات شقيَ في العذاب شقاءً أشقّ من شقاء الدنيا، كما قال ﷺ، وقد مرّت عليه جنازةٌ: «مُستريح، أو مستراحٌ منه». فقالوا: يا رسول الله، ما المستريح، والمستراحُ منه؟ فقال: «العبد المؤمن يستريحُ من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبدُ الفاجر يستريح منه العبادُ، والبلادُ، والشجرُ، والدواب». [متفق عليه].

ولذا قال تعالى حكايةً عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

أما أهل النار فقد قال تعالى عنهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ قال العلماء: الضميرُ صالحٌ للعود على الكدح، فيكون المعنى أنّ كل إنسانٍ سيلاقي عمله، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠].

كما أن الضمير صالحٌ للعود على الربّ عز وجل، والمعنى: أن الإنسانَ سيلاقي ربه، وسيجزيه بعمله، وعلى كلّ حال: فإن لقاءَ العمل لا يكون إلا بعد لقاء الله، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ويومئذ تتطاير صحفُ الأعمال، التي سجلها الكرام الحافظون ويأخذها الناس: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ يعني: يُعْرض على الله فيعفو عنه، ولا يدقّق عليه جميع أعماله.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نُوقِشَ الحساب عُذِّب». قالت: فقلتُ: أفليس قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ قال: «ليس ذاك بالحساب، ولكن ذلك العرض، من نُوقِشَ الحساب يوم القيامة عُذِّب». [متفق عليه].

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ أي: يرجعُ إلى أهله في الجنة فرحًا مغتبطًا بما آتاه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ قال بعض العلماء: إذا تطايرت الصحفُ انقسم الناسُ ثلاثة أقسام: أصحابُ اليمين، وأصحابُ الشمال، والقسم الثالث هو مَن أُوتي كتابه وراء ظهره، والراجحُ أن الناس يكونون عند تطاير الصحف قسمين اثنين لا ثلاثة: أصحابُ اليمين، وأصحابُ الشمال، غير أنّ أصحاب الشمال تُثْنَى يدُ أحدهم إلى ورائه، ويُعْطَى كتابه بها كذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ أي: خسارًا وهلاكًا، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١١-١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ فسره في موضع آخر فقال: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لاَ يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٧]، وذكر هنا سبب هلاكه فقال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، على خلاف المؤمنين ﴿ الَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾، [المعارج: ٢٧-٢٨] فالمؤمنون في الدنيا خائفون، فآمنهم الله يوم القيامة، قال تعالى وقد وصف نعيمهم: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور: ٢٥-٢٨].

والكافرون في الدنيا آمنون، فكان جزاؤهم ما ذكر: ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾، والسبب كما قال الله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ أي: أنه كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله، وأنّ الله لن يعيده كما كان، ﴿ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ يعني: بلى، سيعيده الله كما كان، وسيجزيه بعمله، فإنه كان به بصيرًا، أي عليمًا خبيرًا.

وقوله تعالى: ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ وهو هذه الحُمْرة التي تكون بعد الغروب، ﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴾ أي: وما جمع وضمّ تحت ظُلْمته، ﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴾ أي: تم وصار بدرًا، ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ ﴾ جواب القسم، وقد قال العلماء فيه نحوًا من سبعة وعشرين قولاً، ولعل أرجحها: لتنتقلُن أيها الناس يوم القيامة من مَشهد إلى مشهد، ومن موقف إلى موقف، ومن حال إلى حال، فالله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ ﴾ هذا تعجبٌ من كُفْر الكافرين، ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾، والقرآنُ يتلى عليهم، ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات: ٥٠].

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٦].

وقوله تعالى: ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ أي: مِنْ طبعهم التكذيب والعناد والمخالفة، ولو أرادوا الإيمان لآمنوا بهذا القرآن، ولكنّ هذا دأبُهم، وتلك سجيتهم، ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ أي: بما يكتمون في صدورهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [هود: ٥]. وقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، وليست هذه بشارةً، وإنما هو التهكم والسخرية، فإنّ البشارة تُطلَق على ما يُفْرح ويَسُرّ، حتى يظهر السرور على البشرة، والمعنى: فأخبرهم بأنّ الله قد أعدّ لهم عذابًا أليمًا، وقوله تعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ يعني: لكن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، فلهم في الآخرة أجرٌ دائمٌ لا ينقطع، كما قال تعالى: ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨].

والحمد لله رب العالمين.

من وصاياه الجامعة ﷺ

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: أوصاني رسولُ اللهِ ﷺ بتسعٍ: «لا تُشرك باللهِ شيئًا وإن قُطِّعْتَ أو حُرِّقت، ولا تتركَنَّ الصلاةَ المكتوبةَ متعمدًا، ومن تركها متعمدًا برئت منه الذمةُ، ولا تشربن الخمرَ فإنها مفتاحُ كل شرٍّ، وأطع والديكَ، وإن أمراكَ أن تخرجَ من دُنياكَ فاخرج لهما، ولا تنازعن وُلاةَ الأمر وإن رأيت أنَّك أنت، ولا تفرَّ من الزحف وإن هلكت وفرَّ أصحابُك، وأنفق من طولكَ على أهلكَ، ولا ترفع عصاك عن أهلك، وأخفهم في الله عز وجل». [أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وحسنه الألباني].

هذه وصايا جامعة، من وصايا من بعثه ربُّه رحمة للعالمين، ووصفه بأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، في التمسك بها سعادة الدارين، وقرّة العينين، وكل وصية منها جديرة بأن تفرد وحدها بشرح، ولكننا سنحاول الإلمام بها دون خلل ولا تقصير.

إعداد/ د. عبدالعظيم بدوي

الوصية الأولى: «لا تشرك بالله شيئًا وإن قُطعت أو حُرقت»، فإن الشرك ظلم عظيم، وضلال مبين، يحبط الأعمال ويوجب الذل والخسران، ويحرم على صاحبه الجنان، ويدخله النيران، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً﴾ [الإسراء: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

والشرك نوعان: شرك أصغر، وشرك أكبر.

فأما الأصغر فمنه الرياء، كما قال ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء. [صحيح].

ومنه الحلف بغير الله، قال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك». [صحيح].

وأما الشرك الأكبر فهو اتخاذ العبد ندًا من دون الله، يواليه موالاة الله، ويحبه كحب الله، يرجوه في السراء، ويلجأ إليه في الضراء، ويتقرب إليه بأنواع العبادة التي لا تجوز إلا لله، فنذره له، وذبحه له، ودعاؤه له، ونداؤه له، إذا وقع في كربة قال يا فلان، وإذا ضاقت به الأمور لجأ إلى أصحاب القبور: ﴿يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١٢]، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لاَ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

فيا أيها المسلم الموحِّد: إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، وإذا نزلت بك نازلة فقل يا الله، وإذا ضاقت عليك الدنيا بأسرها ففر إلى الله، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

[النمل: ٦٢- ٦٤].

الوصية الثانية: «ولا تتركن الصلاة المكتوبة متعمدًا، ومن تركها متعمدًا برئت منه الذمة»، أي العهد.

فإن الله أخذ العهد على نفسه لكل مسلم يحافظ على الصلاة أن يدخله الجنة، فمن ترك الصلاة متعمدًا فقد ألقى بنفسه إلى التهلكة، وخذله الله، ولم يكن له عند الله عهد، كما قال ﷺ: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، من أتى بهنّ لم يضيّع منهنّ شيئًا استخفافًا بحقهنّ كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهنّ فليس له عند الله عهد، إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له». [صحيح].

فحافظ- رحمك الله- على الصلاة فإنها عمود الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن ضيّعها فقد ضيّع الدين، وهي أول ما فُرض من العبادات، وأول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال، وقد مدح الله المحافظين عليها، ووعدهم الفردوس، أعلى درجات الجنة، وسقفه عرش الرحمن، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١- ٩].

وذمّ مضيّعها وتوعده فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]. وليست إضاعتها تركها بالكلية بل السهو عنها والغفلة عن أوقاتها، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

أما الذين لا يصلون أبدًا فقد توعدهم الله بسقر، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٨- ٤٣].

فحافظوا عباد الله على الصلاة كما أمركم الله، واعلموا أن المحافظة على الصلاة تكون بإسباغ وضوئها، والحرص على أول وقتها، وشهود الجماعة فيها، والخشوع، وإتمام الركوع والسجود، وحسن التلاوة وتدبر معانيها، فمن فعل ذلك كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن ترك الصلاة متعمدًا فليس له عند الله عهد.

الوصية الثالثة: «ولا تشربن الخمر فإنها مفتاح كل شر».

قد بيّن النبي ﷺ ما يترتب على شربها من الشر فقال: «الخمر أم الفواحش، وأكبر الكبائر، من شربها وقع على أمه، وخالته، وعمته». [حديث حسن].

لأنها تخمّر العقل أي تغطيه، فيكون هو والبهيمة سواء، فلا يفرق بين امرأة وامرأة، ولا بين زوجته وأمه وخالته وعمته.

وعن عثمان رضي الله عنه أنه كان يقول: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل فيمن كان قبلكم يتعبد ويعتزل الناس، فعلقته امرأة غويّة، فأرسلت إليه جاريتها تدعوه لشهادة فدخل معها، فطفقت كلما دخل بابًا أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطنة خمر، فقالت: إني والله ما دعوتك لشهادة، وقد دعوتك لتقع عليّ، أو تقتل هذا الغلام، أو تشرب هذا الخمر، فاختار الخمر، فسقته كأسًا، فقال: زيدوه، فلم يزل حتى وقع عليها وقتل الغلام، فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبدًا إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه. [صحيح].

لذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٠- ٩٢]. يعني وقد أدّاه، فقد حذر ﷺ من الخمر وبالغ في التخويف من مغبتها، ومن أقواله في ذلك: «الخمر أم الخبائث، فمن شربها لم تقبل صلاته أربعين يومًا، فإن مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية». [حديث حسن].

«مدمن الخمر كعابد وثن». [حديث حسن].

«ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، والعاق لوالديه، والمنان بما أعطى». [صحيح].

«إن على الله عهدًا لمن شرب المسكر أن يسقيه الله من طينة الخبال». قيل: وما طينة الخبال ؟ قال: «عرق أهل النار». [صحيح].

فهل يشرب بعد ذلك إلا من سفه نفسه ؟!

الوصية الرابعة: «وأطع والديك».

فإن الله أمرك بطاعتهما في كل برّ ما لم يكن إثمًا، وفي كل مباح ما لم تكن معصية، فإن فضلهما عليك عظيم، وحقهما عليك كبير، ومن في الدنيا قدّم لك ما قدّمه أبوك، ومن في الدنيا خدمك كما خدمتك أمك ؟! لذلك فرَضَ الله طاعتهما، وأمر ببرهما، فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا

لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

فأطع والديك، «وإن أمراك أن تخرج من دنياك فاخرج لهما»، يعني لو أرادا مالك كله فلا تمنعهما، فأنت ومالُك لأبيك، كما قال ﷺ، فمهما طلبا فأعطهما، وأنت معتقدٌ حق الاعتقاد أنك مقصّر في حقهما، ولم تجزهما منه شيئًا، كما قال ﷺ: «لا يجزي ولدٌ والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه». [صحيح].

الوصية الخامسة: «ولا تُنازعنّ وُلاة الأمر وإن رأيت أنك أنت»:

يعني لو رأيت أنك أفضل من وليّ الأمر الموجود، وأحق منه بالولاية فلا تنازعه فيها، ولا تخرج عليه، ولا تنزع يدًا من طاعته، فإن استتباب الأمن، واستقرار الأمر، من أسباب التمكن من العبادة، والقيام بالوظيفة التي خلق الله الخلق من أجلها، ومنازعة ولاة الأمر فيها ما فيها من الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار، بحيث لا يتمكن الإنسان من القيام بحق الله عز وجل، ولذلك كثرت الأحاديث في الحث على طاعة أولي الأمر- وإن جاروا- والنهي عن الخروج عليهم، ومنها قوله ﷺ: «إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة».

وقوله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشي كأن رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله». [صحيح]. وقيل: يا نبي الله ! إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا، فأعرض عنه ثلاثًا، فقال: «اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم». [صحيح].

وقوله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبيّ خلفه نبيّ، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون بعدي خلفاء فيكثرون». قالوا: فما تأمرنا ؟ قال: «أوفوا ببيعة الأول، ثم اعطوهم حقهم واسألوا الله الذي لكم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم». [متفق عليه].

وقوله ﷺ: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما». [صحيح].

وقوله ﷺ: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه». [صحيح].

الوصية السادسة: «ولا تفرّ من الزحف وإن هلكت وإن فر أصحابك».

لقد وصف اللهُ الكفارَ بالجبن فقال: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: ١٤]، والعلة: ﴿لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]، وأعلمنا الله تعالى أن المؤمن الصابر يغلب عشرة من الكفار، ثم خفف عنا فجعل المؤمن الصابر يغلب اثنين من الكفار، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥، ٦٦].

ثم أعلمنا الله أن عاقبتنا دائمًا إلى الخير، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] أي النصر أو الشهادة، فنحن دائمًا فائزون، فلا داعي للفرار إذن، ولذلك نهانا الله عنه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

وعدّ النبي ﷺ الفرار من الزحف من المهلكات، فقال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: وما هنّ يا رسول الله ؟ فذكرهنّ وعدّ منهن «الفرار يوم الزحف». [متفق عليه].

ولقد ضرب رجال من أصحاب النبي ﷺ المثل الأعلى في الثبات أمام العدو، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: غاب عمي أنس بن النضر رضي الله عنه عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرينّ اللهُ ما أصنع، فلما كان يومُ أحد انكشف المسلمون، فقال: اللهم أعتذر إليك مما صنع هؤلاء- يعني الصحابة- وأبرأ إليك مما صنع

هؤلاء- يعني المشركين- ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ فقال: يا سعد بن معاذ: الجنةُ وربِّ الكعبة، إني أجد ريحها من دون أُحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع! قال أنس: فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربةً بالسيف أو طعنةً برُمح، أو رميةً بسهم، ووجدناه قد قُتل ومثَّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه. قال أنس: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

الوصية السابعة: «وأنفق من طولك على أهلك»:

الطَّوْل معناه السعة والخير، ونفقة الأهل من الزوجة والأولاد ونحوهم واجبة، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقال ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، فالرجل في بيته راعٍ وهو مسئول عن رعيته». [متفق عليه].

فيجب عليه القيام بهذه المسئولية خير قيام، ومنها النفقة على أهله مما آتاه الله، فإن حبس عنهم النفقة وبخل بها فقد أثم، كما قال ﷺ: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت». [حديث حسن]. وإن أنفق عليهم أُجِر، كما قال ﷺ: «إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهي له صدقة». [حديث حسن].

وقال لسعد بن أبي وقاص: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك». [متفق عليه].

وكان ﷺ يرغب في النفقة على الأهل والعيال فيقول: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك». [صحيح].

وكان ﷺ يقول: «أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله». [صحيح].

ولابد هنا من التنبيه على أدب من آداب النفقة وهو الاعتدال فيها بين البخل والإسراف، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

فالبخل الذي يفضي بالزوجة والأولاد إلى الخيانة بل إلى ارتكاب الجريمة أحيانًا ممنوع، وكذلك الإسراف والتبذير الذي يفضي بالأولاد إلى الفساد من التدخين وغيره ممنوع، فلابد أن يكون العائل عاقلاً يعطي بحذر، ويراقب عن كثب، ليعرف أين تذهب هذه الأموال؟ وماذا يصنع الولد بما يعطي من مال أبيه، حتى لا يفسده المال ولا يطغيه.

الوصية الثامنة: «ولا ترفع عصاك عن أهلك»:

فـ «علّق سوطك حيث يراه أهلك» حتى ينزجروا، فلا يتهاونوا بواجب، ولا يقعوا في محرّم.

الوصية التاسعة: «وأخفْهم في الله عز وجل»:

فإن الخوف سَوْط يُساق به الإنسان نحو طاعة الله عز وجل، والابتعاد عن معصيته، فاحرص دائمًا أيها الأب على أن تكون مهابًا في بيتك، يهابك الصغير والكبير، ويخافون عقابك، فلا يفرطون في فريضة، ولا يرتكبون معصية.

إن ربَّ الأسرة كقائد السفينة، هو المسئول عن وصولها إلى برّ الأمان بسلام، والناس في هذه الدنيا مسافرون إلى الآخرة، فإما نجاة تستقر بهم في دار السلام، وإما هلكة تفضي بهم إلى دار البوار، وربَّ الأسرة مكلف بالحرص على نجاتها، ووقايتها من التهلكة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ووقايتهم إنما تكون بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ومعاقبتهم على ترك المعروف وفعل المنكر.

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وقال النبي ﷺ: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع». [حديث حسن].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤]، وهذا الضرب ضرب تأديب وتربية لا ضرب تشفٍّ وانتقام، ضرب تقتضيه الرحمة وتدفع إليه الشفقة حتى يصل الرجل بأهله إلى دار السلام بسلام، كما قال القائل:

قسى ليزدجروا ومن يك راحمًا

فليقس أحيانًا على من يرحـ

وهكذا جمعت هذه الوصايا فأوعت، فصلى الله وسلم على من وصانا بها، ونسأل الله سبحانه التوفيق للعمل بها.

سورة البروج

قال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾.

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

بين يدي السورة

سورة مكية، أُفردت للحديث عن تضحية المؤمنين في كل زمان من أجل الدّين، تشجيعًا للنبيّ ﷺ وللمؤمنين على التضحية، وحثًا لهم على الصبر على الأذى، فإن الله جاعلُ العاقبة لهم، كما جعلها لإخوانهم من قبلهم.

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ الواوُ للقسم، والمعنى: أُقْسِمُ بالسماءِ ذات البروج، والبروجُ هي منازلُ الكواكب والنجوم، وهي بمنزلة القصور. وقوله تعالى: ﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ فسّر النبي ﷺ هذه الثلاثة فقال: «اليوم الموعودُ: يومُ القيامة، والشاهدُ: يومُ الجمعة، والمشهودُ: يومُ عرفة».

وجوابُ القسم محذوفٌ، تقديرُه: إنّ ما جاء في هذه السورة لحقّ، أو: إنّ انتقام الله ممن عذّب أولياءه لواقع. ولهذا قال بعد القسم: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ أي: لُعِنُوا، والأُخْدُود هو الخندقُ الذي يُحْفَرُ في الأرض، وأصحابُ الأخدود هم جنودُ لملكٍ ظالم كان النّاس يعبدونه من دون الله، ثم هداهم الله فآمنوا بالله وكفروا بالملك، فأمرَ أصحابَه فخدُّوا الأخاديد وأضْرَمُوه نارًا، وقال لهم: مَنْ رجعَ عن دينه فاتركوه، ومن أبى فأَقْحِمُوه فيها، ثم جلس ينظر إلى المؤمنين وهم يُلْقون في النار، فجمعوا بذلك بين الظلم وقسوة القلب، قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أي: ما عابوا عليهم ﴿ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فهو رب كل شيء ومليكه، وهو المستحقّ للعبادة دون سواه، فكما أنّه لا رب غيره، فكذلك لا معبود سواه، وقوله

تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يعني: أنّه لم يَخْفَ عليه سبحانه ما فعله هؤلاء الطغاة بأوليائه المؤمنين، فلقد رآهم، وشَهِدَ ما فعلوه بهم من التعذيب والتحريق، وسيجزيهم بمثل ما فعلوه بأوليائه، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾، لكن انظروا إلى لُطْفِ اللطيف، وكرم الكريم سبحانه، إنّه حين يتوعّدهم يُعلّق وعيدَه بعدم توبتهم، فيقول: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ ومعناه: أنهم إن تابوا بعد هذه الجريمة العظيمة تاب عليهم، وفي هذا إرشادٌ لجميع العصاةِ والمذنبين إلى أنه لا يجوزُ القنوطُ من رحمة الله، فـ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ بيانٌ لما أعده لأوليائه، بعد بيان ما أعدّه لأعدائه قتلة أوليائه، ولما كان النبي ﷺ المبين عن الله عز وجل مراده، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، فقد بيَّن ﷺ قصة أصحاب الأخدود أحسن بيان، فقال ﷺ: «كان ملكٌ فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كَبِرَ قال للملك: إني قد كَبِرْتُ، فابعثْ إليّ غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهبٌ فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذ أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحرُ أفضل أم الراهبُ أفضل ؟ فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمرُ الراهبِ أحبّ إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس. فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره. فقال له الراهب: أي بني ! أنت اليوم أفضلُ مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتُليت فلا تدلّ عليّ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليسٌ للملك كان قد عميَ، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ههنا لك أجمعُ، إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك. فآمن بالله فشفاه اللهُ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: مَن رد عليك بصرك ؟ قال: ربي. قال: ولك ربّ غيري ؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام. فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل. فقال: إنّي لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى. فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقّاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى. فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقّاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك. فأبى. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به إلى الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك. فقال: ما فعل أصحابك ؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قُرقُورٍ، فتوسّطُوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابك ؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنّك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرُك به. قال: وما هو ؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد. وتصلبني على جذعٍ، ثم خُذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إن فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغ الصبي، فوضع يده

في صدغه في موضع السهم فمات. فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأُتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر ؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس. فأمر بالأخاديد في أفواه السكك فَخُدَّتْ، وأضرم النيران، وقال: مَن لم يرجع عن دينه فاقحموه فيها، أو قيل له: اقتحم. ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق».

وفي هذه القصة فوائد:

الأولى: أن السحر يكون بالتعليم ؛ لقول الساحر للملك: فابعث إليّ غلامًا أعلمه السحر، وقول الله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ الآية (البقرة: ١٠٢).

وتعلمه حرام، ولا يجوز بحال، وهو إما أن يكون كُفرًا أو معصية دون الكفر، كما قال الإمام الشافعي رحمه الله: يُقالُ للساحر: اعرض علينا سحرك، فإن وجدنا فيه كُفرًا حكمنا بكفره، وإن وجدنا فيه فسقًا حكمنا بفسقه، وغير الكفر منه كبيرة من الكبائر، كما قال النبي ﷺ : «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله، وما هنّ ؟ قال: «الشّرك بالله، والسّحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات».

الثانية: أن الإنسان قد يجتمع فيه الخير والشر، والإيمان والكفر، وذلك حين تختلط عليه الأمور، ويلتبس الحق بالباطل، كما كان حال الغلام قبل قتل الدابة.

الثالثة: ثبوتُ كرامات الأولياء، إذ إنّ الله سبحانه قتل دابة عظيمة، بحجر صغير، رماه الغلام، ولم تجر العادة بأنّ مثل هذا الحجر يقتل، والإيمان بكرامات الأولياء من عقيدة أهل السنة والجماعة. قال تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧]، ولكنّ الولي الصادق لا يفتخر بما يجريه الله على يديه من الكرامات، وما خَفِيَ منه لا يُظهره، وما ظهر منه لا يحتج به على فضله ؛ لأنه بذلك يزكي نفسه، وقد نهى الله عن تزكية النفس فقال: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم: ٣٢]، ولذلك لما رأى الغلام الدابة قد حبست الناس وأراد قتلها، فقتلها الله، لم يدع الغلام الناس إلى رؤية ما يصنع لا قبل الرمي ولا بعده، ولم يدّع لنفسه أي شرفٍ أو مزية على الناس بعد قتلها، بل أتى الراهب في خفاء، كما كان يأتيه، فأخبره الخبر.

وبذلك يعلم الناس أن هؤلاء- المشايخ- الذين يَدْعُونهم إلى مشاهدة كراماتهم ليسوا أولياء، وإنما هم دجالون، لأن الكرامة أولاً شيءٌ بيد الله يُظهره على يد من شاء، متى شاء، وليست بيد الولي نفسه، يظهرها متى شاء، ولو كان هؤلاء أولياء لاستخفوا من الناس حتى لا يروا خوارق العادات على أيديهم، كما يستخفون عنهم بمعاصيهم.

الرابعة: أن الطالب قد يفوق أستاذه، وأن من صدق الأستاذ مع نفسه وغيره إذا رأى لطالبٍ فضلاً عليه أن يعترف له بذلك، وأن ذلك لا يقدح في الأستاذ، بل يعزه ويرفعه، ولهذا قال الراهب للغلام: أي بنيّ، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى.

الخامسة: أن الابتلاء سُنة من سنن الله مع أوليائه وعباده الصالحين، ولذا قال الراهبُ للغلام: وإنك ستبتلى. يعني: ما دام قد بلغ من أمرك ما أرى، فلا بد أن تبتلى تمحيصًا، ويشهد لذلك قول ربنا: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣].

السادسة: زُهدُ الدعاة في حكم الدنيا، وعدم أخذهم الأجر على الدعوة إلى الله.

فإنه لما جاء جليس الملك للغلام بهدايا كثيرة وقال: كل ما ههنا لك أجمعُ إن أنت شفيتني. قال: إني لا أشفي أحدًا... ومعناه: لا أستحق شيئًا من

هذه الهدايا.

السابعة: حرصُ أولياء الله على سلامة معتقدات العباد، وتعليق قلوبهم بالله وحده، فإنّ الغلام قال لجليس الملك: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله. فمن عُرف بأنه مستجاب الدعوة- مثلاً- فعليه إذا دعا لأحدٍ أن يصرف قلوبهم عن التعلق به إلى التعلق بالله عز وجل، وأن يعرفهم أنه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، وكذلك مَنْ عُرِفَ بمداواة النّاس بالرُّقى أو بالطبّ، يجب أن يعلمهم أنه يرقيهم- فقط- والله يشفيهم.

الثامنة: أن الإيمان أعظم ما يتوسل به العبد إلى ربه، ولذا قال الغلام لجليس الملك: إنّي لا أشفي أحدًا، وإنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ الله فشفاك. وقد كثر في القرآن مدح: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]،

﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

التاسعة: أنّ الله تعالى يستجيبُ الدعواتِ، ويقضي الحاجات، ويظهر ذلك جليّاً في إجابة دعوة الغلام لجليس الملك بالشفاء، فآمن بالله تعالى فشفاه الله تعالى.

العاشرة: أن الله تعالى يكفي أولياءه وينصرهم، وإن اجتمع أهلُ السماوات والأرض، ويظهرُ ذلك جليّاً في قول الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت.

الحادية عشرة: حرصُ الدعاة على دخول الناس في دين الله، ولو أدّى ذلك إلى قتلهم، ولذلك دلّ الغلامُ الملكَ على الطريقة التي يمكن أن يقتله بها، شريطة أن يجمع الناس في صعيد واحد، ويشهدوا قتل الغلام، فلما قتله قال الناس: آمنا برب الغلام، وكان لسان حال الغلام يقول: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف: ٦٤]،

﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

يقول تعالى مطمئنًا نبيه ﷺ ومتوعدًا من كذبه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إن بطش ربك يا نبينا وانتقامه من أعدائه الذين آذوك وكذبوك، لعظيم قوي شديد، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف]، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يعني: إنه سبحانه يبدئ الخلق ويعيدهم كما خلقهم، وهذا من تمام قدرته سبحانه، وهو على أخذهم وتعذيبهم إذا يشاء قدير، ﴿وهو﴾ مع هذه القدرة ﴿الغفور﴾ لمن تاب وعمل صالحًا ثم اهتدى، ﴿الودود﴾ الذي يتحبب إلى أوليائه فيحبهم ويحبونه، وهو سبحانه ﴿ذو العرش﴾ أي صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته أن الكرسي الذي هو بين يديه كالمرقاة إليه، وسع السماوات والأرض، فكيف بالعرش نفسه ؟! فلا يعلم عظمة العرش إلا الله الذي استوى عليه، وهو سبحانه ﴿المجيد﴾ الذي هو أهل الثناء كما مجد نفسه، وهو المجّد على اختلاف الألسن وتباين اللغات بأنواع التمجيد، وهو سبحانه ﴿فعّال لما يريد﴾ فما شاء كان، وإن لم يشأ العباد، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس].

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أي: قد بلغك ما أحل الله بهم من البأس، وما أذاقهم من العذاب، لما كذبوا رسلهم، فاصبر على أذى قومك، فإنهم إن لم يؤمنوا حاق بهم من العذاب مثل ما حاق بفرعون وثمود أو أشد.

وقوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: هم في شكٍّ وريب، وكفر وعناد، ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ قد أحاط بهم علمًا، وأحاط بهم قدرة، وهم في قبضته سبحانه، فلا يعجزونه، ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ أي: عظيم كريم، ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل، وَعْدَ الله حيث قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة الطارق

قال الله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (٢) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (٣) إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤) فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ (١٠) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (١١) وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (١٢) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (١٤) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق].

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، وهي قسمان: الأول: يتحدث عن البعثِ وأدلته. والثاني: يتحدث عن القرآن وصدق النبي ﷺ.

تفسير الآيات

يقول تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾: هكذا استُفتحت السورةُ بالقسم من الله عز وجل بالسماء، وهي مُشَاهدةٌ، والطارق مأخوذ من الطّرق، وأصله الضرب، ومنه سُميت مِطْرقةُ الصائغ الحدّاد؛ لأنه يطرقُ بها، أي يضربُ بها، وقد فسّر اللهُ تعالى الطارق الذي أقسم به بقوله: ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ أي: الذي يثقُبُ الظلام بضوئه، وقيل: كلُّ نجمٍ طارقٌ، لأنّ طلوعه بالليل، وكل ما أتى بالليل فهو طارق.

وقوله: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾: سؤالٌ لتفخيم أمره، وتعظيم شأنه، وجوابُ القسم: ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾، والحفظةُ نوعان: حَفَظَةُ الأعمال، وحَفَظَةُ الأبدان.

أما حفظةُ الأعمال فهم الذين قال اللهُ عنهم: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٦- ١٨].

وأما حفظةُ الأبدان فهم الذين قال اللهُ عنهم: ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]، وهذا مِنْ لُطْفِ اللهِ بعباده، وكلّ بهم حفظةً يحفظونهم من المصائب والآفات، فإذا جاء القدرُ تخلّوا عنهم ليصيبهم ما كُتِبَ لهم.

فأنتَ يا عبدَ الله، تمشي بين أربعة أملاك: واحدٌ عن يمينك، وواحدٌ عن شمالك، وثالثٌ أمَامَك، ورابعٌ خَلْفك، ومع ذلك تفعلُ القبيحَ، وتقول السوء، ولا

تستحيي ! ولو علمتَ أنّ واحدًا من بني آدم يطلع عليك لذُبتَ خَجلاً وحياءً ! وملائكة ربك أولى بذلك الخجل والحياء.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ «تنبيهٌ للإنسان على ضعفِ أصله الذي خُلق منه، وإرشادٌ له إلى الاعتراف بالمعاد، لأنّ مَنْ قدرَ على البداءَةِ فهو قادرٌ على الإعادة بطريق الأَوْلى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾. (تفسير ابن كثير).

وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ يعني صُلب الرّجل، وترائب المرأة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي مختلطة، يعني ماء الرجل وماء المرأة، فلما اختلطا صارا ماءً واحدًا، ولذا قال هنا: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ﴾ وإنما هما ماءان، ماء الرجل وماء المرأة، لكن بعد الاتحاد صارا كالماء الواحد، هو النطفةُ الأمشاج، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ يعني أنّه تعالى قادرٌ على إعادة هذا الإنسان بعد موته، كما ابتدأ خَلْقَه، وهذا واحدٌ من البراهين التي يستدلُّ بها على إمكان البعث، وقد كثر ذكرُه في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧- ٧٩].

ومتى تكونُ الإعادة والمراجعة ؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ وينكشفُ المكنونُ، ويحصلُ ما في الصدور، ويا لها من فضيحة ! نسأل الله أن يجيرنا منها، وأن يسترنا بستره: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ﴾ أي: فما للإنسان من قوة من نفسه تدفعُ عنه عذابَ الله، وما له من ناصرٍ من أصدقائه وخلانه، وأهله وجيرانه.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ أي: ذاتِ المطرِ الذي يرجع كلّ عام، ﴿وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ أي: التي يصدعُها النباتُ، أي يشقّها، والصّدْعُ هو الشّقُ في الشيء الصّلب، وهاتان الآيتان كقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ الآيات.

وجوابُ القسم: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (١٣) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ يعني أنّ القرآن هو القولُ الفصلُ، الذي يفصلُ في كلّ قضية، ويتكلم في كل خلافٍ، وهو لا يلتبسُ بالهزلِ أبدًا، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، ولذلك أمَر اللهُ تعالى بالرجوع عند الخلافِ إلى كتابه، فقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى]، أي إلى كتابه يفصلُ بينكم ويصلح الضمير في ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ للعود إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ فيكون المعنى: وهذا وَعْدٌ حَقٌّ، وقولٌ فصل، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال]،

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: أنظرهم ولا تستعجل لهم، ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أي: قليلاً، وستَرى ما يحل بهم من العذاب، ولو أمهلهم الدنيا كلها لكانت قليلاً.

نسأل الله عز وجل العفو والعافية في الدنيا والآخرة، والحمد لله رب العالمين.

سورة الأعلى

يقول تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [سورة الأعلى].

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، كان الرسول ﷺ يقرأ بها في إحدى ركعتي العيد والجمعة، وإذا اجتمعا في يوم واحدٍ قرأ بها أيضًا في إحدى الركعتين. [حديث صحيح].

وقد استُفْتِحتْ بالأمرِ بتسبيح الله العلي الأعلى، ثم ذكرتْ بعضَ مظاهر قدرته الدالة على استحقاقه للتسبيح بحمده، ثم ذكرت الوحي وصفة تلقي النبي ﷺ له، وكيف كان يتعجل بالقراءة، فنهاه الله وقال له: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى﴾.

وأمره أن يذكِّر بالقرآن متى رجا أن تنفع الذكرى، وبين سبحانه من ينتفعُ ومن لا ينتفعُ من الخلق، ثم خُتمت السورة بالإشارة إلى أنّ الفلاحَ والنجاحَ في الدنيا والآخرة سببُه تزكية النفس، والمحافظة على الصلاة التي هي عمودُ الدين، ولكن أكثر الناس عن هذا غافلون، لأنهم يُؤثرون الحياة الدنيا، والآخرةُ خير لهم لو كانوا يعلمون. وهذه الحقائق التي تضمنتها السورةُ قد تضمنتها مِنْ قبلُ صحفُ إبراهيم وموسى.

تفسير الآيات

قولُه تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ التسبيح معناه التنزيه عن النقائص والمعايب. وقد اختلف العلماءُ: هل المرادُ تسبيحُ الاسم أم تسبيحُ الربّ؟ وأصحّ الأقوال: أنّ الله تعالى أمر هنا بتسبيح اسْمه الأعلى، وأمر في مواضع أخرى بتسبيح ذاته سبحانه وتعالى، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩].

وتسبيحُه تعالى معناه تنزيهُهُ عن كلّ ما لا يليقُ بجلاله، لأنّ له سبحانه الكمالَ المطلق.

واما تسبيحُ اسمه تعالى فيكونُ بامور:

منها: تنزيُه أسمائه تعالى عن تسمية غيره، فقد سمّى المشركون بعض آلهتهم ببعض أسماءِ الله، فقالوا: اللات، والعزّى، ومناة، وهي مأخوذة من أسماء الله: الله، العزيز، المنّان. وكذلك مُسَيْلَمة الكذّاب تجرأ على الله، وسمّى نفسه: رحمن اليمامة، فدمغه اللهُ بالكذب، فلا يُقال إلا مسيلمة الكذاب. وهذا كلّه إلحادٌ في أسماء الله، واللهُ يقول: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومنها: تنزيه أسمائه تعالى عن النطق بها في حال اللهو والعبث، فإنّ الواجب أن ينطق بها في حال الخشوع والخضوع.

ومنها: تنزيه أسمائه سبحانه عن الأماكن الخبيثة، فمن دخل الخلاء- مثلاً- فلا يدخل بشيء

فيه اسم الله.

ومنها: تنزيه الأوراق المكتوبة عن الامتهان، لأنها لا تخلو- غالبًا- من أسماء الله، فلا يجوز الاستنجاءُ بالأوراق المكتوبة، ولا يجوزُ أن تُتخذ سُفْرةً، كما يَفْعَلُ بعضُ الناس اليوم، يَفْرشُون أوراق الجرائد تحت الطعام، ولا يجوزُ إلقاء الأوراق المكتوبة والجرائد في الطرقات ولا في القُمامة، لأنها لا تخلو من أسماء الله، فيكونُ في إلقائها امتهانٌ للأسماء الحسنى.

فهذه الأمور كلها من معاني التسبيح باسم الله.

وفي اسمه تعالى (الأعلى) إشارة إلى علوّه سبحانه فوق خلقه، كما أنَّ من أسمائه تعالى (العليّ) قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]، فهذان الاسمان (العَلِيّ، الأَعْلَى)، يدلاّن على عُلُوه سبحانه فوق خلقه، والأدلة على ذلك كثيرة:

منها تصريحُه سبحانه بأنه فوق عباده، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠].

ومنها: تصريحُه سبحانه بأنه على العرش استوى، في سبع مواضع من القرآن الكريم: في الأعراف، يونس، الرعد، طه، السجدة، الفرقان، الحديد.

ومنها: تصريحُه سبحانه أنّه في السماء، كقوله تعالى: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

ومنها: تصريحُه سبحانه بنزُول الأشياء من عنده، وعروجها إليه، كقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وغير ذلك من الآيات.

وأما الأدلة من السنة فهي أشهرُ من أن تُذكر، وأكثرُ من أن تُحصر، ومنها قول النبي ﷺ للجارية: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «مَن أنا؟» قالت: أنت رسولُ الله. قال: «اعتِقْها فإنّها مؤمنة».

كما أن الفطرة ناطقةٌ بعلوّ الله، وشاهدةٌ بفوقيته، ولذلك إذا أراد أي إنسان ممن يقرّ بالفوقية أو ينكرُها- أن يَدْعو الله، رفع يديه إلى السماء ووجد من قلبه التفاتة نحو السماء، لا يلتفت يَمنة ولا يَسْرة، ولا إلى أي جهة وهذه ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ أي: خلق كل شيءٍ فسوّاه وحَسَّنَهُ وجمله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾، وقال: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ أي: قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، ثم هدى كلّ مخلوق إلى ما قدر له. عن النبي ﷺ أنه قال: «أوّلُ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، فقال له: اكتب، قال: ما أكتبُ؟ قال: اكتب كلّ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة». وقال ﷺ: «إنّ الله تعالى كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألفَ سنةً، وكان عرشه على الماء». [الترمذي: ٢٢٤٥].

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارًا عن موسى عليه السلام أنه قال لفرعون: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، أي: قدّر مقادير الخلائق، وهداهم إلى ما قدّر لهم. وهذه هي الهداية العامة، وهي هدايةُ الله لجميع الخلائق لما قدّر لهم من مقادير.

وهناك أنواع من الهداية غيرُ هذه الهداية، سبق الكلامُ عنها في سورتي البلد والإنسان، عند قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ المرعَى معروف، وهو ما ترعاهُ النعمُ وغيرُها من الدواب، وهو يكونُ أخضر يانعًا، ثم يجعله الله غثاءً أحوى، أي يابسًا أسود، هشيمًا متغيرًا، وفي هذا إشارةٌ إلى أن كل نباتٍ إلى حصاد، وكلّ حي إلى مَوْت، وهي إشارةٌ ضمنية، قد جعلها الله مثلاً للدنيا، حتى لا يغترّ الناس بها، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]. والآيات في هذا كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنْسَى (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ إخبارٌ من الله تعالى لنبيه ﷺ، ووَعدٌ منه له بأنه سيقرئه قراءةً لا ينسى منها إلا ما شاء الله. وكان ﷺ إذا جاءه جبريل يُعلمه القرآن يتعجل بالقراءة معه حتى لا ينسى، فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤].

ووَعَدَهُ أن يجمعه في صدره، فلا يضيع منه شيءٌ، وأن يقرأه كما سمعه من غير تغيير.

وأن يبينه له أحسن بيان، فقال تعالى: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ أي: إنه سبحانه يعلم ما يكون من عباده في كلّ حال، ولا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء.

وقوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾، وعدٌ من الله لنبيه ﷺ أن ييسره لليسرى في أموره كلها، في دينه، ودنياه، وقد صدق الله وعده، ويسر نبيه لليسرى، وله الحمد والمنة، وهذا الوعد من الله لنبيه قد وَعَد به من أدّى شرطه من العباد، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥، ٦].

وقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾: قال العلماء: إنْ شرطية: إنْ نفعت الذكرى فذكر. وقسموا المدعوين إلى ثلاثة أقسام:

قسمٌ مقطوعٌ بانتفاعه. وقسمٌ مقطوعٌ بعدم انتفاعه. وقسمٌ يُرْجى انتفاعُه. والقسم الأول هم المؤمنون، الذين قال الله فيهم: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وهؤلاء يجبُ تذكيرهم، والقسمُ الثالثُ يذكر لعله ينتفع، فمن ترجو أن ينتفع فذكره، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ [عبس: ٣، ٤]، وأما القسم الثاني فهذا قد أمر الله نبيه بالإعراض عنه، فقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

وقال: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٢- ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس: ١١]، فأهلُ خشية الله هم أهلُ الانتفاع بالذكر، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾ وهو الكافر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لاَ يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٢- ١٤].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ أي: يدخلها فتغمره من جميع الجهات، ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]، ﴿ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح، ﴿وَلاَ يَحْيَى﴾ فيها حياةً طيبة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

أجارنا الله وسائر إخواننا المسلمين.

وقولُه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي: من طهّر نفسه من دنس الكفر والشرك وسائر المعاصي والأخلاق الرذيلة، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]، ولا تزكو نفسٌ إلا باتباع الرسول ﷺ واقتفاءِ أثره، فهو ﷺ الذي بعثه الله في الأميين ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أي: أقام الصلاة في أوقاتها طاعة لله تعالى، وامتثالاً لأمره، ورغبةً في ثوابه، وقيل: إن المراد بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ زكاة الفطر، وصلاة العيد.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: تقدمونها على الآخرة، ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من الحياة كلها، ﴿وَأَبْقَى﴾ والحياةُ الدنيا فانية.

وإيثارُ الدنيا على الآخرة له أسباب:

منها: الجهل: قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، أي: لو كانوا يعلمون حقيقة الدنيا والآخرة ما آثروا الدنيا على الآخرة.

ومنها: قسوةُ القلب: قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

ومنها: تزيين الدنيا في أعين الناظرين إليها، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف: ٤٦].

قال بعضُ السلف: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرةُ من خَزَفٍ يبقى لآثرتِ العقولُ السليمةُ الآخرة على الدنيا، فكيف والآخرةُ من ذهبٍ يبقى، والدنيا من خزف يفنى !!

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ يعني: إنّ هذا المذكور في السورة، أو في هذه الجملة الأخيرة قد كان من قبل في صحف إبراهيم وموسى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سورة الغاشية

يقول تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [سورة الغاشية].

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

بين يدي السورة

سورة مكية تناولت موضوعين أساسيين:

الأول: القيامة وأهوالها وانقسام الناس يومها قسمين ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

والثاني: مظاهر قدرة الله تعالى ووحدانيته.

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ وهي الداهية العظيمة التي تغشى الناس جميعًا، والمراد بها الساعة،كما قال تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر:٤٦]، والسؤال للتشويق والترغيب في الاستماع ،وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ أي ذليلة،ومهانة ،خاضعة ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أي تعمل في النار عملاً يصيبها منه النصب والتعب، وعمل أهل النار أعاذنا الله وسائر المسلمين هو صعودهم فيها إلي جبال عالية ثم نزولهم، وهكذا، قال تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾[المدثر: ١٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[الجن: ١٧]. فهو يعمل في هذا الصعود والنزول حتى يمسه النصب، والصعود فوق ظهر هذه الأرض مرهق، فكيف بالصعود في جهنم ؟ وكيف بالصعود إذا كانت الأيدي والأرجل مقيدة؟ كما قال تعالى:﴿إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقوله تعالى: ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ أي حارة شديدة الحر. ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤]. أي: شديد الحر، قد انتهت درجة غليانه، تُرى ماذا يصنع هذا الماء في بطون القوم؟ قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. هذا شرابهم ! أما الطعام فـ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ﴾، وهو نبتة تنبت في البادية يعرفها العرب ويسمونها الشُبرُق تاكلها الإبل وهي خضراء فإذا يبست سميت «الضريع» وصارت سامة، ولذلك لا تاكلها الإبل إذا يبست.ولقد استهزأ المشركون بهذا الوعيد كما

استهزؤا من قبل بشجرة الزقوم وقالوا: الضريع تأكله الإبل فتسمن ! فقال تعالى: ﴿لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ والإنسان يأكل الطعام لغرضين: يأكل ليسد الجوع ويأكل للسمنة. وطعام أهل النار لا يحقق لهم شيئًا من ذلك، بل لا يسمن ولا يغني من جوع. وهنا إشكال وهو: كيف يقول الله هنا ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ﴾ وقد قال في سورة الحاقة: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَا هُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلاَ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٥، ٣٦].

فالآيتان كل منهما أفادت أنهم ليس لهم إلا المذكور في كل آية، والمذكور فيهما ليس واحداً، مما يفيد التعدد، ولفظ الآيتين يفيد الحصر، فكيف يزال هذا الإشكال ؟ قال العلماء: إن النار دركات ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].

ولأهل كل قسم طعام خاص ليس لهم غيره. عافانا الله والمسلمين من هذا كله. ولما ذكر الله تعالى حال الأشقياء وصفة وجوههم أتبعه بذكر حال السعداء وصفة وجوههم فقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ إلخ..وهذا السياق في الجمع بين القسمين قد تكرر في القرآن الكريم في مواضع كثيرة.

وقوله تعالى هنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ أي يعرف فيها النعيم وإنما يعرف النعيم في الوجه إذا كان القلب مسرورًا، وقد جمع الله بين الأمرين فقال عن الأبرار: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]. يعني سرورًا في قلوبهم ونضرة علي وجوههم وإنما نالوا هذا النعيم بسعيهم، ولذا قال تعالى: ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ كما يقال: عند الصباح يحمد الناس السرى، فأهل الجنة يوم القيامة يرضون عن سعيهم الذي بلّغهم هذا النعيم. وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: رفيعة بهية، في غرفات بعضها فوق بعض. وقبل أن يذكر ربنا سبحانه ما في الجنة من نعيم حسي يذكر ما فيها من النعيم المعنوي فيقول: ﴿لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاَغِيَةً﴾ أي: لا فيها لغو ولا زور ولا كذب ولا صخب ولا ضجيج ولا قرقعة، وإنما سكون تام وهدوء كامل والكلام المسموع فيها كل سلام وأمان ،وهذه نعمة كبيرة يقدرها أهل الجنة ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]. يقدرون هذه النعمة لأنهم عانوا في الدنيا من اللغو والتأثيم وهم الآن في الجنة ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]. فهم فرحون بهذا النعيم فرحهم بغيره من نعيم الجنة الحسي أو يزيد.وقوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ أي سارحة والعين تعشق رؤية الماء الجاري، والأذن تعشق خريره، والنفس تستريح لما تراه العين من الجمال ولما تسمعه الأذن من الأصوات الهادئة، وفي الجنة عيون لا عين واحدة قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات: ١٥]، وإنما قوله هنا: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ اسم جنس. وقوله تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤]. أي عالية رفيعة، ناعمة كثيرة الفرش عليها الحور العين. ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ أي حاضرة مصفوفة لا يطلبونها ولا يفقدونها ولكنها حاضرة دائما. ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ و الزرابي هي البسط والسجاجيد والنمارق هي الوسائد وهي أسماء فقط مشتركة بين ما في الجنة وما في الدنيا وشتان بين السمي والمسمي.

قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾: هذه بعض مظاهر قدرة الله تعالى، التي يستدل بها علي استحقاقه للعبادة دون سواه كما يستدل بها علي قدرته علي إحياء الموتى وبعث من في القبور ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ وإنما خصت الإبل بالذكر لأنها تختلف في خلقها عن خلق سائر الأنعام، وهي أنفس أموال العرب وأحبها إليهم، وهي سفينة الصحراء كما يسمونها ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ﴾ [النحل: ٧].

وهي مع عظمتها وقوتها تنقاد لمن يقودها ولو كان صبيًا وذلك من تذليل الله لها كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ

يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١- ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ فمن الذي رفعها ؟ ومن الذي يمسكها أن تقع علي الأرض ؟ إنه الله سبحانه ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]. ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ﴾ [فاطر: ٤١]،

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[الحج: ٦٥]. ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ لئلا تميد الأرض بأهلها كما قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، وقال ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي بسطت ومدت ومهدت، فنبه البدويَّ علي الإستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه والسماء التي فوق رأسه والجبل الذي تجاهه والأرض التي تحته علي قدرة خالق ذلك وصانعه وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف وأنه الإله الذي يستحق العبادة دون سواه وهكذا أقسم ضمام في سؤاله على رسول الله ﷺ كما رواه مسلم. عن أنس بن مالك قال: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد؛ أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك ؟ قال: صدق. قال: فمن خلق السماء ؟ قال: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قال: الله. قال: فمن خلق هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال: الله. قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال .آلله أرسلك ؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا. قال: «صدق» قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟ قال «نعم» قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا.قال: «صدق». قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا. قال: «نعم»: قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا. قال: «صدق». قال: فبالذي أرسلك آلله أمرك بهذا ؟. قال: «نعم» قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا. قال: «صدق». قال: ثم ولىّ. قال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن. فقال ﷺ: «لئن صدق ليدخلن الجنة». أ هـ من تفسير ابن كثير.

ولما لفت الله أنظار العباد إلي مظاهر قدرته أمر نبيه ﷺ بأن يذكر فقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ فذكرهم بأيام الله وذكرهم بآياته وذكرهم بنعيم الجنة لعلهم يطمعون فيها فيؤمنوا وذكرهم بعذاب النار عساهم يخشونها فيقلعوا، عن الكفر. ف ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢]. و﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ فأنت لا تملك قلوب العباد حتي تقهرها علي الإيمان وحتي تجبرها علي اتباعك وهذه حقيقة طالما نبه الله نبيه عليها. ذلك أن النبي ﷺ بشر والرغبة البشرية الملحة في انتصار الحق وانتشار دعوة الخير تجعل النبي ﷺ يحمل همّ الناس ويتقطع قلبه عليهم حسرات حين يرفضون دعوة الخير، والله سبحانه يريد لنبيه ﷺ وللدعاة بعده أن يريحوا أعصابهم ويعفوها من حمل هذا الهم. فقلوب العباد بيد الله سبحانه إن شاء أقامها وإن شاء أزاغها، فليؤد الدعاة واجبهم في الدعوة وليتركوا النتائج إلي الله صاحب الدعوة، فإن وجدوا استجابة فذلك من فضل الله عليهم وعلي الناس، وإن أعرض الناس فما عليهم من حسابهم من شيء ﴿إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ﴾ يعني من تولى عنك وكفر بما جئت به، فسوف يعذبه الله العذاب الأكبر، يعني عذاب جهنم - والعياذ بالله - فالله سبحانه يعذب الكافرين في الدنيا بأنواع من العذاب مختلفة. يعذبهم بالبأساء والضراء.بالأسقام والأوجاع. بالقتل والتعذيب والتشريد، ونحو ذلك.فمن تاب تاب الله عليه ومن كفر رد إلى العذاب الأكبر في الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]،

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي مرجعهم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سورة الفجر

قال تعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾

«سورة الفجر ١:٢٠».

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، اسْتُفتحت بالقَسم من الله عز وجل، ثم تحدثت عن ثلاثة أمور: الأول: مصارع الغابرين. الثاني: سنة الله في ابتلاء الناس بالخير والشر. الثالث: أهوال يوم القيامة.

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿ وَالْفَجْرِ ﴾. الفجرُ معروفٌ، وهو الصبحُ، وقد أقسم الله به في قوله: ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾. والليالي العشر هي عَشْر ذي الحجة، أقسم الله بها لفضيلتها ومكانتها الخاصة، التي بينها النبي ﷺ في قوله: «ما من أيامٍ العمل الصالح فيها أحبّ إلى الله تعالى من هذه العشر». يعني عشر ذي الحجة. قالوا: «ولا الجهاد في سبيل الله يا رسول الله ؟» قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلٌ خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء». والشفع هو الزَّوْجُ، والوتر هو الفرد، وقد ذكر المفسرون في المراد بها أقاويل كثيرة. وأرجحها، أنه يجبُ إبقاءُ اللفظ على عمومه، لأنّ الله تعالى لم يخصّ شفعًا دون شفعٍ، ولا وترًا دون وتر، فكل شفعٍ فهو داخلٌ في عموم هذا القسم، وكذلك كل وترٍ.

وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ أي: يذهب بظلامه، كما قال: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴾، فمتى جاء

الفجر ذهب الليلُ.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾: الحِجر هو العقل، وسُمّي العقلُ حِجْرًا لأنه يحجر صاحبه أي يمنعُه من الفواحش، يقال: حجر الحاكمُ على فلانٍ، إذا منعه من التصرّف في ممتلكاته لدينٍ أو غيره. وهذا السؤال بعد ذلك القَسم كقولك لإنسان قد وضحْتَ له مسألة، فأتيتَ عليها بكلّ برهانٍ، ثم قلت له: أتكفيك هذه البراهينُ؟ وأنت لا تريدُ بسؤالكَ هذا إلا إلزامه، تعني أنّه ليس بعد هذا البيان بيانٌ، ولا بعدَ هذه البراهين برهانٌ، وهذا كقوله تعالى وقد أقسم بمواقع النجوم: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾. وجوابُ القسم محذوف يفسره ما بعده.

مصارع الغابرين

ثم لفت الله تعالى الأنظارَ إلى مصارع الغابرين، تحذيرًا للمكذبين أن يحيق بهم ما حاق بالأولين، ووجه الخطاب إلى الرسول ﷺ تثبيتًا لقلبه، وربطًا على فؤاده، حتى يعلم أنّ العاقبة له كما كانت لإخوانه المرسلين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ إرم بدلٌ من عاد وكان القومُ ذوي أجسامٍ طويلة، حتى قيل: كان طولُ الرجلِ اثنى عشر ذراعًا، وعليه فلا بد أن تكون البيوتُ عاليةً، مما يستلزم طول العماد، وقد كانوا أولي قوة وأولي بأسٍ شديد، ولذا قال تعالى: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ وذكّرهم هود عليه السلام بهذه النعمة فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ «الأعراف: ٦٩»، ولكنّ القومَ اغتروا بقوتهم: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ «فصلت: ١٥»، ولم يذكر اللهُ تعالى هنا ما فعل بهم، ولكنّه ذكره في مواضع كثيرة، منها قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ «الحاقة: ٦-٨».

وقوله تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أي: قطعوا الصّخر واتخذوا البيوت، يُقال: جاب فلانٌ البلاد، أي قطعها، ولقد ذكرهم نبيهم صالحٌ بهذه النعمة، فقال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ «الأعراف: ٧٤»، ولكنّ القوم كذبوا رسولهم: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ «الأعراف: ٧٧، ٧٨»، وقوله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ قال بعضُ العلماء: المرادُ بالأوتاد الجنودُ، الذي يثبتون الملك، كما تُثبّتُ الخيمةُ الأوتادُ، وقال بعضهم: إنّ فرعون كان إذا عذّب أحدًا مَدّ له أربعة أوتاد، وجعل كل طرفٍ من أطرافه في وتد، وأمر زبانيته أن يرموه بالصخر والحجارة حتى يموت، وقال بعضهم: المراد بالأوتاد الأهرامات، لأنها تشبه الأوتاد، وهذا القولُ هو الراجح لمناسبة الآية لما قبلها، إذا فسرناها به، فمنطقة الأهرامات ليس فيها من صخورها شيء، ومعناه أنهم أتوا بهذه الصخور من مسافات، وركّبوها فوق بعضها، حتى كانت على ما هي عليه، وفي ذلك إشارةٌ إلى قوتهم أيضًا، كما أشارُ إلى قوة ثمود بقوله: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾.

وقد كذّب فرعونُ المرسلين، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ «الذاريات: ٤٠»،

﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ «يونس: ٩٠-٩٢»، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ﴾: الطغيانُ هو مجاوزة الحدّ، والطغاة يفسدون في الأرض ولا يُصلحون، ولذا قال تعالى: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ يفسّره قوله تعالى: ﴿فَكُلاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ «العنكبوت: ٤٠»، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ «هود: ١٠٢»، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ «الحشر: ٢»، ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ «القمر: ٤٣-٤٦»، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾، ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ «إبراهيم: ٤٧»، ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾. نسأل الله السلامة.

كثيرٌ من الناس يربطون سعة الرزق برضا الله، فإذا رأوا رجلاً قد وسّع اللّهُ عليه قالوا: رَضِيَ الله عنه فوسّع عليه، وإذا رأوا آخر قد قُدِرَ عليه رزقه قالوا: سَخِطَ الله فأهانه، والإنسانُ نفسه يعتقد ما يعتقده الناسُ فيه، ﴿فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلاَّ﴾ ليس الأمرُ كما قال، فإنّ الله يوسّع على من يُحِبّ ومن لا يحب، ويقدر لمن يحب ومن لا يحب، وربما وسع على من لا يحب، وقدر لمن يحب، لقد كان الرسول ﷺ وهو خليلُ الله يربط الحجر على بطنه من الجوع.

وكان يمرّ الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما يُوقد في بيت رسول الله ﷺ نار. «متفق عليه».

فليست هناك علاقةٌ بين سعة الرزق ومحبة الله، ولا بين ضيق الرزق وسخط الله، بل الله يبتلي عباده بما يشاء، يبتلي هذا بالسعة لينظر أيشكر أم يكفر، ويبتلي هذا بالضيق لينظر أيصبر أم يكفر، والسعيد من إذا وُسع عليه شكر، وإذا قدر عليه صبر، ولا يكون كذلك إلا مؤمن، ولذا قال ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له». «رواه مسلم».

ولما أشار الله تعالى إلى قبيح قول الإنسان أشار إلى قبيح فعله، فقال: ﴿بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾، وهذه أفعال المكذبين بيوم الدين، الكافرين بالله رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ «الماعون: ١-٣»، وقال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ

ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾

«الحاقة: ٣٠-٣٤».

وقوله تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمًّا﴾ المرادُ بالتراث الميراثُ، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصبيان، حتى جاء الإسلام فقال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ «النساء: ١٢٧»، وقال: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِي لاَ تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾ يعني الذين لا تؤتونهم ما كُتِبَ لهم، فأعطى الإسلام المرأة حقها والصغير حقه، وإن الإنسان ليحزن حين يرى المسلمين يفعلون فِعْلَ الجاهلية، يأكلون التراث أكلاً لمّا، ولا يُؤتون كل ذي حق حقه، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

فيا إخوة الإسلام: احذروا أن تأكلوا التراث أكلاً لمّا، أيها الوالد: احذر أنْ تكتب لزوجة دون زوجة، احذر أن تكتب لأبناء واحدةٍ دون أبناء الأخرى، احذر أن تكتب للذكور دون الإناث، واحذر أنْ تعطي ولدًا دون الآخر.

أيها الإخوة: احذروا أن تَحْرِموا أخواتكم، فإنّ النساء من المستضعفين، وقد كان ﷺ يقول: «اللهم إني أحرج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة».

«ابن ماجه ٣٦٧٨».

أَعْطُوا كل ذي حق حقّه، واتقوا الله في أنفسكم، واتقوا الله في نسائكم، واتقوا الله في بناتكم، واتقوا الله في أخواتكم، و«اتقوا الظلم فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة». واتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب. قال ﷺ: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين».

فكيف حال من ظلم دونماتٍ أو فدادين ؟ كيف يطيق حملها يوم القيامة: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ «فاطر: ١٨»، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾. اتقوا الله عباد الله، فإن الله سبحانه ختم آيات المواريث بوعدٍ عظيم ووعيد شديد، فقال سبحانه بعد أن أعطى كل ذي حق حقه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي كثيرًا، وهذه فطرةُ الإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ «العاديات: ٦-٨»، والخير هو المال، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ «البقرة: ١٨٠» أي إنْ ترك مالاً كثيرًا، وهذا الحبّ الفطري لا يُذم إلا إذا حَمَلَ على كسب المال من الحرام، والبخل بما وجب فيه من حقّ، أما إذا كان الإنسانُ محبًا للمال يجمعه من حلال بطرق الكسب المشروعة، ويؤدي الحق الذي عليه فيه، فإنه لا يُذم حينئذ، وقد كان النبي ﷺ يقول: «لا بأس بالغنى لمن اتقى».

«رواه ابن ماجه».

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سورة الفجر

الحلقة الثانية

قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [سورة الفجر].

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

تفسير الآيات

يقول تعالى: ﴿كَلاَّ﴾ أي: حقًا، ﴿إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، وذلك يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣- ١٥]، فيوم القيامة تُدكّ الأرض والجبال، حتى لا يُرى عوج ولا أمت، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا﴾، ثم تنشق الأرض ويبعثر ما في القبور، ويجتمع الأولون والآخرون في صعيد واحد، حفاة عراة ليس عليهم شيء يسترهم، ولا على الأرض شيء يكنهم، ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٦]، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾، وذلك بعدما يستشفعون بالأنبياء، وكلهم يردهم إلى غيره، حتى يأتوا النبي ﷺ فيشفع له، بعد إذن الله لهم، وهي الشفاعة العظمى، والمقام المحمود، ثم يجيء الربّ سبحانه لفصل القضاء، يجيء كما يشاء، فالمجيء والإتيان والنزول، ونحو ذلك من صفات أفعاله سبحانه، يجب الإيمان بها من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل، وقوله تعالى: ﴿وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: يجيء الربّ سبحانه والملائكة قائمون صفوفًا صفوفًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ وَنُزِّلَ المَلاَئِكَةُ

تَنْزِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ قال ﷺ: «يُؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمامٍ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها». [صحيح رواه مسلم]. قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ﴾ يعني: يفيق من غفلته، وينتبه من رقدته، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، فيعلم أنه قصّر في نفسه، وفرّط في جنب ربه، ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ يعني: كيف تنفعه الذكرى الآن وقد أفضى إلى ما قدم؟ ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، فقد علم أن الحياة الحقيقية هي التي بدأت وليست التي انقضت، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وسوف يعلمون حين يرون العذاب أنّ الدار الآخرة هي الحيوان، وسيقول الإنسان المفرط: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، فيا عبد الله أفق وانتبه، فإن الله قد أخبرك عن مقولة الغافلين اللاهين قبل أن يقولوها يوم لا ينفعهم فيه قولها، فانتبه يا عبد الله، وعض أصابع الندم من الآن، على ما كان منك من تقصير، فإن ذلك نافعك اليوم، ولن ينفعك ﴿إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٨]، فالسعيدُ مَنْ أفاق من غفلته، وانتبه من رقدته، ورجع إلى ربه واستغفر من ذنبه، والشقي من اشتدت غفلته، فلم يفق حتى نزل الموتُ بساحته، فقال: إلى أين؟ فقيل: ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠]، ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ الذين ابتلوا بتعذيب الطغاة لهم- كأصحاب الأخدود مثلاً-، والذين شاهدوا ذلك من الطغاة وأتباعهم، والذين قرأوا عن قصص التعذيب، كلّ ذلك دون عذاب الله لأعدائه في الآخرة، وكلّ ما عرفه الطغاة من أساليب التقييد، فهو دون قيود الآخرة، وشتّان بين عذاب وعذاب، ووثاق ووثاق، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، ﴿إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وفي وسط هذا الهول المروع، وهذا العذاب والوثاق، الذي يتجاوزُ كل تصوير تُنادى النفسُ المؤمنة من الملأ الأعلى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي

(٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

والنفس قد وُصفت في القرآن بثلاث صفاتٍ: وصفت هنا بالمطمئنة، وفي موضع ثان باللوامة، ووصفت في موضع ثالث بأنها أمارة بالسوء، وهذه الصفات الثلاث طرفان ووسط، الطرف الأول محمود، والثاني مذموم، والوسط إن مال إلى الطرف الأول كان محمودًا، وإن مال إلى الثاني كان مذمومًا، فإن النفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها، فإن لامته على فعل الشرّ فقد مالت إلى الطرف الأول، وإن لامته على فعل الخير فقد مالت إلى الطرف الثاني.

والنداء في الآية للنفس المطمئنة، «وأصل الطمأنينة: السكوت والاستقرار، فالنفس المطمئنة: هي التي سكنت إلى ربها وطاعته، وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخيره، واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرضا به ربا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحسبه وقضائه، فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلهها، ومعبودها ومليكها، ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين. وصاحب هذه النفس كالمرابط على ثَغر، يخاف أن يأتي العدو من قِبله، فهو دائمًا مراقبها، فمتى رأى منها التفاتًا إلى غير بارئها تلا عليها: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾، فهو يردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه، فينصبغ القلب بين يدي إلهه ومعبوده الحق بصيغة العبودية، فتصير العبودية صفةً... لا تكلفًا، فيأتي بها تودُّدًا وتحببًا وتقربًا، كما يأتي المحب المقيم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله، فكلما عرض له أمر من ربه أو نهي أحسّ من قلبه ناطقًا ينطق: لبيك وسعديك، إني سامع مطيع ممتثل، ولك علي المنة في ذلك، والحمد فيه عائد إليك». اهـ. بتصرف من «إغاثة اللهفان» لابن القيم (١/٧٣، ٧٦).

وهذا النداء تسمعه النفس المطمئنة يوم البعث، كما تسمعه عند الموت، كما في حديث البراء بن عازب: «إن المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، تنزلت عليه من السماء ملائكة بيضُ الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوطٌ من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء».

فإذا نُفخ في الصور نوديت هذه النفس بهذا النداء: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ أي: صاحبك، وهو بدنُها الذي كانتْ تعمرُه في الدنيا ﴿رَاضِيَةً﴾ عما أُعدّ لك في جنات النعيم: ﴿مَرْضِيَّةً﴾ قد رضي الله عنك، كما تكرّر في القرآن الكريم قوله تعالى عن أوليائه المؤمنين: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

وقوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ يعني: ليحيوا، ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ التي بها وُعدت.

اللهم اجعلنا من أهل هذا النداء عند الموت ويوم البعث برحمتك يا أرحم الراحمين.

سورة البلد

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ [سورة البلد].

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، استُفْتحتْ بالقَسَمِ على حقيقة في حياة الإنسان ثابتة، وهي: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، ثم ذكرت دلائل قدرة الله على هذا الإنسان الذي ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، وكشفت له عن صعوبة الطريق، وعن العقبات التي تعترضُه في سيره إلى ربه، وحثته على الاجتهاد على اقتحام هذه العقبات، وبينت له الأمور التي يستعينُ بها على ذلك، ثم خُتِمَت بالوعيد للذين وقفوا أمام هذه العقبات عاجزين عن اقتحامها، لتسلط النفس والهوى والشيطان عليهم، أولئك ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾.

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾: يُقْسِمُ سبحانه بهذا البلد، وهو البلد الحرام مكة، كما أَقْسَم به في سورة التين: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين: ١- ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ لفظ «حلٌّ» يُطْلَقُ على المقيم، ويُطْلَقُ على الحلالِ غير المحرم، فعلى الأول يكونُ المعنى: لا أُقْسم بهذا البلد، وأنت مقيمٌ به، وإقامتك به تزيدُه تشريفًا وتكريمًا وتعظيمًا، وإن كان هو في ذاته شريفًا كريمًا عظيمًا، ولذلك استحق أن يقسم الله به، وعلى المعنى الثاني يكونُ المرادُ: أنه يحلّ لك في هذا البلد الحرام ما لا يحلّ لغيرك من القتل ونحوه، مما هو حرام على غيرك فيه، ويكونُ ذلك إخبارًا عما سيكون يومَ الفتح، فإنّ النبي ﷺ

حين دخل مكةَ فاتحًا أمر بقتل أربعة نفرٍ ولو كانوا تحت أستار الكعبة، ثم خطب ﷺ فكان مما قال: «إن مكة حرمها الله، ولم يحرمها الناس، لا يحلُّ لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضدَ بها شجرةً، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولُوا: إن الله أذِنَ لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب. [متفق عليه].

ومعنى ذلك أن الله أخبر نبيه ﷺ بأنه سيحل له بمكة ما لم يحل لغيره بها، كما أخبره بأنه سيموت بقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾، واضح، وهو على ظاهره يشمل كل والدٍ وكل ولدٍ، وجواب القسم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ أي: في تعب ومشقة، وجُهد وكدٍ، وكفاح وكدح، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] ، قال العلماء: يكابد الإنسان هذا الكبد من أول لحظة تستقرّ فيها النطفة في الرحم، فما أن تستقر النطفة وتلتقي بالبويضة فتكوّن الخلية الأولى، حتى تأخذ هذه الخلية في الكبد لتهيئ لنفسها الجوّ المناسب والظروف الملائمة بإذن ربها، وما تزال تعاني من هذا الكبد حتى ينشئها الله خَلْقًا آخر، حتى إذا أراد الخروج من بطن أمه عانى من ألم المخاض ومرجعه ما تُعانيه الوالدة أو أكثر، وربما مات خنقًا أثناء خروجه، فإن خرج سالمًا بادروا إلى قطع سرته بالموسى، فعانى من ذلك أشد المعاناة، ثم لفّوه في لفافةٍ وكأنها قيدٌ غليظ، فعانى من ذلك الشيء الكثير، ثم يكابدُ الرضاع الذي لو فاته لضاع، حتى إذا مضى عليه أُسبوع دَعْوَا بالموسى ليحلقُوه ويختنوه، وفي ذلك من الكبد ما هو معلوم، فإن طالت أيامه عانى من ألم ظهور الأسنان، ثم يكابد مشقة تعلم الانتصاب والمشي، حتى إذا أدرك ووعى كابد ألم التعلم وضَرْبَ المعلم، وتأديب المؤدب، حتى إذا استقل بالمعيشة كابد مِنْ أجل الزواج، فإذا تزوج كابد مشقة الزواج ومسئوليته، ثم يكابدُ مِنْ أجلِ الأطفال، وهو في ذلك كله لا يَسْلَمُ من الأسقام والآلام، حتى إذا بلغ من الكبر عتيًا ضَعُفَ سمعه وبصرُه، وانحنى ظهرُه وضَعُفَتْ قوته، حتى إذا انتهى أجلُه كابد مشقة سكرات الموت، فإنْ دُفِنَ كابدَ ضغطة القبر، وشدة السؤال، فإذا بُعثر ما في القبور كابدَ الأهوالَ العظام، حتى يرى سبيله إمّا إلى جنة وإمّا إلى نار، فإنْ كانت الأولى فقد استراح، وقال مع أهلها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥]، ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٤]، ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

فلو كان للإنسان الخيرة من أمره، ما اختار هذه الحياة، لما فيها من هذه المتاعب، ولكن قضاء الله وقدره، وله الحكمة التامة، فنسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحُسن عبادته، حتى يريحنا من كبد الدنيا بسُكنى جنته، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ يعني: أيظن أن لن يسأل ويحاسب على جميع أعماله، فهو ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا﴾ أي كثيرًا، ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ يعني: أيظن أن الله لم يره ! ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ يبصر بهما، ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ينطق اللسان وتساعده الشفتان، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي: بيّنا له الطريقين: طريق

الخير، وطريق الشّر حتى صار كلّ طريق ظاهرًا وواضحًا وضوح النجد، وهو في الأصل الأرض المرتفعة، فلما ظهر الحق والباطل ظهورًا واضحًا، كان كلٌ منهما كالنجد، فسمّى به، فقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣].

قوله تعالى: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ معناه: فلا اقتحم العقبة، فهو حصنٌ من الله للإنسان على اقتحام العقبة، وهي في الأصل الطريقُ في الجبل، سُميت كذلك لصعوبة سلوكها، والمرادُ بها هنا كل ما يمنع الإنسان من سلوك طريق الخير، من النفس والهوى والشيطان، وثِقَلِ التكليف، والاقتحامُ معروفٌ، وهو الدخول في الشيء بقوةٍ، من غير تدبر ولا روية، فلا اقتحم الإنسانُ هذه العقبات حتى يصل إلى رضوان الله والجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾، سؤالٌ لتفخيم شأنها وتعظيم أمرها، ثم أرشد إلى كيفية اقتحامها، فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، والمرادُ بفكّها عتقها، وقد كان النبي ﷺ يحثّ على ذلك ويرغّب فيه فيقول: «مَنْ أَعْتَق رقبة، أعتق اللّهُ بكل عُضوٍ منها عُضوًا من أعضائه من النار، حتى فَرْجَه بفرجه». [البخاري: ٦٧١٥، ومسلم: ١٥٠٩].

وقوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ والإطعامُ في وقتِ المجاعة أفضلُ من الإطعام في وقت الرخاء، لأن طبيعة النفس الجود في السعة، والإمساك في الضيق، فكان الإطعام في المسغبة أعظم أجرًا لأن الإنسان يحقق نصرًا عظيمًا على نفسه، ثم هو يُنفق راجيًا أن يُخْلِفَ الله عليه، ثقةً بوعدِه سبحانه: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، ولذا فرق الله سبحانه بين من أنفق قبل الفتح ومن أنفق بعده، فقال: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [الحديد: ١٠]، وذلك لأن قبل الفتح كان بالمسلمين حاجة، وكانوا قلّة، وأما بعد الفتح فقد كثر عددهم وكثر رزقهم، وقد بين النبي ﷺ أيضًا ذلك، فقال- وقد سُئل: أي الصدقة أفضل ؟ قال: «أن تصدّق وأنت صحيحٌ شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى». [متفق عليه].

وخصّ ربنا سبحانه الإطعام باليتيم ذي المقربة لأن «الصدقةُ على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقة، وصلة». وقوله تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، وهو البائسُ المعدوم، الذي لا يجد شيئًا، حتى إنه ليفترش التراب من الحاجة، وهذه الأعمال لصالحة من العتق والإطعام ونحوهما لا تنفع من غير إيمانٍ، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فالإيمان هو أساسُ قبول الأعمال إذا توفرت شروط القبول الأخرى، فالكافر لا يُقبلُ منه عملٌ أبدًا، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤] ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قُلْتُ: يا رسول الله، ابنُ جُدعان، كان في الجاهلية يصلُ الرحمَ، ويطعمُ المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقلْ يومًا: ربّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين». [رواه مسلم ١/١٩٦/٢١٤].

وأما المؤمنون فإنّ أعمالهم مقبولةٌ بشرطين: الإخلاصُ الله، والمتابعةُ لرسوله ﷺ: قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ

الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدينا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

وقال ﷺ: «مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ يعني: أنه لا يكفي للنجاة أن يكمّل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح، حتى يسعى إلى تكميل غيره أيضًا، فيدعوهم إلى الإيمان، ويأمرهم بالعمل الصالح، وأهمّه الصبر، وهو أنواعٌ ثلاثة: صبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية، وصبرٌ على الاقدار المؤلمة، كما أنّ مِنْ أهمّ الأعمال الصالحة الرحمةَ بعباد الله، ولذا جمع الله بينها وبين الصبر، فقال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، ووصايا الرسول ﷺ لأمته بالصبر والرحمة كثيرة جدًا، ومنها: «مَن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغْنِ يُغْنِه الله، ومن يتصبرْ يصبره الله، وما أُعْطِي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر». [متفق عليه] وقوله: «الصبرُ ضياء». [رواه مسلم: ١/٢٠٣/٢٢٣، والترمذي: ٥/١٩٦/٣٥٨٣، والنسائي: ٥، ٦/٥].

وقولُه للمرأة السوداء التي قالت: إني أُصرع وإني أتكشفُ، فادعُ الله تعالى لي، فقال لها: «إنْ شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله لك». فقالت: أصبر. [متفق عليه].

وقوله ﷺ: «من لم يرحم الناس لا يرحمه الله». [رواه الترمذي: ٣/٢٩٦/١٩٨٧].

وقوله: وقد بكى على ابنٍ بنتٍ له مات، فقيل له: ما هذا؟ فقال: «هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوب من شاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء». [متفق عليه].

وقوله: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفات هم أصحابُ الميمنة، وجزاؤهم عند ربهم مذكور في سورة الواقعة: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧-٣٨].

وهذه الآياتُ كقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١- ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أي: أصحابُ الشمال، ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾ أي: مُغْلَقةٌ عليهم فلا يخرجون منها أبدًا، ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٦]، وقد فصّل الله تعالى ما أجمله هنا في سورة الواقعة، فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤].

أجارنا الله وسائر المسلمين من نار الجحيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة الشمس

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (١٣) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾

[سورة الشمس].

بين يدي السورة

سورة مكية، انقسمت قسمين، الأول: يتضمن حقيقة النفس الإنسانية، واستعداداتها الفطرية، ودور الإنسان في شأن نفسه، وتبعيته في مصيرها، والثاني يتضمن قصة ثمود، وتكذيبها بإنذار رسولها، وعَقْرَها للناقة، ومصرعها بعد ذلك وزوالها، وهي نموذج من الخيبة التي تصيب من لا يزكي نفسه، فيدعها للفجور ولا يُلْزمها تقواها.

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾: يقسم الله سبحانه بهذه الخلائق والمشاهد الكونية، كما يُقْسِمُ بالنفس وتسويتها وإلهامها، ومن شأن هذا القسم أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى، وأن يوجّه إليها القلوب تتملاها وتتدبر ماذا لها من قيمة وماذا بها من دلالةٍ، حتى استحقت أن يُقْسِم بها الجليل العظيم.

وهذا القسم ظاهر المعنى، وقوله تعالى: ﴿وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ أي: سوّاها وبَسَطها، وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ «أي: خلقها سويّةً مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تولد البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» [متفق عليه]. اهـ (تفسير ابن كثير).

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أي: فأرشدها إلى فجورها وتقواها، أي بيّن ذلك لها، وهداها إلى ما قدر لها، وهاتان الآيتان كقوله تعالى في الآية السابقة في سورة البلد: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، وكقوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، وهذه الآيات كلّها مجتمعة تفيد أنّ الإنسان ذو إرادة مزدوجة، وقدرةٍ كذلك، فهو يريدُ الخير كما يريد الشر، وله من القدرة ما ينفذ به ما أراده من الخير أو الشر، وهو

مكلفٌ بفعل الخير واجتناب الشر، فإن فعل ذلك أَفْلَحَ وأَنجحَ، وإنْ فعل خلافه فقد خاب وخسر، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ أي: قد أفلح مَنْ طهَّر نفسه منْ دنس الكفر والخطايا، وقد خاب من أَخْفَى دوافع الخير في نفسه حتى أماتها، وأظهر دوافع الشرّ حتى قوّاها ثم تبعها.

والتزكيةُ لا تكونُ إلا بالإيمان والعمل الصالح، وما شُرِعَت العباداتُ إلا لتزكية النفس، قال الله تعالى عن الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩-٢٢]، وقال عن الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال النبي ﷺ عن الصوم: «الصيام جُنّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفُثْ يومئذٍ ولا يسخبْ، فإنْ سابه أحدٌ أو قاتله فليقل: إني امرؤٌ صائم». [متفق عليه].

وقال الله تعالى عن الحج: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقال النبي ﷺ: «من حج فلم يَرْفُثْ ولم يَفْسُق رجعَ من ذنوبه كيوم ولدته أمه». [متفق عليه].

وهكذا تجتمع العبادات كلها على تحقيق تزكية النفس، التي لا فلاح للإنسان إلا بتزكيتها، فاحرص يا عبد الله على كل ما يزكّي نفسك، واعلم أن الأمور كلها بيد الله: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١].

ففروا إلى الله بالدعاء، كما كان النبي ﷺ يدعوه فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهَرَم وعذاب القبر، اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكها أنت خيرُ من زكّاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذُ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوة لا يُستجاب لها».

ثم بعد ذلك يعرض الله سبحانه وتعالى نموذجًا من نماذج الخيبة التي ينتهي إليها من يُدَسّي نفسه، فيحجبها عن الهدى ويدنّسها، ممثلاً هذا النموذج فيما أصاب ثمود من غضب ونكال وهلاك، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾: قد أرسل الله إلى ثمود أخاهم صالحًا، فقال: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، فكذبوا رسولهم، وعَصَوا أمر ربهم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، وذلك بسبب ما كانُوا عليه من الطّغيان والبَغْي، ولذا قال تعالى هنا: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾، ولقد كانوا طَلَبُوا من صالح آيةً، ناقةً عُشَراء، تخرجُ من هذه الصخرة، لصخرةٍ عينوها، وأَعْطوه عُهودهم ومواثيقهم لئن جاءهم بها ليؤمنّن به، فدعا صالحٌ ربه، فأخرج الله لهم الناقة، فقال لهم صالح: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ولكن القوم نَقضُوا عهودهم ومواثيقهم، وهمُّوا بعقر الناقة، فانبعث لذلك أشقاهم، ﴿فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]، قال تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾، ونسب العَقْرَ إليهم مع أنَّ العاقر واحدٌ، لأنهم قد رَضُوا بذلك، وقد جرتْ حِكْمةُ الله وحُكْمُه أنّ الراضي بالمنكر شريك لفاعله، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، ولذا عمّ العذابُ قوم ثمود: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ يعني: ما خافَ اللهُ من أحدٍ حين سوّى الأرض بقوم ثمود، ومَنْ ذا الذي يخافُه الجبارُ ؟! والذي لا يخاف عاقبة بطشه يكونُ بطشُهُ شديدًا، وأَخْذُه أليمًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

نسأل الله تبارك وتعالى العفو والعافية، في الدنيا والآخرة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة الليل

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

يقول تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى (١٣) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [سورة الليل].

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، استُفتحت بالقسمِ من الله تعالى على اختلاف سعي الناس في هذه الحياة، ثم أندر الله عباده ناره الحامية، وبين كيف يتقونه.

تفسير الآيات

يُقْسِمُ الله تعالى بالليلِ إذا يَغشى الكون بظلامه عند مجيئه، وبالنهار إذا تجلى بضيائه وإشراقه، فأزاح عتمة الليل، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ أي: أُقسم بالله العظيم الذي خَلَق بقدرته الذكر والأنثى من ماءٍ واحد، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠] ؟ سبحانك بلى.

وجوابُ القسم: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ يعني: إن سَعيكم لمختلفٌ. مختلفٌ في حقيقته، مختلفٌ في بواعثه، مختلفٌ في نتائجه، فمنكم المؤمن والكافر، والبارُّ والفاجر، والمطيعُ والعاصي، والجوادُ والبخيل، ومنكم من يَسْعَى في فِكَاكِ نَفْسِه وعِتْقِها، ومنكم من يَسْعَى في عَطبها، كما قال النبي ﷺ: «كلُّ الناس يغدو، فبائعٌ نفسه، فمعتقها أو موبقها».

قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ حقّ السائل والمحروم، ﴿وَاتَّقَى﴾ البخل والشح، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾، وهي الجنة، وأن الله يُخْلِفُ عليه

خيرًا مما أنفق وأعطى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩]، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ حتى يصير فعلَ الخير عليه يسيرًا، لا يجد مشقة في فعله، ولا يجد حرجًا منه، فيكون دائمًا مسارعًا إلى طاعة الله، ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بماله، فلم يُعْطِ حقّ الفقراء والمساكين، ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ عن ربّه، لظنه أنّ الغني يكفيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦، ٧]، ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ فلم يثقْ بوعد الله أن يُخلفَ عليه إذا أنفق، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ فتكون الطاعةُ عليه عسيرةً، وفعلُ الخير عليه شاقًا، بينما المعصيةُ عليه بخلاف ذلك، فهو دائمًا سريعًا إلى معصية الله، بطيئًا عن طاعته، وفي هذه الآيات إشارةٌ إلى أن للإنسان إرادة يحاسبه الله بناءً عليها، فمن أراد الطاعة وأحبها يُسّر لها، ويُسّرتْ عليه، ومَنْ أرادَ المعصيةَ وسَعَى لها سَعْيها يُسر لها، ويُسرتْ عليه: «وكلّ ميسر لما خُلِقَ له».

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ يعني: أنّ هذا الذي بَخِلَ واستغنى، إذا تردّى في جهنم لن يُغْني عنه ماله الذي حَرَصَ عليه وعدّده- من العذاب شيئًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦، ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩].

يقول تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ أي: نبيّن للناس الحلال والحرام، وطريق الخير وطريق الشر، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، وقد فعل سبحانه، فأرسل رسُله مبشرين ومنذرين، وأنزل كتبه فيها هدًى ونورٌ، فتحققت الهداية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى﴾ يعني أنه سبحانه له الأمر في الأولى والآخرة، وهو الذي بيده ملكوتُ كلّ شيء، يُعْطي من يشاء ويمنع من يشاء، ويعزّ من يشاء ويذل من يشاء، ويوفّق من يشاء، ويَخْذُلُ من يشاء، ويهدي من يشاء، ويضلُّ من يشاء، فمن أرادَ الدنيا فليطلبها من الله، ومن أراد الآخرة فليطلبها من الله ؛ لأن له سبحانه الآخرة والأولى، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤]، فاطلب حوائجك كلها من الله يا عبد الله، ولا تجعل الدنيا أكبر همك، سَل الله عز وجل ثواب الدنيا والآخرة، ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠٢].

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ أي: تتوهج، والإنذار هو الإعلام مع التخويف، فكل إنذارٍ إعلام، وليس كل إعلامٍ إنذارًا، وإنما أنذر الله العباد ليعملوا على وقاية أنفسهم من هذه النار الحامية، التي فُضِّلَتْ على نار الدنيا بتسعة وستين جزءًا، كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه. والتي أهون أهلها عذابًا أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغُه، كما أخبر النبي ﷺ.

وقد أمر الله المؤمنين صراحة أن يقوا أنفسهم هذه النار، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ أي: لا يدخلها دخولاً بحيث تحيط به من كل جانب إلا الأشقى، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، ثم فسّر الأشقى الذي يصلاها، فقال: ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أي: كذب النبي ﷺ وكذب بالحق الذي جاء به، وتولى عن النبي ﷺ وأعرض عنه، وقوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ أي: سُيزحزح عن النار وينجو منها ومن حرّها الأتقى، وذلك أن الناس كلهم يردُون النار، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، والورودُ معناه الدخول، وكلُّ ورودٍ للنار في القرآن فمعناه دُخُولُها، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩]، وذلك الورودُ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي: داخلها، وذلك أنّ الصراط يُنصب في وسط جهنم، ثم يجوز الناس، فالأشقى تتخطفه الكلاليب فتصلاه جهنم، والأتقى يُزحزح عنها فلا تمسه، بل تكون عليه بردًا وسلامًا: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وقال هنا: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾، ثم فسّره بقوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ أي: يُنفق في سبيل الله، يزكي نفسه بالنفقة، كما سبق بيانه في سورة الشمس عند قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ يعني أنه لا يُنفق مكافأةً ولا جزاء، فإنّ الناس في الإنفاق: منهم مَن يُنفقُ ينتظر المكافأة بأحسنَ مما أنفق أو بمثله، ومنهم من ينفق مكافأةً وجزاءً لمن أنفق عليه، ومنهم من ينفق رياءً وسمعةً، ومنهم ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾، وذلك الأتقى الذي يجنب النار يوم القيامة، ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ في الدنيا عن ربه، وعن دينه وعن سعيه، ولسوف يرضى في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، والشدّة والرخاء، والعافية والبلاء، سوف يكون دائمًا راضيًا، آمنًا مطمئنًا، لا يقلق ولا ينزعج، ولا يستعجل النتائج ؛ لأنه قد رضي بربه ورضي عنه، ولسوف يرضى في الآخرة حين يلقى الله عز وجل، ونرجو أن يجعلنا اللهُ هذا الرجل.

قواعد ذهبية

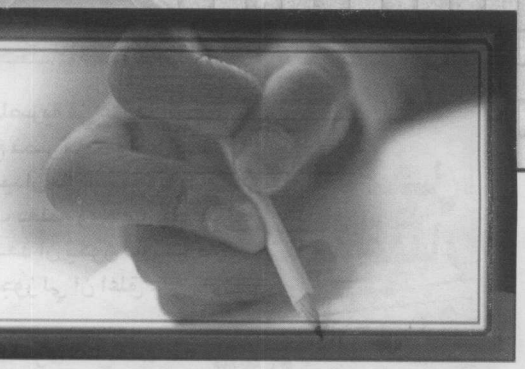

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله،

وبعد:

فعنْ أبي مُوسَى الأشْعَرِيِّ رضيَ اللهُ عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ بعثَهُ ومُعَاذًا إلى اليَمَنِ فقَالَ: «لِهُمَا يَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا وَبَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا وَتَطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا»(١).

بعث النبيُّ ﷺ أبا موسى الأشعريَّ، ومعاذَ بنَ جبلٍ رضي الله عنهما إلى اليمن داعيَيْن إلى الإسلام، ومُعَلِّمَيْن للمسلمين ولمن دخل في الإسلام، فقال لهما قبلَ سفرِهما موصياً وناصحًا، ومعلمًا ومرشدًا لهما كيف تكون الدعوة.

وما هي الأساليب التي يجب عليهما اتِّباعُها لتحقيق الغاية من سفرهما وهي دخول الناس في دين الله أفواجا، قال لهما:

الوصية الأولى: «يَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا»

أي بيّنا للناس سماحةَ الإسلام، ويُسْرَ الدين، فإنَّ هذا الدينَ يُسْرٌ لا عُسْرَ فيه، ولا مشقَّة ولا حرج، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]. فالدِّينُ يُسْرٌ لاعُسْرَ فيه، لا عُسرَ في العقيدة، ولا عُسرَ في الأحكام

فالإيمانُ أنْ تُؤمِنَ باللهِ ومَلائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَوْمِ الآخر، وتؤمنَ بالقَدرِ خَيْرِه وشَرِّه (٢)، وكلها عقائدُ سهْلةٌ وميْسورة، لا خفاءَ فيها ولا غُموض،

ولا تعقيدَ ولا مشقَّة، وكلُّ إنسانٍ يرى في نفسه القدْرَةَ على اعتقاد هذه العقائد، لأنَّها عقائدُ تقْبلُها العقولُ السَّليمة، وتُقِرُّها الفِطَرُ المسْتقيمة. والإسلامُ أن تشْهد أنْ لا إلهَ إلاَّ الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وتَصُومَ رَمضانَ، وتَحُجَّ البَيْتَ إنِ اسْتَطَعْتَ إليه سبيلا. (٣)

والصَّلواتُ خَمْسٌ في اليوم والليلة، لا تستَغْرِقُ من الأرْبَعِ والعشرين ساعةً ساعةً. يُشترط فيها الوضوءُ فمن عجز عنه تيمَّم، ويُشْتَرطُ فيها استقبالُ القبلة فمن عجز عنْه لمرَضٍ أو غيره ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]، ويُشترط فيها القيامُ فإنْ لم تستطعْ فقاعدا، فإنْ لم تستطع فعلى جنب. (٤)

والزَّكاة لا تجب إلا على مَنْ ملَك نصابًا معيّنًا من المال وحال عليه الحول، ولا تجب إلا كلَّ سنَة، والقدْرُ الواجب إخراجُه شيء يسير جدًا بالنسبة إلى ما في يد المالك، فهو رُبُعُ العُشْرِ، بمعدّل كلِّ ألْفِ جُنَيْهٍ خمْسَةٌ وعشرون جنيها.

والصِّيامُ أيَّامٌ معدودات، هي شهْرُ رمضان كلَّ عام، ومع ذلك ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة:١٨٤].

وأما الحجُّ فلا يجب إلا مرّةً واحدة في العمر على من استطاع إليه سبيلا، فمن لم يستطع فلا جناح عليه.

فمن فعل ذلك دخل الجنة، كما في الحديث عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه قَالَ: «نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ ! أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ ؟ قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ آللَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ:«نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا ؟ قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا

من قواعد الدعوة الربانية

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: ثُمَّ وَلَّى. قَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُنَّ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ» (٥).

هذا هو الدِّين، هذا هو الإسلام، سَهْلٌ سَمْحٌ، جليٌّ واضح، لا خفاءَ فيه ولا غُموض، ولا حرجَ فيه ولا مشقَّة، فيجبُ على الدُّعاة أن يعوا هذه الحقيقة، وأن يستجيبوا لهذه الوصيَّة، وأن يُيسِّروا ولا يُعسِّروا، وأن يُقدِّموا الدِّين للناس سَلسًا سهلاً، وأن يُحْسِنُوا عَرْضَه حتى يُقْبِلَ النَّاس عليه ويَدْخُلوا فيه، وللدُّعاة في ذلك الأسوةُ الحسَنة، والمثَلُ الأعْلى، في الدَّاعية الأوَّل محمَّد رسُولِ الله ﷺ، فلقد كان ﷺ ييسِّر على الناس، ويبسِّط لهم الإسلام، حتى دخل الناسُ في دين الله أفواجا، و«إنْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ لَيَدَعُ العَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِم»(٦)، كما فعل في قيام رمضان، صلَّى في المسْجد، فصلَّى بصلاته أناسٌ، ثم صلَّى من القابلة فكثُر الناس. ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة فلم يخْرُجْ إليهم، فلما أصبح قال: «قَدْ رَأَيْتُ الَّذِي صَنَعْتُمْ وَلَمْ يَمْنَعْنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكُمْ إِلاَّ أَنِّي خَشِيتُ أَنْ تُفْرَضَ عَلَيْكُمْ» (٧).

وأخّر العشاء ليلةً حتى نام مَن في المسجد ثم خرج فصلاّها. ثم قال:

«إِنَّهُ لَوَقْتُهَا لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي» (٨).

وقال ﷺ:«لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ»(٩).

وكان ﷺ يحْلُم على الجاهلين، ويُعلِّمهم برفقٍ ولين، وينْهي عن نَهْرِهم وأذيّتهم.

عن أَبي هُرَيْرَةَ رضيَ الله عنه قَالَ: قَامَ أَعْرَابِيٌّ فَبَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَتَنَاوَلَهُ النَّاسُ، فَقَالَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُوهُ، وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ - أَوْ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ - فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ» (١٠).

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ. فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ ! فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ. فَقُلْتُ: وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ ! مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ. فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي. لَكِنِّي سَكَتُّ. فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ! مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ. فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلاَ ضَرَبَنِي وَلاَ شَتَمَنِي. قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» (١١).

وكان ﷺ ينكر على كل من شدّد على نفسه:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا. قَالُوا: فَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ رسول الله ﷺ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ الآخَرُ: وَأَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ، وَقَالَ الآخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ وَلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» (١٢).

وعَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَمْرِو بن العاص رضي الله عنهما قَالَ: أُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنِّي أَقُولُ: وَاللَّهِ لأَصُومَنَّ النَّهَارَ وَلأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ، فقال رَسُولُ الله ﷺ: «أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ ذَلِكَ؟» فَقُلْتُ لَهُ: قَدْ قُلْتُهُ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «فَإِنَّكَ لاَ تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ فَصُمْ وَأَفْطِرْ وَقُمْ وَنَمْ وَصُمْ مِنَ الشَّهْرِ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَذَلِكَ مِثْلُ صِيَامِ الدَّهْرِ». قُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمَيْنِ». قُلْتُ: إِنِّي أُطِيقُ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «فَصُمْ يَوْمًا وَأَفْطِرْ يَوْمًا، فَذَلِكَ صِيَامُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، وَهُوَ أعدل الصِّيَامِ». قُلْتُ فإِنِّي أُطِيقُ

أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ. فَقَالَ رسول الله ﷺ: «لاَ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ».(١٣)

فيا معْشَرَ الدُّعاة ! يسّروا ولا تعسّروا.

الوصية الثانية: «وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا»:

أي: بشّروا النّاسَ أنَّ الله يقْبَلُ التَّوبَةَ عن عباده، ويعْفُو عن السيِّئات، بلّغوا الكافرين قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

بلّغوهم قَوْلَ الله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

بلّغوهم قولَه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا(٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا(٦٩) إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان:٦٨- ٧٠].

ذكّروهم أنَّ الإسلامَ يَجُبّ ما قبله، كما في الحديث عَنْ عَمْرِو بن الْعَاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الإِسْلاَمَ فِي قَلْبِي أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: ابْسُطْ يَمِينَكَ فَلأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ قَالَ: فَقَبَضْتُ يَدِي. فقَالَ: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو ؟» قُلْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ. فقَالَ: «تَشْتَرِطُ مَاذَا ؟». قُلْتُ: أَنْ يُغْفَرَ لِي. قَالَ: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ»(١٤).

ذكّروهم بهذا، وبشّروهم أنَّ كلَّ ما عملوا من خَيْرٍ في الكُفْرِ فلهم أجرُه في الإسلام، وكلَّ ما عملوا من شرٍّ مُحِيَ عنهم إثْمُه بالإسلام: عَنْ عُرْوَةَ عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللهُ عَنْه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه ! أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ صِلاَةٍ وَعَتَاقَةٍ وَصَدَقَةٍ، هَلْ لِي بِهَا أَجْرٌ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ»(١٥). وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «إِذَا أَسْلَمَ الْعَبْدُ فَحَسُنَ إِسْلاَمُهُ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ كُلَّ حَسَنَةٍ كَانَ زَلَفَهَا، وَمَحَا عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ كَانَ زَلَفَهَا، وَكَانَ عَمَلُه بَعْدُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرَةِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَةِ ضِعْفٍ، وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلاَّ أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ تعالى عَنْه»(١٦).

فبشّروا ولا تنفّروا

بشّروا عُصاةَ المسلمين بأنَّ اللهَ واسعُ المغفرة، ورحمتُه وسعَتْ كلَّ شيء، بشّروهم بأنَّ الله يبسط يدَه باللَّيْلِ ليتوبَ مسيءُ النَّهار، ويبسطُ يدَهُ بالنَّهارِ ليتوبَ مُسيءُ اللَّيْل.(١٧).

بشّروهم بأنَّ من استغفرَ اللهَ غفرَ له، ومن تابَ إليْه تابَ عليه. بشّروهم بأنَّ الله لا يطردُ أحدًا عن بابه.

بشّروهم بأنه: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ: لاَ. فَقَتَلَهُ فَأَتَمَّ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى عَالِمٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ ! انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ تعالى، فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ، حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أدركه الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ تعالى. وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ. فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ - أي حكما - فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَنَأَى بِصَدْرِهِ جِهَةَ أهل الطاعة فكان أقرب إليها فقبضته ملائكة الرحمة» (١٨).

فبشّروا عصاةَ المسلمين، وقُولُوا لهم: إذا كانَتْ هذه رحمةَ الله بمَن قتلَ مائةً مِنْ غيْرِنا، فنحْنُ أوْلى وأحقُّ برحْمَةِ الله مِنْ هذا القاتل، لأن أُمَّتَنا خيْرُ الأمم وأكْرَمُها على الله عز وجل.

بشّروهم بقولِ النبيِّ ﷺ: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ. فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ. فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ» (١٩).

فبشّروا ولا تنفّروا، ووسِّعُوا على عبادِ الله ولا تتحجَّروا واسعًا.

ولقد كان النبيُّ ﷺ يُنكر على المنفّرين:

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ البدريّ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ فَقَالَ: إِنِّي لأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ مِنْ أَجْلِ فُلاَنٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا. فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ غَضِبَ

في مَوْعِظَةٍ قَطُّ أَشَدَّ مِمَّا غَضِبَ يَوْمَئِذٍ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِزْ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ والصغير وَذَا الْحَاجَةِ» (٢٠).

وأعظَمُ من ذلكَ إخبارُه ﷺ أنَّ الله يُعذِّب الذين يقنطون النَّاسَ من رحمته: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلَانِ مُتَوَاخِيَانِ، أَحَدُهُمَا مُذْنِبٌ وَالآخَرُ فِي الْعِبَادَةِ مُجْتَهِدٌ، فَكَانَ الْمُجْتَهِدُ لا يَزَالُ يَرَى الآخَرَ عَلَى ذَنْبٍ، فَيَقُولُ: أَقْصِرْ. فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي. أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا ؟ ! فَقَالَ له: وَاللَّهِ لا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ. أَوْ قال: لا يُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ. فَقَبَضَ اللهُ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَقَالَ الربُّ تعالى لِلْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا ؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي. وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ.

فبشروا ولا تنفروا

بشّروا المستضعفين في الأرض من المسلمين بالنّصر والتّمكين، ولا تزرَعُوا في نفوسهم اليأس، فقد كان ﷺ يبشّر العُصْبَةَ المؤمنةَ بالنّصر والتمكين، وقيام الدّولة واتّساع الرُّقعة، وهم تحتَ وطأة التعذيب.

عَنْ خَبَّابِ بن الأرتّ رضي الله عنه قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَقُلْنَا: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا ؟ أَلا تَدْعُو لَنَا ؟ فَقَالَ:

«قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمِنْشَارِ فَيُوضع عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لحمه وعظمه مَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ. وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَستعْجِلُونَ» (٢١).

وكان ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ حتى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا» (٢٢).

فبشّروهم. بشّروهم بأنّ المستقبلَ لهذا الدين، وأنّ هذا الإسلامَ ستُفتح له البيوتُ كلُّها، كما قال ﷺ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلاَ يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الإِسْلاَمَ وَذُلاً يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»(٢٣).

بشّروا المتطلّعين إلى عَوْدة الخلافة الراشدة أنّها عائدة، كما قال ﷺ: «تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلاَفَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ثُمَّ سَكَتَ»(٢٤).

الوصية الثالثة: «وتطاوعا ولا تختلفا»:

فإنّ الخيرَ كلّه في الاتّفاق، والشرّ كلّه في الاختلاف، والاتفاقُ رحمةٌ والاختلافُ عذاب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ(١١٨) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. فالمرحومون متفقون لا يختلفون، وإذا اختلفوا - اختلافًا هم فيه معذورون - لا يتباغضون، ولا يتدابرون.

ولقد وصّى اللهُ تعالى المؤمنين بالاتّفاق، ونهاهم عن الاختلاف، ووصّاهم بالاجتماع ونهاهم عن التفرُّق، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[آل عمران:١٠٢، ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ(١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥، ١٠٦]. قال ابنُ عبّاس: يومَ تبيضّ وجوهُ أهلِ السنّة والجماعة، وتسودّ وجوهُ أهل الفُرْقة والضلالة.(٢٥)

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٥، ٤٦]. فعصوا اللهَ ورسولَه، وتنازعوا يومَ أُحد، ففشلوا فذهب ريحُهم، وتمكّن منهم عدوُّهم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٥٢].

وكان من خبرهم أنّ النبيَّ ﷺ عيّن يومَ أُحُد فريقًا من الرُّماة للحراسة، وجعل عليهم أميرًا، وأمرهم أن يصْعَدُوا الجبلَ ليحْمُوا ظهورَ المجاهدين، لا يأتيهم

العدوُّ مِنْ خلفهم، وأمرهم أن لا ينْزِلوا مهما كانت النتيجة.

فلما التقى الجمْعان مكّن اللهُ للمجاهدين من الكافرين، فأعملوا فيهم السُّيوفَ وأثْخَنُوا في الأرض، ففرّ العدوُّ هاربا، وتبعهم المسلمون يأسرون من يُدركون ويجمعون الغنائم. فلما رأى الحرّاس ذلك قالوا مالنا والبقاء بعد ما انتهى القتال وفرّ العدوّ، وحاول الأميرُ أن يصبّرهم ليثْبُتوا كما أُمِرُوا، ولكن دون جدوى، فنزلوا. فلما رأى العدوُّ أنّ الجبَل قد خلا استدار فريقٌ منهم فعلَوُا الجبلَ، وأخذوا يرمون المسلمين، فكان ما كان وأُصيب المسلمون بالقتل والجراحات، وكان ذلك كلّه بسبب الاختلاف والتنازع وعدم التطاوع.

ولذلك وصّى النبيُّ ﷺ معاذًا وأبا موسى حين بعثهما إلى اليمن قائلا: «وَتَطَاوَعَا ولاَ تَخْتَلِفا»، فإنّ الاختلاف عمومًا مذموم، واختلافُ الدُّعاة أشدّ ذمًا، ذلك أنهم باختلافهم يصدّون النّاسَ عن الهدى، ويصرفونهم عن الحق، لأنّ الناس سيقولون: انظروا إلى هؤلاء الذين يزْعُمون أنهم يدْعُون النّاسَ إلى الحقّ وهم مختلفون، فلو كانوا على الحقّ ما اختلفوا عليه.

فعلى الدُّعاة أن يوحّدوا صفّهم، ويجتمعوا على كلمتهم، وإذا اختلفوا في شيءٍ حاولوا القضاء على هذا الاختلاف بردّ الأمر إلى الكتاب والسنّة، كما أمر تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء:٥٩]، حتى تجمل صورتُهم، وتتضح دعوتُهم، فما أجمل الاتّفاق والتّطاوع ! وما أقبح الاختلاف والفرقة !.

نسأل الله تعالى أن يجمع شمل المسلمين، ويوحّد كلمتهم، ويهيئ لهم من أمرهم رشد.

اللهم هيئ لهذه الأمة أمر رُشد، يُعزّ فيه أهل طاعتك، ويُذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر.

الهوامش:

١-متفق عليه: خ (٤٣٤٤ و٤٣٤٥ / ٦٢ / ٨)، م (١٧٣٣ / ١٣٥٩ / ٣).
٢ -صحيح: م (٨ / ٣٦ / ١)، ت (٢٧٣٨ / ١١٩ / ٤)، د (٢٦٧٠ / ٤٥٩ / ١٢)، جه (٦٣ / ٢٤ / ١)، نس (٨٩٧).
٣ -جزء من الحديث السابق في تعريف الإيمان.
٤-صحيح: خ(١١١٧ / ٥٨٧ / ٢)، د(٩٣٩ / ٢٣٣ / ٣)، ت(٣٦٩ / ٢٣١ / ١)، جه(١٢٢٣ / ٨٦ / ١).
٥-صحيح: م (١٢ / ٤١ / ١)، ت (٦١٥ / ٦٤ / ٢)، نس (١٢١ / ٤).
٦ -متفق عليه: خ (١١٢٨ / ١٠ / ٣)، م(٧١٨ / ٤٩٧ / ١)، د(١٢٧٩ / ١٧٢ / ٤).
٧ -متفق عليه: خ (١١٢٩ / ١٠ / ٣)، م(٧٦١ / ٥٢٤ / ١)، د(١٣٦٠ / ٢٤٧ / ٤)، نس(٢٠٢ / ٣).
٨ -صحيح: م (٦٣٨-٢١٩- / ٤٤٢ / ١).
٩ -متفق عليه: خ(٨٨٧ / ٣٧٤ / ٢)، م(٢٥٢ / ٢٢٠ / ١)، ت(٢٢ / ١٨ / ١)، جه (٢٨٧ / ١٠٥ / ١) إلا أن لفظ البخاري «مع كل صلاة».
١٠ -صحيح: خ(٢٢٠ / ٣٢٣ / ١)، د(٣٧٦ / ٣٩ / ٢)، ت(١٤٧ / ٩٩ / ١).
١١ -صحيح: م (٥٣٧ / ٣٨١ / ١)، د (٩١٨ / ١٩٨ / ٣)، نس (٢٠ / ٩٥).
١٢ -متفق عليه: خ (٥٠٦٣ / ١٠٤ / ٩) وهذا لفظه، م(١٤٠١ / ١٠٢٠ / ٢)، نس (٦٠ / ٦).
١٣ -متفق عليه: خ (١٩٧٥ / ٢١٧ / ٤)،م(١١٥٩-١٨٢- / ٨١٣ / ٢)، د(٢٤١٠ / ٧٩ / ٧)،نس(٢٠٩ / ٤).
١٤ -صحيح: م (٢١ / ١٢ / ١).
١٥ -متفق عليه: خ (١٤٣٦ / ٣٠١ / ٣)، م(١٢٣ / ١١٣ / ١).
١٦ -صحيح: [ص. ج: ٣٣٣]، نس (١٠٥، ١٠٦ / ٨).
١٧ -صحيح: م (٢٧٥٩ / ٢١١٣ / ٤).
١٨-متفق عليه: خ (٣٤٧٠ / ٥١٢ / ٦)، م(٢٧٦٦ / ٢١١٨ / ٤).
١٩ -صحيح: م (٢٧٥٨ / ٢١١٢ / ٤).
٢٠ -متفق عليه: خ (٩٠ / ١٨٦ / ١)، م (٤٦٦ / ٣٤٠ / ١).
٢١ -صحيح: خ (٣٦١٢ / ٦١٩ / ٦).
٢٢ -صحيح: م(٢٨٨٩ / ٢٢١٥ / ٤)، ت(٢٢٦٧ / ٣١٩ / ٣)، د(٤٢٣٢ / ٣٢٢ / ١١)
٢٣- صحيح: [س ص:٣] وقال شيخنا في «تحذير الساجد» (١٧٣): رواه أحمد (٤ / ١٠٣) وابن شران في «الأمالي» (٦٠/ ١) والطبراني في « الكبير» (١ / ١٢٦ / ١) وابن منده في « كتاب الإيمان » (١٠٢ / ١) وغيرهم.
٢٤ -صحيح: [س. ص: ٥]، أ (١٥ / ١٠ / ٢٣).
٢٥ -ابن كثير (٣٩٠ / ١).

سورة الضحى والشرح

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

قال الله تعالى: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [سورة الضحى].

بين يدي السورة

سورةٌ مكية. روى البخاري بسنده عن جُندب بن سفيان رضي الله عنه قال: اشتكى رسول الله ﷺ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثًا، فجاءت امرأةٌ فقالت: يا محمد، إنّي لأرجو أن يكونَ شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثًا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

تفسير السورة

﴿وَالضُّحَى﴾ معروف. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ أي سكن فأظلم. كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾. وجوابُ القسم: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ أي: ما هجرك بعد أن وصلك، ولا أبغضك بعدَ أن أحبك، ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى﴾ على كثرةِ ما أُوتيتَ في الدنيا من فضلٍ، فالآخرةُ خيرٌ لك من الأولى، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ والأولى إبقاءُ هذا الوعد على عمومه، إلا أن من المبشرات أنه يدخل في هذا الوعد ما رواه مسلم في الصحيح: أن النبي ﷺ قامَ ذات ليلةٍ يصلّي، فقرأ المائدة حتى أتى على قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فأخذ يردد الآية ويبكي. فقال الله تعالى: يا جبريلُ، ائت محمدًا فاسأله ما يبكيه؟ وربّك أعلم. فأتى جبريلُ النبي ﷺ فسأله، فقال: يا جبريل، أمتي، أمتي. فعرج جبريلُ فذكر ما قال محمد، وربك أعلم. فقال الله تعالى: يا جبريل، ائت محمدًا، فقل له: لا تبكِ فإنا سنُرضيك في أمتك.

ثم أخذ اللهُ تعالى يعدّد على محمد ﷺ نِعَمَه، فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾، ومعلومٌ من سيرته ﷺ أنّ أباه تُوفّي وهو جنينٌ في بطن أُمه، ثم تُوفيت أمه وهو ابن ست سنين، فكفَله جده عبد المطلب، ثم تُوفي عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين فكفله عمه أبو طالب، وألقى الله تعالى محبة محمد في قلب أبي طالب، فكان أقرب إليه من أبنائه، فآواه وأحسن إليه، ولم يزلْ يحوطه برعايته وعنايته حتى بُعث، فنصره ودافع عنه وكفّ أذى قومه عنه، مع أنه كان على دين قومه، ولم يؤمن بنبوة ابن أخيه محمد ﷺ، وإنما كان ذلك كله بقدر الله وحُسن تدبيره لنبيه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ أي: وجدك غافلاً عن هذا الدين، وهذا الوحي، وهذه الشريعة، فاختارك لها، ومَنَّ عليك بها دون سائر قومك، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا

كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ أي: وجدك فقيرًا ذا عيال فأغناك أولاً، بغنى النفس، وهو الأصل، كما قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ، ولكن الغنى غنى النفس».

فأغنى الله نبيه غنى النفس، ورزقه القناعة، وهي كما يقولون كنزٌ لا يفنى، كما أغناهُ بكسبه وتجارته في مال خديجة، ثم تزوجها فكان مالها له. فإذا علمت فضل الله عليك: ﴿فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ﴾، لقد كنت يتيمًا فآواك الله، فأحسن إلى اليتيم وأكرمه، لا تقهره، ولا تظلمه، ولا تدفعه ولا تطرده، ولقد أحسن ﷺ إلى اليتامى، وأمر بالإحسان إليهم، ونهى عن أذيتهم وظلمهم، وكان يقول: «اللهم إني أُحرِّجُ حقّ الضعيفين: اليتيم والمرأة».

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾، فمَن سألك شيئًا من مالك أو من جاهك فلا تنهره على سؤاله، ولكن إما أن تعطيه، وإما أن ترده بميسور من القول، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨]، كما أنّ لفظ السائل يشملُ أيضًا طالبَ العلم إذا سأل عن مسألة، فعلى العالم ألا ينهره، بل يكون به رفيقًا، وعليه حليمًا، وعليه أن يصبر على قلّة فهمه، ويعيد عليه القول حتى يفهمه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾؛ لأن التحدث بها شكرٌ، والشكرُ يزيدها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

سورة الشرح

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [سورة الشرح].

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، شديدةُ الاتصال بالسورة التي قبلها، ولذا كان بعضُ السلف يعتبرهما سورةً واحدة، فلا يفصل بينهما بالبسملة.

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ سؤالٌ للتقرير، ومعناه: قد شرحنا لك صدرك، ومن شرح الله صدره يسر له الخير، وأعانه على البر، ورزقه حُسن الخُلق وسعة الصدر، فهو دائمًا يسع الناس بحلمه، ويسعهم بحسن خلقه، وهو دائمًا هين لين، رفيق رحيم، ومن كان كذلك وُفق في دعوته، وأقبل الناس عليه، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ولذا لما كلف الله موسى أن يأتي فرعونَ: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]، أي: وسع صدري حتى أتحمل الأذى القولي والفعلي، ولا أضيق صدرًا بما أسمع من أذى، ولا بما ينالني من أذى، فإن واسع الصدر لا يحزن ولا يغتم لكلمة يسمعها أو أذية تصيبه، وإنما يتلقى الأذى على الرحب والسعة، ويصبر على ذلك ابتغاء وجه ربه الأعلى، وقوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾: من

المعلوم أن الأنبياء معصومون من كبائر الذنوب قبل النبوة وبعدها، فلم يبقَ إلا الصغائر، التي ربما تكون عن اجتهاد، فهي مغفورةً، إلا أن شرف الأنبياء وعُلو شأنهم يجعل النبي إذا كانت منه الصغيرة - ولو عن اجتهاد - يراها شيئًا عظيمًا، ويحمل همها، وهذا الإحساس ربما وجده بعضُ الصالحين من المؤمنين، فالأنبياء أولى بذلك، فتفضل الله على نبيه ﷺ وغفر له ما كان من نحو ذلك، فوضع عنه بذلك وزره، الذي أنقض ظهره، والنقيض هو الصوتُ الذي يُسمع من المحمل فوق ظهر البعير من شدة الحمل، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، فلا يُذكر الله إلا وذُكرت معه، في الأذان، والإقامة، والصلاة، والخطبة، ونحو ذلك، حتى لو أن رجلاً آمن بالله وكفر بمحمدٍ ما نفعه ذلك، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ مع الكرب فرجًا، ومع الشدة رخاءً، فليصبر الإنسان، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ قال العلماء: عُرِّفَ العُسْر، ونكِّر اليُسر، فتوحد العسر، وتعدد اليسر، ولذا جاء عن بعض السلف: لن يغلب عسر يسرين.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ قال بعض العلماء: إذا فرغت من أشغال الدنيا فانصب في عبادة ربك، وأرجح الأقوال: إذا فرغت من عملٍ فانصب في عملٍ آخر، إذا فرغت من عمل الدنيا فانصب في عمل الآخرة، وإذا فرغت من عمل الآخرة فانصب في عمل الدنيا، وإياك والكسل، وإياك والخمول، وإياك واللهو، وإياك واللعب، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه مرّ برجلين يتصارعان، فقال: ما بهذا أُمرنا بعد فراغنا، وكان عُمر رضي الله عنه يقول: إنّي لأكرهُ لأحدكم أن يكون سَبَهْلَلاً، لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة.

وقال بعضُ العلماء: هذه الآية حلّتْ مشكلة الفراغ عند المسلمين، ولذلك لم يشتك الصدر الأول مما يشتكى منه الناس اليوم، يدلك على ذلك قول عروة بن الزبير وهو حدثٌ صغير السن لعائشة رضي الله عنها وكانت خالته: إن الله يقول: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ إذن، فلا جناح على الرجل أن يدع الطواف بين الصفا والمروة. فقالت عائشة: لا، يا ابن أختي، ليست هكذا، ولو كانت كما فهمت لقال الله: فليسَ عليه جناحٌ أن لا يطوف بهما. [متفق عليه].

والشاهدُ أن هذا الصبي اليافع، هكذا كان يقرأ القرآن، ويتدبر معانيه، وهكذا كان حريصًا على التثبت من صحة فهمه، ومن كان كذلك فلن يكون عنده فراغ أبدًا.

فيا أخا الإسلام: وقتك وقتك !! فإنه رأس مالك في تجارتك مع الله، وكل مفقود عسى أن تسترجعه إلا الوقت، فإنه إذا فات لم يتعلق بالنفس أملٌ في رجوعه؛ فاغتنم فراغك يا عبد الله، واعلم أن «من قال سبحان الله العظيم وبحمده غُرست له نخلة في الجنة». [صحيح: رواه الترمذي: ١٥٣١ / ١٧٤ / ٥].

فانظر إلى مضيع الساعات كم ضيّع من نخلات؟! والله إنها لجريمة كبرى هذه المقولة: قال نضيع الوقت، وسوف يعلم هؤلاء قيمة الوقت إذا جاء أحدهم الموت، وسوف يطلب قليلاً من الوقت يتدارك فيه ما فات، وهيهات هيهات، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ أي: اجعل نيتك لله، ورغبتك إلى الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سورتا التين والعلق

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

يقول تعالى: «وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ»

[التين: ١-٨].

تفسير الآيات

يُقْسِمُ الله تعالى بالتين والزيتون وهما معروفان، وخصَّهما بالذكر تشريفًا وتكريمًا.

قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ وهو الجبلُ الذي كلم الله عليه موسى، ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ يعني: مكة، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هذا هو جوابُ القسم، وهو أنّ الله خلق الإنسان في أحسن صورة، كما قال تعالى: «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ» [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ» [الانفطار: ٦-٨]. وهذه نعمةٌ تستحق الشكر، فمن آمن فقد شكر، ومن كفر فقد كفر، وسيردّ إلى أسفل سافلين، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: إلى النار، والنارُ دركاتٌ بعضُها أسفل من بعض، والأسفل أشد عذابًا من الذي فوقه، قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا» [النساء: ١٤٠]، وقال: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ» [النساء: ١٤٥]، ومن ردَّ إلى النار قبُحَ منظره، وساءت صورته، قال الله تعالى: «وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ» [المؤمنون: ١٠٣، ١٠٤] أي: عابسون، وقد بدتْ أسنانُهم، وتقلصتْ شفاههم كالرأس المشويّ على النار.

وقال تعالى: «وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ» [عبس: ٤٠-٤٢].

وقال تعالى: «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا» [يونس: ٢٧]، وقال تعالى: «وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا» [طه: ١٠٢]، وأقبحُ صورة أن تكون الوجوهُ سودًا والعيونُ زُرقًا.

وقال النبي ﷺ: «إنَّ غِلَظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعًا، وإنَّ ضرسه مثل أُحد، وإنَّ مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة». [صحيح: رواه الترمذي (٢٧٠٦ / ١٠٥ / ٤)].

فانظروا - رحمكم الله - ما أقبح هذه الصورة، وما كان أحسنَ صورةَ هذه الإنسان في الدنيا، نسأل الله السلامة والعافية.

ثم استثنى ربنا من ذلك المصير مَنْ آمن وعمل صالحًا، فقال: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يعني: أنّهم في جنات النعيم على صورةٍ أجمل من الصورة التي كانوا عليها في الدنيا، كما قال النبي ﷺ: «إنَّ أول زمرةٍ يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم كأشد كوكبٍ دُرِّي في السماء إضاءة». [متفق عليه].

ثم يُزاد في جمالهم كل أسبوع، كما قال ﷺ: «إنَّ في الجنة لسوقًا يأتُونها كل جمعة، فتهبّ ريحُ الشمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادُون حُسنًا وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حُسنًا وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حُسنًا وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حُسنًا وجمالاً». [رواه مسلم (٢٨٣٣ / ٧٨ / ٤)].

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: أجرٌ دائمٌ غير منقطع، كما قال تعالى: «وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ» [هود: ١٠٨]، وكما قال تعالى: «إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ» [ص: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ يعني: فمن

هذا الذي يكذبك يا نبينا وقد جئتهم بالبينات والهدى؟! ومَنْ هذا الذي يكذّب بالحساب والجزاء ؟! ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ بلى، ومِنْ حكمته أن يبعثَ الناسَ بعد الموت، «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى» [النجم: ٣١]، ولو لم يكن بعثٌ كما ظنّ المكذبون لاستوى الظالم والمظلوم، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، والله قد نفى التسوية بينهم جميعًا: «أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ» [السجدة: ١٨]، «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ» [القلم: ٣٥].

فلا بدَّ من البعث للفصل بين العباد، ومجازاة كل عامل بعمله، لأن عدم البعث يتنافى مع حكمة الله عز وجل «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ» سبحانك بلى.

سورة العلق

يقول تعالى: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى (٧) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (٨) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (١٠) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (١٢) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (١٤) كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب» [سورة العلق].

بين يدي السورة

سورة مكية، وصدرها أول ما نزل من القرآن، وهو يحكي كيف بدأ الوحي، وما بعد ذلك من الآيات فإنه يذكر حقيقة من حقائق الإنسان وهي أنه إذا استغنى طغى - إلا من رحم الله - ثم تذكُر قصة الشقي أبي جهل ونهيه النبي ﷺ عن الصلاة، وتوعد الله إياه: «كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ».

تفسير الآيات

- روى البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ»، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: زملوني، زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كَلاَّ والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصلُ الرحم، وتحملُ الكلَّ، وتكسبُ المعدوم، وتقري الضيف، وتعينُ على نوائب الحق.

فانطلقتْ به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عمّ خديجة، وكان امرءًا تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ. فقالت له خديجة: يا ابن عمِّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسولُ الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكونُ حيًا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أَوَ مخرجيَّ هم ؟ قال: نعم. لَمْ يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإنْ يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم ينشب ورقة أن تُوفي، وفتر الوحي. [متفق عليه].

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ يعني: لتكن قراءتك باسم ربك، باسم الله، لا باسم غيره، وإنما باسم الله، ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾، والخَلْقُ يقتضي الربوبية، فالله سبحانه وتعالى هو رب العالمين، لأنه الذي خلقهم، ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، والمقصود بنو آدم لا الإنسان الأول الذي هو آدم نفسه، وأما قوله تعالى: «خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ» [الرحمن: ١٤]، فالمراد به الإنسان الأول آدمُ عليه السلام، وقد جمع الله بين الاثنين، وبين أصل كل منهما، في قوله: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ» [السجدة: ٧، ٨].

والعلق: دُودٌ أسودُ في الماء معروفٌ، كذا في لسان العرب، والمرادُ به في الآية الحيوانات المنوية.

وقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾، فليس بعد كرم الله كرم، وما النعم التي يتقلب فيها العباد إلا من فيض كرمه سبحانه، ومن كرمه هذا الوحي الذي أَوْحاهُ إلى نبيه رحمةً للعالمين، ولقد عرفَ السلف قدر هذه

النعمة، وبكوا حين فقدوها، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر لعمر - رضي الله عنهما - بعد وفاة الرسول ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما أتيا إليها بكت. فقالا لها: ما يبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ ؟ قالت: بلى، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكان معها. [رواه مسلم: ٢٤٥٤].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. إن الإنسان يخرج من بطن أمه لا علم عنده، ثم يتعلم، وقد وهبه الله الحواس التي هي وسائل التعلم، كما قال تعالى: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [النمل: ٧٨]، فالواجب على كل إنسان أن يستغل هذه الحواس في تعلّم دينه والتفقه فيه، فقد قال ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين». ومن عجز عن التعلم فليسأل العلماء، فإن الله تعالى قال: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ» [النحل: ٤٣].

وكَوْن هذه الآيات أولّ ما ينزل دليلٌ على أن الإسلام دينٌ يقوم على العلم، وينبذ الجهل ويعيبه، كما ينبذ التقليد ويذمه، ذلك أن العلم هو السبيل الوحيد إلى الإيمان، وقد فهم الإمام البخاري رحمه الله هذا فصدر كتابه الصحيح بكتاب كيف بدأ الوحي، وثنى بكتاب الإيمان، ثم ثلّث بكتاب العلم، وكأنّه رحمه الله يريد أن يقول: إنّ أول واجبٍ على المكلف الإيمانُ، وأن الإيمان سبيله العلمُ، وأنّ العلم مصدره الوحي بشقيه: الكتاب والسنة، فاقرءوا يا أمة الإسلام، وتعلّموا يا أمة القرآن: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» [المجادلة: ١١]، ولقد سبق الكلام في فضل العلم عند تفسير هذه الآية من سورة المجادلة.

قوله: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾: روى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: هل يُعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى على رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيده، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهَوْلاً وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ: «لَوْدنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا». قال: فأنزل الله عز وجل: «كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى...» الآيات. إلخ.

وهذا - كما يقول العلماء - من العام المخصوص، لأنّا رأينا أغنياء لا يظلمون ولا يبغون، رأينا أغنياء صالحين «فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ» [المعارج: ٢٤]، «يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً» [البقرة: ٢٧٤]، «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا» [الإنسان: ٨-١٠].

يدلّ على تخصيص الآيات قوله تعالى: «إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ...» [المعارج: ١٩-٣٥] الآيات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ تنبيه لذلك الغافل، وتذكير لذلك الضال، أيها الباغي الطاغي: «إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى»، فإلى أين أنت ذاهب، «وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى» [النجم: ٤٢]، فلماذا هذا الظلم ؟ ولماذا هذا الطغيان ؟! فأفق من غفلتك، وانتبه من رقدتك، «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» [القصص: ٧٧]، «وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» [المنافقون: ١٠، ١١].

قوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ قال ابن كثير-رحمه الله-نزلت في أبي جهل لعنه الله، توعد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت، فوعظه الله تعالى بالتي هي أحسن أولاً، فقال: ﴿أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ أي فما ظنك إن كان الذي تنهاه على الطريق المستقيم في فعله ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ بقوله، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته ولهذا قال ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾؟! أي أما علم الناهي لهذا المهتدى أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء.

ثم قال تعالى متوعداً ومهدداً ﴿كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي: لئن لم يرجع عما هو فيه من العناد والشقاق ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي: لنسمنها سواداً يوم القيامة. ثم قال: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ يعني ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها خاطئة في فعالها. قوله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ أي: قومه وعشيرته، أي: ليدعهم يستنصر بهم. ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ وهم ملائكة العذاب، حتى يعلم من يغلب، أحزبنا أم حزبه!!

ثم تختم السورة بتوجيه النبي ﷺ إلى الثبات على الطاعة: «كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ» فيما ينهاك عنه، «وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ»، فإن «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد». [صحيح: رواه مسلم: ٤٨٢ / ٣٥٠ / ١، وأبو داود ٨٦١ / ١٢٨ / ٣، والنسائي ٢٢٦ / ٢].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تفسير سورتي القدر والبينة

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

يقول تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ»

[القدر: ١ - ٥].

بين يدي السورة

سورةٌ مكيّة، تتحدثُ عن هذه الليلة ذات القدر، التي خُصّتْ بتنزيلِ الكتابِ من الله العزيز العليم، فهي حقًا ليلة القدر، وقد اشتملت على عظيم رحمةِ اللهِ بعباده، فتنزلت فيها الآيات الأولى من القرآن الذي هو رحمةٌ للمؤمنين، وجعلها الله لهم خيرًا من ألفِ شهر، فمن فعل فيها خيرًا كانت له خيرًا من ألفِ شهر، ولا يُحرم الخير فيها إلا محروم.

تفسير الآيات

يخبر الله تعالى أنه أنزل القرآن في ليلة القدر، وهي الليلةُ التي قال الله تعالى فيها: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ»، وليست ليلة النصف من شعبان، كما زعم البعض، وإنما هي في رمضان، كما قال تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» [البقرة: ١٨٥]، وليست ليلةً من ليالي العام كما ظن البعض.

ثم عظّم الله شأن هذه الليلة فقال: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ»، وهي تقريبًا بضعٌ وثمانون عامًا، فمن وُفّق لفعل الخير فيها كان له ثوابُ ألف شهر، بل خيرٌ من ذلك. وقوله تعالى: «تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ» أي: يكثر تنزلُ الملائكة مع كبيرهم جبريل عليه السلام في هذه الليلة لبركتها، حتى قال النبي ﷺ: «إن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من حصى الأرض». [حديث حسنه، الألباني في «الصحيحة» (٢٢٠٥)].

«سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ»: قال مجاهد: هي سالمة لا يستطيع الشيطانُ أن يعمل فيها سوءًا، أو يعمل فيها أذًى.

وبعد: فلقد كان رسول الله ﷺ يحثّ على قيام هذه الليلة فيقول: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه». [متفق عليه].

ولا نجزم بأنها في ليلة معينة، بل نقول كما قال النبي ﷺ: «التمسوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان في وترٍ، فإني قد رأيتها فنسيتها». [صححه الألباني في صحيح الجامع].

ولحكمةٍ نُسيها ﷺ، حتى يجتهد المجتهدون، ويتنافس المتنافسون، وقد وصفها النبي ﷺ، فقال: «ليلةُ القدر ليلةٌ بلجةٌ، لا حارةٌ ولا باردةٌ، ولا يُرمى فيها بنجم، ومن علامة يومها تطلع الشمس لا شُعاع لها». [حسنه الألباني في صحيح الجامع].

سورة البينة

يقول تعالى: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» [البينة: ١- ٨].

بين يدي السورة

سورةٌ مدنية، تقرر أن الله لم يكن ليترك الخلق سُدًى، بل لا بد أن يرسل إليهم رسلاً، ثم هُمْ بعد ذلك منهم من يكفر، ومنهم من يؤمن، ولكل جزاؤه: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ».

تفسير الآيات

يقول تعالى: «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» يعني لم يكن الكافرون من اليهود والنصارى وغيرهم من مشركي العرب متروكين هكذا كالإنسان المنفكّ المطلق غير المقيد، يعني لم يكونوا متروكين لإرادتهم، ولذاتهم وشهواتهم، «حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ» أي: حتى يبعث الله إليهم رسولاً منهم، يتلو عليهم آياته ويعلمهم ما عليهم وما لهم، كما قال تعالى: «أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى» [القيامة: ٣٦]، أي يُترك هكذا مهملاً، لا يُؤْمر ولا يُنهى، وكما قال تعالى: «أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ» [الزخرف: ٥]، يعني: ألئن كنتم قومًا مسرفين في الذنوب والمعاصي نتركك من غير أمر ولا نهي، ولا نرسل إليكم رسولاً يبين لكم ما أنتم فيه من الضلال، والحالُ أنه «مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً» [الإسراء: ١٥]، فلا بد من إرسال الرسول بالبينة حتى تُقام الحجة عليكم، فـ «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ» [الروم: ٤٤].

وقوله تعالى: «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ» بدلٌ من البينة، «يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً» من الدنس، ومن الكذب، ومن الشرك والكفر والنفاق، كما قال تعالى: «كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ» [عبس: ١١-١٦]، وقال تعالى: «فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [الواقعة: ٧٥-٨٠].

وقوله تعالى: «فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ»: «الكتابُ يُطلقُ على الموضوع، كما يُقال: كتابُ الطهارة، وكتاب الصلاة، وكتابُ القدر، وكتابُ القيامة، وهذه الصحف المطهرة - وهي هذا القرآن - فيها كتبٌ قيمة، أي موضوعاتٌ وحقائق قيمة».

وقوله تعالى: «وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ»: لقد كان أهل الكتاب متفقين على أن الله سبحانه يبعث في آخر الزمان نبيًا يختم به الأنبياء، يؤمنون به، ويقاتلون معه أعداءهم، فينصرهم الله عليهم، «فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» [البقرة: ٨٩]، ولذا نهانا الله عما وقعوا فيه، فقال: «وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» [آل عمران: ١٠٥].

وقوله تعالى: «وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ» يعني: ما أُمِروا أهل الكتاب في كُتبهم وعلى ألسنة رسلهم إلا بإخلاص الدين لله، وإفراده بالعبادة دون سواه، فعلى هذا اتفق المرسلون، كما قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ» [النحل: ٣٦]، ولكن الذين كفروا من أهل الكتاب «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» [التوبة: ٣١]، «وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ» أي: مائلين عن الشرك إلى التوحيد، وعن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وقوله تعالى: «وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ» يعني أنهم أُمروا بإخلاص العبادة كلها لله، «وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ» التي هي أشرف العبادات وأعظم حق الله، «وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ»، وهي أعظم حق للعباد الفقراء على الأغنياء، «وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ» أي: الملة العادلة كما قال تعالى: «إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ» [يوسف: ٤٠]، وقال تعالى لنبيه ﷺ: «قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

فهذه قاعدةُ الدين على الإطلاق: عبادةُ الله وحده، وإخلاص الدين له، والميل عن الشرك وأهله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة: «وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ». عقيدةٌ خالصةٌ في الضمير، وعبادةٌ لله، تُترجم عن هذه العقيدة، وإنفاقٌ للمال في سبيل الله، وهو الزكاة، فمن حقق هذه القواعد، فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب، وكما هو دين الله على الإطلاق. قوله «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ» يذكر سبحانه في هذه الآيات جزاء الكفرة الفجرة، وجزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا» [الزخرف: ٧٥-٧٧]، «لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ» [الزخرف: ٧٥-٧٧]، «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» [الحج: ٢٢]، «أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ» أي: شرّ الخليقة التي برأها الله وذرأها، كما قال تعالى: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ» [الأنفال: ٥٥].

ثم يذكر سبحانه جزاء الأبرار المتقين فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا» «لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً» [الكهف: ١٠٨]، «وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ» [الحجر: ٤٨]، «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» ورضاه عنهم أعظم من النعيم الذي أُوتوه، كما قال تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» [التوبة: ٧٢]، أي: أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم، كما في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يديك، فيقول: هل رضيتم ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحدًا من خلقك، فيقول: ألا أُعْطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول: أُحِلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا». [متفق عليه].

وقوله تعالى: «ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» يعني ذلك الجزاء المذكور إنما أُعد لمن خشي ربه، كما قال تعالى: «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى» [النازعات: ٤٠، ٤١]، وقال تعالى: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ» [الرحمن: ٤٦]، وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» [الملك: ١٢]، وأَوْلى الناس بهذا الوعد وأسعدهم به العلماء، لأنهم أهلُ الخشية والخوف، كما قال تعالى: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ» [فاطر: ٢٨].

اللهم ارزقنا خشيتك في السر والعلانية.

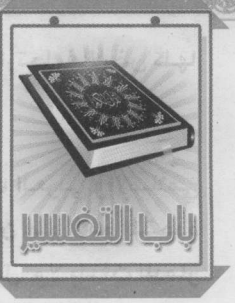

تفسير سُور
الزلزلة والعاديات والقارعة

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

تفسير سورة الزلزلة

يقول الله تعالى: «إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)»

[الزلزلة: ١-٨].

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، واسمها يدل على موضوعها، فهي هزةٌ عنيفة للقلوب الغافلة، هزةٌ يشتركُ فيها الموضوعُ والمشهدُ، وصيحةٌ قوية مزلزلة للأرض ومن عليها، فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء.

تفسير الآيات

قوله: «إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا» وذلك يوم يُنفخُ في الصور، فيبعثر ما في القبور، «وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا»، كما قال تعالى: «وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ»، وكأن الأموات كانوا ثقلاً عليها، فما أن أُذن لها في إخراجهم حتى «أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ»، «وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا»؟ أي: ما الذي أصابها ؟ وما الذي جعلها تهتز وتضطرب بعدما كانت قارَّةً ساكنةً ثابتةً، لقد عرف الإنسان في الدنيا الزلازل والبراكين، لكنه الآن يرى زلزلةً دونها كل ما رأى من الزلازل، «إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)» [الحج: ١، ٢]، «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» أي: تحدثُ بما عَمِلَ العاملون على ظهرها، وذلك أن الأرض من جملة الشهود التي تشهد على الإنسان.

وقوله تعالى: «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا» يعني: إنما «أَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا» وحدَّثتْ أخبارها بسبب أن الله أذن لها، أي: أمرها فـ «أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ» [الانشقاق: ٥].

وقوله تعالى: «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا» أي: جماعات متفرقين مختلفين، «لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ» كما قال تعالى: «أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى» [النجم: ٣٦-٤١]، «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»، «إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا» [النساء: ٤٠]، «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ» [الأنبياء: ٤٧]، ولذا كان من وصايا لقمان لابنه وهو يعظه: «يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» [لقمان: ١٦].

فيا عبد الله: لا تحقرن من المعروف شيئًا، فعسى أن تثقل به موازينك، ولا تحتقرن من المنكر شيئًا فعسى أن تخف به موازينك.

خَلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى

واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى، لا تحقرنّ صغيرة إن الجبال من الحصى

تفسير سورة العاديات

يقول تعالى: «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ» [العاديات: ١- ١١].

بين يدي السورة

سورة مكية، استفتحت بالقسم بخيل المجاهدين في سبيل الله، على أن الإنسان كفور لنعمة الله تعالى، شديد الحب للمال، الذي لا ينفعه «إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ» «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

تفسير الآيات

قوله: «وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا» هذه كلها خيلُ الخيرِ، خيلُ المجاهدين في سبيل الله، يُقْسِمُ الله تعالى بها تكريمًا لها، وهي عُدة الجهاد التي عرفها العرب، وعليها كانوا يُقاتلون.

والعاديات: الخيلُ حين تَعْدُو أي: تجري، والضَّبْحُ هو الصوتُ الذي يُسْمَع من الفرس حين تعدو. «فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا» يعني: اصطكاك نعالها بالصَّخْرِ فتقدح منه النار، «فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا» يعني: الإغارة وقت الصبح، كما كان رسول الله ﷺ يفعل، كان إذا غزا قومًا بات قريبًا منهم، فإذا أصبح استمع الأذان، فإن سَمِعَ أذانًا وإلا أغار.

«فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا» يعني: غبارًا في مكان معترك الخيول. «فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا» أي: أَوْسَطْنَ ذلك المكان كلهن جمعًا.

جواب القسم: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ» يجحد الفضل ويكفر النعمة، يَعُدُّ المصائب وينسى النعم، «وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ» يعني: أنه شهيدٌ على نفسه بلسان حاله، «وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» والخيرُ هو المال، كما قال تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ» [البقرة: ١٨٠]، يعني: إن ترك مالاً كثيرًا، وقد صرح ربنا بذلك، فقال: «وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا» [الفجر: ٢٠]، حتى «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ» [التكاثر: ١]، عن ذكر الموت والآخرة، «أَفَلَا يَعْلَمُ» الإنسان أنه «إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ» لا ينفع مالٌ ولا بنون، إنما «حُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ» لا ما في الجيوب والبنوك، «وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ» [الأنعام: ٩٤]، يتبع الميت ثلاثةٌ: أهله وماله وعملُه، فيرجع اثنان ويبقى واحد؛ يرجع أهله وماله، ويبقى عمله. [متفق عليه].

«إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ»: يجمع ما كانوا يعملون، وسوف يجزيهم عليه أوفر الجزاء، «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» [الكهف: ٤٩]، فـ «أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» [المنافقون: ٩-١١].

تفسير سورة القارعة

قال تعالى: «الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ»
[القارعة: ١- ١٠].

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، والقارعة اسم من أسماء يوم القيامة، كالحاقة، والصاخة، والغاشية، واسمها يدل على موضوعها، فهي تعرض مشهدًا من مشاهد القيامة، وتُخْتم ببيان مصير الناس: «فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ».

«الْقَارِعَةُ»: من أسماء القيامة، سُميت كذلك ؛ لأنها تقرع آذان الناس، وأصل القرع الدق بشدة، «مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ» إنّ هَوْلها أعظم وأكبر مما تتصور، فإنه لم يقرع سمعك شيء مثل القارعة: «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ»، وذلك حين يقومون من قبورهم، كما قال تعالى: «يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ» [القمر: ٦، ٧]، «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ»، «وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا» [الواقعة: ٥، ٦]، «وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا» [النبأ: ٢٠]، ثم تُنْسَفُ نَسْفًا فلا يبقى لها عين ولا أثر، كما قال تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا» [طه: ١٠٥، ١٠٦]، هذا هو مشهد القيامة الذي تعرضه الآيات.

أما نهايةُ الناس، فيقول تعالى: «فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ»، والطفل يأوي إلى أمه فيجد عندها الأمن والأمان والسلام، وما تشتهيه نفسُه، ترى ماذا يجد الكافر إذا أوى إلى أمه الهاوية؟! «وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ».

وقد كثر ذكر الميزان في القرآن، وهو يكونُ بعد الحساب ؛ لأن الحساب إنما هو تقرير للأعمال، وأما الميزان فهو إظهار لقدرها وقيمتها، واختلف العلماء في الموزون ما هو ؟ فقال بعضهم: توزنُ الأعمال نفسها، ومما استدلوا به قول النبي ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». [البخاري ٦٤٠٦].

وقوله ﷺ: «الطهور شطرُ الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السماوات والأرض». [مسلم ٢٢٦].

واعترض عليهم بأن الأعمال أعراضٌ وليست أجسامًا، فكيف توزن ؟

فأجابوا: بأن الأعمال تُقْلَبُ أجسامًا يوم القيامة، فقد أخبرنا النبي ﷺ أن الميت إذا دُفِنَ أتاه عمله في صورة إنسانٍ جميلٍ أو قبيح حَسَبَ صلاح عمله وفساده. كما أخبرنا النبي ﷺ أن الموت يأتي يوم القيامة كبشًا أقرن، فيُذبح على سور بين الجنة والنار، ويُنادى: يا أهل الجنة، خلودٌ بلا موت، ويا أهل النار، خلود بلا موت. [متفق عليه].

وقال بعضُ العلماء: إنما تُوزن صحائف الأعمال ؛ لقول النبي ﷺ: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عُذْرٌ ؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتُخرج بطاقة فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله»، فيقول: احضر وزنك. فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال: فإنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله تعالى شيء». [صحيح رواه الترمذي ٢٧٧٦ / ١٣٣ / ٤].

وقال جماعة: إنما يوزن العامل نفسه ؛ لقوله ﷺ: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة». [متفق عليه].

وقوله ﷺ في ساقي ابن مسعود وقد ضحك القوم من دقتهما، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من جبل أحد». [تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ص٨٥].

ولا مانع من الجمع بين الأقوال كلها بقول: إن الذي يوزن هو العامل وصحيفةُ الأعمال والعمل نفسه: «فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ».

وهناك صِنفٌ ثالثٌ وهم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، فمنعتهم حسناتهم من دخول النار، وقعدت بهم سيئاتهم عن دخول الجنة، وهؤلاء يُحبسون على الأعراف - سور بين الجنة والنار - ثم يتغمدهم الله برحمته، فيدخلهم الجنة.

اللهم ثقل موازيننا، وبيض وجوهنا، واجعلنا من ورثة جنة النعيم.

تفسير سُورتي التَّكاثُر و العَصْر

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

يقول تعالى: «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» [سورة التكاثر].

بين يدي السورة

قوله: «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ» شغلكم عن ذكر الله، وألهاكم عن طاعته، «حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» يعني: أنكم تشاغلتم بالتكاثر عن ذكر الله، فلم تفيقوا من غفلتكم، ولم تنتبهوا من رقدتكم، حتى نزل الموت بساحتكم، فلم يرعْكم إلا ظلمةُ القبر تلفكم، والملائكة تسألكم: مَن ربك ؟ وما دينك ؟ وما تقولُ في الرجل الذي بُعث فيكم ؟

ولم تذكر الآية شيئًا مما كانوا يتكاثرون فيه، وقد قال تعالى في آية الحديد: «اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ» [الحديد: ٢٠]، فخصّ بالذكر الأموال والأولاد، وهما مما يتكاثر الناس فيه، لا كل ما يتكاثرون فيه، ولكنه هنا عمّ، ليشمل كلّ ما يتكاثرون فيه: من المال والولد، والثياب، والأثاث، والعمارات، والسيارات، والعقارات، حتى الكتب عند طلبة العلم، ولقد ألْهَى التكاثر الناس اليوم أكثر من ذي قبل، حتى صدق فيهم قول النبي ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم». [متفق عليه].

نسأل الله السلامة والعافية.

ثم توعد الله هؤلاء الذين ألهاهم التكاثر فقال: «كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ»، و«كلا» كلمة ردع وزجر، والمعنى: سوف تعلمون العاقبة الوخيمة لانشغالكم بالتكاثر عن ذكر الله وهي الخسران، سوف تعلمون أنكم خسرتم خسرانًا مبينًا، ولذا حذر الله المؤمنين من تشاغلهم بالتكاثر، فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [المنافقون: ٩].

وقوله تعالى: «كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ» جوابُه محذوف، وليس ما بعده جوابًا له، وتقدير الكلام: لو تعلمون عِلْمَ اليقين أنكم إلى الله راجعون، وبأعمالكم مجزيون، ما ألهاكم التكاثر، ولكن ظننتم أنكم لا ترجعون، «وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» [فصلت: ٢٣].

وقوله تعالى: «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ» تفسيرٌ للوعيد المتقدم في قوله تعالى: «كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ»، توعدهم برؤية النار التي «إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا» [الفرقان: ١٢]، قال تعالى: «وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا» [الكهف]، وقال تعالى: «وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا» [الكهف: ٥٣].

وقوله تعالى: «ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» يعني: لتسألن عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والمال والولد، والأمن والرخاء، وهدوء البال، وطيب القلب، ونحو ذلك من النعيم، حتى إن رسول الله ﷺ عدّ الماء البارد من النعيم، فقال: «إن أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أنْ يقال له: ألم نُصحّ لك جسمك، ونرويك من الماء البارد». (أخرجه الترمذي (٣٣٥٨)، وصححه الألباني).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجَ رسول الله ﷺ ذات يومٍ أو ليلةٍ، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما مِن بيوتكما هذه الساعة ؟» قالا:

الجوعُ يا رسول الله، قال: «وأنا والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أَخْرَجكما، قوما». فقاما معه. فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا، وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان ؟» قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحدٌ اليوم أكرم أضيافًا مني، قال: فانطلق فجاءهم بعذقٍ فيه بُسْرٌ وتمرٌ ورطبٌ، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب». فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا، فلما شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يومَ القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لَمْ ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم». (رواه مسلم: ١٣٠٦).

سورة العصر

قال تعالى: «وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ»

[سورة العصر]

بين يدي السورة

سورة مكيةٌ، تضمنت وعيدًا شديدًا، وذلك أنها استُفْتحت بالقسم من الله تعالى على أن الإنسان في خسران، ولا ينجو من هذا الخسران إلا من توفّرت فيه أربعُ صفات، هي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، فمن توفرت فيه هذه الصفات فقد بلغ غاية الكمال ؛ لأن غاية الكمال هي أن يكمل الإنسان نفسه، ثم يسعى في تكميل غيره، وتكميل نفسه يكون بإصلاح قُوتيه العلمية والعملية، وإصلاح القوة العلمية يكون بالإيمان، وصلاح القوة العملية يكون بالعمل الصالح، فمن فعل ذلك فقد كَمَّلَ نفسه، فعليه أن يسعى في تكميل غيره، حتى يبلغ نهاية الكمال، فيأمر الناس بالإيمان والعمل الصالح، والصبر على ذلك، ويصبر هو عليه، وعلى ما يلقاه من الأذى، بسبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد تضمنت السورة هذا كله مع قصرها وقلة آياتها، فهي على ذلك أعظم سورة في القرآن، ولذا كان الإمام الشافعي رحمه الله يقول: لو ما أنزل الله على الناس غير هذه السورة لكفتهم، ولكنّ الناس في غفلة عن التفكير في هذه السورة.

تفسير الآيات

قوله تعالى: «وَالْعَصْرِ» المراد بالعصر الزمنُ، الذي هو زمنُ ربح المؤمن وخسارة الكافر، فالمؤمن يتاجر في العصر تجارةً رابحةً مع الله، كما قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ» [فاطر: ٢٩، ٣٠]، والكافر غافل عن ذلك، منغمسٌ في شهواته وملذاته لا يفيقُ إلا في ساحة الموت، فهنالك يعرفُ قيمة الوقت، فينادي: «رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ» [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، وهيهات هيهات، «أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» [فاطر: ٣٧].

قال تعالى: «قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» [المؤمنون: ١١٢- ١١٤]. يعني: لما آثرتم الفاني على الباقي، ولما تصرّفتم لأنفسكم هذا التصرف السيئ، ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا.

ومن المعلوم أن من نزل السوق ساعةً واحدة، ثم خرج منها بألف دينار مربحًا، يغبطُه الناس كلُّهم، سبحان الله! رَبِحَ في ساعةٍ واحدةٍ ألف دينار!! ومن نزل السوق ساعة واحدة، ثم خرج بخسارة ألف دينارٍ، فإن الناس يتحسرون عليه ! سبحان الله! يخسر ألف دينار في ساعة ! وإذا كان هذا حال الناس في الدنيا، التي يمكن أن يخسر فيها من رَبِحَ، ويربح من خسر، فكيف بمن يربح في هذا العمر المحدود جنة عرضها السماوات والأرض، ورضوان من الله أكبر ؟! وكيف بمن يربح في هذا العمر المحدود نارًا حامية وسخط الله ؟!

فاغتنم يا عبد الله حياتك، واغتنم أوقاتك، «وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» [الأنعام: ٧٠]، واعلم أن عمرك رأس مالك في تجارتك مع الله في هذه الدنيا، فكن على وقتك أحرص منك على مالك، وكن بوقتك أضنَّ منك بمالك،

فإن المال إذا فُقِدَ ربما رجع أو عُوضْتَ عنه خيرًا منه، أما الوقتُ إذا ضاعَ فليس منه عوضٌ، ولن يرجعَ إلى يوم القيامة.

أقسم الله تعالى بالعصر على: «إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ»، والخُسر والخُسرانُ واحدٌ كالكفر والكفران، ومعناه: إنّ الإنسان - كل إنسانٍ - في خسرانٍ مبينٍ، «إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ»، «فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» [التين: ٦]، فاستثنى الله سبحانه من الخسران من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحقّ، والتواصي بالصبر.

والإيمان هو أول واجب على المكلف، وليس له وسيلة سوى العلم، فالعلم هو الوسيلة الموصلة إلى الإيمان، وليس للعلم مصدرٌ سوى الكتاب والسنة.

وقد أشار إلى ذلك الإمام البخاري رحمه الله حيث سلكَ في ترتيب الصحيح مسلكًا عظيمًا، فبدأ بكتاب الوحي، ثم الإيمان، ثم العلم، وكأنه رحمه الله يقول بصنيعه هذا: إن أوّل واجبٍ على المكّلف الإيمانُ، وأنّ طريق الإيمان العلمُ، وأنّ العلم مصدرُه الوحي: القرآنُ والسنة. فواجبٌ على المكلّف أن يهتم بطلب علم الكتاب والسنة، فقد كثر الحثّ على طلبه في الكتاب والسنة، ومن ذلك:

أنّ الله تعالى نفى التسوية بين العلماء وغيرهم، فقال تعالى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ» [الزمر: ٩]، وجعل الجاهل أعمى، فقال تعالى: «أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى» [الرعد: ١٩]، وبيّن أنه يرفع العلماء درجات فوق المؤمنين، فقال تعالى: «يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ» [المجادلة: ١١]، وأمر النبي ﷺ أن يكتفي بإيمان أهل العلم إذا كفر غيرهم، فقال تعالى: «قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا» [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وقال تعالى: «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ» [العنكبوت: ٤٩].

وقال تعالى: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ» [آل عمران: ١٨]، وقد تضمنت هذه الآية فضل العلماء من وجوه، ذكرها ابن القيم رحمه الله في كتابه «مفتاح دار السعادة»، ومما ذكره: أنّ الله تعالى استشهد العلماء، وهو سبحانه لا يستشهد إلا أهل الفضل، وأنه سبحانه قرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة، ولم يكرر الفعل، وقال تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» [البقرة: ١٤٣]، فسّر النبي ﷺ هذه الآية فقال: «يُجاء بنوحٍ يوم القيامة، فيُقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فتُسأل أمتُه: هل بلغكم ؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير. فيقولُ: من شهودُك؟ فيقول: محمدٌ وأمته، فيجاء بكم فتشهدون». ثم قرأ رسول الله ﷺ الآية. [رواه البخاري: ٧٣٤٩، ٣١٦/١٣].

وهذا من العام المخصوص، إذ أنه لا يشهد كل فردٍ من الأمة، وإنما المراد العلماء، ولذلك ترجم الإمام البخاري لهذه الآية فقال: باب: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا»، وما أَمَرَ النبي ﷺ بلزوم الجماعة وهم أهل العلم. والآيات في ذلك كثيرة.

وأما الأحاديث عن النبي ﷺ في فضل العلم والترغيب فيه، وبيان شرف أهله، فهي أشهر من أن تُذكر، وأكثر من تُحصر، منها:

قوله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين». متفق عليه. وقوله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها». متفق عليه. وقوله ﷺ: «الدنيا معلونةٌ، معلونٌ ما فيها، إلاّ ذكر الله وما والاه، وعالمًا أو متعلمًا». (أخرجه ابن ماجه ٤١١٢، وحسنه الألباني).

وقوله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم». (أخرجه الترمذي، وصححه الألباني). وقوله ﷺ: «من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما صنع، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ أخذه بحظٍ وافر». (أخرجه أصحاب السنن الأربعة، وانظر صحيح الجامع: ٦٢٩٧)، وقال ﷺ: «طلبُ العلم فريضة على كل مسلم». (أخرجه ابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني).

قال العلماء: العلم قسمان: فرضُ عَينٍ، وفرضُ كفايةٍ، فأما الذي هو فرضُ عينٍ لا يسع مسلمًا جهله، فالعلم بأصول الدين، وأصول الواجبات والمحرمات.

وأما الذي هو فرضُ كفايةٍ فما زاد على ذلك مما دقّ من الأحكام، فيجب أن يكون في الأمة من يعلم بهذه الأحكام، ويعلمها من يحتاج إلى علمها، كما أنّ من فروض الكفاية: علم الصناعة والزراعة، والطب،

والحساب، ونحو ذلك.

فعلى المسلمين أن يهتموا بطلب العلم ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، فإنّ الانشغال بطلب العلم أفضل من الانشغال بنوافل العبادة.

وعلى من تعلّم أن يعمل، فإنّ العمل هو الصفة الثانية، من الصفات المنجية من الخسران، وإنما مُدح العلم من أجل العمل، وإنما العلم شجرةٌ والعملُ ثمرةٌ، فمن تعلّم ولم يعمل فإنّ علمه إن لم يضره لم ينفعه، وضرره ثابتٌ، قال ﷺ: «يُؤتى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه، فيدور حولها كما يدور الحمار في الرحى، فيأتيه الناس فيقولون ما لك ؟ ألم تكن تأمرُ بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول: بلى، كنتُ آمرُ بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه». (أخرجه مسلم: ٥٣٠٥).

وإنّ الإنسان ليعجب من أهل هذا الزمان، حيثُ كَثُر علمهم، وقلّ عملهم، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، أما علم هؤلاء فيما عَلِمُوا أنّ النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم». (السلسلة الصحيحة : ٩٤٦).

أما علموا فيما علموا قول النبي ﷺ: «والقرآن حجة لك أو عليك». أما قرءوا قول الله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ» [الصف: ٢، ٣].

فاعملوا صالحًا يا أهل الإيمان، فإن النجاة متوقفةٌ على الإيمان والعمل الصالح، وإن وُفقتم لذلك فعليكم بالتّواصي بالحق، «وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [آل عمران: ١٠٤]، قال تعالى: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» [آل عمران: ١١٠]، فهذه مؤهلات التفضيل، تفضيل الأمم بعضها على بعض الإيمان بالله، العمل الصالح، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتركُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يردّ الأمم إلى أسفل سافلين، ولذا قال تعالى: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» [المائدة: ٧٨، ٧٩].

ولقد جعل الله تعالى الدعوة إليه هي وظيفة رسوله محمد ﷺ وأتباعه، فقال تعالى: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» [يوسف: ١٠٨]، وكان ﷺ يرغب في هذه الوظيفة والاجتهاد فيها، فكان يقول: «بلّغوا عني ولو آية». «من دلّ على خيرٍ فله أجرِ فاعله».

«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقصُ من أجورهم شيء»، «لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النعم»، «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وخوّف النبي ﷺ من السكوت على المنكر، وبيّن أن القادرين على تغييره إذا لم يغيروه هلكوا مع أهله، فقال ﷺ: «مَثلُ القائم في حدود الله والواقع فيها، كمثل قومٍ استهموا على سفينة، فكان بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا بمن فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا فلم نؤذ مَنْ فوقنا؟! فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإنْ أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا».

ولقد صحح الصديق أبو بكر رضي الله عنه للناس جميعًا هذا المفهوم الخاطئ، الذي يقول: عليك بنفسك، فقال رضي الله عنه: «أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابٍ من عنده». فواجبٌ على من تعلم أن يعمل، ومن العمل التعليمُ والدعوةُ، فمن تعلّم وعمل وعلّم فذلك يُدْعَى في ملكوت السماوات عظيمًا.

وكلٌ من التعلم، والعمل، والتعليم، شاقٌ، يحتاجُ إلى صبر ومصابرة، ولذا كانت الصفة الرابعةُ من الصفات المنجيات من الخسران: التواصي بالصبر، فالصبر نصف الإيمان، والصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولذا كثرُ في القرآن الحثّ عليه، والترغيب فيه: كما كثرت بذلك الأحاديث، وذلك لأن السفر إلى الله طويل، والطريق شاق، والعقبات كثيرةٌ، فمن لم يكن معه من الصبر الشيءُ الكثير، فإنه لا يقوى على مواصلة السير، ولا يقدر على مشقة الطريق، ولذا يرى الناظرُ كثيرًا من الناس يركبون الطريق ثم يتركونه ويرجعون عنه، والسعيدُ من ثبت وصبر، وقد شبّه العلماءُ الطريق إلى الله بجبل وعرٍ على رأسه رجلٌ يحذر الناس من الصعود، يقول: إني أرى ما لا ترون، فأين تذهبون؟ إن هاهنا أهوالاً، وأعداءً لا قِبَلَ لكم بهم، فمن صدّقه فقعد عن الصعود، فقد خاب وخسر، ومن كذبه فصعد وصابر وصبر أفْضَى إلى جنة عالية، قطوفها دانية.

نسأل الله أن يوفقنا للإيمان والعمل الصالح.

تفسير سورتي

الهمزة والفيل

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

يقول الله تعالى: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ». (الهمزة: ١- ٩).

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، قد توعدت الذين يعيبون الناس، «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (التوبة: ٣٤)، وذكرت أن مأواهم جهنم وبئس المهاد.

قوله: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ» اختلف العلماءُ في الهمز واللمز، هل هما بمعنى واحد، أم يختلفان؟ فقال بعضهم: هما بمعنًى واحد، وقال بعضُهم: يختلفان، فالهمزُ: هو عَيْبُ الغير باللسان في غيابه.

واللّمزُ: هو عَيبُ الغير باليد، أو بالعين أو بالإشارة، أو بالكلمة الخفية في حضوره، وعلى كلّ حال، فالمراد بالهمز واللمز عيب الناس، وازدراؤهم، واحتقارُهم.

وقد استفتحت السورة بهذا الوعيد الشديد: «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ» قيل: الويل كلمة تقال للزجر والردع، وقيل: وَيْلٌ، وادٍ في جهنم، تستغيثُ جهنم بالله من شدة حره، فالهمز واللمز من الكبائر، وهما من عمل المنافقين والكافرين، قال تعالى: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ» (التوبة: ٥٨)، وقال تعالى: «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (التوبة: ٧٩)، وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاَءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ» (المطففين: ٢٩- ٣٣)، وقد نهى الله تعالى نبيه ﷺ عن طاعة مَنْ هذه صفته، فقال: «وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ» (القلم: ١٠، ١١)، ونهى المؤمنين عن هذه الصفات، فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (الحجرات: ١١).

ثم وصف الله الهمزة اللمزة بأنه: «الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ»، كما قال تعالى: «وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ» (القلم: ١٠- ١٥)، فكثرة المال تُطْغِي، والكثيرُ المال يربو بنفسه فوق الناس، فيراهم دونَه، فيزدريهم ويحتقرهم، ويسخر منهم، كما كان منْ صاحب الجنتين، قال تعالى: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا» (الكهف: ٣٢- ٣٤)، وكما كان من قارون، قال تعالى: «إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ» (القصص: ٧٦).

وقوله تعالى: «الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ» يعني: أنه مشغولٌ أبدًا بهذا المال، فهو طولَ النهار يعدّه عدًا،

فإذا كان الليل نام كالجيفة، نسأل الله العافية.

وقوله تعالى: «يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ» أي: يظنّ الجاهل أن ماله يدفعُ عنه الموتَ وينجيه منه، فيكون من الخالدين، حتى لو ظن أنه يموتُ اعتقد أن الآخرة خيرٌ له من الأولى، كما كان منْ صاحب الجنتين إذ «دَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا» (الكهف: ٣٥، ٣٦)، قال تعالى: «كَلَّا» ليس الأمر كما يظن، «مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ» (المسد: ٢)، فالمالُ لا يدفع الموتَ عن أحد، ولو كان المال يُغْني عن صاحبه شيئًا لأغنى عن قارون، الذي أوتي من الكنوز «مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ»، ومع ذلك خَسَفَ الله به وبداره الأرض «فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ» (القصص: ٨١).

ثم قال تعالى متوعدًا: «لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ» أي: لَيُرْمَيَنَّ في النار التي يحطم بعضها بعضًا، «وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ» سؤالٌ لتفخيم أمرها وتعظيم شأنها، جوابُه: «نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ» وإضافتها إلى الله أيضًا لتفخيم أمرها وتعظيم شأنها، قال النبي ﷺ: «إن ناركم هذه التي توقدون جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم». قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية قال: «ولكنها فُضِّلَتْ عليها بتسعة وستين جزءًا، كلها مثل حرها».

وقوله تعالى: «الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ» يعني: أنها تأكل اللحوم حتى تطلع على الأفئدة فتمسُّها، ومع ذلك لا يموتون، كما قال تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا» (فاطر: ٣٦)، وقال تعالى: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ» (النساء: ٥٦)، وقوله تعالى: «إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ» أي: مُغْلَقَةٌ، على خلاف الجنة فإنها مفتحة الأبواب، كما قال تعالى: «هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ» (ص: ٤٩، ٥٠)، لأنها دار السلام والأمان، وأما جهنم فدارُ الخوف والقلق والعذاب، وإغلاق الأبواب يقطع الآمال، ويخيب الرجاء، وقوله تعالى: «فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ»: أي أنّ على أبواب جهنم عمدًا ممدّدة، قد أُغْلِقَتْ بها فلا تُفتحُ لهم، وأشبه شيء بهذه العمد العمد التي كان أصحاب المحلات قديمًا يُغْلقون بها محلاتهم، كنا نرى قديمًا على باب المحل عمودًا طويلاً ممددًا في عُروة من هذه الناحية، وعروة من تلك، وفي هذا العمود القفلُ، فهذه العمد القديمة أشبه ما تكون بالعمد الممددة على أبواب جهنم.

نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، أن يجيرنا وسائر المسلمين من النار ومن عذاب النار.

سورة الفيل

يقول الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ» (الفيل: ١- ٥).

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، تذكر أهل مكة بنعمة الله عَليهم حين ردّ أصحابَ الفيل بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكانوا قد جاءوا لهدم الكعبة، فأرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، فواجبٌ عليهم أن يشكروا الله على هذه النعمة وأن يعبدوه، ويؤمنوا برسوله ﷺ، كما أنها تذكّر النبي ﷺ بهذه الحادثة حتى يصبر على أذى قومه، ويعلم أن الله ناصره وجاعلٌ العاقبة له.

تفسير الآيات

قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ» أي: ألم تعلم. فالرؤيةُ هنا رؤيةُ البصيرة لا رؤية البصر، إذ أنّ النبي ﷺ في أرجح الأقوال وُلد عام الفيل، فلم ير بعينه كيف فعل ربه بأصحاب الفيل، وقوله تعالى: «أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ» يعني أنه تعالى خيب سعيهم، فرجعوا يجرون ذيل الخيبة، ولم يظفروا بشيء مما أرادوا، «وأرسل» الله «عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ» يعني جماعات جماعات، بعضُها في إثر بعض، «تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ» أي بحجارة من طين متحجر، لا تصيب أحدًا إلا قتلته، «فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ» أي: كورق الشجر الذي عصفتْ به الريحُ، وأكلته الدواب، ثم راثته.

«وكان من شأن أصحاب الفيل: أنه كان على

اليمن مِنْ قبل ملك الحبشة رجلٌ يقال له: أرياط، وكان معه في جنده أَبْرَهة، فنازعه حتى تفرّقت الجنود عليهما، فانحاز إلى كلّ منهما طائفةٌ، ثم سار أحدُهما إلى الآخر، فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط: إنك لن تصنعَ بأن تُلْقِي الحبشة بعضها ببعض، حتى تفنيها شيئًا فشيئًا، فابرزْ لي وأبرزُ لك، فأيُّنا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده، فأرسل إليه أرياط: أَنْصَفْتَ، فخرج إليه أَبرهةُ، وكان رجلاً قصيرًا لحيمًا، وكان ذا دين في النصرانية، وخرج إليه أرياط، وكان رجلاً جميلاً عظيمًا طويلاً، وفي يده حربةٌ له، وخَلْفَ أبرهة غلام يقال له: عَتْوَدَةُ، يمنع ظهره، فرفع أرياط الحربة فضرب أبرهة يريد يَافُوخَهُ، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة، فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته، فبذلك سمي «أبرهة الأشرم»، وحمل عَتْوَدَةُ على أرياط مِنْ خلف أبرهة فقتله، وانصرف جند أرياط إلى أبرهة، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن، ووَدى أبرهة أرياط، فلما بلغ ذلك النجاشي ملك الحبشة الذي بعثهم إلى اليمن غَضِبَ غضبًا شديدًا على أبرهة وقال: عدا على أميري فقتله بغير أمري! ثم حلف لا يدعُ أبرهة حتى يطأ بلاده ويجزّ ناصيته، فحلق أبرهة رأسه وملأ جرابًا من تراب اليمن، ثم بعث به إلى النجاشي، ثم كتب إليه: أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك، فاختلفنا في أمرك، وكلّ طاعته لك، إلا أني كنت أقوى على أمر الحبشة وأضْبَطَ لها وأسوسَ منه، وقد حلقتُ رأسي كلّه حين بلغني قسم الملك، وبعثتُ إليه بجراب تراب من أرضي ليضعه تحت قدمه فيبر قسمه في، فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضي عنه وكتب إليه أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري، فأقام أبرهة باليمن.

ثم إن أبرهة بنى القُلَّيْسَ بصنعاء، كنيسةً لم يُرَ مثلها في زمانها بشيءٍ من الأرض، وكتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك كنيسة لم يُبْن مثلها لملك كان قبلك، ولستُ بمنتهٍ حتى أَصْرِفَ إليها حجّ العرب، فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي، غضب رجلٌ من كنانة، فخرج حتى أتى «القُلَّيْس» فقعد فيها - أي أحدث فيها - ثم خرج فَلحق بأرضه، فأُخبر أبرهة بذلك. فقال: مَن صنع ذلك ؟ فقيل: رجلٌ من أهل هذا البيت الذي تحجه العرب، لما سمع بقولك أنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا غَضِبَ، فجاء فقعد فيه، أي: أنه ليس لذلك بأهل، فغَضِبَ أبرهةُ عند ذلك، وحلفَ ليسيرنّ إلى البيت حتى يَهْدِمَه، ثم أمر الحبشة فتهيأتْ وتجهزّت، ثم سار وخرج معه بالفيل، وسمعت العربُ بذلك فأعْظموه، ورأوا جهاده حقًا عليهم، فخرج إليه رجلٌ كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يُقال له ذُو نفرٍ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه، ثم عرض له فقاتله، فهزم ذو نفرٍ وأصحابه، وأخذ أسيرًا، فلما أراد أبرهة قتله قال: يا أيها الملك: لا تَقْتُلني، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيرًا لك من القتل فتركه، وحبسه عنده في وثاق، ثم مضى أبرهة على وجهه حتى أتى خَثْعَمَ، فعرض له نُفَيْلُ بنُ حبيب الخثْعَمِي ومَنْ تابعه من العرب فقاتله، فهزمه أبرهة وأخذه أسيرًا، فلما همّ بقتله قال له نُفيلٌ: أيها الملك، لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب، فخلى سبيله، وخرج معه يدله، حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه رجالُ ثقيف فقالوا له: أيها الملك إنما نحن عبيدك، سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلافٌ، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذي بمكة، ونحن نَبْعثُ معك من يدلك عليه، فتجاوز عنهم، فبعثوا معه أَبَا رِغالٍ، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله بالمَغْمَس، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك، فَرَجَمَتْ قبره العرب، ثم إن أبرهة بعث رجلاً من الحبشة على خيل له حتى انتهى إلى مكة، فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مائتي بعيرٍ لعبد المطلب ابن هاشم، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، فهمت قريشٌ وكنانةٌ وهذيل ومَن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك، وبعث أبرهة حَنَاطةَ الحميريّ إلى مكة، وقال له: سَلْ عن سيد هذا البلد وشريفهم، ثم قُلْ له: إن الملك يقول لك إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحربٍ فلا حاجة لي بدمائكم، فإنْ هو لم يُرِد حربي فائتني به، فلما دخل حَنَاطَةُ مكة يسأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فقال له ما أقره به أبرهةُ، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة هذا بيت الله الحرام، وبيتُ خليله إبراهيم عليه السلام، فإنْ يمنعْه منه فهو حرمه وبيته، وإن يُخَلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فانْطلق معي إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك، فانطلق معه عبد المطلب

ومعه بعضُ بنيه، حتى أتى العسكر فسأل عن ذي نَفر، وكان له صديقًا، حتى دخل عليه وهو في محبسه، فقال له: يا ذا نَفَر هل عندك من غَناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نَفَر: وما غناءُ رجل أسير بيدي ملك، ينتظر أن يقتله غدوًا أو عشيًا ؟ ما عندي غَناءٌ في شيء مما نزل بك، إلا أن أُنيسًا سائس الفيل صديقٌ لي، فأُرْسِلُ إليه وأُوصيه بك، وأُعْظِمُ عليه حقّك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك. فقال: حسبي، فبعث ذو نفر إلى أنيس، فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش، وصاحب عَيْن مكة، يُطْعِمُ الناسَ بالسهل، والوحوشَ في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاستأذن له عليه، وانفعه عنده بما استطعت. قال: أفعل. فكلّم أنيس أبرهة، فقال له: أيها الملك، هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك، وهو صاحب عين مكة، وهو الذي يُطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال، فائذن له عليك فليكلمك في حاجته، فأذن له أبرهة، وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم، فلما رآه أبرهة أَجَلَّه وأكْرَمَه عن أن يُجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يُجلسه معه على سرير مُلكه، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان. فقال: حاجتي أن يردّ عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي، فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كُنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه لا تكلمني فيه ؟ فقال له عبد المطلب: إني أنا ربّ الإبل، وإنّ للبيت ربًا سيمنعه. فقال: ما كان ليمتنع منّي. قال: أنت وذاك. فردّ على عبد المطلب إبله.

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز في رؤس الجبال، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقال:

لا همّ إن العبد يمـ
ـنع رَحْلَه فامنع رِحَالك
لا يغلبن صَليبهم
ومِحالُهم عدوًا محالك
إن كنتَ تاركهم وقبـ
ـلَتَنا فأمْرٌ ما بدا لك

ثم انطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال يتحرزون فيها ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ، فلما أصبح أبرهةُ تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محمودًا، فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نُفَيْلُ بن حبيب حتى قام إلى الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال: ابرك محمود، وارْجِع راشدًا من حيث أتيت؛ فإنك في بلد الله الحرام، وأرسل أذنه، فبرك الفيل، وخرج نفيل يشتد حتى أَصْعَدَ في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا رأسه فأبى، فأدْخلوا محاجن لهم في مراقّه فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجّهوه راجعًا إلى اليمن فقام يُهرْولُ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثالَ الخطاطيف، مع كلّ طائر منها ثلاثة أحجار يحملها، حجر في منقاره، وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وليس كلّهم أصابتْ وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي جاءوا منها ويسألون عن نُفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فجعل نفيل يقول:

أين المفر والإله الطالبُ
والأشرم المغلوب ليس الغالب

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم ليسقُط انملةً انملةً، كلما سقطت انملةٌ تبعتها منه مِدّةٌ تُمَثُّ (أي تنزف) قيحًا ودمًا، حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل فَرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

فلما بعث الله محمدًا ﷺ كان مما يعدّ الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ما ردّ عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ...». السورة. اهـ. من «البداية والنهاية» لابن كثير، بتصرف (٢/ ١٦٩- ١٧٤).

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورتي

قريش والكوثر

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

يقول الله تعالى:

«لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ (١) إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ»

[قريش: ١- ٤].

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، وهي أيضًا تذكّر كفار مكة بفضل الله عليهم، الموجبِ عليهم أن يشكروه بعبادتهم إياه وحده لا شريك له.

تفسير الآيات

كانت قريشٌ ولا سيما بعد عام الفيل تغدو وتروح، وتجوب البلاد شمالاً وجنوبًا آمنة مطمئنة، لا يعترض من قوافلها أحد، يقول الناس: هؤلاء أهل بلد الله، كفاهم الله مؤنة العدو، لمكانتهم ومكانة بيته، فذكرهم الله بهذه النعمة، فقال: «لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ (١) إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ» رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وأينما توجّهوا فهم آمنون وغيرهم خائفون، وهذه نعمة توجب الشكر حتى تدوم، فإن النعم تزيدُ وتدوم بالشكر، وتنقصُ حتى تضمحل بالكفر، قال تعالى: «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» [إبراهيم: ٧]، ولذا قال تعالى: «فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ». والله سبحانه كثيرًا ما يذكّر الناس بنعمته حين يأمرهم بعبادته، من باب أن النفس تحب مَن أحسن إليها، فاللهُ يذكر الناس بإحسانه، ثم يأمرهم بعبادته، كما هو واضحٌ من هذه السورة، وكما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» [البقرة: ٢١، ٢٢] فهو الذي خلقكم ورزقكم، وكما قال تعالى: «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [غافر: ٦٤، ٦٥].

سورة الكوثر

يقول الله تعالى: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ» [الكوثر: ١- ٣].

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، تأمر النبي ﷺ بإخلاص العبادة لله مقابل ما أعطاه من الكوثر، وتبشّره بأن الله مخزي أعداءه ومبغضيه، ومعذبهم عذابًا أليمًا.

تفسير الآيات

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بَيْنَا رسولُ الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا في المسجد، إذا أَغْفَى إغفاءةً، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال: نزلتْ عليّ آنفًا سورةٌ، فقرأ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ»، ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهرٌ وعدنيه ربي عز وجل عليه خيرٌ كثيرٌ، هو حَوْضٌ تَرِدُ عليه أُمتي يوم القيامة، آنيتُه عدد نجوم السماء، فيختلجُ العبدُ منهم، فأقول: ربِّ، إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك؟» [صحيح، رواه مسلم (٤٠٠ / ٣٠٠ / ١٠)، والنسائي (١٣٣، ١٣٤ / ٢)، وأبو داود (٤٧٢١ / ٨١ / ١٣) دون قوله:....].

ففسّر النبي ﷺ الكوثر بأنه نهرٌ في الجنة، ترد عليه أمته، فتشرب منه شربةً هنيئة مريئة، لا تظمأ بعدها أبدًا. وأخبر ﷺ أنه سيُطْرَدُ بعضُ أفراد أُمته عن هذا النهر، وأنه سيقول: يا رب، إنهم من أمتي. وهو ﷺ سيعرف أمته من بين سائر الأمم بالغرة والتحجيل، كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، وددت أنا قد رأينا إخواننا». قالوا: أَوَلَسنا إخوانك يا رسول الله ؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد. قالوا: كيف تعرفُ من لم يأت بعدُ من أمتك يا رسول الله ؟ قال: أرأيت لو أن رجلاً له خيلٌ غرٌ محجلة بين ظهري خيل دُهم بُهم، ألا يعرف خيله ؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: فإنهم يأتون غرًا محجلين من الوضوء، وأنا فرطُهم على الحوض، فَلَيُذَادَنّ رجالٌ عن حوضي، كما يُذادُ البعير الضال، أناديهم: ألا هُلّم ! فيقال: إنهم قد بدّلوا بعدك. فأقول: سُحقًا سُحقًا. [مسلم (١٢٤٩)].

فاحذر يا عبد الله أن تحدثَ في دين الله، فإن مَنْ أحدثَ يُطْرَدُ عن الحوض، وإذا أردت أن ترد وتشرب فاتبع ولا تبتدع.

قال العلماء: والكوثر في اللغة: العطاء الكثير، قيل لامرأة أعرابية وقد رجع ابنها من سفر: بِمَ آبَ ولدُك؟ قالت: بالكوثر. تعني عاد بخير كثير.

فقولُ الله سبحانه لنبيه: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» أي: أعطيناك في الدنيا خيرًا كثيرًا، وسوف نُعطيك في الآخرة أكثر، كما قال تعالى: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى» [الضحى: ٥]، ولما كان هذا الوعد متحققًا ولابد، قال الله: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ»، وما هذا النهر «الكوثر» إلا من العطاء الواسع الكثير الذي أعطاه الله لنبيه، وهذا العطاءُ يوجب الشكر، والشكرُ لا يتحقق بكلمة الشكر لله فقط، وإنما يتحقق بالعمل، ولذا لما ذكر الله تعالى بعض نعمه على آل داود قال: «اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا» [سبأ: ١٣]، فالشكر الحقيقي يكون باللسان، والقلب، والأركان.. باللسان بأن يحدّث بنعمة الله، ويلهج بالثناء عليه وشكره، وبالقلب بأن يعتقد الإنسان أن ما به من نعمة فمن الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: «وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ» [النحل: ٥٣]، وبالأركان بالقيام بما يحبه الله وترك ما يبغضه، وأن تستخدم نعمة الله في مرضاة الله.

ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ هنا: «فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ» فالفاء واقعة في جواب قوله: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ»، وتقدير الكلام: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ» شكرًا على ما

أعطاك، فأمره الله بعبادتين من أعظم العبادات وأجلّ القُرب، وهما الصلاة والنحر. قال العلماء: لقد كان المشركون يصلون للأصنام ويذبحون لها، ويذكرون اسمها على الذبائح، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ بمخالفتهم، بأن يصلي لله، وأن يذبح لله، ويذكر اسم الله على ذبائحه كلها، وهذا كقوله تعالى: «قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

وخُصّت الصلاةُ بالذكر لأنها أعظم العبادات البدنية، وخُصّ النحر بالذكر لأنه أعظم العبادات المالية.

ولقد استجاب النبي ﷺ لأمر ربه عز وجل،وقام بذلك كله خير قيام، أما الصلاة فكان صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقيل له: لِمَ تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ: «أفلا أحبّ أن أكون عبداً شكوراً» (ابن حبان في صحيحه وانظر السلسلة الصحيحة).

وأما النحر فكان ﷺ جواداً كريمًا، وكان كثيراً ما يذبح باسم الله، ويوزع اللحم في سبيل الله، كما جاء عن عائشة رضي الله عنها: أنهم ذبحوا شاةً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما بَقِيَ منها؟» قالت: ما بقي منها إلا كتفها. قال: «بقي كلُّها غير كتفها». [الترمذي (١٢٥٨٧ / ٥٨ / ٤]. ومعناه: تصدّقوا بها إلا كتفها، فقال: بقيت لنا في الآخرة إلا كتفها، بل إنه ﷺ أهدى في حجة الوداع مائة بدنة، ذبح بيده ثلاثًا وستين منها، وذبح عليٌ الباقي.

وقوله تعالى: «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» الشانئ: هو المُبغضُ، والشنآن: البُغْض، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا» [المائدة: ٨]، يعني: لا يحملنكم بُغْضُ قوم على ترك العدل فيهم، فالله تعالى يقول لنبيه ﷺ: إن الذي يُبغضك هو الأبتر، أي المقطوع الذي لا ذكر له، أو هو المنقطع عن كل خير، وقد كانوا يقولون عن النبي ﷺ أنه رجل أبتر، وذلك حين مات ذكورُ أولاده، فقالوا: لا عليكم منه، فما هو إلا رجل أبتر، قد مات ذكورُه وهو لاحقٌ بهم، فَيُبْتَرُ ذِكْرُه، وتنقطع سيرته، فقال الله تعالى: «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» أمَّا أنت فقد رفع الله ذكرك، فلا يُذكر إلا وذُكرت معه، في الأذان، في الخطبة، في تشهد الصلاة، في المجالس، بل من ذُكرْتَ عنده فلم يصلِّ عليك أبعده الله، ورَغم أنفُه، ومن كان كذلك فشانئه - لا هو - هو الأبتر، المقطوع العقب، والمقطوع العمل، فلا يبقى له ولد، ولا يبقى له عمل، بل ولده مقطوع،وعمله مقطوع، فلا شيء له يُذكرُ به، وهو مقطوع العمل الصالح، فلا يوفق له أبداً، وإنْ عمله لم يجد له حلاوة.

وشنآن الرسول ﷺ منه ما هو كفر، ومنه ما دون ذلك، فالكافرون أبغضوا الرسول ﷺ وما جاء به من الهدى ودين الحق حتى «إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ» [الصافات: ٣٥]، «وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» [الزمر: ٤٥]، ومن الناس من يقول آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، أشربت قلوبهم البدعة، فهم يبغضون السنة وأهلها، وإذا ذكرت البدعة طارت قلوبهم طربًا، وإذا ذكرت السنة امتلأتْ قلوبهم بغضًا: «يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا» [الحج: ٧٢].

ولكل فريقٍ من الفريقين حظُّه من هذا الوعيد، «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

فاحذر يا عبد الله أن تبغض رسول الله ﷺ واحذر أن تبغض سنته، واحذر أن تقدم قول أحد من الناس مهما كان على قوله صلى الله عليه وسلم، فإنّ تقديم أقوالَ الرجال وآراء الرجال على قوله ﷺ عُنوان محبة الرجال وبُغضه صلى الله عليه وسلم، فمن المعلوم أن الرجل يتبع أحب الناس إليه، وإذا دعاه داعيان أجاب أحبهما إليه، ولذا قيل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه
هذا وربي في القياس شنيع
لو كان حُبك صادقًا لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع

اللهم بحبنا لنبيك وآل بيته، واتباعنا لسنته أوردنا حوضه، واسقنا منه شربًا لا نظمأ بعدها أبدًا. آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الكافرون والنصر

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

الجزء الثلاثون — سورة الكافرون

سورة الكافرون

يقول الله تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» [الكافرون: ١ - ٦].

بين يدي السورة

سورةٌ مكية، وهي سورةُ البراءة من المشركين وأعمالهم، وقد كان رسول الله ﷺ يقرأ بها مع «قل هو الله أحد» في ركعتي الفجر، وركعتي المغرب، وركعتي الطواف، كما أنه ﷺ كان يقرأهما إذا أوى إلى فراشه لينام.

تفسير الآيات

لقد بلغ من جهل المشركين وغباوتهم لما عجزوا عن صرف رسول الله ﷺ عن الدعوة وعن الدين والتوحيد، مع استخدامهم جميع الأساليب، من الترغيب والترهيب والحيلة، بلغ من جهلهم أن دعوا إلى ما يسمى بلغة العصر: أنصاف الحلول، فقالوا: يا محمد، اعْبد اللات معنا عامًا، ونعبد الله معك عامًا، فإنْ كنت على حق فقد كنا معك، وإن كنا على حق فقد كنت معنا، فنهى الله نبيه ﷺ عن طاعتهم فقال: «فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ» [القلم: ٨، ٩]، وأمَره هنا أن يصدع ببراءته منهم، حتى ييأسوا منه، فقال تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ»، قال بعض العلماء: التكرار للتأكيد، وقال بعضهم: المراد «لا أعبد ما تعبدون» في الحال، «ولا أنتم عابدون ما أعبد» الآن، «ولا أنا عابد ما عبدتم» في المستقبل، «ولا أنتم عابدون ما أعبد» في المستقبل. «لكم دينكم ولي دين».

وهذه البراءة من المشركين وأعمالهم سنة أبينا إبراهيم عليه السلام، وقد أمرنا الله أن نقتدي به ونتبع سنته، قال تعالى: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ» [الممتحنة: ٤].

فالتبري من الكافرين سنة إبراهيم، والتوحيد ملته، وقد قال تعالى: «وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ» [البقرة: ١٣٠]، فلا بدَّ من التبري من أعداء الله لابد من التبري من الكفر وأهله، والشرك وأهله، فلا يجوز أن تقرّ يا

عبد الله باستحقاق غير الله للعبادة مع الله، «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ» [محمد: ١٩]، أي: لا معبود بحق إلا الله، وكل ما عُبد من دون الله فقد عُبد بالباطل، فإن فعلت فقد استمسكت بالعروة الوثقى، كما قال تعالى: «لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» [البقرة: ٢٥٦].

فلا بد أن يسبق الإيمان بالله الكفر بكل ما يُعبد من دونه، «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ»، ولذا كانت كلمة التوحيد ذات شقين: الأول: الكفر بالطاغوت، لا إله، والثاني: الإيمان بالله: إلا الله، لا إله إلا الله، كلمة التوحيد، ومعناها: لا معبود بحق إلا الله.

ولابد أيضًا أن يعتقد المسلم أنه على الحق، وأن من خالف دين الإسلام من أهل أية ملة أو نحلة فهو على باطل، إنْ بلغته دعوةُ الحق ولم يؤمن بها فهو خالدٌ مخلد في النار، لا يخرج منها أبدًا.

هذا هو ما يجب على المسلم أن يعتقده، أما أن يقول لمن خالفه في عقيدته ودينه: «لكم دينكم ولي دين» ويظنّ أنهم على حقّ، كما أنه على حقّ، فهذا شك لا يغني عن صاحبه شيئًا.

وهذه السورة كقوله تعالى: «وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ» [يونس: ٤١]، وقوله تعالى: «فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ» [الشورى: ١٥].

●●●

سورة النصر

يقول الله تعالى: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا» [النصر: ١ - ٣].

بين يدي السورة

سورةٌ مدنية، تحمل البشرى لرسول الله ﷺ بالنصر والفتح، وتوجهه إلى التسبيح بحمد الله والاستغفار إذا جاء نصرُ الله والفتح.

كما أنها مع حملها البشرى قد نعتْ لرسولِ الله ﷺ نَفْسَه، وكأنه قيل له: كان منتهى مطلوبك في الدنيا هذا الذي وجَدْتَه، وهو النصر والفتح والاستيلاء، والله وعدك بقوله: «وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى»، فلما وَجدت أقصى مرادك في الدنيا فانتقل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادات العالية، وحتى يأتيك الموت سبح بحمد ربك واستغفره، إنه كان توابًا.

وعلى هذا البيان فالكلام على السورة ينقسمُ إلى قسمين: الأول عن تحليل ألفاظها وبيان معانيها، وكيف كان الفتح، والثاني: كيف مات رسول الله ﷺ.

تفسير الآيات

قال العلماء: ولِمَ جمعَ الله بين النصر والفتح؟ أليس الفتح نصرًا؟ وأجابوا: بأن النصر قد تحقق من غير فتح، كما كان يوم بدر، إذ خرج المؤمنون من المدينة، وخرج المشركون من مكة، والتقى الجمعان ببدر، فنصر الله رسوله والمؤمنين: «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا» [الأحزاب: ٢٥]، بل قُتل منهم سبعون، وأسر مثلهم، فكان نصرٌ من غير فتح، لكن «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ»، وذلك يوم دخل رسول الله ﷺ مكة، فكان الفتح، وهو ظاهرٌ، وكان النصرُ، لأن الله مكّن لنبيه ﷺ منهم فمن عليهم وعفا عنهم، وقوله تعالى: «وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ

اللَّهِ أَفْوَاجًا» يعني بعد الفتح، وذلك أن العرب من غير قريش كانوا يقولون: انظروا ما الله فاعلٌ بمحمدٍ وقريش؟ فإن نصر الله قريشًا كما نصرها عام الفيل، فمعناه أنّ ما عليه قريش خيرٌ مما يدعو إليه محمد، وإن انتصر محمد على قريش، فمعناه أن محمدًا أهدى منهم سبيلاً، فلما جاء نصر الله والفتح عام ثمانية للهجرة، جاءت وفود العرب إلى النبي ﷺ فبايعوه على الإسلام، وسمى العام التاسع بعد عام الفتح بعام الوفود، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

وقوله: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا» الفاء واقعة في جواب الشرط: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» على ما حباك من نعم، «وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا»، ولقد كان ﷺ بعد نزول هذه السورة يكثر من قول: «سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي»، كان يقول ذلك في الركوع والسجود يتأول القرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها.

قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (٤ / ٢٧٨): وكان سبب الفتح بعد هُدْنة الحديبية، ما ذكره محمد ابن إسحاق بسنده عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما حدثاه جميعًا قالا: كان في صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل، فتواثبت خزاعة وقالوا: نحن ندخل في عقد محمدٍ وعهده، وتواثبت بنو بكر وقالوا: نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم، فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة أو الثمانية عشر شهرًا، ثم إن بني بكر وثبوا عل خزاعة ليلاً بماءٍ يقال له الوتير، وهو قريب من مكة، وقالت قريش: ما يعلم بنا محمدٌ، وهذا الليل، وما يرانا أحد، فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح، وقاتلوهم معهم للطعن على رسول الله ﷺ، فركب عمرو بن سالم حتى قدم على رسول الله ﷺ فأنشد بين يديه شعرًا، فقال:

يا رب إني ناشد محمدًا
حلْف أبيه وأبينا الأتلدا
قد كنتموا ولْدًا ولنا والدًا
ثمتَ أسلمنا فلم ننزعْ يدا
فانصر رسول الله نصرًا أبدًا
وادع عباد الله يأتوا مددا
في فيلقٍ كالبحر يجري مزبدًا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا
ونقضُوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لي في كداء رصدا
وزعموا أن لست أدعوا أحدا
فهم أذلّ وأقلّ عددا
هم بيتونا بالوتير هُجَّدا
وقتلونا رُكَّعًا وسجَّدا

فقال رسول الله ﷺ: «نُصِرت يا عمرو بن سالم»، ثم أمر الناس بالجهاز، وكتمهم مخرجه، وسأل الله أن يُعمي على قريش خبره، حتى يبغتهم في بلادهم، ثم إن أبا سفيان خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال عمر: أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ، فوالله لو لم أجد لكم إلا الذر لجاهدتكم به، ثم خرج فدخل على عليّ فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحمًا، وأقربهم مني قرابة، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ، فقال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه، فقال: فانصحني، قال: والله ما أعلم شيئًا يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فَأَجِرْ بين الناس، ثم الحق بأرضك، فقال: أو ترى ذلك مُغنيًا عني شيئًا؟ قال: لا والله ما أظن، ولكن لا أجدُ لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس إني قد أَجَرْتُ بين الناس، ثم ركب حتى قدم على قريش، فقالوا: ما وراءك؟ فأخبرهم بما كان من أمره، فقالوا: هل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويحك، ما زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنا ما قلت؟ فقال: لا، والله ما وجدت غير ذلك.

ولما أجمع الرسول ﷺ المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جُعلاً على أن تبلغه قريشًا، فجعلته في رأسها، ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به، وأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما صنع حاطب، فأرسل من أتاه بالكتاب.

أخرج البخاري بسنده عن علي رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: «انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَةَ خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها، فانطلقنا تَعادَى بنا خيلُنا

حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة، فقلنا أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، قال: فأخرجته من عِقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: مِنْ حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين، يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال: «يا حاطب ما هذا؟» فقال: يا رسول الله، لا تعجل عليَّ، إني كنت امرءًا ملصقًا في قريش، يقول كنت حليفًا، ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صدقكم». قال عمر: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». فأنزل الله سورة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ» إلى قوله: «فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» [الممتحنة].

قال ابن إسحاق: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره، واستخلف على المدينة أبا رُهْمٍ كلثوم بن حُصين الغفاري، وخرج لعشرٍ مضين من شهر رمضان وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد أفطر، ثم مضى حتى نزل مرّ الظهران في عشرة آلاف من المسلمين، وقال عروة بن الزبير: كان معه اثنا عشر ألفًا، وقد عميت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبرٌ عن رسول الله ﷺ، ولا يدرون ما رسول الله ﷺ فاعلٌ، وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبرًا أو يسمعون به، فأخذتهم خيل رسول الله ﷺ، وقام عمر إلى أبي سفيان يجأ في عنقه حتى أجاره العباس بن عبد المطلب، وكان صاحبًا لأبي سفيان، ثم أردَفَه خلفه حتى جاء رسول الله ﷺ، قال العباس: ثم خرج عمر يشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء، قال: فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله، إني قد أجرته، فقال رسول الله ﷺ: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به». قال: فذهبت به إلى رحلي فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ فقال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد علمت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئًا بعد، قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا، فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، قبل أن تضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق فأسلم، قال العباس: فقلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجلٌ يحب هذا الفخر فاجعل له شيئًا. قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

وقد روى البخاري بسنده عن هشام عن أبيه: أنه لما أسلم أبو سفيان قال رسول الله ﷺ للعباس: «احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين». فحبسه العباس، فجعلت القبائل تمر مع رسول الله ﷺ، تمر كتيبة كتيبة على أبي سفيان، فمرَّت كتيبة فقال: يا عباس، من هذه؟ قال: هذه غِفار، قال: وما لي ولغفار، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، فقال: من هذه؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبادة معه الراية، فقال سعد: يا أبا سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس، حبذا يوم الذمار، ثم جاءت كتيبة وهي أقل الكتائب فيهم رسول الله ﷺ وأصحابه، وراية رسول الله ﷺ مع الزبير بن العوام، فلما مر رسول الله ﷺ بأبي سفيان، قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ فقال: ما قال؟ قال كذا وكذا. فقال: كذب سعد، ولكن هذا يومٌ يعظم الله الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة، وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون.

ثم إن أبا سفيان انطلق حتى جاء قومه فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمدٌ قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

ثم دخل رسول الله ﷺ مكة من كداء التي بأعلى مكة، قال عبد الله بن مغفل: رأيت رسول الله ﷺ يوم

فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يرجع، قال: ولولا أن يجتمع الناس حولي لرجّعت كما رجّع.

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ دخل يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء، وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ لما انتهى إلى ذي طُوى وقف على راحلته معتجرًا بشقة بردٍ حبرة حمراء، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن عثنونهُ ليكاد يمسُّ واسطة الرّحْل.

وروى البخاري بسنده عن ابن مسعود قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد».

قال البخاري بسنده إلى أبي شريح الخزاعي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعثُ البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به، أنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرّمها الله ولم يحرّمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرًا، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعةً من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب».

وهكذا كان النصر والفتح، وقد اختصرت قدر الإمكان، فمن شاء الزيادة والتفصيل فليراجع: «البداية والنهاية»، و«سيرة ابن هشام»، والله تعالى أعلم بما كان.

وهذا هو القسم الأول من السورة، كما وعدنا في مقدمتها.

أما كيف مات رسول الله ﷺ وهو القسم الثاني:

فاعلم أنه ﷺ خرج في السنة العاشرة من الهجرة للحج واستشعرت النفوس قرب أجله في هذه الحجة، وذلك لما نزل عليه فيها من القرآن، فقد نزل عليه يوم عرفة قول الله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا» [المائدة: ٣]، فلما تلاها رسول الله ﷺ على أصحابه بكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا الذي فهمه عمر، فقال: وقد وقف عند جمرة العقبة: «خذوا عني مناسككم، فلعلي لا أحج بعد حجتي هذه». [رواه مسلم ١٢٩٧ / ٩٤٣ / ٢، وأبو داود ١٩٥٤ / ٤٤٥ / ٥، والنسائي ٢٧٠ / ٥].

وفي أوسط أيام التشريق نزلت عليه سورة النصر، فنعى ﷺ نفسه إلى فاطمة ابنته، عن ابن عباس قال: «لما نزلت: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» دعا رسول الله ﷺ فاطمة، فقال: «نُعيت إليَّ نفسي»، فبكت. فقال: «لا تبكي فإنك أول أهلي لاحق بي». فضحكت، فرآها بعض أزواج النبي ﷺ، فقلن: يا فاطمة، رأيناك بكيت ثم ضحكت، قالت: إنه أخبرني أنه نُعِيَت إليه نفسه فبكيت، فقال لي: لا تبكي، فإنك أول أهلي لاحق بي، فضحكت.

وعن ابن عباس قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم يُدْخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟! فقال عمر: إنه من حيث علمتم، فدعاني ذات يوم فأدخلني معهم، وما رأيت أنه أدخلني معهم، إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قوله تعالى: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» السورة؟ فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذاكَ تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا»، وذلك علامة أجلك، «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا»، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول.

وهكذا استشعرت النفوس قرب أجله ﷺ في حجة الوداع.

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة في ذي الحجة، فأقام بها بقيته، والمحرّم، وصفرًا.

وبعث بعثًا إلى الشام، وأمّر عليهم أسامة بن زيد، فبينا الناس على ذلك ابتدئ رسول الله ﷺ بمرضه الذي قبض فيه، لما أراه الله له من رحمته وكرامته، في ليالٍ بقين من صفر، أو أول شهر ربيع الأول.

والحمد لله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

تفسير سورة النصر

الحلقة الأخيرة

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

الجزء الثلاثون — سورة النصر

يقول الله تعالى: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا» [النصر: ١- ٣].

قلنا: إن الحديث عن هذه السورة يتضمن أمرين:

الأول: كيف تم فتح مكة؟

والثاني: كيف كانت وفاة الرسول ﷺ.

وقد تحدثنا عن كيفية الفتح، وبدأنا الحديث عن كيفية وفاة النبي ﷺ، ونحن في هذا المقال نكمل الحديث عن:

وفاة النبي ﷺ

وكان أول ما ابتدئ به ﷺ صداع شديد يجده في رأسه. كما جاء عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْبَقِيعِ فَوَجَدَنِي وَأَنَا أَجِدُ صُدَاعًا فِي رَأْسِي وَأَنَا أَقُولُ وَارَأْسَاهُ! فَقَالَ: بَلْ أَنَا يَا عَائِشَةُ وَارَأْسَاهُ ثُمَّ قَالَ مَا ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِي فَقُمْتُ عَلَيْكِ فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ وَصَلَّيْتُ عَلَيْكِ وَدَفَنْتُكِ. فقلت: لكأني بك والله لو فعلت ذلك فرجعت إلى بيتي فعرست فيه ببعض نسائك! فتبسم ﷺ، ثم ابتدئ في وجعه الذي مات فيه(١).

وكان ﷺ يدور على نسائه في مرضه كما كان يدور في صحته، وكان كلما أتى واحدة قال: أين أنا غدا؟ - يريد عائشة - حتى اشتد عليه وجعه، وغلبه على نفسه وهو في بيت ميمونة. فبينما هو كذلك فلدّوه، فَجَعَلَ يُشِيرُ إِلَيْنَا أَنْ لاَ تَلُدُّونِي. فَقُلْنَا: كَرَاهِيَةُ الْمَرِيضِ لِلدَّوَاءِ. فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ: أَلَمْ أَنْهَكُمْ أَنْ تَلُدُّونِي قُلْنَا كَرَاهِيَةَ الْمَرِيضِ لِلدَّوَاءِ، فَقَالَ: لاَ يَبْقَى أَحَدٌ فِي الْبَيْتِ إِلاَّ لُدَّ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلاَّ الْعَبَّاسَ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْكُمْ»(٢).

ثم استأذن ﷺ نساءه أن يمرّض في بيت عائشة فأذنّ له. فدخل بيت عائشة.

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: يَا عَائِشَةُ، مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ»(٣)..

وكان ﷺ يخرج للصلاة فلما غلبه الوجع قال: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ. قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَقُلْتُ لِحَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: قُولِي لَهُ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ. فَفَعَلَتْ حَفْصَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: مَهْ إِنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ. مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ، فَقَالَتْ حَفْصَةُ لِعَائِشَةَ: مَا كُنْتُ لأُصِيبَ مِنْكِ خَيْرًا»(٤).

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لَقَدْ رَاجَعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي ذَلِكَ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى كَثْرَةِ مُرَاجَعَتِهِ إِلاَّ أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِي قَلْبِي أَنْ يُحِبَّ النَّاسُ بَعْدَهُ رَجُلاً قَامَ مَقَامَهُ أَبَدًا وَلا كُنْتُ أُرَى أَنَّهُ لَنْ يَقُومَ أَحَدٌ مَقَامَهُ إِلاَّ تَشَاءَمَ النَّاسُ بِهِ، فَأَرَدْتُ أَنْ يَعْدِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَبِي بَكْرٍ»(٥).

فكان أبو بكر رضي الله عنه يصلي بالناس في حياته ﷺ.

ثُمَّ إِنَّهُ وَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً، فَخَرَجَ يُهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ رِجْلَيْهِ تَخُطَّانِ مِنَ الْوَجَعِ. فَأَرَادَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَتَأَخَّرَ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ

أَنْ مَكَانَكَ. ثُمَّ أُتِيَ بِهِ حَتَّى جَلَسَ إِلَى جَنْبِهِ. فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي. وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِصَلاَتِهِ، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاَةِ أَبِي بَكْرٍ»(٦).

ويوم الخميس اجتمعوا عنده ﷺ ، اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعُهُ، فَقَالَ: «ائْتُونِي أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لاَ تَضِلُّوا بَعْدِي» فَتَنَازَعُوا وَمَا يَنْبَغِي عِنْدَ نَبِيٍّ تَنَازُعٌ، وَقَالُوا: مَا شَأْنُهُ؟ أَهَجَرَ؟ اسْتَفْهِمُوهُ! قَالَ ﷺ: دَعُونِي فَالَّذِي أَنَا فِيهِ خَيْرٌ»(٧).

ثم أراد ﷺ أن يخرج للخطبة، فقال لأهله: " هَرِيقُوا عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ، لَعَلِّي أَعْهَدُ إِلَى النَّاسِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَجْلَسْنَاهُ فِي مِخْضَبٍ لِحَفْصَةَ، ثُمَّ طَفِقْنَا نَصُبُّ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْقِرَبِ، حَتَّى طَفِقَ يُشِيرُ إِلَيْنَا بِيَدِهِ: أَنْ قَدْ فَعَلْتُنَّ. قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ فَصَلَّى بِهِمْ وَخَطَبَهُمْ(٨).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ ذَلِكَ الْعَبْدُ مَا عِنْدَ اللهِ» قَالَ: فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ فَعَجِبْنَا لِبُكَائِهِ أَنْ يُخْبِرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ خُيِّرَ فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً غَيْرَ رَبِّي لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَمِ وَمَوَدَّتُهُ، لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلاَّ سُدَّ إِلاَّ بَابَ أَبِي بَكْرٍ»(٩).

عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»(١٠).

ثم انقطع ﷺ عن أصحابه بقية يوم الخميس، والجمعة، والسبت، والأحد، بَيْنَمَا هُمْ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ مِنْ يَوْمِ الاثْنَيْنِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي لَهُمْ لَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلاَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ كَشَفَ سِتْرَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ فِي صُفُوفِ الصَّلاَةِ ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ، فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ وَظَنَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الصَّلاَةِ. قَالَ أَنَسٌ وَهَمَّ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَفْتَتِنُوا فِي صَلاَتِهِمْ فَرَحًا بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ بِيَدِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ أَتِمُّوا صَلاَتَكُمْ ثُمَّ دَخَلَ الْحُجْرَةَ وَأَرْخَى السِّتْرَ»(١١).

وقد وجد ﷺ من سكرات الموت ألمًا وشدة حتى قالت عائشة رضي الله عنها: لاَ أَكْرَهُ شِدَّةَ الْمَوْتِ لأَحَدٍ أَبَدًا بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ (١٢).

عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، قَالَ: أَجَلْ إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلاَنِ مِنْكُمْ. قُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ؟ قَالَ: أَجَلْ. ذَلِكَ كَذَلِكَ. مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا سَيِّئَاتِهِ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا(١٣).

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ الْكَرْبُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: وَا كَرْبَ أَبَتَاهُ! فَقَالَ لَهَا: لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ(١٤).

عَنْ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم قَالاَ: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَإِذَا اغْتَمَّ كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ وَهُوَ كَذَلِكَ يَقُولُ: لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا(١٥). قَالَتْ: فَلَوْلاَ ذَاكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا.

وَعَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: وَهُوَ صَحِيحٌ: «إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخَيَّرَ فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِي غُشِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إِلَى سَقْفِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى، فَقُلْتُ: إِذًا لاَ يُخَيِّرُنَا»(١٦).

وَكَانَتْ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تَقُولُ: إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي وَفِي يَوْمِي وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنَّ اللهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ. دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ. فَتَنَاوَلْتُهُ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ. وَقُلْتُ: أَلَيِّنُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ. فَلَيَّنْتُهُ فَأَمَرَّهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ» ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ: «فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى» حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ(١٧).

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يَا أَبَتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ يَا أَبَتَاهُ مَنْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ يَا أَبَتَاهُ إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهُ(١٨).

فلما مات ﷺ وضعت عائشة رأسه على وسادة وسجّته ببردة فاستأذن عمر والمغيرة فأذنت لهما وضربت الحجاب.

فنظر عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: واغشياه!

ما أشد غشي رسول الله ﷺ ، ثم قاما ليخرجا، فلما دنوا من الباب قال المغيرة: يا عمر! مات رسول الله ﷺ ، فقال عمر: كذبت! بل أنت رجل تحوسك فتنة. إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يفني الله المنافقين. فخرجا على الناس، وقام عمر يخطب الناس ويتوعد من قال مات رسول الله بالقتل والقطع، ويقول: والله ما مات رسول الله ﷺ ، وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم.

فلما اختلفوا في موته ﷺ ذهب سالم بن عبيد إلى الصديق بمنزله وأخبره، وكان الصديق حين صلى الفجر ورأى رسول الله بخير انصرف إلى منزله، فجاء رضي الله عنه فكشف عن رسول الله ﷺ وقبّله فقال: بأبي أنت وأمي، طبت حيا وميتا، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدا، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس: فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال تعالى: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» [الزمر] وقال: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» [آل عمران: ١٤٤].

فنشج الناس يبكون، وقال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرفت أنه الحق فعقرت حتى ما تقلّني رجلاي، وهويت إلى الأرض، وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات.

واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة فقالوا: منّا أمير ومنكم أمير. فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلاما قد أعجبني خشيت أن لا يبلغه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منّا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء، وأنتم الوزراء هم أوسط العرب دارا، وأعربهم حسبا، فبايعوا عمر أو أبا عبيدة، فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس، وذلك يوم الاثنين الذي توفي فيه رسول الله ﷺ.

فلما كان الغد اجتمع الناس في المسجد، فصعد عمر المنبر فتكلم وأبو بكر صامت فقال عمر: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ ليدبر لنا أمرنا، فإن يك محمد قد مات فإن الله قد جعل بين أظهركم نورا تهتدون به، هدى الله به محمدا ﷺ وإن أبا بكر صاحب رسول الله د وثاني اثنين وإنه أولى المسلمين بأموركم، فقدّموا فبايعوه. ثم نزل عمر وقال لأبي بكر: اصعد، فلم يزل به حتى صعد المنبر، فبايعه عامة الناس بعد بيعة السقيفة.

ثم تكلم أبو بكر: فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

أما بعد:

أيها الناس: إني قد ولّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف منكم قوي عندي حتى أزيح علّته إن شاء الله، والقوي منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.

لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع في قوم قط الفاحشة إلا عمهم الله بالبلاء. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم. قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله(١٩).

وهكذا انشغل أصحاب رسول الله ﷺ بقية يوم الاثنين وبعض يوم الثلاثاء عن تجهيز النبي ﷺ ببيعة الصديق، فلما تمهدت وتوطدت وتمت شرعوا بعد ذلك في تجهيزه ﷺ ، معتدّين في كل ما أشكل عليهم بأبي بكر رضي الله عنه.

لَمَّا أَرَادُوا غَسْلَ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: وَاللهِ مَا نَدْرِي أَنُجَرِّدُ رَسُولَ الله ﷺ مِنْ ثِيَابِهِ كَمَا نُجَرِّدُ مَوْتَانَا أَمْ نَغْسِلُهُ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ؟ فَلَمَّا اخْتَلَفُوا أَلْقَى اللهُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ وَذَقْنُهُ فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ مُكَلِّمٌ مِنْ نَاحِيَةِ الْبَيْتِ لاَ يَدْرُونَ مَنْ هُوَ: أَنِ اغْسِلُوا النَّبِيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ فَقَامُوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَغَسَلُوهُ وَعَلَيْهِ قَمِيصُهُ، يَصُبُّونَ الْمَاءَ فَوْقَ الْقَمِيصِ، وَيُدَلِّكُونَهُ بِالْقَمِيصِ دُونَ أَيْدِيهِمْ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تَقُولُ لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا غَسَلَهُ إِلاَّ نِسَاؤُهُ(٢٠).

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ لَمَّا غَسَّلَ النَّبِيَّ ﷺ ذَهَبَ يَلْتَمِسُ مِنْهُ مَا يَلْتَمِسُ مِنَ الْمَيِّتِ فَلَمْ يَجِدْهُ. فَقَالَ: بِأَبِي الطَّيِّبُ طِبْتَ حَيًّا وَطِبْتَ مَيِّتًا(٢١).

فلما فرغوا من غسله ﷺ كَفَّنُوهُ فِي ثَلاَثَةِ أَثْوَابٍ يَمَانِيَةٍ بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ مِنْ كُرْسُفٍ لَيْسَ فِيهِنَّ قَمِيصٌ وَلاَ عِمَامَةٌ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا(٢٢).

ثم أخذوا في الصلاة عليه ﷺ فرادى لم يؤمهم أحد، دخل الرجال ثم النساء ثم الصبيان(٢٣).

فلما أرادوا دفنه ﷺ اخْتَلَفُوا فِي دَفْنِه، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ شَيْئًا مَا نَسِيتُهُ: قَالَ: مَا قَبَضَ اللهُ نَبِيًّا إِلاَّ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فيه، ادْفِنُوهُ فِي مَوْضِعِ فِرَاشِه(٢٤).

وَكَانَ بِالْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَلْحَدُ وَآخَرُ يَضْرَحُ. فَقَالُوا: نَسْتَخِيرُ رَبَّنَا وَنَبْعَثُ إِلَيْهِمَا، فَأَيُّهُمَا سُبِقَ تَرَكْنَاهُ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمَا فَسَبَقَ صَاحِبُ اللَّحْدِ فَلَحَدُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ(٢٥).

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ مَا عَلِمْنَا بِدَفْنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى سَمِعْتُ صَوْتَ الْمَسَاحِي مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ لَيْلَةَ الْأَرْبِعَاءِ(٢٦). فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: يَا أَنَسُ! أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ التُّرَابَ(٢٧).

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: بينما نحن مجتمعون نبكي لم ننم، ورسول الله ﷺ في بيوتنا، ونحن نتسلى برؤيته على السرير، إذ سمعنا صوت الكرارين في السحر، فصحنا وصاح أهل المسجد، فارتجت المدينة صيحة واحدة، وأذن بلال بالفجر، فلما ذكر رسول الله ﷺ بكى وانتحب فزادنا حزنا.

وهكذا خرج رسول الله ﷺ من الدنيا، فيا لها من مصيبة ما أصيب المسلمون بمثلها قط، يا لها من مصيبة أظلمت لها المدينة، وتنكرت بعدها القلوب.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فيه رَسُولُ اللهِ ﷺ الْمَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي مَاتَ فيه أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وما نَفَضْنَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ الْأَيْدِي وَإِنَّا لَفِي دَفْنِهِ حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا(٢٨).

فإنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أدخلنا مدخل نبينا، وأوردنا حوضه، واحشرنا معه مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وعزاؤنا فيه ﷺ قوله: «إِنَّ اللهَ عز وجل إِذَا أَرَادَ رَحْمَةَ أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِه قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا»(٢٩).

فاللهم صلِّ على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش

١- حسن:]ص.جه:١١٩٧[، جه(١/١٤٦٥/٤٧٠)، قط(٢/١١/٧٤).
٢- متفق عليه: خ(٨/٤٤٥٨/١٤٧)، م(٤/٢٢١٣/١٧٣٣)، واللُّدُود: هو صبُّ الدواء في أحد جانبي الفم.
٣- خ(٨/٤٤٢٨/١٣١)، تعليقًا، والأبهر: عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب، فإذا انقطع مات صاحبه.
٤- متفق عليه: خ(٢/٦٧٩/١٦٤)، م(٤١٨-٣١٣/٩٥و١/٣١٤)، ت(٥/٣٧٥٤/٢٧٥).
٥- خ(٨/٤٤٤٥/١٤٠)، م(٤١٨-٩٣-٣١١/و١/٣١٢).
٦- متفق عليه: خ(١٥١/٦٦٤و٢/١٥٢)، م(٣١١/٤١٨-١/٣١٤).
٧- متفق عليه: خ(٨/٤٤٣١/١٣٢)، م(١٢٥٧/١٦٣٧و٣/١٢٥٨).
٨- خ(٨/٤٤٤٢/١٤١).
٩- متفق عليه: خ(٧/٣٦٥٤/١٢)، م(٤/٢٣٥٤/١٨٥٤)، ت(٥/٣٧٤٠/٣٧٠).
١٠- م(٣٧٧/٥٣٢و١/٣٧٨).
١١- متفق عليه: خ(٨/٤٤٤٨/١٤٣)، م(١/٤١٩/٣١٥)، ن(٤/٧).
١٢- خ(٨/٤٤٤٦/١٤٠)، ن(٦و٧).
١٣- متفق عليه: خ(١/٥٦٤٨/١١١.)، م(٤/٢٥٧١/١٩٩١).
١٤- خ(٨/٤٤٦٢/١٤٩).
١٥- متفق عليه: خ(٤٤٤٣و٨/١٤٠/٤٤٤٤)، م(١/٥٢٩/٣٧٦)، ن(٤٠و٢/٤١).
١٦- متفق عليه: خ(٨/٤٤٦٣/١٥٠)، م(٢٤٤٤-٨٧-٤/١٨٩٤/).
١٧- خ(٨/٤٤٤٩/١٤٩).
١٨- خ(٨/٤٤٦٢/١٤٩)، ن(٤/١٣)، بنحوه.
١٩- انظر البداية والنهاية(٥/٢٤٢).
٢٠-حسن:]ص.د:٢٦٩٣[، د(٤١٣/٣١٢٥-٨/٤١٥)، جه(١/٤٧٠/١٤٦٤).
٢١- صحيح:]ص.جه:١٢٠٧[، جه(١/٤٧١/١٤٦٧).
٢٢- متفق عليه: خ(٣/١٣٥/١٢٦٤)، م(٢/٦٤٩/٩٤١)، ت(٢/٢٣٣/١٠٠١)، د(٢٤٥/٣١٣٥و٨/٢٤٦).
٢٣- البداية والنهاية(٥/٢٦٥)، وقال ابن كثير: وهذا الصنيع وهو صلاتهم عليه فرادى لم يؤمهم أحد عليه أمر مجمع عليه لا خلاف فيه.
٢٤- صحيح:]ص.ت:١٠١٨[، ت(٢/٢٤٢/١٠٢٣).
٢٥- حسن صحيح:]ص.جه:١٢٦٤[، جه(١/٤٩٦/١٥٥٧).
٢٦- حسن:]الفتح الرباني:٢١/٢٥٦[، حم(٢١/٢٥٦/٥٤٩).
٢٧- خ(٨/٤٤٦٢/١٤٩)، ن(٤/١٣)، بنحوه.
٢٨- صحيح:]ص.ت:٣٦١٨[، ت(٥/٢٤٩/٣٦٩٧)، جه(١/٥٢٢/١٦٣١).
٢٩- م(١٧٩١/٢٢٨٨و٤/١٧٩٢). ٣٠- م(٣/١٢٥٦/١٦٣٥)، د(٨/٦٤/٢٨٤٦)، جه(٢/٩٠٠/٢٦٩٥)، ن(٦/٢٤٠).
٣١- خ(٨/٤٤٦٧/١٥١).

تفسير سورتي المسد والإخلاص

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

الجزء الثلاثون — سورة النصر

قال تعالى: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥)» [المسد: ١- ٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» [الشعراء: ٢١٤] ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه! فقالوا: من هذا ؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: فإني نذير لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد، قال أبو لهب: تَبًا لك، ما جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قام، فنزلت: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» (البخاري: ٤٩٧١).

والتَبَاب: الضلال والهلاك، قال تعالى: «وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ»، والتبابُ أيضًا: الخسران، قال تعالى عن الأمم التي أخذها بالعذاب: «فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ» [هود: ١٠١]، أي: تخسير، فمعنى قوله تعالى: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» يعني: ضلّ وهلك، وخاب وخسر، وقوله تعالى: «وَتَبَّ» يعني: وقد خاب وخسر، فالجملة الأولى دعاءٌ عليه، والثانية تحقق بها الدعاء، ووقعت الإجابة.

وأبو لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب، أحد أعمام النبي ﷺ، وأشدهم أذيةً له، وأكثرهم بغضًا له، ولدعوته، وقد أظهر كراهيته وبغضه للنبي ﷺ ولدعوته من أول لحظة صدع فيها النبي ﷺ بدعوته، كما مضى في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، ومازال يحاربُ النبي ﷺ والدعوة، ويصدّ عنه وعنها، حتى مات بعد غزوة بدر غمًا، وكان وجهه شديد الحمرة، فكناه الله تعالى بأبي لهب، ليناسب النار التي سيصلاها، حيثُ إنها أيضًا ذات لهب.

وقوله تعالى: «مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ» يعني ولده، والمال لا يغني عن صاحبه شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فما كان أحدٌ أكثر مالاً من قارون، ومع ذلك ما أغنى عنه ماله شيئًا، قال تعالى: «فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ» [القصص: ٨١]، وكما لم يغن المالُ عن صاحبه شيئًا في الدنيا، لن يغني عنه في الآخرة شيئًا، كما قال تعالى: «وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى» [الليل: ١١]، يعني في النار، وقد سجل الله تعالى اعتراف الإنسان بأنّ ماله لَمْ يغنِ عنه شيئًا في الآخرة، فقال تعالى: «وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ» [الحاقة: ٢٥- ٢٩]، وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ» [آل عمران: ١٠].

وقوله تعالى: «سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ» أي: سيدخل أبو لهب نارًا ذات لهب، تغمره من جميع الجهات، ولهبها عظيم، قال تعالى: «إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (٣٢) كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ» [المرسلات: ٣٢، ٣٣]، وستدخل معه امرأته أم جميل، أَرْوَى بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب، وكانت أيضًا من ألد أعداء النبي ﷺ والدعوة، ومن أشدّ الناس بغضًا للنبي ﷺ وللدعوة، وكانت تؤذي رسول الله ﷺ وتعين زوجها على حرب النبي ﷺ، فتوعدها الله بالنار مع زوجها، فقال: «وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ». وفي تفسير: «حَمَّالَةَ الْحَطَبِ». قولان:

الأول: أنها تكونُ مع زوجها أبي لهب في النار، تحمل الحطب وتُلقي عليه، لتشتعل ناره، فتكون عونًا للنار عليه، كما كانت عونًا له على النبي ﷺ، وبهذا تكتمل دائرة الأزواج الرباعية: فالزوجان إما مؤمنان ؛ كإبراهيم وسارة، أو كافران: كأبي لهب وأم جميل، وإما أن يكون الزوجُ مؤمنًا والزوجة كافرة: كنوح ولوط وامرأتيهما. أو يكون الزوج كافرًا والزوجة مؤمنة: كفرعون وآسية.

والقول الثاني: أن قوله تعالى: «وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ» كناية عن مشيها بين الناس بالنميمة، التي هي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على وجه الإيقاع، والإفساد بينهم، فالنمام يُشعل نارَ الحقد والعداوة بين الأحبة، فعبر عنه بحامل الحطب، وجزاؤه أن يصلى نارًا حامية، ولذا قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام».

وقوله تعالى: «فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ» يعني أن في عُنُق امرأة أبي لهب حبلٌ، فهي مقيدة في جهنم، تنطلق تأتي بالحطب، ثم تعود فتلقي على أبي لهب.

قال العلماء: وهذه السورة ظاهرةٌ في الدلالة على معجزة النبوة ؛ لأن الله تعالى أخبر أن أبا لهب وامرأته في النار، ومعنى ذلك أنهما لن يؤمنا أبدًا، وقد كان نزولُ هذه السورة في أول أمر الدعوة، وكانوا حريصين على إبطالها بأيّة حيلة، ومع ذلك لم يفكّرا ولا أحدُهما في إعلان الإيمان ولو نفاقًا، ليُبطلا ما قاله الله وبلغه رسوله ﷺ، فثبت بهذا صدق النبي ﷺ وأنه: «مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى» [النجم: ٣، ٤].

الجزء الثلاثون — سورة الناس

تفسير سورة الإخلاص

قال تعالى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»

[الإخلاص: ١-٤].

هذه سورةُ الإخلاص، وهي سورةُ التوحيد - توحيد الأسماء والصفات -، كان النبي ﷺ يقرأ بها مع سورة الكافرون في ركعتي الطواف، وركعتي الفجر، وفي الأُخريين من الوتر، إذا أوتر بثلاث، كما كان يقرؤها مع المعوذتين دبر الصلاة، وعند النوم كان يجمع كفيه فينفث فيهما، ثم يقرأ بهذه السور الثلاث، ويمسح وجهه وما استقبل من جسده، وكان إذا مرض فعل مثل ذلك، وأمر بقراءتها ثلاثًا في الصباح والمساء.

ومما جاء في فضل سورة الإخلاص: عن أنس رضي الله عنه قال: كان رجلٌ من الأنصار يؤمّهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورةً يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ «قل هو الله أحد»، حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أنْ تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، وإن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلتُ، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمّهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ؟ وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة ؟ فقال: إني أحبها. قال: حبك إياها أدخلك الجنة» [أخرجه الترمذي وصححه الألباني وأخرجه البخاري تعليقاً].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احشُدوا فإنّي سأقرأ عليكم ثلث القرآن». فحشدَ مَنْ حَشَدَ، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: قال رسول

القرآن كله، مِنْ أوّله إلى آخره، توحيد، فإنه: «إما خبرٌ عن الله وأسمائه وصفاته، وهو التوحيد العلميُّ الخبريُّ، وإما دعوةٌ إلى عبادته وحده لا شريك له، وخَلْع ما يُعْبَدُ من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمرٌ ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاتّه، وإما خبرٌ عن إكرامه لأهل توحيده، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاءُ توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحلّ بهم في العقبى من العذاب، فهو جزاءَ من خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم». [شرح الطحاوية: ٨٨].

والتوحيد ثلاثةُ أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، و«قل هو الله أحد» قد اشتملت على توحيد الأسماء والصفات، فكانت ثلث القرآن، والله أعلم.

«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» أحدٌ في ذاته فلا ثاني له، وأحدٌ في صفاته فلا شبيه ولا نظير له، وأحدٌ في أفعاله فلا شريك له، ولا راد لقضائه، ولا معقّب لحكمه، ولا غالب لأمره، «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [يس: ٨٢].

«اللَّهُ الصَّمَدُ» قالوا في تفسير الصمد: الذي لا جوفَ له، الذي يصمدُ إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم، الباقي بعد فناء خلقه، السيد الذي قد كَمُل في سؤدده، والشريفُ الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليمُ الذي قد كمل في حلمه؛ والعليمُ الذي قد كمل في علمه، والحكيمُ الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وكلها ألفاظٌ صحيحةٌ، وكلها صفاتُ ربنا الصمد سبحانه.

«لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ» يعني: ما كان لله من ولد ؛ وما كان له من والد، وإنّما قدم نفي الولد على نفي الوالد، والأصل العكس، لأنه لم يدع أحدٌ ألبتة أن لله والدًا، وإنما ادّعى قومٌ أن لله ولدًا، «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» [التوبة: ٣٠].

كما أن مشركي العرب ادّعوا أن الملائكة بناتُ الله من امرأةٍ من الجنة، «وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا» [الصافات: ١٥٨]، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، ولقد كثُر في القرآن نَفي الولد عن الله سبحانه، وذمّ الذين قالوا ذلك، قال تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا» [الكهف: ١-٥]، «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا» [مريم: ٨٨-٩٣]، فليس به حاجةٌ إلى الولد، وكل من في السماوات والأرض له عبد، كما قال تعالى: «قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ» [يونس: ٦٩-٧٠]، فالغني الذي له ما في السماوات وما في الأرض لا يحتاج إلى ولد، إن الإنسان يحتاج إلى الولد ليبقى ذِكْرُه بولده بعد موته، والله حيٌ لا يموت، والإنسان يحتاج إلى الولد ليأكل من كسبه ويستغني به، والله هو الذي يُطعمُ ولا يُطْعَم، وهو الرزاق ذو القوة المتين، وهو الغني الذي «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى» [طه: ٦].

والإنسان يحتاج إلى الولد ليستكثر به من قلة، ويقوى به من ضعف، والله هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ.

«وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» ليس له ندّ ولا نظير، ولا شبيه ولا عديل، «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» [الشورى: ١١].

عن بُريدة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى». [الترمذي: ٣٥٤٢، وأبو داود: ١٤٧٩، وابن ماجه: ٣٨٥٧].

اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، أن تغفر لنا ذنوبنا، وتكفّر عنا سيئاتنا، وأن تدخلنا الجنة مع الأبرار، وأن تخرجنا مما نحن فيه، اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا، اللهم اجمع شمل المسلمين، ووحد صفوفهم، وقوّ شوكتهم وعزيمتهم، وأعنهم على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وهيء لهم من أمرهم رشدًا، اللهم من أراد الإسلام والمسلمين بخير فوفقه لكل خير، ومن أرادهم بسوء فخذه أخذ عزيز مقتدر.

والحمد لله رب العالمين.

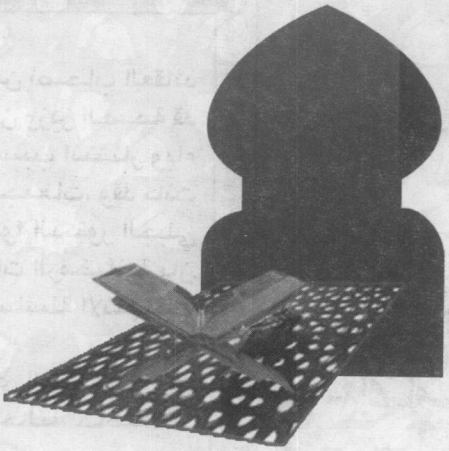

التجارة الرابحة

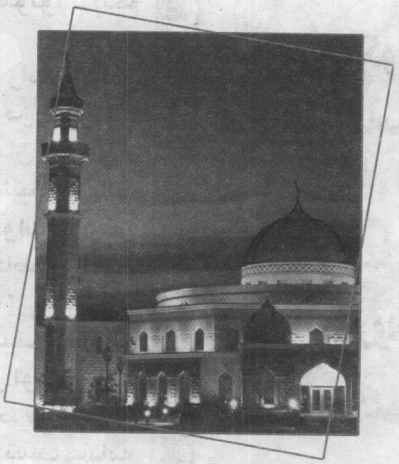

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

قال الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ» [فاطر].

هاتان آيتان من سورة فاطر، تضمنت الآيةُ الأولى ثلاثةَ أعمالٍ من الأعمال الصالحة التي يحبُّها اللهُ تعالى، وتضمنت الآيةُ الثانيةُ ما وعدهم الله به من الأجر والثواب جزاءً بما كانوا يعملون.

أمَّا العملُ الأولُ فهو تلاوةُ القرآنِ الكريم.

إنَّ القرْآنَ الكريمَ هو حَبْلُ اللهِ المتين، وهو النُّور المبين، وهو الصِّراطُ المستقيم، عصْمَةٌ لمن تمسَّك به، ونَجاةٌ لمن اتَّبعه «كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» [هود].

«وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»[فصلت].

فيه نبأُ ما قبلَكم، وخبرُ ما بعدَكم، وحُكْمُ ما بيْنَكم، هو الفَصْلُ ليسَ بالهَزْلِ، مَنْ تركَه مِنْ جبَّارٍ قصَمه الله، ومن ابْتَغى الهُدَى في غَيْرِه أضلَّه الله، وقد تكفَّلَ اللهُ تعالى لمن قرأَ القرآنَ وعَمِلَ بما فيه أنْ لا يضلَّ في الدُّنيا ولا يشقَى في الآخرة فقال تعالى: «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى» [طه].

فالقرآنُ الكريم «هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ» [البقرة].

والقرآنُ الكريم نُورٌ «يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[المائدة].

وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا» [النساء].

والقرآنُ الكريم شفَاءٌ لما في الصُّدورِ من الرَّيْبِ والشكِّ والكُفْرِ والنفاقِ قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» [يونس].

والقرآنُ الكريمُ هو الرُّوح التي تحيا بها الأرْوَاح، فالأرْوَاح سرّ حياة الأبْدان، والقرآنُ سرّ

حياة الأرْواح، قال تعالى: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا» [الشورى].

فمن أخذ بالقرآن فهو حيٌّ، ومن رفض القرآن فهو ميّتٌ وإنْ كان يدبُّ على وَجْه الأرض، ولذلك قال الله تعالى: «أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [الأنعام].

ولقد أمر اللهُ تعالى رسُولَه ﷺ والمؤمنين بتلاوَة القُرآن الكريم فقال تعالى: «اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ» [العنكبوت].

وأمر النبيَّ ﷺ أنْ يصدع بهذا الأمر بقوله: «إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ» [النمل].

وقد شهدَ اللهُ تعالى لقرَّاء القرآن بالإيمان فقال تعالى: «أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» [البقرة].

وللمفسِّرين في تأويل حقِّ التلاوة أقْوالٌ: أولُها: أنهم تدبَّروه فعملوا بمُوجبه حتى تمسَّكوا بأحكامه من حلالٍ وحرامٍ وغيرهما.

وثانيها: أنَّهم خضَعوا عندَ تلاوته وخشعوا عند قراءته في صَلاتهم وخَلَواتهم.

وثالثها: أنَّهم عَمِلُوا بمُحْكَمه، وآمَنُوا بمُتَشابِهه، وتوقَّفُوا فيما أشكَلَ عَلَيْهم منه وفوَّضُوه إلى الله.

ورابعها: أنَّهم يقرَؤونَه كما أنْزَلَ الله، ولا يُحرِّفُون الكَلِمَ عن مَواضعه، ولا يتأوَّلونه على غَيْر حق.

وخامسها: أنْ تُحْمَلَ الآيةُ على كلِّ هذه الوجوه لأنَّها مُشْتَرِكَة في مَفْهُومٍ واحد، وهو تَعْظيمُها والانقيادُ لها لفظاً ومعنى، فوجبَ حَمْلُ هذا القَدْرِ المشْتَرَك تكثيراً لفوائد كلام الله تعالى(١).

عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ»[البقرة]، يتَّبعُونه حقَّ اتِّباعه، ثم قرأ «وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا» [الشمس].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «حَقَّ تِلَاوَتِهِ» أنْ يُحِلَّ حلالَه ويُحرِّم حرامَه، ويقرأَه كما أُنْزِل، ولا يُحرِّف الكَلِمَ عن مَواضعه، ولا يتأوَّل منه شيئاً غيرَ تأويله»(٢).

وقد بيَّن اللهُ تعالى أنَّ الذين يقْرَءون القُرآنَ يُتاجِرُون مع الله بالتِّجارة الرَّابحة والرَّائجة التي لا تَكْسُدُ ولا تخْسَر فقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ» [فاطر].

وأيُّ تجارة أرْبَحُ من أنْ يكسبَ الجُنَيْه عَشْراً، إنَّ قارِئَ القرآن يُعْطَى بكلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حسنات واللهُ يضاعفُ لمن يشاء:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ» (٣).

وحتى تعلمَ أيها المسلمُ كثرةَ هذا الأجرِ الذي يمنُّ اللهُ به عليك على قراءة القرآن أقولُ لك: إنَّ سورةَ الفاتحة فيها مائةٌ وثلاثةَ عشرَ حرفًا، فإذا قرأتَ الفاتحةَ مرةً أعطاك اللهُ ألفًا ومائةً وثلاثينَ حسنةً، فانظرْ كم مرةً تقرأُ الفاتحةَ في الصلوات المفروضة، وكم مرةً تقرأُها في النافلة، فكم من آلاف الحسنات تحصلُها في اليوم الواحد على قراءة الفاتحة وحدَها، فكيف وأنتَ تقرأُ بعدَ الفاتحة ما تيسرَ، فكيف لو اتخذتَ لنفسك وِردًا تقرأهُ كلَّ يومٍ، كم مليون حسنةً تحصلُها، لذلك كانتْ تلاوةُ القرآن من التجارة الرابحة.

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! نُحِبُّ ذَلِكَ قَالَ: أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عز وجل خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ» (٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لِصَاحِبِهِ أَنَا الَّذِي أَسْهَرْتُ لَيْلَكَ وَأَظْمَأْتُ هَوَاجِرَكَ وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ وَأَنَا لَكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تَاجِرٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا تَقُومُ بِهِمَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَيَقُولَانِ: يَا رَبِّ أَنَّى هَذَانِ؟ فَيُقَالُ بِتَعَلُّمِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ».

ولقد كثُرتْ الأحاديثُ عن النبيِّ ﷺ في الحثِّ على قراءة القُرْآن والتَّرغيب فيها:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ» (٥)، أي السَّحَرَةُ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ، فَيُلْبَسُ تَاجَ الْكَرَامَةِ ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ فَيَرْضَى عَنْهُ فَيُقَالُ لَهُ اقْرَأْ وَارْقَ وَتُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً» (٦).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلاَمِ وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلاَوَةِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ وَذِكْرُكَ فِي الأَرْضِ» (٧).

العملُ الثَّاني منَ الأعمالِ الصالحةِ المذكورةِ في هذه الآية إقامُ الصلاة:

وقد أمرَ اللهُ بإقامِ الصلاة، وتكررَ الأمرُ بها في القرآنِ كثيراً، قالَ تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ» [البقرة]، وقالَ تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»[النور]، وقالَ تعالى: «مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» [الروم]، وقالَ تعالى: «وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» [الأنعام]، وقالَ تعالى: «قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاَةَ» [إبراهيم].

وجعلَ إقامتَها ركناً منْ أركانِ الإيمان، فقالَ تعالى: «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ» [البقرة].

فيا عبادَ اللهِ أقيموا الصلاةَ كما أمركم اللهُ، فإنَّ للصَّلاةِ منزلةً لا تعدلُها منزلةَ أيةُ عبادةٌ أخرى، فهي عمودُ الدِّينِ، وهي أولُ ما فرضَ اللهُ، وهي أولُ ما يحاسبُ عليه العبدُ يومَ القيامة، وهي آخرُ وصيةٍ وصَّى بها رسولُ الله ﷺ.

وقد أمرَ اللهُ سبحانه بالمحافظةِ عليها، فقالَ تعالى: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ» [البقرة]، ووعدَ المحافظينَ الذين استجابوا لربِّهم وأقاموا الصَّلاةَ بالجنَّة، وبيَّنَ أنَّ منازلَهم فيها أعلى المنازلِ، فقالَ تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» [المؤمنون]، وكما مدحَ الذين هم على صلواتهم يحافظون ذمَّ الذين هم عن صلاتهم ساهون، فقالَ تعالى: «فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ» [الماعون].

والذي يدققُ النظرَ في الآياتِ التي وردتْ في الأمرِ بالصَّلاةِ يجدُها كلَّها وردتْ بلفظِ الإقامةِ وما تصرفَ منها، وإنَّما تتحققُ إقامتها بالمحافظةِ على إسباغِ وضوئها، والحرصِ على أولِ وقتها، وشهودِ الجماعةِ فيها، والخشوع:

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللهُ عَلَى عِبَادِهِ، مَنْ أَحْسَنَ وُضُوءَهُنَّ وَصَلاَتَهُنَّ لِوَقْتِهِنَّ فَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَسُجُودَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ» (٨).

وقد وعدَ اللهُ تعالى المقيمينَ الصَّلاةَ والمحافظينَ عليها بالأجرِ والثَّوابِ والمغفرةِ والرحمة، فقالَ تعالى: «وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا» [النساء].

وقالَ تعالى: «وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» [المائدة].

وقالَ تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [التوبة].

وأخبرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ الصَّلاةَ تمحو الخطايا وتكفرُ الذُّنوب:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟ قَالُوا: لاَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ: فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا» (٩).

وَعَنْ عُثْمَانَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَطَهَّرُ فَيُتِمُّ الطُّهُورَ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ فَيُصَلِّي هَذِهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَاتٍ لِمَا بَيْنَهَا» (١٠).

العملُ الثَّالثُ منَ الأعمالِ الصالحةِ المذكورةِ في هذه الآيةِ الإنفاقُ في سبيلِ الله:

وقد كَثُرَ في القرآنِ الكريمِ الأمرُ به، والتَّرغيبُ فيه، والتحذيرُ من تركه:

قالَ تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا ممَّا رَزَقْنَاكُمْ منْ قَبْلِ أَنْ يَأْتيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالمُونَ» [البقرة].

وقالَ تعالى: «قُلْ لعبَادِيَ الَّذينَ آمَنُوا يُقيمُوا الصَّلاَةَ وَيُنْفِقُوا ممَّا رَزَقْنَاهُمْ سرًّا وَعَلاَنيَةً منْ قَبْلِ أَنْ يَأْتيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فيه وَلاَ خلاَلٌ» [إبراهيم].

وقالَ تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذكْرِ اللَّه وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلكَ فَأُولَئكَ هُمُ الْخَاسرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا منْ مَا رَزَقْنَاكُمْ منْ قَبْلِ أَنْ يَأْتيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ ربِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَني إِلَى أَجَلٍ قَريبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ منَ الصَّالحينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبيرٌ بمَا تَعْمَلُونَ» [المنافقون].

وجعلَ اللهُ تباركَ وتعالى الإنفاقَ في سبيله عنوانَ الإيمانِ فقالَ تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمنُونَ الَّذينَ إِذَا ذُكرَ اللَّهُ وَجلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُليَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى ربِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاَةَ وَممَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئكَ هُمُ الْمُؤْمنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عنْدَ ربِّهِمْ وَمَغْفرَةٌ وَرزْقٌ كَريمٌ» [الأنفال].

ولقد كان النَّبيُّ ﷺ أجودَ النَّاسِ، وكان يُعْطي عَطَاءَ مَنْ لاَ يَخْشَى الْفَقْرَ، وَمَا سُئلَ عَلَى الإِسْلاَمِ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ، وكانَ ﷺ يحثُّ أصحابَهُ على الجودِ والكرمِ والإنفاقِ في سبيلِ الله:

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «مَا منْ يَوْمٍ يُصْبحُ الْعبَادُ فيه إِلاَّ ملَكَانِ يَنْزلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسكًا تَلَفًا(١١).

وَعَنْهُ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: قَالَ اللهُ عز وجل: «أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» (١٢).

ولَفظُ النفقة أعمُّ منَ الزكاة والصدقة، فهو يشملُ الزكاةَ وغيرَها منَ النَّفقاتِ الواجبة، ولذلك قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ: وأولى التأويلات بالآية وأحقُّها بصفة القوم أنْ يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدِّين، زكاةً كان ذلك أو نفقةً من لزمتْهم نفقتُه من أهلٍ وعيال وغيرهم ممن تجب عليه نفقتُه بالقرابة والمِلْك وغير ذلك لأنَّه عمَّ وصْفَهم ومدحَهم بذلك، وكلٌّ من الإنفاق والزكاة ممدوحٌ به محمودٌ عليه (١٣).

وقال ابْنُ كثير رَحِمَهُ اللهُ: كثيرًا ما يقرنُ اللهُ تعالى بين الصلاة والإنفاق منَ الأموال، فإنَّ الصلاة حقُّ الله وعبادتُه، وهي مشتملةٌ على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه، والإنفاقُ هو منَ الإحسانِ إلى المخلوقين بالنَّفع المتعدِّي إليهم، وأولى الناس بذلك القراباتُ والأهلون والمماليك، ثمَّ الأحباب، فكلٌّ من النفقات الواجبة، والزكاة المفروضة داخلٌ في قوله تعالى: «وَأَنْفِقُوا ممَّا رَزَقْنَاهُمْ»(١٤).

ولقد كانَ النَّبيُّ ﷺ يحثُّ على النَّفقة على المرأة والعيال، ويبيِّنُ أنَّها أفضلُ النَّفقات وأعظمُها أجرًا:

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «دينَارٌ أَنْفَقْتَهُ في سَبيلِ الله، وَدينَارٌ أَنْفَقْتَهُ في رَقَبَة، وَدينَارٌ تَصَدَّقْتَ به عَلَى مسْكين، وَدينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلكَ» (١٥).

وَعَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَفْضَلُ دينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ دينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عيَاله، وَدينَارٌ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ عَلَى دَابَّته في سَبيلِ الله، وَدينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابه في سَبيلِ الله. قَالَ أَبُو قلاَبَةَ: وَبَدَأَ بالْعيَالِ ثُمَّ قَالَ أَبُو قلاَبَةَ وَأَيُّ رَجُلٍ أَعْظَمُ أَجْرًا منْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَى عيَالٍ صغَارٍ يُعفُّهُمْ أَوْ يَنْفَعُهُمُ اللهُ به وَيُغْنيهِمْ» (١٦).

وَعَنْ أَبي مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْله يَحْتَسبُهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ» (١٧).

وفي تقديم السِّرِّ على العلانية في قوله تعالى: «سرًّا وَعَلاَنيَةً» إشارةٌ إلى أنَّ الإسرارَ بالصَّدقة أفضلُ من الإعلانِ بها، كما قالَ تعالى: «إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنعمَّا هيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ منْ سَيِّئَاتكُمْ وَاللَّهُ بمَا تَعْمَلُونَ خَبيرٌ» [البقرة]، وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظلُّهُمُ اللهُ تَعَالَى في ظلِّه يَوْمَ لاَ ظلَّ إِلاَّ ظلُّهُ» وذكرَ منهم «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَة فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شمَالُهُ مَا تُنْفقُ يَمينُهُ» (١٨).

ولا بأسَ بإعلانِ الصدقة إذا دعتِ الحاجةُ إلى الإعلان:

عَنْ جَريرِ بْنِ عَبْد الله رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عنْدَ رَسُولِ الله ﷺ في صَدْرِ النَّهَارِ قَالَ فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابي النِّمَارِ أَوِ الْعبَاءِ مُتَقَلِّدي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ منْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ منْ مُضَرَ

فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ فَأَمَرَ بِلَالاً فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» إِلَى آخِرِ الآيَةِ «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» وَالآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ، حَتَّى قَالَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» (١٩).

وإنَّمَا كان الإسرارُ بالنَّفقة أفضلَ لأنَّ السِّرَّ دائمًا أقربُ إلى الإخلاصِ وأبعدُ عن الرِّياء، وإنَّمَا يترتبُ الأجرُ والثَّوابُ على الأعمال على قدرِ إخلاصِ النِّية فيها، فإذا شابتْها شائبةُ رياءٍ ردَّتْ على صاحبِها وكانتْ وبالاً عليه، كما قالَ تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» [البقرة].

وقولُهُ: «يَرْجُونَ تِجَارَةً» هو خبر «إنَّ» والخبرُ مستعملٌ في إنشاء التَّبشير كأنَّهُ قيل: ليرجوا تجارةً وزادَهُ التعليلَ بقوله «لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ» قرينةٌ على إرادة التَّبشير، والتِّجارةُ مستعارةٌ لأعمالهم من تلاوةٍ وصلاةٍ وإنفاق، ووجهُ الشبهِ مشابهةُ ترتبِ الثَّوابِ على أعمالهم بترتبِ الرِّبحِ على التِّجارة.

والمعنى: ليرجوا أنْ تكون أعمالُهم كتجارةٍ رابحة.

والبوارُ: الهلاك. وهلاكُ التِّجارة: خسارةُ التَّاجر. فمعنى «لَنْ تَبُورَ» أنَّهَا رابحةٌ. و «لَنْ تَبُورَ» صفة «تِجَارَةً» والمعنى: أنَّهم يرجون عدمَ بوارِ التِّجارة.

فالصفةُ مناطُ التَّبشير، والرجاءُ لاَ أصلُ التِّجارة، لأنَّ مشابهةَ العملِ الفظيعِ لعملِ التَّاجرِ شيْءٌ معلوم.

و «لِيُوَفِّيَهُمْ» متعلق ب «تَرْجُونَ» أي بشرناهم بذلك وقدرناه لهم لنوفيهم أجورهم، ووقع الالتفاتُ منَ التَّكلمِ في قوله «مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ» إلى الغيبة رجوعا إلى سياق الغيبة من قوله «يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ» أي ليوفي اللهُ الذين يتلون كتابَهُ.

والتوفية: جعلُ الشيْءِ وافيًا، أي: تامًا لا نقيصةَ فيه ولا غبنَ.

وأسجلَ عليهم الفضلَ بأنَّهُ يزيدُهم على ما تستحقُّهُ أعمالُهم ثوابًا من فضله، أي: كرمه وهو مضاعفةُ الحسنات الواردة في قوله تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» [البقرة].

وذيل هذا الوعد بما يحققه وهو أن الغفران والشكران من شأنه فإن من صفاته الغفور الشكور أي الكثير المغفرة والشديد الشكر.

وأكد هذا الخبر بحرف التأكيد زيادة في تحقيقه ولما في التأكيد من الإيذان بكون ذلك علة لتوفية الأجور والزيادة فيها(٢٠).

فهنيئًا لهؤلاء الذين يتلون كتاب الله، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله، ونسأل الله تعالى أنْ يعيننا وإخواننا المسلمين على التجارة مع الله بهذه الأعمال الصالحة.

الهوامش:

١- مفاتيح الغيب(٣٥ / ٤).
٢- الدر المنثور(٢٧٢ / ١).
٣- صحيح: [ص.ت:٢٩١٠]، ت(٣٠٧٥ / ٢٤٨ / ٤).
٤- م(٨٠٣ / ٥٥٢ / ١)، د(١٤٤٣:٣٢٨ / ٤).
٥- م(٨٠٤ / ٥٥٣ / ١).
٦- حسن: [ص.ت:٢٩١٥]، ت(٣٠٧٦ / ٢٤٨ / ٤).
٧- حسن: [ص.ج:٢٥٤٠]، حم(٤٦ / ٣٢ / ١٩).
٨- صحيح: [ص.جه:١١٥٠]، جه(١٤٠١ / ١٩٩ / ١)، د(٤٢١ / ٩٣ / ٢)، حم(٨٢ / ٢٣٤ / ٢)، ن(٢٣٠ / ١).
٩- متفق عليه: خ(٥٢٨ / ١١ / ٢)، م(٦٦٧ / ٤٦٢ / ١).
١٠- م(٢٣١ / ٢٠٧و٢٠٨ / ١).
١١- متفق عليه: خ(١٤٤٢ / ٣٠٤ / ٣)، م(١٠١٠ / ٧٠٠ / ٢).
١٢- متفق عليه: خ(٧٤١٩ / ٤٠٣ / ١٣)، م(٩٩٣-٣٧- / ٦٩١ / ٢)، ت(٥٠٣٦ / ٣١٧ / ٤).
١٣- جامع البيان(١٠٥ / ١).
١٤- تفسير القرآن العظيم(٤٢ / ١).
١٥- م(٩٩٥ / ٦٩٢ / ٢).
١٦- م(٩٩٤ / ٦٩١ / ٢)، ت(٢٠٣٢ / ٢٣٢ / ٣).
١٧- متفق عليه: خ(٥٥ / ١٣٦ / ١)، م(١٠٠٢ / ٦٩٥ / ٢)، ن(٦٩ / ٥).
١٨- متفق عليه: خ(٦٦٠ / ١٤٣ / ٢)، م(١٠٣١ / ٧١٥ / ٢)، ت(٢٥٠٠ / ٢٤و٢٥ / ٤).
١٩- م(١٠١٧ / ٧٠٤و٧٠٥ / ٢).
٢٠- التحرير والتنوير(٣٠٧و٣٠٨ / ٢٢).

السبيل إلى صلاح الدنيا والآخرة

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً» [النساء].

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: كان رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي». [م ٢٧٢٠ / ٢٠٨٧ / ٤]

قال الإمام القرطبى - رحمه الله -: (هذا دعاء عظيم، جمع خير الدنيا والآخرة، والدين والدنيا، فحقّ على كل سامع له أن يحفظه، ويدعو به آناء الليل وآناء النهار، لعل الإنسان يوافق ساعة إجابة، فيحصل على خيري الدنيا والآخرة). [المفهم ٤٩ / ٧].

وهذه الآية الكريمة يرشدنا الله تعالى فيها إلى وسائل تحقيق صلاح الدين والدنيا والآخرة، وما أحوجنا إليها فى هذا الزمان الذي فيه: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» [الروم].

وما أحوجنا إلى هذه الآية نتدبّرها ونفقهها ونعمل بها، عسى الله أن يصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، ودنيانا التى فيها معاشنا، وآخرتنا التي إليها معادنا.

استفتحت الآية بنداء العباد بلقب الإيمان: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا» تذكيراً لهم بما يقتضيه الإيمان من السمع والطاعة وفورية الاستجابة لما يأمر الله به أو ينهى عنه، كما قال تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا» [الأحزاب].

وبعد النداء يأتى الأمر: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ»، وقد تكرر هذا الأمر فى القرآن كثيراً، ومنه: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ» [النور:٥٤]، «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ» [آل عمران: ٣٢]، ونحو ذلك كثير.

وطاعة الله ورسوله من موجبات الفلاح، قال تعالى:«إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [النور].

وطاعة الله ورسوله من موجبات الفوز، قال تعالى:«وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» [النور].

وطاعة الله ورسوله من موجبات الرحمة، قال تعالى:«وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» [آل عمران].

وطاعة الله ورسوله من موجبات الدخول فى الصالحين، قال تعالى:«وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

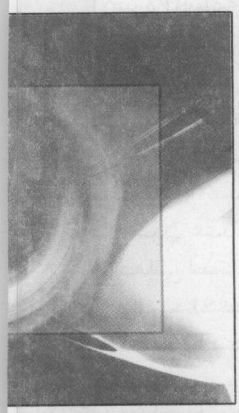

وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» [النساء].

وكما أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله فقد حذّر من معصيته ومعصية رسوله، فقال تعالى:«وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِينًا» [الأحزاب]، وقال تعالى:«وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ» [النساء].

وأخبر سبحانه أن العصاة سيندمون أشد الندم في وقت لا ينفعهم فيه الندم، فقال تعالى:«فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا» [النساء]، وقال تعالى:«وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً» [الفرقان].

وقال تعالى:«يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ» [الأحزاب].

فعلينا أن نطيع الله ورسوله، فبهذه الطاعة يُصلِحُ اللهُ لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، ويصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، فلا فلاح ولا نجاح، ولا سعادة ولا فوز إلا بطاعة الله ورسوله،«وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِينًا» [الأحزاب]، «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ» [النساء].

فوطن نفسك - أيها المؤمن - على السمع والطاعة لله ورسوله، مهما كلفك ذلك، ومهما ظهر الأمر ثقيلاً، والتكليف شاقاً، فإن الخير كل الخير في السمع والطاعة، قال تعالى:«وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» [النساء].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ:«لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ» [البقرة] الآية، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب فقالوا: أي رسول الله: كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والجهاد، والصيام والصدقة. وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها. فقال ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا:«سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» [البقرة]. فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى في إثرها: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» [البقرة]. فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، وأنزل الله عز وجل:«لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» [البقرة]. قال: نعم. «رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا» [البقرة]. قال: نعم. «رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ» [البقرة]. قال: نعم. «وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» [البقرة]. قال: نعم». [م ١٢٥ / ١١٥ و١١٦ / ١].

ثم قال تعالى:«وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ»، أي وأطيعوا أولي الأمر منكم، وإنما لم يكرر فعل:«أَطِيعُوا» مع أولي الأمر، وكرره مع الرسول ﷺ، لأن الرسول يجب أن يطاع مطلقاً، لأنه لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، لا يأمر إلا بالمعروف، ولا ينهى إلا عن المنكر، وأما أولو الأمر فربما أمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف، لذلك لم يكرر الفعل:«أَطِيعُوا» مع أولي الأمر، ليعلم المؤمنون أن طاعة أولي الأمر داخلة في طاعة الله ورسوله، فإذا أمروا بغير ذلك فلا

سمع وطاعة.

وأولو الأمر هم الأمراء بلا خلاف، وإنما الخلاف في العلماء هل يشملهم اللفظ أو لا ؟ والراجح أن لفظ:«وَأُولِي الأَمْرِ» يشمل الأمراء والعلماء معاً، لأن الأمراء تولوا أمر الدنيا، والعلماء تولوا أمر الدين، وقد أمر الله تعالى بطاعة العلماء فى قوله: «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ» [النحل]، فما أمر بسؤالهم إلا ليطاعوا فى جوابهم، وفي طاعة أولي الأمر صلاح الدنيا، ومن هنا كثرت الأحاديث في الأمر بطاعتهم والنهي عن معصيتهم والخروج عليهم، حتى يصلح الله لنا دنيانا التي فيها معاشنا.

عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبدٌ حبشي كأن رأسه زبيبة». [خ ٧١٤٩ / ١٢٥ / ١٣].

والمعنى: اسمعوا وأطيعوا لمن ولي أمركم وإن لم يكن أهلاً للولاية، فإن من شروط الإمامة أن يكون الإمام حراً، لأن العبد مملوك، فلا يملك، وأن يكون قرشياً، لقوله ﷺ: «الأئمة من قريش». [صحيح: الإراء: ٥٢٠: ك ٧٥ / ٤]ومع ذلك ينصح النبى ﷺ الأمة بالسمع والطاعة لمن غلبها على الإمامة وليس أهلاً لها، حقناً للدماء، وصيانة للأعراض، وحتى يستقر الأمر ويستتب الأمن.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك السمع والطاعة فى عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك». [م (١٨٣٦ / ١٤٦٧ / ٣)، ن ١٤٠ / ٧].

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ؟ قَالَ: «تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ». متفق عليه: خ(٧٠٥٢ / ٥ / ١٣)، م(١٨٤٣ / ١٤٧٢ / ٣)، ت(٢٢٨٥ / ٣٢٧ / ٣ بنحوه..)

وعن عوف بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ». والمراد بالصلاة هنا معناها اللغوي وهو الدعاء، أي تدعون لهم ويدعون لكم، «وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ». قال: قلنا: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلاَ نُنَابِذُهُمْ - أي أفلا نخرج عليهم ونقوم بثورة ضدهم - قَالَ: «لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ»، أى ما داموا يبنون المساجد ويعمرونها ويسمحون لكم بإقامة دينكم وإظهار شعائركم فلا تخرجوا عليهم، «ألا من ولي عليه وال فرآه يأتى شيئاً من معصية الله فليكره ما يأتى من معصية الله ولا ينزعنّ يداً من طاعة». م (١٨٥٥/ ١٤٨١ / ٣)

الله أكبر! تأمل يا أخي هذا الكلام الذي يشع منه النور والهدى والرشاد! واعلم أن المشاكل لا تأتي إلا من الجهل بالقرآن والسنة، ومخالفة علماء الأمة!.

إذا فعل الحاكم المعصية فما واجبنا؟ نكره ما يأتي من المعصية، ولا ننزعن يداً من طاعة! فعصيانه أمر الله لا يبيح الخروج عليه، بل ولا مجرد معصيته هو فى الطاعة.

بل إن النبي ﷺ يدعو المسلمين إلى إجلال السلطان وإكرامه، ويعُدّ ذلك إجلالاً لله عز وجل، فيقول ﷺ: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط». حسن: [ص.د: ٤٠٥٣]: د (٤٨٢٢ / ١٩٢ / ١٣).

ويقول ﷺ: «من أجلَ سلطان الله أجلهُ الله يوم القيامة». حسن: [س.ص: ٢٢٩٧]: ابن أبي عاصم في السنة (١٠٢٥ / ٤٩٢ / ٢).

يعني إن الذي يحترم السلطان ويقدّره، ويكرمه ويعزّره، يكرمه الله على رءوس الأشهاد يوم القيامة، وفى المقابل يقول ﷺ:«من أهان السلطان أهانه الله» العقيدة الطحاوية، تعليق الألباني (ص ٤٧و٤٨)، لأن في إهانة المسلمين سلطانهم فتح ثغرة للعدو يدخل لهم منها، ولا يزال ينفخ في الرماد حتى يؤجج نار الفتنة، فتقوم الثورات التي تثير القلاقل والفوضى، وتقضي على أمن وسلامة البلاد، فتزهق الأرواح، وتراق الدماء، وتسلب الأموال، وتنتهك الأعراض، وتغتصب الأراضي، وتضيع المقدسات، وتكون فتنة يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً.

لذلك كان من عقيدة أهل السنة والجماعة ما

قاله الإمام الطحاوي - رحمه الله -: (ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية).

وقد نص على ذلك كل من كتب في عقيدة السلف أصحاب الحديث.

ومتى عرف المسلمون هذا وفقهوه أصلح الله لهم دنياهم التي فيها معاشهم.

ولما كان الاختلاف لابد أن يقع بين الرعية والراعي، أو بين الرعية نفسها، أرشد الله تعالى إلى المبادرة بالقضاء على هذا الخلاف قبل أن يستفحل، فقال تعالى:«فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» أي إلى كتاب الله وسنة رسوله حتى تعرفوا الحق فيما اختلفتم فيه فتذعنوا له وتسلموا تسليماً، حتى تظلوا أمة واحدة كما أراد الله.

ولكن ها هنا أمر لابد من التنبيه عليه وهو: لو أن رجلين اختلفا فى أمر ما، ثم ردّاه إلى الكتاب والسنة فقد لا يتفقان إذا فسَّر كلٌ منهما النصَّ وفْقَ فهمه هو، ومثالٌ على ذلك: اختلف اثنان فى الحاكم بغير ما أنزل الله، فقال أحدهما هو كافر وذلك لصريح قوله تعالى «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» [المائدة]، وقال الثانى: ليس المراد بالكفر هنا الكفر المخرج من الملة، وإنما هو كفر عملي، أو كفر أصغر، مادام الحاكم المسلم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله، فاختلفا، فلابد من مرجح يرجح أحد القولين، وهو فهم السلف لهذه الآية وغيرها من النصوص التي سمت بعض المعاصي كفراً، فرأينا ابن عباس رضي الله عنهما، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، قال فيها: كفر دون كفر، وتبعه على ذلك الإمام البخاري - رحمه الله - فترجم في كتاب الإيمان من صحيحه: (باب كفران العشير، وكفر دون كفر)، (باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يُكفَّر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك)، (باب«وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا» [الحجرات:٩]، فسماهم المؤمنين)، (باب ظلم دون ظلم). فدل فهم السلف على تعين المراد من ظاهر هذه النصوص. وهكذا.

فإذا اختلف اثنان فلابد من أن يكون هناك ضابط يحسم هذا الخلاف، وهذا الضابط هو فهم السلف الصالح، لذلك لابد أن نقول: الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، ففهم الصحابة هو الحجة لأن القرآن نزل بلغتهم، وقد تلقوا الوحي عن رسول الله ﷺ غضًا طريًا، وما أشكل عليهم سألوا عنه رسول الله ﷺ، فلا يجوز لمن بعدهم أن يخالفهم في فهمهم، ومن فعل فقد ضل سواء السبيل، كما قال رب العالمين سبحانه:«وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» [النساء]، ومن تمسك بالكتاب والسنة بفهم سلف الأمة فقد هدي إلى صراط مستقيم، ولذلك قال تعالى: «فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً» [النساء]، ذلك أن الردَّ إلى الله ورسوله الذي يقضي على الخلاف والنزاع خير لكم من الاستمرار في الخلاف والنزاع الذي يوهن قوتكم ويفرق جمعكم، فيتسلط به عليكم عدُوكم، كما قال الله تعالى:«وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ» [الأنفال].

وهكذا جمعت هذه الآية الواحدة خيري الدنيا والآخرة، فمن تحقق بها أصلح الله له دينه الذى هو عصمة أمره، ودنياه التي فيها معاشه، وآخرته التي إليها معاده، قال الله تعالى: «وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [آل عمران]، وقال الرسول الكريم ﷺ: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض». صحيح: [ص. ج: ٢٩٣٤]، ك (١٩٢/ ١).

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

إرشاد السالك إلى أحكام المناسك

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

قال تعالى: (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢).) [البقرة].

الحجُّ لغةً : القصد، والعُمْرة لغةً : الزيارة .

وهما في الشرع: قَصْدُ مكَّةَ لأداء المناسك من طواف وسَعْيٍ وغيرهما، وهما واجبان على كُلِّ مسلمٍ بالغ عاقلٍ حرٍّ مستطيع مرةً واحدةً في العُمُر لقوله تعالى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً(٩٧) [آل عمران].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: " أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ ثُمَّ قَالَ: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ"،

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " هَذِهِ عُمْرَةٌ اسْتَمْتَعْنَا بِهَا فَمَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ الْهَدْيُ فَلْيَحِلَّ الْحِلَّ كُلَّهُ فَإِنَّ الْعُمْرَةَ قَدْ دَخَلَتْ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"،

وَعَنْ الصُّبَيِّ بْنُ مَعْبَدٍ قَالَ: أَتَيْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقُلْتُ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي كُنْتُ رَجُلاً أَعْرَابِيًا نَصْرَانِيًا وَإِنِّي أَسْلَمْتُ وَأَنَا حَرِيصٌ عَلَى الْجِهَادِ وَإِنِّي وَجَدْتُ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ مَكْتُوبَيْنِ عَلَيَّ فَأَتَيْتُ رَجُلاً مِنْ قَوْمِي فَقَالَ لِي: اجْمَعْهُمَا وَاذْبَحْ مَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَإِنِّي أَهْلَلْتُ بِهِمَا مَعًا فَقَالَ لِي عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هُدِيتَ لِسُنَّةِ نَبِيِّكَ ﷺ ".

ولا يجب الحجُّ على الصَّبيِّ والعبد، فإن حجَّا فلهما الأجر وعليهما بعد ذلك حجَّةُ الإسلام لقوله ﷺ : " أَيُّمَا صَبِيٍّ حَجَّ ثُمَّ بَلَغَ فَعَلَيْهِ حَجَّةٌ أُخْرَى، وَأَيُّمَا عَبْدٍ حَجَّ ثُمَّ أُعْتِقَ فَعَلَيْهِ حَجَّةٌ أُخْرَى".

والاستطاعة تتحقَّقُ بالصِّحة وملْك ما يكفيه ذهاباً وإياباً، فاضلاً عن حاجته وحاجة من تلزمه نفقتُه، وأمْنِ الطريق، ويُشْتَرطُ في حقِّ المرأة خروجُ زَوْجِها معها أو مَحْرَمٌ، فإن لم تجد فليستْ مستطيعةً وليس الحجُّ واجباً عليها وإن كانت صحيحةً وأمِنَت الطريق :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهمَا أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: " لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ وَلاَ تُسَافِرَنَّ امْرَأَةٌ إِلاَّ وَمَعَهَا مَحْرَمٌ فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا وَخَرَجَتِ امْرَأَتِي حَاجَّةً قَالَ: اذْهَبْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ"، فإن سافرت المرأةُ للحجِّ والعُمرة بلا محرمٍ فهي آثمةٌ وعاصيةٌ لله ورسوله ﷺ.

ومتى تحقَّقت الاستطاعةُ وجبت المبادرةُ بالحجِّ، لقوله ﷺ : " مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ فَإِنَّهُ قَدْ يَمْرَضُ الْمَرِيضُ وَتَضِلُّ الضَّالَّةُ وَتَعْرِضُ الْحَاجَةُ".

وللحجِّ مواقيتُ زمانيةٌ ومكانيةٌ، أمَّا الزَّمانيةُ فقد قال فيها اللهُ تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ (١٨٩) [البقرة]، وقال تعالى: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ(١٩٧).) [البقرة].

قال ابنُ عمر: " أشهرُ الحجِّ شوَّال وذو القعْدة وعَشْرٌ من ذي الحجَّة".

وقال ابنُ عبَّاس: " مِنَ السنَّة أن لا يُحْرِم بالحجِّ إلاَّ في أشْهُرِ الحجِّ".

وأمَّا المواقيت المكانيَّة :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَقَّتَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ ذَا الْحُلَيْفَةِ وَلأَهْلِ الشَّامِ الْجُحْفَةَ وَلأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ الْمَنَازِلِ وَلأَهْلِ الْيَمَنِ يَلَمْلَمَ هُنَّ لَهُنَّ وَلِمَنْ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِهِنَّ مِمَّنْ أَرَادَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ وَمَنْ كَانَ دُونَ ذَلِكَ فَمِنْ حَيْثُ أَنْشَأَ حَتَّى أَهْلُ مَكَّةَ مِنْ مَكَّةَ".

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ " وَقَّتَ لأَهْلِ الْعِرَاقِ ذَاتَ عِرْقٍ".

فمن أراد مكَّة لنُسك فلا يجوز له أن يتجاوزَ هذه المواقيتَ حتى يُحْرِم، ويُكْرَهُ الإحرامُ قبلَها فقد قال الإمامُ مالكٌ- رحمه الله - لرجلٍ أراد أن يُحْرِم قبلَ ذي الحُلَيْفة: لا تفعل فإنِّي أخشى عليك الفتْنة، فقال: وأيُّ فتنةٍ في هذه ؟ إنَّما هي أميالٌ أزيدُها ؟ قال الإمامُ مالك : وأيُّ فتنةٍ أعظمُ من أن ترى أنك سبقتَ إلى فضيلةٍ قصَّر فيها رسول الله ﷺ ؟ إني سمعتُ اللهَ يقول: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٦٣) [النور]،

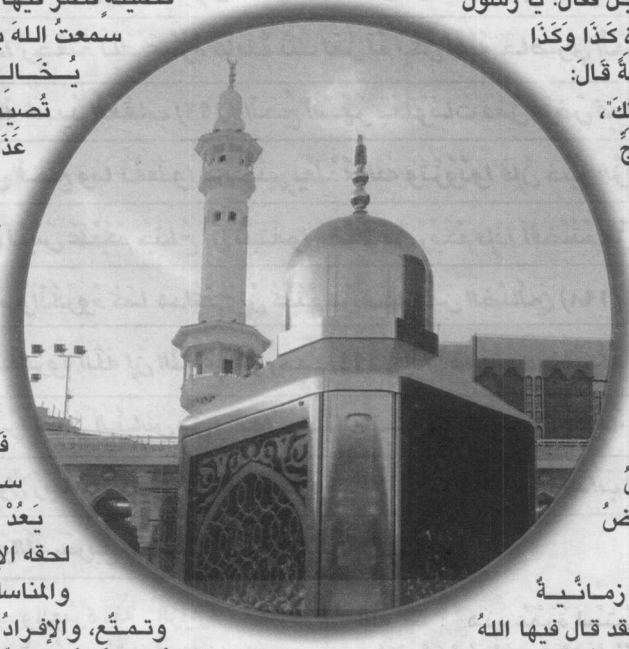

ومن جاوز الميقاتَ غيرَ مُحْرِمٍ، وهو يريد الحجَّ أو العمرةَ، ثمَّ أحرم بعد مجاوزته فقد أثم بذلك ولا يذهب عنه الإثم إلاَّ أن يعود إلى الميقات فيُحرِمَ منه، ثمَّ يُتمَّ سائرَ نسكه ، فإن لم يَعُدْ فنسكُه صحيح. وقد لحقه الإثم، ولا دَمَ عليه.

والمناسك ثلاثة: إفرادٌ وقِرانٌ وتمتُّع، والإفرادُ هو أن يُهِلَّ بالحجِّ وحده، والقِرَانُ أن يُهِلَّ بالحجِّ والعمرة إذا كان قد ساق الهَدْيَ معه من الحلِّ، والتَّمتُّع هو أن يُهِلَّ بالعمرة ثمَّ يتحلَّل منها بعد الفراغ منها، ويتمتَّع باستحلال ما حرُم عليه بالنسك، وعلى كل من القارن والمتمتع هدى، لقوله تعالى : (فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ)، والتمتع يشمل القارن والمتمتع، ولا يجوز ذبح هذا الهدى قبل يوم العيد، (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ)، وهذا الهدى واجب على أهل الآفاق دون أهل الحرم، لقوله تعالى : (ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) .

وليس على المفرد دم، ولكن من أخطاء الحجاج أن يهل أحدهم بالحج مفردا ليهرب من الهدى،

وليوفر ثمنه للهدايا التى يرجع بها، فعلى الحجاج أن يحذروا ذلك .

فإذا كان يوم التروية أهلَّ بالحجِّ وحده، وهذا التمتع واجب، لأن النبيَّ ﷺ أمر أصحابَه جميعاً أن يُحلُّوا من إحرامهم، وأن يجعلوا طوافهم وسَعْيَهم عُمرة، إلاَّ من ساق الهَدْيَ منهم مثْله ﷺ، وغَضِبَ ﷺ على الذين لم يُبادروا إلى الاستجابة لأمره، وأكد ذلك بقوله: " فَإِنَّ الْعُمْرَةَ قَدْ دَخَلَتْ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"، وقال ﷺ : " وَلَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمْ أَسُقِ الْهَدْيَ ". فمتى وصل الحاجُّ إلى الميقات فعليه أن يغتسل لإحرامه، ولا فرق في هذا الغسل بين الرجل والمرأة، ولا فرق بين الحائض والطاهر، فالاغتسال للإحرام سُنَّةٌ للجميع، ويُستحبُّ للرَّجل أن يتطيَّب في بدنه، ولا يُستَحَبُّ ذلك للمرأة، فإن ما يوجد ريحُه من الطِّيب مَحْرُم على المرأة عند خروجها من البيت، ثم يتجَّرد الرَّجلُ من ثيابه كلِّها الداخليَّة والخارجيَّة ويلبس الإزارَ والرِّداء، فإن كان السفرُ بالطائرة جاز الاغتسالُ في البيت قُبيل الخروج، وإن كان بالباخرة وتمكَّن الحاجُّ من الاغتسال فيها فبها ونعمت، وإن لا فلا حرج .

والمرأة تُحْرِمُ في جلبابها الذي تخرج به، ومن الخطأ اعتيادُ النِّساء الإحرام في الملابس البيضاء الشفَّافة ، فإنَّ هذه الثياب مُحَرَّمةٌ على المرأة في كل وقت فضلاً عن أن تلبسها لتطيع الله فيها .

ومتى حاذى الميقاتَ في الجوِّ أو البحر أهلَّ بنُسكه: لبَّيك اللَّهم بعمرة، ثمَّ يرفع صوتَه بالتلبية: " لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَكَ"، ويُكْثِرُ منها ويرفع بها صوتَه فإنَّ رَسُولُ اللَّه ﷺ قَالَ: " مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُلَبِّي إِلاَّ لَبَّى مَنْ عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ مِنْ حَجَرٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ مَدَرٍ حَتَّى تَنْقَطِعَ الأَرْضُ مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا"، وسُئِلَ رَسُولُ اللَّه ﷺ " أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ ؟ قَالَ الْعَجُّ وَالثَّجُّ"، والعَجُّ رَفْعُ الصَّوْت بالتلبية، والثَّجُّ إراقةُ دماء الهدي والضحايا، فإذا فرغ من التلبية انشغل بالدُّعاء والذِّكر والاستغفار ونحوه حتى يصل مكة، فإذا دخل المسجد الحرامَ قدَّم رِجْلَه اليمنى وقال: " أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ"، " بِسْمِ اللَّهِ والصلاة وَالسَّلاَمُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ وَإِذَا خَرَجَ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ وَالسَّلاَمُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَاب فَضْلِكَ".

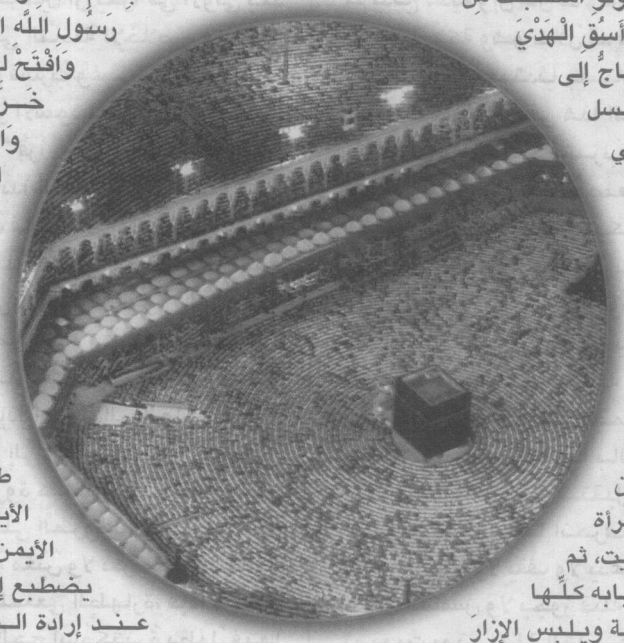

فإذا أراد الطوافَ اضطَّبع، والاضْطِبَاعُ هو أن يدخل رداءه تحت إبطه الأيمن ويردَّ طرفَه على مَنْكِبه الأيسر، ويكون مَنْكِبُه الأيمن مكشوفاً ، ولا يضطبع إلاَّ بعد دخول المسجد عند إرادة الطواف، ومن الخطأ الاضطباع من أوَّل الإحرام، فإذا أراد الطواف استقبل البيتَ بحذاء الحجر الأسود، ورفع يده اليمنى قائلاً: بسم الله والله أكبر، ومن الخطأ الحرصُ على الوصول للحجر في هذا الزحام الشديد مما يترتب عليه أن يؤذيَ غيرَه، ثم يجعلُ البيتَ عن يساره ويأخذ في الطواف به، ومن السنَّة الرَّملُ في الأشواط الثلاثة الأولى، واستلامُ الرُّكن اليمانيِّ كلما حاذاه في جميع الأشواط ، فإن عجز عن الوصول إليه لم يُشِرْ إليه، وهو بالخيار في الطواف من حيثُ الذكرُ فليقرأ أو يستغفر أو يدعو، فليس في ذلك سُنَّةٌ ثابتةٌ عن النبيِّ ﷺ إلاَّ أنه أُثِر عنه ﷺ أنه كان يدعو بين الركنين: (رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(٢٠١) [البقرة]، فإذا فرغ من

الأشواط السبعة استُحِبَّ له صلاةُ ركعتيْن خَلْفَ مقام إبراهيم، وفي موسم الحجّ يتعسَّر ذلك (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ(١٦). [التغابن]، وصلِّ سُنَّة الطواف في مكان تأمنُ فيه من مرور النساء وغيرهنَّ بين يديك، وتأمن فيه على نفسك، ومن الخطأ الحرصُ على هاتين الركعتين خَلْفَ المقام مع كثرة الطائفين وشدَّة الزِّحام بحيث لا يستطيع المصلِّي أن يركع ويسجد فضلاً عن إيذائه للطائفين. ومن السنة في القراءةُ في هاتين الركعتين أن يقرأ في الأولى بعد الفاتحة الكافرون، وفي الثانية الإخلاص، فإذا فرغ من الركعتين أتى زمزمَ فشَرِبَ وغسل رأسه، فإذا أراد السَّعْيَ استلم الحجرَ الأسودَ ثم خرج إلى الصفا، فإذا أخذ في الصعود " قَرَأَ : (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ فَبَدَأَ بِالصَّفَا فَرَقِيَ عَلَيْهِ حَتَّى رَأَى الْبَيْتَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَوَحَّدَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ وَقَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ أَنْجَزَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذَلِكَ قَالَ مِثْلَ هَذَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ "ثُمَّ يَنْزِلُ مُتَّجِهاً إِلَى الْمَرْوَةِ فَإِذَا انتهى إلى العَلَمِ الأخضر سعى سعياً شديداً إلى العَلَمِ الآخر، " حَتَّى أَتَى الْمَرْوَةَ فَفَعَلَ عَلَى الْمَرْوَةِ كَمَا فَعَلَ عَلَى الصَّفَا حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ طَوَافِهِ عَلَى الْمَرْوَةِ لم يقف ولم يدع"، وليس في السَّعْيِ دعاءٌ مُعيَّنٌ ولا ذِكْرٌ مُعَيَّنٌ فلينشغل بما شاء ولا يشترط للسعي الطهارة، فإذا فرغ من سعيه وقد بَقِيَ على الحجِّ أيامٌ كثيرةٌ يطولُ فيها شعره فليحْلِقْ، وإن قلَّت الأيَّامُ فليقصِّر، وبذلك يتحلَّل من عمرته. ويُقيم حلالاً إلى يوم التَّروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة، فإذا كان صبح يوم الثامن اغتسل وتنظَّف ولَبِسَ ملابسَ الإحرام ثمَّ أهلَّ بالحج: لبيك اللهم بحجَّة، اللهم هذه حَجَّةٌ لا رياءَ فيها ولا سُمْعَة، ثمَّ يتوجَّه ضُحىً إلى منى فيصلِّي بها الظهرَ والعصرَ والمغربَ والعشاءَ قصراً بلا جمع، ثمَّ يبيتُ بها ليلةَ عرفة، ويُصلِّي فجرَ يوم عرفة بمنى، ثمَّ يتوجَّه ضُحىً إلى عرفة فينزل بنَمِرَة فيصلِّي بها الظهرَ والعصرَ جمعاً وقصراً ثمَّ ينشغل بالذِّكْرِ والدُّعاء حتى غُروب الشَّمس، فقد قَالَ ﷺ : "خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ"، فإذا غربت الشَّمسُ أفاضَ مع النَّاس إلى المُزْدَلِفة وصلَّى بها المغربَ والعشاء جمعاً وقصراً للعشاء، ثمَّ يوتر وينام حتى الصبح، فإذا أصبح صلَّى الفجرَ في أوَّل وقته ثمَّ يُشْغِلُ نفسَه بذكر الله كما قال الله تعالى: (فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ(١٩٨) [البقرة]، فإذا أسفر النَّهارُ وكادت الشَّمسُ أن تُشْرِقَ أفاض إلى منى، فإن أتى منى رمى الجمرة الكبرى جمرةَ العقبة بسبع حَصَيات ويكبِّر مع كُلِّ حصاة، ثمَّ يَحْلِقُ رأسه، ويتحلَّل التحلُّلَ الأوَّلَ ثمَّ يذبح هَدْيَه وإن كان قد وكَّل فلا حرج .

ثمَّ ينزل مكة وهو حلالٌ قد لَبِسَ ملابسَه فيطوفُ بالبيت سبعاً مبتدئاً باستلام الحجر الأسود كما سبق ذِكْرُه ولا رَمَلَ في هذا الطواف، فإذا فرغ صلَّى ركعتين وأتى زمزمَ فَشَربَ وغسلَ رأسَه ، ثمَّ عاد فاستلم الحجرَ الأسودَ ثمَّ صَعِدَ الصفا ففعل عليه ما سبق من الذِّكر والدُّعاء ويكرِّر ذلك ثلاثاً، ثمَّ ينزل مُتَّجِهاً إلى المروة ويسعى بين العلَمين، فإذا أتى المروة استقبل القبلة وهلَّل ودعا ثلاثاً، وهكذا حتى يُتِمَّ السَّبعةَ أشواط، وبذلك يتحلَّل التحلُّل كلَّه، ثمَّ يعود إلى منى فيبيت بها ليلةَ الحادي عشر، فإذا كان يومُ الحادي عشر رمى الجمرات الثلاثَ كُلَّ جَمْرَةٍ بسبع حصيات مبتدئاً بالصغرى ، فإذا رماها انحرف عنها قليلاً واستقبل القبلة ودعا، ثمَّ رمى الوسطى، فإذا رماها انحرف عنها قليلاً ودعا ، ثمَّ يرمي الكبرى ولا يقف ولا يدعو، ووقت الرَّمْيِ يبتدئُ بزوال الشمس ولا يجوز قبله ، ويستمرُّ إلى الليل ، ثمَّ يبيت بمنى ليلة الثاني عشر ويرمي الجمرات الثلاثَ بالعدد المذكور أيضاً، فإن تعجل بالانصراف فلا جناح عليه، (وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ(٢٠٣). [البقرة].

وفي قوله تعالى: (فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ(١٩٧).) [البقرة]، إشارةٌ إلى ما يحرم على الحاجِّ فعْلُه وهو: لبس المخيط ، والمراد بالمخيط كُلُّ ما فُصِّلَ على قدر عُضْوٍ مُعَيَّنٍ وإن لم يكن فيه خيط ، فالخُوذَةُ من محظورات الإحرام كالقُلُنْسوة والعمامة والجورب.

والطيب، وحلق الشعر وقص الظفر، والجماع ودواعيه، والمعاصي، والجدال، ومن أكبر ما يُبتلى به المُحْرِم التدخين والغيبة والتصوير، فاتَّقِ اللهَ أيها المُحْرِمُ واعلم أنَّك بالإحرام تجرَّدتَ لله من الدنيا كُلِّها

وتركتَ الحلالَ لعارض الإحرام، فكيف تترك ماهو حلالٌ بسبب الإحرام، ثمّ تأتي الحرامُ أصلاً في كل وقت.

فمن اضطُرَّ لحلق الشعر لمرضٍ أو نحوه فعليه الفديةُ المذكورةُ في قوله تعالى: (فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ(١٩٦).) [البقرة].

ومن أحرم بالحجِّ أو العُمرة ثمَّ حيلَ بينَه وبين الوصول إلى البيت لمرضٍ أو نحوه فعليه هدي ثمَّ يتحلل لقوله تعالى: (فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ(١٩٦).) [البقرة] إلاَّ أن يكون قد اشترط عند الإحرام فقال: " اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي"، فإن كان قد اشترط ذلك فَحُبِسَ فله أن يتحلَّل ولا شيء عليه.

وفى قوله تعالى : (وَتَزَوَّدُوا) أمر للحجاج بأخذ ما يحتاجون إليه من المال أثناء سفرهم وحتى يرجعوا، وقد كان قوم يحجون ولا يتزودون، يقولون : نحن متوكلون على الله، نحن ضيوف الرحمن، يطعمنا ويسقينا، فنهاهم الله عن ذلك، وأمرهم بالزاد . فإن الأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل على الله، ثم أرشدهم إلى الزاد الذى يحتاجونه فى السفر الأكبر ، وهو السفر إلى الآخرة ، فقال : (فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) ثم رخص الله سبحانه للحجاج فى التجارة وطلب الربح فى موسم الحج، فقال : (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ).

وفي قوله تعالى:(وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا(١٨٩) [البقرة]، إشارةٌ إلى ما يجب تركُه من الابتداع في الحج، والتَّعبُّد بما لم يتعبَّدنا اللهُ به: عَنْ الْبَرَاءِ رَضِيَ اللَّه عَنْهُ قَالَ: " نَزَلَتْ هَذِه الآيَةُ فِينَا كَانَت الأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا فَجَاءُوا لَمْ يَدْخُلُوا مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ وَلَكِنْ مِنْ ظُهُورِهَا فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ بَابِه فَكَأَنَّهُ عُيِّرَ بِذَلِكَ فَنَزَلَتْ (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) ".

قال أهلُ التفسير: " كان الناسُ في الجاهليَّة وفي أوَّل الإسلام إذا أحرم الرَّجُل منهم بالحجِّ أو العُمرة لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه، فإذا كان من أهل المَدَرِ نقبَ نقباً في ظهر بيته ليدخلَ منه ويخرج، أو يتخذ سُلَّماً فيصعد منه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخَيْمَة والفسْطاط، ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتى يُحِلَّ من إحرامه ويرون ذلك بِرًّا".

ومن بدع الحُجَّاج اليوم توديعُهم بالطبل والزمر والموسيقى واستقبالُهم بذلك.

ومن البدع أيضاً: الإصرارُ على الإحرام بالشبشب البلاستيك، والاضطباع أوَّل الإحرام، والتلبيةُ جماعة، وزيارة المساجد والجبال التي بمكة، وقول: اللهم إنَّ البيتَ بيتُك والحرَم حرمُك والأمنَ أمنك (عند باب الكعبة) .

ومن البدع التمسُّحُ بحيطانِ الكعبة والمقام، وتقبيلُ الأركان كلِّها.

ومن البدع الخروجُ في اليوم الثامن من مكة إلى عرفة دون المبيت في منى، والصعود على جبل الرحمة، ورَمْيُ الجمرات بالنِّعال والحجَارة الكبيرة، وذبحُ الهدي قبل يوم النحر، والخروجُ من مكة لعمل عمرة، وتبييض بيت الحُجَّاج ورَسْمُ وسائل النَّقل عليه وكتابةُ آياتٍ قرآنية .

ومن الجدير بالذكر أنَّ زيارة المسجد النبوي لا علاقةَ لها بالحجِّ أصلاً، فلو رجع الحاجُّ من مكة دون زيارة المسجد النبوى فحجُّه كاملٌ غير ناقص، إلاَّ أنَّ المسجد النبويَّ من المساجد التي تُشدُّ إليها الرحال ، ووجودُ الحاجِّ في تلك البلاد فُرْصَةٌ، لذلك يستحب قَصْدُ زيارة المسجد النبوي، ومن الخطأ قصدُ زيارة القبر، فإذا دخل المسجدَ وصلَّى فيه ما تيسر فقد أحسن، وليس بواجب أن يصلى أربعين صلاةً ولا أكثرَ منها، وليس في المدينة أماكنُ تُشرَعُ زيارتُها إلاَّ المسجدُ النَّبويُّ ومسجدُ قُباء فقد قال ﷺ : " مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِه ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ فَصَلَّى فِيه صَلاةً كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ"، وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاءٍ كُلَّ سَبْتٍ مَاشِيًا وَرَاكِبًا فَيُصَلِّي فِيه رَكْعَتَيْنِ "،أمَّا زيارة المساجد السبعة والجبال وغيرها فهذه من البدع، إلاَّ زيارة البقيع وشُهداء أُحُد مع قبر الرسول ﷺ كقبور يستحب زيارتها كزيارة غيرها من القبور، ولا يخرج الحاج من مكة حتى يطوف طواف الوداع، فإنه واجب ، ورُخص في تركه للحائض.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفلق والناس

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)﴾ [الفلق: ١- ٥].

تفسير الآيات

اختُلف في المراد بالفَلَق، فقال بعضُ المفسرين: كلّ ما فَلَقَه الله عن غيره، كالليل عن الصبح، والحب والنوى عن النبت، والأرض عن النبات، والأرحام عن الأولاد، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر.

وقال ابن جرير: إن الله أطلق ولم يقيِّد، فتطلق كذلك كما أطلق.

والذي يشهد له القرآن هو الأول، كما جاء النص الصريح في الصبح والحب والنوى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ × فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٥- ٩٦]. وكلها آيات دالةٌ على قدرة الله. وجاء في حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي، أنه ﷺ ما كان يرى رؤيا إلا جاءت كفَلَق الصبح. [البخاري ٤، ومسلم ١٦٢].

والفَلَق بمعنى الصبح معروف في كلام العرب. اهـ. من «أضواء البيان».

فأمر الله نبيه أن يستعيذ برب الفلق ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي: من شرّ كلّ ذي شر، ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، هذا تخصيصٌ بعد العموم، فلما أمره أن يستعيذ به من شر جميع ما خلَق، خصّ بالذكر هذه الثلاثة؛ لعظم شرّها، فقال: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ يعني الليل إذا دخل بظلامه، وفي الليل تنتشر شياطين الإنس والجن، وتتحرك الهوامّ، وتتحرك النفس الأمّارة بالسوء، فتحضُّ صاحبها على الشرّ وتزينه له، وتحدثه أنه لن يراه أحدٌ في الليل.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، وهنّ السحرة، رجالاً أو نساء، يعقدون الخيط وينفثون فيه، والسحر حقيقةٌ، قد يحصل به الضررُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠١]، وهو من الكبائر التي أمر النبي ﷺ باجتنابها، فقال: «اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات

المؤمنات الغافلات». [البخاري ٢٧٦٧، ومسلم ٩١].

وقال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ × وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢- ١٠٣].

وقد اختلف العلماءُ في الساحر: هل يكفرُ بسحره أم لا؟ فذهب بعضُهم إلى كفره، ومما استدلوا به قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]، قالوا: نَفْيُ الفلاح يقتضي نَفْيَ الإيمان؛ لأن الله أثبت الفلاح للمؤمنين، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، ونفاه عن الساحر، فدلَّ على أنه غير مؤمن، والراجح ما ذهب إليه الإمام الشافعي رحمه الله، حيث قال: يُقالُ للساحر: اعرض علينا سحرك، فإن كان فيه كفرٌ كُفِّر، وإلا فُسِّق.

فاحذر -يا أخا الإسلام- السحرَ وأهله، وإياك وإتيانَ السحرة، ومن ابتُلي بشيء من السحر فليُرقِ نفسَه، أو يرقيه غيره ويعوِّذه بالرقى والتعويذات المشروعة، ومن أهمها قراءة الإخلاص والمعوذتين والفاتحة.

فاحذر يا أخا الإسلام السحر وأهله، وإياك وإتيان السحرة، ومن ابتلي بشيء من السحر فليرق نفسه، أو يرقيه غيره ويعوذه بالرقى والتعويذات المشروعة، ومن أهمها قراءة الإخلاص والمعوذتين والفاتحة.

وقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: سُحِرَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ، وَمَا يَفْعَلُهُ حَتَّى كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: أَشَعَرْتِ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا فِيهِ شِفَائِي، أَتَانِي رَجُلاَنِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَقَالَ: أَحَدُهُمَا لِلآخَرِ مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ، قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ. قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشُطٍ وَمُشَاقَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ. قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ فَخَرَجَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ رَجَعَ، فَقَالَ لِعَائِشَةَ حِينَ رَجَعَ: «نَخْلُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ». فَقُلْتُ: اسْتَخْرَجْتَهُ؟ فَقَالَ: لا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللَّهُ وَخَشِيتُ أَنْ يُثِيرَ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا، ثُمَّ دُفِنَتِ الْبِئْرُ» [البخاري ٣٢٦٨، ومسلم ٢١٨٩].

وهذا السحر عارضٌ من العوارض البشرية، التي لا يُعفى منها الأنبياء، ولا تؤثر في الدعوة، وإنما تصيب الأجسام دون القلب، ولذلك لم يكن للسحر أي أثر في دعوة النبي ﷺ، إنما فقط: كان يخيَّل إليه أنه يأتي النساء، ولا يأتيهن.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، الحسد أيضًا حقيقة، وقد قال النبي ﷺ: «العين حق» [البخاري ٥٧٤٠، ومسلم ٢١٩٠]. ولذا أمر الله نبيه أن يستعيذ به من شر حاسدٍ إذا حسد.

وقد سبق الكلام عن الحسد وعلاجه في آخر سورة القلم، عند قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ [القلم: ٥١].

اللهم احفظنا من كل حاسد إذا حسد.

تفسير سورة الناس

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ [الناس: ١-٦].

تفسير الآيات

في سورة الفلق كان المستعاذُ منه أربعةً: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ . وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

ولم يُذْكر للمستعَاذ به، وهو الله عز وجل، إلا صفة واحدة، صفة الربوبية: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، أما هنا في سورة الناس فالمستعاذ منه واحدٌ، وهو الوسواس الخنَّاس، ومع ذلك فقد ذُكِرَ للمستعَاذ به، وهو الله، ثلاث صفات: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ﴾؛ وذلك لأن شرَّ جميع ما خلق الله دون شرّ الوسواس؛ لأن شر الخلق سوى الوسواس إنما يلحق البدنَ دون القلب، فإذا تلف البدنُ وسلم القلبُ فاز الإنسان ونجا، ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ . إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، أما شرّ الوسواس فإنه يُتلف القلب ويُفسده، وإذا فسد القلبُ فسد الجسد كله، وخسر صاحبه الدنيا والآخرة.

ثم إن أعداء الإنس ربما ردَّ الإنسان أذاهم، واتقى شرهم، إذا أحسن إليهم، وصبَر عليهم، أما الوسواس فإنه لا ينفع معه إحسانٌ أبدًا، ولا ينجِّي منه إلا اللجأُ إلى الله رب العالمين، والاستعاذة به منه، ولذا قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩- ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ . وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦- ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦].

فهذه ثلاثةُ مواضع في القرآن الكريم لا رابع لها، أرشد الله فيها عباده إلى الإحسان إلى أعدائهم، فإنهم بالإحسان يكونون أولياء مخلصين، وأمرهم في المواضع الثلاثة أن يستعيذوا به من نزَغات الشيطان؛ فإنه لا يعيذهم منها إلا ربّ العالمين.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ﴾. فالله تعالى هو رب العالمين، وهو مليكُهم الذي يأمرهم وينهاهم، وهو إلههم الذي يجبُ أن يُفردوه بالعبادة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الشيطان جاثمٌ على قلب ابن آدم، فإذا غفل عن ذكر الله وسْوَس، وإذا ذكر الله خنَس، قال الله تعالى عن حزب الشيطان: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

وعن سليمان بن صُرد رضي الله عنه قال: اسْتَبَّ رَجُلانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ. [البخاري ٦١١٥، ومسلم ٢٦١٢].

نسأل الله السلامة والعافية، كان هذا الرجل قد استحوذ عليه الشيطان، فما استطاع أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾. قال النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّل به قرينه من الجن». قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ قال: «حتى أنا، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير» [مسلم ٢٨١٦].

وكان النبي ﷺ معتكفًا فزارته صفية، فقام معها يودِّعها، فمرَّ عليه رجلان، فلما رأياه أسرعا، فقال ﷺ: «على رِسْلكما، إنها صفية». فقالوا: سبحان الله يا رسول الله! فقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فخشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا». [البخاري:٢٠٣٥، ومسلم: ٢١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ تفسيرٌ للوسواس الخناس الذي يوسوسُ في صدور الناس، فالوسواس يكون من الجِنَّة كما يكون من الناس، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فمن الإنس شياطين، كما أنّ من الجنّ شياطين، فشياطين الإنس توسوس، وشياطين الجن توسوس، والنفس أيضًا توسوس، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]. والله تعالى يأمر نبيه وعباده المؤمنين أن يستعيذوا به من عموم الوسواس ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ والنفس.

والوسوسة -مثل الوشوشة-: الإسرار بالكلام. ومن استعاذ بالله أعاذه، كما أعاذ يوسف عليه السلام: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣]، ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣- ٣٤]، السميع للاستعاذة، العليم بنية المستعيذ، فإذا علم منه الإخلاص والصدق وقوة الرغبة في إعاذة الله له أعاذه.

إن من الإنس شياطين كما أنَّ من الجن شياطين، فشياطين الإنس توسوس، وشياطين الجن توسوس، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن !!

﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨].

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، رب أعنتني على إتمام تفسير حزب المفصل، فأعني على إتمام التفسير كله، وتقبل مني، واجعل ثواب ذلك ذُخرًا لي عندك يوم الدين، ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ﴾ يا رب العالمين.

سورة يس

يقول الله تعالى: ﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١٠)﴾ [يس: ١ - ١٠].

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

انتهينا بفضل الله تبارك وتعالى من تفسير حزب المفصل، من: سورة ق، إلى سورة الناس، ونحن مع بداية العام الجديد نبدأ في باب التفسير في هذه المجلة المباركة بفضل الله، مجلة التوحيد، نبدأ في التفسير من أول سورة يس.

فنقول وبالله تعالى التوفيق:

بين يدي السورة

سورة يس سورة مكية، شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة، وبيان أصول الدين وأركان الإيمان، وقد ركزت السورة على الأصول الثلاثة التوحيد، والوحي والرسالة، والبعث بعد الموت.

واستُفتحت بالحديث عن الوحي والرسالة ﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. وخُتمت بالحديث عن الوحي والرسالة ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾.

ثم ضربت مثل أصحاب القرية، ضربت هذا المثل للمؤمنين بالرسل ولمكذبيهم، ثم تحدثت عن التوحيد في قول مؤمن آل ياسين ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ. إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾.

وركزت أيضًا على الحديث عن الألوهية،

والعيْب على المشركين؛ لأنهم ألَّهوا غير الله، ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ. لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾.

ثم ركزت على الأصل الثالث من أصول الدين، وهو البعث بعد الموت، وأطالت الحديث فيه، وذكرت دلائله وبراهينه، وخُتمت بالإنكار على الذين ينكرون البعث، ولفتت أنظارهم إلى دلائل قدرة الله على البعث.

وقد تعلقت بسورة يس بدعٌ وشركيات:

أما البدع فقد بُنِيَتْ على أحاديث ضعيفة، لا تصح عن النبي ﷺ، وهي قراءة سورة يس على الأموات ساعة الاحتضار، وعند الدفن، وبعد الدفن، وعند الزيارة وغير ذلك، وكل ذلك بُنِيَ على أحاديث لا تصح، منها: اقرؤوا يس على موتاكم. يس لما قُرئت له. لكل شيء قلب، وقلب القرآن يس. إلى غير ذلك مما لم يثبت عن النبي ﷺ في فضائل سورة يس.

أما الشركيات التي تعلقت بسورة يس؛ فأبرزها ما كان مشتهرًا قديمًا بعدِّيَّة يس، وهي أن يقرؤوا يس بصفة لم تثبت عن النبي ﷺ، حيث إنهم يقرؤونها، ويرددون آيات معينة منها كذا مرة، ثم يقرؤون الدعاء المعروف بعدِّيَّة يس، وفيه من الشرك ما فيه، ومنه قولهم:

يا جيرة الحي أغيثوا فتى

منكم، بكم يرجو بلوغ الأملا

وهذه استغاثة بالجن، واستعانة بالشياطين، وهذا شرك أكبر، لا يغفره الله سبحانه وتعالى.

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿يس﴾ الياء والسين حرفان من الحروف المقطعة التي افتتح الله تبارك وتعالى بها سورًا من كتابه، وقد ذُكرت الياء في مطلع سورة مريم ﴿كهيعص﴾، وذُكرت السين في مطلع سورة النمل ﴿طس﴾.

فـ ﴿يس﴾ حرفان من الحروف المقطعة، والحرفان ليسا من أسماء النبي ﷺ؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، وَأَنَا الْحَاشِرُ، وَأَنَا الْعَاقِبُ». [البخاري ٣٥٣٢، ومسلم ٢٣٥٤].

ولم يصح عنه ﷺ أَنَّهُ ذكر من أسمائه يس، فـ ﴿يس﴾ و﴿طه﴾ من الحروف المقطعة تساوي ﴿طس﴾؛ فكلها حروف مقطعة افتتح الله تعالى بها سورًا من كتابه، اختلف العلماء في المراد بها اختلافًا كثيرًا، والراجح -والله أعلم بأسرار كلامه- أَنَّ المراد بها هو الإشارة إلى أَنَّ هذا القرآن كلام رب العالمين، وليس كلام محمد ﷺ كما زعموا، والدليل على ذلك أنه مؤلَّف من هذه الحروف التي يتألف منها كلام العرب، ومحمد واحد من جنسهم، فلو كان أتى بهذا القرآن من عنده فلن يعجزوا مجتمعين أن يأتوا بمثل ما جاء به محمد، فإذا عجزوا كان محمدٌ أعجز، وثبت بذلك أَنْ القرآن كلام الله رب العالمين ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥].

﴿يس. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ قال بعض السلف: ما أقسم الله على نبوة نبي من أنبيائه إلا محمد ﷺ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٨-٢٩]، يؤكد هذا بالقسم.

والقسم العظيم بـ ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ الحكيم، أي: ذي الحكمة، أو الناطق بالحكمة، وهو اسم فاعل، أو اسم مفعول أي محكم، وهو حكيم ومحكم، ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ﴾ يا نبينا ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، فلستَ بدعًا من الرسل، وإنما أنت واحد من جملتهم، كما قال له جل وعلا: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأحقاف: ٩].

﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿على صراط مستقيم﴾ لا اعوجاج فيه.

﴿تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ تنزيل: بالنصب على أنها مصدر، يقال: نزَّل يُنزِّل تنزيلاً، وبالرفع تنزيلُ: على أنها خبر لمبتدأ، تقديره هو. والقرآنِ الحكيمِ الذي هو تنزيلُ العزيز الرحيم سبحانه وتعالى.

وجَمَع بين العزة والرحمة؛ فهو يدعو الناس إلى الإيمان بهذا القرآن، وبهذا الرسول الذي أنزل عليه القرآن، بالترغيب والترهيب: آمنوا بالقرآن؛ لأنه تنزيل العزيز، فاحذروا أن تكفروا به، فيأخذكم أخذ عزيز مقتدر. وآمنوا بالقرآن؛ لأنه تنزيل الرحيم؛ ليدخلكم في رحمته.

﴿لِتُنْذِرَ﴾ اللامُ لام التعليل، لماذا أنزل الله تعالى على نبيه القرآن؟ ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾. والإنذار هو الإعلام المصحوب بالتخويف. والله تعالى أرسل رسوله بشيرًا ونذيرًا، ولكن القوم في أول الرسالة أحق بالنذارة، وليسوا أهلاً للبشارة.

﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا﴾ أي تخوفهم عاقبة الكفر، وعاقبة الشرك الذي هم واقعون فيه، ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ ما أتى آباءَهم قبلك من نذير، وما أُنزل عليهم قبلك من كتاب، فلذلك هم قوم غافلون عن الحقيقة، غافلون عن التوحيد، غافلون عن الإيمان، غافلون عن القرآن.

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾، والمراد بالحق ما بيَّنه قوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ. لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥]. وأما القول فيوضحه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، فلماذا حقَّ القول عليهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؟ لأنهم حقت عليهم كلمة العذاب، فلذلك لا يؤمنون؛ لأنهم لو آمنوا لَنَجَوْا من العذاب، والله قدَّر عليهم العذاب في سابق علمه؛ ولذلك فهم لا يؤمنون؛ حتى يستحقوا العذاب.

وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ دلالة على أن الكفار أكثر من المؤمنين، وأن أهل النار أكثر من أهل الجنة، ويدلك على ذلك قول النبي ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة: يا آدم؛ فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، فينادى بصوت: «إنَّ اللهَ يأمرك أن تُخرج من ذريتك بعثًا إلى النار». قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: «من كل ألف تسعمائة وتسعةٌ وتسعون» [البخاري ٣٣٤٨، ومسلم ٢٢٢].

> من البدع التي تعلقت بسورة يس، قراءتها عند الاحتضار وعند الدفن وبعد الدفن وعند الزيارة وغير ذلك مما لم يثبت عن النبي ﷺ

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾ الأغلال جمع غُلّ، وهي قيود من حديد تُوضع في الأيدي، ثم توضع الأيدي في العنق، فُوضعت أيديهم المغلولة تحت أذقانهم، فجعلت رءوسهم إلى أعلى، يقال: أقمحت الدابة، إذا أخذت بلجامها فرفعت رأسها، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ﴾ تحت أذقانهم، رافعة رءوسهم، فهم مقمحون، ومن رفع رأسه وهو يسير في الطريق فإنه لا يرى ما أمامه.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، ومثل هذا كيف يرى آيات الله سبحانه وتعالى، ودلائل قدرته، وعجائب صنعه، حتى يستدل بها على أنه لا إله إلا الله، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]، فدلائل التوحيد كثيرة، ولكن الله تعالى صرف قلوب القوم عنها، جزاءً وفاقًا، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ

وأبرز الشركيات التي تعلقت بسورة يس ما كان مشتهرا بين الناس بعدية يس وما فيها من دعاء عدية يس والتي احتوت على شركيات وخرافات واستغاثة بالجن والشياطين

يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فصرْفُهم عن رؤية آيات الله ودلائل توحيده كان عقابًا من الله لهم؛ لأن الله تعالى وهبهم الحواسّ، ووهبهم العقل والسمع والبصر؛ حتى يتعرفوا بها على عجيب قدرة الله، فيشهدوا أنَّه لا إله إلا الله. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، فهذا هو اعتقاد أولي الألباب: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾، أما الكفار فهم يظنون أن الله خلق الخلق بالباطل، فكذَّبهم الله فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

فإذا كانت هذه حالهم فـ ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦]؛ لأن الله ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم، فمن يهديهم من بعد الله؟! ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ فلما أعرضوا عن آيات الله ونسوها، ونسوا ما قدمت أيديهم، عاقبهم ربهم ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾: الإنذار وعدمه عندهم سواء، التخويف وعدم التخويف عندهم سواء، قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

ولما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ. طَعَامُ الأَثِيمِ. كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ. كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦]، جاء أبو جهل -لعنه الله- وقال: يا معشر قريش! محمد يخوِّفكم بالزقوم، أتدرون ما الزقوم؟ إنه التمر والزبد، ودعا بالتمر والزبد، وأخذ يأكل، ويقول: هذا هو الزقوم. أوليس قد ختم الله على قلبه فلا يخاف؟!!

﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الحكيم، ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ دون أن يراه، يخاف من الله في سرّه، كما يخاف من الله في علانيته؛ لأنه يراقب الله لا يراقب الناس، فالسر والعلانية عنده سواء، يترك في سره ما يترك في علانيته؛ لأن المؤمنين ليسوا منافقين، فالمنافقون ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨]، أما المؤمنون فإنهم يخشون ربهم بالغيب دون أن يروه، ويخشونه في سرهم وفي خلوتهم؛ لأنهم يعلمون أن الله سميع بصير، لطيف خبير.

﴿فَبَشِّرْهُ﴾ بشِّر الذي إذا ذُكِّر تذكَّر، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]، ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ﴾ لذنوبه ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ على صالح أعماله، فالله يغفر لهم الزلات، ويثيبهم على الحسنات ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠]، يغفر كثيرًا من الزلات، ويثيب على القليل بالحسنات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة يس

الحلقة الثانية

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ١٢- ١٦].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ إحياء الموتى سيتكلم الله تعالى عن دلائله في هذه السورة، ومنه ما جاء في الختام: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٧٧-٨١].

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾، يكتبه الكرام الكاتبون، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ. إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ. مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦-١٨]، وقال جل وعلا: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ. أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٧٩-٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ. وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢-٥٣].

﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ أي ونكتب آثارهم، والآثار قسمان: آثار معنوية، وآثار حسيَّة. أما الآثار المعنوية: فهي ما يتركه الإنسان بعده من أثر في الناس، حسَنًا كان أو سيئًا، وغالب الناس يؤثِّرون في الناس، فيتركون وراءهم آثارًا، فإما أن تكون آثار خير، وإما أن تكون آثار شر، إما أن تكون آثار طاعة، وإما أن تكون آثار معصية.

فهذا عالم يموت ويخلِّف وراءه ميراثًا هائلاً من الأشرطة في التفسير، والحديث، والخطب، والمواعظ، ويترك وراءه كتبًا مؤلَّفة. وذاك مُغَنٍّ مطرب يموت ويترك وراءه أيضًا آلافًا مؤلفة من أشرطة الأغاني والفسق، والدعوة إلى الفجور والعصيان، هذه آثار.. وهذه آثار.

وآخر يقضي عمره في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى وتبصير الناس بدينهم، وتحبيب الله جل وعلا إلى عباده. وواحد يقضي عمره في الصدّ عن سبيل الله، وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا.. كل هذه الآثار تُكتب.

فقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً

حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».[مسلم ١٠١٧].

وقال ﷺ: «مَا مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلاَّ كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ». [البخاري ٣٣٣٥، ومسلم ١٦٧٧].

وأما الآثار الحسية فهي الخُطى، خطى المشي، خطواتك التي تمشيها إلى أيّ مكان، تُكتب وأنت تمشي، فانظر إلى أين تمشي؟!

فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما قَالَ: خَلَتِ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ، فَأَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ»، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ! قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ: «يَا بَنِي سَلِمَةَ دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ». فقالوا: ما يسرنا أنَّا كنا تحولنا. [مسلم ٦٦٥].

وَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ رَجُلٌ لاَ أَعْلَمُ رَجُلاً أَبْعَدَ مِنَ الْمَسْجِدِ مِنْهُ، وَكَانَ لاَ تُخْطِئُهُ صَلاَةٌ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ، أَوْ قُلْتُ لَهُ: لَوِ اشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ فِي الظَّلْمَاءِ وَفِي الرَّمْضَاءِ! قَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَنْزِلِي إِلَى جَنْبِ الْمَسْجِدِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي مَمْشَايَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَدْ جَمَعَ اللهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ». [مسلم: ٦٦٣].

فخطوات الإنسان مكتوبة، وكتابتها تدل على أن الله تعالى لا يُهمل من عمل عباده شيئًا، كما قال قتادة: «اتق الله يا عبد الله. فلو كان الله مهملاً شأنًا من شئونك لأهمل آثارك» [جامع البيان: ٢٢ / ١٥٥].

ولذلك لما صرح الله تعالى بكتابة الآثار قال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾، أي في كتاب بيِّن واضح، فالإمام هو الكتاب، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [الإسراء: ٧١]، فأعمال العباد محفوظة في كتاب، لا يضيع منها مثقال ذرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ. وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢-٥٣]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عليه تسْعَةً وتسعين سِجِلاً، كُلُّ سِجِلٍّ مثل مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ أتنكر مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ يَقُولُ: لا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ يَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، ثُمَّ يَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لاَ يا رب، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: أَحْضُرْ وَزْنَك، فيقول: يَا رَبِّ مَا هَذِه الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِه السِّجِلاَّتِ؟ فقال: فَإِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، ولا يثقل مع اسم الله شيءٌ». [الترمذي ٢٦٣٩، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٣٥].

وفي هذا المعنى يقولُ الشاعرُ الحكيم:

مَثِّلْ وقُوفَكَ يَوْمَ
الْعَرْضِ عُرْيَانَا
مُسْتَوْحِشًا
قَلِقَ الأحشاءِ حَيْرَانَا
والنَّارُ تَلْهَبُ مِنْ
غَيْظٍ ومِنْ حَنَقٍ
عَلَى العُصَاةِ ورَبُّ
العَرْشِ غَضْبَانَا
اقْرَأْ كِتَابَكَ يَا عَبْدِي عَلَى مَهْلٍ
فَهَلْ تَرَى فِيهِ حَرْفًا غَيْرَ مَا كَانَا
لَمَّا قَرأتَ ولَمْ تُنْكِرْ قِراءَتَهُ
وأقررت إقْرَارَ مَنْ عَرَفَ الأشياءَ عِرْفَانَا
نادى الجليلُ: خذوه يَا ملائكتي
وامضوا بعبدٍ عصى للنار عطشانَا
المشركون غدًا في النَّار يلتهبوا
والمؤمنون بدار الخُلْدِ سكَّانَا

[التذكرة للقرطبي (ص ٢٥٦)].

لما أقسم الله تعالى في مطلع السورة لنبيه ﷺ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، ثم بين موقف قومه منه، وإصرارهم على التكذيب به، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾؛ أمر الله تعالى رسوله ﷺ (أن يضرب لقومه المكذبين به مثلاً بأصحاب القرية الذين كذَّبوا المرسلين، وكيف

أهلكهم الله سبحانه وتعالى، ونجَّى المرسلين ومن اتبعهم من المؤمنين؛ ليعلم النبي ﷺ أن العاقبة ستكون له كما كانت للنَّبيين من قبله، وليعلم قومه الذين كذبوه أن الله تعالى لن يتركهم سدًى، ولا بدَّ أن يثأر لنبيه ﷺ بإهلاكهم بسبب تكذيبهم.

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ ما هي هذه القرية؟ لا يعنينا تعيينُها. فالقرآن الكريم ليس كتاب تاريخ، ولا كتاب سرد وقائع وأحداث، وإنما القرآن كتاب العِبَر والدروس المستفادة، فحين يقصّ علينا من نبأ المرسلين، ومن نبأ السابقين؛ يقصّ علينا ما فيه العبرة والعظة، ويسكت عما سوى ذلك، فلا يُعْنَى القرآن بتعيين الأماكن، ولا بتعيين الأشخاص، ولا بتعيين الزمان والمكان الذي وقع فيه الحدث، وإنما القرآن يُعنَى بالموضع الذي تؤخذ منه العبرة من هذه القصة، وبالحدث الذي تُستفاد منه الدروس.

ولذلك لما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾، قال له: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣]، أي لا أحكي القصة كاملة، ولكن سأنبئكم بمواضع العبرة والعظة في حياة هذا الملك الصالح ذي القرنين.

وهنا قال سبحانه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ واسم القرية لا يعنينا، فلو كان فيه فائدة ما سكت الله عنه. لكن كان من شأن هذه القرية أن الله تعالى أرسل إليهم رسولين، كما أرسل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون وملئه، فكذلك الله تبارك وتعالى أرسل إلى هذه القرية رسولين من رسله عليهم الصلاة والسلام.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فكذَّب أصحاب القرية الرسولين اللذين جاءاهم من عند الله سبحانه، ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ أي فشددنا أزرهما وقويناهما بثالث، كما قال تعالى لموسى ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]، ﴿فَقَالُوا﴾ يعني هؤلاء الرسل الثلاثة لأقوامهم: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ بعثنا الله تعالى إليكم؛ لنخرجكم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، ومن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الضلالة إلى نور الهدى، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم.

فأنكر عليهم أصحاب القرية أن يكون الله تبارك وتعالى أرسلهم وهم بشر مثلهم لا فرق بينهم وبين المرسلين. ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فكيف اصطفاكم الله تبارك وتعالى علينا ﴿مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ تأكلون كما نأكل، وتشربون كما نشرب، وتمشون في الأسواق فكيف اصطفاكم الله علينا واجتباكم؟ ما المزية التي تميزتم بها حتى يبعثكم الله تعالى إلينا، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وهذه هي الشبهة التي عرضت للمشركين في كل زمان ومكان، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ﴾ فأي مزية لكم علينا، وأي فضل لكم علينا؟ حتى يختصكم الله بالرسالة. نحن لا نؤمن بأنكم رسل الله، وما أنزل الله من شيء، وما بعث الله من رسول، وما أنتم في الحقيقة إلا كَذَبة تكذبون على الله، تزعمون أن الله أرسلكم والله ما أرسلكم.

فاستشهد الرسل بعلم الله سبحانه، فقالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، كما أمر الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ أن يستشهد بالله فقال: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]، والله تعالى ما كان ليذر أحدًا يكذب عليه يزعم أن الله أرسله والله لم يرسله، ما ترك الله أحدًا كذب عليه وادعى الرسالة أبدًا إلا وانتقم منه، فالرسل يقولون: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ ولو كنا نكذب على الله لانتقم منا. كما قال في حق محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ. ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ. فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[الحاقة: ٤٤-٤٧]، فلمَّا لم يفعل بخليله شيئًا من هذا الوعيد دلَّ على أنه لم يتقوَّل.

قالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ. وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ وقد أديناه، الله يشهد أننا ما افترينا عليه كذبًا، ولا تقوَّلنا عليه شيئًا، الله يعلم ذلك علم اليقين ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، وقد حملنا الرسالة وقد بلغناها ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾.

وصلي اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وإلى لقاء في الحلقة القادمة بمشيئة الله تعالى.

سورة يس

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

الحلقة الثالثة

قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠)﴾ [يس: ١٨- ٣٠].

تفسير الآيات

﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ التطير هو التشاؤم، يقولون: أنتم شؤم، وما رأينا خيرًا منذ قلتم ما قلتم، وهذا فعل الجهلة السفلة الذين لا يعقلون، أن يتشاءموا بمن جاءهم بمحض الخير، برسل الله عليهم الصلاة والسلام، وهل يأتي رسول الله إلا بالخير؟ ولكن شأن الجهلة السفلة دائمًا يتشاءمون بمن يخالف شهواتهم، ويتيمنون بمن يوافق هواهم ولذاتهم، والرسل -كما هو معلوم- جاءت بما يخالف هوى النفس والشيطان.

ثم علت الأصوات وارتفعت حدتها فأخذوا يهددون قائلين للرسل ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا﴾ يعني عما تقولون ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾، أي: لنقتلنكم شر قتلة، نقتلكم رميًا بالحجارة حتى الموت، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وهكذا أكدوا التهديد بالقسم ونون التوكيد الثقيلة ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قالت لهم رسلهم: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ سبب الشؤم أنتم لا نحن، ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، الشؤم منكم أنتم، وليس منا نحن، بكفركم بربكم وتكذيبكم رسله أصابكم ما أصابكم.

﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ جواب الشرط محذوف تقديره ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ تشاءمتم ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ تجاوزتم الحدَّ في كل شيء في الكفر والتكذيب والعناد والمعاصي.

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ لينقذ قومه من الضلال المبين، والعذاب المهين، ويدعوهم إلى قبول دعوة المرسلين والإيمان بهم، ﴿قَالَ يَا قَوْمِ﴾ باستعطاف واسترحام أضافهم إلى نفسه ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ الرسل أناس مهتدون في أنفسهم، ويدعونكم إلى الهدى، ولا يطلبون منكم مالاً، ولا يسألونكم أجرًا. فقالوا: وهل أنت مخالف لديننا ومتبع لهؤلاء الرسل؟ قال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ نعم أنا على دينهم، وما الذي يمنعني

أن أعبد الله، وهو الذي خلقني، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ففرّق بين الفطرة والرجوع، فنسب الفطرة إليه والرجوع إليهم؛ لأن إضافة الفطرة إلى نفسه فيها حثٌ على شكر نعمة الله سبحانه وتعالى؛ فهو أليق به. وأما ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أنتم؛ فهذا فيه إنذار وتخويف، وهم أحق بالتخويف والإنذار، وقد كثر في القرآن الكريم التخويف من يوم الدين، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥].

﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ أيصح هذا؟ والحال أنها ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنْقِذُونِ﴾ كيف أعبد آلهة لو أرادني الله بسوء لا ترده عني! ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨]، ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾ لأنهم لا يملكون الشفاعة أصلاً ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿وَلاَ يُنْقِذُونِ﴾ من عذاب الله وضره وبأسه إذا نزل بي، ﴿إِنِّي إِذًا﴾ لو اتخذت من دون الله آلهة ﴿إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾، فكل من عبد غير الله فهو ضالٌ؛ لأنه لا يستحق العبادة إلا الله سبحانه وتعالى، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وكل ما سوى الله مخلوق مربوب مملوك لله سبحانه وتعالى، فكيف أعبد المخلوق المربوب المملوك، وأترك الخالق المالك مدبر الأمر كله؟!

وانتهى الحوار مع قومه، فأقبل على رسل الله يقول لهم: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ فاشهدوا لي بهذا الإيمان عند ربكم يا معشر الرسل يوم القيامة، فلما قال هذا القول سارعوا إليه فقتلوه، ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ يعني فقُتل فدخل الجنة على الفور، فلا يحول بين المؤمن ودخول الجنة إلا الموت، فإذا مات المؤمن دخل الجنة، فالموت ليس النهاية، إنما الموت نهاية لحياة التعب والنَّصَب واللغوب، وحياة الضيق والكرب، والهم والحزن، وبداية لحياة كلها سعادة، سعادة أبدية لا تنتهي، ولا تفنى ولا تبيد.

فلما دخل الجنة ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾؛ لأن المؤمن ناصح للناس في حياته وبعد مماته، والمؤمن لا يحمل حقدًا على الناس، ولا حتى على الذين أساءوا إليه في حياته ولا بعد مماته، قتلوه! لا لشيء إلا أنه قال: لا إله إلا الله، فلما دخل الجنة نصح لهم بعد موته، كما نصح لهم في حياته.

فلما بادروا بقتله أهلكهم الله أجمعين.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾: لما أصرُّوا على الكفر والتكذيب والعناد، وقتلوا الناصح الأمين، الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لينقذهم من الضلال المبين، ويدعوهم إلى اتباع المرسلين، لما قتلوه ثار الله له فأهلكهم أجمعين.

لكن الله سبحانه وتعالى لم ينزل عليهم ملائكة من السماء تحاربهم: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاحها جبريل عليه السلام فيهم، وقف على مدخل القرية وصاح فيهم صيحة. ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ جميعًا ﴿خَامِدُونَ﴾ بصيحة واحدة ماتوا أجمعون، ولم ينزل عليهم جند من السماء لهوانهم على الله.

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ الحسرة شدة الندم تصيب الإنسان فتتركه حسيراً، أي منهكًا ضعيف القوى متعبًا، ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤]، كليل متعب منهك القوى، والكفرة الفجرة يتحسرون إذا نزل بهم العذاب في الدنيا، ويتحسرون إذا نزل بهم العذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ

السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٤-٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

فقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ نداء من المعذبين حين رأوا العذاب في الدنيا، ويكون منهم أيضًا يوم القيامة حين يرون العذاب في الآخرة. وقيل هذا ترحُّم من الله عز وجل على العباد، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أما ترى أنك لو رأيت أحدًا مصابًا فإنك تتحسر رحمة به، فقيل قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ ترحم من الله تعالى بهؤلاء العباد، وأنهم ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، وكان الواجب على هؤلاء أن يعتبروا بوحدة مصير المكذبين من قبلهم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ السؤال للتكثير ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾، قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦-١٤]، لبالمرصاد لكل ظالم، ولكل باغٍ، ولكل مذنب، ولكل طاغية.

فلماذا يصر هؤلاء الكفار على الكفر، ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ إلى أهليهم ومساكنهم، كما قال تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، فمن مات لا يرجع إلى الدنيا، وإنما هو حبيس القبر إلى يوم القيامة، فيرجعون جميعًا إلى الله عز وجل، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ففي عدم رجوع الموتى إلى أهليهم ما يفيد العاقل أنه لاحقٌ بهم، كما قال بعضهم:

في الذاهبين الأولين
من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردًا
للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها
يمضي الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إليَّ
ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة
حيث صار الناس صائر

﴿وَإِنْ كُلٌّ﴾ من الذاهبين واللاحقين من الذين مضوا والذين لم يمضوا ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥١-٥٣]، وقال تعالى: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ١٦-٢١].

فاعتبروا يا أولي الأبصار، ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٥٤-٦١].

سورة يس

الحلقة الرابعة

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ (٣٦) وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦)﴾ [يس: ٣٣-٤٦].

لما ذكر الله تعالى أنَّهُ أهلك القرون الأولى من الذين أشركوا، وأخبر أنَّهم إليه راجعون ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، ذكر دلائل وبراهين التوحيد، والقدرة على إحياء الموتى، فقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾؛ فالأرض قبل زراعتها تكون سوداء جرداء، لا زرع فيها ولا ماء، وما أن يحرثها الحارث، ويضع البذرة ويرويها، حتى تنبت البذرة، ويخرج عودها فوق الأرض أخضر بهيًا، مختلفًا أكله، فمنه الحبوب كالقمح والشعير ونحوهما، ومنه الثمار والفواكه، كالنخيل والأعناب ونحوهما، وخصهما بالذكر تكريمًا وتشريفًا، فتحيى الأرض بعد موتها، وهذا مظهر من مظاهر التوحيد، ودليل من دلائل القدرة على إحياء الموتى، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]، وقال تبارك وتعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١،٢٢].

وأما كون إحياء الأرض بعد موتها دليلاً على إحياء الموتى، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، وقال جل وعلا: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:٥-٧]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٩-١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ٩-١١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وقال جل شأنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: ٣-٥]، وقال جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧].

وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ إشارة إلى أن الله تعالى هو الذي ينبت الزرع، لا الفلاح الذي يحرث الأرض، ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٧]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠،١١]، فالله تبارك وتعالى هو الذي ينبت لنا الزرع، وما على الإنسان إلا أن يتأمل في اللقمة التي يأكلها، ويبدي النظر فيها ويعيد، فيعلم أنه لا إله إلا الله، ولذلك أمر الله تعالى بالنظر في الطعام والتأمل فيه، فقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]، وقال سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، فإن الله تعالى لما امتن على خلقه بما ينبت لهم من الزرع والنخيل

والأعناب، قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَشْكُرُونَ﴾ فشُكْرُ الله تعالى على نِعَمه التي لا تُعد ولا تُحصى واجبٌ، ولاسيما عقب الطعام والشراب.

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا» [مسلم ٢٧٣٤].

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ أَكَلَ طَعَامًا ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لله الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلاَ قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ» [أبو داود ٤٠٢٣، وحسنه الألباني].

وقولُهُ تبارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ آية ثانية من آيات التوحيد، ودلائل القدرة على إحياء الموتى، وهي كقوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، أي: لعلكم تذكرون أنَّ الخالق أحد صمد، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣،٤]، ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، وأنه سبحانه ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ﴾ يعني أن النبات فيه الذكر والأنثى، كما في الحديث: عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ الله رضي الله عنه قَالَ: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بِقَوْمٍ عَلَى رُءُوسِ النَّخْلِ، فَقَالَ: «مَا يَصْنَعُ هَؤُلاَءِ». فَقَالُوا: يُلَقِّحُونَهُ يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الأُنْثَى فَيَلْقَحُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا». قَالَ: فَأَخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ فَأُخْبِرَ رَسُولُ الله ﷺ بِذَلِكَ فَقَالَ: «إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلاَ تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ الله شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى الله عز وجل» [مسلم ٢٣٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي من بني آدم خلق الله الزوجين الذكر والأنثى، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وقال سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩،٥٠]، ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾ [النجم: ٤٥،٤٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: ومما لا يعلمون خلق الله زوجين اثنين، وخَلْقُ الذكر والأنثى من أصل واحد، وفي مكان واحد، دليل على قدرة الله الدالة على وحدانيته، والدالة أيضًا على قدرته على إحياء الموتى، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾: هذه آية ثالثة من آيات التوحيد والقدرة على البعث، ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ أي نُزيله ونكشفه عن مكانه، استُعير لإزالة الضوء السلخ الذي هو كشط الجلد وإزالته عن الحيوان المسلوخ، وفيه إشارة إلى أن النهار طارئ على الليل، كما السلخ طارئ على المذبوح.

ومعنى ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ داخلون في الظلام، ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ أي لحدٍّ لها مؤقت، ينتهي إليه دورها اليومي والسنوي، ﴿ذَلِكَ﴾ الجري المتضمن للحكم والمصالح والمنافع، والمدهش نظام سيره وإحكامه بلا إخلال، ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الغالب بقدرته على كل مقدور، ﴿الْعَلِيمِ﴾ المحيط علمًا بكل معلوم. ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ أي صيرنا له منازل ينزل كل ليلة في واحد منها، ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ

الْقَدِيمِ﴾ أي حتى إذا كان في آخر منازله، دق واستقوس، وصار كالعذق المقوس اليابس إذا حال عليه الحول. [محاسن التاويل(٧٢-٧٤ / ١٤).].

﴿لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي كل من الشمس والقمر في فلك خاص به، فالشمس تجري لمستقرها في فلكها، والقمر يجري في فلكه، لا يدرك أحدهما الآخر، ولا يغلبه، وإنما ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]، وهو يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة ﴿جُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩]، وكوِّرا، ورُمي بهما في البحار، فتتاجج البحار نارًا موقدة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ يعني ومن دلائل التوحيد والقدرة جريان السفن في البحار، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٢،٣٣].

والمراد بالفلك المشحون: المملوء بمن فيه وما فيه، والمراد سفينة نوح عليه السلام، لما قال له ربه: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

والذرية المذكورة في قوله تعالى: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال بعض المفسرين: الذرية تطلق على الآباء والأجداد كما تطلق على الأبناء. والمعنى وآية لهم أنا حملنا آباءهم الأولين الذين هم ذريتهم في الفلك المشحون مع نوح عليه السلام ؛ لأن كل الناس الموجودين على الأرض الآن إنما هم ذرية هذه القلة القليلة المؤمنة التي أنجاها الله تعالى مع نوح عليه السلام في السفينة، ولو أن هذه القلة القليلة هلكت مع الهالكين ما بقي لبني آدم ذرية ولا نسل حتى اليوم، ولكن الله سبحانه وتعالى لما أغرق الكافرين من أهل الأرض أنجى نوحًا ومن آمن معه ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود]، فكان من هؤلاء القلة القليلة الذين نجوا في الفلك المشحون هذه الذرية، وهذا النسل، إلى يوم الدين، ولذلك يقال لنوح عليه السلام أنه أبو البشر الثاني، وأبو البشر الأول آدم عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ﴾ من مثل هذا الفلك﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ وهي أن الناس بعد نوح عليه السلام صاروا يصنعون السفن، وكثرت السفن بعد نوح عليه السلام، فأول سفينة صُنعت في التاريخ صُنعت بيد نوح عليه السلام، ثم أبقى الله تعالى جنس هذه السفينة في الناس ليجعلها لهم تذكرة، أي ليذكروا بجنس السفينة، السفينة الأولى التي نجَّى الله فيها نوحًا، وأهلك مَن لم يركب معه بالطوفان.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ هذه السفن في البحار تغدو وتروح ليل نهار، إنما تمشي بحفظ الله تعالى، ولو شاء الله لأغرقها وما فيها ومن فيها. ﴿فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أي مُغيث ﴿وَلاَ هُمْ يُنْقَذُونَ﴾. وما المانع يا رب من الغرق؟ قال تعالى: ﴿إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا﴾ رحمتنا هي المانعة من إغراقهم، ﴿وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ ليستوفوا آجالهم التي كتب الله تبارك وتعالى لهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وهذه الطائرات في الجو أيضًا محفوظة برحمة الله، ولو تخلى الله تبارك وتعالى عنها لوقعت الطائرات، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

والبقية في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سورة يس

الحلقة الخامسة

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ (٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلاَ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) ﴾ [يس: ٤٥-٥٩].

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وإذا قيل للمشركين ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ قالوا: المراد به عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، اتقوا ما بين أيديكم من عذاب الآخرة، وما خلفكم من عذاب الدنيا أو العكس، اتقوا أن يصيبكم في الدنيا مثل ما أصاب قوم نوح، أو قوم هود، أو قوم صالح، واتقوا إن لم يصبكم عذاب الدنيا أن يصيبكم عذاب الآخرة، فإن الله قد يرفع العذاب عمن استحقه في الدنيا لحكمة يعلمها، أما في الآخرة فإن عذاب الله واقع بالكافرين لا محالة، كما أقسم على ذلك، في قوله: ﴿وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ

دَعًا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١-١٦].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ جواب الشرط محذوف، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ ماذا قالوا، أو ماذا عملوا، جواب الشرط محذوف دل عليه ما بعده، تقديره ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تولّوا وهم معرضون، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ فهم معرضون عن الآيات الكونية، ومعرضون عن الآيات التنزيلية الوعظية، آيات السموات والأرض، معرضون عنها، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فهم معرضون عن آيات الله الكونية كأنهم عميان لا يرونها، وإذا ذُكِّروا ووُعظوا، وقيل لهم: اتقوا عذاب الله أن يصيبكم في الدنيا أو يدرككم في الآخرة. أعرضوا أيضًا، ولم يستجيبوا للواعظين، قال عز وجل: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم الذين قيل لهم أنفقوا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ يقولون هذا من باب الاستهزاء والسخرية والتهكم؛ لأن المؤمنين كانوا يقولون: الله هو الرزاق ذو القوة المتين، ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، «فإذا دعا المؤمنون الكافرين إلى الإنفاق في سبيل الله ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ؛ إذ تأمروننا أن نطعم من أجاعه الله، ونعطي من منعه، وهذا غلط منهم ومكابرة ومجادلة بالباطل؛ فإن الله سبحانه أغنى بعض خلقه وأفقر بعضًا ابتلاءً، فمنع الدنيا من الفقير لا بخلاً، وأعطى الدنيا للغني لا استحقاقًا، وأمر الغني أن يطعم الفقير، وابتلاه به فيما فرض له من ماله من الصدقة، ولا اعتراض لأحد على مشيئة الله وحكمته في خلقه. والمؤمن يوافق أمر الله.

وقولهم: ﴿مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ وهو إن كان كلامًا صحيحًا في نفسه، ولكنهم لما قصدوا به الإنكار لقدرة الله، وإنكار الأمر بالإنفاق مع قدرة الله كان احتجاجهم من هذه الحيثية باطلاً». [فتح البيان في مقاصد القرآن(٥ / ٥١٥).].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ المراد بالوعد الوعدُ المذكور ضمنًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٤٥]، أي: اتقوا عذاب الدنيا، واتقوا عذاب الآخرة، فيقولون مستهزئين منكرين مكذبين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قال تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٤٩-٥٠] ما ينظرون إلا صيحة واحدة، وهي النفخة الأولى، نفخة الصعق والفناء.

﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي يختصمون في دنياهم، في بيعهم وشرائهم، ومتاجرهم ومزارعهم؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن القيامة ستقوم وحركة الحياة طبيعية جدًا، فقال ﷺ: «لتقومن الساعة وقد بسط الرجلان الثوب بينهما يتبايعانه فلا يتبايعانه» [متفق عليه].

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ لا يستطيعون أن يوصوا بشيء، ﴿وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ من أسواقهم، إنما كل واحد يموت في المكان الذي هو فيه. ماذا يستعجلون؟! ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٥].

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ النفخة الثانية، نفخة الحياة، نفخة البعث والإحياء، ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي من القبور﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾، والنسلان هو المشي السريع، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٦-٨]، أي مسرعين إلى الداع، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤١-٤٤]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٤٢) يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢-٤٤].

فلما بُعثوا، ورأوا بأعينهم ما كانوا به يكذبون، ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ دعوا على أنفسهم بالويل، يا أيها الويل أقبل فهذا أوانك، وفي قراءة (يا ويلتنا) يا حسرتنا أقبلي فهذا أوانك، وصرحوا بالحسرة في آية أخرى، كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا

عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١].

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ قال أُبيُّ بن كعب ومجاهد والحسن وقتادة: ينامون نومة قبل البعث، وذلك بين النفختين، فلذلك يقولون: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾. وهذا لا ينافي عذابهم في قبورهم؛ لأنه بالنسبة لما بعده في الشدة كالرقاد. [تفسير القرآن العظيم(٣ / ٥٧٤).].

فلما تساءلوا أُجيبوا، إما على لسان الملائكة، وإما على لسان العلماء من المؤمنين، والراجح أن المجيب هم علماء المؤمنين، بدليل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥-٥٦]، فلما قال المشركون بعد البعث ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾؟ أجابهم أولو العلم والإيمان ﴿هَذَا﴾ هذا البعث الذي تزونه الآن ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ على ألسنة الرسل في الدنيا ﴿وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ فيما أخبروا به عن رب العالمين، أنكم إلى الله راجعون، ها أنتم أولاء قد رجعتم إلى الله تبارك وتعالى، فذلك يوم البعث ولكنكم لا تعلمون.

قال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ قال فيها بعض السلف: هي قول ملَك الصور إسرافيل -عليه السلام-: أيتها العظام البالية! أيتها الشعور المتناثرة! إن اللهَ يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. كلمة واحدة، ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾، و ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ (٣٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨-٤٠].

﴿فَالْيَوْمَ لاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾، ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وبدأ الله تبارك تعالى بالحديث عن السعداء أهل الجنة - جعلنا الله منهم - فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٥-٥٧].

قال بعض المفسرين: أصحاب الجنة في ذلك اليوم مشغولون بفضّ الأبكار، على ضفاف الأنهار، تحت ظلال الأشجار، وإن الرجل في الجنة ليصل في اليوم الواحد إلى مائة عذراء، كلما فضها عادت بكرًا، وإن الرجل ليُعطَى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع، حتى يتمتع بما رزقه الله تعالى في الجنة، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٥-٥٦]، وقال تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٥-١٦]، وقال جل شأنه: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ١٤].

﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾، التنكير للتكثير والتعظيم، أي من كل الفواكه، كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]، الفاكهة كلها التي رأيتها في الدنيا، والتي لم ترها، والتي ذقتها والتي لم تذقها.

﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ كل ما تريد، وكل ما تشتهي، تجده بين يديك حاضرًا، كما قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾ [يونس: ١٠]، قال ابن جريج: إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا: سبحانك اللهم! وذلك دعواهم، فيأتيهم الملك بما يشتهون، فيسلم عليهم، فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾. [تفسير القرآن العظيم (٢ / ٤٠٨).].

وأعظم من ذلك كله أنَّ الله تعالى يكلمهم ويحييهم، ويبدأهم بالسلام ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً﴾ أي بلفظ، ﴿قَوْلاً﴾ لينفي أي شك في أن يكون كلام الله، ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، ولك أيها القارئ أن تتصور وأنت في الجنة تسمع رب العالمين يقول لأهل الجنة: ﴿سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد: ٢٤]، لم من السعادة، وكم من النعيم يجدون في قلوبهم!! وربهم الملك العزيز الجبار المتكبر يحييهم بالسلام، ﴿سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾.

هذا حال السعداء في الآخرة جعلنا الله منهم، وأما المجرمون الأشقياء الكافرون المكذبون، فالله تعالى يقول لهم: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ انفصلوا حتى تسمعوا ما يزيدكم حسرة وندامة، ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]، أي فصلنا بينهم ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، أهل الجنة وحدهم، وأهل النار وحدهم.

نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله الهداية والتوفيق.

والحمد لله رب العالمين.

سورة يس

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

[يس: ٦٠- ٧٠].

تفسير الآيات

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴾: عهد الله وصيته إلى بني آدم، وهم في صلب أبيهم آدم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أنسيتم هذا العهد وقد جاءتكم الرسل فذكرتكم به؟!

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾، وعبادة الشيطان طاعته، واتباعه فيما يأمر به، وفيما ينهى عنه، والشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر، ولا ينهى إلا عن كل خير أمر الله به.

﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ وعداوته بيِّنة ظاهرة من يوم أن أبى أن يسجد لأبيكم آدم، ومن يوم أن وسوس له حتى أخرجه من الجنة، وأزاله عما هو فيه من النعيم، فعداوة الشيطان ظاهرة بينة واضحة لا تحتاج إلى دليل، ولذلك كان من كلام الخليل إبراهيم -عليه السلام- لأبيه وهو يدعوه إلى الله: ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ [الأنبياء: ٤٤] لا تعبد الشيطان لأنك حين تعصي الرحمن إنما تطيع الشيطان، حين تعبد الأصنام والأوثان تعبدها بأمر الشيطان، فانت في الحقيقة تعبد الشيطان وتطيعه.

﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي ﴾ ولا تشركوا بعبادتي أحدًا، ﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ فالصراط المستقيم يتمثل في عبادة الرحمن، وترك عبادة الشيطان، فكل من عبد الله وحده، ولم يعبد معه غيره، فهو على صراط مستقيم، وكل من عبد غير الله استقلالاً، أو عبده مع الله؛ فقد ضل عن سواء السبيل.

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴾ لماذا لا تستفيدون من الأحداث؟ ولماذا تأخذون العبرة من الوقائع التي تمر بكم؟ الشيطان أغوى كثيرين من

قبلكم، وخدع كثيرين من قبلكم، فالواجب عليكم أن تنتبهوا له وتحذروه، فالعاقل من اتعظ بغيره، ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾!.

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ ﴾ هذه: اسم إشارة للقريب، هذه جهنم أمامكم، ترونها رأي العين، كما قال تعالى: ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ٦-٧]، وقال تعالى: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾ [الشعراء: ٩١]، ظهرت فلم تتوار، ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾، وقال في موضع آخر: ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ [الرحمن: ٤٣]، وقال في سورة أخرى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ [الطور: ١٣-١٤] هذه جهنم أمامكم، ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ [الكهف: ١٠٠]، ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٣]، ﴿ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص: ٦٤]، ولكن لا تنفع (لو)، ولا ينفع التمني، ﴿ اصْلَوْهَا ﴾ اي ادخلوها دخولاً تغمركم وتحيط بكم النار من جميع الجهات، ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف: ٤١]، ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٩]، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم: ١٧].

﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ بسبب كفركم بالله ورسله.

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾، وقد يتساءل الإنسان: كيف تتكلم الأيدي والأرجل؟

ولا غرابة في ذلك، فإن الله سبحانه أنطق اللسان وهو قطعة لحم، وهو سبحانه قادر على إنطاق الأيدي والأرجل، وغيرها من الجوارح في الآخرة، كما أنطق اللسان في الدنيا، وهذا إنما يكون في حقّ الكافرين والمنافقين؛ لأن المؤمن عندما يُعرض على ربه، ويقرره بذنوبه: عملت يوم كذا كذا وكذا، يقرُّ ويعترف ولا ينكر، كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَيْ رَبِّ! حَتَّى قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ؛ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ». [متفق عليه].

وعن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاً، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ يَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَيُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاَّتِ؟! فَقَالَ: فَإِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاَّتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ فَلاَ يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ». [الترمذي ٢٦٣٩، وصححه الألباني].

وأما الكافر والمنافق فالكذب دأبهم، فيوم يبعثون ينكرون ويجحدون، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [المجادلة: ١٨]، وحينئذ يختم الله على أفواههم، وتنطق جوارحهم شاهدةً عليهم بما عملوا، كما جاء عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رضي الله عنه- قَالَ: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟ قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى! قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي. قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا. قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ

لأَرْكَانه انْطقي، قال: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَاله، قال: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ، قال: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا! فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ». [مسلم ٢٩٦٩].

قال تبارك وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ١٩-٢٤].

نسأل الله أن يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويجيرنا من عذاب النار ويدخلنا الجنة برحمته.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾ بأن نُذْهب أبصارهم، كما طمسنا على نطقهم، ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي: فبادروا إليه؛ لأنه طريق الوصول إلى الجنة، ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ وقد طُمست أبصارهم؟!

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: لأذهبنا حركتهم، ومسخ الشخصية قَلْبُها إلى شيء مختلف، كحيوان أو صورة أخرى غير الصورة التي كانت عليها، قردة وخنازير وغير ذلك. ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾ إلى الأمام ﴿وَلاَ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الوراء ليبتعدوا عن النار.

والمعنى: أن هؤلاء الكفار حقَّت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بُدّ من عقابهم، وفي ذلك الموطن ما ثمَّ إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه أحد إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم. وأما هؤلاء فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار، فإن شاء طمس أعينهم، وأبقى حركتهم، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر. والمقصود أنهم لا يعبرون الصراط، ولا تحصل لهم النجاة. [تيسير الكريم الرحمن (٦ / ٣٥٧-٣٥٨)].

أحوال الإنسان في الحياة:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ من يزد الله تعالى في عمره ينكس في خلقه مرة ثانية، فسنة الله تعالى في الخلق أن يولد الإنسان ضعيفًا، فإذا عُمِّر ازدادت قوته يومًا بعد يوم، حتى يبلغ الأربعين، فيكون قد استوى على أشده، فإذا زاد عن الأربعين أخذ في النقص، حتى يرد إلى أرذل العمر، كما قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥]. فيصير ضعيف البدن، ضعيف القُوى، ضعيف العقل والذاكرة، وهذه سُنة الله تعالى في الإنسان، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، وهذا التدرج في الخلق آية من آيات قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ فيعلمون أن الذي يردهم من القوة إلى الضعف قادر أن يردهم بعد الموت إلى الحياة.

إبطال كون النبي ﷺ شاعرًا

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾: لقد اتهم الكفار النبي ﷺ بأنه شاعر، وهذا الاتهام يستلزم كون القرآن شعرًا، فنفى الله تعالى هذه التهمة، فقال سبحانه: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، إنما علمناه القرآن، إذًا هو ليس شاعرًا، وأقسم ربنا سبحانه على ذلك كما هو واضح من الآيات.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ ما مكَّن الله تبارك تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول الشعر، فما كان يحسن

أن يقول الشعر، حتى أقوال الشعراء لما كان يرددها كان يبدل بعض ألفاظها، ولا يحكيها كما قالوها، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ وذلك كله صيانة للوحي من الاتهام بالشعر، كما أن الله تبارك وتعالى صان القرآن من الافتراء بأن جعل النبي أميًا لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٨-٤٩]، فكما أن الله قدَّر أن يكون النبي ﷺ أميًا لا يقرأ ولا يكتب، حتى لا يقال: إن القرآن من خط يده، وادعى أنه من عند الله، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ فكذلك حتى لا يقال شاعر، ولا يقال في القرآن أنه شعر، قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ إذًا القرآن ليس شعرًا، فما هو القرآن؟

حقيقة الوحي

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ والوصفان وصفان لشيء واحد، وهو الوحي الذي علمه الله نبيه ﷺ، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ﴿وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ قرآن يُتْلَى، وذكر يُذكر به الله سبحانه وتعالى، ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ لينذر (بالياء) أي ليُنذر القرآن، وقرئت (بالتاء)، لتنذر يا نبينا، والإنذار هو الإعلام المصحوب بالتخويف، والقرآن نذير، والنبي ﷺ نذير، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الاحزاب: ٤٥].

ولكن من الذي يخاف إذا تُلِيَ عليه القرآن الكريم؟ ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ يعني حي القلب، وهو المؤمن، أما الكافر فهو ميت، ولذلك ضرب الله تعالى المثل للمؤمن بعد كفره بالحي والميت، فقال تعالى: أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا [الأنعام: ١٣٣] لا يستوون، فجعل الله تبارك وتعالى المؤمن قبل الإيمان ميتًا، وبعد الإيمان حيًا؛ ذلك لأن الوحي روح، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال أيضًا في سورة ق: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٢٧].

﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ يعني المؤمنين، وأما الكافرون فالله سبحانه وتعالى قال فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الصافات: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]، فالمؤمن هو الذي إذا سمع آيات الوعيد في القرآن خاف وارتعدت فرائصه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ما هو القول الذي يحق على الكافرين، بعد تلاوة القرآن الكريم عليهم، وإقامة الحجة عليهم؟ القول الذي يحق عليهم، هو قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، فإذا تلا النبي ﷺ القرآن يؤمن به من آمن، ويكفر به من كفر، فينتفع المؤمن بتلاوة القرآن، ويأبى الكافر أن ينتفع، فيحق عليه القول بأنه من أهل النار- والعياذ بالله- قال تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤-٨٥].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

سورة يس

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧١- ٨٣].

الأنعام من نعم الله

يلفت الله - تبارك وتعالى- أنظار الكافرين إلى دلائل القدرة، ودلائل العظمة والوحدانية مرة ثانية وثالثة ورابعة؛ فيقول جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ والرؤية هنا قلبية، والمعنى: أو لم يعلموا ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ مما انفردنا نحن به، وبخلقه وبإيجاده، لم يشركنا فيه أحد، ﴿أَنْعَامًا﴾ وهي الإبل والبقر والغنم بنوعيها: الضأن والماعز. ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ جعلها الله تبارك وتعالى أليفة أنيسة، تألف الإنسان وتأنس به، وتعيش معه حيثما كان، وبعد ذلك سخَّرها وجعلها ذلولة منقادة، انظر إلى الجمل وكِبَر حجمه، والولد الصغير يمشي به ويقوده، وهو مذلل منقاد، وإذا ربطت خمسين جملاً لقادها أيضًا، لا تشرد ولا تهيج، لكن إذا هاج الجمل وشرد، فمن الذي يقدر على تذليله مرة أخرى غير الله تبارك وتعالى؟!

ما يركب من الأنعام وما لا يركب

﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ من النعم ما يُركَب، ومن النعم ما لا يُركَب، أما ما يُركَب فالإبل، قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]، وقال تبارك وتعالى عن الإبل أيضًا: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٧٩-٨٠].

أما البقر والغنم فلا تركب: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ. فَقَالَتْ: لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَةِ» [متفق عليه]. وقد أخرج البخاري هذا الحديث في باب استعمال البقر للحراثة. وقال الحافظ في «الفتح» : قال ابن بطال: في هذا الحديث حجة على من منع أكل الخيل مستدلاً بقوله تعالى ﴿لتركبوها﴾ فإنه لو كان ذلك دالاً على منع أكلها

لدل هذا الخبر على منع أكل البقر لقوله في هذا الحديث: «إنما خلقت للحرث» وقد اتفقوا على جواز أكلها فدل على أن المراد بالعموم المستفاد من جهة الامتنان في قوله: ﴿لتركبوها﴾ والمستفاد من صيغة إنما في قوله "إنما خلقت للحرث" عموم مخصوص.

﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾: والإبل والبقر والغنم كلها مأكولة، ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ غير الركوب وغير الأكل، ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]، منافع كثيرة، ﴿وَمَشَارِبُ﴾، ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]، هل تشرب اللبن إذا رأيت فيه نقطة واحدة من الدم؟ لا والله، وهل تشربه لو نزل ورائحته رائحة الفرث؟؟ لا والله. إذن الله حمى اللبن من الفرث والدم، وأنزله سائغًا للشاربين، فلا بد أن تقول الحمد لله، ولا بد أن تتفكر في دلائل قدرة الله عز وجل.

وحين تركب الجمل وغيره تقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣-١٤]، وحين تحلب البقر أو الإبل أو الغنم تقول: الحمد لله، وحين تقصّ صوف الغنم تقول الحمد لله، وحين تغزل منها الثياب تقول الحمد لله، لا بد أن تتفكر في دلائل قدرة الله.

وجوب شكر الله على نعمه

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ اللهَ مع كل هذه النعم؟! ولو شكروه لزادهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧-٨]، فلا بد من شكر الله على هذه النعم التي لا تُعدّ ولا تُحصى، ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥]، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠]، هذه نعم لا يليق بنا أن نقابلها بالكفر، هذه نعم لا يليق بنا أن نقابلها بالمعصية، وصدق القائل:

إذا كنت في نعمة فارعها
فإن المعاصي تزيل النعم
وحافظ عليها بشكر الإله
فإن الإله سريع النقم

الآلهة الباطلة لا تنصر عابديها في الدنيا ولا في الآخرة

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾: سبحان الله! ما أحسن قول القائل:

فواعجبا كيف يُعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد؟!!

وفي كل شيء له آية
تدل على أنه الواحد

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يرجون من هذه الآلهة أن تنصرهم، وتدفع عنهم عذاب الله، وترد عنهم بأس الله، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ أي ﴿وَهُمْ﴾ يعني المشركين ﴿لَهُمْ﴾ أي للأصنام ﴿جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ هم الذين يدافعون عن الأصنام، وهم الذين يحمونها، وهم الذين ينصرونها، فكيف يرجون نصرها؟!

وقيل: إن هذه الآلهة لو جنَّدت نفسها، وأخذت أسلحتها، وتأهبت لتنصر من يعبدها، لا تستطيع نصرهم، كيف وهم غير مجندين أصلاً، وغير مؤهلين للنصر.

وقيل: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ يعني هذه الآلهة والذين يعبدونها من دون الله، محضرون جميعًا في النار يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وكما قال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣].

﴿فَلَا يَحْزُنْكَ﴾ يا نبيَّنا ﴿قَوْلُهُمْ﴾. لقد كانوا يقولون في حقّ الله ما لا يليق بجلال الله، وكان النبي ﷺ يحزن عندما يسمع من ذلك، فقال الله له: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾.

ولقد كانوا يقولون في القرآن ما يشق على النبي ﷺ سماعه؛ فيحزن لسماعه، فقال الله له: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾. ولقد كانوا يقولون في النبي نفسه ما يحزنه، فقال الله له: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾، لا تحزن لماذا؟ ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾، والعلم يقتضي المجازاة على ما علمه الله منهم، فلا تحزن؛ لأن الله لن يتركهم.

وقدم السر على العلن ليفيد إحاطته بهم علمًا، إذا كان يعلم الكلام الذي هو في نفسك قبل أن تقوله، فكيف يخفى عليه ما تقوله؟! كما قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]، وقال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]، يعني تجهر بصوتك أو تخفضه؛ فإن الله سبحانه وتعالى يسمعك، حتى يعلم ما في نفسك.

دلائل البعث

الدليل الأول: أن الله خلق الإنسان أول مرة، فلن يعجز عن إعادته:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾: الذي يعرف أصله الحقير المهين، كيف يتكبر ويتعالى على الله، وكيف يجادل في الله بالباطل؟ ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ مبين في خصامه ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ هذا مثال لخصومة الإنسان في الله عز وجل ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ يعني أول مرة، ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن العاص ابن وائل أخذ عظمًا من البطحاء، ففَتَّه بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي الله هذا بعد ما أرَمَّ؟! فقال رسول الله ﷺ: «نعم، يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم. قال: ونزلت الآيات من آخر يس» [الصحيح المسند من أسباب النزول: ص١٢٩].

فقال جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]، فتعلمون أن الذي أنشأكم من العدم لن يعجز عن إعادتكم بعد الموت؛ لأن الإعادة أسهل من البدء، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، فليس شيء هينًا على الله وشيء أهون، ولكن يضرب الله لكم الأمثال حتى تعقلوا عنه مراده.

شُبَه المنكرين للبعث والرد عليها

وهكذا قرر الله تعالى المعاد بذكر كمال علمه، وكمال قدرته، فإن شُبَه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع:

أحدها: اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجهٍ لا يتميز ولا يحصل معها تميز شخص عن شخص.

الثاني: أن القدرة لا تتعلق بذلك.

الثالث: أن ذلك أمر لا فائدة فيه، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئًا بعد شيء هكذا أبدًا، كلما مات جيل خلفه جيل آخر، فأما أن يميت النوع الإنساني كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة في ذلك. فجاءت براهين المعاد في القرآن مبنية على ثلاثة أصول:

أحدها: تقرير كمال علم الرب سبحانه، كما قال في جواب من ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥-٨٦]، وقال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق:٤].

والثاني: تقرير كمال قدرته، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، وقوله جل وعلا: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٤]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦]، وقد يجمع الله بين الأمرين، كما في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

الثالث: كمال حكمته، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]، وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ١٦]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]، وقوله جل شأنه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزه عما يقوله منكروه، كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص. [الفوائد لابن القيم، ص٦-٧].

وهذه الآيات أشبه ما تكون بما ذكر الله تعالى في أول سورة ق؛ فإنه سبحانه حكى قول المشركين: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ثم قال ردًا عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٣-٤]. فهذا هو العلم، ثم لفت

أنظارهم إلى القدرة، فقال تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦-١١].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ رَجُلٌ لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ لأَهْلِه: إِذَا مَاتَ فَحَرِّقُوهُ، ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ، وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ؛ فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لاَ يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ. فَلَمَّا مَاتَ الرَّجُلُ فَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ؛ فَأَمَرَ اللَّهُ الْبَرَّ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ يَا رَبِّ وَأَنْتَ أَعْلَمُ. فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ» [مسلم ٢٧٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣-٤].

الدليل الثاني من دلائل البعث: أنه سبحانه ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضرًا نضرًا؛ فأثمر وينع، ثم أعاده إلى أن صار حطبًا يابسًا تُوقد به النار، كذلك هو فعّال لما يشاء، قادر على ما يريد، لا يمنعه شيء، قال قتادة في قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ يقول: الذي أخرج هذه النار من الشجر قادر على أن يبعثه، وقيل المراد بذلك شجر المَرْخ والعفار، ينبت في أرض الحجاز، فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد، فيأخذ منه عودين أخضرين، فيقدح أحدهما بالآخر، فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء، وروي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفي المثل: لكل شجر نار، واستمجد المرخ والعفار، وقال الحكماء: في كل شجر نار إلا الغاب. [تفسير القرآن العظيم ٣ / ٥٨٢].

الدليل الثالث: أن الله تعالى خلق السموات والأرض، وهما أشد خلقًا، فلن يعجز عن إعادة الإنسان الضعيف: قال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾.

من أشد خلقًا؟ الإنسان أم السماء؟ ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، والجواب: السماء أشد خلقًا، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، فإذا كانت السماء أشد خلقًا، والله ﴿بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧- ٣٣]، فكيف يعجز عن إعادة الإنسان؟! قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

قال جل شأنه: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ قادر سبحانه وتعالى، ﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ صيغة مبالغة في الخلق، فإنه متكرر ومتجدد، كما قال سبحانه: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، وهو سبحانه ﴿الْعَلِيمُ﴾ قدرة مع علم، لا يعجز متصف بهما عن إعادة الموتى بعد موتهم. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

ثم نزه الله تعالى نفسه عما وصفه به المشركون من العجز عن إحياء الموتى، فقال سبحانه: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ومادام الملك كله بيده، وهو المتصرف فيه، فلن يعجز عن إعادة الموتى بعد موتهم، ولذلك قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لتُجزى كل نفس بما كسبت، وتوفى كل نفس ما عملت.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ». [البخاري ٣٤٣٥].

ونحن نشهد أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، ونشهد أن الْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ، وأن البعث حق، ونرجو بهذه الشهادة أن يدخلنا ربنا الجنة على ما كان منا من ضعف وتقصير في العمل.

وهكذا نكون قد انتهينا من تفسير هذه السورة العظيمة من كتاب ربنا تبارك وتعالى، ونكمل في العدد القادم إن شاء الله وقدر، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وسلم.

سورة الصافات

الحلقة الأولى

قال تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلاَ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١-١٠].

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

نائب الرئيس العام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله الصادق الوعد الأمين، أما بعد:

فإن سورة الصافات سورة مكية، شانها شان السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة، وبيان أصول الدين، وأركان الإيمان، وأهمها الأصول الثلاثة: التوحيد، والنبوة، والبعث بعد الموت. وهي مع ذلك قد اشتملت على طرف من قصص الأنبياء والمرسلين.

وجوب تسوية الصفوف في الصلاة

يقول الله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ الواو واو القسم، يُقسم ربنا سبحانه وتعالى بالصافات الزاجرات التاليات ذكرًا، والصافات ملائكة تَصُفّ عند ربها صفًا، كما قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥]، وقد خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ فَرَآهُمْ حِلَقًا، فَقَالَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ؟! أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا. فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُولَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ» [مسلم:٤٣٠].

فيجب علينا أن نُعْنَى بتسوية الصفوف إذا قمنا إلى الصلاة؛ لأن النبي ﷺ شبَّهنا بالملائكة، فقال: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلاَثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلاَئِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ» [مسلم:٥٢٢]، والملائكة وصفهم الله بأنهم صافات، والعناية بتسوية الصفوف؛ أن نُتِمَّ الصف الأول فالأول، وأن نتراص في الصفوف؛ فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة، كما قال ﷺ. [متفق عليه واللفظ لمسلم].

من أعمال الملائكة إنزال المطر والنزول بالذكر

﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ الملائكة تزجر السحاب ليجتمع فيثقل؛ فيخرج منه المطر بإذن الله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: ٤٣]، وقد وكل الله تبارك وتعالى بالسحاب ملائكة تزجره وتسوقه إذا أراد الله تعالى أن يغيث عباده.

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ الذكر هو القرآن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، والله سبحانه وتعالى وكل بالذكر ملائكة تتنزل به على رسله، فهم يتلون الذكر على رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

لا تحلفوا إلا بالله، فمن حلف بغير الله فقد كفر

وهكذا أقسم الله تبارك وتعالى بالملائكة، وهم خلق من خلقه، ولله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، أما المخلوق فليس له أن يقسم إلا بالله الخالق؛ لأن القسم فيه معنى التعظيم، ولا يجوز التعظيم المطلق إلا لله العلي العظيم، ولذلك عظّم النبي ﷺ أمر الحلف بغير الله؛ فقال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» [أبو داود ٣٢٥١]، فلا تحلفوا بآبائكم ولا أبنائكم ولا أمهاتكم، ولا تحلفوا بالأنبياء ولا بالأولياء، وإذا حلفتم فاحلفوا بالله عز وجل.

دلائل التوحيد

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾، وهذا قسم متكرر من الله تعالى، والقسم إنما يراد به توكيد الخبر، وقول الله -بلا قسم- هو الحق، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء: ١٢٣]، فإذا أقسم فإنما هو لزيادة توكيد الخبر وتحقيقه.

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾، هذا هو جواب القسم، وذلك أن المشركين كانوا ينكرون أن يكون الإله واحداً، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، فأقسم الله تعالى على وحدانيته، فقال: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾، ثم ذكّرهم بدليل وحدانيته في الألوهية وهو وحدانيته في الربوبية؛ لأنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، منكرين لتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾، والدليل أنه ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾، وأنتم مقرون بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال جل وعلا: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فكانوا مقرين بأن الخالق واحد، فألزمهم الله تعالى بهذا الإقرار بتوحيد الربوبية أن يقروا بتوحيد الألوهية.

والقرآن الكريم مملوء من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له. ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية، ويبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم أن لا يُعبد إلا الله، فيجعل الأول دليلاً على الثاني؛ إذ كانوا يسلمون في الأول وينازعون في الثاني، فيبين لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحده، وأنه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم، ويدفع عنهم ما يضرهم، لا شريك له في ذلك، فلم تعبدون غيره، وتجعلون معه آلهة أخرى؟ كقوله تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٥٩-٦٠]، يقول الله في آخر كل آية ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ أي أإله مع الله فعل ذلك؟

وهذا استفهام إنكار يتضمن نفي ذلك، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله، فاحتج عليهم بذلك، وليس المعنى أنه استفهام هل مع الله إله، كما ظنه بعضهم؛ لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى، كما قال تعالى:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٩]، وكانوا يقولون: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، لكنهم ما كانوا يقولون: إن معه إلهًا ﴿جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١]، بل هم مقرُّون بأن الله وحده فعل هذا، وهكذا سائر الآيات. وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وكذلك قوله في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦]، وأمثال ذلك. [شرح الطحاوية ١/٨٤].

ما هي المشارق والمغارب؟

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾، المشارق جمع مشرق، والمراد بها مشارق الشمس في عدد أيام السنة، وقد جاء ذكر المشرق والمغرب مفردين، قال الله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ [المزمل: ٩]، وجاءا مثنيين، قال الله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، وجاءا مجموعين، قال تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠].

فالمشرق معروف، والمغرب معروف، هذا الشرق وهذا الغرب، والمشرقان والمغربان في الصيف والشتاء، فللشمس مشرق في الصيف ومشرق في الشتاء، ولها مغرب في الصيف، ومغرب في الشتاء، والمشارق والمغارب باعتبار منازل الشمس كل يوم في الشروق والغروب؛ لأن الشمس كل يوم لها منزل تنزله، لا تعود إليه إلى مثله من العام القادم.

وهذا الترتيب في إثبات توحيد الألوهية هو كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٣-١٦٤]؛ فترتيب آيتي البقرة كترتيب آيتي الصافات ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾.

ف ﴿رَبُّ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ هو ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾.

وظائف الكواكب والنجوم

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ الدنيا مؤنث الأدنى، والأدنى بمعنى الأقرب، والله سبحانه خلق سبع سموات طباقًا، فزيَّن السماء الدنيا القريبة منا، زينها للنَّاظرين، فالزينة والجمال والحسن شيء مقصود، قصده الله تبارك وتعالى في خلقه، فقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ [الكهف: ٧]، وأمرنا بالتزين، فقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩].

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ﴾ هي ﴿الْكَوَاكِبِ﴾. انظر إلى السماء، وتأمل جمال الكواكب وحسنها، وتأمل السماء بلا كواكب كيف تكون؟ تأمل السماء ترى الكواكب فيها كالعقد المنظوم في صدر المرأة وعنقها، يزيدها حسنًا وبهاء وجمالاً.

﴿وَحِفْظًا﴾ أي: وحفظنا بهذه الكواكب السماء حفظًا، ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ والمارد: العاتي الشديد، الذي تمرد على ربه وعصاه.

الله تبارك وتعالى خلق الكواكب لثلاث فوائد

الأولى: زينة للسماء. والثانية: حفظ لها. والثالثة نص عليها في قوله: ﴿وَبِالنَّجْمِ

هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]، فهذه وظائف الكواكب الثلاثة: زينة للسماء، وحفظ لها من كل شيطان مارد، وعلامات يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر، فمن يتأول منها غير ذلك، فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. كما قال قتادة، رحمه الله. [جامع البيان(٤ / ٢٩)].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وكقوله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر: ٤٦-٤٧].

كيف يخبر الكاهن ببعض الغيبيات؟

لقد حفظ الله تعالى السماء بالكواكب والنجوم من كل شيطان مارد، حتى إنهم ﴿لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَى﴾، وإذا استرقوا السمع ﴿يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ أي طردًا وإبعادًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنَّ نَبيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتْ الْمَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ فَإِذَا ﴿فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا﴾ لِلَّذِي قَالَ ﴿الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ- وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ- فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ؛ فَيُقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنْ السَّمَاءِ». [البخاري ٤٨٠٠].

فلما بعث النبي ﷺ زيدت الحراسة في السماء، فكان الشيطان إذا أراد أن يسترق السمع أتبعه الشهاب الثاقب فيحرقه، فلا يتمكن من استراق السمع، فشكوا ذلك إلى إبليس، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيلَ بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء. فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذي حال بينهم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ، وهو بنخلة عامدًا إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا -والله- الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم منذرين. [البخاري ٤٩٢١]، ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠-٣٢]، ثم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٨-٩].

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: إذا أرادوا أن يسترقوا السمع رُموا بالشهاب الثاقب في الدنيا، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، يعني في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي دائم.

تغيير النبي ﷺ اسم شهاب

﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: الشهاب هو الشعلة من النار الموقدة، ولذلك كره النبي ﷺ اسم شهاب، ولما جاءه رجل سأله عن اسمه، قال: شهاب، فغيَّر اسمه، وقال: «بَلْ أَنْتَ هِشَامٌ» [البخاري في الأدب المفرد ٨٢٥ وحسنه الألباني]، فتحسين الأسماء مطلوب؛ لأن لكل مسمًى نصيبًا من اسمه، فمن حق ابنك عليك أن تُحسن اسمه، ولا بد قبل أن تسميه أن تعرف معنى الاسم الذي تريد أن تسميه به؛ لأن لابنك نصيبًا من هذا المعنى.

ونواصل في العدد القادم إن شاء الله وقدر، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله أجمعين.

صُوَى الإسلام

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

الحمد لله رب العالمين سبحانه وتعالى له الحمد الحسن والثناء الجميل، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ للإسلامِ صُوىً ومنارًا كمَنارِ الطَّريقِ، منْها أنْ تُؤْمنَ باللهِ ولاَ تُشْركَ بهِ شَيْئًا، وَإقَامُ الصَّلاَةِ، وَإيتَاءُ الزكاة، وصَوْمُ رَمَضَان، وحجُّ الْبَيْتِ، والأمرُ بالْمعْرُوفِ، والنَّهْيُ عَنِ الْمنْكَرِ، وأنْ تُسلِّمَ عَلَى أهْلكَ إذَا دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ، وأنْ تُسَلِّمَ عَلَى الْقَوْمِ إذَا مَرَرْتَ بِهِمْ، فَمَنْ تَرَكَ مِنْ ذَلكَ شَيْئًا فَقَد تَرَكَ سَهْمًا مِنَ الإسْلاَمِ، وَمَنْ تَرَكَهُنَّ كلَّهن فَقَدْ ولَّى الإسْلاَمَ ظَهْرَه» [السلسلة الصحيحة للألباني ٣٣٣].

الإسلامُ هو الدِّين الذى رضيه اللهُ لعباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وهو دينُ الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس ٧١-٧٢].

فهذا نوحٌ أوّلُ رسولٍ بعثه اللهُ إلى أهل الأرض، يُعلنُها صريحةً ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٨].

وهذا هو إبراهيمُ عليه السلام أبو الأنبياء وابنُه إسماعيل يعلنانها أيضًا صريحةً ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ ويسألان اللهَ أن يُبقِيَ الإسلامَ في ذريتهما ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾، ولذلك وصّى به إبراهيمُ بنيه ليبقى فيهم، قال تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس: ٨٤-٨٥]. وهكذا حققوا الشرط وهو الإسلام.

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

فلما بعث الله محمدًا ﷺ أمره أيضًا أن يعلنها صريحة: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦].

وهكذا اتفقت كلمةُ الأنبياء جميعًا من لدن نوحٍ إلى محمدٍ ﷺ على الإسلام لله رب العالمين.

وللإسلام حقيقة، وحقيقته قولٌ وعمل، والمراد بالعمل: عملُ القلب: كالمحبة، والإنابة، والرغبة والرهبة، وعملُ الجوارح الظاهرة، ويشمل القولُ كُلَّ طيِّبٍ من القول، ويشمل العملُ كلَّ صالح من العمل.

وقد ذكر النبيُّ ﷺ في الحديث جملةً من الأقوال والأعمال وجعلها أمارات الإسلام ودلائله، فقال ﷺ: «إن للإسلام صُوًى ومنارًا كمنار الطريق» والصُّوَى جمعُ صُوَة، وهي حجارةٌ تُنصب في الصحراء، يُستدل بها على طرقها ومعالمها. [لسان العرب ١٤ / ٤٧١].

فأراد ﷺ بهذا القول أن للإسلام أيضًا دلائل وأمارات تدل عليه، وأنها مجموع هذه التسع، فمن جمعها كلَّها فقد دخل في السِّلم كافة، ومن ترك منها شيئًا فقد ترك سهمًا من الإسلام، ومن تركهنَّ كلَّهن؛ فقد أدبر وتولى عن الإسلام.

أولها: «أن تؤمن بالله ولا تشرك به»:

وقد حلَّت هذه الجملةُ محلَّ: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، والمعنى أن يعتقد قلبُك، وينطق لسانك بهذه الكلمة الطيبة: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فإنَّها أولُ واجب على المكلَّف، وبها يدخلُ العبدُ في الإسلام، فهي مفتاح الإسلام ومفتاح دار السلام، وهي أول دعوة الرسل، وأول منازل السالكين، «وهي أصل الدين وأساسه، ورأس أمره وساق شجرته، وعمود فسطاطه، وبقية أركان الدين وفرائضه متشعبة منها، مكملات لها، مقيّدة بالتزام معناها والعمل بمقتضاها» [معارج القبول ١ / ٣٠٢].

وبها تُفتح أبواب الجنة، كما في الحديث عن النبي ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، فُتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء». [مسلم ٢٣٤].

وبها يُحرَّم العبدُ على النار، كما قال ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله حرّم الله عليه النار» [مسلم ٢٩]. وإن دخل النارَ بذنوبه أخرجتْه منها يومًا ما، كما في حديث الشفاعة: أنَّ النبيَّ ﷺ يقول: «يا رب ائذن لي فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول الله سبحانه: لا، هذه ليست لك، ولكن وعظمتي وجبريائي، وعزّتي وكبريائي لأخرجنّ منها من قال لا إله إلا الله» [متفق عليه].

والثاني: «إقام الصلاة»:

وإنما ثنَّى بها؛ لأنَّها أوَّلُ ما فُرض من الفرائض، فرضَها اللهُ تعالى مخاطبةً منه لنبيِّه ﷺ ليلةَ المعراج، وهي عمودُ الدين، كما قال ﷺ: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد» [ابن ماجه ٣٩٧٣ وصححه الألباني].

ولقد أمر اللهُ تعالى بالمحافظة عليها فقال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ومدح سبحانه المحافظين عليها فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩-١١].

وذم الساهين عنها والغافلين فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤- ٥]. وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

ولقد كان النبيُّ ﷺ يُرغِّب في الصلاة ببيان فضلها، فكان يقول «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات لما

بينهن إذا اجتنبت الكبائر» [مسلم ٢٣٣]، ويقول: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهنّ الخطايا» [متفق عليه]، ويقول ﷺ: «إن أول ما يُحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر» [الترمذي ٤١٣].

والمراد بإقام الصلاة: إسباغُ وضوئها، والحرصُ على أوّل وقتها، وشهودُ الجماعة فيها، والطمأنينةُ في ركوعها وسجودها، والخشوعُ.

ويجمع هذه المعاني كلَّها قولُ النبيِّ ﷺ: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاةٌ مكتوبة، فيحسن وضوءَها، وخُشُوعَها، وركُوعَها، إلا كانت كفارةً لما قبلها من الذنوب، ما لم تؤت كبيرة، وذلك الدهر كله» [مسلم ٢٢٨].

والثالث: إيتاء الزكاة:

وهي اسمٌ لهذا الجزء من المال الذى يُعطيه الأغنياءُ الفقراء، وسُمِّيَتْ بذلك لأنها تُنمّي المالَ وتزيده، وتُطهِّر النفسَ من البُخل والشُّح، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة ١٠٣]. وهي ركن من أركان الإسلام، وفريضةٌ من فرائضه: عن ابن عمر رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت» [متفق عليه].

وقد حثَّ اللهُ ورسولُهُ على إيتائها، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٦]. وقال ﷺ: «من تصدَّق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوّه، حتى تكون مثل الجبل» [متفق عليه].

وحذّر اللهُ ورسولُه مِنْ مَنع الزكاة، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقال ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته؛ مُثِّلَ له يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان، يُطوَّقُهُ يَوْمَ القيامة، يأخذ بلهْزِمتيه - أي شدقيه- ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك» [البخاري ١٤٠٣].

والزكاةُ واجبةٌ على كل مسلم، حرٍّ، مالك للنصاب، إذا حال الحولُ على ما يملك من المال، سوى الزروع، فإنها تجب فيه يوم حصاده إذا بلغ النصاب، لقوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

والرابع: صوم رمضان:

وهو واجب بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة ١٨٣]، وهو من أركان الإسلام كما سبق في حديث ابن عمر. وأجمعت الأمةُ على وجوب صوم رمضان، وأنه أحدُ أركان الإسلام المعلومة من الدِّين بالضرورة، وأن منكره كافر، مرتدّ عن الإسلام.

وإنما يجب الصوم على كل مسلم، بالغ، عاقل، صحيح، مقيم، ويشترط أن تكون المرأة طاهرة من الحيض والنفاس.

والصوم فضله عظيم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي» [مسلم ١١٥١].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ في الجنة بابًا يُقال له الريّان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يُقال أين الصائمون؟ فيقومون، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق، فلم يدخل منه أحد» [متفق عليه].

والخامس: الحج:

وهو قصدُ البيت الحرام لأداء المناسك، وهو واجبٌ في العمر مرةً واحدة، على كل مسلم، بالغ، عاقل، حرّ، مستطيع، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران: ٦٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطب النبي ﷺ فقال: «يا أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا» [مسلم ١٣٣٧].

والاستطاعة التي يجب بها الحجُّ تتحقَّقُ بالصِّحة، وملْكُ ما يكفيه لذهابه وإيابه، فاضلاً عن حاجته وحاجة من تلزمه نفقته، وبأمن الطريق.

أما اشتراط الصحة: فلحديث ابن عباس رضي الله عنهم: «أنَّ امرأةً من خثعم قالت: يا رسول الله: إنَّ أبي أدركته فريضةُ الله في الحج شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «حجي عنه» [متفق عليه].

وأما ملْكُ ما يكفيه فلقول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]. وأما اشتراط أن يكون ما يملكه فاضلاً عن حاجته وحاجة من تلزمه نفقته، فلقول النبيّ ﷺ: «كفى بالمرء إثمًا أن يضيّع من يقوت» [أبو داود ١٦٩٤ وحسنه الألباني].

وأما اشتراط أمن الطريق فلأنَّ إيجابَ الحج مع عدم الأمن ضرر، والضرر منفيٌ شرعًا، قال تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

ويُزاد في حقِّ المرأة اشتراطُ المحرم الذى يسافر معها؛ لقوله ﷺ: «لا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم» [متفق عليه].

فمتى تحقَّقت الاستطاعةُ وجب التعجيلُ بالحجّ.

ولقد كان ﷺ يرغّب في الحجِّ ببيان فضله، فيقول: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[متفق عليه]. ويقول ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإنهما ينفيان الذنوب والفقر كما ينفي الكيرُ خبث الحديد والذهب والفضة، وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة» [الترمذي ٨١٠ وصححه الألباني].

ويقول ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق؛ رجع كيوم ولدته أمه» [متفق عليه].

السادس والسابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وهما الميزان الذى تُرفع به الأمم أو توضع، فقد وُضع بنو إسرائيل بعد رفعتهم، وأُهينوا بعد كرامتهم، وأُذلّوا بعد عزّتهم، بتركهم الأمر بالمعروف والنَّهيَ عن المنكر، قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

والأمرُ بالمعروف والنَّهيُ عن المنكر دليلُ الإيمان، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف عنوانُ النفاق والطغيان، قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٧ - ٦٨]. وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أسباب النجاة في الدنيا إذا هلك الناس، وتركُهما من أسباب الهلاك مع الهالكين: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤ - ١٦٥].

وقال النبيُّ ﷺ: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فكان بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا

جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا» [البخاري ٢٤٩٣].

فوجب على كل من رأى واجبًا متروكًا أن يأمر به، وعلى كل من رأى منكرًا أن ينهى عنه؛ لقوله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا؛ فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» [مسلم ٤٩].

والتَّغييرُ باليد يكون من كلِّ ذي سلطان في سلطانه، كالرجل في بيته، وكلِّ من وَلي ولايةً؛ فهو سلطانٌ فيها، فإذا رأى منكرًا لا يُزال إلا باليد أزاله بيده، أما غيرُ ذي السلطان: كأن يرى الرجلُ في الشارع منكرًا فليس له أن يغيِّره بيده، إلا إذا كان مفوضًا من السلطان؛ لأنَّ تغيير المنكر باليد في الشارع اليوم يؤدّي إلى مفاسد ومضارَّ كثيرة، والشريعةُ إنما جاءت بجلب المنافع ودفع المضار، ولذلك كان من القواعد الأصولية المتفق عليها: «درء المفاسد مقدّم على جلب المصالح»؛ وذلك لقوله ﷺ لعائشة: «لولا أنَّ قومك حديثو عهدٍ بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض، وجعلت لها بابين: بابًا شرقيًا يدخل الناسُ منه، وبابًا غربيًا يخرجون منه، وزدتُ فيها سبعة أذرع من الحجر، فإنَّ قريشًا اقتصرتها حيث بنت الكعبة» [متفق عليه].

فهذا رسولُ الله ﷺ - وهو مَنْ هو - يعلم أنَّ الكعبة لم تُبنْ على قواعد إبراهيم، لقلَّة مال قريش وقتَ البناء، وأنَّ بابًا واحدًا لا يكفي الناس، ولا يتمكّنون من الدخول مع ارتفاعه، فهو يرى أنَّ الأفضلَ والأرفقَ بالناس أنْ يُدْخلَ الحجْر في الكعبة، وأنْ يُلزقها بالأرض، ويجعل لها بابين، بابًا يدخلون منه، وبابًا يخرجون منه، ومع كلِّ هذه المصالح خاف أن ينفر قلب من كانوا حديثو عهدٍ بشرك من هذا الفعل، فترك كل هذه المصالح من أجل ما خافه من هذه المفسدة.

فعلى الشباب أنْ يعلموا أنَّ من الخطأ الكبير تغيير المنكر باليد من غير ذي سلطان، وفي الأمر سَعَةٌ والحمد لله، فقد جعلَ ﷺ لتغيير المنكر مرتبتيْن بعد هذه، فقال: «فإن لم يستطع فبلسانه» شريطةَ أن يقول قولاً لينًا، برفق وهدوء، لا يسبُّ ولا يشتمُ، ولا يعنِّف ولا يقبِّح؛ لأنَّ الله تعالى قال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٣- ٤٤].

«فإن لم يستطع» لخوفه من الكلام أن يفضي إلى مفسدة أيضًا فقد وسَّع اللهُ عليه، ورَضِيَ منه أن يغيّر المنكر «بقلبه»، بأن يُشهد اللهَ من قلبه كراهيتَه لهذا المنكر وأهله، وتمنيَه زوالَه وهدايةَ فاعله.

الثامن والتاسع: إفشاء السلام داخل البيت وخارجه:

فإذا دخلْتَ بيتَك فسلّم عليهم، فالسلام اسمٌ من أسماء الله، وبذكر الله تحلُّ الرحمةُ والبركةُ، ويعمُّ الخير، وتهربُ الشياطين من البيت، كما قال النبي ﷺ: «إذا دخل الرجلُ بيتَه، فذكر اللهَ تعالى عندَ دخوله وعندَ طعامه، قال الشيطانُ لأصحابه: لا مبيتَ لكم ولا عشاء، وإذا دخل الرجلُ فلم يذكر الله عند دخوله؛ قال الشيطان: أدركتُم المبيت، وإذا لم يذكر اللهَ عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء» [أبو داود ٣٧٦٧ وصححه الألباني].

وإذا مرَّ الرجلُ بالقوم فليسلِّم عليهم، فإنَّ إفشاء السلام من منارات الإسلام وأماراته، وقد قال النبيُّ ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أوَ لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» [مسلم ٥٤].

هذه هي صُوى الإسلام ومناراته، فمن ترك منها شيئًا فقد ترك سهمًا من الإسلام، ومن تركهنَّ كلَّهنَّ فقد ولّى الإسلام ظهره.

فاحرصوا - رحمكم الله - على جمعها كلها، وأن تكونوا من أهلها، ولا تضيِّعوا منها شيئًا فينقص من إسلامكم بقدر ما تتركون منها، فإنَّ الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

نسأل الله تعالى أن يزيدنا هدًى وتقًى، وإيمانًا وإحسانًا، وأن يربط على قلوبنا ويثبّت أقدامنا، اللهم يا وليَّ الإسلام وأهله مسّكنا بالإسلام حتى نلقاك. آمين. والحمد لله رب العالمين.

ملف العدد

لبيك اللهم لبيك

- فضائل البيت الحرام وبركاته
- دروس تربوية من فريضة الحج
- سنن الحج
- أخطاء يقع فيها الحجيج
- كيف حج رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
- كيف يؤدي الحاج مناسك الحج والعمرة ؟
- المرأة في الحج

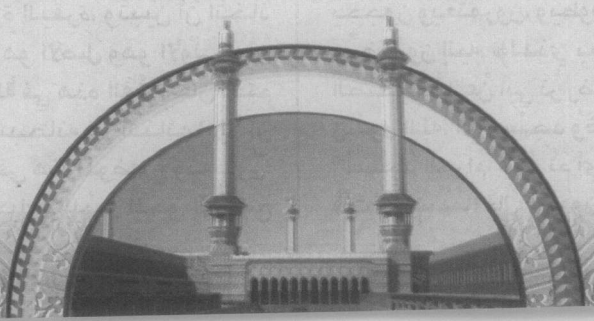

فضائل البيت الحرام وبركاته

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

الشبهات التي أثارها اليهود حول القبلة

لقد كان اليهودُ يتصيَّدُونَ كلَّ شُبْهة، وكلَّ حيلة، ليَنْفُذُوا منها إلى الطَّعْنِ في صحَّة الرِّسالة المُحمَّديَّة، وإلى بَلْبَلَة الأفكار وإشاعة الاضطراب في العقول والقلوب.

وكان ممَّا أثاروه منَ الشُّبَه ما يتعلَّقُ بتَحْويل القِبْلَة إلى الكعبة، بعدَ أنْ صَلَّى رسولُ الله ﷺ إلى بيْتِ المقدس سِتَّةَ عشرَ أوْ سَبْعةَ عشرَ شهرًا بعدَ الهجرة. وهذا الموضوع قد بينه الله تعالى بيانًا شافيًا في سورة البقرة، وتَبيَّنَ أنَّ اتِّخاذَ الكَعْبة قِبْلةً للمسلمينَ هو الأصلُ وهو الأوْلى، وأنَّ اتِّخاذَ بيْت المقدس قِبْلةً في هذه الفَتْرة كان لحكَمٍ مُعَيَّنة بيَّنَها الله سبحانه في أثنائها، إلاَّ أنَّ اليهودَ ظلُّوا يُبْدئونَ في هذا الموضوع ويُعيدُونَ؛ ابتغاءَ البَلْبَلَة والتَّشكيك واللَّبْس للحقِّ الواضح الصَّريح، على مثال ما يَصْنَعُ اليومَ أعداءُ هذا الدِّينِ بكلِّ ما يتعلق بهذا الدِّين.

الردُّ عليهم

وقد ردَّ اللهُ تعالى عليهم، وأبطلَ شُبْهتَهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧].

قالوا: إنَّ بيتَ المقدس أفضلُ من الكعبة، وأحقُّ بالاستقبال؛ وذلك لأنَّهُ وُضِعَ قبلَ الكعبة، وهو أرضُ المحشر، قبلةُ جملة الأنبياء، وإذا كان كذلك كانَ تَحْويلُ القِبْلَة منه إلى الكعبة باطلاً، فأجابَ اللهُ تعالى عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾، فبيَّنَ الله تعالى أنَّ الكعبةَ أفضلُ منْ بَيْتِ المقْدس وأشْرَفُ، فكان جَعْلُها قِبْلَةً أوْلَى. [مفاتيح الغيب ٨/ ١٥٥].

ومعنى الآية أنَّ أوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَهُ اللهُ تعالى للنَّاس كَافَّة، ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥]، يَحُجُّونَ ويَعْتَمِرُونَ، ويَطُوفُونَ به، ويَعْتَكِفُون فيه، ويُصَلُّون إليه، ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ أي مَكَّةَ، كَمَا في الصَّحيحَيْنِ عَنْ أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله، أَيُّ مَسْجِد وُضِعَ في الأَرْض أَوَّلُ؟ قَالَ: [الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الأَقْصَى، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً]. [متفق عليه].

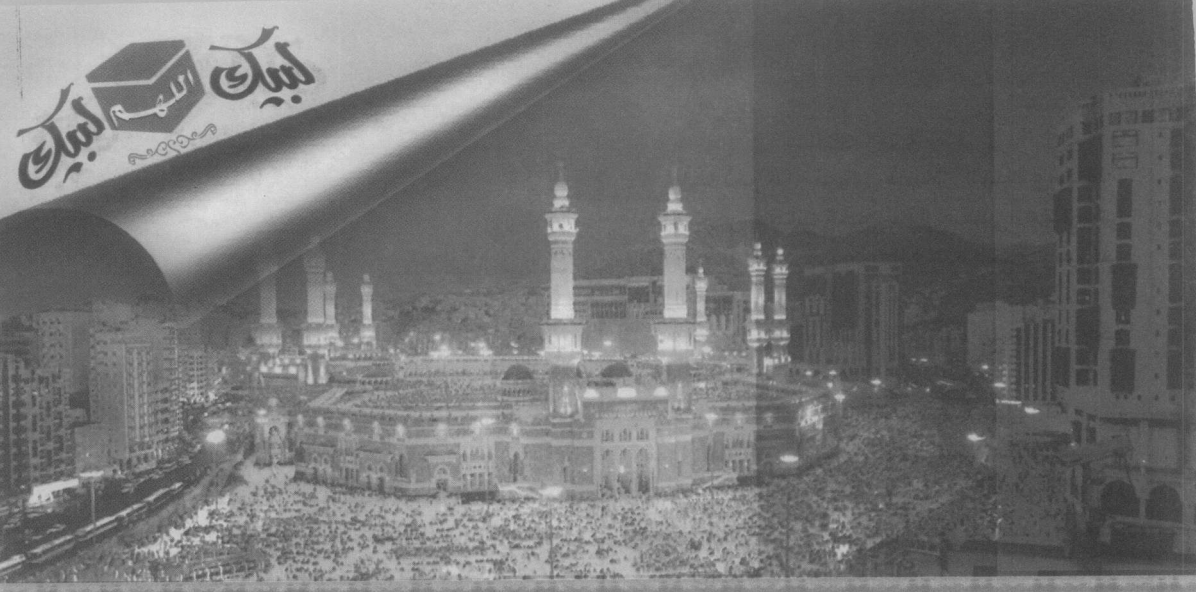

ثُمَّ ذكرَ اللهُ تعالى بَعْضَ فَضَائِلِ هذا البَيْتِ، فقال: ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾:

بركات البيت

وبركةُ البَيْتِ نَوْعَانِ: حِسِّيَّةٌ ومَعْنَوِيَّةٌ.

فأمَّا الحِسِّيَّةُ فمنها: ما ذكرَهُ اللهُ تعالى في قوله: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]. وكانت هذه البركةُ بِبَرَكةِ دُعاءِ الخليلِ إبراهيمَ عليه السلام حيثُ قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وكلُّ مَنْ زَارَ ذلكَ البَيْتَ شَاهدَ هذه البَرَكةَ، فالأقْوَاتُ والثِّمَارُ فيه أكثرُ وأجْوَدُ وأقلُّ ثَمَنًا مِنْ كثيرٍ مِنَ البلادِ التي تُجْبَى مِنْها.

وأمَّا البَرَكةُ المَعْنَويَّةُ فهي ما يَحْصُلُ مِنَ الأجْرِ الكثيرِ والثَّوابِ العظيمِ لمن حجَّهُ واعْتَمرَهُ، وطافَ به، واعْتَكَفَ فيه، وصلَّى، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الْجَنَّةُ]. [متفق عليه].

وعَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: [مَنْ حَجَّ للهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ]. [متفق عليه].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: [تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ؛ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ]. [الترمذي ٨١٠ وصححه الألباني].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: [مَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ لَمْ يَرْفَعْ قَدَمًا وَلَمْ يَضَعْ أُخْرَى إِلاَّ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِهَا حَسَنَةً، وَحَطَّ عَنْهُ خَطِيئَةً، وَرَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً]. [صحيح ابن خزيمة ٢٧٥٣ وصححه الألباني].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْحَجَرِ: [وَاللهِ لَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، يَشْهَدُ عَلَى مَنِ اسْتَلَمَهُ بِحَقٍّ]. [الترمذي ٩٦١ وصححه الألباني].

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: [صَلاَةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلاَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلاَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ فِيمَا سِوَاهُ]. [ابن ماجه ١٤٠٦ وصححه الألباني].

وأمَّا كونُهُ ﴿هُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ فقيلَ: المعنى أنَّهُ قِبْلَةٌ للعالمينَ يَهْتَدُونَ بِهِ إلى جِهَةِ صَلاتِهم. وقيل: ﴿هُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ أي دلالةٌ على وجودِ الخالقِ جل جلاله، وصدقِ محمدٍ ﷺ في النُّبُوَّةِ. وقيل: ﴿هُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ إلى الجَنَّةِ؛ لأنَّ مَنْ أدَّى الصلواتِ الواجبةَ إليها استوجبَ الجَنَّةَ. [مفاتيح الغيب بتصرف ٨ / ١٦٣].

الآيات البينات في البيت الحرام

ومنْ فضائلِ البَيْتِ: كونُهُ ﴿فيه آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي دلالاتٌ واضحاتٌ على حُرْمَته وفَريد فَضْله، منهنَّ ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾:

قال ابنُ عَطيَّة-رحمه الله-: جَعَلَ المَقَامَ وأَمْنَ الدَّاخل مِثَالاً ممَّا في الحَرَم منَ الآيات، وخَصَّا بالذِّكر لعَظَمهما، وأَنَّهُمَا تقومُ بهما الحُجَّةُ على الكفار؛ إذْ هم مُدْرِكونَ لهاتيْنِ الآيتَيْنِ بحَواسِّهم، وذلك أَمْرٌ لمْ تَخْتَلفْ كَافَّةُ العَرَب في نَقْله وصحَّته إلى أَنْ أنزلَهُ اللهُ في كتابه.

ومنْ آياته: كَفُّ الجَبَابِرَة عنهُ على وَجْه الدَّهر.

ومنها: الحَجَرُ الأَسْوَدُ الذي نزلَ منَ الجَنَّة، وما أُشْرِبَتْ قلوبُ العالمِ منْ تَعْظيمه قبلَ الإسلام.

ومن آياته: حَجَرُ المقام، وذلك أَنَّهُ قامَ عليه إبراهيمَ عليه السلام وقْتَ رَفْعه القواعدَ من البيت، لَمَّا طالَ البناءُ، فكُلَّمَا علا الجدارُ ارتفعَ الحجرُ به في الهواء، فما زال يبني وهو قائمٌ عليه وإسماعيلُ يناوله الحجارةَ والطينَ حتى أكملَ الجدارَ، ثُمَّ إنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أرادَ إبقاءَ ذلك آيةً للعالمين لَيَّنَ الحجرَ فَغَرِقَتْ فيه قَدَما إبراهيمَ عليه السلام كأَنَّها في الطِّين، فذلك الأثرُ العظيمُ باقٍ في الحَجَرِ إلى اليوم.

ومن آياته البيِّنات: زَمْزَمُ، أنبعَهَا لهاجرَ بهمزِ جبريلَ عليه السلام الأرضَ بعقبه. ومنها: نفعُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ له، وأَنَّهُ يَعْظُمُ ماؤُهَا في الموسم، ويكثرُ كثرةً خارقةً للعادة في الآبار.

ومنها: الأَمَنَةُ الثَّابتةُ فيه على قَديم الدَّهر، وأَنَّ العربَ كانتْ تُغيرُ بعضُهَا على بعضٍ، ويُتَخطَّفُ النَّاسُ بالقتل وأَخْذ الأموال وأنواعِ الظُّلم إلاَّ في الحرم، وتركَّبَ على هذا أَمْنُ الحيوانِ فيه، وسلامةُ الشجرِ، وذلك كلُّهُ للبركة التي خصَّهُ اللهُ بها، والدَّعوة من الخليل عليه السلام في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، وإذعانُ نُفُوسِ العرب وغيرهم قاطبةً لتوقير هذه البُقْعة دونَ ناه، ولا زاجرٍ، آيةٌ عُظْمَى تقومُ به الحُجَّة. [المحرر الوجيز ١ / ٤٧٥ - ٤٧٦].

وجوب حج البيت

ولَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى فضائلَ البَيْتِ ومناقبَهُ، أردفَهُ بذكرِ إيجابِ الحجِّ، فقال تعالى: ﴿لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾:

فالحجُّ فرضٌ واجبٌ، وقدْ عدَّهُ النَّبيُّ ﷺ أحدَ أركانِ الإسلام.

عَنْ عَبْد الله بْن عُمَر رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: [بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْس: شَهَادَة أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلاَة، وَإِيتَاءِ الزَّكَاة، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ]. [متفق عليه].

على من يجب الحج؟

وهو واجبٌ على كلِّ مسلمٍ، بالغٍ، عاقلٍ، حرٍّ، مستطيعٍ.

والاستطاعةُ تتحقَّقُ بالصِّحة وملْكِ مَا يَكْفيه لذَهَابه وإيابه، فاضلاً عن حاجته وحاجةِ مَنْ تلزَمُهُ نفقتُهُ، وبأَمْنِ الطريق. ويشترطُ في حقِّ المرأة أَنْ تجدَ زَوْجًا أَوْ مَحْرمًا يحجُّ معها، فإنْ لم تجدْ فليستْ مستطيعة:

عَنْ عَبْد الله بْن عَبَّاس رضي الله عنهما قَالَ: سَمعْتُ النَّبيَّ ﷺ يَخْطُبُ يَقُولُ: [لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَة إِلاَّ وَمَعَهَا ذُو مَحْرَم، وَلاَ تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلاَّ مَعَ ذِي مَحْرَم، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً، وَإِنِّي اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَة كَذَا وَكَذَا، قَالَ: انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ]. [متفق عليه].

الحج واجب على الفور

ومتى تَحَقَّقت الاستطاعةُ؛ وجبت المُبادَرةُ بالحجِّ في نفس العام، لقوله ﷺ: [مَنْ أَرَادَ الْحَجَّ فَلْيَتَعَجَّلْ، فَإِنَّهُ قَدْ يَمْرَضُ الْمَرِيضُ، وَتَضِلُّ الضَّالَّةُ وَتَعْرِضُ الْحَاجَةُ]. [ابن ماجه ٢٨٨٣ وحسنه الألباني].

والحجُّ يجبُ مرَّةً واحدةً في العُمر:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: [أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ الله؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلاَثًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، ثُمَّ قَالَ: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَة سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ]. [مسلم ١٣٣٧].

ويُستحبُّ التطوُّعُ بالحجِّ، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ولقوله ﷺ: [تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ] [الترمذي ٨١٠ وصححه الألباني].

ويُستحبُّ أنْ لا يغيبَ المسلمُ عن الحجِّ أكثرَ من خَمْسِ سنين؛ لقوله ﷺ: [يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنَّ عَبْدًا أَصْحَحْتُ لَهُ جِسْمَهُ، وَوَسَّعْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَعِيشَةِ، تَمْضِي عَلَيْهِ خَمْسَةُ أَعْوَامٍ لَا يَفِدُ إِلَيَّ لَمَحْرُومٌ]. [أبو يعلى ١٠٦٣١ والبيهقي وغيرهما وصححه الألباني].

التحذير الشديد من التخلف عن الحج

ولمَّا فرضَ اللهُ على النَّاسِ حجَّ البيْتِ خَتَمَ الآيةَ بما يدلُّ على أنَّهُ غَنيٌّ عَنْ خَلْقِه، وأنَّ كُفْرَ مَنْ كَفَرَ منهم لا يَضُرُّهُ شيئًا، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وبيَّنَ هذا المعنى في مواضعَ مُتَعَدِّدَة، منها قولُهُ تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، إلى غيرِ ذلك من الآيات.

فاللهُ تباركَ وتعالى يأمرُ الْخَلْقَ وينْهاهم، لا لأنَّهُ تَضُرُّهُ مَعْصيتُهم وتنفعُهُ طَاعتُهم، بل نَفْعُ طاعتِهم لهم، وضررُ معصيتِهم عليهم، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فيما رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: [.. لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ]. [مسلم ٢٥٧٧].

وقد اختلفَ العلماءُ في المُراد بالكُفْرِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾:

فقال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ وغيرُ واحد: أي: مَنْ جَحَدَ فريضةَ الحجِّ فقد كفر.

وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ المرادَ: ومن لم يَحُجَّ مع الاستطاعةِ فقد كفر، وذلك على سبيلِ التَّغليظِ البالغِ في الزَّجرِ الشديد، كما في قولِه ﷺ: [سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ] [متفق عليه]، وقولِه ﷺ: [لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ] [متفق عليه، وراجع أضواء البيان ١ / ٣٤٤ - ٣٤٥].

وفي هذا الكلامِ أنواعٌ منَ التَّوْكيدِ والتَّشديد:

منها قولُهُ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾، يعني أنَّهُ حقٌ واجبٌ لله في رقابِ النَّاس، لا يَنْفَكُّونَ عَنْ أدائِه والخروجِ منْ عُهْدَتِه.

ومنها: أنَّهُ ذكرَ النَّاسَ ثُمَّ أبدلَ عنه ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وفيه ضربانِ منَ التَّأكيد:

أحدُهما: أنَّ الإبدالَ تثنيةٌ للمرادِ وتكريرٌ لهُ.

والثَّاني: أنَّ الإيضاحَ بعدَ الإبهامِ، والتَّفصيلَ بعدَ الإجمالِ إيرادٌ لهُ في صورتيْنِ مختلفتيْن.

ومنها قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾، مكانَ (ومنْ لمْ يحجّ) تغليظًا على تاركِ الحجِّ.

ومنها: ذكرُ الاستغناءِ عَنْهُ، وذلك ممَّا يدلُّ على المَقْتِ والسَّخَطِ والخُذْلان.

ومنها قوله: ﴿عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ وإنْ لمْ يقلْ عَنْهُ؛ لأنَّهُ إذا استغنى عن العالمين تناولَهُ الاستغناءُ لا محالةَ، ولأنَّهُ يدلُّ على الاستغناءِ الكاملِ فكان أدلَّ على عِظَمِ السَّخَطِ الذي وقعَ عبارةً عنه.

والحمد لله رب العالمين.

سورة الصافات

الحلقة الثانية

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١١ - ٣٧].

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

دلائل إمكان البعث

إن الإيمان باليوم الآخر من أهم أركان الإيمان بعد الإيمان بالله عزَّ وجلَّ، وما جادل المشركون في شيء مما دُعوا إلى الإيمان به كما جادلوا في التوحيد والبعث بعد الموت.

أما التوحيد فقد كانوا ألفوا تعدد الآلهة، فلما قال لهم النبي ﷺ: لا إله إلا الله، قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، ولما قال لهم: إنكم بعد الموت مبعوثون، وإلى الله راجعون، قالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦ -١٧]، وقالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يلفت أنظارهم إلى مظاهر قدرة الله عزَّ وجلَّ، التي تدلهم على أن الله يحيي الموتى، ويبعث من في القبور، فقال تعالى:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يا نبينا أيهم أشد خلقًا؟ ﴿أَهُمْ﴾؟ ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ من السموات والأرض والجبال وغيرها؟ والجواب: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، أفيعجز الذي خلق السموات والأرض والجبال أن ينشئكم مرة أخرى بعد موتكم؟! ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، وهذا دليل من أدلة إمكان البعث، أن الله تعالى خلق السموات وهي أشد خلقًا من الناس، فلن يعجز عن إعادة الناس، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

والدليل الثاني: من نفس الآية: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾، أي: قوي شديد متماسك، يلزق بعضه

ببعض كالغراء، وإذا خلقناهم أول مرة، فكيف نعجز أن نخلقهم مرة ثانية؟ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة:]،أي: فلولا تذكرون فتعلمون أن الذي أنشأكم أول مرة قادر على أن ينشئكم النشأة الأخرى، وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال جلا وعلا: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

فهذان دليلان من أدلة إمكان البعث في آية واحدة.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ انظر إلى الفرق بين النبي ﷺ وبينهم، ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ يا نبينا من قدرة ربك على إحياء الموتى، ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ من قولك: إن الله يحي الموتى.

القول في صفات الله عزّوجلّ

وهناك قراءة بضم التاء، على أنها تاء المتكلم (عَجِبْتُ)، يقول الله تعالى: بل عجبتُ من إنكارهم البعث بعد موتهم، وقد علموا أني خلقتهم، ولذلك بصق النبي ﷺ ذات يوم في يده، ثم قال: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزَنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذَا». [حسنه الألباني في صحيح ابن ماجه ٢١٨٨].

فالله يعجب من إنكار المشركين أنَّه يبعثهم بعد الموت، والعجب صفة من صفات الفعل لله كالفرح والضحك، والرضا والغضب، والنزول والمجيء، ونحو ذلك من صفات الأفعال، والقول فيها وفي صفات الذات: إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، نُثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه في محكم كتابه، أو فيما صح على لسان رسوله ﷺ، من غير تكييف ولا تحريف، ولا تمثيل ولا تعطيل؛ وقوفًا عند قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لاَ يَذْكُرُونَ﴾، إذا ذُكِّروا بآيات الله سبحانه وتعالى الداعية للإيمان، الداعية للإسلام، الداعية للتقوى، لا يذكرون، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] وما هم بمؤمنين.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ من آيات ربهم التي تدلهم على قدرته ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، سحر بيِّن واضح، سبحان الله! جعلوا الحق الواضح سحرًا واضحًا، وشتان ما بين السحر والحق، شتان ما بين الباطل والحق، وهذا هو موقفهم الثابت من آيات الله، كما قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١- ٢]، قال المشركون: «يا محمد! أرنا آية نشهد لك بأنك رسول الله! فسأل الله أن يريهم آية، فَانْشَقَّ الْقَمَرُ فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةً فَوْقَ الْجَبَلِ، وَفِرْقَةً دُونَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اشْهَدُوا، اشْهَدُوا». [متفق عليه].

﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بعد ما نموت؟! ﴿أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾ الذين ماتوا من سنين يبعثون أيضًا؟! قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ يعني إنكم مبعوثون ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾، أي تبعثون يوم القيامة أذلاء صاغرين، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٩٠]، أذلاء صاغرين، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٣]، ذلاً وانكسارًا وهوانًا.

﴿قُلْ نَعَمْ﴾ يبعثكم الله عزَّ وجلَّ حالة كونكم داخرين، أذلاء صاغرين، وهذا كما قال النبي ﷺ لذلك الرجل الذي نزلت فيه الآيات الخواتيم من سورة يس، لما أخذ عظمًا من البطحاء، ففتته بيده، ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي الله هذا بعد ما أرم؟! فقال رسول الله ﷺ: «نعم، يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧- ٧٩]». [رواه الحاكم ٢ / ٤٢٩ وصححه في الصحيح المسند من أسباب النزول: ص١٢٩].

كذلك هذا الجواب من هذه الآية في سورة الصافات ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ والمراد بالزجرة، الصيحة الثانية، والنفخة الثانية، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

أحوال الكافرين يوم البعث

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا﴾ الويل هو الهلاك، قالوا: يا ويلنا احضر فهذا أوانك، دعوا على أنفسهم بالويل والهلاك؛ لعلهم ينجون من العذاب الذي تحققوا أنه

ينتظرهم، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ هذا يوم الحساب، هذا يوم الجزاء، فقالت لهم الملائكة، أو قال لهم أهل العلم من أهل الإيمان: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٥- ٥٦]، وفي سورة يس مضى معنا قول ربنا: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ فأجيبوا ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

أبواب النار

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾:

الحشر معناه الجمع، و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم الكافرون المشركون، كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي أشباههم ونظراءهم، يعني صنّفوهم، احشروا عابد الوثن مع عابد الوثن، وعابد الكواكب مع عابد الكواكب، وعابد الشمس مع عابد الشمس، وعابد القمر مع عابد القمر، وكذلك يُحشر الذين ظلموا أنفسهم من هذه الأمة، أصحاب الخمر مع أصحاب الخمر، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا، وأصحاب الزنا مع أصحاب الزنا، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٣- ٤٤]، فكل باب له صنف معين.

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ حتى الآلهة التي كانوا يعبدونها احشروها معهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لاَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨- ١٠٠]، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ دُلّوهم وأرشدوهم ﴿إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾. وقبل أن تُدخلوهم ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾، حتى يتحقق ما وعدهم به ربهم، حيث قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢- ٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

خذلان أهل النار بعضهم بعضًا

ثم أقبل عليهم وقد اجتمعوا وما كانوا يعبدون من دون الله فقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَنَاصَرُونَ﴾؟ لماذا لا ينصر بعضكم بعضًا، في يوم أنتم فيه أحوج ما تكونون إلى أن ينصر بعضكم بعضًا، فإذا لم ينصر بعضكم بعضًا اليوم فمتى ؟!وهذا لأنهم كانوا يقولون في الدنيا: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ [القمر]، ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ منقادون خاضعون، عرفوا أنه لا ينصرهم أحد من دون الله عزَّ وجلَّ.

تخاصم أهل النار

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ المراد بالبعض الأول الأصاغر التابعون، والمراد بالبعض الثاني الأكابر المتبوعون؛ لأن الظلمة قسمان: أكابر وأصاغر، ومن شأن الأصاغر أنهم يتبعون الأكابر، وهم يظنون أنهم يغنون عنهم من عذاب الله، حتى إذا كان يوم القيامة تبرأ المتبوعون من أتباعهم، وخذلوهم أحوج ما يكونون إليهم، وندم التابعون على اتباعهم، ولن ينفعهم الندم، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

[الشعراء: ٩١- ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لاَ يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤- ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلاَ بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧ - ٤٨]. فلم ينصروهم، ولم ينفعوهم، ولم يدفعوا عنهم عذاب الله. فعندئذ قال الأصاغر للأكابر: ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ كنتم تأتوننا من جهة الدين، من جهة الإيمان، من جهة الخير، وبالقوة تصدوننا عن الدين والخير والإيمان، ﴿قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ هل كنتم مؤمنين ونحن صددناكم عن الدين والخير والإيمان، وما كان لنا عليكم من قوة نتغلب بها عليكم، ولا نغلبكم بها، ولا نقهركم بها على الكفر، ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ﴾ أنتم أنفسكم كنتم مجرمين طاغين ظالمين مستعدين للكفر، رافضين للإيمان، ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ هؤلاء الأكابر يقولون للأصاغر: حقَّ علينا قول ربنا إنا لذائقون يعني العذاب، ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾، قلنا لكم اتبعونا، فتبعتمونا، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾، وهذا كما قال الشيطان الأكبر- لعنه الله- لأتباعه في النار، كما حكى الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم].

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، وفي آية أخرى قال: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف]، الاشتراك في العذاب متى ينفع، ومتى لا ينفع، قالت الخنساء لما مات أخوها، وحزنت عليه حزنًا كبيرًا جدًا:

ولولا كثرة الباكين حولي
على إخوانهم لقتلت نفسي

فتسلَّتْ عن مصيبتها بوجود مصابين غيرها، عندما يُصاب الرجل بمصيبة، وينظر إلى مصابين آخرين تهون عليه مصيبته، فالاشتراك في المصيبة يجعل المصابين يسلّي بعضهم بعضًا، فأهل النار اشتركوا في العذاب، ولكن لن ينفعهم هذا الاشتراك في تخفيف العذاب عنهم.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾، وأي جريمة أكبر من جريمة الشرك؟! ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يستكبرون عن قول لا إله إلا الله. ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ يعنون النبي ﷺ، فبرأه الله مما قالوا، فقال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم]، وقال: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لاَ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة: ٧٥- ٨٠]، فليس محمد ﷺ مجنونًا، ولا شاعرًا، ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وكيف كان مجيء النبي ﷺ تصديقًا للمرسلين، كيف صدق النبيُّ ﷺ الرسل؟ لأن الرسل كلهم بشَّروا بمحمد ﷺ ومجيئه، التوراة بشّرت به، والإنجيل بشّر به، وموسى بشّر به، وعيسى بشّر به، فكان مجيئه تصديقًا لهم، لو لم يبعث محمد ﷺ لكان عدم بعثته طعنًا في الكتب السابقة، وفي الرسل السابقين.

والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الصافات

الحلقة الثانية

قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلاَ نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

[الصافات: ٣٨- ٦٠]

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾:

هذا الخطاب ﴿إِنَّكُمْ﴾ للناس أجمعين، إنكم أيها الناس ﴿لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ﴾ الموجع المهين، وذلك جزاء بما كنتم تعملون، ﴿وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧]، وإنما هو ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، بسبب كفرهم وإصرارهم على الكفر، واستكبارهم عن الإيمان والتوحيد، كما سبق في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥- ٣٦]، فلما استكبروا عن لا إله إلا الله استحقوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ

إعداد:
د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٢-١٧٣]، ولذلك إذا ذاقوا حر النار، واشتد بهم العذاب، اعترفوا بذنوبهم، وسألوا الله ربهم الخروج من النار، وله عليهم العهد والميثاق ليؤمنُنَّ به، وليتبعنَّ رسله، فلم يُجابوا إلى ما سألوا، وأعلموا أن السبب هو كفرهم بالله وشركهم به، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (١١) ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٠-١٢].

كل الناس هلكى إلا المخلصين

ثم استثنى الله سبحانه من هذا العموم، فقال: ﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، وهذا كما قال تعالى في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، وكما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ١-٦].

﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام وبكسرها، والمخلصين أخلصوا لله تبارك وتعالى؛ فاستخلصهم الله لنفسه، فهم مخلِصون ومخلَصون، مخلِصون اسم فاعل من الإخلاص، أخلصوا لله تبارك وتعالى، ومخلَصون اسم مفعول استخلصهم الله لنفسه.

طعام أهل الجنة

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ معلوم لكم، كما قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا (١٥) قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥-١٦]، ومعلوم الوقت، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وليس ثَمَّ ليل ولا نهار، وإنما يقدر الخدم ذلك.

﴿فَوَاكِهُ﴾ بدل من الرزق، بدل الكل من الكل، يعني أن رزقهم كله فواكه، يتفكهون بها ويتلذذون، وليس في رزقهم قوت يقوّم أبدانهم، لأنهم إذا دخلوا الجنة نودوا: (إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلاَ تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلاَ تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلاَ تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلاَ تَبْتَئِسُوا أَبَدًا) [مسلم ٢٨٣٧]. فليست أبدانهم بحاجة إلى قوت يحفظ قوتها، وإنما طعامهم كله فواكه يتفكهون بها ويتلذذون هم وأزواجهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلاَلٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٥- ٥٧].

﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿مُكْرَمُونَ﴾ والمكرم الذي يخدمه غيره، فأهل الجنة فيها ﴿مُكْرَمُونَ﴾ تكرمهم الملائكة، ويكرمهم الخدم.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ النعيم الحسي، والنعيم البدني، والنعيم الروحي، ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ لا متدابرين، وذلك للمحبة والمودة التي ملأت قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، فلما طهرت قلوبهم تقابلت وجوههم؛ لأن التدابر لا يكون إلا من العداوة والبغضاء التي ملأت القلوب، كما قال ﷺ: (لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا) [متفق عليه].

شراب أهل الجنة

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ يُطاف فعل مبني للمجهول لم يُذكر فاعله، وقد صرح بالطائفين في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]، وفي قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]، فإذا كان هذا جمال الخادم، فما بالك بجمال المخدوم؟!

﴿بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ قالوا: الكأس اسم للقدح المليء بالخمر، فالقدح لا يسمى كأسًا إلا إذا كان مليئًا خمرًا، ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ نهر جار، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [محمد: ١٥].

أوصاف خمر الجنة

ثم ذكر أوصافها فقال: ﴿بَيْضَاءَ﴾ أشد بياضًا من اللبن، والبياض أحسن الألوان.

﴿لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ يتلذذون بها أثناء الشرب وبعده.

﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ﴾ الغول ما يغتال الشيء فيفسده، وخمر الدنيا تغتال العقول فتفسدها؛ لأنها تصيب بالصداع والسُّكْر، أما خمر الآخرة فمنزهة عن كل ذلك.

﴿وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ بفتح الزاي، وفي الواقعة ﴿لاَ يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ بكسرها، وقرئت في الموضعين بالفتح.

وفرّقوا بين الفتح والكسر، فقالوا: ﴿وَلاَ يُنْزِفُونَ﴾ بالكسر، لا تفنى خمرهم، ولا تنتهي؛ لأنها أنهار جارية.

﴿وَلاَ يُنْزَفُونَ﴾ بالفتح، بمعنى لا يسكرون، ولا تغيب عقولهم، كما تفعل خمر الدنيا بالعقول.

أوصاف نساء أهل الجنة

ولما ذكر طعامهم وشرابهم ذكر بعد ذلك أزواجهم؛ فقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ العين: جمع عَيْناء، وهي الواسعة العين الحسناء، والعرب يمدحون بسعة العين وجمالها، وقاصرات الطرف: مدح لهؤلاء النسوة أنهنَّ لعفتهن قصرن نظرهن على أزواجهن، فلا تمتد أعينهن إلى غيرهم، ولجمالهن قصرن نظر أزواجهن عليهن، فلا تمتد أعين أزواجهن إلى غيرهن.

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ كأن هؤلاء النسوة في الجنة بيض مكنون، والمراد بالبيض المكنون بيض النعامة؛ لأن النعامة تفرش لبيضها، وتغطيه بريشها، حتى يظل نظيفًا جميلاً. وقالوا: ﴿بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ لونها أبيض مشرب بصفرة، وهذا اللون هو أحسن لون تمدح به النساء، أن تكون بيضاء، مخلوط بياضها بصفرة، وأما البياض المخلوط بحمرة فيمدح في الرجال.

فيا خاطب الحسناء إن كنت راغبًا
فهذا أوان المهر فهو المعجل

لأنه يقال يوم القيامة لأهل الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، أي بما قدمتم، لأن ثمن الجنة كله معجل، ليس له مؤخر، فالذي يموت ولم يدفع الثمن لن يستطيع الشراء أبدًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

تذكر أهل الجنة أحوال الدنيا

ثم ذكر الله تعالى حديثًا يدور بين أهل الجنة وهم فيها ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، فقال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ يتساءلون عن الأيام الخالية، وما أحسن تذكر ما فات عند فراغ الأوقات.

قال ابن كثير- رَحِمَهُ اللهُ-: (يُخْبِرُ تعالَى عَنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنَّهُ أَقْبَلَ بَعْضُهم على بَعْضٍ يتَسَاءلُونَ، أَيْ عَنْ أَحْوالِهم وكَيْفَ كَانُوا في الدُّنْيا، ومَاذَا كَانُوا يُعَانُون فيها، وذَلِكَ في حَدِيثِهم على شَرابِهم واجْتِمَاعِهم في تَنَادُمِهم، ومُعَاشَرتِهم في مَجَالِسِهم، وهُمْ جُلُوسٌ على السُّرُرِ، والخَدَمُ بَيْنَ أَيْدِيهم يَسْعَوْنَ ويَجِيئُونَ بكُلِّ خَيْرٍ عَظِيم، مِنْ مَآكَلَ ومَشَارِبَ ومَلاَبِسَ وغَيْرِ ذلك، ممَّا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، ولاَ أُذُنٌ سَمِعَت، ولاَ خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ). [تفسير القرآن العظيم: ٤ / ٧-٨].

وقَالَ الآلُوسِيُّ- رَحِمَهُ اللهُ-: [وقَولُه تعَالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ مَعْطُوفٌ على قَولِه تعَالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾، أَي يَشْرَبُونَ فيَتحادَثُونَ على الشُّرْبِ كمَا هُوَ عَادَةُ المُجْتَمِعِينَ عليْه، كمَا قَالَ الشَّاعِر:

وما بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَاتِ إلاَّ
مُحَادَثَةُ الكِرَامِ على الشَّرَابِ

وعبَّرَ بالمَاضِي مَعَ أَنَّ المُعْطُوفَ عليْه مُضَارِعٌ للإشْعَارِ بالاعْتِنَاءِ بهَذَا المُعْطُوفِ بالنِّسْبَةِ إلَى المَعْطُوفِ عليْه، فكَيْفَ لا يُقْبِلُونَ على الحَدِيثِ وهُوَ مِنْ أَعْظَمِ لذَّاتِهم الَّتِي يتَعَاطَوْنَها، مَعَ مَا في ذلكَ مِنَ الإشَارَةِ إلَى تَحَقُّقِ الوقُوعِ حَتْمًا وتَسَاؤلِهم عَنْ المَعَارِفِ والفَضَائِلِ ومَا جَرَى لَهُمْ وعليْهم في الدُّنْيا، ومَا أَحْلَى تَذَكُّرَ مَا فَاتَ عِنْدَ رَفَاهِيَةِ الحَالِ وفَرَاغِ البَالِ). [روح المعاني (٢٣ / ٩٠-٩٣)].

التحذير من صحبة الملحدين

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ صاحب وصديق، ملحد، لا يؤمن بالله العظيم، ولا يصدق بيوم الدين، وكان دائمًا يلقي عليَّ الشكوك والشبهات، يريد أن يفتنني في ديني، ﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ

لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾؟! هل أنت مصدق ما يقولون، أننا بعد الموت مبعوثون؟ ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؟! أي: مجزيون بأعمالنا.

ثُمَّ قالَ ذلكَ المُؤْمنُ لإخْوانه في الجنَّة: ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾ (أيْ معي في النَّار، لعلِّي أرى قريني ذلكَ الَّذي كانَ يقولُ لي: أئنَّكَ لمنَ المصدِّقينَ بأنَّنا مبْعوثونَ بعدَ المَمات؟ ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أيْ في وسَطِ الجحيم. وفي الكلامِ متْروكٌ اسْتُغْنِيَ بدلالةِ الكلامِ عنْ ذِكْره، وهوَ فقالوا نعم). [جامع البيان(٢٣ / ٦٠)].

قالَ كعْبٌ (: (إنَّ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ كُوىً، فإذا أرادَ المؤْمنُ أنْ ينْظرَ إلى عدوٍّ كانَ لهُ في الدُّنْيا اطَّلعَ منْ بعْضِ هذهِ الكُوى. وعنْ قتادةَ قال: لوْلا أنَّ اللهَ جلَّ وعلاَ عرَّفهُ إيَّاهُ لما عرفه، لقدْ تغيَّرَ حبْرُهُ وسبْرُه، أي لوْنهُ وهيئتُه) [جامع البيان (٢٣ / ٦١)].

فلمَّا رأى قرينَهُ في النَّارِ ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ﴾ أيْ إنْ كِدْتَ في الدُّنْيا لَتُهلكني بصدِّكَ إيَّايَ عنِ الإيمانِ بالبعْثِ والثَّوابِ والعقاب [جامع البيان (٢٣ / ٦١)] ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (أيْ لوْلا رحْمةُ ربِّي بي، وإنْعامهُ عليَّ بالإسْلام، وهدايتي إلى الحقِّ، وعصْمتي عنِ الضَّلال، لكنْتُ منَ المُحْضرينَ معكَ في النَّار) [فتح القدير ٤ / ٣٩٧].

دوام نعيم الجنة

ثُمَّ التفتَ إلى إخْوانه في الجنَّة مُسْتفْهمًا عنْ دوامِ ما هُمْ فيه منَ النَّعيم وبقائهم فيه أبدًا، فقال: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، لأنَّ الإنْسانَ لا تَتمُّ فرْحتُهُ بما هوَ فيه منَ النَّعيمِ إلاَّ إذا أيْقنَ بدوامه، فإنَّ شبحَ الموْتِ دائمًا يُنغِّصُ على النَّاسِ حياتَهم، ويُعكِّرُ عليْهم صفْوَهم، فلمَّا رأى المؤْمنُ ما هوَ فيه منَ النَّعيمِ، وما آلَ إليْه صاحبُهُ في الجحيم، أرادَ أنْ يطْمئنَّ على دوامِ نَعيمه ودوامِ عافيَته، فقال: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾، قالَ الطَّبريُّ- رَحِمَهُ اللهُ-: (يقولُ: أفما نحنُ بميِّتينَ غيْرَ موْتَتنا الأولى في الدُّنْيا، ومَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ بعدَ دُخولنا الجنَّة؟ قالوا: نعم. قالَ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يقولُ: إنَّ هذا لهوَ النَّجاءُ العظيمُ ممَّا كنَّا في الدُّنْيا نحْذرُ منْ عقابِ الله، وإدْراكُ ما كنَّا فيه نُؤمِّلُ بإيماننا وطاعتنا ربَّنا) [جامع البيان ٢٣ / ٦٢].

وهكذا نجَّى اللهُ ذلكَ المؤْمنَ منْ كيْدِ قرينه الكافر، وربطَ على قلْبه، (واللهُ يهْدي منْ يشاءُ ويعْصمُ ويُعافي فضْلاً، ويُضِلُّ منْ يشاءُ ويخْذُلُ ويبْتلي عدْلاً) [الطحاوية، تعليق الألباني(٢٢)] وذلكَ المُؤْمنُ مثالٌ لمنْ يعْصمهمُ الله بفضْله.

وفي القرآنِ الكريمِ مثالٌ آخرُ للْمخْذولينَ المفتونين:

قالَ تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

رُويَ أنَّ هذه الآيات نزلتْ في عُقْبةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ وأُبيِّ بنِ خلف، وكانَ عُقْبةُ أسْلم فلم يزلْ بهِ أُبيٌّ حتَّى ارْتدَّ، ولكنَّ العبْرةَ بعُمومِ اللَّفْظ لا بخصوصِ السَّبب، فكلُّ ظالمٍ أطاعَ خليلَهُ في الكُفْرِ حتَّى ماتَ على ذلكَ؛ يجْري لهُ مثْلُ ما جرى لابنِ أبي مُعَيْط. [أضواء البيان ٦ / ٣١٣].

وهكذا رأيْنا كيفَ يُؤثِّرُ الصَّديقُ في صَديقه، فاتَّقُوا اللهَ في أنْفُسكم ولاَ تُصاحبُوا إلاَّ الأخْيار، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: (لاَ تُصَاحِبْ إلاَّ مُؤْمِنًا، وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلاَّ تَقِيٌّ) [أبو داود ٤٨٣٤ وحسنه الألباني]، لاَ تُصاحبْ إلاَّ منْ إذا ذكرْتَ اللهَ أعانك، وإذا نسيتَ ذكَّرك، وإذا نوديَ: حيَّ على الصَّلاةَ قامَ معك.

صاحبْ منْ لا يُبطِّئُكَ عنْ عملِ الخيْر، ولا يصُدُّكَ عنْه، فإنَّ هؤلاءِ الأصْحابَ يكونونَ زينةً لكَ في الدُّنْيا وشُفعاءَ لكَ في الآخرة إنْ تخلَّفْتَ عنْهم في دُخولِ الجنَّة، كما جاء في حديثِ الشَّفاعة [متفق عليه] أنَّهم يُجادلونَ ربَّهم في إخْوانٍ لهم يقولونَ: ربَّنا كانوا يُصلُّونَ معنا، ويصومونَ معنا، فلا يزالونَ بالله حتَّى يُشفِّعَهم فيهم، ولذلكَ ندمَ أهْلُ النَّارِ على فقْدهمُ الصَّديقَ والشَّفيع، فقالوا: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠١].

فالحذر كل الحذر من قرناء السوء، والحذر كل الحذر من الطاعنين في الدين، المشككين فيه، فإن الله تعالى حذر من الاستماع إليهم، فقال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٦].

وللحديث بقية. والحمد لله رب العالمين.

ملف خاص

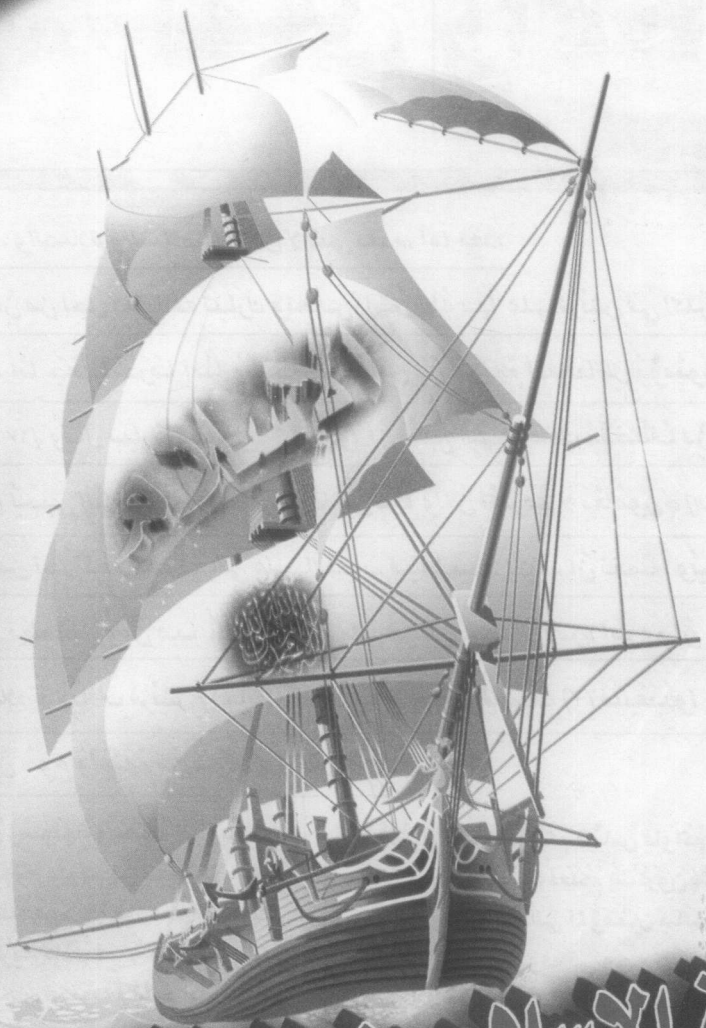

براءة الإسلام من العنف والإرهاب

- الأمن والأمان في الإسلام
- العدل في الإسلام شامل لبني الإنسان
- لا إكراه في الدين
- أخلاق المسلمين الفاتحين وشهادات المنصفين

الأمن والأمان

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فإنَّ الأمنَ والأمانَ من أجلِّ نِعَمِ الله تبارك وتعالى، امتنَّ اللهُ بها على قُرَيْشٍ في أكثرَ من آية، فقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾[العنكبوت: ٦٧]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

فالأمنُ والأمانُ من أجلِّ نِعَمِ الله تعالى على العباد، فيها يجدُ الإنسانُ نفسَه، ويُؤدِّي وظيفتَه، ويغْدُو ويروحُ آمنًا مطمئنًا، ومن هنا لمَّا امتنَّ اللهُ على قُريشٍ بنعمةِ الأمن؛ أمرهم أنْ يعبدُوه شكرًا عليها، فقال جل وعلا: ﴿لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ (١) إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١- ٤].

فلَمَّا كذَّبتْ قريشٌ رسولَها، وعصتْ أمرَ ربِّها، ولم يشكروه على ما أنعم به عليهم من نعمةِ الأمنِ، بدَّل اللهُ أمنَهم خوفًا، وشبعَهم جوعًا، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[النحل: ١١٢- ١١٣]، ولَمَّا قام المؤمنون بحقِّ الله من إفرادِه بالعبادةِ بدَّلَ خوْفهم أمنًا، وحقَّق لهم وعْدَهُ الذي وعَدَهُموه في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور: ٥٥]، وامتنَّ اللهُ على هؤلاء المؤمنين بما حباهم من نعمةِ الأمن، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[الأنفال: ٢٦].

وأمر اللهُ تعالى المؤمنين بالحفاظ على الأمنِ والأمانِ بالوقوفِ في وجه كلِّ من أراد أنْ يُزعجَ أمنَهم، أو يُحْدِثَ الفوضى في صفِّهم، ويُثيرَ القلقَ والاضطراب فيهم، مسلمين كانوا أو غير مسلمين، أفرادًا كانوا أو جماعات، فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[المائدة: ٣٣]، وتُسمَّى هذه الآيةُ آيةَ المُحاربة أو الحرابة «والمُحاربةُ مُفاعلةٌ من الحرب، وهي ضدُّ السِّلْم، وهو السَّلامةُ من الأذى والضَّرر والآفات، والأمنُ على النَّفس والمال».

وقد عرَّف الفُقهاءُ الحرابةَ بأنَّها «خروجُ طائفةٍ مسلَّحةٍ في دار الإسلام؛ لإحداث الفوْضى وسفْكِ الدِّماء، وسلْبِ الأموال، وهتْكِ الأعراض، وإهلاكِ

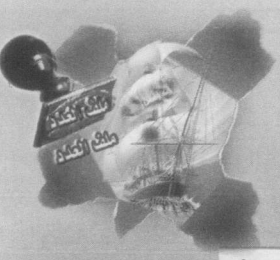

في الإسلام

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

الحرث والنَّسْل، مُتحدِّيةً بذلك الدِّينَ والأخلاقَ والنِّظامَ والقانون. ولا فرقَ بين أنْ تكونَ هذه الطائفةُ من المسلمين، أو الذِّمِّيين، أو المُعاهدين أو الحربيِّين، ما دام ذلك في دار الإسلام، وما دام عُدْوانُها على كل محْقونِ الدم. وكما تتحقَّقُ الحرابةُ بخروجِ جماعةٍ من الجماعات، فإنَّها تتحقَّقُ كذلك بخروج فرْدٍ من الأفراد، فلو كان لفردٍ من الأفراد فضْلُ جبروت وبطش، ومزيدُ قوَّةٍ وقُدرةٍ يغلبُ بها الجماعةَ على النَّفس والمالِ والعِرْض، فهو مُحارِب.

وكما يُسمَّى هذا الخروجُ على الجماعة وعلى دينِها حرابةً، فإنَّه يُسمَّى أيضًا قطْعَ طريق؛ لأنَّ الناسَ ينْقطعون بخروجِ هذه الجماعة عن الطريق، فلا يمرُّون فيه؛ خشيةَ أنْ تُسفكَ دماؤهم، أو تُسْلبَ أموالُهم، أو تُهْتكَ أعراضُهم، أو يتعرَّضون لِمَا لا قُدرةَ لهم على مُواجهته.

وقد تبرَّأ رسولُ الله ﷺ ممَّنْ حمل السِّلاحَ وقطع الطريقَ، وأخاف الآمنين، فقال ﷺ «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا» [متفق عليه]، فإذا لم يكن له شرفُ الانتسابِ إلى الإسلام والمسلمين وهو حيٌّ؛ فليس له هذا الشرفُ بعد الموت أيضًا؛ لأنَّه يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ على ما ماتَ عليْه، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، ثُمَّ مَاتَ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» [مسلم ١٨٤٨].

إنَّ اللهَ سُبْحَانَه كرَّم الإنسان: خلقهُ بيده، ونفخَ فيه من رُوحه، وأسْجدَ له ملائكتَه، وسخَّر له ما في السَّموات وما في الأرضِ جميعًا منه، وزوَّده بالقُوى والمواهبِ ليسودَ الأرض، وليصلَ إلى أقصى ما قُدِّرَ له من كمالٍ ماديٍّ وارتقاءٍ رُوحيٍّ. ولا يُمكنُ أنْ يُحقِّقَ الإنسانُ أهدافَه، ويبلُغَ غايتَه إلاَّ إذا توفَّرت له جميعُ عناصرِ النُّمو، وأخذَ حقوقَه كاملة، وفي طليعةِ هذه الحقوقِ التي ضمنها الإسلامُ: حقُّ الحياة، وهو حقٌّ مُقدَّسٌ لا يَحِلُّ انتهاكُ حُرمته ولا استباحةُ حماه، يقولُ الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾[الإسراء: ٣٣]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾[الإسراء: ٣١].

وهذا التحريم ثابت في الشرائع كلها، وقد كتب الله القصاص على من كان قبلنا؛ زجرًا للناس ومنعًا لهم من سفك الدماء وإزهاق الأرواح بغير حق، فقال تبارك وتعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[المائدة: ٣٢]، وكتب علينا ما كتبه عليهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[البقرة: ١٧٨].

وليست هذه الحُرْمَةُ للنَّفسِ المؤمنةِ وحدها، بل هي للمؤمنة وغيرها على حدٍّ سواء، فلا يُقتل مسلم إلا بما يوجب قتله، وهو الذي عبَّر الله تعالى عنه بقوله بالحق، وكذلك لا يُقتل غير المسلم إلا بما يوجب قتله، ولذلك شدَّد النبيُّ ﷺ في قتْلِ المُسالم من غير المسلمين بغير حق؛ فقال ﷺ «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا، لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا» [البخاري ٣١٦٦].

أمَّا من قتل مؤمنًا بغيْرِ حقٍّ؛ فقد قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

وقد كثُرت الأحاديثُ عن النبيِّ ﷺ في الحثِّ على تعظيم حُرمَاتِ المسلمين وصيانةِ دمائهم وبَيَانِ وعيدِ

المُخَالف:

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، فَلاَ تَرْجِعُنَّ بَعْدِي كُفَّارًا أَوْ ضُلاَّلاً، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ». [متفق عليه].

وَعَنْ نَافِعٍ قَالَ: نَظَرَ ابْنُ عُمَرَ يَوْمًا إِلَى الْبَيْتِ أَوْ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَقَالَ: «مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالْمُؤْمِنُ أَعْظَمُ حُرْمَةً عِنْدَ اللهِ مِنْكِ» [الترمذي ٢٠٣٢].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ: قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ. [متفق عليه].

> لقد تبرأ رسول الله ﷺ ممن حمل السلاح، وقطع الطريق وأخاف الآمنين فقال: «من حمل علينا السلاح فليس منا»

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا. [البخاري ٦٨٦٢].

وَعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ». [الترمذي ١٣٩٥ وصححه الألباني].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لأَكَبَّهُمُ اللهُ فِي النَّارِ. [الترمذي ١٣٩٨ وصححه الألباني].

ولأهميَّة الدِّماء كانت هي أوَّل ما يَقْضِي اللهُ بيْنَ العباد فيه:

عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ» [متفق عليه].

وَعَنْهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ هَذَا قَتَلَنِي، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ، فَيَقُولُ: فَإِنَّهَا لِي، وَيَجِيءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ، فَيَقُولُ: إِنَّ هَذَا قَتَلَنِي، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلاَنٍ، فَيَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلاَنٍ فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ». [النسائي ٣٩٩٧ وصححه الألباني].

تلك عقوباتُ القاتلِ غيرَه، فما جزاءُ الذي يتعدَّى على نفسه فيقْتلُها، ما جزاءُ الانتحار؟ ما جزاءُ الذي يتعجَّلُ الموْتَ لنفسه فيتعاطى من الأسبابِ ما يُزْهِقُ روحَه ويَذْهَبُ بنفسه؟

إنَّ الانتحارَ جريمةٌ عظيمة، وعقوبتُه أليمة، ففي الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ؛ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ، يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِسُمٍّ؛ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ؛ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا» [متفق عليه].

وقال ﷺ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ بِهِ جُرْحٌ، فَجَزِعَ، فَأَخَذَ سِكِّينًا فَحَزَّ بِهَا يَدَهُ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حَتَّى مَاتَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: بَادَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فَحَرَّمْتُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». [البخاري ٣٤٦٣].

تلك هي عقوبة المنتحر، الذي أزهق روحه بيده، فإذا كان الانتحار عن طريق التفجير الذي يودي بحياة الآخرين من المسلمين وغيرهم؛ فقد ارتكب هذا المنتحر ثلاث جرائم: قتل نفسه، وقتل مسلم، وقتل معاهد؛ فاستحق كل العقوبات المذكورة، فإذا أدى هذا التفجير إلى قتل عدد من الناس، فله بكل نفس قتلها عقوبتها، فما أصبرهم على النار، كما قال الله تعالى.

إنَّ من سماحة الإسلام وعظمته في وقت اشتعال نار الحرب أنَّه قَصَرَ الحربَ على المحاربين، ونهى عن نقل الحرب عن ميدانها إلى الآمنين المطمئنين في معابدهم، أو في بيوتهم، أو في مصانعهم ومتاجرهم، فعن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما قَالَ: مَرَّ رَسُولُ اللَّه ﷺ بِامْرَأَةٍ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ مَقْتُولَةٍ، فَقَالَ: مَا كَانَتْ هَذِهِ تُقَاتِلُ، ثُمَّ نَهَى عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ. [متفق عليه].

والعلة كونهم لا يقاتلون كما صرح بذلك النَّبِيُّ ﷺ في حديث رَبَاحِ بْنِ الرَّبِيعِ أَخِي حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا، وَعَلَى مُقَدِّمَتِهِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، فَمَرَّ رَبَاحٌ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّه ﷺ عَلَى امْرَأَةٍ مَقْتُولَةٍ مِمَّا أَصَابَتِ الْمُقَدِّمَةُ، فَوَقَفُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا وَيَتَعَجَّبُونَ مِنْ خَلْقِهَا حَتَّى لَحِقَهُمْ رَسُولُ اللَّه ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَانْفَرَجُوا عَنْهَا فَوَقَفَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقَالَ: «مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ، فَقَالَ لِأَحَدِهِمْ: الْحَقْ خَالِدًا فَقُلْ لَهُ: لَا تَقْتُلُنَّ امْرَأَةً، وَلَا عَسِيفًا». [أبو داود ٢٦٦٩ وصححه الألباني].

وبناء على هذه العلة فإنَّه يلحق بالنساء والصبيان: الرهبان والنساك، والشيوخ والمرضى، وغيرهم من الذين اعتزلوا الحرب والقتال ممن يسمون بالمدنيين، فيجب احترامهم وصيانة أموالهم، ومعنى هذا أننا لا ننكر التفجيرات في مصرنا الحبيبة وحدها، بل ننكرها كذلك في بلاد المسلمين وفي غيرها من بقاع المعمورة؛ لأنَّها تستهدف المدنيين الآمنين، والإسلام نهى عن قتل المدنيين في حالة الحرب، فكيف بحالة السلم؟!!

إن حادث التفجير الذي وقع بالإسكندرية أمام كنيسة القديسيْن حادث أليم، ألم جميع المصريين، مسلمين ونصارى على حد سواء، ولا يمكن أن يتم هذا العمل الإجرامي إلا على يد سفهاء مفسدين في الأرض، أهل حقد وحسد، غاظهم ما عليه المصريون من اجتماع ووحدة، وما يعيشون فيه من أمن وأمان على اختلاف عقائدهم، فأراد أن يفرّق جمعهم، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء، وأن يوقد نار الحرب بين أهل البلد الواحد؛ حتى يصيبهم ما أصاب البلاد من حولهم، من الخوف والذعر والرعب.

فعلى المصريين جميعًا أن ينتبهوا لما يُدَبَّرُ لهم بليل، وأن يُحَكِّمُوا عقولهم في هذه الفتنة، كما قال شيخ الأزهر والبابا، حتى تنتهي هذه الفتنة على خير، وتعود البلاد إلى طبيعتها من الهدوء والاستقرار، والأمن والأمان، وعلى الشباب من المسلمين والمسيحيين أن يستجيبوا لدعوة العقلاء منهم، وأن يضبطوا مشاعرهم، ويكفوا أيديهم، وأن يسألوا الله تعالى أن يرد كيد الكائدين في نحورهم، وأن يحفظ مصر رئيسًا وحكومة وشعبًا واحدًا، يتعاون على كل ما يحقق مصلحة مصر وأمنها واستقرارها.

كما نرجو من النصارى ألا يظنوا بالإسلام ظن السوء؛ فإن هذه التصرفات ليست من الإسلام في شيء، وأفعال الأفراد ليست حُجّة على الدين، بل الدين هو الحجة على الجميع، والتاريخ يشهد للمسلمين بالبر والإحسان إلى المسيحيين على مر السنين والأعوام، ولم لا؟ وهم وصية رسول الله ﷺ، وصى بهم أصحابه قبل أن يدخل الإسلام مصر، فقال ﷺ: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها؛ فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحما،أو قال: ذمة وصهرًا» [مسلم ٢٥٤٣]، يعني بالذمة الحرمة والحق. ويعني بالرحم أن هاجر أم إسماعيل منهم. ويعني بالصهر أن مارية أم إبراهيم منهم.

إن من سماحة الإسلام وعظمته وقت اشتعال نار الحرب أنه قصر الحرب على المحاربين ونهى عن نقل الحرب عن ميدانها إلى الآمنين المطمئنين في معابدهم أو في بيوتهم أو في مصانعهم أو في متاجرهم

والمؤمنون حقًا هم الذين استجابوا لله والرسول، فمن أساء إلى أهل مصر؛ لم يعمل بوصية رسول الله ﷺ.

والحمد لله رب العالمين.

القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع

إعداد:
د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: - ٥٠].

العدل هو الغاية من تنزيل الكتب السماوية:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣] «أي وُجِدُوا أُمَّةً واحدةً، تَتَّحِدُ مقاصدُها ومطالبُها ووِجْهَتُها لتُصْلِحَ ولا تُفْسِد، وتُحْسِنَ ولا تُسيء، وتعدلَ ولا تَظْلم، أي: ما وُجِدُوا إلاَّ ليكونوا كذلك، ولكنَّهم اختلفوا، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩] أي انْحرفوا عن الاتِّحاد والاتِّفاق الذي يُثْمِرُ كلَّ خيْرٍ لهم وسعادة، إلى الاختلاف والشِّقاق المُسْتَتْبِعِ للفساد وهلاك الحرْث والنَّسْل» [محاسن التأويل ٦ / ١٨٨].

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: كان بيْنَ نوحٍ وآدمَ عشْرةُ قرونٍ كلُّهم على شريعةٍ من الحق، فاختلفوا فبعث اللهُ النَّبيِّين مُبشِّرين ومُنْذرين» [تيسير الكريم المنان (٧ / ٣٠١)]. «أي مُبَشِّرينَ لمنْ آمنَ وأطاع، ومُنْذرينَ لمنْ كفرَ وعَصَى، ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ٢١٣] أي كلامَهُ الجامعَ لمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ في بَابِ الدِّينِ علَى الاسْتِقَامَةِ والْهِدَايَةِ التَّامة؛ لكَوْنِه مُتَلَبِّسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ منْ جَمِيعِ الْوُجُوه ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فيه﴾ منَ الاعْتِقَادَاتِ والأعْمَالِ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قَبْلَ ذَلِكَ أُمَّةً واحِدَةً».

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، قال السَّعْدِيُّ: «يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾، وهي الأدلَّةُ والشواهدُ والعلاماتُ الدَّالةُ على صِدْقِ ما جاءوا به وأحقيَّته، ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو اسمُ جنْسٍ يشمل سائرَ الكتُبِ التي أنزلها اللهُ لهداية الخلق وإرْشادهم إلى ما يَنْفعُهم في دينهم ودُنياهم، ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدْلُ في الأقوال والأفعال، والدِّينُ الذي جاءت به الرُّسُلُ كلُّه عدلٌ وقسْطٌ في الأوامرِ والنَّواهي، وفي معاملات الخَلْق، وفي الجنايات والقصاص والحدود والمواريث وغير ذلك، وذلك ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ قيامًا بدين الله، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكنُ حصرُها وعدُّها، وهذا دليلٌ على أنَّ الرُّسُلَ مُتَّفقُون في قاعدة الشَّرْع وهي القيامُ بالقسْط، وإنْ اختلفتْ صُوَرُ العدْلِ بحسب الأزْمنَة والأحوال» [تيسير الكريم المنان ٧ / ٣٠١]، ولذا قال تعالى في آيات المائدة التي معنا: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ فالدِّينُ واحد، والشَّريعةُ مُختلفةٌ باختلاف الأزْمنَة والأمْكنَة؛ تحقيقًا لمصالح الكلِّ، فقد يكونُ الشيءُ حلالاً فيحرمُ على قوْم، وقد يكونُ حرامًا فيحلُّ لقوم، والمقصودُ واحدٌ هو إقامةُ الحقِّ والعدل.

هذا هو الهدفُ الأسْمَى من الكتُبِ السَّماويَّة كلِّها ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ ولَمَّا كانت التَّوراةُ أشرفَ الكتُبِ السَّابقة، يليها الإنجيل، ثُمَّ كان القرآنُ الكريمُ أشرفَ الكتُبِ على الإطلاق، فقد خُصَّتْ هذه الثَّلاثةُ وأهلُها بالذِّكْرِ في آيات المائدة

حث اليهود على الحكم بالتوراة:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ أي: إنَّا نحنُ أنزلنا التَّوراةَ على موسى مشتملةً على هدًى في العقائد والأحكام خرج بها بنو إسرائيل من وثنيَّة المصْرِيِّينَ وضلالهم، ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أي أنزلناها قانونًا للأحكام، يحكم بها النَّبيُّون موسى ومَنْ بعده من أنْبياءُ بني إسرائيلَ طائفةً من الزمان، انتهت ببعْثَة عيسى بن مريمَ عليه السلام، وهمُ الذين أسلموا وجوههم لله مخلصين له الدِّين على ملَّة إبراهيم، عليهم الصلاة والسلام، فالإسلامُ دينُ الجميع، وكلُّ ما استحدثه اليهودُ والنصارى من أسباب التَّفرُّقِ في الدِّين فهو باطلٌ وضلالٌ مبين، وإنَّمَا يحكمون بالتوراة للَّذين هادوا أي اليهود خاصة، ويحكم بها بعدَهم الرَّبانيُّون والأحبارُ وهم العلماءُ الرَّبانيُّون الَّذين يتعلَّمون ويعْمَلون ويُعلِّمون». [مختصر المنار (٢ / ١٣٨)].

وقوله تعالى: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ﴾ «أي بسبب الذي اسْتُودِعُوهُ من كتاب الله، بأنْ يحفظوه من التَّغْيير والتَّبْديل، وأنْ يقْضُوا بأحكامه، ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أي رُقباءَ يَحْمُونه من أنْ يحومَ حوْلَهُ التَّغييرُ والتَّبْديلُ بوجْهٍ من الوجوه»

الرُّسُلُ مُتَّفقُون في قاعدة الشَّرْع وهي القيامُ بالقسْط، وإنْ اختلفتْ صُوَرُ العدْلِ بحسب الأزْمنَة والأحوال

[محاسن التأويل ٦ / ٢١١]، ولَكِنَّ الْخَلَفَ غَيَّرُوا وَبَدَّلُوا، وَمِمَّا غيَّروه حَدُّ الزَّاني المُحْصَن، وهو الرَّجْمُ فحرَّفوه واصْطَلَحوا فيما بَيْنَهُم على الْجَلْدِ مئةَ جلدة، والتَّحْميمِ والإركابِ على حمارَيْنِ مقْلوبيْن، ومِمَّا غيَّروه أيضًا القصاص، فإنَّه عندهم في نصِّ التَّوْراة أنَّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ، وهم يُخالفون ذلك عمدًا وعنادًا، ويَقيدونَ النَّضَريَّ من القُرَظيِّ، ولا يَقيدونَ القُرَظيَّ من النَّضَريِّ، بل يعْدِلُون إلى الدِّية، فلمَّا غيَّرُوا وَبَدَّلُوا، حَكَمَ اللهُ عليهم بالكفرِ والظلم، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

قال ابنُ كثير: «وإنَّما قال في الرَّجْمِ ﴿الْكَافِرُونَ﴾؛ لأنَّهم جحدوا حُكْمَ الله قصدًا منهم وعنادًا وعَمدًا، وقال في القِصاص: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ لأنَّهم لم يُنْصِفُوا المظلومَ من الظالم الَّذي أمر اللهُ بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا وتعدوا بعضهم على بعض»(٢).

حث النصارى على الحكم بالإنجيل:

ولَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى التَّوراةَ وفَضْلَها وموقفَ المتأخِّرينَ من أهلها من الحكْم بها، ثنَّى بذكْرِ الإنجيلِ وفَضْلِه، وما يجبُ على أهلِ الإنجيلِ نَحْوَهُ، فقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ﴾ «أي أتْبَعْنَا أنبياءَ بني إسرائيلَ ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ بأنْ أرْسلناه عَقِبَهم ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي مؤمنًا بها حاكمًا بما فيها ﴿وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى﴾ إلى الحق ﴿وَنُورٌ﴾ أي بيانٌ للأحكام ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي لِمَا فيها من الأحكام، وتكريرُ ذلك لزيادة التقرير. ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً﴾ أي زاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي لمن اتَّقى اللهَ وخاف وعيدَه وعقابَه، وتخصيصُ كونِه هدًى وموعظةً بالمتقين لأنَّهم المُهْتدون بهداه والمُنْتفعون بجدواه.

ثم أمر الله تعالى أهلَ الإنجيل بالحُكْمِ بما أنزل اللهُ فيه فقال: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ﴾ ومن جُملته دلائلُ رسالة النبيِّ محمد ﷺ وشواهدُ نُبوَّته. قال بعضُ المحقِّقين: وإنَّما خصَّ أهلَ الإنجيلِ بالذِّكر لبيانِ أنَّ الإنجيلَ لم يُنزِّلْهُ اللهُ للأمم كافَّة، وأنَّ شريعتَه ليست باقيةً لكلِّ زمان؛ لأنَّ بعثتَه ﷺ كانت خاصةً ببني إسرائيل. ثُمَّ توعَّد اللهُ المُخالفين الَّذين لا يحكمون بالإنجيل فقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الخارجونَ عن طاعة ربِّهم، المائلونَ إلى الباطلِ التاركون للحق». [محاسن التأويل ٦ / ٢٢٩و٢٣٠].

حث النبي ﷺ على الحكم بالقرآن:

و«لَمَّا ذَكَرَ تعالى التَّوراةَ التي أنزَلَها على موسى كليمِه ومَدَحَهَا وأثنى عليها وأَمَرَ باتِّباعها حيث كانت سائغةَ الاتباع، وذكر الإنجيلَ ومَدَحَه وأَمَرَ أهلَه بإقامته واتِّباع ما فيه، شَرَعَ في ذِكْرِ القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصِّدْقِ الذي لا ريبَ فيه أنَّه من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي من الكتب المتقدِّمة المتضمِّنة ذِكْرَه ومَدْحَه، وأنَّه سينزلُ من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزولُه كما أخبرتْ به ممَّا زادها صِدْقًا عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمرِ الله، واتَّبعوا شرائعَ الله، وصدَّقوا رُسُلَ الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٨]، أي إنْ كان ما وعدَنا اللهُ على ألْسِنَةِ رُسُلِه المتقدم من مجيء محمد ﷺ، لمفعولاً أي لكائنًا لا محالةَ ولا بُدَّ، وقولُه تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي شهيدًا وحاكمًا، فالقرآنُ شاهدٌ وحاكمٌ على كلِّ كتابٍ قبلَه، جعل اللهُ هذا الكتابَ العظيمَ الذي أنزله آخرَ الكتُبِ وخاتمَها وأشملَها وأعظمَها وأكملَها؛ حيث جمع فيه محاسنَ ما قبلَه، وزاده من الكمالات ما ليْس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلِّها، وتكفَّل تعالى حفظَه بنفسه الكريمة فقال

القرآنُ شاهدٌ وحاكمٌ على كل كتابٍ قبله، جعل اللهُ هذا الكتابَ العظيمَ الذي أنزله آخرَ الكتبِ وخاتمَها وأشملها وأعظمَها وأكملها؛ حيث جمع فيه محاسنَ ما قبله، وزاده من الكمالاتِ ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهدًا وأمينًا وحاكمًا عليها كلها، وتكفَّل تعالى حفظَه بنفسه الكريمة

تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]». [تفسير القرآن العظيم ٢ / ٦٥].

فلا يُمكن أبدًا أنْ تنالَه الأيدي بالعَبثِ فيه بالتَّغْيير أو التَّبْديلِ أو التَّحْريف أو التصحيف؛ لأنَّ اللهَ حافظُه، وقد أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بالحُكم بما أنزل عليه في القرآنِ الكريم، ونهاه عن اتِّباعِ أهْواء المغضوبِ عليهم والضَّالين، وكرَّر الأمرَ والنَّهْيَ تأكيدًا، وأمره أنْ يأخُذَ حذْرَه منهم، فقال تعالى: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾.

التوكيد على الحكم بما أنزل الله:

«وإنَّ القارئَ لهذه الآيةِ، والمُتدبِّرَ لها يتبيَّنُ له أنَّ الأمْرَ بالتَّحاكُم إلى ما أنزل الله أُكِّد بمؤكِّدات ثمانية:

الأوَّل: الأمْرُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾.

الثاني: أنْ لا تكونَ أهواءُ النَّاسِ ورَغَباتُهم مانعةً من الحُكمِ به بأيِّ حالٍ من الأحوال، وذلك في قوله ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.

الثالث: التَّحْذيرُ من عدمِ تَحكيمِ شَرْعِ الله في القليلِ والكثير، والصَّغيرِ والكبير؛ لقوله تعالى: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ﴾.

الرابع: أنَّ التَّولِّي عن حُكْمِ الله، وعدمَ قبولِ شيءٍ منه ذَنْبٌ عظيمٌ موجبٌ للعقاب الأليم: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾.

الخامس: التَّحْذيرُ من الاغْترارِ بكثْرةِ المُعْرضينَ عن حُكمِ الله، فإنَّ الشَّكورَ من عباد الله قليل، يقولُ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾.

السادس: وصفُ الحُكمِ بغَيْرِ ما أنزل اللهُ بأنَّهُ حُكْمُ الجاهليَّة، يقول سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

السابع: تقريرُ المعنى العظيمِ بأنَّ حُكْمَ الله أحسنُ الأحكام وأعدلُها، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا﴾.

الثامن: إنَّ مقتضى اليقينِ هو العلْمُ بأنَّ حُكْمَ الله هو خيْرُ الأحكام وأكملُها وأتمُّها وأعدلُها، وأنَّ الواجبَ الانقيادُ له مع الرضا والتَّسليم، يقول سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

ولِذَلكَ أجْمَعَ المُسْلِمُونَ على أنَّ القُرْآنَ الكريمَ هو المَصْدَرُ الأوَّلُ للتَّشْريع، والسُّنَّةَ هي المَصْدَرُ الثَّاني.

فوائد الحكم بما أنزل الله:

وهكذا تبيَّن لنا أنَّ الحكمَ بما أنزل الله من علاماتِ اليقينِ بتشريعِ ربِّ العالمين، وهذه فائدةٌ من فوائد الحكمِ بما أنزل الله.

ومنها: أنَّه من صفةِ النَّبيِّين والصِّدِّيقين.

ومنها: أنه يحقِّق العدل والخير والسعادة، بل والرضا والاطمئنان النفسي والراحة القلبية، ذلك أن العبد إذا علم أن الحكم الصادر في قضية يخاصم فيها، هو حكم الله الخالق العليم الخبير، قبل ورضي وسلم، حتى ولو كان الحكم خلاف ما يهوى ويريد، بخلاف ما إذا علم أن الحكم صادر من أناس بشر مثله، لهم أهواؤهم وشهواتهم، فإنه لا يرضى، ويستمر في المطالبة والمخاصمة، فلا ينقطع النزاع ويدوم الخلاف. [وجوب تحكيم شرع الله. ابن باز ص١٠ - ١٤].

ومنها: أنَّه يحفظُ لغيْرِ المسلمين حقوقَهم؛ لأن العدلَ في الإسلام لا يُفَرِّقُ بين مُسْلمٍ وغيرِ مُسْلِمٍ، ولا بين قريبٍ وبعيد، ولا بين وليٍّ وعَدُوٍّ، كما قال الله تعالى للنبي ﷺ في حق اليهود: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، وقال للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

أمثلة من عدل المسلمين مع غيرهم:

ولقد قامَ المُؤْمِنُونَ بما أمرَهم اللهُ تعالَى به من الحقِّ والعدل، وأعطوْا كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، ولم يفرِّقوا

إنَّ مقتضى اليقين هو العلم بأنَّ حكم الله هو خيرُ الأحكام وأكملها وأتمُّها وأعدلها، وأنَّ الواجب الانقياد له مع الرضا والتسليم

بيْنَ النَّاسِ في ذلك لجنسٍ أو لونٍ أو دين:

عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ اخْتَصَمَ إِلَيْهِ مُسْلِمٌ ويَهُودِي، فَرَأَى عُمَرُ أَنَّ الحَقَّ لليَهُودِي فقَضَى لَهُ. [الموطأ (١٣٩٨ / ٥٠٩).].

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حِينَ افْتَتَحَ خَيْبَرَ اشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنَّ لَهُ الأَرْضَ، وَكُلَّ صَفْرَاءَ وَبَيْضَاءَ، يَعْنِي الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، وَقَالَ لَهُ أَهْلُ خَيْبَرَ: نَحْنُ أَعْلَمُ بِالأَرْضِ، فَأَعْطَنَاهَا عَلَى أَنْ نَعْمَلَهَا وَيَكُونَ لَنَا نِصْفُ الثَّمَرَةِ وَلَكُمْ نِصْفُهَا، فَزَعَمَ أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ حِينَ يُصْرَمُ النَّخْلُ بَعَثَ إِلَيْهِمُ ابْنَ رَوَاحَةَ فَحَزَرَ النَّخْلَ، وَهُوَ الَّذِي يَدْعُونَهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ الْخَرْصَ، فَقَالَ: فِي ذَا كَذَا وَكَذَا، فَقَالُوا: أَكْثَرْتَ عَلَيْنَا يَا ابْنَ رَوَاحَةَ، فَقَالَ: فَأَنَا أَحْزِرُ النَّخْلَ وَأُعْطِيكُمْ نِصْفَ الَّذِي قُلْتُ، قَالَ: فَقَالُوا هَذَا الْحَقُّ وَبِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ، فَقَالُوا: قَدْ رَضِينَا أَنْ نَأْخُذَ بِالَّذِي قُلْتَ. [ابن ماجه ١٨٢٠ وحسنه الألباني].

ورُوِيَ أَنَّ يهوديًا شكا عليًا إلى عمرَ في خلافته رَضِيَ اللهُ عنْهما فقال عمرُ لعليٍّ: قفْ بجوارِ خصمِك يا أبا الحسنِ، فوقفَ وقد عَلا وجهَهُ الغضب، فبعدَ أنْ قضَى الخليفةُ بيْنَهما بالعدلِ قال: أغضبتَ يا عليُّ أنْ قلتُ لك قفْ بجوارِ خصمِك؟ قال: لا واللهِ يا أميرَ المؤمنين، ولكنْ من كونِك كنَّيتني بأبي الحسن، فخشيتُ من تعظيمِك إيايَ أمامَ اليهودي أنْ يقولَ ضاعَ العدلُ بيْنَ المسلمين. [موارد الظمآن ٦ / ٥٣٥ و٥٣٦].

هذه أمثلةٌ من قيامِ المسلمينَ بالحقِّ والعدلِ مع غيْرِ المسلمين، «والأمثلةُ التي وعَاها التَّاريخُ في هذا المجالِ كثيرةٌ مستفيضة، تشهدُ كلُّها بأنَّ هذه الوصايا والفرائضَ الربانيَّةَ قد استحالتْ في حياةِ هذه الأمةِ منهجًا في عالمِ الواقعِ يُؤدَّى ببساطة، ويُتمثَّلُ في يومياتِ الأمةِ المألوفة، إنَّها لم تكنْ مُثلاً عُليا خياليَّة، ولا نماذجَ فرديَّة، إنَّما كانت طابعَ الحياةِ الَّذي لا يرى النَّاسُ أنَّ هناك طريقًا آخرَ سواه». [في ظلال القرآن ٢ / ٦٦٨].

«وهكذا سبقَ الإسلامُ كلَّ نظمِ العدالةِ الحديثة، حينَ جعلَ العدلَ فوقَ كلِّ شيء، وأمرَ بالوزنِ بالقسطاسِ المستقيمِ بيْنَ الكافرِ والمسلم، والعدوِّ والصَّديق، والموالي والمعاهد، فهو بذلك يستحقُّ من جميعِ النَّاس، آمنوا به أم لم يؤمنوا، نظرةً صادقةً منصفة» [الرسالة الخالدة (٨٤ و٨٥) باختصار وتصرف]، تجعلُهم يعترفون بأنَّ الإسْلامَ دينُ السَّماحةِ والعدل، لا دينَ الإرهابِ والجَوْر، وأنَّه لا يجوزُ الحكمُ على الإسْلامِ بتصرفِ بعضِ الأفرادِ الذين خالفوا شريعتَه، وشوَّهوا صورتَه.

عقوبة ترك الحكم بما أنزل الله:

فَلْيَسْعَ كُلُّ المسلمينَ حُكَّامًا ومحْكومينَ إلى الحُكْمِ بما أنزلَ اللهُ ربُّ العالمين، ولْيَحْذَروا كُلَّ الحذرِ من الذين يُريدون أنْ يفْتنوهم عن بعْضِ ما أنزل الله، ولْيَعْلموا أنَّ عدمَ الحُكْمِ بما أنزلَ اللهُ ذنْبٌ وجُرْمٌ عظيم يوجب العقوبة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يعني عن الحُكْمِ بما أنزل الله ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ! خَمْسٌ: إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ، لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا. وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ. وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلاَّ جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ». [ابن ماجه ٤٠١٩ وحسنه الألباني].

نسأل الله العظيم أن يوفقنا جميعًا لتحكيم الشرع في أنفسنا وأموالنا وبيوتنا ومجتمعاتنا، وأن ينعم علينا ببركاته، وأن يعز من والاه وأطاعه، ويهدي من عصاه، والحمد لله رب العالمين.

فلْيَسْعَ كلُّ المسلمينَ حُكَّامًا ومحْكومينَ إلى الحُكْمِ بما أنزلَ اللهُ ربُّ العالمين، ولْيَحْذَروا كلَّ الحذرِ من الذين يُريدون أنْ يفْتنوهم عن بعْضِ ما أنزلَ الله

توحيد رب العالمين

قال الله تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» [النور: ٥٥].

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابُهُ الْمَدِينَةَ وَآوَتْهُمُ الْأَنْصَارُ رَمَتْهُمُ الْعَرَبُ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ، كَانُوا لَا يَبِيتُونَ إِلَّا بِالسِّلَاحِ، وَلَا يُصْبِحُونَ إِلَّا فِيهِ، فَقَالُوا: تَرَوْنَ نَعِيشُ حَتَّى نَبِيتَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ لَا نَخَافُ إِلَّا اللهَ؟! فَنَزَلَتْ «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ». [الحاكم (٢/ ٤٠١) وصححه ووافقه الذهبي].

ذلك وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، أن يستخلفهم في الأرض، وأن يمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنًا. ذلك وعد الله، ووعد الله حق، ووعد الله واقع، ولن يخلف الله وعده. فما حقيقة ذلك الإيمان؟ وما حقيقة الصالحات؟

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة، تستغرق النشاط الإنساني كله، وتوجّه النشاط الإنساني كله، فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط، وبناء وإنشاء، موجّه كله إلى الله؛ لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله، وهي طاعة لله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة، لا يبقى معها هوى في النفس، ولا شهوة في القلب، ولا ميل في الفطرة، إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله.

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه. وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعًا، يتوجه بهذا كله إلى الله، يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن: «يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا» [النور: ٥٥]، والشرك مداخل وألوان، والتوجه إلى غير الله بعمل أو شعور هو لون من ألوان الشرك بالله.

ذلك الإيمان منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به، ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض، أمانة الاستخلاف. [في ظلال القرآن(٦/ ١١٨)].

تلك هي حقيقة الإيمان:

وأما الصالحات فهي جمع صالحة: وهي الأعْمال التي وصفها الشرع بأنها صلاح، وترك الأعمال التي وصفها الشرع بأنها فساد؛ لأن إبطال الفساد صلاح.

والتعريف في «الصَّالِحَاتِ» للاستغراق، أي عملوا معظم الصالحات ومهماتها ومراجعها

هو سبب الأمن والتمكين

إعداد:
د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

مما يعود إلى تحقيق كليات الشريعة، وحتى تجري حالة مجتمع الأمة على مسلك الاستقامة، وذلك يحصل بالاستقامة في الخويصة، وبحسن التصرف في العلاقة المدنية بين الأمة على حسب ما أمر به الدين أفراد الأمة، كلّ فيما هو من عمل أمثاله، الخليفة فمن دونه، وذلك في غالب أحوال تصرفاتهم، ولا التفات إلى الفلتات المناقضة، فإنها معفو عنها إذا لم يُسترسل عليها، وإذا ما وقع السعي في تداركها.

والاستقامة في الخُويصة هي موجب هذا الوعد وهي الإيمان وقواعد الإسلام، والاستقامة في المعاملة هي التي بها تيسير سبب الموعود به.

وقد بيَّن الله تعالى أصول انتظام أمور الأمة في تضاعيف كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، مثل قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» [النحل: ٩٠]، وقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» [النساء: ٧٦]، وقوله في سياق الذم: «وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ» [البقرة: ٢٠٥]، وقوله: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ» [محمد: ٢٢].

وبيّن الرسول صلى الله عليه وسلم تصرفات ولاة الأمور في شؤون الرعية ومع أهل الذمة ومع الأعداء في الغزو والصلح والمهادنة والمعاهدة، وبين أصول المعاملات بين الناس.

فمتى اهتم ولاة الأمور وعموم الأمة باتباع ما وضّح لهم الشرع تحقق وعد الله إياهم بهذا الوعد الجليل.

وهذه التكاليف التي جعلها الله قوامًا لصلاح أمور الأمة، ووعد عليها بإعطاء الخلافة والتمكين والأمن، صارت بترتيب تلك الموعدة عليها أسبابًا لها، وكانت الموعدة كالمسبب عليها، فشابهت من هذه الحالة خطاب الوضع، وجُعل الإيمان عمودها، وشرطًا للخروج من عهدة التكليف بها، وتوثيقًا لحصول آثارها، بأن جعله جالب رضاه وعنايته، فبه يتيسر للأمة تناول أسباب النجاح، وبه يحف اللطف الإلهي بالأمة في أطوار مزاولتها واستجلابها، بحيث يدفع عنهم العراقيل والموانع، وربما حفّ بهم اللطف والعناية عند تقصيرهم في القيام بها، وعند تخليطهم الصلاح بالفساد فرفق بهم، ولم يعجّل لهم الشر، وتلوّم لهم في إنزال العقوبة. وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاَغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً

لِلْعَالَمِينَ» [الأنبياء: ١٠٥- ١٠٧] يريد بذلك كله المسلمين. [التحرير والتنوير(١٨/ ٢٨٣)].

وقد تضمنت الآية الكريمة ثلاثة وعود: الأول: «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ»، الثاني: «وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ»، الثالث: «وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا».

فما حقيقة الاستخلاف في الأرض؟

إنها ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه؛ وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليقة أكرمها الله.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان!

وهذا الاستخلاف هو الذي وعده الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وعدهم الله أن يستخلفهم في الأرض كما استخلف المؤمنين الصالحين قبلهم ليحققوا النهج الذي أراده الله، ويقرروا العدل الذي أراده الله، ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها الله.

فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض، وينشرون فيها البغي والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان، فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض، إنما هم مبتلون بما هم فيه، أو مبتلى بهم غيرهم، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله.

آية هذا الفهم لحقيقة الاستخلاف قوله تعالى بعده: «وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ»، وتمكين الدين يتم بتمكينه في القلوب، كما يتم بتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها، فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض، ودينهم يأمر بالإصلاح، ويأمر بالعدل، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض، ويأمر بعمارة هذه الأرض، والانتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة، ومن رصيد، ومن طاقة، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله. [في ظلال القرآن(٦/ ١١٨)].

«وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ» عطف على «لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ»، والكلام فيه كالكلام فيه، وتأخيره عنه مع كونه أجل الرغائب الموعودة وأعظمها لما أنه كالأثر للاستخلاف المذكور.

وقيل: لما أن النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميل، فتصدير المواعيد بها في الاستمالة أدخل، والتمكين في الأصل جعل الشيء في مكان، ثم استعمل في لازمه وهو التثبيت، والمعنى: ليجعلن دينهم ثابتاً مقررًا، بأن يعلي سبحانه شأنه، ويقوي بتأييده تعالى أركانه، ويعظم أهله في نفوس أعدائهم الذين يستغرقون النهار والليل في التدبير لإطفاء أنواره، ويستنهضون الرجال والخيل للتوصل إلى إعفاء آثاره، فيكونون بحيث ييأسون من التجمع لتفريقهم عنه ليذهب من البين، ولا تكاد تحدثهم أنفسهم بالحيلولة بينهم وبينه ليعود أثرًا بعد عين.

وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح للمسارعة إلى بيان كون الموعود من منافعهم مع التشويق إلى المؤخر، ولأن في توسيطه بينه وبين وصفه، أعني قوله تعالى: «الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ»، وتأخيره عن الوصف من الإخلال بجزالة

النظم الكريم ما لا يخفى، وفي إضافة الدين وهو دين الإسلام إليهم، ثم وصفه بارتضائه لهم من مزيد الترغيب فيه والتثبيت عليه. [روح المعاني(١٨ /٢٠٨)].

وتمكين الدين: انتشاره في القبائل والأمم وكثرة متبعيه. استعير التمكين الذي حقيقته التثبيت والترسيخ لمعنى الشيوع والانتشار؛ لأنه إذا انتشر لم يخش عليه الانعدام، فكان كالشيء المثبَّت المرسّخ، وإذا كان متَّبعوه في قلة كان كالشيء المضطرب المتزلزل. وهذا الوعد هو الذي أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة، منها حديث ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا». [مسلم ٢٨٨٩].

وقوله: «لَهُمْ» مقتضى الظاهر فيه أن يكون بعد قوله: «دِينَهُمُ»؛ لأن المجرور بالحرف أضعف تعلقًا من مفعول الفعل، فقدم «لَهُمْ» عليه للإيماء إلى العناية بهم، أي بكون التمكين لأجلهم، كتقديم المجرور على المفعولين في قوله: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ» [الشرح: ١- ٢].

وإضافة الدين إلى ضميرهم لتشريفهم به، لأنه دين الله، كما دل عليه قوله عقبه: «الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ»، أي الذي اختاره ليكون دينهم، فيقتضي ذلك أنه اختارهم أيضاً ليكونوا أتباع هذا الدين. وفيه إشارة إلى أن الموصوفين بهذه الصلة هم الذين ينشرون هذا الدين في الأمم؛ لأنه دينهم فيكون تمكنه في الناس بواسطتهم.

وإنما قال: «وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا» ولم يقل: وليؤمننهم، كما قال في سابقَيْه؛ لأنهم ما كانوا يطمحون يومئذٍ إلا إلى الأمن، كما ورد في حديث أبي العالية المتقدم آنفًا، فكانوا في حالة هي ضد الأمن، ولو أعطوا الأمن دون أن يكونوا في حالة خوف لكان الأمن منّة واحدة. وإضافة الخوف إلى ضميرهم للإشارة إلى أنه خوف معروف مقرر.

وتنكير «أَمْنًا» للتعظيم، بقرينة كونه مبدّلاً من بعد خوفهم المعروف بالشدة. والمقصود: الأمن من أعدائهم المشركين والمنافقين. وفيه بشارة بأن الله مزيل الشرك والنفاق من الأمة. [التحرير والتنوير(١٨/ ٢٨٧)].

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ- رَحِمَهُ اللهُ-: قَالَ عُلَمَاؤُنَا: هَذِهِ الآيَةُ وَعْدُ حَقٍّ، وَقَوْلُ صِدْقٍ، يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى صِحَّةِ إِمَامَةِ الْخُلَفَاءِ الأَرْبَعَةِ، لأَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْهُمْ أَحَدٌ فِي الْفَضِيلَةِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، فَأُولَئِكَ مَقْطُوعٌ بِإِمَامَتِهِمْ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِمْ.

وَصَدَقَ وَعْدُ اللهِ فِيهِمْ، وَكَانُوا عَلَى الدِّينِ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَاسْتَقَرَّ الأَمْرُ لَهُمْ، وَقَامُوا بِسِيَاسَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَذَبُّوا عَنْ حَوْزَةِ الدِّينِ، فَنَفَذَ الْوَعْدُ فِيهِمْ، وَصَدَقَ الْكَلامُ فِيهِمْ، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ هَذَا الْوَعْدُ بِهِمْ يُنْجَزُ، وَفِيهِمْ نَفَذَ، وَعَلَيْهِمْ وَرَدَ، فَفِيمَنْ يَكُونُ إِذَنْ؟ وَلَيْسَ بَعْدَهُمْ مِثْلُهُمْ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَلا يَكُونُ فِيمَا بَعْدَهُ.

قَامَ أَبُو بَكْرٍ بِدَعْوَةِ الْحَقِّ، وَاتِّفَاقِ الْخَلْقِ، وَوَاضِحِ الْحُجَّةِ، وَبُرْهَانِ الدِّينِ، وَأَدِلَّةِ الْيَقِينِ، فَبَايَعَهُ الصَّحَابَةُ، ثُمَّ اسْتُخْلِفَ عُمَرُ فَلَزِمَتْ الْخِلافَةُ، وَوَجَبَتْ النِّيَابَةُ، وَتَعَيَّنَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، ثُمَّ جَعَلَهَا عُمَرُ شُورَى، فَصَارَتْ لِعُثْمَانَ بِالنَّظَرِ الصَّحِيحِ، وَالتَّبْجِيلِ الصَّرِيحِ، وَالْمَسَاقِ الْفَسِيحِ، جَعَلَ الثَّلاثَةَ أَمْرَهُمْ إِلَى ثَلاثَةٍ، ثُمَّ أَخْرَجَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ نَفْسَهُ بِشَرْطِ أَنْ يَكُونَ إِلَى مَنِ اخْتَارَهُ مِنْ

الرَّجُلَيْنِ، فَاخْتَارَ عُثْمَانَ، وَمَا عَدَلَ عَنْ الْخِيَارِ، وَقَدَّمَهُ وَحَقُّهُ التَّقْدِيمُ عَلَى عَلِيٍّ.

ثُمَّ قُتِلَ عُثْمَانُ مَظْلُومًا فِي نَفْسِهِ، مَظْلُومًا جَمِيعُ الْخَلْقِ فِيهِ، فَلَمْ يَبْقَ إلاَّ عَلِيٌّ، أَخْذًا بِالأَفْضَلِ فَالأَفْضَلِ، وَانْتِقَالاً مِنْ الأَوَّلِ إلَى الأَوَّلِ، فَلاَ إشْكَالَ لِمَنْ جَنَفَ عَنِ الْمُحَالِ، أَنَّ التَّنْزِيلَ عَلَى هَؤُلاءِ الأَرْبَعَةِ وَعْدُ اللهِ فِي هَذِهِ الآيَةِ. [أحكام القرآن لابن العربي(٣/ ١٣٩٢)].

وقال ابن كثير- رَحِمَهُ اللهُ-: روى مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «لاَ يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ» [مسلم ١٨٢١].

وهذا الحديث فيه دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادل، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر، فإن كثيرًا من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شيء، فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش، يَلُون فيعدلون. وقد وقعت البشارة بهم في الكتب المتقدمة، ثم لا يشترط أن يكون متتابعين، بل يكون وجودهم في الأمة متتابعًا ومتفرقًا، وقد وُجِد منهم أربعة على الولاء، وهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عنهم. ثم كانت بعدهم فترة، ثم وُجِد منهم ما شاء الله، ثم قد يُوجَد منهم مَن بقي في وقت يعلمه الله. ومنهم المهدي الذي يطابق اسمُه اسمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنيته كنيته، يملأ الأرض عدلاً وقسطًا، كما ملئت جورًا وظلمًا. [تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٠١)].

وهكذا تحقق وعد الله، وظل متحققًا وواقعًا ما قام المسلمون على شرط الله: «يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا» لا من الآلهة ولا من الشهوات، ويؤمنون ويعملون صالحًا، ووعد الله مذخور لكل من يقوم على شرطه من هذه الأمة إلى يوم القيامة. إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن؛ لتخلف شرط الله في جانب من جوانبه الفسيحة، أو في تكليف من تكاليفه الضخمة، حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء، وجازت الابتلاء، وخافت فطلبت الأمن، وذلت فطلبت العزة، وتخلفت فطلبت الاستخلاف، كل ذلك بوسائله التي أرادها الله، وبشروطه التي قررها الله، تحقق وعد الله الذي لا يتخلف، ولا تقف في طريقه قوة من قوى الأرض جميعًا.

إن الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتأملها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد الله في تلك الآيات، ولا بد أن يبحث عن مصداقها في تاريخ الحياة البشرية، وهو يدرك شروطها على حقيقتها، قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب، أو يستبطئ وقوعها في حالة من الحالات.

إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج الله، وحكّمت هذا النهج في الحياة، وارتضته في كل أمورها، إلا تحقق وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن. وما من مرة خالفت عن هذا النهج إلا تخلّفت في ذيل القافلة، وذلت، وطرد دينها من الهيمنة على البشرية، واستبد بها الخوف، وتخطفها.

ألا وإن وعد الله قائم. ألا وإن شرط الله معروف. فمن شاء الوعد فليقم بالشرط، «يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا». [في ظلال القرآن ٦/ ١٢٠و١٢١].

والحمد لله رب العالمين.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهدم الأضرحة

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعيرة عظيمة من شعائر هذا الدين، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ (آل عمران: ١٠٤- ١٠٩).

قال الرازيّ - عفا الله عنه-: اعلم أنَّهُ تعالى - في الآيات المتقدمة على هذه الآيات - عابَ أهلَ الكتاب على شيئين: أحدهما: أنَّهُ عابهم على الكفر، فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ (آل عمران: ٩٨)؟ ثُمَّ بعدَ ذلك عابَهم على سعيهم في إلقاء الغير في الكفر، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٩٩)؟ فلمَّا انتقل منه إلى مخاطبة المؤمنين أمرَهم أولاً بالتَّقوى والإيمان، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٢-١٠٣)، ثُمَّ أمرَهم بالسَّعي في إلقاء الغير في الإيمان والطَّاعة، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ (مفاتيح الغيب ٨/ ١٨١)؛ لأنَّهُ لا يكفي أنْ يكونَ العبدُ مؤمنًا في نفسه حتى يدعو غيرَهُ إلى الإيمان، ولا يكفي أنْ يكونَ صالحًا حتى يسعى في إصلاح غيره، ولا يكفي أنْ يكونَ مهتديًا حتى يسعى في هداية غيره، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر)، فإذا دعا المؤمنُ الكافرَ إلى الإيمان، والفاسقَ إلى ترك الفسوق والعصيان، فقَبِلَ منه، فذلك فضلٌ

الرحمن، وإنْ لم يُقْبَلْ منه فقد برَّأَ ذمتَهُ، ولا يضرُهُ كفرُ الكافر، ولا فسقُ الفاسق، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥)، يعني إذا أمرتُم بالمعروف، ونهيتُم عن المنكر، فلم يُقْبَلْ منكم، فلا يضرُكم ضلالُ الضَّالين، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: ١٦٤).

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وفي قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ﴾ قولان:

أحدهما: أنَّ ﴿مِنْ﴾ للتَّبْيِين لا للتبْعيض، كقوله تعالى:

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ (الحج: ٢٠)، وقول الرجل لابْنه: أريدُ منك رجلاً. ومعنى الآية: كونوا أمةً دعاةً إلى الخير، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر، ويدلُّ على ذلك دليلان:

الأولُ: أنَّ الله تعالى أوجبَ الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المنكر على كلِّ الأمة في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

والثَّاني: هو أنَّهُ لا مكلفَ إلاَّ ويجبُ عليه الأمرُ بالمعروف والنَّهي عن المنكر، إمَّا بيده، أو بلسانه، أو بقلبه. ويجبُ على كلِّ أحدٍ دفعُ الضررِ عن النَّفس.

والقولُ الثَّاني: أنَّ ﴿مِنْ﴾ للتبعيض؛ لأنَّ في القوم من لا يقدرُ على الدَّعوة، ولا على الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، كالمرضى والعاجزين، وعليه فإنَّ هذا التَّكليفَ مختصٌ بالعلماء، ويدلُّ عليه وجهان:

الأولُ: أنَّ هذه الآيةَ مشتملةٌ على الأمر بثلاثة أشياء: الدعوةُ إلى الخير، والأمرُ بالمعروف، والنَّهيُ عن المنكر، ومعلومٌ أنَّ الدَّعوةَ إلى الخير مشروطةٌ بالعلم بالخير وبالمعروف وبالمنكر، فإنَّ الجاهلَ ربَّمَا دعا إلى الباطل، وأمرَ بالمنكر، ونهى عن المعروف، وقد يُغْلظُ في موضع اللين، ويَلينُ في موضع الغلظة، وينكرُ على من لا يزيدُهُ إنكارُه إلاَّ تماديًا، فثبتَ أنَّ هذا التَّكليفَ متوجهٌ إلى العلماء، ولا شكَّ أنَّهم بعضُ الأمة، ونظيرُ هذا في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ (التوبة: ١٢٢).

الثاني: أنَّا جمعنا على أنَّ ذلك واجبٌ على سبيل الكفاية، بمعنى أنَّهُ متى قامَ به البعضُ سقطَ عن الباقين، وإذا كان كذلك كان المعنى ليقمْ بذلك بعضُكم، فكان في الحقيقة إيجابًا على البعض لا على الكل. (مفاتيح الغيب ٨/١٨٢).

وقد جمعَ ابْنُ كثيرٍ – رحمه الله- بيْنَ القولين بأنَّ الدَّعوةَ فرضٌ واجبٌ على كلِّ مسلم بحسب استطاعته، كما في الحديث: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» (مسلم ٤٩)، وأنَّ على الأمة أنْ تُخَصِّصَ طائفةً منها للقيام بهذا الواجب، فإنَّ الدَّعوةَ إلى الخير تتفاوت، فمنها ما هو بيِّنٌ يقومُ به كلُّ مسلم، وذلك كالدَّعوة إلى إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وترك الزنى والرِّبا والخمر، ونحو ذلك، ومنها ما يحتاجُ إلى علم، فهذا الذي تقومُ به الطائفةُ الخاصة، وهو ما يسمى بفرضِ الكفاية، فالأمَّة كلُّها مكلفة بأن يكون فيها علماءُ متخصِّصُون متفرِّغون للدَّعوة في الداخل والخارج، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويحوطهم السلطانُ بقوَّة تحميهم وتساندهم، وتعاونهم على تغيير المنكر باليد في الشوارع والطرقات، فمنهجُ الله في الأرض ليس مجرَّدَ وعظ وإرشاد وبيان فهذا شَطْرٌ، أمَّا الشَّطْرُ الآخر فهو القيامُ بسلطةِ الأمر والنَّهي على تحقيق المعروف ونفي المنكر من الحياة البشرية، وصيانة تقاليد الجماعة الخيِّرَة أن يعبث بها كلُّ ذي هوى، وكلُّ ذي شهوة، وكلُّ ذي مصلحة، وحماية هذه التقاليد الصالحة من أن يقولَ فيها كلُّ امرئٍ برأيه وبتصوُّره زاعمًا أنَّ هذا هو الخير والمعروف والصواب. (الظلال ٢/ ٢٨).

الدعوة إلى إحياء وظيفة الحسبة:

وهذه هي وظيفة الحسبة، التي عمل بها المسلمون قرونًا كثيرة، ثم أُهملت فانتشر الفساد في الأرض، ونحن نرجو الله أن يوفق من سيتولى أمر هذه البلاد إلى إحياء هذه الوظيفة، حتى تصبغ الحياة كلها بالصبغة الإسلامية، فتنتشر الفضيلة، وتختفي الرذيلة، وتملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت ظلمًا وجورًا.

شروط المحتسب:

ويشترط في الأفراد الذين يعينون لهذه الوظيفة شروط:

العلم بالمعروف والمنكر:

أنْ يكونَ كلٌّ منهم عالمًا بالمعروف، فإنْ لم يكنْ عالمًا فإنَّهُ لا يجوزُ أنْ يأمرَ به؛ لأنَّهُ قد يأمرُ بما يظنُّهُ معروفًا وهو منكرٌ ولا يدري، ولا بدَّ أنْ يكونَ عالمًا بالمنكر، فإنْ لم يكنْ عالمًا به فلا ينهَ عنه؛ لأنَّهُ قد ينهى عن شيْءٍ هو معروفٌ، أو ينهى عن شيْءٍ يظنُّهُ منكرًا وهو مباحٌ، فيضيِّقُ على عباد الله ما وسَّعَ الله عليهم.

ولذلك قال معاذُ بْنُ جبل: العلمُ إمامٌ والعملُ تابعه. وقال عمرُ بْنُ عبد العزيز: من عبدَ الله بغير علم كان ما يفسدُ أكثرُ ممَّا يصلحُ. وترجمَ البخاريُّ في صحيحه بذلك فقال: (بَابُ الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ) قال ابْنُ المنذر: أرادَ به أنَّ العلمَ شرطٌ في

صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلاَّ به. فهو متقدمٌ عليهما لأنَّهُ مصححٌ للنيَّة المصححة للعمل (فتح الباري ١/ ١٥٩ - ١٦٠)، وهذا ظاهرٌ، فإنَّ القصدَ والعملَ إنْ لم يكن بعلم كان جهلاً وضلالاً واتباعًا للهوى، وهذا هو الفرقُ بيْنَ أهل الجاهلية وأهل الإسلام. فلا بدَّ من العلم بالمعروف والمنكر والتَّمييز بيْنَهما.

العلم بحال الناس قبل الأمر والنهي:

ولا بدَّ من العلم بحال المأمور والمنهي، فلا يأخذُ النَّاسَ بالتُّهم والظنون، فيبادرُ بأمرهم بمعروفٍ يظنُّهم تاركيه وهم له فاعلون، أو يبادرُ بنهيهم عن منكرٍ يظنهم فاعليه وهم له تاركون، ولذلك كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يستفهمُ أولاً قبلَ أنْ يأمرَ:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إذْ جَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَصَلَّيْتَ يَا فُلاَنُ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ» (متفق عليه)، فلم يأمرهُ بالصلاة حتى سألَهُ وعرفَ منه أنَّهُ لم يصل.

ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة الفتنة والمفسدة:

ويشترطُ أنْ تكونَ مصلحةُ الأمر والنَّهي راجحةً على المفسدة؛ إذ بهذا بُعثت الرسلُ، ونزلت الكتبُ، ﴿وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥)، بل كلُّ ما أمرَ به فهو صلاح، وقد أثنى على الصَّلاح والمصلحين، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذمَّ المفسدينَ في غير موضع، وقد كان صلى الله عليه وسلم يحبُّ توسعةَ الكعبة، ثُمَّ ترك ذلك لما يخشاه من المفسدة، كما في الصحيح: عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «لَوْلاَ أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ، أَوْ قَالَ بِكُفْرٍ، لأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالأَرْضِ وَلأَدْخَلْتُ فِيهَا مِنَ الْحِجْرِ» (متفق عليه).

فحيثُ كانتْ مفسدةُ الأمر والنَّهي أعظمَ من مصلحته لم تكن ممَّا أمرَ اللهُ به، وإنْ كان قد تُرِكَ واجبٌ وفُعِلَ محرم؛ إذ المؤمنُ عليه أنْ يتقي اللهَ في عباده وليس عليه هداهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥)، والاهتداءُ إنَّما يتمُّ بأداء الواجبات، فإذا قام المسلمُ بما يجبُ عليه من الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، كما قامَ بغيره من الواجبات، لم يضرَّهُ ضلالُ من ضل.

غلط المخالفين لهذه القاعدة:

وهنا يغلطُ فريقان من النَّاس: فريقٌ يتركُ ما يجبُ من الأمر والنَّهي، تأويلاً لهذه الآية، وقد بيَّنَا الصوابَ منها. والفريقُ الثَّاني: من يريدُ أنْ يأمرَ وينهى إمَّا بلسانه أو بيده مطلقًا من غير فقه وحلم وصبر ونظر فيما يَصْلُحُ من ذلك وما لا يصلح، وما يقدرُ عليه وما لا يقدرُ، فيأتي بالأمر والنَّهي معتقدًا أنَّهُ مطيعٌ في ذلك لله ورسوله، وهو معتدٍ في حدوده، كما انتصبَ كثيرٌ من أهل البدع والأهواء، كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممَّن غلطَ فيما أتاه من الأمر والنَّهي والجهاد على ذلك، وكان فسادُهُ أعظمَ من صلاحه.

وقد تناقلت وسائل الإعلام أوائل الشهر الماضي نبأ قيام بعض الشباب بهدم الأضرحة والمقامات، ونسبت ذلك إلى السلفية والسلفيين قبل أن يتم أي تحقيق، ونحن نقول: إن المتهم بريء حتى تثبت إدانته، وغير مُسْتَبعَد أن يقوم بهذا العمل مفسدون في الأرض، لا يريدون الخير للبلاد، ويريدون تشويه صورة السلفيين تنفيرًا للناس منهم، كما أننا لا ننكر أن يقوم بعض الشباب المتحمسين الغيورين بهذا العمل لقلة فقههم، وبُعدهم عن الراسخين في العلم، الذين يقدرون الأشياء حق قدرها، وينظرون في عواقب الأمور، ويوازنون بين المصالح والمفاسد، وفق هذه القاعدة التي بيناها، ولهؤلاء الشباب نقول: يا أبناءنا - وفقكم الله - لا تستعجلوا، ولا تقدموا على شيء حتى ترجعوا إلى العلماء الربانيين، وتعلَّموا الأصول، فإن من لم يتعلم الأصول حُرِمَ الوصول، وابدءوا بما بدأ الله به ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فالدعوة أولاً، ثم الأمر والنهي وفق الأصول والقواعد التي بيناها، فادعوا إلى الخير، وفقِّهوا الناس في الدين، وعلموهم الأصول المتفق عليها، واتركوا المختلف فيه الآن، حتى يدخل الناس في دين الله أفواجًا.

الرفق واللين:

ولا بدَّ للدَّاعية أنْ يكونَ هينًا لينًا، رفيقًا رقيقًا، «فَمَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ» (متفق عليه)، وقد بعثَ اللهُ موسى وهارونَ إلى فرعونَ فقال لهما: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: ٤٤)، فإذا كان موسى أُمِرَ أنْ يقولَ لفرعونَ قولاً لينًا، فنحنُ أولى بذلك، وحينئذٍ يحصلُ الآمرُ النَّاهي على مرغوبه، ويظفر بمطلوبه، ولذلك امتنَّ اللهُ على نبيِّه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

الحلم والصبر:

ولابدَّ أيضًا أنْ يكونَ حليمًا صبورًا على الأذى، فإنَّهُ لا بدَّ أنْ يحصلَ له أذى، فإنْ لم يحلمْ ويصبرْ كان ما يفسدُ أكثرُ ممَّا

يصلح، كما قال لقمانُ لابنه ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (لقمان: ١٧)، ولهذا أمرَ الله الرُّسلَ -وهم أئمةُ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر بالصبر- وأمرَ بها خاتمهم منذُ أنْ كلَّفَهُ بالدَّعوة فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر: ١-٧)، فافتتحَ آياتِ الإرسالِ إلى الخَلْقِ بالأمرِ بالنِّذارة، وختمَها بالأمرِ بالصَّبر، ونفسُ الإنذارِ أمرٌ بالمعروفِ ونهيٌ عن المنكر، فعُلِمَ أنَّهُ يجبُ بعدَ ذلك الصَّبر، وقد تكررَ الأمرُ بالصبرِ كثيرًا في القرآنِ الكريم.

فلا بدَّ من هذه الثَّلاثة: العلمُ، والرِّفقُ، والصَّبرُ، العلمُ قبلَ الأمرِ والنَّهي، والرِّفقُ معه، والصَّبرُ بعدَهُ، وإنْ كان كلٌّ من الثَّلاثة مُستَصحبًا في هذه الأحوال. ولهذا قالَ بعضُ السَّلف: لا يأمرُ بالمعروفِ وينهى عن المنكرِ إلاَّ من كان فقيهًا فيما يأمرُ به، فقيهًا فيما ينهى عنه، رفيقًا فيما يأمرُ به، رفيقًا فيما ينهى عنه، حليمًا فيما يأمرُ به، حليمًا فيما ينهى عنه. (مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٨ /١٢٦-١٣٧) باختصار).

البدء بالأخف:

ولا بُدَّ للآمرِ أن يكونَ كالطبيبِ الحكيمِ يُشخِّصُ الداءَ ويصفُ الدواءَ المناسبَ في الكمِّ والكَيْفِ من غيرِ إسرافٍ ولا تقتير، فلا يلجأُ إلى التَّصريحِ إذا أغنى عنه التلميح، ولا يلجأُ إلى الكلمةِ النابيةِ إذا أغنت عنها الكلمةُ الطيبة، ولا يلجأُ إلى الشِّدَّةِ إذا أغنى عنها اللين، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات:٩)، فقدَّم الإصلاحَ على القتال، وهذا يقتضي أن يَبْدَأَ في الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر بالأرفقِ مترقيًا إلى الأغلظ فالأغلظ، وقال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٤) فبدأ باللين ثم انتقل إلى الأشد فالأشد (مفاتيح الغيب(٨/ ١٨٤)).

وهذا من فقه الدعوة الذي يتعيَّنُ على كلِّ داعيةٍ حتى لا يُفسد أكثر مما يصلح، ولا يضرّ أكثر مما ينفع.

فإذا أخذ الداعيةُ نفسَهُ بهذه الآداب وُفِّق في دعوته وأقبل الناسُ عليها، فليحرص الدعاةُ جميعًا على تعلُّم فقه الدعوة وأصولها، والله الهادي إلى سواء السبيل.

فضائل الحسبة:

وفي قيام هذه الجماعة بهذا الواجب حفظُ الأمَّة من انتشار الرذائل والموبقات، وصيانةٌ لها من المهلكات، فإنَّ الشَّرَّ إذا غلب، والْخَبَثَ إذا كَثُرَ فقد هلكت الأمَّةُ كلُّها، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ (الأنفال: ٢٥).

عَنْ زَيْنَبَ بنْت جَحْش رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: «لا إِلَهَ إلا الله، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مِثْلُ هَذَا، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَبِالَّتِي تَلِيهَا. قَالَتْ زَيْنَبُ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟! قَالَ نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ» (متفق عليه).

وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا» (البخاري٢٤٩٣).

ومن فوائد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنَّهُ عُنوانُ كمال الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (التوبة: ٧١)، وتركه عنوانُ النفاق والطغيان، كما قال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ (التوبة: ٦٧).

ومن فوائد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر استحقاقُ أهله للفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

ومن فوائده استحقاقُ أهله لرحمة الله، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٧١)، فمن قام بالأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر فهو مرحوم، ومَنْ تركه فهو ملعون، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (المائدة: ٧٨- ٧٩).

ومن فوائده: استحقاقُ أهله للسَّلامة والنَّجاة من العذاب إذا نزل بالظالمين، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (هود: ١١٦)، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٢- ١٦٥).

قال أبو حامد الغزالي -رحمه الله-: «الأمرُ بالمعروف والنَّهيُ عن المنكر ركنٌ من أركان الدين، بل هو القطبُ الأعظمُ في الدِّين، وهو المهمُّ الذي ابتعثَ اللهُ له النَّبيِّين أجمعين، ولو طُويَ بساطه، وأُهمِلَ علمُهُ وعملُهُ لتعطلت النُّبوةُ، واضمحلت الدِّيانةُ، وعمت الفترةُ، وفشت الضَّلالةُ، وشاعت الجهالةُ، واستشرى الفسادُ، واتسع الخرقُ، وخربت البلادُ».

الحث على الاجتماع والنهي عن التفرق:

ثُمَّ نهى اللهُ تعالى عبادَهُ المؤمنين عن أنْ يكونوا كاليهود والنَّصارى في افتراقهم مذاهب، واختلافهم عن الحقِّ بسبب اتباع الهوى، وطاعة النَّفس، والحسد حتى صارَ كلُّ فريق منهم يصدقُ من الأنبياء بعضًا دون بعض، ويدعو إلى ما ابتدعَهُ في دينه، فصاروا إلى العداوة والفرقة من بعد ما جاءتهم الآياتُ الواضحة، المبيِّنَةُ للحقِّ، الموجبةُ للاتفاق على كلمة واحدة، وهي كلمةُ الحقِّ. فالنَّهيُ متوجهٌ إلى المتصدِّينَ للدَّعوة أصالةً، وإلى أعقابهم تبعًا. (محاسن التأويل (٤/ ١٧٨)).

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ترك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر يُفضي إلى التَّفرق والاختلاف؛ إذ تكثرُ النِّزعاتُ والنَّزغات، وتنشقُّ الأمةُ بذلك انشقاقًا شديدًا، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الاختلاف المذمومَ والذي يؤدي إلى الافتراق، هو الاختلافُ في أصول الدِّيانة الذي يُفضي إلى تكفير بعض الأمَّة بعضًا، أو تفسيقه، دون الاختلاف في الفروع المَبْنِيَة على اختلاف مصالح الأمة في الأقطار والأعصار، وهو المُعبَرُ عنه بالاجتهاد. (التحرير والتنوير ٤/ ٤٣).

وفي قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ من التَّأكيد والمبالغة في وعيد المتفرقين، والتَّشديد في تهديد المتشبِّهين بهم، ما لا يخفى (محاسن التأويل ٤/ ١٧٩)، وهذا الوعيدُ يقابلُ الوعدَ الكريمَ في الآية التي قبلَ هذه الآية، بقوله تعالى في الدَّاعين إلى الخير، الآمرين بالمعروف والنَّاهين عن المنكر: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فالفلاحُ في ذلك الوعد يشملُ الفوزَ بخير الدُّنيا والآخرة، والعذابُ في هذا الوعيد يشملُ خسرانَ الدُّنيا والآخرة.

أمَّا عذابُ الدُّنيا فهو أنَّ المتفرقينَ المختلفين الذين اتبعوا أهواءَهم وحكَّموا في دينهم آراءَهم، يكونُ بأسُهم بينَهم شديدًا، فيشقى بعضُهم ببعض، ثُمَّ يبتلونَ بالأمم الطامعة في الضعفاء فتذيقهم الخزيَ والنَّكال، وتسلبهم عزةَ الاستقلال، وأمَّا عذابُ الآخرة فقد بيَّنَ الله في كتابه أنَّهُ أشدُّ من عذاب الدُّنيا وأبقى. وذلك العذابُ العظيمُ يكونُ للمتفرقينَ المختلفينَ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، (مختصر المنار ١/ ٣٧٠ -٣٧١). أي تبيضُ وجوهٌ كثيرةٌ وهي وجوهُ المؤمنين؛ لاتباعها الدِّينَ الحقَّ الذي هو النُّورُ السَّاطعُ، وتسودُّ وجوهُ الكافرينَ من أهل الكتاب والمشركين، لاتباعها الضلالات المظلمة، وليستدلَّ بذلك على إيمانهم وكفرهم، فيُجازى كلٌّ بمقتضى حاله.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي كفرتم بعدَ ما ظهرَ لكم ما يوجبُ الإيمان، وهو الدَّلائلُ التي نصبها الله تعالى على التَّوحيد والنُّبوة، كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (آل عمران: ٧٠).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والمرادُ برحمة الله الجنة، وعُبِّرَ عنها بالرحمة تنبيهًا على أنَّ المؤمنَ وإنْ استغرقَ عمرَهُ في طاعة الله فإنَّهُ لا يدخل الجنةَ إلاَّ برحمته تعالى.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ الإشارةُ إلى ما تقدمَ من الوعد والوعيد ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ أي لا يشاءُ أنْ يظلمَ عبادَهُ، فيأخذَ أحدًا بغير جرم أو يزيدُ في عقاب مجرم، أو ينقصَ من ثواب محسنٍ.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي لله تعالى وحدَهُ، من غير شركة، وما فيهما من المخلوقات ملكًا وخلقًا، وإحياءً وإماتةً، وإثابةً وتعذيبًا، ﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾ أي إلى حكمه وقضائه ﴿تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ فيجازي كلاً بما وعدَهُ وأوعدَهُ، فلا داعي للظلم، لأنَّهُ غنيٌّ عن كلِّ شيء، وقادرٌ على كلِّ شيء. (محاسن التأويل ٤/ ١٩٠-١٩١).

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الصافات

الحلقة الرابعة

قال الله تعالى: [وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾] [الصافات: ٨٣- ١١٣].

قصة الخليل إبراهيم عليه السلام

يقول تعالى: وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ أي من شيعة نوح عليه السلام، وشيعة الرجل أعوانه وأنصاره وأتباعه، الذين هم على ملته وطريقته، ونهجه وسنته في توحيد الله تعالى والإيمان به، ودعوة الناس إلى توحيد الله تعالى والإيمان به، والصبر على مشاقّ الدعوة، وتحمُّل الأذى في سبيل الله عز وجل وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ، وهو الخليل عليه السلام، والد إسماعيل عليه السلام،

إعداد:
د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

وهذه منقبة عظيمة لإبراهيم، أنه من أنصار التوحيد ودعاته.

لا نجاة إلا بسلامة القلب

ثم يثني الله تبارك وتعالى على خليله بسلامة القلب، فيقول: إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ سليم من الشرك، سليم من الكفر، سليم من الرياء، سليم من النفاق، سليم من الغل، سليم من الحقد، سليم من الحسد، سليم من كل ما لا يرضي الله تبارك وتعالى، وإنما حرص عليه السلام على سلامة قلبه لاعتقاده أنه لا ينجو يوم القيامة إلا صاحب القلب السليم، ولذلك كان من جملة دعائه: وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ [الشعراء: ٨٧- ٨٩].

فمن أراد النجاة؛ فعليه بسلامة القلب، ومن أراد النجاة؛ فعليه بسلامة الصدر، فلا ينجو يوم القيامة إلا صاحب القلب السليم.

ضرورة الدعوة إلى الله

ولما سَلِمَ قلبه من الكفر والشرك اجتهد عليه السلام في دعوة الكفار والمشركين، فدعاهم إلى التوحيد الذي به تسلم قلوبهم؛ فإنه لا يكفي أن يكون قلبك سليمًا، بل يجب عليك إذا سَلِمَ قلبك؛ أن تدعو غيرك إلى سلامة القلب، لا يكفي أن تكون مؤمنًا حتى تدعو الكافرين إلى الإيمان، لا يكفي أن تكون موحدًا حتى تدعو المشركين إلى التوحيد، قال تعالى: وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ [العصر: ١- ٣] فأصلحوا بذلك أنفسهم وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ [العصر: ٣]، من أجل إصلاح غيرهم، وقال تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ [المائدة: ١٠٥] إذا اهتديتم في أنفسكم، ودعوتم غيركم إلى الاهتداء فلم يهتدوا؛ فلا يضركم ضلالهم، لكن لا يكفي أن تكون مهتديًا في نفسك غير هادٍ لغيرك، ولما أحس أبو بكر رضي الله عنه بانتشار هذا المفهوم بيّن الناس أنه لا يضرهم من ضل إذا كانوا هم مهتدين، صعد المنبر وصحّح المفاهيم:

عَنْ قَيْسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ، وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ». [أبو داود ٤٣٤٠ وصححه الألباني].

إنكار الخليل على أبيه وقومه:

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ وهو استفهام توبيخ وتبكيت؛ لأنه عليه السلام يعلم ماذا يعبد أبوه وقومه، أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ أي أتأفكون إفكًا، والإفك أسوأ الكذب، أي أتكذبون كذبًا، وتجعلون مع الله آلهة تعبدونها معه سبحانه وتعالى، وهو الذي لا إله غيره، ولا رب سواه.

فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ إذا لقيتموه يوم القيامة، وقد جعلتم معه آلهة أخرى؟! ما ظنكم أن يفعل بكم، وقد كفرتم به، وأشركتم به غيره؟!، ما ظنكم أن يفعل بكم، والله تعالى يقول: إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ [المائدة: ٧٢]، ويقول سبحانه: إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا [النساء: ٤٨]، ويقول جل شأنه: وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا [النساء: ١١٦].

ثم عزم عليه السلام أن يكسر هذه الأصنام التي يعبدها أبوه وقومه من دون الله، قال: وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ [الأنبياء: ٥٧]، وفي يوم عيد من أعيادهم دعَوْه إلى الخروج معهم، وقالوا: إنك لو خرجت معنا في عيدنا؛ لرأيت أن في ديننا فسحة، ولرأيت أن ديننا حسن، فاخرج معنا يا إبراهيم في يوم العيد.

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ قالوا: هذه حال المتفكر؛ لأن الإنسان إذا أراد أن يتفكر قطع الشواغل عن بصره، فينظر في السماء حتى لا يرى شيئًا حوله يشغله عما يفكر فيه، فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ، شأنه في ذلك شأن المتأمل المتدبر الذي يبحث عن جواب شيء يدور في خَلَده، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ، لا أستطيع الخروج معكم اليوم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام إِلاَّ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ: ثِنْتَيْنِ مِنْهُنَّ فِي ذَاتِ اللهِ عز وجل، قَوْلُهُ إِنِّي سَقِيمٌ وَقَوْلُهُ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا، وذكر الثالثة، وهي قوله عن سارة زوجته-وقد سأله عنها جبار مصر- فقال: هي أختي. [متفق عليه].

وهذا القول ليس كذبًا في الحقيقة، وإنما هو من معاريض الكلام، وكان يدافع به عن دين الله عز وجل، ويناضل به عن دين الله، فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ، أي مريض، لعله قصد: أنا مريض القلب من أحوالكم ومن عبادتكم غير الله عز وجل؛ لأن المسلم إذا رأى الشرك في الناس، وإذا رأى الكفر في الناس، وإذا رأى الناس معرضين عن التوحيد؛ يتقطع قلبه غيرةً وحميةً لدين الله عز وجل.

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ فتركوه وذهبوا، وكان من عادتهم في ذلك اليوم أنهم في الصباح يجمعون الطعام، طعام العيد من الحلوى، والفاكهة، ونحوها، ويضعونها في البهو في المعبد أمام الأصنام؛ طلبًا للبركة، فإذا كان آخر النهار أكلوا هذا الطعام الذي حصلت له البركة من الأصنام بزعمهم.

فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ أي دخل عليها خُفْية، فرأى الأصنام على ترتيبها؛ الأكبر، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، والطعام أمامهم، فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ وهو يعلم أنهم لن يجيبوا، ولكن هذا تهكّم وسخرية.

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ خصّ الضرب باليمين؛ لأن اليمين محل القوة والشدة في البطش، قال تعالى في سورة الأنبياء: فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا يعني كسَّرها تكسيرًا، وحطّمها تحطيمًا، إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ [الأنبياء: ٥٨]، ورجع القوم آخر النهار فوجدوا الأصنام مكسرة إلا واحدًا، قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا [الأنبياء: ٥٩]، انظر إلى هذا الغباء؛ الأصنام مكسرة وهم يصرّون أنها آلهة، أي إله هذا؟!، العاجز الذي لا يستطيع أن يدافع عن نفسه لا يصلح أن يكون إلهًا، قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ [الأنبياء: ٥٩- ٦٠]، قال العلماء: كلمة (فتًى) يمكن أن يُراد بها القدح، ويمكن أن يُراد بها المدح؛ فإن كان يُراد بها القدح فمعناه: أنه شاب صغير يتكلم عنهم فلا تعبأوا به، وإن كان يُراد بها المدح؛ فمعناه أنه شاب جلد قوي قادر على هذا الفعل، فيكون مدحًا له.

قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ [الأنبياء: ٦٤]، أرادوا أن تكون المحاكمة علانية؛ حتى لا يجرؤ أحد على فعل ما فعل إبراهيم؛ لأن الإنسان بطبيعته إذا رأى من يُحاكَم على شيء؛ لا يجرؤ على فعله، فأرادوا بمعاقبته زجرَ غيره، ولذلك قال ربنا عز وجل في جلد الزناة: وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ [النور: ٢]، فما الحكمة من شهود طائفة من المؤمنين جلْد الزناة أو رجمهم؟ الحكمة: العبرة والخوف والحذر من الفعل.

فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ فأتوا به على مشهد من الناس، وانعقدت المحاكمة، ووُجّه إليه السؤال: قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ [الأنبياء: ٦٢]، فأجاب: قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ [الأنبياء: ٦٢]، فكان الجواب صدمة لهم أفاقوا به من غفلتهم، قالوا: نعم، كيف نعبد أصنامًا لا تتكلم؟ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ [الأنبياء: ٦٤]، وكان هذا نور الفطرة الذي أضاء في قلوبهم هذه اللحظة، ولكنه لم يستمر، إنما كان ومضة صغيرة أضاءت، ثم انطفأت مرة ثانية ولم يستغلوها، ولذلك قال الله تعالى: ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ [الأنبياء: ٦٥]، أنت تعلم يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم، فكيف تقول: اسألوها؟ وهنا استشاط غضبًا وهو الحليم قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ [الأنبياء: ٦٦- ٦٧]، وقال هنا: قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ؟! أنتم الذين صنعتم هذه الأصنام، فكيف بعد ذلك تعبدونها؟! وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ، الله هو الذي خلقكم، وهو الذي خلق هذه الحجارة التي نحتموها على هيئة الأوثان والصور والتماثيل، فهو الذي يستحق أن يُعبَد؛ لأنه الذي خلق، ومن لم يخلق فهو عاجز، والعاجز لا يستحق أن يكون إلهًا، ولذلك قال ربنا سبحانه: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ [الحج: ٧٣]، فإذا عجزوا أن يخلقوا ذبابة فكيف يُعبدون؟! إنما الإله الحق هو الذي خلق السموات والأرض، وما بينهما، وما فيهما، ولذلك قال ربنا سبحانه: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ [البقرة: ٢١- ٢٢].

ومع هذا كله قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ [الأنبياء: ٦٨]، فهم مُصرُّون على كونها آلهتهم، وهنا قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ [الصافات:٩٧]، فبنوا سورًا على مساحة واسعة، له أربع جدران مرتفعة جدًا، وملأوه بالحطب، ثم أوقدوا نارًا، وأوثقوا الخليل إبراهيم عليه السلام بالحبال وألقوه في هذه النار.

فضل قوله: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ [آل عمران: ١٧٣]. [البخاري ٤٥٦٣].

قال الله تعالى: قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ [الأنبياء: ٩٦- ٧٠]، وهو القائل، وقال هنا: فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ وهو الأعلى.

وبعد مدة انطفأت النار، وخرج إبراهيم عليه السلام كأنما كان يتنزه في بستان، حتى جاء عنه في بعض الروايات أنه قال: ما عشت أيامًا أحلى ولا ألذ من أيام النار.

هجرة الخليل عليه السلام

وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ وقال في

سورة العنكبوت: وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [العنكبوت: ٢٦] لأعبد الله في أرضه الواسعة، وسَيَهْدِينِ ربي لما فيه صلاح ديني ودنياي، ثم توجه إلى الله يسأله العوض عما ترك فقال: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ هب لي ذرية طيبة صالحة تعوّضني بها عما خلّفت ورائي في الوطن من الأهل والقوم والعشيرة، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ وهو إسماعيل، رزقه من هاجر التي وهبها جبار مصر لسارة، فوهبتها سارة لزوجها إبراهيم.

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ لما كبر إسماعيل عليه السلام وصار شابًا يُرجَى نفعه، جاء الاختبار، فرأى إبراهيم عليه السلام أنه يذبحه، قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ورؤيا الأنبياء وَحْيٌ، فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ، ليس هذا لمجرد الاستشارة؛ لأن إبراهيم عليه السلام منفّذ لأمر ربه، وافق إسماعيل عليه السلام أم لم يوافق، ولكن إبراهيم عليه السلام أراد أن يشرك ولده في الأجر والثواب، فانظر إلى الجواب الشافي الكافي من إسماعيل عليه السلام، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ لأنه يعلم علم اليقين أن رؤيا أبيه حق، وأنها أمر من الله، ثم تبرأ من حوله وقوته، ولجأ إلى حول الله تعالى وقوته قائلاً: سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ .

وأخذ إبراهيمُ إسماعيلَ، وصعد به الجبل بعيدًا عن أمه، فَلَمَّا أَسْلَمَا لله عز وجل، وخضعا وانقادا، وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ قال ابن قتيبة: أي صرعه على جبينه، فصار أحد جبينيه على الأرض، وهما جبينان، والجبهة بينهما، وهي ما أصاب الأرض في السجود، والناس لا يكادون يفرّقون بين الجبين والجبهة، فالجبهة مسجد الرجل الذي يصيبه ندب السجود، والجبينان يكتنفانه، من كل جانب جبين. وهنا تحقق المقصود من الاختبار، فلم يكن المقصود تعذيب إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل بالذبح، ولكن المقصود تجريد قلب إبراهيم لله؛ لأن الله اتخذه خليلاً، ولا يجوز أن يكون خليلاً، ويحب مع الله غيره.

وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا [الصافات: ١٠٤] هكذا جاوزت الاختبار وفزت ونجحت؛ لأنه قد عزم على الفعل، ومن عزم فقد فعل. إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ [الصافات: ١٠٥- ١٠٦] أي العظيم، وهل هناك ابتلاء واختبار أعظم من هذا الابتلاء والاختبار، أن يُؤمَر الرجل بذبح ابنه بيده، وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ، التفت إبراهيم فرأى كبشًا سمينًا عظيمًا فأخذه فذبحه.

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ [الصافات: ١٠٨- ١١٢] فهل يُعقل بعد هذا أن يقال: إن الذبيح كان إسحاق، الذبيح هو إسماعيل؛ لأن الله تعالى بشّر إبراهيم بإسحاق بعد الانتهاء من الذبح، وكانت هذه البشارة بعض ما جزاه الله به في الدنيا على إسلامه وجهه لربه واستسلامه له، وكانت البشارة لما جاءت الملائكة لإهلاك قوم لوط عليه السلام، كما ذكر الله تعالى في سورة هود وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ [هود: ٦٩- ٧٢].

وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ لنفسه بالإيمان والعمل الصالح وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ بالكفر أو ما دونه من المعاصي مُبِينٌ أي ظلمه بيِّن ظاهر.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المحسنين، وأن يغفر لنا ذنوبا وإسرافنا في أمرنا وظلمنا لأنفسنا.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الصافات

الحلقة الخامسة

إعداد:
د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

قال تعالى: « وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ »

[الصافات: ١١٤ - ١٤٨]

ما زال الحديث موصولاً في الإشارات اللطيفة الموجزة في قصص الأنبياء عليهم السلام.

قصة موسى وهارون:

« وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ » أي أنعمنا عليهما، ونعم الله سبحانه وتعالى تكون بجلب المنافع ودفع المضار، والمنافع نوعان: دينية ودنيوية، والدينية أعظم من الدنيوية، والله سبحانه وتعالى أنعم على موسى وهارون

بنعم كثيرة، دينية ودنيوية، فمن النعم الدينية أن الله سبحانه وتعالى اجتباهما، واصطفاهما، واختارهما، ونبأهما، وأرسلهما إلى فرعون وملئه.

« وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ » هذا النوع الثاني من النعم وهو دفع المضار، والكرب العظيم هو استعباد فرعون لبني إسرائيل، « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ » [القصص: ٤]، « وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ » [الدخان: ٣٠- ٣١]، فالله سبحانه نجّى موسى وبني إسرائيل من الكرب العظيم، ومن العذاب المهين، الذي أذاقه فرعونُ بني إسرائيل.

« وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ » نصرنا موسى وهارون وبني إسرائيل فكانوا هم الغالبين، وقد بيَّن الله تعالى كيف نصرهم في مواضع كثيرة: كما في سور: يونس، والأعراف، والشعراء.

« وَءَاتَيْنَٰهُمَا » أي موسى وهارون « ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ » الكتاب البيِّن الواضح، وهو التوراة، « وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ » أي القيم الذي لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام؛ فإنه الطريق الموصلة إلى الحق والصواب عقلاً وسمعًا، أو إلى المطلوب وهو الجنة، « وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ »، وقد تقدّم الكلام على هذه الآيات.

قصة إلياس عليه السلام:

« وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ » ألا تخافون الله، ألا تخشون غضب الله، ألا تخافون عقاب الله. « أَتَدْعُونَ بَعْلًا » صنمًا كانوا يعبدونه، فأنكر عليهم نبيهم عبادته، فقال: « أَتَدْعُونَ بَعْلًا » أتعبدون صنمًا لا يبصر ولا يسمع، ولا يتكلم، ولا يضر ولا ينفع، « وَتَذَرُونَ » أي وتتركون عبادة « أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ »، وهو « ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ » فالذي يستحق العبادة هو الله؛ لأنه « ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ » [الأعلى: ٢- ٣]، « أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » [النحل: ١٧]؛ ولذلك لما أمر الله الناس بعبادته ذكر خلقه لهم ولغيرهم، فقال: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » [البقرة: ٢١- ٢٢]، أي فلا تجعلوا لله أشباهًا ونظراء من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وهم مثلكم مخلوقون، والحال أنكم تعلمون أن الله تعالى ليس له شريك في الخلق، وهو كذلك ليس له شريك في العبادة.

« فَكَذَّبُوهُ » أصروا على الشرك، واستكبروا عن التوحيد، فحقت عليهم كلمة العذاب، ولذلك قال تعالى: « فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ » أي في العذاب المهين يوم القيامة بسبب شركهم بالله وعبادتهم غير الله؛ لأن الله قال: « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ » [النساء: ٤٨]، وقال: « إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ » [المائدة: ٧٢].

« إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ » الذين أخلصهم الله لنفسه فأخلصوا العبادة لله، الذين عبدوا الله ولم يشركوا به شيئًا، فأولئك في جنات النعيم.

« وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ » [الصافات: ١٢٩- ١٣٢]، وقد تقدم الكلام على هذه الآيات.

قصة لوط عليه السلام:

« وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ » وكان لوط ابن أخي إبراهيم عليه السلام، هاجر معه من العراق واستقر في الشام، ونبّأه الله تعالى وأرسله إلى تلك القرى، وكانوا قوم سوء، كانوا مع شركهم يأتون الفاحشة التي ابتدعوها ما سبقهم بها من أحد من العالمين، وهي الاستغناء بوطء الرجال عن النساء، وحاول لوط عليه السلام جاهدًا أن يثنيهم عن الفاحشة، وعن الشرك بالله عز وجل، لكن القوم أصروا واستكبروا استكبارًا، « فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ

﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ » [هود: ٨٢- ٨٣]، فالله سبحانه وتعالى يحذّر كفار قريش، وكانت لهم أسفار إلى الشام واليمن، وهما رحلتا الشتاء والصيف، وكانوا يمرون بهذه القرى المُدمَّرَة البائدة، فأنكر الله عليهم عدم الاعتبار بما أصاب القوم، فقال: « ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ » إنكم تمرون عليهم بالليل وبالنهار، فاعتبروا واحذروا؛ لأنهم لما كذّبوا رسلهم كانت عاقبتهم كما ترون، فاحذروا أن تكونوا مثلهم، فإن العاقل من اتعظ بغيره.

قصة يونس عليه السلام:

« وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ » سماه النبي صلى الله عليه وسلم يونس بن متى، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى» [متفق عليه].

ولقد أرسله الله تبارك وتعالى إلى نِينَوى بالموصل بالعراق، فلبث فيهم سنين يدعوهم إلى التوحيد والإيمان بالله رب العالمين، لكن القوم لم يستجيبوا له مع طول المدة، ولم يؤمنوا به، فلما أصرّوا على الكفر خرج من بينهم غضبان لربه أنهم لم يؤمنوا، ولما يأذن الله تبارك وتعالى له في الهجرة، والواجب على النبي ألا يهجر قومه حتى يأذن الله تعالى له، لكن يونس عليه السلام لما غضب على قومه خرج من بينهم دون أن يأذن الله له، فكان هذا ذنبًا عظيمًا من يونس، فعاقبه الله تعالى بالحبس في سجن لم يسجن فيه غير يونس عليه السلام وهو بطن الحوت، ولذلك أمر الله تعالى نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم بالصبر، ونهاه عن الاستعجال، فقال: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ» [القلم: ٤٨]، إياك أن تهجر قومك دون أن يأذن الله لك، اصبر عليهم وتحملهم حتى يأتي أمر الله، ولذلك أذن النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في الهجرة بعدما اشتد بهم عذاب قريش واضطهادهم، وظل هو صلى الله عليه وسلم صابرًا محتسبًا، وكان أبو بكر رضي الله عنه كلما همَّ بالهجرة يقول له: اصبر يا أبا بكر لعل الله أن يجعل لك صاحبًا، فكان أبو بكر يفهم أنه يعني نفسه.

على الداعية أن لا يغيّر البيئة حتى يستخير ربه:

لما هجر يونس عليه السلام قومه وخرج من بينهم؛ « إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ » أي المملوء، وكان من عادتهم إذا كان الحمل ثقيلاً على السفينة أن يلقوا أحد الركاب حتى يخفّ الحمل وتسير السفينة، فقالوا: لا بد من إلقاء بعض الركاب حتى يخفّ الحمل، فهمَّ يونس عليه السلام بإلقاء نفسه، وهم يعرفون أنه نبي فامتنعوا عن إلقائه، فعزم فامتنعوا، فلما رأوا إصراره اتفقوا على إجراء القرعة، «فَسَاهَمَ» أي اقترع مع ركاب السفينة، فخرج سهم يونس عليه السلام «فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ » أي المغلوبين بالقرعة، « فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ »، أي أتٍ بما يُلام عليه، وهو هجره قومه دون أن يأذن له ربه.

لذلك يجب على الداعية إذا كان في مكان ما يدعو فيه الناس إلى الله تعالى، وبدا له أن يغيّر البيئة، يجب عليه أن لا يستعجل بتغيير البيئة حتى يستخير الله تعالى، فيقسم الله له الخير، فالله تعالى يقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» [البقرة: ٢١٦]، فإذا كان الداعية في بيئة ووقع في قلبه أن يغيرها، فلا بد له من الاستخارة، أن يتبرأ من حوله وقوته، ويلجأ إلى حول الله وقوته، وأن يتوسل إلى الله بعمل صالح أن لا يكله إلى نفسه في هذا الأمر، فربما رأى الداعية بعض الأماكن خيرًا له، وخيرًا من بيئته التي هو فيها، ورجا أن

تكون الدعوة هناك أحسن، فخرج دون استخارة، فكانت العاقبة التي لا تُحمد، وكانت البيئة التي انتقل إليها شرًا من البيئة التي انتقل منها.

تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة:

« فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ »: قال بعض أهل العلم: المراد بالتسبيح نداؤه في بطن الحوت، « وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ » [الأنبياء: ٨٧]، فنفعه هذا التسبيح وهذا الاعتراف بالذنب والخطيئة وظلم النفس، فأنجاه الله سبحانه وتعالى من الحبس في بطن الحوت، ولولا هذا التسبيح للبث في بطن الحوت إلى يوم القيامة. هذا رأي.

والرأي الثاني ولعله الأرجح «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ» الذاكرين العابدين الحامدين قبل هذا البلاء، وقبل هذه المحنة، لولا ذلك « لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » فَشفَّعَ الله تعالى في يونس وقت المحنة صالحَ عمله الذي قدّمه في وقت الرخاء، ومن هنا جاء الحديث: «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ» [ابن ماجه ٢٩٥٨ وصححه الألباني].

فإذا كنت في حالة النعمة والمنحة مسبِّحًا مهلِّلاً مكبرًا حامدًا عابدًا ذاكرًا، فإنك إذا ابتُليت بالنقمة، وابتُليت بالبلاء، فدعوت الله سبحانه وتعالى شفَّع الله فيك ماضيك الحسن، وشفَّع فيك سابق عملك الصالح، ونجّاك مما وقعت فيه من الضيق، ومما نزل بك من الهم والبلاء، والكرب والخطب.

قال بعض السلف: من أراد أن يعرفه الله في الشدة، فليعرف الله في الرخاء، فإن يونس لما وقع في بطن الحوت، قال: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فقال الله تعالى: « فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ».

«فَنَبَذْنَٰهُ » النبذ معناه الطرح والإلقاء، أي طرحناه وألقيناه «بِٱلْعَرَآءِ » الخلاء الواسع «وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾»، وهو متعب، كليل، عليل؛ من الضيق الذي كان فيه.

« وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ » قالوا شجرة اليقطين هي شجرة القرع؛ لأن ورقها عريض، والذباب لا يسقط عليها، فحماه الله تبارك وتعالى بهذه الشجرة من حر الشمس، وأذى الذباب، وخاصة أنه سقيم.

« وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ » وكان القوم حين فقدوه تأكدوا من صدق كلامه أن العذاب سيحل بهم فآمنوا أجمعون، وخرجوا إلى الصحراء بأولادهم وبهائمهم رجالاً ونساءً وأطفالاً ورُضّعًا، يجأرون بالدعاء والتوبة والاستغفار، فاستجاب الله لهم، وتاب عليهم، ورفع عنهم العذاب، ورد عليهم يونس عليه السلام، وسُنّة الله في الكافرين أن العذاب إذا نزل بهم فآمنوا لم ينفعهم الإيمان، كما قال تعالى: «فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا» [غافر: ٨٤- ٨٥]، لكن الله تعالى استثنى من هذه السُّنّة قومَ يونس، ولذلك قال تعالى: «فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ » [يونس: ٩٨].

« وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ » قال بعض المفسرين: أو هنا للإضراب بمعنى بل، وأرسلناه إلى مائة ألف بل يزيدون، فهو خبر مقطوع أنهم أكثر من مائة ألف، قالوا: كانوا مائة ألف وعشرين ألفًا، وقالوا: مائة وثلاثين ألفًا، والله تعالى أعلم.

وقال بعضهم: «فَـَٔامَنُوا۟ » في نظر الرائي، إذا أحصاهم قال: مائة ألف أو يزيدون.

«فَـَٔامَنُوا۟ » لما رجع إليهم يونس عليه السلام «فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾».

وللحديث بقية، والحمد لله رب العالمين.

التحذير من مخالفة الشريعة

إعداد/ د عبد العظيم بدوي
نائب الرئيس العام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير النبيين وإمام المرسلين ورحمة الله للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

أما بعد: قال تعالى: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾» [الجاثية: ١٦ - ١٩].

كانت القيادة قبل الإسلام لبني إسرائيل، كانوا هم أصحاب العقيدة الصحيحة التي اختارها الله لتلك الفترة من التاريخ، ولا بد للبشر من قيادة مستمدّة من التشريع الإلهي، فالأرض قيادتها هوى أو جهل أو قصور، والله خالق البشر هو وحده الذي يشرع لهم شريعته مبرأة من الهوى فكلُّهم عباده، مبرأة من الجهل والقصور فهو الذي خلقهم، وهو أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير.

وفي هذه الآيات يذكر الله تعالى أنه أنعم على بني إسرائيل بنعم كثيرة؛ ليشكروه باتباع شريعته، والعمل بما علّمهم على ألسنة رسلهم الذين بعثهم فيهم، ولكنهم بدّلوا نعمة الله كفرًا، ولم يتبعوا شريعته، ولم يعملوا بما تعلموا.

قال الرازي-عفا الله عنه-: اعلم أن النعم على قسمين: نعم الدين، ونعم الدنيا، ونعم الدين أفضل من نعم الدنيا، فلهذا بدأ الله تعالى بذكر نعم الدين، فقال: «وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ » والأقرب أن كل واحد من هذه الثلاثة يجب أن يكون مغايرًا لصاحبه، أما الكتاب فهو التوراة، وأما الحكم ففيه وجوه: يجوز أن يكون المراد العلم والحكمة، ويجوز أن يكون المراد العلم بفصل الحكومات، ويجوز أن يكون المراد معرفة أحكام الله تعالى وهو علم الفقه، وأما النبوة فمعلومة. ومعنى إيتائهم هذه الأمور الثلاثة: إيجادها في الأمة، وإيجاد القائمين بها؛ لأن نفع ذلك عائد على الأمة جمعاء، فكان كل فرد من الأمة كمن أُوتي تلك الأمور.

وأما نعم الدنيا فهي المراد من قوله تعالى: «وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ » وذلك لأنه تعالى وسّع عليهم في الدنيا، فأورثهم أموال قوم فرعون وديارهم، ثم

أنزل عليهم المن والسلوى.

ولما بيّن تعالى أنه أعطاهم من نعم الدين ونعم الدنيا نصيبًا وافرًا، قال: «وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾» يعني أنهم كانوا أكبر درجة وأرفع منقبة ممن سواهم في وقتهم، فلهذا المعنى قال المفسرون المراد: وفضلناهم على عالمي زمانهم. [التفسير الكبير ٢٧/ ٢٦٥ - ٢٦٦].

وقال الألوسي - رحمه الله-: المراد تفضيلهم على العالمين مطلقًا من بعض الوجوه لا من كلها، ولا من جهة المرتبة والثواب، فلا ينافي ذلك تفضيل أمة محمد صلى الله عليه وسلم عليهم من وجهٍ آخر، ومن جهة المرتبة والثواب.

«وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ» أي دلائلَ ظاهرةً في أمر الدين، ومعجزات قاهرة. وقال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهم: هو العلمُ بمبعثِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وما بيَّن لهُم من أمره، وأنَّه يُهاجرُ من تِهامةَ إلى يثربَ، ويكونُ أنصارُه أهلَ يثربَ. [روح المعاني: ١٤٨/٢٥]

ثم أوضح تعالى خطأهم وعظَّمه بقوله: «فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ»، وذلك أنهم لو اختلفوا اجتهادًا في طلب صواب، لكان لهم عذر في الاختلاف، وإنما اختلفوا بغيًا، وقد تبينوا الحقائق. [المحرر الوجيز ٥/ ٨٤].

والمقصود من ذكر هذا الكلام التعجب من هذه الحالة؛ لأن حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف، وهاهنا صار مجيء العلم سببًا لحصول الاختلاف؛ وذلك لأنهم لم يكن مقصودهم من العلم نفسَ العلم، وإنما المقصود منه طلب الرياسة والتقدم، ثم هاهنا احتمالات يريد أنهم علموا ثم عاندوا، ويجوز أن يريد بالعلم الدلالة التي توصل إلى العلم، والمعنى أنه تعالى وضع الدلائل والبينات التي لو تأملوا فيها لعرفوا الحق، لكنهم على وجه الحسد والعناد اختلفوا وأظهروا النزاع. [التفسير الكبير ٢٦٦/٢٧]

ثم توعدهم تعالى بوقف أمرهم على قضائه بينهم يوم القيامة، فقال:

«إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾»: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: إن ربك يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل بغيًا بينهم يوم القيامة، فيما كانوا فيه في الدنيا يختلفون بعد العلم الذي آتاهم، والبيان الذي جاءهم منه، فيفلج المحقّ حينئذ على المبطل بفصل الحكم بينهم. [جامع البيان ١٤٦/٢٥].

والمراد أنه لا ينبغي أن يغترّ المبطل بنِعَم الدنيا، فإنها وإن ساوت نِعَم المحق، أو زادت عليها، فإنه سيرى في الآخرة ما يسوؤه، وذلك كالزجر لهم.

ولما بيّن تعالى أنهم أعرضوا عن الحق لأجل البغي والحسد، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يعدل عن تلك الطريقة، وأن يتمسك بالحق، وأن لا يكون له غرض سوى إظهار الحق، وتقرير الصدق، فقال تعالى: «ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾» أي على طريقة ومنهاج من أمر الدين، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والبينات، ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال وأديانهم المبنية على الأهواء والجهل. [التفسير الكبير ٢٦٦/٢٧]

والشريعة في اللغة: المذهب والملة.

واصطلاحًا: ما شرع الله لعباده من الدين.

فمعنى «ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ» أي على منهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق.

قال ابن العربي- رحمه الله-: والأمر يرد في اللغة بمعنيين: أحدهما بمعنى الشأن كقوله: «فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» [هود: ٩٧].

والثاني: أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي.

وكلاهما يصح أن يكون مرادًا هاهنا، وتقديره: ثم جعلناك على طريقة من الدين وهي ملة الإسلام، كما قال تعالى: « ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ » [النحل: ١٢٣].

ولا خلاف أن الله تعالى لم يغاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح، وإنما خالف بينها في الفروع حسبما علمه سبحانه [الجامع لأحكام القرآن ١٦/١٦٣ -١٦٤].

ولذلك قال تعالى: «شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ » [الشورى: ١٣]، وقال تعالى: «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » [المائدة: ٤٨].

وقد بلغت هذه الجملة من الإيجاز مبلغًا عظيمًا؛ إذ أفادت أن شريعة الإسلام أفضل من شريعة موسى، وأنها شريعة عظيمة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم متمكن منها، لا يزعزعه شيء عن الدأب في بيانها، والدعوة إليها. ولذلك فرع عليه أمره باتباعها بقوله: «فَاتَّبِعْهَا» أي دُم على اتباعها، فالأمر لطلب الدوام مثل « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ » [النساء: ١٣٦].

وبين قوله: «فَاتَّبِعْهَا» وقوله: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» محسِّن المطابقة بين الأمر بالاتباع، والنهي عن اتباع آخر.

والأهواء: جمع هوى، وهو المحبة والميل. والمعنى: أن دينهم أعمال أحبوها لم يأمر الله بها ولا اقتضتها البراهين. [التحرير والتنوير ٢٥/٣٤٨].

فليس لأحد أن يتبع ما يحبه فيأمر به، ويتخذه دينًا، وينهى عما يبغضه ويذمه؛ إلا بهدى من الله، وهو شريعته التي جعل عليها رسوله، وأمره والمؤمنين باتباعها، ولهذا كان السلف يسمون كل من خرج عن الشريعة في شيء من الدين: أهل الأهواء، ويجعلون أهل البدع هم أهل الأهواء، فيذمونهم بذلك، ويحذّرون منهم، ولو ظهر منهم من العلم والعبادة والزهد ما ظهر. [بدائع التفسير ٢/٤٤٦].

وقد صرّح ربنا سبحانه بأن كل من لم يتبع رسوله فهو متبع الهوى، فقال تعالى: « فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ » [القصص: ٥٠]، وسمى سبحانه كل الملل والنِّحَل غير الإسلام أهواء، فقال تعالى: «وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ » [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: « وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ » [البقرة: ١٤٥]، وقال سبحانه: «وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ » [الرعد: ٣٧]، وقال تبارك وتعالى: « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ » [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: « وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ » [المائدة: ٤٩].

وهكذا يتمحض الأمر، فإما شريعة الله، وإما أهواء الذين لا يعلمون، وليس هنالك من فرض ثالث، ولا طريق وسط بين الشريعة المستقيمة والأهواء المتقلبة، وما يترك أحد شريعة الله إلا ليُحكِّم الأهواء، فكل ما عداها هوى يهفو إليه الذين لا يعلمون!

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلرَّسُولِ نَقَصَ تَوْحِيدُهُ، فَإِنَّهُ يَقُولُ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ، أَوْ يُقَلِّدُ ذَا رَأْيٍ وَهَوًى بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ، فَيَنْقُصُ مِنْ تَوْحِيدِهِ بِقَدْرِ خُرُوجِهِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، فَإِنَّهُ قَدِ اتَّخَذَهُ فِي ذَلِكَ إِلَهًا غَيْرَ اللهِ. قَالَ تَعَالَى: «أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ » [الجاثية: ٢٣]: أَيْ: عَبَدَ مَا تَهْوَاهُ نَفْسُهُ. وَإِنَّمَا دَخَلَ الْفَسَادُ فِي الْعَالَمِ مِنْ ثَلَاثِ فِرَقٍ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ...
وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ...
وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا
وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ...
وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا!!

فَالْمُلُوكُ الْجَائِرَةُ يَعْتَرِضُونَ عَلَى الشَّرِيعَةِ بِالسِّيَاسَاتِ الْجَائِرَةِ، وَيُعَارِضُونَهَا بِهَا، وَيُقَدِّمُونَهَا عَلَى حُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ. وَأَحْبَارُ السُّوءِ، وَهُمُ الْعُلَمَاءُ الْخَارِجُونَ عَنِ الشَّرِيعَةِ بِآرَائِهِمْ وَأَقْيِسَتِهِمُ الْفَاسِدَةِ، الْمُتَضَمِّنَةِ تَحْلِيلَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَحْرِيمَ مَا أَبَاحَهُ، وَاعْتِبَارَ مَا أَلْغَاهُ، وَإِلْغَاءَ مَا اعْتَبَرَهُ، وَإِطْلَاقَ مَا قَيَّدَهُ، وَتَقْيِيدَ مَا أَطْلَقَهُ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَالرُّهْبَانُ وَهُمْ جُهَّالُ الْعُبَّادِ، الْمُعْتَرِضُونَ عَلَى حَقَائِقِ الإِيمَانِ وَالشَّرْعِ، بِالأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِيدِ وَالْخَيَالَاتِ وَالْكُشُوفَاتِ الْبَاطِلَةِ الشَّيْطَانِيَّةِ، الْمُتَضَمِّنَةِ شَرْعَ دِينٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، وَإِبْطَالَ دِينِهِ الَّذِي شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم، وَالتَّعَوُّضَ عَنْ حَقَائِقِ الإِيمَانِ بِخُدَعِ الشَّيْطَانِ وَحُظُوظِ النَّفْسِ.

فَقَالَ الأَوَّلُونَ: إِذَا تَعَارَضَتِ السِّيَاسَةُ وَالشَّرْعُ قَدَّمْنَا السِّيَاسَةَ!

وَقَالَ الآخَرُونَ: إِذَا تَعَارَضَ الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ قَدَّمْنَا الْعَقْلَ!

وَقَالَ أَصْحَابُ الذَّوْقِ: إِذَا تَعَارَضَ الذَّوْقُ وَالْكَشْفُ، وَظَاهِرُ الشَّرْعِ قَدَّمْنَا الذَّوْقَ وَالْكَشْفَ. [شرح العقيدة الطحاوية ١/٢٢٢].

ولما كان ترك الشريعة واتباع الهوى موجبًا للعذاب، كما قال الله تعالى: «يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ» [ص: ٢٦]، لا جرم أن الله تعالى أعلم رسوله والمؤمنين أنهم إن اتبعوا أهواء الذين لا يعلمون، وتركوا الشريعة، فأخذهم العذاب لن يغني عنهم الذين لا يعلمون من الله شيئًا، كما أنهم لو اتبعوا شريعة الله، واستمسكوا بها، لن يضرهم كيد أهواء الذين لا يعلمون؛ لأن الله ولي المتقين، يتولاهم ويحفظهم ويرعاهم، فقال تعالى: «إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ» الجاثية: ١٩].

وإن هذه الآية مع التي قبلها لتعيّن سبيل صاحب الدعوة وتحدّده، وتغني في هذا عن كل قول وعن كل تعليق أو تفصيل: «ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ» [الجاثية: ١٨، ١٩].

إنها شريعة واحدة هي التي تستحق هذا الوصف، وما عداها أهواء منبعها الجهل. وعلى صاحب الدعوة أن يتبع الشريعة وحدها، ويدع الأهواء كلها. وعليه ألا ينحرف عن شيء من الشريعة إلى شيء من الأهواء. فأصحاب هذه الأهواء أعجز من أن يغنوا عنه من الله صاحب الشريعة. وهم إلْبٌ [أي: حرب أو أعداء] عليه، فبعضهم ولي لبعض. وهم يتساندون فيما بينهم ضد صاحب الشريعة، فلا يجوز أن يأمل في بعضهم نصرة له أو جنوحًا عن الهوى الذي يربط بينهم برباطه، ولكنهم أضعف من أن يؤذوه، والله ولي المتقين، وأين ولاية من ولاية؟! وأين ضعاف جهال مهازيل يتولى بعضهم بعضًا، من صاحب شريعة يتولاه الله وليُّ المتقين؟!

فنسأل الله أن يحكّم فينا شرعه، وأن ينصر كتابه وسنة نبيه، وأن ينصر من نصرهما، ويخذل من خذلهما، وأن يقيّض لهذه الأمة أمر رشدٍ يعز فيه من أطاعه، ويهدي فيه من عصاه، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، والحمد لله رب العالمين.

ركائز الشخصية المسلمة

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

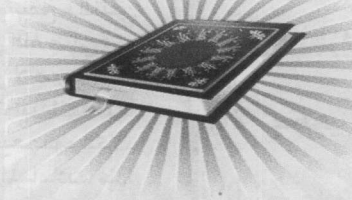

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد..

فإن الشخصية المسلمة تقوم على أسس راسخة وركائز ثابتة، وهذه الرَّكَائِزُ هِيَ الْعَقِيدَةُ، وَالْعِبَادَةُ، وَالأَخْلاَقُ. وهي مذكورة في الكتاب الكريم والسنة المطهرة، قَالَ اللهُ تَعَالَى: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا» [الأحزاب: ٣٥].

وعَنْ أُمِّ عُمَارَةَ الأَنْصَارِيَّةِ رضي الله عنه أَنَّهَا أَتَتِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ: مَا أَرَى كُلَّ شَيْءٍ إِلاَّ لِلرِّجَالِ، وَمَا أَرَى النِّسَاءَ يُذْكَرْنَ بِشَيْءٍ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةَ «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ» الآيَةَ» [سنن الترمذي ٣٢١١ وقال: حسن صحيح] جَبْرًا لِخَاطِرِهِنَّ، وَتَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِنَّ، وَلِيَعْلَمْنَ أَنَّهُ لاَ فَرْقَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ، وَلاَ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالأُنْثَى فِي جَزَاءِ الأَعْمَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [النحل: ٩٧]، وَقَالَ تَعَالَى: «مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ» [غافر: ٤٠]، وَالأَصْلُ فِي التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ أَنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ، وَأَنَّهُنَّ دَاخِلاَتٌ فِي لَفْظِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِذِكْرِهِنَّ، إِلاَّ مَا قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالرِّجَالِ.

وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الآيَةُ الرَّكَائِزَ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا الشَّخْصِيَّةُ الْمُسْلِمَةُ، وَهِيَ الْعَقِيدَةُ، وَالْعِبَادَةُ، وَالأَخْلاَقُ.

وَقَدْ بَدَأَتْ بِالْعَقِيدَةِ أَوَّلاً؛ لأَنَّهَا الأَسَاسُ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَلاَ يُقْبَلُ عَمَلٌ إِلاَّ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ» [البلد: ١٠- ١٧]، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا حَبِطَ عَمَلُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا» [الكهف: ١٠٤- ١٠٥].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: «بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ لاَ يَنْفَعُهُ عَمَلٌ» [صحيح مسلم (١/ ١٩٦)] وفيه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لاَ يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» [مسلم ٢١٤].

وَالْعَقِيدَةُ تَتَمَثَّلُ فِي الإِيمَانِ بِاللهِ، وَالاسْتِسْلاَمِ لَهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ».

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الإِسْلاَمِ وَالإِيمَانِ هَلْ هُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ؟ أَمْ مُخْتَلِفَانِ؟ وَالرَّاجِحُ أَنَّهُمَا مُتَرَادِفَانِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ آلِ لُوطٍ: «فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ» [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، وَلَمْ يَكُنْ بِالاتِّفَاقِ إِلاَّ بَيْتٌ وَاحِدٌ.

وَقَدْ فَسَّرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الإِيمَانَ بِمَا فَسَّرَ بِهِ الإِسْلاَمَ، فَفِي حَدِيثِ عُمَرَ رضي الله عنه فِي سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَنِ الإِسْلاَمِ قَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً» [مسلم ٨].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ لِوَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ: «آمُرُكُمْ بِالإِيمَانِ بِاللهِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ؟ قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَتُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ» [متفق عليه].

وَقَدْ يُعْتَرَضُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا» [الحجرات: ١٤]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «أَوْ مُسْلِمٌ» لِمَنْ قَالَ: «فُلاَنٌ مُؤْمِنٌ» [متفق عليه].

وَقَدْ أَجَابَ عَنْ ذَلِكَ شَيْخُ الإِسْلاَمِ ابْنُ تيمية -رَحِمَهُ اللهُ- بِأَنَّ الأَسْمَاءَ تَخْتَلِفُ دِلاَلَتُهَا بِالإِطْلاَقِ وَالتَّقْيِيدِ، وَالتَّجْرِيدِ وَالاقْتِرَانِ، تَارَةً يَكُونَانِ إِذَا أُفْرِدَا أَحَدُهُمَا أَعَمَّ مِنَ الآخَرِ، وَتَارَةً يَكُونَانِ مُتَسَاوِيَيْنِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْبِرُّ وَالتَّقْوَى، وَالإِثْمُ وَالْعُدْوَانُ، وَالفَقِيرُ وَالْمِسْكِينُ.

فلفظ «الْفَقِيرِ» إِذَا أُطْلِقَ دَخَلَ فِيهِ الْمِسْكِينُ، وَإِذَا أُطْلِقَ لَفْظُ الْمِسْكِينِ دَخَلَ فِيهِ لَفْظُ الْفَقِيرِ، وَإِذَا فُرِّقَ بَيْنَهُمَا فَأَحَدُهُمَا غَيْرُ الآخَرِ.

فَكَذَلِكَ الإِسْلاَمُ وَالإِيمَانُ، إِذَا ذُكِرَ اسْمُ الإِيمَانِ مُجَرَّدًا دَخَلَ فِيهِ الإِسْلاَمُ، وَإِذَا ذُكِرَ الإِيمَانُ مَعَ الإِسْلاَمِ فَالإِسْلاَمُ الظَّاهِرُ، وَالإِيمَانُ الْبَاطِنُ [كتاب الإيمان لابن تيمية ص١٠و١٢ باختصار].

كَمَا هُوَ مَشْهُورٌ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ: قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» [مسلم ٨].

فَإِذَا آمَنَ الْمَرْءُ بِاللهِ، وَأَسْلَمَ لَهُ، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُطِيعَهُ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ، وَلِذَلِكَ عَطَفَ الْقُنُوتَ عَلَى الإِسْلاَمِ وَالإِيمَانِ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ» أَيْ: الْمُطِيعِينَ وَالْمُطِيعَاتِ.

وَطَاعَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاجِبَةٌ، وَمَعْصِيَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ مُحَرَّمَةٌ، وَقَدْ كَثُرَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الأَمْرُ بِالطَّاعَةِ وَبَيَانُ ثَوَابِهَا، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ وَبَيَانُ عِقَابِهَا: قَالَ اللهُ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ» [النساء: ٥٩]، وَقَالَ سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ» [محمد: ٣٣]، وَقَالَ تبارك وتعالى: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ» [النور: ٥٤]، وَقَالَ جل وعلا: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» [آل عمران: ١٣٢]، وَقَالَ سبحانه: «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا» [الأحزاب: ٧١]، وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» [النساء: ١٣]، وَقَالَ جل وعلا: «وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ» [النساء: ١٤]، وَقَالَ سبحانه وتعالى: «وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا» [الأحزاب: ٣٦]، وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا» [الجن: ٢٣].

وَالإِيمَانُ لُغَةً: التَّصْدِيقُ، وَمِنْهُ قَوْلُ إِخْوَةِ يُوسُفَ لأَبِيهِمْ: «وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ» [يوسف: ١٧]، فَالْمُؤْمِنُ صَادِقٌ مُصَدَّقٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» [الزمر: ٢٣]، وَقَالَ سبحانه: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ» [الحديد: ١٩]،

فَالصِّدْقُ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْكَذِبُ مِنْ صِفَاتِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ» [النحل: ١٠٥]، وَقَالَ سبحانه عَنِ الْمُنَافِقِينَ: «فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ» [البقرة: ١٠].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ: إِذَا

حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ» [متفق عليه].

فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَحَرَّوُا الصِّدْقَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ مَنْجَاةٌ، وَأَنْ يَجْتَنِبُوا الْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ مَهْلَكَةٌ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا» [أبو داود ٤٩٧٠ وصححه الألباني].

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنَ اهْتِمَامِ الإِسْلاَمِ بِالصِّدْقِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ أَنْ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُنَشِّئُوا صِبْيَانَهُمْ مِنَ الصِّغَرِ عَلَى الصِّدْقِ، فَإِذَا وَعَدَ الأَبُ وَلَدَهُ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَفِيَ بِوَعْدِهِ، وَإِنْ أَخْبَرَهُ خَبَرًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَصْدُقَهُ، حَتَّى يَنْشَأَ الصِّغَارُ مِنْ صِغَرِهِمْ عَلَى الصِّدْقِ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا، فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيَهِ؟» قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِيهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كَذْبَةٌ» [أبو داود ٤٩٦٩ وحسنه الألباني].

كَمَا بَلَغَ مِنَ اهْتِمَامِ الإِسْلاَمِ بِالصِّدْقِ أَنَّهُ لَمْ يُبِحِ الْكَذِبَ حَتَّى فِي الْمُزَاحِ:

عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ»[الترمذي ٢٤١٧ وحسنه الألباني].

كَمَا بَلَغَ مِنَ اهْتِمَامِ الإِسْلاَمِ بِالصِّدْقِ أَنْ حَثَّ أَتْبَاعَهُ عَلَى الصِّدْقِ فِي كُلِّ مُعَامَلاَتِهِمْ، وَفِي بَيْعِهِمْ وَشِرَائِهِمْ:

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا» [متفق عليه].

وَمِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّبْرُ، «وَالصَّـٰبِرِينَ وَالصَّـٰبِرَٰتِ»، وَقَدْ أَمَرَهُمُ اللهُ بِهِ، وَرَغَّبَهُمْ فِيهِ، فَقَالَ تَعَالَى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [آل عمران: ٢٠٠]، وَقَالَ تَعَالَى: «يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ» [البقرة: ١٥٣].

وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ يُضَاعِفُ لِلصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ، فَقَالَ سبحانه: «إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ» [الزمر: ١٠].

وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الصَّبْرَ جُنَّةٌ مِنَ الأَعْدَاءِ، فَقَالَ تبارك وتعالى: «وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ» [آل عمران: ١٢٠].

وَبَيَّنَ أَنَّ الصَّبْرَ سَبَبٌ لِلْمَدَدِ بِالْمَلاَئِكَةِ، فَقَالَ جل وعلا: «بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ» [آل عمران: ١٢٥].

كَمَا بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ التَّمْكِينَ فِي الأَرْضِ ثَمَنُهُ الصَّبْرُ، فَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ يُوسُفَ أَنَّهُ قَالَ لإِخْوَتِهِ وَقَدْ أَنْكَرُوا حَالَهُ، وَتَعَجَّبُوا مِمَّا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُ، «إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ» [يوسف: ٩٠].

وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الإِمَامَةَ فِي الدِّينِ إِنَّمَا تُنَالُ بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، فَقَالَ سبحانه: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ» [السجدة: ٢٤].

وَقَدْ جَمَعَ اللهُ تَعَالَى لِلصَّابِرِينَ ثَلاَثَ خِصَالٍ لَمْ يَجْمَعْهَا لِغَيْرِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ» [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

وَلِهَذَا كُلِّهِ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ» [متفق عليه].

وَمِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْخُشُوعُ: «وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ»:

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْخُشُوعَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: الذُّلُّ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ» [طه: ١٠٨].

وَالثَّانِي: سُكُونُ الْجَوَارِحِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْمُؤْمِنِينَ: «ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ» [المؤمنون: ٢].

وَالثَّالِثُ: الْخَوْفُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الأَنْبِيَاءِ: «وَكَانُواْ لَنَا خَـٰشِعِينَ» [الأنبياء: ٩٠].

وَالرَّابِعُ: التَّوَاضُعُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ» [البقرة: ٤٥] [نضرة النعيم (٥/ ١٨٢٥ - ١٨٢٦)].

وَقَدْ صَرَّحَ السَّلَفُ الصَّالِحُ بِأَنَّ الْخُشُوعَ يَجْمَعُ هَذِهِ الْمَعَانِيَ كُلَّهَا.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: مَنْ تَوَاضَعَ لله تَخَشُّعًا، رَفَعَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ تَطَاوَلَ تَعَظُّمًا، وَضَعَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: الْخُشُوعُ فِي الْقَلْبِ أَنْ تُلِينَ كَنَفَكَ لِلرَّجُلِ الْمُسْلِمِ، وَأَنْ لَا تَلْتَفِتَ فِي الصَّلَاةِ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» قَالَ: كَانُوا إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ أَقْبَلُوا عَلَى صَلَاتِهِمْ، وَخَفَضُوا أَبْصَارَهُمْ إِلَى مَوْضِعِ سُجُودِهِمْ، وَعَلِمُوا أَنَّ اللهَ يُقْبِلُ عَلَيْهِمْ فَلَا يَلْتَفِتُونَ يَمِينًا وَلَا شِمَالًا.

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ- رَحِمَهُ اللهُ - فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» قَالَ: كَانَ خُشُوعُهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ، فَغَضُّوا بِذَلِكَ أَبْصَارَهُمْ، وَخَفَضُوا لِذَلِكَ الْجَنَاحَ.

وَعَنْ قَتَادَةَ- رَحِمَهُ اللهُ- قَالَ: الْخُشُوعُ فِي الْقَلْبِ هُوَ الْخَوْفُ وَغَضُّ الْبَصَرِ فِي الصَّلَاةِ [نضرة النعيم(٥/ ١٨٣٣ - ١٨٣٥)].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ- رَحِمَهُ اللهُ-: الْخُشُوعُ السُّكُونُ وَالطُّمَأْنِينَةُ، وَالتُّؤَدَةُ وَالْوَقَارُ وَالتَّوَاضُعُ، وَالْحَامِلُ عَلَيْهِ الْخَوْفُ مِنَ اللهِ وَمُرَاقَبَتُهُ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ [مسلم ٨]، [تفسير ابن كثير ٣/٤٨٨].

وَمِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْإِحْسَانُ إِلَى الْمَسَاكِينِ بِالتَّصَدُّقِ عَلَيْهِمْ، «وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ»:

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ- رَحِمَهُ اللهُ-: الصَّدَقَةُ هِيَ الْإِحْسَانُ إِلَى النَّاسِ الْمَحَاوِيجِ الضُّعَفَاءِ، الَّذِينَ لَا كَسْبَ لَهُمْ وَلَا كَاسِبَ، يُعْطَوْنَ مِنْ فُضُولِ الْأَمْوَالِ طَاعَةً لله، وَإِحْسَانًا إِلَى خَلْقِهِ. [تفسير ابن كثير ٣/٤٨٨].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ» [التوبة: ١٠٣]، وَقَالَ سبحانه: «إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» [البقرة: ٢٧١]، وَقَالَ تبارك وتعالى: «إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ» [الحديد: ١٨] وَبَيَّنَ قَدْرَ هَذَا التَّضْعِيفِ فَقَالَ: «مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» [البقرة: ٢٦١].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ» [متفق عليه].

وَعَنْهُ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ..»، وذكر منهم «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ» [متفق عليه].

وَبَيَّنَ صلى الله عليه وسلم أَنَّ لِأَهْلِ الصَّدَقَةِ بَابًا فِي الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ مِنْهُ دُونَ غَيْرِهِمْ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ فِي سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا خَيْرٌ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلَاةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الْجِهَادِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ» [متفق عليه].

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُبَادَرَةِ بِالصَّدَقَةِ قَبْلَ انْفِلَاتِ أَرْوَاحِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» [المنافقون: ٩- ١١].

وَمِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُحَافَظَةُ عَلَى الصِّيَامِ: «وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ» أَيْ: وَالْآتِينَ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ صَوْمِ رَمَضَانَ، وَبِمَا نَدَبَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِلَى صِيَامِهِ فِي الْأُسْبُوعِ وَالشَّهْرِ وَالْعَامِ.

وَالصِّيَامُ عِبَادَةٌ مِنْ أَجَلِّ الْعِبَادَاتِ، وَعَمَلٌ صَالِحٌ مِنْ أَفْضَلِ الصَّالِحَاتِ، اصْطَفَاهُ اللهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، فَفِي الْحَدِيثِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ

الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمائَة ضِعْف، قَالَ اللهُ عز وجل: إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي» [مسلم ١١٥١].

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا لِأَهْلِ الصِّيَامِ يَدْخُلُونَ مِنْهُ لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لاَ يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ» [متفق عليه].

وَلَمَّا كَانَ الصَّوْمُ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى كَسْرِ الشَّهْوَةِ - كَمَا قَالَ صلى الله عليه وسلم: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ! مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ» [الترمذي ٢٩٤٦ وصححه الألباني]. نَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ بَعْدَهُ: «وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ» أَيْ: عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَآثِمِ إِلاَّ عَنِ الْمُبَاحِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ» [المؤمنون: ٧] [تفسير القرآن العظيم ٣/٤٨٨].

فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ أَنْ يَحْفَظَ فَرْجَهُ مِنْ نَظَرِ مَنْ لاَ يَجُوزُ لَهُ النَّظَرُ إِلَيْهِ، وَمِنْ لَمْسِ مَنْ لاَ يَجُوزُ لَهُ لَمْسُهُ، وَمِنْ وَطْءِ مَنْ لاَ يَجُوزُ لَهُ وَطْؤُهُ، كَمَا قَالَ صلى الله عليه وسلم: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلاَّ مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ» [أبو داود ٣٩٩٨ وصححه الألباني]، وقال صلى الله عليه وسلم: «لاَ يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، وَلاَ تَنْظُرُ الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ، وَلاَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، وَلاَ تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ» [مسلم ٣٨٨]، وَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «مُرُوا أَوْلاَدَكُمْ بِالصَّلاَةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ» [أبو داود ٤٩١ وصححه الألباني].

وَمِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الإِكْثَارُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ» وَالذِّكْرُ هُوَ مَنْشُورُ الْوَلاَيَةِ الَّذِي مَنْ أُعْطِيَهُ اتَّصَلَ، وَمَنْ مُنِعَهُ عُزِلَ، وَهُوَ قُوتُ قُلُوبِ الْقَوْمِ، الَّذِي مَتَى فَارَقَهَا صَارَتِ الأَجْسَادُ لَهَا قُبُورًا، وَعِمَارَةُ دِيَارِهِمُ الَّتِي إِذَا تَعَطَّلَتْ عَنْهُ صَارَتْ بُورًا، بِهِ يَسْتَدْفِعُونَ الآفَاتِ، وَيَسْتَكْشِفُونَ الْكُرُبَاتِ، وَتَهُونُ عَلَيْهِمْ بِهِ الْمُصِيبَاتُ، وَفِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنَ الْجَوَارِحِ عُبُودِيَّةٌ مُؤَقَّتَةٌ، وَالذِّكْرُ عُبُودِيَّةُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَهِيَ غَيْرُ مُؤَقَّتَةٍ، بَلْ هُمْ مَأْمُورُونَ بِذِكْرِ مَعْبُودِهِمْ وَمَحْبُوبِهِمْ فِي كُلِّ حَالٍ، قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ. [تهذيب مدارج السالكين ص٤٦٣].

وَقَدْ سُئِلَ الإِمَامُ أَبُو عَمْرِو بْنُ الصَّلاَحِ- رَحِمَهُ اللهُ- عَنِ الْقَدْرِ الَّذِي يَصِيرُ بِهِ الْمُسْلِمُ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ، فَقَالَ: إِذَا وَاظَبَ عَلَى الأَذْكَارِ الْمُثْبَتَةِ صَبَاحًا وَمَسَاءً فِي الأَوْقَاتِ وَالأَحْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ لَيْلاً وَنَهَارًا، كَانَ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ. [الأذكار للنووي ص١٠].

وَقَالَ عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ- رَحِمَهُ اللهُ-: مَنْ فَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى اللهِ عز وجل فَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ» وَمَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ اللهَ رَبُّهُ، وَمُحَمَّدًا رَسُولُهُ، وَلَمْ يُخَالِفْ قَلْبُهُ لِسَانَهُ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: «وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ» وَمَنْ أَطَاعَ اللهَ فِي الْفَرْضِ، وَالرَّسُولَ فِي السُّنَّةِ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: «وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ» وَمَنْ صَانَ قَوْلَهُ عَنِ الْكَذِبِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: «وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ» وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ، وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ، وَعَلَى الرَّزِيَّةِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: «وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ» وَمَنْ صَلَّى وَلَمْ يَعْرِفْ مَنْ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: «وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ» وَمَنْ تَصَدَّقَ فِي كُلِّ أُسْبُوعٍ بِدِرْهَمٍ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: «وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ» وَمَنْ صَامَ فِي كُلِّ شَهْرٍ أَيَّامَ الْبِيضِ: الثَّالِثَ عَشَرَ، وَالرَّابِعَ عَشَرَ، وَالْخَامِسَ عَشَرَ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: «وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ» وَمَنْ حَفِظَ فَرْجَهُ عَمَّا لاَ يَحِلُّ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: «وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ» وَمَنْ صَلَّى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ بِحُقُوقِهَا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: «وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ» [معالم التنزيل ٤/٤٦٦].

أُولَئِكَ الْمَوْصُوفُونَ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ «أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً» لِذُنُوبِهِمْ «وَأَجْرًا عَظِيمًا» عَلَى صَالِحِ أَعْمَالِهِمْ وَهُوَ الْجَنَّةُ، جَعَلَنَا اللهُ مِنْهُمْ وَمَعَهُمْ بِكَرَمِهِ وَمَنِّهِ. آمين.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة ص

إعداد / د. عبد العظيم بدوي
نائب الرئيس العام

«صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۖ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۖ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ »[ص ١- ١٥].

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد..

فقد انتهينا فيما سبق في حلقات التفسير من تفسير سورة الصافات، ونبدأ اليوم بفضل الله في تفسير سورة ص، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

بين يدي السورة:

سورة مكية شأنها شأن السورة المكية فى الاهتمام بترسيخ العقيدة، وبيان أصول الدين، وأركان الإيمان، وقد ركزت السورة الكريمة على الأصول الثلاثة وهى التوحيد، والنبوة، والبعث بعد الموت.

ومن وجوه المناسبة بينها وبين سورة الصافات أن الله سبحانه وتعالى قال في خواتيم الصافات: «وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾» [الصافات ١٦٧- ١٦٩].

وكذلك استفتحت سورة ص بذكر الذكر الحكيم وكفر القوم به: «صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾».

ومن المناسبة أيضاً أن الله سبحانه وتعالى قصَّ علينا فى سورة الصافات من قصص الأنبياء والمرسلين، وقصَّ علينا فى سورة ص من قصص من لم يقصصهم

علينا فى سورة الصافات.

شهادة الله عز وجل لرسوله بالرسالة:

«ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ» الواو واو القسم، والله سبحانه وتعالى يقسم بالقرآن، ويصف القرآن بأنه «ذِي الذِّكْرِ»، والذكرُ هو الشرف، كما قال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴿٤٤﴾ » [الزخرف: ٤٤]، وقال لقومه: «لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ » [الأنبياء: ١٠]، وقيل: الذكر مصدر بمعنى التذكرة، فالقرآن تذكرة وموعظة للناس أجمعين، يُذكِّرهم بما يجب عليهم نحو خالقهم وبارئهم وفاطرهم سبحانه وتعالى، ويُذكرهم بالطريق الموصلة إليه، ويذكرهم بما لهم عنده إذا أفضوا إليه من هذه الطريق، والقولان صحيحان، واللفظ يحتملهما.

وجواب القسم محذوف، تكلم المفسرون فيه كلاما طويلا، ولعل أرجح الأقوال أن جواب القسم المحذوف هنا هو المذكور فى سورة يس، فإن الله تعالى قال: بسم الله الرحمن الرحيم «يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾»، وهنا قال: «ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ»، فالمقسم به واحد، وهو القرآن الحكيم ذو الذكر، والمقسم عليه -جواب القسم- ذُكِرَ في موضع، وحُذِف في الثاني استغناءً بذكره في الموضع الأول عن ذكره فى الموضع الثاني.

«ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ» إنك يا نبينا لمن المرسلين، لا كما يقول قومك ساحر كذاب.

أنواع العزة:

فإذا كان القرآن ذكرى للناس وموعظة، فلماذا لم ينتفع به الذين كفروا:

«بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ» والعزة نوعان:

١- عزة حقيقية.

٢- عزة غير حقيقية.

أما العزة الحقيقية فهي المكتسبة بأسبابها الشرعية، كما قال تعالى: « مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ » [فاطر: ١٠]، أي فليطلبها من الله، فهو العزيز الذى يعز من يشاء، ويذل من يشاء، فمن كان عزيزا بعزة الله فهذه هي العزة الحقيقية، ومن كان عزيزا من غير طريق الله فليست عزته عزة حقيقية، بل هي عزة الغرور والكبرياء والأنفة، كما قال تعالى: «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ»، فعزتهم هذه ليست عن طريق الله؛ لأنهم كفروا بالله، إنما هي عزة الغرور والكبرياء والأنفة، وكما قال تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ»، فهذه عزة مزيفة مزورة، وإنما العزة الحقيقية هي ما كانت عن طريق الله عز وجل ، بسلوك الطرق الشرعية التي أرشد الله تعالى إليها، وهي الإيمان والعمل الصالح، كما قال تعالى: «يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ » [المنافقون: ٨].

«بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ» أي في حَمِيَّة وجاهلية، وعنجهية واستكبار، وشقاق، أي أنك في شق وهم فى شق، كما قال تعالى: «ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» [الحشر: ٤]، أي كانوا فى شق غير الشق الذى فيه الله ورسوله.

تحذير الكفار المعاصرين أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم:

أفلا يخافون أن يعذبهم الله تبارك وتعالى كما عذّب الذين كفروا من قبلهم، لماذا يصرون على الكفر؟! ولماذا يصرون على العناد؟ ولماذا يصرون على الشقاق؟! أفلا يحذرون أن يأخذهم الله كما أخذ الذين من قبلهم «كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ»؟! والسؤال للتكثير، يعنى قروناً كثيرة، ظلمت وبغت، وطغت وأفسدت فى الأرض، فأهلكها الله تبارك وتعالى، «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ » [الفجر: ٦- ١٤] لكل طاغية ولكل ظالم.

فقومك يا نبينا! إن لم يقلعوا عن ما هم فيه من العزة والشقاق، والاستكبار والعناد، فقد حقت عليهم كلمة العذاب.

«كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا» نداء الاستغاثة، أي استغاثوا وصرخوا، ومن يغيثهم؟! ومن يجيرهم من العذاب بعد أن نزل بهم؟! «وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ» قالوا: (لات) كلمة واحدة، بمعنى (ليس) بلغة اليمن، والنحويون على أنها (لا) زيدت فيها التاء، كما تزاد فى رُبَّ، ثُمَّ يقال ربتْ، وثُمت، كذلك قالوا لات، بمعنى (ليس)، وأضيفت إليها التاء زيادة فى التأكيد، «فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ» أي ففروا هاربين، ينادون ويصرخون ويستغيثون، وليس الحين حين فرار واستغاثة، وإنما هو كما قال تعالى: « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ

وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾» [غافر: ٨٤- ٨٥].

«فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ» [الأنبياء: ١٢- ١٥].

أفلا يعتبر كفار قريش بما أصاب أولئك السابقين، ويحذرون أن يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح، أو قوم هود، أو قوم صالح، ألا يحذرون! ألا يخافون!

«وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ» وأيُّ عجب في ذلك، «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾» [الإسراء: ٩٤- ٩٥]، لكن الذين يمشون على الأرض بشر، فلزم أن يأتيهم رسول بشر من جنسهم، يعرفونه ويألفونه، فيتقربون منه، ويسمعون كلامه، وينتفعون به، كما قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾» [إبراهيم: ٤]، «وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ» [الأنعام: ٨- ٩].

«وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ» فحكم عليهم بالكفر، لما عجبوا أن يأتيهم رسول منهم، وقالوا: أبعث الله بشرا رسولا، فمن أنكر رسالة الرسول لكونه بشرا فهو كافر، «وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ» فدمغهم بالكفر قبل أن يحكي مقولتهم.

«وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ»؟! وقد كانوا ألفوا تعدد الآلهة، حتى كان لكل يوم إلهٌ يُعبد، ولما دخل النبي صلى الله عليه وسلم الكعبة عام الفتح جعل يكسر الأصنام وكانت ثلاث مائة وستين صنمًا حول الكعبة، فجعل يكسرها، ويقول: (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا).

«وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ» والملأ كلمة تطلق في القرآن على الأشراف والسادة والأكابر.

«وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ» لا تتزحزحوا عنها، لا يصدنكم محمد عنها، اثبتوا عليها، لا تتركوها ولا تتخلوا عنها، «وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ» يريد أن يتفضل عليكم، يريد أن ينفرد بالملك والسلطة والكلمة دونكم.

«مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ» يريدون ملة النصارى، فمن أين أتى محمد بالتوحيد؟! لقد خالفنا وخالف النصرانية، خالف دين قومه، وخالف أهل الكتاب من قبله، فمن أين أتى بهذا التوحيد؟! «مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ» إذا «إِنْ هَٰذَا» الذي يقوله محمد من التوحيد «إِلَّا اخْتِلَاقٌ» أي شيء اختلقه وافتراه كذبا وزورا وبهتانا.

حسد الكافرين للرسول ﷺ

ثم صرحوا بالحقيقة التي منعتهم من اتباعه صلى الله عليه وسلم وهي الحسد، فقالوا: «أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا» هذا هو بيت القصيد؛ لأنهم يعرفون أنه ليس ساحرًا ولا كذابًا، فهو الوحيد من بين آبائهم وأجدادهم الذي لقبوه بالصادق الأمين، وهو الذي تحاكموا إليه عندما اختلفوا أين يضعون الحجر في البيت الحرام لما كانوا يجددون بناء الكعبة، قالوا: نرضى بحكم أول داخل، فكان أول داخل محمدًا صلى الله عليه وسلم فحكموه، ورضوا بحكمه، فكيف يحكمون مجنونا؟!

فالمانع الذي منعهم من اتباعه صلى الله عليه وسلم هو الحسد، «أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا» «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ»

قال تعالى: «بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي» هم أصلاً ليسوا مؤمنين أن هذا الذكر من الله، فكيف يحسدونك على أن الله أنزل عليك الذكر.

والعلة المانعة الحقيقية «بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ» ولو أنهم ذاقوا عذابي ما قالوا هذا القول، كما قال تعالى: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ» [غافر: ٨٤] فالذي يحملهم على التكذيب والعناد والإصرار هو إمهال الله لهم، والله تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، فهم اغتروا بإمهال الله، وظنوا أن الإمهال إهمال، فربنا يقول: «بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ» ولو ذاقوا عذابي لاعترفوا بالذكر الذي أنزلته على رسولي، ولكنهم بعد لما يذوقوا عذابي.

ثم لماذا يقولون هذا: «أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ»

الرحمة هنا المراد بها النبوة، والمعنى: هل خزائن الرحمة بأيديهم فهم يتصرفون فيها كيفما شاءوا؟ «أَمْ لَهُم نَّصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾» [النساء: ٥٢- ٥٥].

«أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ» هل أعطاهم الله مفاتيح الخزائن، وقال لهم تصرفوا في الملك، أعطوا من

شئتم، وامنعوا من شئتم، وأعزوا من شئتم، وأذلوا من شئتم، نبِّئوا من شئتم، ولا تنبئوا من شئتم؟! «أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ» الغالب القاهر الذى لا يُغلب ولا يُقهر «الْوَهَّابِ» فهو الذي يهب لمن يشاء، ويمنع من يشاء، وهو الذي يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وهو الذي يُعز من يشاء ويذل من يشاء، «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» [الأنعام: ١٢٤]، «أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ» لا طبعاً «أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» هل لهم ملك السماوات والأرض فهم يتصرفون كيفما يشاءون، إذا لو كانوا لهم التصرف فى الملك «فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ» فليصعدوا في الأسباب إلى السماء، ويمنعوا نزول الوحي عنك؛ لأن من شأن الحاسد أنه يسعى فى إزالة النعمة عن المحسود.

من أعلام نبوة النبي ﷺ

ثم أخبر الله تعالى عن هزيمتهم وغلبتهم فقال: «جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ» جندٌ مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم جند مهزوم، كما هُزمت الأحزاب من قبلهم، كذلك سيُهزم هذا الجند، كما قال تعالى: « أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ » [القمر: ٤٤- ٤٦].

وهذا علم من أعلام نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، أن الله أخبره بهزيمة قومه وهو فى مكة ولم يُشرعْ الجهاد بعدُ، حتى إن عمر قال: كنت لا أعرف ما معنى قوله: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» أقول: من هو الجمع؟ ومتى يولون الدبر؟ حتى إذا كان يوم بدر دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم العريش فجعل يرفع يديه يستغيث بربه، فخرج وهو يقرأ الآية «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» فعلمت المراد بها.

فالآية تأويلها لم يحصل إلا بعد الهجرة، ونزلت في مكة قبل الهجرة، أخبره الله أن قومه الذين يحاربونه سيهزمهم الله تبارك وتعالى فى المستقبل عما قريب، وهزمهم الله تبارك وتعالى «جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ».

وجوب الاعتبار بوحدة مصير المكذبين

ومرة ثانية يؤكد الله تبارك وتعالى عليهم ضرورة الإعتبار بوحدة مصير المكذبين قبلهم فيقول: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ».

للمفسرين في الأوتاد أقوال كثيرة، منها: الوتد كناية عن تثبيت الملك. ومنها الأوتاد: كان إذا أراد أن يعذب واحداً يدق له أربعة أوتاد، ويربط يديه ورجليه فيها ويعذبه.

ومنها أن المراد بالأوتاد الأهرامات؛ لأنها كالجبال، كالأوتاد وقد سمى الله تعالى الجبال أوتاداً، فالأوتاد المراد بها الأهرامات.

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ » [الفجر: ٦- ١٣]، « فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ » [العنكبوت: ٤٠]

أفلا يحذر قومك يا نبينا أن ينزل بهم ما نزل بهؤلاء الأحزاب؟! « وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » [سبأ: ٤٥].

فإذا كان ربنا أهلك الأمم السابقة، وكانوا أشد قوة وآثارًا في الأرض، فيجب على المعاصرين أن يعلموا أن قوتهم ضعيفة جداً جداً، وأنها لن تقوم لأمر الله إذا جاءهم.

«أُولَٰئِكَ الأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ» من هؤلاء الأحزاب المذكورين «إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ» «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ»، «كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ»، «كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ» إلى آخر ما ذكر ربنا في سورة الشعراء.

«إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ» فحق عليهم ولزمهم عقاب الله تبارك وتعالى، وأنتم يا قريش كذبتم رسول الله، فحق عقاب الله عليكم عاجلاً أو آجلاً، فمن نجى منكم من عذاب الدنيا، فلن ينجو من عذاب الآخرة «وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاَءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ» يعني ما لها من تثنية يعني صيحة واحدة لن تثني، كما قال تعالى: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ » [القمر: ٥٠]، وقالوا: الفواق الزمان الذي يكون بين الحلبتين والرضعتين، تحلب البقرة ثم تتركها حتى تجمع اللبن مرة ثانية، أو الولد يرضع من ثدي أمه، ثم فيتركه حتى يجمع اللبن ويرجع له، فما بين الحلبتين أو الرضعتين هو الفواق. قال تعالى: « إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ » [يس: ٢٩]، ثم قال: « إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ » [يس: ٥٣]، صيحة واحدة تميتهم، وصيحة واحدة تبعثهم، «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ » [الزمر: ٦٨].

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

تفسير سورة

ص

الحلقة الثانية

إعداد / د. عبد العظيم بدوي
نائب الرئيس العام

«وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾» [ص: ١٦- ٢٥].

تفسير الآيات

قوله تعالى: «وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ»: ولكن القوم عن هذا غافلون، ولذلك استعجلوا عذاب الله، استعجلوا هذا العذاب الذي يخوّفهم الله به، استعجلوه من شدة تكذيبهم له وإنكارهم له، «وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾» [ص: ١٦] يعنى إن كان يا رب لنا عندك عذاب يوم الحساب كما يقول محمد فعجّله في الدنيا، «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾» [الأنفال: ٣٢].

قال تعالى: «أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾» [الصافات: ١٧٦] وهذه من المناسبة بين الصافات وص، «أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ»؟! هذه حماقة، أن يستعجل إنسان عذاب الله، «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾» [الحج: ٤٧].

«وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾» [العنكبوت: ٥٣- ٥٥]

«ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾» [الذاريات: ١٤].

حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصبر على أذى المشركين:

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يضيق صدره، ويحزن لسماع هذا الكلام، فقال الله له: «اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ»، «وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ» [يونس: ٩٥]، «اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ» كما صبر أولو العزم من الرسل، «اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ» واسمع ما يوحى إليك من قصص إخوانك النبيين، وتسلى بهم، وتسلى بذكراهم، وتسلى بأخبارهم، «وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ» يعني ذا القوة، كان أوتي قوة في العلم والعمل، ومن قوته عليه السلام أنه كان يصوم يوما ويفطر يوماً، وكان يقوم ثلث الليل.

«إِنَّهُ أَوَّابٌ»، والأواب هو الكثير الرجوع إلى الله عز وجل، «إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ» الإشراق معروف من وقت الضحى إلى قبل الزوال، والعشي من بعد الزوال إلى المغرب، كان يسبّح النهار كله.

«وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً» تسبح معه «كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ» أي كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيحه رجّاع إلى التسبيح، ووضع الأواب موضع المسبح إما لأنها كانت ترجع التسبيح، والمرجع رجاع؛ لأنه يرجع إلى فعله رجوعًا بعد رجوع، وإما لأن الأواب هو التواب الكثير الرجوع إلى الله تعالى، ومن دأبه إكثار الذكر، وإدامة التسبيح والتقديس، وقيل: الضمير لله عز وجل، أي كل من داود والجبال والطير لله أواب، أي مسبّح مرجع للتسبيح.

وتسبيح الجبال والطير تسبيح حقيقي بلسان المقال لا بلسان الحال، كما قال تعالى: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا» [الإسراء: ٤٤]، وصح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام بأيدينا وهو يؤكل. [البخاري ٣٥٧٩].

«وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ» يعني أنه صلى الله عليه وسلم كان ملكًا متمكنًا في المملكة، وكانت مملكته محكمة منضبطة، لا فوضى فيها، ولا خروج على النظام، ولا خروج على الملك ولا عن أوامره، «وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ» وهي النبوة والعلم والفهم «وَفَصْلَ الْخِطَابِ» وهو فصل النزاع بين المتخاصمين والمتنازعين. وروي عن بعض السلف أن المراد بفصل الخطاب هو كلمة «أما بعد» التي يفصل بها الخطيب بين المقدمة والموضوع.

«وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ» هل سمعت هذا الخبر؟ هل سمعت هذه القصة؟ وهو سؤال للتشويق والترغيب، ليحسن الاستماع إليه.

وكان داود عليه السلام قد قسم أيامه على الأعمال: يوم للعبادة، ويوم للقضاء، ويوم لأهله ومصالحه الخاصة، ويوم لمصالح الناس، ففي يوم العبادة الذى يخلو فيه ولا يدخل عليه أحد، لم يرعه إلا ورجلان تسورا يعني تسلقا السور، ولم يدخلا من الباب.

«فَفَزِعَ مِنْهُمْ» أي خاف منهم؛ لأنهم دخلوا من غير الباب وبلا استئذان. «قَالُوا لاَ تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ» الشطط هو البعد، البعد في القول، والبعد عن الصواب، «فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ» والتزم القصد، ولا تبتعد عن الحق، «وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ».

فتكلم أحدهم فقال: «إِنَّ هَذَا أَخِي» المراد بالأخوة أخوة الصحبة، أو أخوة الدين والإيمان، لا أخوة النسب؛ لأنهم كانوا ملائكة، والملائكة ليس لهم نسب، لأنهم لا يتزوجون ولا يتوالدون، بل هم عباد الله المكرمون. فكلمة أخي يعني صاحبي، رفيقي، جليسي.

«إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً

وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ» يعنى غلبني في الكلام، وأنا لا أقدر أن أردّ عليه.

«قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ» ولا تستغرب لأن هذه طبيعة البشر، «وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ»، يعني أن كثيرًا من الشركاء يظلم بعضهم بعضاً، وينهب بعضهم بعضًا، ويخون بعضهم بعضًا.

ثم استثنى فقال: «إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» ولكنهم قلة قليلة جداً، ولذلك قال: «وَقَلِيلٌ مَا هُمْ».

وانصرف الخصمان، «وَظَنَّ دَاوُدُ» أي أيقن «أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا» أي ساجداً «وَأَنَابَ» إلى الله تبارك وتعالى بالاستغفار والتوبة، «فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ»

التحذير من الإسرائيليات والقصص الباطلة:

وقد أورد بعض المفسرين في تفسير هذه الآيات قصصاً طويلة، وحكايات غريبة، كلها من الإسرائيليات، تطعن في عصمة الأنبياء، ينزه جناب داود النبي عليه السلام عن أن يفعل ما ذكرته تلك الكتب في تفسير هذه الآيات، والواجب إبقاء هذه الآيات على ظاهرها، وتفسير كلماتها كما جاءت، ولا يجوز البحث عن ذنب داود عليه السلام الذي استغفر ربه منه، فالاستغفار لا يلزم منه الذنب، فلم يزل الاستغفار شعار المشهود لهم بالعصمة من الأنبياء، قد قال نوح عليه السلام: « رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾ » [نوح:٢٨]، وقال إبراهيم عليه السلام: « رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ » [إبراهيم: ٤١]، وأمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالاستغفار، فقال: « فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ » [محمد: ١٩]، فاستجاب صلى الله عليه وسلم لأمر ربه، وكانوا يعدون له في المجلس الواحد: «رب اغفر لي وتب عليّ؛ إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة» [أبو داود ١٥٠٢ وابن ماجه وصححه الألباني]. وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «يا أيها الناس! توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب إليه في اليوم أكثر من مائة مرة» [مسلم ٢٧٠٢].

«وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ»، وهذا موضع من مواضع سجود التلاوة في القرآن الكريم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: سجدها داود توبة ونسجدها شكرًا. [صحيح سنن النسائي للألباني ٩٥٦]، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يستدل على السجود في هذا الموضع بقوله تعالى في سورة الأنعام: « أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ » [الأنعام: ٩٠]، ومنهم داود عليه السلام. [البخاري ٣٤٢١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! رأيتني الليلة وأنا نائم، كأني أصلي خلف شجرة، فسجدت، فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها تقول: اللهم اكتب لي بها أجرًا، وحط عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ سجدة، ثم سجد، فقال مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة. [الترمذي ٥٧٦ وصححه الألباني].

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة «ص»

الحلقة الثالثة

وصية الله للولاة

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦].

قال ابن كثير- رحمه الله-: هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور، أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيله، وقد توعد الله تعالى من ضل عن سبيله، وتناسى يوم الحساب، بالوعيد الأكيد، والعذاب الشديد.

عن أبي زرعة - رحمه الله- وكان قد قرأ الكتاب- أن الوليد بن عبد الملك قال له: أيُحاسَب الخليفة، فإنك قد قرأت الكتاب الأول، وقرأت القرآن وفقهت؟ فقلت: يا أمير المؤمنين أقول؟ قال: قل في أمان. قلت يا أمير المؤمنين، أنت أكرم على الله أو داود؟! إن الله عز وجل جمع له النبوة والخلافة، ثم توعده في كتابه، فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إمَّا حكايةٌ لما خُوطب به عليه السلام مُبيِّنةٌ لزُلفاه عنده عز وجل، وإمَّا مقولُ قولٍ مقدَّر هو معطوف على غفرنا، أو حال من فاعله، أو: وقُلنَا له، أو قائلين له يا داودُ إلخ، أي استخلفناك على المُلك فيها، والحكم فيما بينَ أهلها، أو جعلناك خليفةً ممَّن كان قبلك مِنَ الأنبياء القائمينَ بالحقِّ.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾: هذا التكليف مبني على الاستخلاف، للدلالة على أن ذلك واجب الخليفة، وأنه أحق الناس بالحكم بالعدل؛ لأنه هو المرجع للمظلومين، والذي تُرفع إليه مظالم الظلمة من الولاة، فإذا كان عادلاً خشيه الولاة والأمراء؛ لأنه ألف العدل، وكره الظلم، فلا يُقر ما يجري منه في رعيته كلما بلغه، فيكون الناس في حذر من أن يصدر عنهم ما عسى أن يُرفع إلى الخليفة فيقتص من الظالم، وأمّا إن كان الخليفة يظلم في حكمه، فإنه يألف الظلم، فلا يُغضبه إذا رُفعت إليه مظلمة شخص، ولا يحرص على إنصاف المظلوم.

قال الرازي-عفا الله عنه-: اعلم أن الإنسان خلق مدنياً بالطبع؛ لأن الإنسان الواحد لا تنتظم مصالحه إلا عند وجود مدنية تامة، حتى أن هذا يحرث، وذلك يطحن، وذلك يخبز، وذلك ينسج، وهذا يخيط، وبالجملة فيكون كل واحد منهم مشغولاً بمهم، وينتظم من أعمال الجميع مصالح الجميع. فثبتَ أن الإنسان مدني بالطبع، وعند اجتماعهم في الموضع الواحد يحصل بينهم منازعات ومخاصمات،

ولا بد من إنسان قادر قاهر يقطع تلك الخصومات، وذلك هو السلطان، الذي ينفذ حكمه على الكل، فثبت أنه لا ينتظم مصالح الخلق إلا بسلطان قاهر سائس، ثم إن ذلك السلطان القاهر السائس إن كان حكمه على وفق هواه، ولطلب مصالح دنياه، عظم ضرره على الخلق، فإنه يجعل الرعية فداء لنفسه، ويتوسل بهم إلى تحصيل مقاصد نفسه، وذلك يفضي إلى تخريب العالم، ووقوع الهرج والمرج في الخلق، وذلك يفضي بالآخرة إلى هلاك ذلك الملك، أما إذا كانت أحكام ذلك الملك مطابقة للشريعة الحق الإلهية انتظمت مصالح العالم، واتسعت أبواب الخيرات على أحسن الوجوه. فهذا هو المراد من قوله: «فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ» يعني لا بد من حاكم بين الناس بالحق، فكن أنت ذلك الحاكم.

ثم قال: «وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ»، وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله، والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب، فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب.

والتعريف في «الْهَوَىٰ» تعريف الجنس المفيد للاستغراق، فالنهي يعمّ كل ما هو هوى، سواء كان هوى المخاطب أو هوى غيره، مثل هوى زوجه وولده وسيده، وصديقه، أو هوى الجمهور: «وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» [الأعراف: ١٣٨].

ومعنى الهوى: المحبة، وأطلق على الشيء المحبوب مبالغة، أي ولو كان هوى شديداً تعلق النفس به. والهوى: كناية عن الباطل والجور والظلم؛ لما هو متعارف من الملازمة بين هذه الأمور وبين هوى النفوس، فإن العدل والإنصاف ثقيل على النفوس فلا تهواه غالباً، ومن صارت له محبة الحق سجية فقد أوتي العلم والحكمة، وأيّد بالحفظ أو العصمة.

والنهي عن اتباع الهوى تحذير له وإيقاظ، ليحذر من جراء الهوى، ويتهم هوى نفسه ويتعقبه، فلا ينقاد إليه فيما يدعوه إليه، إلا بعد التأمل والتثبت، وقد قال سهل بن حُنَيْف رضي الله عنه: «اتهموا الرَّأي»، ذلك أن هوى النفس يكون في الأمور السهلة عليها، الرائقة عندها، ومعظم الكمالات صعبة على النفس؛ لأنها ترجع إلى تهذيب النفس والارتقاء بها عن حضيض الحيوانية إلى أوج الملكية، ففي جميعها أو معظمها صرف للنفس عما لاصَقَها من الرغائب الجسمانية الراجع أكثرها إلى طبع الحيوانية؛ لأنها إما مدعوة لداعي الشهوة أو داعي الغضب، فالاسترسال في اتباعها وقوع في الرذائل في الغالب، ولهذا جُعل هنا الضلال عن سبيل الله مسببا عن اتباع الهوى.

واتباع الهوى قد يكون اختياراً، وقد يكون كرهاً. والنهي عن اتباعه يقتضي النهي عن جميع أنواعه، فأما الاتّباع الاختياري فالحذر منه ظاهر، وأما الاتباع الاضطراري فالتخلص منه بالانسحاب عما جرّه إلى الإكراه، ولذلك اشترط العلماء في الخليفة شروطاً كلها تحوم حول الحيلولة بينه وبين اتباع الهوى، وما يوازيه من الوقوع في الباطل، وهي: التكليف، والحرّية، والعدالة، والذكورة، وأما شرط كونه من قريش عند الجمهور، فلئلا يضعف أمام القبائل بغضاضة.

وهكذا أمر الله تعالى نبيه داود صلى الله عليه وسلم بالحكم بالحق، ونهاه عن اتباع الهوى، ومعلوم أنه عليه السلام لا يحكم بغير الحق، ولا يتبع الهوى، ولكن الله تعالى، يأمر أنبياءه عليهم الصلاة والسلام، وينهاهم، ليشرّع لأممهم، ولذلك أمر نبينا صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر به داود، ونهاه أيضاً عن مثل ذلك، في آيات من كتاب الله، كقوله تعالى: «سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾» [المائدة: ٤٢]. وقوله سبحانه: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾» [المائدة: ٤٨]، وقوله جل وعلا: «وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾» [المائدة: ٤٩]، وقوله تعالى: «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾» [الجاثية: ١٨]، وقوله تبارك وتعالى: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾» [الكهف: ٢٨]. وهذا الخطاب وإن كان موجهًا للنبي صلى الله عليه وسلم إلا أن المراد به غيره.

ومن أصرح الأدلة الدالة على أن النبي صلى الله عليه وسلم يخاطب بخطاب، والمراد بذلك الخطاب غيره يقيناً، قوله تعالى: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾» [الإسراء: ٢٣]، ومن المعلوم أن أباه صلى الله عليه وسلم توفي قبل ولادته، وأن أمه ماتت وهو صغير، ومع ذلك فإن الله يخاطبه بقوله تعالى: «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا»، ومعلوم أنه لا يبلغ عنده الكبر أحدهما، ولا كلاهما؛ لأنهما قد ماتا قبل ذلك بزمان. فتبين أن أمره تعالى لنبيه ونهيه له إنما يراد التشريع على لسانه لأمته، ولا يراد به هو نفسه صلى الله عليه وسلم.

وقد خاطب الله تعالى المؤمنين أنفسهم بهذا الأمر،

فقال تعالى: «مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾» [النساء: ٨٥].

وقوله: «وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ» أي: إن الله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل.

والحكم: مصدر حكم بين المتنازعين، أي اعتنى بإظهار المحق منهما من المبطل، أو إظهار الحقّ لأحدهما، وصرّح بذلك، وهو مشتقّ من الحكم بفتح الحاء وهو الردْع عن فعل ما لا ينبغي، ومنه سميّت حَكَمَة اللجام، وهي الحديدة التي تجعل في فم الفرس، ويقال: أحكِمْ فلانا، أي امْسِكْه.

والعدل: ضدّ الجور، فهو في اللغة التسوية، يقال: عَدَل كذا بكذا، أي سوّاه به ووازنه عدلا، ومنه قول الله تعالى: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾» [الأنعام: ١]، ثمّ شاع إطلاقه على إيصال الحقّ إلى أهله، ودفع المعتدي على الحقّ عن مستحقّه، إطلاقا ناشئا عمّا اعتاده الناس أنّ الجور يصدر من الطغاة الذين لا يَعدّون أنفسهم سواء مع عموم الناس، فهم إن شاءوا عدلوا وأنصفوا، وإن شاءوا جاروا وظلموا.

وقد ورد الأمر بالعدل والتعظيم لشأنه في كثير من الآيات والأحاديث:

قال تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾» [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾» [الشورى: ١٥]، وقال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾» [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾» [المائدة: ٨]، وقال سبحانه: «وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾» [الحجرات: ٩].

ومما يدل على وجوب العدل الآيات الواردة في مذمة الظلم:

قال تعالى: «﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾» [إبراهيم: ٤٢ - ٤٥]، وقال سبحانه: «وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾» [الشورى: ٤٠- ٤٢]، وقال جل وعلا: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾» [يونس: ١٣]، وقال تعالى: «وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾» [الأنبياء: ١١- ١٥]، «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾» [النمل: ٥٢].

ومن الأحاديث:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عز وجل، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا» [مسلم ١٨٢٧].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ» [متفق عليه].

وَعَنْ أَبِي بُرْدَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ، وَاثْنَانِ فِي النَّارِ، فَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ» [أبو داود ٣٥٥٦ وصححه الألباني].

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ» [مسلم ٢٥٧٨].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ». قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾» [هود: ١٠٢] [متفق عليه].

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا» [مسلم ٢٥٧٧].

ويدخل العدل في جميع المعاملات: في الدماء، والأموال، والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو؛ لأن

الله تعالى قال: «إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾» [النساء: ٥٨]. هكذا عدلاً شاملاً «بَيْنَ النَّاسِ» جميعاً. لا عدلاً بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب. ولا عدلاً مع أهل الكتاب، دون سائر الناس، وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه «إنساناً».

فهذه الصفة - صفة الناس - هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني. وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعاً: مؤمنين وكفاراً. أصدقاء وأعداء. سوداً وبيضاً. عرباً وعجماً. والأمة المسلمة قيّمة على الحكم بين الناس بالعدل - متى حكمت في أمرهم - هذا العدل الذي لم تعرفه البشرية قط - في هذه الصورة - إلا على يد الإسلام، وإلا في حكم المسلمين، وإلا في عهد القيادة الإسلامية للبشرية. والذي افتقدته من قبل ومن بعد هذه القيادة، فلم تذق له طعماً قط في مثل هذه الصورة الكريمة التي تتاح للناس جميعاً؛ لأنهم «ناس»! لا لأية صفة أخرى زائدة عن هذا الأصل الذي يشترك فيه «الناس»! وذلك هو أساس الحكم في الإسلام.

ولا بد لتحقيق الحق، وتوفير العدل من سن القوانين والشرائع التي يلتزمها الحكام فيعدلون، والقوانين الوضعية لا تصلح لهذه الغاية، فإنّ بعض القوانين أسّست بدافعة الغضب والأنانية، فتضمّنت أخطاء فاحشة، مثل القوانين التي يمليها الثوار بدافع الغضب على من كانوا متولين الأمور قبلهم، وبعض القوانين المتفرّعة عن تخيّلات وأوهام، كقوانين أهل الجاهلية والأمم العريقة في الوثنية. وأحكم القوانين وأسلمها هي الشرائع الإلهية؛ لمناسبتها لحال من شرعت لأجلهم، وأعظمها شريعة الإسلام لابتنائها على أساس المصالح الخالصة أو الراجحة، وإعراضها عن أهواء الأمم والعوائد الضالة، فإنها لا تعبأ بالأنانية والهوى، ولا بعوائد الفساد؛ ولأنّها لا تبنى على مصالح قبيلة خاصّة، أو بلد خاصّ، بل تبتنى على مصالح النوع البشري وتقويمه وهديه إلى سواء السبيل؛ لأنها تنزيل من رب العالمين، العليم الحكيم، اللطيف الخبير، الذي لا يحابي ولا يجامل؛ لأن الخلق كلهم عنده سواء، لأنهم جميعاً عبيده. قال تعالى: «كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾» [البقرة: ٢١٣]، وقال تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾» [الحديد: ٢٥]. وخص سبحانه أشرف الكتب بالذكر والتنبيه على أن الحكمة من تنزيلها أن يحكم بها الناس، فقال تعالى: «إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾» [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: «وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾» [المائدة: ٤٦ - ٤٨]. «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ»؛ هل من مستجيب؟ نرجو الله أن يوفق ولاة أمورنا لتطبيق شرع ربنا، حتى يعمنا الأمن والأمان، والسلامة والسلام، وحتى تبقى الدول، فإن من سنن الله تعالى أنه يهلك الأمم بظلمهم، كما سبق بيانه، ومن الظلم عدم الحكم بما أنزل الله، كما قال سبحانه: «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾» [المائدة: ٤٥].

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ» أي يوم القيامة بسبب نسيانهم يوم الحساب.

والله تبارك وتعالى قد علق العذاب في الآخرة على نسيان يوم الحساب في أكثر من آية، قال تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ ۖ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾» [السجدة: ١٢- ١٤].

وقال تعالى: «وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾» [الأعراف: ٥٠ - ٥١]، فلا تنس أنك إلى الله راجع، وبين يدي الله موقوف، وأمام الله مسئول وتذكر:

تذكر يوم تأتي الله فرداً
وقد نصبت موازين القضاء
وهتكت الستور عن المعاصي
وجاء الذنب منكشف الغطاء

نسأل الله تعالى أن يسترنا في الدنيا والآخرة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

تفسير سورة «ص»

الحلقة الرابعة

قال تعالى: «وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى ۖ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾» [ص ٢٧- ٣٩].

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

الحكمة من البعث بعد الموت:

لما حذر الله تبارك وتعالى داود عليه السلام من اتباع الهوى بقوله: «وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ»، توعد من ضل عن سبيله، فقال: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾» [ص: ٢٦]، إذًا فلا بد من يوم الحساب حتى يفصل الله تبارك وتعالى بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، وحتى يجزى الذين أساءوا بما عملوا، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى.

إننا نرى في هذه الدنيا من الناس البر والفاجر، ومنهم المسلم والكافر، ومنهم الظالم والمظلوم، ومنهم الصالح والطالح، ومنهم المصلح والمفسد، ثم الموت يعم الجميع، فلو لم يكن بعث بعد الموت، ليقضى الله تبارك وتعالى بين العباد فيما كانوا فيه يختلفون، ويجعلهم فريقين: فريقا في الجنة وفريقا في السعير، لاستووا أجمعون،والله تعالى قد نفى التسوية بينهم، فقال تعالى: «أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾» [السجدة: ١٨]، وقال تعالى: «وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾» [غافر: ٥٨]

وقال تعالى: «أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ» [الجاثية: ٢١]

وقال تعالى: «أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾» [القلم: ٣٥ - ٣٦].

فلما ذكر الله تبارك وتعالى يوم الحساب أتبعه بقوله: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً»، والباطل ضد الحق، ولذلك قال تعالى: «مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [الدخان: ٣٩].

فقول «لا بعث بعد الموت» ، يفيد أن الله خلق السماء والأرض وما بينهما باطلاً، وقول «لا بعث بعد الموت» يتهم الله تبارك وتعالى باللهو والعبث، والله تعالى منزه عن ذلك، «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾» [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]، فلأن الله هو الحق فلابد من البعث

بعد الموت.

عقيدة الكافرين والمؤمنين:

أما الذين كفروا فإنهم يظنون بالله ظن السوء، ويتهمون الله تبارك وتعالى عن ذلك، «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا»، أما أهل الإيمان فإنهم يقولون كما قال الله سبحانه وتعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾» [آل عمران: ١٩٠ -١٩١]

ثم يعودون بعد هذا التفكير بتسبيحة طويلة لرب العالمين: «رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» [آل عمران: ١٩١].

جزاء المكذبين بيوم الدين:

ثم توعد الله الكافرين على هذا الظن فقال: «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ» على تكذيبهم بيوم الدين.

قال تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾» [الفرقان: ١١- ١٤]، «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ» كيف قالوا لا بعث بعد الموت!

«أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ»:

فحتى تتم التفرقة بين أهل البر والفجور، بين أهل الطاعة والعصيان، فلابد من البعث بعد الموت؛ لأن الله تبارك وتعالى بحكمته جعل هذه الدار دار العمل، وجعل الآخرة دار الجزاء، كما قال عليٌّ رضي الله عنه: إنَّ الدُّنْيَا قَدْ ارْتَحَلَتْ مُدْبِرَةً، وَإِنَّ الآخِرَةَ قَدْ ارْتَحَلَتْ مُقْبِلَةً، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلَ. [رواه البخاري معلقا.باب في الأمل وطوله: (٢٣٥ /١١)].

الحث على تدبر القرآن:

ثم قال تعالى: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ»:

كتابٌ مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، وتقدير الكلام: هذا كتاب مبارك، عمت بركاته، وكثرت خيراته، أنزلناه عليك يا نبينا ليدبروا آياته، فهذا هو المقصود الأعظم من التلاوة، أن تقرأ وتتدبر وتفهم ثم تعمل، فلا يكن همك إذا قرأت آخر ما تقرأ، ولكن ليكن همك ما تفهم من هذا الكتاب الكريم، فلأن تقرأ جزءاً واحداً بتدبر خير لك من أن تقرأ عشرة أجزاء بلا تدبر، ولذلك قيل لابن عباس رضي الله عنهما: رجلان صليا ركعتين جميعا، فكان قيامهما وركوعهما وسجودهما سواء، إلا أن الأول قرأ البقرة وحدها، والثاني قرأ البقرة وآل عمران، فأيهما أحب إليك، أو أفضل عندك؟ قال الذي قرأ البقرة وحدها. لأن قراءته قراءة التدبر والفهم، وهذا هو المقصود الأعظم من القراءة «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ» أولوا العقول السليمة.

قصة سليمان عليه السلام:

«وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ»: الولد هبة من الله للوالد، كما قال تعالى: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾» [الشورى: ٤٩].

وكما أثنى الله تعالى على الوالد من قبل أتبع ذلك بالثناء على الولد فقال: «نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ»، فالعبد هنا سليمان عليه السلام، لأن الثناء على داود سبق قبل ذلك: «وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾» [ص: ١٧] فقوله تعالى: «نِعْمَ الْعَبْدُ» يعني سليمان، «إِنَّهُ أَوَّابٌ»: الأواب صيغة مبالغة من الأوب وهو الرجوع، ومعناه كثير الرجوع إلى الله تبارك وتعالى.

«إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ» وهي الخيل، والخيل الصافنات هي التي تقوم على ثلاثة أرجل، وترفع الرابعة، وهن جياد في خلقتهن، وجياد في قوتهن، وجياد في سرعتهن.

«إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ» وهو من الظهر إلى المغرب.

«الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ» كان سليمان عليه السلام يستعرض الخيل، ففوجئ أن الشمس قد غربت

ولم يصلّ العصر، «فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي» والخير يطلق على المال، كما في قوله تعالى: «إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾» [العاديات: ٦- ٨]، وقال تعالى: «وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾» [الفجر: ٢٠]، والخيل من المال فهي خير، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) [متفق عليه].

فسليمان عليه السلام انشغل بعرض الصافنات الجياد عن صلاة العصر، كما انشغل النبي صلى الله عليه وسلم عن صلاة العصر يوم الخندق، جاء عمر يقول يا رسول الله فعل الله كذا وكذا بالكفرة، ما صليت العصر حتى غربت الشمس، قال: وأنا والله ما صليتها. فهذه أعذار شرعية، الأنبياء معذورون فيها، ومع ذلك جعل سليمان عليه السلام ذلك سيئة، وجعله خطيئة، واستغفر الله منها، من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

«فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾» - أي توارت الشمس - «رُدُّوهَا عَلَيَّ» يعني الخيل، «فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ» جمع ساق «وَالْأَعْنَاقِ» جمع عنق، فذبحها كلها، وتخلص منها؛ لأنها شغلته عن صلاة العصر، والنبي صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّكَ لَنْ تَتْرُكَ شَيْئًا اتِّقَاءَ اللهِ إِلاَّ أَعْطَاكَ اللهُ خَيْراً مِنْهُ))

[أحمد (٧٨/٥، رقم ٢٠٧٥٨)، وقال الهيثمي (٢٩٦/١٠): رواه أحمد بأسانيد ورجالها رجال الصحيح].

فلما ذبح سليمان عليه السلام الخيل لأنها شغلته عن صلاة العصر حتى غربت الشمس عوضه الله خيرًا منها، «فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ» غدوها شهر ورواحها شهر.

«وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ»: الفتنة هي الاختبار والامتحان والابتلاء.

ما هي طبيعة الفتنة؟ وما حقيقة الجسد الذي أُلقي على الكرسي؟

كل ما ورد في التفاسير من هذه الروايات فهو باطل، ينافي عصمة الأنبياء، وينافي جلالة قدرهم عليهم الصلاة والسلام، فالواجب إمرار هذه الآيات على ظاهرها كما جاءت، والإمساك عن الخوض فيما وراءها، فالله تبارك وتعالى أعلم بها، لم يأتنا في حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير لهذه الفتنة، ولا تفسير لهذا الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان.

«قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي» اغفر لي ماذا؟ قلنا في قصة أبيه أن الاستغفار لا يستلزم الخطيئة، فنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أكثر الناس استغفاراً وهو المعصوم صلى الله عليه وسلم، «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ»، فكان سليمان عليه السلام نبياً ملكاً، ولا تظن أنه كان يريد الدنيا، فالأنبياء ليس لهم همٌ في الدنيا، الأنبياء أزهد الناس في الدنيا، ولكن أراد بالملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده أن يستعين به على نشر دين الله عز وجل، وإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى.

«قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ» فاستجاب له ربه: «فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً» هينة لينة، وليست عاصفة مدمرة، وإنما تجري بأمره «رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ» يعني حيث أراد.

«وَالشَّيَاطِينَ» منصوبة عطفاً على الريح، والشياطين فرق وأصناف منهم البنّاء، يبني له ما يريد من قصور وعمارات، ومنهم الغوّاص الذي يغوص في البحر، ويستخرج له الجواهر واللؤلؤ والمرجان.

«وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ» مقيدين مغلولين «فِي الأَصْفَادِ»، وهذا من تمام تسخيرهم له، وقدرته عليهم، «وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ» [سبأ١٢-١٣]، وقال الله تعالى لسليمان: «هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ» أي أعط «أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» فلن نحاسبك على عطائك ولا على إمساكك، هذا ما أعطاه الله له في الدنيا.

«وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا» في الآخرة «لَزُلْفَى» لقربى «وَحُسْنَ مَآبٍ».

اللهم صَل وسلم على عبدك ونبيك محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

هذه وظيفتنا

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

قال تعالى: « وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ » [التوبة: ٧١].

انتهت الانتخابات، ونسأل الله تعالى أن يُوفِّق من اختارهم الشعب لما يحبه ويرضاه، وأن يُعينهم على الوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، كما نسأله سبحانه أن يُتِمَّ علينا الانتخابات الرئاسية بخير، حتى يتفق الناس على إمام لهم، ونسأل الله تعالى أن يكون إمام هدى، يحقق الله على يديه ما نرجوه من خير الدنيا والآخرة.

ولقد بُذِلَتْ في هذه الانتخابات جهود، وأُنْفِقَتْ أموال، وشارك في هذا كله الشيوخ والشباب، والرجال والنساء، ومعنى هذا أن لدينا طاقات، ولدينا جهودًا، ولدينا أموالا، تُرَى أين ستذهب هذه الجهود، وأين ستنفق هذه الأموال بعد الانتخابات؟!

يجب علينا أن نعلم أننا نحن أُمَّةَ محمد صلى الله عليه وسلم لنا وظيفة خلقنا الله لها، وهي أن نعبد الله وحده، وأن ندعو الناس إلى عبادته، قال تعالى: « وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ » [الذاريات: ٥٦]، وقال تعالى: « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ » [آل عمران: ١١٠]، فالإيمان بالله هو الذي يجعلنا نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو دعوتنا للناس إلى عبادة الله عز وجل.

تُرَى أين جهودنا المبذولة في الدعوة إلى الله، وكم نُنفق من أموالنا في سبيل الله؟! إنني أقول لهؤلاء الشيوخ والشباب، والرجال والنساء: لقد تحركتم إلى الناس، وزرتموهم في بيوتهم ومجالسهم وأسواقهم، ودعوتموهم إلى الانتخابات، فهلا دامت هذه الحركة وهذه الزيارة من أجل دعوة الناس إلى توحيد الله عز وجل، هلا زرتم الناس وغشيتموهم في بيوتهم ومجالسهم ومحلاتهم وطرقاتهم، ودعوتموهم إلى ذكر الله، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة؟!

إن وظيفتنا هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي وظيفة رسولنا من قبلنا، قال الله تعالى في حق النبي صلى الله عليه وسلم: « ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ » [الأعراف: ١٥٧]، وقال في حقنا: « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» [آل عمران: ١١٠]، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالأمر بالمعروف فقال: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾» [الأعراف: ١٩٩]، وأمرنا بما أمره به، فقال تعالى: «وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾» [آل عمران: ١٠٤]، وأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلنها صريحة أن وظيفته ووظيفة أتباعه هي الدعوة، فقال تعالى: «قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾» [يوسف: ١٠٨].

وفضل الدعوة عظيم قال تعالى: «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾» [فصلت: ٣٣]، ففي هذه الآية التنبيه على شرف الدعاة والثناء عليهم، وبيان أنهم أحسن الناس قولاً؛ لأنهم يدعون الناس إلى الله، ويرشدونهم إلى اتباع الحق واجتناب الباطل، وفعل الخير وترك المنكر، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» [مسلم ١٨٩٣]، وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا» [مسلم ٢٦٧٤]، ولما أعطى صلى الله عليه وسلم الراية يوم خيبر لعليٍّ رضي الله عنه قال له: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» [متفق عليه].

فتخيل أيها المسلم عظمة هذا الأجر الذي يأتيك من الدعوة إلى الله، تخيل إذا هدى الله على يدك مائة أو ألفا، كم يأتيك من الأجر؟! فهنيئًا لك أيها الداعية هذا الخير العظيم، فكيف تنشغل عن الدعوة إلى الله وتترك هذا الخير العظيم؟! أما علمت أنك حين تنشغل بالدعوة تنام ويأتيك أجر القائمين بسببك، وتفطر ويأتيك أجر الصائمين بسببك، وتموت ويأتيك أجر العاملين بدعوتك من بعدك، أو ما سمعت الله تعالى يقول: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾» [يس: ١٢]، وآثارهم تشمل آثارهم التي تركوها في الناس من خير أو شر، ولذلك قال الله تعالى: «يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ» [القيامة: ١٣]، أي بما قدم في حياته، وبما أخر بعد مماته، كما قال صلى الله عليه وسلم: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ» [مسلم ١٦٣١]، وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ» [مسلم ١٠١٧].

أفلا يحملكم معشر الرجال والنساء، والشيوخ والشباب، الذين سهرتم الليالي في الدعوة إلى الانتخابات، أفلا يحملكم هذا الفضل العظيم على أن تسهروا الليالي من أجل الدعوة إلى الله، تدعون الناس سرًا وجهارًا، وليلاً ونهارًا، كما فعل الأنبياء، أما سمعتم الله يقول: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾» [يونس: ٥٨]، وأي فضل أعظم من أن يصطفيك الله للدعوة إليه، أما علمت أن هذه وظيفة المصطفين الأخيار من رسل الله وأتباعهم، فكما اصطفى الله الأنبياء من جملة الخلق للقيام بواجب الدعوة، اصطفى من جملة الأتباع من يقوم بهذا الواجب.

فلنحرص جميعًا على القيام بواجب الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن ذلك من موجبات رحمة الله، كما صرح الله تعالى في هذه الآية، ولنحذر من القعود عن هذه الوظيفة والانشغال عنها بالسياسة والساسة، فإن تركها من أعظم أسباب الطرد من رحمة الله، قال تعالى: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾» [المائدة: ٧٨- ٧٩]، وقد حذرنا الله من السكوت عن المنكر إذا فشا في الأرض، فقال تعالى: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾» [الأنفال: ٢٥]، وقال صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»

[البخاري ٢٤٩٣].

وقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ » [المائدة: ١٠٥]، ألا وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم لم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقابه» [صحيح الترمذي للألباني (٣٠٥٧)].

فيا معشر الشيوخ والشباب، والرجال والنساء: نريد منكم توظيف هذه الطاقات، وتوظيف هذه الجهود التي بذلتموها في الانتخابات، نريد أن تبذلوها في الدعوة إلى الله. ويا أيها المرشحون الذين أنفقتم ما لا يعلمه إلا الله في الانتخابات، أنفقوا مما رزقكم الله في الدعوة إلى الله «عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡ» [الإسراء: ٨].

ومن موجبات رحمة الله: إقامة الصلاة: قال تعالى: « وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥ » [المعارج: ٣٤ - ٣٥]، والجنة هي رحمة الله، كما في الحديث أن الله تعالى: «قال للجنة: أنت رحمتي أصيب بك من أشاء» [متفق عليه]. وفي القرآن الكريم قال تعالى: «يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ» [الإنسان: ٣١].

فإقام الصلاة من موجبات رحمة الله، وتركها من موجبات العذاب، قال تعالى: « فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ٥٩ » [مريم: ٥٩]، وقال تعالى: « فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ٥ » [الماعون: ٤- ٥]، وقال تعالى: « كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ » [المدثر: ٣٨ - ٤٣].

فاتقوا الله عباد الله، وأقيموا الصلاة كما أمركم الله، ومروا بها أهليكم والناس أجمعين، قال تعالى: « وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا » [طه: ١٣٢]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع» [صحيح أبي داود للألباني (٤٦٦)]))، وادعوا الناس إلى إقامتها، فإن الدعوة إلى إقام الصلاة من أولويات الدعوة إلى الله، كما في الحديث: عَنْ مُعَاذ بْن جَبَل رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَنِي رَسُول الله صَلَّى اللَّه عليه وسلم قَالَ: «إنَّك تَأتي قَوْمًا مِنْ أَهْل الْكِتَاب. فَادْعُهُمْ إلَى شَهَادَة أَنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وَأَنِّي رَسُول اللَّه، فَإنْ هُمْ أَطَاعُوا لذَلكَ فَأَعْلمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ في كُلِّ يَوْم وَلَيْلَة» [متفق عليه].

ومن موجبات رحمة الله: إيتاء الزكاة: فمن أعطى زكاة ماله، طيبة بها نفسه، أدخله الله في رحمته، كما قال تعالى: « وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩ » [التوبة: ٩٩]، ومن غلب عليه البخل والشح، فلم يؤد زكاة ماله عُذِّب به يوم القيامة، كما قال تعالى: «وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ٣٥ » [التوبة: ٣٤ - ٣٥].

عَنْ أَبي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ صَاحب ذَهَب وَلا فضَّة لا يُؤَدِّي منْهَا حَقَّهَا، إلا إذَا كَانَ يَوْمُ الْقيَامَة صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائحَ منْ نَار، فَأُحْميَ عَلَيْهَا في نَار جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بهَا جَنْبُهُ، وَجَبينُهُ، وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعيدَتْ لَهُ، في يَوْم كَانَ مقْدَارُهُ خَمْسينَ أَلْفَ سَنَة، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعبَاد، فَيُرَى سَبيلُهُ: إمَّا إلَى الْجَنَّة، وَإمَّا إلَى النَّار» [مسلم ٩٨٧].

وقال تعالى: « وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١٨٠ » [آل عمران: ١٨٠].

عَنْ أَبي هُرَيْرَة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول اللَّه صلى الله عليه وسلم: «مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقيَامَة شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبيبَتَان، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقيَامَة، ثُمَّ يَأْخُذُ بلهْزمَتَيْه - يَعْني شدْقَيْه - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ» ثُمَّ تَلا «وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذينَ يَبْخَلُونَ بمَا آتَاهُمُ اللهُ منْ فَضْله» الآيَةَ [البخاري ١٤٠٣].

فمن آتاه الله مالا فليؤدِ زكاته طيبةً بها نفسه، وليأمر بها أهله، فإن الله تعالى مدح إسماعيل u بقوله: «وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾» [مريم: ٥٥]، وليأمر بها الناس، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل وقد بعثه إلى اليمن: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ» [متفق عليه].

ومن موجبات رحمة الله طاعة الله ورسوله، كما قال تعالى: «وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ» [التوبة: ٧١]، وقال تعالى: «وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾» [آل عمران: ١٣٢]، فطاعة الله ورسوله من موجبات رحمة الله، وعصيان الله ورسوله من موجبات العذاب، قال تعالى: «تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾» [النساء: ١٣ - ١٤].

وقد أكثر ربنا سبحانه وتعالى علينا في القرآن الكريم من الأمر بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾» [النساء: ٥٩]، وقال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾» [الأنفال: ٢٠]، وقال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾» [محمد: ٣٣]، وحذر سبحانه من مخالفة رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: «فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾» [النور: ٦٣]، وبيّن سبحانه أن الذين عصوا الله ورسوله سيندمون يوم القيامة أشد الندم، فقال تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾» [النساء: ٤١ - ٤٢]، وقال تعالى: «وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾» [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، وقال تعالى: «يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾» [الأحزاب: ٦٣ - ٦٦].

فلنوطن أنفسنا على السمع والطاعة لله ولرسوله، فإن ذلك عنوان الإيمان، كما قال تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾» [الأحزاب: ٣٦]، وقال تعالى: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾» [النور: ٥١].

هذه هي وظيفتنا: «يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ» [التوبة: ٧١]، هذه هي وظيفتنا قبل قيام الدولة، وهذه هي وظيفتنا بعد قيام الدولة، قال تعالى: «وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾» [النور: ٥٥ - ٥٦]، فهذه هي وظيفتنا قبل قيام الدولة، وهي الطريق إليها، ووظيفتنا بعد قيامها، قال تعالى: «وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾» [الحج: ٤٠ - ٤١].

فنحن أمة دعوة من قبل ومن بعد، وليس لنا أن نفرّط في هذه الوظيفة، وأن لا ننشغل عنها وأن لا نؤثر عليها شيئًا، ونسأل الله تعالى أن لا يحرمنا فضل الدعوة إليه، وأن يحشرنا يوم القيامة مع سيد الدعاة محمد صلى الله عليه وسلم. والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة «ص»

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

« وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤) وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (٤٨) هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ (٥٠) مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١) ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ (٥٤) هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) » [ص: ٤١- ٦١].

قصة أيوب عليه السلام:

« وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ » واذكر يا نبينا في الكتاب الذي أنزلناه عليك «عَبْدَنَا أَيُّوبَ » عليه السلام، «إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ»، ابتُلي أيوب عليه السلام بالبلاء الشديد، ومكث فيه ثماني عشرة سنة وشهرًا، ابتلي في نفسه، ابتلي في ماله، ابتلي في أهله، ابتلي في ولده بأنواع البلاء، وصبر عليه السلام، فلما أراد الله أن يشفيه ألهمه الدعاء؛ لأن الدعاء مقرون بالإجابة: « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » [البقرة: ١٨٦].

وفي سورة الأنبياء قال تعالى: «وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) » [الأنبياء: ٨٣]، وهنا قال: «أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ»، وللمفسرين في هذا اللفظ كلام كثير جداً، ولماذا نسب أيوب ما أصابه إلى الشيطان، قال

بعض العلماء- ولعل هذا أرجح الأقوال- أن هذا من باب الأدب، أن لا ينسب الشر إلى الله، كما فعل الخليل إبراهيم عليه السلام قال: «الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾» [الشعراء: ٧٨ - ٨٠]، فنسب المرض إلى نفسه، ونسب الشفاء إلى ربه «فَهُوَ يَشْفِينِ».

فأيوب عليه السلام نسب الشر إلى الشيطان؛ لأن الشيطان أساس كل شر، تأدباً مع الله، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: والشر ليس إليك.

فلما دعا ربه، قال له ربه: «ارْكُضْ بِرِجْلِكَ» اضرب الأرض برجلك، فتفجرت العيون من تحت رجله، كما تفجرت من تحت رجل إسماعيل عليه السلام، فرأى الماء يخرج من تحت رجله، فقيل له: «هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ» اغتسل واشرب، اغتسل فبرأ من الأمراض الظاهرة والعلل الظاهرة في بدنه، وشرب فبرأ من الأمراض الباطنة.

«وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ» الذين فقدهم «وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ» زيادة عليهم «رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ» أنهم إذا ابتلوا عليهم أن لا يجزعوا، وأن لا يفزعوا، وأن لا يتسخطوا، وأن يصبروا لقضاء الله، وأن يرضوا بحكم الله، وأن يعلموا أن بعد العسر يسرًا، وأن بعد الكرب فرجًا.

«وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ٣»: وكان عليه السلام حلف أن يضرب امرأته مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ ضغثًا (وهو ملء الكف من الحشيش) يشتمل على مائة عود صغار، ويضربها ضربة واحدة.

ثم يثني الله تعالى على أيوب عليه السلام فيقول: «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ».

فالصبر الصبر معشر المبتلين، فما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر، يقول تعالى: «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» [الزمر: ١٠]، يقول بعض السلف: ما من عمل صالح إلا وأجره معلوم، الحسنة بعشر أمثالها، إلا الصبر، فإن الله تعالى قال: «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» قال: كالماء المنهمر لا تحصى قطراته.

خصائص الأنبياء عليهم السلام:

«وَاذْكُرْ» يا نبينا «عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ» وإسحاق هو ابن إبراهيم، ويعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم، فذكر الوالد والولد والحفيد.

«أُولِي الْأَيْدِي» يعنى ذوي القوة في الطاعة والعبادة، «وَالْأَبْصَارِ» يعني الفقه في الدين، فمدحهم الله تعالى على ما كانوا عليه من العلم والعمل ثم قال: «إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ» بالتنوين، ما هي؟ هي «ذِكْرَى الدَّارِ» الآخرة. أكرم ربنا سبحانه إبراهيم وإسحاق ويعقوب بذكر الآخرة، فكانت دائماً على بالهم، ليس لهم همٌ في الدنيا، كل همِّهم الآخرة.

«وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧) وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ» إسماعيل بن إبراهيم، أُفرد بالذكر للتكريم والتشريف.

«وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ»: أي واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، واثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلا منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال من الأعمال، والأخلاق والصفات الحميدة، والخصال السديدة.

نعيم أهل الجنة:

«هَذَا» الذي ذكرناه لك «ذِكْرٌ»، وهنا وقف تام، ويستأنف كلامًا جديدًا: «وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ» وهم أصحاب العقيدة الصالحة والعمل الصالح، كما قال تعالى: «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ» وهذه هي العقيدة «وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ» هذه هي الأعمال الصالحة، ثم قال: «أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾» [البقرة: ١٧٧].

«إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ» مرجعًا حسنًا جميلاً، وهو «جَنَّاتِ عَدْنٍ» جنات إقامة، جنات خلود، لا يبغون عنها حولاً، وما هم منها بمخرجين، «جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ»، وفتح الأبواب عنوان الأمان التام، بخلاف الدنيا، فلا بد من غلق الأبواب قبل النوم، «مُتَّكِئِينَ فِيهَا» والاتكاء دائماً قعدة المزاج وخلو البال.

«يَدْعُونَ فِيهَا» يطلبون وينادون على الخدم، «بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ».

«وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» التي قصرت عينها على زوجها، فلم تتطلع إلى غيره، لشدة جماله الذي ملك قلبها، فزوجها عندها سيد البشر، ليس أحد مثله أبدا، وهى من شدة جمالها قصرت عين زوجها عليها، فلا يفكر في غيرها، ولا يتطلع إلى غيرها؛ لأنه لا يظن أن هناك من هو أجمل منها.

«قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ» قصرت طرفها على زوجها، وقصرت عين زوجها عليها، وهُنَّ «أَتْرَابٌ» بنات سن واحدة،كما قال تعالى: «إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾» [الواقعة: ٣٥- ٣٧]، أترابا يعنى بنات سن واحدة، وهي ٣٣ سنة، وهي سن الفتوة والشباب، والنضرة والحسن والبهاء.

«هَذَا» النعيم الذي ذكرناه «مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ»

فياً خاطب الحسناء إن كنت راغباً
فهذا أوان المهر فهو المعجل

هذا ما وعدكم به ربكم، فالذي يريد أن يشتري يدفع، لأن الدفع مقدم، والسلعة هي المؤجلة،

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾» [التوبة: ١١١].

«إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ» بخلاف رزق الدنيا، «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» [البقرة: ٢٥]، نسأل الله تعالى من فضله.

ألوان عذاب أهل النار:

«هَذَا» اسم إشارة يؤتى به للانتقال من شيء إلى آخر، وللدلالة على انتهاء السابق وابتداء اللاحق، «هَذَا» وهنا وقف تام، ويستأنف القارئ «وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ».

«هَذَا» اسمٌ إشارة، قد يكون مبتدأ لخبر محذوف، أو يكون خبرا لمبتدأ محذوف - فإذا قلنا: «هَذَا» مبتدأ، كان أقرب تقدير للخبر المحذوف ما سبق فى قوله تعالى: «هَذَا ذِكْرٌ».

ويمكن أن يكون الخبر: هذا باب فى وصف جزاء المتقين، «إِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ».

ويمكن أن يكون هذا خبرًا، والمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر هذا، وانتهى الكلام، وانتهى الموضوع الأول، ولما ذكرنا جزاء المتقين نذكر جزاء الظالمين، «وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ» والطاغين الظالمين «الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾» [الفجر: ١١- ١٢] والمراد بهم صناديد قريش أبو جهل، والوليد بن عتبة، وعتبة بن ربيعة، وأمثالهم من عظماء قريش، «وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ» أي شر مرجع يرجعون إليه، وهو في مقابل «وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ».

«جَهَنَّمَ» بدل من «لَشَرَّ مَآبٍ»، «يَصْلَوْنَهَا» أي يدخلونها فتغمرهم من جميعُ الجهات، كما قال تعالى: «لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» [الأعراف: ٤١]، «لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ» [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: «لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾» [الأنبياء: ٣٩].

«فَبِئْسَ الْمِهَادُ»: المهاد والمهد هو الفراش الذي ينام عليه، والفراش الذي ينام عليه يُمَهَّدُ وَيُسَهَّل، حتى يستريح الإنسان عليه، فهذا هو مهادهم «فَبِئْسَ الْمِهَادُ».

«هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ» في الكلام تقديم وتأخير، هذا هو العذاب الذي أعدَّ لهم: «حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ»، «فَلْيَذُوقُوهُ»، والحميم الماء الحار المغلي الذي اشتدت درجة غليانه، والغساق فيه قولان: الأول: أنه ضد الحميم، فالحميم هو الماء المغلي، والغساق هو الزمهرير، الماء البارد جدا، أبرد من الثلج، فهم يعذبون بالشيء وضده، يحرقون بالنار الحامية، كما يحرقون بالزمهرير البارد، والبرد الشديد يحرق كما تحرق النار.

والثاني: الغساق هو ما يسيل من جراحاتهم من دم وقيح وصديد.

«وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ» يعنى الشيء وضده، الحميم والغساق زوجان،

ولهم أشكال وألوان من أزواج العذاب.

تخاصم أهل النار:

«هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ»:هذا قول خزنة النار للسابقين الأولين مشيرين إلى المتأخرين من الأفواج، كلما ألقى فيها فوج قالت: «هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ» فرد السابقون قائلين «لاَ مَرْحَبًا بِهِمْ»: مرحبا تقال للإكرام، يأتي الضيف فنقول له: يا مرحبا يا مرحبا، أي: نزلت على الرحب والسعة، فالرحب هو السعة، فمرحبًا للإكرام، ولا مرحباً للإهانة، فلما قيل للمتبوعين من الأكابر وهم داخلون النار: «هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ»، رد الأكابر: «لاَ مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ»، فسمعهم الفوج اللاحق، فقالوا للأكابر: «قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لاَ مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا» أنتم السبب، مازلتم تغووننا وتزينون لنا الباطل والضلال حتى اتبعناكم على الكفر والشرك بالله.

«بَلْ أَنْتُمْ لاَ مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ» وفي سورة الأعراف قال الله تعالى: «قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ (٣٨)» [الأعراف: ٣٨] ضاعف لهم العذاب يا رب مرتين، «قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ» منكم ومنهم، «وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ».

«قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا» أي من كان سبباً في هذا العذاب الذي نحن فيه الآن، «فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ».

ولما دخل أمثال أبي جهل وأبي لهب وأمثالهم من صناديد قريش النار تفقدوا من معهم فقالوا: «مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ» قال أبو جهل لعنه الله: أين عمار، وأين صهيب، وأين خباب؟ أين المستضعفون الفقراء المساكين من أهل الإيمان؟ «مَا لَنَا لاَ نَرَى رِجَالاً» في النار «كُنَّا» في الدنيا «نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ» ونقسم بالله أنهم أصحاب النار.

«أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا» وقرئت «أَتَّخَذْنَاهُمْ» بألف الوصل على سبيل الإخبار، أي أننا اتخذناهم في الدنيا سخرياً، وهذا هو الواقع الذي قال الله تبارك وتعالى لهم فيه: « قَالَ اخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ »، [المؤمنون: ١٠٨- ١١١].

وأرجح الأقوال أن الهمزة همزة قطع على سبيل الاستفهام: «أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا» فأخطأنا لما ضحكنا منهم وسخرنا منهم، وهم كانوا أعلى من ذلك شأناً وأرفع قدراً، أم هم معنا في النار ونحن لا نراهم: «أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ» يعني هم كانوا أخيارًا، ونحن كنا نعدهم أشرارًا فأخطأنا، أم هم معنا في النار في ناحية ثانية ونحن لا نراهم، «أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ» فكشف الله لهم الحقيقة، وأعلمهم أن الذين اتخذوهم سخريًا قد أدخلهم الله تعالى الجنة، فأذن الله تعالى لأهل الجنة في نداء أهل النار: «وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ » [الأعراف: ٤٤]، فحينئذ علموا أنهم في الجنة لا في النار.

يقول القرطبي - رحمه الله- في تفسيره: مسكين أبو جهل! أسلم ابنه عكرمة! وأسلمت ابنته جويرية! وأسلمت أمه! وأسلم أخوه! ولكن من يضلل الله فما له من هاد.

«إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ» هذا الذي سمعتموه من تخاصم أهل النار وتبادل السباب واللعان بينهم، «إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ» وهو «تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ» فيما بينهم وبين بعضهم البعض في جهنم.

وظيفة النبي صلى الله عليه وسلم:

ثم أمر الله تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ» قل لهم يا نبينا: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ» أي مُخَوِّف، فالإنذار هو الإعلام المصحوب بالتخويف، والمنذر اسم فاعل من الإنذار، فالمنذر هو المخوف، «قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ» أرسلني الله تعالى إليكم لأنذركم عذاب الله الذي حق عليكم بسبب كفركم وشرككم، فإن خفتم وأقلعتم عن الكفر وآمنتم نجوتم من العذاب، وإن أصررتم على الكفر لزمكم العذاب.

وللحديث بقية والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة «ص»

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

«وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾»

[ص: ٦٢- ٨٨]

دلائل التوحيد:

«قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ» معنى لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله سبحانه وتعالى، الله سبحانه وتعالى هو المعبود بحق، وكل ما سواه مما عُبِدَ من دونه عُبِدَ بالباطل، كما قال تعالى: «ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» [الحج: ٦٢]، فالله هو الإله الحق؛ لأنه يستحق العبادة دون غيره، لأنه: «الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾» [الأعلى: ٢- ٣]، «وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾» [النجم: ٤٤- ٤٨]، ولذلك خاطب المشركين بقوله: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُم هَل مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ» [الروم: ٤٠] لا. فكيف عبدتموهم كما تعبدون الله سبحانه وتعالى؟!

«وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ» والقاهر اسم فاعل، يقال: قَهَرَه يقهره قهرًا: غلبه. والله القاهر القهار، فهو قهر خلقه بسلطانه وقدرته، وصرَّفهم على ما أراد طوعًا وكرهًا، والقهار للمبالغة. وقال ابن الأثير- رحمه الله-: القاهر هو الغالب لجميع خلقه [لسان العرب (١٢٠/٥)].

وقد أفاد تعريف الجزأين القصر، أي لا قاهر إلا هو؛ لأن قهر الله تعالى هو القهر الحقيقي، الذي لا يجد المقهور منه ملاذًا؛ لأنه قهر أسبابًا لا يستطيع أحدٌ خلق ما يدفعها، ومما يشاهد منها دومًا النوم، وكذلك الموت، ولذلك يقال: سبحان من قهر العباد بالموت. ويدخل في معنى القهر خلق الله تعالى ما لا يدخل تحت قدرة الخلق، بحيث يوجد ما لا يريدون وجوده كالموت، ويمنع ما يريدون تحصيله كالولد للعقيم، والجهل بكثير من الأشياء. بحيث إن كل أحد يجد في نفسه أمورًا يستطيع فعلها، وأمورًا لا يستطيع فعلها، وأمورًا يفعلها تارة، ولا يستطيع فعلها تارة، كالمشي لمن خدرت رجله، فيعلم كل أحد أن الله هو خالق القدَر والاستطاعات؛ لأنه قد يمنعها، ولأنه يخلق ما يخرج عن مقدور البشر

[التحرير والتنوير(٧/ ١٦٤و١٦٥)، باختصار].

وثبوت هذا الوصف لله عز وجل يعد شاهدًا من شواهد وحدانيته، ودليلاً من دلائل تفرده بالألوهية، وبطلان الشرك واتخاذ الأوثان. [فقه الأسماء الحسنى: (٢٩٤)].

فيستحيل أن يكون لهذا العالم إلا إله واحد، لأن الله قاهر فوق عباده، له العلو والغلبة، فلو فرضنا وجود إلهين اثنين مختلفين ومتضادين أراد أحدهما شيئًا وخالفه الآخر، فلا بد عند التنازع من غالب ومغلوب، فالذي لا تنفذ إرادته هو العاجز المغلوب، والذي تنفذ إرادته هو القادر القاهر [شرح العقيدة الطحاوية ص(٧٨و٧٩)].

فالقهر والتوحيد متلازمان، فلا يكون القاهر إلا واحدًا، ولذلك اقترن اسم القاهر باسم الله الواحد، في ستة مواضع، قال تعالى: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨)» [إبراهيم: ٤٨]، وقال تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥)» [ص: ٦٥]، وقال تعالى: «يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» [غافر: ١٦]، وقال تعالى: «لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» [الزمر: ٤]، وقال تعالى: «قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» [الرعد: ١٦].

«رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ» وكانوا مقرين بتوحيد الربوبية، فالزمهم الله تعالى بتوحيد الألوهية، كانوا مقرين بتوحيد الربوبية وهو الاعتقاد مع الإقرار بأن الله رب العالمين، الخالق الرازق، النافع الضار، الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، قال تعالى: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٨٧)» [الزخرف: ٨٧]، «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» [العنكبوت: ٦١]، «قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ» [يونس: ٣١]، فكانوا مقرين بتوحيد الربوبية، فـ«إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦)» [الصافات: ٣٥- ٣٦]، فالله تبارك وتعالى يقيم عليهم الحجة دائماً بإقرارهم بتوحيد الربوبية، ويقول: إن إقراركم بالربوبية يستلزم أن تقروا بالألوهية وإلا «أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ» [النحل: ١٧]، إذا كنتم مقرين بأن الله هو الذي خلقكم دون سواه فكيف تعبدون المخلوق؟!، «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ» [الحج: ٧٣]، والذي لا يستطيع أن يخلق ذبابًا يكون عاجزًا، والعاجز لا يستحق أن يكون إلهًا، فبطل كون هذه المعبودات آلهة.

«وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ»، انظر «الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ» الذي قهر كل شيء، وغلب كل شيء، ولا يغلبه شيء، ومع كونه قهاراً عزيزاً، فهو غفار، كثير المغفرة، يغفر لمن تاب إليه وأناب.

دلائل النبوة:

«قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ» النبأ يحتمل أن يكون القرآن الكريم، قل هو أي القرآن الذي أتلوه عليكم «نَبَأٌ عَظِيمٌ (٦٧) أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ»، ويحتمل أن يكون المراد بالنبأ العظيم البعث بعد الموت وما فيه من أهوال، كما قال تعالى: «عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)» [النبأ: ١- ٥].

فلما ذكر دلائل التوحيد انتقل إلى ذكر دلائل النبوة، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول: «مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ»: الدليل على أنني رسول من الله أنني «مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ» في أمر آدم عليه السلام «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)» [البقرة: ٣٠- ٣٣]. من أين للنبي صلى الله عليه وسلم أن يعلم هذا، لولا أن الله تبارك وتعالى أوحى إليه به، فالقصص القرآني من أعظم دلائل نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك ترى الله عز وجل دائماً يعقب على كل قصة بالإشارة إلى أن هذا وحيه أوحاه إلى نبيه صلى الله عليه وسلم، تقرأ في سورة هود قصة نوح مع قومه، ثم ترى الله يقول في آخرها: «تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا» [هود: ٤٩]، وتقرأ أحسن القصص، قصة يوسف عليه السلام مع إخوته، وترى الله يعقب عليها بقوله: «ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)» [يوسف: ١٠٢]، وتقرأ قصة مريم بنت عمران في سورة آل عمران، وترى الله عز وجل يقول: «ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ

لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » [آل عمران: ٤٤]، فإخباره صلى الله عليه وسلم بذلك دليل نبوته؛ لأن هذا شيء لا يُعرف إلا عن طريق الوحي، ولذلك قال: «مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلأِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩) إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلاَّ أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ».

قصة خلق آدم عليه السلام:

ثم بيّن الله تبارك وتعالى فيما كانت الملائكة يختصمون، فقال: «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» كان هذا أمر الله تبارك وتعالى للملائكة بالسجود لآدم قبل أن يخلق آدم، «إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» فلما خلق الله تبارك وتعالى آدم، ونفخ فيه من روحه، نفذت الملائكة الأمر؛ لأن الله تبارك وتعالى وصفهم بكونهم «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » [التحريم: ٦]، « لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » [الأنبياء: ٢٧].

«فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ»، ويؤكد ربنا سبحانه وتعالى أن كلهم سجدوا بلا استثناء، فيقول: «فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ» ولم يكن من الملائكة، وإنما كان من الجن، كما قال الله تعالى في سورة الكهف: « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ» [الكهف: ٥٠]، فإبليس ليس من الملائكة، وإنما «كَانَ مِنَ الجِنِّ»، والجن عالم آخر غير عالم الملائكة، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «خُلِقَتِ الْمَلاَئِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» [مسلم ٢٩٩٦].

وقد يقول قائل: فإذا كان إبليس ليس من الملائكة، فعدم سجوده ليس عصياناً؛ لأنه لم يكن مأموراً بالسجود؟

والجواب: أن إبليس لعنه الله كان مأموراً بالسجود لآدم؛ لأن الله تعالى قال له في الأعراف: «مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » [الأعراف: ١٢]، فيحتمل أن يكون هناك أمر صريح خاص بإبليس، ويحتمل أن الأمر للملائكة كان أمراً لإبليس بالمجاورة؛ لأن في النظم الحالية: المغتربون المقيمون في بلاد غير بلادهم، لا يجوز لهم أن يخالفوا الأنظمة والأوامر التي تصدرها الدولة لأبنائها، بحجة أنهم مغتربون، وليسوا من البلد، بل كل أنظمة البلد، قوانينها وأحكامها، إذا صدرت تعم المقيم والمواطن، تعم المواطنين والأجانب المقيمين، فإبليس كان مع الملائكة، فلو لم يكن له أمر خاص، لكان في أمر الملائكة أمر له، «فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ» استكبرت على آدم فلم تسجد له، أم كنت من العالين المستكبرين على أمر الله.

مذهب السلف في الأسماء والصفات:

وفي قوله تعالى: «مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ» إثبات لصفة اليد لله سبحانه وتعالى، فنقول كما قال السلف: (لله يد لا كأيدينا). لقد قال اليهود: «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ»، فكذبهم الله تبارك وتعالى في الوصف دون الأصل، فقال تعالى: «وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ» [المائدة: ٦٤]، فنقول كما قال السلف: (لله يد لا كأيدينا)، وهكذا نقول في سائر الصفات، صفات الأفعال وصفات الذات، صفات الأفعال كالمحبة والبغض، والرضا والسخط والإتيان والمجيء، والنزول والاستواء، وصفات الذات كاليد والعين، والساق والقدم، نثبت لله تبارك وتعالى ما أثبته الله لنفسه في محكم كتابه، أو فيما صح على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تكييف ولا تمثيل، ولا تعطيل ولا تحريف، فلا نقول: يد الله قدرته؛ لأن هذا تحريف، ولا نقول: يد الله كأيدينا؛ لأن هذا تكييف، وإنما نثبت من غير تكييف ولا تحريف، وقوفاً عند قوله: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ» [الشورى: ٨] فـ «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» رد على المشبهة، «وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ» رد على المعطلة، وسبيل الحق بينهما لأهل السنة والجماعة: إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل.

وإبليس -لعنه الله- كان أعلم بربه من المعطلة؛ لأنه آمن بأن لله يدين، ولو علم أن اليد المراد بها القدرة كقول المعطلة لقال يا رب! وأي فرق بيني وبين آدم؟ خلقته بقدرتك، وخلقتني بقدرتك، ولكن إبليس سلم أن الله تبارك وتعالى فضل آدم عليه وعلى جميع المخلوقات بأن الله خلق آدم بيديه، وهذه من خصائص آدم عليه السلام أن الله خلقه بيديه.

التحذير من تقديم العقل على النقل:

«مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ» على أن تسجد لآدم «أَمْ كُنْتَ مِنَ العَالِينَ» المستكبرين على أوامر الله، فقاس- لعنه الله- وهو أول من قاس، فبئس السلف لبئس الخلف، الذين يقدّمون القياس على النص، «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» فخالف النص بالقياس، وأخطأ في القياس؛ حيث إنّ النار ليست خيراً من الطين، بل الطين خير من النار، فيه ثقل، ورزانة، وبه يكون البناء، والنار فيها خفة وطيش، وبها يكون الهدم والفناء.

«قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ

إِلَى يَوْمِ الدِّينِ» اللعنة الطرد من رحمة الله عز وجل، ويوم الدين هو يوم الحساب والجزاء، يوم القيامة.

«قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» أراد أن يفر من الموت، فأجابه الله ولكن «إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ» يعني النفخة الأولى، التي يفنى بها الخلائق كلهم، ومنهم إبليس، وليس إلى النفخة الثانية التي يبعثون فيها، أراد لعنه الله أن يُنظر يعني يؤخر في أجله إلى يوم البعث، فإذا كان يوم البعث ولم يمت إبليس فلا يموت أبداً، فربنا قال له: «قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ» ولكن إلى متى؟ «إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ» إلى النفخة الأولى التي يموت بها الخلائق كلهم، « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ » [الرحمن: ٢٦ - ٢٧].

«قَالَ فَبِعِزَّتِكَ» قسم منه لعنه الله: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» ثم استثنى، والحمد لله على هذا الاستثناء، قال: «إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» بفتح اللام، ومخلَص اسم مفعول، والمخلص بكسر اللام اسم فاعل، وعباد الله المخلصين أخلصوا لله أولاً، فاستخلصهم الله لنفسه، «إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» وربنا قال له: «إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ» [الحجر: ٤٠]، فإذا أراد الإنسان أن يفر من الشيطان فعليه أن يدخل في هذا الحصن، حصن العبودية لله عز وجل، « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ » [النحل: ٩٨ - ١٠٠].

قال الله تعالى: «قَالَ فَالحَقُّ وَالحَقَّ أَقُولُ»: فالحق بالرفع، فالحق هو أنا، وأنا أقول الحق، ما الحق الذي قاله ربنا؟ قال: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ»، ولذلك حذرنا ربنا من الشيطان، وعرفنا مقصده منا «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ » [الأنفال: ٤٢]، قال تعالى: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ » [فاطر: ٥- ٦]، فإذا أوردهم النار تبرأ منهم، كما قال تعالى: « وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ » [إبراهيم: ٢٢- ٢٣].

ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ»: لماذا ترفضون الدعوة؟ لماذا ترفضون التعليم؟ والدعوة مجانية، والتعليم مجاني، وأنا لم أسألكم أجرًا على التعليم ولا على الدعوة.

«قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» الذين يقولون ما لا يعلمون، فمن التكلف أن يتكلف الإنسان ما يفقد، سواء من العلم أو من غيره، فلا تتكلف ما تفقد، إذا فقدت العلم فلا تتكلفه، وإنما كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: من علم فليقل بما علم، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم، فإن الله قال لرسوله صلى الله عليه وسلم «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ».

عالمية الرسالة المحمدية:

«إِنْ هُوَ» أي القرآن الكريم «إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ»، كما قال تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» [الفرقان: ١]، وكما قال تعالى: « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ » [الأنبياء: ١٠٧]، والآيات والأحاديث في عموم بعثته صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس كثيرة، وهذا مما اختصه الله به، كما قال صلى الله عليه وسلم: «وكان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة» متفق عليه.

المستقبل لهذا الدين:

«وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ» بعد كم سنة سترون كيف انتشر الإسلام، وكيف ارتفعت راية الإسلام على المعمورة.

قال هذا وهم ما زالوا في مكة، والمسلمون فئة مستضعَفة، والقوى العظمى هي قوة الشرك وأهله، وقد صدق الله وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، وما زلنا نرجو من الله سبحانه وتعالى أن يتحقق هذا الوعد مرة ثانية، كما تحقق في المرة الأولى، «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ». ونحن مؤمنون بقول النبي صلى الله عليه وسلم، بأنه لا تقوم الساعة حتى يبلغ هذا الدين ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر ولا حجر إلا وأدخله الإسلام بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وأهله، وذلاً يذل الله به الشرك وأهله [الحاكم في المستدرك ٨٣٢٤ وصححه ووافقه الذهبي].

«وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ». وعسى أن يكون قريبًا.

والحمد لله رب العالمين.

من تختار للرئاسة؟

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

إن مصالح الناس لا تتم إلا باجتماعهم؛ لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بُدَّ لهم إذا اجتمعوا من نظام يسيرون عليه، فإن النظام من ضروريات المجتمع التي لا يستقر إلا بها، ووجود رئيس للمجتمع ضروري لبقائه ونظامه؛ لأنه يستطيع أن يحمل الناس على الحق وعدم الحياد عنه، فيجنبهم حياة الفوضى والاضطراب والهرج والمرج، ولهذا لم يوجد مجتمع إلا وُجد فيه رئيس -على أيّ نحو كان- يطيعه الناس عن طواعية واختيار، أو قهر واضطرار «لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من المظالم، ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، ولولا الولاة لكانوا فوضى مهملين وهمجًا مضاعين» [أصول الدعوة(٢٠٣)].

لذلك أوجب الإسلام على المسلمين اتخاذ رئيس يحقق أمن البلاد ومصالح العباد، ويكف أيدي المعتدين، ويُنصف المظلومين من الظالمين، ويأخذ الحقوق من مواقعها، ويضعها في مواضعها، وقد دل على وجوب اتخاذ رئيس الكتاب والسنة، وإجماع الأمة، والقواعد الشرعية.

فمن القرآن الكريم قول الله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ » [النساء: ٥٩]، فالأمر بطاعة أولي الأمر دليل على وجوب اتخاذهم حتى يُطاعوا.

وقوله تعالى: « وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ » [البقرة:]:

قال القرطبي -رَحِمَهُ اللهُ-: هَذِهِ الْآيَةُ أَصْلٌ فِي نَصْبِ إِمَامٍ وَخَلِيفَةٍ يُسْمَعُ لَهُ وَيُطَاعُ، لِتَجْتَمِعَ بِهِ الْكَلِمَةُ، وَتُنَفَّذُ بِهِ أَحْكَامُ الْخِلَافَةِ. وَلَا خِلَافَ فِي وُجُوبِ ذَلِكَ بَيْنَ الْأُمَّةِ وَلَا بَيْنَ الْأَئِمَّةِ إِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ الْأَصَمِّ؛ حَيْثُ كَانَ عَنِ الشَّرِيعَةِ أَصَمَّ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ قَالَ بِقَوْلِهِ وَاتَّبَعَهُ عَلَى رَأْيِهِ وَمَذْهَبِهِ.

وقوله تعالى: « وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ » [البقرة:٢٥١].

قال الطرطوشي-رَحِمَهُ اللهُ-: قيل معناه: لولا أن الله تعالى أقام السلطان في الأرض يدفع القوي عن الضعيف، وينصف المظلوم من ظالمه، لتواثب الناس بعضهم على بعض، ثم امتن الله تعالى على عباده بإقامة السلطان لهم بقوله تعالى: « وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ » [البقرة:٢٥١] [تحرير الأحكام في

تدبير أهل الإسلام(٤٩)].

ومن السنة: ما رواه مسلم عَنْ عَبْد الله بْن عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» [مسلم ١٨٥١]، وهذا واضح الدلالة على وجوب نصب الإمام؛ لأنه إذا كانت البيعة واجبة في عنق المسلم، والبيعة لا تكون إلا لإمام، كان نصب الإمام واجبًا. وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِذَا خَرَجَ ثَلاَثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ» [أبو داود (٢٥٩١) وصححهُ الألباني].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -: فإذا كان قد أوجب في أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات، أن يولّى أحدهم، كان هذا تنبيهًا على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك. [الحسبة (١١)].

وقد أجمعت الأمة على ما دل عليه الكتاب والسنة، ونقل الإجماعَ غيرُ واحد.

قال ابن خلدون: نَصْبُ الإمام واجب، وقد عُرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين؛ لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه، وتسليم النظر إليه في أمورهم، وكذا في كل عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعًا دالاً على وجوب نصب الإمام. [مقدمة ابن خلدون(١٩١)].

ومن الأدلة الدالة على وجوب الإمامة: القاعدة الشرعية القائلة بأن ما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقد عُلِمَ أن الله سبحانه وتعالى أمر بأمور ليس في مقدور آحاد الناس القيام بها، ومن هذه الأمور: إقامة الحدود، وتجهيز الجيوش، وجباية الزكاة، وصرفها في مصارفها، وسد الثغور، وحفظ حوزة المسلمين، ونشر العدل، ودفع الظلم، وقطع المنازعات الواقعة بين العباد. إلى غير ذلك من الواجبات التي لا يستطيع أفراد الناس القيام بها، وإنما لا بد من إيجاد سلطة وقوة لها حق الطاعة على الأفراد، تقوم بتنفيذ هذه الواجبات، وهذه السلطة هي الإمامة.

فبناء على ذلك يجب تعيين إمام يُخضع له ويُطاع، ويكون له حق التصرف في تدبير الأمور حتى يتأتى له القيام بهذه الواجبات، وفي هذا يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا بد للناس من إمارة؛ بَرّة كانت أو فاجرة. قالوا: يا أمير المؤمنين هذه البرة قد عرفناها، فما بال الفاجرة؟ قال: تُقام بها الحدود، وتأمن بها السبل، ويُجاهَد بها العدو، ويُقسَم بها الفيء. [السياسية الشرعية(٦٣)].

ومما سبق يُعلم أن وظيفة الرئيس هي أخطر الوظائف وأهمها على الإطلاق، فلا يصلح لها أي إنسان، ولذلك اشترط الفقهاء لمن يُوَلَّى رئاسة البلاد شروطًا، يجب أن تتوفر فيه حتى يكون أهلاً للرئاسة، وقادرًا على حمل الأمانة، والقيام بالمسئولية.

الشروط المطلوبة في الرئيس

والذي يهمنا من هذه الشروط شرطان، هما: الإسلام، والعدالة.

أولاً: الإسلام

فيجب أن يكون رئيس الدولة مسلمًا؛ لقوله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » [النساء: ٥٩]، أي منكم أيها المسلمون. وقال تعالى: « وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً » [النساء: ١٤١]، والرئاسة هي أعظم سبل تَسلط الحاكم على المحكوم.

وقد أجمع المسلمون على عدم جواز تولية الكفار تدبير أمور المسلمين.

والإسلام ليس كلمة تُقال باللسان، ولكن الإسلام استسلام وامتثال، وخضوع وانقياد، وطاعة واتباع، الإسلام عقيدة وعبادة ومعاملة، عقيدة تَصل الإنسانَ بالله عز وجل « فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » [الشورى: ١١، ١٢].

وعبادةٌ يؤدّيها الإنسانُ وفاءً بحقّ الله الذي خلقه وصوّره وشقّ سمعه وبصره، يرجُو بها رضوانَ الله والجنّة، ويخاف إنْ تركها عقابَ الله والنار، فهو دائماً كما وصفَ اللهُ أولياءه «سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ» [الزمر:

٩]. وهو مع ذلك مُحْسِنٌ في مُعاملة النّاس كما أمره اللهُ عزّ وجلّ، شِعَارُه دائماً «لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ» [البقرة: ٢٧٩].

فالعَدْلُ عِنْدَه أساسُ المُعاملة، وهو مع ذلك قد يَعْفُو عمن ظلَمه، ويصلُ من قطعه، ويحلُم على من يجهل عليه؛ لأنّ الإسلامَ أمرَه بالإحسان فيما بيْنه وبيْن الله وفيما بيْنه وبيْن الناس، وأخبرَه أنّ الله يُحِبُ المُحْسِنين، وأنّ الله يَجْزي المحسنين بالإحسان إحساناً كما قال سبحانَه: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» [يونس: ٢٦].

فهذه هي حقيقة الإسلام التي نريدها ممن يتولى رئاسة البلاد، حتى يدعو إليها، ويعين عليها، ويعتز بإسلامه ويظهره في سفره وحضره، واختلاطه وعزلته، ويردد دائمًا: إنني من المسلمين، كما أمر رب العالمين، حيث قال: « وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » [فصلت: ٣٣]، فإذا اعتزّ الرئيس بإسلامه فلن يترك الصلاة في سفره كما لا يتركها في حضره، ولن يترك شيئًا من الواجبات، ولن يفعل شيئًا من المحرمات اتقاء الغير أو مجاملة له، وحينئذ يكبر في نفوس غير المسلمين فضلاً عن المسلمين.

ثانيا: العدالة

أما العدالة فهي صفة كامنة في النفس توجب على الإنسان اجتناب الكبائر والصغائر، والتعفف عن بعض المباحات الخارمة للمروءة، وهي مجموعة صفات أخلاقية من التقوى، والورع، والصدق، والأمانة، والعدل، ورعاية الآداب الاجتماعية، ومراعاة كل ما أوجبت الشريعة الالتزام به.

ومن الأدلة على اشتراط العدالة في الرئيس: قول الله تعالى: « وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ » [البقرة: ١٢٤]، قال الرازي: احتج الجمهور على أن الفاسق لا يصلح أن تعقد له الإمامة بهذه الآية: « لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ».

وقد أمر الله تعالى بطاعة أولي الأمر، ونهى عن قبول خبر الفاسق، فقال: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ » [الحجرات: ٦]، فكيف يتم العمل بالأمر والنهي إذا كان الرئيس فاسقًا؟!

فيجب أن يكون الرئيس عدلاً، يتقي الله ربه، ويتخلق بالأخلاق الحميدة المرضية، ويتخلى عن الأخلاق الرذيلة، ويحافظ على كل ما يحفظ له وقاره واحترامه وهيبته.

ومن أهم الأخلاق: الصدق، فلا يصلح من عُرف بالكذب لرئاسة الناس، فإن الكذب ريبة، وهو مذموم من عامة الناس، ومن رئيسهم أشد ذمًا، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ» [مسلم ١٠٧].

ومنها العدل: فلا يجوز أن يولى الظالم؛ لأن مقصود الرئاسة إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإنصاف الظالم من المظلوم، فكيف إذا كان الرئيس نفسه هو الظالم؟!

ومنها الورع الذي يحمله على اجتناب ما يخاف عاقبته من الحرام وما يشك في حرمته، فإنه سيتولى كل شيء، ويتصرف في كل شيء، فإن لم يكن ورعًا أضاع كل شيء، ونهب كل شيء، ولم يتحرج من فعل شيء.

ومنها الحلم الذي يجعله يملك نفسه عند الغضب، فلا يجهل على من يجهل عليه، ولا يسيء إلى من أساء إليه، ولا يؤذي من آذاه، ومثله الأعلى في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، والدافع له إلى هذا الخُلق عظيم الأجر والثواب الذي وعد به الله، فقد قال تعالى: « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » [الأعراف: ١٩٩]، وقال تعالى: « وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » [فصلت: ٣٤]، وقال تعالى: «وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

وخلاصة القول في الشروط التي يجب توفرها في رئيس البلاد أن يرضى الناسُ دينَه وخُلُقه، فإذا ظفرتم بمن ترضون دينه وخلقه فاختاروه، إيمانًا واحتسابًا، لا مجاملة ولا محاباة.

نسأل الله تعالى أن يولي علينا أبرنا وأتقانا، وأحبنا إليه، وأرحمنا بنا. إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

ماذا نريد من رئيس الدولة؟

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده:

أما بعد: قال الله تعالى: «وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ» [الحج: ٤٠- ٤١].

إن الحكم في الإسلام تكليفٌ لا تشريفٌ، ووسيلةٌ لا غاية.

أما كونه تكليفًا لا تشريفًا فقد دلت عليه الأحاديث الكثيرة، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِي صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ». [البخاري: ٧١٤٨].

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ! إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا» [مسلم:١٨٢٥].

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». [البخاري:٧٠٩٩].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلاَّ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولاً لاَ يَفُكُّهُ إِلاَّ الْعَدْلُ أَوْ يُوبِقُهُ الْجَوْرُ». [صحيح الجامع:٥٥٧١].

وأما كونه وسيلة لا غاية فهو وسيلة فعَّالة إلى مقاصد معينة، يستطيع الحاكم تحقيقها؛ لما للحاكم من سلطان يستطيع به تنفيذ ما يعجز عنه آحاد المسلمين، فيختصر الطريق، ويبلغ الأهداف، ويحقق المقاصد، وهي بعض مقاصد الإسلام.

فما هي مقاصد الحكم الإسلامي؟

يقول الفقهاء في تعريفهم للإمامة -أي: الخلافة-: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدِّين، وسياسة الدنيا به».

فهذا التعريف يؤكِّد على وظائف الخلافة، أي: مقاصد الحكم، ويُجْمِلها في مقصدين كبيرين، الأول: حراسة الدين، والثاني: سياسة الدنيا به.

معاني حراسة الدين:

أما حراسة الدين فهي تعني شيئين: هما حفظه، وتنفيذه.

وحفظ الإسلام يعني: إبقاء حقائقه ومعانيه، ونشرها بين الناس كما بلَّغها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسار عليها صحابته الكرام، ونقلوها إلى الناس من بعده. فإن الله تعالى لم يقبض نبيه صلى الله عليه وسلم حتى أنزل عليه قوله: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » [المائدة: ٣].

وقد وصى صلى الله عليه وسلم أصحابه في آخر حياته بالاتباع، وحذرهم من الابتداع: فعَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ» [أبو داود (٤٦٠٧) وصححه الألباني].

وعلى هذا لا يجوز أيّ تبديل أو تحريف في دين الله عز وجل؛ لأنّ التحريف والتبديل يدخلان في نطاق الابتداع المذموم، ولا يجوز التردد أبدًا في منع التبديل والتحريف بحجة حق الفرد في إبداء الرأي وحرية الفكر والاجتهاد؛ لأنّ الفرد إن كان مسلمًا فليس من حقه أن يبدّل دين الله، وإذا اختار لنفسه الضلالة ولعقيدته الفساد فليس من حقه أبدًا أن يخرج على نظام دار الإسلام ويشوّه حقائق الإسلام، وقد أشار الفقهاء إلى ما ذكرناه، فقالوا: إنّ على الإمام حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة، فإن زاغ ذو شبهة عنه بيّن له الحجة، وأوضح له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود؛ ليكون الدّين محروسًا من الخلل، والأمة ممنوعة من الزلل.

ومن لوازم حفظ الدين: تحصين الثغور بالعُدة المانعة والقوة الدافعة؛ حتى لا تظفر الأعداء بغِرّة ينتهكون فيها محرمًا، ويسفكون فيها لمسلم أو معاهدًا دمًا.

وأمّا تنفيذ الدين -وهو المظهر الثاني لحراسته- فيتحقق في أمور:

منها: تطبيق أحكامه في سائر معاملات الناس وعلاقاتهم فيما بينهم، وفي علاقاتهم مع الدولة، وفي علاقة الدولة مع غيرها من الدول.

ومنها: حمل الناس على الوقوف عند حدود الله والطاعة لأوامره، وترغيبهم في ذلك، ومعاقبة المخالفين بالعقوبات الشرعية.

ومنها: إزالة المفاسد والمنكرات من المجتمع كما يقضي به الإسلام؛ إذ لا يمكن الادّعاء بحفظ الدّين مع ترك المفاسد والمنكرات بلا إنكار ولا إزالة مع توفر القدرة على ذلك. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المقصد من مقاصد الحكم الإسلامي، قال تعالى: « الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » [الحج: ٤١].

سياسة الدنيا بالدين:

وأما المقصد الثاني وهو سياسة الدنيا بالدين، فمعناه إدارة شئون الدولة والرعية وفقًا لقواعد الشريعة ومبادئها وأحكامها المنصوص عليها أو المستنبطة منها وفقًا لقواعد الاجتهاد السليم. فهذه هي السياسة الشرعية لأمور الدنيا بالدين.

ومن أوجه هذه السياسة التي يضطلع بها الحكم الإسلامي ويلتزم بها الحاكم المسلم، والتي أشار إليها الفقهاء ما يأتي:

أ- أن يعمل الإمام على جمع الكلمة، وتوحيد صفّ المسلمين، حتى يكونوا أمة واحدة كما أمر الله تعالى، والنصوص الدالة على ضرورة ذلك أكثر من أن تُحصَر، ومنها قوله تعالى: « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » [آل عمران: ١٠٣]، وقوله تبارك وتعالى: « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » [آل عمران: ١٠٥]، وقوله سبحانه وتعالى: «وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » [الروم: ٣١- ٣٢].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحث على الاجتماع وينهى عن التفرق: فعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا». وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ [البخاري:١٤٣٨].

وَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى».[البخاري:٦٠١١].

وكان صلى الله عليه وسلم يكره التفرق ويحاربه في أدنى صوره: فعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَرَآنَا حِلَقًا، فَقَالَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ عِزِينَ»؟! قَالَ: ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا»؟! فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ» [مسلم:٤٣٠].

وَعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ رضي الله عنه

قَالَ: كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا مَنْزِلاً تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عليه وسلم: «إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ»، فَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَ ذَلِكَ مَنْزِلاً إِلاَّ انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، حَتَّى يُقَالُ: لَوْ بُسِطَ عَلَيْهِمْ ثَوْبٌ لَعَمَّهُمْ. [أبو داود:٢٦١١ وصححه الألباني].

فإن وُفق الإمامُ لجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفهم، فقد وضع قدمه على طريق الإصلاح، ووُفق لكل ما هو مطلوب منه بعد ذلك، فإنما هو بإخوانه، فإن جمعهم حوله، وألَّف بين قلوبهم، وأصلح ذات بينهم، كانوا عونًا له على ما يُراد منه، وإن نأى بنفسه عن إخوانه، أو ركن إلى البعض دون البعض، أو قرَّب البعض وأقصى البعض، فلن يستطيع أن يقوم بمهامه، ولا أن يحقق ما يراد منه.

العدل أساس الملك:

ب- أن يعمل الإمام على إقامة العدل بين الناس؛ لأنه هو الأساس الذي لا قيام لدولة بدونه، ولا بقاء لأمة بفقده:

قال الله تعالى: «يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ» [ص: ٢٦].

وقال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا» [النساء: ٥٨].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا حَكَمْتُمْ فَاعْدِلُوا». [صحيح الجامع: ٥٠٨].

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عز وجل، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا».[مسلم: ١٨٢٧].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَا مِنْ أَمِيرِ عَشَرَةٍ إِلاَّ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولاً لاَ يَفُكُّهُ إِلاَّ الْعَدْلُ أَوْ يُوبِقُهُ الْجَوْرُ».[صحيح الجامع:٥٥٧١].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ، وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللهِ وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا إِمَامٌ جَائِرٌ» [الترمذي:١٣٤٤].

ولهذا كان من صفة عقد البيعة للإمام أن يقال فيها: بايعناك بيعة رضًا على إقامة العدل والإنصاف، والقيام بفروض الإمامة.

والعدل يتضمَّن إعطاء كل إنسان حقَّه وعدم ظلمه في شيء، فمن الظلم تكليفه بما لا يجب عليه شرعًا، أو أخذ ماله بغير وجه، أو منعه ما يستحق، وهذا ما أشار إليه الفقهاء، وقد وضح العلامة ابن خلدون الظلم الممنوع فقال: «ولا تحسبنَّ الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكه من غير عوض ولا سبب، كما هو المشهور، بل الظلم أعمّ من ذلك، وكل من أخذ ملك أحد، أو غصبه في عمله، أو طالبه بغير حق، أو فرض عليه حقًا لم يفرضه الشرع فقد ظلمه، فجباية الأموال بغير حقها ظلم، والمنتهبون لها ظَلَمَة، والمانعون لحقوق الناس ظَلَمَة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران».

اختيار الموظفين الأكفاء والأمناء:

وعلى هذا يجب على الرئيس أن يقوم بما يلزم لتحقيق العدل ومنع الظلم، وأوَّل ما يلزمه في هذا الباب: اختيار الموظفين الأكفاء والأمناء، والثاني: مراقبتهم.

أمَّا اختيار الموظفين الأكفاء، فهذا شيء ضروري؛ لأن الخليفة لا يمكنه أن يباشر أمور الناس بنفسه؛ لأن ذلك فوق طاقته، بل ويستحيل عليه حتىّ لو أراده، وإنما يباشر أمور الناس بواسطة نوَّابه، أي: الموظفين الذين يختارهم، فعليه أن يتخيَّر الكفء الأمين، ومرد الكفاءة إلى القدرة على ما يتولاه، ومردُّ الأمانة عدم التفريط بشئون ما وُلِّي عليه من أمور، وقد أشار القرآن الكريم إلى قانون تولي الأمور الواجب مراعاته من كل حاكم وولي أمر، قال تعالى: «إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ» [القصص: ٢٦]، فإذا وُفِّقَ الخليفة إلى حسن اختيار الموظفين الأكفاء الأمناء حكموا بالعدل، وحفظوا حقوق الناس ومنعوا عنهم الظلم، وشعر الناس بالأمن والأمان والاطمئنان، وانكمش أولو الأطماع وأهل البغي، ولم يستطع قويٌّ أن يتعدَّى على ضعيف؛ لأن الدولة أقوى منه، ولم يخش الضعيف المحق من عدوان القوي؛ لأن الدولة مع المحق وإن كان ضعيفًا، وهذا كله يؤدي إلى كسب قلوب الناس وربطهم بالدولة وتعليقهم بالإمام، فيزداد حرصهم على بقاء دولتهم واستعدادهم للذود عنها؛ لأنها في نظرهم كالبيت لهم، وكالحارس لحقوقهم.

أما إذا عيَّنَ الخليفة الموظفين العاجزين والفاسدين والخائنين، فإنَّ الناس سيكتوون بنار فسادهم وخيانتهم، ويقعون تحت ظلمهم وبغيهم، مما يضعف الدولة والولاء لها، ويزهِّدهم في الدفاع عنها، وتكون النتيجة أن يثوروا على هذا الرئيس الذي ابتلاهم بهؤلاء الموظفين الذين ظلموهم، ويخلعوه من الحكم كما حدث للنظام البائد. ولهذا كله يجب الاهتمام الكامل باختيار الموظفين الأكفاء الأمناء، وبدون ذلك يقع المحذور الذي أشرنا إليه.

ولا يكفي أن يعين الخليفة الأكفاء الأمناء، بل عليه أيضًا أن يراقبهم في أعمالهم، فقد يخون الأمين ويغش الناصح كما يقول الفقهاء، وحتى إذا استبعدنا خيانتهم وغشهم، فلا يمكننا استبعاد خطئهم، وظلم الناس خطأ كظلم الناس عمدًا من جهة لحوق الضرر بالمظلوم وكرهه للظلم، فلا بُدَّ من المراقبة المستمرة والمحاسبة الدائمة للموظفين، حتى لا تقع خيانة ولا غش، ويقل الخطأ، ويعرف الناس شدة حرص الخليفة على العدل ومنع الظلم، ويخرج هو من عهدة الخلافة ومسئولية الحكم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» [صحيح سبق تخريجه].

أهمية إشاعة الأمن والاستقرار في دار الإسلام:

ج- ومن واجبات الخليفة المهمة، ومن واجبات الحكام المسلمين جميعًا، إشاعة الأمن والاستقرار في دار الإسلام، حتى يأمن الناس على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، وينتقلوا في دار الإسلام آمنين مطمئنين.

وهذا المقصود يتحقق بصورة كاملة بتطبيق القانون الإسلامي الجنائي، أي: بتطبيق العقوبات الشرعية على العابثين في الأمن، المعتدين على الناس، بشرط أن يكون التطبيق عادلاً وعلى الجميع بلا محاباة ولا تردد، فإذا ما طُبِّقت الأحكام الشرعية على المعتدين أمِنَ الناس وخاف المجرم، وتحقق الاطمئنان، فإن الناس قسمان: قسم يخاف الله، وقسم لا يخاف الله، فالأول يمنعه الخوف من الله من الفساد بالأرض بأي نوع من أنواع الفساد، كما امتنع صالح ابني آدم عن قتل أخيه، وقد قال له: «لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ» [المائدة: ٢٧- ٢٨].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» وذكر منهم: «وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ» [البخاري: ٦٦٠].

فالذي يخاف الله لا يخافه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم. والذي لا يخاف الله يسعى في الأرض فسادًا، فلا بد من ردعه ومنعه بإقامة الحدود عليه، فإن الله لَيَزَع بالسلطان ما لا يَزَع بالقرآن، وقد قال الله تعالى: « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » [البقرة: ١٧٩]، وأمر سبحانه وتعالى بحضور جماعة من المؤمنين جلد الزناة؛ ليكون في إشهاره زجر لغيره، فقال تعالى: « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » [النور: ٢]، فإقامة الحدود تمنع المحدود من العود، وتمنع غيره من الوقوع في مثل ما وقع فيه، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «حَدٌّ يُعْمَلُ بِهِ فِي الْأَرْضِ خَيْرٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مِنْ أَنْ يُمْطَرُوا أَرْبَعِينَ صَبَاحًا» [صحيح ابن ماجة: ٢٠٥٧].

ضرورة تهيئة ما يحتاجه الناس:

د- ومن مظاهر سياسة الدنيا بالدين: قيام الحكم الإسلامي بتهيئة ما يحتاجه الناس من مختلف الصناعات والحِرَف والعلوم، فهذه من فروض الكفاية التي يجب وجودها في الأمة لسدِّ حاجاتها.

ومن الواضح أن الصنائع المحتاج إليها تختلف باختلاف العصور والأزمان، فما كان الناس يحتاجون إليه في الأمس قد يحتاجون إلى غيره اليوم، فعلى الحكم الإسلامي ملاحظة ذلك وتهيئة وسائله، وبذلك يوفر فرص العمل للشباب، ويقضي على البطالة التي تفشت فيهم، فإذا وجد الشباب عملاً يستغرق أوقاتهم، ويستنفد طاقتهم، كانوا عوامل بناء وإصلاح في مجتمعهم، ونهضوا بوطنهم، وحققوا لأمتهم ما تريده منهم.

هـ- ومن مظاهر سياسية الدنيا بالدين: استثمار خيرات البلاد بما يحقق للرعية التقدم الاقتصادي والعيش الكريم، وقد أشار الفقهاء إلى هذا الواجب، فقد قال الفقيه المشهور أبو يوسف في كتابه القيم «الخراج»، الذي وجّهه إلى الخليفة هارون الرشيد: «إن على الخليفة أن يأمر بحفر الأنهار وإجراء الماء فيها، وتحميل بيت المال وحده نفقات ذلك». وفي البلاد بفضل الله من الخيرات ما لو أحسن استغلاله لم يبق في البلد فقير. فعندنا أرض واسعة صالحة للزراعة بفضل الله، والإسلام يدعو إلى استصلاح الأرض وزراعتها: فعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ». [صحيح الترمذي: ١٣٧٩].

فلو قام الرئيس بتوزيع الأرض على الشباب، وكلّفهم بزراعتها، وأوصل لهم الماء اللازم لذلك، واشترط عليهم استصلاحها في زمن معلوم، وإلا استُردت ممن يقصر لتسابق الشباب إلى عمارة الأرض وزراعتها، ولصار عندنا فائض من المحاصيل الزراعية التي تُصدر للبلاد الخارجية، وتدرّ دخلاً على بلادنا يستغل فيما تحتاجه البلاد، وبذلك يرتفع دخل المواطن، وتتحقق له الحياة الحرة الكريمة.

هذا ما نريده من رئيس البلاد، وهذه هي واجباته التي كلّفه الشرع بها، فهل يستجيب، ويستعين بالله على العمل؟ نرجو الله.

والله نسأل أن يولي أمورنا خيارنا، وأن يستعمل علينا من يحكم في الأمة بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

حكمة الاستخلاف

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

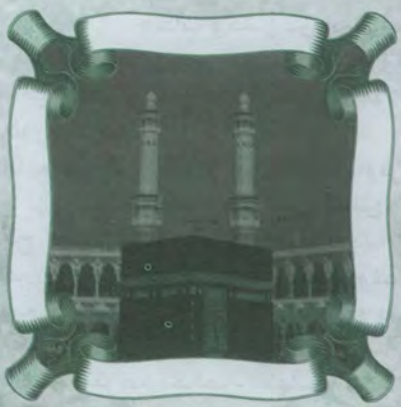

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده:

قال تعالى: « وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » [يونس: ١٣- ١٤].

يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعد ما جاءتهم البينات على أيدي الرسل، وتبين الحق، فلم ينقادوا لها ولم يؤمنوا، فأحل بهم عقابه الذي لا يُردُّ عن كل مجرم متجرئ على محارم الله، وهذه سُنته في جميع الأمم. [تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٣٣)].

«وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا» الخطاب لأمة الدعوة المحمدية، وُجِّهَ أوَّلا وبالذات إلى قوم النبي صلى الله عليه وسلم وأهل وطنه مكة؛ إذ أُنزلت السورة، فهو التفات يفيد مزيدَ التنبيه، وتوجيهَ أذهان المخاطبين لموضعه، والقرونُ: الأُمم وهو جمع قرن بالفتح، ومعناه القوم المقترنون في زمن واحد، وقد ذُكِرَ إهلاك القرون في آيات عديدة من السور المكية، وبدأ هذه بتأكيد القسم المدلول عليه باللام «وَلَقَدْ»، وصرَّح بأن سبب هلاكهم وقوع الظلم منهم، كما قال في سورة الكهف: «وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا » [الكهف: ٥٩]، و «لَمَّا» ظرفٌ يدل على وقوع فعل لوقوع غيره مما هو سببٌ له، والمرادُ بالقرى الأمم والقرون كما تقدم مرارًا، وقال في سورة هود: «وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ

أَلِيمٌ شَدِيدٌ» [هود: ١٠٢].

إهلاك الله الأمم بالظلم نوعان:

أحدهما: هو مقتضى سنته في نظام الاجتماع البشري، وهي أن الظلم سبب لفساد العمران وضعف الأمم، ولاستيلاء القويَّة منها على الضعيفة، استيلاءً مُؤقَّتًا إن كان إفساد الظلم لها عارضًا، لم يُجهز على استعدادها للحياة واستعادتها للاستقلال، أو دائمًا إن كانت غير صالحة للحياة حتى تنقرض أو تدغم في الغالبة، كما في سورة الأنبياء: «وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ» [الأنبياء: ١١-١٥]، وهذا النوع أثرٌ طبيعي للظلم بحسب سنن الله في البشر، وهو قسمان: ظلم الأفراد لأنفسهم بالفسوق والإسراف في الشهوات المضعفة للأبدان المفسدة للأخلاق، وظلم الحكام الذي يفسد بأس الأمة في جملتها، وهذه السُّنَّة دائمةٌ في الأمم، ولها حدود ومواقيت تختلف باختلاف أحوالها وأحوال أعدائها، هي آجالها المحددة لها، كما قال تعالى: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» [الأعراف: ٣٤].

ثانيها: عذاب الاستئصال للأقوام التي بعث الله تعالى فيها رسلاً لهدايتها بالإيمان والعمل الصالح، وأعظم أركانه العدل، فعاندوا الرسل، فأنذرهم عاقبة الجحود والعناد بعد مجيء الآيات، وهو ما بَيَّنَهُ تعالى بقوله: «وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ»الدَّالة على صدقهم فيما جاءوهم به «وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا» أي: وما كان من شأنهم ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا برسلهم، ويصدِّقوهم فيما دعوهم إليه، من توحيد الله، وإخلاص العبادة له؛ لأنهم مَرِنُوا على الكفر واطمأنوا به، وصارت لذاتهم ومصالحهم القوميَّة من الجاه والرياسة والسياسة مقترنةً بأعمالهم الإجرامية، من ظلم وفسق وفجور. [تفسير المنار (١١/ ٢٧٣و٢٧٤)].

«كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» أي مثل هذا الجزاء نَجزي جنس المجرمين، أي الذين صار الإجرام وصفًا لازمًا لهم، يقول تعالى ذكره: كما أهلكنا هذه القرون من قبلكم، أيها المشركون، بظلمهم أنفسَهم، وتكذيبهم رسلهم، وردِّهم نصيحتَهم، كذلك أفعلُ بكم، فأهلككم كما أهلكتهم بتكذيبكم رسولكم محمدًا صلى الله عليه وسلم، وظلمكم أنفسكم بشِرْككم بربكم، إن أنتم لم تُنيبوا وتتوبوا إلى الله من شرككم، فإن من ثواب الكافر بي على كفره عندي، أن أهلكه بسَخَطي في الدنيا، وأوردَه النار في الآخرة [جامع البيان (١١/ ٩٣)].

«فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ» [الحشر: ٢]، واحذروا «أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ» [هود: ٨٩]، فإن الله تعالى لا يحابي ولا يجامل، وإنما هي السنن الكونية تمضي مع أسبابها، «وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» [الأحزاب: ٦٢]، ولهذا لما ذكر الله تعالى في سورة القمر كيف أهلك المجرمين، توجه بالخطاب إلى كفار قريش قائلا: «أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ» [القمر: ٤٣]، والمعنى: تلك كانت مصارع المجرمين، فما يمنعكم أنتم من مثل ذلك المصير، «أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ»؟ وما ميزة كفاركم على أولئكم؟ «أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ»؟ تشهد بها الصحائف المنزلة، فتُعفوا إذن من جرائر الكفر والتكذيب؟ لا هذه ولا

تلك، فلستم خيرًا من أولئكم، وليست لكم براءة في الصحائف المنزلة، وليس هنالك إلا لقاء المصير الذي لقيه الكفار من قبلكم في الصورة التي يقدرها الله لكم. [الظلال: ٧/ ٦٥٧].

«ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ» الخطاب معطوفٌ على الذي قبله، وهو مُوَجَّهٌ لأُمَّة محمد صلى الله عليه وسلم، أي ثُمَّ جعلناكم خلائف في الأرض من بعد أولئك الأقوام كلهم، بما آتيناكم في هذا الدِّين من أسباب الملك والحكم، وقدرناه لكم باتباعه، إذ كان الرسول الذي جاءكم هو خاتم النبيين، فلا يوجد بعد أُمَّته أُمَّةٌ أُخرى لنبيٍّ آخر. ولقد كان لتلك الأمم الهالكة دُوَل وَحُكْمٌ في الأرض، كملك النصارى واليهود والمجوس، والوثنيين من قبلهم، كالفراعنة والهنود، فالله يبشر قومَ محمد وأُمَّةَ محمد بأنها ستخلفهم في الأرض إذا آمنت به، واتبعت النور الذي أُنزل معه، كما صرح ربُّنا سبحانه بذلك في قوله: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» [النور: ٥٥]، وهذا استخلاف خاص، والأول استخلاف عام، فمن فَهِمَ المراد من الاستخلاف العام وقام به وحققه، حقق الله له الاستخلاف الخاص.

وقد صرح ربنا سبحانه هنا بذكر علة الاستخلاف العام بقوله: «لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»، أي لنرى ونشاهد أيَّ عمل تعملون في خلافتكم، فنجازيكم به بمقتضى سُنَّتنا فيمن قبلكم، فإن هذه الخلافة إنما جعلها لكم لإقامة الحق والعدل في الأرض، وتطهيرها من رجس الشرك والفسق، لا لمجرد التمتع بلذَّة الملك، كما قال في أول آيات الإذن لهم بالقتال: «الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» [الحج: ٤١]، فأعلمهم سبحانه بأنَّ أمْرَ بقاء خلافتهم منوطٌ بأعمالهم، وأنه تعالى يكون ناظرًا إلى هذه الأعمال، لا يغفل عنهم فيها، حتى لا يغتروا بما سينالونه ويظنوا أنه باقٍ لهم لذاتهم، أو لِنِسْبَتِهم إلى نبيِّه صلى الله عليه وسلم، وأنهم يتفلتون من سننه في الظالمين، وقد بيَّنها لهم [تفسير المنار: ١١/ ٢٤٧]، «فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۗ» [الأنعام: ١٠٤]، فإذا جاء العذابُ الذين عَمُوا وَصَمُّوا، سألوا الله الإمهال والتأجيل فلم يُجابوا؛ لأن الله تعالى قد أمهلهم وأنذرهم، قال تعالى: «وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ» [إبراهيم: ٤٤- ٤٥].

فهذه هي حكمة الاستخلاف.

وفي القرآن الكريم الكثير والكثير من الآيات الدالة على أن الله تبارك وتعالى يُرَبِّي عباده ويختبرهم بما يهبهم ويعطيهم في هذه الحياة، ليظهر أيُّهم أحسن عملا فيجزيه بالحسنى في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» [هود: ٧]، وقال تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» [الكهف: ٧]، وقال تعالى: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ» [الملك: ٢].

فمن فقه هذا فأحسن فيما بينه وبين الله، وأحسن فيما بينه وبين عباد الله، كان من المحسنين الذين يحبهم الله، فيحييهم في الدنيا حياة طيبة، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، كما قال سبحانه: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [النحل: ٩٧].

ولقد كان السلف الصالح أفقه لهذه الحكمة من غيرهم، «فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» [آل عمران: ١٤٨].

عن قتادة قال: ذُكِرَ لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: صدق ربُّنا، ما جعلنا خُلفاء إلا لينظر كيف أعمالنا، فأرُوا الله من أعمالكم خيرًا بالليل والنهار، والسِّرِّ والعلانية.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى: أن عوف بن مالك رضي الله عنه قال لأبي بكر رضي الله عنه: رأيتُ فيما يرى النائم كأن سببًا دُلِّي من السماء، فانتشط رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دُلِّي فانتشط أبو بكر، ثم ذُرِع الناس حول المنبر، ففضل عمر رضي الله عنه بثلاث أذرع إلى المنبر. فقال عمر: دعنا من رؤياك، لا أرَبَ لنا فيها! فلما اسْتُخْلِفَ عمر قال: يا عوف، رؤياك! قال: وهل لك في رؤياي من حاجة؟ أوَ لم تنتهرني! قال: ويحك! إني كرهت أن تنعَى لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه! فقصَّ عليه الرؤيا، حتى إذا بلغ: «ذُرِع الناس إلى المنبر ففضل عمر بثلاث أذرع»، قال: أمّا إحداهن، فإنه كائن خليفةً. وأما الثانية، فإنه لا يخاف في الله لومة لائم. وأما الثالثة، فإنه شهيد. قال: فقال يقول الله: «ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» فقد اسْتُخْلِفْتَ يا ابن أُمِّ عمر، فانظر كيف تعمل [جامع البيان: ١١/ ٩٤].

ولقد عمل رضي الله عنه، وملأ الدنيا قسطا وعدلا، وفتح الفتوح، وجاءته كنوز كسرى وقيصر، ورفع الله ذكره، وملأ الدنيا عبيرُ سيرته.

وهكذا يكون كلُّ خليفة يُدْرِكُ أنه مُستخلَفٌ في مُلْكٍ أُديلَ من مالكيه الأوائل، وأُجْلِي عنه أهلُه الذين سبق لهم أن مُكِّنُوا فيه، وأنه هو بدَوْرِه زائل عن هذا الملك، وإنما هي أيام يقضيها فيه، مُمْتَحَنًا بما يكون منه، مُبْتَلى بهذا المُلك، مُحَاسَبًا على ما يكسب، بعد بقاء فيه قليل. وهذا التصور فوق أنه يُريهِ الحقيقة فلا تخدعه عنها الخدع، يظل يثير فيه يقظةً وحساسيةً وتقوى، هي صمام الأمن له، وصمام الأمن للمجتمع الذي يعيش فيه.

إن شعور الإنسان بأنه مُبتلى ومُمْتَحَنٌ بأيامه التي يقضيها على الأرض، وبكل شيء يملكه، وبكل متاع يُتاح له، يمنحه مناعة ضد الإغترار والانخداع والغفلة، ويعطيه وقايةً من الاستغراق في متاع الحياة الدنيا، ومن التكالب على هذا المتاع الذي هو مسئول عنه ومُمْتَحَنٌ فيه.

وإن شعوره بالرقابة التي تحيط به، والتي يصورها قول الله سبحانه: «لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» ليجعله شديدَ التوقي، شديد الحذر، شديد الرغبة في الإحسان، وفي النجاة أيضًا من هذا الامتحان [الظلال (٤/ ٣٩٧و٣٩٨)]. «فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» [القمر: ١٧].

نسأل الله أن يصلح أحوالنا أجمعين حكامًا ومحكومين، وأن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الزمر

الحلقة الأولى

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده..

أما بعد: فقد انتهينا بفضل الله من تفسير سورة ص، ونبدأ اليوم مع سورة الزمر، نقتطف من معانيها وآدابها ونتعلم بعض أحكامها، والله نسأل أن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

بين يدي السورة:

هي سورة الزمر، وتسمى سورة الغُرَف، تسمي سورة الزمر لقول الله تبارك وتعالى فيها: «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا»، وتسمي سورة الغُرَف لقوله تعالى: «لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا».

وهى سورة مكية، شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة، وبيان أصول الدين وأركان الإيمان، وقد ركزت على الأصول الثلاثة: وهي التوحيد، والنبوة، والبعث بعد الموت.

والمناسبة بينها وبين سورة ص أن الله تبارك وتعالى قال في خاتمة سورة ص «إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ»، ثم استفتح سورة الزمر ببيان مصدر هذا الذكر، فقال: «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»، وهكذا التأمت البداية والنهاية التئاماً كاملاً، بحيث لو أن البسملة سقطت من بين السورتين لم يكن هناك تناف بين النهاية والبداية.

كما أن من وجوه المناسبة بين السورتين أن الله تبارك وتعالى ذكر في خاتمة سورة ص قصة خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام، ثم ذكر في هذه السورة الكريمة خلق زوج آدم: حواء، وخلق ذريتهما.

وذكر الله تبارك وتعالى بعد ذلك أن الكل ميتون، وإلى ربهم راجعون، وبأعمالهم مجزيون، إلى أن قال سبحانه وتعالى: «وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وهكذا اشتمل آخر سورة ص وسورة الزمر كلها على ذكر المبدأ والمعاد، والبداية والنهاية، وخلق الإنسان وأطواره التي يمر بها، إلى أن يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

يقول ربنا الجليل سبحانه: «تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى

مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ » [الزمر: ١- ٩].

القرآن كلام الله:

«تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ »:

«تَنزِيلُ» مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذا تنزيل، أو مرفوع على أنه مبتدأ، وخبره ما بعده، «تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ»، فمصدر هذا القرآن هو الله سبحانه وتعالى، الله سبحانه وتعالى نزل هذا القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وأكثر الله تبارك وتعالى من تقرير هذا الخبر في كتابه العزيز، في مثل قوله تعالى: « تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » [غافر: ٢]، « تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » [فصلت: ٢]، « وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ » [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

فالقرآن الكريم هو كلام الله عز وجل، وكلام الله صفة من صفاته، والصفة تتبع الموصوف، والله سبحانه وتعالى الذي نزل الكتاب هو العزيز الحكيم، ليس كمثله شيء، وكذلك كلام الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، فكلام الله تبارك وتعالى لا يشبه كلام المخلوقين، ولا يشبهه كلام المخلوقين، ولما كان القرآن كلام الله العزيز الحكيم، وصف الله تبارك وتعالى القرآن بما وصف به نفسه فقال: «تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»، وقال عن الكتاب: «وَإِنَّهُ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ» [فصلت: ٤١]، وقال: « وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ » [الزخرف: ٤].

ومرة ثانية يؤكد على أن هذا القرآن من عنده، فيقول سبحانه وتعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» أي متلبساً بالحق، « لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ » [فصلت: ٤٢] فكل ما فيه حق، كل ما في القرآن الكريم من الأوامر، والنواهي، والشرائع، والأخبار، والأحكام، والقصص، كله حق؛ لأنه كلام الله الحق.

الحث على شكر النعم:

«فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ» حتى تشكره على نعمة التنزيل، فإن تنزيل الكتاب نعمة عظيمة، كما قال تعالى: « وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » [النساء: ١١٣]، وهذه نعمة أنعم الله بها عليك، وكل نعمة يجب أن تُقَابَل بالشكر، «فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ» حتى تكون من الشاكرين.

«أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ»، فلا يقبل الله تعالى من الدين، ولا يقبل من العبادات، ولا يقبل من الطاعات، إلا ما كان خالصاً لوجهه عز وجل: «فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا» [الكهف: ١١٠] ففي الحديث القدسي، قال الله تعالى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» [مسلم ٢٩٨٥].

فالله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال، ولا يقبل من الطاعات، ولا يقبل من العبادات، إلا ما كان خالصاً لوجهه عز وجل، وبذلك أمر الأولين والآخرين، فقال عن الأولين: «وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ » [البينة: ٥]، وقال تعالى: « ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ » [التوبة: ٣١]، وقال للاحقين: «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » [غافر: ١٤]، وقال تعالى: « هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » [غافر: ٦٥]، فالشرك في العبادة يبطلها ويردها على صاحبها، سواء كان شركاً أكبر أم شركاً أصغر، أما الشرك الأكبر فقد قال الله تبارك

وتعالى فيه: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » [الزمر: ٦٥]، وأما الشرك الأصغر فقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ. قَالُوا وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: الرِّيَاءُ» [مسند أحمد (٢٣٦٣٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع١٥٥١].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» [مسلم ١٩٠٥].

فالإخلاصَ الإخلاصَ يا عباد الله، لا تعملوا للناس شيئًا، إنهم لن يغنوا عنكم من الله شيئًا، لا تعملوا طمعاً في مدحهم، ولا تعملوا اتقاء ذمهم، «فَمَنِ الْتَمَسَ رِضَاءَ اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ» [الترمذي ٢٥٢٧ وصححه الألباني].

لا تتخذوا من دون الله أولياء:

«وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ» من دون الله عز وجل «أَوْلِيَاءَ» يتولونهم، ويحبونهم، ويتقربون إليهم، فإذا قيل لهم: لم تعبدونهم؟ قالوا: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى»: «زُلْفَى» اسم أقيم مقامَ المصدر المَحذوف، وتقدير الكلام: «مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ» تقريباً، فتقريباً مصدر يقربونا، فحذف المصدر، وأتى باسم مكانه وهو «زُلْفَى».

وفي موضع آخر قال الله تعالى: « وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ » [يونس: ١٨] أي كانوا يرجون بعبادتهم الأصنام أن يشفعوا لهم عند الله سبحانه وتعالى لينصرهم ويرزقهم ويعافيهم، لا ليشفعوا لهم عند الله في الآخرة، فإنهم كانوا كافرين بالآخرة، كما قال تعالى: «إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ » [الواقعة: ٤٥- ٤٨].

وإنما وقعوا في هذا الخطأ العظيم بسبب القياس الفاسد، وهو أنهم قاسوا الله تبارك وتعالى على خلقه، فقالوا: إن الملوك لا يوصل إليهم إلا بوجهاء، وشفعاء، ووزراء، يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويمهدون لهم الأمر في ذلك، فالله تعالى كذلك.

وهذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم، عقلاً ونقلاً وفطرة، فإن الملوك إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم؛ لأنهم لا يعلمون أحوالهم، فيحتاج من يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج من يعطفهم عليه ويسترحمهم له، ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقضون حوائج من توسطوا لهم، مراعاة لهم، ومداراة لخواطرهم، وهم أيضا فقراء، قد يمنعون لما يخشون من الفقر.

وأما الرب تعالى، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج إلى من يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحد من خلقه يجعله راحمًا لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، وهو الذي يحثهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم، وهو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كلاً منهم ما سأل وتمنى، لم ينقصوا من غناه شيئًا، ولم ينقصوا مما عنده، إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط، وجميع الشفعاء يخافونه، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه، وله الشفاعة كلها.

فبهذه الفروق يعلم جهل المشركين به، وسفههم العظيم، وشدة جراءتهم عليه.

ويعلم أيضا الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالى؛ لأنه يتضمن القدح في الله

تعالى، ولهذا قال حاكمًا بين الفريقين، المخلصين والمشركين، وفي ضمنه التهديد للمشركين: «إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»

وقد عُلم أن حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة. [تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٤٥-٤٤٧)].

فلا تجعلن بينك وبين الله في سؤاله ودعائه واسطة أبدًا، يقول العلماء: الله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه أسئلة الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم وأمره أن يجيبهم «يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ» [الأنفال: ١]، و «يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ» [البقرة: ٢١٩]، «يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ» [البقرة: ١٨٩]، فلما قالوا: أقريب ربنا فنناجيه؟ أم بعيد فنناديه؟ ألغى الله تبارك وتعالى الواسطة في الجواب فقال: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ» [البقرة: ١٨٦]، ولم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالجواب كما أمره في الأسئلة الأخرى.

فلا تجعلن بينك وبين الله واسطة في العبادة فـ «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» [الترمذي (٢٦٣٥) وصححه الألباني].

الله يحكم بين عباده يوم القيامة:

«إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»:

قال بعض المفسرين: «إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ» بين الذين اتخذوا من دونَ الله أولياء، لأنهم ليسوا على ملة واحدة، وإنما هم ملل ونحل كثيرة، منهم من عبد الحجر، ومنهم من عبد الشمس، ومنهم من عبد عزيرًا، ومنهم من عبد الملائكة، فالله تبارك وتعالى «يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

وقال بعض المفسرين «إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ» أي بين الذين اتخذوا من دونه أولياء وبين المخلصين يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون؛ لأن أهل التوحيد مختلفون مع أهل الشرك، كل يدعي أنه على الحق، فالله تبارك وتعالى «يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»، كما قال تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ» [الحج: ١٧].

أسباب الهدى والضلال:

«إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ»: الذين زعموا أن هذه الأصنام آلهة كذبوا على الله عز وجل وكفروا به، والذين زعموا أن هذه الأصنام تشفع لهم عند الله كذبوا على الله عز وجل، والذين زعموا أن هذه الأصنام تقربهم من الله زلفى كذبوا على الله عز وجل، والله «لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ»، إنما يهدي الله تبارك وتعالى من قَبِل الهدى واتبعه، كما قال تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ» [يونس: ٩] أي بسبب إيمانهم، ولذلك قال تعالى: «وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى» [مريم: ٧٦]، وقال: «وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ» [محمد: ١٧].

الله واحد لا ولد له:

ولقد زعموا أن الملائكة بنات الله، ثم صوروا صورًا على هيئة الملائكة، وعبدوها من دون الله، فنسبوا لله الولد، فكذبهم الله تبارك وتعالى في هذه النسبة، ونزه نفسه عما وصفوه به، فقال عز وجل: «لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ»: يقولون لو حرف امتناع لامتناع: «لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» وجعله ولدًا له من غير أن يتخذ صاحبة، ولكنه لم يرد أن يتخذ ولدًا، فلم يكن له ولد، بل الكل عباده، كما قال تعالى: «وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا» [مريم: ٨٨- ٩٣].

فثبت بطلان نسبتهم الولد لله، ولذلك نزّه نفسه عما وصفوه به، فقال: «سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ» الواحد في ذاته، والواحد في صفاته، والواحد في أفعاله، «لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ» في ذاته، و«لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ» في صِفَاته، و «لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ» فِي أفعاله، «هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

باب التفسير

تفسير سورة الزمر

الحلقة الثانية

قال الله تعالى: « لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ۖ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ » [الزمر: ٣-٩]

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

دلائل التوحيد:

ثم ذكر الله تبارك وتعالى بعض دلائل قدرته، التي يستدل بها العقلاء على وحدانيته، وهي كثيرة، كما قال القائل:

فوا عجباً كيف يُعصَى الإله
أم كيف يجحده الجاحد؟!
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

ذكر سبحانه وتعالى بعض دلائل قدرته التي يستدل بها أولو الألباب على وحدانيته، ومنها:

١- خلق السموات والأرض:

قال تعالى: «خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ»: فالسموات في ارتفاعها، وما فيها من كواكب ونجوم، والأرض في اتساعها، وما فيها من بحار وأنهار، وما يخرج منها من زروع وثمار، كل ذلك دليل على توحيد الله، عز وجل.

٢- الليل والنهار:

«وَمِنْ آيَاته اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ»، «يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ»، «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ»، وبذلك يتم النقص والزيادة، والقصر والطول في كل منهما، وذلك من دلائل التوحيد، كما قال تعالى: « وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » [يس: ٣٧- ٤٠]، «كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى»، وهو يوم القيامة، كما في الحديث:

عَنْ أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ غُرُوبِ

الشَّمْس فَقَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ » [يس: ٣٨]» [البخاري ٤٨٠٢].

«أَلَا» أداة تنبيه، كأنه يقول: انتبهوا أيها الناس، «أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ»، فمع العظمة والعزة والكبرياء هو غفار، كثير المغفرة، واسع المغفرة، يغفر لكل من استغفره وتاب إليه، سبحانه وتعالى.

٣- خلق الناس:

«خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا»:

من دلائل التوحيد خلق الإنسان، الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان الأول من طين، ثم خلق من آدم حواء، ثم خلق من آدم وحواء الذرية كلها، «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا » [النساء: ١].

٤- خلق الأنعام:

ومن دلائل التوحيد هذه الأنعام التي خلقها لكم: «وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » [النحل: ٥- ٧].

«وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ»: أنزل بمعنى أنشأ وأحدث، كما قال: «يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ » [الأعراف: ٢٦]، والأزواج الثمانية هي التي ذكرها ربنا سبحانه في سورة الأنعام؛ حيث قال: «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٤٣ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ » [الأنعام: ١٤٣- ١٤٤].

«ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ » خلقها الله لنا، وجعل لنا فيها منافع كثيرة، لا تخفى على عاقل، ولا ينفك الناس عن الحاجة إلى هذه الأنعام، حتى في عهد التكنولوجيا والحضارة، والسيارات المختلفة، لا يستغني الناس عن الحمار والجمل والجاموسة والبقرة، فالواجب على الناس أن يشكروا الله على ما سخر لهم من بهيمة الأنعام، كما قال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ۝٧١ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ » [يس: ٧١- ٧٣].

أطوار خلق الإنسان:

ولما ذكر خلق الزوجين الأولين، وهما آدم وحواء، ذكر صفة خلق النسل والذرية، فقال: «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ»: هكذا أتى بالمضارع «يَخْلُقُكُمْ» حتى يفيد التجدد والاستمرارية، فالخلق متجدد ومتكرر دائمًا، ولذلك قال: «أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ » [ق: ١٥] «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ» في القرار المكين، الذي لا تصل إليه الأيدي، ولا تمتد إليه الأعين، «خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ»، فصَّله الله تبارك وتعالى في سورة المؤمنون، فقال: « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » [المؤمنون: ١٢- ١٤].

«يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ» هي ظلمة المشيمة، وظلمة الرحم، وظلمة البطن.

من الذي يتصرف في هذا الجنين منذ خروج النطفة من صلب الرجل واستقرارها في رحم المرأة، إلى خروجها بشرًا سويًا، «ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ»، هذا هو ربكم الذي يجب أن تفردوه بالعبادة، كما قال في آية أخرى: «ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » [يونس: ٣]، وكما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » [البقرة: ٢١- ٢٢].

«ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ » [فاطر: ١٣]، فكيف تعبدون الفقير وتتركون عبادة الغني الذي «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ » [طه: ٦].

«ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ» أي لا معبود بحق إلا هو، فالله تعالى وحده هو الإله الحق، وكل ما عُبِدَ من دونه فهو الباطل؛ لأن غير الله لم يخلق، ولم يرزق، ولا يحيي ولا يميت، فكيف يكون إلهًا؟! والله وحده هو الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، هو الذي يحيي ويميت ويرزق، هو الذي يدبر الأمر، فيجب أن يعبد

وحده، ولذلك قال تعالى: « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » [الروم: ٤٠].

ولما تبرأ إبراهيم عليه السلام من قومه ومما يعبدون من دون الله، « قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ» [الشعراء: ٧٥- ٧٧]، فإنه وَلِيّي وأنا وَلِيُّه، فتبرأ من كل ما عُبِدَ من دون الله، وأثبت الولاية بينه وبين الله عز وجل وحده، ثم علل ذلك فقال: « ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ» [الشعراء: ٧٨- ٨٢] هل هناك غير الله يملك شيئاً من ذلك؟! «لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ»؟ كيف تصرفون عن الحقّ بعد إذ تبين لكم، وثبت بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة، أنه لا إله إلا هو، فكيف تعبدون غيره؟!

على أية حال، بعد أن قامت الحجة، وبطل الشرك، وثبت التوحيد، اعلموا أنه: «إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ»: فهو سبحانه حين يبين لكم بطلان الشرك، وثبوت التوحيد، بالأدلة الدامغة، والبراهين الواضحة القاطعة، إنما يفعل ذلك «لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ» [الأنفال: ٤٢]، وإلا فإن الله تعالى لا تنفعه طاعتكم، ولا تضره معصيتكم.

«إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ»، « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ» [التغابن: ٦]، وقال تعالى: « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ » [إبراهيم: ٧- ٨].

الإرادة الكونية والشرعية:

«إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ»، فإذا كان لا يرضاه فكيف أراده؟

والجواب: أن الكفر كان في الأرض من الناس بإرادة الله الكونية القدرية، والإرادة القدرية لا تستلزم المحبة والرضا، إنما الإرادة الشرعية الدينية هي التي تستلزم المحبة والرضا، فكل ما يأمر به فهو يحبه ويرضاه، وكل ما نهى عنه فإنما يكرهه ويسخطه، فالله لا يرضى الكفر، ولكن الكفر كان بإرادته لحكم كثيرة يعلمها هو سبحانه وتعالى، منها ما صرح به في قوله: « وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ» [السجدة: ١٣]، وقوله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » [النحل: ٩٣].

«إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ»: وإطلاق الشكر في مقابل الكفر دليل على أن الشكر هو الإيمان، كما في قوله تعالى: «إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا» [الإنسان: ٢- ٣]، فالشاكر هو المؤمن، والكفور من كفر بالله وبانعم الله، فهو كثير الكفر، ولذلك جاء بصيغة المبالغة.

التبعة الفردية:

«وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» أي لا تحمل نفسٌ وزر نفس أخرى.

فإن قال قائل: فكيف يتفق هذا مع قوله تعالى: « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ» [العنكبوت: ١٣]؟ فالجواب «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» لم تكن سبباً في عملها، « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ» التي كانوا سبباً فيها، كما في الحديث: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ» [مسلم ١٠١٧]، و«مَا مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَسَنَّ الْقَتْلَ» [الترمذي ٢٨١٣ وصححه الألباني].

وقفوهم إنهم مسئولون:

«ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، قال تعالى: « فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ» [الأعراف: ٦- ٧]، وقال تعالى: « أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » [المجادلة: ٧].

«إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ»، فلا يخفى عليه ما تسرون، كما لا يخفى عليه ما تعلنون، كما قال تعالى: « قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

قَدِيرٌ» [آل عمران: ٢٩]، ولذلك قال لقمان لابنه وهو يعظه: « يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ » [لقمان: ١٦].

حال الإنسان في السراء والضراء:

ثم ذكر الله تعالى حال الإنسان في السراء والضراء، وأنه في الضراء يلجأ إلى الله سبحانه وتعالى، وفي السراء يفر من الله تعالى وينساه، «وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ»، وألحَّ في الدعاء، كما قال تعالى: « وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا » [يونس: ١٢]، فإذا زالت الغمة، وانكشفت الكربة، وزال الهم وجاء الفرج، «أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ»، كما قال تعالى: «ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ» كأن لم يكن مصاباً قبل ذلك، وكأنه لَم يشتك إلى الله شيئًا قبل ذلك، وليس ذلك فحسب، بل «وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ» عن سبيل الله، الذي أجاب دعاءه، وأعطاه سؤله، وكشف عنه الضر، وفرّج عنه الكرب، فماذا يستحق هذا الإنسان؟ هل يستحق إلا العذاب؟! ولذلك قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم: «قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً»، ولو متعه الدنيا كلها لكانت قليلةً، « أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ » [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧]، ولذلك قال تعالى: « لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ » [آل عمران: ١٩٦- ١٩٧].

«قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ» يا من جعلت لله أندادًا «إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» لأن الله قضى ولا مبدل لكلماته: « إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ » [المائدة: ٧٢].

مدح العلماء العاملين:

ثم فرق الله تبارك وتعالى بين العلماء العاملين وبين غيرهم، فقال عز وجل: «أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ»: القنوت معناه الطاعة، ومن معانيه طول القراءة في الصلاة، «أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا» يصلي الليل كله، كما قال تعالى: « وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا » [الفرقان: ٦٤] يحملهم على ذلك رجاء الرحمة وخوف العذاب، «يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ» كما قال: « تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا » [السجدة: ١٦]، خوفاً من عذابه، وطمعاً في رحمته، فهذه هي الغاية من العبادة، أن ينجينا الله من النار، وأن يكرمنا بالجنة، هذه هي غاية المؤمنين، كما أنها غاية النبيين، كما قال تعالى عنهم: « إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ » [الأنبياء: ٩٠].

وَفِي الْحَدِيثِ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِرَجُلٍ: كَيْفَ تَقُولُ فِي الصَّلاةِ. قَالَ: أَتَشَهَّدُ وَأَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ، أَمَا إِنِّي لاَ أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلاَ دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ» [أبو داود ٧٧٨ وصححه الألباني].

وقد دل ذلك على بطلان قول بعضهم: ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك.

«أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ» كمن ليس كذلك؟ لا يستوون، ولذلك قال تعالى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ»، هل يستوي العالم مع الجاهل؟ لا يستوون، وهل يستوي العامل مع غير العامل؟ لا يستوون أيضا، قال العلماء: لا يمدح العالم على مجرد علمه حتى يكون عاملاً به؛ لأن الله تعالى قدم العمل على العلم، فقال: «أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ».

وقد أنكر الله على الذين يعلمون ولا يعملون، فقال تعالى: « أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ » [البقرة: ٤٤]، وقال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ » [الصف: ٢- ٣].

وفي الحديث: عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلاَنُ مَا لَكَ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلاَ آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ» [متفق عليه].

«إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ» أي أهل العقول السليمة، والقلوب النيرة الزكية، فهم الذين يؤثرون العلم على الجهل، والعمل على الكسل والبطالة.

نسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا. والحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

تفسير سورة الزمر

الحلقة الثالثة

قال الله تعالى: « قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ»

[الزمر ١٠- ١٦]

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده..

وصية رب العالمين لعباده المؤمنين:

ينادي الله عباده المؤمنين بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول: «قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا»، فالمنادي هو الله سبحانه، والرسول صلى الله عليه وسلم مُبَلِّغٌ عن الله، يُبلِّغ النداء كما هو بلفظه وحروفه.

ينادي الله تعالى المؤمنين بلقب العبودية، وهو أشرف الألقاب، ويضيف عبوديتهم إليه، وفي هذه الإضافة ما فيها من التكريم والتشريف، «قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا»، و «الَّذِينَ آمَنُوا» بدل من عبادي، والنداء يراد به التنبيه على ضرورة الإقبال على ما بعده والاهتمام به، «اتَّقُوا رَبَّكُمْ»، والتقوى هي وصية الله تعالى للأولين والآخرين، كما قال تعالى: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ» [النساء]، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي بها أصحابه في المحافل العامة والمجامع العظيمة، وكان إذا بعث بعثًا أمَّر عليهم أميرا ووصَّاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيرًا.

وأصل التقوى أن تجعل بينك وبين ما تخافه وتحذره شيئا يقيك إياه، فمعنى تقوى الله أن تجعل بينك وبين الله ما

يقيك ما تخافه وتحذره من غضبه وعذابه، ولا شيء يقي من عذاب الله مثل طاعته بفعل ما به أمر، وترك ما نهى عنه وزجر، وتلك هي التقوى.

ولا شك أن المؤمنين متقون، فالأمر لهم بالتقوى أمر بالثبات عليها والزيادة منها، كما أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بها أيضًا، وهو أتقى الناس لله، فقال له: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ» [الأحزاب].

عاجل جزاء المتقين:

ثم يرغب الله سبحانه عباده في الاستجابة لما أمرهم به، فيقول: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ»، فأمر بالتقوى ثم ذكر جزاء المحسنين؛ لأن التقوى والإحسان متلازمان، كما قال بعد ذلك: «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ»، لأن التقوى والصبر أيضا متلازمان، قال الله تعالى: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» [المائدة: ٩٣]، وقال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ» [النحل: ١٢٨]، وقال تعالى: «إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ» [يوسف: ٩٠]، فبين التقوى والإحسان والصبر تلازم، ولذلك يُجمع بينها في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

ومعنى «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ»: أي يعطيهم الله في هذه الدنيا حسنة، وهو الجزاء العاجل الذي يتفضل الله عليهم به في الدنيا مع ما يدخر لهم من ثواب الآخرة، كما قال تعالى: «فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» [آل عمران: ١٤٨]، وقال تعالى: «وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ» [النحل]، و قال تعالى: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» [النحل].

واختلفوا في المراد بحسنة الدنيا، فقيل هي الصحة، وقيل هي العافية، وقيل هي المال، وقيل هي الأولاد، وقيل هي الزوجة الصالحة، والراجح أن كل ذلك من حسنة الدنيا.

الهجرة من الأرض التي لا يستطيع المؤمن فيها أن يُقيم دين الله:

ولما كان المؤمن قد يُضطهد في بلده ومسقط رأسه، فلا يستطيع أن يتقي الله، قال تعالى: «وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ»، فإذا عجزت عن أداء حق الله في أرض فاخرج منها إلى أرض أخرى، فأرض الله واسعة، فمن أخلد إلى الأرض واتبع هواه، ولم يهاجر إلى الله، فقد ظلم نفسه، وعرّضها لعذاب الله، قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» [النساء].

ولما كان الدوام على الطاعة شاقًا، وكانت الهجرة من الأوطان ثقيلة، وكان لا بد للمتقين من الصبر، رغبهم الله تعالى فيه ببيان فضله، وعظيم أجره وثوابه، فقال تعالى: «إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» قال بعض السلف: أي كالماء المنهمر، لا يُحصى قطره.

البراءة من الكافرين:

«قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ

الَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ»

كان المشركون قد حاولوا صَدَّ النبي صلى الله عليه وسلم عن دينه بكل الوسائل، فلما فشلوا فيما أرادوا لجئوا إلى ما يُسَمَّى بلُغة العصر أنصاف الحلول، فقالوا: يا محمد! تعبد معنا اللاتَ يومًا، ونعبد معك اللهَ يومًا، وبذلك يزول الخلاف بيننا وبينك، فنهاه الله عن طاعتهم، فقال: « فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ» [القلم]، وأمره بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فقال: « إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ» [الزمر]، ثم أمره أن يصرح بهذا الأمر فقال: «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ» أي من هذه الأمة. ثم أمره أن يصرح بما يخافه من عذاب الله إن خالف أمره، فقال: «قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ»، وفي هذا تلويح بالعذاب الذي ينتظرهم على عصيان أمر ربهم، فمن عصى اللهَ أخذه، كما قال تعالى: « وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَالْمُؤْتَفِكَٰتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً» [الحاقة]، «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [النور].

«قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ»، هذا الأمر كقوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: « قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» [الكافرون].

وقوله تعالى: «فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ» أمر تهديد، يعني: فسيجزيكم الله به، كما قال تعالى: « ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» [فصلت]، يعني: وسيجزيكم به. وقد بيَّن الله تعالى هذا الجزاءَ فقال: « وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا» [الكهف].

ثم بيَّنَ اللهُ تعالى عاقبة الذين اتخذوا من دونه أولياء، فقال تعالى: «قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ»:

ومعنى خُسرانهم أنفسَهم: أنهم تَسبَّبوا لأنفسهم في العذاب، في حين حسبوا أنهم سعوا لها في النعيم والنجاح، وهو تمثيل لحالهم في إيقاع أنفسهم في العذاب وهم يحسبون أنهم يلقونها في النعيم، بحال التاجر الذي عرض ماله للنماء والربح فأصيب بالتلف.

وأما خسرانهم أهليهم فهو مثل خسرانهم أنفسهم، وذلك أنهم أغْرَوْا أهليهم من أزواجهم وأولادهم بالكفر كما أوقعوا أنفسهم فيه، فلم ينتفعوا بأهليهم في الآخرة ولم ينفعوهم، فكان خسرانهم خسرانًا عظيمًا.

[التحرير والتنوير(٢٣/ ٣٦٠و٣٦١).]

ثم وصف الله تعالى ما لهم في النار من العذاب فقال: «لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ» كما قال تعالى: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» [الأعراف]، وكما قال تعالى: «يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [العنكبوت].

الخوف من الله هو سبب الأمن:

ثم ذكر سبحانه وتعالى العلة من ذكر هذا العذاب فقال: «ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ

عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ» أي: ذلك المذكور من عذاب النار إنما ذكره الله تعالى تخويفا لعباده، ليتقوه حق تقاته، فالخوف سوط يسوق الله به عباده إلى طاعته، فمن خاف الله أطاعه، ومن لم يخفه عصاه، وقد صرح ربنا سبحانه في أكثر من آية أن الخوف منه كان الدافع لعباده إلى أعمال البر كلها، فقال تعالى: « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا» [الفرقان]، وقال تعالى: « إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا» [الإنسان]، وقال تعالى: « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ» [الطور].

بشارة الموحدين:

ولما ذكر سبحانه جزاء المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء ذكر جزاء الموحدين الذين أخلصوا الدين لله رب العالمين، فقال تعالى: «وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ»: الطاغوت كل من عُبد من دون الله برضاه، وأصل الطواغيت الشيطان، كما قال تعالى: « الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا» [النساء]، فالشيطان هو المعبود من دون الله، كما قال تعالى: « أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ» [يس].

فإن قيل: إن الناس لم يعبدوا الشيطان، وإنما عبدوا الأصنام والأوثان؟

فالجواب: إنهم عبدوا الأوثان بتزيين الشيطان، «الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ» [محمد]، فلما أطاعوه في عبادتها كانوا كأنهم عبدوه، ولذلك قال الله تعالى: « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا» [النساء]، وقال تعالى في بيان دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه: « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا» [مريم]، ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، وبيَّن أن العلة هي أن الشيطان يضع قرنه حولها، حتى يكون الساجد لها ساجدًا له.

عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «صَلِّ صَلَاةَ الصُّبْحِ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَتَّى تَرْتَفِعَ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حِينَ تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى يَسْتَقِلَّ الظِّلُّ بِالرُّمْحِ ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنَّ حِينَئِذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ، فَإِذَا أَقْبَلَ الْفَيْءُ فَصَلِّ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ مَشْهُودَةٌ مَحْضُورَةٌ حَتَّى تُصَلِّيَ الْعَصْرَ، ثُمَّ أَقْصِرْ عَنِ الصَّلَاةِ حَتَّى تَغْرُبَ الشَّمْسُ فَإِنَّهَا تَغْرُبُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ وَحِينَئِذٍ يَسْجُدُ لَهَا الْكُفَّارُ» [مسلم ٨٣٢].

وللحديث بقية،
والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الزمر

الحلقة الخامسة

قال تعالى: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ » [الزمر٢٣- ٣٥].

إعداد / د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده..

أثر القرآن في قلوب المؤمنين:

ولما ذم اللهُ تعالى القاسية قلوبهم من ذكر الله، أتبعه بمدح الذكر، ومدح الذين تطمئن قلوبهم به، فقال تعالى: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ »:

«اللهُ» الذي لا إله إلا هو، الحي القيوم، هو الذي «نزل» على التدريج للتيسير، وللجواب عن الشبهات، وحل المشكلات، «أحْسن الْحَدِيثِ» وهو هذا القرآن الكريم:

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أنزل الله القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا! فأنزل الله: «الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ » [يوسف: ١- ٣]، فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم زمانًا، فقالوا: يا رسول الله لو حدثتنا! فأنزل الله تعالى: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا » الآية [الحاكم (٢/ ٣٤٥)، وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي].

فمن أراد القصة فالقرآن يكفيه، ومن أراد الحديث فالقرآن يكفيه، ومن لم يكتفِ بالقرآن فلا كفاه الله.

وقوله تعالى: «كتابًا» بدل من «أحْسن الْحَدِيثِ» أو حال منه، «مُتشابِهًا» أي يشبه بعضه بعضًا في الفصاحة والبلاغة والقوة، قوة المباني والمعاني،

لا تفاوت فيه أصلًا في لفظ ولا معنى، مع كونه نزل مفرقًا في نيف وعشرين سنة، وهو دليل واضح على كونه من عند الله، «ولوْ كان مِنْ عِنْدِ غيْرِ الله لوجدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كثِيرًا» [النساء].

وقوله تعالى: «مثاني» جمع مثنى، من التثنية، بمعنى التكرير، أي تثنى فيه القصص والمواعظ والأحكام والحكم، مختلفة البيان في وجوه من الحكم، متفاوتة الطرق في وضوح الدلالات، من غير اختلاف أصلًا في أصل المعنى، كالقصص والأخبار، والأوامر والنواهي، ومع التكرير لا تمله الآذان، ولا تنفر منه القلوب، وإنما «تقشعر منْهُ جُلُودُ الذين يخْشوْن ربهُمْ ثم تلِينُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله»: تقشعر منه الجلود عند سماع آيات الوعيد، ثم تطمئن عند سماع آيات الوعد، ولذلك ترى الله عز وجل دائمًا يجمع بين الوعد والوعيد، ترغيبًا وترهيبًا، فهو يذكر صفات العزة والكبرياء التي توجب الخوف والحذر، ثم يذكر صفات الرأفة والرحمة التي توجب الرجاء والطمع، ويذكر ألوان العذاب، ثم يذكر ألوان النعيم. قال تعالى: « إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: «نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ» [الحجر: ٤٩- ٥٠]. وقال تعالى: «إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا» [النبأ: ٢١- ٣٦]. وقال تعالى: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ» [الحاقة: ١٩- ٣٧].

ومثل هذا كثير في القرآن الكريم.

ولما ذم الله تعالى القاسية قلوبهم من ذكر الله، ومدح الذين تطمئن قلوبهم بذكره، بين سبحانه أنه هو الذي يهدي من يشاء، فقال: « ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ»، فالله تعالى يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلًا، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلًا، كما قال تعالى: «مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ» [الأنعام: ٣٩]، وقد بين ربنا سبحانه صفات الذين يضلهم، فقال: « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ» [البقرة: ٢٦- ٢٧].

أما قوله تعالى: « أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ» فإن الله تعالى حكم على القاسية قلوبهم بحُكم في الدنيا وبحُكم في الآخرة، أما حكمهم في الدنيا فهو الضلالُ التام، كما قال: «وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ». وأما حكمهم في الآخرة فهو العذاب الشديد، وهو المراد من قوله: « أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ»، وتقريره: أن أشرف الأعضاء هو الوجه؛ لأنه محل الحسن والصباحة، وهو أيضا صومعة الحواس، وإنما يتميز بعض الناس عن بعض بسبب الوجه، وأثر السعادة والشقاوة لا يظهر إلا في الوجه، كما قال تعالى: « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ» [عبس: ٣٨- ٤٢]، فلما كان الوجه أشرف أعضاء الإنسان جرت العادة بأن الإنسان إذا رأى ما يخاف ضرره دفع بأعضائه عن وجهه، فإذا أُلْقِي الكافر الضال في النار يوم القيامة فاتقى النار بوجهه، دل ذلك على عجزه التام عن الدفاع عن وجهه، وعن غيره من باب أولى، وذلك لأنه يُلْقى في النار مغلولةً يداه إلى عنقه. [التفسير الكبير(٢٦/ ٢٧٤و٢٧٥)] ولذلك قال الله تعالى: « وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ

وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ » [الأنبياء: ٣٨- ٤٠].

وجواب السؤال محذوف، تقديره: «أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » كمن هو آمن يوم القيامة؟! كما قال تعالى: «أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » [فصلت: ٤٠]؟!

«وقيل للظالمين» الذين تركوا الهدى، واتبعوا الهوى، فضلوا وأضلوا، «ذُوقُوا ما» أي جزاء ما «كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» أي تعدونه فائدة ومنفعة، وهذا من باب التهكم والسخرية، كما قال تعالى في وصف عذاب الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله، ولم يؤدوا زكاته: «وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ » [التوبة: ٣٤- ٣٥].

وجوب الاعتبار بوحدة مصير المكذبين:

ولما ذكرهم بما أعد لهم من عذاب الآخرة وكانوا بها كافرين، لا جرم خوفهم من عذاب الدنيا، وأرشدهم إلى ما أصاب الذين من قبلهم، لعلهم يتقون، فقال تعالى: «كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ »: «قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » [التوبة: ٧٠]، «فَأَنَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ »: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » [العنكبوت: ٤٠]، «فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »، «فَٱعْتَبِرُوا يَٰٓأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ » [الحشر: ٢]، واحذروا «أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ » [هود: ٨٩- ٩٠].

الحكمة من ضرب الأمثال في القرآن:

يخبر الله تعالى أنه ضرب للناس في هذا القرآن من جميع الأمثال: أمثال المؤمنين أتباع الحق، وأمثال الكافرين أتباع الباطل، وأمثال أهل التوحيد، وأمثال أهل الشرك، وأمثال أهل الخير، وأمثال أهل الشر، ومن كل مثل تتضح به الحقائق وتتقرر، «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» عندما تتجلى لهم الحقائق فيتركون الباطل، ويتبعون الحق. «قُرْآنًا» منصوب على الحال من اسم الإشارة المبين بالقرآن، «عَرَبِيًّا» نعت للقرآن، «غَيْرَ ذِي عِوَجٍ» أي ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته، كما قال تعالى: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا » [الكهف: ١- ٢]، «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» اللهَ تعالى، فيؤمنوا به وملائكته وكتبه ورسله، ويطيعون الله ورسوله.

وإنما قال الله تعالى في الآية السابقة: «لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ»، وقال في هذه: «لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» لأن التذكر متقدم على الاتقاء، لأنه إذا تذكره وعرفه، ووقف على فحواه، وأحاط بمعناه، حصل الاتقاء والاحتراز.

مثل الموحد والمشرك:

«ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »:

فمثل المشرك كمثل عبد مملوك لأكثر من واحد،فهم شركاء فيه، وكل له حق عليه، ثم إنهم مختلفون غير متفقين، وكل منهم يأمره وينهاه في وقت واحد، فلا يستطيع طاعتهم، وإذا كانت له حاجة عندهم لم يقضوها ولا واحدٌ منهم، بل يردُّهُ الأول إلى الثاني، ويرده الثاني إلى الثالث، وهكذا،فلا تُقضى حوائجُه أبدا.

ومثل الموحد كمثل عبد مملوك لمالك واحد، هَيّن لَيّن، سمح كريم، لا يكلف العبد فوق طاقته، ولا يبخل عليه إذا سأله.

فهل يستوي هذان العبدان؟! لا يستوون. وكذلك لا يستوي المشرك والموحد، فالمشرك مُوَزَّعُ القلب، مُشتّتُ الشمل، بَيْنَ الآلهة التي اتخذها، وهي لا تُسمن ولا تُغني من جوع، ولا تجلب له نفعًا، ولا تدفع عنه ضرًا. وأما الموحد الذي يعبد الله وحده، فقد جمع الله شمله، فلا يلجأ إلا إليه، ولا يخشى غيره، ولا يرجو سواه، وهو سبحانه يقبل منه القليل من العمل، ويغفر له الكثير من الزلل، وإذا سأله أعطاه، وإذا دعاه أجابه.

«ضَرَبَ اللَّهُ» على هذا البيان، و«الْحَمْدُ للَّه» الذي جعلنا عبيدا له وحده، و «الْحَمْدُ للَّه» الذي جعلنا مسلمين. ولكن أكثر الناس لا يعلمون فلا يؤمنون. «ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ » [غافر: ٧٠- ٧٦].

جزاء المشركين والموحدين:

لقد كانوا يتربصون بالنبي صلى الله عليه وسلم ريب المنون، ويقولون: إنه شاعر، سيموت كما مات مَنْ قبله من الشعراء، فقال الله تعالى لهم: إذا مات محمد، وهو ميت لا محالة، فلا شماتة، لأنه سيموت وستموتون أنتم أيضًا، «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» فلا شماتة إذن إذا متّ، «وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ » [الأنبياء: ٣٤- ٣٥].

«ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ» فيما كنتم فيه تختلفون، المؤمنون والكافرون، والموحدون والمشركون، والمظلومون والظالمون، قال تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ » [الحج: ١٧].

عَنْ جُنْدَب رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يَجِيءُ الْمَقْتُولُ بِقَاتِلِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي؟ فَيَقُولُ: قَتَلْتُهُ عَلَى مُلْكِ فُلَانٍ». قَالَ جُنْدَبٌ فَاتَّقُوهَا. [سنن النسائي ٤٠٠٩ وصححه الألباني].

«فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ» أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فزعم أن له زوجة أو ولدًا أو شريكًا، «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ » [الأنعام: ٩٣]، ولا أحد أظلم ممن كذب بالصدق الذي جاءه على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم «وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ » [الرعد: ٥]، ولذلك قال: «أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ » المثوى: المقام، وهو مشتق من: ثوى بالمكان، إذا أقام به.

«فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ » [غافر: ٧٦].

وعلى طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب، وجزاء المسيئين والمحسنين، والكافرين والمؤمنين، لما ذكر الله تعالى جزاء الظالمين المكذبين، أتبعه بذكر المؤمنين الصادقين، فقال تعالى: « والذي جاء بالصِّدْقِ وَصَدَّقَ به أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ»: «الذي» اسم موصول للمفرد، والمراد به الجمع، وكثيرًا ما يجيء في القرآن، فالمراد كل من آمن بالله ودعا إلى الإيمان به، وأول من يدخل في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعون، «أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ». وهذه الآية مجملة، وقد فصّلها ربُّنا سبحانه في قوله: «لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ [البقرة: ١٧٧].

«لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ» مما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، «ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ»، الذين آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين، «لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ»: وهذا من باب: «إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا » [النساء: ٣١]، ومن باب: «ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ » [النجم: ٣٢]، فالمتقون المحسنون، يغفر الله لهم زلّاتهم، ويُكفّر عنهم سيئاتهم، «فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۚ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » [الحجرات: ٨]، «إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ » [فاطر: ٣٠].

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

الحلقة السادسة

تفسير سورة الزمر

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده..

حسبنا الله ونعم الوكيل:

لقد كان المشركون يُخَوِّفُونَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم من آلهتهم أن تمسَّهُ بسوء، إن لم ينته عن سبِّها وذمِّهم على عبادتها، فقال الله تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ): السؤال للتقرير: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)؟ بلى. فكيف (يُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)؟! (وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) [الفرقان: ٣]. وكان هذا ديدن المشركين، يُخَوِّفُونَ رُسُلَ الله من آلهتهم أن تصيبَهم بسوء، فعلوا ذلك مع إبراهيم صلى الله عليه وسلم فقال: (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) [الأنعام: ٨١]، وفعلوا ذلك مع هودٍ صلى الله

قال الله تعالى: « أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ »

[الزمر: ٣٦- ٤٥].

عليه وسلم: (قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [هود: ٥٣- ٥٦].

وَوَرِثَ عُبَّادُ القبور هذا الخوفَ فخافوا أهلَ القبور وخوفوا بهم، فما نزال نسمع من يُحَذِّرُ دُعَاةَ التوحيد من أصحاب القبور أن تمسَّهم بسوء، فإن قال قائل: لا تدعوا أولياءَ الله الصالحين من دون الله، ولا تنذروا لهم، ولا تذبحوا، قال قائلهم: انْتَهِ عن قولك، فإن أولياء الله ينتقمون ممَّنْ عاداهم، ونحو ذلك من السفه، الذي ورثه هؤلاء القبوريون عن المشركين، (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ)؟ بلى! فهو العزيز الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلَب، وهوَ القاهر الذي يَقْهَرُ ولا يُقْهَر، وهو المنتقم ممن كذب رسله وخالف أمره، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: (فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ) [الزخرف: ٥٥- ٥٦].

دلائل التوحيد:

(وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ):

يقيم اللهُ تعالى الْحُجَّةَ على المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء، يعبدونهم كما يعبدون الله، وهم معترفون أن أولياءهم (لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ) [الأعراف: ١٩١- ١٩٢]، (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) [الفرقان: ٣]، (قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) [الرعد: ١٦]، فالذي يجب أن يُعْبَدَ هو الله وحده لا شريك له، لأنه (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) [الشعراء: ٧٨- ٨٣]، فالخلق والرزق، والنفع والضر، والعطاء والمنع، من دلائل وجوب إفراد الله بالعبادة، قال تعالى: (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) [الأنعام: ١٤- ١٨]، وقال تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِن خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ) [فاطر: ١- ٣].

فلما أقام الحجة على بطلان ألوهية الأصنام والأوثان، وأثبتها لله الواحد الدَّيَّان، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: (قل حسبي الله)

أي: قل لهم بعد ما تبيَّن الدليل القاطع على أنه وحده المعبود، وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق والضر، قل مُسْتَجْلِبًا كفايته ومستمطرًا رحمته مُسْتَدْفِعًا مكرَهم وكيدَهم: (قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون): أي عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم، فالذي بيده وحده الكفاية هو حسبي، سيكفيني ما أهمَّني، وما لا أهتمُّ به [تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٤٧٤)] لأنه قاله وقولُهُ الحق: (وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) [الطلاق: ٣].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ صلى الله عليه وسلم حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم حِينَ قَالُوا (إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) [آل عمران: ١٧٣] [أخرجه البخاري ٤٥٣٦].

ولما قامت عليهم الحجة وأصروا واستكبروا استكبارًا، أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتبرأ منهم ومما يعبدون من دون الله، فقال: (قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ): أي اعملوا على طريقتكم، وعلى مِلَّتِكم التي اخترتموها، فإني عامل على طريقتي ومِلَّتي التي هداني ربي إليها، كما سبق في أول

السورة: (قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ) [الزمر: ١١- ١٥]، (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) عاقبة ما اخترتموه لأنفسكم وآثرتموه، كما قال تعالى: (وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ) [الرعد: ٤٢]، وقال تعالى: (وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ) [الشعراء: ٢٢٧].

(فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ)، وقد حلَّ بهم العذاب يوم بدر، فقُتل منهم سبعون، وأُسر سبعون، (فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ) [الزمر: ٢٦].

اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم:

(إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ): يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: إنا أنزلنا إليك الكتاب للناس أي من أجلهم: (يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [المائدة: ١٦]، كما قال تعالى: (كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ) [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: (هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) [الحديد: ٩].

(فَمَنِ اهْتَدَى) بهدي القرآن (لِنَفْسِهِ) أي فإنما نَفْعُ ذلك له، (وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)، ولا يضر اللهَ شيئًا، فالله تعالى لا تنفعه الطاعة، ولا تضره المعصية، كما قال تعالى: (إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ) [الزمر: ٧]، وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: (يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي) [أخرجه البخاري ٢٥٧٧].

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)، وما أنت عليهم بحفيظ، وما أنت عليهم بمصيطر، (وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) [يوسف: ١٠٣]، و(لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ) [البقرة: ٢٧٢]، يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلاً، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلا، (فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) [الأنعام: ١٢٥].

دلائل البعث:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)، فذكر الله تعالى الموتتين: الكبرى وهي الوفاة، والصغرى وهي النوم، وفي الأنعام ذكر الصغرى أولًا ثم الكبرى، فقال تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ) [الأنعام: ٦٠- ٦٢].

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)، (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا) [آل عمران: ١٤٥]، (فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) [الأعراف: ٣٤]، (وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا) أي اللهُ يَتَوَفَّى الأنفسَ التي لم ينته أجلُها بالليل في منامها، فالنوم وفاة، والنوم موت، (فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ) في هذه الليلة، (وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) لتستوفي أجلها.

وهكذا سمَّى اللهُ تعالى النوم وفاةً، وسمَّى اليقظةَ بَعْثًا، ولذلك كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنَامَ قَالَ: (بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا). وَإِذَا اسْتَيْقَظَ مِنْ مَنَامِهِ قَالَ: (الْحَمْدُ لله الذي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ) [أخرجه البخاري ٦٣١٢].

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) فيعلمون أن اللهَ الذي يبعثهم من نومهم قادرٌ على أن

يبعثهم بعد موتهم.

من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه:

ثم يُنْكِرُ اللهُ تعالى على المشركين اتخاذَهم شفعاءَ من دونه، فيقول: (أم اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ)؟! وهي الأصنامَ والأوثان التي عبدوها من دون الله، كما قال تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ) [يونس: ١٨]، (قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ) أي: قل لهم يا نبينا: أتعبدونهم وهم فقراء لا يملكون شيئًا، ولا يعقلون شيئًا؟! وهل يصلح الفقير أن يُعبَد؟! كيف والأصل في العابد أنه يعبد معبودَه طمعًا فيما عنده، ويشترط في هذا المعبود أن يكون متصفًا بصفات الكمال التي بها يعرف من يعبده، ويعرف حاجته منه، ويكون قادرًا على قضائها وتحقيقها، فهل تصرون على عبادتهم وهذا حالهم: (لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ)؟! (قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا)، فهو الذي يملكها دون غيره، لأن (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)، وكُلُّ من فيهما مملوك له، (كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ) [البقرة: ١١٦]، (ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فرادى كما خَلقكم، (لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ) [البقرة: ٤٨]، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ) [الأنعام: ٩٤].

فالشفاعة لله وحده، يأذن فيها لمن يشاء إكرامًا له وإظهارًا لفضله، وَيُعَيِّنُ له من يشفع فيهم رحمة بهم، فلا يشفع أحد عند الله بغير إذنه، ولا يشفع إلا فيمن يشاء، قال تعالى: (مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ) [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: (وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ) [النجم: ٢٦]، وقال تعالى: (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ) [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: (وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ) [سبا: ٢٣].

نفور المشركين من التوحيد واستبشارهم بالشرك كان سبب هلاكهم:

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ):

لقد أُشربتْ قلوبهم الشرك، فإذا قيل لهم لا إله إلا الله: (لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ) [المنافقون: ٥]، كما قال تعالى: (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا) [الإسراء: ٤٦]، (وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) يعني أنهم يفرحون ويسرون حين يدعو داعي الشرك إلى عبادة الأصنام من دون الله، (إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) [غافر: ٧٠- ٧٦]، (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ) [فاطر: ٣٧]، قال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ) [غافر: ١٠- ١٢]، يعني وقد حكم وقضى أنكم منها لا تخرجون.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

الحلقة السابعة

تفسير سورة الزمر

« قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ عَٰلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »

[الزمر: ٤٦ - ٥٣].

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد:

قال رب احكم بالحق:

لما ذكر الله تعالى أن المشركين يشمئزون عند سماع التوحيد، ويستبشرون عند سماع الشرك، أمر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعو ربه بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، أن يحكم بينه وبينهم فيما هم فيه يختلفون، فقال تعالى: «قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»: أي: «قل» يا نبينا «اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» أي منشئوهما على غير مثال سابق، «عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» أي الذي يعلم ما يغيب عن العباد وما يشهدونه، فلا شيء يغيب عن الله تعالى، كما قال تعالى: «وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» [يونس: ٦١]: أي: ما يغيب عن علمه، وسمعه، وبصره، ومشاهدته «مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ»، «أَنْتَ» وحدك «تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»، فاحكم بيني وبين قومي فيما يخالفونني فيه، كما قال تعالى: «قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ» [الأنبياء: ١١٢].

وأكبر اختلاف هو اختلاف المؤمنين والكافرين، والموحدين والمشركين، والله وحده هو الذي يُحِقّ الحق، ويُبطل الباطل، وهو وحده الذي يفصل بين المختلفين، كما قال تعالى: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ» [الأنعام: ٥٧].

وقد صرّح ربنا سبحانه بالفصل بين أهل التوحيد وغيرهم من أهل الشرك، فقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ

يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» [الحج: ١٧]، وبيَّن نتيجة الفصل فقال: «هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ» [الحج: ١٩- ٢٤].

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يصلي استفتح بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [صحيح مسلم ح٧٧٠].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ! مُرْنِي بِشَيْءٍ أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ. قَالَ: «قُلِ اللَّهُمَّ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ. قَالَ: قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ». [صحيح سنن الترمذي للألباني ح٣٣٩٢]

لا فدية يوم القيامة:

ثم بيَّن الله تعالى أن الكافرين يتمنَّون يوم القيامة أن يفتدوا أنفسهم من عذاب الله بأي شيء، وأن الله تعالى لا يقبل منهم فدية، فقال تعالى: «وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا» وهم الكافرون، كما قال تعالى: «وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ» [البقرة: ٢٥٤]، «مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا» من قصور، وذهب، وفضة، وجنات، وعيون، «وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ولن يُقبَل منهم، كما قال تعالى: «يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ» [المعارج: ١١- ١٨]، وقال تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ» [آل عمران: ٩١]، وقال تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ» [المائدة: ٣٦- ٣٧].

«وَبَدَا لَهُمْ» أي ظهر لهم «مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ»، فقد كانوا يحسبون أن أعمالهم حسنة، فإذا بها سيئة، وقد كانوا يظنون أن أعمالهم مقبولة، فإذا هي مردودة، وقد كانوا يحسبون أنهم أهل الجنة، فإذا هم يُساقون إلى النار.

وقد رُوِيَ عن بعض السلف أنه لما حضرته الوفاة بكى، فقيل له: ما يُبكيك؟ فتلا هذه الآية، وقال: أخاف أن يبدو لي من الله ما لم أحتسب.

«وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا»: قالوا: المراد بالسيئات هنا جزاؤها لا السيئات نفسها، فإن جزاء السيئة يسمَّى سيئة، كما قال تعالى: «وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا» [الشورى: ٤٠]، «وَحَاقَ بِهِمْ» أي: أحاط بهم «مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» في الدنيا؛ حيث كانوا يُخوَّفون فلا يَخافون، كما قال تعالى: «وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۗ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا» [الإسراء: ٦٠].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه «وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ» قَالَ: هِيَ رُؤْيَا عَيْنٍ أُرِيَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِهِ «وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ» شَجَرَةُ الزَّقُّومِ. [صحيح البخاري ح٤٧١٦].

وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: قال المشركون: يخبرنا محمد أن في النار شجرة، والنار تأكل الشجر. فكان ذلك فتنة لهم.

وعن ابن عباس وغيره: قال أبو جهل: هاتوا لنا تمرا وزُبْدًا، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول: تزقموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا. [تفسير ابن كثير ٣/٤٨].

ومن شدّة تكذيبهم واستهزائهم سألوا اللهَ أن يُعَجِّل لهم العذاب، «وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ» [ص: ١٦]، «وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» [الأنفال: ٣٢].

فيوم القيامة يُساقون إلى النار، ثم يُوَبَّخُونَ على تكذيبهم واستهزائهم، كما قال تعالى: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» [الطور: ١١- ١٦]، وقال تعالى: «وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ» [السجدة: ٢٠]، وقال تعالى: «إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ» [الدخان: ٤٣- ٥٠]، وقال تعالى: «وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ» [المطففين: ١٠- ١٧].

حال الإنسان في السّراء والضّراء:

ثم يُخبر الله تعالى عن حال كثير من الناس في السراء والضراء، وأنهم ينسونه في السراء، ويلجئون إليه في الضراء، فقال تعالى: «فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا» لعلمه أنه لا يكشف الضر إلاّ الله، «ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا» أي تفضلنا بها عليه، من غير استحقاق له علينا، «قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ»: يريد: إن الله يعلم أنني أستحق هذه النعمة، أو: أوتيتُه على علم عندي، وبسبب خبرتي، لا بفضل الله، فكذبه الله فيما قال، وصحّح له المفاهيم الخاطئة، فقال: «بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»، كما قال تعالى: «إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ» [التغابن: ١٥]، وقال تعالى: «وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً» [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: «وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ» [طه: ١٣١]، وقال تعالى: «وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ» [الجن: ١٦- ١٧].

فهذه هي الحكمة من العطاء، وهذا هو السِّرُّ في السراء، فمن أبصر وعلم أن الله ابتلاه بما أعطاه، ليعلم أيَشْكُرُ أم يكفر، فَحَمِدَ اللهَ وشكره، زاده الله من فضله، ومن عَمِيَ، و «قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ» فلا يلومنّ إلا نفسه، إذا زالت النعمة من عنده، قال تعالى: «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» [إبراهيم: ٧]. وقصّ الله علينا في القرآن الكريم من القصص ما فيه عبرة لمن اعتبر، قال تعالى: «إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ» [القصص: ٧٦- ٨٢].

وقص علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فيه عبرة لمن اعتبر، ولذلك قال الله تعالى: «قَدْ قَالَهَا» يعني كلمة «إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ»، «الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» كقارون، والثلاثة من بني إسرائيل، «فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ» من الأموال والأولاد، «فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا» كما حكى

الله تعالى عن قارون، «فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ»، «وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلاَءِ» المعاصرين، وقالوا كما قال المفتونون السابقون، « سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » [الأحزاب: ٦٢]؛ لأن الله تعالى لا يُجامل ولا يُحابي، «وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ» اللهَ سبحانه، ولا فارِّينَ من عذابه، كما صح عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، قَالَ ثُمَّ قَرَأَ «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» [البخاري ح٤٦٨٦].

«أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» وفق الحكمة القائمة على العلم، فَيُوَسِّعُ على من يشاء ولو كان كافرًا، ويُضَيِّقُ على من يشاء ولو كان مؤمنًا؛ لأن الدنيا لا قيمة لها عند الله، فعن المستورد بن شداد قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على السخلة الميتة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها؟ قالوا: من هوانها ألقوها يا رسول الله. قال: فالدنيا أهون على الله من هذه على أهلها. (سنن الترمذي ح٢٣٢١ وصححه الألباني)، بل إن الله تعالى قال: « وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » [الزخرف: ٣٣- ٣٥].

«إِنَّ فِي ذَلِكَ» البسط والقبض، والتوسعة والتضييق، «لَآيَاتٍ» ولكن «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ»، فالمؤمنون دون غيرهم، هُمُ الذين يتفكرون ويتذكرون، ويبصرون ويعتبرون، وأما غيرهم فهم كما قال الله تعالى: « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ » [البقرة: ١٨]، «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا » [الأعراف: ١٧٩]، « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ » [الأعراف: ١٤٦].

لا تقنطوا من رحمة الله:

«قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ»:

هذا ترغيب من الله تعالى لعباده في التوبة مهما كثرت ذنوبهم، فالله يغفر الذنوب جميعًا، وليس هناك ذنب لا يغفره لمن استغفر منه، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ كَانُوا قَدْ قَتَلُوا وَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا وَأَكْثَرُوا، فَأَتَوْا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً، فَنَزَلَ «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ» وَنَزَلَتْ «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» [صحيح البخاري ح٤٨١٠].

فلا يأس من روح الله، ولا قنوط من رحمته، فعن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم» [صحيح مسلم ح٢٧٤٩]، والله تعالى يعذب الذين يُقَنِّطونَ عبادَه من رحمته، فعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول أقصر فوجده يومًا على ذنب، فقال له: أقصر فقال خلني وربي أبعثت عليَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد أكنت بي عالمًا؟ أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار، قال أبو هريرة والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت (أهلكت) دنياه وآخرته. [سنن أبي داود ح٤٩٠١ وصححه الألباني].

وللحديث بقية إن شاء الله.

تفسير سورة الزمر

الحلقة الثامنة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

« وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ »

[الزمر: ٥٤ - ٦٤].

بادروا بالتوبة قبل أن يُغلق بابُها:

فلا يأس ولا قنوط، ولكنْ المبادرةَ المبادرة، واغتنامَ الفرصة والبابُ مفتوح؛ لأنه سيأتي على باب التوبة ساعة يُغلق فيها، وهذه الساعة ساعتان: ساعة خاصة، وساعة عامة، فأما الخاصة فهي ساعة الغرغرة، فإذا بلغت الروحُ الحلقوم، وغرغر الميت أُغْلِقَ في وجهه باب التوبة، فعن ابن عمر: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» [سنن الترمذي ح٣٥٣٧ وحسنه الألباني].

ولذلك قال الله تعالى: « إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ

يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» [النساء: ١٧- ١٨]، وقال تعالى: «وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ» [يونس: ٩٠- ٩٢]، وقال تعالى: «فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ» [غافر: ٨٤- ٨٥].

وأما الساعة العامة التي يُغلق فيها باب التوبة فهي آخر الدنيا، حين تطلع الشمس من مغربها، كما قال تعالى: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ» [الأنعام: ١٥٨]، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، وَذَلِكَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا، ثُمَّ قَرَأَ الْآيَةَ [صحيح البخاري ح٤٦٣٦].

لذلك حثَّ اللهُ تعالى عباده على المبادرة بالتوبة، فقال بعد أن نهى عن القنوط من رحمته:

«وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ»، فمن استجاب وأناب فقد فاز ونجا، ومن غرَّته الحياة الدنيا، وَغرَّهُ طولُ الأمل، ولم يَفِقْ إلا في سكرات الموت، فسيندم أشدَّ الندم، ولن ينفعه الندم، ولذلك قال الله تعالى مُعَلِّلًا الأمر بالمبادرة: «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ» أي بادروا بالتوبة والإنابة، والإسلام والاتباع والإحسان؛ لئلا تقول نفسٌ فرَّطتُ وَقصَّرتُ إذا جاءها الموتُ بغتةً: «يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ»، فلم يكفه أن يُقصِّرَ في حق الله، ويُفرِّط في طاعته، حتى كان يسخر من الذين يُطيعون اللهَ ويدعونه خوفًا وطمعًا، كما قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ» [المطففين: ٢٩- ٣٣].

«أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ».

وحاصل الكلام أن هذا المُقصِّرَ أتى بثلاثة أشياء:

أولها: الحسرة على التفريط في الطاعة.

وثانيها: التَّعلُّلُ بفقد الهداية.

وثالثها: تَمنِّي الرجعة.

ثم أجاب اللهُ تعالى عن كلامهم بأن قال: التَّعلُّل بفقد الهداية باطل؛ لأنَّ الهداية كانت حاضرة، والأعذار زائلة، وهو المراد بقوله تعالى: «بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ» [التفسير الكبير(٢٧/٧)]، و«ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ» [الحج: ١٠].

فيا من يريد النجاة (اغتنم حياتك قبل موتك....). وتزود:

تزود من التقوى فإنك لا تدري
إذا جنَّ ليلٌ هل تعيش إلى الفجرِ
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا

وقد نُسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من صغار يُرتجى طول عمرهم
وقد أدخلت أجسامهم ظلمة القبر
وكم من عروس زيّنوها لزوجها
وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صحيح مات من غير علة
وكم من عليل عاش حينًا من الدهر

قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ» [الحشر: ١٨- ٢٠].

أحوال الناس يوم القيامة:

تقدم في السورة بيان أن الكذب على الله ظلم، وكذلك التكذيب بآياته، كما قال تعالى: «فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ» ويصف الله وجوه الذين كذبوا على الله يوم يلقونه، فيقول تعالى: «وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ»: ويدخل في الكذب على الله قول من قال: إن لله ولدًا، وقول من قال: إن لله شريكًا، وقول من قال أوحي إليّ ولم يوح إليه شيء، ويدخل في الكذب على الله قول: هذا حلال وهذا حرام بلا هدى ولا كتاب منير.

والله تعالى يتوعدهم بسواد وجوههم يوم القيامة، وهو دليل خزيهم وعذابهم، كما أن بياض الوجه عنوان النجاة والفوز، كما قال تعالى: «يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ» [آل عمران: ١٠٦- ١٠٧]، ولذلك قال الله تعالى بعد ما أخبر بسواد وجوههم: «أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ»: الذين استكبروا عن عبادة الله، واستكبروا عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال تعالى: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: «لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا» [النساء: ١٧٢- ١٧٣].

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» (مسلم ٩١)، وفي وصفهم بالمتكبرين إيماء إلى أن عقابهم بتسويد وجوههم كان مناسبًا لكبريائهم؛ لأن المتكبر إذا كان سيء الوجه انكسر كبرياؤه؛ لأن الكبرياء تضعف بمقدار شعور صاحبها بمعرفة الناس نقائصه. [التحرير والتنوير٥١ / ٢٣)].

«وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ»: أي وينجي الله من جهنم وعذابها الذين اتقوا كل ما حرّم الله فلم يفعلوه، واتقوا ترك ما فرض عليهم فلم يضيّعوه، فجماع التقوى فعل الواجبات وترك المحرمات، ينجيهم الله بمفازتهم أي بالحسنى التي سبقت لهم من الله، وبأعمالهم الصالحة التي عملوها، «لاَ يَمَسُّهُمُ السُّوءُ» أي العذاب، «وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» ولكنهم فرحون بما آتاهم الله من فضله، وقد استشعروا هذا الفضل، وحمدوا الله عليه، كما قال تعالى: «وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ» [فاطر: ٣٤- ٣٥].

دلائل التوحيد:

«الله خالق كل شيء»:

فكل شيء من خلق الله، وكل شيء مخلوق مربوب مملوك لله، ومن الأشياء أعمال العباد، فهي خلق الله وكسب من العباد، كما قال تعالى: « وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » [الصافات: ٩٦].

«وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ» ورقيب وحفيظ، والوكالة تستلزم العلم التام، والقدرة التامة، فالذي يُوَكَّل في شيء يجب أن يكون عالمًا به، قادرًا عليه، ولذلك جمع الله تعالى بين العلم والقدرة في قوله: « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا »[الطلاق: ١٢].

«له مقاليد السماوات والأرض»:

المقاليد جمع مِقْليد، والمقليد المفتاح، والمعنى: له سبحانه وعنده وبيده مفاتيح السموات والأرض؛ لأنه سبحانه قال: « وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ » [الحجر: ٢١]، فإذا كانت الخزائن كلها عنده، كانت المفاتيح عنده، فلا تفتح الخزائن إلا بإذنه، كما قال تعالى: « مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » [فاطر: ٢].

فهذه الآيات كل آية منها تشهد لله بالوحدانية، «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»، «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ»، «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»، ومع ذلك أبى أكثر الناس إلا كفورًا، فحكم الله تعالى عليهم بالخسران، فقال: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ»؛ لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة.

ثم لم يكفهم أن كفروا بآيات الله حتى دعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكفر، فقال الله تعالى له: «قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ» بعد ما سمعتم وشهدتم من آيات التوحيد ما سبق ذكره؟!

كيف تدعونني إلى عبادة غير الله، و «اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»، « وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ » [النحل: ٢٠]، « أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » [النحل: ١٧]؟!

كيف تدعونني إلى عبادة غير الله، «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ»، « وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ » [النحل: ٢٠-٢١]، والميت لا يُوَكَّل، ولا يُتَوَكَّل عليه؟!

كيف تدعونني إلى عبادة غير الله، والله «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»، «وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ » [فاطر: ١٣]؟!

فالذي يستحق العبادة هو الله، «ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ » [الأعلى: ٢- ٥]، ولذلك قال الله تعالى: « ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » [الروم: ٤٠]، وقال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » [البقرة: ٢١- ٢٢].

فلا يدعوا إلى عبادة غير الله إلا الجاهلون، الذين لم يعرفوا الله، ولم يقدروه حق قدره، ولذلك لما قال بنو إسرائيل لموسى: «اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » [الأعراف: ١٣٨].

نسأل الله تعالى أن يثبتنا على كلمة التوحيد ، وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الزمر

الحلقة التاسعة

«وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾». [الزمر: ٦٥- ٧٥]

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

تفسير الآيات

قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ »، يعني بالذين مِنْ قبله مَنْ سمّاهم اللهُ تعالى من الأنبياء في سورة الأنعام، في قوله: «وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ »[الأنعام: ٨٣]، إلى أن قال: «ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » [الأنعام: ٨٨]. فالشرك الأكبر، وهو اتخاذ الأنداد آلهةً من دون الله يُحبط الأعمال، ويُبطل الأجرَ والثواب، «فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » [الكهف: ١١٠]، فإن الله قال: «بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ »: أي لا تشرك بالله شيئًا، «وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ »:أي المؤمنين الموحدين، «وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » [القصص: ٨٧- ٨٨].

مذهب السلف في الأسماء والصفات:

«وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ » وما عرفوه حقّ معرفته، وما عظّموه حقّ تعظيمه، حين دعوا رسول الله إلى عبادة غير الله، ولو قدروه حقّ قدره لعلموا أنه

لا إله إلا هو. « وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ»: عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟" [صحيح البخاري (٤٨١١) ومسلم (٢٧٨٨)].

وما ذكر في الآية والأحاديث من هذه الصفات: القبضة، واليمين، والشمال، والأصابع، مذهب السلف فيها: إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل، وقوفًا عند قوله تعالى: « لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ »[الشورى: ١١]، فأول الآية ردٌ على المُشبِّهة، وآخرها ردٌ على المعطِّلة، وسبيل الحق بينهما لأهل السُّنة: إثباتٌ بلا تشبيه، وتنزيهٌ بلا تعطيل.

وجملة« سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ »: إنشاءُ تنزيه لله تعالى عن إشراك المشركين له آلهة أخرى، وهو يؤكد جملة «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ».

أهوال يوم القيامة:

« وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ»:

الصور خلق عظيم مثل البوق، خلقه الله تعالى ووكل به ملكًا من الملائكة، هو إسرافيل عليه السلام، وأخبرنا الله في هذه الآية أن ذلك الملك سينفخ في ذلك الصور نفختين: الأولى للصعق والفناء، والثانية للبعث والإحياء.

وأخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن ذلك الملك أخذ أهبة الاستعداد للنفخ، ينتظر الأمر بالنفخ: فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا" [الترمذي (ح٢٤٣١) وصححه الألباني].

والنفخة الأولى ستُحْدِثُ في الكون انقلابًا هائلا، تشخص منه الأبصار، وتقشعر منه الأبدان، حتى إن كل إنسان يحاول الهرب والفرار.

قال تعالى: « فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ» [الحاقة: ١٣- ١٧].

وقال تعالى: « إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا» [الواقعة: ١- ٦].

وقال تعالى:« وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ» [النمل: ٨٧- ٨٨].

وقال تعالى: « فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ» [القيامة: ٧- ١٢].

فبالنفخة الأولى يفنى الخلائقُ أجمعون، كما قال تعالى: « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ » [الرحمن: ٢٦- ٢٧]، وقال تعالى: « كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [القصص: ٨٨].

أما قوله تعالى: « إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ» فقد اختلف المفسرون في المُسْتَثْنَيْن، والراجح السكوت عنهم؛ لأن الله تعالى لم يُعَيِّنْهم، ولم يصحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم حديث في تعيينهم. لكنهم يموتون.

وقوله تعالى: « ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ»: فهذه هي النفخة الثانية، نفخة الإحياء والبعث، وهي بعد النفخة الأولى بأربعين: عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ" قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالُوا: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنْ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجْبَ ذَنَبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ" [صحيح البخاري (ح٤٨١٤)].

فإذا مات الإنسان أكلت الأرض جسمه كلّه، إلا عَجْبَ الذَّنَب، فيحفظه اللهُ في الأرض، ومنه ينبت الإنسان يوم أن ينزل الله تعالى ذلك الماء من السماء، حتى إذا كان الناس تحت الأرض أجسادًا كاملة لا روح فيها، أحيا الله تعالى إسرافيل، وأمره بالنفخة الثانية، فإذا نفخها

تطايرت الأرواح، فدخلت كل روح جسدها الذي كانت تسكنه، لا تخطئ روحٌ جسدَها أبدًا، «فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ»، كما قال تعالى: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا» [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: «يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا» [النبأ: ١٨]

وقال تعالى: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ» [يس: ٥١- ٥٣].

عَنْ ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهما قَالَ: "قَامَ فِينَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ فَقَالَ: إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ» الْآيَةَ، وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُصَيْحَابِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ «وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ إِلَى قَوْلِهِ الْحَكِيمُ» قَالَ فَيُقَالُ إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ". [صحيح البخاري ح (٦٥٢٦)].

مجيء الرب سبحانه لفصل القضاء:

وبعد شفاعة سيد الأنبياء، يجيء الربُّ سبحانه لفصل القضاء، كيف يشاء، ولذلك قال: «وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا»: يعني حين جاء لفصل القضاء، كما قال تعالى: «كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا» [الفجر: ٢١- ٢٢]، والمجيء صفةٌ من صفات الأفعال، كالإتيان، والاستواء، والنزول، والقول فيها كالقول في صفات الذات: إثباتٌ بلا تشبيه، وتنزيهٌ بلا تعطيل، كما سبق بيانه قريبًا.

فإذا جاء الرب سبحانه وتجلى لعباده أخذتهم الصاعقة وغشي عليهم أجمعين: قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الْأُولَى" [صحيح البخاري (ح٢٤١٢)].

قال الحافظ ابن حجر: المراد بالصعق غشيٌ يلحق مَنْ سمع صوتًا أو رأى شيئًا يفزع منه. وقال عياض: يحتمل أن المراد بهذه الصعقة فزعٌ بعد النشر حين تنشق السموات والأرضون، ويؤيده أنه عبّر بقوله: "أفاق" لأنه إنما يقال: أفاق من الغشي، وبُعِثَ بعد الموت، وكذا عبّر عن صعقة الطور بالإفاقة؛ لأنها لم تكن موتًا بلا شك.

وقال ابن كثير: وقوله صلى الله عليه وسلم "أم جُوزي بصعقة الطور" يدل على أن هذا الصعق الذي يحصل للناس يوم القيامة سببه تجلّي الربّ تعالى لعباده لفصل القضاء، فيصعق الناس من العظمة والجلال، كما صعق موسى يوم الطور حين سأل الرؤية، «فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا» [الأعراف: ١٤٣]، فموسى عليه السلام يوم القيامة إذا صعق الناس إمّا أن يكون جُوزي بتلك الصعقة الأولى، فما صعق عند هذا التجلي، وإما أن يكون صعق صعقًا أخف من غيره فأفاق قبل الناس كلهم. والله أعلم.

«وَوُضِعَ الْكِتَابُ» أي كتاب الأعمال، الذي سجلت فيه الملائكةُ أعمالَ بني آدم، كما قال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ» [يس: ١٢]، وقال تعالى: «وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ» [القمر: ٥٢- ٥٣]، فإذا رآه الذين أسرفوا على أنفسهم صرخوا نادمين، كما قال رب العالمين: «وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» [الكهف: ٤٩].

«وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ»: والشهداء أُمّةُ محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» [البقرة: ١٤٣]، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، فَيَقُولُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ، فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ" [صحيح البخاري (٣٣٣٩)].

«وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ»، فقضاءُ الله بين عباده قضاءٌ قائم على علمه سبحانه بأعمال عباده، كما قال تعالى: «فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ

إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ » [الأعراف: ٦- ٧]، وقال تعالى: « وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ» [يونس: ٦١]، وقال تعالى: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » [المجادلة: ٦- ٧].

فإذا قضى الله بين عباده لم يبقَ إلا أن يلقى كلُّ عامل جزاء عمله، ولذلك قال تعالى:

«وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا» أي جماعة بعد جماعة، وفوجًا بعد فوج، «حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ» والمراد بكلمة العذاب قول الله تعالى: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ » [السجدة: ١٣].

«قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا» وأبواب جهنم سبعة، كما قال تعالى: « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ » [الحجر: ٤٣- ٤٤]، «فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ» عن عبادة الله، وعن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

«وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا» أي جماعة بعد جماعة، وفوجا بعد فوج. [التفسير الكبير ٢٣/٢٧].

قال الله تعالى: «يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا » [مريم: ٨٥- ٨٦].

«حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا» وأبواب الجنة ثمانية، كما في الحديث: "ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ (أو فيسبغ) الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبد الله ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء" [صحيح مسلم (٢٣٤)].

فإن قيل: لماذا قال عن أهل النار «حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا»، وقال عن أهل الجنة:«حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا»؟ يعني لماذا حذفت الواو في الأولى وأضيفت في الثانية.

فالجواب: أن هذا أبلغ في الموضعين، فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة، حتى إذا وصلوا إليها فتحت في وجوههم فيفجأهم العذاب بغتة، فحين انتهوا إليها فتحت في وجوههم بلا مهلة، فإن هذا شأن الجزاء المرتب على شرط، أن يكون عقيبه، فإنها دار الإهانة والخزي، فلم يستأذن لهم في دخولها، ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول.

وأما الجنة فإنها دار الله ودار كرامته، ومحل خواصه وأوليائه، فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابها مغلقة، فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم، ويستشفعون إليه، فإذا أذن لهم في دخولها بعد طول انتظار، وكثرة إلحاح، كان أبلغ وأعظم في تمام النعمة، وحصول الفرح والسرور. [حادي الأرواح، ص٥٠].

«وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ»: طابت قلوبكم بالعقيدة الطيبة، وطابت ألسنتكم بالكلم الطيب، وطابت جوارحكم بالأعمال الطيبة «فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» فيها أبدًا، «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ» لقد وعد الله عباده في الدنيا أن من أطاعه دخل الجنة، وها هو سبحانه قد وفى لهم بوعده فاستحق الحمد، وهو الغني الحميد، «فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» الذين آمنوا وعملوا الصالحات فكان أجرهم الجنة.

«وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»: قال قتادة: افتتح الله تعالى الخلق بالحمد، فقال: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » [الأنعام: ١]، وافتتح يوم القيامة بالحمد، فقال، وختمه بالحمد فقال سبحانه: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ » [سبأ: ١]، وقال تعالى: «وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

انتهى تفسير سورة الزمر، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

تفسير سورة غافر

الحلقة الأولى

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: «حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ» [غافر: ١- ٩].

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

نبدأ في هذا العدد -بعون الله وفضله- تفسير سورة غافر، نتدارس كتاب ربنا، ونتعلم أحكام ديننا، ونسأل الله أن يجعلنا من أهل القرآن، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

تقديم بين يدي السورة:

أسماؤها:

تسمى هذه السورة سورة غافر؛ لذكر هذا الاسم العظيم من أسماء الله الحسنى في مطلعها، كما تُسمى سورة الطوْل لوصف الله بذلك في مطلعها أيضا. وتسمى سورة المؤمن؛ لذكر قصة مؤمن آل فرعون فيها.

موضوعها:

هي سورة مكية، شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة، وبيان أصول الدين، وأركان الإيمان، ولكنها ركزت على الصراع بين الحق والباطل، وكيف أن أهل الباطل يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، وكيف أن الله تعالى يدحض باطلهم ويزهقه، ويهلكهم أجمعين، ويجعل العاقبة للمتقين.

مناسبتها لما قبلها:

ومناسبة أول هذه السورة لآخر سورة الزمر أن الله تعالى لما ذكر في آخر الزمر مآل الكافرين: «وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ » [الزمر: ٧٢]، استفتح السورة التالية بترغيب الكافرين في التوبة، وتهديدهم بالعقاب الشديد إن لم يتوبوا.

القرآن الكريم كلام رب العالمين:

الحاء والميم في قوله تعالى: «حم» للإشارة إلى أن عجز الكفار من العرب عن الإتيان بشيء من مثل هذا القرآن، مع أنه مؤلف من هذه الحروف التي يتألف منها كلامهم، دليل على أنه وحي من الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وليس من عند محمد كما زعموا، ولذلك صرّح بهذا بعد هذا الاستفتاح فقال:

«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» الذي قهر الأشياء كلها وغلبها؛ لكمال عزته، «الْعَلِيمِ» الذي «يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » [التغابن: ٤]، «وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ » [الأنعام: ٥٩]،

«غَافِرِ الذَّنْبِ» لمن استغفر، «وَقَابِلِ التَّوْبِ» ممن تاب، «شَدِيدِ الْعِقَابِ» لمن أصرّ واستكبر، «ذِي الطَّوْلِ» والغنى عمن كفر، كما قال تعالى: «كَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ » [التغابن: ٦].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «غَافِرِ الذَّنْبِ» لمن قال لا إله إلا الله، «وَقَابِلِ التَّوْبِ» ممن قال لا إله إلا الله، «شَدِيدِ الْعِقَابِ» لمن لم يقل لا إله إلا الله، «ذِي الطَّوْلِ» أي ذي الغنى عمن لم يقل لا إله إلا الله. [معالم التنزيل(٥/٣٢)].

«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» أي لا معبود بحق إلا الله، «إِلَيْهِ الْمَصِيرُ» والمرجع والمآب والمنتهى، «لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى » [النجم: ٣١]، «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ » [الزلزلة: ٧- ٨]، وفي الحديث القدسي، قال الله تعالى: «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ». [صحيح مسلم ١٩٩٤].

الرجاء والخوف:

وقد جمع الله تعالى في هذه الآية بين الترغيب والترهيب، فقال: «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ»، وهذا في القرآن الكريم كثير:

قال تعالى: «نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ » [الحجر: ٤٩- ٥٠]، وقال تعالى: «قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ » [الأعراف: ١٥٦]، وقال تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » [الأعراف: ١٦٧]، وقال تعالى: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » [المائدة: ٤٠].

فلا أمن من عذاب الله، ولا يأس من رحمته، ولكن رجاء وخوف، والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة، نعمل بطاعة الله، على نور من الله، نرجو رحمة الله، ونترك معصية الله، على نور من الله، نخشى عقاب الله.

من أساليب الدعوة:

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِم -رَحِمَهُ اللهُ- عَنْ يَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِّ، قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ذُو بَأْسٍ، وَكَانَ يَفِدُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَفَقَدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ؟ قَالُوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، يُتَابِعُ فِي هَذَا الشَّرَابِ، قَالَ: فَدَعَا عُمَرُ كَاتِبَهُ، فَقَالَ: اكْتُبْ: مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ، سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ غَافِرُ الذَّنْبِ، وَقَابِلُ التَّوْبِ، شَدِيدُ الْعِقَابِ، ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: ادْعُوا اللهَ لِأَخِيكُمْ أَنْ يُقْبِلَ بِقَلْبِهِ، وَأَنْ يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا بَلَغَ الرَّجُلَ كِتَابُ عُمَرَ، جَعَلَ يَقْرَؤُهُ وَيُرَدِّدُهُ: غَافِرُ الذَّنْبِ، وَقَابِلُ التَّوْبِ، شَدِيدُ الْعِقَابِ، قَدْ حَذَّرَنِي عُقُوبَتَهُ، وَوَعَدَنِي أَنْ يَغْفِرَ لِي. [تفسير ابن أبي حاتم(٧ / ١٨٩٤٠)].

قال ابن كثير-رَحِمَهُ اللهُ-: وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو نُعَيْمٍ مِنْ حَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ بُرْقَانَ وَزَادَ: فَلَمْ يَزَلْ

يُرَدِّدُهَا عَلَى نَفْسِه ثُمَّ بَكَى، ثُمَّ نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمرَ خبرُه قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخًا لكم زلَّ زلة فسدِّدوه ووثِّقوه، وادْعُوا اللهَ له أنْ يَتُوبَ عَلَيْه، وَلاَ تَكُونُوا أعْوَانًا لِلشَيْطَانِ عَلَيْه. [ابن كثير(٤/ ٧٠)].

الجدال المباح والممنوع:

«مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا»: أي: ما يجادل في آيات الله لرفضها وإبطالها، وردّها ودحضها، إلا الذين كفروا، كما قال تعالى: «وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا» [الكهف: ٥٦]، أما الذين آمنوا فإنهم يجادلون بآيات الله لإثباتها، وإعلاء كلمة الله، ودحض الباطل، وإظهار الحق.

فالجدال ليس ممنوعًا مطلقًا، وإنما هو مباح وممنوع، فالمباح الجدال بالحسنى لإحقاق الحق وإبطال الباطل:

قال تعالى: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: «وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» [العنكبوت: ٤٦].

والممنوع جدال الكفار بالباطل ليدحضوا به الحق، وقد توعدهم الله على جدالهم هذا فقال: «وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ» [الشورى: ١٦]، وقال تعالى: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ» [الحج: ٨- ١٠].

وقوله تعالى: «فَلاَ يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ» حين تراهم يغدون ويروحون آمنين مطمئنين، وقد كفروا بالله، وجادلوا في آياته، فإن الله يمهلهم ولن يهملهم:

عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ». قَالَ ثُمَّ قَرَأَ «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» [هود: ١٠٢].[متفق عليه].

«فَلاَ يَغُرُّكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلاَدِ» فإنما هو استدراج، كما قال تعالى: «فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» [القلم: ٤٤- ٤٥]، وإذا أردت أن تعرف مآلهم فانظر ما أصاب من قبلهم:

«كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ» كما كذبك قومك، والمراد بالأحزاب قوم عاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وفرعون وجنوده، كما قال تعالى: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ» [ص: ١٢- ١٣]، «وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ» كما همَّ قومك بك، «وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ» كما جادلك قومك، فكيف كانت عاقبتهم، «فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ»، قال تعالى: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [العنكبوت: ٤٠].

«وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ» أي كما حقت كلمة ربك على الذين كفروا من قبلك، فقد حقت كلمة ربك على الذين كفروا من قومك، «فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» [هود: ٤٩].

علاقة الملائكة بالمؤمنين:

«الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا»:

العرش سقف المخلوقات، وهو خلق عظيم، كما وصفه الله تعالى في أكثر من آية، ويدل على عظمته قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ؛ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعمائَةِ عَامٍ».[صحيح سنن أبي داود للألباني برقم٣٥٣٩].

والله تعالى مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله، كما أخبر بذلك في سبعة مواضع من كتابه، وهو مستغنٍ عن العرش وما دونه، فحمل الملائكة للعرش ليس لحاجة بالله إليهم، فقد قال تعالى: «إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا» [فاطر: ٤١]، ولكنه سبحانه خلق الملائكة ووكلهم بخلقه، فوكّل بالعرش ملائكة، ووكّل بالسحاب ملائكة، ووكّل بالجبال ملائكة، وهكذا.

وفي مجيء هذه الآية عقب ذكر تكذيب الكافرين من السابقين واللاحقين إشارة إلى ما صرح به ربنا

سبحانه في سورة فصلت؛ حيث قال: « وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ» [فصلت: ٣٧- ٣٨]، والمعنى فإن استكبر قومك عن عبادة الله عز وجل فالله غني عنهم، وعنده من الملائكة من يسبّحون له بالليل والنهار، لا يسأمون، ولا يفترون، وإن كفر قومك فالملائكة به يؤمنون، «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا»، وهذا الاستغفار منهم يدل على حبهم للمؤمنين من أهل الأرض، ونصحهم لهم، وشفقتهم عليهم، كما قال مطرف بن عبد الله-رَحِمَهُ اللهُ-: وجدنا أنصح خلق الله للمؤمنين الملائكة، ووجدنا أغش خلق الله للمؤمنين الشياطين. [تفسير عبد الرزاق(٣/ ١٤٠)].

وذكر بعض القراء أنه بينما هو يقرأ على شيخه هذه الآية إذ بكى الشيخ! ثم قال: يا فلان! ما أكرم عبد الله المؤمن على الله! ينام في فراشه والملائكة يستغفرون له.

فعلاقة الملائكة بالمؤمنين علاقة محبة ومودة، ونصح وشفقة، حتى إنهم ليفرحون بالمؤمن يدعو لأخيه بظهر الغيب، ويُؤَمِّنُونَ على دعائه:

عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَقُولُ: «دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيْرٍ قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ». [صحيح مسلم ٢٧٣٢].

الحث على دعاء المؤمن لإخوانه:

وإذ الأمر كذلك فينبغي لكل مسلم أن يجتهد في الدعاء لإخوانه المؤمنين؛ لأنه من هدي الملائكة المقربين، والنبيين المرسلين، فقد قال نوح صلى الله عليه وسلم: « رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ» [نوح: ٢٨]، وقال إبراهيم صلى الله عليه وسلم: « رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ » [إبراهيم: ٤١]، وقد أمر الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالاستغفار للمؤمنين، فقال تعالى: « فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ» [محمد: ١٩]، وحثَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على الاستغفار للمؤمنين، فقال: «مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً». [أخرجه الطبراني وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم ٥٩٠٢].

ومن حق الأخ على أخيه أن يدعو له وإن لم يطلب منه، ولذلك قال بعض السلف: بئس الأخ تحتاج إلى أن تقول له ادع لي.

ثم ذكر الله ما تقول الملائكة في استغفارهم للمؤمنين فقال: «رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»:

آداب الدعاء:

وفي هذا الدعاء والاستغفار تعليم للمؤمنين آداب الدعاء:

ومنها أن يستفتح بالنداء على الله تعالى بلقب الربوبية: «رَبَّنَا»، يا من ربيتنا بنعمك وآلائك وإحسانك، «وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا» توسل إلى الله عز وجل بصفاته العلا، وأسمائه الحسنى، توسل إلى الله بسعة رحمته وسعة علمه.

«فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ»، فمن أراد أن تشمله هذه الدعوة وهذا الاستغفار فليتصف بهذه الصفات: التوبة إلى الله، واتباع سبيله، « وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ» [الحجرات: ١١]؛ لأنهم حرموا أنفسهم من هذا الدعاء والاستغفار.

«رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ» أي خلود وإقامة دائمة، لا يخرجون منها أبدًا، «الَّتِي وَعَدْتَهُمْ» على ألسنة رسلك الذين أرسلتهم إليهم وبعثتهم فيهم، «وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»: قال سعيد بن جبير-رَحِمَهُ اللهُ-: إن المؤمن ليدخل الجنة فيقول: يا رب! أين أبي وأمي وزوجي، وأين أخي وأختي، وأين ابني وابنتي؟! فيقال: إنهم لم يعملوا مثل عملك! فيقول: يا رب! إني كنت أعمل لي ولهم. فيقول الله تعالى: ألحقوا به آباءه وذريته [تفسير أبي السعود (٥/ ٤٠٩- ٤١٠)]، قال الله تعالى: « وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ» [الطور: ٢١].

ومن جملة استغفار الملائكة: «وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ» أي اكفهم شر السيئات التي عملوها كما وعدتهم، «لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » [الزمر: ٣٥]، «وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

تفسير سورة غافر

الحلقة الثانية

قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ» [غافر: ١٠- ١٩].

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

خلود الكافرين في النار:

ذكر الله تعالى جزاء الكفار الذين أصرّوا على الكفر واستكبروا عن الإيمان، فقال: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ»:

إذا دخل أهل النار النارَ اعترفوا بذنبهم، وأقروا بخطيئاتهم، ورجعوا على أنفسهم باللوم والعتاب، والمقت واللعن، فنادتهم الملائكة: «لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ»، وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: لغضب الله عليكم، ومقته لكم في الدنيا؛ إذ كنتم تُدْعَوْن إلى الإيمان بالله فتكفرون، أكبر من مقتكم أنفسكم الآن.

«قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ»:

أرادوا بالموتة الأولى عدمهم قبل الوجود، وبالحياة الأولى التي كانت في الدنيا، وأرادوا بالموتة الثانية التي تعقب الحياة الدنيا، وبالحياة الثانية التي كانت بعد البعث، كما قال الله تعالى: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [البقرة: ٢٨]، فهم يتوسلون إلى الله تعالى بقدرته على البعث بعد الموت أن يخرجهم من النار ويردهم إلى الدنيا ليتداركوا ما فات، ولكن هيهات هيهات!

«ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ»، وفي الكلام

محذوف أُجيبوا به، دلَّ عليه المذكور، وهو أنهم لما قالوا: «فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ»؟ قيل: لا. قالوا: لِمَ؟ قال: «ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا»، كما قال تعالى: « فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ » [الصافات: ٣٣- ٣٥]، وقال تعالى: « وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » [الزمر: ٤٥].

وقوله تعالى: « فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » يعني وقد حكم أنكم منها لا تخرجون، كما قال تعالى: «هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» [الحج: ١٩- ٢٢]، وقال تعالى: « وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » [السجدة: ٢٠]، وقال تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ » [المائدة: ٣٦- ٣٧].

وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن سؤال الكافرين الخروج من النار سيتكرر منهم في مواقف كثيرة من مواقف يوم القيامة قبل دخول النار، وسيتكرر منهم بعد دخولها، ولن يُجابُوا إلى ما سألوا:

قال تعالى: «وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» [السجدة: ١٢- ١٤].

وقال تعالى: « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» [الأنعام: ٢٧- ٢٨].

وقال تعالى: « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » [فاطر: ٣٦- ٣٧].

وقال تعالى: «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ» [الزخرف: ٧٤- ٧٨].

وبينما هم في النار إذ سمعوا صوت الجبار سبحانه يوبّخهم على كفرهم وتكذيبهم: «أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » [المؤمنون: ١٠٥]، ومع أن الخطاب خطاب توبيخ وتقريع، إلا أنهم انتهزوها فرصة ليسألوا الله الخروج من النار، « قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » [المؤمنون: ١٠٦- ١٠٧]، فأجابهم بما خيَّب آمالهم، وقطع رجاءهم، وأخرس ألسنتهم، « قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» [المؤمنون: ١٠٨].

دلائل التوحيد:

ثم ذكَّرهم الله تعالى ببعض دلائل التوحيد الذي أنكروه وجحدوه واستكبروا عنه، فقال: «هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ» التي يستدل بها أولو الألباب على أنه لا إله إلا الله، وهي كثيرة، كما قال القائل:

فوا عجبا كيف يُعصى الإلهُ
أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كل شيء له آيةٌ
تدل على أنه واحدُ

« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ»

[الروم: ٢٠- ٢٥].

«وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا» وهو المطر، كما قال تعالى: «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» [الجاثية: ٣- ٥].

« وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ » أي ما يتذكر بآيات الله وينتفع بها إلا الذين أنابوا إلى ربهم، أي

رجعوا إليه بالتوبة والاستغفار، أما أهل الإصرار فهم لا يخشون الله، ولذلك عميت قلوبهم عن آياته، « وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ » [الصافات: ١٣- ١٤]، « وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ » [القمر: ٢].

فآيات التوحيد ودلائله كثيرة: « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » [الرعد: ١]، فإذا تبين لكم معشر المؤمنين ذلك، «فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ»:

عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ قَالَ: كَانَ ابْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عنه يَقُولُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ حِينَ يُسَلِّمُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ لَهُ النِّعْمَةُ، وَلَهُ الْفَضْلُ، وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ». وَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُهَلِّلُ بِهِنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ». [صحيح مسلم ٥٩٤].

« رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ »، مرفوع على أنه خبر آخر عن المبتدأ المتقدّم، أي: هو الذي يريكم آياته، وهو رفيع الدرجات.وكذلك « ذُو ٱلْعَرْشِ » خبر ثالث، ويجوز أن يكون رفيع الدرجات مبتدأ، وخبره « ذُو ٱلْعَرْشِ »، ويجوز أن يكونا خبرين لمبتدأ محذوف، ورفيع صفة مشبهة، والمعنى: رفيع الصفات، أو رفيع درجات ملائكته، أي: معارجهم، أو رفيع درجات أنبيائه، وأوليائه في الجنة.

وقال الكلبي وسعيد بن جبير -رَحِمَهُمَا اللهُ-: رفيع السموات السبع، وعلى هذا الوجه يكون رفيع بمعنى: رافع، ومعنى «ذو العرش» مالكه، وخالقه، والمتصرف فيه، وذلك يقتضي علوّ شأنه، وعظم سلطانه، ومن كان كذلك، فهو الذي يحق له العبادة، ويجب له الإخلاص. [فتح القدير (٤/ ٤٨٤ - ٤٨٥)].

وقال السعدي-رَحِمَهُ اللهُ-: «رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ» أي العلي الأعلى، الذي استوى على العرش، واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعا باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلت أوصافه، وتعالت ذاته، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر المطهر، وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه، ويقرّبهم إليه، ويجعلهم فوق خلقه. [تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥١٥)].« يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ».

الرُّوحُ هُوَ الْوَحْيِ، يُلْقِي الرُّوحَ أَيِ الْوَحْيِ، عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْمُرْسَلِينَ، وَإِنَّمَا سَمَّى اللهُ تَعَالَى الْوَحْيَ رُوحًا؛ لِأَنَّ بِهِ تَحْيَا الْأَرْوَاحُ، فَكَمَا أَنَّ الْأَبْدَانَ تَحْيَا بِالْأَرْوَاحِ الْمَعْهُودَةِ، كَذَلِكَ الْأَرْوَاحُ لَا تَحْيَا إِلَّا بِالْوَحْيِ، وَكَمَا أَنَّ الْأَبْدَانَ إِذَا فَارَقَتْهَا الْأَرْوَاحُ مَاتَتْ كَذَلِكَ الْأَرْوَاحُ إِذَا لَمْ تَحْظَ بِنَصِيبٍ مِنَ الْوَحْيِ مَاتَتْ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا » [الشورى: ٥٢].

وَفَرَّقَ بَيْنَ مَنْ آمَنَ بَعْدَ الإِيمَانِ وَقَبْلَ الإِيمَانِ، فَقَالَ تَعَالَى: «أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا» قَبْلَ الإِيمَانِ «فَأَحْيَيْنَاهُ» أَيْ بِرُوحِ الْوَحْيِ «وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا » [الأنعام: ١٢٢]؟! لَا يَسْتَوُونَ.

حكمة التنزيل:

«يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» الْمُرْسَلِينَ لِمَاذَا؟ مَا حِكْمَةُ التَّنْزِيلِ؟ «لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ» كَمَا قَالَ: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» لِمَاذَا؟ «لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» [الشورى: ٧]، فَالْيَوْمُ الْآخِرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَكَانٍ، فَأَهَمُّ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ التَّوْحِيدُ، وَالْإِيمَانُ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَمَا بَعْدَ الْبَعْثِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ حِكْمَةِ التَّنْزِيلِ أَنْ تُنْذِرَ الرُّسُلُ أَقْوَامَهُمُ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَأَهْوَالَهُ، كَمَا يَدْعُونَهُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَيُنْذِرُونَهُمْ عَاقِبَةَ الشِّرْكِ، كَذَلِكَ يُنْذِرُونَهُمْ يَوْمَ التَّلَاقِ.

وَسُمِّيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَوْمَ التَّلَاقِ، لِأَنَّ فِيهِ يَتَلَاقَى الْخَالِقُ بِالْمَخْلُوقِ، وَيَتَلَاقَى أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ، وَيَتَلَاقَى الْعَامِلُ وَعَمَلُهُ، وَيَتَلَاقَى الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، فَلَمَّا كَانَ فِي هَذَا الْيَوْمِ تَحْصُلُ هَذِهِ اللِّقَاءَاتُ سُمِّيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَوْمَ التَّلَاقِ.

أحوال الناس يوم القيامة:

ثُمَّ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى حَالَةَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: « يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ »، أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْأَرْضِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: « وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا » [طه: ١٠٥- ١٠٧]، فَلَيْسَ إِذًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَا يُكِنُّ وَلَا مَا يُوَارِي وَلَا مَا يَسْتُرُ، وَكَذَلِكَ الْأَجْسَامُ لَيْسَ عَلَيْهَا مَا يَسْتُرُهَا، «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا» [متفق عليه]، لِذَلِكَ كَانُوا بَارِزِينَ ظَاهِرِينَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ، وَنَادَى الْمُنَادِي وَقَدْ جَمَعَ اللهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟» فَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَلَى الْجَوَابِ، فَأَجَابَ اللهُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ: «الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ» كَمَا فِي الْحَدِيثِ:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ:

قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : «يَطْوِي اللهُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الأُخْرَى ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ». [متفق عليه].

«الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ» «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ» [فصلت: ٤٦]، «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ» [الأنبياء: ٤٧]، «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا» [النساء: ٤٠]، «إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» [يونس: ٤٤].

«الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ»:

لَا تُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِكَ، وَلَا تُزَادُ فِي سَيِّئَاتِكَ، وَإِنَّمَا «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» [الزلزلة: ٧- ٨].

«إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ»، كَمَا يَرْزُقُهُم فِي سَاعَةٍ، يُحَاسِبُهُمْ فِي سَاعَةٍ، «مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» [لقمان: ٢٨]، ولذلك صرح غير واحد من السلف بأن حساب الناس لن يستغرق نصف اليوم:

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِ اللهِ: «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا» [الفرقان: ٢٤]، قَالَ: لَا يَنْتَصِفُ النَّهَارُ حَتَّى يَقِيلَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِنَّمَا هِيَ ضَحْوَةٌ، فَيَقِيلُ أَوْلِيَاءُ اللهِ عَلَى الأَسِرَّةِ مَعَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيَقِيلُ أَعْدَاءُ اللهِ مَعَ الشَّيَاطِينِ الْمُقَرَّنِينَ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: يَفْرُغُ اللهُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ نِصْفَ النَّهَارِ فَيُقِيلُ أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ وَأَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ. [ابن أبي حاتم ٦/ ٤٣٥].

«وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ»:

الإنذار هو الإعلام المصحوب بالتخويف، ويوم الآزفة هو يوم القيامة، قال ابن قتيبة -رَحِمَهُ اللهُ-: وسُميت القيامة بذلك لقربها، يقال: أزف شخوص فلان، أي: قرب.وقال تعالى: «أَزِفَتِ الْآزِفَةُ» [النجم: ٥٧]، أي: اقتربت الساعة.

«إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ» أي بلغت الحناجر، من شدة الخوف والقلق، والرعب الذي أصاب الظالمين بما قدمت أيديهم، كما قال تعالى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ» [إبراهيم: ٤٢- ٤٣]:

عن سعيد-رَحِمَهُ اللهُ-: «وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ» قال: تمور في أجوافهم، ليس لها مكان تستقرّ فيه. وعن أبي الضحى-رَحِمَهُ اللهُ- قال: قد بلغت حناجرهم. وعن قتادة-رَحِمَهُ اللهُ- قال: هواء ليس فيها شيء، خرجت من صدورهم فنشبت في حلوقهم.وعنه قال: انتزعت حتى صارت في حناجرهم لا تخرج من أفواههم، ولا تعود إلى أمكنتها. [جامع البيان(١٣/ ٢٤٠ و٢٤١)].

وأما قوله تعالى: «كَاظِمِينَ» فقد قال الزّجّاج-رَحِمَهُ اللهُ-: أنه منصوب على الحال، والحال محمولة على المعنى، لأن القلوب لا يقال لها: كاظمين، وإنما الكاظمون أصحاب القلوب، فالمعنى: إذ قلوب النّاس لدى الحناجر في حال كَظْمهم. قال المفسّرون: «كَاظِمِينَ» أي: مغمومين ممتلئين خوفاً وحزناً، والكاظم: المُمْسك للشيء على ما فيه. [زاد المسير(٧ / ٧٤)].

«مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» أي: ليس للظالمين أي الكافرين، كما قال تعالى: «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» [البقرة: ٢٥٤]، ليس لهم حميم أي صديق ينصرهم من عذاب الله، فقد تقطع كل ما كان بينهم في الدنيا من صداقات وصلات ومودات، كما قال تعالى: «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» [الزخرف: ٦٧]، وقال تعالى: «وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ» [العنكبوت: ٢٥]، وليس لهم أيضًا شفيع يشفع لهم عند الله، لأن الشافعين لا يشفعون إلا بإذن الله، «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ» [الأنبياء: ٢٨].

إن الله كان عليكم رقيبا:

قال تعالى: «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ» وهي النظرة التي يسرقها الإنسان وهو بين أصحابه، تمر بهم المرأة فيستحي منهم فيغض طرفه، فإذا غفلوا عنه نظر إليها، وإذا اطلعوا عليه غضّ، وهكذا. «وَ» الله تعالى يعلم «مَا تُخْفِي الصُّدُورُ»، فليحذر الذين يخفون في صدورهم ما لا يحبه، فإنه سيحاسبهم به، كما قال تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ» [البقرة: ٢٢٥]، وقال تعالى: «لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [البقرة: ٢٨٤].

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة غافر

الحلقة الثالثة

قال تعالى: «وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ» [غافر: ٢٠- ٢٢]

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

في الحلقة السابقة تكلمنا عن أمر الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم بإنذار كفار قريش وما به من أهوال، وأن الظالمين ليس لهم في هذا اليوم من حميم ولا شفيع يُطاع، وأن الله عز وجل يعلم ما تخفي الأنفس وخائنة الأعين، واليوم نكمل حديثنا:

سبحان الحكم العدل:

قوله: «وَاللَّهُ يَقْضِي» بين عباده يوم القيامة «بِالْحَقِّ» كما قال تعالى: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ» [الزمر: ٦٨- ٧٠].

«وَالَّذِينَ يَدْعُونَ» وفي قراءة «وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ» سبحانه «لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ» سواء منهم من يعقل وما لا يعقل، أما ما لا يعقل فلا يقضون بشيء لأنهم جمادات، لا تسمع ولا تبصر، ولا تعلم ولا تعقل، وأما من يعقل فإنهم أيضا لا يقضون بشيء؛ لأنهم عباد لله، لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

«إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» يسمع كل الأصوات، بجميع اللغات واللهجات، ويبصر كل شيء في الأرض والسماوات.

وهذا الإنذار من قوله تعالى: «وأنذرهم يوم الأزفة» إلى قوله تعالى: «إن الله هو السميع البصير» يتضمن جميع الأسباب الموجبة للخوف.

فَأَوَّلُهَا: أَنَّهُ سَمَّى ذَلِكَ الْيَوْمَ يَوْمَ الْآزِفَةِ، أَيْ يَوْمَ الْقُرْبِ مِنْ عَذَابِهِ لِمَنِ ابْتُلِيَ بِالذَّنْبِ الْعَظِيمِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا قَرُبَ زَمَانُ عُقُوبَتِهِ كَانَ فِي أَقْصَى غَايَاتِ الْخَوْفِ، حَتَّى قِيلَ: إِنَّ تِلْكَ الْغُمُومَ وَالْهُمُومَ أَعْظَمُ فِي الْإِيحَاشِ مِنْ عَيْنِ تِلْكَ الْعُقُوبَةِ.

وَالثَّانِي: قَوْلُهُ «إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ» وَالْمَعْنَى أَنَّهُ بَلَغَ ذَلِكَ الْخَوْفُ إِلَى أَنِ انْقَلَعَ الْقَلْبُ مِنَ الصَّدْرِ، وَارْتَفَعَ إِلَى الْحَنْجَرَةِ وَالتَصَقَ بِهَا، وَصَارَ مَانِعًا مِنْ دُخُولِ النَّفَسِ.

وَالثَّالِثُ: قَوْلُهُ «كَاظِمِينَ» وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَنْطِقُوا وَأَنْ يَشْرَحُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْحُزْنِ وَالْخَوْفِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ مَزِيدَ الْقَلَقِ وَالِاضْطِرَابِ.

وَالرَّابِعُ: قَوْلُهُ «مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» فَبَيَّنَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ قَرِيبٌ يَنْفَعُهُمْ، وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ فِيهِمْ فَتُقْبَلُ شَفَاعَتُهُ.

وَالْخَامِسُ: قَوْلُهُ «يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا

تُخْفِي الصُّدُورُ» وَالْمَعْنَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَالِمٌ، لَا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السموات وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَالْحَاكِمُ إِذَا بَلَغَ فِي الْعِلْمِ إِلَى هَذَا الْحَدِّ كَانَ خَوْفُ الْمُذْنِبِ مِنْهُ شَدِيدًا جِدًا.

السَّادِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ» وَهَذَا أَيْضًا يُوجِبُ عِظَمَ الْخَوْفِ، لِأَنَّ الْحَاكِمَ إِذَا كَانَ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَثَبَتَ مِنْهُ أَنَّهُ لَا يَقْضِي إِلَّا بِالْحَقِّ فِي كُلِّ مَا دَقَّ وَجَلَّ، كَانَ خَوْفُ الْمُذْنِبِ مِنْهُ فِي الْغَايَةِ الْقُصْوَى.

السَّابِعُ: أَنَّ الْكُفَّارَ إِنَّمَا عَوَّلُوا فِي دَفْعِ الْعِقَابِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ عَلَى شَفَاعَةِ هَذِهِ الْأَصْنَامِ، وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ فِيهَا الْبَتَّةَ، فَقَالَ: «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ».

الثَّامِنُ: قَوْلُهُ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» أَيْ يَسْمَعُ مِنَ الْكُفَّارِ ثَنَاءَهُمْ عَلَى الْأَصْنَامِ، وَلَا يَسْمَعُ مِنْهُمْ ثَنَاءَهُمْ عَلَى اللَّهِ، وَيُبْصِرُ خُضُوعَهُمْ وَسُجُودَهُمْ لَهُمْ، وَلَا يُبْصِرُ خُضُوعَهُمْ وَتَوَاضُعَهُمْ لِلَّهِ.

فَهَذِهِ الْأَحْوَالُ الثَّمَانِيَةُ إِذَا اجْتَمَعَتْ فِي حَقِّ الْمُذْنِبِ الَّذِي عِظَمُ ذَنْبِهِ كَانَ بَالِغًا فِي التَّخْوِيفِ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي لَا تُعْقَلُ الزِّيَادَةُ عَلَيْهِ. [التفسير الكبير(٢٧/ ٣٥)].

وجوب الاعتبار بوحدة مصير المكذبين:

«يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ »

لما بالغ الله تعالى في تخويف كفار قريش من عذاب الآخرة، أتبع ذلك بتخويفهم من عذاب الدنيا، وأمرهم أن يعتبروا بوحدة مصير المكذبين من قبلهم، فإنَّ العاقل مَن اعتبَرَ بغيْره، فقد «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» [غافر: ٥]، وقد بين الله تعالى كيف أخذهم، فقال: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » [العنكبوت: ٤٠]، فاعتبروا يا أولي الأبصار، فلستم أكرم على الله من تلك الأمم، وليس الرسل السابقون أكرم على الله من محمد، ولذلك فصَّل الله تعالى في سورة القمر كيف أخذ الأمم السابقة، ثم خاطب كفار قريش بقوله: «أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ » [القمر: ٤٣- ٤٦].

« أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا » نظر اعتبار واتعاظ في «عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ»، « أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا» [العنكبوت: ٥٢]، وقد « كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ »، وآثارهم تدل على شدة بأسهم وقوة أبدانهم، قال تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » [الفجر: ٦- ١٣]، « وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ » يقيهم عذاب الله، «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » [الفجر: ١٤]، لكل ظالم، ولكل طاغية.

فقد تكون الحضارات القديمة أكبر وأعظم من الحضارات الحديثة، والسابقون كانوا أقوى أبدانًا، وأشد قوة، وأكثر عددًا من اللاحقين، ولذلك قال تعالى: «وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » [سبأ: ٤٥].

«ذَلِكَ» العذاب الذي نزل بهم «بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ» أي بالحجج البينات، والدلائل الواضحات، التي تدل على صدقهم فيما ادعوه من النبوة، «فَكَفَرُوا» بها، وعصوا رسل ربهم، كما قال تعالى: «فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » [النمل: ١٣- ١٤].

«فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ» الملك العزيز الجبار المتكبر، ومن كانت هذه صفاته، فكيف يكون أخذه؟! وقد أشار سبحانه إلى شدة أخذه فقال: «إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ»، وقال تعالى: «وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » [هود: ١٠٢].

كانت تلك إشارة مجملة إلى الأمم البائدة، الذين «كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ»، ثم خص الله تعالى فرعون وقومه بتفصيل نبأهم، وما كان منهم لموسى، وكيف أغرق الله فرعون وقومه، وأنجى موسى ومن آمن معه أجمعين؛ إعلامًا لرسوله محمد أن العاقبة له ولمن آمن معه، كما كانت لموسى ومن آمن معه.

قصة موسى عليه السلام وفرعون:

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » [غافر: ٢٣- ٢٩].

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا» وكانت تسعًا، كما قال تعالى: « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ» [الإسراء: ١٠١]، وتفصيلها في قوله تعالى: « قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ» [الأعراف: ١٠٦- ١٠٨]، فهاتان آياتان، والسبع مذكورات في قوله تعالى: « وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ» [الأعراف: ١٣٠- ١٣٣].

وقوله تعالى: «وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ» : السلطان هو الدليل والبرهان؟! كما قال تعالى في الإنكار على من جعلوا له ولدا، « أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ» [الصافات: ١٥٦].

ثم بين سبحانه المرسل إليهم، فقال: «إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ»:وفرعون معروف، وهو حاكم مصر في ذلك الزمان، وهامان وزيره، وقارون هو الرجل الغني الثري، وكان من قوم موسى، ولكن السلطان دائمًا يقرّب منه ذا المال، وإن لم يكن من قومه، فاتباع الملوك دائمًا الأغنياء والأثرياء، واتباع الأنبياء دائما الفقراء والضعفاء. وإنما خص الله تعالى هؤلاء الثلاثة بالذكر مع أن الرسالة تعم غيرهم، لأنهم أشد الناس عتوًا واستكبارًا وفسادًا في الأرض.

«فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ»: فكذبوه في قوله إني رسول الله، واتهموه بالسحر لما رأوا من انقلاب العصا ثعبانًا مبينًا.

ثم هموا بقتل ذكور أتباعه، «فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ»، ولكن الله عز وجل من ورائهم محيط، وقد وعد بنصر رسله وأتباعهم، وإهلاك مكذبيهم، ولذلك قال: «وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلَالٍ»، وأتي بالاسم الظاهر «الْكَافِرِينَ» دون الضمير العائد على المذكورين لإفادة بطلان كل كيد يكيده الكافرون للمؤمنين في أي زمان ومكان، لأن الله تعالى هو الذي يدبر أمر عباده المؤمنين، كما قال تعالى: « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا» [الطارق: ١٥- ١٦]، ومن كاد الله له، ومكر به، فهو هالك.

ففي هذا الخبر بشارة للمؤمنين المستضعفين في الأرض أن الله ناصرهم، ومهلك عدوهم، فليصبروا وليحتسبوا حتى يأتي الله بأمره.

«وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ»:

قال بعض المفسرين: كان فرعون إذا همَّ بقتل موسى قيل له: لا تقتله، عسى أن يكون صادقًا فيدعو عليك فتصيبك دعوته. وقال بعضهم: من جبنه وهلعه، لاعتقاده صدق موسى، كان يخاف أن يطلعوا على ما في قلبه من الخوف، فكان يتظاهر بالشجاعة، وأنه يريد قتل موسى، إلا أنهم يمنعونه، فقال: «ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ»، وللننظر ما تكون النتيجة.

ثم علل ما عزم عليه من قتل موسى بما يدل على فساد قلبه، وسفاهة رأيه، فقال: «إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ»:وَالْخَوْفُ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْإِشْفَاقِ، أَيْ أَظُنُّ ظَنًّا قَوِيًّا أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ. وَحُذِفَتْ (مِنَ) الَّتِي يَتَعَدَّى بِهَا فِعْلُ أَخَافُ لِأَنَّهَا وَقَعَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ (أَنْ) .

وَالتَّبْدِيلُ: تَعْوِيضُ الشَّيْءِ بِغَيْرِهِ. وَتَوَسَّمَ فِرْعَوْنُ ذَلِكَ مِنْ إِنْكَارِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ زَعْمَهُ أَنَّهُ إِلَهُ لِقَوْمِهِ، فَإِنَّ تَبْدِيلَ الْأُصُولِ يَقْتَضِي تَبْدِيلَ فُرُوعِ الشَّرِيعَةِ كُلِّهَا.

وَالْإِضَافَةُ فِي قَوْلِهِ: «دِينَكُمْ» تَعْرِيضٌ بِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالذَّبِّ عَنِ الدِّينِ وَإِنْ كَانَ هُوَ دِينُهُ أَيْضًا، لَكِنَّهُ تَجَرَّدَ فِي مُشَاوَرَتِهِمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مُرَاعَاةُ لِحَظِّ نَفْسِهِ كَمَا قَالُوا هُمْ: « أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى

الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ» [الْأَعْرَاف: ١٢٧]، وَذَلِكَ كُلُّهُ إِلْهَابٌ وَتَحْضِيضٌ.

والأرض: هي المعهودة عندهم وهي مملكة فرعون.

وَمَعْنَى إِظْهَارِ مُوسَى الْفَسَادَ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ يَتَسَبَّبُ فِي ظُهُورِهِ بِدَعْوَتِهِ إِلَى تَغْيِيرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّيَانَةِ وَالْعَوَائِدِ. وَأَطْلَقَ الْإِظْهَارَ عَلَى الْفُشُوِّ وَالِانْتِشَارِ عَلَى سَبِيلِ الِاسْتِعَارَةِ. وَقَدْ حَمَلَهُ غُرُورُهُ وَقِلَّةُ تَدَبُّرِهِ فِي الْأُمُورِ عَلَى ظَنِّ أَنَّ مَا خَالَفَ دِينَهُمْ يُعَدُّ فَسَادًا، إِذْ لَيْسَتْ لَهُمْ حُجَّةٌ لِدِينِهِمْ غَيْرُ الْإِلْفِ وَالِانْتِفَاعِ الْعَاجِلِ. [التحرير والتنوير (٢٤/١٢٥)].

وهذا القول أكبر دليل على فساد قلب فرعون، واستحكام الضلال منه، وهكذا دائما السفهاء والضالون، قال تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ» [المطففين: ٢٩- ٣٢]، وقال تعالى: « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ» [البقرة: ١١- ١٣].

فما كان من موسى عليه السلام إلا أن قال: «وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ»:

العَوذ معناه: اللجوء والالتصاق، «عُذْتُ» أي لجأت والتصقت، وهربت وفررت، ولم يخصهم موسى بالاستعاذة منهم، بل أطلق وعمَّ «مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ»، وخصَّ هذين الوصفين بالذكر لأن المتكبر يضر ولا ينفع، والذي لا يؤمن بالحساب والجزاء لا يمتنع من شر، ولا يرجع عن فساد، كما قال تعالى: « أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ» [الماعون: ١- ٣].

فلما استعاذ موسى بالله بعث الله رجلاً من آل فرعون يعظهم ويذكرهم وينهاهم عن قتله، «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ» يعني قبطيًا لا إسرائيليًا، «يَكْتُمُ إِيمَانَهُ» عن فرعون وملئه، «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ»؟! وهل هذا القول جريمة توجب القتل؟! نعم، إنها جريمة في نظر القاسية قلوبهم، وهل قُتِل مؤمنٌ في أي زمان إلا بسبب الإيمان، كما قال الله تعالى عن أصحاب الأخدود: « وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ» [البروج: ٨]، ثم أشار المؤمن إلى صدق موسى عليه السلام فقال: «وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ» التي تدل على صدقه، ثم أراد أن يدفع عن نفسه مظنة أن يكون به مؤمنًا، فقال: «وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ» أي فضرر كذبه عليه هو، لا عليكم، «وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ» به من العذاب الذي ينتظر المكذبين.

ومرة ثانية يشير رضي الله عنه إلى صدق موسى عليه السلام فيقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ»، وموسى على هدى من ربه، فليس مسرفًا ولا كذابًا. ثم أراد أن يستعطفهم لعلهم يسمعون له، ويستجيبون لما يدعوهم إليه من اتباع موسى، وإن كان لم يصرح بذلك، فقال محذرهم:

«يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ»: هكذا أضافهم إلى نفسه استعطافًا واسترحامًا، ولعلهم يتقون. والمراد بالأرض أرض مصر، كما قال فرعون: « أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» [الزخرف: ٥١]، وأراد المؤمن أن يحذرهم من الاغترار بما هم فيه من الملك والتصرف في البلاد، كما قال تعالى: « لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ» [آل عمران: ١٩٦- ١٩٧]، ولذلك قال الرجل المؤمن: «فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا»، وهكذا جعل نفسه معهم دفعًا لمظنة أن يكوم مؤمنًا بموسى، فهو يخوّفهم بأس الله، ويعلمهم أن عذاب الله إذا وقع بمستحقيه فما له من دافع، كما أقسم ربنا سبحانه على ذلك فقال: « وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ» [الطور: ١- ٨].

ومع كل هذا النصح وهذا التحذير، ما كان جواب فرعون إلا أن: «قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ» وقد صدق في الأولى، فهذا رأيه الذي يراه، وقد زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنًا، وكذب في الثانية، كما قال تعالى: « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ» [هود: ٩٦- ٩٧]، وقال تعالى: « وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ» [طه: ٧٩].

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة غافر

الحلقة الرابعة

قال تعالى: « وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ » [غافر: ٣٠- ٤٤]

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

ولم ييأس الرجل المؤمن، فعاد ينصح ويذكر، «مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ » [الأعراف: ١٦٤]:

«وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ» الذين أشار الله تعالى إليهم في أول السورة، حيث قال: «كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ» [غافر: ٥]،

فالرجل المؤمن يخوّف قومه أن يصيبهم مثل ما أصاب الذين من قبلهم، «مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ» أهلكهم الله بذنوبهم، وكل كانوا ظالمين، «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ»، فقد حرم سبحانه الظلم على نفسه،وصرح بذلك كثيرا في كتابه، كما في قوله: « وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا

رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ » [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » [يونس: ٤٤].

ولما خوّفهم عذاب الدنيا، انتقل إلى تخويفهم من عذاب الآخرة، مكررًا نداءهم استعطافًا لهم واسترحامًا، ليشعروا بأنه منهم، حريص عليهم، فقال: «وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ»، يعني يوم القيامة، قرأ «التَّنَادِ» بتخفيف الدال، من النداء، سُمي يوم القيامة بذلك للنداءات التي تكون فيه، ومنها قوله تعالى: «وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ » [ق: ٤١]، وقوله تعالى: «وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ » [الأعراف: ٤٤]، وقوله تعالى: « وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ » [الأعراف: ٤٨]، وقوله تعالى: « وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ » [الأعراف: ٥٠].

وقرأ «التَّنَادِ» بتشديد الدال، من : ندَّ يندُّ، إذا شرد وهرب، «يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ».

وكان الرجل المؤمن لم ير استجابة، ولم يستشعر منهم قبولًا، فقال لنفسه: «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ»، كأنه يقول: لقد حرصت على هدايتكم، ولكن الله أضلكم، «وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ»، كما قال الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكان حريصًا على هداية عمه أبي طالب، فلما مات على الكفر قال الله له: « إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ » [القصص: ٥٦].

ومع ذلك استمر رضي الله عنه في وعظهم وتذكيرهم، فقال:

«وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ» كما جاءكم موسى بالبينات، «فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ»، كما شككتم فيما جاءكم به موسى، «حَتَّى إِذَا هَلَكَ» أي مات يوسف عليه السلام «قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا»! فعلى أي شيء استندتم في قولكم هذا؟ وما هو دليلكم؟ «كَذَلِكَ» أي: كما أضل الله تعالى فرعون وملأه، «يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ» وهم «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ»، والجدال بغير حجة ولا برهان عملٌ ممقوت، ممقوت أهله، ولذلك قال: «كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا» والمقت البغض الشديد، «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ»: فذو القلب المتكبر الجبار يطبع الله عليه، فلا يرى الحق حقًا، ولا يرى الباطل باطلًا، وربما رأى الحق باطلًا، والباطل حقًا!! كما قال تعالى: « سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا » [الأعراف: ١٤٦]، والسبب في صرفهم عن آيات الله هو تكذيبهم بها، ولذلك قال تعالى: «ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ » [الأعراف: ١٤٦].

وقد صرح ربنا سبحانه بهذه العلة للطبع على قلوب القوم في أكثر من آية، قال تعالى: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » [الصف: ٥]، وقال تعالى: « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » [المنافقون: ٣]، وقال تعالى: «وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ » [الأنعام: ١١٠].

موعظة بليغة:

« وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » [غافر: ٣٦- ٤٦]:

بعد هذه الموعظة البليغة من الرجل المؤمن أراد فرعون أن يتظاهر بالبحث عن الحقيقة، فنادى على وزيره: « وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا »:

الصرح: القصر المشيد، والبرج العالي الرفيع، زعم فرعون أنه يريد الصعود إلى السماء للبحث عن إله موسى، الذي يدعوهم إلى عبادته، وترك عبادة فرعون، وصرح باعتقاده كذب موسى، ولكن ليبرئ ساحته أمام قومه، وأنه حين يصر على أن لا إله لهم غيره، فإنما يصر بعد بحث، فتقر هذه الحقيقة في قلوبهم.

وفي محاولته الصعود إلى السماء دون أية جهة أخرى دليل على أن موسى عليه السلام قد صرّح لهم بأن ربه في السماء، وبذلك تكون هذه العقيدة، عقيدة أن الله في السماء، على العرش استوى، عقيدة موسى صلى الله عليه وسلم، كما أنها عقيدة محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: «وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ» من الشرك والتكذيب، والصد عن سبيل الله،«وَصُدَّ» هو «عَنِ السَّبِيلِ» سبيل الهدى والرشاد، «وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ» الذي يكيد به لموسى ليبطل ما جاء به من الحق من عند ربه، «إِلَّا فِي تَبَابٍ» وخسار، وما هو ببالغ ما يريد، كما سيجيء في قول الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ».

ووجد الرجل المؤمن نفسه مضطرًا إلى التصريح بإيمانه، والتصريح بدعوتهم إلى اتباعه، بعد ما لم ينفع التلميح، ولكنه لم يترك أسلوب الاستعطاف والاسترحام:

«وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ»، فهو بذلك يكذب فرعون في قوله السابق: «وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ»، فسبيل الرشاد هو ما جاء به موسى، وما يدعوهم إليه ذلك المؤمن، لا ما يدعوهم إليه فرعون، ثم رغّبهم في اتباعه ببيان حقيقة الدنيا والآخرة، ليؤثروا الآخرة على الدنيا، فقال: «يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ» .

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُسْتَمْتَعُ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ، ثُمَّ تَنْقَطِعُ وَتَزُولُ، وَأَمَّا الْآخِرَةُ فَهِيَ دَارُ الْقَرَارِ وَالْبَقَاءِ وَالدَّوَامِ، وَحَاصِلُ الْكَلَامِ أَنَّ الْآخِرَةَ بَاقِيَةٌ دَائِمَةٌ، وَالدُّنْيَا مُنْقَضِيَةٌ مُنْقَرِضَةٌ، وَالدَّائِمُ خَيْرٌ مِنَ الْمُنْقَضِي. وَقَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ: لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا ذَهَبًا فَانِيًا، وَالْآخِرَةُ خَزَفًا بَاقِيًا، لَكَانَتِ الْآخِرَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا، فَكَيْفَ وَالدُّنْيَا خَزَفٌ فَانٍ، وَالْآخِرَةُ ذَهَبٌ بَاقٍ. [التفسير الكبير (٢٧/ ٥١٨)].

قانون الجزاء:

ثم ذكر رضي الله عنه قانون الجزاء الذي يجزي الله به عباده يوم القيامة، فقال: «مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ»:

قَالَ الزَّمخشري-عفا الله عنه-: قوله: «بِغَيْرِ حِسَابٍ» واقع في مقابلة «إِلَّا مِثْلَهَا»، يعني: أن جزاء السيئة لها حساب وتقدير، لئلا يزيد على الاستحقاق، فأما جزاء العمل الصالح فبغير تقدير وحساب، بل ما شئت

من الزيادة على الحق والكثرة والسعة. [الكشاف(٣/ ٣٧٢)].

ويدل عليه قوله تعالى: «مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» [الأنعام: ١٦٠]، وقوله تعالى: «فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ» [النساء: ١٧٣].

ثم أنكر الرجل المؤمن على قومه إصرارهم على الكفر والشرك، فقال:

«وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ»؟! ثم فسَّر قوله هذا بقوله: «تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ»:

ولا شك في أن من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الهلاك والخسران، والعذاب المهين، فقد قال تعالى: «إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ» [المائدة: ٧٢]، ولما حذّرنا ربنا سبحانه من اتباع الشيطان قال: «إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ» [فاطر: ٦]، والشيطان لم يدعُ صراحة إلى عذاب السعير، وإنما دعاهم إلى عبادة غير الله، ولذلك قال عن فرعون وقومه: «وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ» [القصص: ٤١]، فكانت تلك دعوتهم له، أما هو رضي الله عنه فهو يدعوهم إلى النجاة من النار، والفوز بالجنة، وذلك بالإيمان بالله العزيز، الذي لا يعجز عن شيء، ولا يُعجزه شيء، فإذا أراد أن يعذب من كفر به عذبه، «وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ» [الرعد: ٣٤]، وهو سبحانه مع عزته غفار لمن استغفره، كما قال تعالى: «وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا» [النساء: ١١٠].

«لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ» يقول رضي الله عنه: حقًا، أنما تدعونني إلى عبادته من الأوثان لا يستجيب لداعيه إذا دعاه في الدنيا، ولا يستجيب له أيضا إذا دعاه في الآخرة، كما قال تعالى: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ» [الأحقاف: ٥]، وقال تعالى: «وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا» [الكهف: ٥٢]، ومن لا يستجيب لمن دعاه ليس بإله.

ثم ذكّرهم رضي الله عنه بالرجوع إلى الله، وخوّفهم من عذابه، فقال: «وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ»، «لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ» [النجم: ٣١]، «فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا» [النساء: ١٧٣]، ولذلك قال الرجل المؤمن: «وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ».

ثم أعلمهم أنه قد بذل جهده في النصح لهم، ولم يدخر وسعًا في دعوتهم، فإن لم يستجيبوا له فسيندمون في وقت لا ينفع فيه الندم، فقال: «فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ» إذا عاينتم العذاب، وعُرضتم على النار، وستعلمون أنني كنت على الحق، وعلى صراط مستقيم، ولن تنفعكم الذكرى، كما قال تعالى: «كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ» [الفجر: ٢١ - ٢٣].

ولما فرغ رضي الله عنه من موعظته، ورأى أنهم قد أصرُّوا على الكفر، واستكبروا عن الإيمان، وعلم أنهم غير تاركيه، فرَّ إلى الله، ولجأ إليه، واعتصم به، فقال: «وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» يعلم المصلح من المفسد، والبر من الفاجر، والمؤمن من الكافر.

وللحديث بقية إن شاء الله والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة غافر

الحلقة الخامسة

قال تعالى: « فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » [غافر: ٤٥- ٥٧]

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

جزاء الناصحين:

« فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ » [غافر: ٤٣]، وقال تعالى: «وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ » [فاطر: ١٠].

ثم فسر الله تعالى سوء العذاب الذي حاق بهم فقال: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا»، أغرقهم الله في البحر، ثم عذبهم في النار، كما فعل بقوم نوح، «مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا » [نوح: ٢٥].

وفي الحديث: عَنْ عَبْد الله بْن عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْه مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْل الْجَنَّة فَمِنْ أَهْل الْجَنَّة، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْل النَّار فَمِنْ أَهْل النَّار، فَيُقَالُ هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَة) متفق عليه.

نعيم القبر وعذابه حق:

وهذه الآية من الآيات التي يستدل بها على أن

عذاب القبر حق، لأن الله تعالى قال: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»، فالنار التي يعرضون عليها قبل يوم القيامة هي نار القبر، ومذهب أهل السنة والجماعة أن القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار، وأن نعيم القبر وعذابه حق، وكلاهما يكون للروح والبدن معا، والله على كل شيء قدير.

والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في نعيم القبر وعذابه كثيرة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِالله مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ» متفق عليه.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِقَبْرَيْنِ فَقَالَ: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ». ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، فَغَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً. قَالُوا يَا رَسُولَ الله، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا قَالَ: «لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا» متفق عليه.

«وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»: «أَدْخِلُوا» بفتح الهمزة، على الخطاب لزبانية النار، وقرئت بضمها «أَدْخِلُوا» على الخطاب لآل فرعون، فلما دخلوها تبرأ بعضهم من بعض، ولعن بعضهم بعضا.

عليه السلام صلى الله عليه وسلم « وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » [غافر: ٤٧- ٥٩].

تخاصم أهل النار:

«وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ»: المحاجة المخاصمة، وتبادل السباب واللعان والشتائم، «فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ» الذين كفروا تقليدا «لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا» يعنون قد كفرنا برسل الله طاعة لكم،واتبعناكم على الكفر الذي دعوتمونا إليه، «فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ»، لأنكم كنتم السبب في دخولها؟ «قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ»، وقد قضى سبحانه أن نكون فيها أجمعون.

وفي سورة إبراهيم عليه السلام قال الله تعالى في تخاصم أهل النار: « وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ » [إبراهيم: ٢١]، ثم قام الشيطان الأكبر الذي أضل الجميع: المستكبرين والضعفاء، فتبرأ منهم أجمعين: « وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » [إبراهيم: ٢٢].

فلما يئس بعضهم من بعض توجهوا بالسؤال لخزنة النار أن يشفعوا لهم عند الله في تخفيف العذاب: «وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ»، وكان هذا السؤال منهم بعد سؤالهم مالكا كبير خزنة النار أن يقضي الله عليهم بالموت فيستريحوا من العذاب، كما قال تعالى: «وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ » أي ليمتنا فنستريح، فأجابهم: «قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ » [الزخرف: ٧٧]، لا تموتون ولا تخرجون، كما قال

تعالى: « وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ » [فاطر: ٣٦]، فلما يئسوا من الخروج تمنوا يوما يخفف عنهم العذاب فيه، وسألوا خزنة النار أن يشفعوا لهم، فأجابوهم: «قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا»، ثم أعلموهم ابتداء أنه لا فائدة من دعائهم، فقالوا: «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ».

والعاقبة للمتقين:

ثم بين الله تعالى حال الرسل وأتباعهم المؤمنين، بعدما بين حال أعداء الرسل ومكذبيهم، فقال تعالى: «إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ»: فمهما علا الباطل وارتفع فلا بد أن يقع، والعاقبة للمتقين، كما وعد رب العالمين: « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ» [الصافات: ١٧١- ١٧٣]، وقال تعالى: « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ » [الأنبياء: ١٠٥]، فالصراع قائم بين الحق والباطل، والأيام دول، ولكن العاقبة للحق وأهله، كما قال تعالى: «وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» [الأنفال: ٧- ٨]، ولذلك لما دالت الدولة على المسلمين يوم أحد، وفرح المشركون، وقال المنافقون: لو كان المسلمون على الحق ما غلبوا، قال الله تعالى: « قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ » [آل عمران: ١٣٧].

قال أبو جعفر- رَحِمَهُ اللهُ-: يعني بقوله تعالى ذكْرُه: «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ» مضت وسلفت منى فيمن كان قبلكم، يا معشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به، من نحو قوم عاد وثمود، وقوم هود وقوم لوط، وغيرهم من سُلاف الأمم قبلكم، «سُنَن» يعني: مثلات، سيرَ بها فيهم وفيمن كذَّبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم، بإمهالي أهل التكذيب بهم، واستدراجي إياهم، حتى بلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجَّلته لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم، ثم أحللت بهم عقوبتي، وأنزلتُ بساحتهم نقمي، فتركتهم لمن بعدهم أمثالا وعبرًا، «فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ»، يقول: فسيروا - أيها الظانّون، أنّ إدالتي مَنْ أدلت من أهل الشرك يوم أحُد على محمد وأصحابه، لغير استدراج مني لمن أشرك بي، وكفرَ برسلي، وخالف أمري - في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم، ممن كان على مثل الذي عليه هؤلاء المكذبون برسولي، والجاحدون وحدانيتي، فانظروا كيف كان عاقبة تكذيبهم أنبيائي، وما الذي آل إليه غِبُّ خلافهم أمري، وإنكارهم وحدانيتي، فتعلموا عند ذلك أنّ إدالتي من أدلت من المشركين على نبيي محمد وأصحابه بأحد، إنما هي استدراج وإمهال ليبلغ الكتاب أجله الذي أجلت لهم. ثم إما أن يؤول حالهم إلى مثل ما آل إليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم: من تعجيل العقوبة عليهم، أو ينيبوا إلى طاعتي واتباع رسولي. [جامع البيان(٤/ ٩٩)].

ثم بين سبحانه أن الكافرين سيندمون يوم القيامة، وسيعتذرون إلى ربهم عن كفرهم، ولكن لن ينفعهم الندم، ولن يقبل منهم العذر، فقال تعالى: «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ».

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: «هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» [المرسلات: ٣٥- ٣٦]، فالآية الأولى دلت على أنهم يعتذرون، ولكن لا ينفعهم، وهذه دلت على أنه لا يؤذن لهم أصلا في الاعتذار؟!

فالجواب: أن يوم القيامة يوم طويل،مقداره خمسون ألف سنة ، وقد قال تعالى: «لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ» [الانشقاق: ١٦]، والمعنى أنهم ينتقلون من موقف إلى موقف، ومن مشهد إلى مشهد، ومن مكان إلى مكان، ففي موقف يريدون أن يعتذروا فلا يؤذن لهم، وفي موقف يؤذن لهم في الاعتذار ولا يقبل منهم ولا ينفعهم، «وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ» وهي الطرد من رحمة الله، «وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ»، «جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ» [إبراهيم: ٢٩]، كما قال عباد الرحمن: «رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » [الفرقان: ٦٥- ٦٦].

ثم يسلي الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بتذكيره ما كان من نبأ أخيه موسى عليه السلام، وكيف نجاه الله تعالى وأهلك أعداءه، فيقول سبحانه:«وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى» وهو التوراة، «وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ» وهو التوراة، أبقاها الله في بني إسرائيل يتوارثونها جيلا بعد جيل، كما قال تعالى: « إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ

فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ » [المائدة: ٤٤]، وقال هنا: «هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ»، فخص أولي الألباب بالهدى والذكرى لأنهم الذين يتذكرون ويهتدون، أما الملأ من قوم فرعون فقد كذبوا بالحق لما جاءهم، «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ » [غافر: ٢١].

«فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» وسينصرك على قومك، كما نصر موسى على فرعون وقومه، واستعن على الصبر بالاستغفار والتسبيح والتحميد، «وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ» فليس شيء يعين على الصبر مثل الذكر.

«إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ»: جملة «بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ» جاءت من أجل الذم، لأن الجدال بالحجة والبرهان، وبالتي هي أحسن، مباح، أما الجدال من غير حجة ولا برهان، فهو جدال مذموم، لا يريد صاحبه إلا إبطال الحق، لما في صدره من الكبر، ولكن الله حائل بينه وبين ما يريد، كما قال تعالى: «إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ»، فحب العلو والظهور، وأن يكون هو الذي هنا وهناك، يقول فيسمع له، ويأمر فيطاع، منعه من اتباع الرسل على ما جاءوا به من عند الله، ولكنه لن يبلغ مراده، لأن من سنة الله أن يرفع المتواضعين، ويضع المستكبرين.

ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستعيذ بالله من شر المستكبرين،كما استعاذ موسى من قبل، فقال تعالى: «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» يعذك، «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» لكل المسموعات، وهو «الْبَصِيرُ» بكل المخلوقات، فلا تخفى عليه خافية، قولا كانت أو فعلا.

من دلائل التوحيد والبعث:

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى دليلا من دلائل التوحيد، وهو أيضا من دلائل البعث، فقال تعالى: «(١٠) فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ»:فالله سبحانه هو الذي خلق السموات والأرض، ولم يكن له شريك في الخلق، فيجب أن يعبد وحده، ولا يشرك بعبادته أحد، لأن الشرك تسوية للمخلوق بالخالق، وهي ظلم وجور، « أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » [النحل: ١٧]، فانفراده سبحانه بالخلق يوجب إفراده بالعبادة، ولذلك أنكر على الذين سووا غيره به في العبادة، مع اعترافهم بانفراده بالخلق، فقال سبحانه: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » [الأنعام: ١]، وقال سبحانه: « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا » [الفرقان: ١- ٣]، وأخبر سبحانه أنهم سيندمون على هذه التسوية، فقال: « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » [الشعراء: ٩١ - ١٠٤].

فخلق السموات والأرض دليل على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له، وهو أيضا دليل على أن الله يحي الموتى، ويبعث من في القبور، فالذي خلق السموات والأرض، وهن أكبر من خلق الناس، لا يعجز عن إعادة الناس بعد موتهم، ولذلك قال للمنكرين البعث: « أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا » [النازعات: ٢٧]، والمعنى أن السموات أكبر وأشد من الإنسان، والله بناها، فكيف تظنون أنه يعجز عن إعادتكم بعد موتكم وهذه مظاهر قدرته بادية لكم.

وقد تكرر في القرآن الكريم الاستدلال بخلق السموات والأرض على بعث الناس بعد موتهم:

قال تعالى: « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا » [الإسراء: ٩٩]، وقال تعالى: « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » [يس: ٨١]، وقال تعالى: « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » [الأحقاف: ٣٣].

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة غافر

الحلقة السادسة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ » [غافر: ٥٨- ٦٨]

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

لا يستويان:

ثم فرق الله سبحانه بين المؤمن والكافر، والمحسن والمسيء، فقال تعالى: «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ »: المراد بالأعمى الكافر، والمراد بالبصير المؤمن، كما قال الله تعالى في سورة هود بعد ما ذكر أهل الجنة والنار: «مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» [هود: ٢٤]، وقد وصف الله تعالى الكافر بالعمى في

أكثر من آية:

قال تعالى: «أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ» [الرعد: ١٩]، وقال تعالى: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» [الحج: ٤٦].

وإنما كان الكافر أعمى لأن السماء فوقه مرفوعة، والأرض تحته موضوعة، والجبال أمامه منصوبة، وكلها تشهد بأن لا إله إلا الله، ومع ذلك لم ينتفع بهذه الآيات، ولم يستدل بها على فاطر الأرض والسموات، «أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا» [الفرقان: ٤٠].

أما المؤمن فقد فكر في خلق السموات والأرض، وآمن بخالقهن، ورضي به ربا، كما قال تعالى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

فكما لا يستوي الأعمى والبصير، لا يستوي «الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ»، قال تعالى: «أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ» [السجدة: ١٨- ٢٠].

فهذه حقائق ثابتة، ولكن «قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ»:

يقول جل ثناؤه: قليلا ما تتذكرون أيها الناس حجج الله، فتعتبرون وتتعظون. يقول: لو تذكرتم آياته واعتبرتم، لعرفتم خطأ ما أنتم عليه مقيمون من إنكاركم قدرة الله على إحيائه من فني من خلقه من بعد الفناء، وإعادتهم لحياتهم من بعد وفاتهم، وعلمتم قبح شرككم من تشركون في عبادة ربكم. [جامع البيان(٢٤/ ٧٨)].

ولما أقام سبحانه وتعالى الأدلة الدالة على إمكان البعث صرح بمجيء الساعة فقال: «إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» فهم يجادلون فيها، ويكذبون بها.

آداب الدعاء:

«وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ»:

«وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»، فالإجابة قرينة الدعاء، فإذا كان دعاء فثم إجابة، ولذلك كان عمر رضي الله عنه يقول: إني لا أحمل هم الإجابة، ولكني أحمل هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه. [الجواب الكافي لابن القيم].

فإذا أراد الله تعالى أن يعطي عبده ألهمه السؤال، ولذلك لبث أيوب عليه السلام في المرض ثمانية عشرة عاما وشهرا، فلما أراد الله أن يشفيه ألهمه الدعاء فشفاه، قال تعالى: «وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ۖ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ» [الأنبياء: ٨٣- ٨٤]، وبلغ زكريا عليه السلام من الكبر عتيا ولم يرزق الولد، فلما أراد الله أن يرزقه ألهمه الدعاء، قال تعالى عن مريم عليها السلام: «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ» [آل عمران: ٣٧- ٣٩].

فالإجابة قرينة الدعاء، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لاَ يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاَهٍ) [صحيح سنن الترمذي للألباني رقم٣٤٧٩].

ولكن لا تستبطئ الإجابة وقد سددت طرقها بالمعاصي، كما قال بعض السلف، فإذا دعوت ولم تر استجابة، فلا تقل قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجاب لي، ولكن ابحث في نفسك عن الموانع، وهي المعاصي، ففي الحديث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا

الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » [المؤمنون: ٥١]، وقال: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » [البقرة: ١٧٢] ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ». صحيح مسلم.

ولما أمر الله تعالى بدعائه توعد من لم يدعه، فقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ »:

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى اللهُ عليه وسلم قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»». [صحيح سنن الترمذي للألباني رقم٢٩٦٩].

دلائل التوحيد:

ولما أمر الله تعالى بعبادته، وتوعد المستكبرين، ذكر دلائل استحقاقه للعبادة، فقال:

«اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا »:

الله الذي يجب أن تعبدوه، مخلصين له الدين، هو الذي جعل لكم الليل سكنا، والنهار مبصرا، هو الذي جعل الليل مظلما باردا،لتسكنوا فيه، وترتاحوا من عناء الكدح بالنهار، وهو الذي جعل لكم النهار ذا شمس وحر وضياء، لتغدوا وتروحوا في طلب معاشكم، وكسب أرزاقكم، وهذا كله من فضله ورحمته بعباده، لعلهم يشكرون، ولذلك قال: «إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ»، والمراد بالشكر الإسلام، كما قال تعالى في سورة النحل، بعد ما ذكر عباده بنعمه: «كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ » [النحل: ٨١- ٨٣].

«ذَلِكُمُ اللَّهُ» الذي يجب أن تعبدوه وحده لا شريك له، هو «رَبُّكُمْ» الذي رباكم بفضله، «وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً » [لقمان: ٢٠]، وهو «خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»، فغير الله له مخلوق، والمخلوق لا يصلح أن يكون إلها، لأنه عاجز، والعاجز لا يصلح أن يكون إلها، ولذلك قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » [الحج: ٧٣]، ثم قال تعالى: « مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» [الحج: ٧٤] يعني حين عبدوا غيره من خلقه، « أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » [النحل: ١٧]، ولذلك قال تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ » [الأنعام: ١]، أي يسوون به في العبادة غيره ممن لم يخلق، وهم يعلمون أنهم لا يخلقون، وقد أخبر سبحانه وتعالى أنهم سيندمون يوم القيامة على هذه التسوية فقال: « فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » [الشعراء: ٩٤- ٩٨].

فانفراد الله تعالى بالخلق دليل على وجوب إفراده بالعبادة، ولذلك قال: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ»، فكما لا خالق غيره، يجب ألا يكون معبود سواه، ثم أنكر على العابدين غيره فقال: «فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ» أي: فأنى تنصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره، وقد جاءتكم البينات من ربكم على أنه لا إله إلا الله، «كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» أي: كما صرف هؤلاء عن دلائل التوحيد مع ظهورها، وصدوا عن السبيل، صرف الذين من قبلهم، ممن كذبوا بآيات ربهم، « جَزَاءً وِفَاقًا» [النبأ: ٢٦]، قال تعالى: « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ » [الأعراف: ١٤٦]، وقال تعالى: « وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ» [التوبة: ١٢٧].

«اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا» أي موضع قرار، مع كونها محاطة بالمياه من كل جانب، فهي في وسط الماء كالقارب الصغير لا يكاد

يثبت، ولكن الله تعالى أرساها بالجبال، كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» [الأنبياء: ٣١]. «وَالسَّمَاءَ بِنَاءً»، كما قال تعالى: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ» [الأنبياء: ٣٢]، «وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ»، كما قال تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» [التين: ٤]، «وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ» في المأكل، والمشرب، والملبس، والمنكح، والمركب.

ثم يؤكد سبحانه على أنه وحده المستحق للعبادة دون سواه، فيقول: «ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وهذا السياق في ذكر دلائل التوحيد، والأمر بعبادة الله وحده، أشبه ما يكون بقوله تعالى في سورة البقرة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ» [البقرة: ٢١- ٢٢].

فهل يعقل أن يعبد إنسان غير الله بعد كل هذا البيان؟! ولذلك أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لقومه الذين يعبدون غير الله:

«قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي»، والنهي عن الشيء أمر بضده، ولذلك قال: «وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» الذي أراكم آياته البينات الدالات على وجوب إفراده بالعبادة، «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ» [الروم: ٢٠]، ولذلك قال هنا: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»، ولا يد للإنسان في خلقه وإيجاده، ولا يد له في موته وفنائه، ولا يد له في الأطوار التي ينتقل فيها فيما بين ذلك.

ومن دلائل التوحيد الإحياء والإماتة: «هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ»، بهذا تعرّف سبحانه إلى خلقه، وبه أيضاً عرّفه الرسل إلى أقوامهم،كما قال إبراهيم عليه السلام لقومه: «قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ» [الشعراء: ٧٥- ٨١]، وقال تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ» [البقرة: ٢٥٨]، وقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ» [الأعراف: ١٥٨]، وقال له أيضا: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» [يونس: ١٠٤].

فمن دلائل التوحيد أن الله يحيي ويميت، وهي آية واضحة جلية متكررة، يرونها كل ساعة، فالكفر بالله مع ذلك أمر عجيب، ولذلك قال تعالى: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [البقرة: ٢٧- ٢٨].

قال السعدي- رحمه الله-: هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار، أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله، الذي خلقكم من العدم، وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميتكم عند استكمال آجالكم، ويجازيكم في القبور، ثم يحييكم بعد البعث والنشور، ثم إليه ترجعون، فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم في تصرفه، وتدبيره، وبره، وتحت أوامره الدينية، ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي، أفيليق بكم أن تكفروا به، وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحماقة؟ بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه وتخافوا عذابه، وترجوا ثوابه. [تيسير الكريم الرحمن(١/ ٦٨)].

وقوله تعالى: «فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ» تصريح بقدرته المقتدرة، وأنه سبحانه لا يعجز عن شيء، ولا يعجزه شيء، فإذا أراد شيئا ما -أي شيء كان- فإنه يقول له: كن فيكون، بلا تأخير، ولا تكرير.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ۖ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ » [غافر: ٦٩- ٨٥]:

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

موقف الكافرين من آيات التوحيد:

وهكذا دلهم الله تعالى على دلائل التوحيد التي يرونها رأي العين، ومع ذلك أبى أكثر الناس إلا كفورا، وهو أمر عجيب،كما قال القائل:

فوا عجبا كيف يعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه الواحد

ولذلك عجب الله نبيه صلى الله عليه وسلم منهم فقال: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ » أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل،وعن الهدى إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك،وعن الإيمان إلى الكفر؟! «الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا» من الهدى ودين الحق.

ثم توعدهم فقال: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ » أنهم كانوا في الضلال المبين، «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » [القمر: ٤٨]، «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ»: الأغلال قيود من حديد توضع في الأيدي ثم تعلق في العنق، والسلاسل قيود من حديد توضع في الأرجل، قال تعالى: «إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا

وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا» [الإنسان: ٤]، وإذا قضى الله تعالى على أحد من أهل النار قال للزبانية: «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ» [الحاقة: ٣٠- ٣٢].

قال بعض المفسرين: هذه السلاسل طرفها بيد الزبانية، والكفار في وسط النار، فهم يسحبونهم تارة هاهنا، وتارة هاهنا، ولذلك قال تعالى: «إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ»، كما قال تعالى: «هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ» [الرحمن: ٤٣- ٤٤]، وقال تعالى: «إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ» [الدخان: ٤٣- ٥٠].

«ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ» تبكيتا وتوبيخا ليزدادوا عذابا فوق العذاب، «أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ»؟! ينصرونكم من عذاب الله، أو يشفعون لكم عند الله، كما كنتم تزعمون، «قَالُوا» والحسرة تملأ قلوبهم، «ضَلُّوا عَنَّا» أي غابوا وهربوا، وتركونا أحوج ما نكون إليهم، ثم استدركوا فاعترفوا ببطلان آلهتهم، فقالوا: «بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْـًٔا»، فما كانوا يستحقون العبادة، ولكن خيل لنا. قال تعالى: «كَذَٰلِكَ» مثل هذا الإضلال «يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ»: «الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا»، فإن من سنة الله تعالى أن من سلك سبيلا يسره الله له: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ» [الليل: ٥- ١٠]، وقال تعالى: «قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا» [مريم: ٧٥- ٧٦].

ثم قيل لهم: «لِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ»: ذلكم العذاب الذي ذقتموه بسبب أنكم كنتم في الدنيا تفرحون بالباطل وانتفاشه، وتفرحون بما ترتكبون من معصية الله، وتفرحون بما تحصلون من متاع الحياة الدنيا، حتى استغنيتم بما أوتيتم عما جاءتكم به الرسل من عند ربكم، كما قال تعالى: «فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ» [غافر: ٨٣]، وقال تعالى: «وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ» [الرعد: ٢٦]، وقال علماء بني إسرائيل لقارون: «لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ» [القصص: ٧٦].

فالفرح بالباطل ومتاع الحياة الدنيا مذموم، أما الفرح بالحق والهدى والتوفيق،والطاعة والإيمان فهو فرح محمود أمر الله به فقال: «قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ» [يونس: ٥٨].

ثم قيل للكافرين: «ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا» أبدا، «كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ» [السجدة: ٢٠]، «فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ».

هذا ما ينتظر المتكبرين في الآخرة، «وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» [الطور: ٤٧]، «فَاصْبِرْ» يا نبينا ولا تستعجل لهم، «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ»، «وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ» [الحج: ٤٧]، «فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ» في حياتك «أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ» قبل ذلك «فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ» ولن ينجوا من العذاب. وقد أقر الله تعالى عين رسوله فمكنه منهم، ونصره عليهم، وعذبهم في الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب.

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ»:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: «قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ! أَيُّ الأَنْبِيَاءِ أَوَّلُ؟ قَالَ: آدَمُ عليه السَّلام، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله! أَوَ نَبِيٌّ كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: نَعَمْ، نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ، خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِه، ثُمَّ نَفَخَ فيه مِنْ رُوحِه، ثُمَّ قَالَ لَهُ قِبَلاً قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ الله! كَمْ وَفَّى عَدَدُ الأَنْبِيَاء؟ قَالَ مَائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلاثُمائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ، جَمًّا غَفِيرًا. [مسند أحمد (٢١٥٩٢) وضعفه الألباني].

سمى الله منهم في القرآن الكريم خمسة وعشرين:

في تلك حجتنا منهم ثمانية

من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إدريس هود شعيب صالح

ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

يعني ب(في تلك حجتنا) قول الله تعالى: «وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ» [الأنعام: ٨٣- ٨٦].

وكل رسول من الرسل قد آتاه الله آية تدل قومه على أنه رسول من الله،كما في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلاَّ أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [متفق عليه].

وهذه الآيات يظهرها الله على يد من يشاء من الرسل، متى شاء، ولا يستطيع الرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله، ولذلك قال تعالى: «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ»، أي وما صحَّ وما استقامَ لرسولٍ منهم «أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ»، فإنَّ المعجزات على تشعب فنونها عطايا من الله تعالى، قسمها بينهم حسبما اقتضتْهُ مشيئته المبنية على الحكم البالغة، كسائر القسم، ليسَ لهم اختيار في إيثار بعضها والاستبداد بإتيان المقترح منها.[تفسير أبي السعود(٥/٤٢٩)].

ولذلك لما سألت الأقوام رسلهم أن يأتوهم بآية: «قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ» [إبراهيم: ١١]، ولما سألت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية،أمره الله تعالى أن يقول: «قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ» [الأنعام: ١٠٩].

«فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ» بالعذاب في الدُّنيا والآخرة «قُضِيَ بِالْحَقِّ» بإنجاء المحق وإثابته، وإهلاك المبطل وتعذيبه «وَخَسِرَ هُنَالِكَ» أي وقتَ مجيءِ أمر الله، اسمُ مكانٍ استعيرَ للزمان، «الْمُبْطِلُونَ» أي المتمسكونَ بالباطلِ على الإطلاق، فيدخل فيهم المعاندونَ المقترحونَ دخولاً أولياً. [تفسير أبي السعود(٥/٤٢٩)].

ومن دلائل التوحيد خلق الأنعام: «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ» أي خلقها لكم، وهي الإبل، والبقر، والغنم، ومنافعها كثيرة لا تخفى على إنسان، منها ما ذكره الله في هذه الآية: «لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ».

وقال تعالى: «وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ» [النحل: ٥- ٧]، وقال تعالى: «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ» [النحل: ٦٦]،

وقال تعالى: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ» [النحل: ٨٠]، وقال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ» [يس: ٧١- ٧٣].

وبعد ذكر هذه الآيات، من قوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا» إلى هنا، يسألهم ربهم سبحانه وتعالى ماذا ينكرون من هذه الآيات البينات التي يرونها رأي العين، وكلها تشهد لله بالوحدانية، فيقول سبحانه: «وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ»؟! وهم لم يكونوا ينكرون منها شيئًا، كما صرح ربنا سبحانه وتعالى بذلك في أكثر من موضع، قال تعالى: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» [العنكبوت: ٦١- ٦٣]، ولكنهم كانوا بربهم يشركون، فأقام الله تعالى عليهم الحجة، وأعلمهم أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، فما دام الله هو الخالق وحده، يجب أن يكون هو المعبود وحده.

ثم حذرهم الله تعالى عاقبة الذين من قبلهم إن هم أصروا على الكفر، فقال تعالى: «فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»، «فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ» [الزمر: ٥١].

«فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»، يعني أنهم فرحوا بما عندهم من علوم الدنيا، واستغنوا بها عن العلم الذي جاءتهم به الرسل من عند الله، وإنما تجئ الرسل بالعلوم الشرعية، التي لا مصدر لها إلا الوحي، وأما علوم الدنيا فإن الناس يتعلمونها بالفطرة، ويتلقاها بعضهم عن بعض، وعلم الشريعة هو أساس السعادة في الدنيا والآخرة، وعلوم الدنيا إن لم يكن معها علم الشريعة فهي والجهل سواء، وربما كانت سبب شقاء الإنسان، قال تعالى: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» [الروم: ٦- ٧].

«فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ»:

يقول تعالى: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، لما رأوا العذاب آمنوا بالله وحده، وكفروا بما كانوا يعبدون من دونه، ولكن لم ينفعهم إيمانهم، لأن الله تعالى قد حكم أنه لا يقبل إيمانًا بعد نزول العذاب، قال تعالى: «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» [النساء: ١٧- ١٨]، وقال تعالى: «وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» [يونس: ٩٠- ٩١].

نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله الهداية والتوفيق، والموت على الإيمان. وبذلك انتهى تفسير سورة غافر، نسأل الله القبول وحسن الخاتمة، وإلى لقاء جديد، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة فصلت

الحلقة الأولى

«حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ» [فصلت: ١- ٧].

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

بين يدي السورة:

تُعرف هذه السورة بسورة فصلت؛ لقوله تعالى في مطلعها: «كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ»، وتسمى سورة السجدة، تمييزًا لها عن سورة السجدة المعروفة. وهي سورة مكية، شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة، وبيان أصول الدين وأركان الإيمان، وقد ركّزت على الأصول الثلاثة، وهي التوحيد، والرسالة، والبعث بعد الموت، وأضافت إلى ذلك حكم الدعوة، وفضلها، وأسلوبها، وأخلاق الداعية.

«حم» حرفان من حروف الهجاء، وقد أشبعنا القول في سر وجود هذه الحروف في أوائل السور.

القرآن الكريم رحمة:

«تَنْزِيلٌ» مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذا تنزيل، أو على أنه مبتدأ، وخبره «كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ». والمعنى: هذا الكتاب العربي المبين «تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وفي تخصيص هذين الاسمين بالذكر إشارة إلى أن التنزيل رحمة من الرحمن الرحيم، ونعمة من أعظم نعم رب العالمين، ولذلك لما ذكر الله تعالى الثقلين-الإنس والجن- بنعمه عليهما، استفتح السورة باسمه الرحمن، وابتدأ بنعمة تعليم القرآن، فقال تعالى: «ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ» [الرحمن: ١- ٢]، فمن رحمة الله تعالى بعباده أن علمهم القرآن، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ» [القمر: ١٧]، قال: لولا أن الله يسره ما نطق به لسان؛ فـ «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا» [الكهف: ١].

«كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ»: فصَّل الله تعالى فيه الحلال والحرام، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، وفصَّل القصص والوعظ والأخبار، وغير ذلك مما تضمنه هذا الكتاب المبارك، كما قال تعالى: «وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا» [الإسراء: ١٢].

«قُرْءَانًا عَرَبِيًّا» أي حال كونه «قُرْءَانًا عَرَبِيًّا»، كما قال تعالى: «إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» [يوسف: ٢]. وفي اختيار اللغة العربية لتنزيل الكتاب بها إشارة إلى فضلها، وأنها أشرف اللغات وأفضلها على الإطلاق.

وقوله تعالى: «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»: خصَّ الله تعالى

الذين يعلمون بالذكر؛ لأنهم الذين يؤمنون بهذا الكتاب ويتبعونه، كما قال تعالى: « وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ » [سبأ: ٦]، وقال تعالى: « وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » [الحج: ٥٤]، أما الذين لا يعلمون فهم به مكذبون، كما قال تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ » [يونس: ٣٩].

«بَشِيرًا وَنَذِيرًا» يعني أن القرآن الكريم بشير لمن آمن به وصدقه واتبعه، ونذير لمن كذب به وصدَّ عنه، كما قال تعالى: « إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » [الإسراء: ٩- ١٠]. وقال تعالى: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » [الكهف: ١- ٥].

موقف أكثر الناس من القرآن الكريم:

ومع أن القرآن من رحمة الله، وفضل للناس كل شيء، إلا أن أكثر الناس لم يقبلوه، ولم يهتدوا بهديه، كما قال تعالى: «فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ»، نفى عنهم السماع؛ لأنهم لم ينتفعوا بما سمعوا، وإلا فقد سمعوا بآذانهم، وقامت عليهم الحجة، فقد بلَّغ الرسول صلى الله عليه وسلم ما أنزل إليه من ربه، وقرأه عليهم، ولكنهم لم ينتفعوا بما سمعوا، كما قال تعالى: «إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ » [الأنفال: ٢٢- ٢٣]، أي لنفعهم بما سمعوا، ولكن لم يعلم الله في قلوبهم خيرا فختم على قلوبهم وسمعهم، «جَزَآءً وِفَاقًا» [النبأ: ٢٦].

«وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ»:

هذا القول منهم كالاعتذار عن عدم سماعهم، «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ»: الأكنة الأغطية، كما قال تعالى: « وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ » [البقرة: ٨٨] أي: مغلفة في أكنة، فهي مغلقة، كما قال تعالى: « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ » [محمد: ٢٤]، فلا تعي شيئًا. وقولهم «وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ» أي ثقل وصمم، فلا نسمع شيئا، «وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ» يحجز بيننا وبينك، فأنى نسمع ونعي وهذه حالنا؟!

وهل كانوا صادقين في وصفهم أنفسهم بهذا الوصف أم كاذبين؟

كانوا صادقين في الوصف، كاذبين في الاعتذار؛ لأن الله تعالى قال: « خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ » [البقرة: ٧]، ولكن هذا الختم إنما كان بعد أن عطلوا هم هذه الحواس، ولم يستعملوها فيما خُلقت له، من التعرف على الله تعالى، بالاستماع لآياته المقروءة، والنظر في آياته المنظورة، فعاقبهم الله تعالى، فختم عليها، فلا ينتفعون بها، كما قال تعالى: « وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ » [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: «فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ » [الصف: ٥]، وقال تعالى: « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ » [المنافقون: ٣].

وقولهم: «فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ»: يقولون: ما دام الحال كما ذكرنا، فاعمل أنت على دينك وطريقتك التي اخترتها، فإنا عاملون على ديننا وطريقتنا، فكما لن تترك أنت دينك، فكذلك نحن، لن نترك ديننا.

ومع هذا، فقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستمر في دعوتهم، وأن لا يترك تذكيرهم، وأن لا ييأس من إيمانهم؛ معلمًا للدعاة بعده صلى الله عليه وسلم أن لا ييأسوا من الناس وإن صرحوا بعدم القبول والاستجابة والاتباع، ولكن بالرفق واللين، والحكمة والموعظة الحسنة.

قال تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ»:

يقول تعالى: قل لهم يا نبينا، ما هذا الحاجز الذي جعلتموه بيني وبينكم، والحال أنني بشر مثلكم، لا ملكًا، ولا جنيًا، وإنما أنا بشر مثلكم، وهذه المثلية تقتضي أن تسمعوني، وأن تؤمنوا لي ولا تكذبوني بعد ما قامت الأدلة الدالة على صدقي أنه «يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ»، وإذ الأمر كذلك

«فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ» يعني اسلكوا السبيل الموصل إليه، وهو صراطه المستقيم الذي رسمه لعباده، وأمرهم بسلوكه، فقال: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [الأنعام: ١٥٣]، «فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ» في الحال والمستقبل بعبادته وحده لا شريك له، «وَاسْتَغْفِرُوهُ» مما كان منكم في الماضي من الكفر والشرك، وهذا الأمر كقوله تعالى: «وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» [هود: ٣].

فائدة : في الجمع بين الأمر بالاستقامة والأمر بالاستغفار:

وفي الجمع بين الأمر بالاستقامة والأمر بالاستغفار إشارة إلى أن الإنسان مهما اجتهد في الاستقامة فلا يسلم من الزلل والخطأ، فعليه أن يستغفر الله ويتوب إليه، كما قال تعالى في حق المتقين: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» [آل عمران: ١٣٥].

ومهما اجتهد الإنسان في الطاعات والقربات فهو مقصّر في حق الله، ومحتاج إلى أن يستغفر الله، ولذلك قال تعالى: «فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [المزمل: ٢٠].

فالإنسان محتاج إلى ملازمة الاستغفار مما يكون منه من الزلل، ومما يكون منه من التقصير في حق الله؛ لأن ما يقوم به من حق الله، دون ما يجب عليه لله سبحانه.

ثم توعد الله تعالى من أصر على الشرك بعد هذا الأمر بالتوحيد، فقال سبحانه: «وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ»: «وَوَيْلٌ» كلمة زجر ووعيد، كثر مجيئها في القرآن الكريم. وقيل إن الويل وادٍ في جهنم، تستغيث جهنم بالله من شره، فكيف بساكنه؟!

ثم وصف الله تعالى المشركين بقوله: «الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ»، فهم لا يوقنون بلقاء الله، ولا يؤدون حق الله في مال الله؛ لأن الإيمان بلقاء الله المفضي إلى الجزاء على الأعمال، هو الذي يدفع الإنسان إلى فعل الخير، ليجد بره وذخره وثوابه عند الله، كما قال تعالى: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا» [الإنسان: ٨- ١٢].

أما المكذبون بلقاء الله فإنهم لا يطعمون الطعام، ولا يحضون عليه، كما قال تعالى: «أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ» [الماعون: ١- ٣]، وقال تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ» [المدثر: ٣٨- ٤٦].

وعلى طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترهيب والترغيب، لما توعد الله المشركين أتبعه بما وعد به المؤمنين، فقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ»: يعني: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، ومنها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، كما صرح بذلك ربنا سبحانه في قوله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» [البقرة: ٢٧٧]، ومعنى قوله تعالى: «فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» [التين ٦]، أي أجر دائم لا ينقطع، والمراد به الجنة، لأن الجنة دائمة، لا تفنى ولا تبيد، كما قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» [البينة: ٧- ٨].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ومعهم بفضله وكرمه، وجوده ومنه.

وللحديث بقية، إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة فصلت

الحلقة الثانية

«قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ» [فصلت: ٩- ١٨].

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

دلائل التوحيد:

قال الرازي -عفا الله عنه-:

اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم فِي الْآيَةِ الْأُولَى أَنْ يَقُولَ: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ» أَرْدَفَهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِثْبَاتُ الشَّرِكَةِ بَيْنَهُ تَعَالَى وَبَيْنَ هَذِهِ الْأَصْنَامِ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَالْمَعْبُودِيَّةِ، وَذَلِكَ بِأَنْ بَيَّنَ كَمَالَ قُدْرَتِهِ وَحِكْمَتِهِ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي مُدَّةٍ قَلِيلَةٍ، فَمَنْ هَذَا صِفَتُهُ كَيْفَ يَجُوزُ جَعْلُ الْأَصْنَامِ الْخَسِيسَةِ شُرَكَاءَ لَهُ فِي الْإِلَهِيَّةِ وَالْمَعْبُودِيَّةِ؟. [التفسير الكبير (٢٧/٥٤٣)].

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: «قُلْ» يا نبينا لهؤلاء المشركين: «أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا»؟! الاستفهام للإنكار والتوبيخ، والمعنى: كيف تكفرون بالله الخالق، وتجعلون له أندادًا في العبادة، وأنتم تعلمون أنه لا ند له في الخلق، «أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» [النحل: ١٧].

وقوله تعالى: «ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ» معناه: الَّذِي فَعَلَ هَذَا الْفِعْلَ، وَخَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ، مَالِكُ جَمِيعِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَسَائِرِ أَجْنَاسِ الْخَلْقِ، وَكُلُّ مَا دُونَهُ مَمْلُوكٌ لَهُ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ نِدٌّ؟ هَلْ يَكُونُ الْمَمْلُوكُ الْعَاجِزُ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ نِدًّا لِمَالِكِهِ الْقَادِرِ عَلَيْهِ؟! [جامع البيان (٢٤/٩٥)].

وَالْمُرَادُ بِالْيَوْمَيْنِ الْأَحَدُ وَالِاثْنَيْنِ، «وَجَعَلَ فِيهَا» أَيْ فِي الْأَرْضِ، «رَوَاسِيَ» جِبَالًا ثَوَابِتَ، «مِنْ فَوْقِهَا»، مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ، «وَبَارَكَ فِيهَا»، أَيْ فِي الْأَرْضِ بِمَا خَلَقَ فِيهَا مِنَ الْبِحَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْأَشْجَارِ وَالثِّمَارِ، «وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا» قَالَ الْحَسَنُ وَمُقَاتِلٌ: قَسَّمَ فِي الْأَرْضِ أَرْزَاقَ الْعِبَادِ وَالْبَهَائِمِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ: قَدَّرَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ مَا لَمْ يَجْعَلْهُ فِي الْبَلْدَةِ الْأُخْرَى، لِيَعِيشَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ بِالتِّجَارَةِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ.

قَالَ الْكَلْبِيُّ: قَدَّرَ الْخُبْزَ لِأَهْلِ قُطْرٍ، وَالتَّمْرَ لِأَهْلِ قُطْرٍ، وَالذُّرَةَ لِأَهْلِ قُطْرٍ، وَالسَّمَكَ لِأَهْلِ قُطْرٍ، وَكَذَلِكَ أَقْوَاتُهَا.

«في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ»، يُرِيدُ خَلْقَ مَا فِي الْأَرْضِ وَقَدَّرَ الْأَقْوَاتَ فِي يَوْمَيْنِ: يَوْمُ الثُّلَاثَاءِ وَالْأَرْبِعَاءِ، فَهُمَا مَعَ الْأَحَدِ وَالِاثْنَيْنِ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ، رَدَّ الْآخِرَ عَلَى الْأَوَّلِ فِي الذِّكْرِ، كَمَا تَقُولُ: تَزَوَّجْتُ أَمْسِ امْرَأَةً وَالْيَوْمَ ثِنْتَيْنِ، وَإِحْدَاهُمَا هِيَ الَّتِي تَزَوَّجْتَهَا بِالْأَمْسِ.

«سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ» وَمَعْنَاهُ: سَوَاءٌ لِلسَّائِلِينَ عَنْ ذَلِكَ. قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: مَنْ سَأَلَ عَنْهُ فَهَكَذَا الْأَمْرُ سَوَاءٌ، لَا زِيَادَةَ وَلَا نُقْصَانَ، جَوَابًا لِمَنْ سَأَلَ: فِي كَمْ خُلِقَتِ الْأَرْضُ وَالْأَقْوَاتُ؟.[تفسير البغوي (٥/٥٨)].

«ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ» أي علا وارتفع «وَهِيَ دُخَانٌ» وهو بخار الماء المتصاعد من الأرض، «فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا»: أي افعلا ما آمركما به، طوعًا أو كرهًا، فلا بد من الفعل.

قال العلماء: قال الله تعالى للسماء: أخرجي شمسك وقمرك ونجومك. وقال للأرض: أخرجي أنهارك وبحارك، وأشجارك وثمارك، «قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ».

«فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ» هما الخميس والجمعة، «وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا» أي ألقى في كل سماء ما أراد من الخلق، «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا»، فجعل الله تعالى النجوم زينة للسماء، وحفظًا من الشياطين أن تسترق السمع، كما قال تعالى: «وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ» [الملك: ٥]، وقال تعالى: «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ» [الصافات: ٦- ١٠].

وقوله تعالى: «ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» يقول سبحانه: ذلك الذي ذكرت لكم من خلق السموات والأرض وما فيهن، تقدير العزيز الذي قهر بعزته كل شيء، وهو العليم بكل شيء، «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [غافر: ٦٥].

قال ابن كثير- رَحِمَهُ اللهُ-: وَهَذَا الْمَكَانُ فِيهِ تَفْصِيلٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» [الْأَعْرَاف: ٥٤] فَفَصَّلَ هَاهُنَا مَا يَخْتَصُّ بِالْأَرْضِ مِمَّا اخْتَصَّ بِالسَّمَاءِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ الْأَرْضَ أَوَّلًا لِأَنَّهَا كَالْأَسَاسِ، وَالْأَصْلُ أَنْ يُبْدَأَ بِالْأَسَاسِ ثُمَّ بِمَا عَدَاهُ بِالسَّقْفِ، كَمَا قال عز وجل: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [البقرة:٢٨]، فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: «ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَالْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ» [النَّازِعَات: ٢٧- ٣٣].

فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ دَحْيَ الْأَرْضِ كَانَ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، فَالدَّحْيُ هُوَ مُفَسَّرٌ بِقَوْلِهِ: «أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا» [النازعات: ٣١]، وَكَانَ هَذَا بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، فَأَمَّا خَلْقُ الْأَرْضِ فَقَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ بِالنَّصِّ، وَبِهَذَا أَجَابَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِيمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ صَحِيحِهِ فَإِنَّهُ قَالَ:

وَقَالَ الْمِنْهَالُ-رَحِمَهُ اللهُ-: عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ-رَحِمَهُ اللهُ-: قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إِنِّي لَأَجِدُ فِي الْقُرْآنِ أَشْيَاءَ تَخْتَلِفُ عَلَيَّ. وذكر أشياء، منها: قَالَ: قال تَعَالَى: «ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَالْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ» [النَّازِعَات: ٢٧- ٣٣]. فذكر خلق السماء قبل الأرض. ثم قال تعالى: «قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا» إلى قوله تعالى: «طَائِعِينَ» فَذَكَرَ فِي هَذِهِ خَلْقَ الْأَرْضِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ.

فقال ابن عباس رضي الله عنه: خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ فِي يَوْمَيْنِ، ثُمَّ دَحَى الْأَرْضَ، وَدَحْيُهَا أَنْ أَخْرَجَ مِنْهَا الْمَاءَ وَالْمَرْعَى، وَخَلَقَ الْجِبَالَ وَالرِّمَالَ وَالْجَمَادَ وَالْآكَامَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، فذلك قوله تعالى: دَحَاهَا.

وقوله: خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ فخلق الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا مِنْ شَيْءٍ فِي أَرْبَعَةِ أيام، وخلق السموات فِي يَوْمَيْنِ.

ثم قال ابن عباس رضي الله عنه: فَلَا يَخْتَلِفَنَّ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ؛ فَإِنَّ كُلًّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عز وجل [تفسير ابن كثير(٤/٩٢و٩٣)، وفتح الباري(٨/٥٥٥و٥٥٦)].

إنذار المصرّين على الشرك:

« فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ » [فصلت: ١٣-١٨].

لما بيّن الله تعالى دلائل التوحيد بما لا يدع مجالاً للشك، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: «فَإِنْ أَعْرَضُوا» عن هذه الآيات، ولم يؤمنوا لك، «فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ» يعني هلاكا مثل هلاكهم، والصاعقة هي المهلكة من كل شيء.

قال الإمام العالم عَبْدُ بْنُ حُمَيْد - رَحِمَهُ اللهُ- في مُسْنَده: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ عَنِ الأَجْلَحِ عَنِ الزِّيَالِ بْنِ حَرْمَلَةَ الأَسَدِيِّ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ يَوْمًا، فَقَالُوا: انْظُرُوا أَعْلَمَكُمْ بِالسِّحْرِ وَالْكِهَانَةِ وَالشِّعْرِ، فَلْيَأْتِ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتَ أَمْرَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، فَلْيُكَلِّمْهُ، وَلْنَنْظُرْ مَاذَا يَرُدُّ عَلَيْهِ. فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُ أَحَدًا غَيْرَ عُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، فَقَالُوا: أَنْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ. فَأَتَاهُ عُتْبَةُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ اللهِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ: أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ؟، فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ خَيْرٌ مِنْكَ، فَقَدْ عَبَدُوا الْآلِهَةَ الَّتِي عِبْتَ. وَإِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ خَيْرٌ مِنْهُمْ فَتَكَلَّمْ حَتَّى نَسْمَعَ قَوْلَكَ، إِنَّا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا سَخْلَةً قَطُّ أَشْأَمَ عَلَى قَوْمِكَ مِنْكَ، فَرَّقْتَ جَمَاعَتَنَا وَشَتَّتَّ أَمْرَنَا، وَعِبْتَ دِينَنَا وَفَضَحْتَنَا فِي الْعَرَبِ، حَتَّى لَقَدْ طَارَ فِيهِمْ أَنَّ فِي قُرَيْشٍ سَاحِرًا، وَأَنَّ فِي قُرَيْشٍ كَاهِنًا، وَاللهِ مَا نَنْتَظِرُ إِلَّا مِثْلَ صَيْحَةِ الْحُبْلَى، أَنْ يَقُومَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ بِالسُّيُوفِ حَتَّى نَتَفَانَى.

أَيُّهَا الرَّجُلُ! إِنْ كَانَ إِنَّمَا بِكَ الْحَاجَةُ، جَمَعْنَا لَكَ حَتَّى تَكُونَ أَغْنَى قُرَيْشٍ رَجُلًا وَاحِدًا، وَإِنْ كَانَ بِكَ الْبَاءَةُ، فَاخْتَرْ أَيَّ نِسَاءِ قُرَيْشٍ شِئْتَ، فَلْنُزَوِّجْكَ عَشْرًا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((فَرَغْتَ))؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ «حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» حَتَّى بَلَغَ- «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ» فَقَالَ عُتْبَةُ: حَسْبُكَ! حَسْبُكَ! مَا عِنْدَكَ غَيْرَ هَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لَا)). فَرَجَعَ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ شَيْئًا أَرَى أَنَّكُمْ تُكَلِّمُونَهُ بِهِ إِلَّا كَلَّمْتُهُ، قَالُوا: فَهَلْ أَجَابَكَ؟ قَالَ: لَا وَالَّذِي نَصَبَهَا بِنِيَةً، مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مما قاله، غَيْرَ أَنَّهُ أَنْذَرَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وثمود، قالوا: وَيْلَكَ! يكلمك الرجل بالعربية لَا تَدْرِي مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ ذِكْرِ الصَّاعِقَةِ. [تفسير ابن كثير(٤/٩٠)].

ثم فسّر الله تعالى كيف أخذت الصاعقة عادا وثمود، فقال: «إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ»:

يعني أن الرسل عليهم السلام بذلوا جهدهم في دعوة أقوامهم، وأتوهم من كل طريق، ودخلوا عليهم من كل الجهات، وفي كل الأوقات، كما قال نوح عليه السلام: « قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا» [نوح: ٥- ٩].

فما كان جواب القوم إلا أن: «قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ»:

يعنون: ما أنتم إلا بشر مثلنا، فكيف فضَّلكم الله علينا؟! لو أراد الله أن يرسل إلينا رسلاً لأنزل علينا ملائكة من السماء، فما نحن لكم بمؤمنين، ولكنا بما أرسلتم به كافرون.

كان هذا موقف كل من عاد وثمود، فحقت عليهم كلمة العذاب، وأخذتهم الصاعقة، على النحو التالي:

«فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ»: وكلمة «بِغَيْرِ الْحَقِّ» جاءت لزيادة التشنيع عليهم؛ لأن المتكبر بالحق هو الله، كما سمى نفسه، وكما في الحديث: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ). [صحيح مسلم ٢٠٢٣].

«فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا» لنبيهم هود عليه السلام: «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً» يعنون: بأيّ قوة تهددنا، ونحن القوة العظمى على وجه الأرض، وكان الله تعالى زادهم بسطة في الجسم، فلم يكن لهم نظير في قوة أبدانهم، كما قال تعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ» [الفجر: ٦- ٨]، وقد دعاهم هود عليه السلام إلى شكر الله عز وجل على هذه النعمة، فقال: «وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [الأعراف:٦٩]، فكفروا نعمة الله، فأنذرهم هود عليه السلام عذاب الله، فاغتروا بقوتهم، وظنوا أنها مانعتهم من الله، «وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً» حتى تهددنا به! قال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً»؟! فقوة الإنسان ليست ذاتية، وإنما هي من الله، «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ» [الروم: ٥٤]، فالله تعالى هو القوي، وهو خالق القوة وواهبها لمن يشاء، ومتى شاء سلبها ممن يشاء، ولكنهم قوم يجهلون ويجحدون، كما قال تعالى: «وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ».

فلما أراد الله تعالى أن يزيل هذه القوة العظمى من على وجه الأرض، ما أرسل عليهم طيرًا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، ولا أنزل عليهم جندًا من السماء، ولكن أرسل عليهم الهواء فأهلكهم عن آخرهم.

قال تعالى: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ»، وقال تعالى: «وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ» [الحاقة: ٦- ٨]، وقال تعالى: «كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ» [القمر: ١٨- ٢١].

وهكذا أهلك الله عادًا وعذَّبهم في الدنيا، «وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ».

«وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى»: المراد بالهداية التي حصلت لهم هداية الدلالة والبيان والإرشاد، التي يقوم بها الرسل، كما قال تعالى: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا» [الإنسان: ٢- ٣]، فصالح عليه السلام قد دعا قومه إلى توحيد الله، ولفت أنظارهم إلى دلائل التوحيد، فعموا وصموا، واشتروا الضلالة بالهدى،«فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ» وهم صالح ومن آمن معه.

فالواجب على كفار قريش وغيرهم أن يعتبروا بما أصاب الكفار من قبلهم، وأن يحذروا أن يصيبهم مثل ما أصابهم، فإن الله إن أمهلهم لن يهملهم، كما قال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ). قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ «وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» [هود: ١٠٢] [صحيح البخاري: ٣٥٤].

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

تفسير سورة فصلت

الحلقة الثالثة

قال تعالى « وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ» [فصلت: ١٩- ٢٨].

كتبه/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

الجوارح شهود فاحذروهم:

لما ذكر الله تعالى عذاب الخزي الذي أحله بعاد وثمود في الحياة الدنيا، ثم قال: «وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ»، ذكر سبحانه في هذه الآيات ما لهم من العذاب المهين في الآخرة، فقال تعالى: «وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ»:

واذكر يا نبينا لقومك، وذكرهم «يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ» وهذه أكبر وصمة خزي وعار، يصمهم الله بها، وهي كونهم أعداء الله، «فَهُمْ يُوزَعُونَ»: أي: يُجمع آخرهم على أولهم، حتى يسيروا في صف منتظم، لا يتقدم أحد على أحد ولا يتأخر.

«حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا» ورأوا العذاب حاولوا التنصل مما كانوا عليه من الكفر والشرك، لعلهم ينجون، كما قال تعالى: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ» [الأنعام: ٢٣]، وقال تعالى: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ» [المجادلة: ١٨]، فإذا أنكروا وكذبوا ختم الله على أفواههم، فشهدت عليهم جوارحهم بما كانوا يعملون، كما قال تعالى: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» [يس: ٦٥]، وقال هنا: «حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» وهم يسمعون، حتى إذا فرغت الجوارح من الإدلاء بشهادتها أنطق

الله ألسنتهم، فأقبلوا على جوارحهم باللوم والعتاب على شهادتها عليهم: «وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم فَضَحِكَ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ». قَالَ: قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَقُولُ يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ قَالَ: يَقُولُ بَلَى. قَالَ: فَيَقُولُ فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ انْطِقِي. قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ قَالَ: فَيَقُولُ بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا. فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ» [صحيح مسلم ٢٩٦٩].

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا رَجَعَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُهَاجِرَةُ الْبَحْرِ قَالَ: «أَلَا تُحَدِّثُونِي بِأَعَاجِيبِ مَا رَأَيْتُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ». قَالَ فَتِيَّةٌ مِنْهُمْ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَرَّتْ بِنَا عَجُوزٌ مِنْ عَجَائِزِ رَهَابِينِهِمْ تَحْمِلُ عَلَى رَأْسِهَا قُلَّةً مِنْ مَاءٍ فَمَرَّتْ بِفَتًى مِنْهُمْ فَجَعَلَ إِحْدَى يَدَيْهِ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ثُمَّ دَفَعَهَا فَخَرَّتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا فَانْكَسَرَتْ قُلَّتُهَا فَلَمَّا ارْتَفَعَتِ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ فَقَالَتْ: سَوْفَ تَعْلَمُ يَا غُدَرُ إِذَا وَضَعَ اللهُ الْكُرْسِيَّ وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَتَكَلَّمَتِ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُ كَيْفَ أَمْرِي وَأَمْرُكَ عِنْدَهُ غَدًا. قَالَ يَقُولُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم: «صَدَقَتْ صَدَقَتْ؛ كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟!». [صحيح سنن ابن ماجه للألباني ٣٢٣٩].

وقوله تعالى: «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ» أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم: ما كنتم تتكتمون منا الذي كنتم تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم، لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم، ولهذا قال تعالى: «وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ» أي هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيرا مما تعملون هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم، «فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» أي في مواقف القيامة، خسرتم أنفسكم وأهليكم. [تفسير ابن كثير٤/٩٦].

عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ - أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ - كَثِيرَةٌ شَحْمُ بُطُونِهِمْ، قَلِيلَةٌ فِقْهُ قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتَرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ قَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا، وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا. وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: «وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ» الآيَةَ. [صحيح البخاري ٤٨١٧].

فالواجب على الإنسان أن يراقب الله تعالى في جميع أحواله، وفي كل أوقاته، وأن يكون من الموقنين بأن الله سميعٌ لكل الأقوال، عليمٌ بكل الأفعال، «يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» [التغابن: ٤]، فليحذر العاقل أن يسمع الله تعالى منه القبيح، أو يراه منه. وما أحسن قول القائل:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل
خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما تخفي عليه يغيب

قال الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [المجادلة: ٧].

قال تعالى: «فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ» يعني أن النار مسكنهم ومنزلهم، صبروا عليها- وأنى لهم الصبر- أم لم يصبروا، كما قال تعالى: «يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا

سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» [الطور: ١٣- ١٦]، وقد اعترفوا هم أنفسهم بذلك، كما قال تعالى: « وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ » [إبراهيم: ٢١].

«وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ»: يعني إن يطلبوا من الله أن يرضى عنهم، ويقبل عذرهم، ويقيل عثرتهم، ويُكفِّرَ عنهم سيئاتهم، فلن يجيبهم الله إلى ما طلبوا لفوات أوانه، كما قال تعالى: « وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ » [فاطر: ٣٦- ٣٧].

أولياء الشيطان:

يقول تعالى: «وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ» يعني هيئنا لهم، وسلطنا عليهم الشياطين، كما قال تعالى: « وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ» [الزخرف: ٣٦- ٣٧]، «فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» من الدنيا وشهواتها، حتى تعلقت قلوبهم بها، «وَمَا خَلْفَهُمْ» من الآخرة، فأقنعوهم أنه لا بعث ولا حساب، ولا جنة ولا نار، « وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» [الجاثية: ٢٤]، وبهذا استحقوا العذاب، ولذا قال الله تعالى: «وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» أي كلمة العذاب «فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ» أي كما حَق القول على أمم من قبلهم قالوا مثل قولهم، من الجن والإنس، «إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ» حيث اشتروا الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة.

موقف المشركين من القرآن الكريم:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ»:

يخبر تعالى عما تواصى به كفار مكة، من عدم الاستماع للقرآن وعدم اتباعه، وأنهم نهى بعضهم بعضا عن ذلك، كما تواصوا إذا قرئ القرآن أن يرفعوا أصواتهم بالصفير والغناء، وغير ذلك من لغو الكلام، حتى لا يصل صوت القارئ إلى أحد من الناس، فلا يتبعه أحد، فيكونون بذلك قد غلبوا محمدًا صلى الله عليه وسلم وصرفوا الناس عنه، فتوعدهم الله على ما قالوا، فقال: «فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ»؛ لأن الحسن من أعمالهم غير مقبول، لكفرهم بربهم، قال تعالى: « مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ » [إبراهيم: ١٨]، وقال تعالى: « وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا» [الفرقان: ٢٣]، فإذا بطل الحسن من أعمالهم، لم يبق إلا الأسوأ ليجزيهم الله به، وهذا بخلاف المؤمنين، فإن الله تعالى يكفر عنهم سيئاتهم، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، كما قال تعالى: « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» [العنكبوت: ٧]، وقال تعالى: « وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ » [الزمر: ٣٣- ٣٥].

ثم بيّن الله تعالى جزاء الكافرين فقال: «ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ»:

«ذلك» مبتدأ، «جَزَاءُ» خبره، «الدار» عطف بيان، أو بدل، يعني أن جزاء أعداء الله هو النار، «لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ» وما هم منها بمخرجين، كما قال رب العالمين: « يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ » [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: « وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ » [السجدة: ٢٠]، ولذلك قال هنا: «جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ».

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

سورة فصلت

الحلقة الرابعة

«وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَٰٓؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ » [فصلت: ٢٩- ٣٦].

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

«وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ »:

أهل النار قسمان: أكابر متبوعون، وضعفاء تابعون، وكان الأكابر سببًا في كفر الضعفاء، فلما اجتمعوا في النار، قال الضعفاء: «رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ» في النار، ليذوقوا شديد العذاب؛ لأن النار دركات، أعلاها أخفها عذابًا، وأسفلها أشدها عذابًا، وقد تكرر سؤالهم هذا في أكثر من موضع، ولم يغن عنهم شيئًا، قال تعالى: «قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ » [الأعراف: ٣٨- ٣٩]، وقال تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا » [الأحزاب: ٦٤- ٦٨]، وقال تعالى: «هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۚ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ

عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقُّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ» [ص: ٥٥- ٦٤].

حقيقة الإيمان:

إن الإيمان ليس مجرد كلمات تُنطق، ولا حروف يترجمها اللسان، ولكن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب والأركان. والمراد بقول القلب: الاعتقاد، والمراد بقول اللسان النطق والإقرار، والمراد بعمل القلب: الأعمال الباطنة، من نحو الإخلاص، والإيمان، والإحسان، والتقوى، والخشية، والرهبة والرغبة، والخوف والرجاء، والمحبة والإنابة، والتوكل.

والمراد بعمل الأركان: الأعمال الظاهرة؛ من الصلاة والزكاة، والحج والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين وصلة الأرحام.

فهذه هي حقيقة الإيمان، قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

قال تعالى: «لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ» [البقرة: ١٧٧].

حقيقة الاستقامة:

وقوله تعالى هنا: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا» مجمل لهذا المفصل في سورة البقرة، فالقول هو قول القلب واللسان، كما ذكرنا، والاستقامة هي عمل القلب والأركان كما بيّنا.

وللعلماء في قوله تعالى: «ثُمَّ اسْتَقَامُوا» قولان:

ثم استقاموا على هذا القول «رَبُّنَا اللَّهُ» حتى ماتوا عليه، وكان آخر كلامهم لا إله إلا الله، وبهذا وصى الله تعالى، فقال: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ» [آل عمران: ١٠٢].

لقد علم الله تعالى أن من الذين قالوا ربنا الله من سيرجع عن هذا القول ويتخلى عنه، فقال سبحانه محذرًا عباده: «مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ» [المائدة: ٥٤]. فنسأل الله تعالى أن يربط على قلوبنا، ويثبت الإيمان في صدورنا.

والقول الثاني في قوله تعالى: «ثُمَّ اسْتَقَامُوا» أي لم يروغوا روغان الثعلب، وإنما استقاموا على صراط الله المستقيم، ففعلوا الواجبات، وتركوا المحرمات.

ومعنى ذلك أن الذين قالوا ربنا الله ولم يصلوا لم يستقيموا.

والذين قالوا ربنا الله ولم يصوموا لم يستقيموا. والذين قالوا ربنا الله ولم يزكوا لم يستقيموا.

والذين قالوا ربنا الله ولم يحجوا لم يستقيموا.

والذين قالوا ربنا الله وعقوا آباءهم لم يستقيموا.

والذين قالوا ربنا الله وقطعوا أرحامهم لم يستقيموا.

والذين قالوا ربنا الله وأكلوا الربا لم يستقيموا.

والذين قالوا ربنا الله وشربوا الخمر لم يستقيموا.

والذين قالوا ربنا الله وزنوا لم يستقيموا.

فما أحوجنا في هذه الأيام إلى الاستقامة على دين الله، فإنها سبب الخروج من كل الأزمات التي يعاني منها الناس اليوم، قال تعالى: «وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا» [الجن: ١٦- ١٧].

جزاء أهل الاستقامة:

إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا «يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ» [التوبة: ٢١]، تحمل إليهم هذه البشرى الملائكة، كما قال تعالى: «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ» عند الموت، وفي القبر، ويوم البعث،

«أَلاَّ تَخافُوا» مما أنتم قادمون عليه، ونفي الخوف يستلزم ثبوت الأمن، «وَلا تَحْزَنُوا» على ما تفارقون من أهل ومال وولد، ونفي الحزن يستلزم ثبوت الفرح والسرور، «وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» على ألسنة الرسل، «نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ» أَيْ تَقُولُ الْمَلائِكَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الاحْتِضارِ: نَحْنُ كنا أولياءكم في الحياة الدنيا، أَيْ قُرَنَاءَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، نُسَدِّدُكُمْ وَنُوَفِّقُكُمْ، وَنَحْفَظُكُمْ بِأَمْرِ اللهِ، وَكَذَلِكَ نَكُونُ مَعَكُمْ فِي الْآخِرَةِ، نُؤْنِسُ مِنْكُمُ الْوَحْشَةَ فِي الْقُبُورِ، وَعِنْدَ النَّفْخَةِ فِي الصُّورِ، وَنُؤَمِّنُكُمْ يَوْمَ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَنُجَاوِزُ بِكُمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَنُوصِلُكُمْ إِلَى جَنَّاتِ النَّعِيمِ، «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ» أَيْ فِي الْجَنَّةِ مِنْ جَمِيعِ مَا تَخْتَارُونَ مِمَّا تَشْتَهِيهِ النُّفُوسُ وَتَقَرُّ بِهِ الْعُيُونُ، «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ» أَيْ مَهْمَا طَلَبْتُمْ وَجَدْتُمْ وَحَضَرَ بين أيديكم كَمَا اخْتَرْتُمْ، «نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ»، أَيْ ضِيَافَةً وَعَطَاءً وَإِنْعَامًا مِنْ غَفُورٍ لِذُنُوبِكُمْ، رَحِيمٍ بِكُمْ رءوف، حَيْثُ غَفَرَ وَسَتَرَ وَرَحِمَ وَلَطَفَ. [تفسير ابن كثير(٤/٩٩)].

ولولا مغفرته ورحمته ما دخلتم جنته، كما في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم يَقُولُ: "لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ". قَالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "لا، وَلا أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَلا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ» [صحيح البخاري: ٥٦٧٣].

فضل الدعوة إلى الله:

«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ»:

لما حضَّ الله تعالى على الاستقامة ورغَّب فيها، ذكر فضل الدعوة إلى الاستقامة؛ ليفيد أن استقامة الإنسان في نفسه لا تكفي لكمال نجاته، بل عليه أن يدعو غيره إلى الاستقامة، كما صرح ربنا سبحانه بذلك في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فاستقاموا في أنفسهم، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أي دعوا غيرهم إلى الاستقامة، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١- ٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، أي: إذا أمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر، إذا استقمتم في أنفسكم، ودعوتم غيركم إلى الاستقامة فلم يستجيبوا لكم، فليس عليكم من آثامهم شيء. ولما فهم بعض السلف من الآية أنه لا يضره من ضل وإن لم يَدْعُه إلى الهدى، قام الصديق رضي الله عنه فصحَّح المفاهيم:

عَنْ إِسْمَاعِيلَ عَنْ قَيْسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بَعْدَ أَنْ حَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوَاضِعِهَا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ" [سنن الترمذي ٥٠٥٠ وصححه الألباني].

فإذا رُزقت الاستقامة فكن داعيًا إلى الاستقامة. وإذا رُزقت الهدى فكن داعيًا إلى الهدى. وإذا رُزقت الصلاح فكن داعيًا إلى الصلاح، وهكذا.

واعلم أن الدعوة هي أشرف الوظائف على الإطلاق؛ لأنها وظيفة المصطفين الأخيار من الرسل وأتباعهم، قال الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

«وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً» استفهام إنكاري، ومعناه: لا أحد أحسن قولا «ممَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ»، فأحسن الأقوال الدعوةُ إلى الله، وأحسَن الكلام الكلامُ في الدعوة إلى الله، وقد بيَّن صلى اللهُ عليه وسلم فضل الدعوة في أحاديثه الشريفة:

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: إِنِّي أُبْدِعَ بِي فَاحْمِلْنِي. فَقَالَ: "مَا عِنْدِي". فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ: أَنَا أَدُلُّهُ عَلَى مَنْ يَحْمِلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ» [صحيح

مسلم: ١٨٩٣].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: 'مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلاَلَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لاَ يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا' [صحيح مسلم: ٢٦٧٤].

ويوم خيبر أعطى النبي صلى الله عليه وسلم الراية لعلي رضي الله عنه وقال له: 'انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ' [صحيح البخاري: ٣٧٠١].

فليحرص كل مسلم أن يكون داعية إلى الله، ابتغاءَ مرضاة الله.

وقوله تعالى: «وَعَمِلَ صَالِحًا»: فهو توكيد على الداعية على الاجتهاد في صالح الأعمال، وأن لا ينشغل بالدعوة عن العمل في نفسه، فإن الدعوة بالعمل أبلغ من الدعوة بالقول، ولذلك قيل: عمل رجل في ألف رجل، خير من قول ألف رجل لرجل.

وفي توسيط الدعوة بين الاستقامة والعمل ما يؤكد على ضرورة استقامة الداعية في نفسه، واجتهاده في طاعة ربه، حتى لا يدخل في عموم قول الله تعالى: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » [البقرة: ٤٤].

وقوله تعالى: «وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» فيه إشارة إلى اعتزاز الداعية الذي استقام على دين الله، ودعا إلى الله، واعتز بهذا الدين، وبهذا العمل، وبهذه الدعوة، وقال بكل فخر واعتزاز: إنني من المسلمين لله، المنقادين لأمره.

أخلاق الدعاة:

«وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ»:

إنه لاَ بد للداعية من التخلق بمكارم الأخلاق، حتى يستطيع تبليغ دعوته، وحتى يقبلها المدعوون، ومن أهم هذه الأخلاق: الحلم، والصبر، والصفح، والعفو، والإحسان.

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله تعالى المؤمنين بالصبر عند الغضب، وبالحلم عند الجهل، وبالعفو عند الإساءة. [جامع البيان(٢٤/١١٩)].

فعلى الداعية أن يحلم على من يجهل عليه، وأن يعفو عمن ظلمه، وأن يحسن إلى من أساء إليه.

قال الله تعالى: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » [الأعراف: ١٩٩]، وقال تعالى: «سَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » [آل عمران: ١٣٣-١٣٤]، وقال تعالى: «وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ » [الرعد: ٢٢- ٢٤].

فنجاح الداعية في دعوته متوقف على مكارم أخلاقه، ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ » [آل عمران: ١٥٩].

«وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»:

يقول تعالى ذكره: وإما يلقين الشيطان في نفسك وسوسة من حديث النفس، إرادة حملك على مجازاة المسيء بالإساءة، ودعائك إلى مساءته، فاستجر بالله، واعتصم من خطواته، إن الله هو السميع لاستعاذتك منه واستجارتك به من نزغاته، ولغير ذلك من كلامك وكلام غيرك، العليم بما ألقى في نفسك من نزغاته، وحدثتك به نفسك، وبما يذهب ذلك من قلبك، وغير ذلك من أمورك وأمور خلقه. [جامع البيان(٢٤/١٢٠)].

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سورة فصلت

الحلقة الخامسة

« وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ » [فصلت: ٣٧- ٤٦].

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

من دلائل التوحيد الليل والنهار والشمس والقمر:

يقول تعالى: (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ) ومن آياته الدالة على أنه لا إله إلا هو الليل والنهار، والشمس والقمر، فهو سبحانه الذي خلقهن، وهو الذي سخرهن، (ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) [الرحمن: ٥]، (كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ) [لقمان: ٢٩]، (لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [يس: ٤٠]، ولا يستطيع أحد أبدًا أن يغيّر هذا النظام ولا أن يبدله، وذلك أكبر دليل على أن الله الذي خلقهن وسخرهن هو الأحق بالعبادة، وبذلك أقام الخليل إبراهيم عليه السلام الحجة على النمرود، كما قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ) [البقرة: ٢٥٨]، وقال تعالى: (قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [القصص: ٧١- ٧٣].

ولقد ملكت عظمة الشمس والقمر قلوب بعض الناس فعبدوهما من دون الله، فقال الله تعالى لهم: (لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)، فإن كنتم رأيتم الشمس والقمر عظيمتين، فإن عظمتهما

تدل على عظمة خالقهما، فهو أحق بالعبادة منهما، وهذا الذي صرح به الهدهد، حين رأى أهل سبأ يسجدون للشمس من دون الله، كما قال تعالى في قصة سليمان عليه السلام: (وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩) [النمل: ٢٠- ٢٦].

ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩)، يقول سبحانه: فإن استكبروا عن السجود لله سبحانه وتعالى، وعن إفراده بالعبادة بعد إظهار هذه الأدلة، وإقامة هذه البراهين، وأبوا إلا أن يسجدوا لغيره استقلالاً أو معه، فإن الله تعالى غني حميد، مستغنٍ عن عبادتهم بعبادة الملائكة المقربين، الذين (يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩) أي لا يملون من كثرة التسبيح والتحميد، ولا يفترون عن ذكر الله وعبادته والسجود له.

ومن دلائل التوحيد إحياء الأرض بعد موتها:

(وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ) الدالة على عظيم قدرته وكمال سلطانه ووحدانيته، (أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً) أي يابسة ميتة، لا حياة فيها، ولا حركة لها، (فإذا أنزلنا عليها الماء) أي المطر، (اهتزت) بالنبات، (وربت) أي زادت وارتفعت، ولولا الله ما أنبتت كلأ، ولا أخرجت عشبًا. قال تعالى: (هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل: ١٠- ١١]، وقال تعالى: (فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ) [عبس: ٢٤- ٣٢]، وقال تعالى: (أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) [الواقعة: ٦٣- ٧٠]، وقال تعالى: (أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) [النمل: ٦٠].

فإحياء الأرض الموات من دلائل التوحيد، وهو أيضا من دلائل البعث بعد الموت، ولذلك قال تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ)، فكما يحيي الله تعالى الأرض الميتة بالماء كذلك يحيي موتى بني آدم يوم القيامة، وقد كثر في القرآن الكريم هذا التشبيه.

قال تعالى: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ) [الزخرف: ٩- ١١].

وقال تعالى: (وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ) [ق: ٩- ١١]، أي كذلك يكون خروجكم من الأرض يوم القيامة، كما أخرج الله تعالى النبات من الأرض بإنزال الماء عليها من السماء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ». قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ أَبَيْتُ. قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالَ: «ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً. فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [صحيح البخاري: ٤٨١٤].

ولما أبان الله تعالى آيات التوحيد وأظهرها لكل ذي لُبّ، توعد الذين عموا عنها، ولم يؤمنوا بها، فقال تعالى: (إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون

علينا) أي: يميلون عن حُججنا وأدلتنا، ويمرون عليها وهم عنها معرضون، ويزيغون عنها تكذيبًا لها وجحودًا، (لا يخفون علينا)، فالله بهم عليم، ولأقوالهم سميع، وبأعمالهم بصير، وسيجزيهم بما كانوا يعملون، كما سبق في السورة، (فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ) [فصلت: ٢٧- ٢٨]، فأي الفريقين خير؟ (أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة)؟ فليختر كل امرئ لنفسه ما يشاء، فقد ظهر سبيل الرشاد الذي يوصل إلى الجنة، وظهر سبيل الغي الذي يفضي إلى النار، ف (اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير).

وهذا السياق أشبه ما يكون بقوله تعالى: (وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ ۖ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا) [الكهف: ٢٩- ٣١].

فضل القرآن الكريم وجزاء من كفر به:

يقول تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ):

(إن) حرف توكيد ونصب، والموصول وصلته اسم (إن)، و (الذكر) هو القرآن الكريم، كما قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) [الحجر: ٩]، وخبر (إن) محذوف، لتفخيم شأنه، وتعظيم أمره؛ لأن التهديد بالمجهول أبلغ في الزجر من التصريح به.

ثم وصف الله الذكر الذي كفروا به بما يدل على عظيم جرمهم، فقال: (وإنه لكتاب عزيز) لأنه كلام الله العزيز، (وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ) [الزخرف: ٤]، لأنه كلام الله العلي الحكيم.

ولعزته (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) أي لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيه بالتغيير والتبديل، ولا بالزيادة والنقصان، لأن الله حافظه، كما قال سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ) [الحجر: ٩].

وقوله تعالى: (تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) بيان لمصدر هذا القرآن، وأنه كلام الله الحكيم، في أفعاله وأقواله، وأوامره ونواهيه، فله الحمد في الأولى والآخرة.

ثم عزّى الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وواساه فيما يسمع من قومه من الأذى والتكذيب، فقال تعالى: (مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ)، كما قال تعالى: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [البقرة: ١١٨]، وقال تعالى: (كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) [الذاريات: ٥٢- ٥٣]، والمقصود حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصبر، والتأسي بإخوانه النبيين في ذلك، حتى يأتي وعد الله، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ) [الأنعام: ٣٤].

ثم يفتح الله تعالى باب التوبة أمام العصاة والمعاندين والمكذبين، ويحذرهم من الإصرار، فيقول سبحانه: (إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ)، فهو سبحانه ذو مغفرة لمن تاب وأناب، وذو عقاب أليم لمن أصر واستكبر.

وهذه الآية كقوله تعالى: (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ) [الرعد: ٦]، وقوله تعالى: (نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ) [الحجر: ٤٩- ٥٠]، وقوله تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) [الأنعام: ١٦٥].

ولما قال تعالى في أول السورة: (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) قالوا: لو كان هذا القرآن أعجميًا! فأعلم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن هذا السؤال منهم على سبيل التعنت، وأنه لو أجابهم إلى ما سألوا لم يؤمنوا، فقال تعالى: (ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي) يريدون كيف يكون

الكتاب أعجميا والرسول عربيا؟! كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٩]، فالقوم معاندون ومستكبرون، ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنون، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩ - ١١١].

ثم بين الله تعالى فضل القرآن وبركته، وأهله الذين ينتفعون به، فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾، فالقرآن الكريم هدى وشفاء للذين آمنوا دون غيرهم، فهو هدى يهديهم إلى صراط الله المستقيم، وشفاء لما في صدورهم من أمراض الريب والشك، والنفاق والكفر، وهو أيضا شفاء للأبدان من الأمراض والأسقام والأوجاع، فمن كان مريضا فليضع يده على موضع الألم، وليقرأ الفاتحة، والمعوذات، يبرأ بإذن الله.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَنْفُثُ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْمَرَضِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ بِهِنَّ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَتِهَا» [صحيح البخاري: ٥٧٣٥].

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَتَوْا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ فَلَمْ يَقْرُوهُمْ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ لُدِغَ سَيِّدُ أُولَئِكَ فَقَالُوا هَلْ مَعَكُمْ مِنْ دَوَاءٍ أَوْ رَاقٍ؟ فَقَالُوا: إِنَّكُمْ لَمْ تَقْرُونَا، وَلَا نَفْعَلُ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا. فَجَعَلُوا لَهُمْ قَطِيعًا مِنَ الشَّاءِ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ بِأُمِّ الْقُرْآنِ، وَيَجْمَعُ بُزَاقَهُ، وَيَتْفِلُ، فَبَرَأَ، فَأَتَوْا بِالشَّاءِ، فَقَالُوا لَا نَأْخُذُهُ حَتَّى نَسْأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَسَأَلُوهُ فَضَحِكَ، وَقَالَ: « وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ، خُذُوهَا، وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ» [صحيح البخاري ٥٧٣٦].

فهذه بركة القرآن التي ينتفع بها المؤمنون، أما الذين لا يؤمنون فهم منها محرومون، ولذلك قال تعالى: (والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى)، فهم صمّ بكمّ عمي، وهم مع ذلك (ينادون من مكان بعيد)، والسميع حين ينادى من مكان بعيد لا يسمع، فكيف بالأصم؟! ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦- ٧].

ومرة ثانية يؤكد الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن موقف قومه منه هو نفسه موقف السابقين من رسلهم، فيقول تعالى: (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) فمنهم من آمن ومنهم من كفر، كما اختلف قومك فيما جئتهم به، فأنجى الله موسى والمؤمنين، وأهلك الكافرين، وسينجيك والمؤمنين، وسيهلك الكافرين، فاصبر حتى يأتي الله بأمره، ف ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧]، (ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم وإنهم لفي شك منه مريب).

ثم بين سبحانه غناه عن عباده، وعدله معهم، فقال: (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد):

يقول تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ ثوابه ونفعه، ومن عمل السيئات فعلى نفسه وزرها وضررها، والله غني عن العالمين، لا تنفعه الطاعات، ولا تضره السيئات، وهو سبحانه يقضي بينهم بالقسط، فلا يهضم حقا، ولا يُحَمِّلُ نفسًا وزر نفس أخرى، وقد صرَّح ربنا سبحانه وتعالى في الحديث القدسي بما صرح به في هذه الآية من غناه وعدله:

عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: « يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ » [صحيح مسلم ٢٥٧٧].

وللحديث بقية إن شاء الله والحمد لله رب العالمين.

سورة فصلت

الحلقة السادسة

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ

[فصلت: ٤٧- ٥٤].

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

إن الله عنده علم الساعة:

لما بيّن سبحانه أنه لا يمنع العذاب عن مستحقيه من الكافرين إلى أجل مسمى، وهو القيامة، وكانوا من شدة تكذيبهم به يقولون متى هو؟ قال سبحانه: «إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ»: وتقديم المجرور على متعلّقه لإفادة الحصر، أي إلى الله يفوّض علم السّاعة لا إليّ النبي ، فهو قصر قلب.

وردّ عليهم بطريق الأسلوب الحكيم، أي الأجدر أن تعلموا أنْ لا يعلم أحد متى السّاعة، وأن تؤمنوا بها، وتستعدّوا لها. ومثله قول النبي صلى الله عليه وسلم وسأله رجل من المسلمين: متى الساعة؟ فقال له: ((وَيْحَكَ مَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا)) [صحيح البخاري ٦١٧١]، أي: استعدادك لها أولى بالاعتناء من أن تسأل عن وقتها.

والرّد: الإرجاع، وهو مستعمل لتفويض علم ذلك إلى الله، والتبرؤ من أن يكون للمسئول علم به، فكأنّه جيء بالسؤال إلى النّبي صلى الله عليه وسلم فردّه إلى الله. [التحرير والتنوير(٢٥/٥)].

ثم ذكر الله تعالى مثلين لإحاطته علمًا بكل خفي، فقال تعالى: «وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ» وهذه الآية كقوله تعالى: « إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ » [لقمان: ٣٤]، وقوله تعالى: «وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» [الأنعام:

٥٩]، وقوله تعالى: «اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ» [الرعد: ٨- ٩].

ثم بيّن سبحانه تبرؤ المشركين من آلهتهم، وتبرؤ آلهتهم منهم، فقال تعالى: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ» يقول سبحانه أنه ينادي المشركين يوم القيامة توبيخا لهم على رؤوس الأشهاد: «وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ» [القصص: ٦٢]، فما كان جوابهم إلا أن «قالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ» أي ما منا من أحد اليوم يشهد بأن لك شريكا، «وَضَلَّ عَنْهُم» أي: غاب عنهم، «مَّا كَانُوا يَدْعُونَ من قَبْلُ»، كما قال تعالى: «وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّع بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ» [الأنعام: ٩٤]، وعندئذ أيقنوا بالبوار، «وَظَنُّوا» أي أيقنوا «مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ» أي: ما لهم من ملجأ يلجئون إليه، وأنهم هالكون لا محالة، كما قال تعالى: «وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا» [الكهف: ٥٢- ٥٣].

حال الناس في السراء والضراء:

يقول تعالى: «لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ» أي لا يمل ولا يفتر من سؤال الرب من فضله ما يحب من الصحة والعافية، والمال والولد، «وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ»، يعني إذا أصابه ما يكره في نفسه أو أهله، أو ماله أو ولده، انقطع رجاؤه، وقنط من رحمة ربه، وجلس حزينا مهموما، لا رجاء عنده في زوال الكرب، وانكشاف الغم. وهذه حالة الكافرين بربهم، كما قال تعالى: «لَا يَايْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» [يوسف: ٨٧]، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فإنهم يشكرون في السراء، ويصبرون في الضراء، وهم على يقين من أن الله تعالى سيغير الحال، ويجعل لهم من ضيقهم فرجًا ومخرجًا، ولذلك قال تعالى: «وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» [هود: ٩- ١١].

عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) [صحيح مسلم: ٢٩٩٩].

«وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا» فضلا، بلا استحقاق له علينا، «مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ» كأن يشفيه الله من مرض، أو يغنيه من الفقر، أو يعطيه بعد حرمان، «لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي»، وأنا أستحقه، ولم يشكر الله تعالى، بل كفر به، وكذب بلقائه، وقال: «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ» وهي الجنة، التي هي خير من نعيم الدنيا، وهذا كمال قال تعالى: «وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا» [الكهف: ٣٥- ٣٦]، وقال تعالى: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا» [مريم: ٧٧- ٨٠]، ووصف الله تعالى هذا العذاب الذي توعد به هذا الإنسان، فقال: «فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ».

وَلَمَّا حَكَى اللهُ تَعَالَى أَقْوَالَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْهِ بَعْدَ وُقُوعِهِ فِي الْآفَاتِ حَكَى أَفْعَالَهُ أَيْضًا فَقَالَ: «وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ» عَنِ التَّعْظِيمِ لِأَمْرِ اللهِ، وَالشَّفَقَةِ عَلَى خَلْقِ اللهِ، «بِجَانِبِهِ» أَيْ ذَهَبَ بِنَفْسِهِ وَتَكَبَّرَ وَتَعَظَّمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ» [العلق: ٦- ٧]، ثُمَّ إِنْ مَسَّهُ الضُّرُّ وَالْفَقْرُ أَقْبَلَ عَلَى دَوَامِ الدُّعَاءِ، وَأَخَذَ فِي الِابْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ، «وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ» أي كثير، فالعرب تعبّر بالعرض عن كثرة الكلام، يقولون: تكلم فلان فأعرض، إذا أطال الكلام بلا فائدة، ويقولون: تكلم فأوجز، إذا نطق بما فيه فائدة، والمراد أن الإنسان إذا مسه الشر ألحّ على ربه في الدعاء، وجدّ فضله، وإذا مسه الشر ألحّ على ربه في الدعاء، كما قال تعالى: «وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [يونس: ١٢]، وقال تعالى: «وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ

تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » [الزمر: ٨].

دعوة المشركين إلى التأمل:

«قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ»:

قال الرازي -عفا الله عنه-: اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ الْوَعِيدَ الْعَظِيمَ على الشرك، وَبَيَّنَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَرْجِعُونَ عَنِ الْقَوْلِ بِالشِّرْكِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيُظْهِرُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمُ الذِّلَّةَ وَالْخُضُوعَ بِسَبَبِ اسْتِيلَاءِ الْخَوْفِ عَلَيْهِمْ، وَبَيَّنَ أَنَّ الْإِنْسَانَ جُبِلَ عَلَى التَّبَدُّلِ، فَإِنْ وَجَدَ لِنَفْسِهِ قُوَّةً بَالَغَ فِي التَّكَبُّرِ وَالتَّعَظُّمِ، وَإِنْ أَحَسَّ بِالْفُتُورِ وَالضَّعْفِ بَالَغَ فِي إِظْهَارِ الذِّلَّةِ وَالْمَسْكَنَةِ، ذَكَرَ عَقِيبَهُ كَلَامًا آخَرَ يُوجِبُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ أَنْ لَا يُبَالِغُوا فِي إِظْهَارِ النُّفْرَةِ مِنْ قَبُولِ التَّوْحِيدِ، وَأَنْ لَا يُفْرِطُوا فِي إِظْهَارِ الْعَدَاوَةِ مَعَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ»:

وَتَقْرِيرُ هَذَا الْكَلَامِ: أَنَّكُمْ كُلَّمَا سَمِعْتُمْ هَذَا الْقُرْآنَ أَعْرَضْتُمْ عَنْهُ وَمَا تَأَمَّلْتُمْ فِيهِ وَبَالَغْتُمْ فِي النُّفْرَةِ عَنْهُ، حَتَّى قُلْتُمْ: «قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ» [فصلت]، ثُمَّ مِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ لَيْسَ الْعِلْمُ بِكَوْنِ الْقُرْآنِ بَاطِلًا عِلْمًا بَدِيهِيًّا، وَلَيْسَ الْعِلْمُ بِفَسَادِ الْقَوْلِ بِالتَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ عِلْمًا بَدِيهِيًّا، فَقَبْلَ الدَّلِيلِ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَأَنْ يَكُونَ فَاسِدًا، بِتَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا كَانَ إِصْرَارُكُمْ عَلَى دَفْعِهِ مِنْ أَعْظَمِ مُوجِبَاتِ الْعِقَابِ، فَهَذَا الطَّرِيقُ يُوجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتْرُكُوا هَذِهِ النُّفْرَةَ، وَأَنْ تَرْجِعُوا إِلَى النَّظْرَةِ وَالِاسْتِدْلَالِ، فَإِنْ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى صِحَّتِهِ قَبِلْتُمُوهُ، وَإِنْ دَلَّ عَلَى فَسَادِهِ تَرَكْتُمُوهُ، فَأَمَّا قَبْلَ الدَّلِيلِ فَالْإِصْرَارُ عَلَى الدَّفْعِ وَالْإِعْرَاضِ بَعِيدٌ عَنِ الْعَقْلِ، وَقَوْلُهُ: «مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» مَوْضُوعُ مَوْضِعِ مِنْكُمْ بَيَانًا لِحَالِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ. [التفسير الكبير (٢٧/ ٥٧٣)].

دلائل التوحيد:

وَلَمَّا ذَكَرَ هَذِهِ الْوُجُوهَ الْكَثِيرَةَ فِي تَقْرِيرِ التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ، وَأَجَابَ عَنْ شُبَهَاتِ الْمُشْرِكِينَ وَتَمْوِيهَاتِ الضَّالِّينَ قَالَ: «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»:

قال الرازي -عفا الله عنه-: قَالَ الْوَاحِدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: وَاحِدُ الْآفَاقِ أُفُقٌ، وَهُوَ النَّاحِيَةُ مِن نواحي الأرض، وكذلك آفاق السماء نواحيها وَأَطْرَافُهَا، وَالْمُرَادُ بِآيَاتِ الْآفَاقِ الْآيَاتُ الْفَلَكِيَّةُ وَالْكَوْكَبِيَّةُ، وَآيَاتُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَآيَاتُ الْأَضْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ وَالظُّلُمَاتِ، وَقَدْ أَكْثَرَ اللَّهُ منْهَا فِي الْقُرْآنِ، وَقَوْلُهُ: «وَفِي أَنفُسِهِمْ» الْمُرَادُ مِنْهَا الدَّلَائِلُ الْمَأْخُوذَةُ مِنْ كَيْفِيَّةِ تَكَوُّنِ الْأَجِنَّةِ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْحَامِ، وَحُدُوثِ الْأَعْضَاءِ الْعَجِيبَةِ وَالتَّرْكِيبَاتِ الْغَرِيبَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» [الذاريات: ٢١]، يَعْنِي نُرِيهِمْ مِنْ هَذِهِ الدَّلَائِلِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى إِلَى أَنْ تَزُولَ الشُّبُهَاتُ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَيَحْصُلَ فِيهَا الْجَزْمُ وَالْقَطْعُ بِوُجُودِ الْإِلَهِ الْقَادِرِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ، الْمُنَزَّهِ عَنِ الْمِثْلِ وَالضِّدِّ.

فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: «سَنُرِيهِمْ» يَقْتَضِي أَنَّهُ تَعَالَى مَا أَطْلَعَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْآيَاتِ إِلَى الْآنَ، وَسَيُطْلِعُهُمْ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ، وَالْآيَاتُ الْمَوْجُودَةُ فِي الْعَالَمِ الْأَعْلَى وَالْأَسْفَلِ قَدْ كَانَ اللهُ أَطْلَعَهُمْ عَلَيْهَا قَبْلَ ذَلِكَ، فكيف يستقيم تفسيركم للآية بما فسرتموها به؟!

قُلْنَا: إِنَّ الْقَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَدْ رَأَوْا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ إِلَّا أَنَّ الْعَجَائِبَ الَّتِي أَوْدَعَهَا اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ مِمَّا لَا نِهَايَةَ لَهَا، فَهُوَ تَعَالَى يُطْلِعُهُمْ عَلَى تِلْكَ الْعَجَائِبِ زَمَانًا فَزَمَانًا، وَمِثَالُهُ: كُلُّ أَحَدٍ رَأَى بِعَيْنِهِ بِنْيَةَ الْإِنْسَانِ وَشَاهَدَهَا، إِلَّا أَنَّ الْعَجَائِبَ الَّتِي أَبْدَعَهَا اللهُ فِي تَرْكِيبِ هَذَا الْبَدَنِ كَثِيرَةٌ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْرِفُونَهَا، وَالَّذِي وَقَفَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَكُلَّمَا ازْدَادَ وُقُوفًا عَلَى تِلْكَ الْعَجَائِبِ وَالْغَرَائِبِ فَصَحَّ بِهَذَا الطَّرِيقِ قَوْلُهُ «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ» [التفسير الكبير(٢٧/ ١٤٠)].

ولقد صدقهم الله وعده فكشف لهم عن آياته في الآفاق في خلال القرون الأربعة عشر التي تلت هذا الوعد، وكشف لهم عن آياته في أنفسهم. وما يزال يكشف لهم في كل يوم عن جديد.

وينظر الإنسان فيرى البشر قد كشفوا كثيرًا جدًا منذ ذلك الحين. فقد تفتحت لهم الآفاق. وتفتحت لهم مغاليق النفوس بالقدر الذي شاءه الله.

لقد عرفوا أشياء كثيرة. لو أدركوا كيف عرفوها وشكروا لكان لهم فيها خير كثير.

عرفوا منذ ذلك الحين أن أرضهم التي كانوا

يظنونها مركز الكون. إن هي إلا ذرة صغيرة تابعة للشمس. وعرفوا أن الشمس كرة صغيرة منها في الكون مئات الملايين. وعرفوا طبيعة أرضهم وطبيعة شمسهم- وربما طبيعة كونهم، إن صح ما عرفوه! وعرفوا الكثير عن مادة هذا الكون الذي يعيشون فيه. إن صح أن هناك مادة. عرفوا أن أساس بناء هذا الكون هو الذرة. وعرفوا أن الذرة تتحول إلى إشعاع. وعرفوا إذن أن الكون كله من إشعاع في صور شتى: هي التي تجعل منه هذه الأشكال والأحجام! وعرفوا الكثير عن كوكبهم الأرضي الصغير. عرفوا أنه كرة أو كالكرة. وعرفوا أنه يدور حول نفسه وحول الشمس. وعرفوا قاراته ومحيطاته وأنهاره. وكشفوا عن شيء من باطنه. وعرفوا الكثير من المخبوء في جوف هذا الكوكب من الأقوات. والمنثور في جوه من هذه الأقوات أيضًا! وعرفوا وحدة النواميس التي تربط كوكبهم بالكون الكبير، وتصرف هذا الكون الكبير.

ومنهم من اهتدى فارتقى من معرفة النواميس إلى معرفة خالق النواميس. ومنهم من انحرف فوقف عن ظاهر العلم لا يتعداه. ولكن البشرية بعد الضلال والشرود من جراء العلم، قد أخذت عن طريق العلم تثوب، وتعرف أنه الحق عن هذا الطريق.

ولم تكن فتوح العلم والمعرفة في أغوار النفس بأقل منها في جسم الكون. فقد عرفوا عن الجسم البشري وتركيبه وخصائصه وأسراره الشيء الكثير. عرفوا عن تكوينه وتركيبه، ووظائفه وأمراضه، وغذائه وتمثيله، وعرفوا عن أسرار عمله وحركته، ما يكشف عن خوارق لا يصنعها إلا الله.

وعرفوا عن النفس البشرية شيئًا؛ إنه لا يبلغ ما عرفوه عن الجسم. لأن العناية كانت متجهة بشدة إلى مادة هذا الإنسان وآلية جسمه أكثر مما كانت متجهة إلى عقله وروحه. ولكن أشياء قد عُرفت تشير إلى فتوح ستجيء.

وما يزال الإنسان في الطريق! ووعد الله ما يزال قائما: «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»:

والشطر الأخير من الوعد قد بانت طلائعه منذ مطلع هذا القرن بشكل ملحوظ. فموكب الإيمان يتجمع من فجاج شتى. وعن طريق العلم المادي وحده يفد كثيرون! وهناك أفواج وأفواج تتجمع من بعيد. ذلك على الرغم من موجة الإلحاد الطاغية التي كادت تغمر هذا الكوكب في الماضي. ولكن هذه الموجة تنحسر الآن. تنحسر- على الرغم من جميع الظواهر المخالفة- وقد لا يتم تمام هذا القرن العشرين الذي نحن فيه، حتى يتم انحسارها أو يكاد إن شاء الله. وحتى يحق وعد الله الذي لا بد أن يكون: «أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» وهو الذي أعطى وعده عن علم وعن شهود. [الظلال(٧/ ٢٥٢ - ٢٥٣)].

وهو الذي شهد لرسوله بالرسالة، وشهد لكتابه بأنه الحق، قال تعالى: «وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: «لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» [النساء: ١٦٦]، ولذلك قال لرسوله صلى الله عليه وسلم: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» [الرعد: ٤٣].

ولما لَمْ يبقَ بعد هذا لمتعنت مقالٌ، ولا شبهة أصلاً لضال، كان موضع المناداة على من استمر على عناده بقوله مؤكدًا لادعائهم إنهم على جلية من أمرهم، «أَلَا إِنَّهُمْ» أي الكفرة، «فِي مِرْيَةٍ» أي جحد وجدال، وشك وضلال «مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ» يعني بعد البعث، «أَلَا إِنَّهُ» يعني ربهم الذي ربَّاهم بنعمه، وأحسن إليهم بآلائه وفضله، «بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ» قدرةً وعلمًا، فلن يعجز عن إعادتهم بعد موتهم، كما قال تعالى: «قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ» [ق: ٤]، فذكر علمه المحيط بكل شيء، ثم ذكر مظاهر قدرته فقال: «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ» [ق: ٦- ٨]، فالعليم القدير لا يعجز عن بعث الموتى من قبورهم، «وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» [الأنعام: ٣٣]، «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ» [المعارج: ٤٢- ٤٤].

وإلى هنا انتهى تفسير سورة فصلت، ونبدأ في العدد القادم إن شاء الله تفسير سورة الشورى، والحمد لله رب العالمين.

سورة الشورى

الحلقة الأولى

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ
مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ
رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ
حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ
إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ
ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾
وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي
رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ
مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى
ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ »

[الشوري: ١- ١٠].

بين يدي السورة:

سورة الشورى سورة مكية، شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة، وبيان أصول الدين وأركان الإيمان، وقد ركّزت على الأصول الثلاثة: التوحيد، والنبوة، والبعث بعد الموت، لكن المحور الأساسي الذي تدور حوله آيات السورة الكريمة هو الوحي والنبوة، ولذلك افتتحت السورة بقوله تعالى: «كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»، وخُتمت بقوله سبحانه: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ

نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وقد سميت السورة بهذا الاسم (الشورى) تنويهًا باهمية مبدأ الشورى، وضرورة أخذ المسلمين أفرادًا وجماعات بمبدأ الشورى، فإن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستشير أصحابه، مع أن الوحي يأتيه من الله، فغيره أولى أن يستشير إخوانه وخلانه فيما يعرض له من أمور، وقد قيل: ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار.

«حم (١) عسق»: خمسة أحرف من حروف الهجاء، استفتح الله تعالى بها السورة المباركة؛ لإثبات كون القرآن الكريم تنزيل رب العالمين، وليس كلام محمد صلى الله عليه وسلم كما زعموا، بدليل عجزهم عن الإتيان بشيء من مثله، مع كونه مؤلفًا من هذه الحروف التي يتألف منها كلامهم.

الوحي والنبوة:

«كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»: أي مثل هذا الإيحاء الذي أوحاه إليك ربك في هذه السورة يوحي إليك غيره، كما أوحى إلى الأنبياء الذين سبقوك، وقد سماهم الله تعالى في قوله: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا» [النساء: ١٦٣].

فليس محمد إذًا أول مَن يُوحَى إليه حتى يكذّبوه أو يبدّعوه، ولذلك قال له ربه: «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» [الأحقاف: ٩].

«لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» يقول سبحانه: الله العزيز الحكيم الذي أوحى إليك هو مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويهب لمن يشاء، ويمنع من يشاء، «فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [يس: ٨٣]، «وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [الزخرف: ٨٥].

«وَهُوَ الْعَلِيُّ» الذي له العلو المطلق، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، وعلو المكانة، وعلو المكان، وهو «الْعَظِيمُ» القدر والمكانة، ومن عظمته: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ» أي يتشققن من عظمة الله وجلاله، ومهابته وخشيته، كما قال تعالى: «وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» [البقرة: ٧٤].

«وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» إجلالًا وتعظيمًا، ومهابة وخشية، «وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ» ممن تاب من المؤمنين، كما سبق في سورة غافر قوله تعالى: «الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ» [غافر: ٧].

«أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» تنبيهٌ على أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، كما قال تعالى: «وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ» [آل عمران: ١٣٥].

الله هو الولي:

وهكذا ذكر الله تعالى في هذه الآيات من الأسماء الحسنى والصفات العلى ما يوجب ولايته وحده دون غيره، ومع ذلك فإن كثيرًا من الناس اتخذوا من دونه أولياء، والله يعظهم ويحذرهم، ويبين أنه حفيظ عليهم، وسيجزيهم بأعمالهم، فيقول سبحانه: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ»:

الأولياء جمع ولي، وهو من يتولى أمر من تولاه، فيحميه وينصره، ويسعى له في جلب النفع ودفع الضر.

والله ولي الذين آمنوا، والذين كفروا أولياؤهم الشياطين، كما قال تعالى: «إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ» [الأعراف: ٣٠]، وقد عاب الله عليهم هذه الولاية، فقال: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا» [الكهف: ٥٠]، وبيّن ضعفهم وعجزهم عن نصرة أوليائهم، وجلب النفع لهم، ودفع الضر عنهم، فقال تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا» [الفرقان: ١- ٣].

ومعنى «اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ» أي: رقيب وشهيد، يحصي عليهم أعمالهم ويحفظها، ثم يجزيهم بها، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا

يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ» [صحيح مسلم ٢٥٧٧].

ومعنى «وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ» أي لست موكلاً بحفظ أعمالهم، وليس عليك هداهم، إنما أنت منذر، وحسابهم على الله.

عالمية الرسالة:

«وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» لأنك عربي، وبعثت في قوم عرب، وسنة الله في الرسل أن يكون الرسول من قومه ليفهموا عنه، كما قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [إبراهيم: ٤].

وليست عربيته صلى الله عليه وسلم وعربية مَن بُعث فيهم دليلاً على قصر رسالته عليهم، ولذلك قال الله تعالى: «لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا»، وأم القرى مكة المكرمة، حفظها الله، فهي عاصمة العالم كله، وقد جرت العادة بقدوم الوفود على العاصمة، دون العكس، فيكون وجود الرسول صلى الله عليه وسلم في العاصمة سببا في انتشار دعوته، حيث تأتي الوفود فتسمع، ثم يرجعون إلى بلادهم فيبلغونهم ما سمعوا.

والمراد بقوله تعالى: «وَمَنْ حَوْلَهَا» العالم كله، سواء في ذلك القريب منها والبعيد، فرسالته صلى الله عليه وسلم عامة لكل الناس، كما قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» [الأنبياء: ١٠٧]، وقال تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» [الفرقان: ١]، وقال تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا» [الأعراف: ١٥٨]، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً». [صحيح البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١)].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». [صحيح مسلم (١٣٥)].

ومن حكمة الوحي إنذار الناس يوم القيامة، كما قال تعالى: «وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ»: فيوم الجمع هو يوم القيامة، كما قال تعالى: «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا» [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ» [التغابن: ٩].

وهذه الآية كقوله تعالى: «وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ» [غافر: ١٨]، وقال تعالى: «وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» [مريم: ٣٩].

وقد كثر في القرآن الكريم التخويف من يوم القيامة:قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» [الحج: ١- ٢]، وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ» [لقمان: ٣٣]، وقال تعالى: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۝١٧ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ۝١٨ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا» [المزمل: ١٧- ١٩].

فإذا جمع الله الأولين والآخرين حاسبهم بما قدموا وأخروا، ثم أمر بالذين آمنوا وعملوا الصالحات إلى الجنة، وأمر بالذين كفروا وكذبوا إلى النار، وهذا معنى قوله تعالى: «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»، وهذه الآية كقوله تعالى: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ» [الروم: ١٤- ١٦]، وكقوله تعالى: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ» [الأعراف: ٢٩- ٣٠].

فأهل الهداية هم أهل الجنة، وأهل الضلالة هم أهل النار. «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً» فكانوا جميعا في الدنيا مهتدين، وأدخلهم الجنة أجمعين، كما قال تعالى: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا» [يونس: ٩٩]، وقال تعالى: «وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» [السجدة: ١٣]، وقال في الآية التي معنا: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي

رَحْمَتِه»، فلذلك جعل منهم المهتدين والضالين، والمؤمنين والكافرين، كما قال تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» [التغابن: ٢].

وقوله تعالى: «وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» يعني بالظالمين الكافرين، وأنهم إذا جاءهم في الدنيا عذاب الله فلن يجدوا وليًا يتولاهم، ولا ناصرًا ينصرهم، وكذلك إذا أمر الله تعالى بهم إلى النار يوم القيامة.

وهذه الآية كقوله تعالى: «إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» [الإنسان: ٢٩- ٣١].

ومرة ثانية ينكر الله تعالى على الظالمين اتخاذهم أولياء من دونه، فيقول سبحانه: «أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» وهو استفهام إنكاري، ثم يعرفهم بالولي الحق، فيقول سبحانه: «فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، فالولاية الحق لله، الذي له ملك السموات والأرض، وهو يحي ويميت، وهو على كل شيء قدير، لا يعجز عن شيء، ولا يعجزه شيء، ومن سواه من الأولياء لا يتصفون بشيء من هذه الصفات، فهم إذن ضعفاء عجزة، فلا يصلحون للولاية، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

المخرج من الخلاف:

«وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ»:

إن الله تعالى خلق الخلق، وفضل بعضهم على بعض في الفهم، كما فضل بعضهم على بعض في الرزق، وبسبب هذا التفاوت في الفهم يحدث الخلاف ولا بد، كما قال تعالى: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» [هود: ١١٨- ١١٩].

والله تعالى يحب لعباده الاجتماع والائتلاف، ويكره لهم التفرق والاختلاف، ولذلك أرشدهم إلى ما يخرجهم من الخلاف، وهو الرجوع إلى الكتاب والسنة، فقال تعالى: «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ»، وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» [النساء: ٥٩].

فالمخرج من الخلاف لا يتحقق إلا بالرجوع إلى كتاب الله، وصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر واجب، علقه الله تعالى على الإيمان؛ لأن المؤمن بالله لا يرضى بغير الله حكمًا، والذي يؤمن باليوم الآخر لا يؤثر حظوظ الدنيا وشهواتها على نعيم الجنة، ثم بيّن الله تعالى لعباده فضائل التحاكم إلى الكتاب والسنة، فقال: «ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» أي: ذلك الرد إلى الله ورسوله خير لهم في الدنيا، وأحسن تأويلا في الآخرة.

التوكل والإنابة:

ثم أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول: «ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي»: أي ذلكم الذي أمركم أن تتحاكموا إليه هو ربي، «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» في جلب النفع ودفع الضر، فأنا لا أرجو جلب النفع إلا من الله، ولا أرجو دفع الضر إلا من الله، فهو سبحانه القادر على ذلك، وغيره لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى، قال تعالى: «وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [الأنعام: ١٧]، وقال تعالى: «وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: «مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» [فاطر: ٢].

«وَإِلَيْهِ أُنِيبُ»: أي أرجع إليه وحده بالطاعات والقربات. والإنابة معناها الرجوع إليه سبحانه بالمحبة والخضوع والانقياد، والإعراض عما سواه.

قال العلماء: فرّق بين التوكل والإنابة، فأتى بلفظ الماضي في التوكل، والمضارع في الإنابة؛ لأن التوكل واحد لا يتعدد، والإنابة كثيرة متجددة، ففي كل ساعة يأتي العبد بعبادة، فهو دائرٌ بين الصلاة، والذكر، والقراءة، والاستغفار، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك.

وقد كثر في القرآن الكريم الجمع بين التوكل والإنابة، ومن ذلك قوله تعالى: «وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: «وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا» [المزمل: ٨- ٩]، وعلمنا الله تعالى في الفاتحة أن نقول: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» [الفاتحة: ٥].

والحمد لله رب العالمين.

الصيام وتحقيق المراقبة لله

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

يقول الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ» [البقرة: ١٨٣].

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى فائدة الصيام الكبرى، وحكمته العليا، وهي أنه يعد نفس الصائم لتقوى الله تعالى بترك شهوته الطبيعية المباحة الميسورة، امتثالاً لأمره، واحتسابًا للأجر عنده، فتتربى بذلك إرادته على ملكة ترك الشهوات المحرمة والصبر عنها، فيكون اجتنابها أيسر عليه، وتقوى على النهوض بالطاعات والمصالح والاصطبار عليها، فيكون الثبات عليها أهون عليه.

وإعداد الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى يظهر من وجوه كثيرة، أعظمها شأنًا، وأنصعها برهانًا، وأظهرها أثرًا، وأعلاها شرفًا، أنه أمر موكول إلى نفس الصائم، لا رقيب عليه فيه إلا الله تعالى، وسرّ بين العبد وربه لا يشرف عليه أحد غيره سبحانه، فإذا ترك الإنسان شهواته ولذاته التي تعرض له في عامة الأوقات لمجرد الامتثال لأمر ربه والخضوع لإرشاد دينه مدة شهر كامل في السنة، ملاحظًا عند عروض كل رغيبة له- من أكل نفيس، وشراب عذب، وفاكهة يانعة، وزوجة حسناء- أنه لولا اطلاع الله تعالى عليه، ومراقبته له، لما صبر عن تناولها، وهو في أشد التوق إليها، لا جرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل مَلَكة المراقبة لله تعالى، والحياء منه سبحانه أن يراه حيث نهاه، وفي هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالى والاستغراق في تعظيمه وتقديسه أكبر مُعِدّ للنفوس ومؤهل لها لضبط النفس ونزاهتها في الدنيا، ولسعادتها في الآخرة. [تفسير المنار (٢/١١٦و١١٧)].

وفي معرض الكلام عن المراقبة قال ابْنُ القيِّم: «المراقبةُ هي دوامُ علْم العبدِ وتيقُّنه باطلاع الحقِّ سبحانه وتعالى على ظَاهرِه وباطنه، فاستدامتُهُ لهذا العلم واليقين هي المراقبةُ، وهي ثمرةُ علمه بأنَّ اللهَ سبحَانه رقيبٌ عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقَوله، وهو مطلِعٌ على عمله في كل وقتٍ وكل لحظة، وكل نَفس وكل طرفة عيْن».[مدارج السالكين (٣١١)].

وقال الإمامُ الغزالي: «اعلمْ أنَّ حقيقةَ المراقبة هي ملاحظةُ الرَّقيب وانصرافُ الهمِّ إليه، فمن احترزَ عن أمرٍ من الأمُورِ بسببِ غيرِه يقال إنَّه يُراقِبُ فلانًا ويُراعِي جانبَهُ، ويعنِي بهذه المراقبَة حالةً للقلب يُثمِرُها نوعٌ من المعرفة، وتُثمِرُ تلك الحالةُ أعمالاً في الجوارح وفي القلب.

أمَّا الحَالةُ فهي مراعاةُ القلبِ للرقيبِ واشتغالُهُ به، والتفاتُهُ إليه، وملاحظتُهُ إياه، وانصرافُهُ إليه.

وأمَّا المعرفةُ التي تُثمِرُ هذه الحالةَ فهي العلمُ بأنَّ اللهَ مطلعٌ على الضمائرِ، عالمٌ بالسَّرائرِ، رقيبٌ على أعمالِ العبادِ، قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبت، وأنَّ سرَّ القلبِ في حقِّه مكشوف، كما أنَّ ظاهرَ البَشرةِ للخلقِ مكشوف، بل أشدُّ من ذلك.

المراقبةُ هي دوامُ علمِ العبدِ وتيقُّنه باطلاعِ الحقِّ سبحانه وتعالى على ظاهرِه وباطنه، وهي ثمرةُ علمِه بأنَّ اللهَ سبحانه رقيبٌ عليه، ناظرٌ إليه.

فهذه المعرفةُ إذا صارتْ يقينًا- أعني أنَّها خلتْ عن الشَّك- ثُمَّ استولتْ بعد ذلك على القلبِ قهرتْه، فرُبَّ علمٍ لا شكَّ فيه لا يغلبُ على القلبِ كالعلمِ بالموت، فإذا استولتْ على القلبِ استجرتْه إلى مراعاةِ جانبِ الرَّقيب، وصرفتْ همَّه إليه، والموقنون بهذه المعرفةِ هم المقرَّبون، وهم ينقسمونَ إلى الصِّديقين وأصحابِ اليمين».[إحياء علوم الدين (٣٩٨/٤)].

الحثُّ على مراقبةِ اللهِ تعالى:

وقدِ كثرتِ الآياتُ الكريمةُ في القرآنِ الكريمِ في الحثِّ على المراقبة، منها قولُه تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ » [ق: ١٦]، وقولُه تعالى: « وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ » [الشعراء: ٢١٧-٢١٩]، وقولُه تعالى: «أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ » [العلق: ٩- ١٤]، وقولُه تعالى: « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ » [آل عمران: ٥]، وقوله تعالى: « وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ » [يونس: ٦١]، وقولُه تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » [المجادلة: ٧]، وقولُه تعالى: «وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ » [الأنعام: ٥٩]، وقولُه تعالى: « يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ » [غافر: ١٩]، وقولُه تعالى: «وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » [الملك: ١٣]، وقولُه تعالى: « سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ » [الرعد: ١٠]، وقولُه تعالى: «قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ » [المجادلة: ١].

فالإيمانُ بهذه الآياتِ وما تضمنتْهُ من الأسماءِ والصِّفاتِ يوجبُ مراقبةَ اللهِ عزَّ وجلَّ في الأقوالِ والأفعالِ، فيجبُ على كلِّ إنسانٍ أنْ يراقبَ اللهَ في قوله فلا ينطقُ بالقبيحِ؛ لأنَّ اللهَ يسمعُهُ، ويجبُ أنْ يراقبَ اللهَ في أفعاله فلا يفعلُ القبيحَ لأنَّ اللهَ يراه، ويجبُ أنْ يراقبَ اللهَ في قلبه فلا يتركَ فيه كفرًا ولا نفاقًا ولا رياءً ولا شركًا؛ لأنَّ اللهَ عليمٌ بذاتِ الصُّدور.

وبذلك وصَّى النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مُعاذَ بنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقالَ له: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ» [حسنه الألباني في صحيح الترمذي ١٩٨٧] «يعني في السِّرِّ والعلانية، حيثُ يراه النَّاسُ وحيثُ لا يرونه، فهذا هو الموجبُ لخشيةِ الله في السِّرِ، فإنَّ من عَلِمَ أنَّ اللهَ يراه حيثُ كان، وأنَّه مطلعٌ على باطنِه وظاهرِه، وسرِّه وعلانيتِه، واستحضرَ ذلك في خلواتِه أوجبَ له تركَ المعاصي في السِّر» [جامع العلوم والحكم (١٤٠و١٤١)].

وقد امتثلَ معاذٌ ما وصَّاه به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، وكان عمرُ قد بعثَه على عَمل، فقدمَ وليس معه شيء، فعاتبَتْه امرأتُه، فقال: كانَ معي ضاغطٌ، يعني من يُضَيِّقُ عليَّ، ويمنعني من أخذ شيء. وإنَّما أراد معاذٌ ربَّه عزَّ وجلَّ، فظنتِ امرأتُه أنَّ عمرَ بعثَ معه رقيبًا. ولا شك أنَّ من صار له هذا المقامُ حالًا دائمًا أو غالبًا فهو من المحسنين، الذين يعبدون اللهَ كأنَّهم يرونه، ومن المحسنين الذين يجتنبون كبائرَ الإثم والفواحشَ إلا اللمم». [جامع العلوم والحكم (١٤٠و١٤١)].

وبذلك تواصى السلفُ الصالحُ رضوانُ اللهِ عليهم:

«قال سفيانُ الثوري: عليكَ بالمراقبةِ ممَّن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرَّجاء ممَّن يملكُ الوفاء. وقال أبو عثمان: قال لي أبو حفص: إذا جلستَ للنَّاسِ فكنْ واعظًا لنفسك وقلبك، ولا يَغُرَّنَّك اجتماعُهم عليك، فإنَّهم يراقبونَ ظاهرَك، واللهُ رقيبٌ على باطنك. وقال حميدٌ الطويل لسليمانَ بْنِ علي: عظني، فقال: لئنْ كنتَ إذا عصيتَ خاليًا ظننتَ أنَّه يراك لقد اجترأتَ على أمرٍ عظيم، ولئنْ كنتَ تظنُّ أنَّه لا يراك فقد كفرت» [جامع العلوم والحكم (١٤٠و١٤١)، باختصار].

«وعن ابْنِ سماك الواعظ أنَّه كتبَ إلى أخٍ له: أمَّا بعد، فإنِّي أوصيكَ بتقوى اللهِ الَّذي هو نجيُّكَ في سريرتك، ورَقيبُك في علانيتك، فاجعلِ اللهَ من بالِكَ على كلِّ حالٍ

في ليلك ونهارك، وخَف اللهَ على قدْر قُرْبه منك وقدرته عليك، واعلمْ أنَّك بعينه ليس تخرجُ منْ سلطانه إلى سلطانِ غيره، ولا من مِلكه إلى ملكِ غيْره، فليعظُمْ منه حذرُك، وليكثرُ منه وجلُك. والسَّلام.

وكان بعضُ السَّلفِ يقول لأصحابه: زهَّدَنا اللهُ وإياكم في الحرامِ زُهدَ من قدرَ عليه في الخلوةِ فعلم أنَّ اللهَ يراه فتركَهُ من خشيةِ الله.

وقال أبو الجلد: أوحى اللهُ تعالى إلى نبي من الأنبياء أنْ قلْ لقومِكَ ما بالكم تستُرون الذنوبَ من خلقي وتُظهرُونها لي، إنْ كنتم ترون أنّي لا أراكم فقد كفرتم، وإنْ كنتم ترون أنّي أراكم فلِمَ تجعلوني أهونَ الناظرين إليكم».[جامع العلوم والحكم (١٤٠)].

ويشهدُ لقوله: «إنْ كنتم ترون أنّي لا أراكم فقد كفرتم» قولُهُ تعالى في المنافقين: « يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ» [النساء: ١٠٨]، أي يستترون منهم حياءً منهم وخوفا من ضررهم «وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ» [النساء: ١٠٨]، أي لا يستحيون منه «وَهُوَ مَعَهُمْ» [النساء: ١٠٨] عالمٌ بهم ومطلعٌ عليهم، ولا يخفى عليه خافٍ من سرِّهم. قال الزمخشري: «وكفى بهذه الآية ناعيةً على النَّاس ما هم فيه من قلَّة الحياء والخشيةِ من ربِّهم مع علمِهم إنْ كانوا مؤمنين أنَّهم في حضرته، لا سُتْرَةَ ولا غَفلةَ ولا غَيْبة، وليس إلا الكشفُ الصَّريحُ والافتضاح» [الكشاف (٢٩٧/١)].

وكان السَّلفُ الصَّالحُ رضوانُ اللهِ عليهم يغرسون في نفوسِ صبيانهم مراقبةَ الله منذ صغرهم: «قال سهلُ بْنُ عبدِ اللهِ التُّستري: كنتُ وأنا ابْنُ ثلاثِ سنين أقومُ باللَّيل، فانظرْ إلى صلاةِ خالي محمد بْنِ سوار، فقال لي يومًا: ألا تذكرُ اللهَ الَّذي خلقَك، فقلتُ وكيفَ أذكرُه؟ قال: قل بقلبكَ عندَ تقلُّبك في ثيابك ثلاثَ مراتٍ من غيْرِ أنْ تحرِّكَ به لسانك: اللهُ معي، اللهُ ناظرٌ إليَّ، اللهُ شاهدي، فقلتُ ذلك ليالي ثُمَّ أعلمتُه، فقال: قلْ ذلك كلَّ ليلةٍ سبعَ مرات، فقلتُ ذلك ليالي ثُمَّ أعلمتُه، فقال: قلْ في كلِّ ليلةٍ إحدى عشرَ مرة، فقلتُ ذلك ثُمَّ أعلمتُه، فقلتُه: فوقعَ في قلبي حلاوتُه، فلمَّا كان بعدَ سنةٍ قال لي خالي: احفظْ ما علمتُك ودُمْ عليه إلى أنْ تدخلَ القبرَ فإنَّه ينفعُكَ في الدُّنيا والآخرة، فلم أزلْ على ذلك سنين فوجدتُ لذلك حلاوةً في سرِّي، ثُمَّ قال لي خالي يومًا: يا سهل: من كان اللهُ معه، وناظرًا إليه، وشاهدَه، أيعصيه؟ إيَّاك والمعصية». [إحياء علوم الدين (٧٤/٣)].

فمراقبةُ اللهِ تعالى هي التي تمنعُ من المعصية، مراقبةُ اللهِ هي التي تعينُ الإنسانَ على غضِّ بصره، فلا ينظرُ إلى ما حرَّمَ اللهُ النظرَ إليه، لأنه يؤمنُ بقولِ اللهِ تعالى: « يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ » [غافر: ١٩]، ولذلك قال رجلٌ للجنيد: «بِمَ أستعينُ على غضِّ البصر؟ قال: بعلمك أنَّ نظرَ النَّاظرِ إليك أسبقُ من نظرك إلى المنظورِ إليه». [المصدر السابق (٣٩٧/٤)].

ومراقبةُ اللهِ هي التي تعصمُ الإنسانَ من الفواحشِ ما ظهرَ منها وما بطن، وهل رجعَ يوسفُ u عن همِّه إلا بمراقبته ربَّه، قال تعالى: « وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ » [يوسف: ٢٣]، وهل قامَ الرَّجلُ عن بنتِ عمِّه بعد أنْ قعدَ بيْنَ رِجْليْها إلا بعد أنْ ذكرتْهُ بربِّه؟! وهلْ عَظُمَ جزاءُ من دعتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فامتنعَ منها إلا لمراقبته ربَّه؟!

ومراقبةُ الله هي التي تمنعُ الإنسانَ من سفكِ الدماء، وقتلِ الأبرياء،كما امتنع خير ابني آدم عن قتل أخيه، وقد هدده بالقتل، « وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ» [المائدة: ٢٧ - ٢٨].

ومراقبة الله هي التي تمنع الإنسان من الغش والخداع والمكر والحيلة، وهي التي تمنعه من جحد الدَّيْن وإنكار العارية، وخيانة الأمانة.

وبالجملة فمراقبةُ اللهِ هي التي تحولُ بيْنَ الإنسانِ وبيْنَ فعلِ المحرمات، وهي التي تعينُه على فعلِ الواجبات قال تعالى: « وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ» [البقرة: ٤٥].

وعدمُ مراقبةِ اللهِ يجعلُ الإنسانَ يُضيِّعُ الصَّلاةَ أو يُرائي بها، كما قال تعالى عن المنافقين: «إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» [النساء: ١٤٢]،

مراقبة الله هي التي تمنع الإنسان من سفك الدماء، وقتل الأبرياء ، وهي التي تحول بين الإنسان وبين فعل المحرمات، وتعينه على فعل الواجبات، وتحثه وتدفعه إلى إتقان عمله، أيًا كان ذلك العمل.

الذي يعين العبد على تقوى الله تعالى ومراقبته هو الخوف منه، فمن خاف شيئا اتّقاه، ومن لم يخف شيئا لم يتقه، وكذلك يفعل الصالحون بين يدي الأمر والنهي، فإذا رأوا تاركَ واجب قالوا له: اتق الله، وإذا رأوا فاعل محرم قالوا له: اتق الله.

وقال تعالى: «فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ» [الماعون: ٤- ٦].

ومراقبةُ الله هي التي تحثُ الإنسانَ وتدفعُهُ إلى إتقانِ عمله، أيًّا كان ذلك العمل، فالطبيبُ والمهندسُ والمعلّمُ والعاملُ على اختلاف مهنته إذا راقبوا اللهَ في أعمالهم أتقنوها وأحسنوها، ولَم يحتاجوا إلى مراقبة رقيب من المسئولين؛ لأنهم استغنوا بمراقبة الله عن مراقبة الخلق، قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» [النساء: ١]. ولقد كان الإمامُ أحمدُ يُكثرُ من التمثّل بهذين البيتين:

إذا ما خلوتَ الدّهرَ يومًا فلا تقلْ
خلوتُ ولكن قلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً
ولا أنَّ ما تُخفي عليه يغيبُ

والذي يعين العبد على تقوى الله تعالى ومراقبته هو الخوف، فمن خاف شيئا اتّقاه، ومن لم يخف شيئاً لم يتقه، ولذلك قال تعالى عن أهل النار: «لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ» [الزمر: ١٦].

فمن خاف اللهَ اتقاه، ولذلك قال تعالى عن الملائكة: «يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» [النحل: ٥٠] «لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» [التحريم: ٦] وقال تعالى: «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» [النور: ٥٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: «وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ» [صحيح البخاري ٥٠٦٣]: أي: أكثركم له خشية، وأكثركم له تقوى.

ولذلك كثيرا ما يصدّر اللهُ تعالى الأوامرَ والنواهيَ ويختمها بالأمر بالتقوى:

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا» [الأحزاب: ١] وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا» [الأحزاب: ٧٠] وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» [الحشر: ١٨]، وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [البقرة: ١٧٨- ١٧٩] وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» [الحجرات: ١]، وقال تعالى: «يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» [المائدة: ٤]، وقال تعالى: «وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» [المائدة: ٧ - ٨].

وكذلك كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يفعل:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ فَقَالَ: «اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ» [صحيح سنن الترمذي للألباني ح٦١٦].

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتَّقوا اللهَ وَصِلُوا أَرْحَامَكُم» [حسن الألباني في«الصحيحة» (٨٦٩)، وقال: رواه ابن عساكر (٢/٧٤)].

وكذلك يفعل الصالحون بين يدي الأمر والنهي، فإذا رأوا تارك واجب قالوا له اتق الله، وإذا رأوا فاعل محرم قالوا له اتّق الله. قال تعالى: «قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا» [مريم: ١٨]، وقد علمتْ أنّ الرجل التقيَّ إذا همَّ بسوءٍ ثم أمر بالتقوى رجع عما همَّ به؛ خوفاً من الله تعالى، كما قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١)» [الأعراف: ٢٠١].

نسأل الله أن يرزقنا تقواه ومراقبته، وأن يغرس في قلوبنا تعظيمه وتعظيم شعائره، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

سورة الشورى

الحلقة الثانية

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: « فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ » [الشورى: ١١- ١٣].

«فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» أي: ربي الذي عليه توكلتُ وإليه أنيب، هو فاطر السموات والأرض، أي منشئوهما من غير مثال سابق، كما قال سبحانه: « بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » [البقرة: ١١٧]، أي منشئوهما من العدم من غير مثال يحتذى.

« جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا»، كما قال سبحانه: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» [النساء: ١]، وبين سبحانه الحكمة من خلق الأزواج في قوله: « هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » [الأعراف: ١٨٩]، وقوله سبحانه: « وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » [الروم: ٢١].

« وَمِنَ الأنْعَامِ أَزْوَاجًا» أي: وجعل لكم من الأنعام أزواجا، فصلها في قوله تعالى: « ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ » [الأنعام: ١٤٣- ١٤٤].

« يَذْرَؤُكُمْ فيه» أي يكثركم عن طريق التزاوج المعروف، الذي يحصل به التناسل والتكاثر، وكذلك الأمر في الأنعام، يكون التكاثر والتناسل عن طريق التزاوج.

قاعدة في الأسماء والصفات:

« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» في ذاته، وليس كمثله شيء في صفاته، وليس كمثله شيء في أفعاله، «وَهُوَ السَّمِيعُ» الذي يسمع جميع الأصوات، على تعدد اللغات، واختلاف اللهجات، « الْبَصِيرُ» الذي يرى النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء.

وهذه الآية هي عمدة أهل السنة والجماعة

في مذهبهم في الأسماء والصفات، يقولون: نثبت لله تعالى ما أثبته الله لنفسه، في محكم كتابه، أو فيما صح على لسان رسوله، من غير تكييف ولا تحريف، ولا تمثيل ولا تعطيل، وقوفا عند قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »، فأول الآية رد على المشبهة، وآخرها رد على المعطلة، وسبيل الحق بينهما لأهل السنة: إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل.

قال أبو حنيفة -رحمه الله-: «لا يُشبه (الله) شيئًا من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه. وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا».

وقال نعيم بن حماد-رحمه الله-: «من شبَّه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه» [شرح الطحاوية(١٢٠)].

«لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»: المقاليد جمع إقليد، وهي المفاتيح، فإذا كانت المفاتيح له سبحانه، فالخزائن من باب أولى له، ولذلك قال سبحانه: «وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ » [المنافقون: ٧]، وقال تعالى: «وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ » [الحجر: ٢١]، فالخزائن عنده، والمفاتيح بيده، «يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» أي يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء، «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ».

إن الدين عند الله الإسلام:

«شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »:

لما عظَّم الله تعالى وحيه إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم بقوله: « كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » [الشورى: ٢]، ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك، وهو ما شرعه له ولهم من الاتفاق على عبادته وحده لا شريك له، كما قال: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » [الأنبياء: ٢٥]، وفي الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلاَّتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ» [صحيح البخاري ٣٤٣١]، يعني أنهم متفقون في أصل الدين وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم. كقوله تعالى: «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » [المائدة: ٤٨].

وتخصيص هؤلاء الخمسة، وهم أولو العزم عليهم السلام، بالذكر؛ لأنهم أكابر الأنبياء، وأصحاب الشرائع العظيمة، والأتباع الكثيرة، ولاستمالة قلوب الكفرة، لاتفاق الكل على نبوّة بعضهم. وابتدأ بنوح عليه السلام لأنه أول الرسل. والمعنى: شرع لكم من الدين ما وصى به جميع الأنبياء من عهد نوح عليه السلام إلى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم.

والتعبير بالتوصية فيهم والوحي له، للإشارة إلى أن شريعته صلى الله عليه وسلم هي الشريعة الكاملة. ولذا عبَّر فيه بـ(الذي) التي هي أصل الموصولات. وأضافه إليه بضمير العظمة، تخصيصا له ولشريعته بالتشريف، وعظم الشأن، وكمال الاعتناء. وهو السر في تقديمه على ما بعده مع تقدمه عليه زمانا. [محاسن التأويل(١٤/ ٢٩٩و٣٠٠)].

« أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ » أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى، ولا تعاونون على الإثم والعدوان.

« وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزابا، وتكونون شيعا يعادي بعضكم بعضا، مع اتفاقكم على أصل دينكم. [تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٥٩٩)].

قال القرطبي- رحمه الله-: وليس فيه دليل على تحريم الاختلاف في

الفروع، فإن ذلك ليس اختلافا، إذ الاختلاف ما يتعذر معه الائتلاف والجمع، وأما حكم مسائل الاجتهاد فإن الاختلاف فيها بسبب استخراج الفرائض ودقائق معاني الشرع، وما زالت الصحابة يختلفون في أحكام الحوادث، وهم مع ذلك متآلفون. [الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٥٩)].

وقد كثر في القرآن الكريم الأمر بالاجتماع والنهي عن التفرق:

قال تعالى: « وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ » [آل عمران: ١٠٢]،

وقال تعالى: « وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ » [آل عمران: ١٠٥- ١٠٧]، وقال تعالى: « وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: « وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » [الروم: ٣١- ٣٢]،

وذم سبحانه وتعالى الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا وتوعدهم، فقال تعالى: «وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ» [الأنبياء: ١٢]، وقال تعالى: « فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ » [المؤمنون: ٥٣ - ٥٤]، وبرأ الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا، فقال تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ » [الأنعام: ١٥٩].

احرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزابا، وتكونون شيعا يعادي بعضكم بعضا، مع اتفاقكم على أصل دينكم.

وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق، والأمر بالاجتماع والائتلاف:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثا، ويسخط لكم ثلاثا، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال» [صحيح مسلم ١٧١٥].

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن عبد حبشي، فإنه من يعش منكم يرى اختلافا كثيرا، وإياكم ومحدثات الأمور، فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ» [صحيح سنن أبي داود: ٣٨٥١].

وعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة

سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، يَعْنِي الأَهْوَاءَ، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً وَهِيَ الْجَمَاعَةُ». [صحيح سنن أبي داود: ٣٨٤٣].

فعلى المسلمين أن يستجيبوا لله وللرسول، وأن يعتصموا بحبل الله جميعا، فإنه باجتماعهم على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم، وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم، وتنقطع روابطهم، ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام.

قال الرازي -عفا الله عنه-: قَوْلُهُ تَعَالَى: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ»: مُشْعِرٌ بِأَنَّ حُصُولَ الْمُوَافَقَةِ أَمْرٌ مَطْلُوبٌ فِي الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ، وَبَيَانُ مَنْفَعَتِهِ مِنْ وُجُوهٍ:

الأَوَّلُ: أَنَّ لِلنُّفُوسِ تَأْثِيرَاتٍ، وَإِذَا تَطَابَقَتِ النُّفُوسُ وَتَوَافَقَتْ عَلَى وَاحِدٍ قَوِيَ التَّأْثِيرُ.

الثَّانِي: أَنَّهَا إِذَا تَوَافَقَتْ صَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُعِينًا لِلْآخَرِ فِي ذَلِكَ الْمَقْصُودِ الْمُعَيَّنِ، وَكَثْرَةُ الْأَعْوَانِ تُوجِبُ حُصُولَ الْمَقْصُودِ، أَمَّا إِذَا تَخَالَفَتْ تَنَازَعَتْ وَتَجَادَلَتْ فَضَعُفَتْ فَلَا يَحْصُلُ الْمَقْصُودُ.

الثَّالِثُ: أَنَّ حُصُولَ التَّنَازُعِ ضِدُّ مَصْلَحَةِ الْعَالَمِ، لِأَنَّ ذَلِكَ يُفْضِي إِلَى الْهَرْجِ وَالْمَرْجِ، وَالْقَتْلِ وَالنَّهْبِ، فَلِهَذَا السَّبَبِ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِإِقَامَةِ الدِّينِ عَلَى وَجْهٍ لَا يُفْضِي إِلَى التَّفَرُّقِ،

وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا» [الأنفال: ٤٦]. التفسير الكبير (٢٧/٥٨٨).

«كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ» أي من إخلاص العبادة لله، وإفراده بالألوهية، والبراءة مما سواه من الأوثان، «اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ» وهو من صرف اختياره إلى ما دعي إليه، «وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ» أي يوفق للعمل لطاعته واتباع رسله من يقبل إلى طاعته ويتوب من معاصيه. [محاسن التأويل (١٤/ ٣٠٠)].

على المسلمين أن يستجيبوا لله وللرسول، وأن يعتصموا بحبل الله جميعا، فإنه باجتماعهم على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم، وتصلح دنياهم.

وإذا كان الذي شرعه الله من الدين للمسلمين المؤمنين بمحمد هو ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى، ففيم يتقاتل أتباع موسى وأتباع عيسى؟ وفيم يتقاتل أصحاب المذاهب المختلفة من أتباع عيسى؟ وفيم يتقاتل أتباع موسى وعيسى مع أتباع محمد؟ وفيم يتقاتل من يزعمون أنهم على ملة إبراهيم من المشركين مع المسلمين؟

ولم لا يتضام الجميع ليقفوا تحت الراية الواحدة التي يحملها رسولهم الأخير؟ والوصية الواحدة الصادرة للجميع: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ»، فيقيموا الدين، ويقوموا بتكاليفه، ولا ينحرفوا عنه ولا يلتووا به، ويقفوا تحت رايته صفا، وهي راية واحدة، رفعها على التوالي نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم حتى انتهت إلى محمد صلى الله عليه وسلم في العهد الأخير.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

سورة الشورى

الحلقة الثالثة

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: «وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۡۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ» [الشورى: ١٤- ١٥].

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

ففى هذه الآيات بين الله تعالى سبب تفرق المخالفين فقال: «وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ»:

إن العلم يدعو إلى الاجتماع، وينهى عن التفرق، ويدعو إلى الائتلاف، وينهى عن الاختلاف، ومع ذلك فقد اختلفوا وتفرقوا، حملهم على ذلك البغي والحسد، وحب الظهور، وحب الرياسة، وطلب العلو، وبذلك قامت عليهم الحجة، وحقت عليهم كلمة العذاب، «وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ»، أي: لولا أن الله تعالى رفع عن هذه الأمة عذاب الاستئصال، لقضى بين أهل التوحيد وأهل الشرك، واستأصل أهل الكفر، كما قال تعالى: «وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا» [الكهف: ٥٨].

«وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ»:

قيل: الذين أورثوا الكتاب هم اليهود والنصارى، وقيل هم المشركون.

وقيل: الضمير في «مِّنۡهُ» عائد على النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: هو عائد على الكتاب، فهم ليسوا على بينة من أمر النبي صلى الله عليه وسلم والكتاب الذي أنزل عليه من ربه، «فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٖ» [ق: ٥].

من أصول الدعوة:

«فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ» اسم الإشارة «ذَٰلِكَ» قد يعود إلى الدين الذي شرعه الله تعالى وأمر بإقامته، فيكون المعنى: فلذلك الدين، الذي شرعه الله لك يا نبينا ولإخوانك المرسلين فادع.

فالدعوة لا تكون إلا إلى الله، وإلى دين الله، وإلى سبيل الله، ولا يجوز أن تكون الدعوة إلى حزب، أو تنظيم، أو جماعة، أو طريقة، قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا» [الأحزاب: ٤٥- ٤٦]، وقال تعالى: «لِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ» [الحج: ٦٧].

وقال تعالى: «وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ» [القصص: ٨٧]، وقال تعالى: «ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ» [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: «قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ» [يوسف: ١٠٨].

ويصلح أن يعود اسم الإشارة «ذلك» إلى الخلاف والتفرق، فيكون المعنى: فلذلك الخلاف والتفرق ادع إلى الله لتقضي على ذلك الخلاف والتفرق، وتجمعهم على كلمة سواء، فلا يقضى على التفرق الذي مزق الأمة إلا بالدعوة إلى توحيد الله عز وجل، فتوحيد الله هو السبيل إلى توحيد الأمة، فإذا اجتمعت الأمة على توحيد الله وحد الله صفها، وجمع شملها.

وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بأمر الله خير قيام، فدعا إلى توحيد الله، وإخلاص الدين له، فآمن له من أراد الله بهم الخير، فجمعهم بعد تفرق، ووحدهم بعد تمزق، وألف بين قلوبهم بعد عداوة، وصاروا أمة واحدة بعد أن كانوا أمما متعادية متحاربة، وفي ذلك يقول الله تعالى: «وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» [آل عمران: ١٠٣].

الحث على العمل بالعلم، والتحذير من المخالفة:

«وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ» لا كما تهوى، استقم كما أمرك الله: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [الأنعام: ١٥٣].

والاستقامة تتحقق بطاعة الله عز وجل، بفعل ما به أمر، وترك ما نهى عنه وزجر، من غير إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير.

وفي الأمر بالاستقامة والدعوة إشارة إلى أن سبيل النجاة هو أن يكمل الإنسان نفسه بالاستقامة على دين الله، وأن يدعو غيره إلى الاستقامة، كما سبق في قوله تعالى: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ» أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم. فلا تتم نجاة العبد إلا بالأمرين، أن يستقيم على دين الله، وأن يدعو غيره إلى الاستقامة، وفي ذلك يقول الله تعالى: «وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ» [العصر: ١- ٣].

كما أن في الأمر بالاستقامة والدعوة إشارة إلى أنه لا تحسن الدعوة من المنحرف، وهل يدعو المنحرف غيره إلى الاستقامة؟! فإن فعل كان كما قيل: طبيب يداوي الناس وهو سقيم، وكما قال صلى الله عليه وسلم: «مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ، كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيُحْرِقُ نَفْسَهُ» [صحيح الجامع ٥٧٠٧].

وهذا عنوان عدم العقل، ولذلك قال الله تعالى: «أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» [البقرة: ٤٤]، وأخبر سبحانه أن هذا من الأعمال الممقوتة عنده، فقال: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ» [الصف: ٢-٣].

وضرب سبحانه وتعالى مثل السوء للذين لا يعملون بما يعلمون، فقال سبحانه: «وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» [الأعراف: ١٧٥- ١٧٦].

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ، قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ» [صحيح البخاري ٣٢٦٧].

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ

رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: «لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ بِرِجَالٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ. قَالَ: فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ». [صحيح الترغيب:١٢٥].

التحذير من أهل الأهواء:

ولما أمر سبحانه النبي صلى الله عليه وسلم بالاستقامة كما أمر، نهاه عن اتباع أهل الأهواء، «الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا» [إبراهيم: ٣]، فقال تعالى: «وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ»، كما قال تعالى: «ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» [الجاثية: ١٨]، ولم يكتف ربنا سبحانه بالنهي حتى توعد على اتباع أهوائهم بالوعيد الشديد، فقال تعالى: «وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: «وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّٰلِمِينَ» [البقرة: ١٤٥].

فاتباع الهوى ضلال مبين، وظلم عظيم:

قال تعالى: «فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ» [القصص: ٥٠]، وقال تعالى: «يَٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ.» [ص: ٢٦].

قال الشعبي-رحمه الله-: إنما سمي الهوى هوى، لأنه يهوي بصاحبه في النار. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ذكر الله الهوى في كتابه إلا وذمه.

وقد ضرب الله تعالى لأهل الأهواء مثل السوء، فقال تعالى: «وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

فكن على حذر يا عبد الله من الهوى، واعلم أنه من أعدى أعدائك، كما قال بعضهم:

إني ابتليت بأربع ما سلطوا
إلا لشدة شقوتي وعنائي
إبليس والدنيا ونفسي والهوى
كيف الخلاص وكلهم أعدائي؟!

واعلم أنه لا نجاة لك إلا بمخالفة هواك، كما قال تعالى: «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى» [النازعات: ٤٠-٤١].

أدب الحوار:

«وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ»:

هذا تعليم من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم كيف يجادل أهل الكتاب، كما قال: «ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: «وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ الْكِتَٰبِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِالَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ» [العنكبوت: ٤٦].

فالله تعالى يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم إذا جادل أهل الكتاب أن يصرح بإيمانه بما عندهم من الحق الذي جاءهم من الله، فيقول له صلى الله عليه وسلم: «وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ»: أي آمنت بالتوراة التي أنزلها الله على موسى، وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، لكنكم غير مؤمنين بما أنزل إليَّ، مع أن مصدر الثلاثة واحد، كما قال تعالى: «الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ» [آل عمران: ١- ٤]، فما لكم تؤمنون بالتوراة والإنجيل ولا تؤمنون بالقرآن، «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ الْعَذَابِ» [البقرة: ٨٥]، لأن

حقيقة الايمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، لا تفرق بين أحد من رسله، فمن فرق بينهم فقد كفر بهم كلهم، وان زعم الايمان ببعضهم، قال تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا » [النساء: ١٥٠ - ١٥٢].

قال الرازي - عفا الله عنه - في تفسير قوله تعالى: «الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ »

[آل عمران: ٢- ٣]:

قَوْلُه تعالى: «نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ» يجري مجرى الدعوى، ثم إنه تعالى أقام الدلالة على صحة هذه الدعوى، فقال: وافقتمونا أيها اليهود والنصارى على أنه تعالى أنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس، فإنما عرفتم أن التوراة والإنجيل كتابان إلهيان، لأنه تعالى قرن بإنزالهما المعجزة الدالة على الفرق بين قول المحق وقول المبطل، والمعجز لما حصل به الفرق بين الدعوى الصادقة والدعوى الكاذبة كان فرقا لا محالة، ثم إن الفرقان الذي هو المعجز كما حصل في كون التوراة والإنجيل نازلين من عند الله، فكذلك حصل في كون القرآن نازلا من عند الله، وإذا كان الطريق مشتركا، فإما أن يكون الواجب تكذيب الكل على ما هو قول البراهمة، أو تصديق الكل على ما هو قول المسلمين، وأما قبول البعض ورد البعض فذلك جهل وتقليد. [التفسير الكبير (٧/ ١٢٩)].

العدالة في الإسلام:

«وأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ» أي لأسوي بيني وبينكم فيما أدعوكم إليه، وأنا ملتزم قبلكم بما أدعوكم إليه، كما قال تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » [آل عمران: ٦٤].

فأنا أدعوكم إلى ما ألتزمه، وأنهاكم عما أتركه، «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ » [هود: ٨٨]، وهذا من العدل الذي أمرني الله أن أقيمه بيني وبينكم.

«وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ» إذا تحاكمتم إليَّ وان كذبتموني، كما قال تعالى: «فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » [المائدة: ٤٢]، وقال تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » [المائدة: ٨].

الحث على ترك المراء:

«اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ» أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا، «لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ» من خير وشر، كما قال تعالى: « وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ » [يونس: ٤١].

«لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ» أي: بعد ما تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل، لأن المقصود من الجدال، إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي. [تيسير الكريم الرحمن (٦٠٤)].

إلى الله مرجعكم جميعًا:

«اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا» يوم القيامة، كما قال سبحانه: «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا » [النساء: ٨٧]، وكما قال: « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » [الواقعة: ٥٠]، «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ » [النجم: ٣١].

«وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ» أي المرجع، كما قال تعالى: «ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » [آل عمران: ٥٥- ٥٧].

الحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الشورى

الحلقة الرابعة

« وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِىُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِى حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ » [الشورى: ١٦- ٢٠].

إعداد
د. عبد العظيم بدوي

بطلان حجج الكافرين:

«وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ» أي يجادلون في دين الله بالباطل، «مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ» أي من بعد ما استجاب له المؤمنون، ودخلوا في دين الله، وآمنوا برسول الله، واتبعوا النور الذي أنزل معه، «حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ» أي: غير ثابتة، ولا قيمة لها ولا وزن، ولن تغني عنهم من الله شيئًا، «وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ» من الله، «وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ»، كما قال تعالى: « وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ » [الحج: ٨- ١٠].

«اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ»: الكتاب اسم جنس، يشمل كل ما أنزل الله من كتاب، كالتوراة والإنجيل والقرآن، وقوله تعالى: «بِالْحَقِّ» أي متلبسا بالحق، لا ينفك عنه أبدا، كما قال تعالى: « وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ » [الإسراء: ١٠٥]، وقال تعالى: « وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ » [النحل: ١٠١- ١٠٢].

الحكم بما أنزل الله:

«وَالْمِيزَانَ» المراد به العدل والإنصاف، لأن الميزان الحسي هو محل العدل والتسوية بين الناس، وقد

صرح ربنا سبحانه بالحكمة من تنزيل الكتاب والميزان فقال: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ» [البقرة: ٢١٣]، كما سبق في هذه السورة، «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ» [الشورى: ١٠].

اقتربت الساعة:

«وَمَا يُدْرِيكَ» أيها النبي! أو أيها الإنسان! «لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ»، ولم يقل قريبة، لأن الساعة مؤنث غير حقيقي، والمؤنث غير الحقيقي يُذكر ويؤنث، كما تقول: دخلت هذا السوق وهذه السوق، ومشيت في هذا الطريق، وهذه الطريق.

وفي هذا إشارة إلى ضرورة الاستعداد ليوم الدين، كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» [الحشر: ١٨].

«يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا»، «وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» [يس: ٤٨]، حتى إنهم من شدة تكذيبهم استعجلوا عذاب ربهم، «وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ» [ص: ١٦]، فأنكر الله عليهم ذلك، فقال: «وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ» [الأنبياء: ٣٨ - ٤٠]، وجواب «لَوْ» محذوف، تقديره: لو يعلمون حقيقة العذاب الذي ينتظرهم ما استعجلوه.

وقال تعالى: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» [العنكبوت: ٥٣- ٥٥]، وقال تعالى: «قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ» [الذاريات: ١٠- ١٤]، وقال تعالى: «يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» [الطور: ١٣- ١٦].

أما المؤمنون بلقاء الله فهم يعلمون أن وعد الله حق، و«إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ» [فصلت: ٤٧]، فهم يعملون بطاعة الله، على نور من الله، يرجون رحمة الله، ويتركون معصية الله، على نور من الله، يخافون عذاب الله، ولذلك قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا» أي خائفون، «وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ»، فهم يجتهدون في الصالحات رجاء أن يدخلهم ربهم الجنات، كما قال تعالى: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا» [الإنسان: ٧ - ١٣].

دلائل البعث:

«أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ» أي يخاصمون فيها مخاصمة شك وريبة، من المماراة، وهي المخاصمة والمجادلة، أو من المرية، وهي الشك والريبة، «لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» عن الحق، لأنهم لم يتفكروا في الموجبات للإيمان بها، من الدلائل التي هي مشاهدة لهم، منصوبة لأعينهم، مفهومة لعقولهم، كما قال تعالى: «أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ» [ق: ٦- ١١].

فلو نظروا وتفكروا لعلموا أن الذي خلقهم، وخلق السموات والأرض، وهما أكبر من خلقهم، قادر على إعادتهم، وقد دل الكتاب والسنة على وقوع البعث، والعقول تشهد على أنه لا بد من دار جزاء، لأن الناس في الدنيا منهم المؤمن والكافر، ومنهم البر والفاجر، ومنهم الصالح والطالح، ومنهم المظلوم والظالم، ثم الموت يشملهم جميعا، فلو لم يكن يوم آخر يقضي الله فيه بينهم فيما كانوا فيه يختلفون لم يكن بينهم فرق، ولكانوا جميعا سواء، وقد نفى الله تعالى التسوية بين الفريقين، فقال تعالى: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ» [ص: ٢٨]، وقال تعالى: «أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ» [السجدة: ١٨- ٢٠]، وقال تعالى: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ» [الزمر: ٣٠- ٣١]، وقال تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ» [الحج: ١٧]، ثم قال تعالى: «هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ» [الحج: ١٩- ٢٣].

إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين:

«اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ» أي برٌّ بهم ورفيق، «يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ» من المؤمنين والكافرين، وغيرهم ممن خلق، كما قال تعالى: «وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ» [هود: ٦]، وكما قال تعالى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ» [البقرة: ١٢٦].

«وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ» الذي يغلب ولا يغلب، ويقهر ولا يقهر، ولا يفلت منه أحد أراده بسوء، كما قال تعالى: «أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ» [العنكبوت: ٤]، وقال تعالى: «وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ» [الأنفال: ٥٩].

اجعلوا الهموم هما واحدا:

«مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ»:

الحرث: العمل والكسب، ومنه قول عبد الله بن عمرو رضي الله عنهم: "احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا". ومنه سمي الرجل حارثًا. والمعنى: من طلب بما رزقناه حرثا لآخرته، فأدى حقوق الله، وأنفق في إعزاز الدين، فإنما نعطيه ثواب ذلك، للواحد عشرا إلى سبعمائة فأكثر.

«مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ . وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ»: أي طلب بالمال الذي آتاه الله رياسة الدنيا والوصول إلى المحظورات، فإنا لا نحرمه الرزق أصلاً، ولكن لا حظ له في الآخرة من ماله، قال الله تعالى: «مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا» [الإسراء: ١٨- ١٩]. [الجامع لأحكام القرآن(١٨/١٦)].

وقال تعالى: «مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ» [هود: ١٥- ١٦]، وقال تعالى: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ» [الأحقاف: ٢٠]، وقال تعالى: «وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ» [الأعراف: ٥٠- ٥١].

قال العلماء: دلت هذه الآية على تفضيل من أراد الآخرة على من أراد الدنيا من وجوه:

الأول: أن الله سبحانه وتعالى قدم من أراد الآخرة على من أراد الدنيا.

الثاني: أن الله تعالى وعد من يريد الآخرة بالزيادة جزما، فقال: «مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ»، بينما قال فيمن يريد الدنيا: «وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا»، و«مَن» للتبعيض، فالله لا يعطي من يريد الدنيا كل ما يريد منها، وإنما يعطيه ما يريده هو سبحانه، كما قال سبحانه: «مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ».

الثالث: أن الله تعالى نفى عمن أراد الدنيا أن يكون له نصيب في الآخرة، فقال: «وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ»، وأما من أراد الآخرة فإن الله تعالى لم يذكر ما يعطيه في الدنيا، وكأن الله تعالى يقول: إن ما يُعطاه المؤمن في الدنيا مهما كثر فهو بالنسبة للآخرة لا شيء. [التفسير الكبير(٢٧/١٦٢و١٦٣)]، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا يَرْجِعُ» [صحيح مسلم ٢٨٥٨].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ». [صحيح مسلم ٢٨٠٧].

وقد كثر في القرآن الكريم ذم أهل الدنيا الحريصين عليها، قال تعالى: «إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا» [الإنسان: ٢٧-٢٨]، وقال تعالى: «كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ» [القيامة: ٢٠- ٢١]، وقال تعالى: «بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ» [الأعلى: ١٦- ١٧]، وقال تعالى: «وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ» [إبراهيم: ٢- ٣]، وقال تعالى: «مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ» [النحل: ١٠٦- ١٠٩].

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أزهد الناس في الدنيا:

عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: قَدْ كُنَّا آلَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم نَمُرُّ بِنَا الْهِلاَلُ وَالْهِلاَلُ وَالْهِلاَلُ مَا نُوقِدُ بِنَارٍ لِطَعَامٍ، إِلاَّ أَنَّهُ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلاَّ أَنَّهُ حَوْلَنَا أَهْلُ دُورٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَيَبْعَثُ أَهْلُ كُلِّ دَارٍ بِغَرِيزَةِ شَاتِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَكَانَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مِنْ ذَلِكَ اللَّبَنِ». [صحيح البخاري ٦٤٥٩].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً. فَقَالَ: «مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» [صحيح سنن الترمذي للألباني: ٢٣٧٧].

وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا على تزهيد أصحابه فيها:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ». فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ». قَالُوا: وَاللَّهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ، فَقَالَ: «فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ». [صحيح مسلم ٢٩٥٧].

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ». [صحيح سنن الترمذي للألباني: ٢٣٢٠].

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمَّ الْمَعَادِ كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهِ هَلَكَ». [صحيح سنن ابن ماجه للألباني: ٢٠٧].

وللحديث بقية إن شاء الله،
والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الشورى

الحلقة الخامسة

إعداد/
د. عبد العظيم بدوي

قال الله تعالى: « أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ » (الشورى ١٧- ٢٢)

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

الدين لا يكون إلا وحيا من رب العالمين:

قال الله تعالى: «أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ» هذه الآية متصلة بما سبق في أول السورة، وهو قوله تعالى: «شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ» فلم يتبعوك على دين الله الذي شرعه لعباده على ألسنة رسله، فما الذي منعهم من اتباعك؟ هل لهم شركاء شرعوا لهم دينا غير دين الله، فتركوا دين الله إلى ما شرعه لهم شركاؤهم؟! وهو

استفهام إنكار وتوبيخ، لأن الدين لا يكون إلا وحيا أوحاه الله إلى أنبيائه، والتشريع حق له سبحانه، لأنه «الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ» [الأعلى: ٢- ٣]، ولذلك قال تعالى: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» [الأعراف: ٥٤].

«وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» أي: لولا أن الله تعالى قضى وقدر أن الفصل بين عباده يكون يوم القيامة، لقضى بينهم، وفصل بين عباده في الدنيا، بتعذيب الظالمين، وتنعيم المؤمنين. قال تعالى: «إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا» [النبأ: ١٧]، وقال تعالى: «وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٣ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ» [المرسلات: ١١- ١٥]، وقال تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» [السجدة: ٢٥]، وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» [الحج: ١٧]

حال الظالمين والمؤمنين يوم الدين:

ثم بين سبحانه ما ينتظر الكافرين يوم الفصل، فقال تعالى: «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، «وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ» [البقرة: ٢٥٤].

«تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ» أي: تراهم يوم القيامة خائفين أن يقع بهم العذاب، بما كسبت أيديهم في الدنيا مما أسخط الله عليهم، «وَهُوَ» أي العذاب «وَاقِعٌ بِهِمْ» لا محالة، كما قال تعالى: «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ» [الطور: ٧- ٨]، وقال تعالى: «إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ» [المائدة: ٧٢].

ثم ذكر الله تعالى نعيم المؤمنين فقال: «وَالَّذِينَ آمَنُوا» بقلوبهم «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» بجوارحهم، فذلك هو الإيمان التام، «فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ» أي: الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض المونقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب، رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسنا وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقا إلى لذاتها ووداد، «لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ» فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. «ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ»، وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى، والتنعم بقربه في دار كرامته.

«ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أي: هذه البشارة العظيمة، التي هي أكبر البشائر على الإطلاق، بشر بها الرحيم الرحمن، على يد أفضل خلقه، لأهل الإيمان والعمل الصالح، فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل [تيسير الكريم الرحمن (٦١٠و٦١١)].

ما يرجوه النبي صلى الله عليه وسلم من قومه:

«قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ»:

قال الرازي -عفا الله عنه-: اعلم أنه تعالى لما أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب الشريف العالي، وأودع فيه الثلاثة أقسام الدلائل، وأصناف التكاليف، ورتب على الطاعة الثواب، وعلى المعصية العقاب، بين أني لا أطلب منكم بسبب هذا التبليغ نفعا عاجلا ومطلوبا حاضرا، لئلا يتخيل جاهل أن مقصود محمد صلى الله عليه وسلم من هذا التبليغ المال والجاه فقال: «قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ» [مفاتيح الغيب (٢٧/ ٥٩٣)].

وقال الطبري -رحمه الله-: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل يا نبينا للذين يمارونك في الساعة من مشركي قومك: لا أسألكم أيها القوم على دعايتكم

إلى ما أدعوكم إليه، من الحق الذي جئتكم به، والنصيحة التي أنصحكم، ثوابًا وجزاءً، وعوضًا من أموالكم تعطونيه، «إلا المودة في القربى»: معناه: إلا أن تودوني في قرابتي منكم، وتصلوا رحمي بيني وبينكم. وبذلك قال غير واحد من السلف:

عن طاوس -رحمه الله- في قوله: «قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى»، قال: سئل عنها ابن عباس، فقال ابن جبير -رحمه الله: هم قربى آل محمد، فقال ابن عباس t: عجلت، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من بطون قريش إلا وله فيهم قرابة. قال: فنزلت «قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى» قال: إلا القرابة التي بيني وبينكم أن تصلوها.

وعن عبيد -رحمه الله- قال: سمعت الضحاك -رحمه الله- يقول في قوله: «قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى» يعني قريشا. يقول: إنما أنا رجل منكم، فأعينوني على عدوي، واحفظوا قرابتي، وإن الذي جئتكم به لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى، أن تودوني لقرابتي، وتعينوني على عدوي.

وعن قتادة -رحمه الله- في قوله: «قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى» قال: كل قريش كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، فقال: قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا أن تودوني بالقرابة التي بيني وبينكم. [جامع البيان (٢٣و٢٤/٢٥).

الجزاء بين العدل والفضل:

«ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا»:

أي من يعمل حسنة «نزد له فيها حسنا» وذلك بتضعيف الأجر والثواب، كما قال تعالى: «إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما» [النساء: ٤٠، وقال تعالى: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» [الأنعام: ١٦٠.

«إن الله غفور شكور» يغفر الكثير من الزلل، ويشكر القليل من العمل، ولذلك يجزي بالسيئة مثلها، وبالحسنة عشرا إلى سبعمائة أو يزيد، كما قال تعالى: «من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون» [الأنعام: ١٦٠.

إبطال ادعاء المشركين كذب النبي الأمين:

«أم يقولون افترى على الله كذبا»؟! «كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا» [الكهف: ٥، «فإن يشإ الله يختم على قلبك» لو افتريت عليه كذبا، كما قال سبحانه في موضع آخر: «ولو تقول علينا بعض الأقاويل (٤٤) لأخذنا منه باليمين (٤٥) ثم لقطعنا منه الوتين (٤٦) فما منكم من أحد عنه حاجزين» [الحاقة: ٤٤-٤٧، ولم يفعل الله تعالى بنبيه شيئا من ذلك، بل حفظه من أعدائه، ونصره عليهم، وجعل العاقبة له، كما قال تعالى: «ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته»، وقد كان، زهق الباطل الذي كان عليه المشركون، وظهر الحق الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فكان ذلك أكبر شهادة من الله لنبيه بالصدق.

«إنه عليم بذات الصدور» أي وسيجزي كلا بما علمه منه.

الحث على المبادرة بالتوبة:

«وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون»:

قال الرازي -عفا الله عنه-: اعلم أنه تعالى لما قال: «أم يقولون افترى على الله كذبا»، ثم برأ رسوله مما أضافوه إليه من هذا، وكان من المعلوم أنهم قد استحقوا بهذه الفرية عقابا عظيما، لا جرم ندبهم الله إلى التوبة، وعرفهم أنه يقبلها من كل مسيء وإن عظمت إساءته، فقال: «وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون»، [التفسير

الكبير (٢٧/ ٥٩٧) وهذه الآية كقوله تعالى في سورة التوبة: «أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ» [التوبة: ١٠٤].

والتوبة هي الرجوع إلى الله تعالى بعد معصيته ومخالفة أمره، وحقيقتها: الإقلاع من الذنب، والندم عليه، والعزم على عدم الرجوع إليه. وهذه هي التوبة النصوح التي أمر الله بها في قوله: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ» [التحريم: ٨].

فالواجب على من عصى ربه أن يبادر بالتوبة إليه، فإن الله أمر بالمبادرة بالتوبة، فقال: «قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ» [الزمر: ٥٣- ٥٩].

وقوله تعالى: «وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ»، يعني وسيجزيكم به، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، كما قال تعالى: «يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ» [الزلزلة: ٦- ٨]، وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ». [صحيح مسلم ٢٥٧٧].

«وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ»:

اختلف العلماء في موقع جملة «الَّذِينَ آمَنُوا» من الإعراب:

فقال بعضهم: هي في موقع المفعول به، والفاعل ضمير عائد على الله سبحانه، والمعنى: ويستجيب الله للذين آمنوا، حذفت اللام تخفيفا كما حذفت في قوله تعالى: «وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ» [المطففين: ٣، أي كالوا لهم.

وقال بعضهم: جملة «الَّذِينَ آمَنُوا» واقعة موقع الفاعل من يستجيب. فالله تعالى رغب عباده في التوبة فاستجاب له الذين آمنوا، ولم يستجب له الكافرون، كما قال تعالى: «إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» [الأنعام: ٣٦].

وقوله تعالى: «وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ» على التقدير الأول يكون المعنى: ويستجيب الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويعطيهم ما سألوا، ويزيدهم من فضله فوق ما سألوا. وعلى التقدير الثاني يكون المعنى: ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات لربهم، ويزيدهم ربهم من فضله، كما قال تعالى: «وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا» [مريم: ٧٦، وقال تعالى: «وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ» [محمد: ١٧].

«وَالْكَافِرُونَ» الذين لم يستجيبوا لربهم، «لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ». كما قال تعالى: «لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ» [الرعد: ١٨].

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

سورة الشورى

قال الله تعالى: « وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ۚ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » (الشورى ٢٧- ٣٦)

الحكمة في سعة الرزق وضيقه:

«وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لعباده لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ» كما قال تعالى: « كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ » (العلق: ٦- ٧)، وقال تعالى: إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ » (القصص: ٧٦)، فلما كان الأمر كذلك، وكان الله بعباده لطيفا لم يبسط الرزق بسطا يؤدي إلى البغي، «وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ»، فهو سبحانه يوسع على من يشاء، ويقدر على من يشاء، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، وله الحكمة البالغة في التوسعة والتقدير، وله الحكمة البالغة في العطاء والمنع.

دلائل التوحيد:

«وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ من

إعداد/
د. عبد العظيم بدوي

بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ»:

الغيث هو المطر، والله تعالى هو الذي ينزله، فيصيب به من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، ولا أحد غير الله يستطيع أن ينزل المطر، ولذلك قال تعالى: « أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ »(الواقعة: ٦٨- ٧٠)، ولما عرَّف موسى عليه السلام بربه الذي بعثه، « قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ » (طه: ٥٠- ٥٤).

وقوله تعالى: «من بَعْدِ مَا قَنَطُوا» أي من نزوله، لطول حبسه عنهم، حتى إذا يئسوا أغاثهم الله تعالى، «وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ» وهي المطر، فالمطر من رحمة الله بعباده:

عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: ((هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ)). قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: ((أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ

قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ. فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا. فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ)). (صحيح البخاري ٨٤٦).

«وَهُوَ الْوَلِيُّ» الذي يجب أن يتولاه عباده دون غيره، وهو سبحانه: «الْحَمِيدُ» في كل الأحوال.

وهذه الآية كقوله تعالى: « ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » (الروم: ٤٨-٥٠).

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ» أي: ومن آياته الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته «خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»، فالسماء المرفوعة، والأرض الموضوعة، لا تقع السماء على الأرض، ولا تميد الأرض بأهلها، «ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » (يس: ٣٨)، كما قال تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » (فاطر: ٤١).

«وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ» من الملائكة، والجن، والإنس، والبهائم، والطيور، والحشرات، فهذه الخلائق المختلفة مظهر من مظاهر قدرة الله، قال تعالى: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » (فاطر: ١)، وقال تعالى: «وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » (النور: ٤٥).

وقوله تعالى: «وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ» يعني: إن الله الذي خلق هذه الخلائق المختلفة، وبثهم في الأرض، سيجمعهم ليوم لا ريب فيه، وهو يوم القيامة، كما قال تعالى: «ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا » (النساء: ٨٧)، وقال تعالى: « قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » (الواقعة: ٤٩- ٥٠).

الأثام سبب المصائب:

«وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ»:

يقول تعالى: وما أصابكم أيها الناس من مصيبة في أنفسكم،أو أهليكم، أو أموالكم، أو أولادكم، فبسبب ما اكتسبتم من الآثام، كما قال علي رضي الله عنه: "ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة". وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها كانت إذا أصابها الصداع تضع يدها على رأسها وتقول: هذا بما كسبت يداي، وما يعفو الله عنه أكثر. (الدر المنثور(٧/ ٣٥٥)).

«وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ» يعني إذا أراد الله بكم سوءًا فلن تعجزوه، كما قال تعالى: «وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ » (الرعد: ١١).

«وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ» يتولاكم «وَلَا نَصِيرٍ» ينصركم ويدفع عنكم ما أراد الله بكم، كما قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: «قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ » (الزمر: ٣٨)، وقال مؤمن آل يس لقومه: « وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » (يس: ٢٢- ٢٤)، وقال تعالى للذين اتخذوا من دونه أولياء: « قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا » (الإسراء: ٥٦).

«وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ»: أي ومن آياته الدالة على وحدانيته وعظيم قدرته، وإحاطته بكل شيء علما، «الْجَوَارِ» جمع جارية، وهي السفينة، كما قال تعالى: «إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ» (الحاقة: ١١)، «كَالْأَعْلَامِ» جمع علم، وهو الجبل، ترى السفينة في البحر أدوارا، تحمل آلاف الأطنان من الآدميين وأمتعتهم، تسير فوق الماء برحمة الله، ولو شاء الله لحبسها عن السير، كما قال: «إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» أي للمؤمنين، فالإيمان نصفه صبر، ونصفه شكر، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)). (صحيح مسلم: ٢٩٩٩).

وإنما خص الله المؤمنين بالآيات لأنهم الذين ينتفعون بها، أما غيرهم فهم كما قال تعالى: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ

هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ » (الأعراف: ١٧٩).

«أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ» هذا تهديد آخر، يقول تعالى: لو شئنا أهلكنا السفن ومن فيها وأغرقناهم بما كسبوا، «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ » (فصلت: ٤٦)، ولكن يؤاخذهم بما كسبوا ويعفوا عن كثير من ذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها، رحمة منه بخلقه، كما قال سبحانه: «وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ » (يس: ٤١- ٤٤).

«وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ»:

«وَيَعْلَمَ» فعل مضارع منصوب، عطفا على فعل منصوب محذوف، تقديره: أو يوبقهن بما كسبوا ليذيقهم بعض الذي عملوا، ويعلم الذين يجادلون في آياتنا من الكفار أنهم «مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ» أي من ملجأ يلجئون إليه من دون الله. ولذلك كانوا كما قال الله تعالى: « فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ » (العنكبوت: ٦٥)، لأنهم يعلمون أنه لا ينجيهم من المهالك إلا هو سبحانه. فأعلمهم الله سبحانه أن الله الذي يدعونه في البحر هو الذي يجب أن يدعوه في البر، لأن نواصيهم بيده أينما كانوا، قال تعالى: « رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا » (الإسراء: ٦٦- ٦٩).

صفات المؤمنين:

كان الناس قبل الإسلام في جاهلية وشر، يأكلون الميتة، ويشربون الخمر، وينتهكون الأعراض، ويسلبون الأموال، ويقتلون النفس التي حرم الله بغير حق، وكانوا قبل ذلك وبعده يعبدون الأصنام والأوثان.

ومن ثم كانت البشرية في حاجة إلى قيادة راشدة، تنقذها من تلك الجاهلية العمياء التي كانت تخوض فيها، وتأخذ بيدها إلى العروة الوثقى، وتقود خطاها في الطريق الواصل إلى الله ربها ورب هذا الوجود جميعا.

ومن ثم أنزل الله الكتاب على عبده محمد صلى الله عليه وسلم قرآنًا عربيًّا، لينذر أم القرى ومن حولها، وشرع فيه ما وصى به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى، ليصل بين حلقات الدعوة منذ فجر التاريخ، ويوحد نهجها وطريقها وغايتها، ويقيم بها الجماعة المسلمة التي تهيمن وتقود، وتحقق في الأرض وجود هذه الدعوة كما أرادها الله، وفي الصورة التي يرتضيها.

وقد تضمنت هذه الآيات خصائص وصفات الجماعة المسلمة، المختارة لقيادة البشرية وإخراجها من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام، وهي صفات جديرة بالتأمل، لأنها الصفات التي يجب أن تقوم أولا، وأن تتحقق في الجماعة لكي تصبح بها صالحة للقيادة العملية. ومن ثم ينبغي أن نتدبرها طويلا. ما هي؟ ما حقيقتها؟ وما قيمتها في حياة البشرية جميعا؟

إنها الإيمان. والتوكل. واجتناب كبائر الإثم والفواحش. والمغفرة عند الغضب. والاستجابة لله. وإقامة الصلاة. والشورى الشاملة. والإنفاق مما رزق الله. والانتصار من البغي. والعفو. والإصلاح. والصبر.

فما حقيقة هذه الصفات وما قيمتها؟ يحسن أن نبين هذا ونحن نستعرض الصفات في نسقها القرآني.

إنه يقف الناس أمام الميزان الإلهي الثابت لحقيقة القيم، القيم الزائلة، والقيم الباقية، كي لا يختلط الأمر في نفوسهم، فيختل كل شيء في تقديرهم. ويجعل هذا الميزان مقدمة لبيان صفة الجماعة المسلمة.

بيان صفة الجماعة المسلمة:

الدار الآخرة خير من الأولى:

«فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ»:

إن في هذه الأرض متاعاً جذاباً براقاً، وهناك أرزاق وأولاد، وشهوات ولذات، وجاه وسلطان، وهناك نعم آتاها الله لعباده في الأرض تلطفا منه وهبة خالصة، لا يعلقها بمعصية ولا طاعة في هذه الحياة الدنيا، وإن كان يبارك للطائع ولو في القليل، ويمحق البركة من العاصي ولو كان في يده الكثير.

ولكن هذا كله ليس قيمة ثابتة باقية، إنما هو متاع، متاع محدود الأجل، لا يرفع ولا يخفض، ولا يعد بذاته دليل كرامة عند الله أو مهانة، ولا يعتبر بذاته علامة رضا من الله أو غضب، إنما هو متاع، «وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ»، خير في ذاته، وأبقى في مدته. فمتاع الحياة الدنيا زهيد حين يقاس إلى ما عند الله، ومحدود حين يقاس إلى الفيض المنساب، ومتاع الحياة

الدنيا معدود الأيام، أقصى أمده للفرد عمر الفرد، وأقصى أمده للبشرية عمر هذه البشرية، وهو بالقياس إلى أيام الله ومضة عين أو تكاد.

قال الله تعالى: «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» (آل عمران: ١٤-١٥).

عَنْ مُسْتَوْرِدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ - فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ» (صحيح مسلم ٢٨٥٨).

وَعَنْ سهل بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «وَلَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (صحيح البخاري ٢٨٩٢).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قَدَمٍ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا وَلَمَلأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا -يَعْنِي الْخِمَارَ- عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (صحيح البخاري ٦٥٦٨).

ولعل السر في تقرير هذه الحقيقة قبل ذكر الصفات الواجب توفرها في الجماعة التي تعد للقيادة هو تربية هذه الجماعة على الزهد في الدنيا قبل أن يتولوا القيادة، لأن القيادة تمكن من الدنيا، وتمكن من المال، فإذا تولاها الزاهدون لم يغلوا، ولم يختلسوا، ولم ينهبوا، ولم يضيعوا المال العام الذي تقوم به الدولة، وتتحقق به مصالحها.

وبعد تقرير هذه الحقيقة يأخذ في بيان صفات المؤمنين الذين يدخر الله لهم ما هو خير وأبقى.

ويبدأ بصفة الإيمان: «وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا»، وقيمة الإيمان أنه معرفة بالحقيقة الأولى، التي لا تقوم في النفس البشرية معرفة صحيحة لشيء في هذا الوجود إلا عن طريقها، فمن طريق الإيمان بالله ينشأ إدراك لحقيقة هذا الوجود، وأنه من صنع الله، وبعد إدراك هذه الحقيقة يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الكون وهو يعرف طبيعته، كما يعرف قوانينه التي تحكمه، ومن ثم ينسق حركته هو مع حركة هذا الوجود الكبير، ولا ينحرف عن النواميس الكلية، فيسعد بهذا التناسق، ويمضي مع الوجود كله إلى بارئ الوجود في طاعة واستسلام وسلام. وهذه الصفة لازمة لكل إنسان، ولكنها ألزم ما تكون للجماعة التي تقود البشرية إلى بارئ الوجود.

وقيمة الإيمان كذلك الطمأنينة النفسية، والثقة بالطريق، وعدم الحيرة أو التردد، أو الخوف أو اليأس.

وهذه الصفات لازمة لكل إنسان في رحلته على هذا الكوكب، ولكنها ألزم ما تكون للقائد الذي يرتاد الطريق، ويقود البشرية في هذا الطريق.

وقيمة الإيمان التجرد من الهوى والغرض، والصالح الشخصي، وتحقيق المغانم، إذ يصبح القلب متعلقاً بهدف أبعد من ذاته، ويحس أن ليس له من الأمر شيء، إنما هي دعوة الله، وهو فيها أجير عند الله! وهذا الشعور ألزم ما يكون لمن توكل إليه مهمة القيادة كي لا يقنط إذا أعرض عنه القطيع الشارد، أو أوذي في الدعوة، ولا يغتر إذا ما استجابت له الجماهير، أو دانت له الرقاب، فإنما هو أجير.

ومن مقتضيات هذا الإيمان التوكل على الله، ولكن القرآن يفرد هذه الصفة بالذكر ويميزها: «وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» وهذا التقديم والتأخير في تركيب الجملة يفيد قصر التوكل على رب صفاته، ويستيقن أنه لا أحد في هذا الوجود يفعل شيئا إلا بمشيئته، وأنه لا شيء يقع في هذا الوجود إلا بإذنه. ومن ثم يقصر توكله عليه، ولا يتوجه في فعل ولا ترك لمن عداه.

وهذا الشعور ضروري لكل أحد، كي يقف رافع الرأس، لا يحني رأسه إلا لله. مطمئن القلب، لا يرجو ولا يرهب أحدا إلا الله. ثابت الجأش في الضراء، قرير في السراء، لا تستطيره نعماء ولا بأساء. ولكن ولكن هذا الشعور أشد ضرورة للقائد، الذي يحتمل تبعة ارتياد الطريق.

وللحديث بقية إن شاء الله عن صفات الجماعة المسلمة في العدد القادم إن شاء الله.

تفسير سورة الشورى

الحلقة السابعة

قال الله تعالى: « وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ » (الشورى ٣٧- ٤٣)

لما كان كل من الإيمان والتوكل أمراً باطناً فكان لا بد من دلائله من ظواهر الأعمال، وكانت تخليات من الرذائل، وتحليات بالفضائل، وكانت التخليات لكونها درءًا للمفاسد مقدمة على التحليات التي هي جلب للمصالح، قال عاطفاً على « الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»: « الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ» (نظم الدرر: ٦/ ٦٣٧)؛ والفواحش قال السدي -رَحِمَهُ اللَّه-: يعني الزنى. وقاله ابن عباس، وقال: كبير الإثم الشرك. وقال قوم: كبائر الإثم ما تكون الصغائر مغفورة عند اجتنابها.

والفواحش داخلة في الكبائر، ولكنها تكون أفحش وأشنع، كالقتل بالنسبة إلى الجرح، والزنا بالنسبة إلى المراودة. وقيل: الفواحش والكبائر بمعنى واحد، فكرر لتعدد اللفظ، أي يجتنبون المعاصي لأنها كبائر وفواحش.

وقال مقاتل-رَحِمَهُ اللَّه-: الفواحش موجبات الحدود. (الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٣٥).

والفرق بين الكبائر والفواحش- مع أن جميعهما كبائر- أن الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها، كالزنا ونحوه، والكبائر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر فإن الآخر يدخل فيه. (تيسير الكريم الرحمن: ٦/ ٦٢١).

وطهارة القلب، ونظافة السلوك من كبائر الإثم ومن الفواحش، أثر من آثار الإيمان الصحيح. وضرورة من ضرورات القيادة الراشدة. وما يبقى قلب على صفاء الإيمان ونقاوته وهو يقدم على كبائر الذنوب والمعاصي ولا يتجنبها. وما يصلح قلب للقيادة وقد فارقه صفاء الإيمان وطمسته المعصية وذهبت بنوره.

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

«وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ»: أي: قد تخلقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة، حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله، كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه، بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح، فترتب على هذا العفو والصفح، من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير، كما قال تعالى: «ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» (فصلت: ٣٤- ٣٥). (تيسير الكريم الرحمن: ٦/ ٦٢١).

وتأتي هذه الصفة بعد الإشارة الخفية إلى سماحة الله مع الإنسان في ذنوبه وأخطائه، فتحبب في السماحة والمغفرة بين العباد، وتجعل صفة المؤمنين أنهم إذا ما غضبوا هم يغفرون.

«وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ»: أي انقادوا لطاعته، ولبوا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه، فأزالوا العوائق التي تقوم بينهم وبين ربهم. أزالوا هذه العوائق الكامنة في النفس دون الوصول. وما يقوم بين النفس وربها إلا عوائق من نفسها. عوائق من شهواتها ونزواتها. عوائق من وجودها هي وتشبثها بذاتها. فأما حين تخلص من هذا كله فإنها تجد الطريق إلى ربها مفتوحاً وموصولا. وحينئذ تستجيب بلا عائق. تستجيب بكلياتها. ولا تقف أمام كل تكليف بعائق من هوى يمنعها، وهذه هي الاستجابة في عمومها.ثم أخذ يفصل بعض هذه الاستجابة، فقال:

«وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ»: وللصلاة في هذا الدين مكانة عظيمة، فهي التالية للقاعدة الأولى فيه، قاعدة شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وهي صورة الاستجابة الأولى لله. وهي الصلة بين العبد وربه. وهي مظهر المساواة بين العباد في الصف الواحد ركعاً سجداً، لا يرتفع رأس على رأس، ولا تتقدم رِجْل على رِجْل!

ولعله من هذا الجانب أتبع إقامة الصلاة بصفة الشورى قبل أن يذكر الزكاة: (في ظلال القرآن: ٧/ ٢٩٨و٢٩٩).

«وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ»: الشورى مصدر شاورته، مثل البشرى، والذكرى، ونحوه.

قال ابن العربي -رَحِمَهُ اللهُ-: الشورى ألفة للجماعة، ومسبار للعقول، وسبب إلى الصواب، وما تشاور قوم إلا هدوا. (أحكام القرآن: ٤/ ١٦٦٨).

والمعنى: «وَأَمْرُهُمْ» الديني والدنيوي «شُورَى بَيْنَهُمْ» أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعا عن اجتماعهم وتوالفهم، وتواددهم وتحابهم. فمن كمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمرا من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها، اجتمعوا لها وتشاوروا، وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموما، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية (تيسير الكريم الرحمن: ٦/ ٦٢٢)، وهي كما قلنا نص مكي، كان قبل قيام الدولة الإسلامية، فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حياة المسلمين. إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم فيها بعد.

والواقع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إفراز طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتية. والجماعة تتضمن الدولة، وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية.

ومن ثم كان طابع الشورى في الجماعة مبكرًا، وكان مدلوله أوسع وأعمق من محيط الدولة وشؤون الحكم فيها. إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية. وهي من ألزم صفات القيادة.

أما الشكل الذي تتم به الشورى فليس مصبوباً في قالب حديدي، فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان، لتحقيق ذلك الطابع في حياة الجماعة الإسلامية. والنظم الإسلامية كلها ليست أشكالاً جامدة، وليست نصوصاً حرفية، إنما هي قبل كل شيء روح ينشأ عن استقرار حقيقة الإيمان في القلب، وتكيف الشعور والسلوك بهذه الحقيقة.

وسوق المشورة هذا السياق دال على عظيم جدواها وجلالة نفعها. قال الحسن -رحمه الله-: ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه في الآراء المتعلقة بمصالح الحروب، وذلك كثير في الآراء. ولم يكن يشاورهم في الأحكام، لأنها منزلة من عند الله على جميع الأقسام من الفرض والندب والمكروه والمباح والحرام.

فأما الصحابة بعد استئثار الله تعالى به علينا فكانوا يتشاورون في الأحكام ويستنبطونها من الكتاب والسنة. (أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٦٦٨).

«وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ»: وهو نص مبكر كذلك على تحديد فرائض الزكاة التي حددت في السنة الثانية من الهجرة، ولكن الإنفاق العام من رزق الله كان توجيها مبكراً في حياة الجماعة الإسلامية، بل إنه ولد مع مولدها.

ولا بد للدعوة من الإنفاق. لا بد منه تطهيرًا للقلب من الشح، واستعلاء على حب الملك، وثقة بما عند الله. وكل هذه ضرورية لاستكمال معنى الإيمان. ثم إنها ضرورية كذلك لحياة الجماعة. فالدعوة كفاح. ولا بد من التكافل في هذا الكفاح وجرائره وآثاره. وأحياناً يكون هذا التكافل كاملاً بحيث لا يبقى لأحد مال متميز، كما حدث في أول العهد بهجرة المهاجرين من مكة، ونزولهم على إخوانهم في المدينة، حتى إذا هدأت حدة الظروف وضعت الأسس الدائمة للإنفاق في الزكاة.

وعلى أية حال فالإنفاق في عمومه سمة من سمات الجماعة المؤمنة المختارة للقيادة بهذه الصفات. (في ظلال القرآن: ٧/ ٣٠٠).

«وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ» أي: فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم، ليسوا بعاجزين ولا أذلة، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا، كما قال يوسف عليه السلام، لإخوته: « قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » (يوسف: ٩٢)، مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه، وكما عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن حاول قتله من المشركين وغيرهم، ومنهم غَوْرَث بن الحارث، الذي اخترط سيفه وهو نائم، فاستيقظ وهو في يده صَلْتا، فانتهره فوضعه من يده، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم السيف من يده، ودعا أصحابه، ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل، وعفا عنه. وكذلك عفا عن لبيد بن الأعصم الذي سحره، ولم يعرض له، ولا عاتبه، مع قدرته عليه. وكذلك عفوه، عليه السلام، عن المرأة اليهودية التي سمت الذراع يوم خيبر، فأخبره الذراع بذلك، فدعاها فاعترفت فقال: "ما حملك على ذلك"؟ قالت: أردت إن كنت نبيا لم يضرك، وإن لم تكن نبيا استرحنا منك، فأطلقها. وكذلك عفوه عليه السلام عن أهل مكة عام الفتح.(تفسير القرآن العظيم(٤/ ١١٨) بتصرف).

فإن قيل هذه الآية مشكلة لوجهين:

الأول: أنه ذكر قبل ذلك «وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ» فكيف يليق أن يذكر معه ما يجري مجرى الضد له، وهو قوله «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ»؟.

الثاني: وهو أن جميع الآيات دالة على أن العفو أحسن، قال تعالى: «وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ» (البقرة: ٢٣٧) وقال: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» (الأعراف: ١٩٩)، وقال: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ» (النحل: ١٢٦) فهذه الآيات تناقض مدلول هذه الآية!.

والجواب: أن العفو على قسمين:

أحدهما: أن يكون العفو سبباً لتسكين الفتنة وجناية الجاني ورجوعه عن جنايته.

والثاني: أن يصير العفو سبباً لمزيد جراءة الجاني ولقوة غيظه وغضبه، والآيات في العفو محمولة على القسم الأول، وهذه الآية محمولة على القسم الثاني، وحينئذ يزول التناقض والله أعلم، ألا ترى أن العفو عن المصر يكون كالإغراء له ولغيره، ولذلك روي أن زينب أقبلت على عائشة فشتمتها، فنهاها النبي صلى الله عليه وسلم عنها فلم تنته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((دُونَكِ فَانْتَصِرِي)) (صحيح سنن ابن ماجه للألباني١١٦١).

وأيضا إنه تعالى لم يرغب في الانتصار، بل بيّن أنه مشروع فقط، ثم بيّن بعده أن شرعه مشروط برعاية المماثلة، ثم بيّن أن العفو أولى بقوله: «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» فزال الإشكال والحمد لله.

ثم إن الله تعالى لما قال: «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ» أردفه بما يدل على أن ذلك الانتصار يجب أن يكون مقيداً بالمثل، فإن النقصان حيف، والزيادة ظلم، والتساوي هو العدل، وبه قامت السموات والأرض، فلهذا السبب قال:

«وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا»:

وهذه الآية أصل كبير في علم الفقه، فإن مقتضاها أن تقابل كل جناية بمثلها، وذلك لأن الإهدار يوجب فتح باب الشر والعدوان، لأن في طبع كل أحد الظلم والبغي والعدوان، فإذا لم يزجر عنه أقدم عليه ولم يتركه، وأما الزيادة على قدر الذنب فهو ظلم، والشرع منزّه عنه، فلم يبق إلا أن يقابل بالمثل، ثم تأكد هذا النص بنصوص أخر، كقوله تعالى: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ» (النحل: ١٢٦)، وقوله تعالى: « مَّنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا »

(غافر: ٤٠) وقوله عز وجل: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى» (البقرة: ١٧٨)، والقصاص عبارة عن المساواة والمماثلة، وقوله تعالى: «وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ» (المائدة: ٤٥)، وقوله تعالى: «وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ» (البقرة: ١٧٩). (مفاتيح الغيب (٢٧/ ١٧٨-١٨٠)).

فهذه النصوص بأسرها تقتضي مقابلة السيئة بمثلها، كي لا يتبجح الشر ويطغى، حين لا يجد رادعاً يكفه عن الإفساد في الأرض فيمضي وهو آمن مطمئن!

ذلك مع استحباب العفو ابتغاء أجر الله وإصلاح النفس من الغيظ، وإصلاح الجماعة من الأحقاد. وهو استثناء من تلك القاعدة. والعفو لا يكون إلا مع المقدرة على جزاء السيئة بالسيئة. فهنا يكون العفو وزنه ووقعه في إصلاح المعتدي والمسامح سواء. فالمعتدي حين يشعر بأن العفو جاء سماحة ولم يجئ ضعفا يخجل ويستحيي، ويحس بأن خصمه الذي عفا هو الأعلى. والقوي الذي يعفو تصفو نفسه وتعلو، فالعفو عندئذ خير لهذا وهذا، ولا كذلك عند الضعف والعجز، وما يجوز أن يذكر العفو عند العجز، فليس له ثمة وجود، وهو شر يطمع المعتدي ويذل المعتدى عليه، وينشر في الأرض الفساد! (في ظلال القرآن: ٧/ ٣٠٢).

ثم قال تعالى: «فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ» بينه وبين خصمه بالعفو والإغضاء، كما قال تعالى: «وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ» (فصلت: ٣٤)، «فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ»، وهو وعد مبهم، لا يقاس أمره في التعظيم. وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فليعف عنهم، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

ثم قال تعالى: «إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ» وفيه قولان:

الأول: أن المقصود منه التنبيه على أن المجني عليه لا يجوز له استيفاء الزيادة من الظالم، لأن الظالم فيما وراء ظلمه معصوم، والانتصار لا يكاد يؤمن فيه تجاوز التسوية والتعدي، خصوصاً في حال الحرب والتهاب الحمية، فربما صار المظلوم عند الإقدام على استيفاء القصاص ظالماً.

الثاني: أنه تعالى لما حثّ على العفو عن الظالم أخبر أنه مع ذلك لا يحبه، تنبيهاً على أنه إذ كان لا يحبه ومع ذلك فإنه يندب إلى عفوه، فالمؤمن الذي هو حبيب الله بسبب إيمانه أولى أن يعفو عنه.

ثم قال تعالى: «وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ» أي ظلم الظالم إياه، وهذا من باب إضافة المصدر إلى المفعول «فَأُوْلَٰٓئِكَ» يعني المنتصرين «مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ» كعقوبة ومؤاخذة، لأنهم أتوا بما أبيح لهم من الانتصار. ثم قال: «إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ» أي يبدأون بالظلم «وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ».

ثم قال تعالى: «وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ»:

والمعنى «وَلَمَن صَبَرَ» بأن لا يقتص «وَغَفَرَ» وتجاوز «إِنَّ ذَٰلِكَ» الصبر والتجاوز «لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ» (مفاتيح الغيب: ٢٧/ ١٨٢و١٨٣)، قال سعيد بن جبير -رَحِمَهُ اللَّه- حق الأمور التي أمر الله بها، أي: لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة، التي عليها ثواب جزيل، وثناء جميل (تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١١٩).

ويحكى أن رجلاً سب رجلاً في مجلس الحسن فكان المسبوب يكظم ويعرق فيمسح العرق ثم قام وتلا هذه الآية، فقال الحسن-رَحِمَهُ اللَّه-: عقلها والله وفهمها لما ضيعها الجاهلون. (الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٤٤).

ومجموعة النصوص في هذه القضية تصور الاعتدال والتوازن بين الاتجاهين، وتحرص على صيانة النفس من الحقد والغيظ، ومن الضعف والذل، ومن الجور والبغي. وتعلقها بالله ورضاه في كل حال. وتجعل الصبر زاد الرحلة الأصيل.

فوصفهم بالإيمان، والتوكل على الله، واجتناب الكبائر والفواحش الذي تكفر به الصغائر، والانقياد التام، والاستجابة لربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه الإحسان، والمشاورة في أمورهم، والقوة والانتصار على أعدائهم، فهذه خصال الكمال قد جمعوها، ويلزم من قيامها فيهم فعل ما هو دونها، وانتفاء ضدها.

ومجموعة صفات المؤمنين ترسم طابعًا مميزًا للجماعة التي تقود البشرية وترجو ما عند الله وهو خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. (في ظلال القرآن: ٧/ ٣٠٣).

وللحديث بقية إن شاء الله

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الشورى

الحلقة الثامنة والأخيرة

إعداد/
د. عبد العظيم بدوي

قال الله تعالى: « وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ » (الشورى: ٤٤- ٥٣)

إن الهدى هدى الله:

«وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ»:

لما ذكر الله تعالى بعض دلائل التوحيد، ومظاهر العظمة والقدرة، التي من شأنها أن يستدل بها على أنه لا إله إلا هو، ومع ذلك أبى أكثر الناس إلا كفورا، بين سبحانه أن الإيمان «فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (الحجرات: ٨)، فهو الذي يهدي من يشاء ممن علم أنه أهل لذلك الفضل، ويضل من يشاء ممن علم أنه ليس لفضله أهلا، «وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ»، كما قال تعالى: «وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» (الإسراء: ٩٧- ٩٨).

تمني الظالمين الرجوع إلى الدنيا:

ثم أخبر سبحانه أن الضالين الذين عموا عن آيات الله سيعترفون بذنبهم «يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ» (الذاريات: ٤٣)، ويسألون

اللَّه تعالى أن يردهم إلى الدنيا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل، ولن يجابوا، فقال تعالى: «وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ».

والخطاب للنبي صلى اللَّه عليه وسلم ولكل من بلغه، والظالمون هم الكافرون المشركون، «لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ» وأيقنوا بالبوار، كما قال تعالى: «وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا» (الكهف: ١٠١)، وقال تعالى: «وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا» (الكهف: ٥٣)، فتمنوا الرجوع إلى الدنيا وقالوا: «هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ»، وقد صرحوا بالغرض من تمني الرجوع، كما قال تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» (الأنعام: ٢٧).

وقد أعلمنا ربنا سبحانه أن هذا السؤال سيتكرر منهم، وأنهم لن يجابوا:

قال تعالى: «بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» (الأنعام: ٢٨)، ثُمَّ ذكر اللَّه تعالى حالهم عند عرضهم على النار، فقال: «وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ» أي حال كونهم خاشعين حقيرين مهانين بسبب ما لحقهم من الذل، «يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ»: أي يبتدئ نظرهم من تحريك لأجفانهم ضعيف خفي بمسارقة، كما ترى الذي يتيقن أن يقتل، فإنه ينظر إلى السيف كأنه لا يقدر على أن يفتح أجفانه عليه ويملأ عينيه منه، كما يفعل في نظره إلى المحبوبات. (التفسير الكبير(٢٧/ ١٨٣)).

«وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»:

يترجح أن الواو للحال لا للعطف، والجملة حال من ضمير الغيبة في تراهم، أي تراهم في حال الفظاعة الملتبسين بها، وتراهم في حال سماع الكلام الذام لهم الصادر من المؤمنين إليهم في ذلك المشهد. وهذا قول المؤمنين يوم القيامة إذ كانوا يومئذ مطمئنين من الأهوال شاكرين ما سبق من إيمانهم في الدنيا عارفين بربح تجارتهم ومقابلين بالضد حالة الذين كانوا يسخرون بهم في الدنيا إذ كانوا سببا في خسارتهم يوم القيامة.

والظاهر: أن المؤمنين يقولون هذا بمسمع من الظالمين فيزيد الظالمين تلهيبا لندامتهم ومهانتهم وخزيهم. فهذا الخبر مستعمل في إظهار المسرة والبهجة بالسلامة مما لحق الظالمين، أي قالوه تحدثا بالنعمة واغتباطا بالسلامة يقوله كل أحد منهم أو يقوله بعضهم لبعض. وإنما جيء بحرف إن مع أن القائل لا يشك في ذلك، والسامع لا يشك فيه، للاهتمام بهذا الكلام، إذ قد تبينت سعادتهم في الآخرة، وتوفيقهم في الدنيا، بمشاهدة ضد ذلك في معانديهم.

والتعريف في الخاسرين تعريف الجنس، أي لا غيرهم. والمعنى: أنهم الأكملون في الخسران فلا خسران يشبه خسرانهم.

وجملة «ألا إن الظالمين في عذاب مقيم» تذييل للجمل التي قبلها من قوله: «وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل»، لأن حالة كونهم في عذاب مقيم أعم من حالة تلهفهم على أن يردوا إلى الدنيا، وذلهم وسماعهم الذم.

والمقيم: الذي لا يرتحل. ووصف به العذاب على وجه الاستعارة، شبه المستمر الدائم بالذي اتخذ دار إقامة لا يبرحها. (التحرير والتنوير:٢٥/ ١٢٨).

«وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ»:

لقد اتخذوا من دون اللَّه أولياء، كما سبق في أول السورة، وكانوا يرجون شفاعتهم عند اللَّه، كما قال تعالى: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ» (يونس: ١٨)، فلما كان يوم القيامة لم يغنوا عنهم من اللَّه شيئا، بل تبرؤوا منهم أحوج ما يكونون إليهم، كما قال تعالى: «وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» (يونس: ٢٨-٣٠).

ومرة ثانية يؤكد ربنا سبحانه أن من أضله اللَّه فما له من هاد، فيقول: «وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ»، أي فما له من سبيل إلى الهداية وقد أضله اللَّه عنها، وما له من سبيل إلى الجنة وقد أضله اللَّه عنها، وقال تعالى: «احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ» (الصافات: ٢٢- ٢٣).

الحث على المبادرة بالاستجابة لله وللرسول:

ولما ذكر اللَّه تعالى حال الظالمين ومآلهم يوم القيامة، وأنهم سيندمون على ما فرطوا في جنب اللَّه، ويسألونه الرجعة إلى الدنيا ليتداركوا ما فات، وأنه لن يجيبهم إلى ما سألوا، حث سبحانه العباد على اغتنام الفرصة، والمبادرة بالاستجابة لما يدعوهم إليه ربهم، فقال سبحانه:

«اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ»:

والاستجابة تتحقق بالإيمان، واتباع النبي صلى الله عليه وسلم، بحيث يفعل العبد ما به الله أمر، ويترك ما نهى عنه وزجر. واليوم الذي لا مرد له من الله يمكن أن يراد به يوم الوفاة، فإن الله تعالى قال: «قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» (الجمعة: ٨)، وقال تعالى: «كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ» (القيامة: ٢٦- ٢٩).

ويمكن أن يراد باليوم الذي لا مرد له من الله يوم القيامة، فقد قال تعالى: «فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ» (القيامة: ٧- ١٢).

وقوله تعالى: «مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ» يعني ليس لكم ملجأ تلجئون إليه، ولا تستطيعون إنكار أعمالكم، لأنها مسجلة عليكم، كما قال تعالى: «وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ» (القمر: ٥٢- ٥٣)، وقال تعالى: «وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» (الكهف: ٤٩).

فالعاقل من اغتنم حياته، واجتهد فيما ينفعه بعد مماته، ومن غرته الحياة الدنيا، وغره بالله الغرور، فلا يضر إلا نفسه، ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: «فَإِنْ أَعْرَضُوا» عنك، ولم يستجيبوا لك، «فَمَا أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا» تحفظ أعمالهم، ولا رقيبا تراقبهم، «إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ» وقد بلغت، ونصحت، «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ» (الزخرف: ٨٢).

حال الإنسان في السراء والضراء:

ثم ذكر الله تعالى حال الإنسان في السراء والضراء، فقال: «وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا» وهذا الفرح فطرة في الإنسان، لا يذم عليه مطلقا، وإنما يذم على الفرح حين يكون معه الأشر والبطر، والكفر والجحود، الذي يجحد به فضل الله، ولا يشكره على ما آتاه، كما كان من قارون، «إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ» (القصص: ٧٦- ٧٨).

«وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ» لكل النعم التي عاشها وما زال يعيشها، وكأنه لم ينل من الله رحمة قط، ولا حصل له من الله خير قط، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حق النساء: (لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ) (متفق عليه: البخاري ٥١٩٧/٩/٢٩٨، ومسلم ٢/٦٢٦/٩٠٧).

لكن المؤمن بخلاف هذا، والحمد لله، المؤمن إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، كما قال صلى الله عليه وسلم، ولذلك استثنى الله المؤمنين مما وصف به الكافرين، فقال تعالى: «وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» (هود: ٩- ١١).

المالك هو الله:

«لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ»: هذه حقيقة أكثر ربنا سبحانه من تقريرها في القرآن الكريم، فالملك كله لله وحده، لا شريك له، وهو سبحانه يتصرف في ملكه كيف يشاء، يحيي ويميت، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويرفع ويضع، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ولا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى، كما قال تعالى: «قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» (آل عمران: ٢٦- ٢٧).

ومن تصرفه سبحانه في ملكه تصرُّفه في جنس المواليد، كما قال: «يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا»، فأرزاق الناس في الأولاد مختلفة، فمنهم من تكونوا ذريته كلها إناثا، ومنهم من تكونوا ذريته كلها ذكورا، ومنهم من تكونوا ذريته ذكورا وإناثا، ومنهم من يكون عقيما لا يلد، وله سبحانه في ذلك الحكمة البالغة.

قال العلماء: وقد كانت هذه الأصناف الأربعة في الأنبياء، فمنهم من كانت ذريته كلها إناثا، وهو لوط عليه السلام، ومنهم من كانت ذريته كلها ذكورا، وهو إبراهيم عليه السلام، ومنهم من رزق الذكور والإناث، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ومنهم من كان عقيما لا ولد له، وهو يحيى عليه السلام، حتى يكونوا جميعا أسوة لغيرهم، فيرضى كل إنسان بقسمة الله، كما رضي أولئك الرسل بما أعطاهم الله.

ثم يختم الله تعالى الآية بما يثلج صدور الجميع، ويرضيهم بما قسم الله، ويفتح باب الأمل أمام كل من

يرجو نوال ما حُرمه، فيقول تعالى: «إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ»، فهو سبحانه عليم بمصلحة عباده، وهم لا يعلمون، فالخير كل الخير أن يسلموا أمورهم لله، وأن يرضوا بما قسم الله، وهو سبحانه على كل شيء قدير، فقد يعطي من منع، فلا يأس ولا قنوط، فقد رزق الله تعالى إبراهيم عليه السلام بعد عمر طويل، وقد تعجب من تبشير الملائكة له بالولد، « قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ » (الحجر: ٥٤- ٥٦)، وكذلك تعجبت امرأته من البشارة، «قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ » (هود: ٧٢- ٧٣).

أنواع الوحي:

«وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ»:

قال السعدي-رحمه الله-:

لما قال المكذبون لرسل الله، الكافرون بالله: «لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ » (البقرة: ١١٨) من كبرهم وتجبرهم، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وأن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه، للأنبياء والمرسلين، وصفوته من العالمين، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه:

أن يلقي الوحي في قلب الرسول، من غير إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاها.

«أو» يكلمه منه شفاها، لكن «من وَرَاءِ حِجَابٍ» كما حصل لموسى ابن عمران عليه السلام، كليم الرحمن.

«أو» يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي، فـ «يُرْسِلَ رَسُولًا» كجبريل أو غيره من الملائكة.

«فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ» أي: بإذن ربه، لا بمجرد هواه، «إِنَّهُ» تعالى «عَلِيٌّ» الذات، عليُّ الأوصاف، عظيمها، عليُّ الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات، «حَكِيمٌ» في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع. (تيسير الكريم الرحمن (٦/ ٦٣٠).

أسماء الوحي:

« كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (الشورى: ٣)، وسمى الله تعالى الوحي روحا لأنه يحيي القلوب، كما تحيى الأبدان بالروح، فمن اتبع الوحي فهو حي القلب، ومن أعرض عنه فهو ميت القلب.

وقوله تعالى: «وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ » (القصص: ٨٦).

فالله تعالى يمتن على نبيه صلى الله عليه وسلم بما علمه من الكتاب والحكمة، كما قال تعالى: «وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » (النساء: ١١٣).

«وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» فالقرآن نور وهدى، كما قال تعالى: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا » (النساء: ١٧٤)، وقال تعالى: «قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » (المائدة: ١٥- ١٦).

أنواع الهداية:

«وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ»:

هذه الهداية هي هداية الدلالة والبيان والإرشاد، وهي التي تحصل بالدعوة، ولذا قال تعالى: « وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ» (المؤمنون: ٧٣).

أما الهداية المضافة إلى الله تعالى في قوله: «نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» فهي هداية التوفيق، وهي بيد الله تعالى وحده، ولذلك قال تعالى: « لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ » (البقرة: ٢٧٢)، وقال تعالى: « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » (القصص: ٥٦).

فالهداية المثبتة له صلى الله عليه وسلم هي هداية الدعوة، والمنفية هي هداية التوفيق، لكن الثانية متوقفة على الأولى، فعلى من يريد النجاة أن يتبع هدي رسول الله حتى يهديه الله، فإن الله تعالى قال: « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » (محمد: ١٧).

حسن الختام:

وقوله تعالى: «أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ» تذييلٌ وتنهيةٌ للسورة، بختام ما احتوت عليه، من المجادلة والاحتجاج، بكلام قاطع جامع، مُنذر بوعيد للمُعرضين فاجع، ومُبشر بالوعد لكل خاشع. وافتتحت الجملة بحرف التنبيه لاسترعاء أسماع الناس. وتقديم المجرور لإفادة الاختصاص، أي إلى الله لا إلى غيره.

والمصير: الرجوع والانتهاء، واستعير هنا لظهور الحقائق كما هي يوم القيامة فيذهب تلبيس الملبسين، ويهن جبروت المتجبرين، ويقر بالحق من كان فيه من المعاندين، وهذا كقوله تعالى: «وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » (لقمان: ٢٢)، وقوله: «وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ» (هود: ١٢٣).

والأمور: الشؤون والأحوال والحقائق وكل موجود من الذوات والمعاني.

وفي تنهية السورة بهذه الآية محسن حسن الختام. (التحرير والتنوير: ٢٥/ ١٥٦).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سورة الزخرف

الحلقة الأولى

قال الله تعالى: «حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (الزخرف: ١- ١٠)

إعداد/
د. عبد العظيم بدوي

بين يدي السورة

الزُّخْرُفُ مَعْنَاهُ الزِّينَةُ الْمُزَوَّقَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ» (يونس: ٢٤)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا» (الأنعام: ١١٢)، أَيْ: الْمُزَوَّقَاتِ مِنَ الْكَلَامِ. وَأُطْلِقَ الزُّخْرُفُ عَلَى الذَّهَبِ لِأَنَّهُ مِنْ أَحْسَنِ مَا يُتَزَيَّنُ بِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ» (الإسراء: ٩٣).

وَقَدْ سُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ سُورَةَ الزُّخْرُفِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِيهَا: «وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا».

وَهِيَ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، شَأْنُهَا شَأْنُ السُّورِ الْمَكِّيَّةِ، فِي الِاهْتِمَامِ بِتَرْسِيخِ الْعَقِيدَةِ، وَبَيَانِ أُصُولِ الدِّينِ، وَأَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَقَدْ رَكَّزَتِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ، وَهِيَ: التَّوْحِيدُ، وَالنُّبُوَّةُ، وَالْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْتِ، لَكِنَّ الْمِحْوَرَ الْأَسَاسَ الَّذِي تَدُورُ حَوْلَهُ السُّورَةُ الْمُبَارَكَةُ هُوَ إِبْطَالُ الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ، وَالْمَفَاهِيمِ الْخَاطِئَةِ، الَّتِي سَادَتِ الْمُجْتَمَعَ الْجَاهِلِيَّ، وَاسْتَقَرَّتْ فِي نُفُوسِ الْمُشْرِكِينَ.

«وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ»: الْوَاوُ وَاوُ الْقَسَمِ، وَالْمُقْسِمُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالْمُقْسَمُ بِهِ هُوَ الْكِتَابُ الْمُبِينُ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ. وَوَصَفَ الْكِتَابَ بِالْمُبِينِ لِأَنَّ أَلْفَاظَهُ وَاضِحَةٌ، وَمَعَانِيَهُ بَيِّنَةٌ، وَقَدْ أَبَانَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالَ، كَمَا أَبَانَ بِهِ لِلنَّاسِ كُلَّ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ» (الإسراء: ٩)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ» (النحل: ٨٩)، وَقَالَ تَعَالَى: «مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ» (الأنعام: ٣٨).

«إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا»: الْجَعْلُ هُنَا بِمَعْنَى الْإِنْزَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (يوسف: ٢). أَوْ بِمَعْنَى التَّسْمِيَةِ وَالْوَصْفِ، كَمَا يُقَالُ: جَعَلَ فُلَانٌ زَيْدًا أَعْلَمَ النَّاسِ. أَيْ سَمَّاهُ وَوَصَفَهُ بِكَوْنِهِ أَعْلَمَ النَّاسِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ: «وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا»، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:

«وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا» أَيْ سَمَّوْهُمْ وَوَصَفُوهُمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا» هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ كَمَا يَقُولُ الْعُلَمَاءُ قَسَمٌ بَدِيعٌ حَسَنٌ، حَيْثُ إِنَّ الْمُقْسَمَ بِهِ هُوَ الْكِتَابُ الْمُبِينُ، وَالْمُقْسَمَ عَلَيْهِ هُوَ نَفْسُهُ الْكِتَابُ الْمُبِينُ، فَهُوَ مِنَ الْأَقْسَامِ الْبَدِيعِيَّةِ الْحَسَنَةِ. وَالْمَعْنَى: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِأَنَّ الْمُرْسَلَ عَرَبِيٌّ، وَالْمُرْسَلَ إِلَيْهِمْ عَرَبٌ، وَالْحِكْمَةُ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مِنَ الْقَوْمِ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ، لِيَكُونَ لِسَانُهُ لِسَانَهُمْ، فَيَفْهَمُوا عَنْهُ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ» (إبراهيم: ٤)، وَقَدْ سَبَقَ فِي سُورَةِ فُصِّلَتْ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ» (فصلت: ٤٤).

وَالْحِكْمَةُ مِنْ جَعْلِ الْقُرْآنِ عَرَبِيًّا هِيَ: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» وَتَفْهَمُونَ. وَفِي هَذَا تَعْرِيضٌ بِتَوْبِيخِهِمْ عَلَى عَدَمِ تَدَبُّرِهِمْ لِلْقُرْآنِ، وَعَدَمِ فَهْمِهِمْ لَهُ، مَعَ أَنَّهُ بِلِسَانِهِمْ، فَكَانُوا أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِمْ بِتَدَبُّرِهِ وَفَهْمِهِ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ فُصِّلَتْ: «حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ» (فصلت: ١-٥).

«وَإِنَّهُ» أَيِ الْقُرْآنُ «فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا» أَيْ عِنْدَنَا، وَأُمُّ الْكِتَابِ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ» (البروج: ٢١- ٢٢)، «لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» هَذَانِ وَصْفَانِ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى بِهِمَا الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ إِشَادَةً بِهِ، وَتَنْوِيهًا بِعُلُوِّ شَرَفِهِ، وَزِيَادَةً فِي تَوْبِيخِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِهِ.

«أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ»:

يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ، الْمُكَذِّبِينَ بِالْكِتَابِ الْمُبِينِ: أَلِكَوْنِكُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، نُعْرِضُ عَنْكُمْ، وَنَمْنَعُ نُزُولَ الْقُرْآنِ عَلَيْكُمْ، فَلَا نُذَكِّرُكُمْ، وَلَا نُرْشِدُكُمْ، وَلَا نَأْمُرُكُمْ، وَلَا نَنْهَاكُمْ؟! بَلَى! سَوْفَ نَسْتَمِرُّ فِي تَنْزِيلِ الْكِتَابِ عَلَى نَبِيِّنَا لِيُنْذِرَكُمْ بِهِ، «لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ» (الأنفال: ٤٢)، وَ«لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» (النساء: ١٦٥).

عَنْ قَتَادَةَ -رحمه الله-: «أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ»: أَيْ مُشْرِكِينَ، وَاللهِ لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ رُفِعَ حِينَ رَدَّهُ أَوَائِلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَهَلَكُوا، فَدَعَاهُمْ إِلَيْهِ عِشْرِينَ سَنَةً، أَوْ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ. (جامع البيان(٢٥/ ٤٩)).

«وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ» هَذَا السُّؤَالُ لِلتَّكْثِيرِ، وَقَدْ صَرَّحَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِعَدَدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَفِي الْحَدِيثِ:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! أَيُّ الْأَنْبِيَاءِ أَوَّلُ؟ قَالَ: (آدَمُ)، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ! أَوَ نَبِيٌّ كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: نَعَمْ، نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ، خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: يَا آدَمُ قُبُلًا قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! كَمْ وَفَى عِدَدُ الْأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: ((مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُمِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ، جَمًّا غَفِيرًا)). (أخرجه ابن حبان (٢٠٨٥)، والطبراني (٨/١٣٩و١٤٠/٧٥٤٥) بسند صحيح).

وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ كَثْرَةِ هَذَا الْعَدَدِ إِلَّا أَنَّ مَوْقِفَ الْأُمَمِ مِنَ الرُّسُلِ كَانَ وَاحِدًا، وَهُوَ تَكْذِيبُ الرُّسُلِ وَالِاسْتِهْزَاءُ بِهِمْ، وَكَانَتِ النَّتِيجَةُ وَاحِدَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ» (المؤمنون: ٤٤)، وَلِهَذَا قَالَ هُنَا: «وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ».

وَفِي هَذَا الْخَبَرِ تَسْلِيَةٌ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى أَذَى قَوْمِهِ لَهُ، وَتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ، وَفِيهِ وَعِيدٌ لَهُمْ وَتَحْذِيرٌ، بِأَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ، وَيُؤْمِنُوا بِالرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم، وَيَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ، فَإِنَّ اللهَ سَيُهْلِكُهُمْ، وَيَنْصُرُ رَسُولَهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، كَمَا فَعَلَ بِالرُّسُلِ وَأَقْوَامِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَهُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا، فَلْيَحْذَرُوا أَنْ يُصِيبَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

قَالَ تَعَالَى: «فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا» (فاطر: ٤٤)، وَقَالَ تَعَالَى: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٢١ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ

الْعِقَابِ » (غافر: ٢١- ٢٢)، وَقَالَ تَعَالَى: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا » (محمد: ١٠)، وَقَالَ تَعَالَى: « وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ » (محمد: ١٣)، وَقَالَ تَعَالَى: « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » (الفجر: ٦- ١٤)، وَفَصَّلَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْقَمَرِ نَبَأَ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ، ثُمَّ خَاطَبَ كُفَّارَ قُرَيْشٍ بِقَوْلِهِ: « أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ » (القمر: ٤٣- ٤٦).

تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ يَسْتَلْزِمُ تَوْحِيدَ الْأُلُوهِيَّةِ:

«وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ»:

كَانَ الْمُشْرِكُونَ مُوَحِّدِينَ اللهَ تَعَالَى بِأَفْعَالِهِ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ لَمْ يَجْعَلُوا لَهُ شَرِيكًا فِي الْخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَالتَّدْبِيرِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَفْعَالِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٦١ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٦٢ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » (العنكبوت: ٦١- ٦٣)، وَهَذَا التَّوْحِيدُ هُوَ مَا يُسَمِّيهِ الْعُلَمَاءُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، فَأَعْلَمَهُمُ اللهُ تَعَالَى أَنَّ هَذَا التَّوْحِيدَ يَسْتَلْزِمُ تَوْحِيدَ الْأُلُوهِيَّةِ، وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ تَعَالَى بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ، فَكَمَا أَنَّهُ لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، يَجِبُ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ، وَإِلَى هَذَا الْإِشَارَةُ بِالْعُدُولِ عَنْ قَوْلِهِمْ «اللَّهُ» إِلَى «خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ» وَالْعَزِيزُ الْعَلِيمُ هُوَ اللهُ تَعَالَى، فَلَيْسَ ذِكْرُ الصِّفَتَيْنِ الْعَلِيَّتَيْنِ مِنْ مَقُولِ جَوَابِهِمْ، وَإِنَّمَا حُكِيَ قَوْلُهُمْ بِالْمَعْنَى، أَيْ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الَّذِي الصِّفَتَانِ مِنْ صِفَاتِهِ، وَإِنَّمَا هُمْ يَقُولُونَ: خَلَقَهُنَّ اللهُ، كَمَا حُكِيَ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » (لقمان: ٢٥) وَذَلِكَ هُوَ الْمُسْتَقْرَى مِنْ كَلَامِهِمْ نَثْرًا وَشِعْرًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. وَإِنَّمَا عَدَلَ عَنِ اسْمِ الْعَلَمِ إِلَى الصِّفَتَيْنِ زِيَادَةً فِي إِفْحَامِهِمْ بِأَنَّ الَّذِي انْصَرَفُوا عَنْ تَوْحِيدِهِ بِالْعِبَادَةِ عَزِيزٌ عَلِيمٌ، فَهُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يَرْجُوَهُ النَّاسُ لِلشَّدَائِدِ لِعِزَّتِهِ، وَأَنْ يُخْلِصُوا لَهُ بَاطِنَهُمْ لِأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سِرُّهُمْ، بِخِلَافِ شُرَكَائِهِمْ فَإِنَّهَا أَذِلَّةٌ لَا تَعْلَمُ، وَإِنَّهُمْ لَا يُنَازِعُونَ وَصْفَهُ بِالْعَزِيزِ الْعَلِيمِ.

وَتَخْصِيصُ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ بَقِيَّةِ الصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ لِأَنَّهَا مُضَادَّةٌ لِصِفَاتِ الْأَصْنَامِ، فَإِنَّ الْأَصْنَامَ عَاجِزَةٌ عَنْ دَفْعِ الْأَيْدِي.(التحرير والتنوير (١٦٨/٢٥)).

وَقَالَ تَعَالَى: « قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ » (يونس: ٣١- ٣٢):

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ-: «فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ» أَيْ أَفَلَا تَخَافُونَ مِنْهُ أَنْ تَعْبُدُوا مَعَهُ غَيْرَهُ بِآرَائِكُمْ وَجَهْلِكُمْ. وَقَوْلُهُ: «فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ» أَيْ فَهَذَا الَّذِي اعْتَرَفْتُمْ بِأَنَّهُ فَاعِلُ ذَلِكَ كُلِّهِ هُوَ رَبُّكُمْ وَالْهُكُمُ الْحَقُّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ، «فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ» أَيْ فَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ، «فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ» أَيْ فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الرَّبُّ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِي كُلِّ شَيْءٍ. (تفسير ابن كثير (٤١٦/٢)).

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ تَقْرِيرِ هَذَا التَّوْحِيدِ وَبَيَانِهِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ لَهُ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُقَرِّرُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ أَنْ لَا يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ، فَيَجْعَلُ الْأَوَّلَ دَلِيلًا عَلَى الثَّانِي، إِذْ كَانُوا يُسَلِّمُونَ الْأَوَّلَ، وَيُنَازِعُونَ فِي الثَّانِي، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ سُبْحَانَهُ أَنَّكُمْ إِذَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَأْتِي الْعِبَادَ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا يَضُرُّهُمْ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَلِمَ تَعْبُدُونَ غَيْرَهُ، وَتَجْعَلُونَ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى؟

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: « قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ

ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ » (النمل: ٥٩- ٦٤).

يقولُ اللهُ تعالَى في آخرِ كلِّ آيةٍ: «أإلهٌ مع اللهِ» أي أإلهٌ مع اللهِ فعلَ هذا؟ وهذا استفهامُ إنكارٍ، يتضمَّنُ نفيَ ذلكَ، وهُمْ كانوا مُقرِّينَ بأنَّهُ لمْ يفعلْ ذلكَ غيرُ اللهِ، فاحتجَّ عليهِمْ بذلكَ، وليسَ المعنَى استفهامَ: هلْ معَ اللهِ إلهٌ؟ كما ظنَّهُ بعضُهُمْ، لأنَّ هذا المعنَى لا يُناسبُ سياقَ الكلامِ، والقومُ كانوا يجعلونَ معَ اللهِ آلهةً أخرَى كما قالَ تعالَى: «أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ »(الأنعام: ١٩)، وكانوا يقولونَ: « أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ » (ص: ٥)، لكنَّهُمْ ما كانوا يقولونَ: إنَّ معَهُ إلهًا جعلَ الأرضَ قرارًا، وجعلَ خلالَها أنهارًا، وجعلَ لها رواسيَ، وجعلَ بينَ البحرينِ حاجزًا. بلْ هُمْ مُقرُّونَ بأنَّ اللهَ وحدَهُ فعلَ هذا، وهكذا سائرُ الآياتِ.

وكذلكَ قولُهُ تعالَى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ » (البقرة: ٢١- ٢٢). (شرح الطحاوية (٨٤)).

«الذي جعل لكم الأرض مهدًا»:

هذا كلامٌ موجَّهٌ منَ اللهِ تعالَى، هُوَ تخلُّصٌ منَ الاستدلالِ علَى تفرُّدِهِ بالإلهيَّةِ بأنَّهُ المنفردُ بخلقِ السمواتِ والأرضِ، إلَى الاستدلالِ بأنَّهُ المنفردُ بإسداءِ النِّعمِ التي بها قوامُ أودِ حياةِ الناسِ. فالجملةُ استئنافٌ حُذفَ منها المبتدأُ، والتقديرُ: هوَ الذي جعلَ لكمُ الأرضَ مهادًا. (التحرير والتنوير (٢٥/١٦٨و١٦٩)). أيْ فراشًا كالمهدِ للصبيِّ، ولوْ شاءَ لجعلَها مزلَّةً لا يثبتُ فيها شيءٌ، كما ترونَ منْ بعضِ الجبالِ، ولوْ شاءَ لجعلَها متحرِّكةً فلا يمكنُ الانتفاعُ بها في الزراعةِ والأبنيةِ، فالانتفاعُ بها إنما حصلَ لكونِها مسطَّحةً قارَّةً ساكنةً (فتح البيان (٦/٢٢٠))، وقدِ امتنَّ سبحانَهُ علَى عبادِهِ بذلكَ، فقالَ: «أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا» (النبأ: ٦- ٧).

«وجعلَ لكمْ فيها سُبلًا لعلَّكمْ تهتدونَ»:

السُّبلُ: جمعُ سبيلٍ، وهوَ الطريقُ، ويُطلقُ السبيلُ علَى وسيلةِ الشيءِ، كقولِهِ تعالَى: «يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ » (الشورى: ٤٤). ويصحُّ إرادةُ المعنيينِ هنا، لأنَّ في الأرضِ طُرقًا يمكنُ سلوكُها، وهيَ السهولُ وسفوحُ الجبالِ وشعابُها، أيْ لمْ يجعلِ الأرضَ كلَّها جبالًا فيعسُرَ علَى الماشينَ سلوكُها، بلْ جعلَ فيها سُبلًا سهلةً، وجعلَ جبالًا لحكمةٍ أخرَى، ولأنَّ الأرضَ صالحةٌ لاتخاذِ طُرقٍ مطروقةٍ سابلةٍ.

ومعنَى جعلِ اللهِ تلكَ الطُّرقَ بهذا المعنَى: أنَّهُ جعلَ للناسِ معرفةَ السيرِ في الأرضِ، واتباعَ بعضِهِمْ آثارَ بعضٍ، حتَّى تتعبَّدَ الطُّرقُ لهُمْ وتتسهَّلَ، ويعلمَ السائرُ أيَّ تلكَ السُّبلِ يوصلُهُ إلَى مقصدِهِ.

وفي تيسيرِ وسائلِ السيرِ في الأرضِ لطفٌ عظيمٌ، لأنَّ به تيسيرَ التجمُّعِ والتعارفِ، واجتلابَ المنافعِ، والاستعانةَ علَى دفعِ الغوائلِ والأضرارِ، والسيرُ في الأرضِ قريبًا أوْ بعيدًا منْ أكبرِ مظاهرِ المدنيَّةِ الإنسانيَّةِ، ولأنَّ اللهَ جعلَ في الأرضِ معايشَ الناسِ، منَ النباتِ والثمرِ، وورقِ الشجرِ، والكمأةِ والفقعِ، وهيَ وسائلُ العيشِ، فهيَ سُبلٌ مجازيَّةٌ.

والاهتداءُ: مطاوعُ هداهُ فاهتدَى. والهدايةُ حقيقتُها: الدلالةُ علَى المكانِ المقصودِ، ومنهُ سُمِّيَ الدالُّ علَى الطرائقِ هاديًا، وتطلقُ علَى تعريفِ الحقائقِ المطلوبةِ، ومنهُ « إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ » (المائدة: ٤٤)، والمقصودُ هُنا المعنَى الثاني، أيْ رجاءَ حصولِ علمِكمْ بوحدانيَّةِ اللهِ وبما يجبُ لهُ. ولذلكَ لمَّا سألَ فرعونُ موسَى عنْ ربِّهِ: « قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ » (طه: ٤٩- ٥٤)، أيْ لأولي الأحلامِ والنُّهى، «لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ » (آل عمران: ١٩٠- ١٩١).

وللحديثِ بقيةٌ إن شاءَ اللهُ تعالَى، والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ.

سورة الزخرف

إعداد/
د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: «وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ» (الزخرف: ١١- ١٩).

«وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ» يقول تعالى: الله الذي خلق السموات والأرض هو الذي جعل لكم الأرض مهدًا، وجعل لكم فيها سبلًا، وهو الذي نزل من السماء ماءً بقدر، لا يزيد فيهلك ويدمر، ولا ينقص عن الحاجة فيصيبهم الجدب والقحط. قال الحكم -رحمه الله-: ما من عام بأكثر مطرًا من عام آخر، ولكنه يمطر قوم ويحرم قوم آخرون، وربما كان في البحر، يعني أن الله تعالى ينزل المطر كل عام بقدر معلوم، غير أنه يصرفه إلى من يشاء حيث شاء كما شاء. (التفسير الكبير (١٩/ ١٧٨)).

وقوله تعالى: «فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا» أي أحييْنا بالمطر الأرض بعد موتها، كما قال تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ» (الحج: ٦٣)، وقال تعالى: «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» أي كما أحييْنا الأرض بعد موتها بالماء، فنبتت النبات وخرج من تحت الأرض، كذلك تخرجون أنتم أيضا يوم الخروج:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بين النفختين أربعون». قال: أربعون يومًا؟ قال: أبيت. قال: أربعون شهرًا؟ قال: أبيت. قال: أربعون سنة؟ قال: أبيت. قال: «ثم ينزل الله من السماء ماءً. فينبتون كما ينبت البقل

لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (صحيح البخاري ٤٨١٤).

وَقَدْ شَبَّهَ اللهُ تَعَالَى خُرُوجَ النَّاسِ مِنْ قُبُورِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِخُرُوجِ النَّبَاتِ مِنَ الأَرْضِ، وَجَعَلَ إِحْيَاءَ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا دَلِيلًا عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، فِي أَكْثَرَ مِنْ آيَةٍ:

قَالَ تَعَالَى: «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ» (الحج: ٥- ٧)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (فصلت: ٣٩)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ» (ق: ٩- ١١).

«وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ»:

يَقُولُ تَعَالَى: اللهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ، هُوَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا، «مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ» (يس: ٣٦)، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى قُدْرَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ دَلِيلٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: «سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ» (يس: ٣٦)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» (الذاريات: ٤٩)، فَتَعْلَمُوا أَنَّ خَالِقَ الأَزْوَاجِ وَاحِدٌ فَرْدٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ» (سورة الإخلاص):

عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ الْوِتْرُ لَيْسَ بِحَتْمٍ كَصَلَاتِكُمُ الْمَكْتُوبَةِ وَلَكِنْ سَنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ فَأَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ» (صحيح سنن الترمذي: ٤٥٣).

وَاللهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ هُوَ الَّذِي «جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ» وَالْفُلْكُ السُّفُنُ، وَالأَنْعَامُ الإِبِلُ، وَكَانُوا يُسَمُّونَهَا سَفِينَةَ الصَّحْرَاءِ، وَكَانَ سَفَرُهُمْ بَرًّا أَوْ بَحْرًا، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ السَّفَرَ بِالْجَوِّ، «لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ»، قَوْلُهُ: «لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ» تَوْطِئَةٌ وَتَمْهِيدٌ لِلإِشَارَةِ إِلَى ذِكْرِ نِعْمَةِ اللهِ فِي قَوْلِهِ: «ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ» أَيْ حِينَئِذٍ، فَإِنَّ ذِكْرَ النِّعْمَةِ فِي حَالِ التَّلَبُّسِ بِمَنَافِعِهَا أَوْقَعُ فِي النَّفْسِ وَأَدْعَى لِلشُّكْرِ عَلَيْهَا. وَأَجْدَرُ بِعَدَمِ الذُّهُولِ عَنْهَا، أَيْ جَعَلَ لَكُمْ ذَلِكَ نِعْمَةً لِتَشْعُرُوا بِهَا فَتَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا، فَالذِّكْرُ هُنَا هُوَ التَّذَكُّرُ بِالْفِكْرِ لَا الذِّكْرُ بِاللِّسَانِ.

وَهَذَا تَعْرِيضٌ بِالْمُشْرِكِينَ إِذْ تَقَلَّبُوا فِي نِعَمِ اللهِ وَشَكَرُوا غَيْرَهُ، إِذِ اتَّخَذُوا لَهُ شُرَكَاءَ فِي الإِلَهِيَّةِ، وَهُمْ لَمْ يُشَارِكُوهُ فِي الأَنْعَامِ.

وَذِكْرُ النِّعْمَةِ كِنَايَةٌ عَنْ شُكْرِهَا، لأَنَّ شُكْرَ الْمُنْعِمِ لَازِمٌ لِلإِنْعَامِ عُرْفًا، فَلَا يَصْرِفُ عَنْهُ إِلاَّ نِسْيَانُهُ، فَإِذَا ذَكَرَهُ شَكَرَ النِّعْمَةَ.

وَعُطِفَ عَلَى تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ قَوْلُهُ: «وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا» أَيْ لِتَشْكُرُوا اللهَ فِي نُفُوسِكُمْ، وَتُعْلِنُوا بِالشُّكْرِ بِأَلْسِنَتِكُمْ، فَلَقَّنَهُمْ صِيغَةَ شُكْرٍ عِنَايَةً بِهِ، كَمَا لَقَّنَهُمْ صِيغَةَ الْحَمْدِ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ، وَصِيغَةَ الدُّعَاءِ فِي آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

وَافْتَتَحَ هَذَا الشُّكْرَ اللِّسَانِيَّ بِالتَّسْبِيحِ لأَنَّهُ جَامِعٌ لِلثَّنَاءِ، إِذِ التَّسْبِيحُ تَنْزِيهُ اللهِ عَمَّا لَا يَلِيقُ، فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى التَّنْزِيهِ عَنِ النَّقَائِصِ بِالصَّرِيحِ، وَيَدُلُّ ضِمْنًا عَلَى إِثْبَاتِ الْكَمَالَاتِ لِلَّهِ فِي الْمَقَامِ الْخَطَابِيِّ. وَاسْتِحْضَارُ الْجَلَالَةِ بِطَرِيقِ الْمَوْصُولِيَّةِ لِمَا يُؤْذَنُ بِهِ الْمَوْصُولُ مِنْ عِلَّةِ التَّسْبِيحِ، حَتَّى يَصِيرَ الْحَمْدُ الَّذِي

أفادهُ التَّسْبيحُ شُكْرًا، لتعْليله بأنَّهُ في مُقابَلة التَّسْخير لنَا.

«وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» أيْ مُطيقينَ، أيْ بمُجرَّد القُوَّة الجسديَّة، أيْ لوْلا التَّسْخيرُ المذْكورُ، فجُمْلَة «وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» في موْضع الحال منْ ضَمير لنَا، أيْ سَخَّرَهَا لنَا في حَال ضَعْفنَا، بأنْ كانَ تَسْخيرُهُ قائمًا مقامَ القُوَّة. (التحرير والتنوير (٢٥/١٧٤و١٧٥)).

قالَ أبُو عُبَيْدَةَ -رَحمَهُ اللَّه- فُلانٌ مُقْرِنٌ لفُلان، أيْ ضابطٌ لَهُ.

قالَ الوَاحديُّ -رَحمَهُ اللَّه-: وكَأنَّ اشْتقاقَهُ منْ قَوْلكَ ضَرَبَ لَهُ قَرْنًا، ومَعْنَى أنَا قَرْنٌ لفُلان، أيْ مثالُهُ في الشِّدَّة، فكَأنَّ المَعْنَى أنَّهُ لَيْسَ عنْدَنَا منَ القُوَّة والطَّاقَة أنْ نَقْرنَ هَذه الدَّابَّةَ والفُلْكَ وأنْ نَضْبطَهَا، فسُبْحانَ منْ سَخَّرَهَا لنَا بعلْمه وحكْمَته وكَمال قُدْرَته. (مفاتيح الغيب (٢٧/٢٠٠)).

«وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ» أيْ رَاجعُونَ، وَهُوَ إقْرَارٌ بالرُّجُوع إلَى اللَّه، وبالْبَعْث، لأنَّ الرَّاكبَ في مَظنَّة الهَلاك بالغَرَق إذَا ركبَ الفُلْكَ، وبعُثُور الدَّابَّة، إذْ رُكُوبُهَا أمْرٌ فيه خَطَرٌ، ولَا تُؤْمَنُ السَّلامَةُ فيه. فقَوْلُهُ هَذا تَذْكيرٌ بأنَّهُ مُسْتَشْعرٌ الصَّيْرُورَةَ إلَى اللَّه، ومُسْتَعدٌّ للقائه، فَهُوَ لا يَتْرُكُ ذَلكَ منْ قَلْبه ولَا لسَانه. (البحر المحيط في التفسير (٨/٧و٨)).

هَذا هُوَ الأدَبُ الوَاجبُ في حقِّ المُنْعم، يُوَجِّهُنَا اللَّه إلَيْه، لنَذْكرَهُ كُلَّمَا اسْتَمْتَعْنَا بنعْمَة منْ نعَمه التي تَغْمُرُنَا، والتي نَتَقَلَّبُ بيْنَ أعْطَافهَا. ثُمَّ نَنْسَاهُ.!

والأدَبُ الإسْلاميُّ في هَذا وَثيقُ الصِّلَة بتَرْبيَة القَلْب وإحْيَاء الضَّمير. فلَيْسَ هُوَ مُجَرَّدَ طُقُوس تُزَاوَلُ عنْدَ الاسْتوَاء على ظَهْر الفُلْك والأنْعَام، ولَا مُجَرَّدَ عبَارَات يَتْلُوهَا اللِّسَانُ! إنَّمَا هُوَ اسْتحْيَاءٌ للمَشَاعر لتُحسَّ بحَقيقَة اللَّه، وحَقيقَة الصِّلَة بيْنَهُ وبيْنَ عبَاده، وتَشْعُرَ بيَده في كُلِّ مَا يُحيطُ بالنَّاس، وكُلِّ مَا يَسْتَمْتعُونَ به ممَّا سَخَّرَهُ اللَّهُ لَهُمْ، وهُوَ محْضُ الفَضْل والإنْعَام، بلَا مُقَابل منْهُمْ، فمَا هُمْ بقَادرينَ على شَيْء يُقَابلُونَ به فَضْلَ اللَّه. ثُمَّ لتَبْقَى قُلُوبُهُمْ على وَجَل منْ لقَائه في النِّهَايَة لتَقْديم الحسَاب. وكُلُّ هَذه المَشَاعر كَفيلَةٌ باسْتبْقَاء القَلْب البَشَريِّ في حَالَة يَقْظَة شَاعرَة حسَاسَة لا تَغْفُلُ عنْ مُرَاقبَة اللَّه، ولَا تَجْمُدُ ولَا تَتَبَلَّدُ بالرُّكُود والغَفْلَة والنِّسْيَان. (في ظلال القرآن (٧/٣٢٠)).

عَنْ عَليِّ بْن رَبيعَةَ قَالَ: شَهدْتُ عَليًّا رضيَ اللَّه عنه أتَى بدَابَّة ليَرْكَبَهَا، فلَمَّا وَضَعَ رجْلَهُ في الرِّكَاب قَالَ: بسْم اللَّه ثَلاثًا فلَمَّا اسْتَوَى على ظَهْرهَا قَالَ الْحَمْدُ للَّه ثُمَّ قَالَ: «سُبْحَانَ الَّذي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ» ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ للَّه ثَلاثًا، واللَّه أكْبَرُ ثَلاثًا، سُبْحَانَكَ إنِّي قَدْ ظَلَمْتُ نَفْسي فاغْفرْ لي، فإنَّهُ لا يَغْفرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أنْتَ. ثُمَّ ضَحكَ. فقُلْتُ: منْ أيِّ شَيْء ضَحكْتَ يَا أميرَ المُؤْمنينَ؟ قَالَ: رَأيْتُ رَسُولَ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم صَنَعَ كَمَا صَنَعْتُ ثُمَّ ضَحكَ، فقُلْتُ: منْ أيِّ شَيْء ضَحكْتَ يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ: «إنَّ رَبَّكَ ليَعْجَبُ منْ عَبْده إذَا قَالَ رَبِّ اغْفرْ لي ذُنُوبي إنَّهُ لا يَغْفرُ الذُّنُوبَ غَيْرُكَ». (صحيح سنن الترمذي:٣٤٤٦).

إن الإنسان لكفور:

مَعَ وُضُوح الأدلَّة الدَّالَّة على التَّوْحيد، وأنَّ اللَّه واحدٌ لا شَريكَ لَهُ، وأنَّهُ المُتَفَرِّدُ بالخَلْق والإنْعَام، فقَدْ كَفَرَ به أكْثَرُ النَّاس، «وَجَعَلُوا لَهُ منْ عبَاده جُزْءًا» أيْ وَلَدًا، لأنَّ الوَلَدَ جُزْءُ أبيه، كَمَا أنَّ الفَرْعَ جُزْءُ الأصْل، «وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ» (المؤمنون: ٩٠- ٩١)، «بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ» (الأنعام: ١٠١).

«إنَّ الإنْسَانَ» الكَافرَ «كَفَّارٌ» جَحُودٌ لنعَم اللَّه «مُبينٌ» ظَاهرُ الكُفْرَان.

وَقَدْ أَعْظَمُوا عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ، فَجَعَلُوا لَهُ وَلَدًا، وَجَعَلُوا الْوَلَدَ أُنْثَى، فَقَالَ تَعَالَى: «أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ» يَعْنِي سُبْحَانَهُ: إِذَا كَانَ هُوَ خَالِقَ الذَّكَرِ وَالأُنْثَى، «وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى» (آل عمران: ٣٦)، بَلِ الذَّكَرُ أَفْضَلُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ» (النساء: ٣٤)، فَكَيْفَ يَصْطَفِي لِنَفْسِهِ الْمَفْضُولَ، وَيَخُصُّكُمْ بِالأَفْضَلِ؟ «أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا» (الإسراء: ٤٠)، «فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ» (الصافات: ١٤٩-١٥٧).

وَهَذَا إِنْكَارٌ عَلَيْهِمْ غَايَةَ الإِنْكَارِ. ثُمَّ ذَكَرَ تَمَامَ الإِنْكَارِ، فَقَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ» أَيْ إِذَا بُشِّرَ أَحَدُ هَؤُلَاءِ بِمَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ مِنَ الْبَنَاتِ يَأْنَفُ مِنْ ذَلِكَ غَايَةَ الأَنَفَةِ، وَتَعْلُوهُ كَآبَةٌ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ، وَيَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ خَجَلِهِ مِنْ ذَلِكَ، يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: فَكَيْفَ تَأْنَفُونَ مِنْ ذَلِكَ وَتَنْسُبُونَهُ إِلَى اللَّهِ عز وجل. (تفسير ابن كثير (٤/١٢٥)).

وَقَدْ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى وَصْفِهِمْ هَذَا بِالنَّارِ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ» (النحل: ٦٢).

«أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ»:

هَذَا مِنْ تَمَامِ الإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ فِيمَا جَعَلُوهُ لِلَّهِ تَعَالَى مِنَ الْوَلَدِ، وَهُوَ كَمَا سَبَقَ أَنَّ الذَّكَرَ أَفْضَلُ مِنَ الأُنْثَى وَأَكْمَلُ، وَمِنْ نُقْصَانِ الأُنْثَى أَنَّهُمْ يُحَلُّونَهَا مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفَارِهَا بِالْحُلِيِّ وَالزِّينَةِ، وَذَلِكَ لِنَقْصِهَا الظَّاهِرِ، ثُمَّ هِيَ فِي الْجِدَالِ وَالْمُنَاظَرَةِ لَا تَكَادُ تُبِينُ، وَذَلِكَ مِنْ نَقْصِهَا الْبَاطِنِ، فَكَيْفَ جَعَلُوهَا لِلَّهِ دُونَهُمْ؟!.

«وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا» أَيْ قَالُوا الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ» (الصافات: ١٥٩)، فَمَا هُوَ مُسْتَنَدُهُمْ؟ إِنَّ هَذَا الأَمْرَ لَا مَجَالَ لِلاجْتِهَادِ فِيهِ، بَلْ لَابُدَّ فِيهِ مِنْ دَلِيلٍ، وَالدَّلِيلُ هُوَ الْمُشَاهَدَةُ أَوِ النَّقْلُ، «أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ»؟! كَلَّا، وَلَا أَبُوهُمْ آدَمُ شَهِدَ خَلْقَهُمْ، لأَنَّ الْمَلَائِكَةَ كَانُوا قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَمْ يَصِفِ الْمَلَائِكَةَ فِي كِتَابِهِ بِذُكُورَةٍ أَوْ أُنُوثَةٍ، فَهُمْ إِذَنْ مُفْتَرُونَ، «سَيُجْزَيْهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» (الأنعام: ١٣٨)، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ» أَيْ سَتُكْتَبُ فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» (ق: ١٧- ١٨)، وَسَيُسْأَلُونَ عَنْ هَذِهِ الشَّهَادَةِ كَمَا يُسْأَلُونَ عَنْ غَيْرِهَا مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «عِبَادُ الرَّحْمَنِ» قِرَاءَةٌ أُخْرَى: «عِنْدَ الرَّحْمَنِ»، وَالْقِرَاءَتَانِ صَحِيحَتَانِ، فَالْمَلَائِكَةُ عِبَادُ الرَّحْمَنِ، وَهَذِهِ حَقِيقَتُهُمْ، وَهُمْ عِنْدَهُ، وَهَذِهِ مَكَانَتُهُمْ، قَالَ تَعَالَى: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» (الأنبياء: ٢٦- ٢٩)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩» (فصلت: ٣٧- ٣٨).

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الزخرف

الحلقة الثالثة

قال الله تعالى: « وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ » (الزخرف: ٢٦- ٣٥).

قال تعالى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ»:

لَقَدْ جَعَلَ اللَّه تَعَالَى لِخَلِيله إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، فَأَجْمَعَتْ الْأُمَمُ كُلُّهَا عَلَى شَرَفِه، وَاعْتَرَفُوا بِفَضْلِه، وَادَّعَتْ كُلُّ أُمَّةٍ أَنَّهَا أَوْلَى بِهِ دُونَ غَيْرِهَا، فَقَالَ اللَّه تَعَالَى -وَاللَّه يَقُول الْحَقّ- « مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ » (آل عمران: ٦٧- ٦٨).

ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ اللَّه تَعَالَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَنْتَسِبُونَ إِلَيْهِ، لَمْ يُقَلِّدْ آبَاءَه، وَإِنَّمَا نَظَرَ وَاسْتَدَلَّ، وَاتَّبَعَ الْأَدِلَّةَ وَالْبَرَاهِينَ وَالْحُجَجَ، فَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ فَاسْتَدِلُّوا كَمَا اسْتَدَلَّ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام، وَإِنْ لَمْ تَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ وَأَبَيْتُمْ إِلَّا أَنْ تُقَلِّدُوا آبَاءَكُمْ، فَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ قَلَّدْتُمْ هُوَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام، فَقَلِّدُوهُ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيد.

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ» أَيْ مِنْ دُونِ اللَّه، وَلِذَلِكَ قَالَ: «إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ»، كَمَا قَالَ فِي الشُّعَرَاء: « قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ » (الشعراء: ٧٥- ٧٨).

وَيَبْدُو مِنْ حَدِيث إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام وَتَبَرُّئِه مِمَّا يَعْبُدُونَ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَهُ، أَنَّهُمْ لَمْ

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي
نائب الرئيس العام

يكونوا يكفُرونَ ويجحدونَ وُجودَ اللهِ أصلًا، إنَّما كانوا يُشركونَ به، ويعبُدونَ معهُ سواهُ، فتبرَّأَ من كلِّ ما يعبُدونَ، واستثنى اللهَ وحدَهُ، ووصفَهُ بصفتِه التي تستحقُّ العبادةَ ابتداءً، وهو أنَّهُ فطرَهُ وأنشأَهُ، فهوَ الحقيقُ بالعبادةِ بحكمِ أنَّهُ الموجِدُ، وقرَّرَ يقينَه بهدايةِ ربِّه له، بحكمِ أنَّهُ هوَ الذي فطرَهُ، فقدْ فطرَهُ ليهديَه وهوَ أعلمُ كيفَ يهديه.

«وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون»:

«وجعلَها كلمةً باقيةً» يعني كلمةَ التوحيد، التي عبَّرَ عنها بقولِه: «إنني براءٌ ممَّا تعبُدونَ (٢٦) إلا الذي فطرني»، فهذه الكلمةُ هي بمعنى: لا إله إلا الله، التي تنفي الألوهيةَ عن كلِّ ما سوى اللهِ، وتثبتُها للهِ وحدَه، «وجعلَها كلمةً باقيةً في عقبِه» أي في نسلِه وذرِّيته، في أولادِه وأحفادِه، حيثُ وصَّاهم بها، وحثَّهم على التمسُّكِ بها، كما قال تعالى: «وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ» (البقرة: ١٣٠- ١٣٢).

وقولُه: «لعلَّهم يرجعون» أي لعلَّ المشركينَ يرجعونَ عن الشركِ إلى التوحيدِ حينَ يرَوْنَ التوحيدَ قائمًا على أيدي أهلِه أتباعِ إبراهيمَ عليه السلام.

ولقدْ كانَ لإبراهيمَ عليه السلام أكبرُ قسطٍ في إقرارِ هذه الكلمةِ في الأرضِ، وإبلاغِها إلى الأجيالِ من بعدِه، عن طريقِ ذرِّيته وعقبِه. ولقدْ قامَ بها من بنيه رسُلٌ، كانَ منهُمْ ثلاثةٌ من أولي العزمِ: موسى وعيسى ومحمدٌ خاتمُ الرُّسلِ - عليهِمْ صلواتُ اللهِ وسلامُه-، واليومَ بعدَ عشراتِ القرونِ يقومُ في الأرضِ أكثرُ ملايينَ من أتباعِ الديانةِ الكبرى يدينونَ بكلمةِ التوحيدِ لأبيهِمْ إبراهيمَ، الذي جعلَ هذه الكلمةَ باقيةً في عقبِه، يضلُّ منهُمْ عنها من يضلُّ، ولكنَّها هي باقيةٌ لا تضيعُ، ثابتةٌ لا تتزعزعُ، واضحةٌ لا يتلبَّسُ بها الباطلُ، «لعلَّهم يرجعون» يرجعونَ إلى الذي فطرَهُمْ فيعرفوهُ ويعبدوهُ، ويرجعونَ إلى الحقِّ الواحدِ فيدركوهُ ويلزموهُ.

ولقدْ عرفتِ البشريَّةُ كلمةَ التوحيدِ قبلَ إبراهيمَ، ولكنْ هذه الكلمةَ لم تستقرَّ في الأرضِ إلا من بعدِ إبراهيمَ.

عرفتْها على لسانِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ، وغيرِهمْ من الرُّسلِ الذينَ لم يتَّصلْ لهُمْ عقبٌ يقومُ على هذه الكلمةِ، ويعيشُ بها ولها، فلمَّا عرفتْها على لسانِ إبراهيمَ ظلَّتْ متَّصلةً في أعقابِه، وقامَ عليها من بعدِهِ رُسلٌ متَّصلونَ لا ينقطعونَ، حتَّى كانَ ابنُه الأخيرُ من نسلِ إسماعيلَ، وأشبهُ أبنائِه به محمدٌ صلى اللهُ عليه وسلم خاتمُ الرُّسلِ، وقائلُ كلمةِ التوحيدِ في صورتِها الأخيرةِ الكاملةِ الشاملةِ، التي تجعلُ الحياةَ كلَّها تدورُ حولَ هذه الكلمةِ، وتجعلُ لها أثرًا في كلِّ نشاطٍ للإنسانِ وكلِّ تصوُّرٍ. (في ظلالِ القرآن (٧/ ٣٢٦و٣٢٧)).

موقفُ المشركينَ من النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم والقرآن:

قولُه تعالى: «بل متَّعتُ هؤلاءِ وآباءَهم حتَّى جاءَهمُ الحقُّ ورسولٌ مبينٌ» كقولِه تعالى: «بل متَّعنا هؤلاءِ وآباءَهم حتَّى طالَ عليهمُ العُمُرُ» (الأنبياء)، فلمَّا طالَ عليهمُ العُمُرُ في النِّعمةِ، وطالَ عليهمُ الأمدُ، قسَتْ قلوبُهم، فكفَروا نعمةَ اللهِ، ولم يشكُروهُ على ما آتاهُم من فضلِه، فحقَّتْ عليهمْ كلمةُ العذابِ، ولمَّا كانَ اللهُ تعالى يُحبُّ العُذرَ، ولا يُعذِّبُ من استحقَّ العذابَ إلا بعدَ إقامةِ الحجَّةِ عليه، فقدْ بعثَ اللهُ تعالى محمدًا صلى اللهُ عليه وسلم بالهُدى ودينِ الحقِّ، فلمْ يُحسنِ القومُ استقبالَه، كما لم يُحسنوا استقبالَ النِّعمِ الأخرى، قالَ تعالى: «ولمَّا جاءَهمُ الحقُّ قالوا هذا سحرٌ وإنَّا به كافرونَ»، فكفَروا النِّعمةَ الدِّينيَّةَ - وهي مجيءُ الرَّسولِ - كما كفَروا النِّعمةَ الدُّنيويَّةَ، ولذلكَ قالَ تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ» (إبراهيم: ٢٩):

عنْ عطاءٍ سمعَ ابنَ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنه قالَ: هُمْ كفَّارُ أهلِ مكَّةَ. قالَ ابنُ كثيرٍ -رحمَه اللهُ-: فإنَّ اللهَ تعالى بعثَ محمدًا صلى اللهُ عليه وسلم رحمةً للعالمينَ، ونعمةً للناسِ، فمنْ قبلَها وقامَ بشكرِها دخلَ الجنَّةَ، ومنْ ردَّها وكفَرَها دخلَ النَّارَ. (تفسير ابن كثير (٢/ ٥٣٨)).

وقالَ تعالى: «وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ » (النحل: ١١٢-١١٣).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ-رَحِمَهُ اللهُ-: هَذَا مَثَلٌ أُرِيدَ بِهِ أَهْلُ مَكَّةَ، فَإِنَّهَا كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً مُسْتَقِرَّةً، يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهَا، وَمَنْ دَخَلَهَا كَانَ آمِنًا لَا يُخَافُ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ، أَيْ جَحَدَتْ آلَاءَ اللهِ عَلَيْهَا، وَأَعْظَمُهَا بِعْثَةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ » (إبراهيم: ٢٨- ٢٩)، وَلِهَذَا بَدَّلَهُمُ اللهُ بِحَالِيهِمُ الْأُوَلَيْنِ خِلَافَهُمَا، فَقَالَ: «فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ» أَيْ أَلْبَسَهَا وَأَذَاقَهَا الْجُوعَ بَعْدَ أَنْ كَانَ يُجْبَى إِلَيْهِمْ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَيَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَذَلِكَ لَمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَبَوْا إِلَّا خِلَافَهُ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يُوسُفَ، فَأَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ أَذْهَبَتْ كُلَّ شَيْءٍ لَهُمْ، فَأَكَلُوا الْعِلْهِزَ وَهُوَ وَبَرُ الْبَعِيرِ بِدَمِهِ إِذَا نَحَرُوهُ. وَبُدِّلُوا بِأَمْنِهِمْ خَوْفًا مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابِهِ حِينَ هَاجَرُوا إِلَى إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ سَطْوَتِهِ وَسَرَايَاهُ وَجُيُوشِهِ، وَجَعَلَ كُلَّ مَا لَهُمْ فِي دَمَارٍ وَسَفَالٍ، حَتَّى فَتَحَهَا اللهُ عَلَى رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم، وَذَلِكَ بِسَبَبِ صَنِيعِهِمْ وَبَغْيِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمُ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم الَّذِي بَعَثَهُ اللهُ فِيهِمْ مِنْهُمْ، وَامْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (آل عمران). (تفسير ابن كثير (٢/٥٨٩)).

«وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ»: فَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِالْحَقِّ حَتَّى وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ سِحْرٌ، وَلَمْ تَنْتَهِ سَفَاهَتُهُمْ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، حَتَّى اعْتَرَضُوا عَلَى اللهِ فِي اخْتِيَارِهِ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم لِتَنْزِيلِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ، «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ» يَعْنُونَ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ مِنْ مَكَّةَ، وَحَبِيبَ بْنَ عَمْرِو بْنِ عُمَيْرٍ الثَّقَفِيَّ مِنَ الطَّائِفِ. فَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ الرِّسَالَةَ شَأْنُهَا عَظِيمٌ، وَيَنْبَغِي لِمَنْ يَحْمِلُهَا أَنْ يَكُونَ عَظِيمًا! وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ، وَلَكِنَّ عَظَمَةَ الرِّجَالِ عِنْدَهُمْ فِي كَثْرَةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ، وَهَذَا خَطَأٌ، وَلَوْ أَحْسَنُوا الْفَهْمَ، وَأَحْسَنُوا تَقْيِيمَ الرِّجَالِ، لَعَلِمُوا أَنَّ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم هُوَ أَعْظَمُ الرِّجَالِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لِأَنَّ عَظَمَةَ الرِّجَالِ إِنَّمَا تَكُونُ بِرَجَاحَةِ الْعَقْلِ، وَطَهَارَةِ الْقَلْبِ، وَسَعَةِ الصَّدْرِ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَقَدِ اجْتَمَعَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا فِي شَخْصِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَلِذَلِكَ أَطْلَقُوا عَلَيْهِ-قَبْلَ الْبَعْثَةِ- الصَّادِقَ الْأَمِينَ، وَلَمْ يُطْلِقُوا هَذَا الْوَصْفَ عَلَى غَيْرِهِ، فَهُوَ صلى الله عليه وسلم عَظِيمٌ بِالْمَوَازِينِ الشَّرْعِيَّةِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَظِيمًا بِمَوَازِينِ أَهْلِ الدُّنْيَا الَّتِي جَاءَ الْإِسْلَامُ لِيُبْطِلَهَا. وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ فَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ. (إِسْنَادُهُ حَسَنٌ، مُسْنَدُ أَحْمَدَ (٦/٨٤/٣٦٠٠) وَحَسَّنَهُ الْأَرْنَاءُوطُ).

عَنْ سَهْلٍ رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا»؟ قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ. قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ. فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا». قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لَا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لَا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لَا يُسْتَمَعَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا». (صحيح البخاري ٥٠٩١).

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» (الأنعام: ١٢٤)، أَيْ هُوَ أَعْلَمُ حَيْثُ يَضَعُ رِسَالَتَهُ، وَمَنْ يَصْلُحُ لَهَا مِنْ خَلْقِهِ، فَكَيْفَ يَقُولُونَ: «لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ»؟ أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ بِأَيْدِيهِمْ، وَإِنَّمَا الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» (الحج: ٧٥- ٧٦).

ثُمَّ لَفَتَ أَنْظَارَهُمْ إِلَى أَشْيَاءَ مَحْسُوسَةٍ مِنْ قِسْمَةِ اللهِ وَاخْتِيَارِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ»: فَاللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي جَعَلَ مِنَ النَّاسِ الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ، وَالصَّحِيحَ وَالْمَرِيضَ، وَالْقَوِيَّ وَالضَّعِيفَ، وَالْمُهَنْدِسَ وَالْعَامِلَ، «لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا» فَالْغَنِيُّ مُحْتَاجٌ إِلَى الْفَقِيرِ، وَالْفَقِيرُ مُحْتَاجٌ إِلَى الْغَنِيِّ، وَالْمُهَنْدِسُ مُحْتَاجٌ إِلَى الْعَامِلِ، وَالْعَامِلُ مُحْتَاجٌ إِلَى الْمُهَنْدِسِ، وَهَكَذَا، «ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» (يس: ٣٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ»: لَوْ فُسِّرَتِ الرَّحْمَةُ بِالنُّبُوَّةِ فَهِيَ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، قَالَ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُشْرِكِينَ اعْتِرَاضَهُمْ عَلَى اخْتِيَارِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه

وسلم للرسالة وقولهم: « أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ » (ص: ٨- ٩)، ولو فسرت الرحمة بالقرآن والإيمان فهما خير من الدنيا وما فيها، قال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » (يونس: ٥٧- ٥٨).

هوان الدنيا على الله:

«ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون (٣٣) ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون (٣٤) وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين»:

يقول تعالى أنه لم يوسع على الكفرة في الرزق التوسعة التي تكون فتنة للذين لا يعلمون أن سعة الرزق ليست عنوان رضا الله، وليست دليلا على أن الذين وسع الله عليهم على الحق، ولولا ذلك لجعل للكفرة بيوتا سقفها من فضة، وسلالمها من ذهب، وقصورا مشيدة ذات أبواب من فضة، وفيها سرر من فضة، ومزخرفة بالذهب، وكل ذلك لهوان الدنيا على الله، كما قال صلى الله عليه وسلم: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء». (صحيح سنن الترمذي: ٢٣٢٠).

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق داخلا من بعض العالية والناس كنفته فمر بجدي أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يحب أن هذا له بدرهم». فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به قال: «أتحبون أنه لكم». قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك، فكيف وهو ميت، فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم» (صحيح مسلم ٢٩٥٧).

وقوله تعالى: «والآخرة عند ربك للمتقين» وهم كما قال الله تعالى: « ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » (البقرة: ٣- ٤).

وهذه الآية كقول الله تعالى:

«لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ » (آل عمران: ١٩٦- ١٩٨).

وكقوله تعالى: « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ » (آل عمران: ١٤- ١٧).

وقوله تعالى: «والآخرة عند ربك للمتقين» فيه إشارة إلى أن الكافرين ليس لهم في الآخرة نصيب، كما قال تعالى: « وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ » (الأحقاف ٢٠)، وقال تعالى: « وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ » (الأعراف: ٥٠- ٥١).

عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: لما اعتزل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أزواجه أخذت ثوبي فجئت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مشربة له وأنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، وإن عند رجليه قرظا مصبوبا، وعند رأسه أهب معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت، فقال: «ما يبكيك»؟ فقلت يا رسول الله! إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله!. فقال: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة». (صحيح البخاري ٤٩١٣).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولنا في الآخرة». (صحيح البخاري: ٥٤٢٦).

وللحديث بقية إن شاء الله

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الزخرف

الحلقة الرابعة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

قال الله تعالى: «وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾» (الزخرف: ٣٥- ٤٥).

مَنْ أعرض عن القرآن تسلط عليه الشيطان:

«وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ»:

يقولُ تعالى: «وَمَن يَعْشُ» أي يتعامى ويتغافل ويُعرِضُ «عن ذكر الرَّحمن»: وهو القرآن الكريم، كما قال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» (الحجر: ٩)، وأضاف الله تعالى الذكر إلى اسمه الرَّحمن دون غيره من الأسماء للدلالة على أن نزول القرآن رحمة من الله بعباده، كما قال تعالى: «الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ» (الرحمن: ١- ٢)، وقال تعالى: «حم ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ» (فصلت: ١- ٢).

والعشا في العين ضعف بصرها، والمراد هاهنا عشا البصيرة، «وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ» يعاقبه الله تعالى فيسلط عليه

الشَّياطينَ، فتَوزُّهُ إلى المَعْصيةِ،وتُحبِّبُ إليه الكُفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ، وتُكرِّهُ إليه الهُدى والقُرآنَ والإيمانَ، كما قالَ تعالى: «وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» لا يُفارقُهُ ولا يُغادرُهُ، كأنَّهُما قُرِنا في حَبْلٍ، «وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا» (النساء: ٣٨)، فهُوَ يأمُرُهُ بالفَحْشاءِ والمُنكرِ، ويَصُدُّهُ عَنْ ذِكرِ اللهِ وعَنِ الصَّلاةِ، ويُزيِّنُ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فيَراهُ حَسَنًا، فيَستَمْسِكُ بِهِ، ولِذلكَ قالَ تعالى: «وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ»، وهذه الآيةُ كقَولِهِ تعالى: «إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ» (الأعراف: ٣٠)، ومِثلُ هذا لا يُمكنُ أنْ يَرجِعَ عَنِ الضَّلالةِ إلى الهُدى، كيفَ وهُوَ يَعتقِدُ أنَّهُ على الهُدى؛ كما قالَ تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ» (البقرة: ١٢- ١٣)، «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» (البقرة: ١٦)، ولِذلكَ قالَ تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝١٠٥ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا» (الكهف: ١٠٣- ١٠٦).

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تعالى تبَرُّؤَ الشَّيطانِ مِنْ أوْليائِهِ يومَ القِيامةِ فقالَ: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا» ذلكَ الإنسيُّ الَّذي أعرَضَ عَنْ ذِكرِ ربِّهِ يومَ القِيامةِ، وقُرِئَتْ بألفِ الاثنَيْنِ: جاءانا، يَعْني الإنسيَّ والقَرينَ الجِنِّيَّ، «قَالَ» الإنسيُّ لقَرينِهِ: «يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ» أيِ المَشرقِ والمَغربِ، أطلَقَ عليهِما المَشرِقَيْنِ مِنْ بابِ التَّغليبِ، كما يُقالُ: العُمَرانِ، والقَمَرانِ، والأبَوانِ، والمُرادُ أنَّ الَّذي أعرَضَ عَنْ ذِكرِ الرَّحمنِ لَمَّا بُعِثَ يومَ القِيامةِ، وأيقَنَ بالبَوارِ، ندِمَ على ولايَةِ الشَّيطانِ، وتَمنَّى أنْ لَوْ باعَدَ اللهُ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ كما باعَدَ بَيْنَ المَشرِقِ والمَغربِ، وهذا شأنُ كلِّ مَنْ آثَرَ صُحبَةَ غَيرِ رَسولِ اللهِ، يَندَمُ يومَ القِيامةِ، ولا يَنفَعُهُ النَّدَمُ، كما قالَ تعالى: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا» (الفرقان: ٢٧- ٢٩)، وقالَ تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝٦٤ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝٦٥ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ۝٦٦ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا» (الأحزاب: ٦٤- ٦٨).

وإذا كانَ الإنسيُّ سيَتبَرَّأُ مِنْ قَرينِهِ مِنَ الجِنِّ، فإنَّ القَرينَ أيضًا سيَتبَرَّأُ مِنَ الإنسيِّ، حينَ يَسمَعُ قَولَ اللهِ تعالى: «أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝٢٦ ❁ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝٢٧ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ» (ق: ٢٤- ٢٩)، وسيَتبَرَّأُ إبليسُ مِنَ الجَميعِ إذا ألقُوا في النَّارِ، كما قالَ تعالى: «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (إبراهيم: ٢٢).

«وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ»:

قُرِئَتْ «أَنَّكُمْ» بفَتحِ الهَمْزَةِ وكَسرِها، فعَلى الفَتحِ يَكونُ المَعْنى: لَنْ يَنفَعَكُمُ اليَومَ اشتِراكُكُمْ في العَذابِ، لأنَّهُ كما يُقالُ: المُصيبةُ إذا عَمَّتْ هانَتْ وخَفَّتْ، كما قالَتِ الخَنساءُ في أخيها:

ولَوْلا كَثرَةُ الباكينَ حَولي
عَلى إخوانِهِم لَقَتَلْتُ نَفسي

لكنَّ اشتِراكَ الظَّالمينَ في العَذابِ المُهينِ لَنْ يُخفِّفَ عَنْهُمْ ألَمَ العَذابِ، لأنَّ كُلًّا مِنْهُمْ مَشغولٌ بِنَفسِهِ عَمَّنْ مَعَهُ، فكأنَّهُ لَيسَ مَعَهُ،

وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ السِّرُّ فِي ذِكْرِ خُلُودِ أَهْلِ الْجَنَّةِ بِلَفْظِ الْجَمْعِ، وَخُلُودِ أَهْلِ النَّارِ بِالْإِفْرَادِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ» (النساء: ١٣- ١٤)، فَأَهْلُ الْجَنَّةِ يَأْنَسُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَيُحَدِّثُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيُكْرِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَانْتَفَعُوا بِاشْتِرَاكِهِمْ فِي النَّعِيمِ، وَأَمَّا أَهْلُ النَّارِ فَكُلٌّ مِنْهُمْ مَشْغُولٌ عَنِ الْآخَرِينَ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِاجْتِمَاعِهِمْ.

وَعَلَى قِرَاءَةِ الْكَسْرِ، يَكُونُ الْوَقْفُ عَلَى: «إِذ ظَّلَمْتُمْ»، ثُمَّ يُسْتَأْنَفُ «أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ»، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ النَّدَمُ، وَتَبَرُّؤُ بَعْضِكُمْ مِنْ بَعْضٍ، وَقَدْ تَمَّ الْمَعْنَى، ثُمَّ تَكُونُ الْجُمْلَةُ الْآتِيَةُ إِعْلَامًا لَهُمْ أَنَّهُمْ جَمِيعًا الْإِنْسِيَّ وَالْقَرِينَ فِي النَّارِ.

وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم حَرِيصًا عَلَى هِدَايَةِ قَوْمِهِ، وَكَانَ يَحْزَنُ لِإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الذِّكْرِ، فَنَهَاهُ اللهُ تَعَالَى عَنِ الْحُزْنِ عَلَيْهِمْ، وَأَمَرَهُ أَنْ يُهَوِّنَ عَلَى نَفْسِهِ، فَالْهُدَى هُدَى اللهِ، «مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ» (الأنعام: ٣٩).

قَالَ تَعَالَى: «أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ»:

يَعْنِي أَنَّ الْقَوْمَ صُمٌّ لَا يَسْمَعُونَ، عُمْيٌ لَا يُبْصِرُونَ، وَلَمْ يَخْلُقْهُمُ اللهُ تَعَالَى صُمًّا وَعُمْيًا، بَلْ جَعَلَ لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا» (الإنسان: ٢)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (النحل: ٧٨)، فَتَسْتَعْمِلُوا هَذِهِ الْحَوَاسَّ فِي التَّعَرُّفِ عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ، بِالتَّأَمُّلِ فِي آيَاتِهِ الْمَسْطُورَةِ فِي الْمَصَاحِفِ، وَالْمَنْظُورَةِ فِي الْآفَاقِ، فَتَعْلَمُوا أَنَّهُ الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ. وَلَكِنَّ الْقَوْمَ عَطَّلُوا هَذِهِ الْحَوَاسَّ عَمَّا خُلِقَتْ لَهُ، فَطَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا، فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ» (الأعراف: ١٧٩)، فَإِذَا هُمْ عَطَّلُوا جَوَارِحَهُمْ، وَطَمَسُوا مَنَافِذَ قُلُوبِهِمْ وَأَرْوَاحِهِمْ، فَمَا لِلرَّسُولِ إِلَى هُدَاهُمْ مِنْ سَبِيلٍ، وَلَا عَلَيْهِ مِنْ ضَلَالِهِمْ، فَقَدْ قَامَ بِوَاجِبِهِ الَّذِي يُطِيقُ، وَاللهُ يَتَوَلَّى الْأَمْرَ بَعْدَ أَدَاءِ الرَّسُولِ لِوَاجِبِهِ الْمَحْدُودِ، «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ» (فاطر: ٨)، «فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ» (آل عمران: ٢٠) وَقَدْ فَعَلْتَ، و«بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧٢﴾ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ» (البقرة: ٢٧٢).

وَقَدْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ بِالْإِعْرَاضِ عَنْكَ وَعَمَّا جِئْتَهُمْ بِهِ، فَاصْبِرْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ: «فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ»:

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم: إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ اسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ بِتَكْذِيبِهِمْ لَكَ، وَإِنَّ لَهُمْ مَوْعِدًا لَنْ يَفُوتُوهُ، فَقَدْ تَمُوتُ قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ بِهِمُ الْعَذَابُ، وَقَدْ تَرَاهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ» (يونس: ٤٦)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ» (المؤمنون: ٩٥)، وَقَدْ صَدَقَ اللهُ وَعْدَهُ، فَمَكَّنَ رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَعَذَّبَهُمُ اللهُ عَلَى أَيْدِي عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ» (البقرة: ٨٥).

وَلَمَّا هَوَّنَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم مَا يُلَاقِيهِ مِنْ شِدَّةِ الْحِرْصِ عَلَى إِيمَانِهِمْ وَوَعَدَهُ النَّصْرَ عَلَيْهِمْ، فَرَّعَ عَلَى ذَلِكَ أَنْ أَمَرَهُ بِالثَّبَاتِ عَلَى دِينِهِ وَكِتَابِهِ، وَأَنْ لَا يَخُورَ عَزْمُهُ فِي الدَّعْوَةِ ضَجَرًا مِنْ تَصَلُّبِهِمْ فِي كُفْرِهِمْ وَنُفُورِهِمْ مِنَ الْحَقِّ، فَقَالَ تَعَالَى:

«فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ»: وَالِاسْتِمْسَاكُ: شِدَّةُ الْمَسْكِ، فَالسِّينُ وَالتَّاءُ فِيهِ لِلتَّأْكِيدِ، فَهُوَ أَمْرٌ مِنَ اللهِ لِرَسُولِهِ صلى الله

عليه وسلم بالثَّبات على ما هُوَ عَلَيْه من الدِّين الَّذي أوحيَ إليْه من ربِّه، وإنْ كذَّبهُ أكثرُ النَّاس وخالفُوهُ، «إنَّك على صراطٍ مُستقيم»، وهذه شهادةُ الله لرسُوله: «وكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» (الفتح: ٢٨)، وفي هذا الخبر بعْدَ ذلك الأمْر إشارةٌ إلى أنَّ من استمْسكَ بالْقُرْآن الْكريم فهُوَ على صراطٍ مُستقيم، ومَنْ أعْرضَ عنْهُ فهُوَ في ضلالٍ مُبين، كما قال تعالى: «فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (القصص: ٥٠)، وقال تعالى: «وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ» (المؤمنون: ٧٤).

«وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ» يعْني أنَّ الْقُرْآن الْكريم شرَفٌ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ولقوْمه، أمَّا كوْنُهُ ذكْرًا للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فإنَّهُ منْذُ أُنْزل عَلَيْه الْقُرْآنُ لا يُذْكرُ الله إلَّا ذُكرَ معَهُ مُحمَّدٌ رسُولُ الله، ولا يُذْكرُ النَّبيُّ وحْدَهُ إلَّا صلَّى عَلَيْه الذَّاكرُ، وما زالت الْقُلُوبُ تحنُّ إلَيْه شوْقًا، وتشْتاقُ إلى رُؤْيته، ويتمنَّى الْمُسْلمُ أنْ لوْ فدى رسُولَ الله بنفْسه وأهْله، ومَاله وولَده، وهذا كُلُّه ببركة الْقُرْآن الْكريم.

وأمَّا كوْنُ الْقُرْآن الْكريم ذكْرًا لقوْمه فإنَّ الْعرب قبْلَ الْقُرْآن لمْ يكُنْ لهُمْ ذكْرٌ، ولمْ يكُونُوا في الْعير ولا في النَّفير، وكانُوا في مُؤخرة الرَّكب، فلمَّا نزَل الْقُرْآنُ وآمنُوا به واتَّبعُوهُ رفَعَ الله ذكْرَهُمْ، ومكَّن لهُمْ في الأرْض، وفتَحَ لهُمُ الْبلادَ، وجاءتْهُمْ كُنُوزُ كسْرى وقيْصر، وصارُوا في الطَّليعة والْمُقدَّمة، يُحْسبُ لهُمْ ألْفُ حسابٍ وحسابٍ.

فكانَ نُزُولُ الْقُرْآن الْكريم نعْمَةً عظيمَةً على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ومَن اتَّبعَهُ، ولذلك قال تعالى: «وسَوْفَ تُسْأَلُونَ» يعْني يوْمَ الْقيامَة عنْ هذه النِّعْمَة، هلْ شكَرْتُمْ أمْ لا؟ هل اسْتمْسكْتُمْ بالْقُرْآن أمْ لا؟

«وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ»:

لمَّا دعَا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قوْمَهُ إلى توْحيد الله أنْكرُوا عَلَيْه هذه الدَّعْوَة، وزعَمُوا أنَّهُمْ لمْ يسْمعُوا بمثْلها عنْدَ أهْل الدِّيانات، «وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ» (ص: ٤- ٧)، فقال الله تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم إنَّ التَّوْحيدَ هُوَ دعْوَةُ جميع الْمُرْسلين: «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا من دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» والْمُرادُ اسْأَلْ مُؤْمني أهْل الْكتَاب، الَّذينَ آمنُوا بالله واتَّبعُوا الْمُرْسلينَ، فسيُخْبرُونكَ بأنَّ رُسُلَهُمْ أمرُوهُمْ بتوْحيد الله، ونهوْهُمْ عنِ الشِّرْك به.

فإنْ قيل: وكيْفَ يكُونُ قوْلُهُمْ حُجَّةً؟

فالْجوابُ: إنَّما كانَ قوْلُهُمْ حُجَّةً لأنَّ الْمُؤْمنينَ لا يكْذبُونَ على الله ورُسُله. وقدْ صرَّحَ ربُّنا سُبْحانَهُ بأنَّ التَّوْحيدَ هُوَ دعْوَةُ الأنْبياء والْمُرْسلين، فقال: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» (الأنبياء: ٢٥)، وقال تعالى: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» (النحل: ٣٦)، وقال تعالى: «يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ» (النحل: ٢).

فالتَّوْحيدُ هُوَ دعْوَةُ جميع الأنْبياء والْمُرْسلين، والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى أثرهمْ، مُقْتد بهمْ، ومُهْتد بهدْيهمْ، كما قال تعالى: «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ» (الأنعام: ٩٠)، وقال تعالى: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (النحل: ١٢٠- ١٢٣).

فرَسُولُ الله إذا مُتَّبعٌ لا مُبْتدعٌ، والتَّوْحيدُ الَّذي جاءَ به إنَّما جاءَ به مَنْ قبْلَهُ منَ الرُّسُل، فمَنْ خالفَهُ فقدْ خالفَ جميعَ الْمُرْسلين.

وللحديث بقية إن شاء الله،

والحمد لله رب العالمين.

التَّقْوَى وَثَمَرَاتُهَا العَاجِلَةُ وَالآجِلَةُ

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ » (البقرة: ١٨٣).

هَكَذَا جَعَلَ اللهُ تَعَالَى لِلصِّيَامِ غَايَةً يَتَطَلَّعُ الصَّائِمُونَ إِلَى تَحْقِيقِهَا، وَتِلْكَ الْغَايَةُ هِيَ التَّقْوَى، وَهُمْ يَعْلَمُونَ مَقَامَ التَّقْوَى عِنْدَ اللهِ وَوَزْنَهَا فِي مِيزَانِهِ، فَهِيَ غَايَةٌ تَتَطَلَّعُ إِلَيْهَا أَرْوَاحُهُمْ، وَهَذَا الصَّوْمُ أَدَاةٌ مِنْ أَدَوَاتِهَا، وَطَرِيقٌ مُوَصِّلٌ إِلَيْهَا، وَمِنْ ثَمَّ يَرْفَعُهَا السِّيَاقُ أَمَامَ عُيُونِهِمْ هَدَفًا وَضِيئًا يَتَّجِهُونَ إِلَيْهِ عَنْ طَرِيقِ الصِّيَامِ (فِي ظِلَالِ القُرآن(١/٢٣٩))، فَإِنَّ الصِّيَامَ مِنْ أَكْبَرِ أَسْبَابِ التَّقْوَى، لأَنَّ فِيهِ امْتِثَالَ أَمْرِ اللهِ وَاجْتِنَابَ نَهْيِهِ.

وَمِمَّا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ الصِّيَامُ مِنَ التَّقْوَى:

أَنَّ الصَّائِمَ يَتْرُكُ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالْجِمَاعِ، مُتَقَرِّبًا بِذَلِكَ إِلَى اللهِ، رَاجِيًا بِتَرْكِهَا ثَوَابَهُ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الصَّائِمَ يُدَرِّبُ نَفْسَهُ عَلَى مُرَاقَبَةِ اللهِ تَعَالَى فَيَتْرُكَ مَا تَهْوَى نَفْسُهُ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ، لِعِلْمِهِ بِاطِّلَاعِ اللهِ عَلَيْهِ.

وَمِنْهَا: أَنَّ الصِّيَامَ يُضَيِّقُ مَجَارِيَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، فَبِالصِّيَامِ يَضْعُفُ نُفُوذُهُ، وَتَقِلُّ الْمَعَاصِي.

وَمِنْهَا: أَنَّ الصَّائِمَ فِي الْغَالِبِ تَكْثُرُ طَاعَاتُهُ، وَالطَّاعَاتُ مِنْ خِصَالِ التَّقْوَى.

وَمِنْهَا: أَنَّ الْغَنِيَّ إِذَا ذَاقَ أَلَمَ الْجُوعِ أَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ مُوَاسَاةَ الْفُقَرَاءِ الْمُعْدَمِينَ، وَهَذَا مِنْ خِصَالِ التَّقْوَى. (تيسير الكريم الرحمن(١/٢٢١)).

وَالَّذِي يَتَتَبَّعُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَرَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ التَّقْوَى سَبَبَ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ:

فَالرِّزْقُ الْكَثِيرُ الْمُبَارَكُ سَبَبُهُ التَّقْوَى، قَالَ تَعَالَى: « وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ »(الأعراف:٩٦)، وَقَالَ تَعَالَى: « وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا »(الطلاق:٢).

وَتَيْسِيرُ الأُمُورِ وَتَسْهِيلُهَا سَبَبُهُ التَّقْوَى، قَالَ تَعَالَى: « وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا »(الطلاق:٤)، وَقَالَ تَعَالَى: « فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ »(الليل:٥-١٠).

وَالْخُرُوجُ مِنَ الأَزَمَاتِ وَتَفْرِيجُ الْكُرُبَاتِ

سَبَبُهُ التَّقوى، قال تعالى: «وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا» (الطلاق:٢).

وتنويرُ القلوب ومغفرةُ الذنوب سببُه التَّقْوى، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (الحديد:٢٨)، وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» (الأنفال:٢٩).

ومَحبَّةُ الله لعَبْده سببُها التَّقْوى، قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» (التوبة:٦).

ووَلايةُ الله لا تَنالُ إلاَّ بالتَّقْوى، قال تعالى: «وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (الأنفال:٣٤).

ومَعيَّةُ الله للعَبْد سببُها التَّقْوى، قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ» (النحل:١٢٨).

والنَّصْرُ والتَّمْكينُ في الأرْض سببُه التَّقْوى، قال تعالى: «وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (آل عمران:١٢٣).

والتَّأْمينُ على الحياة لا يكونُ إلاَّ بالتَّقْوى، قال تعالى: «وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا» (النساء:٩).

والتَّوفيقُ لصالح العَمل سببُه التَّقْوى، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا» (الأحزاب:٧٠-٧١).

وقَبولُ صالح العَمل سببُه التَّقْوى، قال تعالى: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» (المائدة:٢٧).

والنَّجاةُ من النَّار بعْدَ وُرودها سببُه التَّقْوى، قال تعالى: «وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا» (مريم:٧١-٧٢).

والْفَوْزُ بالْجَنَّة سببُه التَّقْوى، قال تعالى: «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا» (مريم:٦٣)، وقال تعالى: «وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» (آل عمران:١٣٣).

وهَكذا ظَهَرَ لَنا أنَّ التَّقْوى سببُ خَيْري الدُّنْيا والآخرة، ولذلك قال القائل:

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ
وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا
وَعِنْدَ اللهِ لِلْأَتْقَى مَزِيدُ

وإذ الأمْرُ كذلك تعيَّنَ على كُلِّ مَنْ يَحْذَرُ الآخرةَ ويَرْجُو رَحْمةَ رَبِّه أنْ يَعْرِفَ ما هيَ التَّقْوى؟ ومَنْ هُمُ المُتَّقُونَ؟

أمَّا التَّقْوى فهي الاسْمُ من قَوْلهم: اتَّقى، والمَصْدرُ الاتِّقاءُ، وكلاهُما مأخوذٌ من مادَّة (وَ قِ يَ) الَّتي تَدُلُّ على دَفْعِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ بغَيْره.

قال الرَّاغبُ: الوِقايَةُ: حفْظُ الشَّيْءِ ممَّا يُؤْذيه ويَضُرُّه. يُقالُ: وَقَيْتُ الشَّيْءَ أقِيه وِقايَةً ووِقاءً. قال تعالى: «فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا» (الإنسان:١١).

والتَّقْوى: جَعْلُ النَّفْس في وِقايَة ممَّا يُخافُ، هذا تَحْقيقُه، ثُمَّ يُسَمَّى الخَوْفُ تارَةً تَقْوى، والتَّقْوى خَوْفًا حسَبَ تَسْمِيَة مُقْتَضى الشَّيْءِ بمُقْتَضيه، والمُقْتَضي بمُقْتَضاه.

و التَّقْوى في تَعارُف الشَّرْع: حفْظُ النَّفْس عمَّا يُؤْثمُ، وذلك بتَرْك المَحْظور، ويَتمُّ ذلك بتَرْك بَعْض المُباحات، لما رُوِيَ: (الحَلالُ بَيِّنٌ والحَرامُ بَيِّنٌ، وبَيْنَهُما مُشْبَهاتٌ لا يَعْلَمُها كَثيرٌ منَ النَّاس، فمَنِ اتَّقى المُشْبَهاتِ اسْتَبْرَأَ لدينه وعِرْضه، ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ كَرَاعٍ يَرْعى حَوْلَ

الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ). (صحيح البخاري: ٥٢، وصحيح مسلم ١٥٩٩).

وقد تنوعت عبارات العلماء في التقوى:

قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: يُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَّقُونَ؟ فَيَقُومُونَ فِي كَنَفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ لَا يَحْتَجِبُ مِنْهُمْ وَلَا يَسْتَتِرُ، قَالُوا لَهُ: مَنِ الْمُتَّقُونَ؟ قَالَ: قَوْمٌ اتَّقَوُا الشِّرْكَ وَعِبَادَةَ الْأَوْثَانِ، وَأَخْلَصُوا لِلَّهِ بِالْعِبَادَةِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمُتَّقُونَ الَّذِينَ يَحْذَرُونَ مِنَ اللَّهِ عُقُوبَتَهُ فِي تَرْكِ مَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْهُدَى، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ فِي التَّصْدِيقِ بِمَا جَاءَ بِهِ.

وَقَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُتَّقُونَ اتَّقَوْا مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَأَدَّوْا مَا افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ.

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَيْسَ تَقْوَى اللَّهِ بِصِيَامِ النَّهَارِ، وَلَا بِقِيَامِ اللَّيْلِ، وَالتَّخْلِيطِ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ تَقْوَى اللَّهِ تَرْكُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَأَدَاءُ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ، فَمَنْ رُزِقَ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرًا، فَهُوَ خَيْرٌ إِلَى خَيْرٍ.

وَقَالَ طَلْقُ بْنُ حَبِيبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: التَّقْوَى أَنْ تَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ تَرْجُو ثَوَابَ اللَّهِ، وَأَنْ تَتْرُكَ مَعْصِيَةَ اللَّهِ عَلَى نُورٍ مِنَ اللَّهِ تَخَافُ عِقَابَ اللَّهِ.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: تَمَامُ التَّقْوَى أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ الْعَبْدُ حَتَّى يَتَّقِيَهُ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ، وَحَتَّى يَتْرُكَ بَعْضَ مَا يَرَى أَنَّهُ حَلَالٌ خَشْيَةَ أَنْ يَكُونَ حَرَامًا، يَكُونُ حِجَابًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَرَامِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ بَيَّنَ لِلْعِبَادِ الَّذِي يُصَيِّرُهُمْ إِلَيْهِ فَقَالَ: «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»(الزلزلة:٧-٨)، فَلَا تَحْقِرَنَّ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ أَنْ تَفْعَلَهُ، وَلَا شَيْئًا مِنَ الشَّرِّ أَنْ تَتَّقِيَهُ.

وَقَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَا زَالَتِ التَّقْوَى بِالْمُتَّقِينَ حَتَّى تَرَكُوا كَثِيرًا مِنَ الْحَلَالِ مَخَافَةَ الْحَرَامِ.

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: إِنَّمَا سُمُّوا «مُتَّقِينَ»، لِأَنَّهُمُ اتَّقَوْا مَا لَا يُتَّقَى.

وَقَالَ مُوسَى بْنُ أَعْيَنَ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُتَّقُونَ تَنَزَّهُوا عَنْ أَشْيَاءَ مِنَ الْحَلَالِ مَخَافَةَ أَنْ يَقَعُوا فِي الْحَرَامِ، فَسَمَّاهُمُ اللَّهُ مُتَّقِينَ.

وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْمُتَّقِي أَشَدُّ مُحَاسَبَةً لِنَفْسِهِ مِنَ الشَّرِيكِ الشَّحِيحِ لِشَرِيكِهِ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ»(آل عمران)، قَالَ: أَنْ يُطَاعَ، فَلَا يُعْصَى، وَيُذْكَرَ، فَلَا يُنْسَى، وَأَنْ يُشْكَرَ، فَلَا يُكْفَرَ. (جامع العلوم والحكم (ص ١٣٨)).

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُ! قَبْلَ أَنْ تَبْدَأَ فِي الصِّيَامِ ضَعْ هَذِهِ الْغَايَةَ نُصْبَ عَيْنَيْكَ، وَتَطَلَّعْ إِلَيْهَا، وَاحْرِصْ عَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهَا، حَتَّى تَجْنِيَ ثِمَارَ التَّقْوَى، وَحَتَّى يَكُونَ صِيَامُكَ- وَكُلُّ أَعْمَالِكَ- مَقْبُولًا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ»(المائدة:٢٧).

والحمد لله رب العالمين.

شكر وتقدير

يتقدم رئيس تحرير مجلة التوحيد بخالص الشكر والامتنان للشركة الدولية للتجارة والتوريدات العامة، على دعمها المتواصل لمجلة التوحيد، وتخص بالشكر المهندس: أحمد عناني، والمهندس: محمد عثمان. فجزاهم الله عنا خير الجزاء.

تليفون: ٢٣٣١٤١٨١ موبايل: ٠١٠٦٦٨٠٥٩٤

تفسير سورة الزخرف

الحلقة الخامسة

قال تعالى: « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ✱ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ »

(الزخرف: ٤٦- ٥٩)

إعداد: د/ عبدالعظيم بدوي

نائب الرئيس العام

قصة موسى عليه السلام:

لَمَّا قَرَّرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ دَعْوَةُ جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ ذَكَرَ طَرَفًا مِنْ نَبَأِ اثْنَيْنِ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ، وَهُمَا مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ:

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ»:

الْآيَاتُ جَمْعُ آيَةٍ، وَهِيَ الْمُعْجِزَةُ الَّتِي يُؤَيِّدُ اللهُ بِهَا رُسُلَهُ، تَصْدِيقًا لَهُمْ فِي ادِّعَاءِ الرِّسَالَةِ، وَقَدْ أَيَّدَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى عليه السلام بِتِسْعِ آيَاتٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا » (الإسراء: ١٠١)، وَالْآيَاتُ التِّسْعُ هِيَ: الْعَصَا، يُلْقِيهَا فَتَصِيرُ حَيَّةً تَسْعَى، وَيَدُهُ، يُدْخِلُهَا فِي جَيْبِهِ، ثُمَّ يُخْرِجُهَا، فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ، قَالَ تَعَالَى: « وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ » (الأعراف: ١٠٤- ١٠٨)، فَهَاتَانِ آيَتَانِ، وَقَالَ تَعَالَى: « وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » (الأعراف: ١٣٠)، فَتِلْكَ أَرْبَعٌ، وَالْخَمْسُ الْبَاقِيَاتُ هُنَّ الْمَذْكُورَاتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا

مُجْرِمِينَ » (الأعراف: ١٣٣)، وَلِذَلِكَ قَالَ هُنَا: «فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (٤٧) وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا» يَعْنِي الْآيَةَ الَّتِي سَبَقَتْهَا، فَالْآيَاتُ السَّبْعُ وَهُنَّ السِّنُونَ وَمَا بَعْدَهَا، كُلُّ آيَةٍ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَرْتَدِعُوا بِهَا، وَلَمْ يَرْجِعُوا عَنِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ الَّذِي هُمْ مُقِيمُونَ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ هِيَ رُجُوعُهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ بِالتَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» فَلَمْ يَرْجِعُوا، وَكُلَّمَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ لَجَئُوا إِلَى مُوسَى عليه السلام:

«وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ»:

وَالْمَقَامُ هُنَا مَقَامُ إِجْلَالٍ وَتَعْظِيمٍ، لَا مَقَامَ سُخْرِيَةٍ وَاسْتِهْزَاءٍ، فَقَوْلُهُمْ: «يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ» بِمَعْنَى الْعَالِمِ الْكَبِيرِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي زَمَانٍ انْتَشَرَ فِيهِ السِّحْرُ، وَعَظُمَتْ مَكَانَةُ السَّحَرَةِ، «ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ» أَنْ يُجِيبَكَ إِذَا دَعَوْتَهُ، ادْعُهُ أَنْ يَكْشِفَ عَنَّا الْعَذَابَ، وَ «إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ» إِذَا كَشَفَ رَبُّكَ عَنَّا الْعَذَابَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: « وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ » (الأعراف: ١٣٤).

فَدَعَا مُوسَى رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ، لَكِنَّهُمْ نَقَضُوا عَهْدَهُمْ وَلَمْ يَفُوا لِرَبِّهِمْ وَلَا لِنَبِيِّهِمْ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ»، وَقَالَ فِي الْأَعْرَافِ: « فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ » (الأعراف: ١٣٥)، و «إِذَا» هَذِهِ الَّتِي تُسَمَّى الْفُجَائِيَّةَ، وَهُوَ تَعْبِيرٌ عَنْ سُرْعَةِ انْتِكَاسِهِمْ وَعَوْدَتِهِمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ.

«وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ»:

أَرَادَ -لَعَنَهُ اللَّهُ- أَنَّهُ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ مِنْ مُوسَى، لِأَنَّ لَهُ مُلْكَ مِصْرَ، وَلَيْسَ لِمُوسَى مُلْكٌ، وَلَهُ قُصُورٌ مُشَيَّدَةٌ، وَجَنَّاتٌ وَأَنْهَارٌ، وَ زُرُوعٌ وَ ثِمَارٌ، وَلَيْسَ لِمُوسَى مِثْلُهَا، ثُمَّ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ عَيِيُّ اللِّسَانِ، لَا يَكَادُ يُفْصِحُ عَمَّا يُرِيدُ.

ثُمَّ اقْتَرَحَ -لَعَنَهُ اللَّهُ- أَنْ يُقَلِّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُوسَى قَلَادَةَ الْمُلْكِ، أَوْ يُنْزِلَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةَ يُؤَيِّدُونَهُ وَيَحْفَظُونَهُ، فَقَالَ: «فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ»، وَكَانُوا إِذَا مَلَّكُوا أَحَدًا عَلَيْهِمْ أَلْبَسُوهُ سِوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ، وَقَلَّدُوهُ قَلَادَةً مِنْ ذَهَبٍ، دَلَالَةً عَلَى أَنَّهُ صَارَ مَلِكًا، فَقَالَ فِرْعَوْنُ -لَعَنَهُ اللَّهُ-: إِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ بَعَثَ مُوسَى مَلِكًا، فَلِمَاذَا لَمْ يُتَوِّجْهُ بِتَاجِ الْمُلْكِ؟ وَلِمَاذَا لَمْ يُنَزِّلْ مَعَهُ الْمَلَائِكَةَ يُصَدِّقُونَهُ، وَيَحْفَظُونَهُ، وَيُدَافِعُونَ عَنْهُ؟! وَنَسِيَ -لَعَنَهُ اللَّهُ- أَنَّ اللَّهَ حَفِظَ مُوسَى عليه السلام وَهُوَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، وَسَخَّرَ لَهُ فِرْعَوْنَ نَفْسَهُ لِيَرْعَاهُ وَيَقُومَ عَلَى تَرْبِيَتِهِ، وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ الْأُلُوفَ مِنْ ذُكْرَانِ بَنِي إِسْرَائِيلَ خَوْفًا مِنْ ذَلِكَ الصَّبِيِّ الَّذِي سَتَكُونُ نِهَايَةُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدِهِ، وَهُوَ مُوسَى عليه السلام.

«فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ»:

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَاسْتَخَفَّ فِرْعَوْنُ خِلْقًا مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الْقِبْطِ، بِقَوْلِهِ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ، فَقَبِلُوا ذَلِكَ

منْهُ فَأَطَاعُوهُ، وَكَذَّبُوا مُوسَى، قَالَ اللهُ تَعَالَى: وَإِنَّمَا أَطَاعُوا وَاسْتَجَابُوا لِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ عَدُوُّ اللهِ مِنْ تَصْدِيقِهِ، وَتَكْذِيبِ مُوسَى، لأَنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَنْ طَاعَةِ اللهِ خَارِجِينَ بِخِذْلاَنِهِ إِيَّاهُمْ، وَطَبْعِهِ عَلَى قُلُوبِهِمْ.

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: «فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ»:

يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «فَلَمَّا آسَفُونَا» أَيْ أَغْضَبُونَا، «انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ» يَقُولُ سُبْحَانَهُ: انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ بِعَاجِلِ الْعَذَابِ الَّذِي عَجَّلْنَاهُ لَهُمْ، فَأَغْرَقْنَاهُمْ جَمِيعًا فِي الْبَحْرِ.

«فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ»: فَجَعَلْنَا هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَغْرَقْنَاهُمْ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ فِي الْبَحْرِ مُقَدِّمَةَ يَتَقَدَّمُونَ- إِلَى النَّارِ -كُفَّارَ قَوْمِكَ مِنْ قُرَيْشٍ، وَكُفَّارُ قَوْمِكَ لَهُمْ بِالأَثَرِ. «وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ» أَيْ وَجَعَلْنَاهُمْ عِبْرَةً وَعِظَةً يَتَّعِظُ بِهِمْ مَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الأُمَمِ، فَيَنْتَهُوا عَنِ الْكُفْرِ بِاللهِ عز وجل. (جامع البيان (٢٧/ ٨٥)).

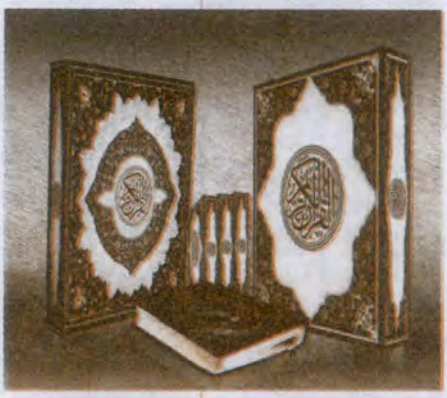

قِصَّةُ عِيسَى عليه السلام:

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ تَعَنُّتِ قُرَيْشٍ فِي كُفْرِهِمْ وَتَعَمُّدِهِمُ الْعِنَادَ وَالْجَدَلَ: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ»: قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه وَمُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَالسُّدِّيِّ وَالضَّحَّاكِ - رَحِمَهُمُ اللهُ- : يَضْحَكُونَ، أَيْ أَعْجِبُوا بِذَلِكَ. وَقَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللهُ-: يَجْزَعُونَ، وَيَضْحَكُونَ. وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ- رَحِمَهُ اللهُ-: يُعْرِضُونَ.

وَكَانَ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ حَيْثُ قَالَ: وَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمًا مَعَ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ فِي الْمَسْجِدِ، فَجَاءَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ حَتَّى جَلَسَ مَعَهُمْ، وَفِي الْمَجْلِسِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ رِجَالِ قُرَيْشٍ، فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَعَرَضَ لَهُ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ فَكَلَّمَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى أَفْحَمَهُ، ثُمَّ تَلاَ عَلَيْهِ: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ» (الأنبياء: ٩٨).

ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَأَقْبَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزِّبَعْرَى التَّمِيمِيُّ حَتَّى جَلَسَ، فَقَالَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ لَهُ: وَاللهِ مَا قَامَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ لابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَمَا قَعَدَ، وَقَدْ زَعَمَ مُحَمَّدٌ أَنَّا وَمَا نَعْبُدُ مِنْ آلِهَتِنَا هَذِهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ، فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزِّبَعْرَى: أَمَا وَاللهِ لَوْ وَجَدْتُهُ لَخَصَمْتُهُ، سَلُوا مُحَمَّدًا: أَكُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ فِي جَهَنَّمَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ؟ فَنَحْنُ نَعْبُدُ الْمَلاَئِكَةَ، وَالْيَهُودُ تَعْبُدُ عُزَيْرًا، وَالنَّصَارَى تَعْبُدُ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ! فَعَجِبَ الْوَلِيدُ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْمَجْلِسِ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزِّبَعْرَى، وَرَأَوْا أَنَّهُ قَدْ احْتَجَّ وَخَاصَمَ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: ((كُلُّ مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونِ اللهِ فَهُوَ مَعَ مَنْ عَبَدَهُ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ وَمَنْ أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ)) فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل: «إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ» (الأنبياء: ١٠١) أَيْ عِيسَى وَعُزَيْرٌ وَمَنْ عُبِدَ مَعَهُمَا مِنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ، الَّذِينَ مَضَوْا عَلَى طَاعَةِ اللهِ عز وجل، فَاتَّخَذَهُمْ مَنْ يَعْبُدُهُمْ مِنْ أَهْلِ الضَّلاَلَةِ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ.

وَنَزَلَ فِيمَا يَذْكُرُ مِنْ أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْمَلاَئِكَةَ، وَأَنَّهُمْ بَنَاتُ اللهِ: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ» (الأنبياء: ٢٦- ٢٩).

وَنَزَلَ فِيمَا يَذْكُرُ مِنْ أَمْرِ عِيسَى عليه السلام، وَأَنَّهُ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، وَعَجِبَ الْوَلِيدُ وَمَنْ حَضَرَ مِنْ حُجَّتِهِ وَخُصُومَتِهِ: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً

إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ» أَيْ يَصِدُّونَ عَنْ أَمْرِكَ بِذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ.

وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهِ- مِنْ رِوَايَةِ الْعَوْفِيِّ- رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَوْلُهُ: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ» قَالَ: يَعْنِي قُرَيْشًا، لَمَّا قِيلَ لَهُمْ: « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » (الأنبياء: ٩٨). إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ.

فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: فَمَا ابْنُ مَرْيَمَ؟ قَالَ: ((ذَاكَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)). فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا يُرِيدُ هَذَا إِلَّا أَنْ نَتَّخِذَهُ رَبًّا، كَمَا اتَّخَذَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَبًّا، فَقَالَ اللَّهُ عز وجل: «مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ».

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ- رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ أَبِي رَزِينٍ، عَنْ أَبِي يَحْيَى مَوْلَى ابْنِ عُقَيْلٍ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَقَدْ عَلِمْتُ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ مَا سَأَلَنِي عَنْهَا رَجُلٌ قَطُّ، فَمَا أَدْرِي أَعْلَمَهَا النَّاسُ فَلَمْ يَسْأَلُوا عَنْهَا، أَوْ لَمْ يَفْطِنُوا لَهَا فَيَسْأَلُوا عَنْهَا. قَالَ: ثُمَّ طَفِقَ يُحَدِّثُنَا، فَلَمَّا قَامَ تَلَاوَمْنَا أَنْ لَا نَكُونَ سَأَلْنَاهُ عَنْهَا، فَقُلْتُ: أَنَا لَهَا إِذَا رَاحَ غَدًا، فَلَمَّا رَاحَ الْغَدُ، قُلْتُ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ! ذَكَرْتَ أَمْسِ أَنَّ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ لَمْ يَسْأَلْكَ عَنْهَا رَجُلٌ قَطُّ، فَلَا تَدْرِي أَعْلَمَهَا النَّاسُ أَمْ لَمْ يَفْطِنُوا لَهَا، فَقُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْهَا وَعَنِ اللَّاتِي قَرَأْتَ قَبْلَهَا. قَالَ: نَعَمْ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ لِقُرَيْشٍ: ((يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِيهِ خَيْرٌ)).

وَقَدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنَّ النَّصَارَى تَعْبُدُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَمَا تَقُولُ فِي مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ: أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّ عِيسَى عليه السلام كَانَ نَبِيًّا وَعَبْدًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ صَالِحًا، فَإِنْ كُنْتَ

صَادِقًا كَانَ آلِهَتُهُمْ كَمَا يَقُولُونَ. قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ». قُلْتُ: مَا يَصِدُّونَ؟ قَالَ: يَضْحَكُونَ. (ابن كثير(٤/١٣١و١٣٢)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ» أَيْ يُجَادِلُونَ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، وَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ » (غافر: ٣٥).

ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى حَقِيقَةَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَقَالَ: «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ»:

«إِنْ هُوَ» أَيْ عِيسَى عليه السلام «إِلَّا عَبْدٌ» لَا رَبٌّ، وَلَا إِلَهٌ، وَلَا ابْنُ الْإِلَهِ، كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ هُوَ نَفْسُهُ، وَهُوَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، «قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا » (مريم: ٣٠)، «أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ» بِالنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، «وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ» يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، حَيْثُ خَلَقَ عِيسَى مِنْ أُنْثَى دُونَ أَنْ يَمَسَّهَا بَشَرٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ » (مريم: ٢٠- ٢١)، عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِنَا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ آدَمَ، مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَى، وَخَلَقَ مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، ثُمَّ خَلَقَ عِيسَى مِنْ مَرْيَمَ دُونَ أَنْ يَمَسَّهَا ذَكَرٌ، فَتَمَّتِ الْقِسْمَةُ الرُّبَاعِيَّةُ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ الْبَرِيَّةِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. «ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ » (مريم: ٣٤- ٣٥).

وللحديث بقية إن شاء الله.

تفسير سورة الزخرف

الحلقة السادسة

قال تعالى: «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾» (الزخرف: ٥٩- ٦٧)

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

ثُمَّ ذكَرَ اللهُ تَعالَى حقيقةَ عيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فقَالَ: «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ»:

«إِنْ هُوَ» أَيْ عيسَى عليه السلام «إِلَّا عَبْدٌ» لا رَبٌّ، ولا إلهٌ، ولا ابْنُ الإلهِ، كما صَرَّحَ بذلكَ هُوَ نفسُهُ، وهُوَ في المَهْدِ صبيًّا، «قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا» (مريم: ٣٠)، «أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ» بالنُّبُوَّةِ والرِّسالةِ، «وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ» يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى كَمَالِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالَى، حَيْثُ خَلَقَ عيسَى مِنْ أُنْثَى دُونَ أَنْ يَمَسَّهَا بَشَرٌ، كما قَالَ اللهُ تَعالَى: «قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ» (مريم: ٢٠- ٢١)، عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِنَا، فإنَّ اللهَ تَعالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ ولا أُنْثَى، وخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ آدَمَ، مِنْ ذَكَرٍ بلا أُنْثَى، وخَلَقَ مِنْ آدَمَ وحَوَّاءَ رِجَالًا كَثِيرًا ونِسَاءً، ثُمَّ خَلَقَ عيسَى مِنْ مَرْيَمَ دُونَ أَنْ يَمَسَّهَا ذَكَرٌ، فَتَمَّتِ القِسْمَةُ الرُّبَاعِيَّةُ، الَّتِي تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ خَالِقِ البَرِيَّةِ سُبْحَانَهُ وتَعالَى. «ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ» (مريم: ٣٤- ٣٥).

«وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ»:

يَقُولُ تَعالَى ذِكْرُهُ: ولَوْ نَشَاءُ - مَعْشَرَ بَنِي آدَمَ - أَهْلَكْنَاكُمْ، فَأَفْنَيْنَا جَمِيعَكُمْ، وجَعَلْنَا بَدَلًا مِنْكُمْ فِي الأَرْضِ مَلَائِكَةً يَخْلُفُونَكُمْ فِيهَا يَعْبُدُونَنِي. كما قَالَ تَعالَى: «إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا» (النساء: ١٣٣) وكما قال: «وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ» (الأنعام: ١٣٣). (جامع البيان (٨٩/٢٥)).

«وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ»: قَالَ ابْنُ عَبَّاس رضي الله عنهم: هُوَ خُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ- رَحِمَهُ اللَّهُ-: وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْقِرَاءَةُ الأُخْرَى: «وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ» أَيْ: أَمَارَةٌ وَدَلِيلٌ عَلَى وُقُوعِ السَّاعَةِ. قَالَ مُجَاهِدٌ- رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ» أَيْ: آيَةٌ لِلسَّاعَةِ خُرُوجُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَبَّاس، وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَمَالِك، وَعِكْرِمَةَ وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاك وَغَيْرِهِمْ. وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ أَخْبَرَ بِنُزُولِ عِيسَى عليه السلام قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِمَامًا عَادِلاً، وَحَكَمًا مُقْسِطًا. (ابن كثير :٤/١٣٢و١٣٣).

وَقَدْ رَوَى كُلٌّ مِنَ الإِمَامِ أَحْمَدَ وَالْبُخَارِيِّ وَمُسْلِم وَالتِّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَةَ هَذِهِ الأَحَادِيثَ وَتَرْجَمُوا لَهَا: (بَابُ نُزُولِ عِيسَى عليه السلام).

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ- رَحِمَهُ اللَّهُ- : وَأَجْمَعَتِ الأُمَّةُ عَلَى مَا تَضَمَّنَهُ الْحَدِيثُ الْمُتَوَاتِرُ مِنْ أَنَّ عِيسَى فِي السَّمَاءِ حَيٌّ، وَأَنَّهُ يَنْزِلُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ فَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ، وَيَفِيضُ الْعَدْلُ، وَتَظْهَرُ بِهِ الْمِلَّةُ، مِلَّةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وَيَحُجُّ الْبَيْتَ وَيَعْتَمِرُ، وَيَبْقَى فِي الأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً. (البحر المحيط:٢/٤٧٣).

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ- : وَقَدْ تَضَمَّنَتْ تِلْكَ الأَحَادِيثُ أَنَّ عِيسَى عليه السلام يَنْزِلُ وَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ، وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَالَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: «بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ»، وَالأَحَادِيثُ الْكَثِيرَةُ الصَّحِيحَةُ الْمُنْتَشِرَةُ، وَلَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يُحِيلُ ذَلِكَ وَلا يَرُدُّهُ، فَيَجِبُ الإِيمَانُ بِهِ وَالتَّصْدِيقُ بِكُلِّ ذَلِكَ، وَلا نُبَالِي بِمَنْ خَالَفَ ذَلِكَ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ، وَلا حُجَّةَ لَهُمْ فِي اعْتِمَادِهِمْ فِي نَفْيِ ذَلِكَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِقَوْلِهِ: «وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ» (الأحزاب: ٤٠)، وَبِمَا وَرَدَ فِي السُّنَّةِ مِنْ أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَلا رَسُولَ، وَلا بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى ذَلِكَ، وَلا عَلَى أَنَّ شَرْعَهُ لا يُنْسَخُ، وَهَذَا ثَابِتٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لأَنَّا نَقُولُ بِمُوجِبِ ذَلِكَ كُلِّهِ، لأَنَّ عِيسَى عليه السلام إِنَّمَا يَنْزِلُ لِقَتْلِ الدَّجَّالِ، وَلإِحْيَاءِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وَلِيَعْمَلَ بِأَحْكَامِهَا، وَلِيُقِيمَ الْعَدْلَ عَلَى مُقْتَضَاهَا، وَلِيَقْهَرَ الْكُفَّارَ، وَلِيُظْهِرَ لِلنَّصَارَى ضَلالَتَهُمْ وَيَتَبَرَّأَ مِنْ إِفْكِهِمْ، فَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَأْتَمَّ بِإِمَامِ هَذِهِ الأُمَّةِ، كَمَا قَالَ صلى الله عليه وسلم: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ» (صحيح البخاري ٣٤٤٩).

وَقَالَ صلى الله عليه وسلم: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَالَ فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صلى الله عليه وسلم فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ لا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الأُمَّةَ». (صحيح مسلم ١٥٦)، (المفهم (٧/٢٩٣و٢٩٤)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا» أَيْ فَلا تَشُكُّوا فِيهَا،وَلا تَرْتَابُوا فِي وُقُوعِهَا،فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: «إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» (غافر: ٥٩)، وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ» (طه: ١٥- ١٦).

وَأَقْسَمَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ عَلَى وُقُوعِهَا،فَقَالَ: «وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا» (مريم: ٦٦- ٦٨)، وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُقْسِمَ عَلَى وُقُوعِهَا، فَقَالَ: «وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ» (يونس: ٥٣)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» (سبأ: ٣)، وَقَالَ تَعَالَى: «زَعَمَ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (التغابن: ٧)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ (الحج: ٥- ٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ» مِنْ جُمْلَةِ كَلَامِ عِيسَى عليه السلام، يَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: اتَّبِعُونِي عَلَى مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ عز وجل، فَهَذَا هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، الَّذِي أَمَرَكُمُ اللَّهُ بِاتِّبَاعِهِ، كَمَا سَيَأْتِي بَعْدَ آيَتَيْنِ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ».

«وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ»:

هَذَا بَيَانٌ لِمَوْقِفِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام، يَقُولُ تَعَالَى: «وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ» أَيِ: الْآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِ، وَكَوْنِهِ رَسُولَ اللَّهِ حَقًّا، وَمِنْهَا الْإِنْجِيلُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَمِنْهَا إِبْرَاءُ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ، وَإِحْيَاءُ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِخْبَارُهُ إِيَّاهُمْ بِمَا يَأْكُلُونَ وَمَا يَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِهِمْ، «قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ» مِنْ أُمُورِ دِينِكُمْ،كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ٦٤)، «فَاتَّقُوا اللَّهَ» بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، «وَأَطِيعُونِ» فِيمَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَطَاعَتِهِ بِامْتِثَالِ مَا بِهِ أَمَرَ، وَتَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ.

ثُمَّ يُؤَكِّدُ عليه السلام عَلَى رُبُوبِيَّةِ اللَّهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ، فَيَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ» الَّذِي رَبَّانَا بِنِعَمِهِ،وَتَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِآلَائِهِ، وَأَسْبَغَ عَلَيْنَا نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، وَهَذَا هُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ تَوْحِيدَ الْأُلُوهِيَّةِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: «فَاعْبُدُوهُ»، فَمَا دَامَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَنَا فَسَوَّانَا، وَصَوَّرَنَا فَأَحْسَنَ صُوَرَنَا، وَرَزَقَنَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَجَبَ أَنْ نُفْرِدَهُ بِالطَّاعَاتِ وَالْقُرُبَاتِ، «هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ» لَا اعْوِجَاجَ فِيهِ، وَلَا زَيْغَ وَلَا إِلْحَادَ. فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ، وَتَرْكُ عِبَادَةِ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَلِذَلِكَ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يُوَبِّخُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا غَيْرَهُ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (يس: ٦٠- ٦١).

«فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ» أَيِ الْفِرَقُ الْمُتَحَزِّبَةُ، اخْتِلَافًا نَشَأَ مِنْ بَيْنِهِمْ، لَا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى، وَلَا مِنْ قَوْلِ عِيسَى، بَلْ ظُلْمًا وَعِنَادًا:

فَأَمَّا الْيَهُودُ فَفَرَّطُوا فِي حَقِّهِ عليه السلام وَقَصَّرُوا، وَرَمَوْا أُمَّهُ بِالْبُهْتَانِ الْعَظِيمِ.

وَأَمَّا النَّصَارَى فَقَابَلُوا تَفْرِيطَ الْيَهُودِ وَتَقْصِيرَهُمْ بِالْإِفْرَاطِ وَالْغُلُوِّ: فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ هُوَ اللَّهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ ابْنُ اللَّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ.

وَالسُّعَدَاءُ الْمُوَفَّقُونَ قَالُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ.

وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ» وَالظُّلْمُ هُوَ الظُّلْمُ الْأَكْبَرُ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالشِّرْكُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ» (البقرة: ٢٥٤)، وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» (لقمان: ١٣)، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ» (الزخرف: ٦٥)،

وقد قيل: إن كلمة «فويل» كلمة زجر ووعيد. وقيل: إن الويل واد في جهنم، تستغيث جهنم بالله من شدة حره، فكيف بساكنه؟!. نعوذ بالله من النار.

«هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون»:

يقول تعالى: ماذا ينتظر الكافرون إن لم يعذبهم الله في الدنيا؟! «هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون»، «فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون» (الأنبياء: ٤٠)، «يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين» (النور: ٢٥).

«الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين»:

الأخلاء جمع خليل، والخلة أعلى درجات المحبة، وهؤلاء الأحباب الذين تحابوا لغير الله، واجتمعوا على غير ذكره، يعادي بعضهم بعضا يوم القيامة، ويتبرأ بعضهم من بعض، «ولا يسئل حميم حميما» (المعارج: ١٠)، كما قال تعالى: «وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين» (العنكبوت: ٢٥) وقال تعالى: «قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادارکوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون» (الأعراف: ٣٨-٣٩).

أما الذين تحابوا في الله، واجتمعوا على ذكره، فهم في الجنة متحابين، يأنس بعضهم ببعض، ويسعد بعضهم ببعض، ولذلك قال تعالى: «إلا المتقين» يعني فإنهم يزدادون يوم القيامة محبة وأخوة، وطهارة وصفاء ونقاء، كما قال تعالى: «والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون» (الأعراف: ٤٣)، وقال تعالى: «إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين» (الحجر: ٤٥-٤٨).

فالحب في الله فضله عظيم:

عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار». (صحيح البخاري: ١٦، ومسلم ٤٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق في المسجد، ورجلان تحابا في الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها قال إني أخاف الله. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه». (صحيح البخاري ٦٦٠).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن من عباد الله لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى». قالوا: يا رسول الله تخبرنا من هم؟. قال: «هم قوم تحابوا بروح الله، على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس». وقرأ هذه الآية «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (يونس: ٦٢). (صحيح سنن أبي داود للألباني: ح٣٠١٢).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

باب التفسير

سورة الزخرف

الحلقة السابعة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى : « يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٥ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ » (الزخرف: ٦٨- ٧٦).

«يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ»:

وَفِي هَذَا النِّدَاءِ مَا فِيهِ مِنَ التَّكْرِيمِ وَالتَّشْرِيفِ، حَيْثُ نَادَاهُمُ اللَّهُ بِنَفْسِهِ بِلَا وَاسِطَةٍ، ثُمَّ نَادَاهُمْ بِأَفْضَلِ لَقَبٍ وَأَشْرَفِهِ، وَهُوَ لَقَبُ الْعُبُودِيَّةِ، وَهُوَ لَقَبٌ عَظِيمٌ، لَقَّبَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ خَلِيلَهُ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم فِي أَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ فِي مَقَامِ التَّنْزِيلِ وَغَيْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا» (الكهف: ١).

وَمِنَ التَّكْرِيمِ وَالتَّشْرِيفِ الَّذِي تَضَمَّنَهُ هَذَا النِّدَاءُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَضَافَ عُبُودِيَّتَهُمْ لَهُ سُبْحَانَهُ، فَقَالَ: «يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ»، وَنَفْيُ الْخَوْفِ يُوجِبُ حُصُولَ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ التَّامِّ، وَنَفْيُ الْحُزْنِ يُوجِبُ حُصُولَ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ التَّامِّ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: إِذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ» اشْرَأَبَّتْ لَهَا الْأَعْنَاقُ كُلُّهَا، وَرَجَاهَا كُلُّ أَهْلِ الْمَوْقِفِ، لِأَنَّهُمْ كُلَّهُمْ عِبَادُهُ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ»، فَخَابَتْ آمَالُ الْكَفَرَةِ الْفَجَرَةِ، وَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ.

وَالْمُرَادُ بِالْمَوْصُوفِينَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ بِقُلُوبِهِمْ، وَأَسْلَمُوا لَهُ جَوَارِحَهُمْ، وَانْقَادُوا لِطَاعَتِهِ، فَأَطَاعُوا اللَّهَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

«ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ»:

الْمُرَادُ بِالْأَزْوَاجِ أَزْوَاجُهُمْ مِنْ نِسَاءِ الدُّنْيَا، كَمَا

قَالَ تَعَالَى: «جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ» (الرعد: ٢٣- ٢٤)، ثُمَّ يُزَوِّجُهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ» (الدخان: ٥٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «تُحْبَرُونَ»: أَصْلُ الْحَبْرَةِ: السُّرُورُ وَالْبَهْجَةُ، لِظُهُورِ أَثَرِهِ عَلَى صَاحِبِهِ (بصائر ذوي التمييز(٢/ ٤٢٣))، فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ» أَيْ تُكْرَمُونَ إِكْرَامًا، وَتُنَعَّمُونَ نَعِيمًا، تَمْتَلِئُ قُلُوبُكُمْ بِهِ فَرَحًا وَسُرُورًا، فَتَظْهَرُ آثَارُ الْفَرَحِ عَلَى وُجُوهِكُمْ نَضْرَةً وَحُسْنًا، وَجَمَالًا وَبَهَاءً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ» (المطففين: ٢٢- ٢٤)، وَقَالَ تَعَالَى: «فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا» (الإنسان: ١١).

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ بَعْضَ النَّعِيمِ الَّذِي يُكْرَمُونَ بِهِ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ:

«۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ۝٢٠ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا» (الواقعة: ١٧- ١٩)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا» (الإنسان: ١٩).

«۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ» مِنْ ذَهَبٍ أَيْضًا، وَالصِّحَافُ جَمْعُ صَحْفَةٍ، وَهِيَ آنِيَةُ الطَّعَامِ، وَالْأَكْوَابُ جَمْعُ كُوبٍ، وَهِيَ آنِيَةُ الشَّرَابِ، «حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ۝١٩»، فَكُلُّ مَا يَشْتَهِيهِ أَهْلُ الْجَنَّةِ مِنْ مَطْعَمٍ أَوْ مَشْرَبٍ، أَوْ مَلْبَسٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، يَأْتِيهِمْ وَبِزِيَادَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ» (ق: ٣٥).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا اشْتَهَى الْوَلَدَ فِي الْجَنَّةِ، كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وَسِنُّهُ فِي سَاعَةٍ كَمَا اشْتَهَى». (صحيح سنن الترمذي ح٢٥٦٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ «أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟! قَالَ بَلَى! وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ. قَالَ: فَبَذَرَ، فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ، فَكَانَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَيَقُولُ اللهُ: دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لَا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ». فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاللهِ لَا تَجِدُهُ إِلَّا قُرَشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا، فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم. (صحيح البخاري ٢٣٤٨).

فَكُلُّ مَا فِي الْجَنَّةِ يَسُرُّ النَّاظِرِينَ، فَهُمْ يُقَلِّبُونَ أَبْصَارَهُمْ فِيمَا يَلَذُّ الْأَعْيُنَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ» (المطففين: ٢٢- ٢٤).

وَمِمَّا يَزِيدُهُمْ فَرَحًا وَسُرُورًا ضَمَانُ الْبَقَاءِ، وَدَوَامِ النَّعِيمِ، وَعَدَمِ الْخُرُوجِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَعَدَمِ الْمَوْتِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ لَهُمْ: «رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا».

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ. ثُمَّ قَرَأَ: «وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ» وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةِ أَهْلِ الدُّنْيَا «وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ» (مريم: ٣٩). (صحيح البخاري ٤٧٣٠).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ

«يُطَافُ» فِعْلٌ مُضَارِعٌ لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، وَقَدْ سَمَّاهُ اللهُ تَعَالَى فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى، فَقَالَ تَعَالَى: «وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ» (الطور)، وَقَالَ تَعَالَى: «يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ»

رضي الله عنهم عَنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يُنَادي مُنَاد: إنَّ لَكُمْ أنْ تَحْيَوْا فَلاَ تَمُوتُوا أبَدًا، وَإنَّ لَكُمْ أنْ تَصِحُّوا، فَلاَ تَسْقَمُوا أبَدًا، وَإنَّ لَكُمْ أنْ تَشِبُّوا فَلاَ تَهْرَمُوا أبَدًا، وَإنَّ لَكُمْ أنْ تَنْعَمُوا فَلاَ تَبْأسُوا أبَدًا». فَذلكَ قَوْلُه تَعَالَى: «وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (صحيح مسلم ٢٨٣٧).

فإن قيل: ممَّن ورِثُوها؟

فالجوابُ: عَنْ أنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «العَبْدُ إذَا وُضِعَ في قَبْرِه، وَتَوَلَّى وَذَهَبَ أصْحَابُه، حَتَّى إنَّه لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أتَاهُ مَلَكَانِ فَأقْعَدَاهُ فَيَقُولاَنِ لَه: مَا كُنْتَ تَقُولُ في هَذا الرَّجُلِ مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم؟ فَيَقُولُ: أشْهَدُ أنَّه عَبْدُ الله وَرَسُولُه. فَيُقَالُ: انْظُرْ إلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، أبْدَلَكَ الله بِه مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّة. قَالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا. وَأمَّا الْكَافِرُ - أو الْمُنَافِقُ - فَيَقُولُ لاَ أدْرِي، كُنْتُ أقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ. فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ. ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيد ضَرْبَةً بَيْنَ أذُنَيْه، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيه إلاَّ الثَّقَلَيْن». (صحيح البخاري ١٣٣٨).

عَنِ السُّدِّيِّ -رَحِمَهُ اللهُ-: «وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» قَالَ: «لَيْسَ مِنْ كَافِرٍ وَلاَ مُؤْمِنٍ إلاَّ وَلَه في الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مَنْزِلٌ. فَإذَا دَخَلَ أهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأهْلُ النَّارِ النَّارَ، وَدَخَلُوا مَنَازِلَهُمْ، رُفِعَتِ الْجَنَّةُ لأهْلِ النَّارِ فَنَظَرُوا إلَى مَنَازِلِهِمْ فِيهَا، فَقِيلَ لَهُمْ: هَذِه مَنَازِلُكُمْ لَوْ عَمِلْتُمْ بِطَاعَةِ اللهِ، ثُمَّ يُقَالُ: يَا أهْلَ الْجَنَّةِ! رِثُوهُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، فَيُقَسَّمُ بَيْنَ أهْلِ الْجَنَّةِ مَنَازِلُهُمْ». (جامع البيان(٨/ ١٨٥)).

وَلِذلكَ سُمِّيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَوْمَ التَّغَابُنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ» (التغابن: ٩)، لأنَّه غَبَنَ فيه أهْلُ الْجَنَّةِ أهْلَ النَّارِ، أيْ أنَّ أهْلَ الْجَنَّةِ أخَذُوا الْجَنَّةَ، وَأخَذَ أهْلُ النَّارِ النَّارَ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَادَلَةِ، فَوَقَعَ الْغَبْنُ لأجْلِ مُبَادَلَتِهِمُ الْخَيْرَ بِالشَّرِّ، وَالْجَيِّدَ بِالرَّدِيءِ، وَالنَّعِيمَ بِالْعَذَابِ.

فإن قيل: فأيُّ مُعَامَلَةٍ وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا حَتَّى يَقَعَ الْغَبْنُ فِيهَا؟

قيل لَه: هُوَ تَمْثِيلُ الْغَبْنِ في الشِّرَاءِ وَالْبَيْعِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» (البقرة). وَلَمَّا ذَكَرَ أنَّ الْكُفَّارَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَمَا رَبِحُوا في تِجَارَتِهِمْ بَلْ خَسِرُوا، وَذَكَرَ أيْضًا أنَّهُمْ غُبِنُوا، وَذلكَ أنَّ أهْلَ الْجَنَّةِ اشْتَرَوُا الآخِرَةَ بِتَرْكِ الدُّنْيَا، وَاشْتَرَى أهْلُ النَّارِ الدُّنْيَا بِتَرْكِ الآخِرَةِ، وَهَذَا نَوْعُ مُبَادَلَةٍ اتِّسَاعًا وَمَجَازًا. وَقَدْ فَرَّقَ اللهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى الْخَلْقَ فَرِيقَيْنِ: فَرِيقًا لِلْجَنَّةِ وَفَرِيقًا لِلنَّارِ، وَمَنَازِلُ الْكُلِّ مَوْضُوعَةٌ في الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَقَدْ يَسْبِقُ الْخِذْلاَنُ عَلَى الْعَبْدِ فَيَكُونُ مِنْ أهْلِ النَّارِ، فَيَحْصُلُ الْمُوَفَّقُ عَلَى مَنْزِلِ الْمَخْذُولِ، وَمَنْزِلُ الْمُوَفَّقِ في النَّارِ لِلْمَخْذُولِ، فَكَأنَّه وَقَعَ التَّبَادُلُ فَحَصَلَ التَّغَابُنُ. وَقَدْ يُخْبَرُ عَنْ هَذا التَّبَادُلِ بِالْوِرَاثَةِ كَمَا في آيَةِ الزُّخْرُفِ وَغَيْرِهَا. وَاللهُ أعلم. (الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٣٦و١٣٧)).

وَقَوْلُه تَعَالَى: «بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»: أيْ بِسَبَبِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذي عَمِلْتُمُوه في الدُّنْيَا.

وَظَاهِرُ الآيَةِ يَتَعَارَضُ مَعَ قَوْلِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: «لَنْ يُدْخِلَ أحَدًا عَمَلُه الْجَنَّةَ». قَالُوا وَلاَ أنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «وَلاَ أنَا إلاَّ أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ». (صحيح البخاري ٥٦٧٣).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ -رَحِمَهُ اللهُ-: قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ -رَحِمَهُ اللهُ-: يَتَحَصَّلُ عَنْ ذلكَ أرْبَعَةُ أجْوِبَةٍ:

الأوَّل: أنَّ التَّوْفِيقَ لِلْعَمَلِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَوْلاَ رَحْمَةُ اللهِ السَّابِقَةُ مَا حَصَلَ الإيمَانُ وَلاَ الطَّاعَةُ الَّتي يَحْصُلُ بِهَا النَّجَاةُ.

الثَّاني: أنَّ مَنَافِعَ الْعَبْدِ لِسَيِّدِه، فَعَمَلُه مُسْتَحَقٌّ لِمَوْلاَهُ، فَمَهْمَا أنْعَمَ عَلَيْه مِنَ الْجَزَاءِ فَهُوَ مِنْ فَضْلِه.

الثَّالث: جَاءَ في بَعْضِ الأحَادِيثِ أنَّ نَفْسَ دُخُولِ الْجَنَّةِ بِرَحْمَةِ اللهِ، وَاقْتِسَامَ الدَّرَجَاتِ بِالأعْمَالِ.

الرابع: أنَّ أعمالَ الطَّاعاتِ كانَتْ في زمنٍ يسيرٍ والثَّوابُ لا ينفدُ، فالإنعامُ الذي لا ينفدُ في جزاءِ ما ينفدُ بالفضلِ لا بمقابلةِ الأعمالِ.

وقالَ ابنُ القيِّمِ في كتابِ «مفتاحِ دارِ السَّعادةِ»: الباءُ المقتضيةُ للدُّخولِ غيرُ الباءِ الماضيةِ، فالأولى السببيَّةُ الدالَّةُ على أنَّ الأعمالَ سببُ الدُّخولِ، المقتضيةُ له كاقتضاءِ سائرِ الأسبابِ لمسبَّباتِها، والثانيةُ باءُ المعاوضةِ، نحوُ: اشتريتُ منه بكذا. فأخبرَ أنَّ دخولَ الجنَّةِ ليسَ في مقابلةِ عملِ أحدٍ، وأنَّه لولا رحمةُ اللهِ لعبدِه لما أدخلَه الجنَّةَ، لأنَّ العملَ بمجرَّدِه ولو تناهى لا يوجبُ بمجرَّدِه دخولَ الجنَّةِ، ولا أنْ يكونَ عوضًا لها، لأنَّه ولو وقعَ على الوجهِ الذي يحبُّه اللهُ لا يقاومُ نعمةَ اللهِ، بل جميعُ العملِ لا يوازي نعمةً واحدةً، فتبقى سائرُ نعمِه مقتضيةً لشكرِها، وهو لم يوفِّها حقَّ شكرِها، فلو عذَّبَه في هذه الحالةِ لعذَّبَه وهو غيرُ ظالمٍ، وإذا رحمَه في هذه الحالةِ كانتْ رحمتُه خيرًا من عملِه، كما في حديثِ أبيِّ بنِ كعبٍ الذي أخرجَه أبو داودَ وابنُ ماجةَ في ذكرِ القدرِ ففيه: لو أنَّ اللهَ عذَّبَ أهلَ سمواتِه وأرضِه لعذَّبَهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رحمَهم كانتْ رحمتُه خيرًا لهم.

قالَ: وهذا فصلُ الخطابِ معَ الجبريَّةِ الذينَ أنكروا أنْ تكونَ الأعمالُ سببًا في دخولِ الجنَّةِ من كلِّ وجهٍ، والقدريَّةِ الذينَ زعموا أنَّ الجنَّةَ عوضُ العملِ، وأنَّها ثمنُه، وأنَّ دخولَها بمحضِ الأعمالِ، والحديثُ يبطلُ دعوى الطائفتينِ واللهُ أعلمُ. (فتح الباري(١١/٢٩٦)).

«لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ»: هذه الفاكهةُ من كلِّ الأصنافِ،كما قالَ تعالى: «وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ» (محمد: ١٥)،وهي موجودةٌ أبدًا، لا تنقطعُ، كما قالَ تعالى: «وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ» (الواقعة: ٣٢-٣٣)، أي: لا مقطوعةٍ بزمنٍ، ولا ممنوعةٍ لغلوِّ ثمنٍ، كما هو الحالُ في الدُّنيا.

وعلى طريقةِ القرآنِ الكريمِ في الجمعِ بينَ الترغيبِ والترهيبِ، لمَّا ذكرَ سبحانَه نعيمَ أهلِ الجنَّةِ أتبعَه بذكرِ عذابِ أهلِ النَّارِ، ليزدادَ الذينَ آمنوا طاعةً وإحسانًا، ويرجعَ الذينَ كفروا عنْ كفرِهم، ويتوبوا إلى ربِّهم، فقالَ تعالى: «إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ»

المُجرمونَ هُمُ الكافرونَ، كما يُفهَمُ مِنْ مُقابلتِهم بالمُسلمينَ والمُؤمنينَ، في قولِه تعالى: «أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ» (القلم: ٣٥)، وقالَ تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ» (المطففين: ٢٩). وهُمْ في النَّارِ خالدونَ، كما قالَ تعالى: «وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ» (البقرة: ٣٩)

وعَنْ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: «يُؤتى بالمَوْتِ كهيئةِ كبشٍ أملحَ، فيُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ! فيشرئبُّونَ ويَنْظُرونَ. فيقولُ: هلْ تعرفونَ هذا؟ فيقولونَ: نعمْ هذا المَوْتُ، وكلُّهم قدْ رآه. ثمَّ يُنادي: يا أهلَ النَّارِ! فيشرئبُّونَ ويَنْظُرونَ، فيقولُ: هلْ تعرفونَ هذا؟ فيقولونَ: نعمْ هذا المَوْتُ، وكلُّهم قدْ رآه، فيُذبحُ، ثمَّ يقولُ: يا أهلَ الجنَّةِ! خلودٌ فلا موتَ، ويا أهلَ النَّارِ! خلودٌ فلا موتَ. ثمَّ قرأَ: «وأنذرْهم يومَ الحسرةِ إذْ قُضيَ الأمرُ وهم في غفلةٍ» وهؤلاءِ في غفلةِ أهلِ الدُّنيا «وهُمْ لا يؤمنونَ» (مريم: ٣٩) (صحيح البخاري ٤٧٣٠).

«لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ» أيْ لا يُخفَّفُ عنهُمُ العذابُ، ولكنْ كما قالَ تعالى: «مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا» (الإسراء: ٩٧)، وقالَ تعالى: «فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا» (النبأ: ٣٠).

«وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ» أيْ يائسونَ مِنْ رحمةِ اللهِ، لا يطمعونَ فيها، ولا يرجُونَها.

«وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ» يعني أنَّ هذا العذابَ «جَزَآءً وِفَاقًا» (النبأ: ٢٦)، أيْ مُوافقًا لأعمالِهم، وما ظلمَهُمُ اللهُ، كما قالَ تعالى: «مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» (الأنعام: ١٦٠).

وللحديثِ بقيةٌ إن شاءَ اللهُ.

تفسير سورة الزخرف

الحلقة الثامنة والأخيرة

باب التفسير

قال تعالى: «وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾» (الزخرف: ٧٧- ٨٩).

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

«وَنَادَوْا يَا مَالِكُ» وَهُوَ كَبِيرُ خَزَنَةِ النَّارِ، «لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ» أَيْ لِيُمِتْنَا حَتَّى نَسْتَرِيحَ، مِنْ قَضَى عَلَيْهِ، إِذَا أَمَاتَهُ. وَالْمَعْنَى: سَلْ رَبَّكَ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْنَا، وَهَذَا لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ إِبْلَاسِهِمْ، لِأَنَّهُ جُؤَارٌ وَتَمَنٍّ لِلْمَوْتِ لِفَرْطِ الشِّدَّةِ، «قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ» أَيْ فِي الْعَذَابِ أَبَدًا، لَا خَلَاصَ لَكُمْ مِنْهُ بِمَوْتٍ وَلَا بِغَيْرِهِ (تفسير أبي السعود (٦/٤٢)). كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ» (الأعلى: ٩- ١٣)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ» (فاطر: ٣٦- ٣٧).

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى عِلَّةَ مُكْثِهِمْ فِي النَّارِ وَخُلُودِهِمْ فِيهَا، فَقَالَ: «لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ» أَيْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِنَا، «وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ» فَكَذَّبْتُمُوهُمْ، وَلَمْ تَتَّبِعُوهُمْ عَلَى مَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْحَقِّ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ، «فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ» (الجاثية: ٣١)، «فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ» (الأحقاف: ٢٠).

وَإِنَّمَا نُسِبَتْ كَرَاهَةُ الْحَقِّ إِلَى أَكْثَرِهِمْ دُونَ جَمِيعِهِمْ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ فَرِيقَانِ: أَحَدُهُمَا: سَادَةٌ كُبَرَاءُ، وَهُمُ الَّذِينَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ. وَثَانِيهِمَا: دُهَمَاءُ وَعَامَّةٌ، وَهُمْ تَبَعٌ لِأَئِمَّةِ الْكُفْرِ. وَقَدْ أَشَارَتْ إِلَى ذَلِكَ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ» (البقرة: ١٦٦). فَالْفَرِيقُ الْأَوَّلُ هُمُ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ». وَأُولَئِكَ إِنَّمَا كَرِهُوا الْحَقَّ لِأَنَّهُ يَرْمِي إِلَى زَوَالِ سُلْطَانِهِمْ وَتَعْطِيلِ مَنَافِعِهِمْ. (التحرير والتنوير (٢٥/٢٦١)).

وَبَعْدَ مَا ذَكَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَعِيمَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَعَذَابَ أَهْلِ النَّارِ، انْتَقَلَ لِلْحَدِيثِ عَنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ، وَمَوْقِفِهِمْ مِنَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَكَيْدِهِمْ لَهُ، وَمَكْرِهِمْ بِهِ مُكْرًا كُبَّارًا، فَقَالَ تَعَالَى:

«أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ»:

يُقَالُ: أَبْرَمَ الْأَمْرَ، إِذَا أَحْكَمَهُ وَأَتْقَنَهُ، كَمَا يُقَالُ: أَبْرَمَ الْحَبْلَ، إِذَا فَتَلَهُ فَأَحْكَمَهُ وَأَتْقَنَهُ، وَالْمَعْنَى: إِنْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ أَبْرَمُوا

لِرَسُولِنَا أَمْرًا، وَكَادُوا لَهُ كَيْدًا، وَمَكَرُوا لَهُ مَكْرًا، فَإِنَّا مُبْرِمُونَ أَمْرًا يَنْقُضُ أَمْرَهُمْ، وَيُبْطِلُ كَيْدَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا» (الطارق: ١٥-١٧)، وَقَالَ تَعَالَى: «أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ» (الطور: ٤٢)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» (الأنفال: ٣٠).

«أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ»:

الاسْتِفْهَامُ للإِنْكَارِ، وَالْمَعْنَى: أَيَحْسَبُونَ لِجَهْلِهِمْ بِاللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْمَعُ سِرَّهُمْ، وَهُوَ مَا يُخْفُونَ فِي صُدُورِهِمْ مِمَّا يَكِيدُونَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَلَا يَسْمَعُ نَجْوَاهُمْ، وَهِيَ مَا يَتَحَدَّثُونَ بِهِ وَيُخْفُونَهُ مِنْ كَيْفِيَةِ إِلْحَاقِ الأَذَى بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَلَذَلِكَ هُمْ يَمْكُرُونَ وَيَكِيدُونَ، وَكَأَنَّهُمْ فِي مَأْمَنٍ؟! قَالَ تَعَالَى: «بَلَى» نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى» (طه: ٧)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ» أي مَا يَقُولُونَ وَمَا يَعْمَلُونَ.

وَهَذِهِ الآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» (ق: ١٦-١٨).

وَقَدْ صَرَّحَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ بِكِتَابَةِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ» (يس: ١٢)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ» (القمر: ٥٢-٥٣).

وَمُقْتَضَى الْكِتَابَةِ أَنَّ اللَّهَ سَيَجْزِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَتَبَتْهَا الْمَلَائِكَةُ فِي صُحُفِهِمْ.

«قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ»:

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم: قُلْ يَا نَبِيَّنَا لِهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ جَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ بَنَاتِ اللَّهِ، قُلْ لَهُمْ: «إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ»:

اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي «إِن»: فَجَعَلَهَا بَعْضُهُمْ نَافِيَةً، وَجَعَلَهَا بَعْضُهُمْ شَرْطِيَّةً.

فَالأَوَّلُونَ قَالُوا: «إِن» نَافِيَةٌ بِمَعْنَى (مَا)، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ» (يس: ٢٩) أَيْ: مَا كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً، وَتَقُولُ الْعَرَبُ: إِنْ كَانَ هَذَا الأَمْرُ قَطُّ، أَيْ مَا كَانَ هَذَا الأَمْرُ قَطُّ. فَقَالُوا: اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ صلى اللَّهُ عليه وسلم أَنْ يَرُدَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: «مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ» (مريم: ٣٥)، وَقَالَ تَعَالَى: «بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ» (المؤمنون: ٩٠-٩١).

وَالَّذِينَ جَعَلُوا «إِن» شَرْطِيَّةً قَالُوا: هَذَا مِنْ بَابِ التَّنَزُّلِ مَعَ الْخَصْمِ فِي الْمُجَادَلَةِ، لِلْوُصُولِ إِلَى إِبْطَالِ الْبَاطِلِ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم: قُلْ يَا نَبِيَّنَا لِلَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا: «إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ» لِهَذَا الْوَلَدِ، لأَنَّ الْوَلَدَ جُزْءٌ مِنْ وَالِدِهِ، وَتَعْظِيمُهُ تَعْظِيمٌ لِوَالِدِهِ، وَأَنَا أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ، أَثْبَتُّ لَهُ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ، وَأَنْفِي عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَوْ كَانَ لِلَّهِ وَلَدٌ كُنْتُ أَنَا أَوَّلَ مَنْ يُثْبِتُ ذَلِكَ لَهُ، لأَنَّ نَفْيَ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ لَا يَجُوزُ، كَمَا لَا يَجُوزُ إِثْبَاتُ مَا نَفَاهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ نَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، وَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنِ الْوَلَدِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ:

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (يونس: ٦٨)، وَلِذَلِكَ نَزَّهَ نَفْسَهُ هُنَا عَمَّا وَصَفُوهُ بِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: «سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ».

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صلى اللَّهُ عليه وسلم أَنْ يَتْرُكَهُمْ وَمَا اخْتَارُوا لأَنْفُسِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ وَعْدُ اللَّهِ، وَيَنْزِلَ بِهِمْ عَذَابَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ»: أَيْ اتْرُكْهُمْ يَا نَبِيَّنَا يَخُوضُوا فِي بَاطِلِهِمْ، وَيَلْعَبُوا فِي دُنْيَاهُمُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا لَهْوًا وَلَعِبًا، «حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ»

وَهُوَ يَوْمُ الدِّين، يَوْمُ الْفَصْلِ، يَوْمُ الْجَمْعِ، « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ» (المعارج: ٤٣-٤٤)، « يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ» (القمر: ٦- ٨).

«وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ»:

الإِلَهُ مَعْنَاهُ الْمَعْبُودُ، وَالْمَعْنَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الإِلَهُ الْحَقُّ، هُوَ إِلَهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ إِلَهُ مَنْ فِي الأَرْضِ، أَيْ يَعْبُدُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيَعْبُدُهُ أَهْلُ الأَرْضِ، وَهَذِهِ الآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: « وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ » (الأنعام: ٣) أَيْ هُوَ الْمَأْلُوهُ (أَيِ الْمَعْبُودُ) فِي السَّمَوَاتِ، وَهُوَ الْمَأْلُوهُ فِي الأَرْضِ.

وَلَيْسَ فِي الآيَتَيْنِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ، كَمَا يَعْتَقِدُ بَعْضُ النَّاسِ، إِنَّمَا اللهُ فِي السَّمَاءِ، عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، كَمَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ، وَكَمَا أَخْبَرَ عَنْهُ رَسُولُهُ صلى الله عليه وسلم، وَهُوَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِرَبِّهِ.

قَالَ تَعَالَى: « ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ» (الملك: ١٦- ١٧).

وَقَالَ تَعَالَى: « إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ» (الأعراف: ٥٤). وَتَكَرَّرَ التَّصْرِيحُ بِالاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ، هِيَ الأَعْرَافُ، وَيُونُسُ، وَالرَّعْدُ، وَطه، وَالْفُرْقَانُ، وَالسَّجْدَةُ، وَالْحَدِيدُ.

وَكَذَلِكَ صَرَّحَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى فِي السَّمَاءِ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ لَمَّا اعترض علي تقسيمه بعض الأموال: «أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً». (صحيح مسلم ١٠٦٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا فَتَأْبَى عَلَيْهِ، إِلاَّ كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا)) (صحيح مسلم ١٤٣٦).

«وَهُوَ» سُبْحَانَهُ «الْحَكِيمُ» فِي أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ، وَقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، «الْعَلِيمُ» بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي السَّمَاءِ وَلاَ فِي الأَرْضِ، « وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ» (الأنعام: ٥٩).

«وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا»:

تَبَارَكَ: فِعْلٌ مَاضٍ جَامِدٌ، مُخْتَصٌّ بِمَدْحِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، فَلاَ يُمْدَحُ بِهِ غَيْرُهُ، وَمَعْنَاهُ: كَثُرَتْ خَيْرَاتُهُ، وَعَمَّتْ بَرَكَاتُهُ، وَعَظُمَتْ أَفْعَالُهُ، هُوَ مَالِكُ الْمُلْكِ، وَبِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ، «وَعِندَهُۥ» سُبْحَانَهُ وَحْدَهُ «عِلْمُ السَّاعَةِ» فَلاَ يَعْلَمُ مَتَى السَّاعَةُ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِجِبْرِيلَ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: ((مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)) (صحيح البخاري ١١٤).

«وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» يَوْمَ الْقِيَامَةِ «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى» (النجم: ١٦)، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ » (يونس: ٤).

«وَلاَ يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ»: هَذَا نَفْيٌ لِمَا اعْتَقَدَهُ الْمُشْرِكُونَ فِيمَنْ عَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، حَيْثُ اعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ شُفَعَاؤُهُمْ عِنْدَ اللهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ » (يونس: ١٨)، فَأَنْكَرَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ هَذَا الاعْتِقَادَ، وَبَيَّنَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ لَهُ وَحْدَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: « أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (الزمر: ٤٣- ٤٤).

فَالشَّفَاعَةُ لله، لاَ يَمْلِكُهَا غَيْرُهُ، وَلاَ يَشْفَعُ أَحَدٌ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ» (البقرة: ٢٥٥)، وَقَالَ تَعَالَى: « وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى

شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ» (النجم: ٢٦)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ» (الأنبياء: ٢٦- ٢٨).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» مَعْنَاهُ: فَإِنَّ اللَّهَ يُشَفِّعُ فِيهِمْ مَنْ شَاءَ مِنَ الشَّافِعِينَ، إِكْرَامًا لِلشَّافِعِ وَإِظْهَارًا لِفَضْلِهِ، وَبِرًّا وَرَحْمَةً بِالْمَشْفُوعِ فِيهِ.

وَشَهَادَةُ الْحَقِّ هِيَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَابُدَّ فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ وَالْيَقِينِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا» (مريم: ٨٧)، وَالْعَهْدُ هُوَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لَا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ)) (صحيح البخاري ٩٩).

«وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»:

هَذَا إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ مُقِرِّينَ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»، وَتَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ يَسْتَلْزِمُ تَوْحِيدَ الْأُلُوهِيَّةِ، فَمَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُ يَجِبُ أَنْ يُفْرِدَ اللَّهَ بِالْعِبَادَةِ، فَمِنَ الْجَهَالَةِ بِمَكَانٍ أَنْ يُعْبَدَ مَنْ لَا يَخْلُقُ.

لَكِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُهُمْ، فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمُ اسْتَكْبَرُوا، وَأَصَرُّوا عَلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: «فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ»؟ أَيْ: فَكَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ، مَعَ اعْتِرَافِهِمْ بِكَوْنِ الْكُلِّ مَخْلُوقِينَ لَهُ؟! «أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ» (الأعراف: ١٩١- ١٩٢).

«وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ»:

قُرِئَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ «وَقِيلِهِ» بِالْجَرِّ وَالنَّصْبِ، فَعَلَى قِرَاءَةِ الْجَرِّ تَكُونُ مَعْطُوفَةً عَلَى السَّاعَةِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» أَيْ وَعِنْدَهُ عِلْمُ قِيلِهِ. وَعَلَى قِرَاءَةِ النَّصْبِ تَكُونُ مَعْطُوفَةً عَلَى «سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم» أَيْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ قِيلَهُ.

وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشْتَكَى إِلَى رَبِّهِ عَدَمَ إِيمَانِ قَوْمِهِ، وَهَذِهِ الشَّكْوَى كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا» (الفرقان: ٣٠).

وَالْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَشَكْوَاهُ مِنْ قَوْمِهِ، وَسَيَنْتَصِرُ لَهُ، عَاجِلًا أَوْ آجِلًا، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَنْ يَصْبِرَ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ» أَيْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ، وَاصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ، «وَقُلْ سَلَامٌ»، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» (الأعراف: ١٩٩).

وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ تَعَالَى مَنِ اسْتَجَابَ لِذَلِكَ الْأَدَبِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ فِي مَعْرِضِ الْمَدْحِ: «وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» (الفرقان: ٦٣)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ» (القصص: ٥٥).

ثُمَّ تَوَعَّدَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فَقَالَ: «فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»، وَالْمَعْلُومُ مَسْكُوتٌ عَنْهُ هُنَا، وَقَدْ صَرَّحَ بِهِ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ فِي قَوْلِهِ: «قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ» (الزمر: ٣٩- ٤٠)، وَقَالَ تَعَالَى: «الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ» (غافر: ٧٠- ٧٢).

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ، وَنَسْأَلُهُ الْجَنَّةَ.

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الدخان

قال تعالى: «حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ» (الدخان: ١- ١١).

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وبعد:

بين يدي السورة:

سورة الدخان سورةٌ مكيةٌ، شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة، وبيان أصول الدين وأركان الإيمان.

وقد ركزت على الأصول الثلاثة: التوحيد، والنبوة، والبعث بعد الموت. استفتحت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن الكريم، والنبي الأمين، وموقف المشركين منهما.

وثنت بذكر طرفٍ من نبأ موسى وفرعون.

ثم تحدثت عن بعض أشراط الساعة، وأهوال القيامة، وانقسام الناس قسمين: «فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ» (الشورى:٧).

ووجه تسميتها بالدخان وقوع لفظ الدخان فيها، والمراد به آية من آيات الله، أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم، فلذلك سميت به اهتمامًا بشأنه. (التحرير والتنوير: ٢٥/ ٢٧٥).

ومناسبة هذه السورة لما قبلها أنه ذكر في أواخر ما قبلها: «فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ» (الزخرف:

٨٣)، فذكر يومًا غير معين، ولا موصوفًا، فبين في أوائل هذه السورة ذلك اليوم، بوصف وصفه فقال: «فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ» (الدخان:١٠)، وأن العذاب يأتيهم من قبلك، ويحل بهم من الجدب والقحط، ويكون العذاب في الدنيا، وإن كان العذاب في الآخرة، فيكون يومهم الذي يوعدون يوم القيامة. (البحر المحيط في التفسير: ٣٢/٨).

وذكر سبحانه هناك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ» (الزخرف:٨٨)، وهنا نظيره فيما حكي عن أخيه موسى عليهما الصلاة والسلام بقوله تعالى: «فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ» (الدخان:٢٢) وأيضًا ذكر فيما تقدم: «فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (الزخرف:٨٩)، وحكى سبحانه عن موسى عليه السلام «وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ» (الدخان:٢١)، وهو قريبٌ من قريب.

وهي إحدى النظائر التي كان يصلي بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أخرج أبو داود عن علقمة والأسود قالا: أتى ابن مسعود رجلٌ فقال: إني أقرأ المفصل في ركعة. فقال أهذا كهذ الشعر، ونثرًا كنثر الدقل؟! لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ النظائر، السورتين في ركعة: الرحمن والنجم في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة، والطور والذاريات في ركعة، وإذا وقعت ون في ركعة، وسأل سائل والنازعات في ركعة، وويل للمطففين وعبس في ركعة، والمدثر والمزمل في ركعة، وهل أتى ولا أقسم بيوم القيامة في ركعة. وعم يتساءلون والمرسلات في ركعة، والدخان وإذا الشمس كورت في ركعة. (صحيح البخاري ٧٧٥).

متى ابتدئ نزول القرآن الكريم؟

«حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ» (الدخان:٩):

يقسم الله سبحانه وتعالى بالقرآن على القرآن فيقول: «وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ» (الدخان:٣):

والكتاب المبين هو القرآن الكريم، فهو بينٌ في نفسه، ومبينٌ للناس ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم وآخرتهم، كما قال تعالى:

«شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ» (البقرة:١٨٥)، وقال تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ» (النحل:٨٩).

«إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ» (الدخان:٣) وهي ليلة القدر، كما قال تعالى: «إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ» (القدر:١)، وهي في شهر رمضان، كما قال تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ» (البقرة:١٨٥)، وهي إحدى ليال الوتر من العشر الأواخر من رمضان، كما في الحديث:

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «التمسوها في العشر الأواخر - يعني ليلة القدر-، فإن ضعف أحدكم أو عجز فلا يغلبن على السبع البواقي». (صحيح البخاري ٢٠١٥).

وعن سالم عن أبيه رضي الله عنه قال: رأى رجل أن ليلة القدر ليلة سبع وعشرين. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أرى رؤياكم في العشر الأواخر، فاطلبوها في الوتر منها». (صحيح مسلم ١١٦٥)، والمراد بتنزيله في تلك الليلة ابتداء تنزيله، فقد نزل مفرقًا على مدار ثلاث وعشرين سنة، وكان أول ما نزل:

«ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» (العلق:٥).

ولو لم يكن من بركات هذه الليلة سوى تنزيل القرآن فيها لكفاها بركةً، لأن الله تعالى وصف هذا الكتاب الذي أنزل فيها بالبركة، فقال تعالى: «كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ» (ص:٢٩).

ومن بركاتها أن الله أفرد لها سورة في هذا الكتاب، سماها سورة القدر، وفيها صرح ربنا سبحانه وتعالى ببركاتها، فقال: «إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ» (القدر:٥).

«إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ» (الدخان:٣):

الإنذار هو الإعلام المصحوب بالتخويف، لما كان من رحمة الله بعباده أن لا يعذبهم حتى ينذرهم، كما قال تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا» (الإسراء:١٥)، فقد أنزل هذا الكتاب «لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا»

(الكهف:٥)، ولم يذكر الله سبحانه التبشير في الدخان لأن الناس في أول الأمر كان أكثرهم مشركين، فكان الإنذار هو المناسب لهم «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» (الدخان:٤) أي: في تلك الليلة المباركة، التي أنزل فيها القرآن الكريم «يُفْرَقُ» (الدخان:٤) أي يقضي ويفصل «كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» (الدخان:٤) أي محكم، أو ذي حكمة، فيأذن الله تعالى للملائكة في النظر في اللوح المحفوظ، ونسخ المقادير التي كتب الله أن تكون في هذا العام، من الآجال والأرزاق، والنكاح والطلاق، والصحة والمرض، والغنى والفقر، والتولية والعزل، والسلم والحرب، والفرح والحزن، والعافية والبلاء، ينسخون كل ذلك من اللوح المحفوظ، ثم ينفذونه في الناس وفق ما قدر الله.

ومن التأويلات الخاطئة تأويل تلك الليلة بأنها ليلة النصف من شعبان، ولذلك حرص الناس على إحياء تلك الليلة، وخصوها بدعاء، سموه دعاء ليلة النصف من شعبان، وفيه: اللهم إن كنت كتبتني عندك في السعداء فثبتني، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فامح اسمي من ديوان الأشقياء، واكتبه في ديوان السعداء. لاعتقادهم أن الليلة التي «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» (الدخان:٤) هي ليلة النصف من شعبان، وهذا خطأ، لأن الله صرح بأن تلك الليلة هي التي أنزل فيها القرآن، وهي ليلة القدر «أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا» (الدخان:٥) نصب على الاختصاص، أي أعني بهذا الأمر أمرًا حاصلًا من عندنا، على مقتضى حكمتنا، وهو بيان لفخامته الإضافية، بعد بيان فخامته الذاتية، ويجوز كونه حالًا من «كُلُّ أَمْرٍ» (الدخان:٤)، لتخصيصه بالوصف، أو من ضميره في «حَكِيمٍ» (الدخان:٤). (إرشاد العقل السليم (٦/٤٧و٤٨)).

«إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» (الدخان:٥) «رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» (النساء:١٦٥)، وهذا من رحمة الله بعباده، ولذلك قال: «رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ» (الإسراء:٢٨) يعني أن إرسال الرسل، وإنزال الكتب من رحمة الله بعباده، لأن الناس قبل الرسل يكونون في ضلال مبين، مشرفين على الهلاك، فإذا جاءتهم رسلهم بالبينات فاتبعوهم فقد اهتدوا بعد ضلالة، ونجوا من النار بعد إشرافهم عليها، قال تعالى: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (آل عمران:١٦٤)، وقال تعالى: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (آل عمران:١٠٣).

«إنه هو السميع» لأقوال عباده، «العليم» بأحوالهم ونياتهم وضمائرهم، وما انطوت عليه قلوبهم، وقد سمع الله منهم الأقوال الباطلة، وعلم من قلوبهم العقائد الفاسدة، فرحمهم، فأرسل إليهم الرسل ليهدوهم سواء السبيل، كما قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» (الأنبياء:١٠٧).

«رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» (الشعراء:٢٤)؛ قرئت «رب» بالكسر، على أنها بدل من «ربك»، وقرئت بالرفع، على أنها بدل من «السميع العليم»، وجملة «إن كنتم موقنين» جملة شرطية، جوابها محذوف، متعلق بما بعدها، وتقدير الكلام: إن كنتم موقنين بأن الله هو رب السموات والأرض وما بينهما فاعلموا أنه «لا إله إلا هو» أي لا معبود بحق غيره، وذلك أنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، منكرين لتوحيد الألوهية، كما قال الله تعالى: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ» (الزخرف:٨٧)، وقال تعالى: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ» (العنكبوت:٦١)، فإذا قيل لهم: لا إله إلا الله، قالوا: أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون.

توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية:

فالله تعالى يلزمهم بتوحيد الألوهية بإقرارهم بتوحيد الربوبية، وهذا كثير في القرآن، كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ» (البقرة:٢٢)، وقال تعالى: «قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ» (يونس:٣٢).

فالخالق الرازق، المعطي المانع، المحيي المميت، هو الذي يجب أن يفرد بالعبادة دون من لا يملك من ذلك شيئًا، ولذلك قال تعالى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَل مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (الروم:٤٠)، وقال تعالى: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ» (النحل:٧٣) وقال تعالى: «أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ» (الأعراف:١٩٢).

ومن خصائص الإله الحق الإحياء والإماتة، ولذلك قال تعالى: «لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ» (الأعراف:١٥٨)، فالإحياء والإماتة من خصائص الإله الحق، ولذلك لما تبرأ إبراهيم عليه السلام من أبيه وقومه: «قَالَ

أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ » (الشعراء:٨١)، ولما حاج النُّمرود قال كما قال الله تعالى: « أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ » (البقرة:٢٥٨).

« رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ » (الشعراء:٢٦) فادعوه مخلصين له الدين.

فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته، بما يوجب العلم التام ويدفع الشك، أخبر أن الكافرين مع هذا البيان « فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ » (الدخان:٩) أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر. (تيسير الكريم الرحمن (٥/٧)).

من علامات الساعة:

ثم قال تعالى: « فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ » (الدخان:١٦):

اختلف السلف في هذا الدخان الذي أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بانتظاره، وأن الناس إذا غشيهم دعوا الله مخلصين له الدين: « رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » (الدخان:١٢)، وأن هذا الدعاء لا يسمع، وهذا التضرع لا ينفع، كما قال تعالى: « فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ » (غافر:٨٥):

فذهب ابن مسعود رضي الله عنه إلى أن المراد بهذا الدخان دخانٌ خيل للناس في سني الجدب والقحط الذي أصابهم بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم عليهم حين استعصوا عليه:

عن مسروق قال: كنا عند عبد الله فقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى من الناس إدبارًا قال: «اللهم سبعٌ كسبع يوسف». فأخذتهم سنة حصت كل شيءٍ حتى أكلوا الجلود والميتة والجيف، وينظر أحدهم إلى السماء فيرى الدخان من الجوع، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمد! إنك تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادع الله لهم. قال الله تعالى: « فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ » (الدخان:١٠) إلى قوله: « إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ » (الدخان:١٦). فالبطشة يوم بدر، وقد مضت الدخان والبطشة واللزام وآية الروم. (صحيح البخاري ٤٧٧٤).

وذهب ابن عباس رضي الله عنه إلى أن الدخان علامة من علامات الساعة الكبرى، لما يظهر بعد.

ومن المفسرين من وافق ابن مسعود، ومنهم من وافق ابن عباس، ومنهم من جمع بين القولين، فقال: الدخان الذي أراده ابن مسعود خيل إليهم، والذي أراده ابن عباس سوف يأتيهم قبل يوم القيامة، ولا تعارض بين القولين.

وذهب شيخ المفسرين ابن جرير الطبري إلى ما ذهب إليه ابن مسعود، وعلق القول على ما قال ابن عباس بصحة الحديث، قال: فإن صح الحديث فإن القول قوله، فإنه لا أحد أعلم بالله من رسول الله. (جامع البيان(٢٥/١١٤)).

قلت: وقد صح الحديث، فقد روى مسلمٌ في صحيحه: عن حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: اطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذاكرون»؟ قالوا نذكر الساعة. قال: «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات». فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم. (صحيح مسلم ٢٩٤٧).

فالراجح أن الدخان علامةٌ من علامات الساعة الكبرى. والدليل على رجحان هذا القول من الآيات نفسها، حيث قال تعالى: « فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ » (الدخان:١٠) أي بين ظاهر واضح، لا خيالاً، والدخان الذي أصابهم في سني الجدب كان خيالاً لا حقيقة.

وقوله تعالى: « يَغْشَى ٱلنَّاسَ » (الدخان:١١) أي كلهم، فيملأ فاه الكافر ومنخره، فيحمر، حتى يكون كالشاة المشوية على الجمر، وأما المؤمن فلا يصيبه منه إلا كهيئة الزكام. فإذا غشيهم قالوا: « هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ » (الدخان:١١)، أو قيل لهم تقريعًا وتأنيبًا وتوبيخًا، كما يقال لهم وهم يساقون إلى النار: « هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » (الطور:١٦).

وللحديث بقية إن شاء الله.

الكلمة الطيبة صدقة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

عَنْ عَدِيُّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، ثُمَّ ذَكَرَ النَّارَ فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فَتَعَوَّذَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ». (صحيح البخاري (٦٠٢٣). وانظر شرحه في الأدب النبوي (ص: ١٢٤).

ذكر النبي صلى الله عليه وسلم النار وسعيرها وشررها، وتمثلها أمامه كأنه يراها رأي العين، «فَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ» أي: أعرض بوجهه عنها مُتَكَرِّهًا لها، كأن لفحها يكاد يصل إليه، فحوَّل عنها وجهه، «فَتَعَوَّذَ مِنْهَا» أي: قال: أعوذ بالله من النار، أي: ألجأ إليه، وأتحصن به من شرها وهولها، ثم ذكرها مرة أخرى فصنع مثل ما صنع في الذكرى الأولى.

إن النارحرُّها شديد، وقعرُها بعيد، وماؤها صديد، قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ (إبراهيم ١٥- ١٧).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟ قَالَ: قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا». (صحيح مسلم ٢٨٤٤).

وَعَنْهُ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ. قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا». (صحيح البخاري ٣٢٦٥).

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين باتقاء النار، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران ١٣٠و١٣١)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ

أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (التحريم ٦).

ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم بأمته رءوفًا رحيمًا، حريصًا على سعادتها، ووقايتها مما يضرها، فقد أرشدها إلى ما تتقي به النار، وتنأى به عن هول الجحيم، فقال صلى الله عليه وسلم: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قَالَ لَهَا: «يَا عَائِشَةُ اسْتَتْرِي مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنَّهَا تَسُدُّ مِنَ الْجَائِعِ مَسَدَّهَا مِنَ الشَّبْعَانِ». (صحيح الترغيب والترهيب:٨٦٥).

وعَنْ أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم في أَضْحَى- أَوْ فِطْر- إِلَى الْمُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ، فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ». فَقُلْنَ وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّه؟! قَالَ: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ». (صحيح البخاري ٣٠٤).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّه في ذكر فوائد الحديث: وَفِيه أَنَّ الصَّدَقَةَ مِنْ دَوَافِعِ الْعَذَابِ لأَنَّهُ أَمَرَهُنَّ بِالصَّدَقَةِ ثُمَّ عَلَّلَ بِأَنَّهُنَّ أَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ لِمَا يَقَعُ مِنْهُنَّ مِنْ كُفْرَانِ النِّعَمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. (فتح الباري لابن حجر (٢/ ٤٦٨)).

والصَّدقَةُ هي ما يُخرِجُهُ الإنسانُ من مالِه على وجهِ القُربَةِ كالزَّكاة، لكنَّ الصَّدقةَ في الأصلِ تُقالُ للمتطوَّعِ به، والزَّكاة للواجب.

وهي في اللُّغة مُشتَقَّةٌ من الصِّدْق لأنَّها تدلُّ على صِدْقِ العبوديَّةِ للهِ تعالى (نضرة النعيم(٦/٢٥١٧)).

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ» (صحيح مسلم ٢٢٣).

والبُرهَانُ هو الشُّعاعُ الذي يلي وجهَ الشَّمس، ومنهُ سُمِّيت الحُجَّةُ القاطعةُ بُرْهَانًا لوضوحِ دلالتِها على ما دلَّت عليه، فكذا الصَّدقةُ بُرهانٌ على صحَّة الإيمان، وسببُ ذلكَ أنَّ المالَ تُحبُّه النُّفوسُ وتبخلُ به، فإذا سمحَتْ بإخراجِه للهِ عزَّ وجلَّ دلَّ ذلكَ على صحَّة الإيمانِ باللهِ ووَعْدِه ووَعيدِه. (جامع العلوم والحكم (١٩١)).

وقد أمر اللهُ النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ الصدقات فقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (التوبة ١٠٣و١٠٤).

وحث سبحانه عليها ورغب فيها فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد ١٨)

وقال تعالى ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب ٣٥).

وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (البقرة ٢٧١).

وقال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة ٢٧٦).

وحث سبحانه وتعالى على المبادرة بالصدقة قبل فوات الأوان فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المنافقون ٩و١٠و١١).

وكذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة ورغب فيها:

عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ أَنَّ أَبَا الْخَيْرِ حَدَّثَهُ أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ رضي الله عنه يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ» (صحيح سنن ابن ماجه ٤٣٨٦). أَوْ قَالَ «يُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ». قَالَ يَزِيدُ وَكَانَ أَبُو الْخَيْرِ لاَ يُخْطِئُهُ يَوْمٌ إِلاَّ تَصَدَّقَ فِيهِ بِشَيْءٍ وَلَوْ كَعْكَةً أَوْ بَصَلَةً أَوْ كَذَا.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّه تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ» وذكر منهم «وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ» (صحيح البخاري ٦٦٠).

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ وَنَحْنُ نَسِيرُ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّه عَلَيْهِ تَعْبُدُ اللَّه وَلاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصُومُ رَمَضَانَ وَتَحُجُّ الْبَيْتَ». ثُمَّ

قَالَ: «أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ». (صحيح سنن الترمذي :٢٦١٦).

ومَعناهُ أنَّ الإنسانَ إذا أذنبَ ذنباً ثم تصدَّق فإنَّ الصَّدقةَ تمحو هذا الذَّنب، وتكفِّر هذه السَّيِّئَة، وتحطُّ هذه الخطيئةَ، إذا كانَتْ فيما بيْنَه وبيْنَ الله، وإذا كانت بَيْنَه وبيْنَ النَّاس فإنَّ ذا الحقِّ من النَّاس يأخذُ حقَّه يومَ القيامة من ثَواب هذه الصَّدقة، وقد قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ (هود ١١٤). وقال صلى الله عليه وسلم: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا» (صحيح الترمذي: ١٩٧٨). وحَسَنةُ الصَّدقةِ من أفضلِ الحسنات.

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ عَنْ أَهْلِهَا حَرَّ الْقُبُورِ، وَإِنَّمَا يَسْتَظِلُّ الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ». (صحيح الترغيب والترهيب:٨٧٣).

وعَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ (التكاثر ١)، قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي! وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ». (صحيح مسلم ٢٩٥٨).

وكان صلى الله عليه وسلم يحث على الصدقة قبل فوات أوانها:

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى، وَلاَ تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا، وَلِفُلاَنٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ». (صحيح البخاري ١٤١٩).

وفي قوله صلى الله عليه وسلم: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» إشارة إلى أن قليل المال- ممن لا يستطيع غيره إذا أعطاه بطيب نفس وإخلاص قلب- كثيرٌ عند الله، فهو سبحانه يربي التمرة الصغيرة بل شقها حتى تكون كالجبال الشامخة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ». (صحيح مسلم ١٠١٤).

فلا تحقرن المعروف وإن قلّ، ولا تستقل الصدقة وإن كانت بشق من تمرة، أو قطعة من رغيف، فربما سدت حاجة من جائع، بل ربما أنقذت نفسا أشرفت على الهلاك، وقد ذمّ الله من عاب جماعة بقلّة ما بذلوا وهو منتهى جهدهم وغاية وسعهم، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة ٧٩).

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نُحَامِلُ، فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ فَقَالُوا مُرَائِي. وَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصَدَّقَ بِصَاعٍ فَقَالُوا إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَاعِ هَذَا. فَنَزَلَتِ الآيَةُ.

وَعَنْ عُرْوَةَ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيْرَ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ فَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا فَأَخَذَتْهَا فَشَقَّتْهَا بَيْنَ ابْنَتَيْهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا شَيْئًا ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَتْ هِيَ وَابْنَتَاهَا، فَدَخَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى تَفِيئَةِ ذَلِكَ فَحَدَّثْتُهُ حَدِيثَهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هَذِهِ الْبَنَاتِ بِشَيْءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ كُنَّ سِتْرًا لَهُ مِنَ النَّارِ». (صحيح البخاري ١٤١٨).

فصدقة المال نافعة، ومن النار واقية، جلّت أو قلّت، ما دام ذلك الجهد.

فإن لم يجد المرء ما يمد به يده للسائل والمحروم فليحرك لسانه وليتكلم بالكلم الطيب، قال تعالى: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ﴾ (البقرة ٢٦٣).

فمن ردّ السائل بالقول الجميل، أو وعده العطاء عند اليسار كان له ذلك صدقة ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ (الإسراء ٢٨).

وحضُّ أهل اليسار على إطعام المسكين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس، كل ذلك صدقات، فإن أعوزك المال فلن يعوزك اللسان، قال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ (النساء ١١٤).

قَالَ ابن بَطَّال رَحِمَهُ اللَّه: طيبُ الْكَلَام من جَلِيل عَمَل الْبر لقَوْله تَعَالَى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون ٩٦)، والدَّفعُ قد يَكُونُ بالْقَوْلِ كَمَا يَكُونُ بالْفعْلِ.

وَوَجْهُ كَوْنِ الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ صَدَقَةً أَنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ يَفْرَحُ بِهِ قَلْبُ الَّذِي يُعْطَاهُ وَيَذْهَبُ مَا فِي قَلْبِهِ، وَكَذَلِكَ

الْكَلامُ الطَّيِّبُ فاشتبها من هذه الْحَيْثِيَّة. (فتح الباري لابن حجر (١٠/ ٤٤٨و٤٤٩)).

وتتأكد الكلمة الطيبة في الدعوة إلى الله والحوار والمناظرة، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ (الإسراء ٥٣).

قال الرازي: «لَمَّا ذَكَرَ الْحُجَّةَ الْيَقِينِيَّةَ فِي إِبْطَالِ الشِّرْكِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٤٢) وَذَكَرَ الْحُجَّةَ الْيَقِينِيَّةَ فِي صِحَّةِ الْمَعَادِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الإسراء: ٥١) قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِعِبَادِي: إِذَا أَرَدْتُمْ إِيرَادَ الْحُجَّةِ عَلَى الْمُخَالِفِينَ فَاذْكُرُوا تِلْكَ الدَّلَائِلَ بِالطَّرِيقِ الْأَحْسَنِ. وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ ذِكْرُ الْحُجَّةِ مَخْلُوطًا بِالشَّتْمِ وَالسَّبِّ، وَنَظِيرُ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥) وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (العنكبوت: ٤٦) وَذَلِكَ لِأَنَّ ذِكْرَ الْحُجَّةِ لَوِ اخْتَلَطَ بِهِ شَيْءٌ مِنَ السَّبِّ وَالشَّتْمِ لَقَابَلُوكُمْ بِمِثْلِهِ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام: ١٠٨) وَيَزْدَادُ الْغَضَبُ وَتَتَكَامَلُ النَّفْرَةُ وَيَمْتَنِعُ حُصُولُ الْمَقْصُودِ. أَمَّا إِذَا وَقَعَ الِاقْتِصَارُ عَلَى ذِكْرِ الْحُجَّةِ بِالطَّرِيقِ الْأَحْسَنِ الْخَالِي عَنِ الشَّتْمِ وَالْإِيذَاءِ أَثَّرَ فِي الْقَلْبِ تَأْثِيرًا شَدِيدًا فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى نَبَّهَ عَلَى وَجْهِ الْمَنْفَعَةِ فِي هَذَا الطَّرِيقِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ جَامِعًا لِلْفَرِيقَيْنِ أَيْ: مَتَى صَارَتِ الْحُجَّةُ مَرَّةً مَمْزُوجَةً بِالْبَذَاءَةِ صَارَتْ سَبَبًا لِثَوَرَانِ الْفِتْنَةِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْعَدَاوَةَ الْحَاصِلَةَ بَيْنَ الشَّيْطَانِ وَبَيْنَ الْإِنْسَانِ عَدَاوَةٌ قَدِيمَةٌ». (التفسير الكبير (٢٠/ ٢٣٠)).

وإذا كان هذا ما أمرنا الله به مع من خالفنا في الدين، أفلا يكون الموافق لنا فيه أولى بأن تكون دعوتنا له ومناظرتنا له بالتي هي أحسن، مهما خالفنا في بعض المذاهب والمسائل والآراء؟! وما أحسن تلك الكلمة الطيبة التي قالها أحد العلماء الربانيين في الوصية للمختلفين بالرفق واللين: رفقا أهل السنة بأهل السنة!! (رسالة صغيرة الحجم كبيرة النفع كتبها سماحة الشيخ عبد المحسن العباد -حفظه الله-).

ويدخل في الكلم الطيب ذكر الله، بل هو أصل الكلم الطيب:

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى» (صحيح مسلم ٧٢٠).

كما يَدْخُلُ فيها السَّلامُ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ، والقراءة لِمَنْ لا يُطِيقُ الْكَلامَ، إِمَّا لآفَةٍ في لِسَانِهِ، أو لِعُجْمَةٍ في لُغَتِهِ، أو عِلَّةٍ في بَصَرِهِ.

فأكثروا -عباد الله- من ذكر الله كما أمركم، واعلموا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى مِنَ الْكَلامِ أَرْبَعًا: سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ، وَلا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ. فَمَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللهِ كَتَبَ اللهُ لَهُ عِشْرِينَ حَسَنَةً، أَوْ حَطَّ عَنْهُ عِشْرِينَ سَيِّئَةً. وَمَنْ قَالَ اللهُ أَكْبَرُ فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ فَمِثْلُ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ كُتِبَتْ لَهُ ثَلاثُونَ حَسَنَةً، وَحُطَّ عَنْهُ ثَلاثُونَ سَيِّئَةً». (صحيح الترغيب والترهيب: ١٥٥٤).

والحمد لله رب العالمين.

عزاء واجب

تتقدم أسرة تحرير مجلة التوحيد والعاملون بالمركز العام لجمعية أنصار السنة المحمدية بخالص العزاء للأستاذ جمال سعد حاتم، رئيس التحرير، في وفاة شقيقته. نسأل الله تبارك وتعالى أن يتغمدها بواسع رحمته، وأن يلهم أهلها الصبر والسلوان، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

تفسير سورة الدخان

الحلقة الثانية

قال تعالى: « رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ » (الدخان: ١٢- ٢٤).

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وبعد:

« رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ »: هَذَا دُعَاؤُهُمْ إِذَا رَأَوُا الْعَذَابَ، وَتِلْكَ عَادَةُ الْمُكَذِّبِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ » (يونس: ٩٦- ٩٧) وَلَنْ يَنْفَعَهُمْ هَذَا الإِيمَانُ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: « فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ » (غافر: ٨٤- ٨٥)، وَلِذَلِكَ قَالَ هُنَا: «أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى» أَيْ كَيْفَ تَنْفَعُهُمُ الذِّكْرَى الآنَ «وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ» بَيِّنُ النِّذَارَةِ، بَيِّنُ الدِّلَالَةِ، «ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ» أَيْ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَعَمَّا جَاءَ بِهِ، وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ، وَيَالَيْتَهُمْ حِينَ أَعْرَضُوا عَنْهُ كَفُّوا عَنْ أَذَاهُ، وَلَكِنَّهُمْ كَذَّبُوهُ وَاتَّهَمُوهُ، «وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ» يَعْنُونَ أَنَّهُ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: مُعَلَّمٌ، جَلَسَ إِلَى مَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الأَوَّلِينَ فَتَعَلَّمَ مِنْهُ، أَوْ مَجْنُونٌ، فَبَرَاهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا، فَقَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ » (النحل: ١٠٣):

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ مَا كَانُوا يَقُولُونَهُ مِنَ الْكَذِبِ وَالافْتِرَاءِ وَالْبُهْتِ، أَنَّ مُحَمَّدًا إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ هَذَا الَّذِي يَتْلُوهُ عَلَيْنَا مِنَ الْقُرْآنِ بَشَرٌ، وَيُشِيرُونَ إِلَى رَجُلٍ أَعْجَمِيٍّ كَانَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، غُلَامٍ لِبَعْضِ بُطُونِ قُرَيْشٍ، وَكَانَ بَيَّاعًا يَبِيعُ عِنْدَ الصَّفَا، وَرُبَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَجْلِسُ إِلَيْهِ وَيُكَلِّمُهُ بَعْضَ الشَّيْءِ، وَذَاكَ كَانَ أَعْجَمِيَّ اللِّسَانِ، لا يَعْرِفُ الْعَرَبِيَّةَ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الشَّيْءَ الْيَسِيرَ بِقَدْرِ مَا يَرُدُّ جَوَابَ الْخِطَابِ فِيمَا لا بُدَّ مِنْهُ، فَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى رَادًّا عَلَيْهِمْ

في افترائهم ذلك: «لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ» (النحل: ١٠٣) أي القرآن، أي فكيف يتعلَّم مَنْ جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامَّة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبيٍّ أرسل، كيف يتعلَّم من رجل أعجميٍّ؟ لا يقول هذا مَنْ له أدنى مسكة من العقل. (تفسير القرآن العظيم (٢/٥٨٦)).

وكذلك برَّأه من الجنون، فقال: «فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ» (الطور: ٢٩)، ثم أقسم على البراءة، فقال: «نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ» (القلم: ١-٧).

وقوله تعالى: «إِنَّا كَاشِفُو ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ»: قال العلماء: يقول سبحانه وتعالى: لو استجبنا لكم، ورفعنا عنكم العذاب، لرجعتم إلى الكفر والتكذيب، ولم تفوا بما عاهدتم الله عليه من الإيمان.

وهذا كقوله تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٧ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ» (الأنعام: ٢٧-٢٨).

وقال بعض المفسرين: «إنكم عائدون» أي راجعون إلى الله تعالى يوم القيامة، «ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى» (النجم: ١١).

«يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون»:

قال ابن مسعود رضي الله عنه: البطشة الكبرى يوم بدر، فقد جمع الله تعالى بين أوليائه المؤمنين وأعدائه الكافرين بعد الهجرة بسبعة عشر شهرًا، على غير ميعاد، فنصر أولياءه على قلتهم وضعفهم، وخذل أعداءه على كثرتهم وقوتهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: ابن مسعود رضي الله عنه يقول: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول يوم القيامة. فعلى قول ابن عباس رضي الله عنه يكون الله تعالى يتوعَّد الكافرين بيوم القيامة، وما ينتظرهم فيه من أهوال عظام، وخطوب جسام، كما قال تعالى: «فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا» (المزمل: ١٧-١٨).

والبطش معناه الأخذ بشدة، قال تعالى: «إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ» (البروج: ١٢)، وقال تعالى: «وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» (هود: ١٠٢).

فقوله تعالى: «يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون» أي من أعداء الله، المكذبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن كل عذاب في الدنيا فهو دون عذاب الآخرة، وكل أهوال الدنيا دون أهوال الآخرة، ولذلك قال تعالى عن يوم القيامة: «فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ» (الفجر: ٢٥-٢٦).

قصة موسى عليه السلام:

«وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (١٧) أَنْ أَدُّوٓا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٨) وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٩) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (٢٢) فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (٢٣) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (٢٤) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ

وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٢) وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُّبِينٌ»:

هَذَا طَرَفٌ مِنْ قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام مَعَ فِرْعَوْنَ، أَرَادَ اللهُ تَعَالَى بِهِ تَسْلِيَةَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَمُوَاسَاتَهُ فِيمَا يَلْقَى مِنْ قَوْمِهِ مِنِ اضْطِهَادٍ، وَيَسْمَعُ مِنْهُمْ مِنْ أَذًى، وَفِيهِ بِشَارَةٌ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ بِأَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ كَمَا كَانَتْ لِمُوسَى وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، وَفِيهِ أَيْضًا تَحْذِيرٌ لِلْكَافِرِينَ الْمُكَذِّبِينَ أَنْ يَأْخُذَهُمُ اللهُ كَمَا أَخَذَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا» (المزمل: ١٥- ١٦)، فَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تَعْصُوهُ، حَتَّى لاَ يَأْخُذَكُمُ اللهُ كَمَا أَخَذَ فِرْعَوْنَ.

«وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ»:

الْفَتْنَةُ مَعْنَاهَا الابْتِلاَءُ وَالاخْتِبَارُ وَالامْتِحَانُ، قَالَ تَعَالَى: «أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ» (العنكبوت: ٢- ٣).

وَمَعْنَى: «وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ» أَي اخْتَبَرْنَاهُمْ وَامْتَحَنَّاهُمْ بِبَعْثَةِ مُوسَى عليه السلام، «وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ»، كَرِيمٌ فِي نَفْسِهِ، كَرِيمٌ عَلَى رَبِّهِ، فَقَالَ لَهُمْ: «أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ» الأَدَاءُ مَعْنَاهُ الدَّفْعُ، قَالَ تَعَالَى: «وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ» (آل عمران: ٧٥) أَيْ يَدْفَعْهُ، وَعِبَادُ اللهِ هُمْ بَنُوا إِسْرَائِيلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» (الشعراء: ١٦- ١٧)، وَقَالَ تَعَالَى: «فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ» (طه: ٤٧)، لأَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ قَدْ بَغَى عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ» (القصص: ٤- ٦)، فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ أَنْ يُنْجِزَ وَعْدَهُ، وَيُنْجِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، أَرْسَلَ مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ، وَكَلَّفَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُ: «أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ»: أَيْ أَمِينٌ عَلَى مَا حُمِّلْتُ مِنْ رِسَالَةِ رَبِّكُمْ إِلَيْكُمْ، فَأَنَا أُبَلِّغُكُمُوهَا بِكُلِّ دِقَّةٍ وَأَمَانَةٍ، مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلاَ نَقْصٍ، «وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ» أَيْ لاَ تَسْتَكْبِرُوا، وَلاَ تَسْتَنْكِفُوا عَنْ عِبَادَةِ اللهِ، «إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» أَيْ بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ، وَدَلاَلَةٍ قَاطِعَةٍ، تَدُلُّكُمْ عَلَى صِدْقِي فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ رَبِّكُمْ، «قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ» (الأعراف: ١٠٦- ١٠٨)، وَلَكِنَّ الْقَوْمَ كَذَّبُوهُ، «وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا» (نوح: ٧)، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾» (غافر: ٢٥- ٢٦)، فَلَمْ يَجِدْ مُوسَى عليه السلام أَمَامَهُ إِلاَّ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِاللهِ مِنْ كَيْدِهِمْ، «وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ» (غافر: ٢٧)، وَقَالَ هُنَا: «إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ» أَي الْتَجَأْتُ إِلَيْهِ، وَاعْتَصَمْتُ بِهِ، وَهُوَ حَافِظُنِي مِنْكُمْ، وَمَانِعُنِي مِنْ كَيْدِكُمْ.

ثُمَّ تَلَطَّفَ مَعَهُمْ فِي الْحِوَارِ، فَقَالَ: «وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ»

وَلاَ تَقْتُلُونِي، وَخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا أَنْتُمْ فَلاَ تَمْنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي، وَلاَ تَمْنَعُوا النَّاسَ مِنَ الإِيمَانِ، وَهَذَا مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» (غافر: ٢٨).

ولَبِثَ فيهِمْ مَا شَاءَ اللهُ، وَأَظْهَرَ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الآيَاتِ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى الإِيمَانِ، وَلَكِنَّ الأَمْرَ كَمَا قَالَ الرَّحْمَنُ: «إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ» (يونس: ٩٦- ٩٧)، قَالَ تَعَالَى: «فَلَمَّا جَآءَهُمْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (الزخرف: ٤٨)، فَلَمْ يَرْجِعُوا، بَلْ صَرَّحُوا بِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، فَقَالُوا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: «وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» (الأعراف: ١٣٢)، فَلَمْ يَجِدْ مُوسَى عليه السلام بُدًّا مِنَ الدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ، «فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ» مُصِرُّونَ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، فَانْتَقَمَ مِنْهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (يونس: ٨٨- ٨٩).

فَلَمَّا جَاءَ أَجَلُهُمْ أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى: «فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ» أَيِ اخْرُجْ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ بِاللَّيْلِ، حَتَّى لاَ يَشْعُرَ أَحَدٌ بِخُرُوجِكُمْ، وَاعْلَمْ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَكُمْ فَيَخْرُجُونَ فِي طَلَبِكُمْ، فَإِذَا جَاوَزْتَ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَاتْرُكِ الْبَحْرَ كَمَا سَلَكْتَهُ، طَرِيقًا يَبَسًا، حَتَّى يَجْتَرِئَ فِرْعَوْنُ عَلَى دُخُولِهِ، فَيَكُونَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ» أَيْ سَاكِنًا عَلَى حَالَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، بَعْدَ أَنْ ضَرَبْتَهُ وَدَخَلْتَهُ، مَعْنَاهُ لاَ تَأْمُرْهُ أَنْ يَرْجِعَ، اتْرُكْهُ حَتَّى يَدْخُلَهُ آلُ فِرْعَوْنَ. وَأَصْلُ الرَّهْوِ: السُّكُونُ.

قَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللهُ-: لَمَّا قَطَعَ مُوسَى الْبَحْرَ وَخَرَجَ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَنَظَرَ إِلَى الْبَحْرِ فَإِذَا هُوَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَلْتَئِمْ، فَعَطَفَ لِيَضْرِبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ لِيَلْتَئِمَ، وَخَافَ أَنْ يَتْبَعَهُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فَقِيلَ لَهُ: اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا كَمَا هُوَ، إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ، أَخْبَرَ اللهُ مُوسَى أَنَّهُ يُغْرِقُهُمْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ فِي تَرْكِهِ الْبَحْرَ كَمَا جَاوَزَهُ. (معالم التنزيل: ٥/١١٥).

وَكَانَ مَا كَانَ، مِمَّا قَصَّهُ اللهُ تَعَالَى فِي أَكْثَرَ مِنْ سُورَةٍ، قَالَ تَعَالَى: «فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ» (الشعراء: ٦٠- ٦٨)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ» (يونس: ٩٠- ٩٢).

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الدخان

الحلقة الثالثة

قال تعالى: « كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ » (الدخان: ٢٥- ٤٢).

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وبعد:

يَقُول تَعَالَى فِي بَيَان مَا فَقَدُوهُ مِنْ نِعَم اللَّه: « كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ »؛ وَنَحْنُ أَبْنَاءُ مِصْرَ نَرَى مَا تَرَكَ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ، مِنْ عُيُونٍ وَآبَارٍ وَأَنْهَارٍ، وَحَدَائِقَ وَبَسَاتِينَ، وَزُرُوعٍ مُخْتَلِفَةِ الأَصْنَافِ وَالأَلْوَانِ، وَقُصُورٍ مُشَيَّدَةٍ، فَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ خَسَارَةٍ، وَمَا أَعْظَمَ حَسْرَتَهُمْ عَلَى مَا تَرَكُوا. قَالَ تَعَالَى: «كَذَٰلِكَ» أَيِ الأَمْرُ الَّذِي وَصَفْنَاهُ فِيمَا تَرَكُوا هُوَ كَذَلِكَ، أَيْ كَمَا ذَكَرْنَا. «وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ» هُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ، كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، قَالَ تَعَالَى: « فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » (الشعراء: ٥٧- ٥٩).

« فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ» لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا عَلَى الأَرْضِ عَمَلاً صَالِحًا فَتَفْقِدَهُ بِمَوْتِهِمْ، وَلَمْ يَصْعَدْ إِلَى السَّمَاءِ لَهُمْ عَمَلٌ صَالِحٌ فَتَفْقِدَهُ بِمَوْتِهِمْ، وَإِنَّمَا تَبْكِيَانِ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ -رَحِمَهُ اللَّه- قَالَ: أَتَى ابْنَ عَبَّاسٍ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ! أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ» فَهَلْ تَبْكِي السَّمَاءُ وَالأَرْضُ عَلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: نَعَمْ! إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلاَئِقِ إِلاَّ لَهُ بَابٌ فِي السَّمَاءِ مِنْهُ يَنْزِلُ رِزْقُهُ، وَفِيهِ يَصْعَدُ عَمَلُهُ، فَإِذَا مَاتَ الْمُؤْمِنُ فَأَغْلَقَ بَابَهُ مِنَ السَّمَاءِ الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ فِيهِ عَمَلُهُ، وَيَنْزِلُ مِنْهُ رِزْقُهُ، بَكَى عَلَيْهِ، وَإِذَا فَقَدَهُ مُصَلاَّهُ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي كَانَ يُصَلِّي فِيهَا، وَيَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا بَكَتْ عَلَيْهِ، وَإِنَّ قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي الأَرْضِ آثَارٌ صَالِحَةٌ، وَلَمْ يَكُنْ يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ مِنْهُمْ خَيْرٌ، فَلَمْ تَبْكِ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ. (جامع البيان (١٢٤/٢٥و١٢٥)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: « وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ» أَيْ وَمَا كَانُوا

مُؤَخَّرِينَ بَعْدَ إِذْ جَاءَهُمُ الْعَذَابُ الْمُهِينُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ» (نوح: ٤)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» (الأعراف: ٣٤).

«وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ» وَأَيُّ إِهَانَةٍ أَعْظَمُ مِنَ الإِهَانَةِ الَّتِي أَذَاقَهَا فِرْعَوْنُ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟! لَقَدْ قَتَلَ ذُكُورَهُمْ، وَاسْتَعْمَلَ شُيُوخَهُمْ وَإِنَاثَهُمْ فِي الأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ الَّتِي يَعْجِزُ عَنْهَا قَوْمُهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مِن فِرْعَوْنَ» بَدَلٌ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ، كَأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ الْعَذَابُ، وَذَلِكَ مُبَالَغَةٌ فِي تَقْبِيحِ فِعْلِهِ- لَعَنَهُ اللَّهُ- ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي الْكَلَامِ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: مِنْ عَذَابِ فِرْعَوْنَ. «إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ»: يَعْنِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْعَالِينَ، الْمُسْتَكْبِرِينَ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ، وَاسْتَكْبَرَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَكَانَ مِنَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ تَجَاوَزُوا الْحُدُودَ الَّتِي رُسِمَتْ لَهُمْ وَتَعَدُّوهَا، «وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (البقرة: ٢٢٩).

«وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ»:

لَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا خَيْرَ النَّاسِ، فَاصْطَفَاهُمْ وَاجْتَبَاهُمْ، وَفَضَّلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» (الجاثية: ١٦)، فَلَمَّا غَيَّرُوا وَبَدَّلُوا ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَسَلَبَهُمُ اللَّهُ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فِي بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَبَعَثَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، وَجَعَلَ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (الجاثية: ١٦- ١٨)، وَقَالَ تَعَالَى: «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا» (فاطر: ٣٢)، وَقَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» (آل عمران: ١١٠).

عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: سَمِعْتُ نَبِيَّ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «أَلَا إِنَّكُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عز وجل». (صحيح سنن الترمذي: ٣٠٠١).

«وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ»:

قَالَ قَتَادَةُ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: نِعْمَةٌ بَيِّنَةٌ مِنْ فَلْقِ الْبَحْرِ، وَتَظْلِيلِ الْغَمَامِ، وَإِنْزَالِ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، وَالنِّعَمِ الَّتِي أَنْعَمَهَا عَلَيْهِمْ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: ابْتِلَاهُمْ بِالرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ، وَقَرَأَ: «وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً» (الأنبياء: ٣٥). (معالم التنزيل (٥/١١٦)).

دلائل البعث وأهوال القيامة:

«إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»:

«إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ» هَكَذَا يُشِيرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُسَمِّيهِمْ، تَحْقِيرًا لَهُمْ، وَحَطًّا مِنْ شَأْنِهِمْ، لأَنَّهُمْ بِقَوْلِهِمْ هَذَا كَفَرُوا بِاللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» (الرعد: ٥)، وَالْكَافِرُونَ شَرُّ الْبَرِيَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: ٦)، بَلْ هُمْ شَرُّ الدَّوَابِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنفال: ٥٥)، وَإِذْ هُمْ كَذَلِكَ، فَلاَ يُقِيمُ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ وَزْنًا، وَلِذَلِكَ أَعْرَضَ عَنْهُمْ، وَأَشَارَ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يُسَمِّهِمْ.

«إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ (٣٤) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ» أَيْ بِمَبْعُوثِينَ بَعْدَ الْمَوْتِ كَمَا تَقُولُ يَا مُحَمَّدُ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ نُصَدِّقَكَ فِيمَا تَدَّعِيهِ مِنَ الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ: «فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»، فَإِنْ أَحْيَيْتَهُمْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ.

قَالَ تَعَالَى: «أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ»:

تُبَّعٌ مِنْ مُلُوكِ الْيَمَنِ، سُمِّيَ تُبَّعًا لِكَثْرَةِ أَتْبَاعِهِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُسَمَّى تُبَّعًا لأَنَّهُ يَتْبَعُ صَاحِبَهُ.

لَكِنَّ أَهْلَ السِّيَرِ وَالتَّارِيخِ يَذْكُرُونَ عَنْ تُبَّعٍ هَذَا أَنَّهُ كَانَ رَجُلاً صَالِحًا، عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ سَمِعَ مِنْ أَحْبَارِ يَهُودَ عَنْ قُرْبِ بَعْثَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَأَنَّهُ سَيُهَاجِرُ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَبَنَى دَارًا فِي الْمَدِينَةِ، وَتَمَنَّى أَنْ يَخْرُجَ النَّبِيُّ فِي زَمَانِهِ لِيَكُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِ.

وَلَكِنَّ قَوْمَ تُبَّعٍ كَانُوا كَفَرَةً فَجَرَةً، وَلِذَلِكَ ذَمَّ اللهُ قَوْمَهُ وَلَمْ يَذْمُمْهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَهْلَكَ قَوْمَهُ، وَلَمْ يُخْبِرْ أَنَّهُ أَهْلَكَ تُبَّعًا نَفْسَهُ. وَكَانَ قَوْمُ تُبَّعٍ أَشَدَّ قُوَّةً مِنْ قُرَيْشٍ، وَأَكْثَرَ جَمْعًا، فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِقُرَيْشٍ، وَإِشَارَةٌ إِلَى قُدْرَةِ اللهِ عَلَيْهِمْ وَعَلَى أَخْذِهِمْ، كَمَا أَخَذَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، قَوْمَ عَادٍ وَثَمُودَ، وَقَوْمَ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمَ لُوطٍ، وَأَصْحَابَ مَدْيَنَ، وَلِذَلِكَ لَمَّا قَصَّ اللهُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الْهَالِكِينَ مِنَ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ، تَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ بِهَذَا السُّؤَالِ: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ (٤٥) بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ (القمر: ٤٣- ٤٦).

«وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ»: فَنَفَى اللهُ ذَلِكَ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ (ص: ٢٧)، أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَقَدْ قَالَ اللهُ عَنْهُمْ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (آل عمران: ١٩٠- ١٩١).

فَإِذَا كَانَ لاَ يَلِيقُ بِوَاحِدٍ مِنْ بَنِي آدَمَ أَنْ يَبْنِيَ دَارًا كَبِيرَةً، وَيُزَيِّنَهَا وَيُجَمِّلَهَا، ثُمَّ يَهْدِمَهَا قَبْلَ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِاللهِ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا ثُمَّ يُزِيلُهُمَا بِلاَ مَصْلَحَةٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي الإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ (٧) أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ (التين: ٧- ٨)، كَيْفَ يَقُولُونَ لاَ بَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ؟! «أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ» بَلَى! فَمِنْ حِكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَبْعَثَهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ (النجم: ٣١)، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة: ٨).

ثُمَّ صَرَّحَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ بِمَا خَلَقَ لَهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَقَالَ: «مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ» وَمِنْ أَجْلِ الْحَقِّ. وَالْحَقُّ الَّذِي خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ مِنْ أَجْلِهِ هُوَ التَّوْحِيدُ، الَّذِي هُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٦- ٥٨).

«وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ» فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ (يونس: ٣٩).

«إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ»:

يَوْمُ الْفَصْلِ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ

بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (السجدة: ٢٥)، وَقَدْ عَظَّمَ اللهُ شَأْنَ ذَلِكَ الْيَوْمِ فَقَالَ: «وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ» (المرسلات: ١١- ١٦)، وَقَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ»:

الْمَوْلَى هُوَ الأَخُ وَابْنُ الأَخِ، وَالْعَمُّ وَابْنُ الْعَمِّ، وَنَحْوُهُمْ مِنَ الأَقَارِبِ، قَالَ تَعَالَى: «وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ» (النساء: ٣٣)، وَالْمَعْنَى أَنَّ الأَقَارِبَ لَا يَنْفَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ» (المؤمنون: ١٠١)، وقال تعالى: «فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ» (عبس: ٣٣- ٣٧)، وَقَالَ تَعَالَى: «لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» (الممتحنة: ٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» أَيْ وَلَا هُمْ يُمْنَعُونَ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَبُنِيَ الْفِعْلُ «يُنصَرُونَ» لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، لِيَشْمَلَ كُلَّ نَاصِرٍ مِنْ دُونِ اللهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ» (الطارق: ٩- ١٠).

ثُمَّ اسْتَثْنَى رَبُّنَا سُبْحَانَهُ، فَقَالَ: «إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ» أَيْ: فَإِنَّهُ يُغْنِي بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَيَنْفَعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَشْفَعُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ. وَهَذِهِ الآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ» (الزخرف: ٦٧- ٦٨).

وَفِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «يُؤْتَى بِالْجِسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ». قُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْجِسْرُ؟ قَالَ: «مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ، لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ، الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا، فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الْحَقِّ، قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ، وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا! إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا. فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ. وَيُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا، ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ. فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا». (صحيح البخاري ٧٤٣٩).

وَمِنْ هُنَا قِيلَ: اسْتَكْثِرُوا مِنَ الإِخْوَانِ فَإِنَّ لِكُلِّ مُؤْمِنٍ شَفَاعَةً.

وَقَالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رحمه الله:

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ
لَعَلَّى أَنْ أَنَالَ بِهِمْ شَفَاعَةً

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» أَيْ هُوَ سُبْحَانَهُ الْعَزِيزُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ وَلَا يُقْهَرُ، «وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ» (الأنعام: ١٨)، وَهُوَ الرَّحِيمُ بِعِبَادِهِ مَعَ كَمَالِ عِزَّتِهِ وَكِبْرِيَائِهِ.

وَفِي الْجَمْعِ بَيْنَ الاسْمَيْنِ إِشَارَةٌ إِلَى وُجُوبِ تَقْوَاهُ لِعِزَّتِهِ، وَالطَّمَعِ فِي عَفْوِهِ لِرَحْمَتِهِ. وَمَا أَكْثَرَ مِثْلَ هَذَا فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الدخان

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: «إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾»

(الدخان: ٤٣- ٥٩).

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وبعد:

عذاب النار:

«إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ»:

شَجَرَةُ الزَّقُومِ هِيَ الشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ

الْكَرِيم، الَّتِي قَالَ اللهُ فِيهَا: « إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ » (الصافات: ٦٥)، يَأْكُلُ مِنْهَا الأَثِيمُ، الَّذِي ارْتَكَبَ الإِثْمَ، بِتَرْكِهِ الْوَاجِبَ، وَانْتِهَاكِهِ الْمُحَرَّمَ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْكَافِرُونَ، الْمُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ » (الواقعة: ٤٥- ٥٦).

ثُمَّ يَصِفُ اللهُ تَعَالَى مَا يَفْعَلُ الزَّقُّومُ فِي الْبُطُونِ، فَيَقُولُ تَعَالَى: «كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ» وَالْمَعْنَى أَنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِذَا طَعِمَهَا الْكَافِرُ صَارَتْ فِي جَوْفِهِ تَفْعَلُ كَمَا يَفْعَلُ الْمُهْلُ السَّخِنُ مِنَ الإِحْرَاقِ وَالْفَسَادِ.

ثُمَّ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى لِزَبَانِيَةِ النَّارِ: «خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ» أَيْ خُذُوهُ فَادْفَعُوهُ دَفْعًا قَوِيًّا، وَسُوقُوهُ سَوْقًا شَدِيدًا، إِلَى أَصْلِ الْجَحِيمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا » (الطور: ١٣). «ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ» وَهُوَ الْمَاءُ الْمَغْلِيُّ الَّذِي اشْتَدَّتْ دَرَجَةُ غَلَيَانِهِ. وَقَدْ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى مَا يَفْعَلُهُ الْحَمِيمُ بِهِمْ، فَقَالَ تَعَالَى: «يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ » (الحج: ١٩- ٢٠).

ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخًا وَتَأْنِيبًا، وَسُخْرِيَّةً وَاسْتِهْزَاءً: «ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ»، يَعْنِي إِنَّ هَذَا الْعَذَابَ الَّذِي ذُقْتُمُوهُ هُوَ الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَتَسْتَبْعِدُونَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » (الطور: ١٣- ١٦)، وَقَالَ تَعَالَى: « وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ » (السجدة: ٢٠)، وَقَالَ تَعَالَى: « فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ » (سبأ: ٤٢).

نعيم الجنة:

وَعَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ التَّرْهِيبِ وَالتَّرْغِيبِ، لَمَّا ذَكَرَ حَالَ الأَشْقِيَاءِ أَهْلِ النَّارِ أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ حَالِ السُّعَدَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٥٦)

فَضْلاً مِن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

الْمُتَّقُونَ هُمْ أَصْحَابُ الْعَقِيدَةِ الصَّالِحَةِ، السَّلِيمَةِ مِنْ شَوَائِبِ الشِّرْكِ، وَأَصْحَابُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، السَّلِيمِ مِنْ شَوَائِبِ الْبِدْعَةِ، قَالَ تَعَالَى: «لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ» وَهَذِهِ هِيَ الْعَقِيدَةُ، «وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ» وَهَذِهِ هِيَ الأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» (البقرة: ١٧٧).

«إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ» يَأْمَنُونَ فِيهِ مِنْ كُلِّ مَا يَخَافُونَ وَيَحْذَرُونَ، يَأْمَنُونَ مِنَ الْمَوْتِ، وَيَأْمَنُونَ مِنَ النَّصَبِ وَالتَّعَبِ، وَيَأْمَنُونَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، فَهُمْ فِي أَمَانٍ تَامٍّ، وَأَمْنٍ كَامِلٍ. «فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ» هَذَا بَدَلٌ مِنَ الْمَقَامِ الأَمِينِ، فَهُمْ فِي جَنَّاتٍ وَحَدَائِقَ وَبَسَاتِينَ، فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَعُيُونٍ وَأَنْهَارٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ» (محمد: ١٥).

وَلَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ طَعَامَهُمْ وَشَرَابَهُمْ ذَكَرَ ثِيَابَهُمْ، فَقَالَ: «يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ»: السُّنْدُسُ هُوَ مَا رَقَّ مِنَ الْحَرِيرِ، وَالإِسْتَبْرَقُ مَا غَلُظَ مِنْهُ. وَهُمْ فِيهَا «مُتَقَابِلِينَ» غَيْرَ مُتَدَابِرِينَ، وَذَلِكَ لِكَمَالِ الْمَحَبَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ» (الحجر: ٤٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «كَذَلِكَ» أَيِ الأَمْرُ كَمَا وَصَفْنَا، «وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ» أَيْ وَكَمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ بِمَا ذَكَرْنَا كَذَلِكَ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ بِزَوْجَاتٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ. قَالُوا: سُمِّينَ حُورًا لأَنَّ الْعَيْنَ تَحَارُ فِي وَصْفِ حُسْنِهِنَّ، فَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَصِفَ جَمَالَهُنَّ وَحُسْنَهُنَّ. كَيْفَ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ((لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الأَرْضِ، لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا - يَعْنِي الْخِمَارَ - خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)). (صحيح البخاري ٦٥٦٨)

وَيَقُولُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي وَصْفِهِنَّ:

تَفَكَّهُ مِنْهَا الْعَيْنُ عِنْدَ اجْتِلاَئِهَا
فَوَاكِهُ شَتَّى طَلْعُهَا لَيْسَ يُعْدَمُ
عَنَاقِيدُ مِنْ كَرْمٍ وَتُفَاحُ جَنَّةٍ
وَرُمَّانُ أَغْصَانٍ بِهِ الْقَلْبُ مُغْرَمُ
وَلِلْوَرْدِ مَا قَدْ أَلْبَسَتْهُ خُدُودُهَا
وَلِلْخَمْرِ مَا قَدْ ضَمَّهُ الرِّيقُ وَالْفَمُ
تَقَسَّمَ مِنْهَا الْحُسْنَ فِي جَمْعِ وَاحِدٍ
فَيَا عَجَبًا مَنْ وَاحِدٍ يَتَقَسَّمُ
لَهَا فَرِقٌ شَتَّى مِنَ الْحُسْنِ أَجْمَعَتْ
بِجُمْلَتِهَا إِنَّ السُّلُوَّ مُحَرَّمُ
تُذَكِّرُ بِالرَّحْمَنِ مَنْ هُوَ نَاظِرٌ
فَيَنْطِقُ بِالتَّسْبِيحِ لاَ يَتَلَعْثَمُ
إِذَا قَابَلَتْ جَيْشَ الْهُمُومِ بِوَجْهِهَا
تَوَلَّى عَلَى أَعْقَابِهِ الْجَيْشُ يُهْزَمُ

فيا خاطب الحسناء إن كنت راغبا
فهذا زمان المهر فهو المقدم

(حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ص: ١١)

«يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ» أي يطلبون من خدمهم أن يأتوهم بالفاكهة، فيأتوهم بكل فاكهة، «كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا» (البقرة: ٢٥).

ولَمَّا كان ذكرُ الموت والخوف منه يُعكِّرُ الصفوَ، ويُنغِصُ العيشَ، آمَنَهُمُ اللهُ من الموت، فقال تعالى: «لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ» التي ذاقوها في دار الدُّنيا، كما في الحديث:

عن أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((يُؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فيُنادي مُنادٍ: يا أهل الجنة! فيشرئبُّون ويَنظُرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم هذا الموت، وكلُّهم قد رآه، ثم يُنادي: يا أهل النار، فيشرئبُّون ويَنظُرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم هذا الموت، وكلُّهم قد رآه، فيُذبح، ثم يقول: يا أهل الجنة! خُلودٌ فلا موت، ويا أهل النار! خُلودٌ فلا موت. ثم قرأ: «وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ» وهؤلاء في غفلة أهل الدُّنيا، «وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ». (صحيح البخاري ٤٧٣٠).

ولَمَّا ذكرَ ما أنعمَ عليهم به من نعيم الجنة ذكرَ ما أنعمَ عليهم به من النَّجاة من النار، فقال تعالى: «وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ»، فالوقايةُ من النار نعمةٌ، ودخولُ الجنة نعمةٌ أخرى، «وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (النساء: ١٣)، كما قال تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ» (آل عمران: ١٨٥).

وقولُه تعالى: «فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ» يعني أنَّ ما أنعمَ اللهُ به عليهم فضلٌ، تفضَّلَ به عليهم دونَ استحقاقٍ له، كما قال صلى الله عليه وسلم: ((سدِّدوا وقارِبوا، وأبشِروا، فإنَّه لا يُدخِلُ أحدًا الجنةَ عملُه)). قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللهِ؟! قال: ((ولا أنا! إلا أن يتغمَّدني اللهُ بمغفرةٍ ورحمةٍ)). (صحيح مسلم ٢٨١٦).

ثمَّ يقولُ اللهُ تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم: «فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» أي إنَّما يسَّرنا ذلك القُرآنَ الكريمَ بلسانك، أي باللُّغة العربيَّة، لُغتك ولُغة قومك، لعلَّهم يتذكَّرون ما ينفعُهم فيأتونه، وما يضرُّهم فيجتنبونه.

«فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ» أي فانتظرْ يا نبيَّنا حتَّى يأتيَ وعدُ اللهِ لك بالنَّصر والتَّمكين، ولْينتظروا هُم وعدَ اللهِ لهُم بالهزيمة والخذلان.

كما قال تعالى: «فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ ۖ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ» (يونس: ١٠٢-١٠٣).

وبهذا ينتهي تفسير سورة الدخان، والى لقاء جديد مع سورة جديدة،

والحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

الحلقة الأولى

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: «حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾» (الجاثية: ١- ٥).

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

بين يدي السورة:

سُورَةُ الْجَاثِيَة سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، شَأْنُهَا شَأْنُ السُّوَر المَكِّيَّة في الاهْتِمَام بِتَرْسِيخ العَقِيدَة، وَبَيَان أُصُول الدِّين وَأَرْكَان الإِيمَان.

وَقَدْ رَكَّزَتْ عَلَى الأُصُول الثَّلَاثَة: التَّوْحِيدُ، وَالنُّبُوَّة، وَالْبَعْثُ بَعْدَ الْمَوْت.

وَالْمِحْوَرُ الأَسَاسُ الَّذِي تَدُورُ عَلَيْه هُوَ دَلَائِلُ التَّوْحِيد في الآيَات الْكَوْنِيَّة وَالإِنْسَانِيَّة. وَسُمِّيَتْ الْجَاثِيَة لِقَوْلِ اللَّه تَعَالَى فِيهَا: «وَتَرَى كُلَّ أُمَّة جَاثِيَة»، وَسُمِّيَتْ سُورَةَ الشَّرِيعَة لِقَوْلِ اللَّه تَعَالَى فِيهَا: «ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَة مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ»، وَسُمِّيَتْ سُورَةَ الدَّهْر لِقَوْلِ اللَّه تَعَالَى فِيهَا: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْم إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ».

القرآن كلام الله:

«تَنْزِيلُ الْكِتَاب مِنَ اللَّه الْعَزِيز الْحَكِيم»:

«تَنْزِيل» مَرْفُوعٌ عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ لِمُبْتَدَأ مَحْذُوف، تَقْدِيرُهُ: هَذَا.

وَقِيلَ: «تَنْزِيلُ الْكِتَاب» مُبْتَدَأٌ، وَخَبَرُهُ «مِنَ اللَّه». (الجامع لأحكام القرآن (١٦/١٥٦))، و«الْكِتَاب» الْمُرَادُ بِهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ.

«مِنَ اللَّه»، فَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ كَلَامُ اللَّه، أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِه وَمُصْطَفَاهُ مُحَمَّد صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّم، وَلَمْ يَتَقَوَّلْهُ مُحَمَّدٌ مِنْ نَفْسه، كَمَا زَعَمَ الْمُشْرِكُونَ، قَالَ تَعَالَى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ

وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا» (الفرقان: ٤- ٦).

وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (يونس: ٣٧- ٣٨).

وَقَالَ تَعَالَى: «الم (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» (السجدة: ١- ٣).

وَأَقْسَمَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (الواقعة: ٧٥- ٨٠).

وَقَالَ تَعَالَى: «فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ» (الحاقة: ٣٨- ٤٧).

فَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، سَمِعَهُ جِبْرِيلُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَبَلَّغَهُ سَيِّدَ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم، فَقَرَأَهُ صلى الله عليه وسلم عَلَى أَصْحَابِهِ، وَقَرَأَهُ أَصْحَابُهُ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَهَكَذَا إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَإِلَى أَنْ يَعُودَ الْقُرْآنُ إِلَى مَنْ أَنْزَلَهُ قُبَيْلَ قِيَامِ الْقِيَامَةِ.

ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ بِمَا يَشْهَدُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُهُ فَقَالَ: «مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»، فَكَوْنُهُ عَزِيزًا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ قَادِرًا عَلَى كُلِّ الْمُمْكِنَاتِ، وَكَوْنُهُ حَكِيمًا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ، غَنِيًّا عَنْ كُلِّ الْحَاجَاتِ، وَيَحْصُلُ لَنَا مِنْ مَجْمُوعِ كَوْنِهِ تَعَالَى عَزِيزًا حَكِيمًا كَوْنُهُ قَادِرًا عَلَى جَمِيعِ الْمُمْكِنَاتِ، عَالِمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ، غَنِيًّا عَنْ كُلِّ الْحَاجَاتِ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ امْتَنَعَ مِنْهُ صُدُورُ الْعَبَثِ وَالْبَاطِلِ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ ظُهُورُ الْمُعْجِزِ دَلِيلًا عَلَى الصِّدْقِ، فَهَذِهِ فَائِدَةُ وَصْفِ اللَّهِ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ بِكَوْنِهِ عَزِيزًا حَكِيمًا. (التفسير الكبير (٢٥٨/٢٧) بتصرف).

دلائل التوحيد العقلية:

«إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»:

ذَكَرَ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ -مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ- مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَهَذَا السِّيَاقُ أَشْبَهُ مَا يَكُونُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» (الذاريات: ٢٠- ٢١).

«إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ» نَفْسِهَا، وَارْتِفَاعِهَا، «وَالْأَرْضِ» نَفْسِهَا، وَوَضْعِهَا. وَقِيلَ فِي الْكَلَامِ مَحْذُوفٌ صُرِّحَ بِهِ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ فِي مَوَاضِعَ، وَهُوَ «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

فَالسَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ بِذَاتِهِمَا دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِ خَالِقِهِمَا وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَفِي خَلْقِ السَّمَاءِ عَلَى هَذَا الْجَمَالِ وَالْبَهَاءِ، وَهَذِهِ الْقُوَّةِ وَهَذَا الْإِحْكَامِ، وَفِي خَلْقِ الْأَرْضِ عَلَى هَذِهِ السَّعَةِ وَعَلَى هَذِهِ الْأَلْوَانِ: السَّبْخَةِ، وَالصَّلْبَةِ، وَالرَّمْلِيَّةِ، وَالطِّينِيَّةِ، «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ»: خَصَّهُمْ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ انْتَفَعُوا بِالْآيَاتِ الَّتِي رَأَوْهَا، وَاسْتَدَلُّوا بِهَا عَلَى وَحْدَانِيَّةِ خَالِقِهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (آل عمران: ١٩١).

أَمَّا غَيْرُهُمْ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ: «وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» (يوسف: ١٠٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَفِي خَلْقِكُمْ» أَيْ: «وَفِي خَلْقِكُمْ» أَنْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ.

فلوْ تأمَّلَ الإنسانُ في أيِّ عُضوٍ منْ أعضائه، وأيِّ جارحةٍ منْ جوارحه، لرأى فيهَا منَ الآياتِ الكثيرَ والكثيرَ ممَّا يشهدُ للهِ بالوحدانيَّة، «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (المؤمنون: ١٤)، «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ» (السجدة: ٧- ٩).

وقولُه تعالى: «وما يبثُّ من دابَّة» تدبُّ على وجه الأرض، ابتداءً بالنَّملة، وانتهاءً بالفيل، ففي هذه الدَّوابِّ دلالةٌ على عظمةِ الخالقِ ووحدانيَّته، فاللهُ وحدهُ هو الَّذي خلقَها على اختلافِ خلقِها، وهو الَّذي يرزقُها أينَما كانتْ، كما قالَ تعالى: «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (النور: ٤٥)، وقالَ تعالى: «وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» (هود: ٦).

ووجهُ دلالتِها على وجودِ الإلهِ القادرِ المختارِ أنَّ الأجسامَ متساويةٌ، فاختصاصُ كلِّ واحدٍ منَ الأعضاءِ بكونِه المعيَّن، وصفتِه المعيَّنة، وشكلِه المعيَّن، لا بدَّ وأنْ يكونَ بتخصيصِ القادرِ المختارِ، ويدخلُ في هذا البابِ انتقالُه منْ سنٍّ إلى سنٍّ آخرَ، ومنْ حالٍ إلى حالٍ آخرَ. (التفسير الكبير (٢٧/٢٥٩و٢٦٠)).

«وفي خلقِكم وما يبثُّ من دابَّةٍ آياتٌ لقومٍ يوقنونَ» يعني: حججًا وأدلَّةً لقومٍ يوقنونَ بحقائقِ الأشياءِ، فيتقرَّرونَ بها، ويعلمونَ صحَّتها. (جامع البيان (٢٥/١٤٠)).

«واختلافِ الليلِ والنَّهارِ» في الطُّولِ والقِصرِ، والنُّورِ والظَّلامِ، والحرِّ والبردِ، «وما أنزلَ اللهُ منَ السَّماءِ منْ رزقٍ» يعني المطرَ لأنَّه سببُ الرِّزقِ، ولذلكَ قالَ: «فأحيا بهِ الأرضَ بعدَ موتِها» وأخرجَ بهِ نباتَ كلِّ شيءٍ، كما قالَ تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (النحل: ١١)، وقالَ تعالى: «فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ» (عبس: ٢٤- ٣٢)، وقالَ تعالى: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ» (ق: ٩- ١١).

وقولُه تعالى: «وتصريفِ الرِّياحِ»: أي جنوبًا وشمالًا، ودبورًا وصبًا، برِّيَّةً وبحريَّةً، ليليَّةً ونهاريَّةً، ومنها ما هو للمطرِ، ومنها ما هو للقاحٍ، ومنها ما هو غذاءٌ للأرواحِ، ومنها ما هو عقيمٌ لا ينتجُ، في ذلكَ المذكورِ كلِّه «لآياتٍ لقومٍ يعقلونَ».

وقالَ سبحانَه وتعالى أولًا: لآياتٍ للمؤمنينَ، ثمَّ يوقنونَ، ثمَّ يعقلونَ، وهو ترقٍّ منْ حالٍ شريفٍ إلى ما هو أشرفُ منه وأعلى، وهذه الآياتُ شبيهةٌ بآيةِ البقرةِ وهي قولُه تعالى: «وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ۝١٦٣ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» (البقرة: ١٦٣- ١٦٤). (تفسير القرآن العظيم (٤/١٤٧و١٤٨)).

وقالَ الزَّمخشريُّ: والمعنى أنَّ المنصفينَ منَ العبادِ، إذا نظروا في السَّمواتِ والأرضِ النَّظرَ الصَّحيحَ، علموا أنَّها مصنوعةٌ، وأنَّه لا بدَّ لها منْ صانعٍ، فآمنوا باللهِ وأقرُّوا. فإذا نظروا في خلقِ أنفسِهم وتنقُّلِها منْ حالٍ إلى حالٍ وهيئةٍ إلى هيئةٍ، وفي خلقِ ما على ظهرِ الأرضِ منْ صنوفِ الحيوانِ، ازدادوا إيمانًا وأيقنوا وانتفى عنهمُ اللَّبسُ. فإذا نظروا في سائرِ الحوادثِ التي تتجدَّدُ في كلِّ وقتٍ، كاختلافِ الليلِ والنَّهارِ، ونزولِ الأمطارِ، وحياةِ الأرضِ بها بعدَ موتِها، وتصريفِ الرِّياحِ جنوبًا وشمالًا، وقبولًا ودبورًا، عقلوا واستحكمَ علمُهم وخلصَ يقينُهم. (الكشاف (٣/٤٣٦)).

وقالَ أبو عبدِ اللهِ الرَّازيُّ: وأظنُّ أنَّ سببَ هذا الترتيبِ أنَّه قيلَ إنْ كنتُم منَ المؤمنينَ فافهموا هذه الدَّلائلَ، وإنْ كنتُم لستُم منَ المؤمنينَ بلْ أنتُم منْ طلَّابِ الحقِّ واليقينِ فافهموا هذه الدَّلائلَ، وإنْ كنتُم لستُم منَ المؤمنينَ ولا منَ الموقنينَ فلا أقلَّ منْ أنْ تكونوا منْ زمرةِ العاقلينَ فاجتهدوا في معرفةِ هذه الدَّلائلِ. (التفسير الكبير (٢٧/٢٦٠و٢٦١)).

وللحديثِ بقيةٌ إن شاء اللهُ تعالى.

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

الحلقة الثانية

قال تعالى: « تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » (الجاثية: ٦- ١٣).

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

دلائل التوحيد النقلية:

آيَاتُ التَّوْحيد قسْمَان: آيَاتٌ تَكْوينيَّةٌ، وَتُسَمَّى بِالْعَقْليَّة، وَآيَاتٌ تَنْزيليَّةٌ، وَتُسَمَّى بِالنَّقْليَّة. فَأَمَّا الآيَاتُ التَّكْوينيَّةُ فَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ فيهَا، وَأَمَّا الآيَاتُ التَّنْزيليَّةُ فَهي آيَاتُ الْقُرْآن الْكَريم، وَالذِّكْر الْحَكيم، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ » (البقرة: ٩٩)، وَقَالَ تَعَالَى: « ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ » (آل عمران: ٥٨).

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى الْإِنْسَانَ سَميعًا بَصيرًا، ليَسْتَمعَ إِلَى الآيَات التَّنْزيليَّة وَيَتَفَكَّرَ فيهَا، وَيُبْصرَ الآيَاتِ التَّكْوينيَّةَ وَيَتَفَكَّرَ فيهَا، فَيَعْلَمَ أَنَّ لهَذَا الْكَوْنِ إِلَهًا « لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ » (الشورى: ١١).

وَلَكِنَّ الَّذِينَ عَمُوا عَنْ رُؤْيَةِ الآيَاتِ التَّكْوِينِيَّةِ صَمُّوا عَنْ سَمَاعِ الآيَاتِ التَّنْزِيلِيَّةِ، فَقَالَ اللَّهُ مُهَدِّدًا لَهُمْ:

«تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ»:

يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم: «تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ» أَيْ حُجَجُهُ وَبَرَاهِينُهُ الدَّالَّةُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ، «نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ» أَيْ بِالصِّدْقِ الَّذِي لَا بَاطِلَ وَلَا كَذِبَ فِيهِ (الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٥٨))، لأَنَّهَا كَلَامُ اللَّهِ الْحَقِّ فَهِيَ حَقٌّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ» (ص: ٨٤)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ» (الأحزاب: ٤)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» (سبأ: ٢٣)، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: «وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ» (الإسراء: ١٠٥)، فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهَذِهِ الآيَاتِ -وَهِيَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِ- «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ»؟! يَعْنِي أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ، لأَنَّهُمْ مُصِرُّونَ عَلَى الْكُفْرِ، وَلِذَلِكَ تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ الإِصْرَارِ فَقَالَ:

«وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ»:

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

الْوَيْلُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْمَصَائِبُ، وَالْحُزْنُ، وَالشِّدَّةُ، مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي، وَهِيَ لَفْظَةٌ تُسْتَعْمَلُ فِي الدُّعَاءِ عَلَى الإِنْسَانِ. وَرُوِيَ فِي بَعْضِ الآثَارِ أَنَّ فِي جَهَنَّمَ وَادِيًا اسْمُهُ: وَيْلٌ، وَذَهَبَ الطَّبَرِيُّ إِلَى أَنَّهُ الْمُرَادُ بِالآيَةِ، وَمُقْتَضَى اللُّغَةِ أَنَّهُ الدُّعَاءُ عَلَى أَهْلِ الإِفْكِ وَالإِثْمِ بِالْمَعَانِي الْمُتَقَدِّمَةِ. وَالأَفَّاكُ: الْكَذَّابُ الَّذِي يَقَعُ مِنْهُ الإِفْكُ مِرَارًا. وَالأَثِيمُ: بِنَاءُ مُبَالَغَةٍ، اسْمُ فَاعِلٍ مِنْ أَثُمَ يَأْثَمُ. (المحرر الوجيز (٥/ ٨١)).

قَالَ الرَّازِي عَفَا اللَّهُ عَنْهُ:

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا الأَثِيمَ لَهُ مَقَامَانِ:

الْمَقَامُ الأَوَّلُ: أَنْ يَبْقَى مُصِرًّا عَلَى الإِنْكَارِ وَالاسْتِكْبَارِ، فَقَالَ تَعَالَى: «يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ» أَيْ يُقِيمُ عَلَى كُفْرِهِ إِقَامَةً بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ «مُسْتَكْبِرًا» عَنِ الإِيمَانِ بِالآيَاتِ مُعْجَبًا بِمَا عِنْدَهُ. «كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا» أَيْ كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ مَا تُلِيَ عَلَيْهِ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ. قِيلَ نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ، وَمَا كَانَ يَشْتَرِي مِنْ أَحَادِيثِ الأَعَاجِمِ، وَيَشْغَلُ بِهَا النَّاسَ عَنِ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ، وَالآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ كَانَ مَوْصُوفًا بِالصِّفَةِ الْمَذْكُورَةِ. (التفسير الكبير (٢٧/ ٦٧٢)).

وَقَدْ تَوَعَّدَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم الْمُصِرِّينَ بِمَا تَوَعَّدَهُمْ بِهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يُغْفَرِ اللَّهُ لَكُمْ، وَيْلٌ لأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ». (مسند أحمد ٦٥٤١ وصححه الألباني).

فَقَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم: «وَيْلٌ لأَقْمَاعِ الْقَوْلِ» يَعْنِي الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ وَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ، جَمْعُ قَمَعٍ، شَبَّهَ آذَانَهُمْ وَكَثْرَةَ مَا يَدْخُلُهَا مِنَ الْمَوَاعِظِ، وَهُمْ مُصِرُّونَ عَلَى تَرْكِ الْعَمَلِ بِهَا، بِالأَقْمَاعِ الَّتِي تُفْرَغُ فِيهَا الأَشْرِبَةُ وَلَا يَبْقَى فِيهَا شَيْءٌ مِنْهَا، فَكَأَنَّهُ يَمُرُّ عَلَيْهَا مَجَازًا كَمَا يَمُرُّ الشَّرَابُ فِي الأَقْمَاعِ اجْتِيَازًا. (لسان العرب (٨/ ٢٩٥)).

لِذَلِكَ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَحْذَرَ هَذِهِ الصِّفَةَ، يَحْذَرَ أَنْ «يَسْمَعَ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا»:

يَحْذَرَ أَنْ يَسْمَعَ اللَّهَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (آل عمران: ١٣٠)، ثُمَّ يُصِرُّ عَلَى أَكْلِ الرِّبَا.

يَحْذَرَ أَنْ يَسْمَعَ اللَّهَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (المائدة: ٩٠)، ثُمَّ يُصِرُّ عَلَى شُرْبِ الْخَمْرِ وَلَعِبِ الْمَيْسِرِ.

يَحْذَرَ أَنْ يَسْمَعَ اللَّهَ يَقُولُ: «وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا» (الإسراء: ٣٢)، ثُمَّ يُصِرُّ عَلَى الزِّنَا.

يَحْذَرَ أَنْ يَسْمَعَ اللَّهَ يَقُولُ: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ» (الإسراء: ٣٣)، ثُمَّ يُصِرُّ عَلَى قَتْلِ الأَبْرِيَاءِ.

فَالْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنَ الإِصْرَارِ بَعْدَ سَمَاعِ آيَاتِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: «إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ» (السجدة: ١٥)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا» (الفرقان: ٧٣)، وَقَالَ تَعَالَى: «أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (النور: ٥٠- ٥١).

وَأَمَرَ اللَّه تَعَالَى نَبِيَّهُ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُبَشِّرَهُمْ فَقَالَ: « فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ » (الزمر: ١٧- ١٨).

وَمِنْ تَمَامِ الْوَعِيدِ لِلأَفَّاكِ الأَثِيمِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: « فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »، وَسُمِّيَ إِعْلَامُ الْكَافِرِ بِمَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ بِشَارَةً تَهَكُّمًا بِهِ وَاسْتِهْزَاءً، لأَنَّ الأَصْلَ فِي الْبِشَارَةِ إِعْلَامُ الإِنْسَانِ بِمَا يَسُرُّهُ فَيَفْرَحُ قَلْبُهُ، وَيَظْهَرُ السُّرُورُ عَلَى وَجْهِهِ، وَإِعْلَامُ الْكَافِرِ بِمَا لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ يُسِيئُهُ وَلا يَسُرُّهُ، وَلَكِنْ سَمَّاهُ بِشَارَةً تَهَكُّمًا وَاسْتِهْزَاءً.

الْمَقَامُ الثَّانِي: أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ مَقَامِ الإِصْرَارِ وَالاسْتِكْبَارِ إِلَى مَقَامِ الاسْتِهْزَاءِ، فَقَالَ تَعَالَى: « وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا »، وَلَمْ يَقُلْ سُبْحَانَهُ: اتَّخَذَهُ هُزُوًا، لِلإِشْعَارِ بِأَنَّ هَذَا الرَّجُلَ إِذَا أَحَسَّ بِشَيْءٍ مِنَ الْكَلامِ أَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ الآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّه تَعَالَى عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم خَاضَ فِي الاسْتِهْزَاءِ بِجَمِيعِ الآيَاتِ، وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى الاسْتِهْزَاءِ بِذَلِكَ الْوَاحِدِ. (التفسير الكبير (٢٧/ ٢٦٢)).

« أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » يُهِينُهُمْ وَيُذِلُّهُمْ وَيُخْزِيهِمْ، جَزَاءَ الأَنَفَةِ وَالاسْتِكْبَارِ وَالْعِزَّةِ الَّتِي مَنَعَتْهُمْ مِنَ الإِيمَانِ بِآيَاتِ اللَّهِ.

« مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ »، أَيْ أَمَامَهُمْ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، « وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا » يَعْنِي لا تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَلا تُقْبَلُ مِنْهُمْ فِدَاءً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ » (المسد: ١- ٢)، وَقَالَ تَعَالَى: « وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ » (الليل: ٨- ١١)، وَقَالَ تَعَالَى: « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (آل عمران: ١١٦)، وَقَالَ تَعَالَى: « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » (آل عمران: ٩١).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: « وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ » يَعْنِي وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَوْلِيَاؤُهُمُ الَّذِينَ عَبَدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » (الأحقاف: ٥- ٦)، وَقَالَ تَعَالَى: « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » (البقرة: ١٦٥- ١٦٧)، وَقَالَ تَعَالَى: « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » (يونس: ٢٨- ٣٠)، وَقَالَ تَعَالَى: « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ » (القصص: ٦٢- ٦٤). وَالآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ.

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّه تَعَالَى بِمَا لِهَؤُلاءِ الْكُفَّارِ عِنْدَهُ فَقَالَ: « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ».

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّهُ قَالَ قَبْلَ هَذِهِ الآيَةِ: « لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » فَمَا الْفَائِدَةُ فِي قَوْلِهِ بَعْدَهُ: « وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »؟

قُلْنَا: كَوْنُ الْعَذَابِ مُهِينًا يَدُلُّ عَلَى حُصُولِ الإِهَانَةِ مَعَ الْعَذَابِ، وَكَوْنُهُ عَظِيمًا يَدُلُّ عَلَى كَوْنِهِ بَالِغًا إِلَى أَقْصَى الْغَايَاتِ فِي كَوْنِهِ ضَرَرًا. (التفسير الكبير (٢٧/ ٢٦٢و٢٦٣)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: « هَذَا هُدًى » أَيْ هَذَا الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ « يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (المائدة: ١٦)، « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ » وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا، وَلَمْ يَهْتَدُوا بِهُدَيْهَا « لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ » بِالرَّفْعِ صِفَةُ « عَذَابٌ »، وَقُرِئَ بِالْجَرِّ عَلَى أَنَّهُ صِفَةُ « رِجْزٍ ». (إرشاد العقل السليم (٦/ ٥٨)).

فَإِنْ قِيلَ: الرِّجْزُ هُوَ الْعَذَابُ، بِدَلالَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى: « فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » (البقرة: ٥٩)، فَهَلْ فِي الآيَةِ تَكْرَارٌ؟

فَالْجَوَابُ: لَيْسَ فِيهَا تَكْرَارٌ، وَتَوْجِيهُهَا عَلَى قِرَاءَةِ الْجَرِّ: لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، وَإِذَا كَانَ عَذَابُهُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ كَانَ عَذَابُهُمْ أَلِيمًا.

وَمَنْ رَفَعَ كَانَ الْمَعْنَى: لَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ، فَتَكُونُ « مِنْ » تَبْيِينًا لِلْعَذَابِ. (التفسير الكبير (٢٧/ ٢٦٣)).

من دلائل التوحيد:

ومرَّة ثانيةً يُذكِّرهُم الله تعالى ببعض آياته الكونيَّة الدالَّة على وحدانيَّته وعظيم قدرته، فيقول سُبحانه:

«اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

يقول تعالى: «اللَّهُ الَّذِي» لا إله إلا هو، هو الذي «سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ»، فتحملكم إلى حيث شئتم، وتنقل لكم ما شئتم من البضاعة والسلع على اختلاف أجناسها، ولذلك قال: «وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ» أي تبتغوا رزق الله بالبيع والشراء عن طريق السفر ونقل البضائع في البحر، أو تبتغوا من فضله باستخراج الحيتان، واللؤلؤ والمرجان. وهذه آية من آيات وحدانيَّة الله وقدرته، ولذلك قال سُبحانه: «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ» (الشورى: ٣٢- ٣٥)، وقال تعالى: «وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ» (يس: ٤١- ٤٤)، وقال تعالى: «اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٨٠) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ» (غافر: ٧٩- ٨١).

فهو- سُبحانه- الذي خلق البحر بهذه الخصائص، وخلق مادَّة الفُلك بهذه الخصائص، وجعل خصائص الضَّغط الجوِّي، وسُرعة الرِّياح وجاذبيَّة الأرض، وسائر الخصائص الكونيَّة الأخرى مُساعدة على أن تجري الفُلك في البحر، وهدى الإنسان إلى هذا كله فأمكنه أن ينتفع به، وأن ينتفع كذلك بالبحر في نواحٍ أخرى. (في ظلال القرآن (٣٨٥/٧)).

فهذه آيات من آيات التَّوحيد، ونعمٌ من نعم الرَّحمن التي أنعم بها على عباده فاستحقَّ الشُّكر عليها، ولذلك قال: «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

ثم قال تعالى: «وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ»:

هذا تعميمٌ بعد تخصيص اقتضاه الاهتمام أوَّلاً ثُمَّ التَّعميم ثانيًا. وما في السَّماوات وما في الأرض عامٌّ مخصوصٌ بما تحصُل للنَّاس فائدةٌ من وُجوده؛ كالشَّمس للضِّياء، والمطر للشَّراب، أو من بعض أحواله؛ كالكواكب للاهتداء بها في ظُلمات البرِّ والبحر، والشَّجر للاستظلال، والأنعام للرُّكوب والحرث ونحو ذلك. وأمَّا ما في السَّماوات والأرض ممَّا لا يُفيد النَّاس فغيرُ مُراد مثل الملائكة في السَّماء والأهوية المُنحبسة في باطن الأرض التي يأتي منها الزَّلزال. (التحرير والتنوير (٣٣٧/٢٥)).

فإن قيل ما معنى (منه) في قوله «جميعًا منه»؟

قُلنا معناه أنَّها واقعةٌ موقع الحال، والمعنى: أنَّه سخَّر هذه الأشياء كائنةً منه، وحاصلةً من عنده، يعني أنَّه تعالى مُكوِّنها ومُوجدها بقُدرته وحكمته، ثمَّ مُسخِّرها لخلقه. (التفسير الكبير (٢٦٤/٢٧)).

يقول تعالى ذكره: جميعُ ما ذكرتُ لكم أيُّها النَّاس من هذه النِّعم، نعمٌ عليكم من الله أنعم بها عليكم، وفضلٌ منه تفضَّل به عليكم، فإيَّاه فاحمدوا لا غيره، لأنَّه لم يشركه في إنعام هذه النِّعم عليكم شريك، بل تفرَّد بإنعامها عليكم وجميعها منه، ومن نعمه فلا تجعلوا له في شُكركم له شريكًا بل أفردوه بالشُّكر والعبادة، وأخلصوا له الألوهة، فإنَّه لا إله لكم سواه. (جامع البيان (١٤٣/٢٥)).

«إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» أي في ذلك المذكور من تسخير البحر وتسخير ما في السَّموات والأرض دلائل على تفرُّد الله بالإلهيَّة، فهي وإن كانت مننًا يحقُّ أن يشكرها النَّاس فإنَّها أيضًا دلائل إذا تفكَّر فيها المُنعَم عليهم اهتدوا بها، فحصلت لهم منها مُلائمات جسمانيَّة ومعارف نفسانيَّة، وبهذا الاعتبار كانت في عداد الآيات المذكورة قبلها من قوله: «إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ»، وإنَّما أُخِّرت عنها لأنَّها ذُكرت في معرض الامتنان بأنَّها نعم، ثمَّ عُقِّبت بالتَّنبيه على أنَّها أيضًا دلائل على تفرُّد الله بالخلق.

وأوثر التَّفكُّر بالذِّكر في آخر صفات المُستدلِّين بالآيات، لأنَّ الفكر هو منبع الإيمان والإيقان والعلم المُتقدِّمة في قوله: «لآيات للمُؤمنين»، «آيات لقوم يوقنون»، «آيات لقوم يعقلون». (التحرير والتنوير (٣٣٧/٢٥و٣٣٨)).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

الحلقة الثالثة

قال تعالى: «قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾» (الجاثية: ١٤- ١٨).

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

إرشادُ ربِّ العالمين عبادَهُ المؤمنين إلى كيفيّة معاملة الآخرين:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾:

قال القرطبيُّ والسُّدِّيُّ: نزلت في ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل مكة، أصابهم أذى شديد من المشركين فشكوا ذلك إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فأمرهم الله بالتجاوز عن ذلك لمصلحة في استبقاء الهدوء بمكة، والمتاركة بين المسلمين والمشركين فيها مصالح جمة من شيوع القرآن بين أهل مكة وبين القبائل النازلين حولها، فإن شيوعه لا يخلو من أن يأخذ بمجامع قلوبهم بالرغم على ما يبدونه من إعراض واستكبار واستهزاء، فتتهيأ نفوسهم إلى الدخول في الدين عند زوال ممانعة سادتهم بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وبعد استئصال صناديد قريش يوم بدر.

وقد تكرر في القرآن مثل هذا من الأمر بالصفح عن المشركين والعفو عنهم والإعراض عن أذاهم، ولكن كان أكثر الآيات أمرا للنبي صلى الله عليه وسلم في نفسه، وكانت هذه أمرا له بأن يبلغ للمؤمنين ذلك، وذلك يشعر بأن الآية نزلت في وقت كان المسلمون قد كثروا فيه وأحسوا بعزتهم، فأمروا بالعفو وأن يكلوا أمر نصرهم إلى الله تعالى.

و «لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ» يُرَادُ بِهِمُ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ. (التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٢٥/٣٣٨ و٣٤٠)).

وَقَوْلُهُ: «أَيَّامَ اللَّهِ» قَالَتْ فِرْقَةٌ مَعْنَاهُ: أَيَّامَ إِنْعَامِهِ وَنَصْرِهِ وَتَنْعِيمِهِ فِي الْجَنَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَـ «يَرْجُونَ» عَلَى هَذَا هُوَ مِنْ بَابِهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «أَيَّامَ اللَّهِ» هِيَ أَيَّامُ نِقَمِهِ وَعَذَابِهِ، فَـ «يَرْجُونَ» عَلَى هَذَا هِيَ الَّتِي تَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ يَخَافُونَ، وَإِنَّمَا تَنَزَّلَتْ مَنْزِلَتَهَا مِنْ حَيْثُ الرَّجَاءُ وَالْخَوْفُ مُتَلاَزِمَانِ، لاَ تَجِدُ أَحَدَهُمَا إِلاَّ وَالآخَرُ مَعَهُ مُقْتَرِنٌ. (المحرر الوجيز لابن عاشور (٥/٨٣)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ بِالْمَغْفِرَةِ، وَجُوِّزَ أَنْ يَكُونَ تَعْلِيلاً لِلأَمْرِ بِالْقَوْلِ لأَنَّهُ سَبَبٌ لامْتِثَالِهِمُ الْمَجَازِيَ عَلَيْهِ (روح المعاني للألوسي (٢٥/١٤٧))، أَيْ لِكَيْ يُجَازِيَ بِالْمَغْفِرَةِ قَوْمًا يَعْمَلُونَ الْخَيْرَ.

فَإِنْ قِيلَ: مَا الْفَائِدَةُ فِي التَّنْكِيرِ فِي قَوْلِهِ «لِيَجْزِيَ قَوْمًا» مَعَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمْ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ «قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا»؟

قُلْنَا: التَّنْكِيرُ يَدُلُّ عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: «لِيَجْزِيَ قَوْمًا» وَأَيَّ قَوْمٍ، مِنْ شَأْنِهِمُ الصَّفْحُ عَنِ السَّيِّئَاتِ، وَالتَّجَاوُزُ عَنِ الْمُؤْذِيَاتِ، وَتَحَمُّلُ الْوَحْشَةِ، وَتَجَرُّعُ الْمَكْرُوهِ.

وَقَالَ آخَرُونَ: مَعْنَى الآيَةِ: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْكُفَّارِ، لِيَجْزِيَ اللَّهُ الْكُفَّارَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنَ الإِثْمِ، كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُمْ: لاَ تُكَافِئُوهُمْ أَنْتُمْ حَتَّى نُكَافِئَهُمْ نَحْنُ. (التفسير الكبير للرازي (٢٧/٢٦٤)).

قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: قَالَ أَكْثَرُ النَّاسِ: وَهَذِهِ آيَةٌ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْقِتَالِ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: الآيَةُ مُحْكَمَةٌ، وَالآيَةُ تَتَضَمَّنُ الْغُفْرَانَ عُمُومًا، فَيَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ: إِنَّ الأُمُورَ الْعِظَامَ كَالْقَتْلِ، وَالْكُفْرِ مُجَاهَرَةً، وَنَحْوِ ذَلِكَ، قَدْ نَسَخَ غُفْرَانَهُ آيَةُ السَّيْفِ وَالْجِزْيَةِ وَمَا أَحْكَمَهُ الشَّرْعُ لاَ مَحَالَةَ، وَإِنَّ الأُمُورَ الْمُحَقَّرَةَ كَالْجَفَاءِ فِي الْقَوْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ يُحْتَمَلُ أَنْ تَبْقَى مُحْكَمَةً، وَأَنْ يَكُونَ الْعَفْوُ عَنْهَا أَقْرَبَ إِلَى التَّقْوَى. (المحرر الوجيز (٥/٨٣)).

ثُمَّ يُعَقِّبُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذَا بِبَيَانٍ فَرْدِيَّةٍ التَّبِعَةِ، وَعَدَالَةِ الْجَزَاءِ، وَتَوْكِيدِ الرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ، فَيَقُولُ: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ».

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: مَنْ عَمِلَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ بِطَاعَتِهِ فَانْتَهَى إِلَى أَمْرِهِ، وَانْزَجَرَ لِنَهْيِهِ، فَلِنَفْسِهِ عَمِلَ ذَلِكَ الصَّالِحَ مِنَ الْعَمَلِ، وَطَلَبَ خَلاَصَهَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، أَطَاعَ رَبَّهُ لاَ لِغَيْرِ ذَلِكَ، لأَنَّهُ لاَ يَنْفَعُ ذَلِكَ غَيْرَهُ، وَاللَّهُ عَنْ عَمَلِ كُلِّ عَامِلٍ غَنِيٌّ. «وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا» يَقُولُ: وَمَنْ أَسَاءَ عَمَلَهُ فِي الدُّنْيَا بِمَعْصِيَتِهِ فِيهَا رَبَّهُ، وَخِلاَفِهِ فِيهَا أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ، فَعَلَى نَفْسِهِ جَنَى، لأَنَّهُ أَوْبَقَهَا بِذَلِكَ، وَأَكْسَبَهَا بِهِ سَخَطَهُ، وَلَمْ يَضُرَّ أَحَدًا سِوَى نَفْسِهِ «ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» يَقُولُ: ثُمَّ أَنْتُمْ أَيُّهَا النَّاسُ أَجْمَعُونَ إِلَى رَبِّكُمْ تَصِيرُونَ مِنْ بَعْدِ مَمَاتِكُمْ، فَيُجَازِي الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، فَمَنْ وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْكُمْ بِعَمَلٍ صَالِحٍ جُوزِيَ مِنَ الثَّوَابِ صَالِحًا، وَمَنْ وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْكُمْ بِعَمَلٍ سَيِّئٍ جُوزِيَ مِنَ الثَّوَابِ سَيِّئًا (جامع البيان (٢٥/١٤٥)).

كَمَا قَالَ تَعَالَى: «مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» (الأنعام: ١٦٠)، وَقَالَ تَعَالَى: «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (الزلزلة: ٧-٨).

وُجُوبُ اتِّبَاعِ الشَّرِيعَةِ:

«وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ».

يَذْكُرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِنِعَمٍ كَثِيرَةٍ لِيَشْكُرُوهُ بِاتِّبَاعِ شَرِيعَتِهِ، وَالْعَمَلِ بِمَا عَلَّمَهُمْ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ فِيهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا، وَلَمْ يَتَّبِعُوا شَرِيعَتَهُ، وَلَمْ يَعْمَلُوا بِمَا تَعَلَّمُوا.

قَالَ الرَّازِيُّ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: "اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ أَنَّهُ أَنْعَمَ بِنِعَمٍ كَثِيرَةٍ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، مَعَ أَنَّهُ حَصَلَ بَيْنَهُمُ الاخْتِلاَفُ عَلَى سَبِيلِ الْبَغْيِ وَالْحَسَدِ؛ وَالْمَقْصُودُ أَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ طَرِيقَةَ قَوْمِهِ كَطَرِيقَةِ مَنْ تَقَدَّمَ.

وَاعْلَمْ أَنَّ النِّعَمَ عَلَى قِسْمَيْنِ: نِعَمُ الدِّينِ،

وَنِعَمُ الدُّنْيَا، وَنِعَمُ الدِّينِ أَفْضَلُ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا، فَلِهَذَا بَدَأَ اللَّهُ تَعَالَى بِذِكْرِ نِعَمِ الدِّينِ، فَقَالَ: «وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ»، وَالأَقْرَبُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الثَّلاثَةِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُغَايِرًا لِصَاحِبِهِ:

أَمَّا الْكِتَابُ فَهُوَ التَّوْرَاةُ.

وَأَمَّا الْحُكْمُ فَفِيهِ وُجُوهٌ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الْعِلْمَ بِفَصْلِ الْحُكُومَاتِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مَعْرِفَةَ أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ عِلْمُ الْفِقْهِ.

وَأَمَّا النُّبُوَّةُ فَمَعْلُومَةٌ.

وَأَمَّا نِعَمُ الدُّنْيَا فَهِيَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ»، وَذَلِكَ لأَنَّهُ تَعَالَى وَسَّعَ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، فَأَوْرَثَهُمْ أَمْوَالَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ وَدِيَارَهُمْ، ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى.

وَلَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ مِنْ نِعَمِ الدِّينِ وَنِعَمِ الدُّنْيَا نَصِيبًا وَافِرًا، قَالَ: «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ» يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا أَكْبَرَ دَرَجَةً، وَأَرْفَعَ مَنْقَبَةً مِمَّنْ سِوَاهُمْ فِي وَقْتِهِمْ، فَلِهَذَا الْمَعْنَى قَالَ الْمُفَسِّرُونَ الْمُرَادُ: وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى عَالَمِي زَمَانِهِمْ". (التفسير الكبير (٢٧/٢٦٥ و٢٦٦)).

وَقَالَ الآلُوسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "الْمُرَادُ تَفْضِيلُهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ مُطْلَقًا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ لا مِنْ كُلِّهَا، وَلا مِنْ جِهَةِ الْمَرْتَبَةِ وَالثَّوَابِ، فَلا يُنَافِي ذَلِكَ تَفْضِيلَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم عَلَيْهِمْ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، وَمِنْ جِهَةِ الْمَرْتَبَةِ وَالثَّوَابِ.

«وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الأَمْرِ» أَيْ دَلائِلَ ظَاهِرَةً فِي أَمْرِ الدِّينِ، وَمُعْجِزَاتٍ قَاهِرَةً. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: هُوَ الْعِلْمُ بِمَبْعَثِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وما بَيَّنَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَنَّهُ يُهَاجِرُ مِنْ تِهَامَةَ إِلَى يَثْرِبَ، وَيَكُونُ أَنْصَارُهُ أَهْلَ يَثْرِبَ" (روح المعاني (٢٥/١٤٨)).

ثُمَّ أَوْضَحَ تَعَالَى خَطَأَهُمْ وَعَظَّمَهُ بِقَوْلِهِ: «فَمَا اخْتَلَفُوا إِلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ» وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَوِ اخْتَلَفُوا اجْتِهَادًا فِي طَلَبِ صَوَابٍ لَكَانَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي الاخْتِلافِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا بَغْيًا وَقَدْ تَبَيَّنُوا الْحَقَائِقَ. (المحرر الوجيز (٥/٨٤)).

وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذِكْرِ هَذَا الْكَلامِ التَّعَجُّبُ مِنْ هَذِهِ الْحَالَةِ، لأَنَّ حُصُولَ الْعِلْمِ يُوجِبُ ارْتِفَاعَ الْخِلافِ، وَهَاهُنَا صَارَ مَجِيءُ الْعِلْمِ سَبَبًا لِحُصُولِ الاخْتِلافِ، وَذَلِكَ لأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ مَقْصُودُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ نَفْسَ الْعِلْمِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ مِنْهُ طَلَبُ الرِّيَاسَةِ وَالتَّقَدُّمِ، ثُمَّ هَاهُنَا احْتِمَالاتٌ يُرِيدُ أَنَّهُمْ عَلِمُوا ثُمَّ عَانَدُوا، وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالْعِلْمِ الدَّلالَةَ الَّتِي تُوَصِّلُ إِلَى الْعِلْمِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ تَعَالَى وَضَعَ الدَّلائِلَ وَالْبَيِّنَاتِ الَّتِي لَوْ تَأَمَّلُوا فِيهَا لَعَرَفُوا الْحَقَّ، لَكِنَّهُمْ عَلَى وَجْهِ الْحَسَدِ وَالْعِنَادِ اخْتَلَفُوا وَأَظْهَرُوا النِّزَاعَ. (التفسير الكبير (٢٧/٢٦٦)).

ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ تَعَالَى بِوَقْفِ أَمْرِهِمْ عَلَى قَضَائِهِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ:

«إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»:

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم: إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَ الْمُخْتَلِفِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَغْيًا بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فِيمَا كَانُوا فِيهِ فِي الدُّنْيَا يَخْتَلِفُونَ بَعْدَ الْعِلْمِ الَّذِي أَتَاهُمْ، وَالْبَيَانِ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْهُ، فَيَفْلِجُ الْمُحِقَّ حِينَئِذٍ عَلَى الْمُبْطِلِ بِفَصْلِ الْحُكْمِ بَيْنَهُمْ. (جامع البيان (٢٥/١٤٦)).

وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي أَنْ يَغْتَرَّ الْمُبْطِلُ بِنِعَمِ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا وَإِنْ سَاوَتْ نِعَمَ الْمُحِقِّ أَوْ زَادَتْ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ سَيَرَى فِي الآخِرَةِ مَا يَسُوءُهُ، وَذَلِكَ كَالزَّجْرِ لَهُمْ.

وَلَمَّا بَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُمْ أَعْرَضُوا عَنِ الْحَقِّ لأَجْلِ الْبَغْيِ وَالْحَسَدِ، أَمَرَ رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم بِأَنْ يَعْدِلَ عَنْ تِلْكَ الطَّرِيقَةِ، وَأَنْ يَتَمَسَّكَ بِالْحَقِّ، وَأَنْ لا يَكُونَ لَهُ غَرَضٌ سِوَى إِظْهَارِ الْحَقِّ وَتَقْرِيرِ الصِّدْقِ، فَقَالَ تَعَالَى:

«ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ» أَيْ عَلَى طَرِيقَةٍ وَمِنْهَاجٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، فَاتَّبِعْ شَرِيعَتَكَ الثَّابِتَةَ بِالدَّلائِلِ وَالْبَيِّنَاتِ، وَلا تَتَّبِعْ مَا لا حُجَّةَ عَلَيْهِ مِنْ أَهْوَاءِ الْجُهَّالِ وَأَدْيَانِهِمُ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى الأَهْوَاءِ وَالْجَهْلِ. (التفسير الكبير (٢٧/٢٦٦)).

وَالشَّرِيعَةُ فِي اللُّغَةِ: الْمَذْهَبُ وَالْمِلَّةُ.

وَاصْطِلاحًا: مَا شَرَعَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ مِنَ الدِّينِ.

فَمَعْنَى «جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ» أَيْ عَلَى مِنْهَاجٍ وَاضِحٍ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ يَشْرَعُ بِكَ إِلَى الْحَقِّ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «عَلَى شَرِيعَةٍ» أَيْ عَلَى هُدًى مِنَ الأَمْرِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: الشَّرِيعَةُ الأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْحُدُودُ وَالْفَرَائِضُ.

وَقَالَ مُقَاتِلٌ رَحِمَهُ اللهُ: الْبَيِّنَةُ، لأَنَّهَا طَرِيقٌ إِلَى الْحَقِّ.
وَقَالَ الْكَلْبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: السُّنَّةُ، لأَنَّهُ يَسْتَنُّ بِطَرِيقَةِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ.
وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ رَحِمَهُ اللهُ: الدِّينُ، لأَنَّهُ طَرِيقُ النَّجَاةِ.
قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللهُ: وَالأَمْرُ يَرِدُ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَيَيْنِ:
أَحَدُهُمَا: بِمَعْنَى الشَّأْنِ، كَقَوْلِهِ: « فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » (هود: ٩٧).
وَالثَّانِي: أَحَدُ أَقْسَامِ الْكَلاَمِ الَّذِي يُقَابِلُهُ النَّهْيُ.
وَكِلاَهُمَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا هَا هُنَا، وَتَقْدِيرُهُ: ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى طَرِيقَةٍ مِنَ الدِّينِ وَهِيَ مِلَّةُ الإِسْلاَمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ » (النحل: ١٢٣).
وَلاَ خِلاَفَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُغَايِرْ بَيْنَ الشَّرَائِعِ فِي التَّوْحِيدِ وَالْمَكَارِمِ وَالْمَصَالِحِ، وَإِنَّمَا خَالَفَ بَيْنَهَا فِي الْفُرُوعِ حَسْبَمَا عَلِمَهُ سُبْحَانَهُ (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦/١٦٣ و١٦٤)).
وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: « شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ » (الشورى: ١٣)، وَقَالَ تَعَالَى: « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا » (المائدة: ٤٨).
وَقَدْ بَلَغَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ مِنَ الإِيجَازِ مَبْلَغًا عَظِيمًا إِذْ أَفَادَتْ أَنَّ شَرِيعَةَ الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ مِنْ شَرِيعَةِ مُوسَى، وَأَنَّهَا شَرِيعَةٌ عَظِيمَةٌ، وَأَنَّ الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم مُتَمَكِّنٌ مِنْهَا لاَ يُزَعْزِعُهُ شَيْءٌ عَنِ الذَّأْبِ فِي بَيَانِهَا وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا. وَلِذَلِكَ فَرَّعَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ بِاتِّبَاعِهَا بِقَوْلِهِ: «فَاتَّبِعْهَا» أَيْ دُمْ عَلَى اتِّبَاعِهَا، فَالأَمْرُ لِطَلَبِ الدَّوَامِ مِثْلُ « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ » (النساء: ١٣٦).
وَبَيْنَ قَوْلِهِ: «فَاتَّبِعْهَا» وَقَوْلِهِ: «وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ» مُحَسِّنُ الْمُطَابَقَةِ بَيْنَ الأَمْرِ بِالاتِّبَاعِ وَالنَّهْيِ عَنِ اتِّبَاعٍ آخَرَ.
وَالأَهْوَاءُ: جَمْعُ هَوًى، وَهُوَ الْمَحَبَّةُ وَالْمَيْلُ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ دِينَهُمْ أَعْمَالٌ أَحَبُّوهَا لَمْ يَأْمُرِ اللهُ بِهَا وَلاَ اقْتَضَتْهَا الْبَرَاهِينُ. (التحرير والتنوير (٢٥/٣٤٨)).
فَلَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يَتَّبِعَ مَا يُحِبُّهُ فَيَأْمُرَ بِهِ، وَيَتَّخِذَهُ دِينًا، وَيَنْهَى عَمَّا يُبْغِضُهُ وَيَذُمُّهُ إِلاَّ بِهُدًى مِنَ اللهِ، وَهُوَ شَرِيعَتُهُ الَّتِي جَعَلَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَأَمَرَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِاتِّبَاعِهَا، وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ يُسَمُّونَ كُلَّ مَنْ خَرَجَ عَنِ الشَّرِيعَةِ فِي شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ أَهْلَ الأَهْوَاءِ، وَيَجْعَلُونَ أَهْلَ الْبِدَعِ هُمْ أَهْلَ الأَهْوَاءِ، فَيَذُمُّونَهُمْ بِذَلِكَ، وَيُحَذِّرُونَ مِنْهُمْ، وَلَوْ ظَهَرَ مِنْهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعِبَادَةِ وَالزُّهْدِ مَا ظَهَرَ (بدائع التفسير (٢/٤٤٦)).
وَقَدْ صَرَّحَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ بِأَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ رَسُولَهُ فَهُوَ مُتَّبِعُ الْهَوَى، فَقَالَ تَعَالَى: « فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ » (القصص: ٥٠)، وَسَمَّى سُبْحَانَهُ كُلَّ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ أَهْوَاءً، فَقَالَ تَعَالَى: « وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ » (البقرة: ١٢٠)، وَقَالَ تَعَالَى: « وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ » (البقرة: ١٤٥)، وَقَالَ تَعَالَى: « وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ » (الرعد: ٣٧)، وَقَالَ تَعَالَى: « وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ » (المائدة: ٤٨)، وَقَالَ تَعَالَى: « وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ » (المائدة: ٤٩).
وَلاَ شَكَّ أَنَّ مَنْ لَمْ يُسَلِّمْ لِلرَّسُولِ نَقَصَ تَوْحِيدَهُ، فَإِنَّهُ يَقُولُ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ، أَوْ يُقَلِّدُ ذَا رَأْيٍ وَهَوًى بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ، فَيَنْقُصُ مِنْ تَوْحِيدِهِ بِقَدْرِ خُرُوجِهِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ، فَإِنَّهُ قَدِ اتَّخَذَهُ فِي ذَلِكَ إِلَهًا غَيْرَ اللهِ. قَالَ تَعَالَى: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ» (الجاثية: ٢٣): أَيْ: عَبَدَ مَا تَهْوَاهُ نَفْسُهُ.
وللحديث بقية إن شاء الله،
والحمد لله رب العالمين.

المسجد ودوره في رمضان

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

المسجد هو تلك البقعة الطاهرة المباركة التي اختارها الله تعالى ليذكر فيها اسمه، وجعلها خير بقاع الأرض وأحبها إليه:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: « أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا». وشهد لعمارها بالإيمان فقال: «إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ » (التوبة: ١٨)، ووعدهم أن يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، فقال تعالى: «رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (النور: ٣٧- ٣٨).

وقد ورد في فضل المشي إلى المساجد، وشهود الجماعة، وانتظار الصلاة، أحاديث كثيرة لسنا بصدد ذكرها، لأننا نريد أن نبين ما يعود على المسلمين من الخير في التزام المساجد والحرص على الصلاة فيها، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

من المعلوم من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما دخل المدينة بدأ ببناء المسجد قبل بناء البيت، لأن المسجد يغني عن البيت، ولا تغني البيوت كلها عن المسجد، فالمسجد بيت من لا بيت له، ومأوى كل ضيف، ولذلك كان فقراء المسلمين يأوون إلى المسجد ويقيمون فيه، وكان الشاب الأعزب ينزل بالمسجد ويقيم فيه، أما دور المسجد فلا تستطيع البيوت كلها أن تقوم به، لذلك اهتم النبي صلى الله عليه وسلم ببناء المسجد أولاً، لأنه أراد أن يبني الرجال، ويؤسس فيه القلوب على تقوى من الله ورضوان، فإن المجتمع الصغير الذي يكون في المسجد إنما هو صورة للمجتمع الكبير الذي يعيش الناس فيه خارج المسجد.

وإذا كان النظام أساس المجتمعات وأظهر أمارات رقيها وتقدمها فإنما يظهر هذا النظام في أحسن صوره ويتجلى في أبهى مناظره داخل المسجد، حين تقام الصلاة فيتقدم رجل واحد ليؤم الناس، ويقومون أجمعون وراءه صفوفًا معتدلة متساوية.

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يهتم بتسوية الصفوف بنفسه، ويأمرهم بالتسوية بقوله، ويتوعدهم على عدم التسوية، والأحاديث في ذلك كثيرة.

وهكذا يظهر النظام في صفوف الصلاة خلف الإمام وهم ملتزمون بهديه، مقتدون بفعله، لا يركعون حتى يركع، ولا يرفعون حتى يرفع، ولا يسجدون حتى يسجد، ولا ينصرفون حتى ينصرف.

وإذا كان أساس الحكم العدل والمساواة فإنما يظهر العدل في أبهى صوره وتتجلى المساواة في أبهى حليها في الصفوف المنتظمة في الصلاة داخل المسجد، حيث يقوم الغني بجوار الفقير، والكبير بجوار الصغير، والعاميُّ بجوار الأمير.

وإذا كان لابد للدولة من أمير يرعى مصالح الناس، ولا بد للناس من رعاية حق هذا الأمير، وأن يدينوا له بالسمع والطاعة، كما أمر الله ورسوله، فإنما تتجلى مظاهر السمع والطاعة في الصلاة في المسجد، حيث يدين المأمومون أجمعون بالسمع والطاعة للإمام، فلا تقام الصلاة حتى يأمر الإمام بإقامتها، ولا يدخلون في الصلاة حتى يدخل فيها، ولا يركعون حتى يركع، ولا يرفعون حتى يرفع، ولا يسجدون حتى يسجد، ولا ينصرفون حتى ينصرف. فيتعلم المصلون أن إمام العامة أحق بالسمع والطاعة من إمام المسجد.

وإذا كان الإسلام نهى عن الخروج من المسجد بعد الأذان حتى يصلي وإن كره الإمام، أو رأى فيه فسقا أو جورا أو بدعة، فإن هذا يروض النفوس على السمع والطاعة لإمام العامة وإن كان به فسق أو ظلم أو جور أو بدعة، والأحاديث في ذلك كثيرة.

وإذا كان من مظاهر الدولة الفضلى والمدينة المثلى أن يؤدّي كل فرد ما عليه من حقوق، فإن المسجد يربي الناس على أن يعرفوا لكل ذي حق حقه، ويتجلى ذلك في تقدم الإمام، يليه أولوا الأحلام والنهى، أهل الفضل والعلم، ثم الكبار من العامة، ثم الصغار، فيتعلم الجميع أن للإمام حقًا، ولأهل العلم والفضل حقًا، وأن للكبير حقًا، فعلى الصغير أن لا يتقدم على الكبير، وعلى العامة أن يتأخروا عن أهل العلم، وعلى الجميع أن يقدموا الإمام ويجلوه. والأحاديث في ذلك كثيرة. وإذا كان من مظاهر الدولة الفضلى والمدينة المثلى ظهور المحبة بين أفراد المجتمع وغياب الشحناء والبغضاء، فإن المسجد هو الذي يغرس في النفوس المحبة، وفي القلوب الألفة، وذلك حين يقومون في الصلاة صفًا كأنهم بنيان مرصوص، وهذا التقارب في الأبدان يؤدي بفضل الله إلى تقارب القلوب والأرواح، ولذا توعد صلى الله عليه وسلم على عدم تسوية الصفوف بالمخالفة بين القلوب، فأفاد أن تسوية الصفوف وتقارب الأبدان يؤدي إلى ائتلاف القلوب.

وإذا كان من معالم الحضارة والتقدم والرقي أن يتقن كل عامل عمله فإن الصلاة هي الأصل في ذلك، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اعبد الله كأنك تراه»، وفي رواية: «اعمل لله كأنك تراه»، فإذا أتقن المصلي عبادته أتقن عمله، لأنه تربى على مراقبة الله في الصلاة، وعلم أن الله يراه حيث كان، فهو يتقن كل عمل وُكل إليه، وبإتقان العمل ترقى الأمم.

وإذا كان التعاون من أسباب نهوض الأمم ورقيها فإن التعاون داخل المسجد هو الذي يربي المسلم على التعاون مع إخوانه في أي مكان كان، وصور التعاون داخل المسجد في رمضان وغيره واضحة، فأهل كل مسجد يتعاونون على نظافته ورعايته، ورعاية كل ما يحتاج إليه، ويظهر ذلك في بناء المساجد، وفي الاعتكاف حيث يتعاون الجميع على إعداد الفطور والسحور ونظافة المسجد، كما يظهر ذلك في توزيع صدقة الفطر آخر الشهر على مستحقيها.

هذا هو دور المسجد في رمضان وفي غير رمضان، وهذا هو ما نرجو أن يربى المصلون عليه، وأن يغتنم أئمة المساجد فرصة إقبال المسلمين على المساجد في رمضان فيغرسوا في أنفسهم هذه الأصول والقيم، التي هي أساس سعادتهم.

وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه. والصلاة والسلام على خير رسل الله.

سُورَةُ الجَاثِيَة

الحلقة الرابعة

قال تعالى: « إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ »

(الجاثية: ١٩- ٢١).

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وبعد:

ولَمَّا كان تَرْكُ الشَّريعة واتِّباعُ الهَوى مُوجِبًا للعَذاب، كما قال الله تعالى: « يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ » (ص: ٢٦)، لا جَرَمَ أعلَمَ الله تعالى رسولَه والمؤمنين أنَّهم إن اتَّبَعوا أهواءَ الذين لا يَعلَمون وتركوا الشَّريعة فأخذهم العذابُ لن يُغنيَ عنهم الذين لا يَعلَمون من الله شيئًا، كما أنَّهم لو اتَّبَعوا شريعةَ الله واستمسكوا بها، لن يضرَّهم كيدُ الذين لا يَعلَمون، لأنَّ الله وليُّ المتَّقين، يتولَّاهم ويَحفظهم ويَرعاهم، فقال تعالى:

«إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ».

يقولُ تعالى ذِكْرُه: إنَّ هؤلاء الجاهلين بربِّهم، الذين يَدْعُونك يا نبينا إلى اتِّباع أهوائهم، لن يُغْنوا عنك إن أنت اتَّبعتَ أهواءهم، وخالفتَ شريعةَ ربِّك التي شرعها لك من عقاب الله شيئًا، فيَدفعوه عنك إن هو عاقبك، وينقذوك منه.

وقولُه: «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ» يعني وإنَّ الظَّالمين بعضُهم أنصارُ بعض، وأعوانُهم على أهل الإيمان بالله وأهل طاعته «وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ»، يقول تعالى ذكرُه: والله يَلي مَن اتَّقاه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه بكفايته، ودفاع مَن أرادَه بسوء، يقولُ جلَّ ثناؤه لنبيِّه صلى الله عليه وسلم فكُنْ من المتَّقين، يكفِكَ الله ما بغاك وكادك به هؤلاء المشركون، فإنه وليُّ مَن اتَّقاه، ولا يعظُمُ عليكَ خلافُ مَن خالَفَ أمرَه وإن كثُر عددُهم، لأنَّهم لن يضرُّوك ما كان الله وليَّك وناصرَك (جامع البيان (١٤٧/٢٥)).

وَوِلَايَةُ الظَّالِمِينَ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وَوِلَايَتُهُمْ لِلشَّيَاطِينِ ثَابِتَةٌ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْكِتَابِ الْمُبِينِ:

قَالَ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» (الأنفال: ٧٣) وَقَالَ تَعَالَى: «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ» (التوبة: ٦٧)، وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ» (الأعراف: ٣٠)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (البقرة: ٢٥٧).

وَوِلَايَةُ اللَّهِ لِلْمُتَّقِينَ كَذَلِكَ ثَابِتَةٌ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

قَالَ تَعَالَى: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» (البقرة: ٢٥٧)، وَقَالَ تَعَالَى: «أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ» (يونس: ٦٢- ٦٣)، وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ: «وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (الأنفال: ٣٤).

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

الْإِشَارَةُ بِـ«هَذَا» إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. وَالْ «بَصَائِرُ» جَمْعُ بَصِيرَةٍ، وَهِيَ الْحُجَّةُ الْبَيِّنَةُ الظَّاهِرَةُ.

وَكَمَا أَنَّ الْبَصَرَ اسْمٌ لِلْإِدْرَاكِ التَّامِّ الْكَامِلِ الْحَاصِلِ بِالْعَيْنِ الَّتِي فِي الرَّأْسِ، فَالْبَصِيرَةُ اسْمٌ لِلْإِدْرَاكِ التَّامِّ الْحَاصِلِ فِي الْقَلْبِ. قَالَ تَعَالَى: «بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ» (الْقِيَامَةِ: ١٤) أَيْ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ مَعْرِفَةٌ تَامَّةٌ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْبَصَائِرُ: الْهُدَى، بَصَائِرُ فِي قُلُوبِهِمْ لِدِينِهِمْ، وَلَيْسَتْ بِبَصَائِرِ الرُّءُوسِ. وَقَرَأَ: «فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (الحج: ٤٦)، قَالَ: إِنَّمَا الدِّينُ بَصَرُهُ وَسَمْعُهُ فِي هَذَا الْقَلْبِ.

وَالْمَعْنَى: هَذَا الْقُرْآنُ بَصَائِرُ لِلنَّاسِ يُبْصِرُونَ بِهِ الْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ، وَالْإِيمَانَ مِنَ الْكُفْرِ، «وَهُدًى» يَهْدِي الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ، «وَرَحْمَةٌ» رَحِمَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَنْقَذَهُمْ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْهَلَكَةِ، «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» بِحَقِيقَةِ صِحَّةِ هَذَا الْقُرْآنِ، وَأَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، وَخَصَّ جَلَّ ثَنَاؤُهُ الْمُوقِنِينَ بِأَنَّهُ لَهُمْ بَصَائِرُ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ، لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ انْتَفَعُوا بِهِ دُونَ مَنْ كَذَّبَ بِهِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ، فَكَانَ عَلَيْهِ عَمًى وَلَهُ حُزْنًا. (انظر جامع البيان: ٧/ ٣٠٤، ٣٠٥، والتفسير الكبير: ١٣/ ١٤٠).

كَمَا قَالَ تَعَالَى: «قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ» (الأنعام: ١٠٤).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ»:

«أَمْ» مُنْقَطِعَةٌ. وَمَعْنَى الْهَمْزَةِ فِيهَا إِنْكَارُ الْحُسْبَانِ. وَالِاجْتِرَاحُ: الِاكْتِسَابُ. وَمِنْهُ الْجَوَارِحُ. وَفُلَانٌ جَارِحَةُ أَهْلِهِ، أَيْ: كَاسِبُهُمْ. «أَنْ نَجْعَلَهُمْ» أَنْ نُصَيِّرَهُمْ. وَهُوَ مِنْ "جَعَلَ" الْمُتَعَدِّي إِلَى مَفْعُولَيْنِ، فَأَوَّلُهُمَا الضَّمِيرُ، وَالثَّانِي: الْكَافُ وَالْجُمْلَةُ الَّتِي هِيَ «سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» (الكشاف (٤/ ٢٩٠)).

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: أَمْ ظَنَّ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ فِي الدُّنْيَا، وَكَذَّبُوا رُسُلَ اللَّهِ، وَخَالَفُوا أَمْرَ رَبِّهِمْ، وَعَبَدُوا غَيْرَهُ، أَنْ نَجْعَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، كَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَصَدَّقُوا رُسُلَهُ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فَأَطَاعُوا اللَّهَ، وَأَخْلَصُوا لَهُ الْعِبَادَةَ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْآلِهَةِ؟ كَلَّا، مَا كَانَ اللَّهُ لِيَفْعَلَ ذَلِكَ، لَقَدْ مَيَّزَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، فَجَعَلَ حِزْبَ الْإِيمَانِ فِي الْجَنَّةِ، وَحِزْبَ الْكُفْرِ فِي السَّعِيرِ.

وَقَوْلُهُ: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: بِئْسَ الْحُكْمُ الَّذِي حَسِبُوا أَنَّا نَجْعَلُ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ. (جامع البيان (٢٥/ ١٤٨و١٤٩)).

وَقَدْ سَأَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى -سُؤَالَ إِنْكَارٍ- عَنْ مُسْتَنَدِهِمُ الَّذِي اسْتَنَدُوا إِلَيْهِ فِي هَذَا الْحُكْمِ، فَقَالَ: «أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ» (القلم: ٣٥- ٤٠).

وَقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا الْإِنْكَارُ فِي مَوَاضِعَ:

قَالَ تَعَالَى: «أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ» (ص: ٢٨).

وَقَالَ تَعَالَى: «أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ» (الرعد: ١٩).

وَقَالَ تَعَالَى: «وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ» (غافر: ٥٨).

وَقَدْ فَرَّقَ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْمَحْيَى وَالْمَمَاتِ، وَالْبَرْزَخِ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ:

أَمَّا مَحْيَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَقَدْ وَصَفَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ» (النحل: ٩٧).

وقال تعالى: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ» (النحل: ٣٠).

وقال تعالى: «وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ» (هود: ٣).

أمَّا مَحْيَا الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ فَقَدْ قَالَ فِيهِ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا» (طه: ١٢٤)، أي ضَيِّقَةً في كُلِّ شَيْءٍ، مَعِيشَةً كُلُّهَا هَمٌّ وَغَمٌّ، وَنَكَدٌ وَحُزْنٌ، وَخَوْفٌ وَقَلَقٌ، وَحَيْرَةٌ وَاضْطِرَابٌ، وَإِنْ كَانُوا ذَوِي مَالٍ وَجَاهٍ وَسُلْطَانٍ.

قَالَ الرَّازِيُّ عَفَا اللهُ عَنْهُ مُبَيِّنًا وُجُوهَ الْفَرْقِ بَيْنَ الْحَيَاتَيْنِ:

وَاعْلَمْ أَنَّ عَيْشَ الْمُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا أَطْيَبُ مِنْ عَيْشِ الْكَافِرِ لِوُجُوهٍ:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ لَمَّا عَرَفَ أَنَّ رِزْقَهُ إِنَّمَا حَصَلَ بِتَدْبِيرِ اللهِ تَعَالَى، وَعَرَفَ أَنَّهُ تَعَالَى مُحْسِنٌ كَرِيمٌ لَا يَفْعَلُ إِلَّا الصَّوَابَ كَانَ رَاضِيًا بِكُلِّ مَا قَضَاهُ وَقَدَّرَهُ، وَعَلِمَ أَنَّ مَصْلَحَتَهُ فِي ذَلِكَ، أَمَّا الْجَاهِلُ فَلَا يَعْرِفُ هَذِهِ الأُصُولَ فَكَانَ أَبَدًا فِي الْحُزْنِ وَالشَّقَاءِ.

وَثَانِيهَا: أَنَّ الْمُؤْمِنَ أَبَدًا يَسْتَحْضِرُ فِي عَقْلِهِ أَنْوَاعَ الْمَصَائِبِ وَالْمِحَنِ وَيُقَدِّرُ وُقُوعَهَا وَعَلَى تَقْدِيرِ وُقُوعِهَا يَرْضَى بِهَا، لِأَنَّ الرِّضَا بِقَضَاءِ اللهِ تَعَالَى وَاجِبٌ، فَعِنْدَ وُقُوعِهَا لَا يَسْتَعْظِمُهَا بِخِلَافِ الْجَاهِلِ فَإِنَّهُ يَكُونُ غَافِلًا عَنْ تِلْكَ الْمَعَارِفِ، فَعِنْدَ وُقُوعِ الْمَصَائِبِ يَعْظُمُ تَأْثِيرُهَا فِي قَلْبِهِ.

وَثَالِثُهَا: أَنَّ قَلْبَ الْمُؤْمِنِ مُنْشَرِحٌ بِنُورِ مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى، وَالْقَلْبُ إِذَا كَانَ مَمْلُوءًا مِنْ هَذِهِ الْمَعَارِفِ لَمْ يَتَّسِعْ لِلأَحْزَانِ الْوَاقِعَةِ بِسَبَبِ أَحْوَالِ الدُّنْيَا، أَمَّا قَلْبُ الْجَاهِلِ فَإِنَّهُ خَالٍ عَنْ مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى فَلَا جَرَمَ يَصِيرُ مَمْلُوءًا مِنَ الأَحْزَانِ الْوَاقِعَةِ بِسَبَبِ مَصَائِبِ الدُّنْيَا.

وَرَابِعُهَا: أَنَّ الْمُؤْمِنَ عَارِفٌ بِأَنَّ خَيْرَاتِ الْحَيَاةِ الْجِسْمَانِيَّةِ خَسِيسَةٌ فَلَا يَعْظُمُ فَرَحُهُ بِوِجْدَانِهَا وَغَمُّهُ بِفُقْدَانِهَا، أَمَّا الْجَاهِلُ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ سَعَادَةً أُخْرَى تُغَايِرُهَا فَلَا جَرَمَ يَعْظُمُ فَرَحُهُ بِوِجْدَانِهَا وَغَمُّهُ بِفُقْدَانِهَا. (التفسير الكبير (٢٠/١١٥)).

أَمَّا مَمَاتُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَقَدْ قَالَ اللهُ فِيهِ: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ» (فصلت: ٣٠- ٣٢)، وَقَالَ تَعَالَى: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» (النحل: ٣٠- ٣٢).

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ- قَالَ- فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ- قَالَ- فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ- يَعْنِي بِهَا- عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عز وجل: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. (صحيح سنن أبي داود: ٣٩٧٩).

أَمَّا مَمَاتُ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ» (الأنعام: ٩٣)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ » (الأنفال: ٥٠- ٥١).

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم كما في حديث البراء السابق:

«وإنَّ العبدَ الكافرَ إذا كان في انقطاعٍ من الدُّنيا وإقبالٍ من الآخرةِ نزلَ إليه من السَّماءِ ملائكةٌ سودُ الوجوهِ معهم المُسوحُ فيجلسونَ منه مدَّ البصرِ ثمَّ يجيءُ ملكُ الموتِ حتَّى يجلسَ عندَ رأسِه فيقولُ: أيَّتُها النَّفسُ الخبيثةُ اخرجي إلى سخطٍ من اللهِ وغضبٍ- قال- فتفرَّقُ في جسدِه، فينتزعُها كما ينتزعُ السَّفُّودُ من الصُّوفِ المبلولِ، فيأخذُها، فإذا أخذَها لم يدعُوها في يدِه طرفةَ عينٍ حتَّى يجعلُوها في تلكَ المُسوحِ، ويخرجُ منها كأنتنِ ريحِ جيفةٍ وُجدتْ على وجهِ الأرضِ، فيصعدونَ بها، فلا يمرُّونَ بها على ملأٍ من الملائكةِ إلا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟ فيقولونَ فلانُ بنُ فلانٍ بأقبحِ أسمائِه التي كانَ يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتَّى ينتهيَ به إلى السَّماءِ الدُّنيا فيُستفتحُ لهُ فلا يُفتحُ له». ثمَّ قرأَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: « إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ » (الأعراف: ٤٠). «فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتبُوا كتابَه في سجِّينٍ في الأرضِ السُّفلى فتُطرحُ روحُه طرحًا». ثمَّ قرأَ: «وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » (الحج: ٣١).

أمَّا في البرزخِ فقدْ قالَ النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم في حقِّ المؤمنِ في حديثِ البراءِ:

«فتعادُ روحُه في جسدِه فيأتيه ملكانِ فيُجلسانِه فيقولانِ له: من ربُّك؟ فيقولُ ربِّي اللهُ. فيقولانِ له: ما دينُك؟ فيقولُ ديني الإسلامُ. فيقولانِ له: ما هذا الرَّجلُ الذي بُعثَ فيكم؟ فيقولُ هو رسولُ اللهِ. فيقولانِ له: وما علمُك؟ فيقولُ قرأتُ كتابَ اللهِ فآمنتُ به وصدَّقتُ فينادي منادٍ في السَّماءِ: أنْ صدقَ عبدي، فأفرشُوه من الجنَّةِ، وألبسُوه من الجنَّةِ، وافتحُوا له بابًا إلى الجنَّةِ. قالَ: فيأتيه من روحِها وطيبِها، ويفسحُ له في قبرِه مدَّ بصرِه. قالَ: ويأتيه رجلٌ حسنُ الوجهِ، حسنُ الثِّيابِ، طيِّبُ الرِّيحِ، فيقولُ: أبشرْ بالذي يسرُّك، هذا يومُك الذي كنتَ توعدُ. فيقولُ له: من أنتَ فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالخيرِ؟ فيقولُ: أنا عملُك الصَّالحُ. فيقولُ: ربِّ أقمِ السَّاعةَ حتَّى أرجعَ إلى أهلي ومالي».

أمَّا الَّذينَ اجترحُوا السَّيِّئاتِ فقدْ وصفَ النَّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم حالَهم في القبرِ فقالَ: «فتُعادُ روحُه في جسدِه، ويأتيه ملكانِ فيُجلسانِه، فيقولانِ له: من ربُّك؟ فيقولُ: هاهْ. هاهْ. لا أدري. فيقولانِ له: ما دينُك؟ فيقولُ: هاهْ. هاهْ. لا أدري. فيقولانِ له: ما هذا الرَّجلُ الذي بُعثَ فيكم. فيقولُ: هاهْ. هاهْ. لا أدري. فينادي منادٍ من السَّماءِ: أنْ كذبَ، فافرشُوا له من النَّارِ، وافتحُوا له بابًا إلى النَّارِ، فيأتيه من حرِّها وسمومِها، ويُضيَّقُ عليه قبرُه حتَّى تختلفَ فيه أضلاعُه، ويأتيه رجلٌ قبيحُ الوجهِ، قبيحُ الثِّيابِ، منتنُ الرِّيحِ، فيقولُ: أبشرْ بالذي يسوءُك، هذا يومُك الذي كنتَ توعدُ. فيقولُ: من أنتَ فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالشَّرِّ؟ فيقولُ: أنا عملُك الخبيثُ. فيقولُ: ربِّ لا تقمِ السَّاعةَ» (صحيح سنن أبي داود: ٣٩٧٩).

أمَّا في الآخرةِ فقدْ فرَّقَ اللهُ بينَ الَّذينَ آمنُوا وعملُوا الصَّالحاتِ والَّذينَ اجترحُوا السَّيِّئاتِ، فقالَ تعالى: « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ » (الروم: ١٤- ١٦)، وقالَ تعالى: « أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ » (السجدة: ١٩- ٢٠).

وقالَ تعالى: « فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ » (عبس)، وقالَ تعالى: « إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (يونس: ٢٣- ٢٧).

وللحديث بقية إن شاء الله،

والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

الحلقة الخامسة

قال تعالى: «وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ» (الجاثية: ٢٢- ٣٣).

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ»: أَيْ لِلْعَدْلِ وَالْحَقِّ، لَا لِمَا حَسِبَ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ بِاللهِ، مِنْ أَنَّهُ يَجْعَلُ مَنِ اجْتَرَحَ السَّيِّئَاتِ، فَعَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ، كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، إِذْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلٍ غَيْرِ أَهْلِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: فَلَمْ يَخْلُقِ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لِلظُّلْمِ وَالْجَوْرِ، وَلَكِنَّا خَلَقْنَاهُمَا لِلْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَمِنَ الْحَقِّ أَنْ نُخَالِفَ بَيْنَ حُكْمِ الْمُسِيءِ وَالْمُحْسِنِ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ. (جامع البيان (١٤٩/٢٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» فِيهِ وَجْهَانِ:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ «بِالْحَقِّ» فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لأَجْلِ إِظْهَارِ الْحَقِّ، وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْعَطْفُ عَلَى مَحْذُوفٍ، وَالتَّقْدِيرُ: وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ لِيَدُلَّ بِهِمَا عَلَى قُدْرَتِهِ، وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ. وَالْمَعْنَى أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ خَلْقِ هَذَا الْعَالَمِ إِظْهَارُ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ، وَذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا إِذَا حَصَلَ الْبَعْثُ وَالْقِيَامَةُ، وَحَصَلَ التَّفَاوُتُ فِي الدَّرَجَاتِ وَالدَّرَكَاتِ بَيْنَ الْمُحِقِّينَ وَبَيْنَ الْمُبْطِلِينَ.

تعس عبد الهوى:

ثُمَّ عَادَ تَعَالَى إِلَى شَرْحِ أَحْوَالِ الْكُفَّارِ وَقَبَائِحِ طَوَائِفِهِمْ، فَقَالَ: «أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ

هَوَاهُ » يَعْنِي تَرَكُوا مُتَابَعَةَ الْهُدَى، وَأَقْبَلُوا عَلَى مُتَابَعَةِ الْهَوَى، فَكَانُوا يَعْبُدُونَ الْهَوَى كَمَا يَعْبُدُ الرَّجُلُ إِلَهَهُ، وَقُرِئَ «آلِهَتَهُ هَوَاهُ» كُلَّمَا مَالَ طَبْعُهُ إِلَى شَيْءٍ اتَّبَعَهُ وَذَهَبَ خَلْفَهُ، فَكَأَنَّهُ اتَّخَذَ هَوَاهُ آلِهَةً شَتَّى، يَعْبُدُ كُلَّ وَقْتٍ وَاحِدًا مِنْهَا. (التفسير الكبير (٢٧/٢٦٩).

وَهَذِهِ الْآيَةُ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَنِ الْمُعْرِضِينَ عَنِ الْإِيمَانِ، أَيْ لَا تَعْجَلْ بِهِمْ وَلَا تَهْتَمَّ بِأَمْرِهِمْ، فَلَيْسَ فِيهِمْ حِيلَةٌ لِبَشَرٍ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَضَلَّهُمْ.

وَقَالَ ابْنُ جُبَيْرٍ رَحِمَهُ اللهُ: قَوْلُهُ: «إِلَهَهُ هَوَاهُ» إِشَارَةٌ إِلَى الْأَصْنَامِ، إِذْ كَانُوا يَعْبُدُونَ مَا يَهْوُونَ مِنَ الْحِجَارَةِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللهُ: الْمَعْنَى: لَا يَهْوَى شَيْئًا إِلَّا رَكِبَهُ، لَا يَخَافُ اللهَ، وَهَذَا كَمَا يُقَالُ: الْهَوَى إِلَهٌ مَعْبُودٌ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي هَوَى الْكُفْرِ فَهِيَ مُتَنَاوِلَةٌ جَمِيعَ هَوَى النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: مَا ذُكِرَ اللهُ الْهَوَى إِلَّا ذَمَّهُ. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: سُمِّيَ هَوًى لِهَوِيِّهِ بِصَاحِبِهِ. وَقَالَ سَهْلٌ التُّسْتَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: هَوَاكَ دَاؤُكَ، فَإِنْ خَالَفْتَهُ فَدَوَاؤُكَ. وَقَالَ أَيْضًا: إِذَا شَكَكْتَ فِي خَيْرِ أَمْرَيْنِ، فَانْظُرْ أَبْعَدَهُمَا مِنْ هَوَاكَ فَأْتِهِ. وَمِنْ حِكْمَةِ الشِّعْرِ فِي هَذَا قَوْلُ الْقَائِلِ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْ
هَوَى إِلَى كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «عَلَىٰ عِلْمٍ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: الْمَعْنَى: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ تَعَالَى سَابِقٍ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: أَيْ عَلَى عِلْمٍ مِنْ هَذَا الضَّالِّ بِأَنَّ الْحَقَّ هُوَ الَّذِي يَتْرُكُ وَيُعْرِضُ عَنْهُ، فَتَكُونُ الْآيَةُ عَلَى هَذَا مِنْ آيَاتِ الْعِنَادِ مِنْ نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا» (النمل: ١٤)، وَعَلَى كِلَا التَّأْوِيلَيْنِ: فَ «عَلَى عِلْمٍ» حَالٌ (المحرر الوجيز (٥/٨٦).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَٰوَةً» أَيْ سَدَّ عَلَيْهِ مَنَافِذَ الْخَيْرِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ، وَلِذَلِكَ قَالَ: «فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ» ؟! أَيْ فَمَنْ يُوَفِّقُهُ لِإِصَابَةِ الْحَقِّ، وَإِبْصَارِ مَحَجَّةِ الرُّشْدِ بَعْدَ إِضْلَالِ اللهِ إِيَّاهُ، «أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» أَيُّهَا النَّاسُ، فَتَعْلَمُوا أَنَّ مَنْ فَعَلَ اللهُ بِهِ مَا وَصَفْنَا، فَلَنْ يَهْتَدِيَ أَبَدًا، وَلَنْ يَجِدَ لِنَفْسِهِ وَلِيًّا مُرْشِدًا. (جامع البيان (٢٥/١٥١).

إِبْطَالُ حُجَجِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى عَدَمِ الْبَعْثِ:

يُبْطِلُ اللهُ تَعَالَى إِنْكَارَ الْمُشْرِكِينَ لِلْبَعْثِ، وَيُدْحِضُ حُجَجَهُمْ، فَيَذْكُرُ شُبْهَتَهُمْ أَوَّلًا فَيَقُولُ:

«وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ» وَالْمَعْنَى إِنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا هِيَ حَيَاةٌ وَاحِدَةٌ، وَمَوْتَةٌ وَاحِدَةٌ، يَحْيَا الْأَحْيَاءُ ثُمَّ يَمُوتُونَ، وَتُولَدُ مَوَالِيدُ يَخْلُفُونَهُمْ ثُمَّ يَمُوتُونَ، وَهَكَذَا أَبَدًا، «وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ» أَيْ إِلَّا مُرُورُ الْأَيَّامِ، وَكَرُّ السِّنِينَ وَالْأَعْوَامِ، وَهَذَا مِنْهُمْ نَفْيٌ لِكَوْنِ اللهِ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُحْيِيهِمْ ثُمَّ يُمِيتُهُمْ. «وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» وَالظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا.

وَالدَّعَاوَى إِنْ لَمْ تُقِيمُوا
عَلَيْهَا بَيِّنَاتِ أَبْنَاؤُهَا أَدْعِيَاءُ

هَكَذَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِالْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ، ثُمَّ بَيَّنَ مَوْقِفَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِذَا جَاءَهُمْ فَقَالَ: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتُوا بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ».

يَقُولُ تَعَالَى إِنَّ هَؤُلَاءِ الْكَاذِبِينَ الْمُكَذِّبِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللهِ الْبَيِّنَاتُ الدَّالَّاتُ عَلَى أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَيَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ -وَهِيَ كَثِيرَةٌ- عَارَضُوهَا بِقَوْلِهِمْ: «ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» يَعْنُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي قَوْلِكُمْ إِنَّ اللهَ يُحْيِي الْمَوْتَى فَابْعَثُوا مَنْ مَاتَ مِنْ آبَائِنَا.

وَعَمَلِيَّةُ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ تَتَكَرَّرُ كُلَّ لَحْظَةٍ وَلَكِنَّهُمْ لَا يُبْصِرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ» (ق: ١٥)، فَفِي كُلِّ سَاعَةٍ يَمُوتُ أُنَاسٌ وَيُولَدُ آخَرُونَ، وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَيَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ

تَعَالَى: «قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» أَنَّ الَّذِي أَحْيَاهُمْ ثُمَّ أَمَاتَهُمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَبْعَثَهُمْ.

وَهَذِهِ الآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (البقرة: ٢٨)، وَكَثِيرًا مَا أَرْشَدَهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَى أَنَّ الَّذِي أَحْيَاهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَهُمْ مَرَّةً ثَانِيَةً: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى» (النجم: ٣١).

قَالَ تَعَالَى: «وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا» (مريم: ٦٦- ٦٨). وَقَالَ تَعَالَى: «أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» (يس: ٧٧- ٧٩).

وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ» (الواقعة: ٦٢) أَنَّ الَّذِي خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُعِيدَكُمْ مَرَّةً ثَانِيَةً.

أَهْوَالُ الْقِيَامَةِ وَأَحْوَالُ النَّاسِ فِيهَا:

«وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ»:

«وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» فَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَكَيْفَ يَشَاءُ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ. «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ»، الَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ، وَكَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ، وَأَنْكَرُوا الْبَعْثَ بَعْدَ الْمَوْتِ، «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ».

ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى أَهْوَالَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: «وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً، عَلَى رُكَبِهَا مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ وَالْخَوْفِ، تَحِلَّةَ قَسَمِ رَبِّنَا حَيْثُ قَالَ: «فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا» (مريم: ٦٨).

«كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا» الَّذِي أَحْصَى أَعْمَالَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ» (يس: ١٢)، وَقَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا» (الإسراء: ٧١- ٧٢).

«الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» لَا تَخَافُونَ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا. كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (غافر: ١٦- ١٧).

«هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ»، فَهَلْ تُنْكِرُونَ مِنْهُ شَيْئًا؟

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ لَا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى! إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ. فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟! فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ». (صحيح سنن الترمذي ٢٦٣٩).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» أَيْ نُكَلِّفُ الْمَلَائِكَةَ بِكِتَابَةِ أَعْمَالِكُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ» (الزخرف: ٧٩- ٨٠)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» (ق: ١٦-١٨)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا» (الإسراء: ١٣- ١٤).

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: يَا ابْنَ آدَمَ! بُسِطَتْ لَكَ صَحِيفَةٌ، وَوُكِّلَ بِكَ مَلَكَانِ كَرِيمَانِ، أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِكَ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِكَ، فَأَمَّا الَّذِي عَنْ يَمِينِكَ فَيَحْفَظُ حَسَنَاتِكَ، وَأَمَّا الَّذِي عَنْ شِمَالِكَ فَيَحْفَظُ سَيِّئَاتِكَ، فَاعْمَلْ مَا شِئْتَ، أَقِلَّ أَوْ أَكْثِرْ، حَتَّى إِذَا مِتَّ طُوِيَتْ صَحِيفَتُكَ فَجُعِلَتْ فِي عُنُقِكَ مَعَكَ فِي قَبْرِكَ، حَتَّى تَخْرُجَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا تَلْقَاهُ مَنْشُورًا، «اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا»، فَقَدْ عَدَلَ وَاللهِ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ. (تفسير القرآن العظيم: ٣/٢٨).

وَفِي هَذِهِ الْمَعَانِي قَالَ بَعْضُهُمْ:

مَثِّلْ وُقُوفَكَ يَوْمَ الْعَرْضِ عُرْيَانًا
مُسْتَوْحِشًا قَلِقَ الْأَحْشَاءِ حَيْرَانًا
اقْرَأْ كِتَابَكَ يَا عَبْدِي عَلَى مَهَلٍ
فَهَلْ تَرَى فِيهِ حَرْفًا غَيْرَ مَا كَانَا
لَمَّا قَرَأْتَ وَلَمْ تُنْكِرْ قِرَاءَتَهُ
إِقْرَارَ مَنْ عَرَفَ الْأَشْيَاءَ عِرْفَانَا
نَادَى الْجَلِيلُ خُذُوهُ يَا مَلَائِكَتِي
وَامْضُوا بِعَبْدٍ عَصَى لِلنَّارِ عَطْشَانَا
الْمُشْرِكُونَ غَدًا فِي النَّارِ يَلْتَهِبُوا
وَالْمُؤْمِنُونَ بِدَارِ الْخُلْدِ سُكَّانَا

(التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة: ص٦٢٠).

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى جَزَاءَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا» بِقُلُوبِهِمْ «وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» بِجَوَارِحِهِمْ، فَكَانُوا مُؤْمِنِينَ مُسْلِمِينَ، «فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ» يَعْنِي الْجَنَّةَ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي» (أخرجه البخاري ٤٨٥٠).

«ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ»

وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ» (الزخرف: ٦٧- ٧٠).

«وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا» بِرَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ فَإِنَّ اللهَ يُوَبِّخُهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فَيَقُولُ: «أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ» عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، «فَاسْتَكْبَرْتُمْ» عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَاتِّبَاعِ الرُّسُلِ، «وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ» فِي أَفْعَالِكُمْ كَمَا كُنْتُمْ مُسْتَكْبِرِينَ فِي قُلُوبِكُمْ. «وَإِذَا قِيلَ» أَيْ قَالَتْ لَكُمُ الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ «إِنَّ وَعْدَ اللهِ» لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ، وَلِلْكَافِرِينَ بِالنَّارِ، وَعْدٌ «حَقٌّ» وَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ وَعْدَهُ، «وَالسَّاعَةُ» آتِيَةٌ «لَا رَيْبَ فِيهَا» فَاسْتَعَدُّوا لَهَا، «مَا كَانَ جَوَابُكُمْ إِلَّا أَنْ قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ» أَنَّنَا إِلَى اللهِ رَاجِعُونَ. وَكَانَتِ الْمُفَاجَأَةُ أَنْ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ، «وَبَدَا لَهُمْ» أَيْ ظَهَرَ لَهُمْ «سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا»، أَمَّا أَحْسَنُ مَا عَمِلُوا فَقَدْ صَارَ هَبَاءً مَنْثُورًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (النور: ٣٩)، وَقَالَ تَعَالَى: «فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ» (فصلت: ٢٧).

«وَحَاقَ بِهِمْ» أَيْ أَحَاطَ بِهِمْ «مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» مِنَ الْعَذَابِ.

وَلِلْحَدِيثِ بَقِيَّةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

الحلقة السادسة

قال تعالى: «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (الجاثية: ٣٤- ٣٧).

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

التحذير من نسيان يوم الدين:

«وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ» أي نعاملكم معاملة الناسي لكم في نار جهنم، «كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا» أي فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به «وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ» ينصرونكم من عذاب الله.

وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «ألم أزوجك؟ ألم أكرمك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى يا رب. فيقول أفظننت أنك ملاقيَّ؟ فيقول: لا. فيقول الله تعالى: فاليوم أنساك كما نسيتني» (صحيح مسلم ٢٩٦٨).

فلا تنس يا عبد الله أنك إلى الله راجع، وبين يدي الله موقوف، وأمام الله مسئول، فإن هذا النسيان سبب العذاب، قال الله تعالى: «يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ» (ص: ٢٦).

وقال تعالى: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ» (طه: ١٢٤- ١٢٦).

وقال تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۖ إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» (السجدة: ١٢- ١٤).

وقال تعالى: «وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا

يَجْحَدُونَ» (الأعراف: ٥٠- ٥١).

لا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا:

ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى عِلَّةَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ فَقَالَ: «ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ»:

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: يُقَالُ لَهُمْ: هَذَا الَّذِي حَلَّ بِكُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ الْيَوْمَ «بِأَنَّكُمْ» فِي الدُّنْيَا «اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ» وَهِيَ حُجَجُهُ وَأَدِلَّتُهُ، وَآيُ كِتَابِهِ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم «هُزُوًا» يَعْنِي سُخْرِيَةً تَسْخَرُونَ مِنْهَا، «وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا» يَقُولُ: وَخَدَعَتْكُمْ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، فَآثَرْتُمُوهَا عَلَى الْعَمَلِ لِمَا يُنْجِيكُمُ الْيَوْمَ مِنْ عَذَابِ اللهِ. «فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا» أَيْ مِنَ النَّارِ، «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» أَيْ وَلَا هُمْ يُرَدُّونَ إِلَى الدُّنْيَا لِيَتُوبُوا وَيُرَاجِعُوا الْإِنَابَةَ مِمَّا عُوقِبُوا عَلَيْهِ.

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعَالَى السُّورَةَ الْكَرِيمَةَ بِحَمْدِ نَفْسِهِ، تَعْلِيمًا لِعِبَادِهِ أَنْ يَحْمَدُوهُ، فَقَالَ: «فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: «فَلِلَّهِ الْحَمْدُ» عَلَى نِعَمِهِ وَأَيَادِيهِ عِنْدَ خَلْقِهِ، فَإِيَّاهُ فَاحْمَدُوا أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّ كُلَّ مَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْهُ دُونَ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلِهَةٍ وَوَثَنٍ، وَدُونَ مَا تَتَّخِذُونَهُ مِنْ دُونِهِ رَبًّا، وَتُشْرِكُونَ بِهِ مَعَهُ، «رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ» أي مَالِكِ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وَمَالِكِ الْأَرَضِينَ السَّبْعِ، وَ«رَبِّ الْعَالَمِينَ» أي مَالِكِ جَمِيعِ مَا فِيهِنَّ مِنْ أَصْنَافِ الْخَلْقِ، «وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» أي وَلَهُ الْعَظَمَةُ وَالسُّلْطَانُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ، «وَهُوَ الْعَزِيزُ» فِي نِقْمَتِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ، الْقَاهِرُ كُلَّ مَا دُونَهُ، وَلَا يَقْهَرُهُ شَيْءٌ، «الْحَكِيمُ» فِي تَدْبِيرِهِ خَلْقَهُ وَتَصْرِيفِهِ إِيَّاهُمْ فِيمَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ. (جَامِعِ الْبَيَانِ (٢٥/١٥٨ و١٥٩)).

وَهَكَذَا خَتَمَ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْحَمْدِ، كَمَا فَعَلَ فِي خَوَاتِيمِ الزُّمَرِ؛ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ» (الزمر: ٦٨).

ثُمَّ ذَكَرَ مَآلَ الْكُفَّارِ وَمَآلَ الْأَبْرَارِ، ثُمَّ قَالَ: «وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (الزمر: ٧٥).

تم تفسير سورة الجاثية بحمد الله

سُورَةُ الأَحْقَافِ

الحلقة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

«حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ» (الأحقاف: ١- ٣)

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ:

الأَحْقَافُ جَمْعُ الْحِقْفِ، وَهُوَ رَمْلٌ مُسْتَطِيلٌ مُرْتَفِعٌ، فِيهِ اعْوِجَاجٌ وَانْحِنَاءٌ، وَمِنْهُ احْقَوْقَفَ الشَّيْءُ: اعْوَجَّ. (البحر المحيط(٨/٥٣)).

وَوَجْهُ تَسْمِيَةِ السُّورَةِ «الأَحْقَافَ» وُرُودُ لَفْظِ (الأَحْقَافِ) فِيهَا، وَلَمْ يَرِدْ فِي غَيْرِهَا مِنْ سُوَرِ الْقُرْآنِ. (التحرير والتنوير (٢٦/٥)).

وَقَالَ الْمَهَايِمِيُّ: سُمِّيَتْ بِهَا لأَنَّ مَكَانَهَا مِنْ حَيْثُ قَبُولُهُ سُرْعَةَ تَأْثِيرِ رِيحِ الْعَذَابِ فِيهِ كَالدَّلِيلِ عَلَى إِنْذَارِهِ، فَفِيهِ إِشْعَارٌ عَلَى أَنَّ إِنْذَارَاتِ الْقُرْآنِ كَالدَّلاَئِلِ عَلَى أَنْفُسِهَا.

ثُمَّ فِي قِصَّتِهِمْ اتِّسَاقُ الإِنْذَارِ إِلَى صَيْرُورَةِ الْمَرْجُوِّ مَخُوفًا، فَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ إِنْذَارَاتِ الْقُرْآنِ مِمَّا يُخَافُ مِنْهَا صَيْرُورَةُ مَا يَرْجُوهُ الْجُهَّالُ مَخُوفًا عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ. (محاسن التأويل(١٥/٤)).

وَمُنَاسَبَةُ أَوَّلِهَا لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّ فِي آخِرِ مَا قَبْلَهَا: «ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا» (الجاثية: ٣٥)، وَقُلْتُمْ: أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم اخْتَلَقَهَا، فَقَالَ تَعَالَى: «حٰمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ» (الأحقاف: ١-٢)، وَهَاتَانِ الصِّفَتَانِ هُمَا آخِرُ تِلْكَ، وَهُمَا أَوَّلُ هَذِهِ. (البحر المحيط(٨/٥٤)).

وَلَمَّا خَتَمَ اللهُ تَعَالَى السُّورَةَ الَّتِي قَبْلَهَا بِذِكْرِ التَّوْحِيدِ وَذَمِّ أَهْلِ الشِّرْكِ وَالْوَعِيدِ افْتَتَحَ هَذِهِ بِالتَّوْحِيدِ ثُمَّ بِالتَّوْبِيخِ لأَهْلِ الْكُفْرِ مِنَ الْعَبِيدِ (روح المعاني (٢٦/٤)).

وَهِيَ سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ، تُعَالِجُ قَضِيَّةَ الْعَقِيدَةِ، قَضِيَّةَ الإِيمَانِ بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ الْمُطْلَقَةِ لِهَذَا الْوُجُودِ وَمَنْ فِيهِ وَمَا فِيهِ، وَالإِيمَانِ بِالْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم رَسُولٌ سَبَقَتْهُ الرُّسُلُ، أُوحِيَ إِلَيْهِ الْقُرْآنُ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَالإِيمَانِ بِالْبَعْثِ وَمَا وَرَاءَهُ مِنْ حِسَابٍ وَجَزَاءٍ عَلَى مَا كَانَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ عَمَلٍ وَكَسْبٍ، وَمِنْ إِحْسَانٍ وَإِسَاءَةٍ.

وَهَذِهِ هِيَ الأُسُسُ الأُولَى الَّتِي يُقِيمُ عَلَيْهَا الإِسْلاَمُ بِنَاءَهُ كُلَّهُ، وَمِنْ ثَمَّ عَالَجَهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي كُلِّ سُوَرِهِ الْمَكِّيَّةِ عِلاَجًا أَسَاسِيًّا، وَظَلَّ يُذَكِّرُ بِهَا فِي سُوَرِهِ الْمَدَنِيَّةِ كُلَّمَا هَمَّ بِتَوْجِيهٍ أَوْ تَشْرِيعٍ. (في ظلال القرآن(٧/٤٠٠)).

الْقُرْآنُ كَلاَمُ اللهِ:

«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»:

هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ عز وجل عَنْ مَصْدَرِ هَذَا الْكِتَابِ وَتَنْزِيلِهِ «مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ» أَيْ ذِي الْعِزَّةِ وَالْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ، الَّذِي يَغْلِبُ وَلاَ يُغْلَبُ، وَيَقْهَرُ وَلاَ يُقْهَرُ، «الْحَكِيمِ» فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَشَرْعِهِ وَقَدَرِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مُنَزَّهٌ عَنِ الْعَبَثِ، وَمُنَزَّهٌ عَنِ اللَّعِبِ، وَمُنَزَّهٌ عَنِ الْبَاطِلِ.

وَقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا التَّقْرِيرُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَلاَ سِيَّمَا فِي هَذِهِ السُّوَرِ الْمَعْرُوفَةِ بِآلِ حم. وَأَكَّدَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ ذَلِكَ بِالْقَسَمِ فِي مَوَاضِعَ:

قَالَ تَعَالَى: «فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» (الواقعة: ٧٥- ٨٠)، وَقَالَ تَعَالَى: «فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» (الحاقة: ٣٨- ٤٣).

فَلَيْسَ لِهَذَا الْقُرْآنِ مَصْدَرٌ سِوَى اللهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، «وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» (يونس: ٣٧)، «قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا» (الإسراء: ٨٨).

لِمَاذَا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ»:

أَيْ خَلَقَا مُتَلَبِّسًا بِالْحَقِّ. وَالْحَقُّ ضِدُّ الْبَاطِلِ، وَمَعْنَى كَوْنِ خَلْقِهِ لِلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مُتَلَبِّسًا بِالْحَقِّ أَنَّهُ خَلَقَهُمَا لِحِكَمٍ بَاهِرَةٍ، وَلَمْ يَخْلُقْهُمَا بَاطِلاً، وَلاَ عَبَثًا، وَلاَ لَعِبًا.

فَمِنَ الْحَقِّ الَّذِي كَانَ خَلْقُهُمَا مُتَلَبِّسًا بِهِ إِقَامَةُ الْبُرْهَانِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْوَاحِدُ الْمَعْبُودُ

وَحْدَهُ- جَلَّ وَعَلاَ-، كَمَا أَوْضَحَ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ- لاَ نَكَادُ نُحْصِيهَا- فِي الْمُصْحَفِ الْكَرِيمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: « اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (غافر: ٦٤- ٦٥)، وَقَالَ تَعَالَى: « خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ » (الزمر: ٥- ٦)، وَقَالَ تَعَالَى: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » (البقرة: ٢١- ٢٢).

وَمِنَ الْحَقِّ الَّذِي خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا، خَلْقًا مُتَلَبِّسًا بِهِ تَعْلِيمُهُ خَلْقَهُ أَنَّهُ تَعَالَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا » (الطلاق: ١٢)، فَلاَمُ التَّعْلِيلِ فِي قَوْلِهِ: «لِتَعْلَمُوا» مُتَعَلِّقَةٌ بِقَوْلِهِ: «خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ»، وَبِهِ تَعْلَمُ أَنَّهُ مَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ، وَالأَرْضِينَ السَّبْعَ، وَجَعَلَ الأَمْرَ يَتَنَزَّلُ بَيْنَهُنَّ، إِلاَّ خَلْقًا مُتَلَبِّسًا بِالْحَقِّ.

وَمِنَ الْحَقِّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا خَلْقًا مُتَلَبِّسًا بِهِ، هُوَ تَكْلِيفُ الْخَلْقِ وَابْتِلاَؤُهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، ثُمَّ جَزَاؤُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » (هود: ٧)، فَلاَمُ التَّعْلِيلِ فِي قَوْلِهِ: «لِيَبْلُوَكُمْ» مُتَعَلِّقَةٌ بِقَوْلِهِ: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ»، وَبِهِ تَعْلَمُ أَنَّهُ مَا خَلَقَهُمَا إِلاَّ خَلْقًا مُتَلَبِّسًا بِالْحَقِّ.

وَمِمَّا يُوَضِّحُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ مَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ إِلاَّ خَلْقًا مُتَلَبِّسًا بِالْحَقِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ » (الذاريات: ٥٦- ٥٧)، سَوَاءٌ قُلْنَا: إِنَّ مَعْنَى «إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ» أَيْ لآمُرَهُمْ بِعِبَادَتِي فَيَعْبُدُنِي السُّعَدَاءُ مِنْهُمْ؛ لأَنَّ عِبَادَتَهُمْ يَحْصُلُ بِهَا تَعْظِيمُ اللهِ وَطَاعَتُهُ وَالْخُضُوعُ لَهُ، أَوْ قُلْنَا: إِنَّ مَعْنَى «إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ» أَيْ إِلاَّ لِيُقِرُّوا لِي بِالْعُبُودِيَّةِ، وَيَخْضَعُوا وَيُذْعِنُوا لِعَظَمَتِي؛ لأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ طَوْعًا، وَالْكُفَّارُ يُذْعِنُونَ لِقَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ كَرْهًا.

وَمِنَ الْحَقِّ الَّذِي خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ خَلْقًا مُتَلَبِّسًا بِهِ أَنْ يَسْتَدِلَّ أُولُوا الأَلْبَابِ بِخَلْقِهِنَّ عَلَى الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ: « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (الأحقاف: ٣٣)، وَقَالَ تَعَالَى: « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » (يس: ٨١).

وَمِنَ الْحَقِّ الَّذِي خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ خَلْقًا مُتَلَبِّسًا بِهِ جَزَاءُ النَّاسِ بِأَعْمَالِهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ » (النجم: ٣١)،

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ» أَيْ هُوَ خَالِقُهُمَا وَمَنْ فِيهِمَا «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى»، وَيُوَضِّحُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: « إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ » (يونس: ٣- ٤). (أضواء البيان (٢٠٧/٧)).

والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الأحقاف

الحلقة الثانية

إعداد:
د/ عبد العظيم بدوي
نائب الرئيس العام

قال تعالى:

« مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ »

(الأحقاف: ٣-٤).

لكُلِّ مخلوقٍ أجَلٌ:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَجَلٍ مُسَمًّى» يَعْنِى أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا وَجَعَلَ لِهَذَا المَخْلُوقِ أَجَلاً يَنْتَهِي إِلَيْهِ، كَمَا يَنْتَهِي كُلُّ مَخْلُوقٍ إِلَى أَجَلِهِ، فَكَمَا أَنَّ الأَفْرَادَ وَالأُمَمَ وَالْجَمَاعَاتِ وَالأَجْيَالَ لِكُلٍّ مِنْهَا أَجَلٌ تَنْتَهِي إِلَيْهِ، «فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» (الأعراف: ٣٤)، فَكَذَلِكَ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا لَهُنَّ أَجَلٌ، إِذَا جَاءَ زَالَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ» (الأنبياء: ١٠٤)، وَقَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ» (إبراهيم: ٤٨)، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ» (الأنعام: ١-٢).

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً» أَيْ ثُمَّ قَضَى لِكُلٍّ مِنْكُمْ أَجَلاً يَنْتَهِي إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا» (ال عمران: ١٤٥)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ» وَهُوَ الأَجَلُ الَّذِي سَمَّاهُ اللهُ تَعَالَى لِلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَلِلدُّنْيَا كُلِّهَا، فَالدُّنْيَا كُلُّهَا وَمَا فِيهَا مِنْ مَخْلُوقَاتٍ لَهَا أَجَلٌ تَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَإِذَا جَاءَ هَذَا الأَجَلُ زَالَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ» مَا لَمْ يَأْتِ الأَجَلُ، «وَلَئِنْ زَالَتَا، إِذَا جَاءَ «إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ» (فاطر: ٤١)، أَيْ لاَ يُمْسِكُهُمَا أَحَدٌ غَيْرُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «تَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ»؟. قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنَ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلاَ يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: « وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَآ ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ » (يس: ٣٨). (صحيح البخاري ٣١٩٩).

ذمُّ المُعْرِضِينَ عَنْ آياتِ اللهِ:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ» أَيْ مُدْبِرُونَ، لاَ يُقْبِلُونَ وَلاَ يَقْبَلُونَ، وَلاَ يَهْتَدُونَ

وَلاَ يَتَذَكَّرُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ» (الأنبياء: ١-٣).

وَقَالَ تَعَالَى: «وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» (يوسف: ١٠٥).

وَقَالَ تَعَالَى: «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۝١٤ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٥ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ» (الصافات: ١٢- ١٧).

«ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ»:

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أَيْ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، فَالدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ كَمَا سَمَّاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ:

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ». وَقَرَأَ: «وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» (غافر: ٦٠). (أخرجه الترمذي ٣٢٤٧، وصححه الألباني).

«أَرُونِي» أَيْ أَخْبِرُونِي «مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ» وَالْمُرَادُ أَنَّ هَذِهِ الأَصْنَامَ، هَلْ يُعْقَلُ أَنْ يُضَافَ إِلَيْهَا خَلْقُ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْعَالَمِ؟ فَإِنْ لَمْ يَصِحَّ ذَلِكَ فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهَا أَعَانَتْ إِلَهَ الْعَالَمِ فِي خَلْقِ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْعَالَمِ؟ وَلَمَّا كَانَ صَرِيحُ الْعَقْلِ حَاكِمًا بِأَنَّهُ لاَ يَجُوزُ إِسْنَادُ خَلْقِ جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ هَذَا الْعَالَمِ إِلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْجُزْءُ أَقَلَّ الأَجْزَاءِ، وَلاَ يَجُوزُ أَيْضًا إِسْنَادُ الإِعَانَةِ إِلَيْهَا فِي أَقَلِّ الأَفْعَالِ وَأَذَلِّهَا، فَحِينَئِذٍ صَحَّ أَنَّ الْخَالِقَ الْحَقِيقِيَّ لِهَذَا الْعَالَمِ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ، وَأَنَّ الْمُنْعِمَ الْحَقِيقِيَّ بِجَمِيعِ أَقْسَامِ النِّعَمِ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ، وَالْعِبَادَةُ عِبَارَةٌ عَنِ الإِتْيَانِ بِأَكْمَلِ وُجُوهِ التَّعْظِيمِ، وَذَلِكَ لاَ يَلِيقُ إِلاَّ بِمَنْ صَدَرَ عَنْهُ أَكْمَلُ وُجُوهِ الإِنْعَامِ، فَلَمَّا كَانَ الْخَالِقُ الْحَقُّ وَالْمُنْعِمُ الْحَقِيقِيُّ هُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَجَبَ أَنْ لاَ يَجُوزَ الإِتْيَانُ بِالْعِبَادَةِ وَالْعُبُودِيَّةِ إِلاَّ لَهُ وَلأَجْلِهِ. (التفسير الكبير ٣/٢٨ و٤).

قَالَ تَعَالَى: «أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝٢٣ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٤ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» (الأنبياء: ٢١- ٢٥).

وَقَالَ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ» (الحج: ٧٣).

وَقَالَ تَعَالَى: «قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ» (الرعد: ١٦).

وَقَالَ تَعَالَى: «أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝١٩ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٢٢ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ» (النحل: ١٧- ٢٣).

بَقِيَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّا لاَ نَعْبُدُهَا لأَنَّهَا تَسْتَحِقُّ هَذِهِ الْعِبَادَةَ، بَلْ إِنَّمَا نَعْبُدُهَا لأَجْلِ أَنَّ الإِلَهَ الْخَالِقَ الْمُنْعِمَ أَمَرَنَا بِعِبَادَتِهَا! فَعِنْدَ هَذَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى مَا يَجْرِي مَجْرَى الْجَوَابِ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ، فَقَالَ: «ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

وَتَقْرِيرُ هَذَا الْجَوَابِ: أَنَّ وُرُودَ هَذَا الأَمْرِ لاَ سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلاَّ بِالْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ، فَنَقُولُ: هَذَا الْوَحْيُ الدَّالُّ عَلَى الأَمْرِ بِعِبَادَةِ هَذِهِ الأَوْثَانِ، إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى مُحَمَّدٍ أَوْ فِي سَائِرِ الْكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى سَائِرِ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنْ لَمْ يُوجَدْ ذَلِكَ فِي الْكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ لَكِنَّهُ مِنْ تَقَابُلِ الْعُلُومِ الْمَنْقُولَةِ عَنْهُمْ، وَالْكُلُّ بَاطِلٌ.

أَمَّا إِثْبَاتُ ذَلِكَ بِالْوَحْيِ إِلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فَهُوَ مَعْلُومُ الْبُطْلاَنِ، وَأَمَّا إِثْبَاتُهُ بِسَبَبِ اشْتِمَالِ الْكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى الأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ عَلَيْهِ، فَهُوَ أَيْضًا بَاطِلٌ، لأَنَّهُ عُلِمَ بِالتَّوَاتُرِ الضَّرُورِيِّ إِطْبَاقُ جَمِيعِ الْكُتُبِ الإِلَهِيَّةِ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: «ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا».

وَأَمَّا إِثْبَاتُ ذَلِكَ بِالْعُلُومِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ سِوَى مَا جَاءَ فِي الْكُتُبِ فَهَذَا أَيْضًا بَاطِلٌ، لأَنَّ الْعِلْمَ الضَّرُورِيَّ حَاصِلٌ بِأَنَّ أَحَدًا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مَا دَعَا إِلَى عِبَادَةِ الأَصْنَامِ، وَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ». وَلَمَّا بَطَلَ الْكُلُّ ثَبَتَ أَنَّ الاشْتِغَالَ بِعِبَادَةِ الأَصْنَامِ عَمَلٌ بَاطِلٌ وَقَوْلٌ فَاسِدٌ. (التفسير الكبير ٣/٢٨، ٤).

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

« قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ »

(الأحقاف: ٩- ١٠).

باب التفسير

سُورَةُ الأَحْقَافِ

الحلقة الرابعة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم أَنْ يَقُولَ: «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ» فَلَسْتُ أَوَّلَ إِنْسَانٍ يَدَّعِي أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ، فَقَدْ سَبَقَنِي رُسُلٌ كَثِيرُونَ، أَوْحَى اللهُ إِلَيَّ كَمَا أَوْحَى إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » (الشورى: ٣)، وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا » (النساء: ١٦٣- ١٦٦)، فَكَمَا بَعَثَ اللهُ تَعَالَى نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى كَذَلِكَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم، فَكَيْفَ تَعْجَبُونَ أَنْ يَأْتِيَكُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَقَدْ سَبَقَنِي رُسُلٌ كَثِيرُونَ.

وَقَوْلُهُ صلى الله عليه وسلم: «وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ»: أَيْ فِي الدُّنْيَا، عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: أَمَّا فِي الآخِرَةِ فَمَعَاذَ اللهِ، قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ فِي الْجَنَّةِ حِينَ أَخَذَ مِيثَاقَهُ فِي الرُّسُلِ، وَلَكِنْ قَالَ: «وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ» فِي الدُّنْيَا، أُخْرِجُ كَمَا أُخْرِجَتِ الأَنْبِيَاءُ قَبْلِي، أَوْ أُقْتَلُ كَمَا قُتِلَتِ الأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِي، ثُمَّ أُوحِيَ إِلَيْهِ: « وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ » (الإسراء: ٦٠)، يَقُولُ: أَحَطْتُ لَكَ بِالْعَرَبِ أَنْ لَا يَقْتُلُوكَ، فَعَرَفَ أَنَّهُ لَا يُقْتَلُ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: « هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا » (الفتح: ٢٨)، يَقُولُ: أَشْهَدُ لَكَ عَلَى نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيُظْهِرُ دِينَكَ عَلَى الأَدْيَانِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي أُمَّتِهِ: « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ » (الأنفال: ٣٣) فَأَخْبَرَهُ اللهُ مَا يَصْنَعُ بِهِ وَمَا يَصْنَعُ بِأُمَّتِهِ. (جامع البيان(٢٦/٧و٨)).

فَإِنْ قِيلَ: لَكِنْ قَدْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ أُمَّ الْعَلاءِ- امْرَأَةً مِنَ الأَنْصَارِ بَايَعَتِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم- أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتَسَمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً، فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ،

فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ وَغُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ، دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ»؟. فَقُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ؟! فَقَالَ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهِ إِنِّي لأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي- وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ- مَا يُفْعَلُ بِي». قَالَتْ: فَوَاللَّهِ لاَ أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا. (صحيح البخاري ١٢٤٣).

فَهَذَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ صلى الله عليه وسلم: «وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ» يَشْمَلُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّ الْبُخَارِيَّ أَخْرَجَ الْحَدِيثَ فِي كِتَابِ «الشَّهَادَاتِ» مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى وَفِيهَا: «وَاللَّهِ مَا أَدْرِي- وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ- مَا يُفْعَلُ بِهِ.» (صحيح البخاري ٢٦٨٧). قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا أَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَحْفُوظَ. (تفسير القرآن العظيم(٤/١٥٥)).

وَقَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَوْجِيهِ رِوَايَةِ «بِي»:

وَإِنَّمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ذَلِكَ مُوَافَقَةً لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الأَحْقَافِ: «قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ» وَكَانَ ذَلِكَ قَبْلَ نُزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى: «لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا» (الفتح: ٢)، لأَنَّ الأَحْقَافَ مَكِّيَّةٌ، وَسُورَةَ الْفَتْحِ مَدَنِيَّةٌ، بِلاَ خِلاَفٍ فِيهِمَا، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ صلى اللَّهُ عليه وسلم قَالَ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الأَخْبَارِ الصَّرِيحَةِ فِي مَعْنَاهُ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ يُحْمَلَ الإِثْبَاتُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْعِلْمِ الْمُجْمَلِ، وَالنَّفْيُ عَلَى الإِحَاطَةِ مِنْ حَيْثُ التَّفْصِيلُ (فتح الباري (٣/١١٥)).

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ: "وَأَوْلَى الأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصِّحَّةِ، وَأَشْبَهُهَا بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ التَّنْزِيلُ، الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ أَوْلاَهَا بِالصَّوَابِ لأَنَّ الْخِطَابَ مِنْ مُبْتَدَأِ هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ وَالْخَبَرُ خَرَجَ مِنَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ خِطَابًا لِلْمُشْرِكِينَ وَخَبَرًا عَنْهُمْ، وَتَوْبِيخًا لَهُمْ، وَاحْتِجَاجًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَيْهِمْ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ أَيْضًا سَبِيلُهَا سَبِيلُ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا فِي أَنَّهَا احْتِجَاجٌ عَلَيْهِمْ، وَتَوْبِيخٌ لَهُمْ، أَوْ خَبَرٌ عَنْهُمْ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ، فَمُحَالٌ أَنْ يُقَالَ لِلنَّبِيِّ صلى اللَّهُ عليه وسلم: قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ مَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ فِي الآخِرَةِ، وَآيَاتُ كِتَابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فِي تَنْزِيلِهِ وَوَحْيِهِ إِلَيْهِ مُتَتَابِعَةٌ بِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ فِي النَّارِ مُخَلَّدُونَ، وَالْمُؤْمِنُونَ بِهِ فِي الْجِنَانِ مُنَعَّمُونَ، وَبِذَلِكَ يُرَهِّبُهُمْ مَرَّةً، وَيُرَغِّبُهُمْ أُخْرَى، وَلَوْ قَالَ لَهُمْ ذَلِكَ لَقَالُوا لَهُ: فَعَلاَمَ نَتَّبِعُكَ إِذًا وَأَنْتَ لاَ تَدْرِي إِلَى أَيِّ حَالٍ تَصِيرُ غَدًا فِي الْقِيَامَةِ، إِلَى خَفْضٍ وَدَعَةٍ، أَمْ إِلَى شِدَّةٍ وَعَذَابٍ، وَإِنَّمَا اتَّبَاعُنَا إِيَّاكَ إِنِ اتَّبَعْنَاكَ، وَتَصْدِيقُنَا بِمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ، رَغْبَةً فِي نِعْمَةٍ وَكَرَامَةٍ نُصِيبُهَا، أَوْ رَهْبَةً مِنْ عُقُوبَةٍ، وَعَذَابٍ نَهْرُبُ مِنْهُ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ كَمَا قَالَ الْحَسَنُ، ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم مَا هُوَ فَاعِلٌ بِهِ، وَبِمَنْ كَذَّبَ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ قَوْمِهِ وَغَيْرِهِمْ". (جامع البيان(٨/٢٦)).

وَقَوْلُهُ: «إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ» يَعْنِي أَنَّهُ مُتَّبِعٌ لاَ مُبْتَدِعٌ، وَمُبَلِّغٌ لاَ مُفْتَرٍ، فَكُلُّ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، أَوْ آمُرُكُمْ بِهِ، أَوْ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ وَحْيُ اللَّهِ إِلَيَّ، أَمَرَنِي بِتَبْلِيغِهِ إِيَّاكُمْ، «وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ» أُنْذِرُكُمْ عَذَابَ اللَّهِ الَّذِي تَسْتَحِقُّونَهُ بِكُفْرِكُمْ بِهِ وَعِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»: يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ صلى اللَّهُ عليه وسلم أَنْ يَقُولَ لِمُكَذِّبِيهِ: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ» هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي تَزْعُمُونَ أَنَّنِي افْتَرَيْتُهُ «مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ» كَيْفَ تَكُونُ عَاقِبَتُكُمْ؟ لَنْ تَكُونَ إِلاَّ كَمَا قَالَ اللَّهُ: «أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ» (غافر: ٦٩-٧٢).

وللحديث بقية إن شاء الله

والحمد لله رب العالمين.

اعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فمِنَ المَعْلوم من الدِّين أنَّ القُرْآنَ الكريمَ منهُ المَكِّيُّ والمَدَنِي، والمَكِّيُّ ما نَزَلَ قبْلَ الهِجْرَة ولَوْ خارجَ مَكَّة، والمَدَنِي ما نَزَلَ بَعْدَ الهِجْرَة ولَوْ خارجَ المَدِينَة، ومِنْ سِمَاتِ القُرْآنِ المَكِّيِّ الاهْتِمَامُ بالعَقِيدَة ومَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وهَذَا هُوَ مَا رَبَّى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَيْه مَنْ آمَنَ به من السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ، كَمَا صَرَّحَ به جَعْفَرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه للنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الحَبَشَة، كَمَا في الحديث عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في قِصَّة هِجْرَتِهِمْ إلى الحَبَشَة وإكْرَامِ النَّجَاشِيِّ نُزُلَهُمْ، وبَعْثِ قُرَيْشٍ إليْه ليَرُدَّهُمْ، فأَبَى- رَحِمَهُ اللهُ- حتَّى يَسْمَعَ منهُمْ. قالتْ فكانَ الذي كلَّمَهُ جَعْفَرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه فقَالَ لَهُ: أيُّها المَلِكُ! كُنَّا قَوْماً أَهْلَ جاهليَّة، نَعْبُدُ الأَصْنَامَ، ونَأكُلُ المَيْتَةَ، ونَأْتِي الفَوَاحِشَ، ونَقْطَعُ الأَرْحَامَ، ونُسِيءُ الجِوَارَ، يأْكُلُ القَوِيُّ منَّا الضَّعيفَ، فكُنَّا على ذلكَ حتَّى بَعَثَ اللهُ إلَيْنَا رَسُولاً منَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وصِدْقَهُ، وأَمَانَتَهُ وعَفَافَهُ، فدَعَانَا إلى اللهِ لنُوَحِّدَهُ ونَعْبُدَهُ، ونَخْلَعَ ما كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وآبَاؤُنَا منْ دُونِه منَ الحِجَارَة والأَوْثَان، وأَمَرَنَا بصِدْقِ الحَدِيثِ، وأَدَاءِ الأَمَانَة، وصِلَةِ الرَّحِم، وحُسْنِ الجِوَارِ، والكَفِّ عَنِ المَحَارِمِ والدِّمَاءِ، ونَهَانَا عَنِ الفَوَاحِشِ، وقَوْلِ الزُّورِ، وأَكْلِ مَالِ اليَتِيمِ، وقَذْفِ المُحْصَنَة. (مسند أحمد ١٧٤٠ وصححه الألباني).

وإنَّمَا اهْتَمَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بالصِّدْقِ لأَنَّهُ أَصْلُ الإيمَان، فالإيمَانُ لُغَةً: التَّصْدِيقُ، ومِنْهُ قَوْلُ إخْوَةِ يُوسُفَ لأَبِيهِمْ: « وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ » (يوسف: ١٧)، فالمُؤْمِنُ صَادِقٌ مُصَدِّقٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ » (الزمر: ٣٣)، وقَالَ تَعَالَى: « وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ » (الحديد: ١٩).

فالصِّدْقُ مِنْ صِفَاتِ المُؤْمِنِينَ، والكَذِبُ مِنْ صِفَاتِ الكَافِرِينَ والمُنَافِقِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ » (النحل: ١٠٥)، وقَالَ تَعَالَى عَنِ المُنَافِقِينَ: « فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ » (البقرة: ١٠).

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وإذَا وَعَدَ أَخْلَفَ» (متفق عليه)

وقَدْ رَغَّبَ اللهُ تَعَالَى في الصِّدْقِ، وأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ في يَوْمِ القِيَامَةِ لا يَنْفَعُ العَبْدَ ويُنَجِّيه مِنْ عَذَابِه إلاَّ صِدْقُهُ، فقَالَ تَعَالَى: « هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ » (المائدة: ١١٩)، وجَعَلَ سُبْحَانَه

صُحْبَةَ الصِّدِّيقِينَ جَزَاءَ مَنْ أَطَاعَهُ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: « وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا » (النساء: ٦٩).

وَحَذَّرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْكَذِبِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُسَوِّدُّ الْوَجْهَ فِي الآخِرَةِ كَمَا يُسَوِّدُهُ فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ تَعَالَى: « وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ » (الزمر: ٦٠).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا». (متفق عليه بنحوه).

وَالصِّدِّيقِيَّةُ دَرَجَةٌ دُونَ النُّبُوَّةِ وَفَوْقَ الشَّهَادَةِ، فَجَعَلَ الصِّدْقَ مِفْتَاحَ الصِّدِّيقِيَّةِ وَمَبْدَأَهَا، وَهِيَ غَايَتُهُ، فَلاَ يَنَالُ دَرَجَتَهَا كَاذِبٌ أَلْبَتَّةَ، لاَ فِي قَوْلِهِ وَلاَ فِي عَمَلِهِ وَلاَ فِي حَالِهِ.

وَلَقَدْ بَلَغَ مِنْ اهْتِمَامِ الإِسْلاَمِ بِالصِّدْقِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ أَنْ أَمَرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُنَشِّئُوا صِبْيَانَهُمْ مِنَ الصِّغَرِ عَلَى الصِّدْقِ، فَإِذَا وَعَدَ الأَبُ وَلَدَهُ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَفِيَ بِوَعْدِهِ، وَإِنْ أَخْبَرَهُ خَبَرًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَصْدُقَهُ، حَتَّى يَنْشَأَ الصِّغَارُ مِنْ صِغَرِهِمْ عَلَى الصِّدْقِ:

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنهما أَنَّهُ قَالَ: دَعَتْنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا، فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيَهُ؟» قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِهِ شَيْئًا كُتِبَتْ عَلَيْكِ كَذْبَةٌ» (أخرجه أبو داود ٤١٧٦، وحسنه الألباني).

كَمَا بَلَغَ مِنَ اهْتِمَامِ الإِسْلاَمِ بِالصِّدْقِ أَنَّهُ لَمْ يُبِحِ الْكَذِبَ حَتَّى فِي الْمِزَاحِ: عَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ» (أخرجه أبو داود ٤١٧٥، وحسنه الألباني).

كَمَا بَلَغَ مِنَ اهْتِمَامِ الإِسْلاَمِ بِالصِّدْقِ أَنْ حَثَّ أَتْبَاعَهُ عَلَى الصِّدْقِ فِي كُلِّ مُعَامَلاَتِهِمْ، وَفِي بَيْعِهِمْ وَشِرَائِهِمْ:

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكَتَمَا مُحِقَ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا» (متفق عليه). فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَحَرَّوُا الصِّدْقَ، وَأَنْ يُنَشِّئُوا صِبْيَانَهُمْ عَلَيْهِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ مَنْجَاةٌ، وَأَنْ يَجْتَنِبُوا الْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ مَهْلَكَةٌ.

نسأل الله أن يجعلنا من الصادقين.

تهنئة

تتقدم أسرة تحرير مجلة التوحيد بخالص التهنئة للشيخ محمد عبد العزيز السيد، عضو اللجنة العلمية بمجلة التوحيد، وذلك بمناسبة حصوله على درجة الماجستير في رسالة بعنوان: «المعالم في أصول الفقه تحقيقًا، على خمس نسخ خطية، دراسة وتعليقًا».

وتكونت لجنة الإشراف والمناقشة من كلٍّ من:

- أ.د/أحمد منصور سبالك أستاذ الشريعة الأسلامية مشرفاً.
- أ.د/محمد مصطفى رمضان، أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية أصول الدين جامعة الأزهر.
- أ.د/خالد محمد عبيدات، أستاذ أصول الفقه المساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

وقد حصل الباحث على درجة الماجستير بتقدير: «ممتاز».

هذا، ونتمنى له مزيدًا من التوفيق والسداد.

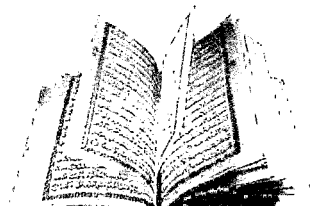

باب التفسير

سُورَةُ الأَحْقَافِ

الحلقة الخامسة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ »

(الأحقاف: ١١- ١٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ»:

اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذِهِ الآيَةِ: فَذَهَبَ الْبَعْضُ إِلَى أَنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ وَالآيَةَ مَكِّيَّةٌ، وَالشَّاهِدُ غَيْرُ مُعَيَّنٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مُجَرَّدُ مَثَلٍ ضَرَبَهُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُمْ.

وَذَهَبَ الْجُمْهُورُ إِلَى أَنَّ الشَّاهِدَ هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ رضي الله عنه، وَأَنَّ هَذِهِ الآيَةَ مَدَنِيَّةٌ فِي سُورَةٍ مَكِّيَّةٍ، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم تَنْزِلُ عَلَيْهِ الآيَةُ فَيَقُولُ لَهُ جِبْرِيلُ: ضَعْ هَذِهِ الآيَةَ فِي مَكَانِ كَذَا، مِنْ سُورَةِ كَذَا.

فَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ لأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلاَّ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلاَمٍ. قَالَ: وَفِيهِ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: «وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ» الآيَةَ (أخرجه البخاري: ٣٨١٢).

وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ أَتَاهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ فَقَالَ: إِنِّي سَائِلُكَ عَنْ ثَلاَثٍ، لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ نَبِيٌّ، مَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزِعُ إِلَى أَخْوَالِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «خَبَّرَنِي بِهِنَّ آنِفًا جِبْرِيلُ». فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «أَمَّا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ فَنَارٌ تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ. وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ. وَأَمَّا الشَّبَهُ فِي الْوَلَدِ فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَهُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَهُ لَهَا». قَالَ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ. ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُتٌ، إِنْ عَلِمُوا بِإِسْلاَمِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ بَهَتُونِي عِنْدَكَ، فَجَاءَتِ الْيَهُودُ وَدَخَلَ عَبْدُ اللهِ الْبَيْتَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «أَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلاَمٍ»؟. قَالُوا: أَعْلَمُنَا، وَابْنُ أَعْلَمِنَا، وَأَخْيَرُنَا، وَابْنُ أَخْيَرِنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللهِ»؟. قَالُوا: أَعَاذَهُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ. فَخَرَجَ عَبْدُ اللهِ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ. فَقَالُوا: شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا. وَوَقَعُوا فِيهِ. (أخرجه البخاري ٣٩٣٨).

وَالْمَعْنَى: أَخْبِرُونِي إِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَكَفَرْتُمْ بِهِ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ عَظِيمُ الشَّأْنِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْوَاقِفِينَ عَلَى شُئُونِ اللهِ تَعَالَى وَأَسْرَارِ الْوَحْيِ بِمَا أُوتُوا مِنَ التَّوْرَاةِ «عَلَى مِثْلِهِ» أَيْ مِثْلِ الْقُرْآنِ، مِنَ الْمَعَانِي الْمُنْطَوِيَةِ فِي التَّوْرَاةِ، الْمُطَابِقَةِ لِمَا فِي الْقُرْآنِ، مِنَ التَّوْحِيدِ، وَالْوَعْدِ

وَالْوَعيد، وَغَيْر ذَلكَ، فَإِنَّهَا عَيْنُ مَا فيه في الْحَقيقَة، كَمَا يُعْربُ عَنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: « وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » (الشعراء)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: « إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ» (الأعلى)، وَالْمثْليَّةُ باعْتبَار تَأْديَتهَا بعبَارَات أُخَر، أَوْ عَلَى مثْل مَا ذُكرَ منْ كَوْنه منْ عنْد اللَّه تَعَالَى، وَالْمثْليَّةُ لمَا ذُكرَ. وَقيلَ: الْمثْلُ صلَةٌ، وَالْفَاءُ في قَوْله تَعَالَى: «فَآمَنَ» للدَّلاَلَة عَلَى أَنَّهُ سَارَعَ إلَى الإيمَان بالْقُرْآن، لَمَّا علمَ أَنَّهُ منْ جنْس الْوَحْي النَّاطق بالْحَقّ، وَهُوَ عَبْدُ اللَّه بنُ سَلاَم، «وَاسْتَكْبَرْتُمْ» عَطْفٌ عَلَى شَهدَ شَاهدٌ، وَجَوَابُ الشَّرْط مَحْذُوفٌ، وَالْمَعْنَى: أَخْبرُوني إنْ كَانَ منْ عنْد اللَّه تَعَالَى، وَشَهدَ عَلَى ذَلكَ أَعْلَمُ بَنيَ إسْرَائيلَ فَآمَنَ به منْ غَيْر تَلَعْثُم، وَاسْتَكْبَرْتُمْ عَن الإيمَان به بَعْدَ هَذه الْمَرْتَبَة، مَنْ أَضَلُّ منْكُمْ؟ بقرينَة قَوْله تَعَالَى: « قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ » (فصلت: ٥٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّه لاَ يَهْدي الْقَوْمَ الظَّالمينَ» فَإِنَّ عَدَمَ الْهدَايَة مِمَّا يُنْبئُ عَن الضَّلاَل قَطْعًا، وَوَصْفُهُمْ بالظُّلْم للإشْعَار بعلَّة الْحُكْم، فَإِنَّ تَرْكَهُ تَعَالَى لهدَايَتهمْ لظُلْمهمْ. (إرشاد العقل السليم (٦/ ٧٠و٧١)).

«وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا للَّذينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إلَيْه وَإذْ لَمْ يَهْتَدُوا به فَسَيَقُولُونَ هَذَا إفْكٌ قَديمٌ»:

جَرَتْ سُنَّةُ اللَّه في الأَنْبيَاء أَنْ يَتَّبعَهُمُ الْمَسَاكينُ وَالْفُقَرَاءُ، لأَنَّ الْفُقَرَاءُ لَيْسَ لَهُمْ دُنْيَا يَخَافُونَ عَلَيْهَا، وَهُمْ تَابعُونَ هُنَا أَوْ هُنَاكَ، فَلأَنْ يَتَّبعُوا الْحَقَّ خَيْرٌ لَهُمْ، أَمَّا الأَغْنيَاءُ وَأَصْحَابُ الْجَاه وَالرِّيَاسَة وَالْمَنَاصب فَإِنَّ مَا هُمْ فيه يَصُدُّهُمْ عَن اتِّبَاع الرُّسُل، لأَنَّهُمْ لَوْ آمَنُوا بهمْ صَارُوا تَابعينَ بَعْدَ مَا كَانُوا مَتْبُوعينَ.

وَلذَلكَ قَالَ قَوْمُ نُوح لنُوح عليه السلام: « مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ » (هود: ٢٧)، وَكَذَلكَ قَالَ الَّذينَ كَفَرُوا لرُسُلهمْ، حَتَّى مُحَمَّد صلى اللَّه عليه وسلم، وَلذَلكَ لَمَّا كَتَبَ رَسُولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلَى هرَقْل يَدْعُوهُ إلَى الإسْلاَم، سَأَلَ عَمَّنْ بأَرْضه منَ الْعَرَب، فَجيءَ بأَبي سُفْيَانَ في نَفَر، فَسَأَلَهُ عَنِ النَّبيِّ صلى اللَّه عليه وسلم مُجْمُوعَةً أَسْئلَةً أَرَادَ أَنْ يَتَعَرَّفَ منْ جَوَابهَا عَلَى شَخْصيَته، وَكَانَ منْهَا: أَيَتَّبعُهُ أَشْرَافُ النَّاس أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. فَقَالَ هرَقْلُ: وَسَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعه أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَقُلْتَ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُل. (أخرجه مسلم ١٣٩٣).

فَلَمَّا رَأَى صَنَاديدُ قُرَيْش أَنَّ مُحَمَّدًا صلى اللَّه عليه وسلم اتَّبَعَهُ الْفُقَرَاءُ قَالُوا لاَ يُمْكنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الدِّينُ حَقًّا، لأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهَدَانَا اللَّه إلَيْه دُونَهُمْ: «وَقَالَ الَّذينَ كَفَرُوا للَّذينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إلَيْه»، فَضَلُّوا حَيْثُ ظَنُّوا أَنْ إيتَاءَ اللَّه لَهُمُ الدُّنْيَا دَليلُ مَحَبَّته لَهُمْ وَرضَاهُ عَنْهُمْ، وَضَلُّوا حَيْثُ قَاسُوا الدِّينَ عَلَى الدُّنْيَا، وَظَنُّوا أَنَّ اللَّه تَعَالَى كَمَا آتَاهُمْ خَيْرَ الدُّنْيَا فَلاَ بُدَّ أَنْ يَهْديَهُمْ لخَيْر الدِّين. قَالَ تَعَالَى: « وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا» (مريم: ٧٣)، وَقَالَ تَعَالَى: « وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ » (سبأ: ٣٥- ٣٨)، وَقَالَ تَعَالَى: « وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ » (الأنعام: ٥٣).

فَاللَّه تَعَالَى يُعْطي الدُّنْيَا مَنْ يُحبُّ وَمَنْ لاَ يُحبُّ، وَقَدْ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لمَنْ لاَ يُحبُّ، وَيَقْدرُ عَلَى مَنْ يُحبُّ، وَلَكنَّهُ سُبْحَانَهُ لاَ يَهْدي للْحَقِّ إلاَّ مَنْ يُحبُّ، أَغْنيَاءَ كَانُوا أَوْ فُقَرَاءَ.

قَالَ ابْنُ كَثير: هَكَذَا قَالُوا: « لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إلَيْه ٤ » وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّة وَالْجَمَاعَة فَيَقُولُونَ في كُلِّ فعْل وَقَوْل لَمْ يَثْبُتْ عَن الصَّحَابَة رضي اللَّه عنهم: هُوَ بدْعَةٌ، لأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَيْرًا لَسَبَقُونَا إلَيْه، لأَنَّهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا خَصْلَةً منْ خصَال الْخَيْر إلاَّ وَقَدْ بَادَرُوا إلَيْهَا.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإذْ لَمْ يَهْتَدُوا به» أَيْ بالْقُرْآن «فَسَيَقُولُونَ هَذَا إفْكٌ قَديمٌ» أَيْ كَذبٌ قَديمٌ، أَيْ مَأْثُورٌ عَن النَّاس الأَقْدَمينَ فَيَنْتَقصُونَ الْقُرْآنَ وَأَهْلَهُ، وَهَذَا هُوَ الْكبْرُ الَّذي قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «الْكبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاس » (أخرجه مسلم ٩١).

«وَمنْ قَبْله» أَيْ منْ قَبْل الْقُرْآن الْكَريم «كتَابُ مُوسَى» وَهُوَ التَّوْرَاةُ جَعَلَهُ اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى «إمَامًا» لبَني إسْرَائيلَ يَأْتَمُّونَ به وَيَهْتَدُونَ به، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ » (غافر: ٥٤)، «ورحمة» أَيْ جَعَلَ اللَّه تَعَالَى التَّوْرَاةَ رَحْمَةً يَرْحَمُهُمْ بهَا إذَا اتَّبَعُوهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْقُرْآن: « وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (الأنعام: ١٥٥).

وللحديث بقية إن شاء اللَّه، والحمد للَّه رب العالمين.

باب التفسير

سُورَةُ الأَحْقَافِ

الحلقة السادسة

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا»

(الأحقاف: ١٢- ١٤).

«وَهَذَا كِتَابٌ» يَعْنِي الْقُرْآنَ «مُصَدِّقٌ» أَيْ لِمَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ» (آل عمران: ١-٣)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ» (المائدة: ٤٨) وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى كِتَابَ مُوسَى وَلَمْ يَذْكُرْ كِتَابَ عِيسَى لِأَنَّ التَّوْرَاةَ كَانَتْ هِيَ الْأَصْلَ، وَكَانَتْ هِيَ الشَّرِيعَةَ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَمَّا الْإِنْجِيلُ فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ كَثِيرُ تَشْرِيعٍ، وَإِنَّمَا قَالَ عِيسَى عليه السلام: «وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» (آل عمران: ٥٠).

ثُمَّ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى الْكِتَابَ بِكَوْنِهِ «لِسَانًا عَرَبِيًّا» أَيْ فَصِيحًا بَيِّنًا وَاضِحًا «لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ» أَيْ مُشْتَمِلٌ عَلَى النِّذَارَةِ لِلْكَافِرِينَ وَالْبِشَارَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ. (تفسير القرآن العظيم(٤/١٥٦)).

فَهَذِهِ هِيَ وَظِيفَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» (الإسراء: ٩- ١٠)، وَقَالَ تَعَالَى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا» (الكهف: ١-٤).

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ»:

**إِنَّ الإِيمَانَ لَيْسَ مُجَرَّدَ كَلِمَاتٍ تُنْطَقُ، وَلاَ حُرُوفٌ يُتَرْجِمُهَا اللِّسَانُ، وَلَكِنَّ الإِيمَانَ عَقِيدَةٌ وَعَمَلٌ، عَقِيدَةٌ صَالِحَةٌ، سَلِيمَةٌ مِنْ شَوَائِبِ الشِّرْكِ، تَسْتَقِرُّ أَوَّلاً فِي الْقَلْبِ، وَعَمَلٌ صَالِحٌ، سَلِيمٌ مِنْ شَوَائِبِ الْبِدْعَةِ، يَظْهَرُ عَلَى الْجَوَارِحِ، مُعَبِّرًا عَنْ تَمَكُّنِ تِلْكَ الْعَقِيدَةِ مِنْ ذَلِكَ الْقَلْبِ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (إبراهيم: ٢٤- ٢٥)، فَهَذَا مَثَلُ الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ، كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، كَلِمَةِ التَّقْوَى، كَلِمَةِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، حِينَ تَسْتَقِرُّ فِي الْقَلْبِ وَتَتَمَكَّنُ مِنْهُ، وَتَضْرِبُ بِجُذُورِهَا فِي أَرْضِهِ، لاَبُدَّ أَنْ تَرْتَفِعَ

أَغْصَانُهَا بِثِمَارِهَا، وَأَنْ تَظْهَرَ هَذِهِ الثِّمَارُ عَلَى الْجَوَارِحِ أَعْمَالاً صَالِحَةً تَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءَ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ» وَهَذِهِ هِيَ الْعَقِيدَةُ، هَذِهِ هِيَ أُصُولُ الدِّينِ وَأَرْكَانُ الإِيمَانِ، ثُمَّ عَطَفَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا صَالِحَ الأَعْمَالِ وَالأَخْلاَقِ فَقَالَ: «وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ»، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا» أَيْ فِي قَوْلِهِمْ آمَنَّا بِاللَّهِ، «وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» (البقرة: ١٧٧).

وَقَدْ عَبَّرَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا»، وَالْمُرَادُ بِالْقَوْلِ قَوْلُ الْقَلْبِ وَهُوَ الاعْتِقَادُ، وَقَوْلُ اللِّسَانِ وَهُوَ الإِقْرَارُ، فَهُمْ قَالُوهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ بَعْدَ أَنْ صَدَّقَتْ بِهَا قُلُوبُهُمْ، وَإِلاَّ فَقَوْلُ اللِّسَانِ دُونَ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ، لأَنَّهُ نِفَاقٌ، وَلِذَلِكَ كَذَّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ تَعَالَى: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ» (المنافقون: ١)، لأَنَّهُمْ قَالُوهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَلَمْ تُصَدِّقْهَا قُلُوبُهُمْ وَلَمْ تُوقِنْ بِهَا.

ثُمَّ عَطَفَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْقَوْلِ الاسْتِقَامَةَ الَّتِي تَشْهَدُ بِصِدْقِ الْقَوْلِ، وَبِذَلِكَ وَصَّى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ، قَالَ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ». (صحيح مسلم: ٣٨).

وَالاسْتِقَامَةُ هِيَ اسْتِقَامَةُ الْقَلْبِ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَاسْتِقَامَةُ الْجَوَارِحِ عَلَى الطَّاعَةِ.

كَمَا فَسَّرَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه وَغَيْرُهُ قَوْلَهُ: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا» بِأَنَّهُمْ لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى غَيْرِهِ.

وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «ثُمَّ اسْتَقَامُوا» قَالَ: اسْتَقَامُوا عَلَى أَدَاءِ فَرَائِضِهِ.

وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: ثُمَّ أَخْلَصُوا لَهُ الدِّينَ وَالْعَمَلَ.

وَعَنْ قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: اسْتَقَامُوا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ.

فَمَتَى اسْتَقَامَ الْقَلْبُ عَلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ، وَعَلَى خَشْيَتِهِ، وَإِجْلاَلِهِ، وَمَهَابَتِهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَإِرَادَتِهِ، وَرَجَائِهِ، وَدُعَائِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالإِعْرَاضِ عَمَّا سِوَاهُ، اسْتَقَامَتِ الْجَوَارِحُ كُلُّهَا عَلَى طَاعَتِهِ، فَإِنَّ الْقَلْبَ هُوَ مَلِكُ الأَعْضَاءِ، وَهِيَ جُنُودُهُ، فَإِذَا اسْتَقَامَ الْمَلِكُ، اسْتَقَامَتْ جُنُودُهُ وَرَعَايَاهُ.

فَالاسْتِقَامَةُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ هِيَ عُنْوَانُ صِدْقِ الْعَبْدِ فِي قَوْلِهِ رَبِّيَ اللَّهُ، أَمَّا الانْحِرَافُ وَالزَّيْغُ وَالزَّوَغَانُ فَإِنَّهُ يُنَافِي قَوْلَهُ رَبِّيَ اللَّهُ، وَلِذَلِكَ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا» فَقَالَ: لَمْ يَرُوغُوا رَوَغَانَ الثَّعْلَبِ. (جامع العلوم والحكم (ص١٧٨) بتصرف)

فَهَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ الاسْتِقَامَةِ، أَنْ تَفْعَلَ الْوَاجِبَاتِ وَتَتْرُكَ الْمُحَرَّمَاتِ، أَمَّا فِعْلُ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَرْكُ الْوَاجِبَاتِ فَإِنَّهُ يُنَافِي قَوْلَ رَبِّيَ اللَّهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ الْقَائِلُ:

تَعْصِي الإِلَهَ وَأَنْتَ تَزْعُمُ حُبَّهُ
هَذَا وَرَبِّكَ فِي الْقِيَاسِ شَنِيعُ
لَوْ كُنْتَ صَادِقًا فِي حُبِّهِ لأَطَعْتَهُ
إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

فَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى كَمَا هَدَانَا لِقَوْلِ رَبُّنَا اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَنَا الاسْتِقَامَةَ، فَإِنَّهَا وَاللَّهِ أَعْظَمُ كَرَامَةٍ يُكْرِمُ اللَّهُ بِهَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الصَّالِحِينَ: لاَ يَكُنْ هَمُّكَ الْكَرَامَةَ، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ الاسْتِقَامَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ مِنْكَ الاسْتِقَامَةَ، وَنَفْسَكَ تُرِيدُ الْكَرَامَةَ.

ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى جَزَاءَ مَنِ اسْتَقَامَ كَمَا أَرَادَ فَقَالَ: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ» فِي مُسْتَقْبَلِهِمْ، «وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» عَلَى مَا خَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ بَعْدَ مَمَاتِهِمْ، «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا»: «لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً» (الكهف: ١٠٨)، «وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ» (الحجر: ٤٨).

وللحديث بقية إن شاء الله، نسأل الله أن يفقهنا في ديننا.

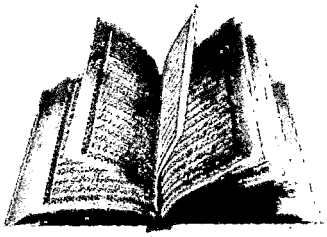

باب التفسير

سُورَةُ الأَحْقَافِ

الحلقة السابعة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

بسم الله الرحمن الرحيم

«أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا»

(الأحقاف: ١٤- ١٥).

«جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» في الدُّنْيَا من الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتي شَرَعَهَا الله تَعَالَى، وَأَحَبَّهَا منْهُمْ.

وَكَثيرًا مَا يَذْكُرُ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ أَنَّ الْجَنَّةَ كَانَتْ جَزَاءَ الْعَامِلينَ بطَاعَته:

قَالَ تَعَالَى: «أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» (آل عمران: ١٣٦).

وَقَالَ تَعَالَى: «يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (الواقعة: ١٧- ٢٤). وَالآيَاتُ في ذَلكَ كَثيرَةٌ.

وَقَدْ يوهم هذا التعارض مَعَ قَوْلِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: «لَنْ يُدْخلَ الْجَنَّةَ أَحَدًا عَمَلُهُ». قَالُوا وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه؟! قَالَ: «وَلاَ أَنَا إلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنيَ الله منْهُ برَحْمَةٍ» (صحيح البخاري ٦٤٦٣).

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: يَتَحَصَّلُ عَنْ ذَلكَ أَرْبَعَةُ أَجْوبَة:

الأَوَّلُ: أَنَّ التَّوْفيقَ للْعَمَلِ منْ رَحْمَةِ اللهِ، وَلَوْلاَ رَحْمَةُ اللهِ السَّابقَةُ مَا حَصَلَ الإيمَانُ، وَلاَ الطَّاعَةُ الَّتي يَحْصُلُ بهَا النَّجَاةُ.

الثَّاني: أَنَّ مَنَافعَ الْعَبْد لسَيِّده فَعَمَلُهُ مُسْتَحَقٌّ لمَوْلاَهُ فَمَهْمَا أَنْعَمَ عَلَيْه منَ الْجَزَاء فَهُوَ منْ فَضْله.

الثَّالثُ: جَاءَ في بَعْض الأَحَاديث أَنَّ نَفْسَ دُخُولِ الْجَنَّة برَحْمَة الله، وَاقْتسَامَ الدَّرَجَات بالأَعْمَال.

الرَّابعُ: أَنَّ أَعْمَالَ الطَّاعَات كَانَتْ في زَمَن يَسير، وَالثَّوَابُ لاَ يَنْفَدُ، فَالإنْعَامُ الَّذي لاَ يَنْفَدُ في جَزَاء مَا يَنْفَدُ بالْفَضْل لاَ بمُقَابَلَة الأَعْمَال.

وَقَالَ ابْنُ الْقَيِّم في كتَاب «مفْتَاح دَار السَّعَادَة»: الْبَاءُ الْمُقْتَضيَةُ للدُّخُول غَيْرُ الْبَاء الْمَاضيَة، فَالأُولَى السَّبَبيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ الأَعْمَالَ سَبَبُ الدُّخُول، الْمُقْتَضيَةُ لَهُ كَاقْتضَاء سَائر الأَسْبَاب لمُسَبَّبَاتهَا، وَالثَّانيَةُ باءُ الْمُعَاوَضَة، نَحْوَ: اشْتَرَيْتُ منْهُ بكَذَا، فَأَخْبَرَ أَنَّ دُخُولَ الْجَنَّة لَيْسَ في مُقَابَلَة عَمَل أَحَد، وَأَنَّهُ لَوْلاَ رَحْمَةُ الله لعَبْده لَمَا أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ، لأَنَّ الْعَمَلَ بمُجَرَّده وَلَوْ تَنَاهَى لاَ يُوجبُ بمُجَرَّده دُخُولَ الْجَنَّة، وَلاَ أَنْ يَكُونَ عوَضًا لَهَا، لأَنَّهُ وَلَوْ وَقَعَ عَلَى الْوَجْه الَّذي يُحبُّهُ

اللهُ لاَ يُقَاوِمُ نِعْمَةَ اللهِ، بَلْ جَمِيعُ الْعَمَلِ لاَ يُوَازِي نِعْمَةً وَاحِدَةً، فَتَبْقَى سَائِرُ نِعَمِهِ مُقْتَضِيَةً لِشُكْرِهَا، وَهُوَ لَمْ يُوَفِّهَا حَقَّ شُكْرِهَا، فَلَوْ عَذَّبَهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ لَعَذَّبَهُ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ، وَإِذَا رَحِمَهُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا مِنْ عَمَلِهِ كَمَا فِي حَدِيثِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ الَّذِي أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُد وَابن مَاجَهْ فِي ذِكْرِ الْقَدَرِ فَفِيهِ: «لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ». (صَحِيح سنن أبي داود: ٣٩٣٢).

قَالَ: وَهَذَا فَصْلُ الْخِطَابِ مَعَ الْجَبْرِيَّةِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا أَنْ تَكُونَ الأَعْمَالُ سَبَبًا فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وَالْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ عِوَضُ الْعَمَلِ، وَأَنَّهَا ثَمَنُهُ، وَأَنَّ دُخُولَهَا بِمَحْضِ الأَعْمَالِ، وَالْحَدِيثُ يُبْطِلُ دَعْوَى الطَّائِفَتَيْنِ. وَاللهُ أَعْلَمُ. (فتح الباري (١١/ ٢٩٦)).

وَقَدْ أَخْبَرَنَا اللهُ أَنَّ الْمَلاَئِكَةَ تُبَشِّرُ أَهْلَ الاسْتِقَامَةِ بِمَا وَعَدَهُمْ بِهِ عِنْدَ مَمَاتِهِمْ، وَفِي قُبُورِهِمْ، وَيَوْمَ بَعْثِهِمْ:

قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ» (فصلت: ٣٠- ٣٢).

وَقَالَ تَعَالَى: «لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ» (الأنبياء: ١٠٢- ١٠٣).

عظم حق الوالدين:

وَلَمَّا ذَكَرَ اللهُ حَقَّهُ عَلَى الْعِبَادِ فِي الاسْتِقَامَةِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ قَالَ: «وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا»، وَكَثِيرًا مَا يَقْرِنُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَقَّ الْوَالِدَيْنِ بِحَقِّهِ:

قَالَ تَعَالَى: «وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا» (النساء: ٣٦).

وَقَالَ تَعَالَى: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا» (الإسراء: ٢٣).

وَقَالَ تَعَالَى: «قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا» (الأنعام: ١٥١).

وَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الإِحْسَانَ إِلَى الْوَالِدَيْنِ ثَانِيَ الأَعْمَالِ الْفَاضِلَةِ: فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» (صحيح البخاري ٥٢٧).

وَفِي الْمُقَابِلِ عَدَّ صلى الله عليه وسلم عُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ ثَانِيَ الأَعْمَالِ الْمُحَرَّمَةِ:

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ» ثَلاَثًا. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ». وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: «أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ». قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ. (صحيح البخاري ٢٦٥٤).

فَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ ثَانِي الأَعْمَالِ الْفَاضِلَةِ الَّتِي تُوجِبُ الْجَنَّةَ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ ثَانِي الأَعْمَالِ الْمُحَرَّمَةِ الَّتِي تُوجِبُ النَّارَ، وَاللهُ تَعَالَى يُوصِي الأَوْلاَدَ بِآبَائِهِمْ: «وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا»، وَفِي مَوْضِعٍ ثَانٍ قَالَ تَعَالَى: «وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» (العنكبوت: ٨)، قَالَ الْعُلَمَاءُ: وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالإِحْسَانِ: أَنَّ الْحَسَنَ ضِدُّهُ الْقَبِيحُ، وَالإِحْسَانُ ضِدُّهُ الإِسَاءَةُ، فَأَمَرَ اللهُ تَعَالَى الأَبْنَاءَ أَنْ يُحْسِنُوا إِلَى الآبَاءِ، وَأَنْ يُحْسِنُوا مُعَامَلَتَهُمْ، وَأَنْ يُعَامِلُوهُمْ بِالْحُسْنَى، وَأَلاَّ يُعَامِلُوهُمْ بِالْقَبِيحِ، وَأَلاَّ يُسِيئُوا إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا» (الإسراء: ٢٣- ٢٤).

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

باب التربية

التربية على برِّ الوالدين

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

تحدثنا عن الصدق ومكانته وأداء الأمانة، وحديثنا في هذا المقال عن صلة الرحم، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

«الصِّلَةُ: مصْدَرُ وصَلَ يَصِلُ صِلَةً وَوَصْلاً، وهي تدلُّ على ضَمِّ الشَّيْءِ إلى الشَّيْءِ حتَّى يعْلَقَه.

والرَّحِمُ: اسْمٌ مُشْتَقٌّ من مادة (ر ح م) الَّتي تدلُّ على الرِّقَّة والعَطْف والرَّأفة، والمُرادُ بصلة الرَّحم عَلاقَة القَرابَة، وقد سُمِّيَتْ رَحِمُ الأُنْثَى رَحِماً من هذا، لأنَّه يكونُ منها ما يُرْحَمُ ويُرِقُّ له من ولَد. والمرادُ بصلة الرَّحم العَطْفُ والرَّحمةُ بيْنَ ذَوِي الأرْحَام». (نضرة النعيم (٧/٢٦١٤)).

«وَهُمْ أقَارِبُ الإنْسان كأُمِّه وأبيه، وابْنِه وابْنَته، وكُلُّ مَنْ كانَ بيْنَهُ وبيْنَهُ صِلَةٌ منْ قِبَل أبيه أوْ منْ قِبَل أمِّه، أوْ منْ قِبَل ابْنه أوْ منْ قِبَل ابْنَته». (الضياء اللامع (٥٠٥) ابن عثيمين).

أما صلة الأم والأب فهي تعرف باسم: برِّ الوالدين، وقد كثر في القرآن الكريم الأمر ببرهما والإحسان إليهما، وكان ذلك من أول ما نزل من القرآن الكريم في مكة المكرمة، حين أسلم بعض الأبناء دون آبائهم، وحاول الآباء صدَّ أبنائهم عن الإسلام:

عَنْ مُصْعَب بْن سَعْد عَنْ أبيه قَالَ: حَلَفَتْ أُمُّ سَعْد أنْ لا تكلِّمَهُ أبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بدِينِه، ولا تأكُلَ ولا تشْرَبَ. قَالَتْ: زَعَمْتَ أنَّ اللهَ وَصَّاكَ بوَالِدَيْكَ وَأنَا أُمُّكَ، وَأنَا آمُرُكَ بهَذَا. قَالَ: مَكَثَتْ ثَلاثًا حَتَّى غُشِيَ عَلَيْهَا منَ الجَهْد، فَقَامَ ابْنٌ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةُ فَسَقَاهَا، فَجَعَلَتْ تَدْعُو عَلَى سَعْد، فَأنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ في القُرْآن هَذه الآيَة: « وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» (لقمان: ١٤- ١٥). (صحيح مسلم: ١٧٤٨)

ولما هاجر الصحابة إلى المدينة المنورة وتركوا آباءهم وأمهاتهم، جاءت بعض الأمهات تزور أبناءها، فتحرجوا من برهن حتى يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرهم بصلتهم:

عن أسْمَاءَ ابْنَة أبي بَكْر رضي الله عنهما قَالَتْ: أتَتْنِي أُمِّي رَاغبَةً في عَهْد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فَسَألْتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم: آصِلُهَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: فَأنْزَلَ الله تَعَالَى فيهَا: « لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ» (الممتحنة: ٨). (متفق عليه).

ولقد أكثر ربنا سبحانه من الوصية بالوالدين، والأمر ببرهما والإحسان إليهما، وقرن ذلك بالأمر بعبادته وحده لا شريك له، قال تعالى: « وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا» (النساء: ٣٦)، وقال تعالى: « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ

الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا» (الإسراء: ٢٣- ٢٤)، وهذا الاقتران يدل على أن حق الوالدين أعظم الحقوق بعد حق الله ورسوله.

فبِرُّوا آباءكم يحبَّكم ربُّكم، فإنَّ من أحبِّ الأعمال إلى الله برَّ الوالدين. عَنْ عَبْد الله بن مَسْعُود رَضِيَ اللَّه عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم: «أَيُّ الْعَمَل أَحَبُّ إِلَى اللَّه؟ قَالَ: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» (متفق عليه)

برّوا آباءكم يبرَّكم ربُّكم: عَنْ عَبْد الله بْن عَمْرو عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «رِضَى الرَّبِّ فِي رِضَى الْوَالِد، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِد» (صحيح الترمذي: ١٨٩٩).

برّوا آباءكم يستجب لكم ربُّكم: عَنْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِر مَعَ أَمْدَاد أَهْلِ الْيَمَن، مِنْ مُرَاد ثُمَّ مِنْ قَرَن كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلاَّ مَوْضِعَ دِرْهَم، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّه لأَبَرَّهُ، فَإِن اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ». (صحيح مسلم: ٢٥٤٢)

برّوا آباءكم يغفرْ لكم ربُّكم ذُنوبَكم: عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّه! إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ؟ قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟ قَالَ: لا قَالَ: هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟ قَالَ نَعَمْ. قَالَ فَبِرَّهَا» (صحيح الترمذي: ١٩٠٤).

برّوا آباءكم يُفرِّج ربُّكم كربَكم:

عَنْ عَبْد اللَّه بْن عُمَرَ عَنْ رَسُول اللَّه صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «بَيْنَمَا ثَلاثَةُ نَفَر يَتَمَشَّوْنَ أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَى غَار فِي جَبَل، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَم غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَل فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض انْظُرُوا أَعْمَالاً عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّه فَادْعُوا اللَّه تَعَالَى بِهَا، لَعَلَّ اللَّه يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ! فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَان شَيْخَان كَبِيرَان، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْم الشَّجَرُ فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلاب فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللَّه مِنْهَا فُرْجَةً فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ.

ومن برِّ الوالدين: «أن يصاحبَهما بالمعروف، وأن يُطعمَهما إذا جاعا، ويكسوَهما إذا عريا، وأن يخدمَهما إذا احتاجا إلى الخدمة، وأن يُجيبَ دعوتَهما، ويمتثلَ أمرَهما في المعروف، وأن يتكلم معهما باللين، وأن لا يدعوَهما باسمهما، وأن لا يمشي أمامهما، وأن يتواضع لهما، ولا يرفع عليهما صوته، ولا يُحدَّ فيهما بصرَه، وأن يهش لهما ويبش، ولا يعبس في وجههما، وأن لا يقول لهما قولا سيئا، وأن يليَ منهما ما وليا منه في الصغر، ويبقى لهما فضل التقدُّم». (نضرة النعيم ٣/٧٦٩، ٧٧٩). ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «لا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إِلاَّ أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ» (صحيح مسلم: ١٥١٠)

وَعَنْ أَبِي بُرْدَةَ «أَنَّهُ شَهِدَ ابنَ عُمرَ وَرجلٌ يَمانيٌ يَطُوفُ بِالبَيْتِ قَدْ حَمَلَ أُمَّهُ وَرَاءَ ظَهْرِه،وَهُوَ يَقُول:

إِنِّي لَهَا بَعِيرُهَا الْمُذَلَّل ××× إِنْ أُذْعِرَتْ رِكَابُهَا لَمْ أُذْعَر

ثُمَّ قَالَ يَا ابْنَ عُمرَ! أَتَرَانِي جَزَيْتُهَا؟ قَالَ: لا، وَلا بِزَفْرَةٍ وَاحِدَة» (صحيح الأدب المفرد للبخاري: ٩).

فاغتنموا- رحمكم الله- حياتهما، فإنَّ من لم يظفرْ برضا الله في حياتهما لم يظفر به بعد موتهما:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ. قِيلَ مَنْ يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ: مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ». (صحيح مسلم: ٢٥٥١).

فإن مات الوالدان فمن برِّهما بعد الموت اجتهادُ الولد في الطاعة والعبادة، لأنَّ كلَّ عمل صالح يعمله فلأبويه من الأجر مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء، وذلك لقوله تعالى: « وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ» (النجم: ٣٩) وولدُه من سعيه كما قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ وَإِنَّ أَوْلادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ» (صحيح الترمذي: ١٣٥٨).

ومن برِّهما بعد الموت الدعاءُ لهما والاستغفار، كما قال تعالى: « وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا» (الإسراء: ٢٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاثَة: إِلاَّ مِنْ صَدَقَة جَارِيَة، أَوْ عِلْم يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَد صَالِح يَدْعُو لَهُ» (صحيح مسلم: ١٦٣١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم «إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّة فَيَقُولُ أَنَّى هَذَا فَيُقَالُ بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ» (صحيح ابن ماجه: ٢٩٥٣).

ومن برِّهما بعد موتهما إكرامُ صديقهما وصلةُ إخوانهما:

عَنْ عَبْد اللَّه بْن عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَبَرُّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وُدَّ أَبِيهِ» (صحيح مسلم: ٢٥٥٢).

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

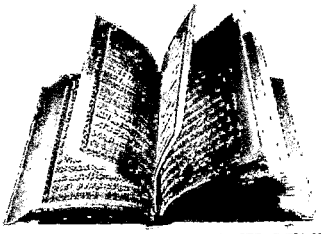

باب التفسير

سُورَةُ الأَحْقَافِ

الحلقة الثامنة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ»

(الأحقاف: ١٥).

أوصى الله تعالى بالوالدين لعظم فضلهما فمنْ أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَى بحَيَاة وَالدَيْه فَلْيَحْملْهُمَا فَوْقَ رَأْسه، وَلْيَجْعَلْهُمَا فِي عَيْنَيْه، وَلْيَغْتَنمْ فُرْصَةَ حَيَاتهمَا، لِيَكْسبَ رضَاهُمَا فَيَرْضَى عَنْهُ اللهُ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِد، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِد» ((صحيح سنن الترمذي: ١٨٩٩).

فَمَنْ أَكْرَمَهُ اللهُ بحَيَاة وَالدَيْه ثُمَّ لَمْ يَغْتَنم الْفُرْصَةَ وَلَمْ يُحَصِّلْ رضَا اللهِ برضَاهُمَا فَأَنَّى يَرْضَى عَنْهُ اللهُ؟!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ». قيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْه عنْدَ الْكبَر أَحَدَهُمَا أَوْ كلَيْهمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ» (صحيح مسلم ٢٥٥١).

ثُمَّ خَصَّ اللهُ تَعَالَى الأُمَّ بذكْر الْمَتَاعب وَالصِّعَاب وَالْمَشَاقِّ الَّتِي تَحَمَّلَتْهَا، مِمَّا يَدْعُو إِلَى زِيَادَة برِّهَا وَالإِحْسَان إِلَيْهَا، فَقَالَ: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» وَمَشَقَّةُ الْحَمْل، وَآلَامُ الْحَمْل، وَآلَامُ الْوَضْع، وَآلَامُ الْولَادَة، لاَ تَخْفَى عَلَى عَاقل، حَتَّى إِنَّ بَعْضَ النِّسَاء قَدْ تَفْقدُ حَيَاتَهَا وَتَمُوتُ وَهِيَ تَضَعُ وَلَدَهَا، وَلذَلكَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ! مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ». قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ» (صحيح البخاري ٥٩٧١).

وَقَد اسْتَنْبَطَ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ مِنْ قَوْله تَعَالَى: «وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» أَنَّ الْمَرْأَةَ قَدْ تَلِدُ لسِتَّة أَشْهُر، قَالُوا: لأَنَّ اللهَ قَالَ: «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ» (البقرة: ٢٣٣)، فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ أَوْفَى أَجَل الرَّضَاعَة سَنَتَانِ- أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ شَهْرًا- فَيَبْقَى سِتَّةُ أَشْهُر للْحَمْل، فَتَكُونُ أَقَلُّ مُدَّة الْحَمْل ستَّةَ أَشْهُر.

ثُمَّ ضَرَبَ اللهُ تَعَالَى مَثَلاً للْوَلَد الصَّالح الْبَارِّ بأَبَوَيْه فَقَالَ: «حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ»:

«إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً»: فَالإِنْسَانُ مُنْذُ ولاَدَته وَهُوَ فِي ازْدِيَاد منَ الْقُوَّة الْبَدَنيَّة وَالْعَقْليَّة إِلَى أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَيَطْغَى الْعَقْلُ عَلَى الشَّهَوَات، فَإِنْ أَرَادَ اللهُ به خَيْرًا تَكَشَّفَتِ الأُمُورُ أَمَامَهُ وَالْحَقَائِقُ، وَظَهَرَتِ الدُّنْيَا

عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَوَجَدَهَا لاَ تُسَاوِي شَيْئًا، فَزَهِدَ فِيهَا وَأَقْبَلَ عَلَى اللَّه عزَّ وجلَّ، وَتَوَجَّهَ إِلَيْه مُسْتَعِينًا به عَلَى ذِكْرِه وَشُكْرِه وَحُسْنِ عِبَادَتِه قَائِلاً: «رَبِّ أَوْزِعْنِي» أَلْهِمْنِي وَأَعِنِّي وَاجْمَعْ قُوَايَ «أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ» خَاصَّةً «وَعَلَى وَالِدَيَّ»، فَإِنَّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَى وَالِدَيْكَ فَقَدْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ، فَنِعْمَةُ اللَّه عَلَى وَالِدَيْكَ نِعْمَةٌ عَلَيْكَ أَنْتَ، فَيَجِبُ أَنْ تَشْكُرَ اللَّه عَلَى مَا أَنْعَمَ به عَلَى وَالِدَيْكَ، كَمَا يَجِبُ أَنْ تَشْكُرَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ به عَلَيْكَ خَاصَّةً.

«وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ» فَلَمْ يَطْلُبْ مُطْلَقَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَلَكِنَّه طَلَبَ عَمَلاً صَالِحًا يَرْضَاهُ اللَّه، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ لاَ يَكُونُ مَرْضِيًّا عِنْدَ اللَّه إِلاَّ إِذَا كَانَ خَالِصًا لِلَّه، وَمُوَافِقًا لِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا » (النساء: ١٢٥)، قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّه:

«وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّه» أَخْلَصَ الْعَمَلَ لِرَبِّه عزَّ وجلَّ فَعَمِلَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، «وَهُوَ مُحْسِنٌ» أَيِ اتَّبَعَ فِي عَمَلِه مَا شَرَعَهُ اللَّه لَهُ، وَمَا أَرْسَلَ بِه رَسُولَهُ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، وَهَذَانِ الشَّرْطَانِ لاَ يَصِحُّ عَمَلُ عَامِلٍ بِدُونِهِمَا، أَيْ يَكُونُ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لِلَّه، وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ مُتَابِعًا لِلشَّرِيعَةِ، فَيَصِحُّ ظَاهِرُهُ بِالْمُتَابَعَةِ، وَبَاطِنُهُ بِالإِخْلاَصِ، فَمَتَى فَقَدَ الْعَمَلُ أَحَدَ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ فَسَدَ، فَمَتَى فَقَدَ الإِخْلاَصَ كَانَ مُنَافِقًا، وَهُمُ الَّذِينَ يُرَاءُونَ النَّاسَ، وَمَنْ فَقَدَ الْمُتَابَعَةَ كَانَ ضَالًّا جَاهِلاً، وَمَتَى جَمَعَهُمَا كَانَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِينَ «أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ » (الأحقاف: ١٦)، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: «وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» وَهُمْ مُحَمَّدٌ وَأَتْبَاعُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. (تفسير القرآن العظيم (١/٥٥٩)).

«وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» هَذَا هُوَ السُّؤَالُ الثَّالِثُ الَّذِي سَأَلَهُ ذَلِكَ الإِنْسَانُ رَبَّهُ، وَذَلِكَ مِمَّا يَحْرِصُ عَلَيْه الأَنْبِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ كَمَا قَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام: «رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » (الصافات: ١٠٠)، وَقَالَ أَيْضًا: «رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي » (إبراهيم: ٤٠)، وَقَالَ زَكَرِيَّا عليه السلام: «رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » (آل عمران: ٣٨).

فَالْوَاجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ حِينَ يَطْلُبُ الْوَلَدَ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَأَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّه عزَّ وجلَّ عَلَى إِصْلاَحِ ذُرِّيَّتِه بِالدُّعَاءِ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ صَلاَحِ الذُّرِّيَّةِ، قَالَ مَالِكُ بْنُ مَغُولٍ: اشْتَكَى أَبُو مَعْشَرٍ ابْنَهُ إِلَى طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ، فَقَالَ: اسْتَعِنْ عَلَيْه بِـ «وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» (الجامع لأحكام القرآن (١٦/١٩٥)). أَيْ ادْعُ لَهُ بِالْهِدَايَةِ وَالصَّلاَحِ، فَإِنَّ دُعَاءَكَ لَهُ مُسْتَجَابٌ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى اللَّه عليه وسلم: «ثَلاَثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لَهُنَّ، لاَ شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ لِوَلَدِه» (صحيح سنن ابن ماجه: ٣١١٥).

ثُمَّ تَوَسَّلَ الدَّاعِي إِلَى رَبِّه لِقَبُولِ دُعَائِه فَقَالَ: «إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ»، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الدُّعَاءَ لاَ يَصِحُّ إِلاَّ مَعَ التَّوْبَةِ، وَإِلاَّ مَعَ كَوْنِ الدَّاعِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ.

قَالَ الرَّازِي رَحِمَهُ اللَّه: اعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى حَكَى عَنْ هَذَا الدَّاعِي أَنَّهُ طَلَبَ مِنَ اللَّه تَعَالَى ثَلاَثَةَ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: أَنْ يُوَفِّقَهُ اللَّه لِلشُّكْرِ عَلَى نِعَمِه.

وَالثَّانِي: أَنْ يُوَفِّقَهُ لِلإِتْيَانِ بِالطَّاعَةِ الْمَرْضِيَّةِ عِنْدَ اللَّه.

الثَّالِثُ: أَنْ يُصْلِحَ لَهُ فِي ذُرِّيَّتِه.

وَفِي تَرْتِيبِ هَذِه الأَشْيَاءِ الثَّلاَثَةِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ وَجْهَانِ:

الأَوَّلُ: أَنَّا بَيَّنَّا أَنَّ مَرَاتِبَ السَّعَادَاتِ ثَلاَثَةٌ، أَكْمَلُهَا النَّفْسَانِيَّةُ، وَأَوْسَطُهَا الْبَدَنِيَّةُ، وَأَدْوَنُهَا الْخَارِجِيَّةُ، وَالسَّعَادَاتُ النَّفْسَانِيَّةُ هِيَ اشْتِغَالُ الْقَلْبِ بِشُكْرِ آلاَءِ اللَّه وَنَعْمَائِه، وَالسَّعَادَاتُ الْبَدَنِيَّةُ هِيَ اشْتِغَالُ الْبَدَنِ بِالطَّاعَةِ وَالْخِدْمَةِ، وَالسَّعَادَاتُ الْخَارِجِيَّةُ هِيَ سَعَادَةُ الأَهْلِ وَالْوَلَدِ، فَلَمَّا كَانَتِ الْمَرَاتِبُ مَحْصُورَةً فِي هَذِه الثَّلاَثَةِ لاَ جَرَمَ رَتَّبَهَا اللَّه تَعَالَى عَلَى هَذَا الْوَجْهِ.

وَالسَّبَبُ الثَّانِي: لِرِعَايَةِ هَذَا التَّرْتِيبِ أَنَّهُ تَعَالَى قَدَّمَ الشُّكْرَ عَلَى الْعَمَلِ، لأَنَّ الشُّكْرَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَالْعَمَلَ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ أَشْرَفُ مِنْ عَمَلِ الْجَارِحَةِ، وَأَيْضًا الْمَقْصُودُ مِنَ الأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ أَحْوَالُ الْقَلْبِ، قَالَ تَعَالَى: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي » (طه: ١٤)، بَيَّنَ أَنَّ الصَّلاَةَ مَطْلُوبَةٌ لأَجْلِ أَنَّهَا تُفِيدُ الذِّكْرَ، فَثَبَتَ أَنَّ أَعْمَالَ الْقُلُوبِ أَشْرَفُ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ، وَالأَشْرَفُ يَجِبُ تَقْدِيمُهُ فِي الذِّكْرِ، وَأَيْضًا الاشْتِغَالُ بِالشُّكْرِ اشْتِغَالٌ بِقَضَاءِ حُقُوقِ النِّعَمِ الْمَاضِيَةِ، وَالاشْتِغَالُ بِالطَّاعَةِ الظَّاهِرَةِ اشْتِغَالٌ بِطَلَبِ النِّعَمِ الْمُسْتَقْبَلَةِ، وَقَضَاءُ الْحُقُوقِ الْمَاضِيَةِ يَجْرِي مَجْرَى قَضَاءِ الدَّيْنِ، وَطَلَبُ الْمَنَافِعِ الْمُسْتَقْبَلَةِ طَلَبٌ لِلزَّوَائِدِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ قَضَاءَ الدَّيْنِ مُقَدَّمٌ عَلَى سَائِرِ الْمُهِمَّاتِ، فَلِهَذَا السَّبَبِ قَدَّمَ الشُّكْرَ عَلَى سَائِرِ الطَّاعَاتِ، وَأَيْضًا أَنَّهُ قَدَّمَ طَلَبَ التَّوْفِيقِ عَلَى الشُّكْرِ، وَطَلَبَ التَّوْفِيقِ عَلَى الطَّاعَةِ عَلَى طَلَبِ أَنْ يُصْلِحَ لَهُ ذُرِّيَّتَهُ، وَذَلِكَ لأَنَّ الْمَطْلُوبَيْنِ الأَوَّلَيْنِ اشْتِغَالٌ بِالتَّعْظِيمِ لأَمْرِ اللَّه، وَالْمَطْلُوبُ الثَّالِثُ اشْتِغَالٌ بِالشَّفَقَةِ عَلَى خَلْقِ اللَّه، وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّعْظِيمَ لأَمْرِ اللَّه يَجِبُ تَقْدِيمُهُ عَلَى الشَّفَقَةِ عَلَى خَلْقِ اللَّه. (التفسير الكبير (٢٨/٢٠)).

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

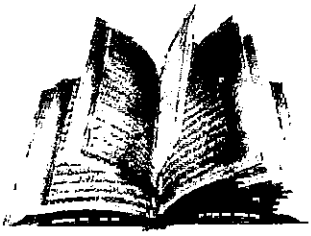

باب التفسير

سورة الأحقاف

الحلقة السادسة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

بسم الله الرحمن الرحيم

« أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ»

(الأحقاف: ١٦- ١٩).

قَالَ تَعَالَى: « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ »:

«أُولَئِكَ» الْمَوْصُوفُونَ بِهَذِهِ الأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ «الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا»، وَفِي الْمُقَابِلِ: «وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ»، وَإِذَا تَجَاوَزَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ إِنْسَانٍ، وَتَقَبَّلَ مِنْهُ صَالِحَ الأَعْمَالِ، كَانَ «فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ»، «فِي» بِمَعْنَى مَعَ، أَيْ مَعَ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ، تَقُولُ: أَكْرَمَكَ وَأَحْسَنَ إِلَيْكَ فِي جَمِيعِ أَهْلِ الْبَلَدِ، أَيْ مَعَ جَمِيعِهِمْ. «وَعْدَ الصِّدْقِ» نُصِبَ لأَنَّهُ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لِمَا قَبْلَهُ، أَيْ وَعَدَ اللَّهُ أَهْلَ الإِيمَانِ أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ، وَعْدَ الصِّدْقِ، وَهُوَ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَى نَفْسِهِ، لأَنَّ الصِّدْقَ هُوَ ذَلِكَ الْوَعْدُ الَّذِي وَعَدَهُ اللَّهُ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: « إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ» (الواقعة: ٩٥).

(الجامع لأحكام القرآن (١٦/١٩٦)).

وَلَمَّا ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلْوَلَدِ الْبَارِّ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِذِكْرِ مَثَلِ الْوَلَدِ الْعَاقِّ، فَقَالَ: « وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ» (الأحقاف: ١٧- ١٨).

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: "هَذَا نَعْتٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ، نَعَتَ ضَالٌّ بِهِ كَافِرٌ، وَبِوَالِدَيْهِ عَاقٌّ، وَهُمَا مُجْتَهِدَانِ فِي نَصِيحَتِهِ وَدُعَائِهِ إِلَى اللَّهِ، فَلاَ يَزِيدُهُ دُعَاؤُهُمَا إِيَّاهُ إِلَى الْحَقِّ وَنَصِيحَتُهُمَا لَهُ إِلاَّ عُتُوًّا وَتَمَرُّدًا عَلَى اللَّهِ، وَتَمَادِيًا فِي جَهْلِهِ، يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: «وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ» أَنْ دَعْوَاهُ إِلَى الإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَالإِقْرَارِ بِبَعْثِ اللَّهِ خَلْقَهُ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَمُجَازَاتِهِ إِيَّاهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ «أُفٍّ لَكُمَا»، يَقُولُ: قَذَرًا لَكُمَا وَتُتْنًا، «أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ» مِنْ قَبْرِي-مِنْ بَعْدِ فَنَائِي وَبِلَائِي فِيهِ- حَيًّا «وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي» وَلَمْ يُبْعَثْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى أَهْلِهِ مِنْهُمْ

أَحَدٌ، فَهَلْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ. (جامع البيان (١٩/٢٦)).

وَهَذِهِ هِيَ شُبْهَةُ الْمُنْكِرِينَ لِلْبَعْثِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » (الجاثية: ٢٥)، وقال تعالى: «إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » (الدخان: ٣٤- ٣٦)، وَلَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ لَعَلِمُوا أَنَّ الَّذِي خَلَقَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُحْيِيَهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا » (مريم: ٦٦- ٦٧).

وَقَالَ تَعَالَى: «أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » (يس: ٧٧- ٧٩).

وَقَالَ تَعَالَى: «أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ » (القيامة: ٣٦- ٤٠).

وَقَالَ تَعَالَى: «فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ » (الطارق: ٥- ٨).

وَالآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَلَكِنَّ الْقَوْمَ كَمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ: هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ » (الأعراف: ١٧٩).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ» أي يَسْتَصْرِخَانِ اللَّهَ عَلَيْهِ، وَيَسْتَغِيثَانِهِ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَيُقِرَّ بِالْبَعْثِ، وَيَقُولَانِ لَهُ: «وَيْلَكَ آمِنْ» أَيْ صَدِّقْ بِوَعْدِ اللَّهِ، وَأَقِرَّ أَنَّكَ مَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ وَفَاتِكَ، «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ» الَّذِي وَعَدَ خَلْقَهُ أَنَّهُ بَاعِثُهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَمُخْرِجُهُمْ مِنْهَا إِلَى مَوْقِفِ الْحِسَابِ لِمُجَازَاتِهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ «حَقٌّ» لَا شَكَّ فِيهِ، «فَيَقُولُ» عَدُوُّ اللَّهِ مُجِيبًا لِوَالِدَيْهِ، وَرَدًّا عَلَيْهِمَا نَصِيحَتَهُمَا، وَتَكْذِيبًا بِوَعْدِ اللَّهِ: «مَا هَٰذَآ» الَّذِي تَقُولَانِ لِي وَتَدْعُوَانِي إِلَيْهِ مِنَ التَّصْدِيقِ بِأَنِّي مَبْعُوثٌ مِنْ بَعْدِ وَفَاتِي مِنْ قَبْرِي، «إِلَّا» مَا سَطَرَهُ الأَوَّلُونَ مِنَ النَّاسِ مِنَ الأَبَاطِيلِ، فَكَتَبُوهُ، فَاصْبْتُمَاهُ أَنْتُمَا فَصَدَّقْتُمَا. (جامع البيان (١٩/٢٦ و٢٠)).

قَالَ تَعَالَى: «أُو۟لَٰٓئِكَ» الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَالتَّكْذِيبِ بِلِقَائِهِ هُمُ «الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ»، وَالْمُرَادُ بِالْقَوْلِ مَا صَرَّحَ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ لإِبْلِيسَ: «قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ » (ص: ٨٤- ٨٥)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ » (السجدة: ١٣).

وَمَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ خَابَ وَخَسِرَ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ».

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ»: التَّنْوِينُ فِي قَوْلِهِ: «وَلِكُلٍّ» عِوَضٌ عَنْ جُمْلَةٍ، وَالتَّقْدِيرُ وَلِكُلِّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ: الْمُؤْمِنِ الْبَارِّ وَالْكَافِرِ الْعَاقِّ «دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا»، الْبَارُّ لَهُ دَرَجَاتٌ فِي الْجَنَّةِ، فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ، وَالْكَافِرُ الْعَاقُّ لَهُ دَرَكَاتٌ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ، «وَلِيُوَفِّيَهُمْ» رَبُّهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ «أَعْمَالَهُمْ» كَمَا وَعَدَ سُبْحَانَهُ حَيْثُ قَالَ: «كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » (آل عمران: ١٨٥)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » (هود: ١١١)، «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ»، فَلَا الْمُحْسِنُ يُبْخَسُ حَقَّهُ، وَيُنْقَصُ مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَلَا الْمُسِيءُ يُزَادُ فِي سَيِّئَاتِهِ، إِنَّمَا الأَمْرُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » (الأنعام: ١٦٠)، وَقَالَ تَعَالَى: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » (النساء: ٤٠)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ » (الأنبياء: ٤٧).

وللحديث بقية إن شاء الله.

باب التفسير

سُورَةُ الأَحقَافِ

الحلقة العاشرة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ»

(الأحقاف: ٢٠).

يَقُولُ تَعَالَى مُذَكِّرًا وَمُنْذِرًا: «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ» يُقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخًا وَتَقْرِيعًا: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا» وَذَلِكَ لِحِرْصِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا وَاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهَا هِيَ الْحَيَاةُ، وَلَا حَيَاةَ بَعْدَهَا، فَهُمْ حَرِيصُونَ عَلَى إِشْبَاعِ غَرَائِزِهِمْ وَالِاسْتِمْتَاعِ بِشَهَوَاتِ الدُّنْيَا، فَهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ» (محمد: ١٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يَأْكُلُ الْمُسْلِمُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ» (صحيح البخاري ٥٣٩٦).

فَالْكُفَّارُ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ، فَلَا تَشْتَهِي نَفْسُهُ شَيْئًا وَيَمْنَعُهَا، بَلْ يُعْطِيهَا كُلَّ مَا تَشْتَهِي، فَإِذَا عُرِضُوا عَلَى النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قِيلَ لَهُمْ: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا» فَلَيْسَ لَكُمْ فِي نَعِيمِ الْجَنَّةِ نَصِيبٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ» (الشورى: ٢٠)، وَقَالَ تَعَالَى: «مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا» (الإسراء: ١٨).

وَلَمَّا اسْتَغَاثُوا بِأَهْلِ الْجَنَّةِ أَجَابُوهُمْ بِمَضْمُونِ هَذِهِ الْآيَاتِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ» (الأعراف: ٥٠- ٥١).

وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي دَفَعَتْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا:

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم طَلَّقَ نِسَاءَهُ فَأَرَادَ أَنْ يَتَثَبَّتَ قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَإِذَا هُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى رِمَالِ حَصِيرٍ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ، قَدْ أَثَّرَ الرِّمَالُ بِجَنْبِهِ، مُتَّكِئًا عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ

قُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ: يَا رَسُولَ اللهِ أَطَلَّقْتَ نِسَاءَكَ؟ فَرَفَعَ إِلَيَّ بَصَرَهُ فَقَالَ: «لاَ». فَقُلْتُ اللهُ أَكْبَرُ. قَالَ: فَرَفَعْتُ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ، فَوَاللهِ مَا رَأَيْتُ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا يَرُدُّ الْبَصَرَ غَيْرَ أَهَبَةٍ ثَلاَثَةٍ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ! ادْعُ اللهَ فَلْيُوَسِّعْ عَلَى أُمَّتِكَ، فَإِنَّ فَارِسَا وَالرُّومَ قَدْ وُسِّعَ عَلَيْهِمْ، وَأُعْطُوا الدُّنْيَا وَهُمْ لاَ يَعْبُدُونَ اللهَ. فَجَلَسَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ: «أَوَ فِي هَذَا أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنَّ أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ اسْتَغْفِرْ لِي. (صحيح البخاري ٥١٩١).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «لاَ تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلاَ الدِّيبَاجَ، وَلاَ تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلاَ تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا، فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَنَا فِي الآخِرَةِ». (صحيح مسلم ٢٠٦٧).

وَذُكِرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ يَقُولُ: «لَوْ شِئْتُ كُنْتُ أَطْيَبَكُمْ طَعَامًا، وَأَلْيَنَكُمْ لِبَاسًا، وَلَكِنِّي أَسْتَبْقِي طَيِّبَاتِي».

وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا قَدِمَ الشَّامَ، صُنِعَ لَهُ طَعَامٌ لَمْ يَرَ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، قَالَ: هَذَا لَنَا، فَمَا لِفُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ لاَ يَشْبَعُونَ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ؟ قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: لَهُمُ الْجَنَّةُ. فَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنَا عُمَرَ وَقَالَ: لَئِنْ كَانَ حَظُّنَا فِي الْحُطَامِ، وَذَهَبُوا فِي حَظِّهِمْ فِي الْجَنَّةِ، لَقَدْ بَايَنُونَا بَوْنًا بَعِيدًا. (جامع البيان (٢١/٢٦)).

وَقَالَ حَفْصُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ: كُنْتُ أَتَغَدَّى عِنْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه الْخُبْزَ وَالزَّيْتَ، وَالْخُبْزَ وَالْخَلَّ، وَالْخُبْزَ وَاللَّبَنَ، وَالْخُبْزَ وَالْقَدِيدَ، وَأَقَلَّ ذَلِكَ اللَّحْمُ الْغَرِيضُ. وَكَانَ يَقُولُ: لاَ تُنْخُلُوا الدَّقِيقَ فَإِنَّهُ طَعَامٌ كُلُّهُ، فَجِيءَ بِخُبْزٍ مُتَفَلِّعٍ غَلِيظٍ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ وَيَقُولُ: كُلُوا، فَجَعَلْنَا لاَ نَأْكُلُ، فَقَالَ: مَا لَكُمْ لاَ تَأْكُلُونَ؟ فَقُلْنَا، وَاللهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَرْجِعُ إِلَى طَعَامٍ أَلْيَنَ مِنْ طَعَامِكَ هَذَا! فَقَالَ: يَا ابْنَ أَبِي الْعَاصِ أَمَا تَرَى بِأَنِّي عَالِمٌ أَنْ لَوْ أَمَرْتُ بِعَنَاقٍ سَمِينَةٍ فَيُلْقَى عَنْهَا شَعْرُهَا ثُمَّ تُخْرَجُ مَصْلِيَّةً كَأَنَّهَا كَذَا وَكَذَا، أَمَا تَرَى بِأَنِّي عَالِمٌ أَنْ لَوْ أَمَرْتُ بِصَاعٍ أَوْ صَاعَيْنِ مِنْ زَبِيبٍ فَأُجْعَلُهُ فِي سِقَاءٍ ثُمَّ أَشُنُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَاءِ فَيُصْبِحُ كَأَنَّهُ دَمُ غَزَالٍ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَجَلْ! مَا تَنَعَّتُ الْعَيْشُ، قَالَ: أَجَلْ! وَاللهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَوْلاَ أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَنْقُصَ حَسَنَاتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَشَارَكْتُكُمْ فِي الْعَيْشِ! وَلَكِنِّي سَمِعْتُ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ لأَقْوَامٍ: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا».

وَقَالَ جَابِرُ رضي الله عنه: اشْتَهَى أَهْلِي لَحْمًا فَاشْتَرَيْتُهُ لَهُمْ، فَمَرَرْتُ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَقَالَ: مَا هَذَا يَا جَابِرُ؟ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: أَوَكُلَّمَا اشْتَهَى أَحَدُكُمْ شَيْئًا جَعَلَهُ فِي بَطْنِهِ! أَمَا يَخْشَى أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الآيَةِ: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ»؟!.

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِي رَحِمَهُ اللهُ: وَهَذَا عِتَابٌ مِنْهُ لَهُ عَلَى التَّوَسُّعِ بِابْتِيَاعِ اللَّحْمِ، وَالْخُرُوجِ عَنْ جُلِّ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ، فَإِنَّ تَعَاطِيَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْحَلاَلِ تَسْتَشْرِهُ لَهَا الطِّبَاعُ، وَتَسْتَمْرِئُهَا الْعَادَةُ، فَإِذَا فَقَدَتْهَا اسْتَسْهَلَتْ فِي تَحْصِيلِهَا بِالشُّبُهَاتِ، حَتَّى تَقَعَ فِي الْحَرَامِ الْمَحْضِ بِغَلَبَةِ الْعَادَةِ، وَاسْتِشْرَاهِ الْهَوَى عَلَى النَّفْسِ الأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَأَخَذَ عُمَرُ الأَمْرَ مِنْ أَوَّلِهِ، وَحَمَاهُ مِنِ ابْتِدَائِهِ، كَمَا يَفْعَلُهُ مِثْلُهُ.

وَالَّذِي يَضْبِطُ هَذَا الْبَابَ وَيَحْفَظُ قَانُونَهُ: عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَأْكُلَ مَا وَجَدَ، طَيِّبًا كَانَ أَوْ قِفَارًا، وَلاَ يَتَكَلَّفُ الطَّيِّبَ وَيَتَّخِذُهُ عَادَةً، وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَشْبَعُ إِذَا وَجَدَ، وَيَصْبِرُ إِذَا عَدِمَ، وَيَأْكُلُ الْحَلْوَى إِذَا قَدَرَ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الْعَسَلَ إِذَا اتَّفَقَ لَهُ، وَيَأْكُلُ اللَّحْمَ إِذَا تَيَسَّرَ، وَلاَ يَعْتَمِدُهُ أَصْلاً، وَلاَ يَجْعَلُهُ دَيْدَنًا. وَمَعِيشَةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مَعْلُومَةٌ، وَطَرِيقَةُ الصَّحَابَةِ مَنْقُولَةٌ، فَأَمَّا الْيَوْمَ عِنْدَ اسْتِيلاَءِ الْحَرَامِ، وَفَسَادِ الْحُطَامِ، فَالْخَلاَصُ عَسِيرٌ، وَاللهُ يَهَبُ الإِخْلاَصَ، وَيُعِينُ عَلَى الْخَلاَصِ بِرَحْمَتِهِ.

وَقِيلَ: إِنَّ التَّوْبِيخَ وَاقِعٌ عَلَى تَرْكِ الشُّكْرِ لاَ عَلَى تَنَاوُلِ الطَّيِّبَاتِ الْمُحَلَّلَةِ، وَهُوَ حَسَنٌ، فَإِنَّ تَنَاوُلَ الطَّيِّبِ الْحَلاَلِ مَأْذُونٌ فِيهِ، فَإِذَا تَرَكَ الشُّكْرَ عَلَيْهِ وَاسْتَعَانَ بِهِ عَلَى مَا لاَ يَحِلُّ لَهُ فَقَدْ أَذْهَبَهُ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ» أَيِ الْهَوَانِ «بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ» أَيْ تَتَعَظَّمُونَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَعَلَى عِبَادِ اللهِ، «وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ» تَخْرُجُونَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ. (الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٠١-٢٠٣)).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

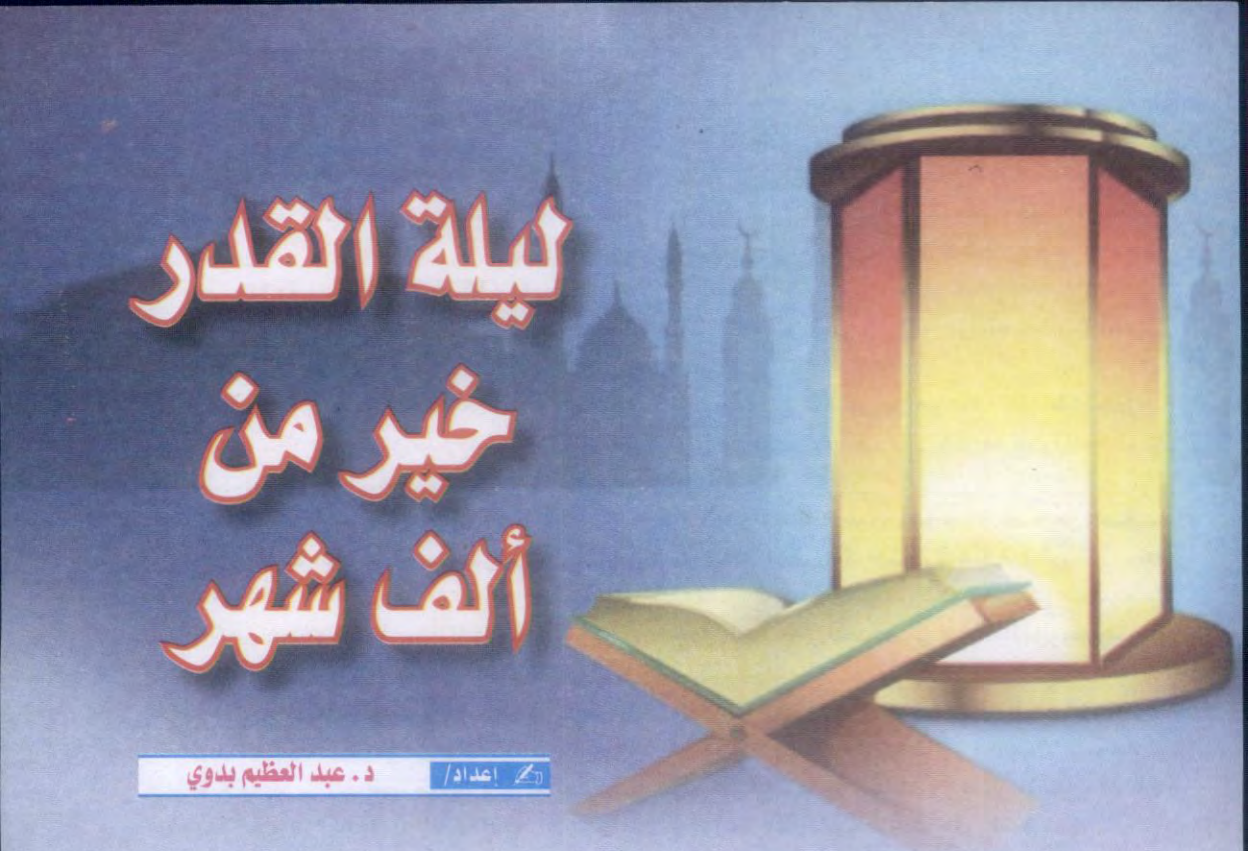

ليلة القدر خير من ألف شهر

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فلَيْلَةُ الْقَدْرِ هِيَ تِلْكَ اللَّيْلَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي أُنْزِلَ فِيهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ، قَالَ تَعَالَى: «إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ» (الدخان: ٣- ٤). وَهِيَ لَيْلَةٌ مِنْ رَمَضَانَ بِلاَ شَكٍّ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ» (القدر: ١)، وقوله سبحانه: «شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ» (البقرة: ١٨٥)، وَلَكِنْ لاَ يُعْرَفُ أَيُّ لَيْلَةٍ هِيَ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ، وَلِذَلِكَ كَانَ صلى الله عليه وسلم يَطْلُبُهَا فِي أَوَّلِ الشَّهْرِ فَيَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الأَوَّلَ، ثُمَّ طَلَبَهَا فِي وَسَطِهِ، فَاعْتَكَفَ الْعَشْرَ الأَوْسَطَ، ثُمَّ أَعْلَمَ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ، فَاعْتَكَفَ الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ وَقَالَ لأَصْحَابِهِ: «الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ». (صحيح البخاري: ٢٠١٩).

وَلَقَدْ عَظَّمَ اللهُ شَأْنَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَرَفَعَ قَدْرَهَا، فَأَنْزَلَ سُورَةً فِي الْقُرْآنِ بِاسْمِهَا، سُورَةَ الْقَدْرِ، قَالَ تَعَالَى: «إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ» وَالْقَدْرُ مَصْدَرُ قَوْلِهِمْ: قَدَرَ اللهُ الشَّيْءَ -بِالتَّخْفِيفِ- قَدْرًا وَقَدَرًا، كَالنَّهَرِ وَالنَّهْرِ، وَقَدَّرَهُ -بِالتَّشْدِيدِ- تقديرا، بِمَعْنًى وَاحِدٍ.

وَسُمِّيَتْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ لأَنَّهَا لَيْلَةُ تَقْدِيرِ الأُمُورِ وَالأَحْكَامِ، يُقَدِّرُ اللهُ فِيهَا أَمْرَ السَّنَةِ فِي عِبَادِهِ وَبِلاَدِهِ إِلَى السَّنَةِ الْمُقْبِلَةِ، قِيلَ لِلْحُسَيْنِ بْنِ الْفَضْلِ: أَلَيْسَ قَدْ قَدَرَ اللهُ الْمَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ والأرض؟ قال: بَلَى. قِيلَ: فَمَا مَعْنَى لَيْلَةِ الْقَدْرِ؟ قال: سوق المقادير التي خلقها إلى المواقيت، وتنفيذ القضاء المقدور.

وقال الأزهري: لَيْلَةُ الْقَدْرِ ليلة الْعَظَمَةِ وَالشَّرَفِ، مِنْ قَوْلِ النَّاسِ: لِفُلاَنٍ عِنْدَ الأَمِيرِ قَدْرٌ، أَيْ جاه ومنزلة، يقال: قَدَرْتُ فُلاَنًا أَيْ عَظَّمْتُهُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: (وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ) (الأنعام: ٩١)، أَيْ: مَا عَظَّمُوهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ. وقيل: لأن العمل الصالح فيه يكون ذَا قَدْرٍ عِنْدَ اللهِ لِكَوْنِهِ مَقْبُولاً. (معالم التنزيل(٥/٦٠٢)).

«وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ» اسْتِفْهَامٌ لِتَعْظِيمِ شَأْنِهَا وَرَفْعِ قَدْرِهَا، «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ

شَهْر، أَيْ أَنَّ ثَوَابَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ ثَوَابِ الْعَمَلِ فِي أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَالأَلْفُ شَهْرٍ ثَلاثٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً وَأَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ، لَمَّا قَصُرَتْ أَعْمَارُهَا، وَقَلَّتْ أَيَّامُهَا، أَعْطَاهَا رَبُّهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ لَيْلَةً خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ.

فَللهِ دَرُّكَ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ إِذَا وُفِّقْتَ لأَرْبَعِينَ لَيْلَةً أَوْ خَمْسِينَ، أَوْ سِتِّينَ أَوْ سَبْعِينَ لَيْلَةً مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَكُلُّ لَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، لِيَهْنِكَ الأَجْرُ وَالثَّوَابُ إِذًا وَاللهِ. وَلِذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ، وَيَجْتَهِدُ فِيهَا فِي الْعِبَادَةِ وَالطَّاعَةِ طَلَبًا لِلَيْلَةِ الْقَدْرِ، حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَجَدَّ، وَشَدَّ الْمِئْزَرَ». (صحيح البخاري ٢٠٢٤).

وَعَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مَا لا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ». (صحيح مسلم ١١٧٥).

وَكَانَ صلى الله عليه وسلم يَحُثُّ عَلَى طَلَبِهَا وَتَحَرِّيهَا وَالاجْتِهَادِ فِيهَا، فَكَانَ يَقُولُ: «الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ، يَعْنِي لَيْلَةَ الْقَدْرِ، فَإِنْ ضَعُفَ أَحَدُكُمْ أَوْ عَجَزَ فَلا يُغْلَبَنَّ عَلَى السَّبْعِ الْبَوَاقِي». (صحيح مسلم ١١٦٥).

وَعَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنهما قَالَ: رَأَى رَجُلٌ أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَرَى رُؤْيَاكُمْ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ، فَاطْلُبُوهَا فِي الْوِتْرِ مِنْهَا». (صحيح مسلم ١١٦٥).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». (البخاري: ٣٥).

فَاجْتَهِدُوا عِبَادَ اللهِ فِي هَذَا الْعَشْرِ الَّذِي تَسْتَقْبِلُونَ فِي طَاعَةِ اللهِ، صُومُوا وَقُومُوا، وَاعْتَكِفُوا، وَاقْرَؤُوا الْقُرْآنَ وَتَصَدَّقُوا، وَأَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ» (فاطر: ٢٩- ٣٠).

فمَنْ وُفِّق منكم لها فماذا يقول؟

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! أَرَأَيْتَ إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ مَا أَدْعُو؟ قَالَ: «تَقُولِينَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي».

وَالْعَفْوُ لُغَةً: مَصْدَرٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: عَفَا يَعْفُو عَفْوًا، وَمَعْنَاهُ التَّرْكُ وَالطَّلَبُ.

وَاصْطِلاحًا: قَالَ الْمَنَاوِيُّ: الْعَفْوُ الْقَصْدُ لِتَنَاوُلِ الشَّيْءِ وَالتَّجَاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ.

وَقَالَ الْكَفَوِيُّ: الْعَفْوُ كَفُّ الضَّرَرِ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ، وَكُلُّ مَنِ اسْتَحَقَّ عُقُوبَةً فَتَرَكَهَا فَهَذَا التَّرْكُ عَفْوٌ. وَقَالَ أَيْضًا: الْعَفْوُ عَنِ الذَّنْبِ يَصِحُّ رُجُوعُه إِلَى تَرْكِ مَا يَسْتَحِقُّهُ الْمُذْنِبُ مِنَ الْعُقُوبَةِ، وَإِلَى مَحْوِ الذَّنْبِ، وَإِلَى الإِعْرَاضِ عَنِ الْمُؤَاخَذَةِ كَمَا يُعْرِضُ الْمَرْءُ عَمَّا يَسْهُلُ عَلَى النَّفْسِ بَذْلُهُ. (نضرة النعيم (٧/ ٢٨٩٠- ٢٨٩٢).

وَاللهُ تَعَالَى هُوَ الْعَفُوُّ، أَيْ كَثِيرُ الْعَفْوِ، قَالَ تَعَالَى: « إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا » (النساء: ٩٨- ٩٩) وَ قَالَ تَعَالَى: « إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا » (النساء: ١٤٩).

وَقَالَ تَعَالَى: « الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ» (المجادلة: ٢).

قَالَ الْغَزَالِيُّ- رَحِمَهُ اللهُ-: وَالْعَفْوُ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى، وَهُوَ الَّذِي يَمْحُو السَّيِّئَاتِ، وَيَتَجَاوَزُ عَنِ الْمَعَاصِي، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الْغُفْرِ، لَكِنَّهُ أَبْلَغُ مِنْهُ، فَإِنَّ الْغُفْرَانَ يُنْبِئُ عَنِ السَّتْرِ، وَالْعَفْوَ يُنْبِئُ عَنِ الْمَحْوِ، وَالْمَحْوُ أَبْلَغُ مِنَ

السَّتْر. (المقصد الأسنى(١٤٠) كذا في "نضرة النعيم"(٧/٢٨٩١)).

وَلَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ صلى الله عليه وسلم بِالْعَفْوِ عَنْ زَلَّاتِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: «فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ» (آل عمران: ١٥٩). وَأَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعَفْوِ عَنْ زَلَّاتِ بَعْضِهِم مَعَ بَعْضٍ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» (الشورى: ٤٠)، وَقَالَ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (التغابن: ١٤).

وَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ الْعَفْوَ مِنْ صِفَاتِ الْمُتَّقِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» (البقرة: ٢٣٧). وَوَعَدَ عَلَى الْعَفْوِ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا، فَقَالَ تَعَالَى: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» (آل عمران: ١٣٣- ١٣٦).

وَلَقَدْ كَانَ صلى الله عليه وسلم عَفُوًّا غَفُورًا، يَعْفُو عَنِ الْمُسِيئِينَ، وَيَتَجَاوَزُ عَنِ الظَّالِمِينَ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». (صحيح البخاري: ٣٤٧٧).

وَلَقَدْ آتَتْ هَذِهِ التَّرْبِيَةُ الْعَمَلِيَّةُ وَالدَّعْوَةُ الْقَوْلِيَّةُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ثِمَارَهَا فِي نُفُوسِ أَصْحَابِهِ فَكَانَ الْعَفْوُ سَجِيَّتَهُمْ:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَتْ: لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ. فَأَنْزَلَ اللهُ «وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (النور: ٢٢)، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: بَلَى! وَاللهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ: وَاللهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا». (صحيح البخاري: ٢٦٦١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ». (صحيح مسلم: ٤٨٦).

وَأَمَّا الرَّجَاءُ فَهُوَ وَسِيلَةُ الصَّالِحِينَ لِنَيْلِ عَفْوِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي». (صحيح الترمذي: ٣٥٤٠).

وَلِذَلِكَ أَثَرَ عَنِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ:

وَلَمَّا قَسَى قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي
جَعَلْتُ الرَّجَا مِنِّي لِعَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ
بِعَفْوِكَ كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

وَقَالَ آخَرُ:

إِلَهِي لَا تُعَذِّبْنِي فَإِنِّي
مُقِرٌّ بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنِّي
فَمَا لِي حِيلَةٌ إِلَّا رَجَائِي
لِعَفْوِكَ يَا عَفُوُّ وَحُسْنُ ظَنِّي

نسأل الله أن يعفو عنا، إنه هو العفو الغفور

باب التفسير

سُورَةُ الأَحْقَافِ

الحلقة الحادية عشرة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

بسم الله الرحمن الرحيم

«وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ»

(الأحقاف: ٢١- ٢٥).

يَقُولُ تَعَالَى: «وَاذْكُرْ» يَا نَبِيَّنَا لِقَوْمِكَ «أَخَا عَادٍ» وَهُوَ هُودٌ عليه السلام، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا» (الأعراف: ٦٥)، وَالْمُرَادُ بِالأُخُوَّةِ أُخُوَّةُ النَّسَبِ لاَ أُخُوَّةُ الإِيمَانِ، فَقَدْ كَانَ مُؤْمِنًا وَهُمْ كُفَّارٌ، «إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ» عَادًا، وَالإِنْذَارُ هُوَ الإِعْلاَمُ الْمَصْحُوبُ بِالتَّخْوِيفِ، وَكَانُوا يَسْكُنُونَ «بِالأَحْقَافِ» بِالْيَمَنِ، الأَحْقَافُ جَمْعُ الْحِقْفِ: وَهُوَ الرَّمْلُ الْمُسْتَطِيلُ الْمُعْوَجُّ، فَأَنْذَرَهُمْ عَاقِبَةَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ بِاللهِ وَتَرْكِ عِبَادَةِ اللهِ الَّتِي خَلَقَهُمْ لَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ» (الأعراف: ٦٥)، «أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ» (الأعراف: ٦٩- ٧١).

«وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ» أَيْ جَاءَ هُودٌ عليه السلام بَعْدَ نُوحٍ عليه السلام، وَجَاءَتْ بَعْدَهُ رُسُلٌ كَثِيرُونَ، كُلُّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، فَالتَّوْحِيدُ هُوَ دَعْوَةُ جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» (الأنبياء: ٢٥).

وَقَوْلُهُ: «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» إِنْ لَمْ تَعْبُدُوا اللهَ عز وجل، فَإِنَّ اللهَ قَالَ: «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» (غافر: ٦٠)، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: «لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا

يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا » (النساء: ١٧٢- ١٧٣).

فَكَذَّبُوهُ وَاتَّهَمُوهُ بِأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَهُمُ الَّذِي وَجَدُوا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ:

«قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا» أَيْ لِتَصْرِفَنَا عَنْ عِبَادَةِ آلِهَتِنَا الَّتِي وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا؟! ثُمَّ تَجَرَّؤُوا فَسَأَلُوهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِمَا أَنْذَرَهُمُوهُ، قَالُوا «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ»، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ: « قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ » (الأعراف: ٧٠).

«قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ» إِنْ شَاءَ عَجَّلَ لَكُمْ مَا تَسْتَعْجِلُونَ وَإِنْ شَاءَ أَخَّرَهُ، كَمَا أَجَابَ نُوحٌ عليه السلام قَوْمَهُ وَقَدْ: « قَالُوا يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ » (هود: ٣٢- ٣٣)، وَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم لِقَوْمِهِ وَقَدْ سَأَلُوهُ أَيْضًا تَعْجِيلَ الْعَذَابِ: «مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ » (الأنعام: ٥٧)، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ، وَلِذَلِكَ قَالَ هُودٌ عليه السلام: «إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ» وَأَيُّ جَهْلٍ أَقْبَحُ مِنْ جَهْلِ الَّذِينَ يَسْتَعْجِلُونَ عَذَابَ اللَّهِ، وَهُوَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ: «سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ » (المعارج: ١- ٣)، وَقَدْ صَرَّحَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ بِجَهْلِ الْمُسْتَعْجِلِينَ عَذَابَهُ فَقَالَ: « وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ » (الأنبياء: ٣٨- ٤٠).

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: «جَوَابُ «لَوْ» مَحْذُوفٌ، وَ«حِينَ» مَفْعُولٌ بِهِ لِيَعْلَمَ، أَيْ لَوْ يَعْلَمُونَ الْوَقْتَ الَّذِي يَسْتَعْجِلُونَهُ، وَهُوَ وَقْتٌ صَعْبٌ شَدِيدٌ، تُحِيطُ بِهِمُ النَّارُ مِنْ وَرَاءَ وَقُدَّامَ، وَلَكِنَّ جَهْلَهُمْ بِهِ هُوَ الَّذِي هَوَّنَهُ عِنْدَهُمْ. قَالَ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ «يَعْلَمُ» مَتْرُوكًا فَلَا تَعْدِيَةَ، بِمَعْنَى لَوْ كَانَ مَعَهُمْ عِلْمٌ وَلَمْ يَكُونُوا جَاهِلِينَ لَمَّا كَانُوا مُسْتَعْجِلِينَ، و«حِينَ» مَنْصُوبٌ بِمُضْمَرٍ، أَيْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْبَاطِلِ، وَيَنْتَفِي عَنْهُمْ هَذَا الْجَهْلُ الْعَظِيمُ، أَيْ لَا يَكُفُّونَهَا». (الكشاف: ٣/١٢).

وَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يُهْلِكَهُمْ حَبَسَ عَنْهُمُ الْمَطَرَ ثَلَاثَ سِنِينَ، فَأَصَابَهُمُ الْجَدْبُ وَالْقَحْطُ، وَأَخَذُوا بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ، فَلَمَّا اشْتَدَّتْ بِهِمُ الْمَجَاعَةُ وَخَافُوا الْهَلَاكَ مِنَ الْجُوعِ اخْتَارُوا وَفْدًا لَهُمْ يَأْتِي بَلَدَ اللَّهِ الْحَرَامَ وَيَسْتَسْقِي، أَيْ يَطْلُبُ السُّقْيَا مِنَ اللَّهِ، لَعَلَّ اللَّهَ يَسْقِيهِمْ، وَجَلَسُوا فِي الْيَمَنِ يَرْقُبُونَ عَوْدَةَ الْوَفْدِ أَوْ مَجِيءَ الْغَيْثِ، فَلَبِثَ الْوَفْدُ فِي مَكَّةَ مَا لَبِثَ، وَأَثْنَاءَ الْعَوْدَةِ هَبَّتِ الرِّيحُ فَحَمَلَتِ الْوَفْدَ وَكُلَّ مَا أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَصَارَتْ سَحَابَةً سَوْدَاءَ، وَتَوَجَّهَتْ إِلَى أَهْلِ الْحَضَرِ الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ عَوْدَةَ الْوَفْدِ أَوِ الْغَيْثَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَرْقُبُونَ هَكَذَا جِهَةَ بَلَدِ اللَّهِ الْحَرَامِ إِذْ رَأَوْا عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ فَاسْتَبْشَرُوا خَيْرًا وَ«قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا»، فَقِيلَ كَذَبْتُمْ وَخِبْتُمْ وَخَابَ ظَنُّكُمْ، «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ»، فَرَفَعَتْهُمْ إِلَى فَوْقُ ثُمَّ كَبَّتْهُمْ إِلَى أَسْفَلَ، «سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ » (الحاقة: ٧)، لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَمَالِقَةَ، ذَوِي طُولٍ وَعَرْضٍ، فَلَمَّا كُبُّوا عَلَى رُءُوسِهِمْ صَارَتِ الرُّؤُوسُ فِي نَاحِيَةٍ، وَالْجُثَثُ فِي نَاحِيَةٍ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ » (الحاقة: ٧)، «فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ»، دَمَّرَتِ الرِّيحُ الْقَوْمَ رِجَالًا وَنِسَاءً، وَدَمَّرَتِ الزَّرْعَ، وَدَمَّرَتِ الْأَمْوَالَ وَالْمَوَاشِيَ، «فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ»، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (النمل: ٥٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ» فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، كَمَا جَزَيْنَا قَوْمَ عَادٍ.

وللحديث بقية إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين.

التربية على مراقبة الله عز وجل

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

ونحن في لحظات توديع شهر الصيام يجب علينا أن نتساءل: هل حققنا الغاية من الصيام، وكيف نستفيد من الصيام فيما بعد الصيام؟

والجواب: إن الله تعالى بين في هذه الآية الحكمة من الصيام فقال: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ» (البقرة: ١٨٣).

فهذه هي فائدة الصيام الكبرى وحكمته العليا (لعلكم تتقون)، وهو أنه يعد نفس الصائم لتقوى الله تعالى بترك شهواته الطبيعية المباحة الميسورة امتثالاً لأمره واحتسابًا للأجر عنده، فتتربى بذلك إرادته على ملكة ترك الشهوات المحرمة والصبر عنها فيكون اجتنابها أيسر عليه، وتقوى على النهوض بالطاعات والمصالح والاصطبار عليها فيكون الثبات عليها أهون عليه، فليس الصيام في الإسلام لتعذيب النفس لذاته بل لتربيتها وتزكيتها.

وإعداد الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى يظهر من وجوه كثيرة أعظمها شأنًا، وأنصعها برهانًا وأظهرها أثرًا، وأعلاها خطرًا- شرفًا- أنه أمرٌ موكولٌ إلى نفس الصائم لا رقيب عليه فيه إلا الله تعالى، وسرٌّ بين العبد وربه لا يشرف عليه أحد غيره سبحانه، فإذا ترك الإنسان شهواته ولذاته التي تعرض له في عامة الأوقات لمجرد الامتثال لأمر ربه والخضوع لإرشاد دينه مدة شهر كامل في السنة، ملاحظا عند عروض كل رغيبة له- من أكل نفيس، وشراب عذب، وفاكهة يانعة، وغير ذلك كزينة زوجة أو جمالها الداعي إلى ملابستها- أنه لولا اطلاع الله تعالى عليه ومراقبته له لما صبر عن تناولها وهو في أشد التوق لها، لا جرم أنه يحصل له من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل ملكة المراقبة لله تعالى والحياء منه سبحانه أن يراه حيث نهاه، وفي هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالى والاستغراق في تعظيمه وتقديسه أكبر مُعد للنفوس ومؤهل لها لضبط النفس ونزاهتها في الدنيا، ولسعادتها في الآخرة. تفسير المنار (١١٦/٢)

وهذا ما يعبر عنه ب (خشية الرحمن بالغيب)، فالصائم يدع طعامه وشرابه وشهوته وإن كان وحده من أجل الله، الذي آمن بأنه يراه، ولذلك جعل الله تعالى (خشية الرحمن بالغيب) من صفات المتقين، فقال تعالى: «وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ» (ق: ٣١- ٣٣).

وقوله تعالى: «خشيَ الرَّحْمَنَ بالْغَيْبِ» أي من حيث لا

يَرَاهُمْ أَحَدٌ، قَالَهُ الزَّجَّاجُ. وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ: يَخَافُونَهُ إِذَا غَابُوا عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ كَخَوْفِهِمْ لَهُ إِذَا كَانُوا بَيْنَ النَّاسِ.

وَقَيَّدَ الْخَشْيَةَ بِالْغَيْبِ لِأَنَّهَا الْمُعَوَّلُ عَلَيْهَا، دُونَ خَشْيَةِ الشَّهَادَةِ وَالْعَلَانِيَةِ، لِأَنَّ خَشْيَةَ الْعَلَانِيَةِ دُونَ خَشْيَةِ الْغَيْبِ نِفَاقٌ وَرِيَاءٌ، تُحْبِطُ الْأَعْمَالَ، وَتُبْطِلُ الْأَجْرَ وَالثَّوَابَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ (النساء: ١٠٨).

قَالَ السَّعْدِيُّ: وَهَذَا مِنْ ضَعْفِ الْإِيمَانِ، وَنُقْصَانِ الْيَقِينِ، أَنْ تَكُونَ مَخَافَةُ الْخَلْقِ عِنْدَهُمْ أَعْظَمَ مِنْ مَخَافَةِ اللَّهِ، فَيَحْرِصُونَ بِالطُّرُقِ الْمُبَاحَةِ وَالْمُحَرَّمَةِ عَلَى عَدَمِ الْفَضِيحَةِ عِنْدَ النَّاسِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَدْ بَارَزُوا اللَّهَ بِالْعَظَائِمِ، وَلَمْ يُبَالُوا بِنَظَرِهِ إِلَيْهِمْ، وَاطِّلَاعِهِ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ مَعَهُمْ، عَالِمٌ بِهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافٍ مِنْ سِرِّهِمْ.

قَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصِيبُ الذَّنْبَ فِي السِّرِّ فَيُصْبِحُ وَعَلَيْهِ مَذَلَّتُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، ثُمَّ يَجِئُ إِلَى إِخْوَانِهِ فَيَرَوْنَ أَثَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ. وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وُجُودِ الْإِلَهِ الْحَقِّ، الْمَجَازِي بِذَرَّاتِ الْأَعْمَالِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، وَلَا يَضِيعُ عِنْدَهُ عَمَلُ عَامِلٍ، وَلَا يَنْفَعُ مِنْ قُدْرَتِهِ حِجَابٌ وَلَا اسْتِتَارٌ، فَالسَّعِيدُ مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، فَإِنَّ مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ، وَمَنِ الْتَمَسَ مَحَامِدَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ ذَامًّا لَهُ.

وَعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا! جَلِّهِمْ لَنَا! أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ! قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا».

وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ»، وَكَانَ يُوصِي بِذَلِكَ أَصْحَابَهُ:

فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ» أَيْ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، حَيْثُ يَرَاكَ النَّاسُ وَحَيْثُ لَا يَرَوْنَكَ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ يَزِيدَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَوْصِنِي. قَالَ: «أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحْيِيَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا تَسْتَحْيِي رَجُلًا مِنْ صَالِحِي قَوْمِكَ».

وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الْمُوجِبُ لِخَشْيَةِ اللَّهِ فِي السِّرِّ. فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ حَيْثُ كَانَ، وَأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ، وَسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ، وَاسْتَحْضَرَ ذَلِكَ فِي خَلَوَاتِهِ، أَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ تَرْكَ الْمَعَاصِي فِي السِّرِّ.

وَسُئِلَ الْجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: بِمَ يُسْتَعَانُ عَلَى غَضِّ الْبَصَرِ؟ فَقَالَ: بِعِلْمِكَ أَنَّ نَظَرَ اللَّهِ إِلَيْكَ أَسْبَقُ مِنْ نَظَرِكَ إِلَى مَنْ تَنْظُرُ إِلَيْهَا.

وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ بِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ:

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا
تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ يَغْفُلُ سَاعَةً
وَلَا أَنَّ مَا تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ

وَكَانَ السَّلَفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يَتَوَاصَوْنَ بِمَا وَصَّاهُمْ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: زَهَّدَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ فِي الْحَرَامِ، زُهْدَ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ فِي الْخَلْوَةِ فَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَرَاهُ، فَتَرَكَهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.

وَكَتَبَ ابْنُ السَّمَّاكِ رَحِمَهُ اللَّهُ الْوَاعِظُ إِلَى أَخٍ لَهُ يَقُولُ: أَمَّا بَعْدُ: أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ نَجِيُّكَ فِي سَرِيرَتِكَ، وَرَقِيبُكَ فِي عَلَانِيَتِكَ، فَاجْعَلِ اللَّهَ مِنْ بَالِكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَخَفِ اللَّهَ عَلَى قَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ، وَقُدْرَتِهِ عَلَيْكَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ بِعَيْنِهِ، لَيْسَ تَخْرُجُ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى سُلْطَانِ غَيْرِهِ، وَلَا مِنْ مُلْكِهِ إِلَى مُلْكِ غَيْرِهِ، فَلْيَطُلْ مِنْهُ حَذَرُكَ، وَلْيَكْثُرْ مِنْهُ وَجَلُكَ. وَالسَّلَامُ.

فَانْتَهَاكُ الْمُحَرَّمَاتِ فِي الْخَلَوَاتِ مِنَ الْمُهْلِكَاتِ، وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي الْغَيْبِ مِنَ الْمُنْجِيَاتِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ». فَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا خَشْيَتَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

والحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سُورَةُ الأَحقَافِ

الحلقة الثانية عشرة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: «وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ»

(الأحقاف: ٢٦- ٢٩).

بَيَّنَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّ الْخَلَفَ أَضْعَفُ مِنَ السَّلَفِ، فَلَنْ يُعْجِزُوا اللهَ تَعَالَى فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ» يَعْنِي عَادًا الَّذِينَ أَهْلَكَهُمْ «فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ» يَعْنِي مَكَّنَّاهُمْ فِي أَشْيَاءَ لَمْ نُمَكِّنْكُمْ فِيهَا، فَهُمْ كَانُوا أَقْوَى مِنْكُمْ، وَأَشَدَّ بَأْسًا، وَأَقْوَى عُدَّةً، وَأَكْثَرَ عَدَدًا، وَمَعَ ذَلِكَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ، فَكَيْفَ بِكُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الضُّعَفَاءُ؟! كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ» (غافر: ٢١)، وَقَالَ تَعَالَى: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ» (غافر: ٨٢).

«وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً» لَكِي يَسْمَعُوا الْحَقَّ، وَيَرَوْا آيَاتِهِ، وَيَتَدَبَّرُوا فِيمَا يَرَوْنَ وَيَسْمَعُونَ مِنْ آيَاتِ الْحَقِّ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِسَمْعِهِمْ وَلَا أَبْصَارِهِمْ وَلَا قُلُوبِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ» وَالْعِلَّةُ أَنَّهُمْ «كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ» وَلَا يُصَدِّقُونَ بِهَا، وَلَا يُقِرُّونَ بِأَنَّ رُسُلَهُمْ صَادِقُونَ فِيمَا بَلَّغُوا عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ.

«وَحَاقَ بِهِمْ» أَيْ وَأَحَاطَ بِهِمْ «مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» مِنْ عَذَابِ اللهِ، حَتَّى أَنَّهُمُ اسْتَعْجَلُوهُ.

ثُمَّ يُلْفِتُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْظَارَ قُرَيْشٍ إِلَى مَصَارِعِ الْهَالِكِينَ مِنَ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَهَذِهِ عَادٌ فِي الْيَمَنِ، فِي الْجَنُوبِ، وَهَذِهِ ثَمُودُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ فِي الشَّامِ، «وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ» (الصافات: ١٣٧- ١٣٨) فَاحْذَرُوا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ، يَقُولُ تَعَالَى: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» فَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا، وَلَمْ يُقْلِعُوا عَنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ وَالأَوْثَانِ، «فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ» (غافر: ٢١).

«فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً» أَيْ هَلَّا نَصَرَتْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي تَقَرَّبُوا بِهَا بِزَعْمِهِمْ إِلَى اللهِ لِتَشْفَعَ لَهُمْ حَيْثُ قَالُوا: «هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ» (يونس: ١٨)، وَمَنَعَتْهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ الْوَاقِعِ بِهِمْ. (الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٢٠٩).

«بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ» أَيْ غَابُوا عَنْهُمْ، وَفَقَدُوهُمْ أَحْوَجَ مَا يَكُونُونَ إِلَى مَنْ يَنْصُرُهُمْ، «وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ» أَيْ: كَذِبُهُمْ «وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» أَيْ وَافْتِرَاؤُهُمْ فِي اتِّخَاذِهِمْ إِيَّاهُمْ

آلِهَةً، وَقَدْ خَابُوا وَخَسِرُوا فِي عِبَادَتِهِمْ لَهَا وَاعْتِمَادِهِمْ عَلَيْهَا. (تفسير القرآن العظيم: ٤/١٦٢).

عموم بعثة النبي صلى الله عليه وسلم للجن والإنس:

مِنْ عَقِيدَتِنَا أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم مَبْعُوثٌ إِلَى عَامَّةِ الْخَلْقِ وَكَافَّةِ الْوَرَى، مَبْعُوثٌ إِلَى الْجِنِّ وَالإِنْسِ، وَهَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ صلى الله عليه وسلم.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً». (صحيح البخاري ٤٣٥).

وَفِي أُولَى الآيَاتِ السَّابِقَةِ يَذْكُرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ صَرَفَ إِلَى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ فَاسْتَمَعُوا لَهُ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِهِمْ، فَأَمَرَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَنْ يُحْسِنُوا الاسْتِمَاعَ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، فَلَمَّا فَرَغَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِنْ قِرَاءَتِهِ آمَنُوا بِهِ وَبِمَا سَمِعُوا مِنْهُ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ دَاعِينَ إِلَى الإِيمَانِ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ:

«وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ»

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: انْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّيَاطِينُ، فَقَالُوا مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالَ: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلاَّ مَا حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِي حَدَثَ. فَانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. قَالَ: فَانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِنَخْلَةَ، وَهُوَ عَامِدٌ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَسَمَّعُوا لَهُ، فَقَالُوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ. فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا. وَأَنْزَلَ اللهُ عزوجل عَلَى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم «قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ» (الجن: ١)، وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ. (صحيح البخاري ٤٩٢١).

فَهَؤُلاَءِ النَّفَرُ اسْتَمَعُوا إِلَيْهِ صلى الله عليه وسلم وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِمْ حَتَّى أَخْبَرَهُ اللهُ تَعَالَى.

«وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ» مَعْطُوفٌ عَلَى «وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ»، فَاللهُ تَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم أَنْ يُذَكِّرَ قَوْمَهُ بِمَا أَصَابَ قَوْمَ عَادٍ لَمَّا عَصَوْا أَخَاهُمْ هُودًا لِيَحْذَرُوا أَنْ يُصِيبَهُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ عَادٍ إِذْ كَذَّبُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ، ثُمَّ قَالَ اللهُ لَهُ: «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ» أَيْ وَاذْكُرْ لِقَوْمِكَ إِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ مَعَ كَوْنِهِمْ مِنْ جِنْسٍ غَيْرِ جِنْسِ رَسُولِ اللهِ، فَرَسُولُ اللهِ إِنْسِيٌّ بَشَرِيٌّ، وَهَؤُلاَءِ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ، فَالْجِنْسُ مُخْتَلِفٌ، وَاللُّغَةُ أَيْضًا مُخْتَلِفَةٌ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمَّا حَضَرُوا الْقُرْآنَ أَحْسَنُوا الاسْتِمَاعَ إِلَيْهِ وَآمَنُوا بِهِ وَصَدَّقُوهُ وَاتَّبَعُوهُ، بَيْنَمَا كَفَرَتْ قُرَيْشٌ، مَعَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلُغَتُهُ لُغَتُهُمْ، فَفِي هَذَا تَقْرِيعٌ وَتَوْبِيخٌ لِقُرَيْشٍ، إِذْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ فِي حِينِ آمَنَ بِهِ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ، «فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا» أَيِ اسْتَمِعُوا، وَهَذَا مِنَ الأَدَبِ الْوَاجِبِ مَعَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٤).

«فَلَمَّا قُضِيَ»، وَفِي قِرَاءَةٍ بِفَتْحِ الضَّادِ لِلْبِنَاءِ لِلْمَعْلُومِ، عَلَى أَنَّ الْفَاعِلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَالْمَعْنَى فَلَمَّا قَضَى أَيْ فَرَغَ رَسُولُ اللهِ مِنْ قِرَاءَتِهِ، وَعَلَى الْقِرَاءَةِ الأُولَى «فَلَمَّا قُضِيَ» أَيِ الْقُرْآنُ وَفُرِغَ مِنْهُ «وَلَّوْا» أَيْ أَدْبَرُوا وَرَجَعُوا «إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ»، وَالْمُنْذِرُ هُوَ الْمَخُوفُ، وَالإِنْذَارُ هُوَ الإِعْلاَمُ الْمَصْحُوبُ بِالتَّخْوِيفِ، وَإِنَّمَا يُنْذِرُ مَنْ كَانَ عَلَى شَرٍّ، مَنْ كَانَ عَلَى مَعْصِيَةٍ، مَنْ كَانَ عَلَى ضَلاَلَةٍ، مَنْ كَانَ عَلَى كُفْرٍ، وَالْجِنُّ كَانُوا كَذَلِكَ، وَلِذَلِكَ رَجَعُوا إِلَيْهِمْ مُنْذِرِينَ، وَلَمْ يَقُلْ مُبَشِّرِينَ، لأَنَّهُ لاَ يُبَشِّرُ إِلاَّ مَنْ كَانَ عَلَى خَيْرٍ، وَالْجِنُّ قَبْلَ إِسْلاَمِهِمْ كَانُوا عَلَى شَرٍّ، فَكَانُوا مُسْتَحِقِّينَ لِلنِّذَارَةِ لا لِلْبِشَارَةِ.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

التربية على أكل الحلال واجتناب الحرام

كتبه / إعداد: د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَقُولُ: أَخَذَ الْحَسَنُ ابْنُ عَلِيٍّ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «كِخْ كِخْ، ارْمِ بِهَا! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ» (متفق عليه).

إنَّ اللُّقمةَ هي أساسُ كلِّ شيءٍ في الإنسان، فإن طَابتْ طابَ منهُ كلُّ شيء، وإن خبُثتْ خبُثَ منهُ كلُّ شيء، إن طابت اللُّقمةُ طابَ القلبُ والبدن، وطابت الأقوالُ والأفعال، وإن خبُثت اللُّقمةُ خبُثَ القلبُ والبدن، وخبُثت الأقوالُ والأفعال.

ومَثَلُ اللُّقمة من الدِّين مَثَلُ الأساس من البُنيان، فإذا ثبتَ الأساسُ وقَوِيَ استقامَ البُنيانُ وارتفع، وإذا ضعُفَ الأساسُ واعوجَّ انهارَ البُنيانُ ووقع، وقد قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (التوبة: ١٠٩).

وقد أمرَ اللهُ تعالى النَّاسَ جميعًا بأكل الحلال واجتناب الحرام، فقالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (البقرة: ١٦٨)، فامتنَّ سبحانهُ وتعالى على النَّاسِ جميعًا بما أباحَ لهم من الحلال الطَّيِّب، الذي يجبُ أن يكتفوا به عن الحرام الخبيث، الذي يضُرُّ أبدانَهم وعُقولَهم، ثُمَّ نهاهم عن اتِّباع خُطوات الشيطان، الذي يدعوهم إلى الحرام أو الشُّبُهات، أو تحريم الحلال أو تحليل الحرام، وذلك لشدَّة عداوته لبني آدم. فالواجبُ على كلِّ النَّاس أن يحذروهُ ولا يُجيبوه، فإنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (فاطر: ٦).

وقد خصَّ اللهُ تعالى المؤمنينَ بالأمرِ نفسِه فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٢).

قال ابنُ كثير: "يقولُ تعالى آمرًا عبادَهُ المؤمنينَ بالأكلِ من طيِّباتِ ما رزقهم، وأن يشكروهُ على ذلك إن كانوا عبيدَه. والأكلُ من الحلالِ سببٌ لتقبُّلِ الدُّعاءِ والعبادة، كما أنَّ الأكلَ من الحرام يمنعُ قبولَ الدُّعاءِ والعبادة". (تفسير القرآن العظيم: ١/٢٠٤).

وقالَ ابنُ رجبٍ في قول الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ (المؤمنون: ٥١): "المُرادُ بهذا أنَّ الرُّسُلَ وأُمَمَهم مأمورونَ بالأكلِ من الطَّيِّباتِ التي هي الحلالُ وبالعملِ الصَّالح، فمتى كانَ الأكلُ حلالاً فالعملُ الصَّالحُ مقبول، فإذا كان الأكلُ غيرَ حلالٍ فكيفَ يكونُ العملُ مقبولاً؟!" (جامع العلوم والحكم، ص٨٦).

ولذلك وردَ في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (المؤمنون: ٥١)، وَقَالَ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ (البقرة: ١٧٢). ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ! يَا رَبِّ! وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» (صحيح مسلم ١٠١٥).

ففي هذا الحديث إشارةٌ إلى أنَّهُ لا يُقبلُ العملُ ولا يزكو إلا بأكلِ الحلال، وأنَّ أكلَ الحرام يُفسدُ العملَ ويمنعُ قبولَه. فإنَّ قولَه صلى الله عليه وسلم «فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» معناهُ: كيف يُتقبَّلُ مع الحرام، وهو مثالٌ لاستبعاد قبولِ الأعمالِ مع التَّغذيةِ بالحرام. ولذلك قال أبو عبدِ اللهِ

الناجيُ: خمسُ خصالٍ بها تمامُ العمل: الإيمانُ باللهِ عزَّ وجلَّ، ومعرفةُ الحقِّ، وإخلاصُ العملِ للهِ، والعملُ على السُّنَّة، وأكلُ الحلال، فإن فُقدتْ واحدةٌ لم يرتفع العمل. وقال وهبُ بنُ الورد: لو قُمتَ مقامَ هذه السَّارية لم ينفعْكَ شيءٌ حتَّى تنظرَ ما يدخلُ بطنَكَ أحلالٌ أم حرام" (جامع العلوم والحكم، ص٨٦- ٨٧).

والمُرادُ بنفي قبولِ الأعمالِ معَ أكلِ الحرام نفيُ الأجرِ والثَّوابِ المُترتِّبِ عليها، وقد صرَّح بذلك النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم فقال: «مَنْ جَمَعَ مَالاً حَرَامًا ثُمَّ تَصَدَّقَ بِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ أَجْرٌ، وَكَانَ إِصْرُهُ عَلَيْهِ» (رواه ابن حبان في صحيحه ٨٦٣، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب: ٨٨٠).

وإنَّما لا يقبلُ اللهُ الصَّدقةَ من المالِ الحرامِ لأنَّهُ غيرُ مَملوكٍ للمُتصدِّق، وهو ممنوعٌ من التَّصرُّفِ فيه، والتَّصدُّقُ به تصرُّفٌ فيه، فلو قُبلتْ منهُ لزمَ أن يكونَ مأمورًا به منهيًا عنهُ من وجهٍ واحد، وهو مُحال. ولأنَّ أكلَ الحرامِ يُفسدُ القلوبَ، فتُحرمَ الرِّقَّةَ والإخلاصَ، فلا تُقبلُ الأعمال". (المفهم: ٥٩/٣).

وإذا لم تُقبلِ الأعمالُ الصَّالحةُ، وجوزيَ الإنسانُ بأسوأِ ما عَمِلَ، دخلَ النَّار، ولذلك توعَّدَ اللهُ تعالى على أكلِ الحرامِ بالنَّار، فقال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا » (النساء: ٢٩- ٣٠).

وَعَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ! إِنَّهُ لاَ يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلاَّ كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ». (صحيح البخاري ٦١٤).

ومع ذلكَ فإنَّ النَّاسَ قد توسعوا في كسبِ المالِ، ولم يبالوا بالحلالِ والحرام، مصداقَ نبوءةِ النَّبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم، حيثُ قالَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لاَ يُبَالِي المَرْءُ بِمَا أَخَذَ المَالَ أَمِنْ حَلاَلٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ» (صحيح البخاري ٢٠٨٣).

وما ذلكَ إلاَّ لاستهانتهم بالنَّارِ التي توعدَ اللهُ بها مَنْ أكلَ الحرامَ، وهي واللهِ لا يُستهانُ بها، وكيفَ يُستهانُ بها واللهُ يقولُ: «وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ » (التحريم: ٦)، وكيف يُستهانُ بها واللهُ يقول: «كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرًا» (الإسراء: ٩٧)، وكيف يُستهانُ بها والنَّبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم يقول: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ، قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ! قَالَ: فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا». (صحيح البخاري ٣٢٦٥).

فلو قدرَ النَّاسُ النَّارَ حقَّ قدرها لآثروا أنْ يربطوا الحجارةَ على بطونهم ولا يأكلوا الحرامَ، ولذلك كانتِ المرأةُ على عهدِ السَّلفِ الصَّالحِ إذا أرادَ زوجُها الخروجَ لطلبِ الرِّزقِ تقول له: اتقِ اللهَ فينا ولا ترجع علينا بشيءٍ من حرام، فإنَّا نصبرُ على الجوعِ في الدُّنيا ولا نصبرُ على حرِّ النَّارِ يومَ القيامة.

فعلى كل رجل أن يعلم أنه مسؤول عن زوجه وأولاده ومن في رعايته غيرهم، فليتق الله فيما يطعمهم، ولا يطعمهم إلا الحلال الطيب، وأن يربي صغاره على معرفة الحلال والحرص عليه، ومعرفة الحرام واجتنابه، فقد قيل:

وينشأ ناشئُ الفتيان منا
على ما كان عوده أبوه

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فقد اهتم صلى الله عليه وسلم بتربية الحسن بن عليٍّ، وتعليمه ما لا يحل له، فلما أخذَ تَمْرَةً من تَمْرِ الصَّدقَةِ فَجَعَلَهَا في فيه، قَالَ له رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «كِخْ كِخْ، ارْمِ بِهَا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ» (متفق عليه).

قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله-: «وَفِي الْحَدِيثِ جَوَازُ إِدْخَالِ الْأَطْفَالِ الْمَسَاجِدَ وَتَأْدِيبِهِمْ بِمَا يَنْفَعُهُمْ وَمَنْعِهِمْ مِمَّا يَضُرُّهُمْ وَمِنْ تَنَاوُلِ الْمُحَرَّمَاتِ وَإِنْ كَانُوا غَيْرَ مُكَلَّفِينَ لِيَتَدَرَّبُوا بِذَلِكَ. وَاسْتُنْبِطَ بَعْضُهُمْ مِنْهُ مَنْعَ وَلِيِّ الصَّغِيرَةِ إِذَا اعْتَدَّتْ مِنَ الزِّينَةِ. وَفِيهِ الْإِعْلَامُ بِسَبَبِ النَّهْيِ وَمُخَاطَبَةِ مَنْ لَا يُمَيِّزُ لِقَصْدِ إِسْمَاعِ مَنْ يُمَيِّزُ لِأَنَّ الْحَسَنَ إِذْ ذَاكَ كَانَ طِفْلًا». (فتح الباري لابن حجر: ٣٥٥/٣).

نسأل الله أن يرزقنا الحلال الطيب، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

باب التفسير

سُورَةُ الأَحْقَاف

الحلقة الأخيرة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوى

قال تعالى: « قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ »

(الأحقاف: ٣٠- ٣٥).

وَهَذَا يُفِيدُ أَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ يَشْرَحُ اللهُ صَدْرَهُ لِلْخَيْرِ، حِينَ يُشْرَحُ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، حِينَ يُعَلِّمُهُ اللهُ الْهُدَى وَدِينَ الْحَقِّ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَحَوَّلَ إِلَى دَاعِيَةٍ مُبَاشِرَةً، فَيَجِبُ عَلَيْكَ فَوْرَ الْهِدَايَةِ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى دَاعِيَةٍ مُبَاشِرَةً تَدْعُو النَّاسَ إِلَى مَا هَدَاكَ اللهُ إِلَيْهِ: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» **(التوبة: ١٢٢).**

فَبِمُجَرَّدِ أَنْ يَهْدِيَكَ اللهُ، وَتَعْرِفَ الطَّرِيقَ، تَتَحَوَّلُ إِلَى دَاعِيَةٍ، تَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، تَدْعُو النَّاسَ إِلَى مَا تَعَلَّمْتَهُ مِنَ الْحَقِّ، لَيْسَ مِنَ الضَّرُورِيِّ

أَنْ تَنْتَظِرَ حَتَّى تُحَصِّلَ عِلْمًا وَتَكُونَ عَالِمًا، وَلَكِنْ مَتَى تَعَلَّمْتَ شَيْئًا فَادْعُ إِلَيْهِ. هَكَذَا فَعَلَتْ الْجِنُّ، وَهَكَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ يَفْعَلُونَ، كَانَ الْوَاحِدُ يَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقْعُدُ عِنْدَهُ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى قَوْمِهِ دَاعِيَةً.

وقَالَ تعالى: «قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ»:

إِنَّمَا خَصُّوا مُوسَى بِالذِّكْرِ دُونَ مَنْ بَعْدَهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ لأَنَّ التَّوْرَاةَ هِيَ الْكِتَابُ الأُمُّ، هِيَ الشَّرِيعَةُ الأُمُّ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ » (المائدة: ٤٤)، أَمَّا زَبُورُ دَاوُودَ فَكَانَ عِبَارَةً عَنْ مَوَاعِظَ وَرَقَائِقَ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ، وَكَذَلِكَ إِنْجِيلُ عِيسَى كَانَ أَكْثَرُهُ مَوَاعِظَ وَرَقَائِقَ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ الْحَلاَلِ وَالْحَرَامِ إِلاَّ مَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلام: «وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ » (آل عمران: ٥٠)، فَكَانَتِ التَّوْرَاةُ هِيَ الْكِتَابَ الأُمَّ، فَلِذَلِكَ صَرَّحُوا بِهَا وَسَكَتُوا عَمَّا بَعْدَهَا.

«قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ»:

يَقُولُونَ: هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي اسْتَمَعْنَا إِلَيْهِ يُصَدِّقُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكُتُبِ، لأَنَّ الْكُتُبَ السَّابِقَةَ بَشَّرَتْ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَكَانَ مَجِيئُهُ تَصْدِيقًا لَهَا، فَلَوْ لَمْ يَجِئْ مَا صَدَقَتْ أَخْبَارُهَا، وَلاَ صَدَقَتْ أَنْبَاؤُهَا، فَلَمَّا جَاءَ صلى الله عليه وسلم كَانَ مَجِيئُهُ تَصْدِيقًا لِمَا جَاءَتْ بِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ وَغَيْرُهَا مِنَ الْكُتُبِ، «يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ» فِي الاعْتِقَادِ، «وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ» فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلاَتِ، وَالأَخْلاَقِ وَالآدَابِ.

«يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ»:

فَإِنْ قِيلَ: لِمَاذَا جَاءَ بِـ«مِنْ» وَهِيَ لِلتَّبْعِيضِ، وَلَمْ يَقُلْ: يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الإِسْلاَمَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم. (أخرجه مسلم ١٢١).

فَالْجَوَابُ: يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ فِيمَا بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، أَمَّا فِيمَا بَيْنَ الْعِبَادِ بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ فَلاَ بُدَّ مِنْ رَدِّ الْمَظَالِمِ إِلَى أَهْلِهَا.

فَلَمَّا دَعَوْهُمْ بِطَرِيقَةِ التَّرْغِيبِ أَتْبَعُوا ذَلِكَ بِالتَّرْهِيبِ فَقَالُوا: «وَمَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ» إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَأْخُذَهُ بِكُفْرِهِ، «وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ» يَنْصُرُونَهُ وَيَرُدُّونَ عَنْهُ عَذَابَ اللَّهِ، «أُولَئِكَ» الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِرَسُولِ اللَّهِ، وَلَمْ يَتَّبِعُوا الْهُدَى الَّذِي بَعَثَهُ بِهِ اللَّهُ، «فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ» أَيْ ظَاهِرٍ جَلِيٍّ، لاَ يَخْفَى عَلَى عَاقِلٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ » (القصص: ٥٠).

«أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»:

هَذَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى إِرْشَادٌ لِذَلِكَ الْكَافِرِ الْعَاقِّ الَّذِي أَنْكَرَ الْبَعْثَ وَ: «قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي»؟!

يَقُولُ تَعَالَى: أَوَ لَمْ يَرَ الْمُنْكِرُونَ لِلْبَعْثِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَهُمَا أَشَدُّ وَأَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الإِنْسَانِ، «وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ» أَيْ: لَمْ يَعْجِزْ عَنْ ذَلِكَ وَلاَ ضَعُفَ عَنْهُ، «بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى»؟ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: «بَلَى» وَهِيَ لِنَفْيِ النَّفْيِ، فَتُثْبِتُ الْقُدْرَةَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، «إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» وَبَعْثُ الْمَوْتَى شَيْءٌ مِنَ الأَشْيَاءِ الدَّاخِلَةِ تَحْتَ الْقُدْرَةِ.

«وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ» فَيُقَالُ لَهُمْ تَقْرِيعًا وَتَوْبِيخًا «أَلَيْسَ هَذَا» الْعَذَابُ الَّذِي تَرَوْنَهُ «بِالْحَقِّ»؟ «قَالُوا» وَقَدْ عَلاَهُمُ الذُّلُّ وَالْهَوَانُ، وَامْتَلأَتْ قُلُوبُهُمْ حَسْرَةً وَنَدَامَةً «بَلَى»، وَلَمْ يَكْتَفُوا بِهَذَا الْجَوَابِ حَتَّى أَيَّدُوهُ

بالقسم «قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا»، «قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ». «إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ» (الدخان: ٥٠)، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (الطور: ١٣- ١٦)، وَقَالَ تَعَالَى: «قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ» (الذاريات: ١٠- ١٤).

ثُمَّ خُتِمَتِ السُّورَةُ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَلْقَاهُ مِنْ أَذَى قَوْمِهِ وَتَكْذِيبِهِمْ وَاضْطِهَادِهِمْ: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ».

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُثَبِّتُهُ عَلَى الْمُضِيِّ لِمَا قَلَّدَهُ مِنْ عِبْءِ الرِّسَالَةِ، وَثِقَلِ أَحْمَالِ النُّبُوَّةِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَآمِرُهُ بِالِائْتِسَاءِ فِي الْعَزْمِ عَلَى النُّفُوذِ لِذَلِكَ بِأُولِي الْعَزْمِ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ رُسُلِهِ، الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى عَظِيمِ مَا لَقُوا فِيهِ مِنْ قَوْمِهِمْ مِنَ الْمَكَارِهِ، وَنَالَهُمْ فِيهِ مِنْهُمْ مِنَ الْأَذَى وَالشَّدَائِدِ: «فَاصْبِرْ» يَا نَبِيَّنَا عَلَى مَا أَصَابَكَ فِي اللهِ مِنْ أَذَى مُكَذِّبِيكَ مِنْ قَوْمِكَ، الَّذِينَ أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ بِالْإِنْذَارِ «كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ» عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللهِ، وَالِانْتِهَاءِ إِلَى طَاعَتِهِ، الَّذِينَ لَمْ يَنْهَهُمْ عَنِ النُّفُوذِ لِأَمْرِهِ مَا نَالَهُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّةٍ. وَقِيلَ: إِنَّ أُولِي الْعَزْمِ مِنْهُمْ كَانُوا الَّذِينَ امْتُحِنُوا فِي ذَاتِ اللهِ فِي الدُّنْيَا بِالْمِحَنِ، فَلَمْ تَزْدَهُمُ الْمِحَنُ إِلَّا جِدًّا فِي أَمْرِ اللهِ (جامع البيان (٢٦/٣٧))، وَهُمْ خَمْسَةٌ، ذَكَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى مُجْتَمِعِينَ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ، قَالَ تَعَالَى: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا» (الأحزاب: ٧)، وَقَالَ تَعَالَى: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ» (الشورى: ١٣).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ» يَعْنِي الْعَذَابَ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: «فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا» (مريم: ٨٤).

«كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ» مِنَ الْعَذَابِ «لَمْ يَلْبَثُوا» فِي الدُّنْيَا- مَعَ طُولِ مَا لَبِثُوا- «إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ»، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» (يونس: ٤٥). قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَنْسَاهُمْ هَوْلُ الْعَذَابِ كَمْ لَبِثُوا فِي الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ» (الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ! هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ لَا وَاللهِ يَا رَبِّ». (صحيح مسلم ٢٨٠٧).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «بَلَاغٌ» خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ هَذَا بَلَاغٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ» (إبراهيم: ٥٢)، أَيْ هَذَا الَّذِي وُعِظْتُمْ بِهِ فِيهِ كِفَايَةٌ فِي الْمَوْعِظَةِ، أَوْ هَذَا تَبْلِيغٌ مِنَ الرَّسُولِ، «فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ» الْخَارِجُونَ عَنِ الِانْقِيَادِ بِهِ وَالْعَمَلِ بِمُوجِبِهِ. (التفسير الكبير (٢٨/٣٦)). وَاللهُ أَعْلَمُ.

وبهذا نكون قد وصلنا إلى تفسير سورة الأحقاف، نسأل الله أن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال

التربية على آداب الأكل

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

عَنْ عُمَرَ بْنَ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: «كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يَا غُلَامُ! سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ». فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ. (متفق عليه).

قال أبو حامد الغزالي: «إن مَقْصِدَ ذَوِي الأَلْبَابِ لِقَاءُ اللَّهِ تَعَالَى فِي دار الثواب، ولا طريقَ إلى الوصول للقاء الله إلا بالعلم والعمل، ولا تمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن، ولا تصفو سَلَامَةُ الْبَدَنِ إلاَّ بِالأَطْعِمَةِ وَالأَقْوَاتِ وَالتَّنَاوُلِ مِنْهَا بِقَدْرِ الْحَاجَةِ عَلَى تَكَرُّرِ الأَوْقَاتِ، فَمِنْ هَذَا الوجه قال بعض السلف الصالحين إن الأكل من الدين، وعليه نبه رب العالمين بقوله وهو أصدق القائلين: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ (المؤمنون: ٥١)، فمن يقدم على الأكل ليستعين به على العلم والعمل ويقوي به على التقوى صار أكله مدفعة للوزر، ومجلبة للأجر، وإن كان فيها أوفى حظ للنفس، قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلاَّ أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي امْرَأَتِكَ»(متفق عليه). وإنما ذلك إذا رفعها بالدين وللدين، مراعياً فيه آدابه ووظائفه. (إحياء علوم الدين (٢/٢-٧)).

وَهَا نَحْنُ نُرْشِدُ إِلَى وَظَائِفِ الدِّينِ فِي الأكل فرائضها وسننها وآدابها ومروءاتها وهيئاتها، فنقول وبالله التوفيق: للأكل آدَابٌ كَثِيرَةٌ، مِنْهَا آدَابٌ قَبْلَ الأَكْلِ، وَآدَابٌ عَلَى الأَكْلِ، وَآدَابٌ بَعْدَ الأَكْلِ.

وَأَمَّا آدَابُ مَا قَبْلَ الأَكْلِ فَهِيَ:

١- أَنْ يَسْتَطِيبَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ بِأَنْ يَعْدَهُمَا مِنَ الْحَلَالِ الطَّيِّبِ الْخَالِي مِنَ الْحَرَامِ وَالشُّبُهَاتِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ» (البقرة: ١٧٢)، وَالطَّيِّبُ هُوَ الْحَلَالُ الَّذِي لَيْسَ بِمُسْتَقْذَرٍ وَلاَ مُسْتَخْبَثٍ.

٢- أَنْ يَنْوِيَ بِأَكْلِهِ وَشُرْبِهِ التَّقَوِّيَةَ عَلَى عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى، لِيُثَابَ عَلَى مَا أَكَلَهُ وَشَرِبَهُ، فَالْمُبَاحُ يَصِيرُ بِحُسْنِ النِّيَّةِ طَاعَةً يُثَابُ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُ.

٣- أَنْ يَغْسِلَ يَدَيْهِ قَبْلَ الأَكْلِ إِنْ كَانَ بِهِمَا أَذًى، أَوْ لَمْ يَتَأَكَّدْ

مِنْ نَظَافَتِهِمَا.

٤- أَنْ يَضَعَ طَعَامَهُ عَلَى سُفْرَةٍ فَوْقَ الأَرْضِ لاَ عَلَى مَائِدَةٍ، إِذْ هُوَ الأَقْرَبُ إِلَى التَّوَاضُعِ، وَلِقَوْلِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّه عنه: «مَا أَكَلَ رَسُولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عَلَى خُوَانٍ وَلاَ فِي سُكُرُّجَةٍ». (صحيح البخاري ٥٣٨٦).

قَالَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ- رَحِمَهُ اللَّه-: «وَاعْلَمْ أَنَّا وَإِنْ قُلْنَا الأَكْلُ عَلَى السُّفْرَةِ أَوْلَى، فَلَسْنَا نَقُولُ الأَكْلُ عَلَى الْمَائِدَةِ مَنْهِيٌّ عَنْهُ نَهْيَ كَرَاهَةٍ أَوْ تَحْرِيمٍ، إِذْ لَمْ يَثْبُتْ فِيهِ نَهْيٌ».

٥- أَنْ يَجْلِسَ مُتَوَاضِعًا، بِأَنْ يَجْثُوَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَيَجْلِسَ عَلَى ظَهْرِ قَدَمَيْهِ، أَوْ أَنْ يَنْصِبَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى، وَيَجْلِسَ عَلَى الْيُسْرَى، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يَجْلِسُ، وَلِقَوْلِهِ: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ». (البغوي في شرح السنة (٢٨٣٩)).

٦- أَنْ يَرْضَى بِالْمَوْجُودِ مِنَ الطَّعَامِ، وَأَنْ لاَ يَعِيبَهُ، وَلَكِنْ إِنْ أَعْجَبَهُ أَكَلَ، وَإِنْ لَمْ يُعْجِبْهُ تَرَكَ، لِقَوْلِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي اللَّه عنه: «مَا عَابَ رَسُولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم طَعَامًا قَطُّ، كَانَ إِذَا اشْتَهَاهُ أَكَلَهُ وَإِلاَّ تَرَكَهُ». (متفق عليه)

٧- أَنْ يَجْتَمِعَ أَهْلُ الْبَيْتِ عَلَى الطَّعَامِ عَنْ وَحْشِيِّ بْنِ حَرْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ صلى اللَّه عليه وسلم: إِنَّا نَأْكُلُ وَمَا نَشْبَعُ، قَالَ: «فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُفْتَرِقِينَ، اجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّه تَعَالَى عَلَيْهِ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ». (صحيح سنن أبي داود ٣١٩٩).

وَأَمَّا الآدَابُ حَالَ الأَكْلِ فَهِيَ:

١- أَنْ لاَ يَبْدَأَ بِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ وَفِي الْمَجْلِسِ مَنْ هُوَ أَوْلَى مِنْهُ بِالتَّقْدِيمِ لِكِبَرِ سِنٍّ أَوْ زِيَادَةِ فَضْلٍ، لأَنَّ ذَلِكَ مُخِلٌّ بِالآدَابِ، مُعَرِّضٌ صَاحِبَهُ لِوَصْفِ الْجَشِعِ الْمَذْمُومِ، قَالَ بَعْضُهُمْ:

وَإِذَا مُدَّتِ الأَيْدِي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ
بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ الْقَوْمِ أَعْجَلُ.

٢- أَنْ يَرْضَى بِمَا قُدِّمَ لَهُ، وَلاَ يَسْأَلُ عَمَّا غَابَ عَنْهُ.

٣- أَنْ يَبْدَأَهُ بِذِكْرِ اسْمِ اللَّه، فَإِنَّ ذِكْرَ اللَّه عَلَى الطَّعَامِ يُبَارِكُ فِيهِ، وَيَمْنَعُ مِنْهُ الشَّيْطَانَ: فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ بِسْمِ اللَّه، فَإِنْ نَسِيَ فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ بِسْمِ اللَّه فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ». (صحيح سنن أبي داود: ٣٢٠٢)

وَعَنْهَا رَضِيَ اللَّه عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صلى اللَّه عليه وسلم يَأْكُلُ طَعَامًا فِي سِتَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَأَكَلَهُ بِلُقْمَتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «أَمَا إِنَّهُ لَوْ سَمَّى لَكَفَاكُمْ». (ص.ت: ١٨٥٨)

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه رضي اللَّه عنهم قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى اللَّه عليه وسلم يَقُولُ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّه عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: لاَ مَبِيتَ لَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّه عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّه عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ». (صحيح مسلم ٢٠١٨).

٤- أَنْ يَأْكُلَ بِثَلاَثَةِ أَصَابِعَ مِنْ يَدِهِ الْيُمْنَى، وَأَنْ يُصَغِّرَ اللُّقْمَةَ، وَيُجِيدَ الْمَضْغَ، وَأَنْ يَأْكُلَ مِمَّا يَلِيهِ مِنْ حَافَّةِ الإِنَاءِ لاَ مِنْ وَسَطِهِ:

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رضي اللَّه عنه قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يَأْكُلُ بِثَلاَثِ أَصَابِعَ فَإِذَا فَرَغَ لَعِقَهَا». (صحيح مسلم ٢٠٣٢).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ رضي اللَّه عنه قَالَ: كُنْتُ غُلاَمًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «يَا غُلاَمُ سَمِّ اللَّه وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ». (متفق عليه)

وَعَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عُمَرَ رضي اللَّه عنهم أَنَّ

رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لاَ يَأْكُلَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِشِمَالِهِ، وَلاَ يَشْرَبَنَّ بِهَا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِهَا». (صحيح مسلم (٢٠٢٠)).

وَعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: كُلْ بِيَمِينِكَ، قَالَ: لاَ أَسْتَطِيعُ، قَالَ: لاَ اسْتَطَعْتَ، مَا مَنَعَهُ إِلاَّ الْكِبْرُ، قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ». (صحيح مسلم (٢٠٢١)).

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «الْبَرَكَةُ تَنْزِلُ وَسَطَ الطَّعَامِ، فَكُلُوا مِنْ حَافَتَيْهِ، وَلاَ تَأْكُلُوا مِنْ وَسَطِهِ». (صحيح جامع الترمذي: ٢٣٨٠)

٥- أَنْ لاَ يَنْفُخَ فِي الطَّعَامِ الْحَارِّ، وَأَنْ لاَ يَطْعَمَهُ حَتَّى يَبْرُدَ، وَأَنْ لاَ يَنْفُخَ فِي الْمَاءِ حَالَ الشُّرْبِ، وَلْيَتَنَفَّسْ خَارِجَ الإِنَاءِ ثَلاَثًا.

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه «أَنَّ النَّبِيَّ صلى اللَّه عليه وسلم كَانَ يَتَنَفَّسُ فِي الإِنَاءِ ثَلاَثًا». (متفق عليه)

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نَهَى أَنْ يُنْفَخَ فِي الشَّرَابِ». (صحيح جامع الترمذي: ١٨٨٧)

٦- إِذَا سَقَطَ مِنْهُ شَيْءٌ فَلاَ يَتْرُكُهُ، بَلْ يَأْخُذُهُ وَيُمِيطُ عَنْهُ الأَذَى وَيَأْكُلُهُ؛

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنهم قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صلى اللَّه عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ، حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمُ اللُّقْمَةُ فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى ثُمَّ لِيَأْكُلْهَا وَلاَ يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ». (صحيح مسلم ٢٠٣٣).

٧- أَنْ لاَ يُخْوِجَ رَفِيقَهُ أَوْ مُضِيفَهُ إِلَى أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُلْ، وَيُلِحَّ عَلَيْهِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ فِي أَدَبٍ كِفَايَتَهُ مِنَ الطَّعَامِ مِنْ غَيْرِ حَيَاءٍ أَوْ تَكَلُّفٍ لِلْحَيَاءِ، إِذْ فِي ذَلِكَ إِحْرَاجٌ لِرَفِيقِهِ أَوْ مُضِيفِهِ، كَمَا فِيهِ نَوْعُ رِيَاءٍ، وَالرِّيَاءُ حَرَامٌ.

٨- أَنْ يُرْفِقَ بِرَفِيقِهِ فِي الأَكْلِ، فَلاَ يُحَاوِلُ أَنْ يَأْكُلَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَلاَسِيَّمَا إِذَا كَانَ الطَّعَامُ قَلِيلاً، لأَنَّهُ بِذَلِكَ يَكُونُ آكِلاً لِحَقِّ غَيْرِهِ.

عَنْ جَبَلَةَ بْنَ سُحَيْمٍ قَالَ: كُنَّا أَصَابَنَا عَامَ سَنَةٍ مَعَ ابْنِ الزُّبَيْرِ، فَرَزَقَنَا تَمْرًا، فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهم يَمُرُّ بِنَا وَنَحْنُ نَأْكُلُ فَيَقُولُ: «لاَ تُقَارِنُوا، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نَهَى عَنِ الإِقْرَانِ، إِلاَّ أَنْ يَسْتَأْذِنَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ أَخَاهُ». (صحيح البخاري ٥٤٤٦).

٩- أَنْ لاَ يَنْظُرَ إِلَى الرُّفَقَاءِ أَثْنَاءَ الأَكْلِ، وَأَنْ لاَ يُرَاقِبَهُمْ فَيَسْتَحْيُوا مِنْهُ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَغُضَّ بَصَرَهُ عَنِ الأَكَلَةِ حَوْلَهُ، وَأَنْ لاَ يَتَطَلَّعَ إِلَيْهِمْ إِذْ ذَلِكَ يُؤْذِيهِمْ، كَمَا قَدْ يُسَبِّبُ لَهُ بُغْضَ أَحَدِهِمْ فَيَأْثَمُ بِذَلِكَ.

١٠- أَنْ لاَ يَفْعَلَ مَا يَسْتَقْذِرُهُ النَّاسُ عَادَةً، فَلاَ يَنْفُضُ يَدَهُ فِي الْقَصْعَةِ، وَلاَ يُدْنِي رَأْسَهُ مِنْهَا عِنْدَ الأَكْلِ لِئَلاَّ يَسْقُطَ مِنْ فَمِهِ شَيْءٌ، وَأَنْ لاَ يَتَكَلَّمَ بِالأَلْفَاظِ الَّتِي يَشْمَئِزُّ مِنْهَا الْحَاضِرُونَ وَيَتْرُكُونَ بِسَبَبِهَا الطَّعَامَ.

١١- أَنْ يَكُونَ أَكْلُهُ مَعَ الْفَقِيرِ قَائِمًا عَلَى إِيثَارِهِ، وَمَعَ الإِخْوَانِ قَائِمًا عَلَى الانْبِسَاطِ وَالْمُدَاعَبَةِ، وَمَعَ ذَوِي الرُّتَبِ وَالْهَيْئَاتِ عَلَى الأَدَبِ وَالاحْتِرَامِ.

١٢- أَنْ يَقُومَ عَنِ الطَّعَامِ وَهُوَ يَشْتَهِيهِ، وَيَتَجَنَّبَ الشَّبَعَ الْمُفْرِطَ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاَتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ». (صحيح جامع الترمذي: ٣٢٨٠)

نسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا، والحمد لله رب العالمين.

خير الناس من واساهم

وفاة الشيخ أبي مالك محمد إبراهيم شقرة

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

تلقينا فجر اليوم- الاثنين-٢٣/ شوال/١٤٣٨هـ الموافق ٢٠١٧/٧/١٧م نبأ وفاة والدنا وشيخنا أبي مالك محمد إبراهيم شقرة، بعد سنين عانى فيها من المرض، وأسأل الله تعالى أن يؤتيه ما وعده على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «مَا يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ».

وبهذه المناسبة أقول:

إنَّ الدُّنْيا دارُ ابْتِلاء، لم يَسْلَمْ فيها من الأقْدار المُؤْلِمَة أحَدٌ حتَّى الأنْبِيَاء، والمُبْتَلى إنسانٌ جريحٌ بحاجَة إلى مَنْ يَأسُو جِرَاحَه، وإنْسَانٌ مهْمُومٌ مغْمُومٌ بحاجَة إلى مَنْ يُخَفِّفُ عنْه أتْرَاحَه، والابْتِلاءُ مُخْتَلِفٌ ومُتَنوِّع.

يقولُ ابنُ القَيِّم-رَحِمَهُ اللهُ-: «المُوَاسَاةُ لِلمُؤْمِنين أنْوَاعٌ: مُوَاسَاةٌ بالمَال، ومُوَاسَاةٌ بالجَاه، ومُوَاسَاةٌ بالبدَنِ والخِدْمَة، ومُوَاسَاةٌ بالنَّصيحَة والإرْشَاد، ومُوَاسَاةٌ بالدُّعاء والاسْتِغْفَار، ومُوَاسَاةٌ بالتوجُّع.

قال: وعلى قَدْر الإيمَان تكونُ هذه المُواساة، فكُلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَتِ المُوَاسَاةُ وكُلَّما قَوِي قَوِيتْ، وكان رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أعْظَمَ النَّاسِ مُوَاسَاةً لأصْحَابه بذَلِكَ، وكانَ أقْوَاهُم إيمَانًا أعْظَمَهُمْ مَوَاسَاةً لهُ صَلى اللهُ عليه وسلم».

وهكذا كان والدنا (الأستاذ أبو مالك) كما كان يلقبه شيخنا الألباني رحمهما الله.

فلقد كان وجيهًا في الدنيا، فبذل جاهه لكل من احتاجه، ومشى في حاجته حتى يقضيها الله، وكان يعود المرضى، ويتبع الجنائز، ويساعد الأرملة والمسكين.

وقد نصح لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم، فقضى حياته في الدعوة إلى الله، وإخلاص الدين له، وعبادته وحده لا شريك له، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم والتأسي به، كما نصح-رحمه الله- لأئمة المسلمين بالدعاء لهم، وتأليف القلوب عليهم، والتحذير من الخروج عليهم، ونصح لعامة المسلمين بدعوتهم التي بذل فيها حياته من خلال خطب الجمعة والدروس والمواعظ التي كان يلقيها في مسجده والذي كان شيخنا الألباني-رحمه الله-يقصده للصلاة مع (الأستاذ أبي مالك) كما كان يلقبه.

وإذا كان الأستاذ أبو مالك قد انقطع عمله بموته فإن عمله متواصل بأثره، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»، وقد ترك-رحمه الله- علمًا مسموعًا ومقروءًا، سيظل طلاب العلم ينهلون منه وينتفعون به ما بقيت الدنيا، كما ترك خمسة من أولاده لصلبه، نحسبهم من الصالحين ولا نزكيهم على الله، وترك أولادًا لم يلدهم-وأنا أحدهم، ولله الحمد- وأرجو الله أن يجزي الوالد أبا مالك عني خير الجزاء، فلقد كنت أعده والدًا، وكان يعدني ولدًا، وكنت أستشيره في أموري كلها، وجعل الله لي في رأيه الخير الكثير.

وأختم بما ختم به-رحمه الله-كلمته التي كتبها في موت شيخنا إمام السنة الألباني-

رحمه الله-: «وحقًا إنه لمصاب سابغ جلل، وخطب جسيم لا يحتمل، وبلاء وبيل مروع. ومع عظم البلاء يكون عظم الأجر، وعظم الأجر لا يكون إلا وصوبه الصبر، ومن سخط فله السخط، ومن رضي كان له الرضا، ولا يخفف من شدة البلاء مثل ثلاث: عموم البلاء، والصبر على شدته، والأجر الذي يوفاه الصابرون، ورابعة هي وكاء الثلاث: ذكر موت النبي صلى الله عليه وسلم «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته في، فإنها من أعظم المصائب».

اللهم آجرنا في مصيبتنا، واخلف لنا خيرًا منها، واجمعنا تحت لواء الحمد، لواء محمد صلى الله عليه وسلم.

تهنئة واجبة

تتقدم أسرة تحرير مجلة التوحيد بخالص التهنئة للشيخ جمال عبد الرحمن محمد إسماعيل، عضو اللجنة العلمية بالمجلة، وذلك بمناسبة حصوله على درجة التخصص (الماجستير) بقسم التفسير وعلوم القرآن بتقدير عام ممتاز.

وكان موضوع رسالته: «تفسير الإمام ابن جرير الطبري بين الرواية والدراية، دراسة منهجية».

وتكونت لجنة المناقشة من كلٍّ من:

الأستاذ الدكتور/ محمد أبو هاشم محمد علي، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر، مشرفًا.

والأستاذ الدكتور/ شعبان عطية، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر، مناقشًا.

والأستاذ الدكتور/ حسنين الشافعي، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر، مناقشًا.

وأسرة التحرير تتمنى للباحث دوام التوفيق والتقدم والرقي.

عزاء واجب

تتقدم جماعة أنصار السنة المحمدية بالمركز العام بخالص العزاء لفرع أنصار السنة بقطور في وفاة المهندس صلاح عطية الغزالي، المهندس بإذاعة القرآن الكريم، وعضو مجلس إدارة الفرع.

وأسرة تحرير مجلة التوحيد تتقدم بخالص العزاء إلى الإخوة أعضاء فرع قطور، سائلين الله تبارك وتعالى أن يتغمد الفقيد بالمغفرة والرحمة.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

الحلقة الأولى

إعداد: د. عبدالعظيم بدوي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ).

(محمد: ١).

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

نبدأ في هذا العدد تدبر آيات سورة «محمد» صلى الله عليه وسلم.

وسُمِّيَتْ هَذِهِ السُّورَةُ فِي كُتُبِ السُّنَّةِ سُورَةَ مُحَمَّدٍ، وَوَجْهُهُ أَنَّهَا ذُكِرَ فِيهَا اسْمُ النبي صلى الله عليه وسلم في الآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنْهَا، فَعُرِفَتْ بِهِ قَبْلَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ الَّتِي فِيهَا: « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ » (آل عمران: ١٤٤).

وَتُسَمَّى سُورَةَ الْقِتَالِ، وَوَجْهُهُ أَنَّهَا ذُكِرَتْ فِيهَا مَشْرُوعِيَّةُ الْقِتَالِ، وَلأَنَّهَا ذُكِرَ فِيهَا لَفْظُهُ في قَوْلِهِ تَعَالَى: «فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ»

وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالاتِّفَاقِ، حَكَاهُ ابْنُ عَطِيَّةَ وَصَاحِبُ «الإِتْقَانِ». (التحرير والتنوير (٢٦/٧١)).

قال الله تعالى: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ»:

اشْتَمَلَتْ الآيَةُ الأُولَى عَلَى ثَلاثَةِ أَوْصَافٍ لِلْمُشْرِكِينَ، وَهِيَ:

الْكُفْرُ، وَالصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَضَلالُ الأَعْمَالِ النَّاشِئُ عَنْ إِضْلالِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ. (التحرير والتنوير (٢٦/٧٣)).

وأصل الْكُفْر تَغْطِيَةُ الشَّيْءِ تَغْطِيَةً تَسْتَهْلِكُهُ. وَقَالَ اللَّيْثُ: يُقَالُ إِنما سُمِّيَ الْكَافِرُ كَافِرًا لأَن الْكُفْرَ غَطَّى قَلْبَهُ كُلَّهُ. قَالَ الأَزهري: وَمَعْنَى قَوْلِ اللَّيْثِ هَذَا يَحْتَاجُ إِلى بَيَانٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وإِيضاحه أَن الْكُفْرَ فِي اللُّغَةِ التَّغْطِيَةُ، وَالْكَافِرُ ذُو كُفْرٍ أَي ذُو تَغْطِيَةٍ لِقَلْبِهِ بِكُفْرِهِ، كَمَا يُقَالُ لِلابِسِ السِّلاحِ كَافِرٌ، وَهُوَ الَّذِي غَطَّاهُ السِّلاحُ، وَمِثْلُهُ رَجُلٌ كَاسٍ أَي ذُو كُسْوَةٍ، وَمَاءٌ دَافِقٌ ذُو دَفْقٍ.

قَالَ: وَفِيهِ قَوْلٌ آخَرُ أَحسن مِمَّا ذَهَبَ إِلَيْهِ، وَذَلِكَ أَن الْكَافِرَ لَمَّا دَعَاهُ اللَّهُ إِلى تَوْحِيدِهِ فَقَدْ دَعَاهُ إِلى نِعْمَةٍ وَأَحبها لَهُ إِذا أَجابه إِلى مَا دَعَاهُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا أَبى مَا دَعَاهُ إِلَيْهِ مِنْ تَوْحِيدِهِ كَانَ كَافِرًا نِعْمَةَ اللَّهِ أَي

مُعْطِيًا لَهَا بِإِبَائِهِ، حَاجِبًا لَهَا عَنْهُ.

وَهُوَ -أَيِ الكُفْرُ- نَقِيضُ الإِيمَانِ، آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِالطَّاغُوتِ. (لسان العرب (٥/١٤٤-١٤٦)).

وإذا كان الإيمان شرعاً: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر (صحيح مسلم: ٨)، كان الكفر شرعًا ضده، قال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا » (النساء: ١٣٦)، وقال تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا » (النساء: ١٥٠-١٥١).

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: « لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ». (صحيح سنن الترمذي ٢١٤٤).

وَالصَّدُّ: الإعراضُ والصُّدُوف. صَدَّ عَنْهُ يَصِدُّ ويَصُدُّ صَدًّا وصُدُودًا: أعرض.

وَيُقَالُ: صَدَّهُ عَنِ الأَمرِ يَصُدُّه صَدًّا: مَنَعَهُ وَصَرَفَهُ عَنْهُ. قَالَ اللَّه عزَّ وجلَّ: « وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ » (النمل: ٤٣)، يُقَالُ عَنِ الإيمان العادةُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا، لأنها نشأت وَلَمْ تَعْرِفْ إلاَّ قَوْمًا يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ، فصَدَّتها العادةُ، وَهِيَ عَادَتُهَا، بِقَوْلِه: «إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ»، وَالْمَعْنَى: صَدَّها كونُها مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ عَنِ الإيمان. وقال تعالى: « وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ » (الزخرف: ٦٢)، وقال تعالى: «وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» (العنكبوت: ٣٨). (لسان العرب (٣/٢٤٥)).

وَالسَّبِيلُ: الطريقُ وَمَا وَضَحَ مِنْهُ، يُذَكَّر وَيُؤَنَّثُ. وَالتأنيث فِيهَا أغلب.

وسَبِيلُ اللَّهِ: طَرِيقُ الهُدى الَّذِي دَعَا إِلَيه.

قَالَ: وسَبِيل اللَّه عامٌّ يَقَعُ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ خَالِصٍ سُلك بِهِ طَرِيقُ التقرُّب إِلى اللَّه تَعَالَى بِأَداء الْفَرَائِض وَالنَّوَافِلِ وأنواع التطوُّعات، وإذا أُطلق فَهُوَ فِي الْغَالِبِ وَاقِعٌ عَلَى الْجِهَاد حَتَّى صَارَ لكثرة الاسْتِعْمَالِ كأنه مَقْصُورٌ عَلَيْه.

وَأُضِيفَ (السَّبِيلُ) إِلَى (اللَّه) لأَنَّهُ الدِّينُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّه لِعِبَادِه، « إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ » (آل عمران: ١٩).

وَاسْتُعِيرَ اسْمُ السَّبِيلِ للدِّينِ لأَنَّ الدِّينَ يُوصل إِلَى رِضا اللَّهِ كَمَا يُوَصِّلُ السَّبِيلُ السَّائِرَ فِيهِ إِلَى بُغْيَتِهِ. (التحرير والتنوير (٢٦/٧١)).

ولصدِّ الذين كفروا عن سبيل الله وجوه كثيرة:

منها: صَدُّهُمُ النَّاسَ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، قال تعالى: « وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ » (فصلت: ٢٦).

ومنها: إخراجهم الرَّسُولَ صلى الله عليه وسلم وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ مَكَّةَ، وَصَدُّهُمْ عَنِ الْعُمْرَةِ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ، قال تعالى: « هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ » (الفتح: ٢٥)، وقال تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ » (الحج: ٢٥).

وللحديث بقية إن شاء الله،

نسأل الله الهداية والتوفيق.

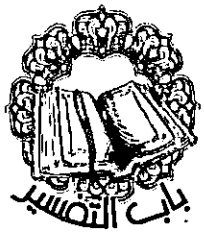

سُورَةُ مُحَمَّدٍ ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾﴾.

(محمد: ١).

الحلقة الثانية

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

لا يزال الحديث متصلاً عن صور صد الكافرين عن سبيل الله، وصدّ الذين كفروا عن سبيل الله وجوه كثيرة منها ما سبق ذكره:

ومنها: إطعامُهُمُ النَّاسَ يَوْمَ بَدْرٍ لِيَثْبُتُوا مَعَهُمْ وَيَكْثُرُوا حَوْلَهُمْ، فَلِذَلِكَ قِيلَ: إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُطْعِمِينَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلاً مِنْ سَادَةِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ قُرَيْشٍ. (التحرير والتنوير (٢٦/٧٣و٧٤)).

ومنها: إنفاقهم الأموال بعد بدر لتجهيز جيش لمحاربة المسلمين والأخذ بثار قتلاهم في بدر:

قال محمد بن إسحاق: لَمَّا أُصِيبَ يَوْمَ بَدْرٍ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ أَصْحَابُ الْقَلِيبِ وَرَجَعَ فَلُّهُمْ إِلَى مَكَّةَ، وَرَجَعَ أَبُو سُفْيَانَ بِعِيرِهِ، مَشَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ، فِي رِجَالٍ مِنْ قُرَيْشٍ مِمَّنْ أُصِيبَ آبَاؤُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ وَإِخْوَانُهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ، فَكَلَّمُوا أَبَا سُفْيَانَ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ فِي تِلْكَ الْعِيرِ مِنْ قُرَيْشٍ تِجَارَةٌ. فَقَالُوا: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَتَرَكُمْ وَقَتَلَ خِيَارَكُمْ، فَأَعِينُونَا بِهَذَا الْمَالِ عَلَى حَرْبِهِ، لَعَلَّنَا نُدْرِكُ مِنْهُ ثَأْرًا، فَفَعَلُوا.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَفِيهِمْ كَمَا ذَكَرَ لِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٦).

ومنها: ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (آل عمران: ٧٢).

عَنِ السُّدِّيِّ قَالَ: كَانَ أَحْبَارُ قُرَى عَرَبِيَّةٍ اثْنَيْ عَشَرَ حَبْرًا، فَقَالُوا لِبَعْضِهِمْ: ادْخُلُوا فِي دِينِ مُحَمَّدٍ أَوَّلَ النَّهَارِ، وَقُولُوا نَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا حَقٌّ صَادِقٌ، فَإِذَا كَانَ آخِرُ النَّهَارِ فَاكْفُرُوا وَقُولُوا: إِنَّا رَجَعْنَا إِلَى عُلَمَائِنَا وَأَحْبَارِنَا فَسَأَلْنَاهُمْ، فَحَدَّثُونَا أَنَّ مُحَمَّدًا كَاذِبٌ، وَأَنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَقَدْ رَجَعْنَا إِلَى دِينِنَا فَهُوَ أَعْجَبُ إِلَيْنَا مِنْ دِينِكُمْ، لَعَلَّهُمْ يَشُكُّونَ، يَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ كَانُوا مَعَنَا أَوَّلَ النَّهَارِ، فَمَا بَالُهُمْ؟ فَأَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ. (البداية والنهاية(١٠/٤)).

ومنها: قول ابن أُبَيٍّ -لعنه الله-: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا.

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ فِي غَزَاةٍ، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا

عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ، وَلَئِنْ رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي أَوْ لِعُمَرَ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ وَأَصْحَابِهِ، فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم وَصَدَّقَهُ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، فَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ لِي عَمِّي: مَا أَرَدْتَ إِلَى أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَمَقَتَكَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ» فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَرَأَ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ». (صحيح البخاري: ٤٩٠١).

والإضلال في كلام العرب ضدُّ الهداية والإرشاد. يُقال: أضللت فلانًا إذا وجَّهته للضلال عن الطريق، قال تعالى: «مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (الأعراف: ١٨٦)، وقال تعالى: «أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ» (النساء: ٨٨). (لسان العرب (٣٩١/١١)).

ومعنى الآية: الذين جحدوا توحيد الله، وعبدوا غيره، وصدُّوا مَن أراد عبادته والإقرار بوحدانيته، وتصديق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عن الذي أراد من الإسلام والإقرار والتصديق «أضل أعمالهم» أي: أبطلها فلم يقبلها، وأراد بالأعمال ما فعلوا من إطعام الطعام وصلة الأرحام (معالم التنزيل (١٥١/٥)).

ونحو ذلك من أعمال البر، لأن شرط القبول عند الله هو الإيمان، قال تعالى: «فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا» (البلد: ١١- ١٧)، فإن لم يكن منهم حبط عمله، كما قال تعالى: «وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ» (المائدة: ٥)، وقال تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا» (الكهف: ١٠٣- ١٠٦).

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! ابْنُ جُدْعَانَ! كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ. (صحيح مسلم ١٩٦).

قال الإمام النووي: قال العلماء: ابن جُدْعَانَ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ، وَكَانَ مِنْ بَنِي تَمِيمِ بْنِ مُرَّةَ أَقْرِبَاءِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَكَانَ مِنْ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ، وَكَانَ كَثِيرَ الْإِطْعَامِ، وَكَانَ اتَّخَذَ لِلضِّيفَانِ جَفْنَةً يُرْقَى إِلَيْهَا بِسُلَّمٍ.

وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ مِنَ الصِّلَةِ وَالْإِطْعَامِ وَوُجُوهِ الْمَكَارِمِ لَا يَنْفَعُهُ فِي الْآخِرَةِ لِكَوْنِهِ كَافِرًا، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم: «لَمْ يَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»، أَيْ لَمْ يَكُنْ مُصَدِّقًا بِالْبَعْثِ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْ بِهِ كَافِرٌ وَلَا يَنْفَعُهُ عَمَلٌ.

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ- رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: وَقَدِ انْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ لَا تَنْفَعُهُمْ أَعْمَالُهُمْ، وَلَا يُثَابُونَ عَلَيْهَا بِنَعِيمٍ وَلَا تَخْفِيفِ عَذَابٍ، لَكِنْ بَعْضُهُمْ أَشَدُّ عَذَابًا مِنْ بَعْضٍ بِحَسَبِ جَرَائِمِهِمْ. (شرح النووي على مسلم (٨٧/٣)).

وهذا حكم من مات على الكفر كما قال تعالى في آخر السورة: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» (محمد: ٣٤).

ومعنى ذلك أن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ» (النحل: ١١٩)، كما قال تعالى: «قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ» (الأنفال: ٣٨)، وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ» (البروج: ١٠)، فعلق العذاب على عدم التوبة، قال الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْكَرَمِ وَالْجُودِ، قَتَلُوا أَوْلِيَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالمغفرة. (تفسير القرآن العظيم (٤٩٦/٤)).

للحديث بقية إن شاء الله، نسأل الله الهداية والتوفيق.

رحل عنا أبو إسلام ..
وسكت صوته وجف قلمه

د. عبدالعظيم بدوي

هو أبو إسلام صالح بن طه بن عبد الواحد، وُلِدَ بعزبة الزعفران التابعة لقرية الشين مركز قطور محافظة الغربية، يوم الثلاثاء الخامس من جمادى الأولى ١٣٧٢هـ الموافق ١٩٥٣/١/٢٧م، درس بمدرسة الشين الابتدائية، ثم الإعدادية، ثم التحق بمدرسة الرافعي الثانوية بطنطا، فلما حصل على الثانوية دخل كلية الزراعة بكفر الشيخ، وتخصص في استصلاح الأراضي، ولكن الله تعالى أراد له أن يعمل في استصلاح القلوب، كما سيرد في ذكر مؤلفاته: كيف تصلح قلبك؟!

فلما تخرج من الجامعة عام ١٩٧٧م التحق بالجيش لأداء الخدمة العسكرية، ثم أنهاها في ١٩٧٨/١٢/٣١م، فعمل مدرسًا بالتربية والتعليم الفصل الثاني من العام الدراسي، وفي صيف ذلك العام سافر إلى الأردن، فعمل مدرسًا للرياضيات بمدرسة الفيصلية الإعدادية شرقي سحاب، فقضى بها عامًا ثم نزل إلى مصر فتزوج، وأكرمه الله تعالى بزوجة تحسبها صالحة ولا نزكيها على الله، ثم عاد بها إلى الأردن، فحبَّب الله إليه العلوم الشرعية، فبدأ بحفظ القرآن الكريم حتى أتمه، واجتهد في طلب العلوم حتى نال منها قسطًا وافرًا، وفي عام ١٩٨٣م انتقل من الفيصلية إلى سحاب، وابتدأ في صعود المنابر، فكان ينتقل من قرية إلى أخرى لإلقاء خطبة الجمعة، وفي سحاب اتصل بكل من الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، والشيخ محمد نسيب الرفاعي، والشيخ محمد إبراهيم شقرة، رحمهم الله جميعًا، حتى هيأ الله له مسجد عبد الله بن عمر في سحاب، فولي الإمامة والخطابة فيه حتى عام ١٩٨٥م، ثم وسع الله عليه فانتقل من سحاب إلى مسجد إبراهيم الحاج حسن بضاحية إبراهيم الحاج حسن بعمَّان، فولي الإمامة والخطابة والتدريس به، ووضع الله له القبول، حتى صار يُقصد من كل مكان، لسماع خطبه ودروسه، وقصده طلاب العلم من كل مكان، وأخذ يتنقل في مساجد عمان لإلقاء الدروس والمحاضرات، وقوَّى صلته بالشيخ الألباني حتى صار من أحب طلابه إليه، وكان الشيخ يشهد عنده الجمعة، ودُعِي لإلقاء الدروس والخطب في كل من الإمارات والبحرين والكويت، وسافر إلى كندا.

وفي عام ١٩٨٨م ترك التدريس وتفرغ للمسجد.

ومن فضل الله عليه أن متعه بالصحة والعافية طوال عمره حتى بلَّغ رسالة ربه التي اصطفاه لها، حتى ابتلي في عام ٢٠١٣م بسرطان في البروستاتا فعولج منه، ثم انتقل المرض إلى الكبد فأخذ في العلاج منه، ولم يقعده ذلك عن وظيفته ومهمته، فلم يترك الخطبة ولا الدروس، وفي النصف الأول من شعبان الماضي سافر للعمرة والتقيت به، وأقمنا معًا أسبوعًا في الحرم المكي، وأوصاني بالصلاة عليه، ورجع إلى مسجده فقام رمضان إمامًا، وختم القرآن في القيام، وبعد عيد الفطر اشتد عليه المرض ومع ذلك استمر في أداء مهمته وتبليغ رسالة ربه، ولما حضر موسم الحج سافر للحج برفقة ابنه أحمد صالح، وكان يتنقل على الكرسي، فلما رجعَ رجعَ مرهقًا متعبًا منهكًا، فدخل مستشفى الأردن بعمان فمكث أسبوعًا ثم خرج، فلم يمكث بالبيت سوى يوم أو يومين

حتى عاد إلى المستشفى، فاتصل بي أبناؤه فأخبروني فطرت إليهم، ومن المطار مباشرة إلى مستشفى الأردن، فدخلت عليه وأرجو أن أكون قد أدخلت السرور على قلبه بدخولي عليه، وكان قد دخل في شبه غيبوبة، وثقل لسانه، فأقمنا معه أسبوعًا نلاطفه أحيانًا ويرد علينا، وكان إذا أفاق أذّن وأقام وصلى، وكان يرفع السبابة في التشهد يحركها يدعو بها كما كان يصلي في صحته، وبعد أسبوع وقبل الفجر طلب من مرافقيه من أبنائه أن يتصلوا بنا وأن يطلبوا حضور أهله وأولاده جميعًا وأنا معهم، فصلينا الفجر وطرنا إليه، فلما دخلنا عليه طلب أن نقعده، وأخذ يوصينا جميعا بتقوى الله، وأنا أستمع وأكظم حزني، وأكفكف دمعي إظهارًا للتماسك أمام الأولاد، حتى غلبتني عيني فسالت دموعي، فخرجت من عنده، وكان هذا آخر عهده بالكلام، فلم يتكلم بعد ذلك، ومضت الأيام وحاله يتغير يومًا بعد يوم، حتى إذا كان يوم الثلاثاء ١٣/ محرم/١٤٣٩هـ الموافق ٢٠١٧/١٠/٣م أصبح في حالة حرجة، ونقصت دقات قلبه، إلى قبيل الغروب ظهرت عليه علامات الموت، وهرول إليه الطبيب ومساعدوه، وحاول أن يصنع شيئًا ولكن نفذ قضاء الله، فقال لنا بحزن بادٍ عليه: توقف القلب!! وذلك عند النداء لصلاة المغرب، فقلنا ما أمرنا الله به: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنا في مصيبتنا وأخلف لنا خيرًا منها، اللهم اغفر لأبي إسلام، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، وأفسح له في قبره، ونوّر له فيه. وتذكرت عندئذ قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٣-٩٦].

ورجعنا به إلى البيت، وفي الصباح تمّ تجهيزه، وبعد صلاة الظهر صليت عليه تنفيذًا لوصيته بعد استئذان إخواننا العلماء الحاضرين، وخرجت الجنازة من مسجده بضاحية الحاج حسن محمولا على الأعناق في مشهد رهيب، وزحام شديد، ذكرنا بقول الإمام أحمد-رحمه الله-: بيننا وبينكم يوم الجنائز. ودُفن-رحمه الله- بمقبرة أم الحيران بوسط عمان بالقرب من مسجده.

وهكذا رحل عنا أخي أبو إسلام، وسكت صوته، وجف قلمه الذي سطر به كل ما خطب به، وجمعه في كتب انتشرت بين الخطباء خاصة وطلاب العلم عامة، وهي: ١-العقيدة أولًا. ٢- أحسن البيان.٣-سبل السلام.٤-الصحابة.٥-تبصرة الأنام.٦-حياة السعداء.٧-الفرقان من قصص القرآن.٨-البيان.٩-البرهان.١٠-ثمرات السيرة النبوية.١١-البشارات النبوية.١٢-المبشرون بالجنة.١٣-المبشرون بالنار.١٤-السبيل في فقه الدعوة.-١٥-وسائل الثبات على الدين.١٦- محبة علي بن أبي طالب بين الغلو والجفاء.١٧- صيحة نذير.١٨-الحصن الحصين.١٩-مداخل الشيطان.٢٠-وبشر الصابرين.٢١-هدية النبي الرحيم لمرضى المسلمين. ٢٢-كيف تصلح قلبك.٢٣-كيف تصلح لسانك.

وبهذه الكتب وما حوته من علم قائم على: قال الله، قال رسوله، قال الصحابة، يستمر عمل أخي أبي إسلام، كما في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ: إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ». وقد تفضّل الله على أخي أبي إسلام بهذه الثلاثة، فهذا هو علمه، وقد وُفق لصدقة جارية، ورزقه الله ذرية طيبة صالحة من البنين والبنات، كلهم أخذ من القرآن، وأكثرهم ختمه وجوّده، فاللهم انفعه بما قدّم وأخّر، واجعله له عندك ذخرا، وألحقه بالصالحين.

اللهم لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا بعده، واغفر لنا وله، وللمسلمين والمسلمات.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: « وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ».

(محمد: ٢-٣).

الحلقة الثالثة

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن أعظم الفضل من الله تعالى أن الكافر إذا آمن أثابه الله على ما عمل من خير في الجاهلية:

عَنْ عُرْوَةَ عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَرَأَيْتَ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فهل لي فيها من شيء؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ». (صحيح مسلم ١٢٣).

قال الإمام النووي -رحمه الله-: ذهب ابن بَطَّال وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ إِلَى أَنَّ الْحَدِيثَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَأَنَّهُ إِذَا أَسْلَمَ الْكَافِرُ وَمَاتَ عَلَى الْإِسْلَامِ يُثَابُ عَلَى مَا فَعَلَهُ مِنَ الْخَيْرِ فِي حَالِ الْكُفْرِ، وَاسْتَدَلُّوا بِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّهُ عليه وسلم: «إِذَا أَسْلَمَ الْكَافِرُ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ كُلَّ حَسَنَةٍ زَلَفَهَا وَمَحَا عَنْهُ كُلَّ سَيِّئَةٍ زَلَفَهَا وَكَانَ عَمَلُهُ بَعْدُ الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمائة ضِعْفٍ وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا إِلَّا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى». (صحيح النسائي: ٥٠١٣).

قال ابن بَطَّال -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- بَعْدَ ذِكْرِهِ الْحَدِيثَ: وَلِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يَتَفَضَّلَ على عباده بما يشاء لا اعْتِرَاضَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ قَالَ وَهُوَ كَقَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم لِحَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه: «أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ» وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَأَمَّا قَوْلُ الْفُقَهَاءِ لَا يَصِحُّ مِنَ الْكَافِرِ عِبَادَةٌ، وَلَوْ أَسْلَمَ لَمْ يُعْتَدَّ بِهَا، فَمُرَادُهُمْ أَنَّهُ لَا يُعْتَدُّ لَهُ بِهَا فِي أَحْكَامِ الدُّنْيَا، وَلَيْسَ فِيهِ تَعَرُّضٌ لِثَوَابِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ أَقْدَمَ قَائِلٌ عَلَى التَّصْرِيحِ بِأَنَّهُ إِذَا أَسْلَمَ لَا يُثَابُ عَلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ رُدَّ قَوْلُهُ بِهَذِهِ السُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ. (شرح النووي على مسلم (٢/١٤٠-١٤٢)).

وهناك معنىً آخر وجيه، وفيه بشارة للمؤمنين، قَالَ الضَّحَّاكُ: «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» أَبْطَلَ كَيْدَهُمْ وَمَكْرَهُمْ بِالنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، وَجَعَلَ الدَّائِرَةَ عَلَيْهِمْ (معالم التنزيل: ٥/١٥١)، فلا يستطيعون صرف الناس عن دين الله عز وجل، يعني أنهم يعملون جاهدين لصد الناس عن دين الله عز وجل «وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ» (البروج: ٢٠) يحبط أعمالهم، ويبطل كيدهم، فلا يبلغون غايتهم، كما قال تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ » (الأنفال: ٣٦)، وقال تعالى: « وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ » (البقرة: ٢١٧)، والتقييد بهذا الشرط مُشْعِرٌ باسْتِبْعَادِ تَمَكُّنِهِمْ مِنْ ذَلِكَ، وَقُدْرَتِهِمْ عَلَيْهِ (فتح القدير للشوكاني: ١/٢٥٠)؛ فهو بمعنى: ولن يستطيعوا، كَقَوْلِ الرَّجُلِ لِعَدُوِّهِ: إِنْ ظَفِرْتَ بِي فَلَا تُبْقِ عَلَيَّ، وَهُوَ وَاثِقٌ بِأَنَّهُ لَا يَظْفَرُ بِهِ. (التفسير الكبير: ٦/٣٧)).

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ حَالَ الكفار بيّن حال

المؤمنين فقال: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ» (محمد: ٢):

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ» أَيْ آمَنَتْ قُلُوبُهُمْ وسرائرهم، وانقادت لشرع الله جَوَارِحُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ وَظَوَاهِرُهُمْ، «وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ» عَطْفُ خَاصٍّ عَلَى عَامٍّ، تنويهاً بشأنه، وتنبيهاً على سُمُوِّ مكانه، مِنْ بين سائر ما يجبُ الإيمانُ به، وأنه الأصلُ في الكُلِّ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ شَرْطٌ في صحَّة الإيمان بَعْدَ بعثته صلوات الله وسلامه عليه. وقوله وتبارك تعالى: «وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَهُوَ قَوْلُهُ: «وَالَّذِينَ آمَنُوا»، وَبَيْنَ خَبَرِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ: «كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ». وهي تَتَضَمَّنُ شَهَادَةَ الله بِأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُنَزَّلَ عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ صلى الله عليه وسلم هُوَ الْحَقُّ مِنَ اللهِ.

وقوله تعالى: «كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» أي: السَّيِّئَاتِ الَّتِي عَمِلُوهَا فِيمَا مَضَى، فَإِنَّهُ غَفَرَهَا لَهُمْ بِالإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. «وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ» قَالَ ابْنُ عباس رضي الله عنهما: أَيْ أَمْرَهُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: شَأْنَهُمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ وَابْنُ زَيْدٍ: حَالَهُمْ وَالْكُلُّ مُتَقَارِبٌ. (انظر: تفسير القرآن العظيم (١٧٢/٤)، إرشاد العقل السليم لأبي السعود (٨٣/٦)، فتح القدير للشوكاني (٣٦/٥)، التحرير والتنوير لابن عاشور (٧٥/٢٦، ٧٦)، أضواء البيان للشنقيطي (٢٤٦/٧)).

وَقِيلَ: الْبَالُ: يُطْلَقُ عَلَى الْقَلْبِ، أي الْعَقْلُ وَمَا يَخْطُرُ لِلْمَرْءِ مِنَ التَّفْكِيرِ، وَهُوَ أَكْثَرُ إِطْلَاقِهِ، وَلَعَلَّهُ حَقِيقَةٌ فِيهِ.

وَإِصْلَاحُ الْبَالِ يَجْمَعُ إِصْلَاحَ الأُمُورِ كُلِّهَا، لأَنَّ تَصَرُّفَاتِ الإِنْسَانِ تَأْتِي عَلَى حَسَبِ رَأْيِهِ، فَالتَّوْحِيدُ أَصْلُ صَلَاحِ بَالِ الْمُؤْمِنِ، وَمِنْهُ تَنْبَعِثُ الْقُوَى الْمُقَاوِمَةُ لِلأَخْطَاءِ وَالأَوْهَامِ الَّتِي تَلْبَسُ بِهَا أَهْلُ الشِّرْكِ، وَحَكَاهَا عَنْهُمُ الْقُرْآنُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَالْمَعْنَى: أَقَامَ أَنْظَارَهُمْ وَعُقُولَهُمْ فَلَا يُفَكِّرُونَ إِلاَّ صَالِحًا وَلَا يَتَدَبَّرُونَ إِلاَّ نَاجِحًا. (التحرير والتنوير (٧٥/٢٦، ٧٦)).

وَقَدْ جَاءَ فِي مُقَابَلَةِ الأَوْصَافِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي أُثْبِتَتْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِثَلَاثَةِ أَوْصَافٍ ضِدَّهَا لِلْمُسْلِمِينَ وَهِيَ: الإِيمَانُ مُقَابِلُ الْكُفْرِ، وَالإِيمَانُ بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مُقَابِلُ الصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وَعَمَلُ الصَّالِحَاتِ مُقَابِلُ بَعْضِ مَا تَضَمَّنُهُ: «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ»، و«كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ». مُقَابِلُ بَعْضِ آخَرَ مِمَّا تَضَمَّنُهُ «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ»، «وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ» مُقَابِلُ بَقِيَّةِ مَا تَضَمَّنُهُ «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ». وَزِيدَ فِي جَانِبِ الْمُؤْمِنِينَ التَّنْوِيهُ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ بِالْجُمْلَةِ الْمُعْتَرِضَةِ قَوْلُهُ: «وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ» وَهُوَ نَظِيرٌ لِوَصْفِهِ بِسَبِيلِ اللهِ فِي قَوْلِهِ: «وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ».

وَعُبِّرَ عَنِ الْجَلَالَةِ هُنَا بِوَصْفِ الرَّبِّ زِيَادَةً فِي التَّنْوِيهِ بِشَأْنِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ: «وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ» (مُحَمَّد: ١١)، فَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ: وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ رَبِّهِمْ. (التحرير والتنوير (٧٤/٢٦، ٧٥)).

ثم بيَّن الله تعالى العلة في كونه أضل أعمال الذين كفروا، وكفَّر عن الذين آمنوا سيئاتهم وأصلح بالهم فقال: «ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ» (مُحَمَّد: ٣) في مَوْضِعِ رَفْعٍ، أي الأَمْرُ ذَلِكَ، أَوْ ذَلِكَ الإِضْلَالُ وَالْهُدَى الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُمَا سَبَبُهُ هَذَا. فَالْكَافِرُ اتَّبَعَ الْبَاطِلَ، وَالْمُؤْمِنُ اتَّبَعَ الْحَقَّ. وَالْبَاطِلُ: الشِّرْكُ. وَالْحَقُّ: التَّوْحِيدُ وَالإِيمَانُ. أَيْ إِنَّمَا أَبْطَلْنَا أَعْمَالَ الْكُفَّارِ، وَتَجَاوَزْنَا عَنْ سَيِّئَاتِ الأَبْرَارِ، وأصلحنا شؤونهم لأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ أي اخْتَارُوا الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ.

(كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ) (مُحَمَّد: ٣) أَيْ كَهَذَا الْبَيَانِ الَّذِي بُيِّنَ يُبَيِّنُ اللهُ لِلنَّاسِ أَمْرَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ. وَالضَّمِيرُ فِي «أَمْثَالَهُمْ» يَرْجِعُ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا. وَالْمَعْنَى: كَهَذَا التَّبْيِينِ يُبَيِّنُ اللهُ لِلنَّاسِ أَحْوَالَهُمْ فَلَا يَبْقَوْا فِي غَفْلَةٍ عَنْ شؤون أَنْفُسِهِمْ مَحْجُوبِينَ عَنْ تَحَقُّقِ كُنْهِهِمْ بِحِجَابِ التَّعَوُّدِ لِئَلَّا يَخْتَلِطَ الْخَبِيثُ بِالطَّيِّبِ، وَلِكَيْ يَكُونُوا عَلَى بَصِيرَةٍ فِي شؤونهم، وَفِي هَذَا إِيمَاءٌ إِلَى وُجُوبِ التَّوَسُّمِ لِتَمْيِيزِ الْمُنَافِقِينَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ حَقًّا، فَإِنَّ مِنْ مَقَاصِدِ السُّورَةِ التَّحْذِيرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ. (انظر: الجامع لأحكام القرآن (٢٢٥/١٦)، تفسير القرآن العظيم (١٧٢/٤)، التحرير والتنوير (٧٧/٢٦)).

وللحديث بقية إن شاء الله، نسأل الله الهداية والتوفيق.

التربية على الرفق بالمخطئ

إعداد د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ فَأَسْرَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَقَالَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ، صُبُّوا عَلَيْهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ أَوْ قَالَ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ».

الرِّفقُ في اللغة ضد العنف، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ «يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لاَ يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ» (رواه مسلم).

والرِّفقُ اصطلاحًا: هو لينُ الجانب بالقول والفعل، والأخذُ بالأسهل. (فتح الباري: ١٠/٤٤٩).

ولقد امتن الله تعالى على نبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم بما حباه من الرَّأفة والرحمة، والرِّفق واللين، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

ولقد كانَ صلى الله عليه وسلم المثلَ الإنساني في الرِّفق بالعامَّة:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنِّي لأَدْخُلُ فِي الصَّلاَةِ فَأُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ» (البخاري: ٧٠٧).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: «إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ، خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ» (متفق عليه).

وَعَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَّ أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا» (متفق عليه).

وكان صلى الله عليه وسلم المثل في الرِّفق بالمخطئ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي

نَاحِيَةَ الْمَسْجِدِ فَأَسْرَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ، فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَقَالَ: «إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ، صُبُّوا عَلَيْهِ سَجْلاً مِنْ مَاءٍ أَوْ قَالَ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ» (البخاري: ٢٢٠).

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَا ثُكْلَ أُمِّيَاهْ مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللَّهِ مَا كَهَرَنِي وَلاَ ضَرَبَنِي وَلاَ شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلاَةَ لاَ يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ (مسلم: ٥٣٧).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ قَالُوا مَهْ مَهْ، فَقَالَ: ادْنُهْ فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ فَجَلَسَ، قَالَ: أَتُحِبُّهُ لأُمِّكَ؟ قَالَ: لاَ وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأُمَّهَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ؟ قَالَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ؟ قَالَ: لاَ وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قَالَ: لاَ وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قَالَ: لاَ وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلاَ النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالاَتِهِمْ، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ» صحيح: (مسند أحمد: ٢٢٢١١).

ولما كتب حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ رضي الله عنه إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ بِمَا عَزَمَ عَلَيْهِ رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم من غزوهم أخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فبعث عَلِيًّا رضي الله عنه وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ فأحضروا الكتاب، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا»؟. قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ، يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلاَ ارْتِدَادًا وَلاَ رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَقَدْ صَدَقَكُمْ». قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أَضْرِبُ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ. قَالَ: «إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» (متفق عليه).

فيجبُ على كلِّ عالمٍ أنْ يكونَ رفيقًا بكلِّ متعلمٍ، وأنْ يكونَ رفيقًا بكلِّ جاهلٍ، فلا يُعنِّفُهُ، ولا يُوبِّخُهُ، ولا يسبُّهُ ولا يشتمُهُ، ولا يضربُهُ لقلةِ فهمِهِ ولا لسوءِ حفظِهِ، ولا لخطأٍ صدرَ منه عفوًا.

ويجبُ على الدَّاعيةِ أنْ يكونَ رفيقًا بالمدعُوِّين، لأنَّ الرِّفقَ هو أقربُ الطرقِ إلى القلوبِ، وأهمُّ أسبابِ القبولِ، ولذلك قال اللَّه تعالى لموسى وهارونَ عليهما السَّلام: ﴿ اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه: ٤٣- ٤٤)، «فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً ليناً» هيِّنًا لا عُنفَ فيه ولا صلابة، ولا غلظةَ ولا فظاظة، لعلَّهُ يتذكرُ ما ينفعُهُ فيأتيه، أو يخشى ما يضرُّهُ فيتركه. وقد فُسِّرَ هذا القولُ اللينُ بقولِه تعالى: ﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ (النازعات: ١٨- ١٩).

والمتأملُ في هذه الكلماتِ يرى الرِّفقَ واللينَ ينسابان من كلِّ حرفٍ فيها، فإنَّه أتى بحرفِ «هَلْ» الَّذي يدلُّ على العرضِ والمشاورة، ممَّا يفيدُ أنَّهُ يجبُ على الدُّعاةِ أنْ يعلَمُوا أنَّ الدعوةَ عَرْضٌ لا فرضٌ، عليكَ أنْ تُحسِّنَ عرضَ دعوتِك ولا يجوزُ أنْ تفرضَها، ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩).

والقاعدةُ العظيمةُ في الإسلامِ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦) قاعدةٌ عظيمةٌ يجبُ على الدُّعاةِ أنْ يفقهوها ويعوها، لا إكراهَ في الدِّين، فإنَّما الدَّعوةُ عَرْضٌ لا فَرْضٌ، فأعرضْ دعوتَك

ولا تفرضها، فإنَّ الله تعالى قال لنبيِّه صلى الله عليه وسلم: «وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ» (الكهف: ٢٩).

فقلْ الحقُّ من ربِّكم واتركْ النَّاسَ بعدَها أحرارًا يختارونَ لأنفسهم ما شاؤوا من الإيمان والكفر، فجزاءُ الجميع عندَ الله «يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» (النحل: ١١١)، قال تعالى: «إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا» (الكهف: ٢٩- ٣٠).

فالدَّعوةُ عرضٌ لا فرض، فإذا أحسنَ الدَّاعيةُ عرضَ دعوته، واستخدمَ الأسلوبَ الهادئَ والكلمةَ الطَّيبةَ اللَّينةَ الرَّقيقةَ وصلَ إلى قلوبِ النَّاس من أقصرِ الطُّرقِ وأقربِها، واستجابَ النَّاسُ لدعوتِه. ثُمَّ تأملْ: «فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ» فهو يدعوه إلى التَّزكيةِ والتَّطهر، ولكنَّه لم يقلْ له: تعال أزكيك، أو أطهرُك، وإنَّما تُزكِي أنت نفسَك، أنا أدلُّك وأنت تُزكي نفسَك ثُمَّ «وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ» «إلى ربِّك» الَّذي ربَّاك بنعمه الظَّاهرة والباطنة، وأتاك ممَّا سألتَه وممَّا لم تسألْه، ممَّا يوجبُ عليك أنْ تذكرَ نعمَ الله وتقابلَها بالشكر.

وهكذا يجبُ أنْ يكونَ الدَّاعيةُ رفيقاً، ولا يجوزُ أنْ يكونَ عنيفًا غليظًا، فإنَّ الدَّاعيةَ إذا كان عنيفًا غليظًا فقد خالفَ أمرَ الَّذي يدعو إليه، فالدَّعوةُ إلى الله، والله أمرَ الدُّعاةَ أنْ يكونوا هيِّنين ليِّنين، أمرَهم بالرِّفقِ ونهاهم عن العنف فإذا خالفَ الدَّاعيةُ فقد خالفَ أمرَ الله، وخالفَ أيضًا هديَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

لقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هينًا لينًا، سهلاً رفيقًا، أحسنَ عَرْضَ دعوتِه فنجح في تبليغ رسالته، حتى دخلَ النَّاسُ في دين الله أفواجًا، وقد امتنَّ الله عليه بما وفَّقه له من الرِّفقِ واللِّين فقال: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ» (آل عمران: ١٥٩).

فإذا أُعطِيَ الدَّاعيةُ الرِّفقَ فقد أُعطِيَ مفاتيحَ النَّجاحِ في دعوته وتبليغِ رسالته، وإذا تخلَّى الدَّاعيةُ عن الرِّفقِ وتحلَّى بالعُنفِ ففشلَ في دعوته فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه. ولذلك لمَّا بعثَ نستورُ صاحبيْه إلى الملكِ يدعوانه إلى دينِ عيسى عليه السلام أمرهما أنْ يرفقا بالملك، وأنْ يدعواه بالحكمة والموعظة الحسنة، فخالفَ الصاحبان نصيحةَ نستور، فدخلا على الملك فأغلظا له القولَ وعنَّفاه، فأخذهما الملكُ وحبسهما وآذاهما، فقال لهما نستور: ما مثلكما إلاَّ كمثلِ امرأة لم تلدْ حتى كَبِرَتْ سنُّها فولدتْ، فاستعجلتْ شبابَ ولدها لتنتفعَ به، فأطعمتْه أكثرَ ممَّا يطيقُ فقتلتْه، فلم تحقِّقْ هدفها» (فيض القدير: ٦/٧٥)، ومن هنا قيل: من استعجلَ الشيءَ قبلَ أوانه عوقبَ بحرمانه.

وما أحسن ما رواه ابنُ أبي حاتم (١٨٩٤٠) عَنْ يَزِيدَ بْنِ الأَصَمِّ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ذُو بَأْسٍ وَكَانَ يَفِدُ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَفَقَدَهُ عُمَرُ فَقَالَ مَا فَعَلَ فُلاَنُ بْنُ فُلاَنٍ، فَقَالُوا يَا أمير المؤمنين تتابع في هَذَا الشَّرَابِ. قَالَ فَدَعَا عُمَرُ كَاتِبَهُ: فَقَالَ اكْتُبْ مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى فلان بن فلان سَلاَمٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذُو الطول لاَ إِلَهَ إِلاَّ هو إِلَيْهِ الْمَصِيرُ. ثُمَّ قَالَ لأَصْحَابِهِ ادْعُوا اللَّهَ لأَخِيكُمْ أَنْ يُقْبِلَ بِقَلْبِهِ وَأَنْ يَتُوبَ اللَّهُ عليه، فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضي الله عنه جَعَلَ يَقْرَؤُهُ وَيُرَدِّدُهُ وَيَقُولُ: غَافِرُ الذَّنْبِ وَقَابِلُ التَّوْبِ شَدِيدُ الْعِقَابِ، قَدْ حَذَّرَنِي عُقُوبَتَهُ وَوَعَدَنِي أَنْ يَغْفِرَ لِي.

قال ابن كثير: وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو نُعَيْم مِنْ حَدِيثِ جَعْفَرِ بْنِ بُرْقَانَ وَزَادَ: فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهَا عَلَى نَفْسِهِ ثُمَّ بَكَى ثُمَّ نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخا لكم زل زلة فسددوه ووثقوه وادْعُوا اللَّهَ لَهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ وَلاَ تَكُونُوا أَعْوَانًا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ. (فهل من مدكر).

نسأل الله الهداية والتوفيق.

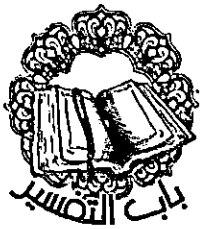

سُورَةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم

الحلقة الرابعة

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

قال الله تعالى: «فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا»

(محمد: ٤).

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فلا يزال الحديث متصلاً عن تفسير سورة محمد، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

يرشد الله تعالى عباده المؤمنين أتباع الحق إلى ما يفعلونه بالكافرين أتباع الباطل في الحرب فيقول: «فإذا لقيتُمُ الذين كفَرُوا فضَرْبَ الرِّقَاب»:

الفاءُ لتفريع هذا الكلام على ما قبلَهُ من إثارة نفوس المسلمين بتشنيع حال المشركين وظهور خيبة أعمالهم، وتنويه حال المسلمين وتوفيق آرائهم.

والمقصود: تهوين شأنهم في قلوب المسلمين، وإغراؤهم بقطع دابرهم، ليكون الدين كله لله، لأن ذلك أعظم من منافع فداء أسراهم بالمال ليعبد المسلمون ربهم آمنين.

والتلقاء في قوله: «فإذا لقيتُمُ الذين كفَرُوا»: المقابلة، وهو إطلاق شهير للقاء الحرب، يقال: يوم اللقاء، فلا يفهم منه إلا لقاء الحرب، كما قال تعالى: «إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ» (الأنفال: ٤١)، فليس المعنى: إذا لقيتم الكافرين في الطريق، أو نحو ذلك (التحرير والتنوير (٢٦/٧٨)).

«فضَرْبَ الرِّقَاب» أصله: فاضربوا الرقاب ضربًا، فحذف الفعل وقدم المصدر فأنيب منابه مضافًا إلى المفعول. وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد، لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه. وضَرْبَ الرِّقَاب عبارة عن القتل (الكشاف: ٤/٣١٦)، كما قال سبحانه: «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» (الأنفال: ١٢)، والمراد القتل، ولكن التعبير عنه بهذا اللفظ فيه تشجيع للمؤمنين وحث لهم على الثبات، حيث صور تمكنهم من العدو بتمكن الذابح من رقبة المذبوح، فلا يحل لهم والحال هذه أن يخافوهم أو يفروا منهم، بل يجب أن يثبتوا ويشدوا عليهم، ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة، حتى يكثروا فيهم القتل والجراح، فتتحطم قواهم، وتنكسر شوكتهم، ويولون مدبرين، فيكونون عبرة لمن خلفهم، فلا يفكرون في لقاء المؤمنين، كما قال تعالى: «فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» (الأنفال: ٥٧).

وقوله تعالى: «حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا»:

يقول: حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقبته منهم، فصاروا في أيديكم أسرى «فشدوا الوثاق»: الوَثاق بالفتح ويجيء بالكسر: اسم الشيء الذي يوثق به كالرباط. قال الجوهري: والوثاق، أي: شده، وإنما أمر سبحانه بشد الوثاق، والمعنى: إذا بالغتم في قتلهم فأسروهم وأحيطوهم بالوثاق لئلا ينفلتوا فيهربوا منكم.

«فإمَّا مَنًّا بَعْدُ وإمَّا فداءً» يقول سبحانه: فإذا أسرتموهم بعد الإثخان، فإما أن تمنوا عليهم بعد ذلك بإطلاقكم إياهم من الأسر، وتحررهم بغير عوض ولا فدية، وإما أن يفادوكم فداء بأن يعطوكم من أنفسهم عوضا حتى تطلقوهم، وتخلوا لهم السبيل.

وإنما قدم المن على الفداء لأنه من مكارم الأخلاق، ولهذا كانت العرب تفتخر به، كما قال شاعرهم:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم
إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ الْغَايَةَ لِذَلِكَ قَالَ: «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ» أَيْ أَثْقَالَهَا وَأَحْمَالَهَا، يَعْنِي حَتَّى يَضَعَ أَهْلُ الْحَرْبِ السِّلَاحَ، فَيُمْسِكُوا عَنِ الْحَرْبِ. وأصل الوزر ما يحمله الإنسان فسُمِّيَ الأسلحة أوزارًا لأنَّها تُحمل، وأُسْنِدَ الْوَضْعُ إِلَيْهَا وَهُوَ لِأَهْلِهَا عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ مُخَيَّرُونَ بَيْنَ تِلْكَ الْأُمُورِ إِلَى غَايَةِ هِيَ أَنْ يَضَعَ الْأَعْدَاءُ الْمُحَارِبُونَ أَوْزَارَهُمْ بِالْهَزِيمَةِ أَوِ الْمُوَادَعَةِ.

والصحيح من أقوال العلماء أَنَّ الْآيَةَ مُحْكَمَةٌ، وَالْإِمَامُ بِالْخِيَارِ فِي الرِّجَالِ الْبَالِغِينَ مِنَ الْكُفَّارِ إِذَا وَقَعُوا فِي الْأَسْرِ بَيْنَ أَنْ يَقْتُلَهُمْ، أَوْ يَسْتَرِقَّهُمْ، أَوْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ فَيُطْلِقَهُمْ بِلَا عِوَضٍ، أَوْ يُفَادِيَهُمْ بِالْمَالِ أَوْ بِأُسَارَى الْمُسْلِمِينَ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ ابْنُ عُمَرَ، وَبِهِ قَالَ الْحَسَنُ وَعَطَاءٌ وَأَكْثَرُ الصَّحَابَةِ وَالْعُلَمَاءِ، وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا كَثُرَ الْمُسْلِمُونَ وَاشْتَدَّ سُلْطَانُهُمْ أَنْزَلَ اللَّهُ عز وجل فِي الْأُسَارَى: «فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً»، فَهَذَا هُوَ الْأَصَحُّ وَالِاخْتِيَارُ لِأَنَّهُ عَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَالْخُلَفَاءُ بَعْدَهُ. (انظر: جامع البيان (٢٦/٤٠-٤٢)، معالم التنزيل (٥/١٥٢و١٥٣)، فتح القدير للشوكاني (٥/٣٧)، التحرير والتنوير (٢٦/٧٨-٨٠)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم خَيْلًا قِبَلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بن أثال، سيد أهل اليمامة، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فقال: مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي يا محمد خير. إن تقتلني تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ تُعْطَ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فتركه رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى كَانَ الْغَدُ، فَقَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ: ما عندي مَا قُلْتُ لَكَ: إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، فتركه رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ»، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، يَا مُحَمَّدُ! وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ كُلِّهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ كُلِّهَا إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ أَصَبَوْتَ؟ فَقَالَ: لَا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم. (صحيح البخاري: ٤٣٧٢).

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: أَسَرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رَجُلًا مِنْ بَنِي عُقَيْلٍ فَأَوْثَقُوهُ، وَكَانَتْ ثَقِيفُ قَدْ أَسَرَتْ رَجُلَيْنِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَفَدَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِالرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ أَسَرَتْهُمَا ثَقِيفُ. (صحيح مسلم ١٦٤١).

وإذا كان ظاهر هذه الآية فيه غلظة وقسوة فقد بيَّن الله تعالى العلة فيها فقال: «إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» (الأنفال: ١٢-١٣).

وتظهر رحمة الإسلام ورأفته وسماحته فيما أمر به المجاهدين من عدم قتل النساء والأطفال، والرهبان، وأهل المزارع، فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا». (صحيح مسلم ١٧٣١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ إِذَا بَعَثَ جُيُوشَهُ قَالَ: «اخْرُجُوا بِاسْمِ اللَّهِ، تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، لَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَقْتُلُوا الْوِلْدَانَ وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ». (حسن لغيره: رواه أحمد: ت: الأرنؤوط (٤/٤٦١/٢٧٢٨)).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: وُجِدَتِ امْرَأَةٌ مَقْتُولَةً فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَنْ قَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ. (صحيح البخاري ٣٠١٤).

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

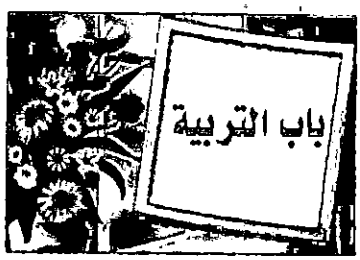

التربية على الزهد في الدنيا

د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟ فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟ قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ، فَقَالَ: فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ)) (مسلم: ٢٩٥٧).

خلق الله آدم عليه السلام وأسكنه الجنة، وخلق له زوجًا يسكنُ إليها، وأباحَ لهما الجنةَ، إلاَّ شجرةً واحدة نهاهما عنها، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: ١٢١- ١٢٧).

وقال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (الأعراف: ٢٤- ٢٥).

وهكذا رأى آدمُ جنةَ الخلد وما فيها من النعيم، ثم نزل إلى الأرض على وَعْدٍ من الله أنْ يَرُدَّهُ وصالحي ذريته إلى الجنة، وجعلَ الله تعالى الدُّنيا مَعْرَضًا للآخرة، عرضَ فيها نعيمَ الجنَّة، وشقاءَ النَّار، فكلُّ ما في الدُّنيا من نعيم فهو مثالٌ لنعيم الجنة، وكلُّ ما فيها من بؤس وشقاء وعذاب، فهو مثالٌ لعذاب النَّار، فلمَّا كثر بنو آدمَ في الأرض انقسموا قسمين: قسمٌ أنكروا البعثَ بعدَ الموت، وأنكروا الحسابَ والجزاء، والثوابَ والعقاب، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يونس: ٧- ٨).

وهؤلاء جعلوا الدُّنيا أكبرَ همِّهم، فهم حريصونَ عليها وعلى شهواتها ولذَّاتها كلَّ الحرص، حتى قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [(محمد: ١٢)، وقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ)) (مسلم: ٢٠٦٢).

والقسمُ الثَّاني: من يُقِرُّ بدار بعدَ الموت للثواب والعقاب، وهم المنتسبونَ إلى شرائع المرسلين، وهم منقسمونَ إلى ثلاثة أقسام: ظالمٌ لنفسه، ومقتصدٌ، وسابقٌ بالخيرات بإذن الله، والظالمُ لنفسه هم الأكثرونَ، وأكثرهم واقفٌ مع زهرةِ الدُّنيا وزينتها،

فأخذها من غير وجهها، واستعملها في غير وجهها، وصارت الدُّنيا أكبر همِّه، بها يرضى، ولها يغضب، ولها يُوالي، وعليها يُعادي، وهؤلاء هم أهل اللَّهو واللَّعب، والزِّينة والتَّفاخر والتَّكاثر، وكلهم لم يعرف المقصودَ من الدُّنيا، ولا أنَّها منزلة سفر يتزودُ منها إلى ما بعدها من دار الإقامة، وإن كان أحدهم يؤمن بذلك إيمانًا مجملاً، فهو لا يعرفه مفصلاً، ولا ذاق ما ذاق أهل المعرفة بالله في الدُّنيا ممَّا هو أنموذجًا لما ادخر لهم في الآخرة.

والمقتصدُ منهم أخذ الدُّنيا من وجوهها المباحة، وأدَّى واجباتها، وأمسك لنفسه الزائد على الواجب فتوسع به في التَّمتع بشهوات الدُّنيا، وأولئك لا عقاب عليهم في ذلك، إلاَّ أنَّه ينقص من درجاتهم في الآخرة بقدر توسعهم في الدُّنيا، كما رُوِيَ عن عمر أنَّه قال: لولا أن ينقص من حسناتي لخالطتكم في لين عيشكم، ولكن سمعتُ الله عيَّر قومًا فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾[الأحقاف: ٢٠]، وقال الفُضَيل: إنْ شئتَ استقلَّ من الدُّنيا وإن شئتَ استكثرْ منها، فإنَّما تأخذُ من كيسك. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: ((لاَ تَلْبَسُوا الْحَرِيرَ وَلاَ الدِّيبَاجَ، وَلاَ تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَلاَ تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا فَإِنَّهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَكُمْ فِي الآخِرَةِ))(متفق عليه).

وأمَّا السابقُ بالخيرات بإذن الله فهم الذين فهموا المرادَ من الدُّنيا وعملوا بمقتضى ذلك، فعلموا أنَّ الله إنَّما أسكنَ عبادَه هذه الدَّارَ ليبلوَهم أيُّهم أحسنُ عملاً، وجعلَ ما في الدُّنيا من البَهجة والنَّضرة محنةً لينظرَ من يقفُ منهم معه ويركنُ إليه، ومن ليسَ كذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف: ٧]، ثم بيَّنَ انقطاعَهَ وانفاذَهُ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[الكهف: ٨].

فلمَّا فهموا أنَّ هذا هو المقصودُ من الدُّنيا جعلوا همَّهم التزودَ منها للآخرة التي هي دار القرار، فاكتفوا من الدُّنيا بما يكتفي به المسافرُ في سفره. (جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٢٥٩، ٢٥٧)

والقرآنُ الكريمُ مملوءٌ من التزهيد في الدُّنيا، والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها، وسرعة فنائها، والتَّرغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها.

وقد كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم المثلَ الأعلى في الزُّهد في الدُّنيا:

عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ! لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً (أي فراشًا ليِّنًا) فَقَالَ: ((مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا)) (صحيح الترمذي: ٢٣٧٧).

ولَمَّا تَطَلَّعتْ نساؤهُ صلى الله عليه وسلم إلى الدُّنيا ورغبن فيها غَضِبَ عليهنَّ، وحلف أنْ لا يدخلُ عليهنَّ شهرًا، حتَّى شيعَ أنَّ رسولَ الله طلقَ نساءه فاستأذنَ عليه عُمَرُ فدخلَ عليه ((وَإِنَّهُ لَعَلَى حَصِيرٍ، مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَيْءٌ، وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ، حَشْوُهَا لِيفٌ، وَإِنَّ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَرَظًا مَصْبُوبًا، وَعِنْدَ رَأْسِهِ أَهَبٌ مُعَلَّقَةٌ، فَرَأَيْتُ أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ، فَبَكَيْتُ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ! إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ؟ فَقَالَ: ((أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ)).(متفق عليه).

وَعَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: ((وَاللهِ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلاَلِ ثُمَّ الْهِلاَلِ ثُمَّ

الْهِلاَلِ، ثَلاَثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عليه وسلم نَارٌ، قَالَ: قُلْتُ: يَا خَالَةُ فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ؟ قَالَتِ الأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ))(متفق عليه).

وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يُرغِّبُ أصحابَه في الزهد في الدُّنيا ويوصيهم بذلك:

عَنْ الْمُسْتَوْرِدِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عليه وسلم: ((مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا يَرْجِعُ)) (مسلم ٢٨٥٨).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: ((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّه مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ))(مسلم ٢٧٤٢).

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ صلى اللَّه عليه وسلم رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّه وَأَحَبَّنِي النَّاسُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: ((ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّه، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ))(صحيح ابن ماجه ٣٣١٠).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم بِبَعْضِ جَسَدِي فَقَالَ: ((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ)).(البخاري ٦٤١٦)

قال الإمام النووي: ((قالوا في شرح هذا الحديث: لا تركن إلى الدُّنيا ولا تتخذها وطنًا، ولا تحدِّث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها إلاَّ بما يتعلقُ به الغريبُ في غيْرِ وطنِه، ولا تشتغلْ فيها بما لا يشتغلُ به الغريبُ الذي يريدُ الذهابَ إلى أهلِه))(رياض الصالحين ٢١٦و٢١٧).

وقد تنوعتْ عباراتُ السَّلفِ في حقيقةِ الزُّهدِ:

فقال ابن تيمية: «الزُّهدُ تركُ ما لا ينفعُ في الآخرة». (مجموع الفتاوى ٢١/١٠).

وقال الإمامُ أحمدُ: «الزُّهدُ على ثلاثة أوجه: الأولُ: تركُ الحرام، وهو زهدُ العوام، والثَّاني: تركُ الفضولِ من الحلال، وهو زهدُ الخواص، والثَّالثُ: تركُ ما يشغلُ عن الله، وهو زهدُ العارفين». (تهذيب مدارج السالكين ص٢٨٤).

وعن يونس بن ميسرة قال: «ليس الزَّهادةُ في الدُّنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال، ولكن الزَّهادةَ في الدُّنيا أنْ تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأنْ تكون حالُك في المصيبة وحالُك إذا لم تصبْ بها سواء، وأنْ يكونَ مادحُك وذامُّك في الحقِّ سواء. ففسَّر الزُّهدَ في الدُّنيا بثلاثة أشياء كلُّها من أعمالِ القلوب لا من أعمالِ الجوارح» (جامع العلوم والحكم ص٢٥٤).

فالزُّهدُ زهدُ القلب، لا زهدَ الترك من اليد وسائر الأعضاء، والزُّهدُ هو تخلي القلبِ عنها، لا خلوَّ اليد منها، ولذلك سئل الإمامُ أحمدُ عن الرجلِ يكونُ معه ألفُ دينارٍ هل يكونُ زاهدًا؟ قال: نعم، إذا لم يفرحْ إذا زادت، ولم يحزن إذا نقصت، وكان أبو سليمان يقول: لا تشهد لأحدٍ بالزُّهد، فإنَّ الزُّهدَ زُهْدُ القلب. (تهذيب مدارج السالكين ص ٢٨٤).

اللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ولا مبلغ علمنا.

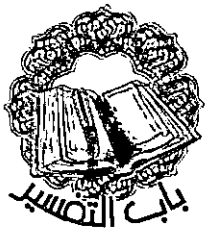

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ (محمد: ٤-٦).

الحلقة الخامسة

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

ثم بيَّن الله تعالى الحكمة من مشروعية القتال فقال: «ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ»:

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: هَذَا الَّذِي أَمَرْتُكُمْ بِهِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ قَتْلِ الْمُشْرِكِينَ إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فِي حَرْبٍ، وَشَدِّهِمْ وَثَاقًا بَعْدَ قَهْرِهِمْ، وَأَسْرِهِمْ، وَالْمَنِّ وَالْفِدَاءِ «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا»، هُوَ الْحَقُّ الَّذِي أَلْزَمَكُمْ رَبُّكُمْ، وَلَوْ يَشَاءُ رَبُّكُمْ لَانْتَصَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ بَيَّنَ هَذَا الْحُكْمَ فِيهِمْ بِعُقُوبَةٍ مِنْهُ لَهُمْ عَاجِلَةٍ، وَكَفَاكُمْ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَلَكِنَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ كَرِهَ الِانْتِصَارَ مِنْهُمْ، وَعُقُوبَتَهُمْ عَاجِلًا إِلَّا بِأَيْدِيكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ «لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ» أَيْ: لِيَخْتَبِرَكُمْ بِهِمْ، فَيَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ، وَيَبْلُوَهُمْ بِكُمْ، فَيُعَاقِبَ بِأَيْدِيكُمْ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ، وَيَتَّعِظَ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ بِمَنْ أَهْلَكَ بِأَيْدِيكُمْ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ حَتَّى يُنِيبَ إِلَى الْحَقِّ. (جامع البيان(٢٦/٤٣)).

كما قال تعالى في آخر السورة: «حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ» (محمد: ٢١)، وقال تعالى: «قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (التوبة: ١٤- ١٥).

فضل الجهاد في سبيل الله والاستشهاد:

«وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ»:

اخْتَلَفَتِ الْقُرَّاءُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ، فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْحِجَازِ وَالْكُوفَةِ بِالْأَلِفِ: «وَالَّذِينَ قَاتَلُوا» بِمَعْنَى: حَارَبُوا الْمُشْرِكِينَ، وَجَاهَدُوهُمْ، وَكَانَ أَبُو عَمْرٍو يَقْرَأُهُ «قُتِلُوا» بِضَمِّ الْقَافِ وَتَخْفِيفِ التَّاءِ، بِمَعْنَى: وَالَّذِينَ قَتَلَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، ثُمَّ أَسْقَطَ الْفَاعِلَ، فَجَعَلَهُمْ لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُ ذَلِكَ بِهِمْ.

فَتَأْوِيلُ الْكَلَامِ على القراءة الأولى: وَالَّذِينَ قَاتَلُوا مِنْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَعْدَاءَ اللَّهِ مِنَ الْكُفَّارِ فِي دِينِ اللَّهِ، وَفِي نُصْرَةِ مَا بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عليه وسلم مِنَ الْهُدَى، فَجَاهَدُوهُمْ فِي ذَلِكَ، «فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ» أي فَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمُ الَّتِي عَمِلُوهَا فِي الدُّنْيَا ضَلَالًا عَلَيْهِمْ كَمَا أَضَلَّ أَعْمَالَ الْكَافِرِينَ، «سَيَهْدِيهِمْ» أي سَيُوَفِّقُهُمْ لِلْعَمَلِ بِمَا يُحِبُّ وَيَرْضَى، «وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ» أي وَيُصْلِحُ أَمْرَهُمْ وَحَالَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ «وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: وَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ جَنَّتَهُ الَّتِي عَرَّفَهَا وَبَيَّنَهَا لَهُمْ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِي مَنْزِلَهُ مِنْهَا إِذَا دَخَلَهَا كَمَا كَانَ يَأْتِي مَنْزِلَهُ فِي الدُّنْيَا، لَا يُشْكِلُ عَلَيْهِ ذَلِكَ. (جامع البيان(٢٦/٤٣)).

وعلى القراءة الثانية يكون تأويل الآية: «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أي قتلهم الذين كفروا وهم يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله «فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ» بل سيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، و«سَيَهْدِيهِمْ» في الآخرة إلى طريق الجنة كما يهدي الكفار الذين قتلوهم إلى طريق النار، «وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ».

ما جاء فضل الجهاد والمجاهدين والشهداء

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم

مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» (الصف: ١٠- ١٣).

وقال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (التوبة: ١١١).

وقال تعالى: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» (التوبة: ١٩- ٢٢).

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ الْغَدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا». (صحيح البخاري ٢٨٩٢).

وَعَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ». (صحيح مسلم ١٩١٣).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». (صحيح البخاري ٢٧٩٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِشِعْبٍ فِيهِ عُيَيْنَةٌ مِنْ مَاءٍ عَذْبَةٍ فَأَعْجَبَتْهُ لِطِيبِهَا فَقَالَ: لَوِ اعْتَزَلْتُ النَّاسَ فَأَقَمْتُ فِي هَذَا الشِّعْبِ! وَلَنْ أَفْعَلَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم! فَذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ مَقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ عَامًا، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ! اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ». (صحيح الترمذي: ١٦٥٠).

وَعَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِي فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ». (صحيح مسلم ١٨٧٦).

وَعَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عز وجل؟ قَالَ: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ». قَالَ: فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ». وَقَالَ فِي الثَّالِثَةِ: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى». (صحيح البخاري ٢٧٨٥).

وَعَنْهُ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا نُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ. قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ». (صحيح البخاري ٢٧٩٠). وغير ذلك من الأحاديث.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

التربية على الجود والكرم

إعداد د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم:«مَا بَقِيَ مِنْهَا»؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُهَا. قَالَ:«بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا»(صحيح جامع الترمذي: ٢٤٧٠)

الجودُ والكرمُ صفتان لله عزَّ وجل، ومن أسمائه الحسنى الكريمُ الجواد، فعَنْ سَعْد بن أبي وَقَّاص رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيه وسلم قَالَ:«إِنَّ اللَّه كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكُرَمَاءَ، جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَةَ، يُحِبُّ مَعَالِيَ الأَخْلاَقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا» (سنن ابن ماجه:١٧٩٦). قال ابنُ عبد السلام: «الصفاتُ الإلهيةُ ضربان: أحدهما يختصُّ به كالأزليَّة والأبديَّة والغنى عن الأكوان، والثاني يمكن التخلُّق به وهو ضربان:

أحدهم: لا يجوز التخلُّق به كالعظمة والكبرياء، والثاني: ورد الشَّرْعُ بالتخلُّق به كالكرم والجود والحلم والحياء والوفاء، فالتخلُّق به بقدْر الإمكان مُرْض للرَّحمن مُرْغِمٌ للشيطان». (فيض القدير(٢/٢٥١)).

ولما كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم أعلمَ الناس بالله كان أكثرهم تخلقاً بصفات الله التي يمكن الاتِّصافُ بها ومنها الجود والكرم.

عَنِ ابْنِ عَبَّاس قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أَجْوَدَ النَّاس، وَكَانَ أَجْوَد مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَة مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ» (متفق عليه).

وَعَنْ جُبَيْر بْنِ مُطْعِم أَنَّهُ«بَيْنَمَا هُوَ يَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَمَعَهُ النَّاسُ مَقْفَلَهُ مِنْ حُنَيْنٍ فَعَلَقَهُ النَّاسُ يَسْأَلُونَهُ حَتَّى اضْطَرُّوهُ إِلَى سَمُرَةٍ فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ فَوَقَفَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «أَعْطُونِي رِدَائِي لَوْ كَانَ لِي عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ نَعَمًا لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ ثُمَّ لا تَجِدُونِي بَخِيلاً وَلا كَذُوبًا وَلا جَبَانًا». (صحيح البخاري ٢٨٢١).

وَعَنْ سَهْلٍ رضي الله عنه «أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتِ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم بِبُرْدَةٍ مَنْسُوجَةٍ فِيهَا حَاشِيَتُهَا أَتَدْرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ قَالُوا الشَّمْلَةُ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ: نَسَجْتُهَا بِيَدِي فَجِئْتُ لأَكْسُوَكَهَا فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ صلى اللَّه

عليه وسلم مُحْتَاجًا إِلَيْهَا فَخَرَجَ إِلَيْنَا وَإِنَّهَا إِزَارُهُ فَحَسَّنَهَا فُلاَنٌ فَقَالَ اكْسُنِيهَا مَا أَحْسَنَهَا قَالَ الْقَوْمُ مَا أَحْسَنْتَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مُحْتَاجًا إِلَيْهَا ثُمَّ سَأَلْتَهُ وَعَلِمْتَ أَنَّهُ لا يَرُدُّ قَالَ إِنِّي وَاللَّهِ مَا سَأَلْتُهُ لأَلْبَسَهُ إِنَّمَا سَأَلْتُهُ لتَكُونَ كَفَنِي، قَالَ سَهْلٌ فَكَانَتْ كَفَنَهُ» (صحيح البخاري ١٢٧٧).

وَعَنْ مُوسَى بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى الإِسْلاَمِ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ قَالَ فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لا يَخْشَى الْفَاقَةَ» (صحيح مسلم: ٢٣١٢).

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، ثم طفقوا يتصدقون منها، ثم سأل النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «مَا بَقِيَ مِنْهَا»؟ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُهَا. فقَالَ صلى الله عليه وسلم: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا»، يريد بَقِيَ كُلُّهَا لنا عند الله، لأننا تصدقنا به، وأما كتفها الذي بقي عندنا فسنأكله فيفنى، وكأنه صلى الله عليه وسلم يشير إلى قول الله تعالى: « مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ »(النحل: ٩٦)، وقد صرح بذلك النبي صلى الله عليه وسلم كما في الحديث عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَقْرَأُ (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي. وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ» (صحيح مسلم: ٢٤٣٠).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَيُّكُمْ مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ»؟ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ مَالُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ. قَالَ: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالُ وَارِثِهِ مَا أَخَّرَ».

(صحيح البخاري ٦٤٤٢).

وهكذا علَّم صلى الله عليه وسلم أصحابَه الجودَ والكرمَ بفعله، ودعاهم إليه بقوله، ومما أثر عنه في ذلك:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا وَيَقُولُ الآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا» (متفق عليه).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ، وَلا تُلاَمُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى» (صحيح مسلم ١٠٣٦).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ وَلا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ، إِلاَّ أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ» (متفق عليه).

ولقد كثر في القرآن الكريم الأمرُ بالكرم والجود، قال تعالى: « ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ »(الحديد: ٧)، وقال تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (البقرة: ٢٥٤)، وقال تعالى: « وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ » (المنافقون: ١٠).

ومع الأمر بالجود والكرم يأتي الترغيبُ فيهما ببيان فضلهما وكثرة الأجر والثواب المترتب عليهما، قال تعالى: «مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ » (البقرة: ٢٦١). وقال تعالى: « ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ » (البقرة: ٢٧٤). وقال تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ » (فاطر: ٢٩- ٣٠). وقال تعالى: « وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ » (الرعد: ٢٢- ٢٤).

ذم البخل والبخلاء

وكما أخبر سبحانه أنه يُحبُّ الجوادَ الكريم، فقد أخبر أنه يُبغض البخيل، فقال تعالى: « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا » (النساء: ٣٦- ٣٧)، كما قال تعالى: « وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ » (التوبة: ٧٥- ٧٧).

وتوعَّد الله البُخلاءَ بأشدِّ العذاب فقال تعالى: « وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ » (آل عمران: ١٨٠).

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ ثُمَّ تَلاَ « وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » الآيَةَ (آل عمران: ١٨٠) » (صحيح البخاري ١٤٠٣).

وقال تعالى: « وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ » (التوبة: ٣٤- ٣٥).

وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إِلاَّ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ». (صحيح مسلم ٩٨٧).

فيا أرباب الأموال! ويا ذوي النعم! « ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ » (الحديد: ٧- ١١).

والحمد لله رب العالمين.

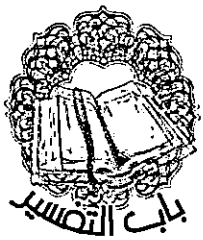

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم» (محمد: ١٢-١٤).

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

وَلَمَّا بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى ما هو فاعل بالْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا بَيَّنَ ما هو فاعل بالفريقين في الآخرة فقال: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ».

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ بَسَاتِينَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا الْأَنْهَارُ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِهِمْ تَكْرِمَةً عَلَى إِيمَانِهِمْ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، كما قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» (يونس: ٩)

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ»:

يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَالَّذِينَ جَحَدُوا تَوْحِيدَ اللَّهِ، وَكَذَّبُوا رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم يَتَمَتَّعُونَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بِحُطَامِهَا وَرِيَاشِهَا وَزِينَتِهَا الْفَانِيَةِ الدَّارِسَةِ، وَيَأْكُلُونَ فِيهَا غَيْرَ مُفَكِّرِينَ فِي الْمَعَادِ، وَلَا مُعْتَبِرِينَ بِمَا وَضَعَ اللَّهُ لِخَلْقِهِ مِنَ الْحُجَجِ الْمُؤَدِّيَةِ لَهُمْ إِلَى عِلْمِ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ صِدْقِ رُسُلِهِ، فَمَثَلُهُمْ فِي أَكْلِهِمْ مَا يَأْكُلُونَ فِيهَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُمْ بِذَلِكَ وَغَيْرِ مَعْرِفَةٍ، مَثَلُ الْأَنْعَامِ مِنَ الْبَهَائِمِ الْمُسَخَّرَةِ الَّتِي لَا هِمَّةَ لَهَا إِلَّا فِي الِاعْتِلَافِ دُونَ غَيْرِهِ «وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ» يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَالنَّارُ- نَارُ جَهَنَّمَ- مَسْكَنٌ لَهُمْ، وَمَأْوًى، إِلَيْهَا يَصِيرُونَ مِنْ بَعْدِ مَمَاتِهِمْ، «وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ»

(المائدة: ٢٧). (جامع البيان (٤٧/٢٦)).

فإن قيل: لماذا شبههم بالأنعام؟ قيل: لوجوه:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْأَنْعَامَ هِمَّتُهَا الْأَكْلُ لَا غَيْرُ وَالْكَافِرُ كَذَلِكَ. وَالْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ لِيَعْمَلَ صَالِحًا وَيَقْوَى عَلَيْهِ.

وَثَانِيهَا: الْأَنْعَامُ لَا تَسْتَدِلُّ بِالْمَأْكُولِ عَلَى خَالِقِهَا وَالْكَافِرُ كَذَلِكَ.

وَثَالِثُهَا: الْأَنْعَامُ تُغْلَفُ لِتَسْمَنَ وَهِيَ غَافِلَةٌ عَنِ الْأَمْرِ، لَا تَعْلَمُ أَنَّهَا كُلَّمَا كَانَتْ أَسْمَنَ كَانَتْ أَقْرَبَ إِلَى الذَّبْحِ وَالْهَلَاكِ، وَكَذَلِكَ الْكَافِرُ يأكل ويتمتع وهو غافل عما يصير إليه. ولذلك قال تعالى: «ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» (الحجر: ٣).

لطيفة في الفضل والعدل:

قَالَ الرازي: قَالَ تعالى في حق المؤمن: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ» بصيغة الوعد، وقال في حق الكافر «النَّارُ مَثْوًى لَهُمْ» بصيغة تُنْبِئُ عَنِ الاستحقاق لأن الإحسان لا يستدعي أن يكون عن استحقاق، فالمحسن إلى من لم يوجد منه ما يوجب الإحسان كريم، والمعذب من غير استحقاق ظالم. (التفسير الكبير (٥٢/٢٨)).

قال تعالى: «وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ».

العطف على جملة «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا»، وَمَا بَيْنَهُمَا اسْتِطْرَادٌ اتَّصَلَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ. (التحرير والتنوير (٢٦/٩٠)).

وَ«كَأَيِّنْ» مُرَكَّبَةٌ مِنَ الْكَافِ وَأَيٍّ، وَهِيَ بِمَعْنَى كَمِ الْخَبَرِيَّةِ، أَيْ: وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ.

وَمَعْنَى الْآيَةِ: وَكَمْ مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ هُمْ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ أَهْلِ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجُوكَ مِنْهَا أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ، فَبِالْأَوْلَى مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُمْ وَهُمْ قُرَيْشٌ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ قَرْيَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَهِيَ مَكَّةُ، فَالْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ» (يوسف: ٨٢).

وقد تكرر هذا التخويف كثيرا في القرآن الكريم:

قال تعالى: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (غافر: ٨٢)، وقال تعالى: «أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ» (غافر: ٢١)، وقال تعالى: «وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» (سبأ: ٤٥).

قال تعالى: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم»

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: «أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ» عَلَى بُرْهَانٍ وَحُجَّةٍ وَبَيَانٍ «مِنْ رَبِّهِ»، وَالْعِلْمِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ، فَهُوَ يَعْبُدُهُ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْهُ، بِأَنَّ لَهُ رَبًّا يُجَازِيهِ عَلَى طَاعَتِهِ إِيَّاهُ الْجَنَّةَ، وَعَلَى إِسَاءَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ إِيَّاهُ النَّارَ، وَفِي التَّعْبِيرِ بِوَصْفِ الرَّبِّ وَإِضَافَتِهِ إِلَى ضَمِيرِ الْفَرِيقِ تَنْبِيهٌ عَلَى زُلْفَى الْفَرِيقِ الَّذِي تَمَسَّكَ بِحُجَّةِ اللَّهِ.

وَمَعْنَى وَصْفِ الْبَيِّنَةِ بِأَنَّهَا مِنَ اللَّهِ، أَنَّ اللَّهَ أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهَا وَحَرَّكَ أَذْهَانَهُمْ فَامْتَثَلُوا وَأَدْرَكُوا الْحَقَّ، فَالْحُجَّةُ حُجَّةٌ فِي نَفْسِهَا، وَكَوْنُهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَزْكِيَةٌ لَهَا وَكَشْفٌ لِلتَّرَدُّدِ فِيهَا وَإِتْمَامٌ لِدَلَالَتِهَا، كَمَا يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَ أَخْذِ الْعِلْمِ عَنْ مُتَضَلِّعٍ فِيهِ وَأَخْذِهِ عَنْ مُسْتَضْعَفٍ فِيهِ وَإِنْ كَانَ مُصِيبًا. وَ(عَلَى) لِلِاسْتِعْلَاءِ الْمَجَازِيِّ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى التَّمَكُّنِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ» (البقرة: ٥).

وَهَذَا الْفَرِيقُ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَهُمْ ثَابِتُونَ عَلَى الدِّينِ وَاثِقُونَ بِأَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ، فَلَا جَرَمَ يَكُونُ لَهُمُ الْفَوْزُ فِي الدُّنْيَا لِأَنَّ اللَّهَ يَسَّرَ لَهُمْ أَسْبَابَهُ، فَإِنْ قَاتَلُوا كَانُوا عَلَى ثِقَةٍ بِأَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَأَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ فَقَوِيَتْ شَجَاعَتُهُمْ، وَإِنْ سَالَمُوا عُنُوا بِتَدْبِيرِ شَأْنِهِمْ وَمَا فِيهِ نَفْعُ الْأُمَّةِ وَالدِّينِ فَلَمْ يَأْلُوا جُهْدًا فِي حُسْنِ أَعْمَالِهِمْ، وَذَلِكَ مِنْ آثَارِ أَنَّ اللَّهَ أَصْلَحَ بَالَهُمْ وَهَدَاهُمْ.

«كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ» يَقُولُ: كَمَنْ حَسَّنَ لَهُ الشَّيْطَانُ قَبِيحَ عَمَلِهِ وَسَيِّئَهُ، فَأَرَاهُ جَمِيلًا، فَهُوَ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ مُقِيمٌ «وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» يَقُولُ: وَاتَّبَعُوا مَا دَعَتْهُمْ إِلَيْهِ أَنْفُسُهُمْ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ مِنْ ذَلِكَ بُرْهَانٌ وَحُجَّةٌ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» تَكْمِلَةٌ، وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَرَاجَتِ الشُّبْهَةُ عَلَيْهِ فِي مُقَابَلَةِ مَنْ يَتَبَيَّنُ لَهُ الْبُرْهَانُ وَقَبْلَهُ، لَكِنْ مَنْ رَاجَتِ الشُّبْهَةُ عَلَيْهِ قَدْ يَتَفَكَّرُ فِي الْأَمْرِ وَيَرْجِعُ إِلَى الْحَقِّ، فَيَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى مَنْ هُوَ عَلَى الْبُرْهَانِ، وَقَدْ يَتَّبِعُ هَوَاهُ وَلَا يَتَدَبَّرُ فِي الْبُرْهَانِ وَلَا يَتَفَكَّرُ فِي الْبَيَانِ فَيَكُونُ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ.

والفريق الذين زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ هُمُ الْمُشْرِكُونَ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَحْوَالِ (السُّوأَى) مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ وَارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ، فَلَمَّا نَبَّهَهُمُ اللَّهُ لِفَسَادِ أَعْمَالِهِمْ بِأَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا بَيَّنَ لَهُمْ صَالِحَ الْأَعْمَالِ وَسَيِّئَاتِهَا لَمْ يُدْرِكُوا ذَلِكَ وَرَأَوْا فَسَادَهُمْ صَلَاحًا فَتَزَيَّنَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي أَنْظَارِهِمْ وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا الْإِقْلَاعَ عَنْهَا وَغَلَبَ الْفَهْمُ وَهَوَاهُمْ عَلَى رَأْيِهِمْ فَلَمْ يَعْبَأُوا بِاتِّبَاعِ مَا هُوَ صَلَاحٌ لَهُمْ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ. (انظر جامع البيان (٢٦/٤٨)، التفسير الكبير (٢٨/٥٣)، التحرير والتنوير (٢٦/٩٢-٩٤).

وَالْمَقْصُودُ مِنْ إِنْكَارِ الْمُشَابَهَةِ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ هُوَ تَفْضِيلُ الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ، وَإِنْكَارُ زَعْمِ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا ظَهَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ. قال تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ» (الأحقاف: ١١)، وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ» (المطففين: ٢٩- ٣٢)، وقال تعالى: «إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ» (المؤمنون: ١٠٩- ١١٠). (التحرير والتنوير (٢٦/٩٢و٩٣)).

وللحديث بقية إن شاء الله.

الشائعات ومعاول هدم المجتمعات

د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن من الظواهر السيئة التي انتشرت في مجتمعنا وأصبحت تهدد قيمنا وحياتنا، تقطع أوصالنا وتلوث أخلاقنا وتأكل حسناتنا، ويزيد من نشر الأدواء والآفات فيما بيننا ظاهرة نشر الإشاعات والترويج لها والتي منها المعلومات الكاذبة والأخبار الزائفة وتناقل الأنباء المغلوطة الآثمة؛ لذا فقد حذر الشارع من هذه الظاهرة، وأرشد إلى معالجتها وتربية الناس على خُلق تركها، ولعل من ذلك وأوضحه في كتاب الله عز وجل ما ورد في قصة حديث الإفك الذي اتهمت به الطيبة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، زوجة نبينا في الدنيا والآخرة؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١١) إلى قوله تعالى: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (النور: ٢٦).

اتفق العلماء على أن هذه الآيات نزلت في براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مما رماها به أهل الإفك، وكانت خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلاً، ثم آذن بالرحيل، فانطلقت لشأنها، فلم ترجع إلا وقد سار الجيش، فنزلت منزلها وهي تظن أنهم سيفقدونها فيرجعون إليها، وكان صفوان بن المعطل السلمي من وراء الجيش، فأتى على عائشة، فأناخ لها راحلته، وانطلق يقود بها، حتى أدرك الجيش وقد نزلوا موغرين في حر الظهيرة، فلما رآها عبد الله بن أبي زعيم المنافقين لعنه الله قال: من هذه؟ قالوا عائشة، قال: من معها؟ قالوا: صفوان بن المعطل، قال: انظروا إلى زوجة نبيكم، باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم انطلق يقود بها، والله ما سلمت منه ولا سلم منها، وشاع الخبر في المدينة، ولاكته الألسنة، حتى تحدث به نفر من المؤمنين الصادقين دون تحر ولا تثبت، ولا مراعاة لحرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجه ووالدها الصديق، ورسول الله صلى الله عليه وسلم صابر وساكت، لا يستطيع أن يبرئ زوجه وإن كان عنده من القرائن ما يجعله على يقين من براءتها.

حتى مضى شهر كامل، عاشه رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل بيته، وأبو بكر وآل بيته، وصفوان بن المعطل وآل بيته، والمجتمع الإسلامي كله في المدينة، عاشوا شهرا من الغم والهم، والحزن والنكد، وانشغال البال، عاشوا جميعا شهرا كاملا على أعصابهم، حتى نزل الوحي والكل مشدود الأعصاب، مزهق الفكر، مهموم القلب، بسبب شائعة روج لها منافق حاقد، فلاكتها الألسنة دون تحر ولا تثبت، نزل الوحي ببراءة الطيبة زوج الطيب، والصديقة بنت الصديق، ولكنه قبل أن يصرح بالبراءة توعد الذين جاؤوا بهذا الإفك، ثم علم المؤمنين ما كان يجب عليهم عند سماع هذا

الْكَذِب، وَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ تجَاهَ الشَّائِعَات.

أولاً: أثر الإشاعة من السوء بمكان وذلك على الفرد والأسرة والمجتمع فكم من أسر تفكَّكتْ من جرَّاء هذه الإشاعات، وكم من بيوت هدِّمت، وكم من أموال ضيِّعت، وأطفال شرِّدت؛ كل ذلك من أجل إشاعة من مُنافق أو كذَّاب.

وقد أوضح الإسلام من خلال الآيات الكريمات هذا الأثر فنجد من تتبعنا لحادثة الإفك، ونرى كيف أثَّرت الإشاعة على أفضل وأكرم أسرة على وجه الأرض؛ فهذا هو النبي صلى الله عليه وسلم يَدخُل على عائشة رضي الله عنها ويقول لها: «أما بعد؛ فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيُبرِّئك الله تعالى، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله تعالى وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه»، وهذا أبو بكر رضي الله عنه يَفيض الألم على لسانه، وهو الصابر المحتسب القوي على الألم، فيقول: "والله ما رُمينا بهذا في جاهلية، أفنرضى به في الإسلام؟".

وهي كلمة تَحمل من المرارة ما تحمل، حتى إذا قالت له ابنته المريضة المُعذَّبة: أجبْ عني رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال في مرارة هامدة: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه أم رومان زوج الصدِّيق رضي الله عنهما وهي تتماسَك أمام ابنتها المَفجوعة في كل شيء، فتقول لها: يا بُنيَّة، هوِّني على نفسك الشان؛ فوالله لقلَّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يُحبُّها ولها ضَرائر إلا أكثرْنَ عليها، فتقول لها عائشة: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقول كما قال زوجها من قبل: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم وها هو صلى الله عليه وسلم يَنثقل عليه العبْء وحدَه، فيَبعث إلى أسامة بن زيد؛ حِبِّه القريب إلى قلبه، ويَبعث إلى عليِّ بن أبي طالب؛ ابن عمِّه وسنَده؛ يَستشيرهما في خاصَّة أمره، هكذا وصل الحال بأكرم أسرة على وجه الأرض؛ جرَّاء هذه الإشاعات المُغرضة، والافتراءات الكاذبة.

تؤثِّر على العلاقات والوشائج بين أفراد المجتمع الواحد:

فها هو المجتمع المسلم المتماسك ينقسم على نفسه وكادت أن تحدث الفتنة بين الأوس والخزرج بسبب عرض الصحابة من الأوس تأديب من قال بالإفك من المنافقين وعلى رأسهم رأس المنافقين عبدالله ابن أبي بن سلول لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعظهم وهو المصاب في نفسه وأهله ومنع الفتنة من وقوعها، وكذلك أثرت على علاقة الرحم التي كانت بين مسطح رضي الله عنه وكان من أرحام أبي بكر وممن يحسن إليه الصديق رضي الله، وقد خاض مسطح مع من خاض.

لذا فما كان لمثل هذه الظاهرة أن يهملها ديننا الذي يربي الناس على كل خير وطيب، وقد عالج الإسلام هذه الظاهرة من خلال هذه الآيات على خطوتين:

أولاهما: خطوة الدليل الباطني.

الثانية: طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي.

١- أما خطوة الدليل الباطني وذلك بتحديد هؤلاء المغرضين الناشرين للشائعات وأهدافهم، ثم بتطمين المؤمنين وتسليتهم ممن أصابهم الأذى بسبب هذه الشائعات، وأن ذلك رفعة لدرجاتهم، ثم تعليم المؤمنين وإرشادهم بما يجب عليهم تجاه الشائعات وقد وجدنا سلوك القرآن نحو تحقيق ذلك ما يلي:

اللَّه تَعَالَى الآيَات بِدَمْغ الرَّامِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا بِالْكَذِب، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ وَالإِفْكُ هُوَ الْكَذِبُ الْمبالغ فِيهِ، وَأَصْلُهُ الأَفْكُ، وَهُوَ الْقَلْبُ، لأَنَّهُ قَوْلٌ مَأْفُوكٌ عَنْ وَجْهه، لأَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا كَانَتْ تَسْتَحِقُّ الثَّنَاءَ لِمَا كَانَتْ عَلَيْه مِنَ الْحَصَانَة وَالشَّرَف، فَمَنْ رَمَاهَا بِالسُّوءِ قَلَبَ الأَمْرَ عَنْ وَجْهه. (التفسير الكبير(٢٣/١٧٣) ومعالم التنزيل (٤/١٨١)).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «عُصْبَةٌ مِنْكُمْ» أَيْ: جَمَاعَةٌ ذَاتُ هَدَف وَاحد، وَلَمْ يَكُنْ عَبْدُ اللَّه بْنُ أُبَيٍّ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي أَطْلَقَ ذَلِكَ الإِفْكَ، إِنَّمَا هُوَ الَّذِي تَوَلَّى مُعْظَمَهُ، وَهُوَ يُمَثِّلُ عُصْبَةَ الْيَهُود أَوِ الْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ عَجَزُوا عَنْ حَرْب الإِسْلام جَهْرَةً فَتَوَارَوْا وَرَاءَ سِتَار الإِسْلام لِيَكِيدُوا لِلإِسْلام خُفْيَةً، وَكَانَ حَدِيثُ الإِفْك إِحْدَى مَكَائِدهمُ الْقَاتِلَة، ثُمَّ خُدِعَ فِيهِمُ الْمُسْلِمُونَ فَخَاضَ مِنْهُمْ مَنْ خَاضَ فِي حَدِيثِ الإِفْكِ، كَحَمْنَةَ

بِنْت جَحْش، وَحَسَّانَ بْن ثَابِت، وَمِسْطَح بْن أُثَاثَة، وَقَدْ بَدَأَ السِّيَاقُ بِبَيَان تِلْكَ الْحَقِيقَة لِيَكْشِف عَنْ ضَخَامَة الْحَادِث، وَعُمْق جُذُوره، وَمَا وَرَاءَهُ مِنْ عُصْبَة تَكِيد لِلإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ هَذَا الْكَيْد الدَّقِيق الْعَمِيق اللَّئِيم. ثُمَّ سَارَعَ بِتَطْمِينِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ عَاقِبَة هَذَا الْكَيْد، فَقَالَ تَعَالَى: «لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ».

وَالْخِطَابُ فِيهِ لِمَنْ سَاءَهُ ذَلِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَخَاصَّةً رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّم وَأَبِي بَكْر وَعَائِشَة وَصَفْوَانَ بْن الْمُعَطَّل رَضِيَ اللَّه عَنْه، وَمَعْنَى كَوْنِه خَيْرًا لَهُمْ أَنَّهُمْ اكْتَسَبُوا فِيهِ الثَّوَابَ الْعَظِيمَ، لأَنَّهُ كَانَ بَلاءً مُبِينًا، وَمِحْنَةً ظَاهِرَةً، وَأَنَّهُ نَزَلَتْ فِيهِ ثَمَانِي عَشْرَةَ آيَةً، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مُسْتَقِلَّةٌ بِمَا هُوَ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِ رَسُولِ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّم وَتَسْلِيَةٌ لَهُ، وَتَنْزِيهٌ لأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا، وَتَطْهِيرٌ لأَهْلِ الْبَيْت، وَتَهْوِيلٌ لِمَنْ تَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ، أَوْ سَمِعَ بِهِ فَلَمْ تُمَجَّهُ أُذُنَاهُ، وَعِدَّةُ أَلْطَافٍ لِلْمُسْلِمِينَ وَالتَّالِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة، وَفَوَائِدُ دِينِيَّةٌ، وَأَحْكَامٌ وَآدَابٌ لا تَخْفَى عَلَى مُتَأَمِّلِيهَا. (الكشاف: ٣/٦٤و٦٥).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْم» أَيْ: لِكُلِّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّة، وَرَمَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا بِشَيْءٍ مِنَ الْفَاحِشَة، نَصِيبٌ عَظِيمٌ مِنَ الْعَذَاب، «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ» وَهُوَ عَبْدُ اللَّه بْنُ أُبَيِّ بْنُ سَلُول قَبَّحَهُ اللَّه وَلَعَنَهُ، «لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ» عَلَى ذَلِكَ. (ابن كثير: ٣/٢٧٢).

ثُمَّ تَوَجَّهَ اللَّه تَعَالَى بِالْخِطَابِ لِلْمُؤْمِنِينَ يُؤَدِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمْ وَيُرْشِدُهُمْ إِلَى مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ تِجَاهَ الشَّائِعَات، لأَنَّ الشَّائِعَاتِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْم لَمْ تَخْمُدْ، وَمُرَوِّجِي الشَّائِعَاتِ لا يَضْعُفُونَ، وَلا يَكِلُّونَ، وَلا يَمَلُّونَ، قَدْ يَقْصِدُونَ فَرْدًا مِنَ الأَفْرَاد، وَقَدْ يَقْصِدُونَ جَمَاعَةً مِنَ الْجَمَاعَات، وَهُمْ فِي الْحَقِيقَة إِنَّمَا يَقْصِدُونَ الْمُجْتَمَعَ الْمُسْلِمَ كُلَّه، وَالْمُجْتَمَعُ يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عَلَيْهِ وَأَخْطَرِهِمُ الْمُرَوِّجِينَ لِلشَّائِعَات، الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لا يَعْلَمُونَ، فَلَوْ أَنَّ النَّاسَ تَأَدَّبُوا بِمَا أَدَّبَهُمُ اللَّه بِهِ فِي هَذِهِ الآيَات لَمَاتَتِ الشَّائِعَاتُ فِي صُدُورِ أَهْلِهَا قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ أَلْسِنَتِهِمْ.

يَقُولُ اللَّه تَعَالَى: «لَوْلا» أَيْ هَلاَّ «إِذْ سَمِعْتُمُوهُ» أَيْ الإِفْك، «ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا» أَيْ: بِإِخْوَانِهِمْ لأَنَّ مِنَ الإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءُ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّه لِنَفْسِه، فَهَذِهِ الآيَةُ كَقَوْلِه تَعَالَى: «وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» (الحجرات: ١١)، وَقَوْلِه تَعَالَى: «وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» (النساء: ٢٩)، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مِنْ كَمَالِ الإِيمَانِ أَنْ يُنْزِلَ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ مَنْزِلَةَ نَفْسِه، فَمَا يُحِبُّهُ لِنَفْسِه يُحِبُّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَمَا يَكْرَهُهُ لِنَفْسِه يَكْرَهُهُ لِلْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ. وَكَمَا أَنَّ الْبَرِيءَ إِذَا سَمِعَ النَّاسَ يَتَّهِمُونَهُ يَتَعَجَّبُ مِنْ ذَلِكَ وَيُنْكِرُهُ، فَكَانَ الْوَاجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حِينَ اتُّهِمَتْ عَائِشَةُ وَصَفْوَانُ أَنْ يَظُنُّوا بِهِمَا خَيْرًا، وَأَنْ يُبَرِّئُوهُمَا بِمُجَرَّدِ إِحْسَانِ الظَّنِّ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي أَيُّوبَ خَالِد بْن زَيْد الأَنْصَارِيِّ وَامْرَأَتِه رَضِيَ اللَّه عَنْهما؛ كَمَا قَالَ الإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِيه عَنْ بَعْض رِجَال بَنِي النَّجَّار أَنَّ أَبَا أَيُّوبَ خَالِدَ بْنَ زَيْد الأَنْصَارِيَّ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ أُمُّ أَيُّوب رَضِيَ اللَّه عَنْهَا: يَا أَبَا أَيُّوب! أَمَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّاسُ فِي عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، وَذَلِكَ الْكَذِب، أَكُنْت فَاعِلَةً ذَلِكَ يَا أُمَّ أَيُّوب؟ قَالَتْ: لا وَاللَّه مَا كُنْتُ لأَفْعَلَه، قَالَ: فَعَائِشَةُ وَاللَّه خَيْرٌ مِنْك.

وَقَوْلُه: «وَقَالُوا» أَيْ: بِأَلْسِنَتِهِمْ «هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ» أَيْ: كَذِبٌ ظَاهِرٌ عَلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا، فَإِنَّ الَّذِي وَقَعَ لَمْ يَكُنْ رِيبَةً، وَذَلِكَ أَنَّهَا جَاءَتْ رَاكِبَةً جَهْرَةً عَلَى رَاحِلَة صَفْوَانَ بْن الْمُعَطَّل فِي وَقْت الظَّهِيرَة، وَالْجَيْشُ بِكَمَالِه يُشَاهِدُونَ ذَلِكَ، وَرَسُولُ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّم بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَلَوْ كَانَ الأَمْرُ فِيهِ رِيبَةٌ لَمْ يَكُنْ هَذَا فِيهِ جَهْرَةً، وَلا كَانَا يُقْدِمَانِ عَلَى مِثْل ذَلِكَ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَاد، بَلْ كَانَ هَذَا يَكُونُ لَوْ قُدِّرَ خُفْيَةً مَسْتُورًا، فَتَعَيَّنَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ أَهْلُ الإِفْك مِمَّا رَمَوْا بِهِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ الْكَذِبُ الْبَحْتُ، وَالزُّورُ وَالرُّعُونَةُ الْفَاحِشَةُ الْفَاجِرَةُ، وَالصَّفْقَةُ الْخَاسِرَةُ. (ابن كثير: ٣/٢٧٣).

هَذِه هِيَ الْخُطْوَةُ الأُولَى فِي الْمَنْهَجِ الَّذِي يَفْرِضُهُ الْقُرْآنُ لِمُوَاجَهَةِ الشَّائِعَات، خُطْوَةُ الدَّلِيلِ الْبَاطِنِيِّ الْوُجْدَانِيِّ.

وللحديث صلة في الحلقة القادمة إن شاء الله، نسأل الله أن يقينا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

صلى الله عليه وسلم

الحلقة الثامنة

إعداد د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: «مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ» **(محمد: ١٥)**.

لَمَّا فَرَغَ مِنْ تَوْصِيفِ حَالِ فَرِيقَيِ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، وَمِمَّا أُعِدَّ لِكُلَيْهِمَا، وَمِنْ إِعْلَانِ تَبَايُنِ حَالَيْهِمَا ثُنِّيَ الْعِنَانُ إِلَى بَيَانِ مَا فِي الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ، وَخُصَّ مِنْ ذَلِكَ بَيَانُ أَنْوَاعِ الْأَنْهَارِ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ مَوْقِعَ الْجُمْلَةِ كَانَ قَوْلُهُ: «مَثَلُ الْجَنَّةِ» مُبْتَدَأً مَحْذُوفَ الْخَبَرِ. وَالتَّقْدِيرُ: مَا سَيُوصَفُ أَوْ مَا سَيُتْلَى عَلَيْكُمْ، أَوْ مِمَّا يُتْلَى عَلَيْكُمْ.

«فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ» يَعْنِي غَيْرَ مُتَغَيِّرٍ، «طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ». أَيْ: بَلْ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ وَالْحَلَاوَةِ وَالدُّسُومَةِ، «وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ» أَيْ لَيْسَتْ كَرِيهَةَ الطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ كَخَمْرِ الدُّنْيَا، حَسَنَةَ الْمَنْظَرِ وَالطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ وَالْفِعْلِ، «لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ» (الصَّافَّات: ٤٧)، «لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ» (الْوَاقِعَة: ١٩)، «بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ» (الصَّافَّات: ٤٦). «وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى» أَيْ: وَهُوَ فِي غَايَةِ الصَّفَاءِ وَحُسْنِ اللَّوْنِ وَالطَّعْمِ وَالرِّيحِ. (تفسير القرآن العظيم: ٤/١٧٦).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ». (صحيح البخاري ٢٧٩٠)

وَعَنْ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَحْرَ الْمَاءِ، وَبَحْرَ الْعَسَلِ، وَبَحْرَ اللَّبَنِ، وَبَحْرَ الْخَمْرِ، ثُمَّ تُشَقَّقُ الْأَنْهَارُ بَعْدُ» (صحيح سنن الترمذي ٢٥٧١).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: «لَعَلَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ أُخْدُودٌ فِي الْأَرْضِ؟ لَا وَاللَّهِ، إِنَّهَا لَسَائِحَةٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، إِحْدَى حَافَتَيْهَا اللُّؤْلُؤُ، وَالْأُخْرَى الْيَاقُوتُ، وَطِينُهُ الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ. قَالَ: قُلْتُ: مَا الْأَذْفَرُ؟ قَالَ: الَّذِي لَا خَلْطَ فِيهِ» (صحيح الترغيب: ٣٧٢٣).

ومن أنهار الجنة نهر الكوثر:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «الْكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ، وَالْيَاقُوتِ تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ». (صحيح الترمذي: ٣٣٦١).

فلما ذكر سبحانه ألوان الشراب أتبعه بذكر ألوان الطعام، وَلَمَّا كَانَ الْأَكْلُ فِي الْجَنَّةِ

لِلَذَّة لَا لِلْحَاجَة ذَكَرَ الثِّمَارَ، فَإِنَّهَا تُؤْكَلُ لِلَذَّة بِخِلَافِ الْخُبْزِ وَاللَّحْمِ، فقال: «وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ»، وقال تعالى: « أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ » (الصافات: ٤١- ٤٢)، فسر الرزق المعلوم بالفواكه: وهي عبارة عمَّا يُؤكل لأجل التَّلذُّذ لا لأجل الحاجة، وَأَرْزَاقُ أَهْلِ الْجَنَّةِ كُلُّهَا فَوَاكِهُ لِأَنَّهُمْ مُسْتَغْنُونَ عَنْ حِفْظِ الصِّحَّةِ بِالْأَقْوَاتِ، فَإِنَّهُمْ أَجْسَامٌ مُحْكَمَةٌ مَخْلُوقَةٌ لِلْأَبَدِ، فَكُلُّ مَا يَأْكُلُونَهُ فَهُوَ عَلَى سَبِيلِ التَّلَذُّذِ. (الكشاف: ٤/ ٤٢).

وقد كثر في القرآن الكريم الحديث عن فواكه الجنة:

قال تعالى: « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ » (المرسلات: ٤١- ٤٢)، وقال تعالى: « هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ » (ص: ٤٩- ٥١)، وقال تعالى: « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (البقرة: ٢٥)، وقال تعالى: « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ » (يس: ٥٥- ٥٦).

عَنْ عُتْبَةَ بْنِ عَبْدٍ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: مَا حَوْضُكَ الَّذِي تَحَدَّثُ عَنْهُ؟ فَقَالَ: هُوَ كَمَا بَيْنَ صَنْعَاءَ إِلَى بُصْرَى، ثُمَّ يُمَدُّنِي اللَّهُ فِيهِ بِكِرَاعٍ، لَا يَدْرِي بَشَرٌ مِمَّنْ خُلِقَ أَيُّ طَرَفَيْهِ. فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! فِيهَا فَاكِهَةٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهَا شَجَرَةٌ تُدْعَى طُوبَى، هِيَ تُطَابِقُ الْفِرْدَوْسَ. فَقَالَ: أَيُّ شَجَرِ أَرْضِنَا تُشْبِهُ؟ قَالَ: لَيْسَ تُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ شَجَرِ أَرْضِكَ، وَلَكِنْ أَتَيْتَ الشَّامَ؟ قَالَ: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ: فَإِنَّهَا تُشْبِهُ شَجَرَةً بِالشَّامِ تُدْعَى (الْجَوْزَةَ)، تُنْبِتُ عَلَى سَاقٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَنْتَشِرُ أَغْلَاهَا. قَالَ: فَمَا عِظَمُ أَصْلِهَا؟ قَالَ: لَوْ ارْتَحَلَتْ جَذَعَةٌ مِنْ إِبِلِ أَهْلِكَ، لَمَا قَطَعَتْهَا حَتَّى تَنْكَسِرَ تَرْقُوَتُهَا هَرَمًا. قَالَ فِيهَا عِنَبٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَا عِظَمُ الْعُنْقُودِ مِنْهَا؟ قَالَ: مَسِيرَةُ شَهْرٍ لِلْغُرَابِ الْأَبْقَعِ، لَا يَقَعُ وَلَا يَنْثَنِي وَلَا يَفْتُرُ. قَالَ: فَمَا عِظَمُ الْحَبَّةِ مِنْهُ؟ قَالَ: هَلْ ذَبَحَ أَبُوكَ مِنْ غَنَمِهِ تَيْسًا عَظِيمًا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَسَلَخَ إِهَابَهُ، فَأَعْطَاهُ أُمَّكَ؟ فَقَالَ: اذْبُغِي هَذَا، ثُمَّ افْرِي لَنَا مِنْهُ دَنُوبًا نَرْوِي بِهِ مَاشِيَتَنَا؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّ تِلْكَ الْحَبَّةَ تُشْبِعُنِي وَأَهْلَ بَيْتِي؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: وَعَامَّةَ عَشِيرَتِكَ». (صحيح الترغيب: ٣٧٢٩).

ولذلك لَمَّا قَامَ صلى الله عليه وسلم لِصَلَاةِ الْكُسُوفِ عُرِضَتْ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ فَتَقَدَّمَ ثُمَّ تَأَخَّرَ، فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ! رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مُقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ، قَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ عُنْقُودًا، وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُم مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا». (صحيح البخاري ١٠٥٢).

وقوله تعالى: «وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ»: أَيْ: وَلَهُمْ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَغْفِرَةٌ عَظِيمَةٌ كَائِنَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ. وَتَنْكِيرُ مَغْفِرَةٌ لِلتَّعْظِيمِ. (فتح القدير للشوكاني ٥/ ٤٢).

وَقَدْ تَكُونُ الْمَغْفِرَةُ كِنَايَةً عَنِ الرِّضْوَانِ عَلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » (التوبة: ٧٢). (التحرير والتنوير: ٢٦/ ٩٧).

وقوله تعالى: «كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ»: أَيْ مَنْ كَانَ فِي هَذَا النَّعِيمِ «كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ» أَبَدًا «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ» (الحج: ٢٢)، «وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا» شديد الحر، تسعر عليه جَهَنَّمُ مُنْذُ خُلِقَتْ، إِذَا أُدْنِيَ منهم يشوي وجوههم ووقعت فروة رؤوسهم، فَإِذَا شَرِبُوهُ «فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ» فَخَرَجَتْ مِنْ أَدْبَارِهِمْ. (معالم التنزيل (٥/ ١٥٦) بزيادة).

وللحديث بقية إن شاء الله

الشائعات.. ومعاول هدم المجتمعات

الحلقة الثانية

إعداد د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فلقد تكلمنا في الحلقة السالفة عن تربية المسلم على حفظ قلبه ولسانه عن الخوض في نشر الشائعات والكذب وما لا يعنيه من الأخبار، لا سيما ما كان منها سببًا في الإضرار بالغير على مستوى الفرد والمجتمع؛ مما يترتب عليه من آثار تفكك المجتمعات وزعزعة استقرارها، مما قد يؤدي إلى تحطيم أمة بأسرها من جراء تحطيم لبناتها، وكان ذلك أغلبه من المستفاد من قصة حديث الإفك كما عرضها القرآن، وأسلفنا أن القرآن عالج ذلك من خلال خطوتين رئيستين:

الأولى: هي خطوة العلاج الباطني:

وقد اشتملت على تحديد هؤلاء المغرضين الناشرين للشائعات وأهدافهم، ثم بتطمين المؤمنين وتسليتهم ممن أصابهم الأذى بسبب هذه الشائعات وأن ذلك رفعة لدرجاتهم، ثم تعليم المؤمنين وإرشادهم بما يجب عليهم تجاه الشائعات.

والخطوة الثانية: طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي:

وفي هذه يعلمنا القرآن الكريم، قال تعالى: «لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ» (النور١٣)، وَهَذِهِ الْفِرْيَةُ الضَّخْمَةُ الَّتِي تَتَنَاوَلُ أَعْلَى الْمَقَامَاتِ، وَأَطْهَرَ الأَعْرَاضِ، مَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَمُرَّ هَكَذَا سَهْلَةً هَيِّنَةً، وَأَنْ تَشِيعَ هَكَذَا دُونَ تَثَبُّتٍ وَلاَ بَيِّنَةٍ، وَأَنْ تَتَقَاذَفَهَا الأَلْسِنَةُ وَتَلُوكَهَا الأَفْوَاهُ دُونَ شَاهِدٍ وَلاَ دَلِيلٍ: «لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ»: وَهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا، فَهُمْ إِذًا كَاذِبُونَ. كَاذِبُونَ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِي لاَ يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيْهِ، وَالَّذِي لاَ يَتَغَيَّرُ حُكْمُهُ، وَيَتَبَدَّلُ قَرَارُهُ، فَهِيَ الْوَصْمَةُ الثَّابِتَةُ الصَّادِقَةُ الدَّائِمَةُ الَّتِي لاَ بَرَاءَةَ لَهُمْ مِنْهَا، وَلاَ نَجَاةَ لَهُمْ مِنْ عُقْبَاهَا.

ثالثًا: وهي مرحلة تربوية أخرى قد تأتي في أعقاب العلاج بعدما اجتهد في صرف الشائعة يحاول بعد ذلك سد مثل هذه المنابع فأرشد إلى التربية على البعد عن ذلك ابتداء؛ وذلك من خلال وعظهم بتعريفهم علة التجرؤ على مثل هذه الأحاديث، وهو عدم معرفتهم بعاقبة مثل هذه الآثام والتعدي على حرمات الأنام، فَقَالَ تَعَالَى: «وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا» فَلِذَلِكَ أَقْدَمَ عَلَيْهِ مَنْ أَقْدَمَ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَابُوا مِنْهُ، وَتَطَهَّرُوا بَعْدَ ذَلِكَ. «وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ» وَلَوْ كَانَ مَا قُلْتُمْ فِي غَيْرِ عَائِشَةَ لَمَا كَانَ هَيِّنًا، فَكَيْفَ وَقَدْ قُلْتُمْ مَا قُلْتُمْ فِي أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَزَوْجَةِ النَّبِيِّ الأَمِينِ خَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، فَعَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ يُقَالَ فِي زَوْجَةِ نَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مَا قِيلَ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ. وَتَعَالَى يَغَارُ لِهَذَا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لاَ يُقَدِّرُ عَلَى زَوْجَةِ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ ذَلِكَ، حَاشَا وَكَلاَّ، وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَكَيْفَ يَكُونُ هَذَا فِي سَيِّدَةِ نِسَاءِ الأَنْبِيَاءِ وَزَوْجَةِ سَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ عَلَى الإِطْلاَقِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. (ابن كثير: ٣/٢٧٤).

وَفِي هَذَا الزَّجْرُ الْبَلِيغُ عَنْ تَعَاطِي بَعْضِ الذُّنُوبِ عَلَى وَجْهِ التَّهَاوُنِ بِهَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ لاَ يُفِيدُهُ حُسْبَانُهُ شَيْئًا، وَلاَ يُخَفِّفُ مِنْ عُقُوبَتِهِ، بَلْ يُضَاعِفُ الذَّنْبَ، وَيُسَهِّلُ عَلَيْهِ مُوَاقَعَتَهُ مَرَّةً أُخْرَى. (تيسير الكريم الرحمن: ٣٩٨/٥).

وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم حَذَّرَ أُمَّتَهُ مِنَ التَّهَاوُنِ بِالذُّنُوبِ فَقَالَ: "إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ، كَرَجُلٍ كَانَ بِأَرْضٍ فَلاَةٍ فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا مِنْ ذَلِكَ سَوَادًا وَأَجَّجُوا نَارًا فَأَنْضَجُوا مَا فِيهَا" (صحيح ابن ماجه: ٢٦٨٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ الْمَشْرِقِ" (صحيح البخاري: ٦٤٧٨).

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ مِنْ سَيِّئَاتِكَ حَقِيرٌ فَلَعَلَّهُ عِنْدَ اللهِ نَخْلَةٌ وَهُوَ عِنْدَكَ نَقِيرٌ. وَجَزِعَ بَعْضُهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ، فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: أَخَافُ ذَنْبًا لَمْ يَكُنْ مِنِّي عَلَى بَالٍ وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ. (الكشاف ٦٦/٣).

هذا وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ»، أَيْ هَلاَّ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا. وَإِنَّمَا وَجَبَ عَلَيْهِمُ الامْتِنَاعُ مِنْهُ لِوُجُوهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْمُقْتَضِيَ لِكَوْنِهِمْ تَارِكِينَ لِهَذَا الْفِعْلِ قَائِمٌ، وَهُوَ الْعَقْلُ وَالدِّينُ، وَلَمْ يُوجَدْ مَا يُعَارِضُهُ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ ظَنُّ كَوْنِهِمْ تَارِكِينَ لِلْمَعْصِيَةِ أَقْوَى مِنْ ظَنِّ كَوْنِهِمْ فَاعِلِينَ لَهَا، فَلَوْ أَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ صُدُورِ الْمَعْصِيَةِ لَكَانَ قَدْ رَجَّحَ الْمَرْجُوحَ عَلَى الرَّاجِحِ وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ.

ثَانِيهَا: وَهُوَ أَنَّهُ مُتَضَمِّنٌ إِيذَاءَ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم وَذَلِكَ سَبَبٌ لِلَّعْنِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» (الأحزاب: ٥٧).

ثَالِثُهَا: أَنَّهُ سَبَبٌ لإِيذَاءِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَإِيذَاءِ أَبَوَيْهَا وَمَنْ يَتَّصِلُ بِهِمْ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ عُرِفَ إِقْدَامُهُمْ عَلَيْهِ، وَلاَ جِنَايَةٍ عُرِفَ صُدُورُهَا عَنْهُمْ، وَذَلِكَ حَرَامٌ.

رَابِعُهَا: أَنَّهُ إِقْدَامٌ عَلَى مَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ سَبَبًا لِلضَّرَرِ مَعَ الاسْتِغْنَاءِ عَنْهُ، وَالْعَقْلُ يَقْتَضِي التَّبَاعُدَ عَنْهُ، لأَنَّ الْقَاذِفَ بِتَقْدِيرِ كَوْنِهِ صَادِقًا لاَ يَسْتَحِقُّ الثَّوَابَ عَلَى صِدْقِهِ، بَلْ يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ لأَنَّهُ أَشَاعَ الْفَاحِشَةَ، وَبِتَقْدِيرِ كَوْنِهِ كَاذِبًا فَإِنَّهُ يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ الْعَظِيمَ، وَمِثْلُ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِي صَرِيحُ الْعَقْلِ الاحْتِرَازَ عَنْهُ.

خَامِسُهَا: أَنَّهُ تَضْيِيعٌ لِلْوَقْتِ بِمَا لاَ فَائِدَةَ فِيهِ، وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "مِنْ حُسْنِ إِسْلاَمِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ" (صحيح الترمذي: ٢٣١٧).

فَهَذِهِ الْوُجُوهُ تُوجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنَّهُ إِذَا سَمِعَ الْقَذْفَ أَنْ يَسْكُتَ عَنْهُ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي الاحْتِرَازِ عَنِ الْوُقُوعِ فِيهِ. (التفسير الكبير: ١٨١/٢٣).

وَأَنْ يَقُولَ عِنْدَ سَمَاعِهِ: «سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ»، وَالْمَقْصُودُ مِنَ التَّسْبِيحِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ إِعْظَامُ نِسْبَةِ السُّوءِ إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَتَحْقِيقُ بَرَاءَتِهَا، وَكَأَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِهَا يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ: التَّنْزِيهُ وَالْبَرَاءَةُ للهِ مِنْ أَنْ يُجْرِيَ ذَلِكَ عَلَى مِثْلِ عَائِشَةَ، وَأَنْ يُوقِعَهُ فِي الْوُجُودِ. (المفهم: ٣٧٧/٧).

وَجُمْلَةُ «هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ» تَعْلِيلٌ لِجُمْلَةِ «مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا»، فَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي تَوْبِيخِ الْمَقُولِ لَهُمْ. وَوَصْفُ الْبُهْتَانِ بِأَنَّهُ عَظِيمٌ مَعْنَاهُ أَنَّهُ عَظِيمٌ فِي وُقُوعِهِ، أَيْ بَالِغٌ فِي كُنْهِ الْبُهْتَانِ مَبْلَغًا قَوِيًّا. وَإِنَّمَا كَانَ عَظِيمًا لأَنَّهُ مُشْتَمِلٌ عَلَى مُنْكَرَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَهِيَ الْكَذِبُ، وَكَوْنُ الْكَذِبِ يَطْعَنُ فِي سَلاَمَةِ

الْعِرْض، وَكَوْنُهُ يُسَبِّبُ إِحَنًا عَظِيمَةً بَيْنَ الْمُفْتَرِينَ وَالْمُفْتَرَى عَلَيْهِمْ بِدُونِ عُذْرٍ، وَكَوْنُ الْمُفْتَرَى عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ مِنْ أَزْوَاجٍ وَآبَاءٍ وَقَرَابَاتٍ، وَأَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ اجْتِرَاءٌ عَلَى مَقَامِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَمَقَامِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. (التحرير والتنوير: ١٨/١٨١).

وهكذا نَهَى اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْجَرْيِ وَرَاءَ الشَّائِعَاتِ، وَأَمَرَهُمْ بِالتَّثَبُّتِ مِنْ صِحَّةِ الأَخْبَارِ الَّتِي تُنْقَلُ إِلَيْهِمْ، فَلَيْسَ كُلُّ مَا يُنْقَلُ صَحِيحًا، وَلَيْسَ كُلُّ مَا يُقَالُ صِدْقًا، وَإِنَّ أَعْدَاءَكُمْ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمُ الدَّوَائِرَ، وَالوَاجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا يَقِظِينَ أَبَدًا، حَتَّى تَعْلَمُوا مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُثِيرَ فِيكُمُ الْقَلَاقِلَ، وَيُذِيعَ فِيكُمُ الشَّائِعَاتِ الَّتِي لَا أَسَاسَ لَهَا مِنَ الصِّحَّةِ. فَكَمْ مِنْ فِتْنَةٍ حَدَثَتْ بِسَبَبِ خَبَرٍ كَاذِبٍ، نَقَلَهُ فَاسِقٌ فَاجِرٌ، وَكَمْ مِنْ دِمَاءٍ أُرِيقَتْ، وَأَرْوَاحٍ أُزْهِقَتْ، بِسَبَبِ أَخْبَارٍ كَاذِبَةٍ لَا أَسَاسَ لَهَا مِنَ الصِّحَّةِ، اخْتَلَقَهَا أَعْدَاءُ الإِسْلَامِ، وَأَعْدَاءُ هَذِهِ الأُمَّةِ، لِيَقْضُوا بِتِلْكَ الأَخْبَارِ الْكَاذِبَةِ عَلَى وِحْدَةِ الأُمَّةِ، وَيُمَزِّقُوا شَمْلَهَا، وَيُثِيرُوا فِيهَا الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ. كَمْ فُرِّقَ بَيْنَ أَخَوَيْنِ بِأَخْبَارٍ كَاذِبَةٍ؟ كَمْ فُرِّقَ بَيْنَ زَوْجَيْنِ بِأَخْبَارٍ كَاذِبَةٍ؟ كَمْ تَحَارَبَتْ قَبَائِلُ وَأُمَمٌ لأَخْبَارٍ كَاذِبَةٍ؟.

وَاللهُ سُبْحَانَهُ، اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ، يَضَعُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ التَّشْرِيعِيَّةَ، لِصِيَانَةِ الْمُجْتَمَعِ مِنَ التَّمَزُّقِ، وَصِيَانَتِهِ مِنَ التَّفَرُّقِ، وَصِيَانَتِهِ مِنْ أَنْ تَشْتَعِلَ فِيهِ نَارُ الْفِتْنَةِ فَلَا تُطْفَأُ أَبَدًا.

وَمِمَّا يُؤْسَفُ لَهُ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُ مُجْتَمَعٌ مِنْ مُجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ الْحَاقِدِينَ الْحَاسِدِينَ، الَّذِينَ لَا يَرُوقُ لَهُمْ أَنْ يَرَوُا الْمُجْتَمَعَ الْمُسْلِمَ مُتَآلِفًا، مُتَآخِيًا، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَإِذَا اشْتَكَى أَدْنَاهُمْ اشْتَكَى لَهُ أَقْصَاهُمْ.

إِنَّ مِمَّا يُؤْسَفُ لَهُ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُ مُجْتَمَعٌ مِنْ مُجْتَمَعَاتِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الْحَاقِدِينَ الْحَاسِدِينَ، الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُمَزِّقُوا شَمْلَ الأُمَّةِ وَيُفَرِّقُوا جَمْعَهَا، وَيُشْعِلُوا نَارَ الْفِتْنَةِ حَتَّى يَسْتَطِيعُوا التَّغَلُّبَ عَلَيْهَا. وَالوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ، وَأَنْ يَنْتَبِهُوا لأَعْدَائِهِمْ، وَأَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ أَعْدَاءَهُمْ يَسْهَرُونَ اللَّيْلَ لِلتَّخْطِيطِ وَالْكَيْدِ لَهُمْ، فَعَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَكُونُوا دَائِمًا عَلَى حَذَرٍ، حَتَّى يَعْلَمُوا مِنْ أَيْنَ تَأْتِيهِمُ الشَّحْنَاءُ، وَكَيْفَ تُثَارُ فِيهِمُ الْبَغْضَاءُ.

نداء لأهل الإيمان:

إِنَّ وُجُودَ الْمُنَافِقِينَ فِي الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ يُشَكِّلُ خَطَرًا كَبِيرًا، وَلَكِنْ أَخْطَرُ مِنْ هَذَا الْخَطَرِ وُجُودُ أُنَاسٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ يَجْرُونَ وَرَاءَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ يَتَقَبَّلُونَ مِنْهُمْ كُلَّ مَا يُمْلُونَهُ عَلَيْهِمْ، وَيَفْتَحُونَ آذَانَهُمْ لِكُلِّ مَا يُحَدِّثُونَهُمْ بِهِ، وَيَجْرُونَ وَرَاءَهُمْ فِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، يُقَلِّدُونَهُمْ فِي الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ، غَيْرَ مُبَالِينَ بِمَا يَجُرُّونَهُ لأُمَّتِهِمْ بِسَبَبِ جَرْيِهِمْ وَرَاءَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ

قال ابن القيم: "ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنا والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرَّم وغير ذلك ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه!! حتى يرى الرجل يُشار إليه بالدين والزهد والعبادة وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يُلقي لها بالاً ينزل منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل مُتورِّع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات لا يبالي ما يقول!!!" (الجواب الكافي: ٥٤)

وعليه فإننا نذكر أنفسنا وأهل الإيمان: يا أيها المسلمون: الله الله في دينكم وأنفسكم وإخوانكم ومجتمعكم وأمتكم واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله.

والحمد لله رب العالمين.

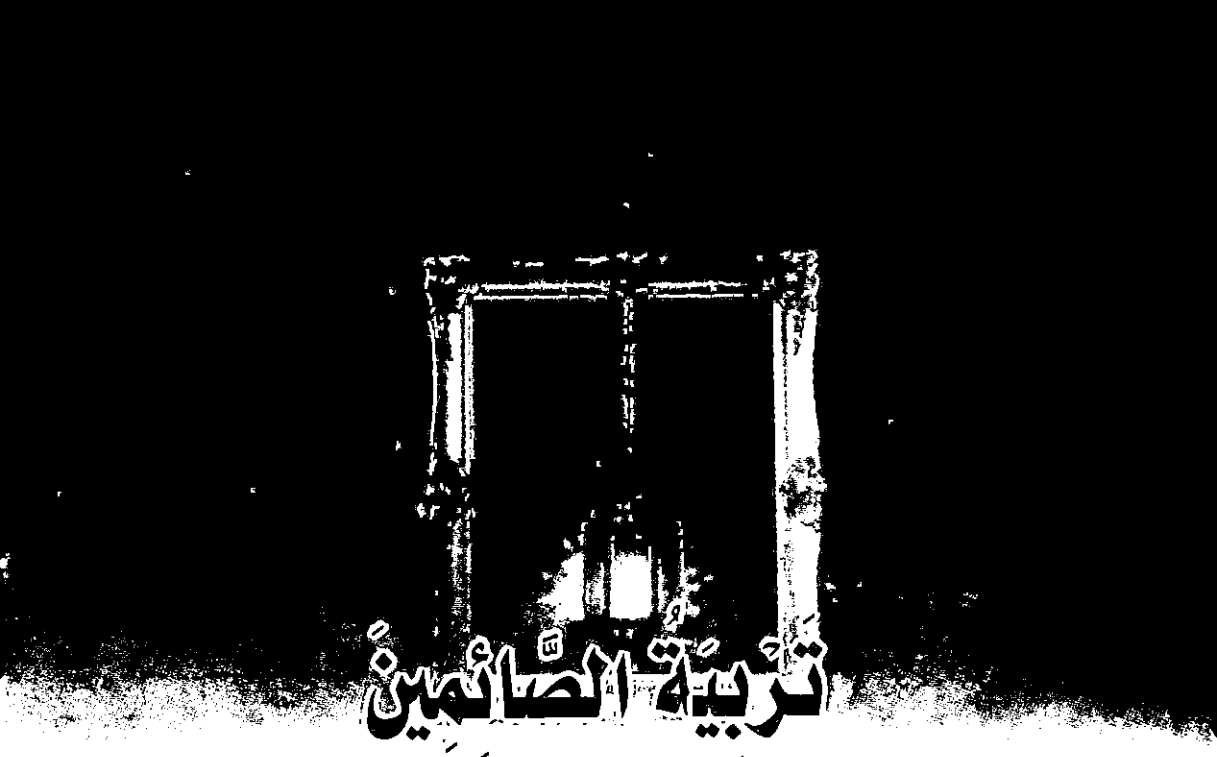

تربية الصائمين

على استشعار معية الله رب العالمين

د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللَّهُ عز وجل: إِلاَّ الصَّوْمَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ». (مسلم: ١١٥١).

قَالَ ابْنُ القَيِّم: «الصَّومُ هُوَ لِجَامُ الْمُتَّقِينَ، وَجُنَّةُ الْمُحَارِبِينَ، وَرِيَاضَةُ الأَبْرَارِ وَالْمُقَرَّبِينَ، وَهُوَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الأَعْمَالِ، فَإِنَّ الصَّائِمَ لاَ يَفْعَلُ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يَتْرُكُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ مِنْ أَجْلِ مَعْبُودِهِ، فَهُوَ تَرْكُ مَحْبُوبَاتِ النَّفْسِ وَتَلَذُّذَاتِهَا إِيثَارًا لِمَحَبَّةِ اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ، وَهُوَ سِرٌّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ لاَ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ سِوَاهُ، وَالْعِبَادُ قَدْ يَطَّلِعُونَ مِنْهُ عَلَى تَرْكِ الْمُفْطِرَاتِ الظَّاهِرَةِ، وَأَمَّا كَوْنُهُ تَرَكَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ مِنْ أَجْلِ مَعْبُودِهِ، فَهُوَ أَمْرٌ لاَ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ بَشَرٌ، وَذَلِكَ حَقِيقَةُ الصَّوْمِ.

وَلِلصَّوْمِ تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي حِفْظِ الْجَوَارِحِ الظَّاهِرَةِ وَالْقُوَى الْبَاطِنَةِ، وَحِمْيَتِهَا عَنِ التَّخْلِيطِ الْجَالِبِ لَهَا الْمَوَادَّ الْفَاسِدَةَ الَّتِي إِذَا اسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا أَفْسَدَتْهَا، وَاسْتِفْرَاغِ الْمَوَادِّ الرَّدِيئَةِ الْمَانِعَةِ لَهَا مِنْ صِحَّتِهَا، فَالصَّوْمُ يَحْفَظُ عَلَى الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ صِحَّتَهَا، وَيُعِيدُ إِلَيْهَا مَا اسْتَلَبَتْهُ مِنْهَا أَيْدِي الشَّهَوَاتِ، فَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْعَوْنِ عَلَى التَّقْوَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٣). (زاد المعاد (٢/٢٧و٢٨)).

فَهَذِهِ هِيَ فَائِدَةُ الصِّيَامِ الْكُبْرَى وَحِكْمَتُهُ الْعُلْيَا، وَهُوَ أَنَّهُ يُعِدُّ نَفْسَ الصَّائِمِ لِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى بِتَرْكِ شَهَوَاتِهِ الطَّبِيعِيَّةِ الْمُبَاحَةِ الْمَيْسُورَةِ امْتِثَالاً لأَمْرِهِ وَاحْتِسَابًا لِلأَجْرِ عِنْدَهُ، فَتَتَرَبَّى بِذَلِكَ إِرَادَتُهُ عَلَى مَلَكَةِ تَرْكِ الشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَالصَّبْرِ عَنْهَا فَيَكُونُ اجْتِنَابُهَا أَيْسَرَ

عَلَيْه، وَتَقْوَى عَلَى النُّهُوض بالطَّاعَات وَالْمَصَالح وَالاضْطِبَار عَلَيْهَا فَيَكُونُ الثَّبَاتُ عَلَيْهَا أَهْوَنَ عَلَيْه، فَلَيْسَ الصِّيَامُ فِي الإِسْلاَم لِتَعْذِيبِ النَّفْسِ لِذَاتِه بَلْ لِتَرْبِيَتِهَا وَتَزْكِيَتِهَا.

وَإِعْدَادُ الصِّيَام نُفُوسَ الصَّائِمِينَ لِتَقْوَى اللهِ تَعَالَى يَظْهَرُ مِنْ وُجُوه كَثِيرَة أَعْظَمُهَا شَأْنًا، وَأَنْصَعُهَا بُرْهَانًا وَأَظْهَرُهَا أَثَرًا، وَأَعْلاَهَا خَطَرًا- شَرَفًا- أَنَّهُ أَمْرٌ مَوْكُولٌ إِلَى نَفْس الصَّائم لاَ رَقِيبَ عَلَيْه فِيه إِلاَّ اللهُ تَعَالَى، وَسِرٌّ بَيْنَ الْعَبْد وَرَبِّه لاَ يُشْرِفُ عَلَيْه أَحَدٌ غَيْرُهُ سُبْحَانَهُ، فَإِذَا تَرَكَ الإِنْسَانُ شَهَوَاتِه وَلَذَّاتِه الَّتِي تَعْرِضُ لَهُ فِي عَامَّة الأَوْقَات لِمُجَرَّد الامْتِثَال لأَمْر رَبِّه وَالْخُضُوع لإِرْشَاد دِينِه مُدَّةَ شَهْر كَامِل فِي السَّنَة، مُلاَحِظًا عِنْدَ عُرُوض كُلِّ رَغِيبَة لَهُ- مِنْ أَكْل نَفِيس، وَشَرَاب عَذْب، وَفَاكِهَة يَانِعَة، وَغَيْر ذَلِكَ كَزِينَة زَوْجَة أَوْ جَمَالِهَا الدَّاعِي إِلَى مُلاَبَسَتِهَا- أَنَّهُ لَوْلاَ اطِّلاَعُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْه وَمُرَاقَبَتُهُ لَهُ لَمَا صَبَرَ عَنْ تَنَاوُلِهَا وَهُوَ فِي أَشَدِّ التَّوْقِ لَهَا، لاَ جَرَمَ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ مِنْ تَكْرَار هَذِه الْمُلاَحَظَة الْمَصَاحِبَة لِلْعَمَلِ مَلَكَةُ الْمُرَاقَبَة لِلَّهِ تَعَالَى وَالْحَيَاء مِنْهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَرَاهُ حَيْثُ نَهَاهُ، وَفِي هَذِه الْمُرَاقَبَة مِنْ كَمَال الإِيمَان بِاللهِ تَعَالَى وَالاسْتِغْرَاق فِي تَعْظِيمِه وَتَقْدِيسِه أَكْبَرُ مُعِدٍّ لِلنُّفُوس وَمُؤَهِّل لَهَا لِضَبْط النَّفْس وَنَزَاهَتِهَا فِي الدُّنْيَا، وَلِسَعَادَتِهَا فِي الآخِرَة. (تفسير المنار (١١٦/٢)).

وَهَذَا مَا يُعَبَّرُ عَنْهُ بِـ(خَشْيَة الرَّحْمَن بِالْغَيْب)، فَالصَّائِمُ يَدَعُ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَشَهْوَتَهُ- وَإِنْ كَانَ وَحْدَهُ- مِنْ أَجْل اللهِ، الَّذِي آمَنَ بِأَنَّهُ مَعَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». (الحديد: ٤)، وَلِذَلِكَ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى (خَشْيَة الرَّحْمَن بِالْغَيْب)، مِنْ صِفَات الْمُتَّقِينَ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ» (ق: ٢١- ٢٣)،

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ» أَيْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَرَاهُمْ أَحَدٌ، قَالَهُ الزَّجَّاجُ. وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ: يَخَافُونَهُ إِذَا غَابُوا عَنْ أَعْيُنِ النَّاس كَخَوْفِهِمْ لَهُ إِذَا كَانُوا بَيْنَ النَّاس. وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ يَعْنِي فِي الْخَلْوَة حِينَ لاَ يَرَاهُ أَحَدٌ. وَقَالَ الْحَسَنُ: إِذَا أَرْخَى السُّتُورَ وَأَغْلَقَ الْبَابَ. كَمَا فَعَلَ يُوسُفُ عليه السلام: «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» (يُوسُف: ٢٣).

وَقَيَّدَ الْخَشْيَةَ بِالْغَيْب لأَنَّهَا الْمَعْوَلُ عَلَيْهَا، دُونَ خَشْيَة الشَّهَادَة وَالْعَلاَنِيَة، لأَنَّ خَشْيَة الْعَلاَنِيَة دُونَ خَشْيَة الْغَيْب نِفَاقٌ وَرِيَاءٌ، تُحْبِطُ الأَعْمَالَ، وَتُبْطِلُ الأَجْرَ وَالثَّوَاب، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا» (النساء: ١٠٨)

قَالَ السَّعْدِيُّ: وَهَذَا مِنْ ضَعْف الإِيمَان، وَنُقْصَان الْيَقِين، أَنْ تَكُونَ مَخَافَةُ الْخَلْق عِنْدَهُمْ أَعْظَمَ مِنْ مَخَافَة اللهِ، فَيَحْرِصُونَ بِالطُّرُق الْمُبَاحَة وَالْمُحَرَّمَة عَلَى عَدَم الْفَضِيحَة عِنْدَ النَّاس، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ قَدْ بَارَزُوا اللهَ بِالْعَظَائِم، وَلَمْ يُبَالُوا بِنَظَرِه إِلَيْهِمْ، وَاطِّلاَعِه عَلَيْهِمْ، وَهُوَ مَعَهُمْ، عَالِمٌ بِهِمْ، مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ، لاَ يَخْفَى عَلَيْه خَافِ مِنْ سِرِّهِمْ. (تيسير الكريم الرحمن (١٥٤/٢)).

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: وَكَفَى بِهَذِه الآيَة نَاعِيَةً عَلَى النَّاس مَا هُمْ فِيه مِنْ قِلَّة الْحَيَاء وَالْخَشْيَة مِنْ رَبِّهِمْ، مَعَ عِلْمِهِمْ- إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ- أَنَّهُمْ فِي حَضْرَتِه، لاَ سُتْرَةً، وَلاَ غَفْلَةً، وَلاَ غَيْبَةً، وَلَيْسَ إِلاَّ الْكَشْفُ الصَّرِيحُ وَالافْتِضَاحُ، عَاجِلاً أَوْ آجِلاً. (الكشاف (١٩٧/١)).

قَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيُصِيبُ الذَّنْبَ فِي السِّرِّ فَيُصْبِحُ وَعَلَيْهِ مَذَلَّتُهُ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّ الْعَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ، ثُمَّ يَجِيءُ إِلَى إِخْوَانِه فَيَرَوْنَ أَثَرَ ذَلِكَ عَلَيْه. وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الأَدِلَّة الدَّالَّة عَلَى وُجُود الإِلَه الْحَقِّ، الْمُجَازِي بِذَرَّات الأَعْمَال فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَة، وَلاَ يَضِيعُ عِنْدَهُ عَمَلُ عَامِلٍ، وَلاَ يَنْفَعُ مِنْ قُدْرَتِه حِجَابٌ وَلاَ اسْتِتَارٌ،

فَالسَّعِيدُ مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ، فَإِنَّ مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ أَصْلَحَ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَلْقِ، وَمَنِ الْتَمَسَ مَحَامِدَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ ذَامًّا لَهُ.

وَعَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللهُ عزوجلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا! جَلِّهِمْ لَنَا! أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ! قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا». (صحيح سنن ابن ماجه:٣٤٢٣).

وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ» (صحيح سنن النسائي ١٣٠٤ و١٣٠٥).

وَكَانَ يُوصِي بِذَلِكَ أَصْحَابَهُ؛ فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ». (صحيح الترمذي ١٩٨٧)، أَيْ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ، حَيْثُ يَرَاكَ النَّاسُ وَحَيْثُ لاَ يَرَوْنَكَ.

وَهَذَا هُوَ السَّبَبُ الْمُوجِبُ لِخَشْيَةِ اللهِ فِي السِّرِّ. فَإِنَّ مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللهَ يَرَاهُ حَيْثُ كَانَ، وَأَنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ، وَسِرِّهِ وَعَلاَنِيَتِهِ، وَاسْتَحْضَرَ ذَلِكَ فِي خَلَوَاتِهِ، أَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ تَرْكَ الْمَعَاصِي فِي السِّرِّ. وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى الإِشَارَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

وَسُئِلَ الْجُنَيْدُ رَحِمَهُ اللهُ: بِمَ يُسْتَعَانُ عَلَى غَضِّ الْبَصَرِ؟ فَقَالَ: بِعِلْمِكَ أَنَّ نَظَرَ اللهِ إِلَيْكَ أَسْبَقُ مِنْ نَظَرِكَ إِلَى مَنْ تَنْظُرُ إِلَيْهَا.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المجادلة: ٧).

وَكَانَ السَّلَفُ رحمهم الله يَتَوَاصَوْنَ بِمَا وَصَاهُمْ بِهِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ لأَصْحَابِهِ: زَهَّدَنَا اللهُ وَإِيَّاكُمْ فِي الْحَرَامِ، زُهْدَ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ فِي الْخَلْوَةِ فَعَلِمَ أَنَّ اللهَ يَرَاهُ، فَتَرَكَهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ.

وَكَتَبَ ابْنُ السَّمَّاكِ رَحِمَهُ اللهُ الْوَاعِظُ إِلَى أَخٍ لَهُ يَقُولُ: أَمَّا بَعْدُ، أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي هُوَ نَجِيُّكَ فِي سَرِيرَتِكَ، وَرَقِيبُكَ فِي عَلاَنِيَتِكَ، فَاجْعَلِ اللهَ مِنْ بَالِكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَخَفِ اللهَ عَلَى قَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ، وَقُدْرَتِهِ عَلَيْكَ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ بِعَيْنِهِ، لَيْسَ تَخْرُجُ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى سُلْطَانِ غَيْرِهِ، وَلاَ مِنْ مُلْكِهِ إِلَى مُلْكِ غَيْرِهِ، فَلْيَطُلْ مِنْهُ حَذَرُكَ، وَلْيَكْثُرْ مِنْهُ وَجَلُكَ. وَالسَّلاَمُ. (جامع العلوم والحكم (١٤٠ و١٤١)).

وَكَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ يُرَبُّونَ صِبْيَانَهُمْ عَلَى اسْتِشْعَارِ مَعِيَّةِ اللهِ تعالى؛ قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التُّسْتَرِيُّ: كُنْتُ وَأَنَا ابْنُ ثَلاَثِ سِنِينَ أَقُومُ بِاللَّيْلِ فَأَنْظُرُ إِلَى صَلاَةِ خَالِي مُحَمَّدِ بْنِ سَوَّارٍ، فَقَالَ لِي يَوْمًا: أَلاَ تَذْكُرُ اللهَ الَّذِي خَلَقَكَ! فَقُلْتُ: كَيْفَ أَذْكُرُهُ؟ قَالَ: قُلْ بِقَلْبِكَ عِنْدَ تَقَلُّبِكَ فِي ثِيَابِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُحَرِّكَ بِهِ لِسَانَكَ: اللهُ مَعِي، اللهُ نَاظِرٌ إِلَيَّ، اللهُ شَاهِدِي، فَقُلْتُ ذَلِكَ لَيَالِيَ ثُمَّ أَعْلَمْتُهُ، فَقَالَ: قُلْ ذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ سَبْعَ مَرَّاتٍ، فَقُلْتُ ذَلِكَ لَيَالِيَ ثُمَّ أَعْلَمْتُهُ، فَقَالَ: قُلْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِحْدَى عَشْرَ مَرَّةً، فَقُلْتُهُ، فَوَقَعَ فِي قَلْبِي حَلاَوَتُهُ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَنَةٍ قَالَ لِي خَالِي: احْفَظْ مَا عَلَّمْتُكَ، وَدُمْ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ تَدْخُلَ الْقَبْرَ، فَإِنَّهُ يَنْفَعُكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَلَمْ أَزَلْ عَلَى ذَلِكَ سِنِينَ، فَوَجَدْتُ لِذَلِكَ حَلاَوَةً فِي سِرِّي، ثُمَّ قَالَ لِي خَالِي يَوْمًا: يَا سَهْلُ، مَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ، وَنَاظِرًا إِلَيْهِ، وَشَاهِدَهُ، أَيَعْصِيهِ؟ إِيَّاكَ وَالْمَعْصِيَةَ. (إحياء علوم الدين (٣/٧٤)).

فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَنَا خَشْيَتَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنِيَةِ، وَالْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ.

نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا، ويرزقنا الإنابة إليه. والحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سُورَةُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم

قال تعالى: « وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ »

(محمد: ١٦- ١٨).

الحلقة التاسعة

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

يقول تعالى: «ومنهم» أي: الكفار المنافقين «مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى» يا نبينا لا للتعلم والاسترشاد، ولا للقبول والانقياد، وإنما للإنكار والاستهزاء، والتماس الأخطاء، كما قال تعالى: « نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا » (الإسراء: ٤٧)، ولذلك قال تعالى: «حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» وهم الصحابة، وهذه تزكية من الله تعالى لأصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم بأنهم هم العلماء، وفي ضمن هذه التزكية دعوة لاتباعهم ولزوم جماعتهم، ولذلك ترجم البخاري في صحيحه: بَاب (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) وَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بِلُزُومِ الْجَمَاعَةِ وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ، وترجم أيضا: بَابُ (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ) وَهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ. (فتح الباري لابن حجر: ١٣/٣١٦).

فإذا كانت الجماعة هُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ، وكان الصحابة هم الذين أوتوا العلم بشهادة الله لهم، كانت الجماعة هي جماعتهم، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً. قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي». (صحيح جامع الترمذي: ٢٦٤١).

وعن الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ! فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ صلى اللَّه عليه وسلم: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ

بدعة ضلالة». (صحيح سنن أبي داود: ٣٨٥١).

فالله تعالى يقول عن المنافقين: «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا» أي قالوا على سبيل السخرية والاستهزاء بما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا» أي لم يقل شيئا، «إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا». قال تعالى: «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ».

يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين هذه صفتهم هم القوم الذين ختم الله على قلوبهم، فهم لا يهتدون للحق الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم، «واتبعوا أهواءهم» يقول: ورفضوا أمر الله، واتبعوا ما دعتهم إليه أنفسهم، فهم لا يرجعون مما هم عليه إلى حقيقة ولا برهان.

وسوى جل ثناؤه بين صفة هؤلاء المنافقين وبين المشركين في أن جميعهم إنما يتبعون فيما هم عليه من فراقهم دين الله الذي ابتعث به محمدا صلى الله عليه وسلم أهواءهم، فقال في هؤلاء المنافقين: «أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم».

وقال في أهل الكفر به من أهل الشرك، «فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (القصص: ٥٠)، واتباع الهوى سبب الختم على القلوب كما في هذه الآية وكما في قوله سبحانه: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ» (الجاثية: ٢٣).

وإذا ختم على القلب لم يخرج منه شرٌّ، ولم يدخله خير، فلا يهتدون سبيلا، كما قال تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا» (الكهف: ٥٧).

وقد صرَّح ربنا سبحانه وتعالى بأنه لا يختم على قلب العبد إلا بعد اختيار العبد الكفر والمعاصي بمحض إرادته، ومعاندته للحق وأهله، ونصرته للباطل وحزبه:

قال تعالى: «تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ» (الأعراف: ١٠١)، وقال تعالى: «الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» (غافر: ٣٥)، وقال تعالى: «كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (الروم: ٥٩)، وقال تعالى: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ» (يونس: ٧٤)، وقال تعالى: «فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» (النساء: ١٥٥)، وقال تعالى: «ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» (المنافقون: ٣).

قال تعالى: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ».

يقول تعالى ذكره: وأما الذين وفقهم الله لاتباع الحق، وشرح صدورهم للإيمان به وبرسوله صلى الله عليه وسلم من الذين استمعوا إليك يا نبينا، فإن ما تلوته عليهم، وسمعوه منك «زادهم هدى» يقول: زادهم الله بذلك إيمانا إلى

إيمانهم، وَبَيَانًا لِحَقِيقَةِ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَى الْبَيَانِ الَّذِي كَانَ عِنْدَهُمْ (جامع البيان: ٢٦/٥١)؛ كما قال تعالى: « وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا » (مريم: ٧٦)، وقال تعالى: « وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » (التوبة: ١٢٤)، وقال تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ » (يونس: ٩).

وهذا من فضائل الإيمان، ومن فضائله التوفيق لتقوى الله عز وجل، ولذلك قال سبحانه: «هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ» أي: وَفَّقَهُمْ لِلْعَمَلِ بما أمر الله به، وَهُوَ التَّقْوَى. (معالم التنزيل: ٥/١٥٦).

قال الله تعالى: «فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ»:

لم ينكر تعالى على الكافرين والمنافقين عدم إيمانهم واتباعهم الرسول صلى الله عليه وسلم وقد «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ » (القمر: ١) فيقول: «فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً» يَعْنِي الْكَافِرُونَ وَالْمُنَافِقُونَ لَا يَنْتَظِرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ، وَذَلِكَ لأَنَّ الْبَرَاهِينَ قَدْ صَحَّتْ، وَالأُمُورَ قَدِ اتَّضَحَتْ، وَهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا، فَلَا يُتَوَقَّعُ مِنْهُمُ الإِيمَانُ إِلَّا عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ. (التفسير الكبير: ٢٨/٦٠). وذلك حين « لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا» أي أمارات اقترابها، كقوله تبارك وتعالى: «هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ » (النجم: ٥٦-٥٧)، وكقوله جلت عظمته: «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ » (القمر: ١)، وقوله سبحانه وتعالى: «أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » (النحل: ١)، وَقَوْلِه جل وعلا: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ » (الأنبياء: ١).

ثم أخبر سبحانه أن إيمانهم يوم تقوم الساعة لا ينفعهم فقال: «فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ»، أي: فَكَيْفَ لِلْكَافِرِينَ بِالتَّذَكُّرِ إِذَا جَاءَتْهُمُ الْقِيَامَةُ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: « وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ » (سبأ: ٥٢). (تفسير القرآن العظيم: ٤/١٧٧).

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين الذي لا نبي بعده، والحاشر الذي يحشر الناس على عقبيه، فقد بيَّن صلى الله عليه وسلم أمارات الساعة وأشراطها بما لم يبينه نبي قبله، ومن جملتها:

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ فَقَالَ: «اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ فَيَغْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا» (صحيح البخاري ٣١٧٦).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ- وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ- حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ». (صحيح البخاري: ٧١٢١).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ رضي الله عنه قَالَ: اطَّلَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ: «مَا تَذَاكَرُونَ »؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ ». فَذَكَرَ الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صلى الله عليه وسلم، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ". (صحيح مسلم ٢٩٠١). وللوقوف على المزيد من أشراط الساعة مفصلة راجع كتابي: الأربعون المنبرية في أشراط الساعة والأمور الأخروية).

وللحديث بقية والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

قال تعالى: « فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ »

(محمد: ١٩).

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

أَيْ: إذا عَلِمْتَ أنَّ مَدارَ السعادة هُوَ التَّوْحيدُ والطَّاعَةُ، وَمَدارَ الشقاوة هُوَ الشِّرْكُ والعصيانُ، فاثْبُتْ عَلَى ما أنت عليه من العلم بالوحدانية والعمل بموجبه. (إرشاد العقل السليم: ٦/٨٩)

فمن علم بأن الله تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، علم بذلك أنه المنفرد بالألوهية، ولذلك قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ» (البقرة: ٢١- ٢٢).

عَنِ ابْنِ عَبَّاس: أَيْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ غَيْرَهُ مِنَ الْأَنْدَادِ الَّتِي لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا رَبَّ لَكُمْ يَرْزُقُكُمْ غَيْرُهُ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم من التوحيد هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ. (تفسير القرآن العظيم: ١/٥٧).

ومن علم بأن الله تعالى هو المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبته، والتأله له وحده لا شريك له. (تيسير الكريم الرحمن: ٧/٧٤).

ولذلك قال تعالى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ» (إبراهيم: ٣٢- ٣٤)، وقال تعالى: «وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» (العنكبوت: ١٦- ١٧).

وقوله تعالى: «وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ» أي مما يكون منه صلى الله عليه وسلم خلاف الأولى، وإلا فالأنبياء معصومون من كبائر الذنوب. وقد تكرر هذا الأمر له صلى الله عليه وسلم في مواضع:

قال تعالى: «إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا» (النساء: ١٠٥- ١٠٦)، وقال تعالى: «إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا» (النصر: ١- ٣).

ولقد استجاب صلى الله عليه وسلم لأمر ربه أحسن استجابة، وقام به خير قيام، فكان لسانه مشغولا دائما بالاستغفار:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «وَاللهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً» (صحيح البخاري ٦٣٠٧).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي المَجْلِسِ الوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». (صحيح سنن أبي داود ١٥٠٢).

وَعَنْ عَائِشَةَ- رضي الله عنها - قَالَتْ: مَا صَلَّى النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم صَلاَةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ» إِلاَّ يَقُولُ فِيهَا: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي». (صحيح البخاري ٤٩٦٧).

وقوله تعالى: «وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» أي واستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وهذا إكرامٌ من الله تعالى لهذه الأمة، حيثُ أمرَ نبيَّهم صلى الله عليه وسلم أنْ يستغفرَ لذنوبهم وهو الشفيعُ المُجابُ فيهم. (معالم التنزيل: ٥/١٥٨).

ومما لا شك فيه أنه صلى الله عليه وسلم كما امتثل أمر ربه له بالاستغفار لذنبه قد امتثل الأمر بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَرْجِسَ رضي الله عنه قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم وَأَكَلْتُ مَعَهُ خُبْزًا وَلَحْمًا- أَوْ قَالَ ثَرِيدًا - قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: أَسْتَغْفَرَ لَكَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم؟ قَالَ: نَعَمْ وَلَكَ. ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: «وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ». (صحيح مسلم ٢٣٤٦).

وقد رغب صلى الله عليه وسلم المؤمنين في استغفار بعضهم لبعض:

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَنِ اسْتَغْفَرَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ كَتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ حَسَنَةً». (أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٣/٢٣٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢١٣): إسناده جيد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٥٩٠٢).

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ»: يَقُولُ: فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مُتَصَرَّفَكُمْ فِيمَا تَتَصَرَّفُونَ فِيهِ فِي يَقَظَتِكُمْ مِنَ الأَعْمَالِ، وَمَثْوَاكُمْ إِذَا ثَوَيْتُمْ فِي مَضَاجِعِكُمْ لِلنَّوْمِ لَيْلاً، لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ مُجَازِيكُمْ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ. (جامع البيان: ٢٦/٥٤).

كما قال تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» (الأنعام: ٦٠)، وهذا كله يوجب أن يخشى ويتقى، وأن يستغفر ويسترحم. (الكشاف: ٤/٣٢٤).

وفي قوله تعالى: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» دلالة على أن العلم يستلزم العمل، حيث بدأ بالعلم وثنى بالعمل.

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ فَضْلِ الْعِلْمِ فَقَالَ: أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَهُ حِينَ بَدَأَ بِهِ: «فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ» (محمد: ١٩)، فَأَمَرَ بِالْعَمَلِ بَعْدَ الْعِلْمِ. وقال تعالى: «اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ» (الحديد: ٢٠)، ثم قال: «سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (الحديد: ٢١)، وقال تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ» (الأنفال: ٢٨)، ثم قال بعد: «فَاحْذَرُوهُمْ» (التغابن: ١٤). (الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٢٤٢).

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «الْعِلْمُ يَهْتِفُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ». وَقَالَ مَكْحُولٌ: «كَانَ رَجُلٌ يَسْأَلُ أَبَا الدَّرْدَاءِ. فَقَالَ لَهُ: كُلُّ مَا تَسْأَلُ عَنْهُ تَعْمَلُ بِهِ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَا تَصْنَعُ بِزِيَادَةِ حُجَّةِ اللَّهِ عَلَيْكَ». وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّمَا أَخَافُ أَنْ يُقَالَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَعَلِمْتَ أَوْ جَهِلْتَ؟ فَأَقُولُ: عَلِمْتُ. فَلَا تَبْقَى آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى آمِرَةٌ أَوْ زَاجِرَةٌ إِلَّا جَاءَتْنِي تَسْأَلُنِي فَرِيضَتَهَا، فَتَسْأَلُنِي الْآمِرَةُ هَلِ ائْتَمَرْتَ؟ وَالزَّاجِرَةُ هَلِ ازْدَجَرْتَ؟ فَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ». (جامع بيان العلم وفضله: ٢/٣).

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ». (صحيح الترغيب: ١٢٥).

وقد ذمَّ الله تعالى الذين يقولون ما لا يفعلون، فقال سبحانه: «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ» (الصف: ١-٣)، وقال تعالى: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (البقرة: ٤٤).

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ. قُلْتُ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا يَعْقِلُونَ». (أخرجه أحمد ١٢٢٣٢، وقال الهيثمي ٧/٢٧٦: رجاله رجال الصحيح. وأخرجه الضياء (٢٦٤٦) وقال: إسناده صحيح).

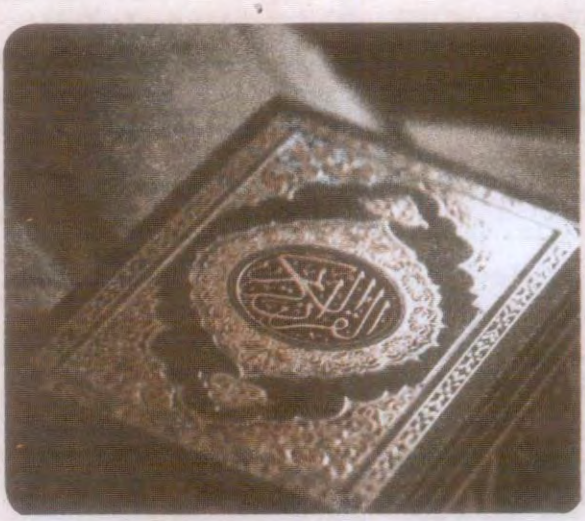

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

باب التفسير

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

الحلقة العاشرة

قال تعالى: «وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ »

(محمد: ٢٠- ٢٥).

لَمَّا بَيَّنَ اللَّهُ تعالى حَالَ الْمُنَافِقِ وَالْكَافِرِ وَالْمُهْتَدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اسْتِمَاعِ الآيَاتِ الْعِلْمِيَّةِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْحَشْرِ وَغَيرِهِما بِقَوْلِه: «وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ».

وقوله: «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ» بَيَّنَ حَالَهُمْ فِي الآيَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ كَانَ يَنْتَظِرُ وُرُودَهَا وَيَطْلُبُ تَنْزِيلَهَا، وَإِذَا تَأَخَّرَ عَنْهُ التَّكْلِيفُ كَانَ يَقُولُ: هَلَّا أُمِرْتُ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِبَادَةِ! خَوْفًا مِنْ أَنْ لَا يُؤَهَّلَ لَهَا، وَالْمُنَافِقُ إِذَا نَزَلَتِ السُّورَةُ أَوِ الآيَةُ وَفِيهَا تَكْلِيفٌ شَقَّ عَلَيْهِ، لِيُعْلَمَ تَبَايُنُ الْفَرِيقَيْنِ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، حَيْثُ لَا يَفْهَمُ الْمُنَافِقُ الْعِلْمَ، وَلَا يُرِيدُ الْعَمَلَ، وَالْمُؤْمِنُ يَعْلَمُ وَيُحِبُّ الْعَمَلَ. (التفسير الكبير ٢٨/٦٢)

وَ(لَوْلَا) حَرْفٌ مُسْتَعْمَلٌ هُنَا فِي التَّمَنِّي، وَأَصْلُ مَعْنَاهُ التَّحْضِيضُ، فَأُطْلِقَ وَأُرِيدَ بِهِ التَّمَنِّي، لِأَنَّ التَّمَنِّيَ يَسْتَلْزِمُ الْحِرْصَ، وَالْحِرْصُ يَدْعُو إِلَى التَّحْضِيضِ.

إعداد د. عبد العظيم بدوي

وَحُذِفَ وَصْفُ سُورَةٌ فِي حِكَايَةِ قَوْلِهِمْ: «لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ» لِدَلَالَةِ مَا بَعْدَهُ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِه: «وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ»، لِأَنَّ قَوْلَهُ: «فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ» أَيْ كَمَا تَمَنَّوْا، اقْتَضَى أَنَّ الْمَسْئُولَ سُورَةٌ يُشْرَعُ فِيهَا قِتَالُ الْمُشْرِكِينَ. فَالْمَعْنَى: لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ يُذْكَرُ فِيهَا الْقِتَالُ وَفَرْضُهُ، فَحُذِفَ الْوَصْفُ إِيجَازًا.

وَوَصْفُ السُّورَةِ بِـ«مُحْكَمَةٌ» بِاعْتِبَارِ وَصْفِ آيَاتِهَا بِالْإِحْكَامِ، أَيْ عَدَمِ التَّشَابُهِ وَانْتِفَاءِ الِاحْتِمَالِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مُقَابَلَةُ الْمُحْكَمَاتِ بِالْمُتَشَابِهَاتِ فِي قَوْلِه تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» (آل عمران: ٧)، أَيْ لَا تَحْتَمِلُ آيَاتُ تِلْكَ السُّورَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْقِتَالِ إِلَّا وُجُوبَ الْقِتَالِ وَعَدَمَ الْهَوَادَةِ فِيهِ، مِثْلُ قَوْلِه تعالى: «فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ»، فَلَا جَرَمَ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ

هِيَ الَّتِي نَزَلَتْ إِجَابَةً عَنْ تَمَنِّي الَّذِينَ آمَنُوا. وَإِنَّمَا قَالَ: «وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ» لِأَنَّ السُّورَةَ لَيْسَتْ كُلُّهَا مُتَمَحِّضَةً لِذِكْرِ الْقِتَالِ، فَإِنَّ سُوَرَ الْقُرْآنِ ذَوَاتُ أَغْرَاضٍ شَتَّى.

وَالْخِطَابُ فِي «رَأَيْتَ» لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لِأَنَّهُ لَا حَقَّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ» (التحرير والتنوير ٢٦/١٠٧و١٠٨).

و«الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» أَيِ الْمُنَافِقِينَ «يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ» شَزَرًا بِتَحْدِيقٍ شَدِيدٍ، كَرَاهِيَةَ مِنْهُمْ لِلْجِهَادِ، وَجُبْنًا عَنْ لِقَاءِ الْعَدُوِّ، «نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ» كَمَا يَنْظُرُ الشَّاخِصُ بَصَرُهُ عِنْدَ الْمَوْتِ، « فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ» (القيامة: ٣١-٣٥)؛ وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ فِي التَّهْدِيدِ (أَوْلَى لَكَ) أَيْ وَلِيَكَ وَقَارَبَكَ مَا تَكْرَهُ. (معالم التنزيل: ١٥٩/٥).

ثُمَّ قَالَ تعالى: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ»

قال الطبري: هَذَا خَبَرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ عَنْ قِيلِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزِلَ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَيُذْكَرَ فِيهَا الْقِتَالُ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ اللهَ مُفْتَرِضٌ عَلَيْكُمُ الْجِهَادَ، قَالُوا: سَمْعٌ وَطَاعَةٌ، فَقَالَ اللهُ عز وجل: «فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ» وَفُرِضَ الْقِتَالُ فِيهَا عَلَيْهِمْ شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَكَرِهُوهُ، وَالْمَعْنَى: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ» قَبْلَ وُجُوبِ الْفَرْضِ عَلَيْكُمْ، فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ كَرِهْتُمُوهُ وَشَقَّ عَلَيْكُمْ. (جامع البيان: ٢٦/٥٥).

وهذه الآية كقوله تعالى: « وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا» (النساء: ٨١)، وقوله تعالى: « وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ» (النور: ٥٢).

«فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ» أَيْ جَدَّ «فَلَوْ صَدَقُوا اللهَ» مَا وَعَدُوهُ قَبْلَ نُزُولِ السُّورَةِ بِالْقِتَالِ بِقَوْلِهِمْ إِذْ قِيلَ لَهُمْ: إِنَّ اللهَ سَيَأْمُرُكُمْ بِالْقِتَالِ طَاعَةً، فَوَفَوْا لَهُ بِذَلِكَ، «لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ» لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فِي عَاجِلِ دُنْيَاهُمْ، وَآجِلِ مَعَادِهِمْ. كما قال تعالى: « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا » (النساء: ٦٦- ٦٨).

قال تعالى: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ»:

الْخِطَابُ مُوَجَّهٌ إِلَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَلَى الِالْتِفَاتِ.

وَالِاسْتِفْهَامُ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّكْذِيبِ لِمَا سيعتذرون بِهِ لِانْخِذَالِهِمْ، وَلِذَلِكَ جِيءَ فِيهِ

بِـ (هَلْ) الدَّالَّةِ عَلَى التَّحْقِيقِ، لِأَنَّهَا فِي الِاسْتِفْهَامِ بِمَنْزِلَةِ (قَدْ) فِي الْخَبَرِ (التحرير والتنوير (٢٦/١١١و١١٢) بزيادة).

وَالْمَعْنَى: فَلَعَلَّكُمْ- أَيُّهَا الْقَوْمُ- إِنْ تَوَلَّيْتُمْ عَنْ تَنْزِيلِ اللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَفَارَقْتُمْ أَحْكَامَ كِتَابِهِ، وَأَدْبَرْتُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَعَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ «أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ» أي: أَنْ تَعْصُوا اللهَ فِي الْأَرْضِ، فَتَكْفُرُوا بِهِ، وَتَسْفِكُوا فِيهَا الدِّمَاءَ «وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ» أَيْ وَتَعُودُوا لِمَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ مِنَ التَّشَتُّتِ وَالتَّفَرُّقِ بَعْدَ مَا قَدْ جَمَعَكُمُ اللهُ بِالْإِسْلَامِ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ.

عَنْ قَتَادَةَ قال: كَيْفَ رَأَيْتُمُ الْقَوْمَ حِينَ تَوَلَّوْا عَنْ كِتَابِ اللهِ، أَلَمْ يَسْفِكُوا الدَّمَ الْحَرَامَ، وَقَطَعُوا الْأَرْحَامَ، وَعَصَوُا الرَّحْمَنَ؟!

لأنَّ الشَّرائعَ سُنَنٌ مَوْضُوعةٌ بَيْنَ العِبَاد، فإذَا تَمسَّكَ الخَلْقُ بِهَا زَالَ العُدْوَانُ، ولَزِمَ كُلَّ أحَد شَأنُهُ، فحُقِنَتِ الدِّمَاءُ، وسَكَنَتِ الفِتَنُ، وكَانَ فيه صَلاحُ الأرْضِ وصَلاحُ أهْلِهَا، أمَّا إذَا تَركُوا التَّمسُّكَ بالشَّرائعِ وأقْدَمَ كُلُّ أحَد عَلَى مَا يَهْوَاهُ لَزِمَ الهَرجُ والمَرجُ والاضْطرَابُ. (التفسير الكبير ٢/٧٣).

«أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ» يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَفْعَلُونَ هَذَا، يَعْنِي الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَيَقْطَعُونَ الأَرْحَامَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ، فَأَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، «فَأَصَمَّهُمْ» أي: فَسَلَبَهُمْ فَهْمَ مَا يَسْمَعُونَ بِآذَانِهِمْ مِنْ مَوَاعِظِ اللَّهِ فِي تَنْزِيلِهِ «وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ» أي: وَسَلَبَهُمْ عُقُولَهُمْ، فَلا يَتَبَيَّنُونَ حُجَجَ اللَّهِ، وَلا يَتَذَكَّرُونَ مَا يَرَوْنَ مِنْ عِبَرِهِ وَأَدِلَّتِهِ. (جامع البيان: ٢٦/٥٧).

وَفِي الآيَةِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ وَقَطِيعَةَ الأَرْحَامِ مِنْ شِعَارِ أَهْلِ الْكُفْرِ، فَهُمَا جُرْمَانِ كَبِيرَانِ يَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ اجْتِنَابُهُمَا. (انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/١٧٨و١٧٩).

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِطَاعَتِهِ، وَنَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ؛ لأَنَّ كُلَّ صَلاحٍ فِي الأَرْضِ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَعِبَادَتُهُ، وَطَاعَةُ رَسُولِهِ، وَكُلَّ شَرٍّ فِي الْعَالَمِ وَفِتْنَةٍ وَبَلاءٍ، وَقَحْطٍ، وَتَسْلِيطِ عَدُوٍّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ رَسُولِهِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

كما أمر الله تعالى بصلة الأرحام، وهُوَ الإِحْسَانُ إِلَى الأَقَارِبِ فِي الْمَقَالِ وَالأَفْعَالِ وَبَذْلِ الأَمْوَالِ، ونهى عن قطعها، وَقَدْ وَرَدَتِ الأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ وَالْحِسَانُ بِذَلِكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ طُرُقٍ عَدِيدَةٍ وَوُجُوهٍ كَثِيرَةٍ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ لَهَا: مَهْ! قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ! قَالَ: أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ! قَالَ: فَذَاكِ لَكِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ». (صحيح مسلم ٢٥٥٤).

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ» (صحيح البخاري ٥٩٨٩).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ رِزْقُهُ أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» (صحيح البخاري ٢٠٦٧).

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ». يَعْنِي قَاطِعَ رَحِمٍ. (صحيح البخاري ٥٩٨٤).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «لَيْسَ الْوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنِ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا». (صحيح البخاري ٥٩٩١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ! فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، وَلا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ». (صحيح مسلم ٢٥٥٨).

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

صلى الله عليه وسلم

الحلقة الحادية عشرة

قال تعالى: « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ » **(محمد: ٢٤- ٢٦).**

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

وَمَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ مِنَ التَّوْبِيخِ وَالْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ أَعْرَضَ عَنْ تَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ جَاءَ مُوَضَّحًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ:

قَالَ تَعَالَى: « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا » (النساء: ٨٢)، وقال تعالى: « كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ » (ص: ٢٩).

وَقَدْ ذَمَّ -جَلَّ وَعَلَا- الْمُعْرِضَ عَنْ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ:

قَالَ تَعَالَى: « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا » (الكهف: ٥٧)، وقال تعالى: « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ » (السجدة: ٢٢).

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يَشْتَغِلْ بِتَدَبُّرِ آيَاتِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ أَيْ تَصَفُّحِهَا وَتَفَهُّمِهَا، وَإِدْرَاكِ مَعَانِيهَا وَالْعَمَلِ بِهَا، فَإِنَّهُ مُعْرِضٌ عَنْهَا، غَيْرُ مُتَدَبِّرٍ لَهَا، فَيَسْتَحِقُّ الْإِنْكَارَ وَالتَّوْبِيخَ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَاتِ، إِنْ كَانَ اللهُ أَعْطَاهُ فَهْمًا يَقْدِرُ بِهِ عَلَى التَّدَبُّرِ، وَقَدْ شَكَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِلَى رَبِّهِ مِنْ هَجْرِ قَوْمِهِ هَذَا الْقُرْآنَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: « وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا » (الفرقان: ٣٠).

وَهَذِهِ الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ وَتَفَهُّمَهُ وَتَعَلُّمَهُ وَالْعَمَلَ بِهِ، أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ لِلْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنَّ الْمُشْتَغِلِينَ بِذَلِكَ هُمْ خَيْرُ النَّاسِ؛ فَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله

عنه أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» (صحيح البخاري ٥٠٢٧)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ» (آل عمران). (أضواء البيان ٢٥٦/٧و٢٥٧).

فعلى المسلمين أن يقدروا القرآن الكريم حق قدره، وأن يتلوه حق تلاوته، وأن يهتموا به قراءة وفهما وعملا وتعليما، فإن ذلك عاصمهم من الضلال، كما قال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ » (آل عمران: ١٠٠- ١٠١).

قَالَ قَتَادَةُ: في هَذِهِ الْآيَةِ عَلَمَانِ بَيِّنَانِ: كِتَابُ اللَّهِ وَنَبِيُّ اللَّهِ، أَمَّا نَبِيُّ اللَّهِ فَقَدْ مَضَى، وَأَمَّا كِتَابُ اللَّهِ فَأَبْقَاهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً. (جامع البيان: ٢٦/٤).

عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ خَطِيبًا، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَهُ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَتَمَسَّكُوا بِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَخُذُوا بِهِ»، فَحَثَّ عَلَيْهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي». (صحيح مسلم ٢٤٠٨).

قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ»:

يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ» أي رجعُوا إلى ما كانُوا عليه من الكفر، وهم المنافقون، وُصفوا فيما سلف بمرض القلوب وغيره من قبائح الأفعال والأحوال «مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى» بالدلائل الظاهرة والمعجزات القاهرة (إرشاد العقل السليم: ٩١/٦)؛ «الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ» أي زيَّن لهم سوء أعمالهم، كما سبق في قوله تعالى: « أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ » (محمد: ١٤).

واختلف القراء في قوله تعالى: «وَأُمْلِي لَهُمْ» فَقَرَأَتْهُ عَامَّةُ قُرَّاءِ الْحِجَازِ وَالْكُوفَةِ بِفَتْحِ الْأَلِفِ مِنْهَا بِمَعْنَى: الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ، وَاللَّهُ أَمْلَى لَهُمْ. أو: وَأَمْلَى الشَّيْطَانُ لَهُمْ، أي مَدَّ لَهُمْ في الأمل. وَقَرَأَ مُجَاهِدٌ فِيمَا ذُكِرَ عَنْهُ (وَأُمْلِي) بِضَمِّ الْأَلِفِ وَإِرْسَالِ الْيَاءِ عَلَى وَجْهِ الْخَبَرِ مِنَ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِهِمْ. (جامع البيان: ٥٩/٢٦).

وَالْمَعْنَى: الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ أَيْ سَهَّلَ لَهُمُ الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ، وَزَيَّنَ ذَلِكَ وَحَسَّنَهُ لَهُمْ، وَاللَّهُ- جَلَّ وَعَلَا- أَمْلَى لَهُمْ: أَيْ أَمْهَلَهُمْ إِمْهَالَ اسْتِدْرَاجٍ.

وَكَوْنُ التَّسْوِيلِ مِنَ الشَّيْطَانِ وَالْإِمْهَالِ مِنَ اللَّهِ، قَدْ تَشْهَدُ لَهُمْ آيَاتٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: « وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ » (الأنفال: ٤٨)، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: « تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ » (النحل: ٦٢)، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: « وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ » (إبراهيم: ٢٢)، إلى غير ذلك من الآيات.

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: « وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ » (الأعراف: ١٨٢- ١٨٣)، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: « وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ » (آل عمران: ١٧٨)، ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: « قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ » (مريم: ٧٥)، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: « فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ

فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ » (الأنعام: ٤٤)، وقوله تعالى: «ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (الأعراف: ٦٥)، وقوله تعالى: « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ » (المؤمنون: ٥٥-٥٦)، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة. (أضواء البيان (٣٨٠/٧و٣٨١)).

قال تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ»:

أي «ذلك» التسويل والإملاء المفضي إلى الكفر بسبب أنهم يعني المنافقين «قالوا للذين كرهوا ما نزل الله» وهم اليهود «سنطيعكم في بعض الأمر» أي في مخالفة محمد والتظاهر على عداوته، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره. ويؤيد كون القائلين المنافقين، والكارهين اليهود، قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ» (الحشر: ١١).

ولما كان قولهم المذكور للذين كرهوا ما أنزل الله بطريقة السر بينهم قال الله سبحانه: «والله يعلم إسرارهم» أي: والله يعلم إسرار هذين الحزبين المتظاهرين من أهل النفاق، على خلاف أمر الله وأمر رسوله، إذ يتسارون فيما بينهم بالكفر بالله ومعصية الرسول، ولا يخفى عليه ذلك ولا غيره من الأمور كلها.

واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء أهل المدينة والبصرة (أسرارهم) بفتح الهمزة، جمع سر، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة «إسرارهم» بكسر الهمزة، على أنه مصدر من: أسررت إسرارا.

وهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب (انظر: جامع البيان(٥٩/٢٦)، معالم التنزيل(١٦١/٥)، الجامع لأحكام القرآن (٢٥٠/١٦)، فتح القدير للشوكاني (٤٧/٥)).

قال تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ»

أي كيف يكون حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم، وتعصت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب، كما قال سبحانه وتعالى: «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ » (الأنفال: ٥٠)، وقال تعالى: «وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ» أي بالضرب «أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ» (الأنعام: ٦٣).

والاستفهام عن حالهم مستعمل في معنى تعجيب المخاطب من حالهم عند الوفاة، وهذا التعجيب مؤذن بأنها حالة فظيعة غير معتادة، إذ لا يتعجب إلا من أمر غير معهود، والسياق يدل على الفظاعة (التحرير والتنوير(١١٨/٢٦)).

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم حالهم هذه أروع بيان: عن البراء بن عازب قال خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر». مرتين أو ثلاثا ثم قال «إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس.. الخ.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

الحلقة الثانية عشرة

قال تعالى: « أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ» (محمد: ٢٩- ٣١).

إعداد د. عبد العظيم بدوي

قال تعالى: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ».

جَمْعُ ضِغْنٍ وَهُوَ مَا فِي النُّفُوسِ مِنَ الْحَسَدِ وَالْحِقْدِ لِلإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَالْقَائِمِينَ بِنَصْرِهِ. والمعنى: أيعتقد الْمُنَافِقُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَكْشِفُ أَمْرَهُمْ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ سَيُوَضِّحُ أَمْرَهُمْ وَيُجَلِّيهِ حَتَّى يَفْهَمَهُمْ ذوو البصائر، وقد أنزل الله تعالى في ذلك سُورَةَ بَرَاءَةَ فَبَيَّنَ فِيهَا فَضَائِحَهُمْ، وَمَا يَعْتَمِدُونَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الدَّالَّةِ عَلَى نِفَاقِهِمْ، وَلِهَذَا كَانَتْ تُسَمَّى الْفَاضِحَةَ. (جامع البيان: ٢٦/ ٦٠)

وَقَوْلُهُ تعالى: «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ» أي: وَلَوْ نَشَاءُ يَا نَبِيَنَا لَأَرَيْنَاكَ أَشْخَاصَهُمْ فَعَرَفْتَهُمْ عِيَانًا. قَالَ الزَّجَّاجُ: الْمَعْنَى: لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا عَلَى الْمُنَافِقِينَ عَلَامَةً تَعْرِفُهُمْ بِهَا. وَلَكِنَّ لَمْ يَفْعَلْ تَعَالَى ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْمُنَافِقِينَ سِتْرًا مِنْهُ عَلَى خَلْقِهِ، وَحَمْلًا لِلأُمُورِ على ظاهر السلامة، وردًّا للسرائر إِلَى عَالِمِهَا، «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» أَيْ فِيمَا يَبْدُو مِنْ كَلَامِهِمُ الدَّالِّ عَلَى مَقَاصِدِهِمْ، يَفْهَمُ الْمُتَكَلِّمُ مِنْ أَيِّ الْحِزْبَيْنِ هُوَ بِمَعَانِي كَلَامِهِ وَفَحْوَاهُ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ لَحْنِ الْقَوْلِ، كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه: مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللَّهُ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ. (تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٨٠).

قال البغوي: «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» فِي مَعْنَاهُ وَمَقْصِدِهِ، وَاللَّحْنُ: وَجْهَانِ صَوَابٌ وَخَطَأٌ، فَالْفِعْلُ مِنَ الصَّوَابِ: لَحِنَ يَلْحَنُ لَحْنًا فَهُوَ لَحِنٌ، إِذَا فَطِنَ لِلشَّيْءِ. وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: «وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ" (صحيح البخاري ٢٦٨٠).

وَالْفِعْلُ مِنَ الْخَطَأِ: لَحِنَ يَلْحَنُ لَحْنًا فَهُوَ لَاحِنٌ، وَالْأَصْلُ فِيهِ إِزَالَةُ الْكَلَامِ عَنْ جِهَتِهِ، وَالْمَعْنَى إِنَّكَ تَعْرِفُهُمْ فِيمَا يُعَرِّضُونَ بِهِ مِنْ تَهْجِينِ أَمْرِكَ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ، فَكَانَ بَعْدَ هَذَا لَا يَتَكَلَّمُ مُنَافِقٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِلَّا عَرَفَهُ بِقَوْلِهِ، وَيَسْتَدِلُّ بِفَحْوَى كَلَامِهِ عَلَى فَسَادِ خُلُقِهِ وَعَقِيدَتِهِ. (معالم التنزيل: ١٦٢/٥).

و«فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» وُجُوهٌ:

١- أنهم اتفقوا فيما بينهم على أن يخاطبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بألفاظ ظاهرها الحسن وباطنها القبح، كما كان يفعل شياطينهم حيث يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: راعنا، ومعناها: اسمع لنا، ولكنهم يورون بها عن الرعونة، قال تعالى: «مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا» (النساء: ٤٦)،

٢- أن يقولوا ما معناه النفاق، كقولهم عند مجيء النصر: إنا كنا معكم، وإن كانت الأخرى قالوا: قد حذرناكم، كما قال تعالى: «ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا» (النساء: ١٤١).

٣-أن يقولوا خلاف ما يعتقدون، كقولهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ» (المنافقون: ١)، واستئذانهم النبي صلى الله عليه وسلم في عدم الخروج للقتال بأعذار واهية، هم فيها كاذبون، كقولهم يوم الأحزاب: «إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ» (الأحزاب: ١٣)، وكقولهم يوم الحديبية: «شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا» (الفتح: ١١)، وكقول الله تعالى عن اعتذارهم يوم تبوك: «وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ» (التوبة: ٤٩).

٤- أن يلحن بعضهم لبعض بكلام لا يفهمه غيرهم.

٥-أن يقولوا: ما لنا إذا أطعنا من الثواب، ولا يقولوا ما علينا إذا عصينا من العقاب، وكان هذا الذي ينبغي منهم. (روح المعاني: ٧٧/٢٦).

وهكذا عرَّف الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا الصنف من الناس- المنافقين-فلم يخفوا عليه بعد ذلك، وانما فعل الله تعالى ذلك مع رسوله صلى الله عليه وسلم ليحذرهم، فإن هذا الصنف من الناس أشد خطرا على الإسلام والمسلمين من الكافرين الذين جهروا بكفرهم، لأن المجاهر بكفره قد عرف بعداوته، أما المنافقون فهم من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، ويصلون معنا ويصومون، «يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ» (البقرة: ٩)، ولهذا قال الله عنهم: «هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ» (المنافقون: ٤)، وجعل الله عذابهم أشد من عذاب الكافرين، فقال تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا» (النساء: ١٤٠)، ثم قال تعالى: «إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا» (النساء: ١٤٥)، ومعلوم أن النار دركات، أعلاها أهونها عذابا، وأسفلها أشدها عذابا.

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ»: أي فيجازيكم عليها بحسب قصدكم. وهذا على ما قيل وعد للمؤمنين، وإيذان بأن حالهم بخلاف حال المنافقين.

وقيل: وعيد للمنافقين، وإيذان لهم بأن المجزى عليه ما يقصدونه لا ما يعرضون أو يورون به، واستظهر أنه خطاب عام فهو وعد ووعيد، وحمل على العموم. (روح المعاني: ٧٨/٢٦).

قوله: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ» (محمد: ٣١):

الْبَلْوُ: الاخْتِبَارُ وَتَعَرُّفُ حَالِ الشَّيْءِ. وَالْمُرَادُ بِالِابْتِلَاءِ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ فِي التَّكْلِيفِ، فَإِنَّهُ يَظْهَرُ بِهِ الْمُطِيعُ وَالْعَاصِي، والمؤمن وَالْكَافِرُ. وَالْعِلْمُ المذكور في قوله تعالى: «حَتَّى نَعْلَمَ» هُوَ الْعِلْمُ الَّذِي يَقَعُ بِهِ الْجَزَاءُ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ لَا بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ عَلَيْهِمْ. فَتَأْوِيلُهُ: «حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ» عِلْمَ شَهَادَةٍ، لِأَنَّهُمْ إِذَا أُمِرُوا بِالْعَمَلِ يَشْهَدُ مِنْهُمْ مَا عَمِلُوا، فَالْجَزَاءُ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ يَقَعُ عَلَى عِلْمِ الشَّهَادَةِ. «وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ» نَخْتَبِرُهَا وَنَظْهَرُهَا. وَبَلْوُ الْأَخْبَارِ: ظُهُورُ الْأُحْدُوثَةِ

مِنْ حُسْنِ السُّمْعَةِ وَضِدِّه. وَهٰذَا فِي مَعْنَى قَوْلِ الْأُصُولِيِّينَ تَرَتُّبُ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ عَاجِلاً، وَهُوَ كِنَايَةٌ أَيْضًا عَنْ أَحْوَالِ أَعْمَالِهِمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، لِأَنَّ الْأَخْبَارَ إِنَّمَا هِيَ أَخْبَارٌ عَنْ أَعْمَالِهِمْ، وَهٰذِهِ عِلَّةٌ ثَانِيَةٌ عُطِفَتْ عَلَى قَوْلِهِ: «حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ»، وَإِنَّمَا أُعِيدَ عَطْفُ فِعْلِ «وَنَبْلُوَ» عَلَى فِعْلِ «نَعْلَمَ» لِلْمُبَالَغَةِ فِي بَلْوِ الْأَخْبَارِ لِأَنَّهُ كِنَايَةٌ عَنْ بَلْوِ أَعْمَالِهِمْ وَهِيَ الْمَقْصُودُ مِنْ بَلْوِ ذَوَاتِهِمْ، فَذِكْرُهُ كَذِكْرِ الْعَامِّ بَعْدَ الْخَاصِّ، إِذْ تَعَلَّقَ الْبَلْوُ الْأَوَّلُ بِالْجِهَادِ وَالصَّبْرِ، وَتَعَلَّقَ الْبَلْوُ الثَّانِي بِالْأَعْمَالِ كُلِّهَا، وَحَصَلَ مَعَ ذٰلِكَ تَأْكِيدُ الْبَلْوِ تَأْكِيدًا لَفْظِيًّا. (التحرير والتنوير (٢٦/١٢٥)، الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٥٤)).

وَظَاهِرُ هٰذِهِ الْآيَةِ قَدْ يَتَوَهَّمُ مِنْهُ الْجَاهِلُ أَنَّهُ تَعَالَى يَسْتَفِيدُ بِالِاخْتِبَارِ عِلْمًا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذٰلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، بَلْ هُوَ تَعَالَى عَالِمٌ بِكُلِّ مَا سَيَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ.

وَقَدْ بَيَّنَ أَنَّهُ لَا يَسْتَفِيدُ بِالِاخْتِبَارِ عِلْمًا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ بِقَوْلِهِ- جَلَّ وَعَلَا-: «وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» (آل عمران: ١٥٤).

فَقَوْلُهُ سبحانه: «وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» بَعْدَ قَوْلِهِ: «وَلِيَبْتَلِيَ» دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَفِدْ بِالِاخْتِبَارِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِهِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ ذٰلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا، لِأَنَّ الْعَلِيمَ بِذَاتِ الصُّدُورِ غَنِيٌّ عَنِ الِاخْتِبَارِ.

وَفِي هٰذِهِ الْآيَةِ بَيَانٌ عَظِيمٌ لِجَمِيعِ الْآيَاتِ الَّتِي يَذْكُرُ اللَّهُ فِيهَا اخْتِبَارَهُ لِخَلْقِهِ. وَفَائِدَةُ الِاخْتِبَارِ ظُهُورُ الْأَمْرِ لِلنَّاسِ، أَمَّا عَالِمُ السِّرِّ وَالنَّجْوَى، فَهُوَ عَالِمٌ بِكُلِّ مَا سَيَكُونُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا» (طه: ١١٠)، وَقَالَ تَعَالَى: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» (المائدة: ٩٧).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ» (صحيح مسلم: ٢٦٥٣).

وَعَنْ أَبِي حَفْصَةَ قَالَ: قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ! إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ. سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ". يَا بُنَيَّ! إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هٰذَا فَلَيْسَ مِنِّي". (صحيح سنن أبي داود: ٣٩٣٢).

وَعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا فِي جَنَازَةٍ فِي بَقِيعِ الْغَرْقَدِ، فَأَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ، وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ، فَنَكَّسَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخْصَرَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً". قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ «مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ". فَقَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ". ثُمَّ قَرَأَ: «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى» (الليل: ٥-١٠). (صحيح البخاري: ٤٣٦٢).

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! بَيِّنْ لَنَا دِينَنَا كَأَنَّا خُلِقْنَا الْآنَ، فِيمَا الْعَمَلُ الْيَوْمَ، أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ، أَمْ فِيمَا نَسْتَقْبِلُ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ». قَالَ: فَفِيمَ الْعَمَلُ؟ قَالَ زُهَيْرٌ: ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو الزُّبَيْرِ بِشَيْءٍ لَمْ أَفْهَمْهُ، فَسَأَلْتُ: مَا قَالَ؟ فَقَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ» (صحيح مسلم ٢٦٤٨).

لَطِيفَةٌ: كَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ إِذَا قَرَأَ هٰذِهِ الْآيَةَ بَكَى وَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَبْتَلِينَا فَإِنَّكَ إِذَا بَلَوْتَنَا فَضَحْتَنَا وَهَتَكْتَ أَسْتَارَنَا. (الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٥٤)).

وَلِلْحَدِيثِ بَقِيَّةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

صلى الله عليه وسلم

الحلقة الثانية عشرة

قال تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ »

(محمد: ٣٢).

إعداد د. عبد العظيم بدوي

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: إِنَّ الَّذِينَ جَحَدُوا تَوْحِيدَ اللَّهِ، وَصَدُّوا النَّاسَ عَنْ دِينِهِ الَّذِي ابْتَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ «وَشَاقُّوا الرَّسُولَ من بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى» أي: وَخَالَفُوا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم فَحَارَبُوهُ وَآذَوْهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَلِمُوا أَنَّهُ نَبِيٌّ مَبْعُوثٌ، وَرَسُولٌ مُرْسَلٌ، وَعَرَفُوا الطَّرِيقَ الْوَاضِحَ بِمَعْرِفَتِهِ، وَأَنَّهُ للهِ رَسُولٌ «لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا» لأَنَّ اللَّهَ بَالِغٌ أَمْرَهُ، وَنَاصِرُ رَسُولِهِ، وَمُظْهِرُهُ عَلَى مَنْ عَادَاهُ وَخَالَفَهُ. (جامع البيان: ٢٦/٦٣).

«وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ» أي: مكايدهم التي نصبُوها في إبطال دينه تعالى ومُشاقَّة رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبغونَ من الغوائل، ولا تُثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ»:

وفي هذه الآية يأمرهُم بطاعته وطاعة رَسُوله صلى الله عليه وسلم التي هيَ أَسَاسُ سَعَادَتِهِمْ في الدُّنْيَا وَالآخرة، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا» (الأحزاب: ٧١)، وقال تعالى: «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ» (النساء: ١٣).

ثُمَّ نَهَاهُمْ عَنْ أَنْ يُبْطِلُوا أَعْمَالَهُمْ كَمَا أَبْطَلَتِ الْكُفَّارُ أَعْمَالَهَا بِالإِصْرَارِ عَلَى الْكُفْرِ، فَقَالَ: «وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ»: الإِبْطَالُ: جَعْلُ الشَّيْءِ بَاطِلًا، أَيْ لَا فَائِدَةَ مِنْهُ، فَالإِبْطَالُ تَتَّصِفُ بِهِ الأَشْيَاءُ الْمَوْجُودَةُ.

وَمَعْنَى النَّهْيِ عَنْ إِبْطَالِهِمُ الأَعْمَالَ: النَّهْيُ عَنْ أَسْبَابِ إِبْطَالِهَا.

قَالَ الْحَسَنُ: أَيْ لَا تُبْطِلُوا حَسَنَاتِكُمْ بِالْمَعَاصِي. وَقَالَ

الزُّهْرِيُّ: بِالْكَبَائِرِ. وَقَالَ الْكَلْبِيُّ وَابْنُ جُرَيْجٍ: بِالرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: بِالْمَنِّ. وَالظَّاهِرُ النَّهْيُ عَنْ كُلِّ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُوصِلُ إِلَى بُطْلَانِ الْأَعْمَالِ، كَائِنًا مَا كَانَ، مِنْ غَيْرِ تَخْصِيصٍ بِنَوْعٍ مُعَيَّنٍ. (التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٢٧).

وَأَوَّلُ مَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الرِّدَّةُ، لِأَنَّ هَذَا النَّهْيَ جَاءَ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ» (محمد: ٣٢)، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» (محمد: ٣٤).

بَيَّنَ اللهُ سبحانه أَنَّهَا تُبْطِلُ الْأَعْمَالَ؛ فَقَالَ: «وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (البقرة: ٢١٧).

وَالْإِحْبَاطُ بِالْكُفْرِ إِحْبَاطٌ لِلْأَعْمَالِ كُلِّهَا، حَيْثُ إِنَّ الْإِيمَانَ شَرْطُ قَبُولِ الْأَعْمَالِ، كَمَا سبق بيانه.

وَمِمَّا يُحْبِطُ الْأَعْمَالَ: الرِّيَاءُ، وَهُوَ كَمَا قَالَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ: طَلَبُ الْمَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ بِإِيرَائِهِمْ خِصَالَ الْخَيْرِ، إِلَّا أَنَّ الْجَاهَ وَالْمَنْزِلَةَ تُطْلَبُ فِي الْقَلْبِ بِأَعْمَالٍ سِوَى الْعِبَادَاتِ، وَتُطْلَبُ بِالْعِبَادَاتِ، وَاسْمُ الرِّيَاءِ مَخْصُوصٌ بِحُكْمِ الْعَادَةِ بِطَلَبِ الْمَنْزِلَةِ فِي الْقُلُوبِ بِالْعِبَادَةِ وَإِظْهَارِهَا، فَحَدُّ الرِّيَاءِ هُوَ إِرَادَةُ الْعِبَادِ بِطَاعَةِ اللهِ. (إحياء علوم الدين: ٣/ ٢٩٧).

وَمِمَّا يُحْبِطُ الْأَعْمَالَ سُوءُ الْأَدَبِ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم:

قَالَ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» (الحجرات: ٢).

إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَقُّهُ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ أَعْظَمُ الْحُقُوقِ بَعْدَ حَقِّ اللهِ تَعَالَى، فَيَجِبُ أَنْ يُوَقَّرَ وَأَنْ يُحْتَرَمَ وَيُقَدَّرَ، وَيَجِبُ أَنْ يُتَأَدَّبَ مَعَهُ، فَلَا يُرْفَعُ الصَّوْتُ بِحَضْرَتِهِ فِي حَيَاتِهِ، وَلَا يُرْفَعُ عِنْدَ قَبْرِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ، وَلَا يُرْفَعُ الصَّوْتُ فَوْقَ صَوْتِهِ وَهُوَ حَيٌّ، وَلَا يُرْفَعُ الصَّوْتُ فَوْقَ سُنَّتِهِ وَهُوَ مَيِّتٌ. وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُنَادَى كَمَا يُنَادِي النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، يَقُولُ تَعَالَى: «لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا» (النور: ٦٣)، لَا تَقُولُوا: يَا مُحَمَّدُ، يَا أَحْمَدُ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يُخَاطِبْ رَسُولَهُ إِلَّا بِلَفْظِ «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ» (المائدة: ٤١)، و«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ» (الأحزاب: ١)، وَأَنْتُمْ أَوْلَى وَأَحَقُّ بِهَذَا الْأَدَبِ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم.

وَلَقَدْ تَأَدَّبَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِهَذَا الْأَدَبِ مَعَ رَسُولِ اللهِ:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ. فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ مُنَكِّسًا رَأْسَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ فَقَالَ شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَأَتَى الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ مُوسَى بْنُ أَنَسٍ: فَرَجَعَ الْمَرَّةَ الْآخِرَةَ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ، فَقَالَ: «اذْهَبْ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» (صحيح البخاري ٤٨٤٦).

وَمِمَّا يُحْبِطُ الْأَعْمَالَ انْتِهَاكُ الْحُرُمَاتِ فِي الْخَلَوَاتِ، فَتَرَى الرَّجُلَ يُصَلِّي وَيَصُومُ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ، وَمَعَ ذَلِكَ إِذَا خَلَا بِالْحَرَامِ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْهُ مَانِعٌ:

عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ! صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ. قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا». (صحيح ابن ماجه ٣٤٢٣).

وَقَدْ عَابَ اللهُ تَعَالَى عَلَى هَؤُلَاءِ فَقَالَ: «يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا» (النساء: ١٠٨).

قَالَ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: وَهَذَا مِنْ ضَعْفِ الْإِيمَانِ، وَنُقْصَانِ الْيَقِينِ، أَنْ تَكُونَ مَخَافَةُ الْخَلْقِ عِنْدَهُمْ أَعْظَمَ مِنْ مَخَافَةِ اللهِ، فَيُحْرِصُونَ بِالطُّرُقِ الْمُبَاحَةِ وَالْمُحَرَّمَةِ عَلَى عَدَمِ الْفَضِيحَةِ

عند النَّاس، وهُم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يُبالوا بنظره إليهم، واطلاعه عليهم، وهو معهم، عالم بهم، مطلع عليهم، لا يخفى عليه خاف من سرهم. (تيسير الكريم الرحمن: ١٥٤/٢).

ومن مُحبطات الأعمال المَنُّ بالعطيَّة والهبة والصدقة:

لقد حثَّ الله تعالى على الصدقة، فقال: « ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (البقرة: ٢٦٢)، ثمَّ نهى عن المَنِّ فقال: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ » (البقرة: ٢٦٤).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يقبل الله لهم صرفًا ولا عدلًا: عاقٌ، ومنَّان، ومكذِّبٌ بالقدر» (صحيح الترغيب: ٢٥١٣).

ومن مُحبطات الأعمال عقوق الوالدين:

والمُراد به صُدور ما يتأذى به الوالد من ولده من قول أو فعل إلا في شرك أو معصية ما لم يتعنَّت الوالد. (فتح الباري: ٤٠٦/١٠).

وهو من أكبر الكبائر، عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثًا؟ قالوا بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين -وجلس وكان متكئًا- فقال: ألا وقول الزور. فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» (صحيح البخاري ٢٦٥٤).

ومن شؤمه أنه يمنع قبول الأعمال، ويبطل الأجر والثواب:

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يقبل الله منهم صرفًا ولا عدلًا: عاقٌ، ومنَّان، ومكذِّبٌ بالقدر» (سبق تخريجه).

وعن عمرو بن مُرَّة الجُهنيِّ رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! شهدتُ أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليتُ الخمس، و أديتُ زكاة مالي، وصُمتُ رمضان! فقال صلى الله عليه وسلم: «من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا- ونصب أصبعيه- ما لم يعقَّ والديه» (صحيح الترغيب ٢٥١٥).

ومن مُحبطات الأعمال إيذاء الجيران:

إنَّ الجار أقرب إلى جاره من أبيه وأخيه غالبًا، إذا دعاه أجابه، وإذا استغاث به أغاثه، وإن طرأ له طارئ كان الجار أول من دخل عليه لانقاذه. لذلك كان حُسن الجوار مطلوبًا بل مفروضًا، قال تعالى: «وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا » (النساء: ٣٦).

ومن مُحبطات الأعمال ترك صلاة العصر:

قال صلى الله عليه وسلم: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله» (صحيح البخاري ٥٥٣). أي: بطل كمال عمل يومه ذلك إذ لم يُثب ثوابًا مُوفرًا بترك الصلاة الوُسطى، فتعبيره بالحبوط وهو البُطلان للتهديد. والذي عليه أهل السُّنة أنَّ الإحباط قسمان:

أحدهما: إحباط الكُفر للإيمان، وهذا لا تنفع معه الأعمال مُطلقًا، وصاحبه -إن مات على ذلك- خالدٌ مُخلَّد في النار. قال تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا » (الكهف: ١٠٣- ١٠٦).

والثاني: إحباط المعاصي للأعمال، وهؤلاء توزن أعمالهم يوم القيامة، فمن ثقلت موازينه دخل الجنة مع أول الداخلين، ومن خفت موازينه فأمره إلى ربِّ العالمين، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة برحمته، وإن شاء عذَّبه في النار بعدله، ثم يُخرجه منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته. (فتح الباري: ١١٠/١).

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

صلى الله عليه وسلم

الحلقة الثانية عشرة

قال تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ » (محمد: ٣٢- ٣٦)

إعداد د. عبدالعظيم بدوي

والذي عليه أهل السنة أن الإحباط قسمان:

أحدهما: إحباط الكفر للإيمان، وهذا لا تنفع معه الأعمال مطلقا، وصاحبه- إن مات على ذلك- خالد مخلد في النار. قال تعالى: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا» (الكهف: ١٠٣-١٠٦).

والثاني: إحباط المعاصي للأعمال، وهؤلاء توزن أعمالهم يوم القيامة، فمن ثقلت موازينه دخل الجنة مع أول الداخلين، ومن خفت موازينه فأمره إلى رب العالمين، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة برحمته، وإن شاء عذبه في النار بعدله، ثم يخرجه منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته. (فتح الباري ١/ ١١٠).

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ» (محمد: ٣٤):

هذه الآية مقيدة للوعيد المذكور في أول آية في السورة وهي قوله تعالى: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» أي أبطلها وأحبطها، بالشرط المذكور هنا وهو: «ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ»، وقد سبق بيان ذلك في أول السورة، وأنهم لو أسلموا أثابهم الله على ما عملوا في الكفر.

« فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ »: إن الإسلام هو

دين العزة والإباء، وليس دين الذلة والهوان، «وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» (المنافقون: ٨).

وليست الفضيلة في الإسلام الركون إلى الدعة والراحة والرضا بالهوان، وطلب المعيشة الذليلة المستكينة، إنما الفضيلة في الإسلام هي رد الاعتداء، ومنع الأقوياء، وإن كلف النفس والأرواح:

لا تسقني ماء الحياة بذلة
بل فاسقني بالذل كأس الحنظل

فلا يليق بالمسلمين وقد نشبت الحرب ووقفوا لعدوهم وجها لوجه أن يكونوا هم الذين يرفعون الراية (أعني راية الاستسلام) ويدعون للصلح، فقد قال تعالى: «فَلَا تَهِنُوا» أي فلا تضعفوا وتكسلوا عن طلب العدو، فإن وهن القلب يوهن البدن، ولكن «ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟» (آل عمران: ٢٠٠)، فأنتم أولى بالمثابرة من عدوكم، و«إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ» (آل عمران: ١٤٠)، و «إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ» وتفضلونهم بأنكم «وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ».

(النساء: ١٠٤) من النصر أو الشهادة، كما قال تعالى: «قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ» (التوبة: ٥٢).

«فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟» الكفار المحاربين «إِلَى ٱلسَّلْمِ» أي الصلح ووضع الحرب، وقد جاؤوكم يريدون إذلال الإسلام والمسلمين، وإظهار عزة الشرك والمشركين، فإن ضعفتم عن قتالهم، ودعوتموهم إلى السلم إيثارًا للراحة، وحرصًا على السلامة فقد تحقق لهم ما يريدون، وربما استهانوا بكم بعد هذا الطلب فأعملوا فيكم سيوفهم، «فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ» وكل الظروف المحيطة بكم تنهاكم عن ذلك:

١- «وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ» اعتقادًا وتصورًا للحياة، «وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ» ارتباطا وصلة بالعلي الأعلى، «وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ» منهجا وهدفا وغاية، «وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ» شعورًا وخُلقًا وسلوكًا، «وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ» قوة ومكانة ونصرة. (في ظلال القرآن: ٤٧١/٧).

٢- «وَٱللَّهُ مَعَكُمْ» بنصره وتأييده ومدده، وهذه المعية تربط على قلوبكم، وتقوي عزائمكم، وتثبت أقدامكم، كما قال تعالى: «إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟» (الأنفال: ١٢)، وهذه المعية تمنع عنكم الرعب والخوف، كما قال تعالى لموسى وهارون: «قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ» (طه: ٤٦)، وهذه المعية ترعب أعداءكم وتزلزل أقدامهم، كما قال تعالى: «إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» (الأنفال: ١٢).

٣- «وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ» أي لن ينقص الله من أجوركم شيئا وإن كان النصر من عنده، بل سيوفيكم أجوركم بغير حساب، كما قال تعالى: «مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ

لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (التوبة: ١٢٠- ١٢١).

أما حين يطلب العدو الصلح فإنه يُجاب إليه، وإن كانت لهم نية سيئة في ذلك الطلب فالله أعلم بهم، وسيجعل كيدهم في نحورهم، قال تعالى: «وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ » (الأنفال: ٦١- ٦٢).

يقول تعالى: «وَإِنْ جَنَحُوا» أي مالوا «لِلسَّلْمِ» أي المسالمة والمصالحة والمهادنة، «فَاجْنَحْ لَهَا» أي فمل إليها واقبل منهم ذلك، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع سنين أجابهم إلى ذلك، مع ما اشترطوا من الشروط الأخر.

وقوله تعالى: «وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» أي صالحهم وتوكل على الله، فإن الله كافيك وناصرك ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة، ليتقووا ويستعدوا «فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ» أي كافيك وحده. (تفسير القرآن العظيم: ٢/٣٢٢).

وهكذا قوى الله تعالى عزائم المؤمنين ونشطهم، ورغبهم في مثابرة عدوهم التي هي سبب نصرهم وعزهم، وصلاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة.

ثم كشف لهم عن حقيقة الحياة الدنيا التي هي غالبا ما تكون وراء الوهن والخلود إلى الأرض، والتثاقل عن قتال المشركين، فقال تعالى: «إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ »؛

يقول تعالى محذرًا من إيثار الحياة الدنيا على القتال في سبيل الله:

«إِنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ» فإن فاتتكم بالقتل في سبيل الله فما فاتكم شيء، «فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ » (التوبة: ٣٨).

عن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «وَاللَّهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ- وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ- فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ» (صحيح مسلم ٢٨٥٨).

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (صحيح البخاري ٢٨٩٢).

فلا تتركوا قتال المشركين المحاربين رغبة في الدنيا، وآثروا ما يبقى على ما يفنى.

وهذه الآية كقوله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ » (التوبة: ٣٨).

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

صلى الله عليه وسلم

الحلقة الرابعة عشرة والأخيرة

قال تعالى: «إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم» (محمد: ٣٦- ٣٨).

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

قوى الله تعالى عزائم المؤمنين ونشَّطهم، ورغَّبهم في مثابرة عدوهم التي هي سبب نصرهم وعزهم، وصلاحهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة. ثم كشف لهم عن حقيقة الحياة الدنيا التي هي غالبا ما تكون وراء الوهن والخلود إلى الأرض، والتثاقل عن قتال المشركين، فقال تعالى: «إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ»:

يقول تعالى محذرًا من إيثار الحياة الدنيا على القتال في سبيل الله:

«إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ» فإن فاتتكم بالقتل في سبيل الله فما فاتكم شيء، «فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (التوبة: ٣٨).

عن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ- وَأَشَارَ يَحْيَى بِالسَّبَّابَةِ- فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ» (صحيح مسلم ٢٨٥٨).

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «لَمَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» (صحيح البخاري ٢٨٩٢).

فلا تتركوا قتال المشركين المحاربين رغبة في الدنيا، وآثروا ما يبقى على ما يفنى.

وهذه الآية كقوله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (التوبة: ٣٨).

وقوله تعالى: «إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ» يعني: «أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ» ليس فيها خير، وإنما الخير كله في

أن «تؤمنوا» بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمنوا بالقدر، «تتقوا» الله ربكم بفعل ما به أمر، وترك ما نهى عنه وزجر، ومن أعظم ما أمركم به الثبات عند اللقاء، كما قال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (الأنفال: ٤٥)، ومن أعم ما نهاكم عنه الفرار من الزحف، كما قال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ » (الأنفال: ١٥)، فإن آمنتم واتقيتم « يُؤْتِكُمْ » الله « أُجُورَكُمْ » كما قال في آية أخرى: « وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ » (آل عمران:١٧٩)، بيَّنه سبحانه في قوله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (الحديد: ٢٨).

وقوله تعالى: « وَلَا يَسْـَٔلَكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ » (محمد: ٣٦) لا يَسْأَلُكُمُ الله وَرَسُولُهُ أَمْوَالَكُمْ كُلَّهَا في الصَّدقات، إنَّما يَسْأَلانكُمْ غَيْضًا من فَيْضٍ، رُبْعَ العُشْرِ، فَطيبُوا بها نفسا، وقروا بها عينا. (معالم التنزيل: ١٦٣/٥).

« إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ » (محمد: ٣٧):

يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: إِنْ يَسْأَلْكُمْ رَبُّكُمْ أَمْوَالَكُمْ «فَيُحْفِكُمْ» أي: فَيُجْهِدُكُمْ بالمَسْأَلَة، وَيُلِحُّ عَلَيْكُمْ بِطَلَبِهَا مِنْكُمْ فَيُلْحِف، «تَبْخَلُوا» بِهَا، وَتَمْنَعُوهَا إِيَّاهُ، ضَنًّا مِنْكُمْ بِهَا، وَلَكِنَّهُ عَلِمَ ذَلِكَ مِنْكُمْ، وَمِنْ ضِيقِ أَنْفُسِكُمْ فَلَمْ يَسْأَلْكُمُوهَا. «وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ» بِغضكم وعداوتكم، قَالَ قَتَادَةُ: عَلِمَ اللهُ أَنَّ فِي مَسْأَلَةِ الْأَمْوَالِ خُرُوجَ الْأَضْغَانِ. قال ابن كثير: وَصَدَقَ قَتَادَةُ، فَإِنَّ الْمَالَ مَحْبُوبٌ، وَلَا يُصْرَفُ إِلَّا فِيمَا هُوَ أَحَبُّ إِلَى الشَّخْصِ مِنْهُ. (انظر جامع البيان ٦٥/٢٦، وتفسير القرآن العظيم: ١٨٢/٤).

وقد حذر الله تعالى من ترك الجهاد حبًّا للمال فقال: « قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ » (التوبة: ٢٤).

ثم قال تعالى: « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ » (محمد: ٢٨).

يقول تعالى: « هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ » شيئًا يسيرًا مما رزقكم الله، يعود عليكم نفعه في الدنيا والآخرة، «فمنكم من يبخل» باليسير، فكيف لو سألكم أموالكم كلها؟! « فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ » لأن ما ينفقه لله، في سبيل الله، يجد بره وثوابه عند الله، « يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » (الشعراء:٨٨-٨٩)، فوبال البخل وضرره عائد على البخيل نفسه، ولن يضر الله شيئًا، ولذا قال: « ... » فإن « لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ » (طه: ٦)، فهو سبحانه الغني، « وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ » المحتاجون إليه سبحانه في جميع أوقاتكم، وهو يأمركم بالإنفاق لمصلحتكم، فمن يبخل فإنما يعطل مصلحة نفسه ويضرها، ولذا قال تعالى: « وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » (آل عمران:١٨٠).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم: « مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي

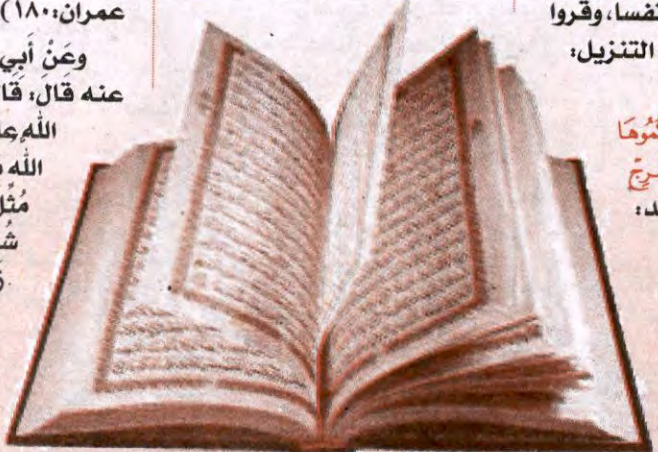

شدقَيْه- ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ » ثُمَّ تَلاَ «....» الآيَةَ. (صحيح البخاري ١٤٠٣).

وقد حذَّر سبحانه من البخل وعدم الإنفاق في سبيل الله لقتال أعداء الله فقال: «وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ » (البقرة:١٩٥).

عَنْ أَسْلَمَ أَبِي عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ قَالَ: كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّومِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ! يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ! فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الإِسْلاَمَ وَكَثَّرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلاَمَ وَكَثَّرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا!. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا «وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ » (البقرة:١٩٥)، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ وَإِصْلاَحَهَا وَتَرْكَنَا الْغَزْوَ، فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ.(صحيح سنن أبي داود: ٢١٩٣).

وفي ختام السورة يأتي هذا التحذير الشديد اللهجة في كلمة موجزة: «....»، وهي معطوفة على «...»، وتقدير الكلام: «....» ولا يلتكم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا » (الحجرات:١٤)، «....» عن الإيمان والتقوى «....»، كما قال تعالى: «وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ » (الأنعام:١٣٣)، وقال تعالى: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » (يونس:١٣-١٤).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»(صحيح مسلم ٢٧٤٢)، فأروا الله من أنفسكم خيرًا، وإياكم أن تعرضوا عن الهدى بعد إذ جاءكم فيذهب الله بكم و«يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم » بل يكونوا خيرًا منكم، يؤمنون بالله ويتقونه، وينفقون في سبيله ويجاهدون، ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله، كما قال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ » (المائدة:٥٤).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: تَلاَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمًا هَذِهِ الآيَةَ: «هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم » (محمد:٣٨).

- قَالُوا: وَمَنْ يُسْتَبْدَلُ بِنَا؟ قَالَ: فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى مَنْكِبِ سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ: «هَذَا وَقَوْمُهُ، هَذَا وَقَوْمُهُ» (صحيح الترمذي:٣٢٦٠).

اللهم يا ذا الجلال والإكرام استعملنا ولا تستبدلنا.

سُورَةُ الْفَتْحِ

الحلقة الأولى

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

سُورَةُ الْفَتْحِ سُورَةٌ مَدَنِيَّةٌ، وَالْمُرَادُ بِالْفَتْحِ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا» قَالَ: «الْحُدَيْبِيَةُ» (صحيح البخاري ٤١٧٢). وَعَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: تَعُدُّونَ أَنْتُمُ الْفَتْحَ فَتْحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتْحُ مَكَّةَ فَتْحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ (صحيح البخاري ٤١٥٠).

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ السُّورَةَ نَزَلَتْ مُنْصَرَفَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ؛ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُمْ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا» إِلَى قَوْلِهِ: «فَوْزًا عَظِيمًا» مَرْجِعَهُ مِنَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَهُمْ يُخَالِطُهُمُ الْحُزْنُ وَالْكَآبَةُ، وَقَدْ نَحَرَ الْهَدْيَ بِالْحُدَيْبِيَةِ، فَقَالَ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا» (صحيح البخاري ٤١٧٢).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: كَانَتِ الْحُدَيْبِيَةُ فَتْحًا لأَنَّهَا كَانَتْ مَبْدَأَ الْفَتْحِ الْمُبِينِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، لِمَا تَرَتَّبَ عَلَى الصُّلْحِ الَّذِي وَقَعَ مِنْهُ الأَمْنُ وَرَفْعُ الْحَرْبِ، وَتَمَكُّنُ مَنْ يَخْشَى الدُّخُولَ فِي الإِسْلامِ وَالْوُصُولَ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ ذَلِكَ كَمَا وَقَعَ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَغَيْرِهِمَا ثُمَّ تَبِعَتِ الأَسْبَابُ بَعْضُهَا بَعْضًا إِلَى أَنْ كَمُلَ الْفَتْحُ.

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي الْمَغَازِي عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: لَمْ يَكُنْ فِي الإِسْلامِ فَتْحٌ قَبْلَ فَتْحِ الْحُدَيْبِيَةِ أَعْظَمَ مِنْهُ، إِنَّمَا كَانَ الْكُفْرُ حَيْثُ الْقِتَالُ، فَلَمَّا أَمِنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ كَلَّمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَتَفَاوَضُوا فِي الْحَدِيثِ وَالْمُنَازَعَةِ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ فِي الإِسْلامِ يَعْقِلُ شَيْئًا إِلَّا بَادَرَ إِلَى الدُّخُولِ فِيهِ، فَلَقَدْ دَخَلَ فِي تِلْكَ السَّنَتَيْنِ مِثْلُ مَنْ كَانَ دَخَلَ فِي الإِسْلامِ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرُ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهُ صلى الله عليه وسلم خَرَجَ فِي الْحُدَيْبِيَةِ فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعمِائَةٍ ثُمَّ خَرَجَ بَعْدَ سَنَتَيْنِ إِلَى فَتْحِ مَكَّةَ فِي عَشَرَةِ آلافٍ. (فتح الباري ٧/ ٤٤١).

وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى فَهْمِ الآيَاتِ مَعْرِفَةُ الْوَقَائِعِ وَالأَحْدَاثِ، الَّتِي كَانَتْ فِي هَذَا الصُّلْحِ، فَمَا هُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ؟ وَمَا هِيَ وَقَائِعُهُ وَأَحْدَاثُهُ؟ وَمَا هِيَ الأَسْبَابُ الَّتِي أَفْضَتْ إِلَيْهِ؟

رَأَى رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم في مَنَامه أَنَّهُ دَاخِلٌ مَكَّةَ وَطَائِفٌ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ، فَأَوَّلَهَا صلى الله عليه وسلم بِأَنَّهَا إِذْنٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ لِدُخُولِ مَكَّةَ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ في النَّاس أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم مُعْتَمِرٌ، فَأَجَابَهُ أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، وَظَنَّ الْمُنَافِقُونَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، وَظَنُّوا أَنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ إِنْ دَنَوْا مِنْ مَكَّةَ فَسَيَسْتَأْصِلُهُمُ الْعَرَبُ، فَلَا يَرْجِعُ مِنْهُمْ أَحَدٌ.

وَخَرَجَ صلى الله عليه وسلم مَعَ هَذَا الصَّحْبِ الْكِرَامِ في ذِي الْقَعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ السَّادِسَةِ، فَلَمَّا كَانُوا بِذِي الْحُلَيْفَةِ قَلَّدَ النَّبِيُّ صلى اللَّه عليه وسلم بَدَنَهُ وَأَشْعَرَهَا، ثُمَّ أَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ، لَا يَشُكُّ أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِهِ أَنَّهُمْ قَادِمُونَ مَكَّةَ وَطَائِفُونَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ.

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ، يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ قَالَا: خَرَجَ النَّبِيُّ صلى اللَّه عليه وسلم عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ في بِضْعِ عَشْرَةَ مِائَةً مِنْ أَصْحَابِهِ، فَلَمَّا أَتَى ذَا الْحُلَيْفَةِ، قَلَّدَ الْهَدْيَ وَأَشْعَرَهُ، وَأَحْرَمَ مِنْهَا بِعُمْرَةٍ، وَبَعَثَ عَيْنًا لَهُ مِنْ خُزَاعَةَ، وَسَارَ النَّبِيُّ صلى اللَّه عليه وسلم حَتَّى كَانَ بِغَدِيرِ الْأَشْطَاطِ أَتَاهُ عَيْنُهُ، قَالَ: إِنَّ قُرَيْشًا جَمَعُوا لَكَ جُمُوعًا، وَقَدْ جَمَعُوا لَكَ الْأَحَابِيشَ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ، وَصُدُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ، وَمَانِعُوكَ، فَقَالَ: «أَشِيرُوا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيَّ، أَتَرَوْنَ أَنْ أَمِيلَ إِلَى عِيَالِهِمْ وَذَرَارِيِّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّونَا عَنِ الْبَيْتِ، فَإِنْ يَأْتُونَا كَانَ اللَّهُ عز وجل قَدْ قَطَعَ عَيْنًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَإِلَّا تَرَكْنَاهُمْ مَحْرُوبِينَ»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، خَرَجْتَ عَامِدًا لِهَذَا الْبَيْتِ، لَا تُرِيدُ قَتْلَ أَحَدٍ، وَلَا حَرْبَ أَحَدٍ، فَتَوَجَّهْ لَهُ، فَمَنْ صَدَّنَا عَنْهُ قَاتَلْنَاهُ. قَالَ: «امْضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ». (صحيح البخاري ٤١٧٨).

وَعَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ يُصَدِّقُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَدِيثَ صَاحِبِهِ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم زَمَنَ الْحُدَيْبِيَةِ، حَتَّى كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ قَالَ النَّبِيُّ صلى اللَّه عليه وسلم: «إِنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ بِالْغَمِيمِ في خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةً، فَخُذُوا ذَاتَ الْيَمِينِ». فَوَاللَّهِ مَا شَعَرَ بِهِمْ خَالِدٌ حَتَّى إِذَا هُمْ بِقَتَرَةِ الْجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وَسَارَ النَّبِيُّ صلى اللَّه عليه وسلم حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا، بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ. فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ. حَلْ. فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ، خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى اللَّه عليه وسلم: «مَا خَلَأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا».

ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ، عَلَى ثَمَدٍ قَلِيلِ الْمَاءِ، يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلْبِثْهُ النَّاسُ حَتَّى نَزَحُوهُ، وَشُكِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم الْعَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَجِيشُ لَهُمْ بِالرِّيِّ حَتَّى صَدَرُوا عَنْهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ جَاءَ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ في نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللَّهِ صلى اللَّه عليه وسلم مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ، وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ، نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ

وَصَادُوكَ عَنِ الْبَيْتِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّا لَمْ نَجِيءْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلاَّ فَقَدْ جَمُّوا (أي: استراحوا)، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ».

فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ. قَالَ: فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قُرَيْشًا قَالَ: إِنَّا قَدْ جِئْنَاكُمْ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَسَمِعْنَاهُ يَقُولُ قَوْلاً، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعْرِضَهُ عَلَيْكُمْ فَعَلْنَا، فَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لاَ حَاجَةَ لَنَا أَنْ تُخْبِرَنَا عَنْهُ بِشَيْءٍ. وَقَالَ ذَوُو الرَّأْيِ مِنْهُمْ: هَاتِ مَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ. قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم. فَقَامَ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ! أَلَسْتُمْ بِالْوَالِدِ؟ قَالُوا بَلَى. قَالَ: أَوَ لَسْتُ بِالْوَلَدِ؟ قَالُوا بَلَى. قَالَ: فَهَلْ تَتَّهِمُونِي؟ قَالُوا لاَ. قَالَ: أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي اسْتَنْفَرْتُ أَهْلَ عُكَاظٍ، فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بِأَهْلِي وَوَلَدِي وَمَنْ أَطَاعَنِي؟ قَالُوا بَلَى. قَالَ: فَإِنَّ هَذَا قَدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا وَدَعُونِي آتِهِ. قَالُوا ائْتِهِ.

فَأَتَاهُ فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم نَحْوًا مِنْ قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقَالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ إِنِ اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟! وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى، فَإِنِّي وَاللَّهِ لأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لأَرَى أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: امْصُصْ بَظْرَ اللاَّتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟! فَقَالَ مَنْ ذَا؟ قَالُوا أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْلاَ يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لأَجَبْتُكَ.

قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِهِ، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِهِ إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم. فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ. فَقَالَ أَيْ غُدَرُ، أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ؟! وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَتَلَهُمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَمَّا الإِسْلاَمَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ».

ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِعَيْنَيْهِ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نُخَامَةً إِلاَّ وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ، يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مُحَمَّدًا، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، فَاقْبَلُوهَا.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِهِ. فَقَالُوا ائْتِهِ. وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الفَتْحِ

الحلقة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

مرَّ معنا في الحلقة السابقة مجيء عُرْوَة بْن مَسْعُود إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليفاوضه في صلح الحديبية.. فَأَتَاهُ فَجَعَل يُكَلِّمُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم نَحْوًا من قَوْله لبُدَيْل، فَقَالَ عُرْوَة عِنْدَ ذَلِكَ: أَيْ مُحَمَّدُ، أَرَأَيْتَ إن اسْتَأْصَلْتَ أَمْرَ قَوْمِكَ، هَلْ سَمِعْتَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ اجْتَاحَ أَهْلَهُ قَبْلَكَ؟! وَإِنْ تَكُنِ الأُخْرَى، فَإِنِّي وَاللَّهِ لأَرَى وُجُوهًا، وَإِنِّي لأَرَى أَوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أَنْ يَفِرُّوا وَيَدَعُوكَ. فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: امْصُصْ بَظْرَ اللاَّتِ، أَنَحْنُ نَفِرُّ عَنْهُ وَنَدَعُهُ؟! فَقَالَ مَنْ ذَا؟ قَالُوا أَبُو بَكْرٍ. قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَوْلاَ يَدٌ كَانَتْ لَكَ عِنْدِي لَمْ أَجْزِكَ بِهَا لأَجَبْتُكَ.

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

قَالَ: وَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَكُلَّمَا تَكَلَّمَ أَخَذَ بِلِحْيَتِه، وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَمَعَهُ السَّيْفُ وَعَلَيْهِ الْمِغْفَرُ، فَكُلَّمَا أَهْوَى عُرْوَةُ بِيَدِه إِلَى لِحْيَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ضَرَبَ يَدَهُ بِنَعْلِ السَّيْفِ، وَقَالَ لَهُ: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم. فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ فَقَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ. فَقَالَ أَيْ غُدَرُ، أَلَسْتُ أَسْعَى فِي غَدْرَتِكَ؟! وَكَانَ الْمُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَتَلَهُمْ، وَأَخَذَ أَمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فَأَسْلَمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَمَّا الإِسْلاَمَ فَأَقْبَلُ، وَأَمَّا الْمَالَ فَلَسْتُ مِنْهُ فِي شَيْءٍ».

ثُمَّ إِنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بِعَيْنَيْهِ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نُخَامَةً إِلاَّ وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِه، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إِلَى أَصْحَابِه، فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَفَدْتُ عَلَى الْمُلُوكِ، وَوَفَدْتُ عَلَى قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَالنَّجَاشِيِّ، وَاللَّهِ إِنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ، يُعَظِّمُهُ أَصْحَابُهُ مَا يُعَظِّمُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ إِنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إِلاَّ وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ، وَإِذَا أَمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِه، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ عَرَضَ عَلَيْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، فَاقْبَلُوهَا.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِهِ. فَقَالُوا ائْتِهِ.

فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم وَأَصْحَابِهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «هَذَا فُلَانٌ، وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ». فَبُعِثَتْ لَهُ، وَاسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ! مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ قَالَ: رَأَيْتُ الْبُدْنَ قَدْ قُلِّدَتْ وَأُشْعِرَتْ، فَمَا أَرَى أَنْ يُصَدُّوا عَنِ الْبَيْتِ. فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ مِكْرَزُ بْنُ حَفْصٍ فَقَالَ: دَعُونِي آتِهِ. فَقَالُوا ائْتِهِ. فَلَمَّا أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «هَذَا مِكْرَزٌ وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ». فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَبَيْنَمَا هُوَ يُكَلِّمُهُ إِذْ جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو. قَالَ مَعْمَرٌ فَأَخْبَرَنِي أَيُّوبُ عَنْ عِكْرِمَةَ، أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ».

قَالَ مَعْمَرٌ قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ فَجَاءَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: هَاتِ اكْتُبْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابًا، فَدَعَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الْكَاتِبَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ». قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمَنُ فَوَ اللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ؟ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ. فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: وَاللهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ». ثُمَّ قَالَ: «هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ». فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ مَا صَدَدْنَاكَ عَنِ الْبَيْتِ وَلَا قَاتَلْنَاكَ، وَلَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «وَاللهِ إِنِّي لَرَسُولُ اللهِ وَإِنْ كَذَّبْتُمُونِي. اكْتُبْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ».

قَالَ الزُّهْرِيُّ: وَذَلِكَ لِقَوْلِهِ: «لَا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلَّا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «عَلَى أَنْ تُخَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ فَنَطُوفَ بِهِ». فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَاللهِ لَا تَتَحَدَّثُ الْعَرَبُ أَنَّا أَخَذْنَا ضُغْطَةً، وَلَكِنْ ذَلِكَ مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ، فَكَتَبَ. فَقَالَ سُهَيْلٌ: وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ- وَإِنْ كَانَ عَلَى دِينِكَ- إِلَّا رَدَدْتَهُ إِلَيْنَا. قَالَ الْمُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللهِ! كَيْفَ يُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟! فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ أَسْفَلِ مَكَّةَ، حَتَّى رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُسْلِمِينَ. فَقَالَ سُهَيْلٌ: هَذَا يَا مُحَمَّدُ أَوَّلُ مَا أُقَاضِيكَ عَلَيْهِ، أَنْ تَرُدَّهُ إِلَيَّ. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ». قَالَ: فَوَاللهِ إِذًا لَمْ أُصَالِحْكَ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا. قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «فَأَجِزْهُ لِي». قَالَ: مَا أَنَا بِمُجِيزِهِ لَكَ. قَالَ: «بَلَى، فَافْعَلْ». قَالَ: مَا أَنَا بِفَاعِلٍ. قَالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قَدْ أَجَزْنَاهُ لَكَ. قَالَ أَبُو جَنْدَلٍ: أَيْ مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَقَدْ جِئْتُ مُسْلِمًا؟! أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ لَقِيتُ؟! وَكَانَ قَدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا فِي اللهِ.

قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: «بَلَى». قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: «بَلَى». قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟! قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي». قُلْتُ: أَوَ لَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ الْعَامَ»؟. قَالَ: قُلْتُ لَا. قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ».

قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ بَلَى. قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ بَلَى. قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ، إِنَّهُ

لِرَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الْحَقِّ. قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ؟ قُلْتُ لَا قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَّوِّفٌ بِهِ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالًا. قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الْكِتَابِ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَانْحَرُوا، ثُمَّ احْلِقُوا». قَالَ: فَوَ اللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ، حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ.

فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ؟ اخْرُجْ ثُمَّ لَا تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ. فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ، حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ، نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ. فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ، قَامُوا فَنَحَرُوا، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ» حَتَّى بَلَغَ «وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ». فَطَلَّقَ عُمَرُ يَوْمَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا لَهُ فِي الشِّرْكِ، فَتَزَوَّجَ إِحْدَاهُمَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، وَالْأُخْرَى صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ.

ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِلَى الْمَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ - رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ - وَهُوَ مُسْلِمٌ، فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا: الْعَهْدَ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا. فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَغَا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمْرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ فَقَالَ أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيِّدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ.

فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْهِ، فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ، وَفَرَّ الْآخَرُ، حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْدُو. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حِينَ رَآهُ: «لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا». فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي، وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ. قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «وَيْلُ أُمِّهِ! مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ».

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ عَرَفَ أَنَّهُ سَيَرُدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سِيفَ الْبَحْرِ. قَالَ: وَيَنْفَلِتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلِ بْنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عِصَابَةٌ، فَوَ اللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بِعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم تُنَاشِدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ» حَتَّى بَلَغَ «الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ»، وَكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ، وَلَمْ يُقِرُّوا بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَحَالُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْبَيْتِ. (صحيح البخاري ٢٧٣١ و٢٧٣٢).

قَالَ الزُّهْرِيُّ فِي حَدِيثِهِ: ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ وَجْهِهِ ذَلِكَ قَافِلًا، حَتَّى إِذَا كَانَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، نَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا».

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الْفَتْحِ

الحلقة الثالثة

قال تعالى: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا»: (الفتح: ١-٤)

إعداد د. عبد العظيم بدوي

قوله تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا) فَتْحُ الْبَلَد عبارَةٌ عَن الظَّفر بِهِ عُنْوَةً أَوْ صُلْحًا، بحرَاب أَوْ بدُونه، فَإِنَّهُ مَا لَمْ يُظَفَّرْ بِهِ مُنْغلق، مَأْخُوذٌ من فَتْح بَاب الدَّار، وَإِسْنَادُهُ إِلَى نُون الْعَظَمَة لاسْتِنَاد أَفْعَال الْعباد إِلَيْهِ تَعَالَى خلقًا وَإِيجَادًا، وَفِيهِ من الْفَخَامَة الْمُنْبِئَة عَن عَظَمَة شَأْن الْمخبر جَلَّ جلالُهُ وعزَّ سُلْطَانُهُ مَا لَا يخْفَى. (إرشاد العقل السليم ٦/٩٧).

وَالْمُرَادُ بِالْفَتْحِ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَة، وَمَعْنَى الْوَصْف: «فَتْحًا مُبِينًا»: أَيْ بَيِّنًا ظَاهِرًا. وَذَلِكَ لأَنَّ الْمَقْصُودَ فِي فَتْحِ بُلْدَانِ الْمُشْرِكِينَ إِعْزَازُ دِينِ اللَّهِ، وَانْتِصَارُ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذَا حَصَلَ بِذَلِكَ الْفَتْحِ. (تيسير الكريم الرحمن: ٧/٩٢).

حاجة الدعوة إلى الأمن والأمان:

قَالَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَقَدْ كَانَ يَوْمُ الْحُدَيْبِيَةِ أَعْظَمَ الْفُتُوحِ، ذَلِكَ أَن النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم جَاءَ إِلَيْهَا فِي أَلْفٍ وَأَرْبَعمِائَة، فَلَمَّا وَقَعَ صُلْحٌ مَشَى النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، أَيْ تَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ فَدَخَلَ بَعْضُهُمْ أَرْضَ بَعْضٍ مِنْ أَجْلِ الْأَمْنِ بَيْنَهُمْ، وَعَلِمُوا وَسَمِعُوا عَنِ اللَّهِ فَمَا أَرَادَ أَحَدٌ الْإِسْلَامَ إِلَّا تَمَكَّنَ مِنْهُ، فَمَا مَضَتْ تِلْكَ السَّنَتَانِ إِلَّا وَالْمُسْلِمُونَ قَدْ جَاؤُوا إِلَى مَكَّةَ فِي عَشَرَةِ آلَافٍ.

وَفِي رِوَايَةٍ: فَلَمَّا كَانَتِ الْهُدْنَةُ أَمِنَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَالْتَقَوْا وَتَفَاوَضُوا الْحَدِيثَ وَالْمُنَاظَرَةَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدٌ يَعْقِلُ بِالْإِسْلَامِ إِلَّا دَخَلَ فِيهِ. (معالم التنزيل ٥/١٦٦، التحرير والتنوير ٢٦/ ١٤٥).

فَالدَّعْوَةُ تَنْتَشِرُ فِي الْأَمْنِ أَكْثَرُ مِنْهَا فِي الْخَوْفِ، وَتَنْتَشِرُ فِي السِّلْمِ أَكْثَرُ مِنْهَا فِي الْحَرْبِ، وَلِذَلِكَ كَانَ الْإِسْلَامُ دِينَ السَّلَامِ، دَعَا أَتْبَاعَهُ إِلَى قَبُولِ الدَّعْوَةِ إِلَى السِّلْمِ بَعْدَ نُشُوبِ الْحَرْبِ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» (الأنفال: ٦١)، ثُمَّ بَيَّنَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ يَنْبَغِي أَلَّا يَنْشَغِلَ بِنَوَايَا الْمُحَارِبِينَ الْخَبِيثَةِ، فَلَا يَمْتَنِعُ مِنْ إِجَابَتِهِمْ إِلَى السِّلْمِ مَخَافَةَ الْخَدِيعَةِ فَقَالَ تَعَالَى: «وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ» (الأنفال: ٦٢).

من فضائل النبي صلى الله عليه وسلم وخصائصه:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لِيَغْفِرَ

لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ»:

اللَّامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «لِيَغْفِرَ» هِيَ لَامُ كَيْ، لَكِنَّهَا تُخَالِفُهَا فِي الْمَعْنَى، وَالْمُرَادُ هُنَا أَنَّ اللَّهَ فَتَحَ لَكَ لِكَيْ يَجْعَلَ ذَلِكَ أَمَارَةً وَعَلَامَةً لِغُفْرَانِهِ لَكَ، فَكَأَنَّهَا لَامُ صَيْرُورَةٍ، وَلِهَذَا قَالَ عليه السلام: ((لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ)). (صحيح البخاري ٤١٧٧).

وَقَالَ الطَّبَرِيُّ وَابْنُ كَيْسَانَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ: الْمَعْنَى: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ لِيَغْفِرَ لَكَ، وَجَعَلَا هَذِهِ الْآيَةَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: « إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا » (النصر: ١- ٣).

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّد: وَهَذَا ضَعِيفٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ سُورَةَ النَّصْرِ إِنَّمَا نَزَلَتْ فِي آخِرِ مُدَّةِ النَّبِيِّ عليه السلام نَاعِيَةً لَهُ نَفْسَهُ، حَسْبَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاس رضي الله عنه عِنْدَمَا سَأَلَهُ عُمَرُ عَنْ ذَلِكَ.

وَالْآخَرُ: أَنَّ تَخْصِيصَ النَّبِيِّ عليه السلام بِالتَّشْرِيفِ كَانَ يَذْهَبُ، لِأَنَّ كُلَّ أَحَد مِنَ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ مُخَاطَبٌ بِهَذَا الَّذِي قَالَ الطَّبَرِيُّ، أَيْ سَبِّحْ وَاسْتَغْفِرْ لِكَيْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ، وَلَا يَتَضَمَّنُ هَذَا أَنَّ الْغُفْرَانَ قَدْ وَقَعَ، وَمَا قَدَّمْنَاهُ أَوَّلًا يَقْتَضِي وُقُوعَ الْغُفْرَانِ لِلنَّبِيِّ عليه السلام، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الصَّحَابَةِ لَهُ حِينَ قَامَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ: لِمَ تَصْنَعُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ: ((أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا)). (صحيح البخاري ٤٨٣٧).

قَالَ ابْنُ كَثِير رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ، وَلَيْسَ فِي حَدِيثٍ صَحِيحٍ فِي ثَوَابِ الْأَعْمَالِ لِغَيْرِهِ ((غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ))، وَهَذَا فِيهِ تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَهُوَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْبِرِّ وَالِاسْتِقَامَةِ الَّتِي لَمْ يَنَلْهَا بَشَرٌ سِوَاهُ لَا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنَ الْآخِرِينَ، وَهُوَ أَكْمَلُ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَسَيِّدُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَمَّا كَانَ أَطْوَعَ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى لِلَّهِ وَأَشَدَّهُمْ تَعْظِيمًا لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ قَالَ حِينَ بَرَكَتْ بِهِ النَّاقَةُ: ((حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ))، ثُمَّ قَالَ صلى الله عليه وسلم: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْأَلُونِي الْيَوْمَ شَيْئًا يُعَظِّمُونَ بِهِ حُرُمَاتِ اللَّهِ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ إِلَيْهَا))، فَلَمَّا أَطَاعَ اللَّهَ فِي ذَلِكَ وَأَجَابَ إِلَى الصُّلْحِ قَالَ اللَّهُ تعالى لَهُ: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ». (تفسير القرآن العظيم: ٤/١٨٣و١٨٤).

فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ مِنَ الْكَبَائِرِ بِالْإِجْمَاعِ، وَمِنَ الصَّغَائِرِ عَلَى الرَّاجِحِ، قَبْلَ الْبِعْثَةِ وَبَعْدَهَا، فَمَا هِيَ ذُنُوبُهُ الَّتِي غَفَرَهَا اللَّهُ لَهُ؟

فَالْجَوَابُ: الْمُرَادُ تَرْكُ مَا هُوَ الْأَوْلَى، وَسُمِّيَ ذَنْبًا فِي حَقِّهِ لِجَلَالَةِ قَدْرِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَنْبًا فِي حَقِّ غَيْرِهِ، فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ. (إرشاد العقل السليم: ٦/٩٨، فتح القدير: ٥/ ٥٣، روح المعاني: ١٣/ ٢٤٥)

«وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ» بِإِعْلَاءِ الدِّينِ، وَضَمِّ الْمُلْكِ إِلَى النُّبُوَّةِ، وَغَيْرِهِمَا مِمَّا أَفَاضَهُ عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ. (إرشاد العقل السليم: ٦/٩٨)، «وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا» وَيَزِيدُكَ فِي الْهِدَايَةِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا يُفْضِي بِكَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ وَالْجَنَّةِ، وَإِلَّا فَهُوَ صلى اللَّهُ عليه وسلم «عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» مُنْذُ أَنْ بُعِثَ، كَمَا أَقْسَمَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ فِي مَطْلَعِ سُورَةِ يس. «وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا» أَيْ: وَيَنْصُرُكَ عَلَى سَائِرِ أَعْدَائِكَ، وَمَنْ نَاوَأَكَ نَصْرًا لَا يَغْلِبُهُ غَالِبٌ،

وَلَا يَدْفَعُهُ دَافِعٌ، لِلْبَأْسِ الَّذِي يُؤَيِّدُكَ اللهُ بِهِ، وَبِالظَّفَرِ الَّذِي يُمِدُّكَ بِهِ. (جَامِعُ الْبَيَانِ: ٢٦/٧١)

مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ:

«هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا»:

السَّكِينَةُ مَعْنَاهَا السُّكُونُ وَالطُّمَأْنِينَةُ، وَالثَّبَاتُ عِنْدَ نُزُولِ الْمِحَنِ الْمُقْلِقَةِ، وَالْأُمُورِ الصَّعْبَةِ، الَّتِي تُشَوِّشُ الْقُلُوبَ، وَتُزْعِجُ الْأَلْبَابَ، وَتُضْعِفُ النُّفُوسَ، فَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ لَمَّا جَرَى مَا جَرَى بَيْنَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُشْرِكِينَ، مِنْ تِلْكَ الشُّرُوطِ الَّتِي ظَاهِرُهَا أَنَّهَا غَضَاضَةٌ عَلَيْهِمْ، وَحَطٌّ مِنْ أَقْدَارِهِمْ، لَمْ يَصْبِرُوا وَرَاجَعَ بَعْضُهُمُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا سَبَقَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللهِ حَقًّا؟ قَالَ: ((بَلَى)). قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى الْبَاطِلِ؟ قَالَ: ((بَلَى)). قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِ الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟!

فَعَلِمَ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ فَاطْمَأَنَّتْ نُفُوسُهُمْ بَعْدَ الاضْطِرَابِ، وَرَسَخَ يَقِينُهُمْ بَعْدَ خَوَاطِرِ الشَّكِّ، وَلَوْلَا ذَلِكَ الاطْمِئْنَانُ وَالرُّسُوخُ لَبَقَوْا كَاسِفِي الْبَالِ شَدِيدِي الْبِلْبَالِ.

فَمَنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَى عَبْدِهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ أَنْ يُثَبِّتَهُ وَيَرْبِطَ عَلَى قَلْبِهِ، وَيُنْزِلَ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ، لِيَتَلَقَّى هَذِهِ الْمَشَقَّاتِ بِقَلْبٍ ثَابِتٍ وَنَفْسٍ مُطْمَئِنَّةٍ، فَيَسْتَعِدَّ بِذَلِكَ لِإِقَامَةِ أَمْرِ اللهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ، فَيَزْدَادَ بِذَلِكَ إِيمَانُهُ، وَيَتِمَّ إِيقَانُهُ، فَلَمَّا صَبَرُوا عَلَيْهَا وَوَطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ لَهَا، ازْدَادُوا بِذَلِكَ إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ. (تيسير الكريم الرحمن ٧/٩٣) بتصرف).

الإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ» مِنْ أَظْهَرِ الْأَدِلَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَذْهَبِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي زِيَادَةِ الإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ، كَمَا قَالَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: كِتَابُ الإِيمَانِ: وَهُوَ قَوْلٌ وَفِعْلٌ، وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: «لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ»، «وَزِدْنَاهُمْ هُدًى»، «وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى»، «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ»، «وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا»، وَقَوْلُهُ «أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا»، وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ «فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا»، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا». (صحيح البخاري ١/٤٥)

قَالَ الْحَافِظُ رَحِمَهُ اللهُ: مَذْهَبُ السَّلَفِ أَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَقَدْ نَقَلَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ الْمَرْوَزِيُّ فِي كِتَابِهِ ((تَعْظِيمُ قَدْرِ الصَّلَاةِ)) عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الأَئِمَّةِ نَحْوَ ذَلِكَ، وَمَا نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ صَرَّحَ بِهِ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي مُصَنَّفِهِ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، وَالأَوْزَاعِيِّ، وَابْنِ جُرَيْجٍ وَمَعْمَرٍ وَغَيْرِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ فُقَهَاءُ الأَمْصَارِ فِي عَصْرِهِمْ. وَكَذَا نَقَلَهُ أَبُو الْقَاسِمِ اللَّالَكَائِيُّ فِي ((كِتَابِ السُّنَّةِ)) عَنِ الشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ، وَأَبِي عُبَيْدٍ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الأَئِمَّةِ، وَرَوَى بِسَنَدِهِ الصَّحِيحِ عَنِ الْبُخَارِيِّ قَالَ: لَقِيتُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِالأَمْصَارِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ يَخْتَلِفُ فِي أَنَّ الإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ. وَأَطْنَبَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَاللَّالَكَائِيُّ فِي نَقْلِ ذَلِكَ بِالأَسَانِيدِ عَنْ جَمْعٍ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَكُلِّ مَنْ يُدَارُ عَلَيْهِ الإِجْمَاعُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَحَكَاهُ فُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ وَوَكِيعٌ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ. (فتح الباري (١/ ٤٦و٤٧). فَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ أَنْ يَزِيدَنَا إِيمَانًا وَهُدًى.

وَلِلْحَدِيثِ بَقِيَّةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

رَمَضَانُ شَهْرُ القُرْآنِ

إعداد د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

إنَّ القُرْآنَ الكريمَ هُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ النُّورُ المُبِينُ، وَالصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنِ اتَّبَعَهُ، «كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (هود: ١).

وَلَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِتِلَاوَةِ القُرْآنِ فَقَالَ: «ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ» (العنكبوت: ٤٥)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا» (الكهف: ٢٧)؛ فقراءَةُ القُرْآنِ قُرْبَةٌ مِنْ أَعْظَمِ القُرَبِ، وَعِبَادَةٌ مِنْ أَجَلِّ العِبَادَاتِ، يُعْطِي اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهَا مِنَ الأَجْرِ وَالثَّوَابِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى غَيْرِهَا.

وَقَدْ سَمَّى اللهُ تَعَالَى تِلَاوَةَ القُرْآنِ التِّجَارَةَ الرَّابِحَةَ فَقَالَ: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ» (فاطر: ٢٩- ٣٠)؛ وَأَيُّ تِجَارَةٍ أَرْبَحُ مِنْ أَنْ يَكْسِبَ الجُنَيْهُ عَشْرًا، إِنَّ قَارِئَ القُرْآنِ يُعْطَى بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ.

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ» (صحيح الترمذي: ٢٩١٠).

وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ فِي غَيْرِ إِثْمٍ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ»، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: «أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عز وجل خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ» (صحيح مسلم ٨٠٣).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، يَقُولُ لِصَاحِبِهِ هَلْ تَعْرِفُنِي؟ أَنَا الَّذِي كُنْتُ أُسْهِرُ لَيْلَكَ، وَأُظْمِئُ هَوَاجِرَكَ، وَإِنَّ

كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَأَنَا لَكَ الْيَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تَاجِرٍ، فَيُعْطَى الْمُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالْخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا تَقُومُ بِهِمَا الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، فَيَقُولَانِ: يَا رَبِّ أَنَّى هَذَانِ؟ فَيُقَالُ بِتَعَلُّمِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ» (صحيح النسائي:٢٨٢٩).

وَلَقَدْ كَثُرَتِ الْأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي الْحَثِّ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالتَّرْغِيبِ فِيهَا:

فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ»، أي السَّحَرَةُ. (صحيح مسلم ٨٠٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يَجِيءُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ فَيُلْبَسُ تَاجَ الْكَرَامَةِ ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الْكَرَامَةِ ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ فَيَرْضَى عَنْهُ فَيُقَالُ لَهُ اقْرَأْ وَارْقَ وَتُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً». (صحيح الترمذي: ٢٩١٥).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «عليك بِتَقْوَى اللهِ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ رَوْحُكَ فِي السَّمَاءِ وَذِكْرُكَ فِي الْأَرْضِ». (صحيح النسائي:٥٥٥)

آداب التلاوة:

وَلِلْقِرَاءَةِ آدَابٌ، يُسْتَحَبُّ لِلْقَارِئِ أَنْ يَأْخُذَ نَفْسَهُ بِهَا لِيَعْظُمَ أَجْرُهُ وَيَزْدَادَ ثَوَابُهُ:

أَوَّلًا: آدَابُ قَبْلَ الْقِرَاءَةِ:

فَأَوَّلُ ذَلِكَ: يَجِبُ عَلَى الْقَارِئِ الْإِخْلَاصُ وَمُرَاعَاةُ الْأَدَبِ مَعَ الْقُرْآنِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَحْضِرَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ يُنَاجِي اللهَ تَعَالَى، وَيَقْرَأُ عَلَى حَالِ مَنْ يَرَى اللهَ تَعَالَى، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَرَاهُ.

وَيَنْبَغِي إِذَا أَرَادَ الْقِرَاءَةَ أَنْ يُنَظِّفَ فَاهُ بِالسِّوَاكِ وَغَيْرِهِ.

وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَقْرَأَ وَهُوَ عَلَى طَهَارَةٍ، فَإِنْ قَرَأَ مُحْدِثًا جَازَ بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ.

وَيُسْتَحَبُّ أَنْ تَكُونَ الْقِرَاءَةُ فِي مَكَانٍ نَظِيفٍ مُخْتَارٍ، وَلِهَذَا اسْتَحَبَّ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْقِرَاءَةَ فِي الْمَسْجِدِ، لِكَوْنِهِ جَامِعًا لِلنَّظَافَةِ وَشَرَفِ الْبُقْعَةِ.

وَيُسْتَحَبُّ لِلْقَارِئِ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ.

(التبيان في آداب حملة القرآن. للإمام النووي).

ثَانِيًا: آدَابٌ عِنْدَ الشُّرُوعِ فِي الْقِرَاءَةِ:

فَإِنْ أَرَادَ الشُّرُوعَ فِي الْقِرَاءَةِ اسْتَعَاذَ، لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» (الإسراء: ٩٨):

وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ مُسْتَحَبَّةٌ لَيْسَتْ بِمُتَحَتِّمَةٍ يَأْثَمُ تَارِكُهَا (تفسير ابن كثير ١/ ٢٩).

ثَالِثًا: آدَابٌ أَثْنَاءَ الْقِرَاءَةِ:

فَإِذَا شَرَعَ فِي الْقِرَاءَةِ فَلْيَكُنْ شَأْنُهُ الْخُشُوعَ وَالتَّدَبُّرَ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ، وَالدَّلَائِلَ عَلَيْهِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَرَ، وَأَشْهَرُ وَأَظْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ، فَهُوَ الْمَقْصُودُ الْمَطْلُوبُ، وَبِهِ تَنْشَرِحُ الصُّدُورُ، وَتَسْتَنِيرُ الْقُلُوبُ، قَالَ اللهُ عزوجل: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا» (النساء: ٨٢)، وَقَالَ تَعَالَى: «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ» (ص: ٢٩)، وَالْأَحَادِيثُ فِيهِ كَثِيرَةٌ، وَأَقَاوِيلُ السَّلَفِ فِيهِ مَشْهُورَةٌ، وَقَدْ بَاتَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَتْلُونَ آيَةً وَاحِدَةً يَتَدَبَّرُونَهَا وَيُرَدِّدُونَهَا إِلَى الصَّبَاحِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يُرَتِّلَ قِرَاءَتَهُ، وَقَدِ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ عَلَى اسْتِحْبَابِ التَّرْتِيلِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: «وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا» (المزمل: ٤)، وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: سُئِلَ أَنَسٌ: كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم؟ فَقَالَ: كَانَتْ

مَدًّا. ثُمَّ قَرَأَ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، يَمُدُّ بِبِسْمِ اللهِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ. (صحيح البخاري: ٥٠٤٦).

وَقَدْ نُهِيَ عَنِ الإِفْرَاطِ فِي الإِسْرَاعِ، وَيُسَمَّى الْهَذْرَمَةَ، فَثَبَتَ عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ نَهِيكُ بْنُ سِنَانٍ إِلَى عَبْدِ اللهِ فَقَالَ: إِنِّي لأَقْرَأُ الْمُفَصَّلَ فِي رَكْعَةٍ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ: هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ! إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ. (صحيح البخاري: ٥٠٤٣).

فَعَلَى الْقَارِئِ أَنْ يَهْتَمَّ بِالتَّرْتِيلِ، وَأَنْ يَتَأَنَّى فِي الْقِرَاءَةِ، لِيَتَدَبَّرَ وَيَعِيَ وَيَفْهَمَ عَنِ اللهِ مُرَادَهُ، وَمَتَى وَجَدَ قَلْبُهُ فِي آيَةٍ فَلاَ مَانِعَ مِنْ أَنْ يَقِفَ عِنْدَهَا وَيُرَدِّدَهَا، فَذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُسْرِعَ فِي الْقِرَاءَةِ، وَأَنْ يَكُونَ هَمُّهُ كَثْرَةَ الْمَقْرُوءِ لاَ تَدَبُّرَهُ.

وَيُسْتَحَبُّ إِذَا مَرَّ بِآيَةِ رَحْمَةٍ أَنْ يَسْأَلَ اللهَ تَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ عَذَابٍ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِاللهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةِ تَنْزِيهِ للهِ تَعَالَى نَزَّهَ، فَقَدْ صَحَّ عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ لَيْلَةٍ فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ. ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ يَرْكَعُ بِهَا. ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ». فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ، ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». ثُمَّ قَامَ طَوِيلاً قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى». فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ. (صحيح مسلم: ٧٧٢).

وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَأَمَّلَ آيَاتِ الْوَعِيدِ وَيُكَرِّرَهَا وَيَقِفَ عِنْدَهَا لِيُثِيرَ فِي قَلْبِهِ الْخَوْفَ وَالْحُزْنَ، وَيُثِيرَ فِي عَيْنِهِ الْبُكَاءَ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، فَإِنَّ الْبُكَاءَ عِنْدَ الْقِرَاءَةِ مِنْ هَدْيِ النَّبِيِّينَ، وَهُوَ شِعَارُ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (مريم: ٥٨)، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ (الإسراء: ١٠٧-١٠٩).

وَيُسْتَحَبُّ الإِكْثَارُ مِنَ التِّلاَوَةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ؛ لأَنَّهُ شَهْرُ الْقُرْآنِ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَعْرِضُ الْقُرْآنَ عَلَى جِبْرِيلَ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ عَرَضَهُ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ. (صحيح البخاري: ٤٩٩٨).

وَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُكْثِرَ مِنَ الْقِرَاءَةِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنْ يَكُونَ اعْتِنَاؤُهُ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ فِي اللَّيْلِ أَكْثَرَ، لأَمْرِ اللهِ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ (المزمل: ١- ٤).

وَلَقَدْ اسْتَجَابَ صلى الله عليه وسلم لأَمْرِ رَبِّهِ، فَكَانَ يُطِيلُ الْقِرَاءَةَ فِي صَلاَةِ اللَّيْلِ؛ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ فَمَضَى، فَقُلْتُ يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلاً، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ. (صحيح مسلم ٧٧٢).

وَحَثَّ صلى الله عليه وسلم عَلَى كَثْرَةِ الْقِرَاءَةِ فِي صَلاَةِ اللَّيْلِ فَقَالَ: «مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطَرِينَ» (صحيح أبي داود: ١٢٤٦)، وَكَانَ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «أَفْضَلُ الصَّلاَةِ طُولُ الْقُنُوتِ» (صحيح مسلم ٧٥٦).

وَالْمُرَادُ بِالْقُنُوتِ الْقِيَامُ، لِوَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ! مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ. وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ. قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ». (صحيح الترغيب ٩٨٤).

نسأل الله أن يجعلنا من أهل القرآن، والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الْفَتْحِ

الحلقة الرابعة

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الفتح: ٤-٨).

إعداد: د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

«وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالشَّيَاطِينِ، وَالْمَاءِ وَالْهَوَاءِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ» (المدثر: ٣١)، فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَ أَحَدَ جُنُودِهِ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ صَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَأَبَادَهُمْ وَأَهْلَكَهُمْ عَنْ بَكْرَةِ أَبِيهِمْ، لَكِنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عز وجل: «وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ» (محمد: ٤)، أي وَلَكِنَّهُ تَعَالَى شَرَعَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْجِهَادَ وَالْقِتَالَ، لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ وَالْبَرَاهِينِ الدَّامِغَةِ، وَلِهَذَا قَالَ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ: «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا». (تفسير القرآن العظيم: ٤/١٨٤).

جزاءُ المؤمنين والكافرين:

ثُمَّ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى مَا هُوَ فَاعِلٌ بِالْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: «لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا» أَيْ مَاكِثِينَ فِيهَا أَبَدًا، «وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ» أَيْ خَطَايَاهُمْ وَذُنُوبَهُمْ فَلَا يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهَا، بَلْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ، وَيَغْفِرُ وَيَسْتُرُ، وَيَرْحَمُ وَيَشْكُرُ، «وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا» كَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: «فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ» (آل عمران: ١٨٥).

فَإِنْ قِيلَ: لِمَ قَدَّمَ إِدْخَالَهُمُ الْجَنَّاتِ عَلَى تَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ، مَعَ أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّاتِ إِلَّا بَعْدَ تَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ؟

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدَّمَ الْأَفْضَلَ وَالْأَعْظَمَ، أَوْ أَنَّ الْوَاوَ تُفِيدُ التَّرْتِيبَ فِي الذِّكْرِ لَا فِي الْوَاقِعِ.

ثُمَّ لَمَّا فَرَغَ مِمَّا وَعَدَ بِهِ صَالِحِي عِبَادِهِ ذَكَرَ مَا يَسْتَحِقُّهُ غَيْرُهُمْ، فَقَالَ تَعَالَى: «وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا».

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَيُعَذِّبَ» مَعْطُوفٌ عَلَى «لِيُدْخِلَ»، أَيْ: يُعَذِّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِمَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْهُمُومِ وَالْغُمُومِ بِسَبَبِ مَا يُشَاهِدُونَهُ مِنْ ظُهُورِ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ وَقَهْرِ الْمُخَالِفِينَ لَهُ، وَبِمَا يُصَابُونَ بِهِ مِنَ الْقَهْرِ وَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، وَفِي الْآخِرَةِ بِعَذَابِ جَهَنَّمَ.

وَفِي تَقْدِيمِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ عَذَابًا، وَأَحَقُّ مِنْهُمْ بِمَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِهِ، لأَنَّهُمْ أَظْهَرُوا الإِسْلامَ وَأَبْطَنُوا الْكُفْرَ، فَكَانَ خَطَرُهُمْ عَظِيمًا وَضَرَرُهُمْ جَسِيمًا، وَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: «هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ» (المنافقون: ٤)، وَأَكْثَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ ذِكْرِ خِصَالِهِمْ وَصِفَاتِهِمْ حَتَّى يَكُونَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى حَذَرٍ مِنْهُمْ.

ثُمَّ وَصَفَ الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ: «الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ»، وَهُوَ ظَنُّهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يُغْلَبُ، وَأَنَّ كَلِمَةَ الْكُفْرِ تَعْلُو كَلِمَةَ الإِسْلامِ.

وَمِمَّا ظَنُّوهُ مَا حَكَاهُ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: «بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا» (الفتح: ١٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ» أَيْ: مَا يَظُنُّونَهُ وَيَتَرَبَّصُونَهُ بِالْمُؤْمِنِينَ دَائِرٌ عَلَيْهِمْ، حَائِقٌ بِهِمْ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْعَذَابَ وَالْهَلاكَ الَّذِي يَتَوَقَّعُونَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَاقِعَانِ عَلَيْهِمْ، نَازِلانِ بِهِمْ (فتح القدير للشوكاني ٥/٥٤).

«ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (المائدة)، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: «وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا».

«وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا».

قِيلَ فِي سِرِّ التَّكْرِيرِ: إِنَّهُ ذُكِرَ سَابِقًا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَنَّهُ الْمُدَبِّرُ لأَمْرِ الْمَخْلُوقَاتِ بِمُقْتَضَى حِكْمَتِهِ، فَلِذَلِكَ ذَيَّلَهُ بِقَوْلِهِ: «عَلِيمًا حَكِيمًا»، وَهُنَا أُرِيدَ بِهِ التَّهْدِيدُ بِأَنَّهُمْ فِي قَبْضَةِ قُدْرَةِ الْمُنْتَقِمِ، فَلِذَا ذَيَّلَهُ بِقَوْلِهِ: «عَزِيزًا حَكِيمًا» فَلا تَكْرَارَ. وَقِيلَ: إِنَّ الْجُنُودَ جُنُودُ رَحْمَةٍ، وَجُنُودُ عَذَابٍ، وَأَنَّ الْمُرَادَ هُنَا الثَّانِي، وَلِذَا تَعَرَّضَ لِوَصْفِ الْعِزَّةِ. وَقَالَ الْقَاشَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: كَرَّرَهَا لِيُفِيدَ تَغْلِيبَ الْجُنُودِ الأَرْضِيَّةِ عَلَى السَّمَاوِيَّةِ فِي الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، بِعَكْسِ مَا فَعَلَ بِالْمُؤْمِنِينَ. وَبَدَّلَ عَلِيمًا بِقَوْلِهِ عَزِيزًا لِيُفِيدَ مَعْنَى الْقَهْرِ وَالْقَمْعِ، لأَنَّ الْعِلْمَ مِنْ بَابِ اللُّطْفِ، وَالْعِزَّةَ مِنْ بَابِ الْقَهْرِ. (محاسن التأويل: ١٥/٦٨).

صفاتُ النَّبي صلى الله عليه وسلم وحَقُّه على الأُمَّة:

«إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلا»:

لَمَّا أُرِيدَ الانْتِقَالُ مِنَ الْوَعْدِ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ وَمَا اقْتَضَاهُ ذَلِكَ مِمَّا اتَّصَلَ بِهِ ذِكْرُهُ إِلَى تَبْيِينِ مَا جَرَى فِي حَادِثَةِ الْحُدَيْبِيَةِ وَإِبْلاغِ كُلِّ ذِي حَظٍّ مِنْ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ نَصِيبَهُ الْمُسْتَحَقَّ ثَنَاءً أَوْ غَيْرَهُ صَدَّرَ ذَلِكَ بِذِكْرِ مُرَادِ اللَّهِ مِنْ إِرْسَالِ رَسُولِهِ صلى الله عليه وسلم لِيَكُونَ ذَلِكَ كَالْمُقَدِّمَةِ لِلْقِصَّةِ، وَذُكِرَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِرْسَالِهِ مَا لَهُ مَزِيدُ اخْتِصَاصٍ بِالْوَاقِعَةِ الْمُتَحَدَّثِ عَنْهَا، فَذُكِرَتْ أَوْصَافٌ ثَلاثَةٌ هِيَ: شَاهِدٌ، وَمُبَشِّرٌ، وَنَذِيرٌ. وَقُدِّمَ مِنْهَا وَصْفُ الشَّاهِدِ لأَنَّهُ يَتَفَرَّعُ عَنْهُ الْوَصْفَانِ بَعْدَهُ. (التحرير والتنوير (٢٦/١٥٥).

فَالشَّاهِدُ: الْمُخْبِرُ عَنْ حُجَّةِ الْمُدَّعِي الْمُحِقِّ وَدَفْعِ دَعْوَى الْمُبْطِلِ، فَالرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم شَاهِدٌ بِصِحَّةِ مَا هُوَ صَحِيحٌ مِنَ الشَّرَائِعِ وَبَقَاءِ مَا هُوَ صَالِحٌ لِلْبَقَاءِ مِنْهَا، وَيَشْهَدُ بِبُطْلانِ مَا أُلْصِقَ بِهَا وَبِنَسْخِ مَا لا يَنْبَغِي بَقَاؤُهُ مِنْ أَحْكَامِهَا بِمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ (التحرير والتنوير (٢٢/٥٢).

قَالَ تَعَالَى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ» (المائدة: ٤٨).

وَهُوَ صلى الله عليه وسلم شَاهِدٌ لِلرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ عَلَى أَنَّهُمْ بَلَّغُوا أَقْوَامَهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (البقرة: ١٤٣).

وَهُوَ صلى الله عليه وسلم شَاهِدٌ

عَلَى أُمَّتِه بِمُرَاقَبَةِ جَرْيِهِمْ عَلَى الشَّرِيعَةِ فِي حَيَاتِه، وَشَاهِدٌ عَلَيْهِمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، قَالَ تَعَالَى: « وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ » (النحل: ٨٩).

وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُشْفِقُ عَلَى أُمَّتِه مِنْ شَهَادَتِه عَلَيْهِم، حَتَّى إِنَّهُ بَكَى لَمَّا تُلِيَتْ عَلَيْه آيَةُ «وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا » (النساء: ٤١):

عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «اقْرَأْ عَلَيَّ، قَالَ: قُلْتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، قَالَ: فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ «وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» قَالَ لِي: كُفَّ، أَوْ أَمْسِكْ. فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ». (صحيح البخاري ٥٠٥٥).

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ بَكَى رَحْمَةً لِأُمَّتِه، لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْهِمْ بِعَمَلِهِم، وَعَمَلُهُمْ قَدْ لَا يَكُونُ مُسْتَقِيمًا، فَقَدْ يُفْضِي إِلَى تَعْذِيبِهِم. (فتح الباري: ٩/٩٩).

وَقَدْ رَحِمَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم وَخَفَّفَ عَنْهُ مِنْ قَلَقِه عَلَى أُمَّتِه، وَوَعَدَهُ أَنْ يُنَجِّيَهُمْ أَجْمَعِين:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم تَلَا قَوْلَ اللهِ عز وجل فِي إِبْرَاهِيمَ «رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي» (إبراهيم: ٣٦)، الآيَةَ، وَقَالَ عِيسَى عليه السلام «إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (المائدة: ١١٨)، فَرَفَعَ يَدَيْه وَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي. وَبَكَى. فَقَالَ اللهُ عز وجل: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ» صحيح مسلم.

قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: هَذَا الْحَدِيثُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ اللهِ عز وجل: «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى» (الضحى: ٥)، وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْفَوَائِدِ:

مِنْهَا: بَيَانُ كَمَالِ شَفَقَةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَلَى أُمَّتِه، وَاعْتِنَائِه بِمَصَالِحِهِمْ وَاهْتِمَامِه بِأَمْرِهِمْ.

وَمِنْهَا: الْبِشَارَةُ الْعَظِيمَةُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ- زَادَهَا اللهُ شَرَفًا- بِمَا وَعَدَهَا اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِه: «سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ». قَالَ صَاحِبُ التَّحْرِيرِ: وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «وَلَا نَسُوءُكَ» تَأْكِيدٌ لِلْمَعْنَى، أَيْ لَا نُخْزِيكَ، لِأَنَّ الْإِرْضَاءَ قَدْ يَحْصُلُ فِي حَقِّ الْبَعْضِ بِالْعَفْوِ عَنْهُم، وَيُدْخِلُ الْبَاقِيَ النَّارَ. فَقَالَ تَعَالَى: نُرْضِيكَ وَلَا نُدْخِلُ عَلَيْكَ حُزْنًا، بَلْ نُنَجِّي الْجَمِيعَ. (شرح النووي ١/١٩١).

وَالْوَصْفُ الثَّانِي وَالثَّالِثُ مِنْ أَوْصَافِه صلى الله عليه وسلم كَوْنُهُ «مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» أَيْ مُبَشِّرًا لِمَنْ آمَنَ بِه وَاتَّبَعَهُ بِنَعِيمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَنَذِيرًا لِمَنْ كَفَرَ بِه وَعَصَاهُ بِجَحِيمِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِه مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (البقرة: ٢٥)، وَقَالَ تَعَالَى: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» (التوبة: ٢)، وَقَالَ تَعَالَى: «بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» (النساء: ١٣٨)، وَالْمُرَادُ بِالْبِشَارَةِ فِي حَقِّ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ النِّذَارَةِ، وَإِنَّمَا أَتَى بِالْبِشَارَةِ تَهَكُّمًا وَسُخْرِيَةً.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الْفَتْحِ

الحلقة الرابعة

قال تعالى: « لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا »

(الفتح: ٩-١٠).

إعداد د. عبد العظيم بدوي

ما يزال حديثنا متصلاً حول صفات النبي صلى الله عليه وسلم، وحقه على الأمة:

فقد بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى الْحِكْمَةَ مِنْ إِرْسَالِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ أَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ حَقَّ اللهِ وَحَقَّ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » (الفتح: ٩) أَيْ: أَرْسَلْنَاهُ لِتَقُومُوا بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، «وَتُعَزِّرُوهُ» قَالَ قَتَادَةُ: تَنْصُرُوهُ وَتَمْنَعُوهُ مِمَّنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ. (فتح القدير ٥/٥٦). قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه وَغَيْرُ وَاحِدٍ: مِنَ التَّوْقِيرِ وَهُوَ الِاحْتِرَامُ وَالْإِجْلَالُ وَالْإِعْظَامُ. (تفسير القرآن العظيم: ٤/١٨٥) وَهُنَا وَقْفٌ تَامٌّ، ثُمَّ يَبْتَدِئُ «وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ» أَيْ: تُسَبِّحُوا اللهَ عزَّ وجلَّ «بُكْرَةً وَأَصِيلًا» أَيْ: غُدْوَةً وَعَشِيَّةً. (الجامع لأحكام القرآن ١٦/٢٦٧).

كَمَا أَمَرَكُمْ، حَيْثُ قَالَ سُبْحَانَهُ: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » (الأحزاب: ٤١-٤٢)، سَوَاءٌ أُرِيدَ بِالتَّسْبِيحِ قَوْلُ سُبْحَانَ اللهِ، أَوْ أُرِيدَ بِهِ الصَّلَاةُ، فَأَوَّلُ النَّهَارِ وَآخِرُهُ مَحَلٌّ لِذَا وَذَاكَ، فَمِنَ الْأَذْكَارِ الْمَشْرُوعَةِ فِي الصَّبَاحِ وَالْمَسَاءِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ، وَفِي أَوَّلِ النَّهَارِ صَلَاةُ الصُّبْحِ، وَآخِرِهِ صَلَاةُ الْعَصْرِ.

فَأَشَارَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى أَعْظَمِ حُقُوقِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم عَلَى الْعِبَادِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِهِ، صلى الله عليه وسلم وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَتَى بِهِ. قَالَ تَعَالَى: « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (الأعراف: ١٥٨).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ». (صحيح البخاري ٨)

فَالإِيمَانُ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وَاجِبٌ مُتَعَيِّنٌ، لاَ يَتِمُّ إِيمَانٌ إِلا بِهِ، وَلا يَصِحُّ إِسْلاَمٌ إِلا مَعَهُ.

وَالإِيمَانُ بِهِ صلى الله عليه وسلم هُوَ تَصْدِيقُ نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَةِ اللهِ لَهُ، وَتَصْدِيقُهُ فِي جَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ وَمَا قَالَهُ. وَمُطَابِقَةُ تَصْدِيقِ الْقَلْبِ بِذَلِكَ شَهَادَةُ اللِّسَانِ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَإِذَا اجْتَمَعَ التَّصْدِيقُ بِهِ بِالْقَلْبِ وَالنُّطْقِ بِالشَّهَادَةِ بِذَلِكَ بِاللِّسَانِ تَمَّ الإِيمَانُ بِهِ وَالتَّصْدِيقُ لَهُ.

وَقَدْ جَمَعَ الْقَاضِي عِيَاضٍ رَحِمَهُ اللهُ حُقُوقَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فِي كِتَابِهِ «الشِّفَا بِتَعْرِيفِ حُقُوقِ الْمُصْطَفَى» فَأَجَادَ وَأَفَادَ.

وَقَدْ وَعَدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْ قَامَ بِحَقِّ رَسُولِهِ مِنَ التَّوْقِيرِ وَالتَّعْزِيزِ بِالْفَلاحِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَقَالَ عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ:

«إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا»:

عَرَفْنَا مِنَ الرِّوَايَاتِ الَّتِي قَدَّمْنَاهَا بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم سَارَ بِأَصْحَابِهِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالثَّنِيَّةِ الَّتِي يُهْبَطُ عَلَيْهِمْ مِنْهَا، بَرَكَتْ بِهِ رَاحِلَتُهُ. فَقَالَ النَّاسُ: حَلْ. حَلْ. فَأَلَحَّتْ، فَقَالُوا خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ، خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ. فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «مَا خَلأَتِ الْقَصْوَاءُ، وَمَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لاَ يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللهِ إِلا أَعْطَيْتُهُمْ إِيَّاهَا». ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، قَالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حَتَّى نَزَلَ بِأَقْصَى الْحُدَيْبِيَةِ. فَجَاءَهُ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ خُزَاعَةَ، وَكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ أَهْلِ تِهَامَةَ، فَقَالَ: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ، وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ، نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الْحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمُ الْعُوذُ الْمَطَافِيلُ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ الْبَيْتِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهِكَتْهُمُ الْحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ فَإِنْ شَاؤُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلاَّ فَقَدْ جَمُّوا (أي: استراحوا)، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ اللهُ أَمْرَهُ». فَقَالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ مَا تَقُولُ. فَاسْتَأْذَنَهُمْ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فِي أَنْ يَأْتِيَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَيَتَكَلَّمَ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ الْخُزَاعِيُّ.

فَأَرَادَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَصْحَابِهِ مَنْ هُوَ مِنْهُمْ لِيَكُونَ أَقْرَبَ إِلَيْهِمْ فَلَعَلَّهُمْ يَسْتَجِيبُونَ، فَدَعَا عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَخَافُ قُرَيْشًا عَلَى نَفْسِي، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ ابْنِ كَعْبٍ أَحَدٌ يَمْنَعُنِي، وَقَدْ عَرَفَتْ قُرَيْشٌ

عَدَاوَتِي إِيَّاهَا، وَغِلْظَتِي عَلَيْهَا، وَلَكِنِّي أَدُلُّكَ عَلَى رَجُلٍ أَعَزَّ بِهَا مِنِّي، عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ. فَدَعَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، فَبَعَثَهُ إِلَى أَبِي سُفْيَانَ وَأَشْرَافِ قُرَيْشٍ، يُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِحَرْبٍ، وَإِنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ زَائِرًا لِهَذَا الْبَيْتِ، وَمُعَظِّمًا لِحُرْمَتِهِ.

وقد بعث النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عُثْمَانَ لِيُعْلِمَ قُرَيْشًا أَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ مُعْتَمِرًا لَا مُحَارِبًا، فَفِي غَيْبَةِ عُثْمَانَ شَاعَ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ تَعَرَّضُوا لِحَرْبِ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْتَعَدَّ الْمُسْلِمُونَ لِلْقِتَالِ، وَبَايَعَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم حِينَئِذٍ تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى أَنْ لَا يَفِرُّوا، وَذَلِكَ فِي غَيْبَةِ عُثْمَانَ. (فتح الباري ٧/ ٥٩).

عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ رضي الله عنه قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُنِي يَوْمَ الشَّجَرَةِ وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يُبَايِعُ النَّاسَ وَأَنَا رَافِعٌ غُصْنًا مِنْ أَغْصَانِهَا عَنْ رَأْسِهِ، وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِائَةً، قَالَ لَمْ نُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ، وَلَكِنْ بَايَعْنَاهُ عَلَى أَنْ لَا نَفِرَّ (صحيح مسلم ١٨٥٨). وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ أَلْفًا وَأَرْبَعَمِائَةٍ، فَبَايَعْنَاهُ وَعُمَرُ آخِذٌ بِيَدِهِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَهِيَ سَمُرَةٌ. وَقَالَ: بَايَعْنَاهُ عَلَى أَلَّا نَفِرَّ. وَلَمْ نُبَايِعْهُ عَلَى الْمَوْتِ. (صحيح مسلم ١٨٥٦).

وَعَنْ نَافِعٍ قَالَ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنه: رَجَعْنَا مِنَ الْعَامِ الْمُقْبِلِ فَمَا اجْتَمَعَ مِنَّا اثْنَانِ عَلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي بَايَعْنَا تَحْتَهَا، كَانَتْ رَحْمَةً مِنَ اللهِ. فَسَأَلْتُ نَافِعًا: عَلَى أَيِّ شَيْءٍ بَايَعَهُمْ، عَلَى الْمَوْتِ؟ قَالَ: لَا، بَايَعَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ. (صحيح البخاري ٢٩٥٨).

وَعَنْ سَلَمَةَ رضي الله عنه قَالَ: بَايَعْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ثُمَّ عَدَلْتُ إِلَى ظِلِّ الشَّجَرَةِ، فَلَمَّا خَفَّ النَّاسُ قَالَ: «يَا ابْنَ الْأَكْوَعِ، أَلَا تُبَايِعُ»!. قَالَ: قُلْتُ قَدْ بَايَعْتُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «وَأَيْضًا». فَبَايَعْتُهُ الثَّانِيَةَ. فَقُلْتُ لَهُ يَا أَبَا مُسْلِمٍ! عَلَى أَيِّ شَيْءٍ كُنْتُمْ تُبَايِعُونَ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ عَلَى الْمَوْتِ (صحيح البخاري ٢٩٦٠).

وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ، وَلِذَلِكَ تَرْجَمَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِ «الجهاد»: (بَابُ الْبَيْعَةِ فِي الْحَرْبِ عَلَى أَنْ لَا يَفِرُّوا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْمَوْتِ)

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «كَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَى أَنْ لَا تَنَافِيَ بَيْنَ الرِّوَايَتَيْنِ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي مَقَامَيْنِ، أَوْ أَحَدُهُمَا يَسْتَلْزِمُ الْآخَرَ، لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُبَايَعَةِ عَلَى الْمَوْتِ أَنْ لَا يَفِرُّوا وَلَوْ مَاتُوا، وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ يَقَعَ الْمَوْتُ وَلَا بُدَّ، وَهُوَ الَّذِي أَنْكَرَهُ نَافِعٌ وَعَدَلَ إِلَى قَوْلِهِ «بَلْ بَايَعَهُمْ عَلَى الصَّبْرِ»، أَيْ عَلَى الثَّبَاتِ وَعَدَمِ الْفِرَارِ، سَوَاءٌ أَفْضَى بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى الْمَوْتِ أَمْ لَا وَاللهُ أَعْلَمُ. (فتح الباري (٦/ ١١٧و١١٨)).

وَاللهُ تَعَالَى قَدْ أَمَرَ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ عِنْدَ اللِّقَاءِ فَقَالَ: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ» (الأنفال: ٤٥، ٤٦)، وَنَهَى عَنِ الْفِرَارِ فَقَالَ: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ» (الأنفال: ١٥-١٦).

وَقَدْ سُمِّيَتْ هَذِهِ الْبَيْعَةُ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ لِأَنَّهَا كَانَتْ سَبَبًا لِرِضَا اللهِ عَنْهُمْ، كَمَا سَيَجِيءُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا» (الفتح: ١٨).

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الْفَتْحِ

الحلقة الخامسة

قال تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا »

(الفتح: ١٠-١١)

د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ:

قَوْلُهُ تَعَالَى: «إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ »:

فَالْمُبَايَعُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ اللهُ عز وجل، وَالَّذِي كَانَ يَأْخُذُ الْبَيْعَةَ هُوَ الرَّسُولُ صلى الله عليه وسلم وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ تَعَالَى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »

(التوبة: ١١١)، وَإِنَّمَا كَانَتْ بَيْعَةُ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم بَيْعَةً للهِ لأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: «مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » (النساء: ٨٠).

وَقَدْ أَكَّدَ اللهُ تَعَالَى عَلَى أَنَّ الْبَيْعَةَ كَانَتْ لَهُ بِأَكْثَرَ مِنْ مُؤَكِّد، فَقَالَ: «إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ»، وَلَفْظَةُ «إِنَّمَا» مِنْ أَلْفَاظِ الْحَصْرِ وَالْقَصْرِ، فَلَمْ تَكُنِ الْبَيْعَةُ إِلَّا لَهُ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ زَادَ تَوْكِيدًا فَقَالَ: «يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ» أَيْ أَنَّ يَدَ اللهِ عِنْدَ الْبَيْعَةِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، كَأَنَّهُمْ يُبَايِعُونَ اللهَ بِبَيْعَتِهِمْ نَبِيَّهُ صلى اللهُ عليه وسلم. (محاسن التأويل ١٥/٦٩).

مَذْهَبُ السَّلَفِ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ:

وَمَذْهَبُ السَّلَفِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا السُّكُوتُ عَنِ التَّأْوِيلِ، وَإِمْرَارُ آيَاتِ اللهِ وَأَحَادِيثِ رَسُولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم الْمُتَعَلِّقَةِ بِالصِّفَاتِ كَمَا جَاءَتْ مَعَ الْإِيمَانِ بِهَا، مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ، وَلَا تَكْيِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ، وَلَا تَحْرِيفٍ، وَلَا صَرْفٍ عَنِ الظَّاهِرِ، وَلَا تَأْوِيلٍ، وَهُوَ الْحَقُّ. (فتح البيان في مقاصد

القرآن (٦/٣٤٧)).

وقَدْ تَرْجَمَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ في «كتاب التَّوْحِيد» مِنْ صَحِيحِه: (بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ):

قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ رَحِمَهُ اللهُ: في هَذِهِ الآيَةِ إِثْبَاتُ يَدَيْنِ للهِ، وَهُمَا صِفَتَانِ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ، وَلَيْسَتَا بِجَارِحَتَيْنِ خِلَافًا لِلْمُشَبِّهَةِ مِنَ المُثْبِتَةِ، وَلِلْجَهْمِيَّةِ مِنَ المُعَطِّلَةِ، وَيَكْفِي في الرَّدِّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهُمَا بِمَعْنَى القُدْرَةِ أَنَّهُمْ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ لَهُ قُدْرَةً وَاحِدَةً في قَوْلِ المُثْبِتَةِ، وَلا قُدْرَةَ لَهُ في قَوْلِ النُّفَاةِ، لأَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُ قَادِرٌ لِذَاتِهِ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ اليَدَيْنِ لَيْسَتَا بِمَعْنَى القُدْرَةِ أَنَّ في قَوْلِهِ تَعَالَى لإِبْلِيسَ: « قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ » (ص: ٧٥)، إِشَارَةً إِلَى المَعْنَى الَّذِي أَوْجَبَ السُّجُودَ، فَلَوْ كَانَتِ اليَدُ بِمَعْنَى القُدْرَةِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ آدَمَ وَإِبْلِيسَ فَرْقٌ، لِتَشَارُكِهُمَا فِيمَا خُلِقَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِهِ وَهِيَ قُدْرَتُهُ، وَلَقَالَ إِبْلِيسُ: وَأَيُّ فَضِيلَةٍ لَهُ عَلَيَّ وَأَنَا خَلَقْتَنِي بِقُدْرَتِكَ كَمَا خَلَقْتَهُ بِقُدْرَتِكَ، فَلَمَّا قَالَ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ دَلَّ عَلَى اخْتِصَاصِ آدَمَ بِأَنَّ اللهَ خَلَقَهُ بِيَدَيْهِ.

قَالَ: وَلا جَائِزٌ أَنْ يُرَادَ بِاليَدَيْنِ النِّعْمَتَانِ، لاسْتِحَالَةِ خَلْقِ المَخْلُوقِ بِمَخْلُوقٍ، لأَنَّ النِّعَمَ مَخْلُوقَةٌ، وَلا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِمَا صِفَتَيْ ذَاتٍ أَنْ يَكُونَا جَارِحَتَيْنِ. (فتح الباري ١٣/٣٩٢-٣٩٤).

الحثُّ على الوفاء بالعهد والنهي عن نقضه:

وقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ» أَيْ فَمَنْ نَقَضَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ فَقَدْ جَنَا عَلَى نَفْسِهِ، وَعَادَ وَبَالُ فِعْلِهِ عَلَيْهِ، وَلا يَضُرُّ اللهَ شَيْئًا.

وَقَدْ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالْوَفَاءِ وَنَهَى عَنْ نَقْضِ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، فَقَالَ: « وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢ بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ » (النحل: ٩١- ٩٢).

فَمَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، «وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا» وَهُوَ الْجَنَّةُ، وَالرِّضْوَانُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ» (التوبة: ١١١)، وَقَالَ تَعَالَى: «لَقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحًا قَرِيبًا». وَسَنَذْكُرُ الأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ في فَضْلِ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ عِنْدَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ إِنْ شَاءَ اللهُ.

من معجزات القرآن الكريم:

دَائِمًا نَقُولُ: إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، عَلِمَ مَا كَانَ، وَمَا يَكُونُ، وَمَا سَيَكُونُ، وَعَلِمَ مَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ كَانَ يَكُونُ.

قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم إِلَى المَدِينَةِ وَيُقَابِلَ الأَعْرَابَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْهُ يُخْبِرُهُ رَبُّهُ سُبْحَانَهُ بِمَا سَيَقُولُ لَهُ هَؤُلاءِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَبِمَا سَيَعْتَذِرُونَ بِهِ، وَهَذَا مِنْ مُعْجِزَاتِ القُرْآنِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ « تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ » (فصلت: ٢)، كما قَالَ تَعَالَى بَعْدَ مَا حَكَى قَوْلَ الْكَافِرِينَ: « وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ

هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا » (الفرقان: ٤- ٥)، قال تعالى: « قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا » (الفرقان: ٦).

«سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ» الَّذِينَ كَانُوا نَازِلِينَ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَهُمْ ستُّ قَبَائِلَ: غِفَارُ وَمُزَيْنَةُ، وَجُهَيْنَةُ وَأَشْجَعُ، وَأَسْلَمُ وَالدِّيلُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَمَّا أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى الْعُمْرَةِ اسْتَنْفَرَ مِنْ حَوْلِ الْمَدِينَةِ مِنْهُمْ لِيَخْرُجُوا مَعَهُ فَيَرْهَبَهُ أَهْلُ مَكَّةَ فَلَا يَصُدُّوهُ عَنْ عُمْرَتِهِ، فَتَثَاقَلَ أَكْثَرُهُمْ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَهُ. فَأَخْبَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ صلى الله عليه وسلم بِمَا بَيَّتُوهُ فِي قُلُوبِهِمْ وَفَضَحَ أَمْرَهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَعْتَذِرُوا، وَهَذِهِ مِنْ مُعْجِزَاتِ الْقُرْآنِ الْإِعْلَامُ بِالْأَشْيَاءِ قَبْلَ وُقُوعِهَا. (التحرير والتنوير ٢٦/ ١٦٠و١٦١).

وَإِنَّمَا قَالَ: «الْمُخَلَّفُونَ» لِأَنَّ اللَّهَ خَلَّفَهُمْ عَنْ صُحْبَةِ نَبِيِّهِ. وَالْمُخَلَّفُ الْمَتْرُوكُ. (الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٦٨).

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم: سَيَقُولُ لَكَ الَّذِينَ خَلَّفَهُمُ اللَّهُ فِي أَهْلِيهِمْ عَنْ صُحْبَتِكَ وَالْخُرُوجِ مَعَكَ فِي سَفَرِكَ الَّذِي سَافَرْتَ، وَمَسِيرِكَ الَّذِي سِرْتَ إِلَى مَكَّةَ، مُعْتَمِرًا زَائِرًا بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامَ، إِذَا انْصَرَفْتَ إِلَيْهِمْ، فَعَاتَبْتَهُمْ عَلَى التَّخَلُّفِ عَنْكَ، شَغَلَتْنَا عَنِ الْخُرُوجِ مَعَكَ مُعَالَجَةُ أَمْوَالِنَا، وَإِصْلَاحُ مَعَايِشِنَا وَأَهْلُونَا، «فَاسْتَغْفِرْ لَنَا» رَبَّنَا لِتَخَلُّفِنَا عَنْكَ. وَلَوْ كَانُوا صَادِقِينَ فَاسْتَغْفَرُوا رَبَّهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَنَفَعَهُمُ الِاسْتِغْفَارُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا » (النساء: ٦٤)، لَكِنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ قَالَ مُكَذِّبُهُمْ فِي قِيلِهِمْ ذَلِكَ: «يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ»، أَيْ: يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ الْمُخَلَّفُونَ عَنْكَ «بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ»، وَذَلِكَ مَسْأَلَتُهُمْ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الِاسْتِغْفَارَ لَهُمْ، يَقُولُ: يَسْأَلُونَهُ بِغَيْرِ تَوْبَةٍ مِنْهُمْ، وَلَا نَدَمٍ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُمْ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فِي تَخَلُّفِهِمْ عَنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَالْمَسِيرِ مَعَهُ. (جامع البيان ٢٦/ ٧٧) بتصرف).

لَا يَجْلِبُ النَّفْعَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَكْشِفُ الضُّرَّ إِلَّا هُوَ:

«قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا» أَيْ فَمَنْ يَقْدِرُ لِأَجْلِكُمْ مِنْ مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَضَائِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنَ النَّفْعِ «إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا» أَيْ مَا يَضُرُّكُمْ مِنْ هَلَاكِ الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَضَيَاعِهِمَا حَتَّى تَتَخَلَّفُوا عَنِ الْخُرُوجِ لِحِفْظِهِمَا وَدَفْعِ الضَّرَرِ عَنْهُمَا «أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا» أَيْ وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الضَّرَرِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ مَا يَنْفَعُكُمْ مِنْ حِفْظِ أَمْوَالِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ، فَأَيُّ حَاجَةٍ إِلَى التَّخَلُّفِ لِأَجْلِ الْقِيَامِ بِحِفْظِهِمَا؟! وَهَذَا تَحْقِيقٌ لِلْحَقِّ وَرَدٌّ لَهُمْ بِمُوجِبِ ظَاهِرِ مَقَالَتِهِمُ الْكَاذِبَةِ، وَتَعْمِيمُ الضُّرِّ وَالنَّفْعِ لِمَا يُتَوَقَّعُ عَلَى تَقْدِيرِ الْخُرُوجِ مِنَ الْقَتْلِ وَالْهَزِيمَةِ، وَالظَّفَرِ وَالْغَنِيمَةِ، يَرُدُّهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: «بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا»، فَإِنَّهُ إِضْرَابٌ عَمَّا قَالُوا، وَبَيَانٌ لِكَذِبِهِ بَعْدَ بَيَانِ فَسَادِهِ عَلَى تَقْدِيرِ صِدْقِهِ، أَيْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُونَ، بَلْ كَانَ اللَّهُ خَبِيرًا بِجَمِيعِ مَا تَعْمَلُونَ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي مِنْ جُمْلَتِهَا تَخَلُّفُكُمْ وَمَا هُوَ مِنْ مَبَادِيهِ.

وَلِلْحَدِيثِ بَقِيَّةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.